(* وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَلَاتُجَادِلُوا) : الجدال ؛ التجاوز فى الخصومة .

(أَهْلَ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

التفسـير

٤٦ - (وَلَاتُجَادِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . . .) الآية .

هذه الآية انتقال إلى مقصد جديد من المقاصد التى تضمنتها سورة العنكبوت : وهو أسلوب مجادلة أهل الكتاب .

والمعنى : لاتجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولاتناقشوهم فى شأنٍ من شئون الدين ، والدعوة إلى الإيمان إلا بالخصلة التى هى أحسن ، كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والشغب بالنصح ، والسَّوْرة - أى : الحِدَّة - بالأناة ، على وجه لايدلُّ على الضعف ، ولايؤدى إلى إعطاء الدَّنيّة ، قال - تعالى - فى سورة النحل : «ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[١] .

وقال - تعالى - فى سورة طه لموسى وهارون - عليهما السلام - حين أمرهما بالتوجه إلى فرعون : «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[٢] .

---

(١) من الآية : ١٢٥

(٢) الآية : ٤٤

وقوله – تعالى – : (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) : معناه ؛ إلا الذين أفرطوا فى ظلمكم ، وجاوزوا الحدود فى عنادكم ، والاعتداء عليكم ، ولم ينفع معهم الرفق ، فليس عليكم حرج فى استعمال الغلظة معهم ، بحيث لاتصل إلى القتال ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الإذن بقتال المشركين .

وقيل : إن معنى الآية : ولا تجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية إلا بالتى هى أحسن إلّا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ، ومنعوا الجزية ، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف ، وهذا الرأى قائم على أن الآية مدنية ، فإن الحرب والجزية مما شرع بالمدينة ، وكونها مدنية مخالف لما وقع عليه الإجماع من أن السورة مكية ، إلا أن يقال : إنها مكية باعتبار معظمها .

وقوله – تعالى –: (وَقُولُوٓا آمَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ) : توجيه إلى أسلوب من أساليب المجادلة بالحسنى ، والمعنى : جادلوهم بالتى هى أحسن وقولوا لهم : آمنا بالذى أنزل علينا من القرآن ، وبالذى أنزل عليكم من التوراة والإنجيل ، ولاتصدقوهم فيما يروونه من دينهم فقد يكونون كاذبين ، ولا تكذبوهم فقد يكونون صادقين .

أخرج البخارى والنسائى وغيرهما عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون الكتاب بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال ﷺ : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » .

وقوله – تعالى – : (وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) : تتميم لقوله – تعالى – : « آمَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ » ومعناه : إلٰهنا وإلٰهكم واحد لاشريك له فى ألوهيته ، ونحن له وحده خاصة مطيعون ، لانطيع غيره ، ولاندين لسواه .

وفى هذا تعريض بهم لاتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله .

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : القرآن الكريم .

(فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) : أى اليهود والنصارى الذين آتاهم الله التوراة والإنجيل.

(يُؤْمِنُونَ بِهِ) : يؤمنون بالقرآن .

(وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ) : أى من العرب ، أو من أهل مكة ، أو ممن فى عهد الرسول من أهل الكتاب .

(مَن يُؤْمِنُ بِهِ) : بالقرآن .

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) : وما ينكرها عن علم ، والجحود : نفى مافى القلب إثباته ، أو إثبات مافى القلب نفيه .

(الْكَافِرُونَ) : المتوغلون فى الكفر المصممون عليه .

التفسير

٤٧ – (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ . . .) الآية .

عرضت الآية السابقة لما أنزله الله من الكتب فى قوله – تعالى – : «وَقُولُوٓا ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ» فكانت بمثابة الترشيح للحديث عن إنزال القرآن

وموقف المعاصرين من العرب وأهل الكتاب منه فى هذه الآية التى تجرد فيها الخطاب لرسول الله ﷺ .

والمعنى : مثل إنزالنا الكتب السابقة على من سبقك من الأنبياء أنزلنا إليك القرآن الكريم صادقا مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية مقررا لرسالات أنبيائها الذين أمرنا بالإيمان بما أنزل إليهم فى قوله – تعالى – : «وَقُولُوٓا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ) من الآية السابقة .

وقوله – تعالى – : (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) : معناه ، فالذين آتيناهم الكتاب من الطائفتيْن : اليهود والنصارى الذين تقدموا عهد الرسول حيث كانوا مصدقين بنزول القرآن حسبما علموا مما عندهم من الكتاب ، أو هم : عبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود المعاصرين للنبى ﷺ حيث صدقوا بنزوله بعد أن سمعوه وعرفوا خبره من كتبهم ، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب ؛ لأنهم هم المنتفعون به ، فكأن من عداهم لم يؤتوه .

(وَمِنْ هَٰٓؤُلَاءِ) : أى : من العرب ، أو من أهل مكة من يؤمن بالقرآن العظيم . (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الْكَافِرُونَ) : أى ؛ وما ينكر آياتنا عن علم مع ظهورها وقيام الحجة لها ، وزوال الشبهة عنها «إِلَّا الْكَافِرُونَ» المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ، فإن ذلك يصدهم عن معرفة حقيقتها ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف وأصحابه .

(وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(تَتْلُوا) : تقرأ . (تَخُطُّهُ) : تكتبه .

(إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) : إذاً لتشكك المعاندون الكافرون الذين مردوا على إنكار كل حق .

التفسير

٤٨ - (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) :

الحديث متصل عن القرآن الكريم ، وإثبات إعجازه بعد الإخبار بنزوله .

والمعنى : وما كنت يا أيها النبي الأمى قبل إنزال القرآن إليك تقدر أن تقرأ شيئا من كتاب ، أىَّ كتاب ، ولا تقدر أن تكتبه ، أو تكتب شيئاً منه ، ولو كنت ممن يقدر على شىء من ذلك أو يتعاطاه إذا لكان لهؤلاء المبطلين المنكرين وجه فى الارتياب والشك فى أنه مِن عندك مع معرفتهم مدى صِدْقك ونزاهتك عن الكذب ، وإن ظهور هذا الكتاب الجامع لجميع العلوم الشريفة على أمىٍّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة أمر خارق لا يدع مجالا لشك ولا موقعا لريبة لو كانوا منصفين .

وذِكْرُ اليمين فى قوله - تعالى - : (وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) زيادة تصوير لما نفى عنه ﷺ من القراءة والكتابة ، وتأكيد لهذه الحقيقة حتى لا يبقى مدخل لمجاز ، فهو مثل قوله - تعالى - : «وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ[1] » مع ما هو معروفٌ من أنه لا طير إلا بجناحين .

٤٩ - (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . . . .) الآية .

هذه الآية إضراب عن ارتياب المبطلين لكفرهم ، والمعنى : ليس القرآن الكريم مما يُرْتَابُ فيه لوضوح أمره ، وثبوت إعجازه ، وعجزكم عن الإتيان بمثله أو بشىء

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة الأنعام .

منه ، بل هو آيات ثابتة راسخة فى صدور العلماء الذين يحفظونه من الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يلتقطوه من كتب يعرفونها ، أو يروره عن أحد غيرهم ، بل حفظوه وعرفوه بحيث لايقدر أحد على تحريفه ، بخلاف كتب أهل الكتاب فإنها لم تكن ذات سند متصل إلى أنبيائها ، وقد جاء فى وصف أهل القرآن : «صدورهم أناجيلهم» .

«وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلَّا الظَّالِمُونَ» أى : وما يكفر بآياتنا وينكرها مع ظهورها إلّا المتوغلون فى الظلم والمكابرة المجاوزون للحدود فى الشر والفساد ، والظالمون فى هذه الآية : هم الكافرون فى الآية السابقة ، واختلاف التعبير لاستيعاب صفاتهم التى تقتضى تسفيه آرائهم ، وتؤكد حمقهم وعنادهم .

(وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : القرآن . (ذِكْرَىٰ) : عظة وتذكرة .

التفسير

٥٠ - (وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

هذه الآية شروع فى عرض لون من ألوان عنادهم وعنتهم .

والمعنى : وقال مشركو قريش – بتوجيه من أهل الكتاب – : هلا أنزل على محمد آيات مادية من ربه مثل : ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، نراها ونحسها ، قل لهم يارسول الله رَدًّا لمقالهم : إنما الآيات عند الله وحده ، هو الذى يملك إنزالها . ويختار ماشاء منها ينزلها حسبما يشاءُ على من يشاء من غير دخل لأحد ، أو اقتراح من أحد ، ولا أملك أن أتخير على الله ، وإنما أنا نذير مبين أى : ليس من شأنى إلا الإنذار والتخويف بما ينتهى إلىَّ إنزاله من الآيات .

٥١ – (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآية كلام وارد للرد على المشركين ، وإبطال اقتراحهم ، وتسفيه رأيهم ، روى عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ماسمعوه من اليهود ، فقال رسول الله ﷺ : (كفى بقوم حمقا وضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم) فنزلت .

والمعنى : أقصَّر هذا الكتاب ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك القرآن تستمر على تلاوته بينهم ، وقراءته فيهم فى كل زمان ومكان ، فلايزال معهم آية ثابتة خالدة لاتزول كما تزول كل الآيات غيره بعد زمانها ، كما أنها تكون فى مكان دون مكان ؟ . (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن فى ذلك القرآن الكريم الذى تعم آيته الزمان والمكان إلى آخر الدهر لنعمة عظيمة لايقدر قدرها ، وتذكرة بالغة لقوم يطلبون الإيمان ، ويحرصون على تحصيله .

وقيل : أو لم يكف اليهود حجة عليهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق مافى أيديهم من نعتك ونعت دينك ؟

(قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(شَهِيدًا) : حاضرًا بعلمه .

(آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) : آمنوا بـألوهية غير الله - عز وجل - وهو شامل لنحو عيسى والملائكة .

(الْخَاسِرُونَ) ، المغبونون فى صفقتهم .

التفسير

٥٢ - (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

المعنى : قل - يَارسول الله - للمكذبين لك ، المنكرين عليك : كفى بالله شهيدا وعالماً بما صدر منى من التبليغ والإنذار ، وبما صدر منكم من مقابلتى بالتكذيب والإنكار ، فيجازى - سبحانه - كلا بما يليق به ، والله يعلم مافى السمٰوات والأرض من جميع الأمور التى من جملتها شأنى وشأنكم ، لا يخفى عليه من ذلك شىءٌ .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ) : أى ؛ صدقوا بـألوهية ما يعبدونه من دون الله ، سواء فى ذلك الأصنام وعيسى والملائكة (وَكَفَرُوا بِاللَّهِ) مع تعاضد موجبات الإيمان به .

(أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) : المغبونون فى صفقتهم ؛ لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان ، فاستوجبوا العقاب يوم الحساب .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ) : يطلبون تعجيل العذاب الذى توعدتهم به .

(أَجَلٌ مُّسَمًّى) : هو الأجل الذى ضربه الله لوقوع العذاب .

(بَغْتَةً) : فجأة بدون توقع ولا انتظار .

(لَا يَشْعُرُونَ) : لا يتوقعون نزوله بهم .

(يَغْشَاهُمُ) : يحيط بهم ويعمهم .

التفسير

٥٣ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى .....) الآية .

أى : ويستعجلك كفار قريش بوقوع العذاب الذى توعدتهم بوقوعه عليهم ، ويستعجلونك استهزاءً وسخرية ، واستبعادًا لوقوعه بمثل قولهم : « فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ »[١] .

(وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى) : ضربه الله لوقوعه ، وحدده وأثبته فى اللوح المحفوظ ، وهو وقعة بدر الكبرى ، أو الموت . (لَجَآءَهُمُ الْعَذَابُ) : لأنهم به جديرون ، فالله لا يعجل بالعذاب باستعجالهم وإنما يؤخره لحكمة تقتضيه ، وهى إتاحة الفرصة للتائبين منهم .

(١) من الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

(وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) : ، اختلف المفسرون فى مرجع الضمير فى قوله : (وَلَيَأْتِيَنَّهُم) فقيل ، إنه راجع إلى العذاب الذى استعجلوه ، وقيل : راجع إلى أجل العذاب والأول أظهر ؛ لأن العذاب هو موضع استعجالهم ، وإذا كان المراد به عذاب بدر فالمراد من إتيانه بغتة وهم لايشعرون : أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم ، بل يأتيهم وهم قارون آمنون لا يخطرونه بالبال ، كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون ، أوضحى وهم يلعبون .

وقال آخرون : إتيانه بغتة وهم لا يشعرون من حيث إنه غير متوقع لهم أن يغلبوا يوم بدر ؛ لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقعون غلبة المسلمين ولا تخطر لهم ببال .

٥٤ – (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ...) الآية .

تكرار استعجالهم العذاب لبيان غاية تجهيلهم وسفه عقولهم .

والمعنى : ويستعجلونك بالعذاب إمعاناً فى الجهل ، وإغراقاً فى العناد وركاكة فى التفكير (وإن جهنم) التى هى مكان العذاب الذى لاعذاب فوقه (لمحيطة) بهم لكفرهم ومعاصيهم المحيطة بهم .

والتعبير بالجملة الاسمية فى قوله – تعالى – :(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) للدلالة على تحقيق الإحاطة .

والمراد بالكافرين : إما المستعجلون للعذاب . ووضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بعلّة الحكم ، وإما جنس الكافرين ، والمستعجلون داخلون فيهم دخولا أوّليًّا .

٥٥ – (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ...) الآية .

يحتمل أن (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ) ظرف لمحيطة ، أى : محيطة بالكافرين فى هذا اليوم . ويحتمل أن يكون الظرف معمولا لمحذوف طوى ذكره للإيذان بغاية كثرته ، وفظاعته .

والمعنى : يوم يعمهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ومن جميع جهاتهم بحيث يجدون من الهوان والأهوال مالا يفى به مقال .

(وَيَقُولُ ذُوقُوا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) . أي : ويقول الله – عز وجل – أو يقول بعض ملائكته بأمره – سبحانه – : اشربوا وتجرعوا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا من السيئات فى يوم الحساب ، وما كنتم تتعجلونه وتنكرونه من أهوال العذاب .

(يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ) : فلا تعبدوا سواى .

(ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ) : مُحِسَّةٌ بنزوله .

التفسـير

٥٦ – (يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ....) الآية .

روى عن مقاتل والكلبي أن الآية نزلت فى المستضعفين من المؤمنين بمكة ،أمروا بالهجرة عنها ، وعلى هذا أكثر المفسرين .

وعمم بعضهم الحكم فى كل من لم يتمكن من إقامة أمور الدين فى أرضه كما ينبغى لمانعة من جهة الكفرة أو غيرهم ، فقالوا : تلزمهم الهجرة إلى أرض يتمكنون فيها من ذلك . وقال مطرف بن الشخير : إن الآية عِدَة منه – تعالى – بسعة الرزق فى جميع الأرض. والنداءُ فى قوله – تعالى – : (يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا) : خطاب تشريف لبعض المؤمنين وتكريم للمستضعفين .

والمعنى : يا عبادى الذين أخلصوا الإيمان بى إذا لم تتيسر لكم العبادة كما ينبغى فى بلد أنتم فيه فهاجروا إلى بلد تتوقعون أنكم فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وأكثر عبادة

وأحسن خشوعاً ، والبقاع تتفاوت تفاوتاً كثيراً ، ويتفاوت أهلها خشونة وليناً وانحرافاً وديناً ، فلا تتشبثوا بأرض لاتجدون فيها أمنكم ، ولا وفرة دينكم .

ومعنى : (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) : فإن لم تخلصوا عبادتى فى أرض فإياى فاعبدونى فى أرض غيرها ؛ فإن السعادة ليست فى المكان ، وإنما السعادة كل السعادة فى إخلاص الإيمان .

٥٧ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استئناف لتسهيل أمر الهجرة على المستضعفين ، وحثهم على إخلاص العبادة .

والمعنى : كل نفسٍ من النفوس مفارقة لامحالة ، ذائقة مرارة الموت البتَّةَ ، راجعة إلى ربها ، ملاقية جزاء أعمالها ، ومن كانت هذه عاقبتهُ فليجعل كل همه فى الاستعداد لنهايته ، والتزود لآخرته ، عسى أن يكون من الناجين فى دار النعيم .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(لَنُبَوِّئَنَّهُم) : لنسكننهم وننزلنهم على وجه الإقامة .

(غُرَفاً) : جمع غرفة والمراد بها : علالى وقصور جميلة .

التفسير

٥٨ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ...) الآية .

ذكرت الآية السابقة أن الموت سيجرى على كل نفس فى الدنيا ، ثم جاءت هذه الآية بعدها تنبه إلى تحقيق الإيمان لإخلاص العبادة ، وتحث على الاستزادة والإكثار من عمل الصالحات .

والمعنى : والذين صدقوا بالله وأخلصوا فى عبادته ، وصدقوا برسوله ، وأكثروا من عمل الصالحات ، وتحصيل الطاعات ، لنسكننهم وننزلنهم من الجنة على وجه الإقامة والخلود منازل عالية ، وقصورًا شامخة ، تجرى من تحت أشجارها الأنهار لتزيد فى بهجتها وجمالها ، فيجتمع لهم طيب المنزل ، وجمال المنظر ، ودوام النَّعيم .

(نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) : أى ، نعم أجر العاملين غرفُ الجنة منزلا ودارًا ، أو : نعم أجر العاملين أجرهم .

٥٩ ـ (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : صفة للعاملين ، أى : فنعم أجر العاملين الذين صبروا على مفارقة الأوطان ، والهجرة لأجل الدين ، وعلى إيذاء المشركين ، وعلى جميع مافتنوا به من الشدائد ، كما صبروا على فعل الطاعات ومجافاة المعاصى . ولم يتوكلوا فى جميع ما يفعلون ويذرون إلاَّ على الله وحده ابتغاء مرضاته ، وطمعاً فى حسن جزائه .

(وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ) : أى ؛ وكثير من الدواب ، والدابة : كل نفس تدب على وجه الأرض ، عقلت أو لم تعقل . (لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا) : أى ، لا تطيق حمل رزقها لضعفها ، أو : لاتخزن رزقها ، وليس من شأنها أن تخزنه .

التفسير

٦٠ ـ (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

روى أن النبى ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة ؟ فنزلت .

والمعنى : وكم من دابة من الدواب التى تمشى على الأرض لا تطيق حمل رزقها ، أو لاتدخره ، الله وحده يرزقها ويرزقكم ، وإنها مع ضعفها وتوكلها ، وأنتم مع قوتكم واجتهادكم سواءٌ فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله ؛ لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده ، فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة ، والله هو العظيم السمع فيسمع قولكم ، والمحيط العلم فيعلم نياتكم وضمائركم .

وعن ابن عيينة : ليس شيء يَخْبَأُ إلَّا الإنسان والنملة والفأرة . « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ذلَّلهُمَا وسيرهما فى مساراتهما .

(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) : فكيف يصرفون عن توحيد الله .

التفسير

٦١ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) :

عيَّرَ المشركون المسلمين بالفقر ، وقالوا : لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء ، وكان هذا منهم مغالطة وتمويهاً ؛ إذ كان فى المشركين فقراءُ أيضاً ، فجاءت هذه الآية تزيل هذه الشبهة ، وتسجل عليهم الاعتراف بقدرة الله على كل شيء ،ومن جملة ذلك الغنى والفقر .

والمعنى : وبالله لئن سألت - يا محمد - هؤلاءِ المشركين الجاحدين أنعمى : مَن خلق السموات والأرض ، وأخرجهما من العدم إلى الوجود على أدق نظام وأبدع إحكام ،وذلَّلَ الشمس والقمر وسيرهما فى دورانهما على طريقة واحدة لا يختلف تعاقبهما ،فيجد الناس

فى ذلك فرصة السعى على معاشهم وأرزاقهم ، ومنحة راحتهم وطمأنينة سكونهم ، لئن سألتهم من فعل ذلك ؟ ليقولن فى جواب سؤالك لهم : الله وحده هو الذى فعل ذلك ، ولا يجدون سبيلا إلى إنكاره أو التردد فيه ، فكيف يصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادته له ، وينقلبون إلى عبادة الأوثان ؟

والاستفهام هنا إنكار واستبعاد من جهته - تعالى - لتركهم العمل بموجب جوابهم عن الله - تعالى - .

(ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه ويزيده . (وَيَقْدِرُ) : يضيقه ويقلله .

التفسـير

٦٢ - (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

هذه الآية تبين أثرًا من آثار قدرته الباهرة التى تجلت فى الآية السابقة فى خلق السموات والأرض ، فإن القادر على خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر لا يعجزه إجراءُ الرزق على مخلوقاته .

والمعنى : الله القادر على ما ذكر هو الذى يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء من عباده الذين يعلم من شأنهم أن البسط يصلحهم ، وهو الذى يقدر الرزق ويضيقه على من يشاء من عباده الذين يعلم أن البسط يبطرهم ، ويفسد أحوالهم ، وحول هذا المعنى قال ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من

لا يصلح إيمانه إلّا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك » ويجوز أن يكون البسط والتقدير لواحد على معنى : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره له على التعاقب .

(إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) : فيعلم أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة ، فيفعل كلا منهما فى وقته .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) : أخصبها وجعلها ذات زرع .

(مَوْتِهَا) : جدبها .

التفسير

٦٣ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) :

تكرار السؤال لهم ؛ لاستخلاص مزيد من اعترافهم بقدرته - تعالى - تسجيلا عليهم ، وإلزاما لهم لإبراز سفههم ، وإشهار عنادهم فى كفرهم.

والمعنى ، وبالله لئن سألت هؤلاء المشركين من نزل من السماء مطرًا فأنبت به الأرض وأحياها بذلك بعد موتها وجدبها ، وقحط أهلها - لئن سألتهم - ليقولُنَّ جواباً على ذلك : الله وحده هو الذى فعل ذلك وقدَّره وأنعم به مصلحة لعباده ، قل : الحمد لله على إظهار

البرهان واعترافهم بما يُلْزمهم الحجة ، أو قل : الحمد لله على العصمة مما هم عليه من الضلال فيكون كالحمد عند رؤية المبتلى . ويجوز أن يكون حمدًا على هذا وذاك (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أى : بل أكثرهم لا يتدبرون بما فيهم من عقول فيما نريهم من الآيات ونقيم لهم من الدلالات ، أو : بل أكثرهم ليسوا من أهل التعقل والتدبر .

(وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(لَهِيَ الْحَيَوَانُ) : لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها ، والحيوان : مصدر حَيِىَ ، كالحياة ، وأصله : الحَيَيَانُ ، قلبت الياءُ الثانية واوًا ، وفى بناء المصدر على فَعَلَان زيادة معنى لما يفيده من الحركة والاضطراب ؛ لأن الحياة حركة ، والموت سكون .

التفسـير

٦٤ ـ (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) للتحقير .

والمعنى : وما هذه الحياة الدنيا الفانية التى يتشبث بها المشركون إلَّا لهو يلهو به الكبارُ فى غفلة وعَمَهٍ ، ولعب يلعب به الصغار فى عبث وبهجة ، ثم لا تلبث أن تزول :

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) : لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا فناء لها ولا موت فيها ، ولا يكدر صفوها ولا ينقطع نعيمها (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) : أى لو كانوا أهلًا للعلم والمعرفة ، أو : لو كانوا يعلمون ذلك ويفقهونه لما آثروا عليها الدنيا الفانية .

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(رَكِبُوا) : الركوب ، الاستعلاء على الشيء .

(الْفُلْكِ) : السفينة ، يطلق على المفرد والجمع .

التفسير

٦٥ -(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) :

تتصل هذه الآية بما قبلها من حيث إنها إقرار من المشركين بألوهية الله - عز وجل - واعتراف منهم بأنه - سبحانه - هو وحده القادر على رفع الضر ، ودفع البلاء .

والمعنى : فإذا ركب هؤلاء المشركون السفينة ، ومخرت بهم فى عرض البحر ، ثم تعرضوا لخطر الغرق ، وأيقنوا بالهلاك دعوا الله مخلصين له الدين مقرين بوحدانيته ، معترفين بقدرته ، فلما تجلى الله عليهم فنجاهم من الغرق إلى البر ، وأنقذهم من الهلاك فاجئوا بالعودة إلى الشرك وعبادة الأصنام مجافين بذلك أوفى قواعد الإنصاف ، فإن النفوس البشرية مفطورة على شكر من أجرى عليها رزقًا ، أو استنقذها من مكروه ، ولعمرى إن الإيمان بالله أول مُوجِبَات الشكر ، وأول مقتَضيَات الاعتراف بالفضل .

٦٦ -(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

تعليل لرجوعهم إلى الشرك ، أى : إذا هم يشركون ليكونوا كافرين بما أجرينا عليهم من نعمة ، وحققنا لهم من نجاة ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام ، وتوادهم عليها .

وذهب بعض المفسرين إلى أن اللام فى قوله - تعالى -: (لِيَكْفُرُوا)، (وَلِيَتَمَتَّعُوا) هى لام الأمر، وأن الأسلوب مَسُوقٌ مساق تهديدهم ووعيدهم، فهو على حد قوله - تعالى -: « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ »[1]، ومعنى قوله - تعالى -: (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتمتعهم حين يرون العذاب يوم القيامة، يوم لا يغنى عنهم شركهم من الله شيئًا ولا هم ينصرون.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات:

(حَرَمًا آمِنًا): مكانًا مقدسًا يأمنون فيه، وهو مكة.

(وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ): الخطف والتخطف: الأخذ بسرعة، والمراد به: القتل والسلب.

(أَفَبِالْبَاطِلِ): الأصنام أو الشيطان.

التفسير

٦٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ):

تذكر هذه الآية أهل مكة بفضل الله عليهم فى جعل بلدهم مكة حرمًا آمنًا، وتنعى عليهم إيمانهم بالأصنام، وكفرهم بنعمة الله.

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة فصلت.

والمعنى : أجَهِلَ أهل مكة وغفلوا ولم يعلموا بالمشاهدة أنَّا جعلنا مكة بلدهم حرمًا ممنوعًا مصونًا يقرون فيه ، ويأمنون على أنفسهم من القتل ، وعلى أموالهم من النهب ، والناس حولهم من العرب يُتَخَطَّفُونَ قتلًا وسبيًا ، ويُخْتَلَسون سلبًا ونهبًا ، إذ كان العرب من كل مكان ، وفى كل موقع – غير مكة – فى تقاتل وتغالب ، وتغاور وتناهب ، أفيتفق منهم مع هذه النعم التى يعيشون فيها أن يؤمنوا بالأصنام فيعبدوها من دون الله ، أو بالشيطان فيستجيبوا لوسوسته وإغرائه ، وبنعمة الله التى يعيشون فيها وينعمون بها ، المتمثلة فى تسخير الأكوان ، وإجراء الأرزاق ، ودفع المكاره والأخطار – أفبهذا كله – هم يكفرون ويجحدون ، وهى المستوجبة للشكر وصدق الإيمان .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) : اختلق على الله كذبًا حيث ادعى له شريكًا .

(أوكَذَّبَ بِالْحَقِّ) أوكذب بالرسول ﷺ وبما جاء به .

(مَثْوًى) : دار إقامة دائمة ومستقر .

التفسير

٦٨ –(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًىٰ لِّلْكَافِرِينَ) :

ينتهى بهذه الآية الحديث عن المشركين فى هذه السورة ، وهى تسجل عليهم مجاوزتهم الحد فى ادعائهم الشريك لله ، وتنعى عليهم تكذيبهم الرسول ، كما تتوعدهم سوء العاقبة بالخلود فى جهنم .

والمعنى : وأى إنسان أشد ظلمًا لنفسه ممن اختلق على الله كذبًا ، فادعى له شريكًا مع وضوح الدلالة على وحدانيته – وتوافر الشواهد على ألوهيته ، وجاوز الحدود فى الظلم بتكذيب

الرسول وإنكار ما جاء به بعد عجزهم عن محاكاته أو معارضته ، وقوله - تعالى - :

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) . تأكيد لاستحقاقهم الإقامة فى جهنم ، والخلود فى عذابها ، أى : لقد استوجبوا الثَّوَاء فى جهنم خالدين فى عذابها بمجاوزتهم الحد فى الكذب على الله ، وتكذيب رسول الحق والصدق ، فهى فسيحة الأرجاء ، ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين ، حتى اجترأوا هذه الجرأة ؟ وقد نزلوا منزلة العالمين بذلك لغاية وضوحه .

(وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا) : غالبوا أنفسهم وشيطانهم وأعداءهم لأجلنا .

(لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) : لَنُيَسِّرَنَّ لهم طرق الوصول إلينا .

التفسير

٦٩ - (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآية تختم سورة العنكبوت فتربط آخرها بأولها ، فقد ذكرت الآيات فى أولها أن المؤمنين لا يستحقون جميل الجزاء لمجرد قولهم : آمنا ، دون أن يتعرضوا للفتن ، ويمتحنوا بالشدائد والمِحَن ، فيجاهدوا فى الله أنفسَهم ، ويبذلوا منها ومن أموالهم وأهليهم ، ثم تجىء هذه الآية فى ختامها تطمئن المؤمنين على فضل جهادهم ، وثواب بلائهم فى نصرة دين الله ، وإعلاء كلمته ، ليتجلى فى كتاب الله العزيز الإعجازُ المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والمعنى : والذين غالبوا وجالدوا من أجلنا ، وفى سبيل نشر ديننا ، وتصديق رسولنا محسنين فى كل مايفعلون ويتركون ، لنهدينهم السبل الموصلة إلى مرضاتنا ، ولنسهلن لهم طرق الوصول إلى جنتنا ،وإن الله لمع المحسنين بالنصر والعزة فى الدنيا ، وبالنعيم المقيم فى الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم

مكية وآياتها ستون

مقاصد السورة :

اشتملت سورة الروم على الوعد بانتصار الروم على الفرس خلال بضع سنين من هزيمة الفرس إياهم – وقد تحقق وعد الله فإنه لا يخلف الميعاد– وبينت أن عاقبة المسيئين الهلاك والدمار، وأن الآخرة آتية لا شك فيها ، وأن المؤمنين سوف يكونون فيها فى روضة يُحْبَرُون وأن المشركين لا يحميهم شركاؤهم من عذابها الأليم .

وتحدثت عن بعض آياته – تعالى – كخلق الناس من تراب ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليسكنوا إليها ، وخلق السموات والأرض، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، مع أنهم ينتمون إلى أصل واحد، ومنامهم بالليل والنهار وابتغائهم من فضله ، ثم دعت الناس إلى التدين بهذا الدين الحق الذى يتفق مع فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ونهتهم عن أن يكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون ، وعابت على الناس إشراكهم بربهم إذا مستهم رحمة ، مع أنهم يلجأون إليه– تعالى– إذا مسهم الضر.

ودعت إلى إيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن الربا وبينت أنه لا يربو عند الله ، وإنما تربو عنده الزكاة .

ثم ذكرت أن ظهور الفساد فى البر والبحر إنما يكون بما كسبت أيدى الناس ، وأعادت الدعوة إلى الدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ثم بينت أن الله هو الذى يرسل الرياح فتثير سحابًا ، فيبسطه الله فى السماء كيف يشاء ، فيستبشرون بعد قنوطهم ويأسهم ، وأنه بهذا المطر يحيى الأرض بعد موتها ، ومن يفعل ذلك فهو قادر على إحياء الموتى ، ثم شبهت المشركين فى عدم سماعهم دعوة الرسول بالموتى وبالصُّم إذا تولوا مدبرين ، ثم بينت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن المجرمين سوف يُقْسِمُونَ أنهم ما لبثوا فى

دنياهم غير ساعة ، فلا ينفعهم هذا الاعتذار ، فقد لبثوا فى كتاب الله إلى يوم البعث ، ثم ختمت بدعوة النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الصبر : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الٓمٓ) : تقدم الكلام على مثلها أول سورة البقرة والسور التى بعدها ، فارجع إليه إن شئت .

(الرُّومُ) : قوم من الفرنج يستوطنون الجنوب الشرقى من أوربا ، ويقول المؤرخون : إنهم عرفوا باسم جَدٍّ لهم ، اسمه : روم ، أو : رومى ، من ذرية يافث بن نوح – عليه السلام .

(فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ) : فى قرب أرضهم من العرب ، أو من الفرس .

(مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ) : من بعد كونهم مغلوبين .

(فِى بِضْعِ سِنِينَ) : الْبِضْعُ ، من الثلاث إلى التسع .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : وهو الغالب .

التفسير

١ ـ ٥ (الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

كان العالم يسيطر على معظمه أُمَّتَانِ كبيرتان – الفرس والروم – وكانت الحرب تدور بينهما من وقت لآخر فى سبيل السيطرة على الأُمم الضعيفة ، واستنزاف خيراتها ، واستعباد أهلها .

وبعد أن شرف الله محمدًا ﷺ بالرسالة غزت الفرس الروم فى أدنى أرضهم إلى العرب – وهى بصرى وأذرعات – وقال ابن عباس والسدى : الأُردن وفلسطين . وقيل غير ذلك ، ولا تنافى بين هذه الأقوال ، فقد غزوهم فى جميع مستعمراتهم ، فى آسيا حتى ألجأوهم إلى القسطنطينية ، وحاصروهم فيها مدة طويلة .

ولما بلغ الخبر أهل مكة المشركين ، فرحوا وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس وثنيون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرن عليكم ، فنزلت الآية ، فقال لهم أبو بكر : لا يَقِرَّن الله عينكم ، فوالله لتظهرن الروم على فارس فى بضع سنين ، فقال له أُبَىٌّ بن خلف : اجعل بيننا أجلًا أُنَاحِبُكَ – أى : أُراهنك – عليه ، فناحبه على عشر قلائص[1] من كل واحد منهما ، وجعلا الأَجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ بما جرى بينه وبين أُبى بن خلف ، فقال ﷺ : البضع « ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى الخطر[2] ومادَّه فى الأَجل »[3] فجعلاه مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أُبَىٌّ بن خلف من جرح جرحه الرسول ﷺ بعد رجوعه من أُحُد ، وظهر الروم على فارس يوم الحديبية ، فأَخذ أبو بكر الخطر من ورثة أُبَىٍّ بن خلف ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدق به » .

---

(١) جمع قلوص ، وهى : الناقة الشابة .

(٢) قيمة الرهان .

(٣) طاوله فى موعد الرهان .

وفى نصرهم على فارس أخبار طويلة لا مجال هنا لذكرها ومناقشتها وتحقيق الحق فيها ، وحسب القارئ ما ذكرنا ، ومن شاء المزيد فليرجع إلى المطولات .

واستدلت الحنفية بما حدث بين أبى بكر وأُبَيِّ بنِ خلف على جواز العقود الفاسدة فى دار الحرب ، وأُجيب بأنه كان قبل تحريم القمار .

والآية من دلائل النبوة ؛ فإن الهزيمة التى ألحقتها فارس بالروم ألجأتهم إلى عقر دارهم ، وأفقدتهم جميع الأقاليم التى كانت لهم فى آسيا ، وجعلتهم من الضعف بحيث لا يظن أحد أن تقوم لهم قائمة بعد هذه الهزيمة النكراء ، فإذا نزل القرآن مبشرا بنصرهم ومحددًا موعد هذا النصر بأنه فى بضع سنين ، وتحقق هذا النصر فى موعده ، فإنه دليل على أنه من عند الله ، وليس من عند محمد كما زعم أعداءُ الإسلام ؛ فإنه لا يقدم على مثل هـذا الوعد الخطير إلَّا من هو مؤيد من العليم الخبير .

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : الٓمٓ . غَلَبَتْ فارسُ الرومَ فى أقرب أرض الروم إلى بلاد العرب ، أو إلى بلاد الفرس ، أو إلى بلاد الروم الأصلية ، حيث وصلت هزيمتهم إلى مشارف القسطنطينية وحوصروا فيها مدة طويلة ، والروم من بعد ما غلبهم الفرس سَيَغْلِبُونَ الفرس خلال بضع سنين ، لله الأمر من قبل كونهم مغلوبين للفرس ، حيث سلط الفرس عليهم فهزموهم وغلبوهم ، ولله الأمر من بعد ما غلبهم الفرس ، حيث أمدهم بأسباب نصره ، فأصبحوا ظاهرين على الفرس فغلبوهم واستردوا الأرض منهم ، فالنصر والهزيمة لكلتيهما بأمر الله وحكمته حسب قانونه الذى أجراه بين عباده : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ويومئذٍ تغلبُ الرومُ فارسَ يفرح المؤمنون بنصر الله ، حيث نصر من له كتاب على من يعبدون غيره ، وملأ بالأسى والحزن قلوب كفار مكة الذين كانوا من قبل شامتين ، ينصر الله بفضله من يشاء نصره من عباده ، على عدوه ، وهو العزيز الغالب فلا يعجزه نصر من يشاء على عدوه مهما كان أمره لحكمة يراها فى نصره ، الرحيم باللطف بالمغلوب ، وتهيئته لقبول القضاء ، أو بإصلاح حاله واستعادة مكانه .

ومن العلماء من فسر نصر الله الذى يفرح به المؤمنون بغير ما تقدم ، فقد فسره بعضهم بصدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس ، ومنهم من فسره بتولية بعض الظالمين بعضًا وتفريق كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا ، وأضعف كل منهم شوكة الآخر ، تمهيدًا لغلبة الإسلام ، وهذه آراء جيدة ، وإن كان الرأى الذى ذكرناه فى المعنى هو المناسب لقوله – تعالى – : « يَنصُرُ مَن يَشَاءُ » ولهذا رجحه المفسرون .

٦ – (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

هذه الآية مؤكدة للوعد السابق بنصر الروم فى بضع سنين وفرح المؤمنين بهذا النصر .

والمعنى : وعد اللهُ بنصر الروم على الفرس وعدًا لا خلف فيه ، فإن الله لا يخلف وعده ، لاستحالة الكذب عليه – تعالى – ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه – سبحانه – وعدهم بذلك لعدم تصديقهم القرآن فيما أخبر به عن الله – تعالى – أو لا يعلمون قدرة الله على تحقيقه لفساد رأيهم .

٧ – (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) :

هذه الآية مؤكدة لما جاء فى الآية السابقة من أن أكثرهم جاهلون لا علم عندهم .

والمعنى : أن معرفتهم بالحياة الدنيا لا تتجاوز ظاهرها ، حيث يعلمون منافعها ومضارها العاجلة ، ومتى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يجمعون وكيف يبنون ، وكيف ينعمون عاجلًا بزخارفها ، ويلتذون بملاذها ، ويتمتعون بمشتهياتها ، فهم لا يشعرون أنها مزرعة الآخرة ، ووسيلة إلى نيل الرغائب الجليلة فيها ، فهم : (يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) .

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(فِىٓ أَنفُسِهِمْ) : ظرف للتفكر ، وليس بمفعول تعدى إليه ، فإنهم لم يؤمروا أن يتفكروا فى خلق أنفسهم ، بل أمروا أن يستعملوا التفكر النفسى فى خلق السموات والأرض وما بينهما ليعلموا أنها لم تخلق إلّا بالحق ، وفائدة ذكر (فِىٓ أَنفُسِهِمْ) مع أن التفكر لا يكون إلّا فيها ؛ لتحقيق أمره ، وزيادة تصوير حال التفكر المؤدى إلى الصواب ، وهو التفكر العميق لا التفكر الظاهرى .

(إِلَّا بِالْحَقِّ) قال الفراء : معناه : إلّا للحق ، أو إلّا بالعدل .

(وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) : ووقت سماه الله ينتهيان عنده ، وهو يوم القيامة .

(بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ) : بلقاء جزائه يوم القيامة .

(السُّوأَىٰ) : تأنيث الأسوأ ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، والمراد بالسوأى : النار .

التفسير

٨ - ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِى رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ :

بعد أن سجلت الآية السابقة عليهم قصور علمهم بالحياة الدنيا ، حيث لم يتجاوزوا ظاهرها ، جاءت هذه الآية لتوبخهم على عدم تَفَكُّرهم بعمق فى مصير هذه الدنيا .

والمعنى : أَغَفَلَ هؤلاء الكافرون ولم يتفكروا فى أعماق أنفسهم ، حتى يعلموا أن الله - تعالى - لم يخلق السموات والأرض وما بينهما إلَّا للحق من الثواب والعقاب للمكلفين فيها على حسب أعمالهم ، أو إلَّا بالعدل ، فلا يستوى عنده محق ومبطل ، ولا محسن ومسىء ، وخلقهما وما بينهما لأجل مسمى تنتهى إليه ،وهو يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وإن كثيرًا من الناس بلقاء جزاء ربهم فى الآخرة لجاحدون؛ لأنهم لا يدركون من الحياة الدنيا إلَّا ظاهرها ، ولا يتعمقون فى التفكر فيها ، فلذلك حسبوا أن الدنيا نهاية كل حى ، وأن الله لا يبعث من فى القبور .

٩ - ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ :

الهمزة فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ إما أن تكون لتقرير عدم سيرهم وتوبيخهم على ذلك - إن كانوا من القاعدين الذين لم يسيروا فى الأرض ويعتبروا بالهالكين - فيكون التقدير : أَقَعَدُوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا ، وكان عليهم أن يسيروا بين آثار الهالكين ليتعظوا ، وإما أن تكون لنفى قعودهم وتوبيخهم على عدم انتفاعهم بسيرهم بين آثارهم - إن كانوا ممن ساروا فى خرائبهم - وكأنه قيل : أَقَعَدُوا ولم يسيروا فى خرائب الكافرين فينظروا ويعتبروا ؟ كلَّا ، بل ساروا ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا .

والمعنى الإجمالى للآية : أَقَعَدَ هؤلاء الكفار ولم يسيروا فى أرض الهالكين السابقين ويشاهدوا كيف كانت عاقبة أولئك المشركين المنكرين للبعث قبلهم ، كانوا أقدر منهم على

التمتع بالحياة الدنيا ، حيث كانوا أشد منهم قوة وقلبوا الأرض ظهرًا لبطن فى الزراعة والبحث عن المعادن ونحوها وعمروها بفنون العمارات أو أقاموا بها أكثر مما عمرها مشركو مكة ، وجاءتهم رسلهم بالمعجزات البينات التى تستوجب إيمانهم فكذبوهم ، فما كان الله ليهلكهم بغير ذنب كما يفعل الظالمون ، ولكنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بفعلهم مايقتضى إهلاكهم دون أن يكون لله أو لرسله دخل فى ظلمهم .

١٠ ـ (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) :

ثم كان عاقبة الذين عملوا السيئات وظلموا بها أنفسهم ـ كان عاقبتهم ـ العقوبةُ السوأى فى الدنيا بالإهلاك وفى الآخرة بالنار ؛ لأنهم داوموا على تكذيبهم بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون ولم تنجهم قوتهم ، ولم تنفعهم عمارتهم .

(ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) : يتحير الكافرون وتنقطع حجتهم ، يقال : أبلس الرجل ، إذا سكت وانقطعت حجته .

(وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ) أى : تبرءُوا من آلهتهم التى عبدوها .

التفسير

١١ ـ (اللهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن نهاية الكافرين المسيئين لأنفسهم أن يعاقبوا العقوبة السيئة فى الدنيا والآخرة ، وجاء بهذه الآية لتقرير ذلك .

والمعنى : الله ـ سبحانه ـ شأنه أنه يبدأ الخلق وينشئه من العدم ـ كما تعلمون أيها الكافرون ـ ثم يعيده بعد فنائه ، ثم إلى حسابه وجزائه ترجعون وتبعثون، فلماذا تكفرون وتنكرون ؟ أليس من قدر على الإبداع والاختراع فهو قادر على الإعادة بعد الفناء ؟

١٢ ـ (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) :

اختلف المفسرون فى تفسير معنى الإبلاس ، فمنهم من فسره باليأس، كابن عباس ، وهو المراد من حديث : « أنا مبشرهم إذا أبلسوا » أى : إذا يئسوا ، ومنهم من فسره بالسكوت وانقطاع الحجة ، ومنهم من فسره بالحزن الناجم عن شدة اليأس ، والحق أنها معان متقاربة وليس بينها تناف .

والمعنى : ويوم يقوم الناس لرب العالمين فى الساعة التى حددها للقيامة ـ يومئذ ـ ييأس المجرمون من النجاة ويتحيرون ، وقد انقطعت حجتهم وصمتت ألسنتهم ، ولفّهم الحزن من كل جانب .

١٣ ـ (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَآؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ) :

ولم يكن لهؤلاء المجرمين من آلهتهم التى عبدوها شفعاء ينقذونهم من سوء مصيرهم ، كما كانوا يزعمون فى دنياهم : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ » وكانوا بشركائهم يومئذ كافرين .

والتعبير عمَّا سوف يحدث يوم القيامة ـ وهو مستقبل ـ بصيغة المضارع التى دخلت عليه (لم) فى قوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَآؤُا) فحولته إلى المضى ، وبصيغة الماضى فى قوله : (وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ) للإيذان بأنه واقع ولابد ، فكأنه وقع فعلًا وأخبر عنه .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

(فِى رَوْضَةٍ) : الروضة ، الأرض ذات النبات والأزهار والماء ، والمراد بها هنا الجنة .

(يُحْبَرُونَ) : يُسَرُّون ، يقال : حَبَره يحبُره – بضم الباء – حَبْرًا ، وحُبرة ، وحبورًا : إذا سره سرورًا يتهلل له وجهه .

(مُحْضَرُونَ) : مجبرون على الحضور .

التفسير

١٤ – ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ :

ويوم يقوم الناس لرب العالمين فى الساعة التى عينها لبعثهم – يومئذ – يتفرق الخلق إلى مؤمنين وكافرين ، ثم فصل – سبحانه – مصيرهم بعد تفرقهم فقال :

١٥ – ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ :

فأما الذين صدقوا بالله ورسله ، وعملوا الصالحات التى أمرهم بها ، فهم فى جنة عظيمة يسرون غاية السرور ، بما ينعمون به فيها من النعيم المقيم والخير العميم ، الذى أخبر الله عنه بقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وأخبر عنه الرسول بقوله : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

١٦ – ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ :

وأما الذين كفروا بالله ورسله ، وكذبوا بآياتنا الكونية والتنزيلية ، وكذبوا بالبعث والجزاء فى الآخرة فأُولَٰئِكَ فى عذاب جهنم مجبورون على الحضور والإقامة فيه .

قال الآلوسى : والظاهر أن الفسقة من أهل الإيمان غير داخلين فى أحد الفريقين ، أما عدم دخولهم فى الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر ، وأما عدم دخولهم فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإما لأن ذلك لايقال فى العرف إلا على المؤمنين المجتنبين للمفسقات – على ماقيل – وإما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذى لم يعمل من الصالحات شيئاً أصلا ، وحكمهم معلوم من آيات أخرى – انتهى بتصرف يسير .

(فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(فَسُبْحَانَ اللهِ) : فتنزيهاً له عما لا يليق به .

(عَشِيًّا) : العشى ؛ آخر النهار .

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ) : وحين تدخلون فى وقت الظهر .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) : كالإنسان من التراب .

(وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) : كالسقط الميت من أُمٍّ على قيد الحياة .

(وَيُحْيِى الْأَرْضَ) : بالنبات .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يَبَسِهَا .

(وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) : أى ؛ تبعثون من قبوركم .

التفسير

١٧، ١٨ - (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) :

بين الله - سبحانه - فى الآيتين السابقتين حال ومآل فريقى المؤمنين الصالحين والكافرين المكذبين من الثواب والعقاب ، وجاء بهذه الآية ليرشد عباده إلى ما ينجى من الثانى ويُفضِى إلى الأول ، من تنزيهه - تعالى - عما لا يليق بجنابه ، وحمده والثناء عليه بما هو أهله من الصفات الجليلة ، وقد اقترنت بالفاء من قوله : (فَسُبْحَانَ) للإيذان بترتيب ما بعدها على ما قبلها فى المعنى ، فكأنَّهُ قيل : إذا عرفتم حال الفريقين ومآلهما فسبحوا الله حين تمسون . . . إلخ ، وسبحان : مصدر ، ناب عن فعل الأمر ، وهو محذوف وجوباً وإن كان منصوباً بتقديره ، لأنه ناب عنه فلا يجتمعان .

والمقصود من التسبيح هنا : الصلاة عند ابن عباس ، فقد قال : الصلوات الخمس فى القرآن . قيل له : أين ؟ فقال : قال الله - تعالى - : « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ » صلاة المغرب والعشاء (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) صلاة الفجر (وَعَشِيًّا) العصر[(١)] « وَحِينَ تُظْهِرونَ) الظهر وبهذا قال الضحاك وابن جبير ، والأكثرون على أن الصلاة فرضت بمكة ، وهذا يوافق كون السورة كلها مكية على الصحيح .

وإطلاق التسبيح على الصلاة إما لوجوده فى ركوعها وسجودها ، وإما لأنها مشعرة بتنزيهه - تعالى - عن الشريك[(٢)] .

ومن العلماء من حمل التسبيح فى الآية على التسبيح فى الصلاة لا على الصلاة نفسها ، قال على بن سليمان : حقيقته عندى : فسبحوا الله فى الصلوات .

---

(١) ويقول صاحب مختار الصحاح نقلا عن الأزهرى : العشى : ما بين زوال الشمس وغروبها ، وصلاة العشى هى الظهر والعصر ، ونقول : إن شمول العشى للظهر إذا لم يذكر معه الظهر ، فإن ذكر معه اختص بآخر النهار - كما هنا .

(٢) وإما لأنه مأخوذ من السبحة ، والسبحة : الصلاة ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم : « تكون له سبحة يوم القيامة »

وذِكْرُ قوله ـ تعالى ـ (وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : بين أوقات التسبيح ، للإيذان باستحقاقه ـ تعالى ـ الحمد من أهل السموات والأرض على نعمه بالإضافة إلى تسبيحه ، قال العلامة أبو السعود : قدمت (وَعَشِيًّا) على (حِينَ تُظْهِرُونَ) مراعاة للفواصل ، وقال الآلوسى : وتخصيص الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها ، وقدم الإمساء على الإصباح لتقدم الليل والظلمة ، وقدم العشى على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار ، كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح .

والمعنى : فَصَلَاةً ، أو فتنزيهاً لله عما لا يليق به حين تدخلون فى الظلام بعد النور ، وحين تدخلون فى الصباح والنور بعد الظلام ، وله الحمد استحقاقاً وأداء فى السموات والأرض على توالى نعمه على من فيهما ، وتنزيهاً له آخر النهار وحين تدخلون فى الظهر .

أخرج أبو داود وغيره عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يصبح : (فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) ، إلى قوله ـ تعالى ـ : (وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أدرك مافاته فى ليلته ، ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى يومه) .

١٩ ـ (يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) :

درج المفسرون على تفسير هذه الآية ومثلها بنحو قولهم : يخرج الإنسان الحى من النطفة الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحى ، ويخرج الدجاجة الحية من البيضة الميتة ، ويخرج البيضة الميتة من الدجاجة الحية ، وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما ، والواقع أن النطفة ليست ميتة وكذلك البيضة ، فالنطفة مليئة بالحيوانات المنوية التى لا تحصى ، فإذا التقت نطفة الرجل ببويضة المرأة فى القناة الفالوبية التى توصل الرحم بمبيض المرأة ، لقحتها بأقوى حيواناتها المنوية ونشأ عن هذا التلقيح الخلية الأولى للجنين ، وكذا الأمر بين نطفة الديك وبيضة الدجاجة ، وقد شرحنا ذلك علمياً فى تفسير قوله ـ تعالى ـ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ . . . »[1] .

---

(١) الآية رقم (٥) من سورة الحج .

ولولا وجود الحياة فى كل ذلك لما وجدت الأَجِنَّةُ فى البطون ولا الفراخ فى البيض وقد عُرفت كل هذه الحقائق بالمناظير المكبرة وبالتجارب ، فمن لاحياة فى نطفته أو فى بويضة امرأته فهو عقيم ، وهى عاقر ، وكذا الأمر فى الدجاج .

ولعل هذا التفسير المأثور عن السلف ناشىء إما عن قصور علم الأجنة عند الناس وقتئذ أو أنه على سبيل المجاز فإن هذه النطفة بالنسبة إلى الإنسان ، والبيضة بالنسبة إلى الدجاجة تعتبر كالشىء الميت ، فإن الفرق بينهما بعيد المدى ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولعل التفسير الواضح القائم على الحقيقة أن يقال : يخرج الحى من الميت كالإنسان من التراب ويخرج الميتَ من الحى كالسقط الميت من المرأة الحية .

ومن العلماء من فسرها تفسيراً مجازياً بطريقة أخرى ، فقال : يخرج العالم من الجاهل ، ويخرج الجاهل من العالم ، ويخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالمراد من الحياة والموت فى الآية العلم والجهل ، أو الإيمان والكفر على سبيل المجاز .

وقد شرحنا مثل هذه الآية فى سورة آل عمران باستيفاء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : يُخرج الله بقدرته الحى من الميت كالإنسان والحيوان من التراب مباشرة أو عن طريق الأغذية ، ويخرج الميت من الحى كالسقط الميت من المرأة ، والبيضة العقيم من الدجاجة ، ويحيى الأرض[1] بالماء والنبات بعد يبسها وفقدان منفعتها ، مثلَ ذلك الإخراج البديع تُخْرَجُونَ من قبوركم للحساب والجراء ، فكيف تنكرون البعث وأنتم ترون آياته فى الإحياء والإماتة ، أليس فى كل خَلَف بعثٌ لسلفه الميت ؟ .

(١) والإحياء والموت فى الأرض مجازى .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ) : من جنسكم .

(أَزْوَاجاً) : زوجات .

(وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ) : واختلاف لغاتكم مع أن الأصل واحد .

(مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : نومكم فيهما .

(الْبَرْقَ) : هو ما يلمع تباعاً أثناء المطر .

(خَوْفاً وَطَمَعاً) : خوفاً من الصواعق ، وطمعاً فى المطر .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مآءً) : المراد من السماء هنا : السحاب ، وكل ما علاك سماء .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها .

(أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) : أن توجدا فى الفضاء بقدرته وتدبيره .

(إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) : أى ؛ تفاجئون بالخروج من قبوركم تلبية لنداء الله .

التفسير

٢٠ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ) :

ومن علامات ربوبيته وألوهيته - تعالى - أنه خلقكم يا بنى آدم من تراب ضمن خلق أبيكم آدم منه ، أو أنه خلقكم من نطف تولدت من أغذية أصلها ومادتها التراب ، ثم إذا أنتم أناس عقلاء تنتشرون عن طريق التوالد ، أو الهجرة فى أنحاء الأرض بعد أن بدأ خلقكم بآدم ثم من بعده حواء ، وجعلكم تستنبطون خيراتها الظاهرة والباطنة بما وهبكم من القوى العقلية والجسدية ، وعلمكم من شئون الكون مالم تكونوا تعلمون ، فسبحان من خلقكم ونشركم وأقدركم على عمارة أرضه وجعل لكم من أنفسكم آيات على ربوبيته ووحدانيته .

٢١ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوآ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

اختلف العلماءُ فى تفسير خلق الأزواج من أنفس البشر ، وكثير منهم فسره بأنهن خُلِقْنَ من ضلع آدم تبعا لحواء أمهن .

وقد ورد حديث صحيح عن النبى ﷺ يحتمل هـذا المعنى ، فقد روى الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «من كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فلا يؤذِ جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضِلَع ، وإن أعوج شيء فى الضِلَع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » .

ولكن المحققين حملوه على التمثيل لا على الحقيقة ، فالمعنى المراد : أنهن فى اعوجاج طباعهن يشبهن الضلع الأعوج ولهذا عقبه بقوله : « وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فهذا يشير إلى اعوجاج طباعهن ، وأن أكثر الاعوجاج فى رءوسهن حيث توجد ألسنتهن ، فإن حاولت أن تجعل امرأتك مستقيمة الطباع بعيدة عن خطأ اللسان فشلت ، وانتهت محاولتك فى إصلاحها إلى كسرها ، وهو كناية عن إصابتها بَدَنيا أو نفسيا ، أو عن طلاقها ، كمن يحاول إصلاح الضلع الأعوج فإنه يفشل ، وتنتهى محاولته إلى كسره ، وإن تركتها دون تقويم وتهذيب بقيت على اعوجاجها ، كما يبقى الضلع على اعوجاجه إذا تركته ، وخير الأمور الوسط ، وهو الوعظ برفق ، والتغاضى عما يدفع إليه الطبع غالبا ، وما من رجل أو امرأة إلا له عيوب .

وخير ماتحمل عليه الآية : أن المرأة خلقت من جنس الرجل ، فكانت على نظام خلقه ، لافرق بينهما إلا الذكورة والأنوثة ولهذا عقب خلقها منه بقوله : (لِتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً) فإن خلق الزوجة من جنس زوجها - تكوينا وعقلا - يؤدى إلى سكون الزوج إليها وقيام المودة والرحمة بينه وبينها ، بخلاف مالو خلقت من جنسٍ حيوانى آخر ، فإن الأمر يكون بينهما على التباين والتناقض .

أما مبدأ خلق حواء ، فقد قيل : إنه من فضلة طينة آدم ، ولكن التوراة صريحة فى أنها خلقت من أحد أضلاع آدم ، كما جاء فى سفر التكوين (الإصحاح الثانى ٢١ -٢٣) والله أعلم بصحة ذلك .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن دلائل ربوبيته - تعالى - أنه خلق لكم - أيها البشر - أزواجا من جنسكم جسداً وعقلا ، لايفرق بينكم وبينهن سوى الذكورة والأنوثة ، ليسكن الرجل منكم بالزواج الشرعى إلى زوجه ، وإن لم يكن يعرفها من قبل ، وليبقى بمباشرتها الجنسُ البشرىُّ ، وليطمئن إليها بالعشرة معها ، فإن الجنس يميل إلى جنسه ويألفه ، بخلاف مالو كانت من جنس آخر ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، فكلاكما يحب الآخر

ويرحمه ويدفع عنه مايضره ويؤذيه قدر استطاعته ، إن فيما ذكر فى هذه الآية من عجائب تدبير الله لدلائل على ربوبيته ، وعظيم فضله ، وواسع رحمته - لدلائل - لقوم يتفكرون .

٢٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) :

ومن دلائل ربوبيته خلق السموات والأرض وما فيهن من عجائب الإبداع وروائع الجمال ، وبقائهن فى الفضاء بعجيب قدرته وعظيم علمه وحكمته ، ومن دلائل ربوبيته أيضا اختلاف لغاتكم ، حيث علم كل أمة لغتها المخالفة للغة غيرها ، أوألهمها العبارات المختلفة للتعبير عن حاجاتها ، وخالف بين طرائق نطقكم ، فلا يكاد يوافق أحدكم غيره فى أسلوب نطقه واختيار عباراته ، ومن دلائل ربوبيته أيضا اختلاف ألوانكم من أبيض إلى أسود إلى أصفر إلى غير ذلك ، أو اختلاف ألوانكم بتخطيط الأعضاء والهيئات والألوان ، بحيث وقع التمايز والتعارف ، حتى إن التوأمين - مع اتحاد أصلهما - لابد من وجود اختلاف بينهما ليحصل التعارف ، إن فى ذلك كله لآيات عظيمة لكل عالم مفكر ، على وجود إله حكيم قدير عليم .

٢٣ - (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

دعت هذه الآية الكريمة إلى التأمل فى آيات جليلة واضحة الدلالة على ربوبية الله ومزيد رحمته بعباده ، وهى آية النوم وآية طلب الرزق ، وماتشتملان عليه من آيات .

فأما آية النوم فإنها وسيلة إلى راحة القوى النفسية والبدنية ، وإعادة النشاط إليها بعد الكلال .

والنوم هبة من هبات الرحمن الرحيم ، فليس للإنسان أى كسب أو جهد فيه ، وما على الإنسان إلا أن يستسلم لفراشه ويغمض عينيه وينتظر رحمة الله تأتيه بالنوم فليسع بفضل الله إلى إحساسه وشعوره العقلى ، فيغيبه فى طياته ، ويضفى على أجهزته البدنية والعقلية الراحة والسكينة ، ولو شرد النوم عن الإنسان فإنه لايستطيع أن

يسترده بأى جهد يبذله ، مالم تأته به عناية الله ورحمته ، فتلك آيات عديدة تضمنتها آية النوم ، وقد يصبح الأرق مرضا ملازما فيصاب صاحبه بالكآبة وغيرها من الأمراض النفسية أو الجسدية ، ولاينفعه إلا رحمة تأتيه من الرحمن الرحيم من حيث لايعلم ، فلهذا ينبغي لمن يصاب بالأرق أن يكون شديد اللجوء إلى الله- تعالى - بالدعاء ، ومما جاء فيه ما أخرجه الطبرانى فى مسنده عن زيد بن ثابت- رضى الله عنه - قال : أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حى قيوم ، ياحى ياقيوم أنم عينى وأهدئ ليلى » فقلتها فذهب عنى .

وينبغي لمن أصابه الأرق أيضا أن يبعد عن نفسه التفكير فيه ، حتى لايصبح عقدة نفسية ، وعليه أن يكون قوى الأمل فى رجوع النوم إليه برحمة الله ، وأن يكون عظيم التوكل على الله والثقة فى رحمة الله ، حتى لاتطول غربة النوم عنه .

والنوم كما يكون ليلا يكون نهارا ، فمن الناس من يعملون ليلا كالحرّاس وعمال المخابز ، فهؤلاء ينامون نهارا ، ومنهم من يعملون نهارا ، وقد ينامون ظهرا ، ومنهم من يأتيه النوم فى أى وقت من الليل أو النهار ، تبعا لحاجة أجسادهم ونفوسهم ، فمن رحمة الله أن جعله مشاعا بين الليل والنهار لمن يحتاجون إليه ، فلهذا قال - سبحانه - : (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وأما آية ابتغاء الرزق فإنها تضم عدة آيات ، والرزق بيد الله ، وكم من طالب رزق معين يأتيه غيره ، وكم من طالب له لايجده ، وكم من غافل فيأتيه رزق لم يتوقعه ولم يسع إليه .

وطلب الرزق كما يكون فى النهار يكون فى الليل ، وبخاصة فى هذا الزمان ، حيث تفتح المتاجر والمصانع أبوابها ليلا كما تفتح نهارا ، والله -تعالى -يسوق الرزق لجميع عباده (وَمَامِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ولكن الله - تعالى - ربط المسببات بأسبابها ، ولهذا أمر عباده بالسعى فى طلب الرزق الذى قسمه الله لهم بقوله :(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا

وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ) وإن كان بعض الرزق يأتى بغتة من غير سعى ، كالمواريث والهبات والصدقات المفاجئة ، ولكن السنة الإلهية فى الحصول على الأرزاق هى السعى إليها ؛ فالسماء لاتمطر ذهبا ولافضة .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن آيات ربوبيته - تعالى - وكمال تدبيره وحكمته نومكم بالليل تارة ، وبالنهار أخرى ، حسب حاجتكم إلى النوم ، فحينما تحتاجون إليه أو تطلبونه يحقق الله لكم منه حاجتكم ، ومن آياته طلبكم الرزق فى الليل والنهار أيضا فيأتيكم منه ماقسمه الله لكم ، إن فيما تقدم من النوم وطلب الرزق فى ليل أو نهار ، لآيات واضحة الدلالة على ربوبيته ووجوب الاستعانة به واللجوء إليه ، إن فيما تقدم لآيات لقوم يسمعون سماع تدبر وتفكر .

والتعبير بقوله ، «يَسْمَعُونَ» بدلا من : يبصرون ، أو : يتفكرون ؛ للإيذان بأن الأمر من الظهور بحيث يكفى فيه مجرد السماع لمن له فهم وبصيرة ، ولايحتاج إلى مشاهدة وإن كان مشاهدا ، ولا إلى إعمال الفكر بعمق لغاية وضوحه .

٢٤- (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ):

المقصود من قوله : (يُرِيكُمْ) المعنى المصدرى ، فكأنه قيل : ومن آياته إراءتكم البرق ، وهو من باب استعمال الفعل المضارع فى جزء من معناه وهو الحدث ، كما قالوه فى المثل المشهور : تسمع بالمُعَيْدِىِّ خير من أن تراه أى : سماعك به . . . إلخ .

وذهب أبو على إلى أن الكلام على تقدير (أن المصدرية) والأصل ، أن يريكم ، فلما حذفت ارتفع الفعل وبطل عملها بالحذف ، والمآل فى كلا الوجهين واحد وهو المعنى المصدرى ، والبرق : هو الومضات الكهربية المضيئة السريعة المتلاحقة أثناء المطر الغزير .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن آيات الربوبية والبعث أن يريكم الله البرق اللامع المنبعث من السحب الركامية خوفا من نزول الأمطار الكاسحة بسيلها أو من نزول الصواعق وطمعا فى مطر ينفع ولايضر .

أو خوفا من نزول المطر للمسافر برًّا لأنه يضره ، وطمعا للمقيم لأنه ينفعه فى الزراعة وغيرها ، ولهذا قال عقبه : «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى : وينزل الله من السحاب مطرا فيحيي به الأرض بالنبات والشجر ، بعد أن كانت هامدة يابسة ، فلما جاءها الماء «اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» إن فيما تقدم من إراءة البرق وإنزال المطر وإنبات الزرع والشجر لآيات بينات على قدرة الله وحكمته وربوبيته ، وأنه يبعث من فى القبور . لآيات على ذلك لقوم يعقلون .

٢٥ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ) :

ومن علامات ألوهيته - تعالى - أن توجد السماء والأرض فى الفضاء بأمره وتدبيره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ثم إذا دعاكم يوم القيامة للخروج من الأرض التى دفنتم فيها ، إذا أنتم تخرجون فور الدعاء ، فمن قدر على البدء والاختراع فهو على الإعادة أقدر .

(وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(قَانِتُونَ) : منقادون خاضعون .

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) : وله الوصف الأعظم .

(الْعَزِيزُ) : الغالب .

التفسير

٢٦ - (وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) :

ولله من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ، ومَنْ عسى أن يكون بها من مخلوقات مكلفة عاقلة لاعلم لنا بها ، كل هؤلاء لإرادته - تعالى- خاضعون ، حيث يتصرف فيهم كما يشاء بمقتضى حكمته وتدبيره - جل وعلا - .

٢٧ - (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

والله هو الذى يبدأ الخلق من آن لآخر ، ثم يعيده بالبعث بعد الموت ، والإعادة أسهل من البداية إذا نظر إليها بمقاييس الناس ،وإن كانت عند الله سواء ، لأنه يقول للشيء : كن فيكون ، ولله الوصف الأعلى العظيم فى السموات والأرض ،يصفه به كل من فيهما دلالة أو نطقا ،ولا يدانيه فى كمال أوصافه أحد ، وهو العزيز الذى لايغلبه غالب ، الحكيم فى خلقه وتدبيره ،أخرج الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « قال الله : كَذَّبنى ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشَتَمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى - وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[1] » .

(١) انظر ابن كثير .

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ) : ذكر لكم مثلا منتزعا من أنفسكم أيها البشر .

(هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ) : هل ؛ حرف استفهام مراد منه النفى ، أى : ليس لكم من عبيدكم شركاء ، ولفظ (مِنْ) الأُولى ابتدائية ، والثانية تبعيضية ، والثالثة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى فى لفظ : (هَلْ) .

(كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) : كخوفكم منها .

(نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : نوضحها ونبينها .

التفسير

٢٨ - (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ . . .) الآية :

بين الله - تعالى - فى الآيات السابقة دلائل ربوبيته ووحدانيته وأن له المثل الأعلى والوصف الأسمى فى جميع الصفات ، لايدانيه فيها أحد ، وجاء بهذه الآية ليؤكد بها وحدانيته بطريق ضرب المثل ، لما فيه من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو فى الإفحام أقوى .

وحتى تعظم قيمة هذا المثل فى الإفحام عند القارئ نقول :

إن المشركين كانوا معترفين بأن أوثانهم عبيد الله - تعالى - فقد كانوا يقولون فى تلبيتهم : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك »

ومعنى الآية ، ذكرَ اللهُ لكم مثلا لإشراككم عبيد الله معه فى الألوهية ، وهذا المثل منتزع من أنفسكم أيها البشر : هل لكم من عبيدكم الذين ملكتهم أيمانكم - هل لكم منهم - شركاء فيما رزقناكم من الأموال وسواها ، فتكونوا أنتم وإياهم فى حق ملك مارزقناكم والتصرف فيه سواء بحيث تخافونهم أن يستبدوا بتصرف ما ، كخوفكم أيها الشركاء الأحرار بعضكم من بعض .

وخلاصة هذا المثل الذى ابتدأ بالاستفهام الإنكارى : (هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..) خلاصته أنه ليس لماليككم حق الشركة فى أموالكم ، فإذا كنتم تأبون أن يشرككم عبيدكم فى أموالكم وهم مثلكم فى البشرية غير مخلوقين لكم ، بل لله - تعالى - فكيف تشركون بالله - تعالى - فى المعبودية والألوهية التى هى من خصائصه الذاتية - كيف تشركون به مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ؟ - جل وعلا - حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه ؟ وكيف يرضى الله بذلك ؟ مِثْلَ ذلك التفصيل الواضح يفصل الآيات ويبينها لقوم يستعملون عقولهم فى فهم حقائق الأمور .

٢٩ - (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَالَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

إضراب وإعراض عن مخاطبة المشركين لجهلهم واتباع أهوائهم ، وكأنه قيل : لم يفعلوا شيئا من الآيات المفصلة قبل هذه الآية ، بل اتبعوا أهواءهم الزائفة التى ظلموا بها أنفسهم حيث عبدوا غير الله بجهالة وسوء رأى ، مع تمكنهم من العلم لو فتحوا قلوبهم للحق ، فمن يستطيع هداية من أضلهم الله عن الحق بسبب إعراضهم عنه ، وما لهؤلاء الضالين من ناصرين يخلصونهم من الضلال وتبعاته .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) : اجعل وجهك مستقيما نحو الدين .

(حَنِيفاً) : مائلا عن الباطل إلى الحق ، فَعِيل من الحَنَف : وهو الميل ، ويطلق الحنيف على صحيح الميل للإسلام ، وعلى دين إبراهيم - ذكره صاحب القاموس .

(فِطْرَةَ اللهِ) : خلقته .

(فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) : خلقهم عليها .

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) : لاتبديل لدين الله .

(ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) : ذلك الدين المستقيم .

التفسير

٣٠- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ . . .) الآية :

بعد أن بين الله آيات ربوبيته ، وضرب مثلا لفساد الإشراك جاء بهذه الآية لإقرار ماتقدم من وجوب التوحيد ، وحث كل مكلف على الإقبال على دين التوحيد الذى هو دين الفطرة التى فطر الناس عليها .

والخطاب فى قوله - تعالى - : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) لكل فرد مكلف من الأمة المحمدية فى شخص نبيها محمد ﷺ فهو إمامها ، أو خطاب لكل مكلف مباشرة .

والوجه فى قوله – تعالى – «فَأَقِمْ وَجْهَكَ» إما أن يراد به معناه المعروف، وإما أن يراد به الذات كلها، وسواءٌ أكان المراد به هذا أم ذاك فالآية تمثيل لوجوب الإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام به، ولذلك عقبه بقوله: (حَنِيفاً) أى: مائلا عن الأديان كلها متجها إليه ومقبلا عليه، أَوْ دِينَ إبراهيم الحنيف – عليه السلام – يعنى أن التوحيد هو دين إبراهيم الحنيف.

وهذا الدين الإسلامى الذى أمرنا الله بالاستقامة عليه، هو فطرة الله وخلقته التى فطر الناس وخلقهم عليها، أخرج الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء[1]، هل تجدون فيها من جدعاء[2]؟» ثم يقول أبو هريرة: «فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ[3]».

وأخرج ابن مردويه بسنده عن حماد بن عمر الصفار قال: سألت قتادة عن قوله – تعالى –: «فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» فقال: حدثنى أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «فطرة الله التى فطر الناس عليها: دين الله تعالى» وبهذا التفسير فسرها السلف.

ومن العلماء من فسر الفطرة بأنها قابلية الحق والتهيؤ لإدراكه، فالناس جميعا مفطورون ومخلوقون مستعدين لقبوله، لايمنعهم عنه إلا المبطلون من شياطين الإنس والجن، والتفسيران متقاربان، والفطرة فى كليهما: اسم هيئة من الفطر، بمعنى الخلق والاختراع.

وأما قوله – سبحانه –: (لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ) فهو خبر مراد منه النهى، أى: لاتبدلوا دين الله وخلقته التى خلق الناس عليها بالإصغاء إلى دعاة الباطل من شياطين الإنس أو الجن.

---

(١) أى: مجتمعة الأعضاء، سليمة من العيوب.
(٢) مقطوعة الأطراف أو بعضها.
(٣) البخارى فى تفسير سورة الروم.

والمعنى الإجمالى للآية : فأقبل - أيها العاقل - على الإسلام دين الحق واستقم عليه واهتم به ، مائلا إليه بجد وهمة ، منصرفا عن سواه من سائر الأديان ، فطر الله الناس عليه وخلقهم مستعدين له ، لاتُبَدِّلوا فطرة الله وخلقته ، ذلك الدين المستقيم الذى لايصح تبديله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون استقامته ، ووجوب الإيمان به ؛ لعدم تدبرهم وإهدارهم عقولهم .

* (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) : أى ؛ راجعين إليه بالتوبة والإخلاص ، من أناب : إذا رجع مرة بعد أخرى .

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) : قيل ؛ هم أهل الأهواء والبدع ، أو اليهود والنصارى .

(وَكَانُوا شِيَعًا) : أى ؛ فرقًا ، جمع شيعة ، والشيعة فى الأصل : الأتباع والأنصار ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليًّا وأهل بيته حتى صار اسمًا لهم خاصًّا بهم ، وجمع الجمع : أشياع .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحزب ؛ الطائفة من النَّاس ، والجمع : أحزاب .

التفسير

٣١ - (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَاتَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

بين - سبحانه - بهذه الآية أن العبادة لاتقبل من عباده إلَّا مع الرجوع إليه - عز وجل - والإخلاص له ، فقال : « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » وهو مرتبط بقوله - سبحانه - : « فِطْرَةَ اللهِ »

أى : الزموا فطرة الله عائدين إليه مقبلين عليه بالتوبة النصوح التى تطهِّر قلوبكم ، وتزكى نفوسكم . أو مرتبط بقوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » أى : فأقيموا وجوهكم ، واستمروا على الدين الذى شرعه الله لكم منيبين إليه ، وإنما جمع مع أن الخطاب فى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » لمفرد وهو النبى ؛ لأن خطابه خطاب لأُمته ، وقال الفراء : فأقم وجهك ومن اتبعك منيبين فهو كقوله : « فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ »[1] ، (وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى : خافوه وامتثلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ، وأدوا الصلاة بشروطها وفى أوقاتها ، ولا تكونوا من المشركين ، بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا تريدون بها سواه ، لأنها لا تنفع إلَّا مع الإخلاص له وحده – سبحانه – .

٣٢ – (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

أى : ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم ،[2] وتفريقهم لدينهم : اختلافهم فيما يعبدونه وفق اختلاف أهوائهم .

(وَكَانُوا شِيَعًا) : أى فِرَقًا ، كل فرقة تشايع إمامها الذى مهَّد لها دينها ووضع أصوله ، فأصبحوا بذلك نِحَلًا وأديانًا مختلفة ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس ، وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة التى قبلنا ، اختلفوا على أديان وملل باطلة .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : أى كل فريق منهم بما عندهم من الدين المعوج المؤسس على الباطل مسرورون ، وبه معجبون ، يظنون أنهم على الحق الذى جهلوه ، وكان عليهم أن يبحثوا عنه ويتبعوه ، فالجملة ذكرت تقريرًا لمضمون ما قبلها من تفريق دينهم وكونهم شيعًا .

---

(١) هود : ١١٢ .

(٢) قوله : من الذين فرقوا دينهم بدل من المشركين بإعادة الحرف ، وفائدة الإبدال : التحذير من الانتماء إلى حزب من الأحزاب ببيان أن الكل على الضلال .

(وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ) : أى نالهم قليل من الضر ، ويتعدى إلى ثان بالحرف .

(يُشْرِكُونَ) : أى يشركون به غيره فى العبادة .

(لِيَكْفُرُوا بِمَآ آتَيْنَاهُمْ) : أى ليجحدوا النعمة التى أعطيت لهم ، يقال : كفر النعمة ، وكفر بها : جحدها وغطاها .

(فَتَمَتَّعُوا) : أى انتفعوا به كما شئتم ، يقال : استمتعت بكذا ، وتمتعت به : انتفعت .

(سُلْطَانًا) : أى ؛ حجة وبرهانًا .

التفسير

٣٣ - (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً . . .) الآية :

أى : وإذا مس الناس قحط وشدة وهزال ومرض وغيرُ ذلك أقبلوا على ربهم مستغيثين به راجعين إليه مقبلين عليه تاركين دعاء غيره من الأصنام وسواها ، ذلك شأنهم فى حال الاضطرار ، ولكنهم فى حال الرخاء وتوالى النعم عليهم والخلاص من تلك الشدة

(إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) : أى فاجأ فريق بالإشراك بربهم ، الذى كانوا يدعونه منيبين إليه ، وذلك بنسبة خلاصهم مما كانوا فيه إلى غيره من صنم أو كوكب أو غيرهما من المخلوقات .

وتخصيص الإشراك ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك ، وتنكير : (ضر ورحمة) للإشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويَطْغَوْن لأدنى نعمة .

٣٤ ـ (لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى : يشركون به غيره لكى يكفروا بما آتيناهم من النعم ، أو اللّام للأمر قصدًا إلى التهديد والوعيد ، كما يقال عند الغضب : اعصنى ما استطعت ، وهو مناسب لقوله ـ سبحانه ـ : « فَتَمَتَّعُوا » أى : افعلوا ما شئتم فسوف يحيق بكم عاقبة تمتعكم ووباله. والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى التهديد ، ثم أنكر ـ سبحانه ـ على المشركين عبادة الأوثان بلا دليل ولا برهان فقال :

٣٥ ـ (أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) :

فى هذه الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة ، للإيذان بالإعراض عنهم وتعديد جِنَاياتهم لغيرهم ، أى : بل أَنزَلْنَا عَلَيْهِم حجة لها سلطان يجعلهم يتكلمون بما كانوا به مشركين . أو يراد : بل أأنزلنا عليهم مَلَكًا ذا سلطان فهو يتكلم وينطق بإشراكهم بالله ـ تعالى ـ ويبين صحته ، أو ينطق بالذى يشركون بسببه ، والمراد : نفى أن يكون لهم مستمسك يُعَوَّل عليه فى شركهم ، إذ الاستفهام للإنكار .

(وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) : بلاء وعقوبة .

(يَقْنَطُونَ) : أى ييئسون من رحمة الله ، وقنط من باب ضرب وتعب ، وهو قانط وقنوط ، ويُعَدَّى بالهمزة .

(وَيَقْدِرُ) : أى ويضيق ، يقال : قَدَرَ الله الرزق ، يقدِره ـ بكسر الدال ـ وَيَقْدُره ـ بضمها ـ ضيّقه ، والكسر أفصح ، وبه قرأ السبعة .

التفسير

٣٦ ـ (وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...) الآية .

أى : وإذا أذقنا الناس نعمة من مطر وسعة وصحة وأمن ودعة ونحوها فرحوا بتلك النعمة بطرا وأشرا لا حمدًا وشكرًا لمجريها ، (وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) أى بلاء وضيق بشؤم معاصيهم التى اقترفوها ، فاجأُوا باليأس من رحمة الله ، وهذا شأن من لم يرسخ الإيمان فى قلبه ، وفى نسبة الرحمة إليه ـ تعالى ـ دون السيئة تعليم للعباد ألّا يضاف الشر إليه ـ سبحانه ـ .

وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة ، وبيان سبب إصابة السيئة : إشارة إلى أن الأول منّة وتفضل منه ـ تعالى ـ والثانى قسط وعدل بسبب معاصيهم التى قدموها وباءُوا بإثمها .

٣٧ـ (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ...) :

أى : ألم ينظروا ، ولم يشاهدوا أن الله يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ؟ وهذا باعتبار شخصين ، أو شخص واحد فى زمانيْن ، فلا يحق لهم أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته – سبحانه – فهُو القابض الباسط ، والمراد : إنكار بطرهم عند الفرح ، وقنوطهم عند الشدة .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : أى إن فيما تشاهدونه من البسط والتضييق لحجة بالغة لقوم يؤمنون بالله حق الإيمان ، فيستدلون بها على القدرة والحكمة البالغة ، وعلى أنه – سبحانه – يفعل ذلك بمحض مشيئته ، وليس الغنى بفعل العبد وجهده ، ولا الفقر بعجزه وتقاعده ، ولا يعرف ذلك ويقدره حق قدره إلّا من آمن بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، فكم أخفق الجادون ، ونجح وتقدم المبطئون .

(فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(وَالْمِسْكِينَ) : هو الذى لا شىء له ، أو له شىء لا يقوم بكفايته .

(وَابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر المحتاج إلى نَفَقَةِ سفره .

(لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ) : أى يقصدونه – عز وجل – بمعروفهم خالصًا ، أو يريدون النظر إلى وجهه يوم القيامة وهو الغاية القصوى .

التفسير

٣٨ـ (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ . . .) الآية :

وجه تعلق هذا الأمر بما قبله واقترانه بالفاء على ما ذكره الزمخشرى : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما كسبت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، فقال ـ تعالى ـ :(فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ . . .) الآية، والخطاب للنبى ، والمراد هو وأمته ، على أنه المقصود به أصالة ، وأمته تبعًا ، وقال الحسن : هو خطاب لكل سامع ، وجوز غير واحد أن يكون الخطاب لمن بسط له الرزق .

أى : فأعط ذا القربى حقه من الصدقة وسائر المبرات صلة للرحم . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله ـ عز وجل ـ حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة ، وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على وجه النّدب ، وقد فضل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » من القرطبي بتصرف .

وأعط المسكين وابن السبيل ما يستحقانه ، قال ابن عباس : أى : أطعم السائل الطواف والضيف المنقطع به الطريق ، والمشهور : أنه المنقطع عن ماله .

وعُبّر عن القريب بذى القربى فى جميع المواضع ، ولم يُعبَّر عن المسكين بذى المسكنة ؛ لأن القرابة ثابتة لا تتجدد ، ولا يقال : ذو فى الأغلب إلّا فى الثابت ، ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرر منه الرأى الصائب : فلان ذو رأى ، وتكاد لا تسمعهم يقولون لمن أصاب مرة فى رأيه كذلك ، والمسكنة لكونها تطرأ وتزول لم يُقل فيها ذلك .

(ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) : أى إن الإتيان المفهوم من الأمر خير فى نفسه أو خير من كل عمل آخر ، للذين يقصدونه ـ عز وجل ـ بمعروفهم خالصًا يأملون به النظر إلى وجهه يوم القيامة ، وهو الغاية العظيمة والرجاء المأمول .

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : حيث حصلوا بإنفاق مالهم النعيم المقيم ، لا الذين بخلوا بما أوتوا ولم ينفقوا شيئًا .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا) : الربا : الفضل والزيادة ، وبابه : نَصَرَ .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ) : أى صدقة تطوع ، لأن السورة مكية ، والزكاة فرضت فى المدينة .

التفسير

٣٩ـ (وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ اللهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) :

عن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يهدى ليثاب ما هو أفضل منه ، لا له ولا عليه ، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم . وعن ابن عباس أنه أريد به هدية الرجل الشىء يرجو أن يثاب أفضل منه ، فذلك الربا الذى لا يربو عند الله ، ولا يؤجر صاحبه ، ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية ، وبهذا قال عكرمة .

والمعنى : وما أعطيتم من ربا ـ فيما تهدونه لسواكم ليزيد ويزكو فى أموال الناس الذين أعطيتموهم إياه بأن يحصل لكم أكثر منه فلا يزيد عند الله ، ولا تثابون عليه لأنكم لم تريدوا

به وجهه — تعالى — ولكن لا إثم فيه ، فما يأخذه المعطى من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام ودافعه ليس بآثم (فهو مباح[١] وإن كان لا ثواب فيه) كما قال ابن كثير .

وقرئ : (أَتَيْتُمْ) بدون مدّ ، أى : وماجئتم من عطاء ربًا ، أو فعلتم ، وتسمية الهدية المذكورة ربًا لأنها سبب للزيادة ، وقيل : إن الآية نزلت فى الزيادة التى حرمها الشارع . قال السدى : إن الآية نزلت فى ربا ثقيف ؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا ، وتعمل به فيهم قريش .

(وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ) : أى وما أعطيتم من صدقة تطوع تبتغون بتلك الصدقة وجهه — تعالى — خالصًا فلا تطلبوا عليها مكافأة ، ولا يدفعكم إليها رياءٌ ولا سمعة .

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) أى : هم الذين ضاعفوا ثوابهم وجزاءهم عند الله ببركة الصدقة إلى عشر أمثالها أو أكثر ، كما قال — تعالى — : « مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً »[٢] ، وكما فى الصحيح : « وماتصدق أحد بعدْل تمرة من كسب طيب إلّا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربّى أحدكم فُلُوَّه[٣] أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » ، وقوله — سبحانه — :

(فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) : التفات حسن من الخطاب إلى الغَيبة لإفادة التعميم ، فكأنه قال : من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين .

وأتى بالجملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة .

٤٠ — (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أثبت الله — سبحانه — فى هذه الآية لوازم الألوهية وخواصها لذاته ، وهى الخلق ، والرزق والإماتة والإحياء ، ثم نفى هذه اللوازم عمَّا اتخذوهم شركاء له — تعالى — بقوله :

---

(١) قيل : كان هـذا حراما على النبى ﷺ على الخصوص . قال الله — تعالى — : « ولا تمنن تستكثر » اهـ : القرطبى .

(٢) من الآية رقم ٢٤٥ البقرة .

(٣) الفلو : المهر الصغير . والفصيل : ولد الناقة ؛ لأنه يفصل عن أمه .

(هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ) :أى لا يقدر أحد من شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله على فعل شيء من خواص الأُلوهية ، لأنه – جل وعلا – هو المختص بها ، وقد سئلوا فلم يجيبوا عجزًا .

ويفهم من ذلك عدم صحة الشركة إذ لا تقبل ولا تعقل شركة ما ليس بإله لمن هو إله لتجرده من لوازم الأُلوهية التى انفردت بها الذات العلية .

ولتأكيد تنزهه عن الشركاء قال – تعالى – : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى تقدس وتنزه – جل وعلا – عن أن يكون له شريك أو مثيل أو ولد أو والد ، وإنما هو الأحد الفرد الصمد ، وإطلاق لفظ (الشركاء) على آلهتهم الباطلة لأنهم كانوا يسمونهم الآلهة والشركاء ، ويقدمون القرابين لها .

(ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ): الفساد؛ ضد الصلاح ، والمراد به : الجدب والقحط وكثرة المضار .

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ): أى؛ بما تحملت من الإثم ، يقال : كسب الإثم ، واكتسبه : تَحَمَّله .

(عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ): عاقبة كل شيء : آخره ونهايته .

التفسير

٤١ - (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

ظهر الفساد فى البر والبحر بالجدب والقحط ، والغلاء الشديد ، وذهاب البركة ، وكثرة المضار التى تلحق الناس والدواب ، والنبات لانقطاع المطر أو قلته ، وغير ذلك من كوارث البر والبحر . والبر والبحر هما المشهوران المعروفان فى اللغة وعند الناس ، وقال قتادة : البر : الفيافى ومواضع القبائل وأهل الصحارى ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحارًا لسعتها ، وعن مجاهد : البر : البلاد البعيدة من البحر . والبحر : السواحل والمدن التى عند البحر . وظهور الفساد فى البر والبحر بسبب شؤم ما فعله الناس من المعاصى والذنوب .

وقد ابتلاهم - سبحانه - بالفساد فى البر والبحر : (لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة لكى يرجعوا عمَّا هم فيه من المعاصى بالتوبة والإقلاع عن الذنب ، كما قال - تعالى - : « وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »[1] .

والآية تشير إلى حكم عام فى كل فساد يظهر إلى يوم القيامة .

٤٢ - (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) :

هذا القول الكريم مسوق لتأكيد تسبب المعاصى فى غضب الله ونكاله ، أى : قل لهم - أيها الرسول - : سِيرُوا فِى الْأَرْضِ لِتَنظُرُوا كَيْفَ أهلك الله الأمم السابقة ، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ، ففى ذلك عظة وعبرة لردع العصاة (كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ) :مسوق للدلالة على أن كثرة الشرك شؤم على غير المشركين ؛ لأنه تهويل لأمر الشرك وتقبيح وأنه فتنة لاتصيب الذين ظلموا خاصة .

---

(١) الأعراف : ١٦٨

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ) : الوجه معروف ، أو هو مجاز عن الذات ، وإقامته : توجيهه ، والدين القيم : الدين المستقيم وهو الإسلام .

(مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ) : لايرده الله عنهم ، وهو يوم القيامة .

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) يتفرقون . من : التصدُّع ، وهو التفرق ، وأصله : يتصدعون فقلبت تاؤه صادًا وأُدغمت فى الصاد .

(يَمْهَدُونَ) : أى يوطئون لأنفسهم منازل فى الجنة ، كما يوطىء الرجل لنفسه فراشًا ليستريح فى مضجعه والمهد ، والمهاد : الفراش الممهد .

التفسير

٤٣ـ(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) :

أى : فاتجه بذاتك قلبًا وروحًا وجسدًا نحو الدين الكامل الاستقامة وهو الإسلام ، من قبل أن يأْتى يوم لا مرد له من الله بعد أن يجىء به ، وإذا لم يرده ـ سبحانه ـ لم يتهيأْ

لأحد ردّه ، وذلك هو يوم القيامة ، ويوم إذ يجيء يتفرق الناس إلى فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، وقيل : يتفرقون تفرُّق الأشخاص ، على ما ورد فى قوله - تعالى - : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ »[1] ورجح هذا بأنه المناسب ، لأن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين لا يدرون ماذا يصنعون ، ولا ما يصنع بهم .

٤٤ - (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) :

أى : كل من كفر فعليه وبال كفره بأن يصليه الله نار جهنم خالدًا فيها ، لا يموت ولا يحيا ، وكل من عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون ويُعدون مَنزلًا فى الجنة يتخذونه مستقرًا ومقامًا ، شأنهم فى ذلك شأن من يمهد لنفسه ويوطئه ، لئلا يصيبه فى مضجعه ما يؤذيه من نتوء أو قضض[1] ونحوهما ، وجمع الضمير فى قوله : (فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) باعتبار معنى (مَنْ) ويروى ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير : (فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) قال : فى القبر ، والظاهر أن هذه التوطئة لما بعد الموت فى القبر وغيره .

وتقديم الجار والمجرور فى الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلّا على الكافر ، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه .

٤٥ - (لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) :

متعلق بيمهدون علة له ، أى : يمهدون لأنفسهم منزلًا وموئلا فى الجنة ؛ لأن الله يجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ما قدموا مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ، إنه لا يحب الكافرين لكفرهم ، فلذا أبعدهم عن رحمته وعاقبهم ، وتفضل بحسن الجزاء على المؤمنين الصالحين .

---

(١) الآية رقم ٤ من سورة القارعة .

(١) القضض : ما تفتت من الحصى .

(وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَمِنْ آيَاتِهِ) : أى ومن دلا ئل قدرته .

(مُبَشِّرَاتٍ) : بالمطر لأنها تتقدمه .

(وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) : وهى نزول المطر وحصول الخصب .

(وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ) : أى ولتسير السفن فى البحر عند هبوبها بأمره .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى ولتشكروا نعم الله عليكم .

التفسير

٤٦ -(وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : ومن آيات الله الدالة على عظيم ماتفضل به على خلقه : إرسال الرياح لتبشركم بالمطر لأنها تسبقه وتدل عليه ، وليذيقكم من فيض رحمته التى تتمثل فى المطر وحصول الخصب وسائر منافع الرياح ، ولتكون سببًا فى إجراء السفن فى البحر عند هبوبها بأمره - سبحانه - وتقديره ، وقد ذكر فى التنزيل جريان الفلك (بِأَمْرِهِ) - تعالى - لأن الريح قد تهب ولا تكون مواتية لجريانها ، فلابد من انضمام أمره - تعالى - للريح حتى تأتى بالمطلوب ، وإلَّا تعين إرساء السفن ، والاحتيال فى حبسها .

فبتسيير السفن فى البحر بأمره - سبحانه - يحصل لكم ماتبتغونه من فضله بنقل التجارة فيه ، والانتفاع بخيراته .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى ولتشكروا نعمة الله عليكم فيما ذكر من هذه النعم الجليلة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ) : أى المعجزات ، والحجج البينات .

(فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا) : أى فعاقبنا الذين كفروا بإهلاكهم فى الدنيا . يقال : نَقَمت منه ، من باب : ضرب ، وانتقمت منه : عاقبته ، وَجَرَمَ وأجرم : اكتسب الإثم .

التفسير

٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذه الآية متوسطة بين ماسبق ومالحق من أحوال الرياح وأحكامها ؛ لتسلية الرسول ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له ، والوعيد لأعدائه ، وفى ذلك تحذير عن الإخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله - تعالى - : « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » حتى لايحل بهم ماحل بأولئك الأمم من الانتقام .

والمعنى : ولقد أرسلنا قبل مبعثك رسلًا إلى أقوامهم ، كما أرسلناك إلى قومك ، فجاء كل رسول بما يخصُّه من المعجزات والحجج البينات ، كما جئت قومك ببيناتك ، فآمن بعض وكذب بعض ، فانتقمنا ممن كفر بالإهلاك فى الدنيا بسبب إجرامهم الذى أوصلهم إلى التكذيب والكفر ، وكان نصر المؤمنين حقًّا علينا بإنجائهم مع الرسل وهو حق أوجبه - سبحانه - على نفسه تكرمًا وتفضلًا ، كقوله - تعالى - : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ »[1] ، وروى من حديث أبي الدرداء قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « ما من مسلم يَذُبُّ عن عِرض أخيه إلا كان حقًّا على الله – تعالى – أن يَرُدَّ عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) » ذكره النحاس والثعلبي والزمخشري وغيرهم .

وفي الآية مزيد تشريف وتكريم للمؤمنين ، حيث جعلوا مستحقين على الله – تعالى – أن ينصرهم ، وفيها إشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجلهم .

وظاهر الآية أن النصر لهم في الدنيا ، وفي بعض الآيات – كما يقول الآلوسي – ما يشعر بعدم اختصاصه بها .

قال ابن عطية : وقف بعض القراء على (حَقًّا) ، والمعنى : وكان الانتقام من المجرمين حقًّا ، وتكون جملة : (عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) مستأنفة لبيان ما تميز به المؤمنون ، وأنه – سبحانه – لا يخلف الميعاد .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾)

(١) الآية : ١٢ من سورة الأنعام .

المفردات :

(فَتُثِيرُ سَحَابًا) : أى تنشره .

(وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا) : قطعًا ، جمع كِسْفَة ، كَحِكَم : جمع حِكْمَة ، وقرئ : كِسْفا بسكون السين .

(فَتَرَى الْوَدْقَ) : أى المطر .

(يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) : من وسطه .

(لَمُبْلِسِينَ) : أى لساكتين متحيرين من شدة الحزن آيسين من النجاة .

(آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ): يراد برحمة الله : المطر .

التفسير

٤٨ ـ (اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ...) الآية .

مسوق لبيان ما أجمل فيا سبق من أحوال الرياح ، أى : أنه ـ سبحانه ـ يرسلها ، فتنشر السحاب ، وتدفعه بقوة ، وينميه الله ويجعل من القليل كثيرًا حتى يملأ أرجاء الأُفق ، ينشره ـ سبحانه ـ وفق مشيئته هنا وهناك ، سائرًا أو واقفًا ، مُطْبِقًا من جانب وغير مطبق من جانب آخر ، أو مطبقًا إطباقًا تامًّا ، ويجعله تارة أُخرى قِطَعًا متفرقة غير منبسطة ، فترى المطر يخرج من وسط السحاب ، فى حالتى البسط والتقطُّع ، فإذا أنزله الله على بلاد من يشاء من عباده وأراضيهم استبشروا فجأة بمجىء الخصب لحاجتهم إليه ، وترقبهم له ، وكان شأنهم قبل تنزيله ما حكاه الله بقوله :

٤٩ ـ (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) :

أى : وإن كان هؤلاء قبل أن يصيبهم المطر قَنِطِينَ مكتئبين ، قد ظهر الحزن عليهم ظهورًا بالغًا لاحتباس المطر عنهم .

وكرر لفظ : (مِن قَبْلِ) للتأكيد ، وأفاد التكرير ـ كما قال ابن عطية ـ سرعة تقلب البَشَر من الإبلاس إلى الاستبشار ، وذلك أن قوله ـ سبحانه ـ : (مِن قَبْلِ أن

يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ) يحتمل الفسحة فى الزمان حتى يحصل التقلُّب من اليأس إلى الاستبشار فجاء (مِن قَبْلِهِ) بعده مؤكِّدًا ، للدلالة على الاتصال ، ودفع ذلك الاحتمال . وقال الزمخشرى : أُكِّدَ ليدل على بُعْد عهدهم بالمطر ، فيفهم منه استحكام يأسهم .

٥٠ ــ (فَانظُرْ إِلَىٰٓ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب لكل من يتأتى منه النظر ، أى : فانظر نظر تفكير وتأمل إلى آثار رحمة الله المترتبة على إنزال المطر : من إحياء الأرض بعد موتها ، وإنبات الزروع وأنواع الثمار ، وفى الأمر بالنظر إلى إحياء الله ــ تعالى ــ للأرض إحياءً بديعًا بعد موتها ، التنبيه إلى عظيم قدرته ــ تعالى ــ وسعة رحمته ــ عز وجل ــ مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث .

يعنى : أن ذلك القادر العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها هو الذى يحيى النّاس بعد موتهم ، فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ؛ فإنه إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية ، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ، فهو استدلال بالشاهد على الغائب ، ثم ختمت الآية بقوله ــ سبحانه ــ : (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تقرير لمضمون ما قبله ، أى : أنه بالغ القدرة على جميع الأشياء التى من جملتها إحياء الموتى ؛ لأن نسبة قدرته ــ عز وجل ــ إلى جميع المقدورات سواءٌ ، وهذا من المقدورات بدليل الإنشاء والبدء .

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا) : أى فرأوا الزرع الذى أصابته الريح قد اصفر وشرع فى الفساد بعد خُضرة ونَضْرة .

(لَظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) : أى ليظلُّن مستمرين على كفرهم ، وفعله من باب : فَرِحَ .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ) : لأنهم قد أصيبوا بالصمم ، وهو ثقل السمع ، والمفرد : أصم ، وفعله من باب : فَتَح ، فيقال : صَمَّ يصَم - بفتح العين فيهما - وصَمِمَ - بالكسر - نادر .

(إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) : أى إذا أعرضوا عنك مولِّين ، يقال : دَبَر : وَلَّى ، كأدبر : قاموس .

(وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْىِ عَن ضَلَالَتِهِمْ) : أى لا تستطيع هداية من عميت بصائرهم ، والعُمْى : من أصابهم العَمَى ، وهو ذهاب البصر كله ، والعَمَى أيضًا : ذهاب بصر القلب والمفرد أعمى ، والفعل : كرضى : قاموس .

(فَهُم مُّسْلِمُونَ) : أى خاضعون .

التفسير

٥١ - (وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) :

أى : أُقسم لئن أرسلنا ريحًا يابسة - حارة أو باردة - على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب ، واستوى على سوقه فضربته الريح بالصفار ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضارته وشرع فى الفَساد ، ليظلُّن[1] من بعد اصفرار الزرع يجحدون ما تقدم من النعم التى أنعم الله بها عليهم ، ويصرون على كفرهم بالله .

وفى هذا مايشير إلى ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الإفراط والتفريط حيث إنهم إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمة الله ، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين ، فإذا أصابهم برحمته ، ورزقهم المطر ، أفرطوا فى الاستبشار ، فإذا أرسل عليهم ريحًا عظيمة فضربت زرعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله ، فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، وأن يشكروا نعمته عليهم بالطاعة ، ويحمدوه عليها ، ولا يفرطوا فى الاستبشار إذا أصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا احتبس عنهم المطر ، أو اعتراهم مايسوءهم ، ولكنهم عكسوا الأمر ، فأبوا مايجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم بكفرهم .

٥٢ - (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) :

تعليل لما يفهم من الكلام السابق كأنه قيل : لا تحزن عليهم لإعراضهم ، وعدم استجابتهم لك ، فكما أنك ليس فى قدرتك أن تُسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الذين فَقدوا القدرة على السمع ، وهم مع ذلك مدبرون عنك ؛ إذْ لو أقبلوا عليك لربما فطنوا الشىء من كلامك بما يرونه منك من رمز وإشارة ، فبصممهم وإدبارهم فقدوا كل وسيلة للفهم والإدراك للانتفاع بمواعظك ، فكانوا كالموتى فى عدم السماع .

(١) لظلوا هنا بمعنى المستقبل لأنه فى معنى جواب (إن) ولا يكون إلا مستقبلا ، ولذلك كان معناه ليظلن ، ويحسن وقوعه فى موضع المستقبل فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل : قاله الخليل وغيره .

٥٣ـ (وَمَآ أَنتَ بِهَادِ الْعُمْىِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ) :

فى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ أى : إن هداية هؤلاء الذين عميت بصائرهم ، وماتت قلوبهم ليست لك يا محمد ، بل هى إلى الله ــ تعالى ــ فإنه ــ سبحانه ــ بقدرته يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يَسُوْك إعراضهم عنك ، ولا تذهبْ نفسك عليهم حسرات ؛ لأنك لا تُسْمع مواعظ الله إلَّا المؤمنين الذين استمعوا إلى أدلة التوحيد ، مع استعدادهم للهداية التى خُلقت أسبابها فيهم ، فهؤلاء المؤمنون خاضعون مستجيبون منقادون لأوامر الله ــ سبحانه .

خاتمة :

قال الآلوسى : نُقل عن العلامة ابن الهمام أنه قال : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع ، استدلالًا بقوله ــ تعالى ــ : « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ » ونحوها من قوله ــ تعالى ــ : « وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ »[1] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر ، وحكى السفارينى فى البحور الزاخرة : أن عائشة ذهبت إلى نفى سماع الموتى ، ووافقتها طائفة من العلماء على ذلك ، ورجَّحه القاضى أبو يعلى من أكابر أصحابنا فى كتابه الجامع الكبير ، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم فى الجملة ، وقال ابن عبد البر : إن الأكثرين على ذلك وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، وكذا ذكره ابن قتيبة وغيره ، واحتجوا بما فى الصحيحين عن أنس عن أبى طلحة ــ رضى الله عنهما ــ قال : لما كان يوم بدر وظهر عليهم ــ يعنى : مشركى مكة ــ رسول الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فأُلقوا فى طَوِىٍّ ، أى : بئر من أطواء بدر ، وأن رسول الله ﷺ ناداهم ، يا أبا جهل بن هشام . يا أُمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإنى قد وجدت ما وعد ربى حقًّا . فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا روح لها ؟

---

(١) وقالوا : إن الأصل عدم التأويل ، والتمسك بالظاهر إلى أن يتحقق خلافه ، وأجابوا عن كثير مما استدل به الآخرون .

فقال : « والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » زاد فى رواية لمسلم عن أنس : « ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » إلى غير ذلك من الأدلة .

وأجابوا عن الآية : « وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُور » التى احتج بها أصحاب الرأى الأول ، فقال السهيلى : إنها كقوله - تعالى - : « أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ » أى : إن الله - تعالى - هو الذى يسمع ويهدى ، وقال بعض الأجلة : لا تسمعهم إلَّا أن يشاء الله - تعالى - أو لا تسمعهم سماعًا ينفعهم وقد ينفى الشئ لانتفاء فائدته ، وثمرته . انتهى ما ذكره الآلوسى بتصرف ، ومن أراد المزيد فليرجع إليه عقب تفسير الآية (٥٣) من سورة الروم ، والله الموفق .

* (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ) : ابتدأكم ضعفاء ، وقيل : خلقكم من أصل ضعيف ، وهو النُّطفة .

(ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) : حين بلوغكم الحلم والشبيبة فتلك حال القوَّة .

(ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) : ثم ردَّكم إلى أصل حالكم من الضعف بالشيخوخة والهرم .

التفسير

٥٤ - (اللهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) :

نبه الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة إلى بعض دلائل قوته ومظاهر قدرته وعظمته ونعمته ، وفى هذه الآية يشير إلى دليل آخر فى نفس العبد على قدرته - تعالى - ليتدبره كما قال - تعالى - : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »[1] .

وهذا الدليل هو تَنَقُّل الإنسان فى أطوار مختلفة ، من طور الضعف حين خلقه من النطفة بتحويلها وتطويرها ، وإخراجه من بطن أُمه ضعيفًا واهن القوى ، ثم إمداده بالقوّة بعد الضعف ، حيث يشتد قليلًا قليلًا حتى يصير شابًا قويّ البنيان ، ثم يتحول إلى طور الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمّة ، وتتغيّر الصفات الظاهرة والباطنة .

يفعل الله ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، ومن جملة هذا ما ذكر من التَّقَلُّب بين الضّعف والقوّة ، والشّيبة ، وهو العليم بتدبير خلقه القدير على إيجاد ما يريد .

وهذا التّرديد فى الأَحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع القدير ، العليم ، الحكيم .

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾)

(١) سورة الذاريات الآية : ٢١

المفردات :

(السَّاعَةُ) : القيامة ، صارت علمًا لها بالغلبة ، كالنَّجم للثريا .

(غَيْرَ سَاعَةٍ) : قطعة من الزمان قليلة .

(كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)[1] أى : مثل ذلك الصرف كانت تصرفهم الشياطين عن الحق إلى الباطل فى الدنيا .

(فِى كِتَابِ اللهِ) : فى اللَّوح المحفوظ ، أو فى علم الله وقضائه .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)[2] : ولا هم يُطْلَبُ منهم إزالة عَتْب الله ، أى : غضبه عليهم – وإزالته – بالتوبة والطاعة ، من قولهم : استعتبنى فلان فأعتبته ، أى : استرضانى فأرضيته وتركت عتبى .

التفسير

٥٥ – (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) :

يخبر الله – تعالى – عن جهل الكفار فى الدُّنيا والآخرة ، فنى الدُّنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون فيهم جهل عظيم أيضًا .

فمنه : حلفهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ، ومقصدهم بذلك عدم قيام الحجَّة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يصلحوا أمرهم ، أو عَدُّوا مدة بقائهم فى الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها ، والكثير الذى لا ينفع قليل ، والكلام على هذا تَحَسُّر على إضاعتهم أيام حياتهم ، (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) : أى مِثْل ذلك الصَّرف عن الحق إلى الباطل وعن الصِّدق إلى الكذب كانت تصرفهم الشياطين فى الدُّنيا ، والغَرَضُ من سوق الآية وصف المجرمين بالتمادى فى الكذب والإصرار على الباطل ، وهذا يناسب المعنى الأول .

---

(١) أفك : كضرب وعلم ، إفكا – بالكسر والفتح –: كذب ، وأفكه ، يأفكه ، أفكا : صرفه وقلبه – قاموس ج ٣ ص ٢٩٢ .

(٢) العتبى – بالضم –: الرضا ، واستعتبه : أعطاه العتبى ، كأعتبه ، وطلب إليه العتبى ، أ هـ : قاموس ج ١ ص ١٠٠

٥٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

فيردّ عليهم الذين آتاهم الله العلم من الملائكة والأنبياء والمؤمنين فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : لقد مكثتم فى الدنيا فترة كافية للعمل الصالح ، ولكنكم كفرتم ، فسجلت أعمالكم فى كتبه المسجلة لها إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه ، ولكنكم كنتم تجهلون أنه حق ، فتستعجلون به استهزاء ، وفى الآية دليل على فضل العلماء وعظيم قدرهم .

٥٧ - (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) :

أى : فيوم إذْ يقع ما تقدم من حَلِف الكفار وقَوْلِ أولى العلم لهم ، وذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين - فيومئذ - لا ينفع الَّذين كفروا اعتذارهم عمَّا فعلوه من إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرُّسل ، ولا يُقَال لهم : أَرْضُوا ربكم بتوبة وطاعة ، كما كان يقال لهم ذلك فى الدنيا ؛ لفوات أوان العمل .

والآية الكريمة إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم ولا ينجيهم من النار الاعتذار ولا يمنحون الرضا ، بسبب كفرهم ومعاصيهم .

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) : ولقد بيّنا لهم فى القرآن من كل صفة ، كأنّها فى غرابتها مَثَلٌ ، وَضَرْبُ المثل : ذكره وبيانه .

(مُبْطِلُونَ) : أصحاب أباطيل وَمُزوِّرون .

(يَطْبَعُ) : يختم .

(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ) : ولا يحملنَّك على الخِفَّة والقلق .

(الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) : لا يصدِّقون بالبعث ، ولا يؤمنون بالله ورسوله إيمانًا حقًّا .

التفسـير

٥٨ ـ (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ) :

أى : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن الحقّ ووضّحناه وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتّبعوه ، وقصصنا عليهم من كل صفة عجيبة الشأن كصفة الكفار المبعوثين يوم القيامة ، وما يقولون وما يُقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ، ولا يُسْمَع من استعتابهم ، ولئن أتيتهم بآية من الآيات ، أو بمعجزة من المعجزاتَ التى اقترحوها أو غيرها ليقولَنَّ الذين كفروا لك وللمؤمنين الذين اتّبعوك : إن أنتم إلّا أصحاب أباطيل مُزَوِّرون ، وذلك لشدَّة عُتُوِّهم وعنادهم وقساوة قلوبهم .

٥٩ ـ (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : مثل ذلك الختم يختم الله ـ تعالى ـ على قلوب الجهلة الذين لا يطلبون العلم ، ولا يتحرّون الحق ، بل يصرون على خرافات اعتقدوها ، وتُرّهات ابتدعوها ، فإن الجهل يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المُحِق .

قال العلامة الزمخشرى فى الكشاف : ومعنى طبع الله ، أى : منع الألطاف التى ينشرح لها الصدر حتى تقبل الحق ، وإنما يمنعها مَنْ عَلِم أنها لا تُجْدى عليه ، ولا تُغْنِى عنه ، فكأنَّه قال : كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يُسَمُّوا المُحِقِّين مُبْطِلين وهم أعْرَقُ خلق الله فى تلك الصِّفة . اهـ : باختصار ج ٣ ص ٢٠٩

٦٠ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) :

أي : إذا علمت حالهم ، وطبع الله - تعالى - على قلوبهم فاصبر على مكارههم من الأقوال الباطلة والأفعال السّيئة ، إن وعد الله حق ، وقد وعدك - عز وجل - بالنّصر وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ، ولابدّ من إنجازه والوفاء به ، لأن وعْدَه - سبحانه وتعالى - لا يتخلّف ولا يحملنك على القلق وعدم الصّبر الّذين لا يُؤمنون بدعوتك ، بل كذّبوا بها وآذوك بأباطيلهم وهم شاكّون ضالّون لا يُسْتَبعدُ أمثالُ ذلك منهم .

وفى الآية من إرشادِه - تعالى - لنبيّه ﷺ وتعليمه - سبحانه - له كيف يتلقّى المكاره بالصبر انتظارًا للفرج ، مالا يخفى .

سورة لقمان

وآياتها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصافات

وسبب نزولها : أنّ قريشًا سألت الرّسول عن قصّة لقمان مع ابنه فنزلت .

مناسبتها لما قبلها : ذكر العلماء أوْجُهًا كثيرة لمناسبة هذه السُّورة لما قبلها ، ونقتصر على ما يلى :

ذكر فى السُّورة السابقة – سورة الروم – قوله – تعالى – : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وذكر هنا فى سورة لقمان قوله – تعالى – : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وكلتاهما تفيد إمكان البعث وسهولته على الله – تعالى – كذلك جاء فى السورة السابقة قوله – عز وجل – : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال – عز وجلّ – فى هذه السورة : « وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » فذكر – سبحانه – فى كل من الآيتين قسمًا لم يذكره فى الأخرى ، ففى الأُولى ذكر الفريق المشرك ، وفى الثانية ذكر الفريق المؤمن ، وبيَّن فى الآيتين طبيعة الناس وما جبلوا عليه ، إذا مسَّهم مكروه دَعَوْا ربهم خاشعين مُخْبتين ، فإذا نَجَّاهم من شدَّتهم نسى أكثرهم فضله ، وجحدوا آلاءه ، ورجعوا إلى شركهم ، وبقى قليل منهم .

كذلك ذكر فى السورة الأُولى هزيمة الروم ثم غلبتهم بعد قتال مرير بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تَحَارَبَا عليها وخرجا بذلك عن مقتضى الحكمة ، وذكر فى سورة لقمان قصَّة عبدٍ حكيمٍ زاهد فى الدنيا غير مكترث بها ولا مُلتفت إليها ، أوْصَى ابنه بما يأْبَى القتال، ويقتضى الصبر والمسالمة ، وبَيْنَ الأَمرين مِنَ التقابل ما لا يخفى .

مقاصد السورة

صُدِّرت السُّورة الكريمة (بالٓمٓ) إفْحَامًا للكافرين الذين تحدَّاهم القرآن أن يأْتوا بمثله مع أنه مُؤَلَّف من كلمات ذات حروف كالّتى ينطقون بها فى لغتهم ، وتنبيهًا للآذان لتستعدَّ لسماع وقبول ما يُتْلَى عليها من الْهَدْىِ الرَّبَّانى ، ثم أشارت إلى القرآن الحكيم باسم

الإشارة الذى يدلّ على البعد للفت النّظر إلى علوّ منزلته ، وذكرت أخلاق المحسنين التى تمكنُوا بها من الهدى والفلاح دون غيرهم ، وعقبت ذلك بذكر نوعين من الناس : ضالٌّ مُضِلّ يُعْرض عن الإيمان حينما يُعْرض عليه ، ومؤْمن صالح ، وبينت جزاء كل ، ثم أخذت السُّورة تلفت الأنظار إلى بعض مظاهر قدرته ودلائل نعمته ، وذكرت تحدِّىَ الرَّسول للمشركين فى قُوَّة وصلابة بأَنَّ هذه المظاهر وتلك الدلائل مخلوقة لله ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه من الشركاء الذين عبدتموهم ، ولن يجدوا جوابًا لأن الظالمين بشركهم فى ضلال مبين .

ثم ذكرت وصايا لقمان لابنه وما اشتملت عليه من أخْلَاق ونَهْىٍ عن الشرك وأمْر ببرّ الوالدين .

ثم عرضت لما خلقه الله للإنسان وأكرمه به من نعم ظاهرة وباطنة ، وتحدَّثت عمن يجادل فى الله بغير علم وإذا دعى إلى الإيمان واتِّباع ما أنزل الله اعتذر باتباع الآباء وتقليدهم فيما كانوا عليه ، مع أنه ضلال يؤدى بهم إلى عذاب النار ، ورفعت السُّورة من قدر من يَتَّجه إلى الله بوجهه ، ويفوّض إليه جميع أمره ، فقد تعلَّق بأقوى الأسباب التى توصله إلى رضا الله ، وأوصت الرسول بألَّا يهتمّ بكُفْر من كَفَر ، فسيرجع إلى الله ويذوق وبال أمره ، ثم ذكرت الآيات أنَّ المشركين إذا سُئِلوا عمن خلق السموات والأرض يقولون: هو الله ، وهم بإقرارهم هذا لا يعلمون أنهم قد أقاموا الحجة على أنفسهم بفساد عقيدتهم .

ثم صوَّرت السُّورة مدى عظمة الله ، وعلمه ، وكلامه ، بأنه لو صار كلُّ أشجار الأرض أقلامًا ، ومياه البحار الكثيرة مِدَادًا تُكْتَب به كلمات الله لَفَنِيت الأَقلامُ وَنَفِدَ المداد ، وما نفدت كلمات الله ، ومدى قدرته بأن خَلْقَهم وَبَعْثَهم كَخَلْق وبعْث نفس واحدة ، ومدى قدرته وفضله بأنه يُولِج اللَّيل فى النَّهار ، ويُولِج النَّهار فى اللَّيل وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمًّى ، وأن الفلك تجرى فى البحر بنعمته ليُريكم من آياته ، وأن الناس يلتجئون إليه فى الظُلمات .

وأَمَرَتْ السورةُ بتقوى الله والخشية من يوم الحساب ، حيث يُجَازَى الناسُ على أعمالِهم وَحذرت النَّاسَ من أن يُفْتَنُوا بمباهِجِ الدُّنيا أو يُخْدَعوا بوَسْوَسَةِ الشَّيطان ، وخُتِمت السُّورة ببيان مفاتح الغيب وما استأْثَرَ اللهُ بعلمه .

ومِمَّا تَقَدَّم يتَّضح أنَّ أهم ماتَنَاوَلَتْه السُّورة من أغراض مايلى :

(١) إثبات عقيدة التوحيد التى من أجلها أرسل الله جميع الرسل ، وقد اشتملت السورة على مجموعة من الآيات الكونية التى تدلُّ على أنَّ مَنْ خَلَقَ هذا الكون قوىٌّ قاهر ، وعظيم قادر ، ومُنْعِم متفضِّل جدير بأَن يُعْبَد ، وأن الشرك أعظم الظلم .

(٢) الحث على مكارم الأَخلاق التى جاءت فى وصية لقمان لابنه من إقامته الصلاة ؛ وإيتاء الزَّكاة ، والأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، والصبر ، والتواضع ، وهذه هى سمات المجتمع الفاضل .

(٣) إعمال العقل والتَّفكير فى ملكوت السمٰوات والأَرض .

(٤) ذم التَّقليد لأَنَّه إنكار للعقل وتعطيل له .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(الْحَكِيمِ) : ذِى الحكمة ، أو الحكيم قائلهُ .

(هُدًى) : دلالة مُوصلة إلى المقصود ، وهو مصدر هَدَيْتُ فلانا الطريق : إذا دللته عليه .

(يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) : معنى إقامتها : تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وآدابها ، من أقام العود : إذا قومه .

(يُوقِنُونَ) : يؤمنون أقوى الإيمان .

(أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ) : أى أولئك المؤمنون المحسنون فى أعمالهم مُتَمَكِّنُون من الهدى الذى جاءهم من ربهم .

التفسير

١ - (الٓمٓ) : الله أعلم بمراده ، وقيل : ابتدأ الله بعض السور بمثل هذه الحروف ، ليشير إلى أن القرآن مؤلف من كلمات ذات حروف من جنس مايؤلف منه العرب كلامهم ، وقد أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله ومحمد مثلهم ، فتلك حجة على أنه من عند الله ، أو ليُنبه العقول والأسماع ويشدَّها إلى الاستماع والإنصات لما يتلى .

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآيات العظيمة الرفيعة القدر والمنزلة آيات القرآن الكريم المكتوب ، المشتمل على الحكمة والصواب والعلم النافع .

٣ - (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآيات هداية كاملة ، ورحمة شاملة للذين يعملون الحسنات التى ذكرها فى الآية بعدها ، أو الذين يعملون جميع مايحسن من الأعمال ، ثم خص الله منهم (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) لفضل اعتدادهم بها لما لها من أثر فعال فى حياة الفرد والمجتمع .

٤ - (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

المُحسنون هم الذين يُقيمون الصَّلاةَ ، ومعنى إقامتها : تأديتها على الوجه الأكمل بالإتيان بها تامة دون نقص فى فرائضها وآدابها ، والدَّوام عليها ، والمحافظة على أوقاتها ، وجمع الهمة عند أدائها وعدم الفتور فى أدائها ، ويؤْتون الزَّكاة ، أى : يُعطونها مُستحِقِّيها ،

وهم الأصناف الذين ذكرهم الله فى القرآن : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ ... » الآية [١]

والزكاة هى العلاج الربانى الذى عَالَجَ به العليم الحكيم أمراضَ البشرية كُلها ، وحلَّ به مشكلة الفقر ، وحقَّق به العدالة الاجتماعية التى أعجزتْ نُطُسَ الأطباء [٢] ، وأكابر الحكماء ، وقامت من أجلها مذاهب ، ونشأت فلسفات ، وكلٌّ منها يضرب فى أَوْدِية الضَّلال مادام بعيدا عن الْهُدَى والعلاج الإلٰهى .

وهم بالحياة الآخرة يؤمنون أقوى الإيمان وأعظمه .

٥ - (أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أولئك المؤمنون المُحسنون الموصوفون بما سبق من الصفات مُتَمَكِّنون من الهدى الذى جاءهم منحة من ربهم ، وأولئك هم الفائزون حقا دون سواهم ، والاستعلاء فى قوله - تعالى - : (عَلَى هُدًى) تمثيل لتمكُّنهم من الهدى واستقرارهم عليه ، وتمسكهم به ، ومعنى (هُدًى) : لُطْفٌ وتَوفيقٌ استعانوا بهما على أعمال الخير والترقِّى إلى الأفضل فالأفضل ، ونكَّر (هُدًى) لتفخيمه ، أى : أنهم على هدى لايُبْلَغ كُنْهُهُ ولا يُدْرَكُ قدْرُه .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾)

(١) سورة التوبة الآية ٦٠

(٢) أى : أمهرهم .

المفردات :

(لَهْوَ الْحَدِيثِ) : كل ماشغل عن عبادةِ الله وذكره من الغناء والأضاحيك والخرافات وغيرها ، وقد رُوى ذلك عن الحسن .

(سَبِيلِ اللهِ) : دينه الموصل إليه ، أو كتابه الهادى إليه .

(هُزُوًا) : مهزوءًا بها وسخرية منها .

(وَلَّى) : أعرض عنها غير مُعتد بها .

(مُسْتَكْبِراً) : مُبالِغا فى التكبر .

(كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) : مع أنه سامع .

(كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْراً) : الوقر الصمم كليا أو جزئيا ، وهو مانع من السماع .

(فَبَشِّرْهُ) : أعلمه ، وذكر البشار للتهكم .

التفسير

٦ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

لما ذكر الله - تعالى - حالَ السعداء وهم الَّذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، ذكر عقبه حال الأشقياء الذين أعرضوا عنه ، ولم ينتفعوا بهديه ، وأقبلوا على استماع الباطل وأحاديث اللهو والمجون وما لا خير فيه كالمزامير والغناء .

وفى أسباب النزول للواحدى ، عن الكلبي ومُقَاتِل : أن النضر بن الحارث كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم - وفى بعض الروايات : كتب الأعاجم - فيرويها ويُحَدِّث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدِّثكم بحديث عاد وثمود وأنا أُحَدِّثكم بحديث رُستم وأخبار الأكاسرة ، فيستحلون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت .

والمعنى : ومن الناس من اهْتَدَى وهَدَى ، ومنهم من ضل وأضل ، فكان يشترى باطل الحديث وما لا خير فيه من الكلام ، ويقصه على الناس وينشره بينهم ، ويدعوهم إليه ويحسِّنه عندهم ؛ ليصرفهم ويصدهم عن دين الله ، أو عن الاستماع إلى كتابه الهادى

إليه ، بغير بصيرة حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، جهلا منه بما هو عليه من إثم وما يرتكبه من جُرْم ، ويتخذ آيات الله ووحيه سخرية ـ الذين يفعلون ذلك ـ لهم عذاب مُهِينَ ومذل لهم ، لما اتَّصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه ، ودعوة الناس إليه . وقول الله ـ تعالى ـ : (يَشْتَرِى) فى الآية : إما من الشِّراء المعروف على مارُوى عن النَّضر بن الحرث من شِرائه كتب الأعاجم ، أو نحو قوله ـ تعالى ـ : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »[١] : أى استبدلوا الكفر بالإيمان واختاروه عليه ؛ وعن قتادة : اشتراؤُه : استحبابه ، يختارون حديث الباطل على حديث الحق .

٧ ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

وإذا تُقْرأُ على هذا الضَّال آيات الله أعرض عنها غيرَ مُعْتَدٍّ بها متكبِّرا مُبَالغا فى التكبّر ، وحاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ، كأَنَّ فى أذنيه صَمماً وثُقْلا مانعا من السّماع فأَنذره ـ أيها الرسول ـ بأن العذاب المفرط فى الإيلام لاحق به لا محالة يوم القيامة يؤلمه كما تألَّم بسماع كتاب الله وآياته ، وتَصَام معرضا عنها ومابه من صمم ، وقوله ـ تعالى ـ : (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) فيه رمز إلى أنَّ من سمعها لايُتَصَوَّر فيه التَّوْلية والاستكبار لما فيها من الأمور المُوجبة للإقبال عليها والخضوع لها . وقوله ـ تعالى ـ : (كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) أصل معى الوقْر : الحمل الثقيل ، استعير للصمم ، ثم غلب حتى صار حقيقة فيه .

حكم الغناء : أخرج البخارى فى الأَدب المفرد ، وابن أَبى الدُّنيا ، وابن جرير ، وابن أَبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقىّ فى سننه : عن ابن عباس أنه قال : «لَهْوَ الْحَدِيثِ » : هو الغناء وأَشباهه[٢] ولقد عرض المفسِّرون لحكم الغناء وأَطالوا فيه الكلام وبخاصة العلامة الآلوسى ،وإليك نبذه مختصرة فى هذا الموضوع :

الغناءُ الذى يُحرك النفوس ويبعث على إثارة الشهوة لما فيه من شعر يُشَبِّب[٣] فيه بالنِّساء ويحث على الفجور بذكر الخمور والمحرمات ، لايُخْتَلَفُ فى تحريمه ، لأَنه اللهو المذموم باتفاق . بل حكى بعضهم الإجماع على حرمته فى جميع الأَديان .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦ (٢) الآلوسى .
(٣) التشبيب : النسيب بالنساء وذكر محاسنهن .

أخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وغيرهم ، عن رسول الله ﷺ قال : «لاتبيعوا القِيان ولاتشتروهنَّ ولاتُعلِّموهنَّ ، ولاخير فى تجارة فيهنَّ ، وثمنهنَّ حرام » فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . » إلخ ذكر ذلك الآلوسى والكشاف .

أمّا من سَلِم من ذلك ، ففى «الدر المختار» : التغنِّى لنفسه لدفع الوحشة لابأس به عند العامة على مافى « العناية » وصحّحه العينى وغيره ، وإليه ذهب شمس الدين السّرخسى ، قال : ولو كان فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقا ، ومنهم من أجازه فى العرس كما جاز ضرب الدُّفِّ فيه ، ومنهم من أباحه مطلقا ، ومنهم من كرهه مطلقا . انتهى كلام الدّر - ذكر ذلك الآلوسى ، قال : الآلوسى : ومثل الاختلاف فى الغناء الاختلاف فى السَّمَاع ، فأباحه قوم كما أباحوا الغناء واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى عن عائشة قالت : «دخل عَلَىَّ النبى ﷺ وعِنْدِى جاريتان تُغَنِّيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، وفى رواية لمسلم تَسَجَّى بثوبه ، ودَخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمارةُ الشيطان عند النبىّ ﷺ ؟ . فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال :« دعهما » فلما غفل غمزتهما فخرجتا ، وكان يوم عيد . والحق أنَّ الغناء الذى لايُحرِّك الشّهوة ، ولايحثُّ على الفجور وشرب الخمور ، يجوز فى المناسبات كالعيدين ، كما ورد فى حديث البخارى السابق عن عائشة ، وكالعرس؛ لما ورد أنَّ الرسول حينما علم بزواج فتاة قال : « هلا بعثتم معها من يقول : [1] .

أتيناكم أتيناكم فحيُّونا نُحَيِّيكم
فلولا الحبة السمرا ءُ لم نحلل بواديكم »

---

(١) فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٧ ص ٢٨٩ أن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : كانت النساء إذا تزوجت المرأة أو الرجل خرج جوارى الأنصار يغنين ويلعبن فروا فى مجلس فيه رسول الله وهن يغنين ويقلن :

أهدى لها زوجها أكبشا يبحبحن فى المربد
وزوجها فى النادى يعلم ما فى غد

فقال : « سبحان الله ، لا يعلم ما فى غد إلا الله ، لا تقولوا هكذا ، وقولوا :

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم

قال البيهقى : هذا مرسل جيد : هامش جمع الجوامع ص ٢٢٣٨ العدد التاسع عشر من الجزء الثانى .

وعند التّنشيط على القيام بالأعمال الشّاقّة كغناء وأناشيد أصحاب الحرف والصناعات ، وكحداء الإبل للصبر على قطع المفاوز واجتياز الصحراء ، كما يجوز سماع ذلك ، والله أعلم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ النَّعِيمِ) : أى جنات النِّعم الكثير .

(وَعْدَ اللهِ حَقًّا) : أى هذا ثابت لامحالة ؛ لأنّه وعد الله ، ووعده لايتخلّف .

(الْعَزِيزُ) : الذى لايغلبه شيء .

(الْحَكِيمُ) : الذى لايفعل إلا ماتوجبه الحكمة ، فهو يضع الشيء فى موضعه .

التفسـير

٨ ، ٩- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

فى هاتين الآيتين بيان حال المؤمنين بآياته - تعالى - إثر بيان حال الكافرين بها ، أى : إنَّ الذين آمنوا بالله وبآياته وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة لهم جنَّات يتنعمون

فيها بأنواع الترف ، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنِّساء وغير ذلك مما لايخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون لايظعنون ، ولا يَبْغُون عنها حِوَلا ، بل يبقون فيها على وجه الخلود ، وهذا حاصل لامحالة ؛ لأنه وعد الله ، والله لايخلف الميعاد ، وهو العزيز الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ولايغلبه شىء فيمنعه من إنجاز وعده ووعيده ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، الذى يضع الشىء فى موضعه .

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾)

المفردات :

(بغَيْرِ عَمَدٍ) : عَمَد وعُمُد : جمع عمود ، وعماد ، وهو : مايُعْمَد به ، أى : يُسْنَد .

(رَوَاسِىَ) : جبالا ثوابت أو شوامخ .

(أن تَمِيدَ) : أى لئلا تضطرب وتتحرك .

(وبَثَّ) : ونشر وذرأ .

وأصل البثّ : الإثارة والتَّفريق ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : «فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا »[1].

(زَوْجٍ) : صنف ونوع . (كَرِيمٍ) : حسن شريف ، كثير المنافع .

(١) سورة الواقعة ، الآية رقم : ٦

(خَلْقُ اللهِ) : مَخْلُوقه . (فَأَرُونِي) : فأعلمونى وأخبرونى .

(مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ) : ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة ؟ .

التفسير

١٠ - (خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

استئناف جئ به للاستشهاد بما فصّل فيه على عزّة الله التى هى كمال القدرة والغلبة ، وحكمته التى هى كمال العلم وإتقان العمل .

والمعنى : خلق السّموات بغير عمد مرئيّة ، فإن الله - سبحانه- أمسكها بنظام محكم غير مرئى يحفظها من السّقوط أو الانتثار ، وبعد أن ذكر الله - عزَّ وجلَّ - صنعه العجيب فى حفظ السموات بيّن صنعه الحكيم فى حفظ الأرض حيث وضح سبحانه أنه جعل فى الأرض جبالا شاهقة ثوابت حتى لا تهتزّ وتضطرب بكم ، والحكمة اقتضت خلقها على حال لو خلت معه من الجبال لَمَارَتْ واضطربت ، ونشر فيها من كل الحيوانات التى تدبّ وتتحرّك ، ولما قرّر -سبحانه- أنه الخالق نّبه على أنه الرازق بإنزاله من السماء ماءً وإنباته بسببه من كل صنف بهيج كثير المنافع ، حسن المنظر .

والالتفات إلى ضمير العظمة فى الفعلين : (وأنزلنا - فأنبتنا) لإبراز مزيد الاعتناء بهما .

١١ - (هَٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) :

هذا الذى ذكره الله - تعالى -: فى الآية السابقة - من إيجاد السّموات والأرض ومافيهما ومابينهما مخلوق لله ، صادر عن إرادته وفعله وتقديره وحده لا شريك له ، فأخبرونى ماذا خلق الذين من دونه مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد حتى يكونوا شركاء له ، بل الظّالمون بإشراكهم فى ضلال واضح وجهل وعمى ظاهر لاخفاء فيه ، ثم انتقل من تبكيتهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال المبين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة لاستحالة أن يفهموا شيئا فيهتدوا به إلى العلم بفساد ماهم فيه فينزجروا

عنه ، حيث قال :(بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) ، والتعبير بقوله : (بَلِ الظَّالِمُونَ) بدل الإضمار : للدّلالة على أنّهم بإشراكهم ظالمون بوضعهم الشىء فى غير موضعه ، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(لُقْمَانَ) : هو – على ماذكر الكشّاف – لقمان بن باعوراء بن أُخت أيّوب – عليه السّلام – أو ابن خالته ، والذى عليه المحقّقون : أنّه كان رجلا صالحا حكيما ، ولم يكن نبيّا ، ولقد سجل الله فى القرآن نصيحته لولده ، وماسوى ذلك فإسرائيليات تفتقر إلى الدليل .

(الْحِكْمَةَ) : هى على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس : العقل والفهم والفطنة .

(لِابْنِهِ) : قيل : تاران – على ماقاله الطّبرى – وقيل : ماثان ، وقيل : غير ذلك والله أعلم بالحقيقة .

(يَعِظُهُ) : ينصحه ويخوّفه .

(يَابُنَىَّ) : تصغير إشفاق ومحبّة ، لاتصغير تحقير .

(إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ) : لما فيه من وضع الشىء فى غير موضعه .

(عَظِيمٌ) : لما فيه من التّسوية بين من لانعمة إلا منه ومن لانعمة تصدر عنه .

التفسير

١٢ - (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) :

كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل .

والمعنى : ولقد أعطينا لقمان العقل والفهم والإصابة فى القول ، وأمرناه أن يشكر الله -عزَّ وجلَّ- على ماآتاه ومنحه من الفضل الذى خصَّه به دون سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه لأنه إنما يعود نفع ذلك وثوابه عليه ، ومن كفر النعم وجحدها ولم يشكرها فإنما يكفر على نفسه ؛ لأنَّ ضرر كفره عائد عليه ، لأنَّه - تعالى - غنىّ لا يحتاج إلى الشكر ، ولا يتضرر بالكفر ، حميد حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد . أو محمود بالفعل ، ينطق بحمده - تعالى - جميع المخلوقات بلسان الحال .

١٣ - (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) :

واذكر إذ قال لقمان لابنه وهو ينصحه ويذكِّره بما هو خير له ، نصيحة أب محبٍّ لولده مشفق عليه ، فهو حَقِيقٌ أن يمنحه أفضلَ ما يَعْرف ، وَيَسُوق إليه كل ما فيه الخير له ، ولهذا أوصاه أَوَّلًا بأن يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئًا ، وقال محذرًا : إن الشرك لظلم عظيم ، أى : أعظم الظلم .

روى الإمام البخارىّ بسنده المتصل عن عبد الله قال : لمَّا نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ » شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يَلْبِس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنَّه ليس بذاك ، ألَا تسمع إلى قول لقمان : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » ورواه مسلم من حديث الأعمش - ا هـ : ابن كثير .

وإنما كان الشِّرك ظلمًا عظيمًا لأن التَّسوية بين من لا نعمة إلَّا منه وما لا نعمة منه البتة ، ولا يُتَصَوَّرُ أن تكون منه نعمة ، إنما هو ظلم لا يُكْتنه عِظَمُهُ .

وقوله - تعالى - : (وَهُوَ يَعِظُهُ) قال الراغب : الوعظ : زجر مقترن بتخويف . وقال الخليل : التَّذكير بالخير فيما يرق له القلب .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ) : أمرناه ببرِّهما .

(وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ) : ضَعْفًا على ضعف .

(وَفِصَالُهُ) : وفطامه .

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) : تفسير لـ « وصينا » وما بينهما مؤكد للوصيَّة فى حقِّ الأُم خاصة .

(إِلَيَّ الْمَصِيرُ) : إلىَّ المرجع لا إلى غيرى .

(وَإِن جَاهَدَاكَ) : وإن حملك والداك بجهد .

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) : أى ما ليس لك علم باستحقاقه العبادة .

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) : اسلك طريق من تاب عن شركه ورجع إلى الله .

التفسير

١٤ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) :

كلام مستأنف على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدًا لما فى الوصيَّة من النهى عن الإشراك ، فهو من كلام الله – عز وجل – ولم يقله – سبحانه وتعالى – للقمان ، وقيل : هو من كلامه – تعالى – للقمان ، وكأنَّه قيل : قلنا له : اشكر ، وقلنا له : وصَّينا الإنسان. . . إلخ .

والمعنى : وأمرنا الإنسان بأن يَرْعَى والديه ويجعل لأُمّه أوفر نصيب ، وأعظم قدر من العناية والرِّعاية ؛ لأَنَّها حملته جَهْدًا على جَهْد ، وثقلًا على ثقل ، يتزايد به ضعفها ، ويتضاعف ؛ لأَنَّ الحمل كلَّما عظم ازدادت ثقلًا وضعفًا ، وقد وَقَّتَ الله فطامه فى هذه الآية بعامين ، للإشارة إلى أنهما الغاية التى لا تُتَجَاوَزُ ، والأَمر فيما دون ذلك موكول إلى اجتهاد الأُم ، وظاهر الآية أنَّ مدَّة الرَّضاع عامان ، ويؤيِّده قوله – تعالى –: « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ »[1] ، وإلى هذا ذهب الشافعىّ والإمام أحمد ، وأبو يوسف ومحمد ، وهو مختار الطَّحاوى ، ورُوى عن مالك ، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مدَّة الرَّضاع الذى يتعلَّق به التَّحريم ثلاثون شهرًا ، ومن أراد معرفة دليله فليرجع إلى المطولات .

(أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ) : ووصَّينا الإنسان أن اشكر لى على نعمتى عليك ، ولوالديك على ما تحملا من المشقَّة فيك حتى استحكمت قواك ، وشُكْرُ الله يكون بطاعته وفعل ما يرضى عنه ، وشكر الوالدين بصلتهما والبرّ بهما والدُّعاء لهما ، إلىّ المرجع والمآب لا إلى غيرى ، فأُجازيك على ما صدر عنك من خير أو شر ، ومن شُكْر أو كُفْر ، وهذا تعليل لوجوب الامتثال لما أمر الله .

١٥ – (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : وإن حملك والداك بجَهْد على أن تشرك بالله ما لا تعلم أنه يستحق العبادة فلا تطعهما وصاحبهما فى الدُّنيا صِحابًا معروفًا يرتضيه الشرع ، ويقتضيه الكرم والمروءة ، كالقيام

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٣

بشئونهما من طعام وكسوة ، وعدم جفائهما وانتهارهما ، ومن عيادتهما إذا مرضا ومواراتهما إذا ماتا ، وذَكَرَ لفظ : (فِى الدُّنْيَا) لتهوين أمر الصحبة ، والإشارة إلى أنَّها فى أيام قلائل وشيكة الانقضاء ، فلا يضرّ تحمُّل مشقَّتها لقلَّة أيَّامها وسرعة مُضِيِّها . (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ) يريد : واسلك طريق المؤمنين فى دينك ، ولا تتَّبع سبيلهما فيه ، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما فى الدُّنيا ، ثم إلىّ مرجعك ومرجعهما فأُجازيك على إيمانك وأُجازيهما على كفرهما .

والآية الكريمة نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، أخرج ابن أبى ليلى ، والطبرانى ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن أبى عثمان النَّهدى : أن سعد بن أبى وقاص قال : أنزلت فىَّ هذه الآية : (وَإِن جَاهَدَاكَ . . . الآية) كنت رجلًا برًّا بأُمِّى فلمَّا أَسْلَمْتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك أَحْدَثْتَ ؟ لَتَدَعَنَّ دينَك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّر بِى ، فَيُقَال : قاتلُ أُمِّه ، قُلْتُ : لا تفعلى يا أُمّه ؛ فَإِنِّى لا أَدَعُ دينى هذا بشىء ، فَمَكَثَتْ يومًا وليلة لا تأْكل ، فأَصْبَحَتْ قد جهدت ، فَمَكَثَتْ يومًا وليلة لا تأْكل فَأَصْبَحَتْ قد اشْتَدَّ جهـــدها ، فلمَّا رَأَيْتُ ذلك قُلْتُ : يا أُمّه تَعْلَمِين واللهِ لو كَانَتْ لَكِ مائة نفس فَخَرَجَتْ نَفْسًا نفسًا ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شِئْتِ فَكُلِى وَإِنْ شِئْتِ فلا تَأْكُلِى ، فلما رَأَتْ ذلك أَكَلَتْ ، فَنَزَلَت هذه الآية .

وأخرج الواحدىّ ، عن عطاء ، عن ابن عبَّاس قال : إنَّه يريد بمن أناب : أبا بكر فإن إسلام ســعد كان بسبب إسلامه . وقيل : من أناب ، محمدٌ ﷺ والمؤمنون . والظاهر العموم ، وقوله – تعالى – : (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) قال الزمخشرى : أراد بنفى العلم به نَفْيَه ، أى : لا تشركْ بى ما ليس بشىء ، يريد الأصنام كقوله – تعالى – : « مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ »[1] ، وقال الآلوسى : المعنى : وإن جاهدك الوالدان على أن تكفر بى كفرًا ليس لك به علم .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية رقم : ٤٢

(يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(إِنَّهَا) : أى الخصلة من الإساءة أو الإحسان .

(إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ) : أى إن تكن فى الصِّغر قدر حبَّة الخردل مثلًا ، والمثقالُ : مايُقَدَّرُ به غيرُه لِتَسَاوى ثقلهما ، وهو فى العُرْف معلوم وزنه .

(يَأْتِ بِهَا اللهُ) : يُحْضِرْها فيحاسب عليها .

(لَطِيفٌ) : يصل علمه إلى كل خفى .

(خَبِيرٌ) : عالم بكنهه .

(إِنَّ ذَٰلِكَ) : إشارة إلى ما ذُكر من الصَّبر على ما أصابك وغيره .

(مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) : مِمَّا عزمه الله وقطعه على عباده وأمر به .

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) : أى وَلَا تُمِلْه عنهم ، ولا تُوَلِّهم صفحة وجهك كما يفعل المتكبِّرون .

(مَرَحًا) : فرحًا وبطرًا .

(مُخْتَالٍ) : متكبر .

(فَخُورٍ) : كثير الفخر ، يُعدِّد ما أُعْطِى مباهاة .

(وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ): أى وتوسط فيه بين البطء والإسراع،من القصد،وهوالاعتدال .

(إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ) : أقبحها وأوحشها .

التفسير

١٦ -(يَا بُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) :

رجوع إلى القصة بنشر بقية ما أُريد حكايته من وصايا لقمان لابنه :

يا بُنَىَّ إنَّ الحسنة أو السّيئة إن تكن فى الصِّغر قدر حَبَّة الخردل مثلًا ، وتكن مع ذلك فى أخفى مكان وأحْرَزه كجوف الصَّخرة ، أو كانت فى العالم العلوىّ أو السُّفلىّ ، يحضرها الله ويحاسب عليها .

والحكمة فى هذا الترتيب - كما جاء فى البحر لأبى حيان - أنه بدأ بما يتعقله السامع أولًا ، وهو كينونة الشىء فى صخرة ، ثم عقبه بالعالم العلوى وهو أغرب للسامع ، ثم عقبه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض . (يَأْتِ بِهَا اللهُ) يحضرها يوم القيامة فيحاسب عليها ، وهو إما على ظاهره ، أو معناه : يجعلها كالحاضر المشاهد للتذكير والاعتراف بها ، وهو أبلغ من قوله : (يعلمه الله) ففيه مع العلم بمكانه : القدرة على الإتيان به ، وذلك لأنَّ الله لطيف يصل علمه وقدرته إلى كل خفىّ ، فلا تخفى عليه الأشياء وإنْ دَقَّتْ ولَطُفَتْ واستترت ، خبير عالم بكُنْهِهِ ومُسْتَقَرّه ، فهو خبير بدبيب النَّملة السَّوداء على الصخرة الصَّماء فى اللَّيلة الظلماء .

١٧ -(يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

بعد ما أَمَرَ لقمان ولده بالتَّوحيد الذى هو أوَّل ما يجب على المكلَّف - فى ضمن النهى عن الشِّرك - ونَبَّهه إلى كمال علمه - تعالى - وقدرته - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَهُ بالصَّلاة التى هى أكمل

العبادات - تكميلًا من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد - فقال مُسْتَمِيلًا له : يا بُنَيَّ أَقِم الصَّلَاة بأَركانها وشروطها فى مواقيتها ، تَكْمِيلًا لنفسك ، وأمر غيرك بما عرف حسنه شرعًا وعرفًا ، وانْهَهُ عن الْقَبيح والمنكر تكميلًا له .

والمعروف : ماحسَّنه الشَّارع وأَمر به ، والمنكر : ماأَنكره الشَّارع وقَبَّحه ونهى عنه . والظاهر أنه أمره بكل معروف ونهاه عن كل منكر ، وخص بعضهم المعروف بالتوحيد ، والمنكر بالشرك . ثم قال له : واصبر على ماأَصابك من الشدائد والمحن فى سبيل الأَمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر ، إن الصَّبر على ماأَصابك وعلى سائر ماأُمرت به من عزم الأُمور ، أى : ممَّا عزمه الله - تعالى - وأمر به أمر إيجاب وإلزام ، فلزم قَبُولُه والعمل به والحرص عليه ، وهذا تعليل لوجوب الامتثال لما سبق من الأَمر والنَّهى .

١٨ - (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) :

ولا تستكبر على الناس ، بل أَلِن جَانِبَكَ لهم ، وأَقبل عليهم مُتَوَاضعًا ، ولا تُوَلِّهم شِقَّ وجهك وصفحته كما يفعله المتكبِّرون إعجابًا بأَنفسهم لأن الله لايحب كل مختال فخور وأَصل الصَّعَر : داءٌ يَعْترى البعير فيلوى منه عنقه ، ويستعار للكبر ، ولا تمش فى الأَرض مرحًا وبطرًا كما يمشى المختالون المتكبرون ؛ لأَنَّ الله - سبحانه - لا يُحِبُّ كل مختال فخور .

والمختال : المتكبِّر ، وهو مأْخوذ من الخُيَلَاء وهو التَّبختر فى المشى كِبْرًا ، والْفَخُور : كثير الفخر ، وهو المبَاهاة ، ويدخل فى ذلك تعداد الشخص ما أَعطاه لغيره ، والتعبير بفخُور وهى من صيغ المبالغة ، ولأَن مايقبح من الفخر كثيرهُ فإنَّ القليل منه معفو عنه لابتلاءِ الناس به ، فلطف الله - تعالى - بالعفو عنه ، وهذا كما لطف بإِباحة اختيال المجاهدين بين الصَّفَّين ، وبإِباحة الفخر بنحـو المال لقصد حسن كالتحدث بنعمة الله .

١٩ - (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) :

بعد النهى عن المرح فى المشى أمر - سبحانه - بالتوسّط فيه بين البطء والإسراع فى تواضع ، وذلك أليق بالمسلم ، وأَبعث على الهيبة والوقار ، فقال : واقصد فى مشيك ، من

القصد : وهو الاعتدال ، أى : لا تَدِبَّ دبيب الْمُتَمَاوتين ولا تَثِبْ وثْبَ الشُّطَّار . قال ابن مسعود : كانوا يُنْهَوْن عن خَبَب اليهود وَدَبيبِ النَّصَارَى ، ولكن مَشْيا بين ذلك ، أما قول عائشة تصف عمر : كان إذا قال أَسْمَع ، وإذا ضرب أوجع ، وإذا أطعم أشبع ، وإذا مشى أسرع ، فالمراد بالإسراع التوسُّط ، ومافوق دَبِيبِ التَّمَاوُت ، وكذلك ماورد من صفته – عليه الصلاة والسلام – : « إذا مشى كأنما يَنْحَط من صَبَب[1] » فالمقصود به نشاطه – عليه الصلاة والسلام – وقُوَّته ، لا الإسراع ؛ لنهيه – عليه الصلاة والسلام – عنه حيث قال : « سرعة المشى تُذْهِب بهاء المؤمن » .

واخفض من صوتك وانقص منه واجعله قصدًا ، ولا ترفعه إذا تكلَّمت ، فذلك أوقر للمتكلِّم ، وأبسط لنفس السامع وفهمه ، إن أقبح مايُسْتَنْكَرُ من الأَصْوات ويُسْتَكْرَهُ لَصَوْتُ الحمير ، والجملة تعليل للأَمر بالغَضِّ من الصوت على أبلغ وجه وآكَدِه ، حيث مثل حال الرَّافِعِين أصواتَهم بحال الحمير فى نهاقهم ، وفى ذلك من المبالغة فى الذّمّ والتَّهْجين وَالتَّثْبِيط عنْ رفع الصوت والتَّرغيب عنه مافيه ، ولقد ردَّ الله– سبحانه وتعالى – بهذا على المشركين الَّذين كانوا يتفاخرون بِجَهَارة الصَّوت ورفعه ، مع أنَّ ذلك يؤذى السَّامع ؛ إذ يَقْرَعُ الصِّمَاخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى هو داخل الأُذن .

(أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾)

---

(١) فى القاموس : الحط : الحدر من علو إلى أسفل . الصبب – محركة – : تصبب نهر أو طريق يكون فى حدور .

المفردات :

(سَخَّرَ) : ذَلَّل ، والتسخير- على ما قاله الراغب- : سِيَاقَة الشيء إلى الغرض المختص به قهرًا .

(وَأَسْبَغَ) : أتمّ وأكمل .

(نِعَمَهُ) : جمع نعمة ، وهى : كل نفع قصد به الإحسان .

(يُجَادِلُ فِي اللهِ) : يحاور ويخاصم وينازع فى توحيد الله وعبادته وصفاته .

(بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) : ليس معه من الله برهان ، ولا هدى رسول ، ولا كتاب مرشد .

(اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ) : على رسوله من الشَّرائع المُطَهَّرة .

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا) ، يريدون عبادةَ ما عبدَ آباؤهم من دون الله .

التفسير

٢٠ - (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) :

رُجُوع إلى سنَنِ ما سلف قبل قصَّة لقمان ، من خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التَّوحيد .

والمعنى : قد رأيتم أن الله سخَّر لكم وذلَّل ما فى السمٰوات : الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ، وما فى الأَرض : البحار والأَنهار والثِّمار والمعادن والدَّواب وما لا يحصى وأَتم عليكم نعمه الظَّاهرة منها ، وهى ما تُعْلَم بالْمُشَاهدة ، كغلبة الإِسلام والنُّصرة على الأَعداءِ وحسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأَعضاء والسمع والبصر واللسان وسائر الجوارح ، والباطنة : وهى ما لا تعلم إلَّا بدليل ، أو لا تعلم أَصلًا ، مثل : المعرفة والقلب ، والعقل والفهم . وكم فى بدن الإِنسان وحياته من نعمة لا يعلمها ولا يَهْتَدِى إلى العلم بها ، وصدق الله : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[١] .

(١) سورة النحل ، من الآية : ١٨

ومع هـذه النعم فمن الناس من ينازع ويخاصم فى توحيده - عزَّ وجلَّ - وفى صفاته - جل شأنه - كالمشركين المنكرين وحدانيَّته - سبحانه - وعموم قدرته - جلَّت قدرته - وشمولها البعث .

والإظهارُ بدل الإضمار فى قوله - تعالى - : (يُجَادِلُ فِى اللهِ) بذكر الاسم الجليل - تهويل لأمر الجدال فيه ، وهذا الفريق الضَّال من الناس يفعل ما يفعل بغير علم مستفاد من دليل عقلى ، ولا هُدى راجع إلى رسول مأخوذ منه ، ولا كتاب أنزله الله - تعالى - ذى نور واضح الدلالة على المقصود ، منقذ من ظلمة الجهل والضلال، بل يجادلون لمجرد التقليد واتِّباع ما كان عليه الآباء .

وقوله - تعالى - : (يُجَادِلُ) من الجدال ، وهو : المُفاوضة على سبيل المُنَازَعة والمُغَالَبَة ، وأصله من : جَدَلْت الحبل ، أى : أحكمت فَتْلَه ، كأَنَّ الْمُتَجَادِلَيْن يَفْتِل كل منهما صاحبه عن رأيه ، وقيل : الأَصل فى الجدال : الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الْجَدَالة ، وهى الأَرض الصلبة .

٢١ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) : .

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله المنازعين فى عبادته وصفاته : اتَّبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشَّريعة المطهَّرة ، والدين الحق ، وعقيدة التوحيد ، قالوا : بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا فنعبد ما عبدوا من الأَصنام والأَوثان ، ولم يكن لهم حجة فى هـذه العبادة إلَّا اتِّباع آبائهم الأَقدمين ، والاقتداء بالسَّالفين ، ولو كانوا فى ضلال مبين ، ولقد عاب الله عليهم هذا المنطق العجيب فقال :

(أَوَلَوْ كَانَ الشَّـيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) : أى : أيتَّبعونهم وينهجون منهجهم ويقلدونهم تقليدًا أعمى بلا تفكير ولا إعمال عقل ، ولو كان الشيطان يدعو الْمُجَادِلِين وآباءهم إلى ضلال يُفْضِى بهم إلى عذاب النار التى تتسعَّر وتلتهب ؟

* (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ) : يخلص ويفوض إلى الله جميع أموره .

(فَقَدِاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) : فقد تعلق بأوثق ما يُتعلق به من الأسباب وأشده .

(عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) : مصير الأمور ونهايتها .

(فَنُنَبِّئُهُم) : فنخبرهم . (ذَاتُ الصُّدُورِ): خبيئة القلوب ودخيلتها .

(نَضْطَرُّهُمْ) : نلجئهم ونلزمهم . (عَذَابٍ غَلِيظٍ) : عذاب شديد ثقيل .

التفسير

٢٢ - (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ . .) الآية :

بين الله فى الآية السابقة حال المشرك المجادل المتشبث بدين آبائه ، المصرّعلى شركه ، ويبين فى هذه الآية حال المسلم المستسلم لله المصدق بتوحيده ، القائم على طاعته .

والمعنى : ومن يسلم نفسه إلى الله بأن يفوض إليه - تعالى - جميع أموره ، ويقبل عليه قلبا وقالبا ، وهو محسن مخلص فى أعماله وأقواله ، فقد استمسك وتعلق بأقوى ما يتعلق به من الأسباب الموصلة إلى سعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة ، وإلى الله عاقبة الأمور ومصيرها

كلها ، فهى صائرة إليه لا إلى غيره ، وليس لأحد سواه -جل وعلا- تصرف فيها بأمر أو نهى ، أو ثواب أو عقاب ، فهو - سبحانه - يجازى من أسلم وجهه إلى الله ، وأخلص التفويض إليه ، كما يجازى المجادل المماري فيه ، يجازى كلاًّ بما يستحقه ويليق به ، بمقتضى عدله وحكمته .

وفى قوله - تعالى - : (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) تمثيل حال المتوكل على الله المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترق إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه ، ليتيسر له تحقيق مراده .

٢٣ - (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ . .) الآية .

هذه الآية رجوع إلى بيان حال الكافر .

والمعنى : ومن كفر من هؤلاء المشركين فلا تحزن على كفره ، ولا يهمك أمره فقد أبلغت وليس عليك إلا البلاغ ، وما أضر بذلك إلا نفسه ، فإن الله - تعالى - سينتقم منه ويعاقبه أشد عقاب ، ولهذا قال : (إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا) : أى إلينا لا إلى غيرنا رجوعهم بالبعث فنُعْلِمهم على وجه التبكيت والتقريع بما عملوا فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ونجازيهم بما يستحقون من العذاب والعقاب (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : إن الله - تعالى - واسع العلم بحقيقة ما فى القلوب وضمائرها ، لا يخفى عليه سرها ، كما لا تخفى عليه علانيتها ، ولا يفوته شىء من الجزاء عليها .

٢٤ - (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) :

أى : ننفعهم زماناً ، أو نفعًا قليلا فى دنياهم بأن نيسر أمورهم ، ونوسع عليهم أرزاقهم ، ثم نلجئهم إلى عذاب غليظ ثقيل يجمع إلى الإحراق بالنار الضغط والتضييق ، مع إلزامهم ذلك العذاب الشديد إلزام المضطر الذى لا يقدر على الانفكاك مما ألجىء إليه .

وعبر عن متاعهم فى الدنيا بالقلة ، لأن متاعها مهما توفر وتكاثر ، وتعددت أنواعه وألوانه ، وتطاولت أيامه فهو قليل جدًّا إذا قوبل بما عند الله ، وما أعد للمتقين فى دار الجزاء ، وكل زائل قليل ، وعُمُره وإن طال قصير .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾)

التفسير

٢٥ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ . .) الآية .

هذه الآية ترقٍّ فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد تسليته بقوله - تعالى - : (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ) فإن انتزاع اعترافهم بقدرة الله - تعالى - فى خلق السموات والأرض اعتراف بصدقك فى دعوى الوحدانية ، وتسجيل لسفههم فى تكذيبك وفى إشراكهم بخالق السموات والأرض .

والمعنى : ولئن سألت - أنت أيها النبى الكريم - هؤلاء المشركين ، أو سألهم أى مخاطب غيرك : من خلق السموات والأرض وأحكم خلقهما وأبدع صنعتهما على نظام لم يعتره اضطراب ، ولم يطرأ عليه خلل منذ عرفهما الإنسان ؟ ليقولُنَّ : خلقهن الله ، لأنهم فى شركهم بعبادتهم معترفون بوحدانيته فى خلقهن . (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) قل يا محمد : الحمد لله على إلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان شركهم وكذبهم ، أو قل : الحمد لله على وضوح دلائل التوحيد بحيث لا يجحدها كافر ، ولا ينكرها مكابر ، أو قل : الحمد لله الذى هـدانا إلى التوحيد وصدق الإيمان ، ولم يقدر علينا اللجاج والعناد فيما هو ظاهر الشواهد ، واضح البراهين .

وقوله - تعالى - : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) معناه : بل أكثرهم ليسوا أهلا للعلم ، ولا من ذوى الرأى والتفكير السديد .

أو : بل أكثرهم لا يعلمون أن هذا الاعتراف حجة عليهم ، يقيم الدليل على جهلهم وعنادهم .

٢٦ - (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

هذه الآية إبطال لشركهم من وجه آخر لأن المملوك لايكون شريكاً لمالكه في ملكه ، فكيف يكون شريكاً له في العبادة ؟ .

والمعنى : لله ما في السموات والأرض خلقا وملكا وتصرفا ، وليس لأحد سواه فيهنَّ شأن استقلالا أو شركة ، فلا يستحق العبادة غيره بوجه من الوجوه .

وقوله - تعالى - : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) معناه : أنه - تعالى - هو الغنى عن كل شيء ، فليس محتاجاً إلى شريك أو غيره ، المحمود من مخلوقاته بلسان المقال أو بلسان الحال .

وهذا التعقيب بعد قوله - تعالى - :(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) لدفع حاجته - تعالى - إلى شريك له فيهما ، أو إلى عبادة عابد منهما ، وإنما استعبدهم لمصلحتهم ، فهو المستحق للعبادة وإن لم يعبدوه ، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه .

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ) : من مد الدواة إذا زادها من المداد وهو الحبر ، ويطلق المد والمادة على مطلق الزيادة .

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ): ما فنيت ولا انتهت ، لأن كلماته - تعالى - ليست قاصرة على القرآن الكريم .

(بَعْثُكُمْ) : عودتكم إلى الحياة بعد الموت .

التفسير

٢٧ - (وَلَوْ أَنَّ مَافِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ . .) الآية :

قال ابن عباس : إن سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت : يامحمد ! ! كيف عُنينا بهذا القول ؟ « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » وقد أُوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان لكل شيء ، فقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم-: « التوراة قليل من كثير » فنزلت الآية .

والمعنى : ولو ثبت أن ما فى الأرض من جميع أنواع الشجر أقلام ، وصار البحر على اتساعه وامتداده مداداً يمده ويزيده من بعده سبعة أبحر مثله فى السعة وكثرة الماء ، فكتبت بهذه الأقلام وهذا المداد كلمات الله وأوامره فى كونه وملكوته ، ما فنيت ولا انتهت كلمات الله لعدم تناهيها ، بل تفنى الأقلام وينتهى المداد دون أن تنتهى كلماته تعالى - فإن كلام الله فى شئون كونه أمرا ونهيا وإيجاداً وإعداما وغير ذلك لا ينتهى ، والمكلفون به من الملائكة وغيرهم لا يحصونه عددا (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) : قادر غالب لا يعجزه شيء (حَكِيمٌ) : لا يخرج عن الحكمة ما يتكلم به .

هذا وفى الآيات مباحث منها :

١ - أن المراد (بشجرة) كل أنواع الأشجار التى يمكن أن تؤخذ منها الأقلام ، والنكرة قد تعم فى الإثبات كما فى قوله - تعالى - : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ »

٢ - اختيار جمع القِلَّة فى (أقلام) مع أن الأنسب للمقام جمع الكثرة لأنه لم يعهد للقلم جمع سواه ، وإيثار جمع القلة فى الكلمات (وجمع المؤنث من قبيل القلة) للإيذان بأن ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير .

٣ - ليس المراد بذكر العدد فى قوله : « سَبْعَةُ أَبْحُرٍ » خصوص العدد ، وإنما المراد الكثرة ، واختير عدد (سبعة) بخصوصه من بين الأعداد لأن كثيرا من المعدودات التى لها شأن سبع ، كالسموات ، والكواكب السيارة ، وأيام الأسبوع إلى غير ذلك .

٢٧ – (مَا خَلْقُكُمْ وَلَابَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) :

توسطت هذه الآية الآيات التى تتحدث عن قدرة الله وتعدد آثارها ، للإيذان بأن من له هذا الكون العريض لا يصعب عليه خلقُنا ولا بعثنا ، فقد ورد أنها نزلت فى أبى ابن خلف، ومنبه ونبيه ابنى الحجاج بن السباق، قالوا للنبى ﷺ : إن الله – تعالى – قد خلقنا أطوارا : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة، ثم عظاماً ، ثم تقول : إنا نبعث جميعاً خلقا جديدا فى ساعة واحدة ؟ .

والمعنى : ما خلقكم ابتداءً ولا بعثكم بعد الموت يوم القيامة إلا كخلق نفس واحدة وبعثها فى السهولة واليسر والتأتى بالنسبة إليه – عز وجل – لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، ومناط وجود الكل تعلق إرادته – تعالى – وقوله للشيء : كن فيكون (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) : أى : إن الله – تعالى – عظيم السمع والبصر يسمع ويبصر جميع مخلوقاته لا يشغله بعضها عن بعض .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِى الليْلِ) : يدخل كل واحد منهما فى الآخر فيتفاوت بذلك حالهما طولا وقصرًا .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : سيرهما ، وذللهما طلوعاً وأُفولاً .

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) قيل : هو يوم القيامة . وقيل : منتهى دورتهما .

(الْفُلْكَ) : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثير الصبر على البلاء والشكر على النعماء .

(وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ) : غطَّاهم وأحاط بهم .

(كَالظُّلَلِ) الظُّلل : جمع ظلَّة ، وهو ما يستظل به من جبل وسحاب وغيرهما .

(مُّقْتَصِدٌ) : مقيم على القصد السوى من التوحيد .

(يَجْحَدُ) : ينكر ويكفر .

(خَتَّارٍ) : شديد الغدر .

(كَفُورٍ) : مبالغ فى الكفر .

التفسير

٢٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . .) الآية :

هذه الآية شروع فى تفصيل بعض آثار القدرة المتمثلة فى قوله - تعالى - : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وتوضيح نعمه على خلقه ، والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو عام لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : ألم تعلم علماً قويًّا جارياً مجرى الرؤية البصرية أن الله - تعالى - يدخل جزءًا من كل واحد من الليل والنهار فى الآخر ويضيفه إليه ، فيختلف بذلك حالهما طولا وقصرًا ، وذلل الشمس والقمر ، وهداهما لمصالح خلقه طلوعاً وأُفولاً ، كلٌّ من النيرين يجرى فى فلكه

إلى أجل سماه الله وحده، لايعدوه ولا يقصر عنه ، قيل : هو يوم القيامة ، وقيل : إلى منتهًى ومدار معلوم ، الشمس تجرى فيه إلى آخر العام والقمر يسرى فيه إلى آخر الشهر ..

وهذا الإيلاج بالنسبة لعالمنا الأرضى والعوالم المماثلة لنا ، وليس عند الله ليل ونهار ، وقدمت الشمس على القمر فى قوله : (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) لأنها كالمبدإ للقمر ، ولأن تسخيرها لغاية عظمها أعظم من تسخير القمر ، وعطف (سَخَّرَ) الماضى على (يُولِجُ) المضارع ، فخالف بين المعطوفين لأن إيلاج واحد من الليل والنهار فى الآخر متجدد يختلف طولًا وقصرًا ، وحرارة وبردًا ، بخلاف تسخير الشمس والقمر ، فإنه لا تجدد فيه ولاتعدد ، إنما التجدد والتعدد فى آثاره كما يشير إليه قوله ــ تعالى ــ : (كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

وقوله ــ تعالى ــ : (وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) معطوف على (أَنَّ اللهَ يُولِجُ الَّيْلَ) داخل فى حيز الرؤية ؛ فإن من شاهد مثل ذلك الصنع لايكاد يغفل عن كون صانعه ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ محيطاً بجلائل أعماله ، خبيرًا بدقائقها ، فلايَند عنه أمر من أمورها ، ولا يخفى عليه شأن من شئونها .

٣٠ ــ (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَايَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) :

أى : ذلك المذكور من الآيات الكريمة ، والمشاهد الواضحة من سعة العلم ، وكمال القدرة ، واختصاص البارى ــ تعالى ــ بذلك ثابت بسبب أن الله ــ تعالى ــ وحده هو المتحقق فى ذاته وفى جمع صفات الكمال اللائقة بربوبيته ، وأن ما يدعونه من دونه من الآلهة الباطل المعدوم الذى لايقوم على ألوهيته دليل ، وأن الله هو العلى على جميع الأشياء، الكبير عن أن يتصف بنقص ، أو أن يكون له شريك .

٣١ ــ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) :

تصور هذه الآية مظهرًا آخر من مظاهر قدرته ، ومشهدًا من مشاهد آياته فى الأرض بعد أن صورت الآيات السابقة مظاهر القدرة فى السماء .

والمعنى: ألم تعلم - أيها المكلف - علماً يقينيا آخر تضمه إلى علمك السابق تعميقاً للإيمان، وتجسيدًا للحقائق - ألم تر وتعلم - أن السفن تجرى فى البحر بنعمة الله - تعالى- وقدرته على تهيئة أسباب الجرى من الريح ، وانسياب الماء ، وحفظ الله لها ، أو بنعمة الله التى تحملها من الطعام والمتاع والأغراض ؛ ليريكم رأى العين آياته الناطقة بألوهيته ، الشاهدة بعظيم قدرته .

إن فى كل ما ذكر من الآلاء والمشاهد لآيات عظيمة فى دلالتها كثيرة فى عددها لكل صبار كثير الصبر على البلاء ، شكور عظيم الشكر على النعماء ، والمراد من الصبار الشكور : المؤمن . لأن الصبر والشكر عمدتا الإيمان ، فقد ورد « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » كما أن التعقيب بهما على ركوب الفلك يُلمِع إلى مناسبة دقيقة لأن الراكب الفلك إذا كان مؤمنًا يكون غالباً بين صبر عند أسباب الفزع وشكر عند أسباب الأمن .

٣٢ - (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) .

تسير هذه الآية مع جرى السفينة وتحكى أحداث البحر ، فإن راكبه كثيرًا ما يكون عرضة لغضبته وثورة الموج ، واهتياج الماء فيتملكه الهلع .

والمعنى : وإذا غشى ركاب البحر وغطاهم وأحاط بهم موج هائج متعالٍ كالجبال والسحب التى تعلو الرءوس ، وأحدق خطر الغرق بهم خلصت نفوسهم مما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الخوف الشديد فاتجهوا جميعاً إلى الله مستجيرين داعين مخلصين له الدين أن يؤمّن خوفهم ويبدد فزعهم ، فلما قدر لهم النجاة ، ووصلوا إلى بر السلام والأمن عاودتهم نزعات الشر ، وغلبهم سلطان الهوى والضلال ، وانقسموا ، فمنهم مقتصد ، أى : مقيم على القصد ، أى : الطريق السوى وهو التوحيد ، باق على الإخلاص الذى كان عليه فى البحر عند الفزع ، ومنهم جاحد راجع إلى كفره وإنكار فضل الله عليه ، وما يجحد بآيات الله وينكرها بعد قيام البراهين عليها إلَّا كلُّ ختَّار غدار شديد الغدر لا يذكر فضلا ولايحمد معروفاً ، كفور مبالغ فى الكفر مجرد من الانتفاع بآيات الله - تعالى - وإدراك نعمه ، فقوله - تعالى - : (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا) فى مقابل (فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) قائم مقام عبارة « ومنهم جاحد » مع تضمنه ذم الجاحد ، والإيجاز من ألوان البلاغة .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾)

المفـردات :

(وَاخْشَوْا يوْماً) : هو يوم القيامة .

(لَا يَجْزِى) : لا يغنى ولا يقضى .

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ) : فلا تلهينكم ولا تخدعنكم .

(الْغَرُورُ) : الشَّيْطان ؛ لأَنه يغر الإنسان ويخدعه ، وأَصل الغرور : صيغة مبالغة من غَرّه : إذا أصاب غِرَّته ، أى : غفلته ونال منه ما يريد .

التفسـير

٣٣ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً . . .) الآية .

تتجه السورة فى نهايتها وبعد الذى ذكرته من دلائل التوحيد ، ومظاهر النعم - تتجه إلى الأَمر بالتقوى ، وتجنح إلى العظة والتخويف من لقاءِ الله ، فتوجه هذا النداءَ الذى تحس منه النفس المطمئنة معانى الإشفاق ، ولمسات الرحمة والإحسان ، وتعم به جميع المخلوقين مؤمنين ومشركين حتى تنقطع منهم الأَعذار ، ولا يبقى لأَحد عتب ولاتعلَّة .

والمعنى : يٰأَيها النَّاس آمنوا بالله ربًّا ، واتقوه حق تقواه ، فافعلوا أَوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وخافوا يوماً لا ينفع فيه مال ولا جاه ، يوم القيامة الذى لا يغنى والد عن ولده ولا يقضى عنه شيئاً ، ولا مولود هو مغنٍ عن والده ولا قاضٍ عنه شيئاً ، وكل

يواجه عمله ويلقَ جزاءه ، فينال ثوابه أو عقابه «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (١) .

واختلاف التعبير بين (لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ) وبين (وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا) لأنه ـ تعالى ـ لما أكد الوصية بالآباء وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره ـ عزَّ وجلَّ ـ وأوجب على الولد أن يكفى والده ما يسوءه ، قَطَع ـ سبحانه ـ هنا وَهْم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة يجزيه حقه عليه ، ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة ، كما أوجب الله عليه ذلك فى الدنيا .

(إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) أى : إن وعد الله بالقيامة والبعث متحقق ثابت لايخلف ، وذكر الآلوسى أن المراد بوعد الله : الثواب والعقاب على تغليب الوعد على الوعيد ، أو هو على معناه اللغوى ، وعدم إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلام فيه ، وأما عدم إخلاف الوعيد بالعقاب ففيه كلام ، والحق أنه لايخلف أيضاً ، وعدم تعذيب من يغفر له من العصاة المتوعدين ليس من إخلاف الوعيد فى شىء ، لما أن الوعيد فى حقهم كان معلقاً بشرط لم يذكر ترهيباً وتخويفاً .

وقيل : المراد أن وعد الله بذلك اليوم حق .

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : بأن تلهيكم بلذاتها عن الطاعات . (وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) أى : ولا يلهينكم الشيطان ويصرفنكم عن الطاعات ، ويحملكم على المعاصى بتزيينها لكم .

وعن أبى عبيدة : « كل شىء غرّك حتى تعصى الله ـ تعالى ـ وتترك ما أمرك ـ سبحانه ـ به فهو غرور ، شيطانا أو غيره » وإلى ذلك ذهب الراغب ، قال : « الغرور : كل ما يغر من مال وجاه وشهوة وشيطان » .

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ – ٣٧

(إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : القيامة .

(الْغَيْثَ) : المطر .

(وَمَا تَدْرِى) : وما تعلم .

التفسير

٣٤ - (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ . . .) الآية .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له : الوارث بن عمرو جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد ! ! متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تُخْصِب ؟ وقد تركت امرأتى حاملا ، فمتى تلد ؟ وقد علمتُ ما كَسَبْتُ اليوم ، فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية ،وهى وثيقة الارتباط بما قبلها ، فقد تعرض ما قبلها لذكر يوم القيامة ، فتهيأت بذلك الأذهان للسؤال عنه ، وجاء الجواب عن هذا السؤال وعن مثله مما استأثر الله بعلمه .

والمعنى : إن الله - تعالى - وحده عنده علم قيام الساعة استأثر به لحكمة يعلمها ،ولم يعط علمه لنبى مرسل ، ولا لملك مقرب (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ) فى وقته بلا تقديم ولا تأخير ، وفى بلد لا يتجاوزه إلى غيره ، وبمقدار تقتضيه حكمته ، (وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ) من ذكر أو أنثى ، تام أو ناقص ، وغيرها من أحوال الأجنة فى بطون أمهاتهم .

(وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) : أى لا تعلم كل نفس برة أو فاجرة ، عاجزة أو قادرة ، مؤمنة أو كافرة ، ما يجرى عليها من الرزق أو من الأعمال فى غدها . (وَمَاتَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أى : وما تعلم نفس – أية نفس – فى أى مكان أو زمان تموت . (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أى : إن الله واسع العلم فلا يَعْزُبُ عن علمه شىء من الأشياء التى من جملتها مفاتح الغيب ، خبير يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها .

واختلاف التعبير بين الجملة الاسمية فى قوله – تعالى – : (عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) والجملة الفعلية بعده فى قوله – تعالى – : (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَافِى الْأَرْحَامِ) للدلالة بالتعبير الأول على مزيد الاعتناء باختصاص أمر الساعة ، وعلى شدة خفائها ، وبالتعبير الآخر على استمرار تجدد المتعلقات بحسب تجدد المتعلَّقات مع الاختصاص .

وهكذا تنتهى سورة لقمان بذكر مفاتح الغيب التى استأثر الله بعلمها ، كما تدل عليه الأحاديث والآثار ؛ فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة من حديث طويل أنه – صلى الله عليه وسلم – سئل : متى الساعة ؟ فقال للسائل : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمةُ ربَّها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْمِ فى البنيان ، هن فى خمس لا يعلمهن إلاَّ الله – تعالى – ثم تلا النبى – صلى الله عليه وسلم – : (إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ . . .) الآية . هكذا فى بعض الروايات ، ولعل هذا الاستئثار بهذه الخمس من فيض رحمة الله – تعالى – ومزيد فضله ؛ لتأخذ الدنيا حظها من التعمير فى غير تخوف ولا تعويق ، وليعلم الخلق أن مفاتيح رزقهم عند الله ، وأسبابه عنده ، فيقبلوا عليه بالدعاء ، وينقطعوا إليه بالرجاء ، وليرضى كل إنسان بما يقضى له الله به من الذرية ذكورًا أو إناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، وليَبِيتَ كل مخلوق معتمدًا على ربه فيما يجرى عليه من رزق فى غَدِه ، فلا تغره قوته ولا تخدعه حيلته ومهارته ، ويسعى لتحصيله حيث كان ، حتى يدركه أجله فيما لا يعلمه من مكان وزمان .

وليست المغيبات محصورة فى هذه الخمس ، وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها ، أو لأنها كثيرًا ما تشتاق النفوس إلى العلم بها ، وبالجملة فالمغيبات لا تتناهى ، فسبحان العليم الخبير .

« سورة السجدة »

سورة السجدة مكية ، وعدد آياتها ثلاثون آية ، وتوافقها فى عدد آياتها سورة (الملك) كما تشاركها فى بعض الفضائل ، وتسمى هذه السورة سورة المضاجع ؛ لقوله – تعالى – : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) كما تسمى سورة « سجدة لقمان » تمييزاً لها عن سورة (حٰمٓ) – فصلت – فإنها تسمى أيضاً سورة السجدة .

ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

وفى البحر : لما ذكر – سبحانه – فيما قبل دلائل التوحيد وهو الأصل الأول ، ثم ذكر – جل وعلا – المعاد وهو الأصل الثانى وختم به السورة ، ذكر فى بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوة .

وقال الجلال السيوطى فى وجه الاتصال بما قبلها : إنها شرح لمفاتح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها

فضل هذه السورة :

جاء فى فضلها أخبار كثيرة : منها ما أخرجه أبو عبيدة فى فضائله ، وأحمد ، وعبد بن حميد والدارمى ، والترمذى ، والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن جابر قال : « كان النبى – صلى الله عليه وسلم – لاينام حتى يقرأ : الٓمٓ تنزيل... السجدة » ، و « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » وكان – صلى الله عليه وسلم – يقرؤها هى وهل أتى فى صلاة فجر الجمعة ، أخرج ابن أبى شيبة ، والبخارى ، والنسائى ، وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : الٓمٓ تنزيل : السجدة ، وهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ » .

ما تشتمل عليه السورة :

بدأت هذه السورة بما بدأت به سور كثيرة من القرآن الكريم بسرد حروف من المعجم ، وإتباع ذلك بالحديث عن القرآن ، ببيان أنه تنزيل من رب العالمين لا مجال فيه لشك ،

ولا مدخل لريبة ، وبرفض مزاعم المشركين أنَّ رسول الله افتراه من عنده ، وبيان أنه الحق المنزل عليه من ربه لينذر به قومه الذين لم يسبق لهم إنذار قبل بعثته ؛ لأنه أول رسول أرسل فيهم ، فإن إسماعيل – عليه السلام – كان قد أرسل إلى قبيلة جُرهُمَ وهم من العرب العاربة ، وقد نشأت العرب المستعربة من ذريته مع جرهم ، وفيهم أرسل محمد – صلى الله عليه وسلم – فهو أول رسول للعرب المستعربة .

ثم تنتقل الآيات بعد تقرير إرسال الرسول وإنزال القرآن عليه إلى ذكر دلائل من قدرة الله المتمثلة فى خلق السموات والأرض ، واستيلائه على عرشه ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ليعرج إليه يوم القيامة ، وهو العالم بكل شىء الذى أحسن كل شىء خَلَقه ، وبدأ خلق الإنسان (آدم) من طين على وجه بديع ، وفطرة عجيبة ، ثم نسل منه ذريته ، ونفخ فيها من روحه ، وجعل لها السمع والأبصار والأفئدة لتتيسر لها وسائل الحياة فتشكر نعمه – تعالى – وتحمد فضله ، ولكنها قليلا ماتؤدى شكر ذلك .

ثم تعرض لحال المشركين واستبعادهم البعث بعد أن يموتوا وتتحلل أجزاؤهم ، وتتيه فى التراب وتضل فى أجزاء الأرض ، وتقرر أن الموت حق عليهم تتوفاهم الملائكة الموكلون بهم ، ثم يرجعون إلى ربهم ، ويبعثون ليوم عظيم يقفون فيه بين يدى الله خزايا يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا مافات ، وهيهات هيهات ! ! ! !

ثم تذكر الآيات حكمة الله السامية فى اختلاف أحوال الخلق بالإيمان والكفر – ولوشاء لآتى كل نفس هداها – ليكون لجهنم عمارها من الجنّة والناس أجمعين ، وليذوقوا عذاب الخلد بما كانوا يعملون ، من الإشراك بربهم ، ونسيان لقائه وجحد جزائه .

ثم تشيد الآيات بذكر المؤمنين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وما أعد لهم من نعيم مقيم : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ثم تقرر الآيات أن إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم شأن قديم ، وسنن طبعى لا يحتمل ريبة ، وقد أنزل التوراة على موسى وكانت هدًى لبنى إسرائيل ، وكان منهم أئمة يهدون بأمر الله ،

ويوقنون بآياته ، وسوف يفصل الله بين الأنبياء وأممهم بما فعلوه معهم ، ثم تتجه الآيات إلى تبصير النفوس الغافلة ، والاتعاظ بالأمم السابقة التى يعيشون مكانها ، ويمشون فى مساكنها ، وإلى الانتفاع بآيات الله وقدرته التى تسوق الماء إلى الأرض الجُرُز ، أى : الجدباء التى لا زرع فيها ، فتخصب وتنبت ، وتحيا وتعمر بالإنسان والحيوان ، أليس ذلك بقادر على إحياء الموتى وبعثهم كما أحيا الأرض الجرز بعد موتها وقحطها ، وبعث فيها الحياة والجمال .

وتختتم السورة بتبكيت المشركين على استبعادهم ليوم الفتح الذى ينتظره المؤمنون ليفصل بينهم وبين المشركين ، ويتوعدهم بأن هذا اليوم آت لا محالة ، وسيلاقون فيه جزاءهم ولا ينفعهم إيمانهم ولا هم ينظرون ، وتطلب من الرسول – صلى الله عليه وسلم – الإعراض عنهم ، وانتظار النصرة عليهم وهلاكهم الذى ينتظرونه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(لَا رَيْبَ فِيهِ) : لا شك فيه .

(افْتَرَاهُ) : اختلقه من عنده .

(لِتُنذِرَ) : لتخوّف وتحذّر .

التفسير

١ - الٓمٓ :

هذه الآية ابتداءُ سورة السجدة ، وهى سادسة ست سور بدئت بهذه الأَحرف ، وقبلها سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة لقمان ، ثم هذه السورة ، وقد تقدم الكلام عليها مبسوطاً فى سورة البقرة وفى غيرها من هذه السور .

٢ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

الكلام فى هذه الآية يجرى على نمط الكلام الذى فى السور المشاركة لها فى البدء بالحديث عن القرآن الكريم ، ومن ذلك أنه الكلام المنزل من رب العالمين الذى لامجال فيه لشك ، ولا مدخل لريب ، كما فى قوله - تعالى - : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ) . و (الٓمٓ) إن جعل اسما للسورة أو القرآن فهو خبر لمبتدأ محذوف ، و (تَنزِيلُ) خبر ثان ، و (لَارَيْبَ فِيهِ) خبر ثالث ، و (مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) خبر رابع ، والتقدير : هذا الٓمٓ تنزيل الْكِتَابِ لا ريب فِيهِ مِن رَّب الْعالـمِين ، والمراد من التنزيل اسم المفعول ، أى : مُنزَّل الكتاب ، وهناك إعرابات أُخرى فارجع إليها إن شئت .

والمعنى : هذه السورة التى تسمى الٓمٓ لاشك فى أنها - كسائر القرآن - منزلة من رب العالمين الذى يعلم مصالح عباده ، ولكن المشركين يمارون فى الحق ويجادلون فيه ويزعمون أن هذا القرآن من عند محمد كما حكى الله عنهم بقوله :

٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) :

أثبتت الآية الأُولى أن هذا القرآن تنزيل من رَّب الْعَالَمِينَ لا سبيل فيه إلى شك ، بل هو أبعد شىءٍ عنه ، ثم أضرب - جلَّ وعَلَا - عن ذلك إضراباً انتقالياً مشوبا بالإنكار بقوله : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أى : بل أيقول المشركون افترى محمد القرآن على الله من عنده ، وأعانه عليه قوم آخرون ، وقوله : (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) إضراب إبطالى عن دعواهم الاختلاق ، وتسفيه لعقولهم ، وإثبات أن هذا القرآن هو الحق الصادق

الثابت المنزل من ربك لتنذر به ، وتخوف قريشاً قومك الذين لم يسبق لهم إنذار بمثله قبل بعثتك إليهم ؛ لأنهم لم يرسل إليهم رسول منهم قبلك فقد كان إسماعيل - عليه السلام - غير عربى ، أُرسل لقبيلة جرهم التى هى من العرب العاربة ، أما قريش فمن العرب المستعربة . التى هى من ذرية إسماعيل وجرهم ، أو أنهم لم يباشرهم وآباءهم الأقربين إنذار ، وإنما كان الإنذار لآبائهم الأقدمين ، وقد طال عليه العهد ، وبعد به الزمن ، فلم يسمعوا شيئاً منه ، ولم يعرفوا شيئاً عنه ، وقد بعثك الله إليهم ، وأنزل عليك الكِتَاب لتنذرهم به (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أى : رجاء أن يهتدوا ، فهو على الترجى من رسول الله ، كما جاء الترجي من موسى - عليه السلام - فى قوله - تعالى - : « لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[1] أو على التعليل بمعنى : ليهتدوا .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

المفردات :

(اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ[2]) أى : قام وحده بتدبير سمواته وأرضه بعد خلقها ، ولهذا قال بعد ذلك : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » .

(مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) : من ناصر ينصركم ولا وسيط يشفع لكم .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : يريده على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، والمراد به هنا : أمر الدنيا وشئونها .

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة طه .

(٢) سبق بسط الكلام على آراء العلماء فى تفسير مثل هذه الآية فى سورة الأعراف .

التفسير

٤ - (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .) الآية :

لما ذكرت الآية السابقة الرسالة بعنوان الإنذار بينت هـذه الآية ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد ، وإقامة الدليل .

والمعنى : الله الذى جلت قدرته وتعاظم سلطانه خلق السموات ، ورفعها بغير عمد ترونها ، وأحكم نظامها ، وبسط الأرض ، وجعل فيها جبالا رواسى ، وأجرى فيها أنهارًا ، وأنبت بها زرعاً وأشجارًا ، وخلق بينهما كائنات وأجراما لا يعلم كنهها ولا يحيط بحقائقها إلّا الله الواحد القهار .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : وذللهما وسيرهما على أبدع نظام وأدق إحكام لايختل لهما مدار ، ولا يختلف لهما مسار ، وخلص من هذا كله فى ستة أيام من أيامه تعالى : « وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ(١) » . ويقول فى هذه السورة : (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وهى الآية التالية .

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) : ثم دبر ملكه بعد تمام خلقه ، لم يعنه فى ذلك أحد ، ولم يحتج إلى نصير أو شريك ، فقدِّروا قدرته واشكروا نعمته .

(مَالَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ) ينصركم إذا جاوزتم طاعته ورضاه ، وما لكم من وسيط يشفع لكم ، ويدفع عنكم عذابه ، أو يجيركم من بأسه . (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) أى : أتسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها كفرًا وعنادًا ؟

٥ - (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) :

أصل التدبير : النظر فى دابر الأمر ، والتفكير فيه ليجىء محمود العاقبة . وهو فى حقه تعالى مجاز عن إرادة الشئ على وجه الإتقان والحكمة .

والمعنى : يريد الله الأمر على وجه الحكمة والإتقان بأسباب تقتضيه ، نازلة أحكامها وآثارها من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة .

(١) سورة الحج من الآية : ٤٧

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) أى : ثم يصير إليه خبر ذلك الأمر ويصعداليه ليعلمه - جلَّ شأنه - موجودًا كما أراده -جل وعلا- قال الآلوسى : والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدبيره- سبحانه- وصول خبر وجوده بالفعل كما دبَّر - جل وعلا - بواسطة الملك ، وعرضه ذلك فى حضرة قد أعدها الله للإخبار بما هو - جل وعلا- أعلم به ، إظهاراً لكمال عظمته وعظيم سلطنته ، وذلك كعرض الملائكة عليه أعمال العباد الوارد فى الأخبار : اهـ . بتصرف يسير .

ومعنى قوله -تعالى- : (فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) أى : فى زمن متطاول يبلغ فى حساب دنياكم ألف سنة مما تعدون من السنين التى تقيسون بها آجالكم وأعمالكم ، وإن كان الملك يقطعه فى زمن يسير كشأنه فى الوحى وفى رحلة الإسراء والمعراج ، وقيل معناه : يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ، ثم يعرج بعد الألف لألف آخر ،

وقيل : المعنى أنه يدبر أمرالدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه فى يوم كان مقداره ألف سنة ، نقله القرطبى .

واعلم أن أيام الله ليس فيها ليل ولا نهار ، وإنما هى أزمان تحت مشيئة الله - تبارك وتعالى - وقد يقدر اليوم مرة فى كتاب الله بألف سنة مما يعده البشر ، وقد يقدر بخمسين ألف سنة كما جاء فى بعض الآيات ، وكل ذلك من باب ضرب المثل لطول أيام الله - تعالى - وقد يطول اليوم عن ذلك كله وما يعلم شئون ربك إلا هو .

(ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦) ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ (١٠))

المفردات :

(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الغيب : ما غاب عن الخلق وخفى ، والشهادة : ما شاهدوه ورأوه .

(الْعَزِيزُ) : القوى الغالب .

(الرَّحِيمُ) : البالغ الرحمة واللطف .

(الْإِنسَانِ) : آدم – عليه السلام – .

(نَسْلَهُ) : ذريتهُ .

(سُلَالَةٍ) سلالة الشيء : ما استل منه ، وسلالة الإنسان : النطفة .

(مَهِينٍ) : مبتذل لا يعتنى به .

(ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ) : خفينا وتحللت فيها أجزاؤنا .

التفسير

٦ – (ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : ذلك الموصوف بما مرّ من خلق السموات والأرض وما بينهما وتسخير الشمس والقمر ، والاستواء على العرش ، وتدبير أمر الكائنات – ذلك الموصوف بهذا كله (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أى : عالم كل ما غاب عن المخلوقات وخفى ، وما شاهدوه من أحوالها وشئونها ورأوه رأى العين . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أى : وهو القوى الغالب على كل شيء . (الرَّحِيمُ) : الواسع الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء .

٧ – (الَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) :

أوصاف جارية على الله – تعالى – بعد وصفه بالأوصاف السابقة ، والمعنى : الذى أتقن كل مخلوق خلقه ، ووفّر له ما يليق به على وفق الحكمة والمصلحة ، وبدأ خلق الإنسان –وهو آدم عليه السلام– من طين على وجه بديع تحار فيه العقول ، وجعله بحيث يكون مستتبعاً لخروج كل فرد من ذريته ، خلقاً بعد خلق ، وجيلا بعد جيل ، وذلك ما حكاه بقوله :

٨ – (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ) :

أى : ثم جعل ذرية آدم المخلوق من طين – جعلها – مخلوقة من خلاصة من ماء مبتذل لا يُعْبَأُ به عند الناس وهو المنى ، فإنهم يتخلصون منه بغسل موضعه ، وسميت الذرية نسلاً لأنها تنسل من الإنسان ، وتنفصل عنه .

٩ – (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) :

أى : ثم قوَّمه وعدَّله بتكميل أعضائه ، وتنسيقها فى الرحم ، وتصويرها على ما ينبغى (وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ) أى : أدخل فيه الروح المملوكة له ، وأجرى فيه الحياة . وقوله – تعالى – : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) معناه : خلق لكم هذه الأعضاء الكريمة لمنفعتكم ، فتستعينون بها على حياتكم ، وتيسير أموركم الدينية ، والدنيوية المختلفة ، وإن أيسر ما تقابل به هذه النعم هو الشكر عليها ، وصرفها فيما خلقت له ، ولكنكم قليلا ما تشكرونها ، بأداء حق الله فيها .

١٠ – (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) :

هذه الآية استئناف كلام جديد مسوق لبيان أباطيلهم وأنه لم يقف أمرهم عند عدم الشكر ، بل جاوزه إلى الكفر وإنكار البعث . (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) أى : أئذا خفينا فى الأرض التى دفنت فيها أجسامنا ، وتحللت أجزاؤنا ، وصرنا تراباً مخلوطاً بترابها ، أيعقل أن نبعث ونعود إلى خلق جديد ؟ (بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) أى : إن أمر هؤلاء المشركين لا يقف عند إنكار البعث بل يتجاوزه إلى كفرهم بلقاء ربهم ، والمراد من لقائه – تعالى – : لقاء ملائكته وما يكون بعده من حساب وجزاء فهم يكفرون بالبعث وكل ما يتصل به من شئون الآخرة .

* (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ) أصل التوفى : أخذ الشىء وافياً تامًّا ، ثم غلب فى قبض الروح ، يقال : توفاه الله ؛ أى : استوفى روحه وقبضه .

(مَلَكُ الْمَوْتِ) : اسمه عزرائيل ، ومعناه - كما قيل - عبد الله ، وهو موكل بقبض أرواح جميع الخلائق .

التفسير

١١ - (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) :

لما ختمت الآية السابقة ببيان كفرهمْ بالبعث والنشور ، أتت هذه الآية للرد عليهم بياناً للحق ، وإبطالا لما زعموه من إفك وبهتان .

والمعنى : قل لهم - أيها الرسول - : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم ومعرفة انتهاء آجالكم ، بحيث لايترك منكم أحدًا دون أن ينتزع روحه على أشد ما يكون ، حيث إن الملائكة - وهم أعوانه - يضربون وجوهكم وأدباركم كما قال - تعالى - : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ »[١] .

فأعوان ملك الموت يعالجون قبض الأرواح ، وملك الموت يقبضها ، والله يزهقها ، وهذا هو الجمع بين قوله - تعالى - : « تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا »[٢] ، وقوله هنا : (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ) وقوله - تعالى - : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[٣] . ا هـ بتصرف من القرطبى .

ولما كان ملك الموت يتولى ذلك عن الله - تعالى - أضيف التوفى إليه هنا .

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) بالبعث والحساب والجزاء ، وهو تهديد لهم ووعيد .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٥٠ .

(٢) من الآية ٦١ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) : مطرقوها من الخزى والندم فى موقف الحساب ، من النكْس : وهو قلب الشيء على رأسه ، كالتنكيس ، وفعله : من باب نصر .

(لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) أى : رشدها وتوفيقها إلى الإيمان .

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) أى : بما تركتم ذكر لقائه ،فالنسيان مشترك بين الغفلة والترك العمد .

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ) أى : تركناكم فى العذاب .

التفسير

١٢ ـ (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ) :

الخطاب للنبى ، وخطابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطاب لأُمته ، أو خطاب لكل أحد ممن تصح منه الرؤية .

والمعنى : ولو ترى حال منكرى البعث يوم القيامة ، أوحال كل مجرم باعتبار الجنس ومن جملتهم هؤلاء – لو ترى حالهم – لرأيت أمرا فظيعاً ، وصورة عجيبة ، حيث تراهم مطرق الرءوس من الندم والخزى والذل والغم عند محاسبة ربهم إياهم وجزائهم على أعمالهم ، يقولون فى ضراعة وإقرار بالتقصير : ربنا أبصرنا ماكنا نكذب به ، وسمعنا ماكنا ننكره ، فقد أبصرنا صدق وعيدك ، وسمعنا قول الرسل سماع تصديق وإذعان ، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة ، والآيات المسموعة ، وكنا قَبْلُ صماً عمياً لاندرك شيئاً . أو يقولون : أبصرنا قبح أعمالنا التى كنا نراها فى الدنيا حسنة ، وسمعنا قول الملائكة : إن مَرَدَّكم إلى النار فارجعنا إلى الدنيا بعد أن أبصرنا وسمعنا لنتدارك مافاتنا ، ونعمل عملا صالحاً وفق ما ترشد إليه آياتك ، لأننا الآن موقنون بالبعث والحساب ، وزالت عنا الشكوك ، يقولون ذلك ادعاءً منهم بصحة الأفئدة ، والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بما توجبه ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ولا يتدبرون ، ولكن أنَّى لهم أن يجابوا إلى تحقيق أملهم ، وقد علم الله منهم أنهم كاذبون ، وأنه لو أعادهم إلى الدنيا لعادوا كما كانوا كفارًا ، كما قال – سبحانه – : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »(١) .

١٣ – (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) :

أى : ولو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بأن نعطى كل نفس : برة أو فاجرة ما تهتدى به قَهْرًا فى دنياها لفعلنا ، ولكن حق القول منى أن أجازى كل امرىء على ماكسبت يداه باختياره ، فلأملأن جهنم من كفار الجن والناس أجمعين بما كانوا يكسبون .

فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى لكل نفس ، بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم ، حيث صرفتم اختياركم إلى الغى والضلال بتزيين الشيطان وإغوائه ، ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها المعلوم لنا أزلًا ، فلما لم تختاروا الهدى

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم ، وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة لنقاء نفوسهم ، وكمال استعدادهم ، وهم المعنيون بما سيأتى من قوله ــ تعالى ــ : (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا . . .) الآية . وفى تخصيص الجن والإنس فى قوله ــ سبحانه ــ : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) إشارة إلى أن الله عصم ملائكته من عمل يستوجبون به جهنم .

١٤ــ (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

الأمر للتهديد والتوبيخ ،وهو مرتب على ما يُعْرِب عنه ما قبله من نفى الرجع إلى الدنيا ، أو على قوله ــ تعالى ــ : (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى . . .) الآية :

والمعنى : فذوقوا العذاب الدائم يا أهل النار بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم العظيم ، وترككم التفكر فيه ، والتزود له بما ينجيكم من شدائده وأهواله ، والنسيان بهذا المعنى اختيارى يوبخ عليه حيث أريد به ترك الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح ، ويعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق الطعام .

(إِنَّا نَسِينَاكُمْ) : استئناف ، للإشعار بتشديد الانتقام منهم والسخط عليهم ، أى : تركناكم فى العذاب ترك الشىء المنسى بالكلية .

وقوله ــ سبحانه ــ : (وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : تكرير لتهديدهم بذوق العذاب للتأكيد والتشديد ، وتعيين المفعول المطوى فى الذوق الأول وهو « عذاب الخلد » الذى لا انقطاع له ، والإشعار بأن سبب العذاب ليس مجرد ما ذكر من النسيان ، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا ، ولما كان ختام الآية فيه زيادة عن صدرها حصلت بها مغايرته له استحق العطف عليه ، ولم ينظم الكل فى سلك واحد ، للتنبيه على استقلال كل من النسيان وأعمالهم من فنون الكفر والمعاصى فى استيجاب العذاب .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(خَرُّوا سُجَّدًا) : المراد به السجود المعهود ، وعليه أكثر العلماء ، أى : سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لله ، وخر : من باب ضرب .

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) أى : جمعوا بين التسبيح والحمد فى سجودهم ، فقالوا : سبحان الله وبحمده . والتسبيح : التنزيه .

(تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) أى : ترتفع جنوبهم عن مواضع الاضطجاع ، كناية عن ترك النوم للعبادة .

(خَوْفاً وَطَمَعاً) أى : خوفاً من عذابه – تعالى – وطمعاً فى ثوابه ، وأكثر ما يستعمل الطمع فيما يقرب حصوله ، وقد يستعمل بمعنى الأمل ، ومن كلامهم : طمع فى غير مطمع .

(مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) : مما تسر به قلوبهم ، يقال : قرت العين قُرَّةً – بالضم – وقُرورًا : بردت سرورًا ، وقر من باب : تعب .

التفسير

١٥ – (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) :

استئناف مسوق لتسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – ولتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى ، وتعيين من يستحقه فى الآية بطريق القصر .

والمعنى : إنَّمَا يؤمن بـآياتنا الذين إذا وعظوا بها أقبلوا عليها وتفهموا معانيها ، من غير تردد ولا تسويف ، وهَبَطُوا على وجوههم فوضعُوا جباههم على الأَرض بحمد الله تعظيماً لذاتِه العلية ، وخوفاً من سطوته وعذابه ، وشكرًا على ما رزقهم من نعمة الإسلام ، ونزهوه عما لا يليق به من الأُمور التى من جملتها العجز عن البعث ، وأثنوا عليه لنعمائه - جل وعلا - التى أجلُّها الهداية إليه عن طريق آياته ، والتوفيق إلى الاهتداء ، فخلطوا بذلك التسبيح بالتحميد ، وهم فى كل أَحوالهم لا يستكبرون عن عبادته وإخلاص الإيمان له ، والثناء عليه ، لا كما يفعل من يصر مستكبرًا كأَن لم يسمع الآيات .

أو : لا يستكبرون كما استكبر أَهل مكة عن السجود ، ويرى ابن عباس أن المعنى : خروا ركعاً ، وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة . قاله المهدوى ، وقال أبو حيان : هذه السجدة من عزائم سجود القرآن .

والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم فى قوله - جل ذكره - : (وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) للإشعار بعلة التسبيح والتحميد ، من حيث إنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته لهم .

١٦ - (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

أى : تتنحى وتتجنبُ جنوبهم الفُرُش ومواضع النوم ، وهذا التعبير كناية عن ترك النوم وعدم الاستسلام له ، ومثله قول عبد الله بن رواحة يصف النبي - صلى الله عليه وسلم - :

نبيٌ تجافى جنبُه عن فراشه إذا استُثْقِلَتْ بالمشركين المضاجع

وفى المراد من تجافى الجنوب عن المضاجع أقوال ، والمشهور أن المراد به : القيام لصلاة النفل ليلاً ، قاله جمهور المفسرين ، وهو قول مجاهد ، والأَوزاعى ، ومالك بن أنس ، والحسن ابن أبى الحسن ، وأبى العالية وغيرهم ، لأَن أفضل النفل ما كان فى الأَسحار ، وفى الحث على قيام الليل أحاديث كثيرة ، منها حديث معاذ بن جبل : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : « ألا أَدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّةٌ ، والصدقة تطفِئ الخطيئة كما يطفِئُ الماءُ النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » قال : ثم تلا : (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ حتى بلغ : (يَعْمَلُونَ) .

أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، والقاضى إسماعيل بن إسحٰق ، وأبو عيسى الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقال أنس : إن المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل ، قال أنس : نزلت فينا -معاشر الأنصار- كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى - صلى الله عليه وسلم - قال ابن عطية : كانت الجاهلية ينامون من وقت الغروب ومن أى وقت شاء الإنسان ، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً وشاقاً . اهـ .

وقال الضحاك : تَجَافِى الجُنُب : هو أن يصلى العشاء والصبح فى جماعة . وقاله أبو الدرداء .

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعاً) أى : يسألونه - تعالى - : خائفين من غضبه وعذابه وعدم قبول عبادتهم ، وطامعين فى ثوابه وحسن جزائه .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) أى : ومن المال الذى أعطيناهم إياه ينفقون فى وجوه الخير ، وقيل : معناه الزكاة المفروضة [1] ، اهـ : القرطبى .

١٧ - (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءٌۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

يخبر الله - سبحانه - أنه أعد لهؤلاء الذين ذكرت محاسنهم ثواباً عظيماً من النعيم المقيم الذى أخفى لهم ، فلا تعلم كنهه نفس من النفوس ، لا مَلَك مقرّب ، ولا نبى مرسل ، فضلا عمن عداهم بهذا النعيم الذى تَبْرُدُ أعينهم سرورًا به وتبتهج قلوبهم له ؛ جزاءً وفاقاً لما أخفوه من أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن : أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم مالم ترعين ، ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبى حاتم .

وفى معنى هذه الآية ما خرجه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله - تبارك وتعالى - : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،

---

(١) وقيل: مما رزقناهم من المعارف وأنواع الفيوضات ينفقون ، إشارة إلى تكميلهم لغيرهم بعد كمالهم فى أنفسهم .

ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا بَلْه[1] ما أطلعكم عليه » ثم قرأ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ) والإبهام فى لفظ « أعين » للتعظيم وإعلاء الشأن ، قال ابن عباس : الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره ، وفى إضافة القرة إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيه على أن ما أخفى لهم فى غاية الحسن والكمال فلا تشذ عن استحسانه عين مّا ، ثم بيّن أن من كان فى نور الطاعة والإيمان لايستوى مع من هو فى ظلمة الكفر والعصيان فقال ـ سبحانه ـ :

(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(كَمَن كَانَ فَاسِقاً) : أريد بالفسق الذى اتصفوا به : الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع ، وأصله وفق الاشتقاق : الخروج مطلقاً ، من فسقت الثمرة : خرجت من قشرها .

---

(١) بله: من أسماء الأفعال ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ، فالذى لم يطلعكم عليه أعظم ، كأنه أضرب عنه استقلالا له فى جنب ما لم يطلعهم عليه . ا هـ : شرح النووى .

(فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا) أى : الجنات التى فيها مساكنهم جعلت لهم نزلا ضيافة وثواباً على أعمالهم ، والنزل فى الأصل : ما يعد للنازل من الطعام والشراب ، ثم عمَّ كل عطاء .

(فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) أى : ملجؤهم ومنزلهم .

(الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ) : عذاب الدنيا من قحط وقتل وأسر .

(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) : قَبْل عذاب الآخرة .

(ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) أى : تولَّى بترك التدبر والقبول .

(مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)أى : ممن أذنبوا مُعَاقِبون ، يقال : جرم فلان : أذنب ، كأجرم ، وانتقم منه : عاقبه .

التفسير

١٨ - (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ) :

قال ابن عباس وعطاء بن يسار : نزلت الآية فى علىّ بن أبى طالب ، والوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، وذلك أنهما تلاحيا[1] ، فقال له الوليد : أنا أبسط منك لسانا وأحدّ سنانا ، وأملأُ فى الكتيبة جسدا ، فقال له على : اسكت ؛ فإنك فاسق - فنزلت الآية - قال ابن عبد البر : لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه : انتهى كلامه . ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والاستفهام فى قوله - تعالى - : (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ...) . للإنكار والنفى ، ولذا عقَّبه - سبحانه - بقوله :(لَايَسْتَوُونَ) .

والمعنى : أيستوى الناس فى جزائهم ، وقد اختلفت أعمالهم ، فمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً ؟ لا يتوهم ذلك بعد وضوح ما بينهما من التباين ، فهما لا يستويان جزاءً كما لم

(١) تلاحيا ، أى : تخاصما .

يستويا عملا ، حيث إن المؤمن له جنة الخلد يتمتع بنعيمها ، والكافر له جهنم يتجرع غصصها خالدًا فيها أبدًا .

والتعبير بقوله : (لَا يَسْتَوُونَ) بواو الجمع مع أن الضمير عائد على اثنين وهما المؤمن والكافر . لأن الاثنين جَمْعٌ لُغَةً ؛ لأنهما واحدٌ جُمِعَ مع آخر .

١٩ - (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

تفصيل لمراتب الفريقين فى الدار الآخرة ، بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا .

والمعنى : أن المؤمنين الذين صدقت قلوبهم آيات الله ، وعملوا الصالحات بمقتضاها جعلت لهم جنات المأوى ، أى : التى فيها يأوون ويسكنون ، نزلا ، أى : ضيافة لهم ، وثواباً على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا .

وإضافة الجنات إلى المأوى إشارة إلى أنها هى المأوى والمسكن الحقيقى ، وأن الدنيا منزل مُرْتَحَلٌ عنه لا محالة .

٢٠ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

المعنى : وأما الذين خرجوا عن الإيمان إلى الكفر فمسكنهم ومقامهم النار ، فى مقابل جنات المأوى التى أعدت للمؤمنين ، هؤلاء الكافرون كلما دفعهم لهيب النار إلى أعلاها فشارفوا الخروج منها وقربوا منه رُدوا إلى موضعهم فيها ودفعوا إلى قعرها ، قال الفضيل : « والله إن الأيدى لموثقة وإن الأرجل لمقيدة ،وإن اللهيب ليرفعهم والملائكة تقمعهم »[1] وقيل لهم على لسان الخزَنَة تقريعاً وتشديدًا زيادة فى غيظهم : (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) فى الدنيا مستمرين على تكذيبكم بعذابها ، وهذا دليل على أن المراد هنا بالفاسق : الكافر ، إذ التكذيب يقابل الإيمان .

---

(١) تقمعهم: تضربهم بالمقمعة – بكسر الأول – وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليذل ويهان. ا هـ: المصباح وفى القاموس : المقمعة – ككنسة – : العمود من حديد يضرب به رأس الفيل ، وخشبة يضرب بها رأس الإنسان، والفعل كنع ، ويقال : قمعه ، وأقمعه .

٢١ - ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ :

ونقسم لنذيقن الكافرين فى الدنيا العذاب الأدنى وهو الأقل أو الأقرب ، وذلك ما أصابهم من القتل والسَّبْى يوم بدر ،كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعن مجاهد : القتل والجوع ،وأخرج ابن المنذر ،وابن جرير عن ابن عباس أنه قال : هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها ، وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف ، وعن أبى عبيدة أنه فسره بعذاب القبر ، وحكى عن مجاهد أيضاً .

لنذيقنهم هذا العذاب قبل أن يصلوا إلى العذاب الأكبر ، وهو عذاب الآخرة الذى به يخلدون فى النار لعلّ[1] من بقى من المعذبين بالعذاب الأدنى يتوبون عن الكفر بعد مشاهدتهم إياه ، ويعودون إلى الإيمان .

وفى الآية لم يقل : الأصغر فى مقابلة الأكبر ، أو الأبعد فى مقابلة الأدنى ؛ لأن المقصود هنا : هو التخويف والتهديد ، وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر ، وبالكبر لا بالبعد ، قاله النيسابورى .

٢٢ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ :

بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله - تعالى - بالإعراض عنها بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد .

والمعنى : لا أحد أظلم لنفسه ممن ذكّره الله بآياته الواضحة النيرة التى ترشد إلى الصراط المستقيم ، والفوز بالسعادة العظمى والنعيم المقيم ، ثم كان منه بعد التذكير بها ما يستبعد عقلا وهو الإعراض عنها بترك التدبر فيها ، وتناسيها كأن لم يسمعها ، ولم يعلم عنها شيئاً ، وتشير كلمة (ثمّ) إلى الاستبعاد العقلى للإعراض عن الآيات مع وصفها بما ذكر من الأوصاف العظيمة ، وختمت الآية بتهديد كل من اقترف الإجرام والأفعال المذمومة ، حيث قال - سبحانه

(١) لعل للترجى الحاصل من المخاطبين كما فسرها بذلك سيبويه ، وعن ابن عباس تفسيرها هنا: بكى ، وكأن المراد : كى نعرضهم بذلك للتوبة .

وتعالى - : (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) ولم يقل : (منه) أى : من الأظلم (منتقمون) لأنه إذا جعله أظلم من كل ظالم ، ثم توعد المجرمين جميعاً بالانتقام منهم ، فقد دل بذلك على إصابة الأظلم بالنصيب الأوفر من الانتقام ، ولوقال : (منه) لم تحصل هذه الفائدة .

وجوز أن يراد بالمجرمين الأظلم المذكور ، وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى (مَنْ) باعتبار معناها ، وكأنه قيل : إنا منهم منتقمون ، واختير هذا التعبير ليؤذن الإتيان بالمظهر أن علة الانتقام ارتكاب هذا المُعْرض مثل هذا الجرم العظيم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ) أى : فلا تكن فى شك من لقائك الكتاب مثله ، والمرية : اسم من امترى فى أمره : شك .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً) أى : قادة يقتدى بهم فى دينهم .

(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) أى : يعلمون التوراة علماً لا يداخله أى شك ، واليقين : العلم الحاصل عن نظر واستدلال ، ويَقِن الأمرُ من باب تَعِب : إذا ثبت ووضح ، ويستعمل أيضاً متعديًّا بنفسه وبالباء ، فيقال : يقنته ويقنت به .

التفسير

٢٣ ، ٢٤ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) :

المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب (أى : التوراة) فلا تكن - أيها النبى - فى شك من لقائك كتاب القرآن مثلما لقى موسى كتاب التوراة ، ونهيه - عليه الصلاة والسلام - عن الشك فى لقائه المقصود منه نهى أمته ، وجعلنا الكتاب الذى أُنزل على موسى هاديا لقومه - بنى إسرائيل - من الضلالة ، ويشير ذلك إلى أنه لم يتعبد به أحد من ولد إسماعيل ، ولذلك خُصَّ به بنو إسرائيل ، وجعلنا من بينهم قادة يقتدى بهم فى دينهم سوى الأنبياء - عليهم السلام - جعلناهم يرشدونهم ، ويدعونهم إلى سلوك الطريق القويم ، وَفْق مافى تضاعيف الكتاب من الحِكَم والأحكام ، وذلك بأمرنا إياهم بأن يهدوا الخلق إلى طاعتنا ، وكان هؤلاء أئمة حين صبروا على مشاق الطاعة ، ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين ، وفى ذلك إشارة إلى أن الصبر ثمرته الإمامة للناس ، وكان هؤلاء الأئمة يصدقون بآيات التوراة تصديقاً يقينياً لا شك فيه ، لحصوله عن نظر واستدلال ، وكذلك لنجعلنَّ الكتاب الذى أوتيته هدى لأُمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون تلك الهداية ، وفيه تعريض بكفرة أهل مكة ، وأجاز بعضهم أن يراد من أئمة بنى إسرائيل أنبياؤُهم .

٢٥ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

المعنى : إن ربك هو يحكم ويقضى بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيميز بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه من أُمور الدين ؛ حتى يكون الجزاءُ لكل بما يستحقه قسطاً وعدلا ، وفق العمل الذى عمله .

وقيل : يقضى بين الأنبياء وأممهم . حكاه النقاش .

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ) : أَوَ لَمْ يبين لهم ، والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام ، والتقدير : أغفلوا ولم يهد لهم ، وفاعل (يهد) ضمير يشير إليه ما بعده .

(كَمْ أَهْلَكْنَا) : و (كَمْ) فى محل النصب بأهلكنا ، ولا يصح أن يكون فاعلاً ليهد ، لأن اسم الاستفهام . لا يعمل فيه ما قبله عند الجمهور ، وأجازه الفراء ، وهو رأى ضعيف ، ومفعول (يهد) مقدر ، والتقدير : أو لم يبين لهم الحق كثرة من أهلكنا ... إلخ .

(مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو الجيل من الناس .

(إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ) : وهى اليابسة التى لانبات فيها ؛ لأنه جُرِز نباتها ، أى : قُطِع ، إما لعدم المطر ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تنبت ، كالسباخ جمع سَبْخة ، لا يقال لها : جرز ، والسبخة - مسكنة ومحركة - : أرض ذات نَزٍّ[1] وملح : ا هـ .

التفسير

٢٦-(أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) :

الهمزة للإنكار ، والمعنى : أتركوا الاتعاظ ، ولم يبين لهم الحق كثرة من أهلكنا قبلهم من القرون الكافرة المعروفة لهم كعاد وثمود وقوم لوط ، أهلكناهم بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل ، فلم تبق منهم باقية ، كما قال - تعالى - : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا »[2] وهؤلاء المكذبون من أهل مكة يمرون

(١) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء : قاموس .
(٢) الآية ٩٨ من سورة مريم .

فى أسفارهم للتجارة بديار وبلاد أُولئك المكذبين المهلَكين ، ويشاهدون آثار هلاكهم . ويمشون فى مساكنهم فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا[1] » وكان عليهم أن يعتبروا بهذه القرون المعاقَبة قبلهم .

إن فيما حل بأُولئك الطغاة من هلاك ودمار بسبب تكذيبهم الرسل إغْفَال ماجاءَهُم من الآيات البينات ، وهى عظيمة فى نفسها ، كثيرة فى عددها (أَفَلَا يَسْمَعُونَ) أى : أَصَموا فلا يسمعون آيات الله وعظاته وأخبار من تقدم من الأُمم سماع تدبر واتعاظ ، ليثوبوا إلى رشدهم ، ويقبلوا على طاعة ربهم ؟

٢٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) :

المعنى : أَعَمُوا ولم يشاهدوا كمال قدرتنا بسَوْق السحاب الحامل للماء ، أو بسوق نفس الماء بالسيل أو بإجرائه فى الأَنهار ، نسوقه إلى الأَرض الجرز وهى اليابسة التى لانبات فيها لانقطاع الماءِ عنها أَو لرعيه أَو إزالته ، نسوق الماءَ إليها لنحييها بعد موتها ، فنخرج بالماء زرعاً - ويراد به النبات مطلقاً مزروعاً أَو غير مزروع- نخرجه به ليكون غذاءً تأْكل منه أَنعامهم كالكلأ[2] والعشب والتبن والحبوب الخاصة بها ، وتأْكل منه أنفسهم ، كالبقول والحبوب التى يقتاتها الإنسان والخضراوات والفواكه « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » هذا بأعينهم ، وينظرون إليه نظر تَفَكُّر وتدبر ، فيستدلوا به على كمال قدرته - تعالى - على إحياء الموتى بالبعث ، وعلى فضله وإحسانه إلى خلقه ؟ ! .

وقدم الأَنعام فى الآية على أنفسهم لأَن انتفاعها مقصور على الزرع ، وأَما الإنسان فقد يتغذى بغيره ، وجعلت الفاصلة هنا (يبصرون) لأَن ما قبلها مرئى ، وفى الآية السابقة يسمعون لأَن ما قبلها مسموع ، وقيل : ترقيًا إلى الأَعلى فى الاتعاظ مبالغة فى التذكير ورفع العذر : ذكر ذلك الآلوسى .

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأعراف .

(٢) الكلأ : العشب رطبه ويابسه .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

(يَوْمَ الْفَتْحِ) الفتح : الفصل ، ويوم الفتح هو يوم القيامة ، فهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ، وقيل : يوم بدر ، أو فتح مكة .

(وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى : يؤخرون ويمهلون للتوبة .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) أى : عن سفههم ، ولا تجبهم إلَّا بما أمرناك به .

(إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) أى : منتظرون هلاككم ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

التفسير

٢٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

المعنى : كان المشركون من أهل مكة يقولون للنبي وللمؤمنين على وجه التكذيب والاستهزاء : متى هذا الفتح ؟ إذا سمعوهم يقولون لهم : إن الله سيفتح لنا عليكم بالفصل بيننا وبينكم فى الخصومة فيثيب المحقين ، ويعاقب المبطلين.

وهذه الآية مرتبطة بقوله - تعالى - : « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »[1].

٢٩ - (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) :

المعنى : قل لهم - أيها النبي تقريعاً لهم ، وبياناً للحق الثابت - : يوم الفتح ، أى : يوم

---

(١) الآية ٢٥ من هذه السورة .

القضاء والفصل بين المؤمنين وأعدائهم فى القيامة إذا حل بهم لا ينفع نفساً إيمانها لفوات وقته ، ولا هم يمهلون ويؤخرون من العذاب الذى يستحقونه ولو لحظة .

٣٠ ـ (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ) :

المعنى : فأعرض ـ أيها النبي ـ عن سفه هؤلاء المشركين ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وانتظر النصر عليهم وهلاكهم ؛ فإن الله سينجز لك ماوعدك ، وسينصرك على من خالفك نصرًا عزيزًا فى الدنيا والآخرة ، فهو ـ سبحانه ـ لا يخلف الميعاد .

وهم منتظرون أن تدور بكم الدوائر ، وتصيبكم حوادث الزمان كقوله ـ تعالى ـ : « فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ »[1] ، وسيجدون غِبَّ ما ينتظرون فيك وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم مالا قبل لهم بدفعه .

وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى الإعراض عن المنكرين المستهزئين بالدعاة والمرشدين والمُضِىُّ فى وعظهم وإرشادهم لعل الله يهديهم .

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة التوبة .

« سورة الأحزاب »

مدنية ، وآياتها : ثلاث وسبعون

مقاصدها :

بدأ الله هذه السورة بأمر المؤمنين فى شخص نبيهم بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وباتباع الوحى ، والتوكل على الله - تعالى - وعقب ذلك ببيان أن الأزواج لاحق لهم فى تحريم زوجاتهم كتحريم أمهاتهم ، وأن التبنى غير مشروع فى الإسلام ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق بالميراث من المهاجرين والأنصار ، ناسخاً بذلك التوارث بالتآخى فى الإسلام بينهم فى أول الهجرة ، ثم بين للمؤمنين فضله عليهم فى الانتصار فى غزوة الأحزاب ، حيث أرسل على أعدائهم الأحزاب ريحاً وجنودًا لم يرها المسلمون ، ففر الأحزاب منهزمين ، وأنقذ المسلمين بذلك من حصارهم من فوقهم ببنى قريظة ، ومن أسفل منهم بالأحزاب، ونعى على المنافقين تخاذلهم ومعاذيرهم الكاذبة التى اخترعوها للفرار من المعركة ، وأثنى على المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا مع رسولهم فى المعركة حتى جاء النصر من عند الله . . (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا. وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) ثم أتبع ذلك تخيير النبي لزوجاته ، وأمر الله إياه بنصحهن ، وختم ذلك بقوله - تعالى - : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا) .

ثم أتبع ذلك نصائح للمسلمين والمسلمات ، وذكر قصة الخلاف التى وقعت بين زيد ابن حارثة وبين زوجته زينب بنت جحش ، وانتهت بطلاق زيد لها وتزوج النبى - صلى الله عليه وسلم - إياها ، تأكيدًا لنسخ التبنى وآثاره .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد تبنى زيد بن حارثة ، وكان يدعى زيد بن محمد فلما نسخت شرعة التبني أصبح يدعى زيد بن حارثة ، ونزل في ذلك قوله – تعالى – : « مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً » .

ثم بين الله عدم وجوب العدة على المرأة إذا طُلقت قبل الدخول بها ، وبين ما أحله لنبيه من الزوجات ، وذكر طائفة من الآداب نحو بيوت النبي – صلى الله عليه وسلم – وتحريم الزواج بزوجاته بعده ، وبين وجوب لبس الثياب الساترة للمسلمات عند خروجهن ، حتى لا يَتعرضن للأذى ، وهدد المنافقين والمرجفين بسوء المصير إن لم يرجعوا عن إرجافهم ، وأمر رسوله أن يذكر لسائليه عن الساعة أنه لايعلمها إلَّا الله ، ولعلها تكون قريباً ، وبين أن الكافرين خالدون فى النار أبدًا ، ونهى المؤمنين عن إيذاء الرسول كما آذى بنو إسرائيل موسى ، وحثهم على أن يتقوا الله ويقولوا قولًا سديدًا وأوصاهم فى ختامها بأداء الأمانة ، لأن مسئوليتها عظيمة عند الله – تعالى – .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(اتَّقِ اللَّهَ) : دم على تقواه ، أو زد على ما أنت عليه من التقوى .

(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) : ودم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم .

(عَلِيماً حَكِيماً) : واسع العلم عظيم الحكمة . (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) : فوِّض الأمر إليه .

(وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً) : وكفى به حافظاً ومعيناً .

التفسير

١ - (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) :

خاطب الله نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - بقوله : (يأَيها النَّبى) ولم يخاطب غيره من الأنبياء بوصف النبوة كقوله - تعالى - : « يَازَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ » وقوله : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ » وذلك لتشريف نبيه محمد وتكريمه ، وليرتب عليه ماهو من أبرز آثاره وأقوى لوازمه ، وهو وجوب التقوى منه لله - تعالى - وعدم طاعته للكافرين والمنافقين .

وسبب نزولها - على ما ذكره الثعلبي والواحدى - أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وأبا الأعور السلمى قدموا على النبى - صلى الله عليه وسلم - فى زمن الموادعة[1] ، وقدم معهم من المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ارفض ذكر آلهتنا ، وقل : إنها تشفع وتنفع ، وندعك وربك ، فشق ذلك على النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وهموا بقتلهم .

وروى أن عمر بن الخطاب لما سمع قولهم هذا قال : يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إنى قد أعطيتهم الأمان » فقال لهم عمر : اخرجوا فى لعنة الله وغضبه ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخرجوا من المدينة ،

وقيل : نزلت فى ناس من ثقيف قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطلبوا منه أن يمتعهم باللات والعزى سنة ، يأخذون نذورها على أن لايعبدوها ، لتعلم قريش منزلتهم عنده - صلى الله عليه وسلم - فأبى عليهم ذلك . ومعلوم قطعاً أن النبى أشد الناس

(١) أى : زمن الهدنة التى كانت بين النبى ﷺ وبين قريش فى صلح الحديبية .

تقوى لله ، وأبعدهم عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وإنما أمره الله بذلك تأييدًا له فى موقفه منهم ، وتثبيتاً له فى مواجهة الكافرين والمنافقين ، لكى ييئسوا من موافقته لهم بعد أن تلقى هذا الأمر من مولاه - جل وعلا - كما أن فيه أمرًا ضمنياً للمؤمنين بذلك ، فإن النبى إمام أمته ، فإذا كان الله قد أمره بذلك - وهو من التقوى والبعد عن طاعة الكافرين والمنافقين بالمحل الأرفع - فغيره من أمته أولى بذلك .

والتقوى - كما قال طَلْقُ بن حبيب - : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله - ذكره القرطبى .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها النبى دُمْ على ما أنت عليه من تقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فيما يعود على الدين بالضعف ، وازدد فى ذلك قوة على قوة ، وليقتد بك المؤمنون فى امتثال أمر الله ونهيه ، إن الله كان - منذ الأزل ولا يزال - واسع العلم بالمصالح والمفاسد ، عظيم الحكمة ، فلا يكلفكم إلا ما تقتضيه الحكمة ، مما يعود عليكم بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبين الله لنبيه سبيل التقوى فقال :

٢ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : واتبع فى كل ما تأتى به أو تتركه من أمور الدين والدنيا ما يوحى إليك من ربك من الآيات والأحكام التى من جملتها ما جاء بالآية الكريمة السابقة ، وليقتد بك المؤمنون فى ذلك ، إن الله كان بما تعملون خبيرًا ، فيرشدكم إلى ما فيه صلاح أعمالكم وحسن المثوبة عليها .

٣ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا) :

واعتمد على الله - تعالى - فى القيام بأعباء الوحى وتكاليفه ، وكفى بالله موكولاً إليه الأمور كلها ، فلا تهمنك معاصاة الكافرين ومناوأتهم ، فإن الله ناصرك ومؤيدك .

(مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(فِى جَوْفِهِ) : فى صدره .

(تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ) الظِّهار : قول الرجل لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى ، يريد بذلك تحريم مباشرتها تحريماً أبديًّا كما هو شأنه مع أمه ، وهو مأخوذ من الظَّهر ، باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك .

(أَدْعِيَآءَكُمْ) : جمع دعىٍّ ، والمراد به هنا : الابن بالتَّبَنِّى . (السَّبِيلَ) : الطريق .

(ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ) : انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوهم .

(هُوَ أَقْسَطُ) : هو أعدل .

(وَمَوَالِيكُمْ) : جمع مولى ، ويطلق لغة على : المعتق ، والعتيق ، وابن العم ، والناصر ، والجار ، والحليف ، والمراد به هنا : الولى فى الدين - أى : الصديق فيه - ويقابله العدو .

(جُنَاحٌ) : إثم .

(فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ) : فيما فعلتموه مخطئين جاهلين قبل النهى .

(وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) : ولكن الجناح والإثم فيما تعمدتموه وقصدتموه من ذلك بعد النهى .

التفسير

٤ ـ (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ) :

نزلت هذه الآية لرد ماكان مزعوماً أو متبعاً قبل الإسلام ، فقد زعمت العرب أن الأريب اللبيب القوى الحافظة له قلبان ، ومن ذلك قولهم لأبى معمر الفِهْرى ـ أو جميل ابن معمر الجمحى ـ له قلبان ، لأنه كان داهية قوى الحفظ لما يسمع ، وكان يزعم أن له قلبين يفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد ، وقد كذَّبه الله قولاً فى هذه الآية ، وفعلا يوم بدر ، وذلك أنه انهزم فى هذا اليوم ، ولقى أبا سفيان فى العير فى طريقه إلى مكة وهو معلق إحدى نعليه بيده ، والأخرى فى رجله ، فسأله أبو سفيان : مابال إحدى نعليك فى رجلك والأُخرى فى يدك ؟ فقال : ما ظننت إلَّا أنهما فى رجلى ، فعرفوا من يومئذ أنه لوكان كما زعم لما لبس نعله فى يده ، والقلب : قطعة من اللحم صنوبرية الشكل ، خلقه الله ـ تعالى ـ لضخ الدم فى الشرايين لتغذية الجسم ، وجذبه ثانياً من الأوردة لإيصاله إلى الرئتين لتطهيره من « ثانى أكسيد الكربون » الناتج من عملية الاحتراق فى داخل الجسم ، وبعد تطهيره يستعيده القلب ليعيد قذفه فى الشرايين ، وقد جعله الله مناطاً للحفظ والعلم ، إما لأنه يمد الأجهزة الحافظة فى المخ بغذائها ـ فهو سبب للحفظ والعلم ـ وإما لأن الحفظ والعلم من وظائفه .

وكان من عادة العرب أن يحرم الرجل زوجته على نفسه كتحريم أمه عليه ، بأن يقول لها : أنتِ علىَّ كظهر أُمى أو نحوها ، فلا يباشرها كما لا يباشر أَحَدٌ أُمَّه ، وكانوا يعتبرون الظهار طلاقاً فى الجاهلية ، وسيأتى حكمه فى الإسلام فى سورة المجادلة بمشيئة الله ـ تعالى ـ .

كما كان من عادتهم أن يتبنى الرجل ولد سواه فيرث ماله من بعده كما يرث الولد من أبيه النَّسَبِىّ ، وتحرم عليه زوجته كما تحرم عليه زوجة ابنه من صلبه ، فنزلت الآية لِرَدِّ هذا كله ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تبنى غلامه زيد بن حارثة بعد أن أعتقه ، وفقاً لما كان عليه العرب ، ولهذا كان يدعى زيد بن محمد ، فلما نزلت هذه الآية نسبه

إلى أبيه حارثة ، قال القرطبي : روى الأئمة أن ابن عمر قال : ماكنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت : (ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ).

وكان زيد ـ فيما روى عن أنس بن مالك وغيره ـ مسبياً من الشام ، سَبَتْه خيل من تهامة ، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة ، فوهبته خديجة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقام عنده مدة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فدائه ، فقال لهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك قبل البعثة : خَيِّراه ، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء ، فاختار الرق مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآثره على حريته وقومه ، فقال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يامعشر قريش ، اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه » فرضى بذلك أبوه وعمه . اهـ : من القرطبي بتصرف يسير .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان ينسب إليه فيقال : فلان ابن فلان . ذكره القرطبي .

والمعنى الإجمالى للآية : ماخلق الله لرجل من قلبين فى صدره ، بل خلق له قلباً واحداً يعيش على نبضاته ، ويعى أصناف العلم بسببه ، وماصير أزواجكم فى حكم أمهاتكم من حرمة المباشرة ، حتى تجعلوهن مثلهن فيها ، وما جعل الغرباء من عتقائكم وغيرهم أبناء لكم ، حتى تعطوهم حكمهم فى الميراث وحكم عدم نكاح زوجاتهم ، ذلك الذى تزعمونه فى شأن هؤلاء جميعاً هو قولكم بأفواهكم ، دون أن يكون له نصيب من الصحة ، والله يقول الحق فى شأنهم وفى كل أحكامه ، وهو يهدى بشرعه إلى الطريق المستقيم .

٥ ـ (ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا آبَآءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

فى هذه الآية زيادة بيان لحكم التبنى فى الإسلام ، قال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبنى ، وهو من نسخ السنة بالقرآن : اهـ . وبيان ذلك أن النبي سن

للناس جواز التبنى الذى كان معمولًا به فى الجاهلية قبل نسخه بهذه الآية وما قبلها ، ولو خالف الإنسان هذه الآية ، فدعا غيره إلى أبيه بالتبنى ، فإن كان على جهة الخطأ ، بأن سبق لسانه إليه فلا إثم عليه ، لقوله - تعالى - : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) ولا يجرى هذا المجرى من غلب عليه اسم المتبنى ، كما هو الحال فى المقداد بن عمرو ، فقد غلب عليه لقب المقداد بن الأسود ، فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه فى الجاهلية وعرف به ، فلما نزلت الآية قال المقداد : أنا ابن عمرو ، ولكنه لصق به لفظ (ابن الأسود) بعد نزولها ، وكذلك سالم مولى أبى حذيفة فإنه كان يدعى لأبى حذيفة بعد نزولها ، وغيرهما ، ولم يحكم أحد بإثم من كان يقول هذا لغلبته على صاحبه.

وذلك غير ماحدث لزيد بن حارثة ، فإنه لما نزلت الآية قطع الناس نسبه إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بالبنوة ، وعزوه إلى أبيه حارثة ، فإن نسبه أحد بالبنوة إلى محمد بعد نزولها متعمدًا كان آثماً ، لقوله - تعالى - : (وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) أى : فعليكم الجناح والإثم ، قاله القرطبى ، ثم قال فى المسألة السادسة : روى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكرة ،كلاهما قال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، محمدًا[1] يقول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » .

أما قول الكبير للصغير : أنت ابنى على سبيل التحنن والشفقة فلا حرمة فيه ، ولكن بعض العلماء يرى كراهته ، لما فيه من التشبه بالكفرة .

وحكم التبنى بقوله : (هو ابنى) عند الحنفية ، أنه إن كان عبدًا عتق عليه ، ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب ، وكان بحيث يولد مثله لمثله ، وعند الشافعية : لا عبرة بالتبنى لا فى العتق ولا فى النسب[2] .

المعنى الإجمالى للآية : انسبوا من تبنيتموهم إلى آبائهم الحقيقيين ، فإن لم تعلموا آباءهم يقيناً فهم إخوانكم فى الدين وأولياؤكم فيه ، فقولوا : هذا أخى وولىى فى الدين ،

(١) « محمداً » بدل من الضمير المنصوب محلا فى قوله :« سمعته أذناى » .

(٢) انظر الآلوسى .

أى : صديق فيه[1] ، وليس عليكم إثم فيما قلتموه مخطئين قبل النهى ، أو بعده نسياناً أو سبق لسان ، ولكن الإثم فيما قلتموه عامدين قاصدين البنوة وأحكامها بقلوبكم ، وكان الله غفوراً فيغفر للعامد إذا تاب ، رحيماً برفع الحرج والإثم فيما كان قبل النهى ، أو كان خطأ لسان أو نسياناً بعده .

(ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾)

المفردات :

(أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) : أحق بهم من أنفسهم .

(وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) أى : مثل أمهاتهم فى التحريم واستحقاق التعظيم .

(وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) أى : أصحاب القرابات بعضهم أحق ببعض فى التوارث .

(إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا) : إلا أن تعطوا حلفاءكم من المهاجرين والأنصار براً معروفاً كالتوصية .

(كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً) أى : كان ماذكر من الأحكام فى الآيات السابقة مسطورا فى اللوح المحفوظ .

---

(١) من الولاء ضد العداء ، ويجوز أن يكون بمعنى عتيق إن كان كذلك .

التفسير

٦ - (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ..) الآية :

هذه الآية نسخ الله بها بعض الأحكام التى كانت فى صدر الإسلام ، وبيانه ما يلى :

(١) أنه - صلى الله عليه وسلم - كان لا يصلى على أحد وعليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح ، قال : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالًا فلورثته » أخرجه الصحيحان ، وروى البخارى بسنده فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « مامن مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم قول الله - تعالى - : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) فأيما مؤمن ترك مالًا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضَيَاعًا فليأتنى فأنا مولاه » أخرجه البخارى فى تفسير سورة الأحزاب .

والمراد من عصبته : قرابته ، والضَّياع : مصدر ضاع جعل اسما لكل ماهو عرضة للضياع ، منْ عيال لا كافل لهم ، ومال لا قيِّم عليه ، وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع ، وتجمع على ضياع - بكسر الضاد[1] - وقال بعض العلماء : هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة ، ويؤيد هذا المعنى حديث مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقَعْن فيها ، وأنا آخذ بُحجزِكم وأنتم تقتحمون فيها » قال العلماءُ : الحُجْزة للسراويل والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه ، أخذ بذلك الموضع منه .

وهذا مثل لاجتهاد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نجاتنا ، وحرصه على تخليصنا من المهالك التى بين أيدينا ، بدافع شهواتنا ووسوسة الشيطان الرجيم ، فهو أولى بنا من أنفسنا .

وفسرها بعضهم بأن المراد بأولويته بهم من أنفسهم أنه إذا أمر بشىء ، ودعت النفس إلى غيره ، كان أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أولى ، وشرعه أحق من هوى أنفسهم ،

---

(١) انظر القرطبى فى تفسير (الضياع) بفتح الضاد - ومن كسر الضاد - (ضياعاً) فالمراد بهم العيال الضائعون الذين لا كافل لهم ، جمع ضائع .

فينفذ حكمه لا حكمهم قال-تعالى- : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »(١)

واستنبط بعض الفقهاء من هذا الحديث - تفسيرا للآية - أنه يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء ، اقتداء بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « فعَلَىَّ قضاؤه »

(٢) ومنها أنها جعلت زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين ، حيث صيرتهن فى حكم الأمهات فى وجوب التعظيم والنفقة وحرمة النكاح على الرجال ، ثم إن هذه الأمومة لاتوجب ميراثاً ، ولا تمنع من زواج بناتهن .

واختلف فى كونهن أمهات النساء ، فمنهم من قال بذلك قياساً على الرجال ، ومنهم من منع رعاية للنص ، ولما رواه الشعبى عن مسروق عن عائشة - رضى الله عنها - : أن امرأة قالت لها : يا أمه ، فقالت لها : « لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكم » قال ابن العربى : وهو الصحيح .

واستظهر القرطبى أنهن أمهات للرجال والنساء ، فكما شملت أولوية النبى - صلى الله عليه وسلم - الرجال والنساء بقوله - تعالى - : (النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ) فكذلك قوله - سبحانه - : (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) ويحمل الأثر المروى عن عائشة - رضى الله عنها ، إن صح - : (لست لكِ بأم إنما أنا أم رجالكم) على أنه رأى لها فى الآية . اهـ : بتصرف .

واختلف فى النظر إليهن على وجهين : (أحدهما) أنهن كالمحارم فلا يحرم النظر إليهن . (وثانيهما) أن النظر إليهن حرام ، لأن تحريم نكاحهن إنما هو لحفظ حق الرسول فيهن ، ومن حفظ حقه فيهن حرمة النظر إليهن ، وأما اللائى طلقهن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ففى ثبوت حق الأمومة لهن خلاف . ولا يجوز أن يسمى النبى

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٦٥

- صلى الله عليه وسلم - أباً للمؤمنين ، لقوله - تعالى - : (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) ولكن يقال : إنه مثل الأب لهم ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم . . » . الحديث أخرجه أبو داود . وصحح بعضهم جواز إطلاق الأبوة عليه ؛ لأنه سبب للحياة الأبدية ، كما أن الأب سبب للحياة ، بل هو أحق بالأبوة منه ، وبهذا الرأى أخذ معاوية ،وعكرمة ، ومجاهد والحسن ، بل قال مجاهد : كل نبى أب لأمته ، ومن هنا قيل فى قول لوط : (هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِى) إنه أراد النساء المؤمنات من أمته ، وأخرج غير واحد عن ابن عباس أنه كان يقرأ : (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَّهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) .

(٣) أن قوله - تعالى - : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ) ناسخ لما كان فى أول الهجرة من التوارث بالهجرة ، حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل فى سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا[1] .. » . فتوارث المسلمون بالهجرة ، فكان لا يرث الأعرابى المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتى يهاجر ،ثم نسخ ذلكَ فى هذه السورة بقوله :(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) .

كما أنه ناسخ للتوارث بالحِلْف والمؤاخاة فى الدين ، روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام فى تفسيرها قال : « إنا -معشر قريش- لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، ثم قال : حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى مواريثنا » وثبت عن عروة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فارْتُثَّ كعب يوم أحد[2] ، فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته ، فلومات يومئذ كعب عن الضِّح والرِّيح[3] لورثه الزبير ، فأنزل الله - تعالَى -

---

(١) الآية : ٧٢ .

(٢) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٣) الضح - بكسر الضاد - ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض ، أراد أنه لو مات كعب عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح ، وكنى بذلك عن كثرة المال .

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ[١] ...) فبين الله ـ تعالى ـ أن القرابة أولى من الحلف ، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة . ويرجع ذلك إلى أن المسلمين لما توالدوا فى الإسلام وكثروا عدل بهم إلى التوارث بالقرابة بعد قطعه بسبب الكفر .

والمراد من كتاب الله : اللوح المحفوظ ، أو القرآن الكريم ، والمراد من لفظ (المؤمنين) الأنصارُ ، ومن لفظ (المعروف) فى قوله : (إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفاً) : الوصية ، ومن (الأولياء) الأصدقاء من المؤمنين ، ويدخل فيهم المهاجرون والأنصار ، فإن الوصية تصح لكل مؤمن ومؤمنة وتقدم على الميراث بالقرابة والمصاهرة ، لقوله ـ تعالى ـ فى سورة النساء : « مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ[٢] » بشرط أن تكون لغير وارث ، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا وصية لوارث » ومن العلماء من عمم المعروف فى كل بر وخير ، فيشمل الوصية وغيرها من أنواع البر كالهبة ، ومنهم من عمم الأولياء فأجاز الوصية لليهود والنصارى إذا كانوا موالين ، وبه قال محمد بن الحنفية وغيره ، ومنهم من قصر المعروف فى غير المسلم على الأقارب منهم كالوالدين والأولاد ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى المطولات .

والمعنى العام للآية : النبى أحق بالمؤمنين من أنفسهم ؛ لأنه أكثر منهم رعاية وعناية بمصالحهم ، فحبه مقدم على حبهم لأنفسهم ، وتنفيذ أمره وشرعه مقدم على تنفيذ رغباتهم وشهواتهم ، فهو أعرف بمصلحتهم الدنيوية والأخروية منهم ، وأزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأمهاتهم فى الحرمة والاحترام والتوقير والإكرام ، والبر والإعظام فلا يحل الزواج بإحداهن بعده ، ولا التفريط فى أى حق من حقوقهن ، إعظاماً لمقام نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجلالًا لقدره فى أمته ، وهن فيما عدا ذلك كالأجنبيات ، فلا تجوز الخلوة بهن كما تجوز

---

(١) وقيل : النسخ كان بآية آخر الأنفال ، وقيل : بالإجماع .

(٢) سورة النساء من الآية : ١١

بالأُمهات ، ولا تحرم بناتهن ولا أخواتهن كما تحرم بنات الأُمهات وأخواتهن ، وأصحابُ القرابات - وقد انتشر الإسلام بينهم - أحق بميراث قريبهم من المهاجرين والأنصار ، لزوال الكفر الذى كان سبباً فى حرمانهم من الميراث ، ونقله منهم إلى المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، وهذه الأولوية لا تمنع من أن تقدموا لأوليائكم من الأنصار والمهاجرين وغيرهم معروفاً وبرًّا سوى الميراث كالوصية والهبة والهدية والصدقة ، كان ما تقدم فى هذه السورة من الأحكام فى كتاب الله (اللوح المحفوظ ، أو القرآن) مسطورًا واجب التنفيذ والامتثال .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَإِذْ أَخَذْنَا) : واذكر - أيها النبى - حين أخذنا .

(مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) : من النبيين عهدهم بالدعوة إلى دين الله .

(مِيثَاقاً غَلِيظًا) : عهدًا عظيم الشأن ، أو قوياً متيناً ؛ لتأكيده باليمين .

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ) : ليسأل النبيين عن الصدق الذى بلغوه لأقوامهم ، وعُبّر عن النبيين بالصادقين لملازمتهم للصدق ، وعما بلَّغوه بالصدق ، لأنه من عند الله ، وقد جعل نفس الصدق على سبيل المجاز .

التفسير

٧ - (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً) :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة بعض ما أبلغه رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - لأمته من الأحكام الناسخة لما كانوا عليه قبلها ، جاء بهذه الآية لبيان أن تبليغ أحكام الله وشرائعه أمر مفروض على النبيين جميعاً ، وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق بتبليغها ، سواء أكانت ناسخة لما قبلها ، أم مؤكدة لها ، أم جديدة لم يسبق مثلها .

والتصريح بذكر هؤلاء الأنبياء الخمسة - مع اندراجهم فى عموم الأنبياء قبلهم - لكونهم مشاهير أرباب الشرائع ، وأولى العزم من الرسل ، وقدم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر أولى العزم ؛ تكريماً له وتعظيماً لشأنه ، لعموم نبوته وبقائها إلى قيام الساعة ، فهو سيد ولد آدم ولا فخر ، ورتب بعده باقى الأنبياء حسب ترتيبهم فى الوجود والبعث ، وإعادة أخذ الميثاق فى الآية لتأكيده ، ووصفه بكونه غليظاً تعظيماً لشأنه .

ومعنى الآية : واذكر لقومك - أيها النبى - حين أخذنا من جميع النبيين ميثاقهم أن يبلغوا شرائعنا لأممهم ، ويخصونى بالعبادة وحدى ، وأخذنا هذا الميثاق بخاصة على أولى العزم منهم ، حيث أخذناه عليك وعلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم بذلك ميثاقاً مؤكدا عظيماً ، ثم بين المقصود من أخذ هذا الميثاق بقوله - سبحانه - :

٨ - (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيمًا) :

أى : أخذنا الميثاق بتبليغ شرائعنا على جميع النبيين المعروفين بالصدق عندنا وعند أقوامهم منذ نشأتهم ؛ ليسأل الله هؤلاء الأنبياء المتصفين بالصدق عما قالوه وبلغوه من شرائعه الصادقة ، وبماذا أجابهم أقوامهم ، فيؤدوا الشهادة أمام الله عما قوبلت به دعوتهم كما قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ »[1] ويرتب على شهادتهم ما يستحقه أقوامهم من ثواب أو عقاب ، وقد أعد للمؤمنين ثواباً كريماً ، وأعد للكافرين عذاباً أليماً .

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٩

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾)

المفـردات :

(إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ) : من قريش ومن تحزب معهم فى غزوة الأحزاب .

(وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) المراد بهم : الملائكة .

(مِن فَوْقِكُمْ) : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وهم بنو غطفان وبنو قريظة :

(وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ) : من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش وباقى حلفائها .

(زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) : مالت عن مستوى نظرها .

(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) أى : خافوا خوفاً شديدًا ، فالكلام على التمثيل أو الكناية لا على الحقيقة ، لأن القلوب لا تفارق أماكنها من الصدور ، ولكنها تضطرب رعباً والحناجر : جمع حنجرة ، وهى الحلقوم حيث مخرج الصوت .

(هُنَالِكَ) : ظرف مكان وقد يستعمل فى الزمان حقيقة من قبيل المشترك ، أو مجازًا ، والمراد به هنا : الزمان ، أى : فى ذلك الحين ابتلى المؤمنون .

(وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) : اضطربوا من الفزع اضطراباً عنيفاً .

التفسير

٩ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) :

تحكى هذه الآية والآيات التى بعدها قصة غزوة الخندق ، وتسمى غزوة الأحزاب وكانت - كما قال ابن إسحاق - : فى شوال من السنة الخامسة الهجرية .

والمراد بالجنود الذين جاءوا لحرب المؤمنين : الأحزاب الذين تحزبوا لحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم قريش يقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن - وكان الرسول قد أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود قومه لحرب من أنعم عليه - وبنوعامر يقودهم عامر بن الطفيل وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمى ، وبنو النضير يقودهم رؤساؤهم حيى بن أخطب وأبناء بنى الحقيق ، وبنو قريظة برياسة سيدهم كعب بن أسد .

وكان بين بنى قريظة وبين النبى - صلى الله عليه وسلم - عهد فنقضوه بسعى حُيَىّ ابن أخطب ، وكان عدد جنود الأحزاب اثنى عشر ألفاً[1] .

وسببها : أن يهود بنى النضير كانوا قد خانوا عهد الرسول - عليه السلام - وذلك أن النبى وبعض أصحابه كانوا فى ديار بنى النضير ، فائتمروا على قتله ، بأن يأخذ أحدهم صخرة فيلقيها على النبى - صلى الله عليه وسلم - من علو ، فأطلع الله نبيه على قصدهم فرجع مع أصحابه ، وبعث إليهم أن اخرجوا من بلادى فقد هممتم بقتلى ، فتحصنوا بحصونهم ، فحاصرهم النبى ست ليال ، فسألوا أن يكف عن قتالهم ، على أن يخرجوا من ديارهم ومعهم ما حملت الإبل غير آلة الحرب ، فأجابهم النبى إلى ما طلبوا ، فذهب فريق منهم إلى خيبر وعلى رأسهم حيى بن أخطب وآل أبى الحقيق وذهب آخرون إلى أذرعات، فلم يقر لهم قرار بعد تركهم ديارهم ، وعزموا على الأخذ بالثأر

---

(١) وقيل : عشرة آلاف ، وقيل : خمسة عشر ألفاً .

ليستردوا بلادهم ، فذهب جمع منهم برياسة حييّ بن أخطب إلى قريش لتحريضهم على قتال النبى – صلى الله عليه وسلم – ووعدهم أن يقاتلوه معهم ، ثم حرضوا غطفان فاستجابوا لهم ، فخرجت قريش مع أحابيشها وبنو غطفان ، فلما علم الرسول بخروجهم فى حشدهم الكبير برياسة أبى سفيان ، استشار أصحابه : أيمكث بالمدينة أم يخرج لقتالهم خارجها ؟ فأشار عليهم سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة من الحرَّة الشرقية إلى الحرة الغربية ، فإنها هى الجهة التى تعتبر عورة ومدخلا للمدينة ، أما بقية حدودها فمشغولة بالنخيل والبيوت ، فيصعب على العدو القتال من ناحيتها ، فأعطى النبى – صلى الله عليه وسلم – لكل عشرة أربعين ذراعاً ليحفروها ،وقاسى المسلمون شدائد وصعاباً فى حفرها ، حيث لم يسبق لهم حفر الخنادق فى حروبهم ، ولم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم النبى – صلى الله عليه وسلم – فكان ينقل التراب متمثلا بشعر عبد الله بن رواحة :

اللـــهم لولا أنت ما اهتـــدينا ولا تصدقنا ولا صليـــنا
فأنزلَـــن سكـــينة علـيـــنا وثبت الأقدام إن لاقيـــنا
والمشركون قد بغوا عليـــنا وإن أرادوا فتنة أبيـــنا

ثم خرج – صلى الله عليه وسلم – بثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب بعسكره فى الجهة الشرقية ، مسندًا ظهره إلى جبل سلع المطل على المدينة ، أما قريش وأحابيشها فنزلوا بمجمع الأسيال ، وأما غطفان فنزلت جهة أحد ، وكان الخندق فاصلا بين الرسول وبين أعدائه .

وقد أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يقيم النساء والذرارى فى الآطام[1] ، واشتد الخوف عند المسلمين ، وتجلى نفاق المنافقين فى هذه الغزوة ، فانسحبوا من المعركة معتذرين بأن بيوتهم عورة (وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إن يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا) وكانوا يقولون : (مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا) .

---

(١) جمع أطم : وهو المكان العالى من حصن أو جبل أو قصر .

وفى أثناء هذا الخطر الداهم ، نقضت قريظة عهدها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فأصبح المسلمون بين نار من فوقهم ونار من أسفل منهم ، وقد هرب المنافقون بأعذارهم المكذوبة ، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر من الخوف ، ومضى قريب من شهر دون حرب بين الفريقين سوى الرمى بالنبل والحجارة من وراء الخندق ، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عَبْدِ وُدّ - وكان يعد بألف فارس - وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب ،وهبيرة بن أبى وهب ،ونوفل بن عبد الله ، اقتحموا الخندق بخيولهم من مكان ضيق ، فجالت خيولهم فى السيخة بين الخندق وسلع ، فخرج على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فى نفر من المسلمين ، وأخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها ، فأقبلت الفرسان معهم ، وقتل علىٌّ عَمْرَو بنَ عَبْدِ وُدّ فى قصة مشهورة ، فانهزمت خيله حتى اقتحمت هاربة من الخندق ، وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار ، ونوفل بن عبد العزى ، قيل : إنه وجد فى جوف الخندق ، فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم : أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله ، فقتله الزبير بن العوام ، وذكر ابن إسحاق أن علياً طعنه فى ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات فى الخندق ، وبعث المشركون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال : « هولكم ؛لا نأكل ثمن الموتى » .

وقد هيأ الله للمسلمين بعد ذلك أسباب النصر ، فقد جاء نعيم بن مسعود الأشجعى من غطفان - وهو صديق قريش واليهود - فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون ، فمرنى بأمرك حتى أساعدك ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : أنت رجل واحد ، وما ذا عسى أن تفعل ، ولكن خَذِّلْ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ، فتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال لهم : أنتم تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى ، فوعدوه بكتمانه فقال : لقد رأيتم ما وقع لبنى قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا إلى بلادهم وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم ، فأرى أن لا تدخلوا هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم ، بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم ، فاستحسنوا رأيه ، ثم توجه

إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال :أنتم تعرفون ودى لكم ، ومحبتى إياكم ، وإنى محدثكم حديثاً فاكتموه عنى ، فوعدوه بذلك ، فقال : إن بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا مع محمد ، وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له : أيرضيك أن نأخذ جمعا من أشرافهم ونسلمهم إليك ، وترد جناحنا التى كسرت - يريد بنى النضير - فرضى بذلك منهم ، ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر قريشاً ، فأرسل أبو سفيان وفدا لقريظة يدعوهم للقتال غدًا - وكان يوم سبت - فقالوا : إنا لا نقاتل يوم السبت ، ولم يصبنا ما أصابنا إلا بالتعدى فيه ، ولن نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم ، فتحققت قريش وغطفان مما قاله نعيم بن مسعود الأشجعى ، فتفرقت القلوب وخاف بعضهم بعضاً ، وأدى نعيم بن مسعود بهذه الوقيعة أعظم خدمة للإسلام فى هذا الخطر المحدق به .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد ابتهل إلى ربه قائلا : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم » فكان هذا الدور الذى أداه نعيم جزءاً من إجابة الله لدعوته ، وأرسل الله على أعدائه ريحاً باردة فى ليلة مظلمة شاتية ، كفأت قدورهم ، وأطفأت نيرانهم ، وقلعت خيامهم ، وأرسل عليهم جنودًا من الملائكة لم يروها ، كبّرت فى جوانب العسكر ، فماجت الخيل بعضها فى بعض ، فقال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، خوفاً من أن تتفق يهود مع المسلمين فيهجموا عليهم فى تلك الليلة المدلهمة ، وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم : ليتعرف كل منكم أخاه ، وليمسك بيده خوفاً من أن يدخل بينكم عدو ، وبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية : أنت رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى ، فنزل من فوق بعيره وآذنهم بالرحيل ، فرحلوا مهزومين .

والمعنى : ياأيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، اذكروا نعمة الله عليكم حين جاءتكم جنود كثيرة من الأحزاب ، مجهزون بمختلف أنواع السلاح ، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة كفأت قدورهم ، وقلعت خيامهم ، ونشرت الرعب بينهم ، وأرسلنا عليهم -أيضاً- جنودًا من الملائكة لم تروها ، وكان الله بما تعملونه من حفر الخندق والاستعداد للقتال بقدر وسعكم ، وأنه لا يكفى فى رد هؤلاء الأعداء المحيطين بكم ، كان الله بذلك كله خبيرا ، فلذلك نصركم بالريح والجنود التى لم تروها .

١٠، ١١ - (إِذْ جَآءُوكُم [1] مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا) :

المعنى : ياأَيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم حين جاءكم جنود الأحزاب (مِن فَوْقِكُمْ) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تبعهم من أهل نجد وبنو قريظة وبنو النضير (وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ) من أدنى الوادى من جهة المغرب - وهم قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة [2] -وحين مالت الأبصار عن مستواها ، وانحرفت عن طريقتها [3] حيرة ودهشة ، وخافت القلوب خوفاً شديداً ، كأنها من خوفها بلغت الحناجر ، وتظنون بالله مختلف الظنون ، فالمؤمنون الصادقون يظنون أن ينجز الله وعده بنصر نبيه وأوليائه وإعلاء دينه -أو أنه يمتحنهم فيخافون أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم ، ويظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أنهم مهزومون فيقولون ما يليق بحالهم مما سيحكيه الله - تعالى - : (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ) : على اختلاف درجاتهم بهذه المحنة ،واضطربوا اضطرابا قويًّا من شدة الفزع ، وظهر على لسان كل فريق ما يليق بحال إيمانه من صدق أو نفاق .

(وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾)

(١) بدل من (إذ جاءتكم) بدل كل من كل .

(٢) وقيل : الجائى من فوق بنو قريظه ، ومن أسفل قريش وأسد ، وغطفان ، وسليم ، وقيل غير ذلك .

(٣) وقال الأخفش : حين مالت عن كل شيء ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها .

المفردات :

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : ضعف اعتقاد . (مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ) : من النصر .

(إِلاَّ غُرُوراً) : إلا باطلا من القول (يَآأَهْلَ يَثْرِبَ) : يا أهل المدينة .

(لاَ مُقَامَ لَكُمْ) : لا مكان لكم فى أرض المعركة تقيمون فيه وأنتم مطمئنون للنصر .

(فَارْجِعُوا) : إلى منازلكم . (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) : غير حصينة[1] .

(مِنْ أَقْطَارِهَا) : من جوانبها . (ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ) : الردة وقتال المسلمين .

(لَآتَوْهَا) : لفعلوا الفتنة .

(وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً) : وما مكثوا بإتيانها إلا زماناً يسيرًا مقدار السؤال والجواب .

التفسير

١٢ - (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً) :

فى هذه الآية وما بعدها يحكى الله موقف المنافقين ومرضى القلوب من وعد الله بالنصر فى غزوة الأحزاب ، وتخذيلهم للمجاهدين من أهل المدينة ، وفرارهم من المعركة بأعذار واهية ، والتعبير بلفظ (يقول) بدلا من (قال) للدلالة على تكرار قولهم : (مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً) واستحضارًا لصورته لمزيد التشنيع عليهم .

روى النسائى بسنده عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول . فاشتكينا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال : « باسم الله » فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال : « الله أكبر أعطيتُ مفاتيح الشام ، والله إنى لأُبصر قصورها الحمراء الآن من مكانى هذا » قال : ثم ضرب أُخرى وقال : « باسم الله » فكسر ثلثاً آخر ، ثم قال : « الله أكبر . أعطيت مفاتيح فارس ، والله

---

(١) وعورة فى الأصل : مصدر ، بمعنى الخلل ، وصفت بها البيوت للمبالغة، ويوصف بها المفرد والمثنى والجمع مذكراً أو مؤنثاً بلفظ واحد كما هو شأن المصادر .

إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض » ثم ضرب الثالثة وقال : « باسم الله » فقطع الحجر ، وقال : « الله أكبر . أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر باب صنعاء[1] » وقد تحقق كل ذلك ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، فوصفوا هذا الوعد بالغرور .

وجاء فى حديث آخر أنه – صلى الله عليه وسلم – كلما ضرب ضربة أضاءت له مملكة من هذه الممالك .

والمعنى الإجمالى للآية : واذكر – أيها النبى وكل مؤمن – حين يقول المنافقون ومرضى القلوب مكررين : ما وعدنا الله من النصر والاستيلاء على الممالك إلا وعداً باطلاً لا سبيل إلى تحقيقه .

١٣ – (وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا) :

المراد بالطائفة هنا عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه – كما قال السدى – وقيل : هم أوس بن قيظى وأصحابه بنو حارثة – كما قال يزيد بن رومان .

ويثرب هى المدينة ، وسميت يثرب باسم رجل من العماليق نزلها من قبل – كما قاله السهيلى – ولها عـدة أسماء ، منها : طابة ، وطيبة ، وقد كره بعض العلماء إطلاق لفظ يثرب عليها ؛ لحديث رواه أحمد بسنده عن البراء قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله » تفرد به أحمد ، وفى إسناده ضعف كما قال ابن كثير .

ومعنى قولهم : (لَا مُقَامَ لَكُمْ) : لا مكان لكم فى أرض المعركة تقيمون فيه ، فأنتم عرضة للفناء من الأحزاب الكثيرة العدد والعُـدَدِ ، ويصح أن يكون المعنى : لا إقامة لكم ، أى : لا يمكنكم الإقامة ، أولا ينبغى أن تقيموا هنا والحال على ما ترون . أو : لاإقامة لكم فى دين محمد ، فارجعوا كفارا ، وتحللوا بذلك من بيعتكم إياه وأسلموه .

ومعنى الآية : واذكر – أيها النبى وكل مؤمن – حين قال جماعة من المنافقين وضعفاء الإيمان لجنود المسلمين الذين خرجوا مع الرسول للدفاع عن المدينة : لاينبغى أن تقيموا هنا على شفير الخندق فى مواجهة الأحزاب ، فارجعوا إلى بيوتكم ، يريدون

---

[1] (١) ذكره القرطبى فى آخر المسألةالثالثة من مسائل قوله – تعالى – : «يا أيهاالذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ... » الآية التاسعة من هذه السورة .

بذلك ترك النبى مع المهاجرين ، حتى إذا انتصرت عليهم الأحزاب كان لهم بذلك يد عندهم تنجيهم من بطشهم ، ويستأذن جماعة منهم النبى فى العودة إلى بيوتهم ليحرسوها قائلين : (إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) أى : ذليلة غير حصينة يخاف عليها من السُّرَّاق ، وما هى بعورة - كما زعموا - ما يريدون بهذا الاستئذان إلا فرارًا من أرض المعركة .

١٤ - (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا) :

ولو دخل الأعداء المدينة أو البيوت من جوانبها على هؤلاء المعتذرين عن القتال بخلل بيوتهم ، ثم سألهم هؤلاء الأعداء الحرب فى صفوفهم ضد محمد وأصحابه لأعطوها وخاضوا غمارها ضده ، ولم يتلبثوا فى بيوتهم إلا زمناً يسيرًا بقدر ما يأخذون سلاحهم فطلبهم الإذن فى الرجوع إلى بيوتهم ليس راجعاً إلى اختلالها وعدم حصانتها - كما زعموا - بل لنفاقهم وكراهتهم نصرة رسولهم .

وفسر بعضهم الفتنة بالكفر ، والمعنى عنده : ولو سئلوا الردة عن الإسلام لأعطوها وما مكثوا بإعطائها إلا زمناً يسيرا بمقدار السؤال والجواب ، والمعنى الأول أولى ، وهو اختيار ابن عطية ، وقد دخل فيه هذا المعنى ضمناً .

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾)

المفردات :

(لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ) أى : لا يفرون ، والفار يُوَلّى دبره .

(مَسْئُولًا) : مطلوباً الوفاءُ به .

(لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) : لا تنتفعون بالبقاء إلا زمناً قليلاً .

(يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ) : يمنعكم من قضائه خيرًا كان أو شرًا .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا) :

قال يزيد بن رومان : هم بنوحارثة همّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم مانزل عاهدوا الله على أن لا يعودوا لمثل ما فعلوا .

وهذه الآية الكريمة تعيب عليهم نكوصهم فى عهدهم فى غزوة الخندق ، حيث كانوا ضمن المنافقين المستأذنين فى الرجوع من المعركة لحفظ بيوتهم من الأعداء ، بحجة أن بها عورة وخللاً ، وتُذكّرهم بوجوب الوفاء بالعهد .

والمعنى : ولقد كان هؤلاء المنافقون المعتذرون عاهدوا الله أمام رسوله من قبل هذه الغزوة أن لا يعودوا للفشل الذى هموا به يوم أُحد ، فلا يولون الأدبار فى حروب الرسول مع الكافرين ، وكان الوفاءُ بعهد الله مطلوباً ، فما بالهم يستأذنون فى العودة إلى بيوتهم فى أصعب أحوال الحرب بين الإسلام والكفر .

١٦ - (قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المعتذرين الفارين من المعركة : لن ينفعكم الفرار من الموت حتف أُنوفكم إن قضى الله بذلك ، أو من القتل إن قضى الله أن تقتلوا وإذا فررتم من أحدهما فسيدرككم ما قضاه الله عليكم منهما ، وإذًا لا تمتعون بالفرار إلا زماناً قليلا مهما طال ، فإن متاع الدنيا قليل مهما طال الأجل .

١٧ – (قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا) :

قل لهم – أيها الرسول –: من هذا الذى يمنعكم من قضاء الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله – عندما يحل بهم السوء – قريباً ينفعهم ولا نصيرًا يدفع الضر عنهم .

* (قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْمُعَوِّقِينَ) : المثبطين الصادين الناس عن رسول الله ، وهم المنافقون .

(هَلُمَّ إِلَيْنَا) : تعالوا إلينا وأقبلوا علينا .

(الْبَأْسَ) : الحرب والقتال ، وأصل معناه : الشدة .

(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) : بخلاء بالمعاونة .

(كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ) : كنظر المغشى عليه.

(مِنَ الْمَوْتِ) : من معالجة سكرات الموت .

(سَلَقُوكُمْ) : آذوكم بالكلام وبالغوا فى شتمكم وذمكم .

(بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) : قاطعة سلطة .

(أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) : بخلاء على الإنفاق فى سبيل الله .

(أَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ) : أبطلها .

التفسير

١٨ - (قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة بعض صور النفاق وصفات المنافقين ، فهم الذين يستأذن فريق منهم النبي فى الرجوع إلى المدينة فى غزوة الخندق متعللين بأن بيوتهم غير محصنة ولابد من حراستها ، وما يريدون إلا الفرار مع أن بعضهم عاهدوا الله فى غزوة أحد لا يولون الأدبار ، ولن ينفعهم الفرار من الموت أو القتل ، ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيرًا .

وفى هذه الآية الكريمة يبين الله صورة من صور هؤلاء المنافقين .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة - كما قال ابن السائب - فى عبد الله بن أبى ، ومن رجع معه من المنافقين من الخندق إلى المدينة ، كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في جيش الرسول أن : ائتونا فإنا ننتظركم .

والمعنى : يعلم الله على سبيل التحقيق المثبطين سرًّا عن رسول الله ، وهم فريق من المنافقين يصدون الناس عنه ، ويمنعونهم من شهود الحرب معه ، ومشاركته فى الذب عن دين الله ، وقتال أعداء الإسلام ، وهم الذين يقولون لإخوانهم فى النفاق وكراهية الرسول وبغض الإسلام : هلم إلينا ، أى : انضموا إلينا وقربوا أنفسكم منا ، وتعالوا ودعوا محمدًا فلا تشهدوا معه حرباً ، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه . وكانوا لا يباشرون الحرب والقتال إلا قليلا لعدم إخلاصهم ، فهم لا يشهدون القتال إن شهدوه إلَّا تقية دفعا عن أنفسهم .

وقيل : إن قوله - تعالى - : (وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) من تتمة كلامهم ، ومعناه : ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ، ولا يبقون فيها إلَّا زماناً قليلا تدور بعده الدوائر عليهم ، والظاهر المعنى الأول .

١٩ - (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا) :

لا يزال النظم الكريم يعرض صور المنافقين . ومعنى الآية : بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة وبكل مافيه منفعة لكم ، فإذا جاء الخوف من العدو ، وتُوُقِّع أن يُستأصل أهل المدينة، رأيتهم ينظرون إليك فى تلك الحال تدور أعينهم فى أحداقهم حائرة ،كحال المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرًا وخوفاً من الحرب .

فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نسوا تلك الحال واجترأوا عليكم ، وضربوكم بألسنة ذَرِبَةٍ فصيحة وقالوا : عظموا نصيبنا من الغنيمة فإنا ساعدناكم وقاتلنا معكم ، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم .

ولقد سأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس - رضى الله عنه - عن « السلق » فى الآية فقال : الطعن باللسان ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ، فقال : نعم ، أما سمعت قول الأعشى :

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ـدة فيهم والخاطب المسلاق

وفسره الزجاج بالمخاطبة الشديدة البليغة ، قال : معنى سلقوكم : خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها فى الغنيمة ، يقال : خطيب مسلاق إذا كان بليغاً فى خطبته .

(أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ) أى : بخلاء على كل خير ، فلا يعاونونكم فى الحرب ولا ينفقون فى سبيل الله ، ولا غير ذلك من فنون الخير ، أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً نابعاً من قلوبهم ، فإنهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان ، وأضمروا فى قلوبهم الكفر وتظاهروا بالإسلام ، ولم يستبطنوه فأحبط الله أعمالهم ، أى : أذهب أجرها وأظهر بطلانها ، لأنها باطلة مذ عملت ؛ إذ صحتها مشروطة بالإيمان الصادق ، وكان ذلك الإحباط على الله يسيرا هينا سهلا ، لايبالى به ولايخاف اعتراضا عليه ، لأنه عادل

يقول العلامة الزمخشرى : وفى هذا بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح الإيمان كالبناء على غير أساس وأنها مما يذهب عند الله هباءً منثورًا .

(يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ) : كائنون فى البادية مع الأعراب .

(مَا قَاتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا) : رياءً وسمعة وخوفاً من التعيير .

التفسير

٢٠ - (يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا) :

ومن صفات المنافقين أنهم يظنون أن جيوش الأحزاب لا تزال مكانها تحاصر المدينة وأنهم لم يرحلوا ولم يشتت الله شملهم ، وذلك لما مسهم من الجزع ، وأصابهم من الدهشة والهلع ، وإن يأت الأحزاب كرة ثانية يتمنوا أنهم خارجون إلى البدو ومقيمون بين الأعراب يتسقطون أخباركم ، ويسألون كل قادم من جانب المدينة عما حدث لكم وجرى عليكم من الأحزاب ، وهكذا يتعرفون أحوالكم بالاستخبار والسؤال لا بالمشاهدة والعيان فرقاً وخورًا .

واختيار البادية ليكونوا سالمين من القتال ، بعيدين عن أرض المعركة ، ولو كانوا فيكم فى هذه الكرة المفروضة ، وظلوا فى معسكركم ، وحدث قتال ، والتحم الجيشان

ما قاتلوا إلا قتالاً قليلًا رياءً وسمعة وخوفاً من التعيير ، وهو قليل لا يجدى نفعاً ، ولا يسوق نصرا ، ولا يدفع ضررا لأنه رياء ، ولو كان لله لبالغوا فى القتال لتحقيق النصر .

(لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) : قدوة طيبة .

(لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) أى : يأمل رضا الله ، وثواب اليوم الآخر .

(مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ) من الابتلاء والنصر .

(وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ) أى : ظهر صدق خبر الله ورسوله فى الوعد .

(وَتَسْلِيماً) : وانقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله .

التفسير

٢١ ـ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) :

هذه الآية أصل كبير فى التأسى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أقواله وأفعاله وأحواله ، ولقد أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ الناس فيها بالتأسى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الأحزاب فى صبره ، ومصابرته ، ومرابطته ، ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه

وقال معاتبا للذين قلقوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب وللمتخلفين : لقد كان لكم[1] فى رسول الله أسوة حسنة فهلا اقتديم به وتأسيتم بشمائله؟ والآية وإن سيقت للاقتداء به - عليه السلام - فى أمر الحرب من الثبات فى القتال ونحوه ، فهى عامة للاقتداء به فى كل أفعاله « ما لم يُعلم أنها من خصوصياته ».

أخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر : أنه سئل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة ؟ فقال : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين ، وسعى بين الصفا والمروة ثم قرأ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ) أى : لمن كان يأمل رحمة ربه ورضوانه ، ونعيم اليوم الآخر وهو يوم القيامة أو يخاف الله واليوم الآخر ، فالرجاء هنا بمعنى الأمل أو الخوف ، وقرن - سبحانه وتعالى - بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة على كثرة ذكره - عز وجل - تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق التأسى والاقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وصرح بعض الأجلة كالإمام النووى أن ذكر الله المعتبر شرعاً ما يكون فى جملة مفيدة كسبحان الله ، والحمد لله ، وأجمعوا على أن الذكر المتعبد بمعناه لا يثاب صاحبه ما لم يستحضر معناه ، فالمتلفظ بنحو : سبحان الله والحمد لله إذا كان غافلا عن المعنى لايثاب إجماعاً .

٢٢ - (وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً) :

هذا بيان لما صدر عن خلص المؤمنين وصالحى المسلمين عند اشتباه الشئون ، واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم .

---

(١) فى الكلام فن التجريد ، وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة آخر مثله فيها مبالغة فى الاتصاف بها ، نحو : لقيت منه أسداً ، وهوكما يكون بلفظ من يكون بلفظ فى ، كقول الشاعر :

أراقت بنو مروان ظلما دماءنا وفى الله إن لم يعدلوا حكم عدل

أى : لما شاهد المؤمنون الأحزاب وعاينوا جموعهم المحتشدة ، قالوا مشيرين إلى ما شاهدوه : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبارالذى يعقبه الفرج القريب والنصرة على الأعداء ، أو الجنة .

قال ابن عباس : يعنون قوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ»[1] وفى البحر عن ابن عباس قال : قال الرسول لأصحابه : «إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا» أى : بعد تسع ليال أو عشر من وقت إخباره لهم ، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك . وكذلك قول الرسول : «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم» وتتبعه ابن حجر بأنه لم يوجد فى كتب الحديث .

وصدق الله ورسوله فى الوعد حيث ظهر صدق خبرالله ورسوله فى مجىء الأحزاب وفى النصرة عليهم ، ومازادهم مارأوه من الضيق ، وما كابدوه من الشدة إلا قوة إيمان بالله ، وحسن انقياد لأوامره ، وطاعة لرسوله .

وفى الآية دليل على أن الإيمان يزيد ويقوى لزيادة التكاليف وزيادة الأعمال ، وكما يزيد لذلك ينقص بنقصه ـ كما قال الجمهور.

(مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٤ ، أخرجه ابن جرير والبيهقى وغيرهما .

المفـردات :

(صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ) : من الثبات فى القتال مع الرسول حتى الاستشهاد أو النصر ، ووفوا بذلك .

(فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ) : وفاء بنذره بأن قاتل حتى استشهد .

(وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ) : ومنهم من بقى حيا ينتظر ذلك الشرف .

(وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلاً) أى : وماغيروا عهد الله ولانقضوا شيئا منه .

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إن شَآءَ) : بأن يميتهم على نفاقهم فيعذبون بكفرهم .

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) أى : أو يوفق المستعد منهم للتوبة .

التفسير

٢٣ - (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَٰهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق .

أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وجماعة عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله غبت عنه ! ! لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله فيما بعد ليرين الله - تعالى - ما أصنع ، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واها لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، ونزلت هذه الآية : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ . . . .) الآية . وكانوا يرونها نزلت فيه وفى أصحابه .

وفى الكشاف : نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، أى : نذر الثبات التام والقتال الذى يُفضى بحسب العادة إلى نيل الشهادة أو النصر .

والمعنى : من المؤمنين المخلصين رجال ، أى رجال ؟ ! رجالٌ عاهدوا الله أن يكونوا فداء للدعوة وقربانا للإسلام ، ومنارات على طريق الإيمان بالثبات مع الرسول فى القتال ، والاستبسال فى الذود عن دين الله حتى يفوزوا بإحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ، وصدقوا فى هذا العهد بأن وفوا به وحققوه بما أظهروه من أعمالهم ، ومن وفى بعهده فقد صدق فيه .

وهؤلاء الصادقون منهم من قضى نحبه ، أى : وَفَّى بنذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة أسد الله ورسوله ، قتل وهو يصول ويجول كالأسد الهصور فى الميدان ، ومصعب ابن عمير استشهد وهو يحمل لواء المؤمنين إلى الجنة ، وأنس بن النضر الذى تقدمت قصته ، ومنهم من ينتظر بأن بقى حيًّا يتشوف إلى ذلك الشرف وينتظر يوما فيه جهاد فيقضى نحبه ويؤدى نذره ويفى بعهده كعثمان وطلحة ، روى أن طلحة ثبت مع رسول الله يوم أحد حتى أصيبت يده ، فقال الرسول : «أوجب طلحة» .

وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله - تعالى - : (قَضَىٰ نَحْبَهُ) فقال : أجله الذى أجل له ، فقال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

ألا تسألون المرء ماذا يحاول أَنَحْبٌ فيقضى أم ضلال وباطل

وأخرج جماعة عنه أنه فسر ذلك بالموت ، وروى نحوه عن ابن عمر .

والمعنى الأصلى للنحب - على ماقرره الراغب والبيضاوى والكشاف - : النذر ، يقال : قضى فلان نحبه ، أى : وفى بنذره ، واستعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان ، كما يطلق - أيضا - فى اللغة على الأجل والنفس وغيرهما .

(وَمَابَدَّلُوا تَبْدِيلًا) : وما غيّر هؤلاء الصادقون عهدهم ، ولانقضوه ولابدلوا تبديلا ، لا أصلا ولا وصفا ، بل ظلوا على ماعاهدوا الله عليه ، وثبتوا راغبين فيه مراعين لحقوقه صادقين فى تحقيقه ، وفى الكلام تعريض بمن بَدَّله من المنافقين ، فكأنه قيل : وما بدلوا تبديلا كما بدل المنافقون .

٢٤ - (لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـٰفِقِينَ إن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

المعنى : إنما يختبر الله عباده بالخوف والشدائد والزلازل والمحن ليميز الخبيث من الطيب فيظهر أمر هذا وذاك بالفعل ، ليجزى الله المؤمنين الصادقين بصدقهم فى إيمانهم ووفائهم وصبرهم على تحقيق ماعاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ومحافظتهم عليه ، ويعذب المنافقين الناقضين عهد الله ، المخالفين لأمره إن شاء إن لم يتوبوا ، أو يتوب عليهم بأن يوفق المستعد منهم للتوبة .

ولما كانت رحمته - تبارك وتعالى - بخلقه هى الغالبة قال : (إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا) : بقبول التوبة (رَحِيمًا) : بالعفو عن المعصية .

والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة : أنه - تعالى - إن شاء عذبهم فى الآخرة لبقائهم على نفاقهم فى الدنيا ، وإن شاء - سبحانه - لم يعذبهم بأن يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق إلى التوبة والإخلاص فى الإيمان والعمل .

ومثل ذلك قول السدى : المعنى : ويعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم لبقائهم على نفاقهم ، أو يتوب عليهم بنقلهم من النفاق إلى الإيمان بالتوبة فيعفو عنهم .

وللعلامة الآلوسى كلام طويل فى هذا الموضوع فليرجع إليه من أراد .

(وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : الأحزاب .

(بِغَيْظِهِمْ) الغيظ : أشد الغضب والحنق .

(لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) : غير ظافرين بشىء من مرادهم .

(وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) : بجنوده من الريح والملائكة .

التفسير

٢٥ - (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) :

رجوع إلى حكاية بقية القصة ، وتفصيل لتتمة النعمة المشار إليها إجمالا بقوله - تعالى - : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا)(١) .

يقول الله - تعالى - مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلٰهية : ورد الله الأحزاب الذين كفروا ، بما أرسله عليهم من الريح والجنود ، فلم ينالوا خيرا من غزوهم للمؤمنين ، فقد ألقى الله الرعب فى قلوبهم فولوا مهزومين مدحورين ، وكفى الله المؤمنين القتال ولم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين قتلهم وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده بجنوده من الريح والملائكة .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده» أخرجه الشيخان .

وفى قوله - عز وجل - : (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش وحلفائها ، قال محمد بن إسحق : لما انصرف أهل الخندق قال - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان رسول الله يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله - تعالى - مكة ، وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحق صحيح كما قال الإمام أحمد ، وروى مثله الإمام البخارى فى صحيحه ، (وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا) على تنفيذ مايريد ، (عَزِيزًا) لايغلبه غالب .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٩

(وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ) : عاونوا الأحزاب وساعدوهم .

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) : يهود بنى قريظة .

(مِن صَيَاصِيهِمْ) : من حصونهم ، جمع صِيصِيَة ، وهو : ماتُحصِّن وامتُنِع به .

(وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) : وألقى فى قلوبهم الخوف الشديد .

(وَأَوْرَثَكُمْ) : وملككم إياها وجعلها لكم .

(وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا) بعد وهى خيبر ، أُخذت بعد قريظة ، وعن عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

التفسير

٢٦ - (وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) :

سبب النزول :

روى أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - **صبيحة** الليلة التى انهزم فيها الأحزاب ، ورجع المسلمون إلى المدينة فقال : يارسول الله ، إن الملائكة لم تضع السلاح ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، وأنا عامد إليهم فإن الله دَاقُّهُمْ[1] دقَّ البيض على الصفار ، وإنهم لكم طعمة ، فأذن فى الناس أن من كان

(١) دقه : كسره ، أو ضربه فهشمه ، فاندق . ص ٢٢٢ ج ٣ قاموس .

سامعا مطيعا فلا يصلى العصر إلا فى بنى قريظة ، فما صلى كثير من الناس العصر إلا بعد العشاء الآخرة لقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم— فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، فقال لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «تنزلون على حكمى ؟ ! » فأبوا ، فقال : «على حكم سعد بن معاذ » فرضوا به ، فقال سعد : حكمت فيهم أن يقتل مقاتلهم ، وتسبى ذراريهم ونساؤهم ، فكبر النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال : «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »(١) ثم استنزلهم وخندق فى سوق المدينة خندقا وقدمهم فضربت أعناقهم ، وروى أن النبى جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار فى ذلك ، فقال : «إنكم فِى منازلكم » وقال عمر — رضى الله عنه — : أما تخمس كما خمست يوم بدر ؟ قال : «لا ؛ إنما جعلت هذه لى طعمة دون الناس » قال : رضينا بما صنع الله ورسوله — ا هـ : الكشاف بتصرف .

والمعنى : وأنزل الله الذين عاونوا الأحزاب المخذولة وساعدوهم على حرب رسول الله من أهل الكتاب ،وهم بنو قريظة — من اليهود من بعض أسباط بنى إسرائيل — كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل «فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »(٢) واقتلعهم من قلاعهم التى تحصنوا بها ، وحصونهم التى امتنعوا خلفها ، وألقى فى قلوبهم الخوف الشديد ، لأنهم مالأوا المشركين على حرب الرسول ، وهم يعرفون صفاته فى كتبهم ، وليس من يعلم كمن لايعلم ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليكون لهم العز والغلبة والشوكة ، فرد الله عليهم كيدهم فى نحرهم ، انهزم المشركون ورجعوا بصفقة المغبون ، وتركوا حلفاءهم من بنى قريظة لنصيبهم المحتوم ، وراموا استئصال المؤمنين فاستئصلوا ، ولهذا قال — تعالى — : (فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) : فالذين قُتِلُوا هم المقاتِلة ، والأسرى هم النساء والذرارى .

٢٧— (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) :

(١) فى الصحاح : الرقيع: سماء الدنيا وكذلك سائر السموات .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٨٩

وأورثكم مزارعهم ، وملككم حصونهم ومنازلهم وأموالهم : نقودهم ومواشيهم وأثاثهم ، انتقل إليكم ملكها بعد قتلهم ، وأصبح مِلْكُكُم إياها مِلْكًا قويا ، ليس بعقد يقبل الفسخ أو الإقالة ، وأورثكم أيضا أرضا لم تطأها أقدامكم من قبل ، قال عروة : لا أحسبها إلا كل أرض فتحها الله -تعالى- على المسلمين ، أو هو فاتحها إلى يوم القيامة ، وبذلك قال عكرمة واختاره فى البحر .

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً) : فقد شاهدتم بعض آثار قدرته فى هزيمة الأحزاب وتشتيت جموعهم ، والانتصار العظيم على بنى قريظة وأورثكم أرضهم وأموالهم ، وهو - سبحانه - قدير على أن يملككم ماشاء .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(قُل لِّأَزْوَاجِكَ) : وكن تسعا وطلبن منه شيئا من زينة الدنيا .

(إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا) أى : السعة فيها والتنعيم بها .

(وَزِينَتَهَا) : وزخرفها ومتعها .

(فَتَعَالَيْنَ) : أقبلْنَ بإرادتكن واختياركن .

(أُمَتِّعْكُنَّ) متعة الطلاق .

(وَأُسَرِّحْكُنَّ) : أطلقكن .

(سَرَاحاً جَمِيلاً) : طلاقا حسنًا لا ضرار فيه .

التفسير

٢٨ - (يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً) :

جاء فى البحر : أنه لما نصر الله نبيه ، وردَّ عنه الأَحزاب ، وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن : يارسول الله ، بنات كسرى وقيصر فى الحلىّ والحُلَل والإماء والخَوَل[1] ، ونحن على ماتراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه الشريف ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناءُ الدنيا أزواجهم ، فأَمره ـ تعالى ـ أن يتلو عليهن مانزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قوله ـ تعالى ـ : (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ... الآية) وبدأ بعائشة فقال لها : « إنى ذاكر لك أمرا ما أحب أن تتعجلى فيه حتى تستأْمرى أبويك » قالت : ماهو ؟ فتلا عليها قوله ـ تعالى ـ : (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ . . . الآية) قالت : أفيك أستأْمر أبوىّ ؟ بل أختار الله ورسوله ، ثم تتابعن كلهن على ذلك فسماهن الله أُمهات المؤمنين ، تعظيما لحقهن ، وتأْكيدا لحرمتهن ، وتفضيلا لهن على سائر النساء ، وقصره عليهن إذ قال : (لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ)[2] . اهـ : آلوسى .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم مثل ذلك ، ومما سبق يتضح مناسبة هذه الآية لما قبلها .

وفى خبر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة والحسن : أنه لما نزلت آية التخيير كان تحته ـ عليه السلام ـ تسع نسوة ، خمس من قريش وهن :

(١) عائشة (٢) وحفصة (٣) وأم حبيبة بنت أبى سفيان (٤) وسودة بنت زمعة (٥) وأم سلمة بنت أبى أمية .

ومن غير قريش : (٦) صفية بنت حُيَىّ الخيبرية (٧) وميمونة بنت الحارث الهلالية (٨) وزينب بنت جحش الأسدية (٩) وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكان هذا التخيير كما روى عن عائشة وأبى جعفر بعد أن هجرهن ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهراً « تسعة وعشرين يوما » وكان درسا قاسيا ، وموقفا حاسما ـ وقفه رسول الله أمام نسائه حين أردن زخارف الدّنيا وزينتها ـ بأَمر من الله .

والمعنى : يا أيها النبى قل لأزواجك ناصحاً مبيناً لهن وحى الله وأمره : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، والسعة فيها ، والتنعم بها ، فاقبلن بإرادتكن واختياركن لخصلتين

(١) أى : الخدم .

(٢) سورة الأحزاب : الآية : ٥٢

أعطيكن متعة تخفف عنكن وحشة الطلاق ، وقسوة ومرارة الفراق ، وأطلقكن طلاقاً جميلا لا إساءة معه ولا ضرار فيه .

وفى مجمع البيان : تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالى عن الخصومة والمشاجرة ، وقدم التمتع على الطلاق إيناساً لهن ، ولأن الإسلام يقدم الخير قبل الشر ويسوق النفع قبل الضر .

٢٩ - (وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً) :

وإن كنتن تُؤثرن حب الله - سبحانه - وحب رسوله - عليه الصلاة والسلام - والدار الآخرة ونعيمها الباقى الذى لايدانيه شئ فى الدنيا وما فيها ، وترضين بما أنتن فيه من شظف العيش ، وخشونة الحياة ، فإن الله هيأ ويسّر للمحسنات منكن أجرًا عظيماً ، جزاء إحسانهن باختيار الله ورسوله على دنيا الناس .

و (مِنْ) للبيان لا للتبعيض ، لأن كلهن كن محسنات فى أعمالهن آثرن الله ورسوله واليوم الآخر .

ويستدل الكاتب الإسلامى المرحوم مصطفى صادق الرافعى بهذه القصة على أنه - عليه السلام - لم يكن زواجه رغبة فى متعة ، ولا طلباً لشهوة ، ولا حبًّا لجسد ، ولو كان الأمر على ذلك لما كانت هذه القصة التى أساسها نفى الزينة ، وتجريد نسائه جميعاً منها ، وأمره من قبل ربه أن يخيرهن بين تسريحهن ، فيكنّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمساكهن فلا يكنّ معه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتها .

ولم تقتصر القصة على نفى الدنيا وزينتها عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه فى نفوسهن ، بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله فى أمره ونهيه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة فى تكاليفها ومكارهها . اهـ « ملخصا من كتاب وحى القلم للرافعى ج ٢ ص ٦٣ وما بعدها » .

حكم المتعة :

المتعة للمطلقة التى لم يُدخل بها ولم يُفرض لها فى العقد واجبة عند الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه - وأصحابه ، ولسائر المطلقات مستحبة .

وعن الزهرى متعتان : إحداهما يقضى بها السلطان ويجبر عليها من طلّق قبل أن يفرض لها ويدخل بها .

والثانية : حق على المتقين بعد ما فرض لها ودخل بها .

وخاصمت امرأة إلى شريح فى المتعة ، فقال لزوجها : متعها إن كنت من المتقين ، ولم يجبره .

وعن سعيد بن جبير : المتعة حق مفروض .

وعن الحسن : لكل مطلقة متعة إلّا المختلعة والملاعنة .

تخيير الرسول لنسائه :

اختلف فيما وقع من التخيير ، هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا ؟

فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم -ومنهم ابن الهمام- إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق ، وإنما كان تخييرًا لهن بين الإرادتين ، على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن النبى - صلى الله عليه وسلم - كما ينبئ عنه قوله - تعالى - : (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ) .

وذهب آخرون : إلى أنه كان تفويضاً إليهن بالطلاق ، حتى أنهن لو اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقاً .

ولقد ذكر الإمام الرازى فى الكلام على تفسير هذه الآية عدة مسائل :

الأولى : أن التخيير منه -صلى الله عليه وسلم- كان واجباً عليه بلاشك ، لأنه إبلاغ للرسالة .

الثانية : أنه لو أردن كلهن أو إحداهن الدنيا ، فالظاهر أنه يجب عليه التمتيع والتسريح ، لأن الخلف فى الوعد منه - عليه السلام - غير جائز .

الثالثة : أن الظاهر أنه لا تحرم المختارة على غيره - عليه السلام - بعد البينونة ، وإلّا لا يكون التخيير مُمَكّناً من التمتع بزينة الدنيا .

الرابعة : أن الظاهر أن من اختارت الله - تعالى - ورسوله يحرم على النبى طلاقها « نظرًا لمنصبه الشريف » .

(يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(بِفَاحِشَةٍ) : بكبيرة .

(مُبَيِّنَةٍ) : ظاهرة القبح .

(ضِعْفَيْنِ) أى : ضعفى عذاب غيرهن ، أى : مثليه .

التفسير

٣٠ - (يَانِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا) :

المعْنى : يا نِسَاءَ النبى من ترتكب منكن كبيرة من الكبائر ، أو تقترف ذنباً من الذنوب القبيحة ، كعصيان الله ورسوله ، ومشاقته فيما ليس فى طاقته ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، أى : تعذب ضعفى عذاب غيرها ، أى : مثليه .

وإنما ضوعف عذابهن لأن ما قبح من سائر النساء ، كان صدوره منهن أقبح ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة وعلو المنزلة ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - لذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم أشد منه للعاصى الجاهل .

ولما كانت مكانتهن رفيعة ناسب أن يجعل عقاب الذنب لووقع منهن مضاعفاً ، صيانة لشرفهن الرفيع ، وكان تضعيف العذاب عليهن يسيرًا هيناً لا يمنعه - جلَّ شأنه - عنهن كونهن نساءَ النبى - صلى الله عليه وسلم - بل هو سبب له .

وروى عن زين العابدين - رضى الله عنه - أن رجلا قال له : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله - تعالى - فى أزواج النبى ﷺ من أن نكون كما تقول ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتى تليها - والله أعلم .

* (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَمَن يَقْنُتْ) : ومن يطع ويخضع .

(لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ) : لفظ أحد أصله : وَحَد كما قال الزمخشرى ، وهو بمعنى واحد ، وُضِع فى سياق النفى العام ليستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والكثير ، والمعنى هنا : لستن كجماعة من جماعات النساء فى الفضل ، فمقامكن أرفع من مقامهن .

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) : فلا تجئن بالقول خاضعًا لَيِّنًا .

(فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ) أى : فجور .

(وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) أى : قَوْلًا معروفًا بالجد .

(وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ) : أمر من قَرَّ يَقَرُّ على لغة أهل الحجاز من باب عَلِم يعلم ، دخلت عليه واو العطف وأصله : واقرَرْن فخفف بحذف الراء الأُولى ، وحذف ألف الوصل بعد تحريك القاف ، وهو من القرار فى المكان بمعنى الثبوت فيه ، كما قاله أبو حيان فى البحر .

وفتحُ القافِ فى (قَرْنَ) قراءة حفصٍ ، وقرأ الجمهور بكسرها (وقِرْنَ) وهو من الوقار ، وفعله وَقِر يقِرُ ، والأمر منه للنسوة (قِرْنَ) بكسر القاف ، والواو قبله للعطف ، وأما واوه فقد حذفت كقولك (عِدْ) فى وَعد .

(وَلَا تَبَرَّجْنَ) : ولا تبدين من محاسنكن ما يجب ستره .

(لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ) : يبعد عنكم الذنب .

(مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ) أى : من القرآن الجامع لكونه آيات الله ، وكونه حكمة أو من القرآن والسنة .

(إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً) اللطف من الله :الرفق والتوفيق والعصمة. والخبير :الدقيق العلم.

التفسير

٣١ – (وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا) :

هذه الآية والتى قبلها ، واللاتى بعدها آدابٌ أمر الله بها نساء النبى – صلى الله عليه وسلم – ونساء الأُمة تبعًا لهن .

والمعنى : ومن يخضع منكن لله ورسوله ، فلا يطالبنه – صلى الله عليه وسلم – بما ليس فى طوقه ، ولا يبالين بزينة الحياة الدنيا ، وتستمر على عمل الصالحات ، من رعاية البيت ، ومراعاة شأْن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والصلاة والصيام وسائر خصال البشر – من يخضع منكن كذلك – نعطها أجرها مرتين ، مرة على قنوتها وخضوعها ، وأُخرى على عمل الصالحات ، وأعددنا لها رزقًا عظيمًا فى الجنة زيادة على أجرها .

وهذه المضاعفة للأَجر ، فى مقابل المضاعفة للعذاب ؛ إن أتين بمعصية ؛ أخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال فى حاصل معنى هذه الآية والتى قبلها : من عصى منكن فإن العذاب يكون عليها ضعف سائر نساء المؤمنين ، ومن عمل صالحًا منكن فإن أجرها يكون ضعف سائر نساء المسلمين .

وهذا يستدعى أنه إذا أُثيب سائر نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها أُثبن على الحسنة بعشرين مثلًا لها ، وإن زيد للنساء على العشر شىءٌ زيد لهن ضعفه .

قال الآلوسى : وكأَنه – والله تعالى أعلم – إنما قيل : (نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) دون (يضاعف لها الأَجر ضعفين) كما قيل فى المقابل : يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لأَن أصل تضعيف

الأجر ليس من خواصهن ، بل كل من عمل صالحًا من النساء والرجال من هذه الأمة يضاعف أجره ، فأخرج الكلام مغايرًا لما تقتضيه المقابلة رمزًا إلى أن تضعيف الأجر على طرز مُغاير لتضعيف العذاب .

٣٢ - (يَا نِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا) :

ذهب جمع من المفسرين إلى أن (أحد) وصف لمذكر محذوف ، وأن المعنى ليست كل واحدة منكن كشخص واحدة من النساء فى عصركن ، فكل واحدة منكن أفضل من كل واحدة منهن ، لما امتازت به من شرف الزوجية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمومة المؤمنين ، وذهب الزمخشرى إلى أن (أحد) إذا وضع فى سياق النفى استوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، وقد استعمل (أحد) بمعنى المتعدد فى قوله تعالى : « لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ » لأن لفظ (بين) لا يدخل إلا على متعدد .

قيل : وهذا التوجيه أولى من سابقه ، على القول بفضل آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران على نساء العالمين جميعًا ، فإنه لا يمنع من تفضيل جماعة زوجات الرسول على كل جماعة سواهن ، بخلاف الأول فإنه يتعارض مع تفضيل كِلْتَيْهِمَا على كل واحدة من نساء العالمين ، وفى جملتهن زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ومعنى الآية مجتمعة : يا نساء النبى : ليست جماعتكن مثل سائر جماعات النساء إن اتقيتن مخالفة حكم الله ورضا رسوله ، فلا يكن قولكن لينا كما كانت حال نساء العرب حين مكالمة الرجال بترخيم الصوت ، ولينه ، بل يكون قولكن جزلا ، وكلامكن فصلا ، حتى لا يطمع مَنْ فى قلبه مرض الفجور والفسوق وقلن قولا معروفًا بالصواب فى عرف الشريعة وكرام النفوس .

وبالجملة : فالمرأة تندب - إذا خاطبت الأجانب والمحرمين عليها بالمصاهرة وغيرها - إلى الجِدّ فى القول من غير رفع صوت ، فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام[1] والجد فيه .

---

(١) انظر الآلوسى ، والقرطبى .

٣٣ - (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) :

أمر الله - تعالى - نساء نبيه أن يقررن ويلزمن بيوتهن ونهاهن عن التبرج ، وهو كما قال مجاهد وقتادة وابن أبي نجيح : أن تلقى المرأة خمارها على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وقال أبو عبيدة : التبرج أن تبدى المرأة من محاسنها ما تستدعى به شهوة الرجال ، وأصله كما قال أبو حيان : من البَرَج وهو سعة العين وحسنها ، ويقال : طعنة بَرْجاءُ ، أى : واسعة .

ولهذا قال الليث فى معناه : تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ، ويُرَى مع ذلك من عينها حُسْنُ نظر .

واختلف العلماء فى تأويل الجاهلية الأُولى ، ومن أحسن ما قيل فى ذلك : إنها الجاهلية التى كانت قبل الإسلام ، وهى جاهلية كفر ، وأما الجاهلية الأُخرى فهى جاهلية الفسق فى الإسلام ، ويعضده قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبى الدرداء - رضى الله عنه - : « إن فيك جاهلية » . قال : جاهلية كفر أو إسلام ؟ قال : « بل جاهلية كفر » ، ويرى ابن عطية أنها ما قبل الإسلام ، وأن الأُولى بمعنى السابقة وليس المعنى أن ثَمَّ جاهلية أُخرى ، وقد أوقع اسم الجاهلية على المدة التى قبل الإسلام ، فقالوا فى شعرائها : شاعر جاهلى ، وبالجملة فالمقصود من الآية أن لا يشبهن نساء ما قبل الإسلام فى مشيتهن المنكرة ، وكلامهن اللين ، وإظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعًا .

وهذا الحكم لا تختص به نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - فكل نساء المؤمنين مأمورات بالتصون والاحتشام ، والشريعة مليئة بلزوم النساء البيوت ، والكف عن الخروج إلا لضرورة وإنما خص نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب تشريفًا لهن ، لأنهن قدوة لسواهن .

قال ابن العربى : لقد دخلتُ نَيِّفًا على ألف قرية ، فما رأيت نساء أصون عيالًا ، ولا أعف نساء من نساء نابلس ، التى رُمى بها الخليل - صلى الله عليه وسلم - بالنار ، فإنى أقمت فيها ، فما رأيت امرأة فى طريق نهارًا إلا يوم الجمعة ، فإنهن يخرجن إليها حتى

يمتلىء المسجد منهن ، فإذا قضيت الصلاة ورجعن إلى منازلهن ، لم تقع عينى على واحدة منهن إلى الجمعة الأُخرى ، وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن من معتكَفِهن حتى استشهدن فيه . اهـ.فليعتبر نساءُ عصرنا بهذا السلف الصالح .

والمعنى الإجمالى للآية : والزَمْن بيوتكن يا نساء النبى ، ولا تظهرن محاسنكن للأجانب كما كان يفعل نساءُ الجاهلية قبل الإسلام ، وأدين الصلاة بأركانها وشروطها ، وأعطين الزكاة لأصحابها ، وأطعن الله ورسوله فيما يأمركن به وينهاكن عنه ، ما يريد الله بما كلفكُنَّ به إلّا أن يذهب عنكم الذنب المدنس لعرضكم يا أهل بيت النبى ، ويطهركم منه تطهيرًا يليق بمكانة رسوله .

والمراد بأهل البيت نساؤه - صلى الله عليه وسلم - كما يدل عليه النسق ، وقيل : نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ، وفيما يلى بيان آراء العلماء فى ذلك وأدلتهم .

٣٤ - (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) :

يدل صدر هذه الآية على أن المراد بأهل البيت نساؤه ، وقد اختلف أهل العلم فى ذلك فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء : هن زوجاته بخاصة لا رجل معهن ، والمراد بالبيت على هذا مساكن النبى - صلى الله عليه وسلم - لقوله تعالى : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ) وقال آخرون - ومنهم الكلبى - : هم على وفاطمة والحسن والحسين ، واحتجوا بقوله تعالى : « لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ » ولو كان للنساء بخاصة لقال : (عنكن ويطهركن) بالنون ، وقد يجاب عن ذلك بأنه روعى لفظ الأهل وإن كان المراد النساء ، كما يقال للرجل : كيف حال أهلك ؟ - والمراد امرأتك أو نساؤك - فيجيب : هم بخير ، وفى مثل هذا يقول الله تعالى : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » قال القرطبى : والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال : « وَيُطَهِّرَكُمْ » - بضمير جماعة الذكور - لأن رسول الله وعليًّا وحسنًا والحسين كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ، يدل عليه سياق الكلام - والله أعلم .

وقد ذهبت الشيعة إلى تخصيص أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما - رضى الله عنهم - لما روى : (أنه - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات غدوة وعليه مِرْطٌ مُرَجَّل[١] من شعر أسود فجلس ، فأتت فاطمة - رضى الله عنها - فأدخلها فيه ، ثم جاء علىٌّ فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - فأدخلهما فيه ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ » والاحتجاج بذلك على عصمتهم ،وكون إجماعهم حجة ضعيف.

والتخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت ، لا أنه ليس غيرهم .

والمقصود من ذكرهن آيات الله والحكمة ، أن يبلغن مايسمعن من آيات القرآن العظيم الجامعة بين كونها آيات الله وكونها حكمة ، وقيل : المراد بالحكمة السنة .

ويجوز أن يكون المراد تذكيرهن ما أنعم الله به عليهن ، من حيث إنه-تعالى- جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى ، وما شاهدن من برحاء الوحى ، مما يوجب قوة الإيمان ، والحرص على الطاعة ، حثًّا على الائتمار والعمل بما كلفن به ، وهذا المعنى أليق بسياق الآية مع ما قبلها .

والمعنى الإجمالى للآية : وتذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله القرآنية ، ومن سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك نعم جليلة من الله عليكن ، تقتضى الائتمار بما أُمِرْتُنَّ به ، والانتهاء عما نهيتنَّ عنه ، إن الله كان لطيفًا عظيم الرفق ، خبيرًا يعلم ويدبر مايصلح فى الدين ، ولذلك خيركن ووعظكن ، أو يعلم من يصلح لنبوته ، ويعلم من يصلح أن يكون من أهل بيت نبيه .

وجوز بعضهم أن يكون التعبير بلطيف نظرا للآيات لدقة إعجازها ، وبخبير نظرًا للحكمة لمناسبتها الخبرة - انظر الآلوسى .

---

(١) المرط - بكسر الميم وسكون الراء - : كساء من صوف أو خز منتوف الشعر : قاموس .

(إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ) : والمداومين على الطاعة والمداومات .

(وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) : والمتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتواضعات .

التفسير

٣٥ ـ (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ . . . الآية) :

بدأ الله بذكر الإسلام الذى هو مفتاح العصمة ، وأساس عمل الجوارح ، وثنى بذكر الإيمان الذى ينتفى به النفاق ، وتدور عليه النجاة يوم الدين أمَّا ما بعد ذلك فمرتب عليهما. وسبب نزولها ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : (قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ، فلم يَرُعْنى ذاته يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . . . إلى آخر الآية) .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : (دخل نساءٌ على نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلن : قد ذكركن الله -تعالى- فى القرآن وما ذُكرنا بشىء ، أمَا فينا ما يُذكر ، فأنزل الله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . .) ، وهناك روايات أُخرى غير ما ذكر ، ولا مانع أن تجتمع كلها فى سببية النزول .

ومعنى الآية : إن الداخلين فى السلم الخاضعين لحكم الله والخاضعات والمصدقين ما يجب التصديق به والمصدقات ، والمطيعين الله تعالى والمطيعات ، والصادقين فى القول والعمل والصادقات ، والصابرين على الطاعات وعن المعاصى والصابرات ، والمتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتواضعات والمتصدقين بما يحسن التصدق به والمتصدقات والصائمين الصوم المفروض والصائمات ، أعد الله لمن اجتمعت فيهم هذه الصفات مغفرة لصغائر ذنوبهم ، وأجرًا عظيمًا على طاعتهم .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) : وما صح ولا استقام .

(إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) أى : إذا قضى رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة لتعظيم أمره - صلى الله عليه وسلم - بالإشعار بأن قضاءه من قضاء الله تعالى .

(الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) : الخيرة : مصدر من تخير ، كالطِّيَرَة : مصدر من تطيَّر ، ولم يجئ مصدرًا على هذا الوزن سواهما - على ما قيل - أى : وما كان لهم أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، وجمع الضمير فى (لهم) لرعاية المعنى ، لوقوع مؤمن ومؤمنة فى سياق النفى فتعمّ .

التفسير

٣٦ - (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) :

نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش بنت عمة الرسول أميمة بنت عبد المطلب ، وأخيها عبد الله ، روى عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبها لمولاه زيد بن حارثة ، وقال : إنى أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإنى قد رضيته لك ، فأبت وقالت : يا رسول الله لكنى لا أرضاه لنفسى ، وأنا أَيِّمُ قومى[1] وبنت عمتك ، فلم أكن لأفعل ، وفى رواية أنها قالت : أنا خير منه حسبًا ، ووافقها أخوها عبد الله على ذلك ، فلما نزلت هذه الآية رضيا وسلما ، فأنكحها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - زيدًا بعد أن جعلت أمرها بيده ، وساق لها عشرة دنانير وستين درهمًا مهرًا ، وخمارًا وملحفة ودرعًا وإزارًا وخمسين مُدًّا من طعام ، وثلاثين صاعًا من تمر ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قال : نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبى - صلى الله عليه وسلم - فزوجها زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد[2] - ولعل ذلك - كان بعد طلاقه لزينب .

ومعنى الآية : وما صح ولا استقام لرجل ولا لامرأة من المؤمنين إذا قضى رسول الله أمرًا أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه واختيارهم تبعًا لاختياره ، فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحى يوحى ، ومن يعص الله ورسوله برفض أمر قضاه رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد بعد عن طريق الحق بعدًا بينًا واضحًا .

---

(١) الأيم من النساء : من لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا . وكذا الأيم من الرجال .

(٢) انظر الآلوسى ، والقرطبى .

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) : وهو زيد بن حارثة ، أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعم الرسول عليه بالعتق . وتَبَنَّاه فكان يدعى زيد بن محمد .

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) : لاتطلق زينب .

(وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ) : وتخفى فى نفسك أمر تزوجها الذى شرعه الله لك ، حذرًا من قالة الناس .

(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا) : حاجة ــ كناية عن أنه طلقها .

(حَرَجٌ) : ضيقٌ .

(فِىٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ) : فى أزواج من دعوهم أبناءهم وهم غرباء .

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا) : وكان حكمه وقضاؤه نافذًا .

(فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) : فى الرسل السابقين .

(وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) : وكان حكم الله قضاء مقضيًّا وحكمًا مفعولًا .

(حَسِيبًا) : كافيًا للمخاوف ، أو محاسبًا .

التفسـير

٣٧- (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ : . . الآية) :

المراد بالذى أنعم الله عليه ، وأنعم الرسول عليه : زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبى ، وهو غلام عربى اشترته السيدة خديجة ، ووهبته للنبى- صلى الله عليه وسلم- فأعجبه ظرفه وأدبه فأعتقه وتبناه ، وأحسن تربيته ورعايته[1] .

وكان التبنى أمرًا سائدًا قبل الإسلام ، وكان من تبنى أحدًا كانت له حقوق الابن النسبى من الميراث وغيره ، وبحكم هذا التبنى خطب له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنت عمته زينب بنت جحش ، وزوجه إياها كما تقدم بيانه ، روى أبو عصمة نوح ابن أبى مريم مرفوعًا إلى زينب أنها قالت : (أمسى زيد فأوى إلى فراشه - قالت زينب - : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى فلايقدر على) .

وكانت تؤذى زيدًا بلسانها ، وتفخر عليه بحسبها ونسبها ، فجاء زيد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فقال : إن زينب تؤذينى بلسانها ، وتفعل وتفعل ، وإنى أريد أن أطلقها ، فقال له : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ . . . الآية) فطلقها زيد فنزلت : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . . . الآية) .

وروى عن على زين العابدين بن الحسين - رضى الله عنهما ، ورب الدّار أدرى بما فيها - أن النبى - صلى الله عليه وسلم -كان قد أوحى الله-تعالى-إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه

---

(١) قال ابن كثير :وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبى-صلى الله عليه وسلم- يقال له : الحب ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب ، قالت عائشة -رضى الله عنها- ما بعثه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه -أخرجه الإمام أحمد بسنده عنها - اهـ .

يتزوجها بتزويج الله إيَّاها له ، فلما اشتكى زيد للنبى - صلى الله عليه وسلم - خُلُقَ زينب وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - على جهة الأدب والوصية : اتق الله فى قولك ، وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه . ولم يرد أن يأمره بالطلاق ، لما علم أنه سيتزوجها ، وخشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يلحقه قول من الناس فى أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر من أنه خشى الناس فى شىء قد أباحه الله له ، بأن قال : « أَمْسِكْ » مع علمه أنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية فى كل حال . قال القرطبى : قال علماؤنا : وهذا القول أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين : كالزهرى والقاضى بكر ابن العلاء القشيرى ، والقاضى أبو بكر بن العربى وغيرهم . اهـ .

هذا وللقصَّاص كلام فيما كان يخفيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمر زينب يدور حول حبه لها ، وحدوث رغبته فى طلاقها ليتزوجها ، وهذا الكلام من وضع الزنادقة ولا يليق إلصاقه بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ولو كان يريد أن يتزوجها أو كان يحبها لكان قد خطبها بكرًا ، وكان ذلك أولى به - صلى الله عليه وسلم - من أن يتزوجها ثَيِّبًا بعد طلاق عتيقه ومتبناه لها ، ولكنها مشيئة الله لكى يقطع دابر عادة التبنى التى كانت فاشية فى العرب ، وكانت زوجة المتبنى حرامًا على أبيه بالتبنى كالنسيب سواء بسواء وفى النص القرآنى ما يقطع بكذب هؤلاء الوضاعين ، فإن الآية دلت على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخفى فى نفسه ما الله مبديه ومظهره ، والله لم يظهر حبه لها ، بل أظهر تزويجه إيَّاها بقوله : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) فهذا التزويج الذى أوحاه الله إليه تحرَّج منه النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخفاه فى نفسه ، وهو الذى أظهره الله فى كتابه ، كما أظهره بين الناس ، قال الخفاجى : واضح أن الله - تعالى - لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى أوحى إليه - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد ، فلم يبادر له - صلى الله عليه وسلم - مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه . اهـ - وهذا هو الحق الذى لا ينكره إلَّا حقود جهول ، وكذاب حقير .

اسـئلة واجـوبة

قال ابن العربى : فإن قيل : لأى معنى قال له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » وقد أخبره الله أنها زوجه ؟

قلنا : أراد أن يختبر منه مالم يُعْلِمْه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها ، فأبدى له زيد من النفرة عنها والكراهة فيها مالم يكن علمه منه فى أمرها ، فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لابد منه - وهذا تناقض - قلنا : بل هو صحيح لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة ، ألا ترى أن الله - تعالى - يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ، فليس لمخالفة الأمر لمتعلق العلم مايمنع من الأمر به عقلًا وحكمًا ، وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه .

فخر زينب بتزويج الله إياها

ولقد صح من حديث البخارى والترمذى أن زينب - رضى الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات ، وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : كانت تقول للنبى - صلى الله عليه وسلم - : إنى لأُدِلُّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تُدِل بهن : أن جدى وجدك واحد ، وأنى أنكحك الله إياى من السماء ، وأن السفير لجبريل - عليه السلام - تعنى سفارته بين الله - تعالى - وبين رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

المعنى الإجمالى للآية : واذكر - أيها النبى - حين تقول لزيد بن حارثة الكلبى الذى أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعمت عليه بالعتق والرعاية والتبنى ومختلف فنون الإحسان ، أمسك عليك زوجك زينب ولا تطلقها ، واتق الله فيما تقوله عنها فلا تذمها بالكبر وإيذاء الزوج ، وتخفى فى نفسك أنك مأمور بتزوجها مع أن الله سيبديه ويظهره علنًا ، وتخشى لائمة الناس لو قلت له طلقها ، إذ يقولون : أمر رجلًا بطلاق امرأته ، ثم تزوجها بعد أن طلقها ، والله - تعالى - أحق أن تستحيى منه وتخافه فلا تأمر زيدًا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك ، فلما قضى زيد منها حاجة فطلقها زوجناكها بعقد شرعى لكى لايكون على المؤمنين

ضيق فى التزوج من أزواج أدعيائهم إذا طلقوهن ، فالحكم بينك وبين الأُمة فى ذلك سواءٌ ، وكان أمر الله الذى تعلقت به إرادته مفعولًا ونافذًا .

٣٨ ـ (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا) :

أى : ما صح ولا استقام أن يكون على النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ضيق فيما قسم الله له وأحله من تزوج زينب التى طلقها زيد بن حارثة متبناه ـ طلقها ـ باختياره ، بعد أن نصحه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإمساك ، وهذا حكم الله فى الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشىء فى النكاح وغيره كداود وسليمان ، وعليهم فى ذلك حرج ، وكان أمر الله الذى يقدره كائنًا لامحالة ، وواقعًا لامعدل عنه .

والآية رد على من توهم من المنافقين نقصًا فى تزوجه امرأة زيد مولاه ، ودعيِّه الذى كان قد تبناه .

٣٩ ـ (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا) :

قال الإمام ابن كثير فى تفسيرها : يمدح الله الذين يبلغون رسالات الله(١) إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ، ويخافونه ولا يخافون أحدًا سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا ، وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأمَّا هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه بعث إلى جميع الخلق ـ عربهم وعجمهم ـ « قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » ثم وَرَّثَ مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه

(١) يشير بذلك إلى أن الذين يبلغون منصوب على المدح ، أى : أمدح الذين ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على المدح أيضا أى : هم الذين يبلغون الخ .

رضى الله عنهم- بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره وحضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضى الله عنهم ، وأرضاهم ، ثم وَرِثَه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يهتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون .

وفى هذه الآية إشارة إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - ليس عليه بأْس من لائِمة الناس فى أمر قضاه الله لنسخ عادة التبنى .

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠))

المفردات :

(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) : قرأ عاصم وحده بفتح التاء ، وقرأه منصوبًا بتقدير ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين ، وقرأ ابن أبى عبلة وغيره بالرفع ، على تقدير : ولكن هو رسولُ الله وخاتمُ ، والقراءة بفتح التاء على معنى أنهم ختموا به - صلى الله عليه وسلم - فهو كالخاتم والطابع لهم ، والقراءة بكسر التاء هى قراءة الجمهور ، على معنى أنه ختمهم أى : جاء آخرهم ، وقيل : الفتح والكسر سواءٌ ، مثل طابَع وطابِع ودانَق ودانِق ، وطابَق من اللحم وطابِق[1] .

التفسير

٤٠ - (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) :

سبب نزول هذه الآية : أنه لما قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه أفحمهم الله بإنزالها ، أى : ليس محمد أبا أحد من رجالكم نسبًا ، ولكنه رسول الله ، وخاتم النبيين ، فهو أبو أمته فى التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام .

---

(١) انظر : القرطبى .

وقد أفادت هذه الآية أنه لا نبي بعده - صلى الله عليه وسلم - بإجماع المسلمين خلفًا عن سلف ، ولصراحة الآية لم يستطع المارقون أن يدعوا النبوة ، بل ادعى بعضهم الرسالة كالبهاء ، وهذا إفك وكفر مبين ، فإنه إذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وقد وردت الأحاديث متواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنه لا نبي بعده ، أخرج البخارى ومسلم بسندیهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن لى أسماءً : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبي ولم يبق من النبوة إلَّا الرؤيا الصالحة » ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة »[1] ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - : « ليس يبقى بعدى من النبوة إلَّا الرؤيا الصالحة » : وقد روى الإمام مسلم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلَّا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » ، وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبي » - قال أنس : فشق ذلك على الناس - قال : قال : ولكن المبشرات ، قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال: « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزءٌ من أجزاء النبوة » .

ولم يقصد بهذه الآية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس له أبناءٌ ، فقد ولد له : إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر[2] ، ولكن لم يعش له أحد منهم حتى يصير رجلًا ، وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له[3] .

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى كتاب التعبير .

(٢) أما إبراهيم فمن مارية القبطية ، وأما الثلاثة الآخرون فمن خديجة - انظر ابن كثير .

(٣) انظر : القرطبى .

ومعنى الآية : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم أبوة نسبية ، ولكنه كان رسول الله وخاتم النبيين والمرسلين ، فلا حرج عليه فى أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة ؛ لأنه كان ابنا دعيا ولم يكن ابنًا نسبيًّا ، ولهذا دعى إلى أبيه حارثة بعد أن صحح الله أنساب الناس : (وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) فلهذا أبطل بنوة الأدعياء ، وآثارها ، وختم بمحمد نبوة ورسالات الأنبياء والمرسلين .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا) : أول النهار وآخره .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة .

(يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) : عند الموت أو البعث أو دخول الجنة .

(أَجْرًا كَرِيمًا) : أجرًا عظيمًا هو الجنة .

التفسير

٤١ ، ٤٢ـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) :

المقصود من ذكر اللهـ تعالى ـ أن تذكر أسماؤه وصفاته باللسان تارة وبالقلب تارة أخرى ، ومرجع الكثرة فى الذكر إلى العرف .

ومن العلماء من عين الذكر بلفظه ، قال مقاتل فى تفسيرهما : هو أن يقول : (سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر)على كل حال ، ومنهم من ضبط كثرته مع هذا النص بثلاثين مرة .

وفى مجمع البيان عن الواحدى بسنده إلى ابن عباس قال : جاء جبريل – عليه السلام – إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا محمد قل : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم عددَ ما عَلم وزِنةَ ما عَلِم وملءَ ما عَلِم ، فإنه من قالها كتب له ست خصال ، كتب من الذاكرين الله تعالى كثيراً . . . » إلى آخر الحديث.

ومعنى الآيتين : يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله اذكروا الله بأسمائه الحسنى وصفاته بألسنتكم سرًّا وجهرًا وبقلوبكم ذكرًا كثيرًا ، ونزهوه–سبحانه– عما لا يليق به أول النهار وآخره ، أطهارًا ومحدثين ، فإن ذلك أفضل الزاد إلى المعاد ، وتخصيص البكرة والأصيل بالذكر ليس لقَصْر الذكر والتسبيح عليهما دون سائر الأوقات ، بل لفضلهما لكونهما تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار وتلتقى فيهما .

والتسبيح نوع من الذكر ، وإفراده من بين الأذكار لكونه عمدة فى ذكر الله–تعالى– فما لم ينزه الله –تعالى– عما لا يليق به لا يتحقق ذكر الله تعالى .

٤٣ – (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) :

هذه الآية استئناف فى مقام التعليل للأمرين قبلها ، والصلاة من الله على عباده المؤمنين رحمته لهم وبركاته عليهم ، وصلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ، كما قال –سبحانه– فى شأنهم : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » ومن مؤمنى الإنس والجن دعاءٌ ، قاله ابن عباس – رضى الله عنهما .

والمعنى : الله هو الذى يصلى عليكم أيها المؤمنون فيرحمكم ويغدق نعمه وبركاته وفتوحاته عليكم ، كما يصلى عليكم ويستغفر لكم ملائكته عناية بكم وإكرامًا لكم ، لكى يخرجكم بذلك من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الكفر والعصيان إلى نور الإيمان والطاعة ، وكان الله بالمؤمنين رحيمًا ، حيث صلى الله عليهم ، وكلف بالصلاة ملائكته المقربين .

٤٤ - (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا) :

أصل التحية : أن يقول المرءُ لغيره : حياك الله ، أى : جعل لك حياة ، ويقال : حيَّا فلان فلانًا تحية إذا قال له حياك الله ، ثم جعل كل دعاء عند اللقاء تحية ؛ لكونه غير خارج فى مضمونه عن طلب الحياة .

والهاءُ فى يلقونه ضمير عائد على الله -تعالى - والمراد من لقائه -تعالى- حضور موت العبد ، روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا جاءَ ملك الموت لقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام » وقيل : المراد به خروجهم من قبورهم ، فيسلم عليهم الملائكة ويبشرونهم بالجنة ، وقيل ذلك عند دخولهم الجنة ، كما قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقيل : إن الذى يحييهم عند دخولهم الجنة هو الله -تعالى- إذ يقول : « سلام عليكم عبادى . أنا عنكم راض فهل أنتم عنى راضون ، فيقولون بأجمعهم : يا ربنا إنا راضون كل الرضا » وروى أن الله - تعالى - يقول : « السلام عليكم ، مرحبًا بعبادى المؤمنين الذين أرضونى فى دار الدنيا باتباع أمرى » .

والآية الكريمة تتسع لكل تلك المعانى ، ولا حرج على فضل الله فى اجتماعها .

ومعنى الآية : تحية المؤمنين من الله وملائكته يوم يخرجون من دنياهم ، ويوم ينشرون ويحشرون لربهم ويوم يدخلون جنة ثوابهم : سلام عليكم ، وقد هيأ الله -تعالى- لهم أجرًا عظيمًا لا غاية وراءه .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(شَاهِدًا) : على من بعثت إليهم .

(وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ) : بتيسيره ومعونته .

التفسير

٤٥ ، ٤٦ـ (يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) :

اشتملت هاتان الآيتان على خمسة أوصاف للنبي ـصلى الله عليه وسلمـ : (شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) ولقد وصف فى التوراة بمثل هذه الصفات وبغيرها من الصفات التى تتجلى فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن عطاء بن يسار قال : (لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة ، قال : والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن :(يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وحرزًا للأُميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأَسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأَن يقولوا : (لا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فيفتح به أَعينا عميًا وآذانًا صما وقلوبًا غُلفًا) .

ورواه البخارى بسنده عنه ، وعن عبد الله بن سلام فى كتاب البيوع ، وروى ابن أَبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه الذى كان يهودياً وأَسلم ، قال وهب بن منبه : (إن الله أَوحى إلى نبى من أَنبياء بنى إسرائيل يقال له : شعياءُ أَن قم فى قومك بنى إسرائيل فإِنى منطق لسانك بوحى ، وأَبعث أُميًا من الأُميين ، أَبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخَّابٍ فى الأَسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه ، أَبعثه مبشرًا ونذيرًا ، لا يقول الخنا : أَفتح به أَعينًا كُمْهًا[1] وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا ، أُسدده لكل أَمر جميل ، وأَهب له كل خلق كريم ، وأَجعل السكوت لباسه ،

---

(١) الكمه ـ بضم فسكون ـ : جمع الأكمه وهو الأعمى ، والمراد (أعينا عميا) .

والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النُّكْرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة وأُؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، وأستنقذ به فئاماً[1] من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ، أُلْهِمُهُم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياماً وقعوداً ، ويقاتلون فى سبيل الله صفوفاً وزحوفاً ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفاً ، يُطهِّرون الوجوه والأطراف ، ويَشُدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، ، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين ، أُمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون أُعِزُّ مَنْ نصرهم ، وأُؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بَغَى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئاً مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أُوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم) أخرجه ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه اليمانى .

وقد اشتملت هذه الآية على خمسة من أسمائه – صلى الله عليه وسلم – وقد سماه الله رءوفاً رحيما ، ويقول القرطبى : قال – صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه الثقات العدول – : « لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » ثم يقول القرطبى : « وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فى تفسير هذه الآية من أسماء النبى – صلى الله عليه وسلم – سبعة وستين اسما » اهـ.

---

(١) الفئام – ككتاب – : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

وروى عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علياً ومعاذاً فبعثهما إلى اليمن وقال : « اذهبا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أنزل علىَّ .. » وقرأ هاتين الآيتين .

ومعنى الآيتين : ياأيُّها النبى إنا أرسلناك شاهداً لله بالوحدانية وعلى من بعثت إليهم ، تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم ، وتتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب ، وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال ، وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وفيما عليهم ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » وفى قوله -سبحانه- : « لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[1] » وشاهداً على جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ، طبقاً لما عرفته من القرآن العظيم ، وأرسلناك مبشراً للطائعين بالجنة ونذيراً للكافرين والعصاة بالنار ، وداعياً إلى الإيمان بالله واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، وإلى طاعته وفق شرعه بتيسيره ومعونته ، وأرسلناك سراجاً منيراً يستضاء به فى ظلمات الجهالة والشبهات .

كيف يتحمل الرسول الشهادة عن امته

يتحمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الشهادة عن المعاصرين له من أمته بمالهم وما عليهم ، أما مَنْ بعده - صلى الله عليه وسلم - فعن طريق عرض الأعمال عليه كما جاء فى الأحاديث الدالة على ذلك ، ولكنه يعرف ذلك إجمالًا لا تفصيلا ، روى أبوبكر وأنس وغيرهما أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « ليردَنَّ ناس من أصحابى على الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دونى ، فأقول : يارب أُصيْحابى أُصيْحابى ، فيقال لى : إنك لا تعرف ما أحدثوا بعدك » .

٤٧ - (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا) :

معطوف على مقدر يقتضيه المقام ، أى : فراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين منهم بأن لهم من الله فضلا كبيراً على سائر الأمم ، أو جزاء جزيلا تفضل الله به عليهم فى مقابل صالحات أعمالهم .

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٣

٤٨ - (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا) :

هذا النهى تأييد من الله - تعالى - لموقفه من الكافرين والمنافقين[١] ، وإقرار لما هو عليه فى شأنهم من معاصاتهم ، جيء به بأسلوب النهى لقطع أطماعهم فى ملاينة النبى - صلى الله عليه وسلم - لهم .

والمعنى : دم على ما أنت عليه - أيها النبى - من معاصاتهم فى مآربهم ، وَتَرْكِ الملاينة فى الإنذار والمسامحة معهم ، ولاتبال بإيذائهم إياك بسبب إنذارهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وتوكل على الله فى كل أمرك ؛ فإنه كفيل بنصرك وتأييدك ، وكفى بالله موكولا إليه فى جميع الأمور .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(نَكَحْتُمُ) : عقدتم . (تَمَسُّوهُنَّ) : تجامعوهن .

(فَمَتِّعُوهُنَّ) : فأعطوهن المتعة ، وسيأتى فى التفسير بيانها .

(وَسَرِّحُوهُنَّ) : أخرجوهن من منازلكم ، فليس لكم عليهن عدة .

(سَرَاحاً جَمِيلًا) : من غير ضرار ولا منع حق .

التفسـير

٤٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا) :

حدثنا الله فيما مضى عن قصة زينب وكان مدخولا بها ، وخطبها النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) فهو من باب : إياك أعنى واسمعى ياجارة .

بعد انقضاء عدتها ، وجاء بهذه الآية المباركة لتبين للمؤمنين حكم الزوجة التى تطلق قبل الدخول بها ، وقد أفادت هذه الآية أن المرأة إذا عقد عليها وطلقت قبل الدخول بها فلاعدة عليها ، وهذا حكم أجمعت عليه الأمة .

وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ [1] » فأصبح حكمها قاصرًا على المدخول بهن ، كما أنها مخصصة لعموم قوله تعالى : « وَالَّلائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ [2] » فأصبح حكمها قاصرًا على المدخول بهن كسابقتها .

والنكاح مختلف فى معناه لغة ، فقيل : حقيقة فى العقد مجاز فى الوطء ، وقيل : العكس ، وقيل : مشترك بينهما ، ولم يرد فى كتاب الله إلّا بمعنى العقد غالباً ، ومن آداب القرآن الكناية عن الدخول بالماسة أو الملامسة ، أو القربان أو الغشيان أو الإتيان .

والطلاق المعلق بالنكاح كقوله لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق لا يقع لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « لا طلاق قبل نكاح » وبهذا قال نيف وثلاثون من الصحابة والتابعين والأئمة - كما قال القرطبي - ، وقال جماعة من أهل العلم يقع طلاق المعينة بشخصها أو قبيلتها أو بلدها ، وممن قال بذلك : مالك وأصحابه ، والأول هو الحق .

وقد جاء فى الآية طلب المتعة لمن طلقت قبل الدخول ، وإنما تجب إذا لم يفرض لها صداق فإن فرض لها صداق ، فلا يجب لها سوى نصفه ، لقوله -تعالى- فى سورة البقرة : « وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ » .

ومن العلماء من جعلها عامة للمطلقة قبل الدخول ، فرض لها صداق أو لم يفرض ؛ لإطلاقها فى الآية ، والأرجح أنها مستحبة للمفروض لها صداق واجبة لمن لم يفرض لها [3] .

---

(١) سورة البقرة - من الآية:٢٢٨

(٢) سورة الطلاق - الآية : ٤

(٣) وعلى هذا يكون الأمر مشتركا بين الوجوب والندب على رأى من يجيزه .

وفى مذهب الشافعى القديم وجوبها لكلتيهما ، ولا تزيد المتعة على نصف مهر مَنْ سمى لها ، ولا تنقص عن خمسة دراهم ، وأما من لم يسم لها فلا تزيد عن نصف مهر مثلها ولا تنقص عن خمسة دراهم ، وفى الموضوع تفصيلات أَوْفَى فِى الموسوعات ، وحسب القارىء هذا القدر .

والمعنى الإجمالى للآية : يـأيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تباشروا وطأهن[1] ، فأعطوهن متعة جبرًا لطلاقهن ، وأخرجوهن من بيوتكم إخراجاً جميلا[2] ، من غير ضرار ولامنع حق مع كلام طيب لمواساتهن ، وقيل : السراح الجميل أن لا يطالبوهن بما آتوهن .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) :أعطيت مهورهن ،وسمى المهر أجرا ،لأنه فى مقابل الاستمتاع بالمرأة .

(أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) : غنمته من الكفار بتيسير الله لك .

(يَسْتَنكِحَهَا) : يتزوجها . (حَرَجٌ) : ضيق .

---

(١) ويرى بعض المذاهب أن الخلوة الصحيحة بالمرأة كالدخول بها . فإن طلقت قبلها فلها المتعة ، أما إن طلقت بعد الخلوة وقبل الدخول فلا متعة لها عندهم كالمدخول بها عند غيرهم .

(٢) لأنكم ليس لكم عليهن عدة .

التفسير

٥٠ - (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ . . .) الآية :

اختلف العلماء فى تأويل قوله تعالى : « إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » فمنهم من أولها بمعنى أبحنا لك أن تتزوج كل امرأة خالية تؤتيها مهرها سوى المحارم ، ومنهم من أولها بمعنى أبحنا لك أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا ،وهذا هو رأى الجمهور ، وهو الظاهر ؛ لأن قوله : « آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ » ماض ، ويؤيده ما قاله ابن عباس : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتزوج فى أى الناس شاء ، وكان يشق ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلَّا مَنْ سُمِّى سُرَّ نساؤه بذلك .

وتقييد الإحلال بتعجيل صداقهن ، ليس لتوقف الحل عليه ، بل لإيثار الأفضل له ، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية بقوله : (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) فإن المشتراة لا يتحقق بدءُ أمرها وماجرى عليها ، وقد كان مهره لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونَشاً ، والأوقية كانت أربعين درهما ، والنَّش : نصف الأوقية ، فيكون مهر الواحدة منهن خمسمائة درهم ، إلَّا أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فقد أمهرها عنه النجاشى - رحمه الله - أربعمائة درهم ، وإلا صفية بنت حيى بن أخطب ، فقد اصطفاها من سبى خيبر ثم أعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، فإنها قد خرجت فى سهمه من سبايا بنى المصطلق فكاتبته عن نفسها ، وذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تستعينه على كتابتها ، فقال لها الرسول - صلى الله عليه وسلم - : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم يا رسول الله ، قال : قد فعلت . (وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ) أى : وأبحنالك التسرى مما أخذت من غنائم الكفار ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، ومعنى (مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ) : مما رده الله عليك من فىء الكفار من السرارى ، والغنيمة قد تسمى فيئاً ، والسرارى مباحات للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأمته مطلقاً ، وأما الزوجات فمن غير قيد للرسول

– صلى الله عليه وسلم – ولكنه لم يتزوج سوى ثلاث عشرة ، وأما الأمة فلا يتزوج أحدهم منهن سوى أربع فى عصمته ، ويرجع هذا التفاضل فى عدد الزوجات إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ترك له الحق فيمن يرى فى الزواج بها شد الأزر للدعوةالإسلامية ، وتأليفاً لأهل أولئك الزوجات وغير ذلك من السياسات الإسلامية ، فأنت ترى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لم يتوسع فى الزواج فى شبابه فى مكة ، وتوسع فيه فى شيخوخته بعد الهجرة ؛ لتحقيق أغراض إسلامية نشأت بعد الهجرة .

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن كعب ، وعمر بن الحكم ، وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ستَّ عشرة امرأة ، ستًّا من قريش : خديجة ، وعائشة ، وحفصة وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة ، وثلاثاً من بنى عامر بن صعصعة وامرأتين من بنى هلال بن عامر ، ميمونة بنت الحارث – وهى التى وهبت نفسها للنبى –صلى الله عليه وسلم–وزينب أم المساكين ، وامرأة من بنى أبي بكر بن كلاب من القُرطاء[1] – وهى التى اختارت الدنيا – وامرأة من بنى الجون وهى التى استعاذت منه فطلقها ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتان : صفية بنت حي بن أخطب وجويرية بنت الحارث ابن عمرو بن المصطلق الخزاعية[2] ، ويلاحظ أنه – صلى الله عليه وسلم – توفى عن تسع .

(وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّلاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ) : أى وأحللنا هؤلاء بشرط الهجرة معك ، ويقول ابن كثير تعليقاً على ماتقدم : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلَّا إذا كان بينها وبينهم سبعة أجداد ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباحت بنت العم والعمة وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع .

---

(١) هم بطون من بنى كلاب أبناء أخوة ثلاثة : قرط ، وقريط ، وقريط بوزن قفل ، وأمير ، وزبير .

(٢) انظر ابن كثير – وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وفى عددهن ومن عقد عليهن ولم يدخل بهن كلام كثير ، وحسب القارئ ماتقدم .

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) أى : وأحللنا لك أيها النبي امرأة مؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إنْ شئت ذلك .

وهذه الآية توالى فيها شرطان : « إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » كقوله -تعالى- إخبارًا عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه : « وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ »[١] .

وقد أباح هذا النص للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتزوج من وهبت نفسها له دون مهر ، واختلف العلماء فى حدوث ذلك ، فابن أبى حاتم يروى بسنده عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - امرأة وهبت نفسها ، ورواه ابن جرير بسنده عن يونس بن بكير أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً ومخصوصاً به ؛ لأنه مردود إلى مشيئته ، كما قال تعالى : (إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .

ومن العلماء من قال بحدوث ذلك فى ميمونة بنت الحارث ، ومنهم من قال إنهن أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم[٢] .

وقد ثبت أن امرأة عرضت عليه نفسها هبة فزوجها من سواه ، أخرج الإمام البخارى بسنده عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - أن امرأة عرضت نفسها على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له رجل : يا رسول الله زوجنيها ، فقال ما عندك ؟ قال : ما عندى شئ ، قال : اذهب فالتمس ولو خاتما من حديد . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ماوجدت ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى ولها نصفه - قال سهل : وماله رداء - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : وما تصنع بإزارك ؟ إن لبسْتَهُ لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبِسَتْه لم يكن عليك منه شيء ، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام ، فرآه النبى - صلى الله عليه وسلم - فدعاه أو دعي له ، فقال له ما معك من القرآن؟ فقال : معى سورة كذا ، وسورة كذا لسور يعدِّدها ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : أملكناكها بما معك من القرآن » .وفى رواية : زوجتكها

(١) سورة هود من الآية : ٣٤ (٢) ذكر هؤلاء الأربعة الإمام البيضاوى .

وهى رواية الأكثر ولا تحل المرأة بالهبة لغير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله تعالى : (خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .

قال القرطبي : أجمع العلماء على أن هبة المرأة غير جائزة ، وأن لفظ الهبة لايتم به نكاح إلا ما روى عن أبي حنيفة وصاحبيه ، فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز ، قال ابن عطية : فليس فى قولهم إلا تجويز النكاح بلفظ الهبة مع استيفاء ما يطلب فى النكاح كالمهر : ا هـ بتصرف يسير .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك الاستمتاع بالجوارى اللاتى ملكتهن من غنائم الجهاد ، وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن إلى المدينة معك[١] ، وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك إن أردت نكاحها ، فإن إرادتك هذه تقوم مقام القبول ، وقد خصك الله بما خصك به من دون المؤمنين من أجل نبوتك تشريفاً وتكريماً لك بها[٢] ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم من اشتراط العقد إيجاباً وقبولا وأن لا يتجاوزن أربعة ، ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم ، وما فرضناه لهم من التسرى بملك اليمين كيف شاءوا ، وقد خصصناك ـ أيها النبى ـ بما خصصناك به لكيلا يكون عليك ضيق عند الاقتضاء ، وكان الله واسع الغفران ، فيغفر ما يعسر التحرز عنه ، عظيم الرحمة بالتوسعة فى مظان الحرج .

* (تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾)

(١) قال البيضاوى : يحتمل تقييد الحل بالهجرة فى حق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة .

(٢) ولهذا عدل عن الخطاب فى الآية إلى ذكره بعنوان النبوة فى معرض الخصوصية .

المفردات :

(تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ) أى : تؤخر . والأَصل ترجئ ، فخفف بقلب الهمزة ياءً ، وقرئ بالوجهين فى السبعة .

(وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ) أى : ومن طلبته ممن نحيته وأبعدته فلا إثم عليك . يقال : بغى ، وابتغى ، وتبَغَّى بمعنى طلب . والعزل : التنحية . والجناح : الإثم .

(أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ) أى : تبرد – سرورًا – وفعله من باب فرح .

التفســير

٥١ – (تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ....) الآية .

المعنى : لك أيها النبى أن تؤخر من تشاءُ من أزواجك ، وتضم إليك من تشاءُ منهن ، ويراد بذلك أنك مخير فيهن توسعة عليك ، إن شئت أن تقسم المبيت بينهن قسمت ، وإن شئت أن تترك القسم تركت . هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم . فخُص – صلى الله عليه وسلم – بأن جعل الأمر إليه ؛ ولهذا ذهبت طائفة من فقهاء الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه – صلوات الله وسلامه عليه – واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

كذلك مما يدل على أن القسم لم يكن واجباً عليه – صلى الله عليه وسلم – ما أخرجه البخارى بسنده ، عن مُعاذ ، عن عائشة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يستأْذن فى يوم المرأة مِنَّا بعد أن نزلت هذه الآية (تُرْجِي مَن تَشَآءُ) . فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت كنت أقول : إن كان ذلك إلىّ ، فإنى لا أُريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا . قال ابن كثير فهذا الحديث يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم ، وهو الذى ينبغى أن يعول عليه ؛ كما قال ابن العربى ؛ لكنه مع ذلك كان يقسم بينهن من قبل نفسه دون فرض عليه ، تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن الغَيْرة التى تؤدى إلى مالا ينبغى ، ولم يتركه حتى لحق بالرفيق الأعلى .

قال صاحب البحر : اتفقت الروايات على أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يعدل بين أزواجه فى القسم حتى مات .

وقيل : إن المراد من الآية تُطَلِق مَنْ تشاءُ ، وتمسك من تشاءُ . وقال بعضهم : الإرجاءُ والإيواءُ لإطلاقهما فى الآية يتناولان مافى التفسيرين من التخيير فى القسم والطلاق .

وعن أبى رزين فى سبب نزول الآية : هَمَّ رسول الله أن يطلق من نسائه ، فلما رأين ذلك أتينه فقلن : لا تخلِّ بيننا وأنت فى حل مما بيننا وبينك . افرض عن نفسك ومالك ما شئت . فأنزل الله تعالى الآية . فأرجأ بعضهن ، وآوى بعضهن[1] .

﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى : إذا أردت أن تؤوى إليك امرأة ممن نحيت وأبعدت فلا إثم عليك فى ذلك . وكذلك حكم الإرجاء هو إلى مشيئتك . فدل أحد الطرفين على الآخر .

وأفاد صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ، وإذا أمسك ضاجع أو ترك ، وقسم أو لم يقسم ، وإذا طلق وعزل ، فإما أن يخلى المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها[2] » .

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى : إذا علمن أن الله قد رفع عنك الحرج ، وفوض أمرهن إلى مشيئتك . كان ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزن ؛ لأنه حكم كلهن فيه سواءٌ ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلًا منك عليهن ومنة ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله – تعالى – الذى فوض الأمر إليك فتطمئن نفوسهن به دون أن يتعلقن بأكثر من ذلك؛ لأن المرءَ إذا علم أنه لا حق له فى شىءٍ كان راضيًا بما أُوتى منه وإن قل ، وكان – عليه الصلاة والسلام – مع هذا التمييز يسوى بينهن فى القسم تطييبًا لقلوبهن ويقول : اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، لإيثاره عائشة – رضى الله عنها – دون أن يظهر ذلك فى شىءٍ من فعله .

وكان فى مرضه الذى توفى فيه يُطاف به محمولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت عائشة ، قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله – صلى الله عليه وسلم

---

(١) أرجأ : ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة ، وآوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب .

(٢) وانقسام الطلاق والإمساك بأقسامه بسبب إطلاق الإرجاء والإيواء فى قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) .

فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيتها – يعنى عائشة – فأذن له .. الحديث . خرجه الصحيح . انظر القرطبي .

وقد قبض – صلى الله عليه وسلم – فى بيتها . ورد فى الصحيح أنها قالت : (فلما كان يومى قبضه الله – تعالى – بين سَحْرى ونَحْرى)[١] .

وعن ابن عباس ومجاهد أن المعنى : إذا علمن أن لك ردهن إلى فراشك بعد ما اعتزلتهن قرت أعينهن ولم يحزن ، ورضين بما تفعله من التسوية أو التفضيل ؛ لأنهن يعلمن أنك لم تطلقهن .

وقال الشعبي : الآية فى الواهبات أنفسهن ، تزوج رسول الله منهن وترك منهن ، وقال الزهرى : ماعلمنا أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أرجأ أحداً من أزواجه ، بل آواهن كلهن[٢] .

(وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ) : خبر عام – والإشارة إلى ما فى قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويدخل فى المعنى سائر المؤمنين ، أى : أنه – سبحانه وتعالى – يعلم ما فى قلوبكم من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه . كما يدخل فى المعنى أيضًا أزواجه المطهرات لعلمه – تعالى – بما فى قلوبهن من الرضا بما دبّر الله – تعالى – فى حقهن من تفويض أمرهن إلى مشيئته – صلى الله عليه وسلم – وبما يقابل ذلك من الخواطر الرديئة :

(وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا) أى : أنه جل شأنه واسع العلم بلغ فيه مداه ، يحيط علمه بسركم ونجواكم ، وبضمائركم وخواطركم لا يعاجل عباده بالعقوبة رحمة بهم حتى يتدبروا أمرهم ، ويفكروا فى مصيرهم ، ولا يغتروا بإمهالهم فسبحانه يمهل ولا يهمل .

(لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾)

---

(١) السحر : الرئة ، والنحر : أعلى الصدر .

(٢) انظر القرطبى .

المفردات :

(مِن بَعْدُ) أى : من بعد التسع اللاتى فى عصمتك اليوم .

(وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) أى : ولا أن تستبدل بهن أزواجًا : ببعضهن أو بكلهن

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا) أى : حافظًا ومطَّلِعًا فاحذروا تجاوز حدوده .

التفسـير

٥٢ – (لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . .) الآية :

قال غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم : نزلت هذه الآية مجازاة لأزواج النبى ، ورضًا عنهن على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ لمَّا أخبرهن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما تقدم .

والمعنى : لا يحل لك النساءُ من بعد التسع اللَّاتى فى عصمتك اليوم ؛ لأنها نصابك ، كما أن الأربع نصاب أُمتك ، ولا أن تستبدل بهؤلاءِ التسع أزواجًا أُخَر : بكلهن أو ببعضهن كرامة لهن وجزاءً على حسن صنيعهن حيث اخترنك ، وأعرضن عن متاع الدنيا وزينتها .

أخرج أبو داود فى ناسخه ، وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال : لما خيرهن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاخترن الله – تعالى – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – قصره عليهن . فقال سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ مِن بَعْدُ) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : احتبسه الله – تعالى – عليهن كما حبسهن عليه – عليه الصلاة والسلام – وهن التسع اللَّاتى مات عنهن : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأُم سلمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية .

(ومِنْ) فى قوله تعالى: (مِنْ أَزْوَاجٍ) لتأْكيد النفى ، وفائدته استغراق الجنس بالتحريم . فيشمل النهىُ استبدالَ بعضهن أو كلهن ، ولو أعجبك حسن الأزواج

المستبدلة[١] . فنهاه ـ سبحانه ـ عن الزيادة عنهن أو طلاق واحدة منهن أو استبدال غيرها بها.

وقوله ـ سبحانه ـ : (إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) استثناءٌ ممن حُرم عليه من النساء فى قوله سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ) أى : من كانت بملك اليمين ، وهى المملوكة ، فتحل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواءٌ أكانت مما أفاء الله ـ تعالى ـ عليه أم لا ، ولم تحرم عليه المملوكة ؛ لأن الإيذاء لا يحصل بها ؛ لأنه لا يجب القسم لها .

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا) أى : حافظًا وَمُطَّلِعًا على كل ما فى الكون ، لا تخفى عليه خافية فاحذروا مجاوزة حدوده ، وتخطى أوامره ونواهيه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) أى : غير منتظرين إدراكه ونضجه . يقال : نظرت الشىء ، وانتظرته بمعنًى ، والإنى مقصورًا : الإدراك والنضج . اهـ : مصباح .

---

(١) قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، واختلف فيما يجوز أن ينظر منها . فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفيها ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعى وأحمد . بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وهناك أقوال أخرى يرجع إليها فى القرطبى وغيره من الموسوعات .

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ) أى : أكلتم ، ويطلق الطعام على كل ما يساغ حتى الماء ، وفى العرف : الطعام لما يطعم ، والشراب لما يشرب ، وطعم من باب تعب .

(وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) أى : ولا مسرورين به ، ومستمتعين .

(فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ) أى : يترككم حياءً من تنبيهكم .

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا) والمتاع : هو كل ما ينتفع به كالطعام والثياب وأثاث البيت وغيرها .

(مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) : وهو الساتر ؛ لأنه يمنع من المشاهدة ، والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل فى المعانى ، فقيل : المعصية حجاب بين العبد وربه ، والجمع : حُجُب ككتاب وكُتُب .

التفسير

٥٣ـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ . . .) الآية :

شروع فى بيان ما يجب على الناس مراعاته من حقوق نساء النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحقوقه وهو فى بيوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إثر ما يجب عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مراعاته من الحقوق المتعلقة بأزواجه .

والآية تتضمن أمرين : أحدهما الأدب فى الحضور للطعام والجلوس بعده ، والثانى يتعلق بأمر الحجاب لزوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فأما الأوَّلُ فسببه كما قال ابن عباس : أن أناسًا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدب أدَّب الله به الثقلاء .

وعند أكثر المفسرين : أن سببه ما وقع يوم أن تزوج ـ عليه الصلاة والسلام ـ زينب بنت جحش . أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والبيهقى

فى سننه وغيرهم من طُرُقٍ عن أنس قال : لمَّا تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، وإذا هو يتهيأُ كأَنه للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأَخبرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أَنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فأُلْقِيَ الحجاب بينى وبينه ، فأَنزل الله (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ . . .) الآية .

والمعنى : ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلَّا مدعوين إلى طعام غير منتظرين إدراكه ونضجه : وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ وأُذِن لكم فى الدخول فادخلوا ، فإذا انتهيتم من طعامكم فتفرقوا وخففوا عن أهل البيت ، وانتشروا لشئونكم ، وهو خطاب لأُولئك المتحينين لوقت طعام رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فالنهى فى الآية لهم ولأمثالهم ممن يفعل فعلهم فى المستقبل ، فلا يفيد النهى عن الدخول بإذن لغير الطعام ، ولا عن الجلوس والمكث بعد الطعام لمهم آخر بموافقة من الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

(وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) أى : ولا تمكثوا مستأْنسين لحديث بعضكم بعضًا ، كما وقع لأُولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أَنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال الله سبحانه : (إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ) أى : إن ذلكم اللبث الدال عليه الكلام ، أَو ما كانوا يفعلونه من الاستئناس ، كان يسبب الإيذاء للنبى لتضييق البيت عليه وعلى أَهله ، وصده عن الاشتغال بما يعنيه، فيستحيي من إخراجكم لشدة حيائه ، ولما كان الحياءُ مِمَّا يمنع الحَيِيَّ من بعض الأَفعال قال سبحانه : (وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ) : بمعنى ؛ لا يمتنع منه ، ولا يتركه ترك الحيي منكم فلذا أَمركم - سبحانه - بالخروج ، فالمراد بالحق هنا إخراجهم ، ووضع الحق موضعه لتعْظيم جانبه ، وهذا أدب أَدَّب الله به الثقلاء[1] ، والظاهر كما قال روح

---

(١) ومن هذا كان الثقيل مذموما عند الناس قبيح الفعل عند الأكياس ، عن عائشة -رضى الله عنها - : حسبك فى الثقلاء أن الله لم يحتملهم فقال : « فإذا طعمتم فانتشروا» .

المعانى : حرمة المكث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم ، إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت ، وليس ذلك مختصًا بما إذا كان اللبث فى بيت النبى - عليه الصلاة والسلام .

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) : شروع فى بيان الأمر الثانى الذى تضمنته الآية وهو أمر الحجاب لزوجات الرسول ، وفى حكمهن نساءُ الأُمة .

والمعنى : وإذا طلبتم من نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئًا ينتفع به ، فلا تسألوهن إلَّا من وراءِ ستر يستر بينكم وبينهن فإن سؤالكم لهن من وراءِ حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من خواطر الشيطان ونوازع الفتن[1] ، وأنفى للريبة وأبعد عن التهمة .

وكان النساءُ قبل نزول الآية يبرزن للرجال ، وكان عمر - رضى الله عنه - يحب ضرب الحجاب عليهن ، أخرج البخارى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أنس - رضى الله تعالى عنه - قال : قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أُمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله - تعالى - آية الحجاب .

وقد ورد فى الصحيح عن ابن عمر ، قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود فى بيت زينب : القصة المذكورة آنفًا .

قال القرطبى : هذا أصح ما قيل فى أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات ، لا يقوم شىءٌ منها على ساق .

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ) أى : لا يصح ولا يستقيم أن يقع منكم إيذاءٌ لرسول الله فى حياته بفعل ما يكرهه ويتأذى منه ، كالمكث الذى كنتم تفعلونه ، والاستئناس لحديث بعضكم بعضًا ومكالمة نسائه من غير حجاب ونحوها .

وفى التعبير عنه - صلى الله عليه وسلم - برسول الله لتقبيح ذلك الفعل وأنه بعيد بمراحل عما تقتضيه منزلته ، وما يتطلبه علو شأنه عند ربه حيث اختاره لرسالته .

---

(١) وهى : الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء ، وللنساء فى أمر الرجال ، فإن الرؤية سبب التعلق والفتنة .

(وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا) أى : ولا يحل لكم أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أو فراقه لهن ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن المرأة فى الجنة لآخر أزواجها ، وهن أمهات المؤمنين ، ولا يحل للأبناء نكاح الأمهات .

يروى أن رجلًا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أم سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قد مات لأجلْنا السهام على نسائه . فنزلت الآية فى هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده وجعل لهن حكم الأمهات ، وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه ، وتنبيهًا على مرتبته – صلى الله عليه وسلم – .

(إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا) : إشارة إلى ما ذكر من إيذائه – عليه الصلاة والسلام – بالمكث بعد الطعام ، ونكاح أزواجه من بعده . أى : وكان ما ذكر فى حكمه – تعالى – عظيمًا هائلًا ، لا يقادر قدره ، ولا يعرف مداه ، فكان من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه ، كما يقول القرطبى .

وفى ذلك من تعظيمه – تعالى – لشأن رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإيجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى .

(إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ) أى : إن تظهروا أمرًا من الأمور أو تستروه فى أنفسكم يعلمه الله . يقال : خَفَيْت الشىء أُخفيه من باب رمى : سترته ، كأخفيته بالهمزة[1] .

(١) وبعضهم يجعل الرباعى للكتمان والثلاثى للإظهار ، وبعضهم يعكس الأوضاع .

التفسير

٥٤ - (إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) :

سبب نزول هذه الآية على ماقيل ، أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أننهى أن نكلم بنات عمنا إلَّا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لنتزوجن نساءه ، وفى بعض الروايات لتزوجت عائشة .

والمعنى : إن تظهروا على ألسنتكم شيئًا مما لاخير فيه كنكاح أزواجه من بعده أو تخفوه فى صدوركم يجزكم الله لا محالة بما صدر عنكم من المعاصى البادية ، وبما أخفيتموه من الخواطر والمعتقدات المذمومة ، فإنه - سبحانه - كامل العلم لا يخفى عليه ما كان من ماض تقضَّى وما يكون من مستقبل يأْتى : « يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ »[1] .

قال الإمام أبو السعود : وفى هذا التعميم مزيد تهويل وتشديد ، ومبالغة فى التوبيخ والوعيد .

(لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ) : لا إِثْمَ عَلَيهِنَّ .

---

(١) الآية : ١٩ من سورة غافر .

(وَلَا نِسَآئِهِنَّ) أى : نساء المؤمنات .

(وَاتَّقِينَ اللَّهَ) أى : اقتصرن على ما أبيح لكن فلا تتعدينه إلى غيره .

التفسير

٥٥ - (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ آبَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَانِهِنَّ . . .) الآية :

الآية استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب منهم إثر أمره - تعالى - لنسائه - صلى الله عليه وسلم - بالحجاب من الأجانب .

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله أو نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية .

والمعنى : لا إثم عليهن فى ترك الحجاب من آبائهن ولا من أبنائهن ولا من إخوانهن ، ولا من أبناء إخوانهن ولا من أبناء أخواتهن ولا نسائهن[1] المؤمنات فليس لهن أن يتجردن أمام مشركة أو كافرة ، وفى حكمهم كل ذى رحم محرم من نسب أو رضاع على ما روى ابن سعد عن الزهرى .

وهذا الحكم عام لنساء المؤمنين ، وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هذه الآية والآية السابقة عند قوله تعالى : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... » ؟ فأجاب عكرمة والشعبى : بأنهما لم يذكرا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ، فكره لهما الرؤية وهذا الجواب غير مناسب ؛ لأن الوصف قد يقع من غيرهما ، ولذلك كان الجواب المناسب لعدم ذكرهما هو أنهما بمنزلة الوالدين ، ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »[2] فأطلق على إسماعيل وصف الأبوة ليعقوب مع أنه عم له ، أو أنهما لم يذكرا لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخئولة حيث إنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات الأبناء الأخوات .

(١) إضافة النساء إليهن للإشعار بأنهن معروفات لهن وموضع ثقة عندهن ، والمقصود من الإخوان الإخوة .

(٢) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(وَاتَّقِينَ اللهَ) أى : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره ، أو اتقين الله فى كل ما تأْتين وتذرن ولا سيما ما أُمرتن به ، ونهيتن عنه ، واخشينه فى الخلوة والعلانية .

وفى نقل الكلام من الغيبة فى قوله سبحانه : (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ . . .) إلى الخطاب فى قوله : (وَاتَّقِينَ اللهَ) فضل تشديد فى طلب التقوى منهن ، ثم توعد مَنْ ظنَّ الإفلات من سلطانه فقال تعالى : (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) أى : لا تخفى عليه خافية . قال ابن عطاء : الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب ، كما يعلم خطرات الجوارح وهو -سبحانه - يجازيكم على الأعمال بحسبها : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) : الصلاة من الله على الرسول : الرحمة والرضوان ، أو الثناءُ عليه عند الملائكة وتعظيمه ، ومن الملائكة : الدعاءُ والاستغفار ، ومن المؤمنين : الدعاءُ والتضرع إلى الله أن يعلى شأْنه ويرفع قدره .

التفسير

٥٦ -(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة الآداب التى يجب اتباعها معه - صلى الله عليه وسلم - فى حياته وبعد مماته ، ومع أزواجه المطهرات تشريفا له وتعظيمًا - بعد هذا - أشادت هذه الآية - زيادة فى تشريفه - بمنزلته العظيمة فى الملأ الأَعلى عند ربه - سبحانه وتعالى - ، وعند

ملائكته - عليهم السلام - حيث قال تعالى : (إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) : إخبارًا لعباده بأنه يرحمه ويرضى عنه أو يثنى عليه عند ملائكته المقربين ، وأن الملائكة تستغفر له وتعظمه .

ثم أمر الله المؤمنين بالدعاء له ، والتسليم عليه بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) : ليجتمع الثناء الذى هو حقيق به من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعًا .

أخرج البخارى عند تفسير هذه الآية بسنده عن كعب بن عُجْرَة قال : قيل : يا رسول الله أمَّا السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : اللَّهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد . اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد[1] .

وفى رواية أخرى عنه لما نزلت : (إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) قال : قلنا : يا رسول الله قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا : اللَّهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيد . رواه الترمذى بهذه الزيادة[2] ، ومعنى قولهم : أمَّا السلام فقد عرفناه يقصدون به الذى فى التشهد ، وكان - صلى الله عليه وسلم - يعلمهم إيَّاه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

والصلاة عليه - صلى الله عليه وسلم - واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فهى واجبة مرة فى العمر عند الطحاوى ، وأوجبها الشافعى فى الصلاة ، فلا تصح صلاة عنده

---

(١) البخارى تفسير سورة الأحزاب .

(٢) وروى فى ذلك عدة روايات .

بدونها ، واختاره ابن العربي[١] وأوجبها الكرخي كلما ذكر اسمه ، وهو الذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه العرفان بعلو شأنه ، وعليه الجمهور لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رَغِمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ » .

قال الحافظ ابن حجر : (لم أر عن أحد من الصحابة والتابعين التصريح بعدم الوجوب إلّا ما نقل عن إبراهيم النخعى ، وهذا مشعر بأن غيره كان قائلًا بالوجوب) . اهـ : تفسير الآلوسى .

والصلاة على غيره على سبيل التبع ، كصلى الله على النبي وآله فلا كلام فى جوازها . أمّا إذا أفرد غيره من آل البيت فمكروه وهو من شعائر الروافض ، ومن قال بالجواز مطلقا استدل بقوله تعالى : (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَآئِكَتُهُ) وبما صح من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللّهم صلّ على آل أبي أوفى » ونحوه ، وقد أجيب عنه : بأنه صدر عن الله ورسوله ، ولهما أن يخصا من شاءا بمن شاءا ، وليس ذلك لغيرهما إلّا بإذنهما ، ولم يثبت عنهما إذن فى ذلك .

وأمّا الصلاة على الأنبياء منا فجائزة معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبدونه بلا كراهة ، فقد جاء بسند صحيح على ما قاله المجد اللغوى : (إذا صليتم على المرسلين فصلوا على معهم فإنى رسول من المرسلين) .

(وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى : قولوا السلام عليك أيها النبي ونحوه ، كما ذكرته الأحاديث.

« والسلام عليك » جملة خبرية أريد بها الدعاء بالسلامة من النقائص والآفات ، أو الدعاء بالانقياد لأوامره من المسالمة وعدم المخالفة ، بأن يصير الله العباد مذعنين له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولشريعته .

---

(١) وذكر الدارقطنى عن أبي جعفر بن محمد بن على بن الحسين أنه قال : لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا على آل بيته لرأيت أنها لا تتم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) : أذية الله بالكفر به ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به . أمَّا أذية الرسول فتحصل بكل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال .

(لَعَنَهُمُ اللهُ) أى : أبعدهم من كل خير ورحمة ، واللعن فى اللغة الإبعاد .

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) أى : هيأ لهم عذابا بالغ الغاية فى الإهانة والإذلال .

(بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) أى : من غير جناية يستحق بها المؤمنون والمؤمنات الأذية .

(فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا) أى : فعلوا وتحملوا إثم أفحش الكذب الذى افتروه على غيرهم وبهتوهم به .

(إِثْمًا مُّبِينًا) أى : ظاهرًا بينًا لا يخفى خبره .

التفسير

٥٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) :

الآية : تهديد ووعيد لمن آذى الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وآذى رسوله بعيب أو تنقيص .

والمعنى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - باقتراف ما لا يرضاه من كبائر المعاصى ووصفه بما لا يليق به ، كقول اليهود : « يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » ، وقول النصارى : « الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ » ،

وقولهم : « إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » وقول المشركين : الملائكة بنات الله ، والأَصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا ، وكقول الذين يلحدون فى آياته ، والإيذاء بالنسبة لله تعالى فيه تجوز ، لاستحالة حقيقة التأَذى فى حقه جل وعلا .

وإيذاء الرسول هو قولهم : شاعر . كاهن . مجنون ، وكسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد ، وإلقاء السَّلى[1] على ظهره بمكة وهو ساجد ، وغير ذلك مما يؤذيه .

ويجوز أن يكون المقصود من الآية تعظيم ذنب من يؤذون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذكر إيذاء الله معه ، والغرض من ذلك بيان قربه منه ، وكونه حبيبه المختص به حتى كان ما يؤذيه - صلى الله عليه وسلم - يؤذيه سبحانه ، روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مغفل قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهَ اللهَ فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأْخذه » .

هؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله طردهم الله عن رحمته فى الدارين بحيث لا ينالون فيهما[2] شيئا منها . وهيأ لهم مع ذلك عذابا بالغ الغاية فى إهانتهم وإذلالهم يصيبهم فى الآخرة خاصة .

وتنكير العذاب ووصفه بالإهانة ، وكونه من إعداد الله يؤذن بأنه فوق احتمالهم لشدته حيث قال سبحانه : (وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) .

٥٨ - (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) :

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس قال : أُنزلت فى عبد الله بن أُبَىّ وأُناس معه قذفوا عائشة - رضى الله عنها - فخطب النبى - صلى الله تعالى عليه وسلم - وقال : من يَعْذرنى فى رجل يؤْذينى ، ويجمع فى بيته من يؤْذينى . فنزلت .

---

(١) السلى : كالحصى ، الذى يكون فيه الولد والجمع : أسلاء مثل سبب وأسباب .

(٢) وذلك فى الآخرة ظاهر وأما فى الدنيا فقيل : يمنعهم زيادة (الهدى) . ا هـ : تفسير الآلوسى .

وقيل فى سبب نزولها : إن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها ،وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان . فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ ويسمعونه ما لا خير فيه .

والظاهر عموم الآية لكل ما ذكر ، ولكل ما سيأتى من أراجيف المرجفين ، وفيها من الدلالة على حرمة المؤمنين والمؤمنات ما فيها .

والمعنى : والذين ينسبون للمؤمنين والمؤمنات ما يتأذون به من الأقوال والأفعال القبيحة بغير جناية يستحقون بها الأذية شرعًا[1] . (فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا) أى : فقد تحملوا بذلك إثم الكذب الفاحش المفترى الذى يبهت المؤمنين والمؤمنات ،أى : يدهشهم ويحيرهم لفظاعته فى الإثم حيث يحكون أو ينقلون عنهم ما هم منه براء .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته . رواه مسلم .

(وَإِثْمًا مُّبِينًا) أى : وتحملوا كذلك ذنبًا ظاهرًا واضح الأثر بيِّن الخبر . روى أن عمر بن الخطاب قال لأُبَىّ بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) والله إنى لأضربهم وأنهرهم . فقال له أُبَىّ : يا أمير المؤمنين لست منهم إنما أنت معلم ومقوِّم . وأطلق إيذاء الله ورسوله فى الآية السابقة ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات فى هذه الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا) لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون أبدًا إلا بغير حق ، وأمَّا إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه حق كالحد والتعزير ، ومنه باطل .

---

(١) وقيل : من الأذية تعيير المؤمن بحسب مذموم أو حرفة مذمومة أو شىء يثقل عليه سمعه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾)

المفـردات :

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ)أى : يسدلن عليهن من الجلابيب ،جمع جلباب ، وهو ثوب واسع يغطى جميع الجسم كالملاءة والملحفة يتخذنه إذا خرجن لداعية من الدواعى .

(ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ) أى : أقرب أن يتميزن عن الإماء والقينات اللاتى هن موضع التعرض للإيذاء من أهل الريبة .

والقينة : الأمة البيضاء ، هكذا قال ابن السكيت مُغَنيةً كانت أو غير مُغَنية ، وقيل : تختص بالمغنية .

التفسـير

٥٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

بعد ما بين- سبحانه- سوء حال المؤذين زاجرًا لهم عن الإيذاء أمر النبى أن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع الإيذاء ، وذلك بأن يدنين عليهن بعض جلابيبهن ، ويراد من إدنائه أن يلبسنه على البدن كله ، أو التلفع بجزء منه لستر الرأس والوجه ، وإرخاء الباقى على بقية البدن . هذا إذا أردن الخروج إلى حوائجهن ، وكن يتبرزن فى الصحراء أو بين النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف الفساق عن معارضتهن ، وكانت المرأة من نساء المؤمنين

قبل نزول هذه الآية تكشف عن وجهها وتبْرز فى درع وخمار [١] كالإماء فيعرض لهن بعض الفجار يظن أنها أمة ، فتصيح به فيذهب ، فشكوا ذلك إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره . ولفظ النِّساء خَصَّهُ العرف بالحرائر .

والمعنى الإجمالى للآية : مُرْ -أيها النبى - أزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ، أن يسدلن عليهن بعض جلابيبهن .

واختلف فى كيفية هذا السِّتر ، فقال السّدى : تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلّا العين ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة . وقال الحسن : تغطى نصف وجهها . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلمانى ، عن قول الله تعالى : (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وظاهر الآية أنها محمولة على طلب تستر تمتاز به الحرائر عن الإماء . فيعلم به أنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة ، ويشير إلى ذلك قوله - سبحانه - : (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) أى : ذلك أقرب وأجدر أن يُعْرَفنَ لتسترهن أنهن حرائر ، فإذا عرفن فلا يتعرض لهن ، وتنقطع الأطماع عنهن ، وليس المراد أن تعرف المرأة حتى تعلم من هى ؟ وكان عمر - رضى الله عنه - إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة محافظة على زى الحرائر .

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) أى : كثير المغفرة ، فيغفر ما سلف منهن من تفريط فيما أمرن به من الستر المطلوب ، كما أنه سبحانه كثير الرحمة فيثيب من امتثل منهن أمره بما هو أهله - جل شأنه - .

---

(١) ودرع المرأة : قميصها مذكر ، والخمار ثوب تغطى به المرأة رأسها ، والجمع خمر ، مثل : كتاب وكتب ، واختمرت المرأة وتخمرت : لبست الخمار .

* (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(الْمُنَافِقُونَ) : هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام .

(الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : ضعاف الإيمان .

(الْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ) : ناشرو الأخبار الكاذبة فيها ليبعثوا الرجفة والزلزلة فى قلوب المؤمنين بأكاذيبهم .

(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) : لنحرضنك ونسلطنك عليهم .

(مَلْعُونِينَ) : مطرودين من رحمة الله .

(أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا) : أينما ظفر بهم أسروا .

(سُنَّةَ اللهِ) : طريقته الدائمة .

التفسير

٦٠ - (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا) :

بعد أن أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن حتى يعرف الفساق أنهن حرائر فلا يتعرضوا لهن بسوء، هدد الله المنافقين ومرضى القلوب الذين كانوا يذيعون الأخبار الكاذبة- هددهم- بأنهم إن لم يرجعوا

عن إثارة الفتن بين المسلمين لَيُحَرِّضَنَّ اللهُ رسوله عليهم ويغرينّه بهم حتى يضطرهم إلى الجلاء عن المدينة ويلجئهم إلى الخروج منها لإفسادهم ؛حتى لا يجتمع هؤلاء بكفرهم وضلالهم مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين فى بلد واحد إلَّا زمانا قليلًا يجمعون فيه متاعهم وشملهم ، وكان هذا هو الجزاء الوفاق لطائفة من الناس لم ترع حرمة الجوار ولم تكن أمينة على من يساكنونهم ويعاشرونهم ، بل كانوا مصدر إزعاج وقلق .

٦١ – (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) :

أى : مطرودين من رحمة الله أينما وجدتهم ينشرون الفتن أخذتهم وعاقبتهم فقتَّلتهم تقتيلًا جزاء خيانتهم وزجرا وتشريدًا لمن خلفهم .

٦٢ – (سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا):

أى : سَنَّ الله ذلك وشرعه شرعا مؤكدًا فى الأُمم الماضية والشعوب السابقة أن يشرد أو يقتل أولئك الذين يسعون بالإفساد بين سواهم ، وذلك بإجلائهم عن أوطانهم وقهرهم وإذلالهم وقتلهم أينما وجدوهم على حالة الإفساد وإشاعة الفزع والخوف بين المؤمنين ، فأمر رسول الله–صلى الله عليه وسلم– مع هؤلاء الضالين ليس بدعًا ، بل هو سائر على نظام سابق حكيم ،وقضاء محكم ،ولن تجد لقضاء الله وحكمته تغييرًا وتبديلًا ،فلا يبدل الله سنته ، ولا يستطيع أحد من خلقه تبديلها .

إذن فالحكم باقٍ كما كان فى الأُمم السابقة من أن المفسد يضرب على يديه ويؤخذ بجريرته وينا له أشد العقاب حتى يرتدع وينزجر غيره ممن تسول له نفسه أن يحذو حذوه أو يسلك سبيله .

وذكر الآلوسى فى كتاب روح المعانى كلاما عن السدى قال : أخرج ابن أبى حاتم عنه أنه قال فيها : كان النفاق على ثلاثة أوجه : نفاق مثل نفاق عبد الله بن سلول ونظائره كانوا وجوهًا من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنى ؛ يصونون بذلك أنفسهم وهم المذكورون فى الآية ، ونفاق الذين فى قلوبهم مرض ،وهم منافقون إن تيسر لهم الزنى

عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهموا بأمره ، ونفاق المرجفين وهم منافقون يكابرون النساء يقتصون أثرهن فيغلبوهن على أنفسهن فيفجرون بهن ، وهؤلاء الذين يكابرون النساء يقول الله فيهم : (لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) أى: لنحرضنك عليهم ، ثم يصفهم بكونهم ملعونين ، ويبين عقابهم بقوله : (أَيْنَمَا ثُقِفُوا) أى : فى أى مكان وجدوا يعملون هذا العمل الشائن ، (أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) : ثم قال السدى : هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به ، لو أن رجلًا فما فوقه اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، وهو أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم ، (سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ) : كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ، (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) : فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل فليس على قاتله دية ؛ لأنه يكابر . ا هـ.

وما ذهب إليه السدى له تقديره ووجاهته ، فإنه الأولى والأجدر أن يعامل به هؤلاء الذين يسعون فى الأرض فسادًا ويغتصبون النساء وينتهكون أعراضهن غير عابئين ولا مبالين بالعقوبات غير الرادعة ، ولا خائفين من بطش الله وأخذه ، غير أنه لا يترك أمر عقاب وقتل من يفعل ذلك لعامة الناس ، بل لابد من الرجوع فى ذلك إلى القاضى - شأن سائر العقوبات والزواجر - حتى لا يتخذ الناس ذلك ذريعة وتَعِلَّةً للنيل من خصومهم وإهدار دمائهم .

(يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : يوم القيامة .

(لَعَنَ الْكَافِرِينَ) : طردهم وأبعدهم عن رحمته .

(أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) : هيأ لهم نارًا شديدة الاشتعال .

(وَلِيًّا) : معينًا .

(نَصِيرًا) : ناصرًا يخلصهم من النار .

التفسير

٦٣ - (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) :

كان المشركون والمنافقون يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سؤال استهزاء وسخرية عن وقت قيام الساعة ، وكذلك كان يفعل اليهود امتحانا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنهم يعلمون من التوراة أن الله قد أخفاها فأمر الله رسوله أن يقول لهم : « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ » فلا يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ثم يخاطب الله نبيه بقوله : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) أى : أنها مع استئثار الله بعلمها فإنها مرجوة ومأمولة المجيء عن قريب ، يقول تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ »[1] ، والله - سبحانه - قد أخبرنا أن علامات الساعة وأشراطها قد جاءت ، فقال تعالى : « فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا »[2] وأشراط الساعة يحدثنا عنها رسولنا الكريم فى حديثه الشريف الذى رواه الإمام البخارى : عن عبد الله بن أبى أوفى قال : بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى الرسول يتحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه . قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » كما نجد بعض أماراتها فى آخر حديث عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - الذى جاء فيه جبريل - عليه السلام - فى صورة رجل شديد

(١) الآية الأولى من سورة القمر .

(٢) الآية ١٨ من سورة محمد .

بياض الثياب شديد سواد الشعر ، ويقول عمر – رضى الله عنه – : ولا يعرفه منا أحد ، فسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الإسلام فأجابه ، ثم سأله عن الإيمان فأفاده ، ثم عن الإحسان فأخبره به ، ثم عن الساعة فقال رسولنا الكريم – صلى الله عليه وسلم – : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » إلى آخر الحديث[1] . وفى هذا الأسلوب القرآنى البديع تهديد للمستهزئين ، وتبكيت وتقريع للممتحنين المتعنتين .

وقد أخفى – سبحانه – وقت الساعة لحث المؤمنين ودفعهم إلى حسن الاستعداد للقاء الله بالعمل الصالح والإخلاص والإنابة له ، وتقصير الأمل فى الدنيا ، وعدم الاغترار بها ، كما أخفى – جل شأنه – الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ليحرص الناس على الحفاظ عليها جميعا طلبا لها ، وابتغاء الظفر بها ، وأخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ، وليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ، وأولياءه فى خلقه ، واسمه الأعظم من أسمائه الحسنى ، أخفى هذه الأشياء ليواظب المؤمن على أن يملأ هذه الأوقات بالذكر والعبادة والدعاء ، ويرعى حرمة المسلمين جميعا ويذكر الله بأسمائه الحسنى ؛ هذا وقد دأبت طائفة البهائية على نشر ما يسمونه بسر العدد التاسع عشر ويتحايلون على إضفاء قدسية عليه وتبجيل له ، ويدعون أن الحاسب الآلى يعطى تحديدا لزمن قيام الساعة ، ويحاولون أن يلووا ويطوعوا آيات القرآن الكريم لمعتقدهم الفاسد ، ونحلتهم الباطلة ، ولكن أنى لهم ذلك ، وعلماء الإسلام لهم بالمرصاد يتتبعونهم ويكشفون حيلهم وخداعهم ، ويدحضون مزاعمهم ويظهرون زيف قولهم وباطل دعوتهم والله من ورائهم محيط .

٦٤ ، ٦٥ – ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ :

بعد أن بين – سبحانه – أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن وقتها مرجو ومأمول المجىء عن قريب ، أخبر وأكد أنه – تعالى – طرد الكافرين من رحمته وأبعدهم عن رضوانه ، وقطع

---

(١) رواه مسلم .

رجاءهم فى عفوه وفضله وأيئسهم من مغفرته : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ [1] » ، وليس الأمر قاصرا على الطرد من النعيم ، ولكنه - جل علاه - هيأ لهم وخلق - جزاء كفرهم - نارًا شديدة الاشتعال والاتقاد : « وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » [2] يمكثون فيها أبدًا لا تنفك عنهم ولا تزايلهم ولا يجدون وليا يدافع عنهم أو يحفظهم منها ، ولا نصيرًا يجهد نفسه ويبذل وسعه فى أن يخلصهم وينقذهم من لظاها هذا العذاب كان جزاء كفرهم وعنادهم ، بعد أن هداهم إلى طريق الخير وبين لهم طريق الشر وبشر وأنذر : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » [3] ، « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » [4] .

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ) : تدار وتصرف من جهة إلى أخرى ، أو تغيَّر وتبدَّل من سيء إلى أسوأ .

(سَادَتَنَا) : ملوكنا وحكامنا .

(كُبَرَآءَنَا) : رؤساءنا الذين نقتدى بهم فى الشر .

(ضِعْفَيْنِ) : مثلين .

---

(١) من الآية ١١٦ سورة النساء (٢) من الآية ٢٤ سورة البقرة (٣) الآية ١٠ من سورة البلد (٤) من الآية ٤٦ سورة فصلت.

التفسير

٦٦ - (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ) :

بعد أن أوضح الله ما يصير إليه أمر هؤلاء من عذاب مقيم فى جهنم أبان - جل شأنه - ما يصدر منهم من قول وما يبدو من ندم :

ندم البغـاة ولات ساعة مندم والظـلم مرتعُ مبتغيه وخيم

فيقولون - وقد غيرت وجوههم من حالة قبيحة وسيئة إلى حالة أقبح وأسوأ فى النار من شدة ما يألمون وهول ما يجدون - يقولون ويرددون نادمين متحسرين على ما فرط منهم - : ياليتنا استجبنا لله فآمنا به وأجبنا داعى الله ورسوله فصدقناه فيما جاء به ، لو حدث منا هذا ما أصابنا ما نعانيه من الهول العظيم والعذاب المهين . وخص - جل شأنه - الوجوه بالذكر مع أن أجسادهم كذلك ؛ لأن الوجوه أعظم الأعضاء مكانة وشرفا ،وذلك فيه ما فيه من الإذلال وتهويل الأمر وتفظيع الخطب وتفزيع النفس وترويع القلب .

٦٧ - (وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ) :

أى إنهم فى هذا اليوم بعد أن أبدوا ندمهم وأظهروا أسفهم ، أرادوا أن يتنصلوا من جريمتهم ،فيلصقوها بسادتهم وكبرائهم ،ممن كانوا لهم قادة فى الشر وقدوة فى الكفر ،فيقولون ما كان منا إلا الطاعة والخضوع والإذعان لهؤلاء الرؤساء فلم يكن منا عناد أو مكابرة أو مجالدة للرسل والأنبياء ، وإنما كنا تبعا لهؤلاء مستضعفين لديهم ،مقهورين تحت سلطانهم ،لانملك إلا أن نكون طوع أمرهم ،ولولا هؤلاء الرؤساء لكنا مؤمنين ،فهؤلاء قد رضوا أن يكونوا أداة فى أيدى أولئك يصرفونهم كما يشاءون ،إنهم يعتذرون بذلك رجاء الإفلات من العقاب ولكنه عذر مردود غير مقبول ،وحجة داحضة إذ كيف يغفلون نعمة العقل التى منحهم الله إياها فجعلها مناط المسئولية ومحور الجزاء : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .[1] ويهدرون

---

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر .

ما تفضل به عليهم وملأ به كونه من آيات وشواهد دالة على أنه الواحد .

٦٨ - (رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) :

بعد أن يئس هؤلاء المرءوسون من تحميل الرؤساء مسئولية إضلالهم ، وأنه لافكاك لهم منه طلبوا من ربهم أن يضاعف العذاب ضعفين ويجعله كفلين ويكثره لهؤلاء الذين كانوا سبباً فى إضلالهم ؛ تشفياً فيهم وغيظاً منهم ، ضِعفا لضلالهم هم وضِعفاً آخر لإضلالهم غيرهم ، كما طلبوا أن يطردهم الله طردًا كبيرًا ويبعدهم بعدا سحيقاً لا أمل فى رحمة بعده ، وهم بهذا الدعاء على رؤسائهم إنما ينفسون عن أنفسهم من غيظ وغضب .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾)

المفردات :

(فَبَرَّأَهُ اللهُ) : أظهر براءته .

(وَجِيهاً) : عظيم القدر رفيع المنزلة .

(سَدِيدًا) : قاصدًا ومتوجها إلى هدف معين .

التفسير

٦٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً) :

بهذه الآية الكريمة يرشد الله المؤمنين ،وينهاهم عن أن يتشبهوا بقوم موسى غلاظ القلوب الذين آذوا وأهانوا رسول الله موسى - عليه السلام - ورموه بشتى أنواع النقائص فنسبوا إليه السحر والجنون ولطخوه بالزنى ، وأشاعوا عنه أنه قتل أخاه هرون ؛ لأنهم كانوا يحبونه ويؤثرونه للين جانبه معهم وحدة موسى عليهم ، فأظهر الله - سبحانه - براءة موسى مما نسبوه إليه ، وأبان ظلمهم له وحيفهم عليه ، فدمغهم بالكذب والافتراء ، وقرر أن موسى عليه السلام رفيع القدر لديه ، عظيم المنزلة عنده ، صنعه على عينه ، ورعاه رضيعاً وآثره بالآيات البينات التسع ، وناداه من جانب الطور الأيمن ، وقربه وناجاه ، واتخذه كليماً : فحقا كان عند الله وجيهاً ذا منزلة رفيعة وجاه عريض ، قيل : نزلت فيما كان من أمر المنافقين فى شأن تزوجه - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش ، حيث قالوا : تزوج زوجة من تبناه ، فآذوه بما قالوا مع أنها ابنة عمته ، ولو أراد لتزوجها بكرًا ، ولكن زيدًا طلقها باختياره ، وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بنسخ عادة التبنى وآثارها ، وأن يتزوج طليقة زيد متبناه ، تأكيدًا لنسخ أحكام التبنى .

٧٠ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) :

ينادى الله عباده بأحب صفة لهم - وهى الإيمان بالله - يناديهم آمرًا لهم أن يكونوا فى وقاية وحفظ من غضب الله وعقابه ، فلا يقربوا معصية ، ولا يفرطوا فى طاعة ، مداومين على التمسك بالتقوى ، ليكونوا فى رعاية الله وعنايته « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ »[1] .

ثم يأمرهم أن يقولوا القول الصواب ، يوجهونه ويقصدون به وجه الحق ، ولا يعدلون به إلى القول الباطل الجائر ، لا يشركون مع الله أحدًا ، ولا يخشون فى الحق لومة لائم .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

٧١ـ (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً) :

رتب – سبحانه – على تقواهم لله وتحريهم القول الصادق أنه يكافئهم ويجازيهم على ما يفعلون جزاءً حسناً ، وثواباً جزيلا ، وذلك بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم إلى الصالح والمرضى منها ، ويبارك لهم فيها ، ويتقبلها بالقبول الحسن ، ويغفر ويكفر سيئاتهم فيسترها ولا يفضحهم بها ، بل إنه – عز جاهه – يذهبها ويمحوها « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] ثم إذا أحسن العباد التوبة والإنابة إلى الله – تعالى – وعملوا العمل الصالح ، فمن سعة رحمته وعظيم فضله يجعل سيئاتهم حسنات ، قال تعالى : « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً »[2] .

ومن يمتثل أمر ربه وأمر رسوله فيفعل ماأمر به ، وينتهى عما نهى عنه فقد ظفر وسعد ونال الجزاء الأوفى فى الآخرة والأولى ، وفازبالجائزة الكبرى التى يتعاظم قدرها وتسمو منزلتها وتعلو مكانتها .

(إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾)

---

(١) من الآية ١١٤ سورة هود .

(٢) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .

المفـردات :

(عَرَضْنَا) : طلبنا . (الْأَمَانَةَ) : هى التكاليف الشرعية .

(وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ) : والتزم الإنسان القيام بها .

(ظَلُوماً) : كثير الظلم . (جَهُولًا) : كثير الجهل .

التفسير

٧٢- (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ...) إلخ الآية :

لما بين الله - سبحانه - عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وذلك بإنذار المتمردين والخارجين عليها بالعذاب الشديد ، وبشارة من قام بها وأذعن لها بالحظ العظيم والفوز الكبير ،أتى عقب ذلك ببيان رفعة التكاليف الشرعية وإظهار عظمتها وخطرها وسمو منزلتها ،فقال :(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) أى : طلبنا من هذه المخلوقات العظيمة والكائنات الضخمة الكبيرة أن يقمن بأداء التكاليف الشرعية دون إلزام منا وقهر عليها ،فأبت وامتنعت عن القيام بهذه المسئولية الجليلة ، ولم يكن إباؤها وامتناعها عن تمرد وعصيان ، كإباء إبليس حينما أبى السجود لآدم ، إذ كان إباؤه عن استكبار واعتراض وتمرد على أمر الله قال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [1] » . وإنما كان إباؤها عن خوف وإشفاق من أنها لا تستطيع أداءها على وجه يرضى عنه ربها وخالقها .

والمراد بالأمانة التكاليف الشرعية الشاملة لأمانات الناس وعرضها على السموات والأرض والجبال وامتناعها من قبول التكليف بها تمثيل لصعوبة الالتزام بأدائها فأشفقن منها لذلك .

وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مَثَلٍ ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز السموات والأرض والجبال. وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل ، وهذا كقوله :«لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى

---

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .

جَبَلٍ » . ثم قال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » قال القفال : فإذا تقرر أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر مالا يُخرَّج إلاَّ على ضرب المثل وجب حمله عليه : اهـ [١] .

والمراد من حمل الإنسان لها قبوله الالتزام بأدائها . إما بإعداد الله له بما زوده من ملكات وغرائز وطبائع وماغرس فيه من قدرات . وإما بقبول ذلك قولا يوم أن أخذ الله عليه الميثاق وهو فى عالم الذر ، قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ » [٢] وكان قبول الإنسان القيام بها يقتضى أن يشمر عن ساعد الجد ، ولكن الإنسان كان شديد الظلم لنفسه فقد ترك الأمانة ولم يقم بحقها ، وفرط فى جنب الله فلم يلتزم بالمسلك السوى والطريق المستقيم ، وكان كثير الجهل غارقا فى بشريته مطيعاً لهواه ونفسه الأمارة بالسوء ، ومكن منه الشيطان ولم يتبصر ويدرك ما ينتظره وما يؤول إليه أمره من عذاب أليم وعقاب مقيم ، فكان فى جهالة جهلاء ، والمراد من الإنسان فى الآية الكريمة معظم هذا النوع وأكثره ؛ إذ هناك من الناس من قام بنصيب وافر وحظ عظيم من أداء الأمانة والقيام بالتكاليف ، قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ » [٣] .

وللزمخشرى صاحب الكشاف رأى جدير بالتسجيل والتنويه به ؛ فقد قال : والمراد بالأمانة الطاعة ؛ لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ؛ وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز ، قال : إن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله – عز وعلا – انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادًا أوتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة ، وأشكال متنوعة كما قال تعالى : « أَتَيْنَا طَآئِعِينَ » [٤] وأما الإنسان فلم يكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل الأمانة ومحتمل لها ، تريد أنه لم يؤدها إلى صاحبها

---

(١) انظر القرطبى .

(٢) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٣) من الآية ١٣ سورة سبأ .

(٤) من الآية ١١ سورة فصلت .

حتى تزول عن ذمته، وتخرج عن عهدته؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها، ألا تراهم يقولون : ركبته الديون، ولى عليه حق، فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حاملا لها إلى أن قال : فمعنى « فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا » ، « وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ » فأبين إلَّا أن يؤدينها، وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لايؤدها، ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها . ا هـ .

ورأى الزمخشرى هذا يلتقى مع ماقبله فى أن كلا منهما يدين ويؤثِّم ويتوعد من يضيِّع الأمانة ولا يقوم بحقها .

ولما كانت المعصية والطاعة سببا وعلة للجزاء قال تعالى :(لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ. وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيماً) أى : أن الله – سبحانه– يعذب المنافقين الذين يعبدون الله بجوارحهم وقلوبهم غير مطمئنة بالإيمان، كما يعذب من يشرك بعبادة ربه أحدا سواه، ويتوب ويغفر الهفوات واللمم منالسيئات عن المؤمنين والمؤمنات تفضلا منهوجزاء انقيادهم وطاعتهم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » والله – جل شأنه – غفور لسيئات عباده رحيم بهم .

« سورة سبأ »

نزلت بمكة المكرمة وعدد آياتها أربع وخمسون ، ، وسميت بهذا الاسم لورود قصة سبأ فيها وهم قبائل كانت تسكن اليمن ، وسبأ : لقب أبيهم الذى يجمع قبائلهم عامة واسمه عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكانت بلقيس بنت شراحبيل ملكة عليهم وهى التى أنبأ الهدهد سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ نبأها[1] .

صلة هذه السورة بما قبلها :

١ ـ أن كلا من السورتين ورد فيه أمر الساعة ، ففى سورة الأحزاب يقول الله ـ تعالى : « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً » ويقول ـ تعالى ـ فى سورة سبأ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ) .

٢ ـ أنه قد جاء ذكر الضعفاء والذين استكبروا فى كل من السورتين : يقول ـ تعالى ـ فى سورة الأحزاب : « يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ، وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ » . الآيتان ٦٦ ، ٦٧ وفى سورة سبأ يقول الله تعالى : (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . .) الآيات[2] . إلى غير ذلك مما يربط بين السورتين .

اهم مقاصد السورة :

١ ـ تمجيد الله ـ تعالى ـ والثناء عليه فى الدنيا ، وتخصيصه بالحمد كله فى الآخرة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ » .

---

(١) ارجع إلى القصة فى سورة النمل . (٢) الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

٢ – إثبات أمر قيام الساعة ، وبيان إحاطة علم الله بمادق وعظم فى ملكوته وملكه : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) .

٣ – بيان ما أكرم الله به نبيه داود – عليه السلام – من أن الجبال والطير ترجِّع التسبيح مَعَه إذا سبح وأنه – تعالى – جعل له الحديد ليناً يعمل منه الدروع ، قال تعالى : (يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ) .

٤ – ذكر تسخير الريح لنبى الله سليمان – عليه السلام – تجرى بأمره، وأنه أذاب له النحاس يسيل كالماء ، وأن الجن كانت تعمل بين يديه ، بإذن ربه ، قال تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) .

٥ – بيان أن داود وآله طلب منهم أن يشكروا نعم الله عليهم (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) .

٦ – تسجيل ماكان لسبإ من نعيم وماكان فى مسكنهم من جنتين خيرهما كثير . وما من الله عليهم به من البركة والأمن بتقارب قراهم ، فلم يشكروا نعمة الله عليهم وأعرضوا فأرسل الله عليهم سيلا مدمرًا وبدلهم بجنتيهم جنتين ثمرهما قليل أورديء لاخير فيه ، وماكان من ظلمهم أنفسهم بأن طلبوا أن يباعد الله بين قراهم ليمشوا المسافات الطويلة فى الصحارى والقفار فجعل الله سيرتهم تروى للاتعاظ بها وتكون مثالا لكفر النعمة كما شتت شملهم ومزقهم كل ممزق .

٧ – تصوير مَشْهَد من مشاهد يوم القيامة وإبراز مايقع فيه من جدل وشقاق بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، وكل يلقى التبعة على الآخر ، توضح ذلك الآيات (٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

٨ – بيان أن المترفين وأولى النعمة هم فى كل أمة رأس الكفر والتكذيب ، حيث تفتنهم أموالهم وتغرهم أولادهم ، ويزهون ويتكبرون بجاههم ، ولكن الله بين لهم أن أموالهم وأولادهم لاتقربهم من ربهم ، ولا تنجيهم من عذابه . من الآيات ٣٤ ، إلى ٣٨

٩ - تسلية الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأنه ناصره على الكافرين وخاذلهم فإنه - سبحانه - قد شدد النكير والعذاب على من كان أشد منهم قوة وأكثر عددًا، قال تعالى: (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

ويختتم - جل شأنه - السورة بأنه إذا جاء يوم القيامة فلا نجاة لهؤلاء، وأنه لاينفعهم إيمانهم آنذاك، قال تعالى: (وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) ، ويحال بينهم وبين دخول الجنة ويكون شأنهم شأن من شابههم فى الكفر من الأمم الماضية ، قال تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾)

المفردات :

(يَلِجُ) : يدخل . (يَعْرُجُ) : يصعد .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) :

كل الثناء الحسن على الله مصدر الخير والإحسان ومالك كل الكائنات ، فطرها على

أبدع نظام ، وخلقها فى أحسن إحكام ،فهو – جل ثناؤه – يحمد فى الدنيا وهو الحقيق بذلك الحمد وإن كان يحمد فيها غيره ويشكر سواه ؛ فإن ذلك راجع إلى أن غيره يكون سبباً وطريقاً إلى وصول نعم الله وانتهائها إلى المنعم عليه بها ، فالمنعم فى الحقيقة هو الله ، أما فى الآخرة فهو المستحق للحمد وحده فقد قطعت الأسباب ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، وهو – سبحانه – مختص بالحمد لما أعده لعباده من نعيم مقيم ، وتفضل بعفوه عن بعض الخطائين المذنبين ، ولعدالته المطلقة مع خلقه أجمعين (وَهُوَ الْحَكِيمُ) الذى أتقن كل شىء صنعا ، وأحسن كل كائن خلقاً وإبداعاً (الْخَبِيرُ) ببواطن الأمور المحيط بكل شىء علماً .

٢ – (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) :

يدرك ويحيط بكل ما ينفذ إلى باطن الأرض من ماء يتخلل أجزاءها ، وجذور تتعمق فى جوفها ،كما يعلم ما يأوى إلى جوفها من هوام وحشرات ودواب ، وغير ذلك مما يخطئه العد والحساب وسبحانه يعلم مايخرج من بطنها إلى سطحها من نبات ومعادن ، وماء ونفط وغير ذلك مما يكون حياة وخيرًا كالرزق الحسن ،أوعذاباً مدمرًا كالبراكين والزلازل ، ويعلم – سبحانه – ما ينزل ويهبط علينا من أجواء الفضاء كالملائكة التى تتنزل بالرحمات والخير للطائعين المخبتين أو تنزل بالعذاب والنكال على الطاغين المجرمين ، ويعلم ما ينزل من الضوء والحرارة والأشعة والشهب والأمطار والثلوج ، ويعلم – جل شأنه – ما يصعد ويعرج فى السماء من كلم طيب وعمل حسن ، وملائكة تصعد بأعمالنا ، وغازات وبخار ، وصواريخ ومركبات وموجات لاسلكية ، وأضواء منعكسة من الأرض إلى غير ذلك مما يعلمه علام الغيوب .

وهو الكامل الرحمة الذى أمد الناس بنعمه الجليلة ، وهو – سبحانه – مع كامل رحمته واسع المغفرة . كما قال – سبحانه – : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1] وذلك للتائبين لقوله عقبها «وَأَنِيبُوٓا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ» .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بَلَى) : حرف جواب يأتى بعد النفى للإثبات .

(يَعْزُبُ) : يبعد أو يغيب .

(ذَرَّةٍ) : هباءة أو نملة صغيرة .

(مُعَاجِزِينَ) : ظانين تعجيز آيات الله .

(رِجْزٍ) : أسوأ عذاب .

التفسير

٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ):

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

وقال الكافرون : إن الساعة لا تأتيهم إنكارًا منهم قيامها ، وجحدًا لمجيئها فلما حدث منهم ذلك أمر الله - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقسم لهم بربه - جل علاه - أنها آتية فقال : (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) أى : سيقع ما تنفون ويحصل ما تنكرون ، ووصف - سبحانه - نفسه بأنه عالم الغيب كله ، وهذا أدخل فى إقامة الحجة عليهم إذ أن قيام الساعة من أدق الأمور الغيبية وأخفاها ، ثم أكد ذلك وعززه بأنه لايبعد ولا يغيب عنه ما مقداره وزن هباءة أو أصغر نملة كائنة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وهو مسطور مسجل فى كتاب واضح بين وهو اللوح المحفوظ ، وليقطع الله عليهم طريق اللجاجة والتكذيب أنذرهم بالجزاء على العمل ، فالله - سبحانه - بحكمته جعل لكل عمل جزاء فالمحسن يثاب كما قال تعالى :

٤ - (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

أى لتأتينكم الساعة ليثيب الله - سبحانه - من تمكن الإيمان فى قلوبهم فأثمر الأعمال الصالحة ، والأفعال المرضية ، لهم - دون غيرهم - غفران ماعسى أن يكون قد وقع منهم من هفوات - فهم بشر - ولهم مع هذه المغفرة العظيمة الواسعة الشاملة رزق واسع طيب حسن فى دار النعيم .

والمسىء يعاقب كما قال تعالى :

٥ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) :

أى أن : أولئك الذين يسعون بالإثارة والإنكار لآيات الله وقرآنه فينسبونه إلى السحر أو الشعر أو الكهانة أو يقولون عنه إنه أساطير الأولين ظانين إبطال آيات الله أو تعجيزها عن أن تصل إلى الناس فى نقائها وصفائها لتعمل عملها الطيب المبارك فى القلوب فتهديها إلى الحق والنور ، أو أنهم يعملون على تعجيز المؤمنين عن تكثير أتباعها هؤلاء لهم - دون سواهم - عذاب بالغ السوء فى إيلامه .

(وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾)

المفردات :

(أَفْتَرَىٰ) : أكذب واختلق . (جِنَّةٌ) : جنون .

(نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ) : نغيبهم فى بطنها .

(كِسَفاً) : جمع كسفة ؛ وهى القطعة .

(مُنِيبٍ) : راجع وتائب إلى الله – تعالى – .

التفسير

بعد أن بين الله – سبحانه – حال المكذبين لآياتنا ومآلهم عقب ذلك ببيان رأى أولى العلم فيما أنزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقال :

٦ – (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

المراد من الذين أوتوا العلم : أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين بعدهم سالكين طريقتهم ، أو هم أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله ، أو هم أولئك وهؤلاء جميعاً ، والمعنى : ويرى الذين أعطاهم الله علماً يقينيًّا تسامى فى الصدق وتمكن فى القلب - يرون الذى أنزل إليك من لدن حكيم عليم هو الصدق الخالص ، والحق الثابت الذى لامرية فيه ، أما ما يفعله المعاجزون فهو باطل وزيف لا غناء فيه ، وما أنزل إليك يهدى ويرشد كذلك إلى طريق وصراط الله العزيز الغالب الذى لا يغالب ، وهو الحميد الذى يحمد ويشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً فيجازيه الجزاء الحسن ، وفى هذا الأسلوب الحكيم تنبيه وإرشاد إلى الالتجاء إلى الله رهبة من انتقام العزيز ورغبة فى فضل وعطاء الحميد ، وتثبيت لقلب نبيه ، وبشارة له بأنه ناصر دينه وناشره وحافظه ، وخاذل أعدائه ومهلكهم .

٧ ، ٨ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) :

لما عجز الكفار فى أمر الساعة عن مقارعة الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان لجأوا إلى أسلوب العاجز وهو السخرية والسفه والإثارة ، فقال فريق منهم لفريق آخر - استهزاء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستبعادًا لأمر البعث - : هل ندلكم على رجل منكم يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب ، وأمر مستبعد غريب ، وهو أنكم إذا صرتم رفاتًا وترابًا ، ومزق الفناء أجسادكم كل ممزق ، وبدد البلى أجزاءكم كل تبديد - ينبئكم - أنكم تبعثون وتعودون خلقاً جديدًا سويًّا .

وإمعاناً منهم فى السخرية والاستهزاء تجاهلوا اسم رسول الله وأتوا به نكرة كأنه ليس معروفا لديهم .

ثم هم مع ذلك يتغافلون عن شأنه - وهو بينهم الصادق الأمين - فيقولون : أهو مفتر وكاذب فيما يدعيه على الله وينسبه إليه ، أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ؟ فيرد الله عليهم بقوله : (بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) إضراب عن الأمرين ودحض لهما جميعاً أى : ليس الأمر كما يفترى الكافرون ، فالرسول - عليه الصلاة والسلام -

لم يكن منه افتراء ولا كذب على الله ، ولا به جنون ولكن هؤلاء - بسبب إنكارهم للبعث - فى العذاب الشامل الذى ينتظرهم ، وفى الضلال والزيغ الذى عنهم وبعد بهم عن طريق الهداية ، ونأى وشط عن الصراط المستقيم .

٩ - (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) :

أى أعمى هؤلاء الكافرون فلم يبصروا وينظروا إلى ما يحيط بهم من بديع صنع الله فى سمائه وأرضه فإن فيها ما يدعو إلى تدبر المتدبرين ، وتفكير أولى الألباب والمستبصرين ، فضلا عن أنهم جميعاً لا يقدرون على أن يخرجوا أو ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، فهو - سبحانه - قاهر لهم وهم فى قبضته فإن شاء خسف بهم الأرض وغيبهم فى بطنها كما فعل بقارون ، قال تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] . أو يسقط وينزل عليهم قطعاً من السماء تهلكهم كصنيعه مع أصحاب الأيكة ، قال تعالى : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[2] » ثم يؤكد أن النظر فى السموات والأرض والتدبر فيها والاعتبار بما حصل للأمم السابقة علامة وأمارة وهداية لكل عبد راجع إلى ربه ملتجئ إلى مولاه ، متوكل عليه .

* (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَوِّبِى مَعَهُ) : رجّعى معه التسبيح ، من التأويب وهو الرجوع بعد الرجوع .

(أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) : طوّعناه له من غير نار ولا مطرقة .

(١) من الآية ٨١ من سورة القصص . (٢) الآية ١٨٩ من سورة الشعراء .

(سَابِغَاتٍ) : واسعات ضافيات .

(قَدِّرْ) : أَحْكِمْ أو اقتصد . (السَّرْدِ) : نسج الدروع .

التفسير

١٠ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ . . .) الآية :

أشارت الآيات السابقة على هذه الآيات إلى إنكار المشركين أمر البعث ، واستبعاد حصوله.فجاءت هذه الآيات تبرز قدرة الله-تعالى-فى معرض فضله على أنبيائه بمالايمكنهم إنكاره بعد أن فاضت به أخبارهم وأشعارهم . وفى ذكر ذلك بعد ذكر تكذيب المكذبين للنبي ﷺ ما يشير إلى صدق رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن إرساله لم يكن بدعاً ، بل كان مما جرت به سنة الله قبله فى الأرض من إرسال الرسل قبله وتأييدهم بالمعجزات . وإحلال العقاب بمن خالفهم .

والمعنى : ولقد آتينا وأعطينا داود من عندنا نعمة وإحسانا ، لحسن إنابته وصدق توبته بما منحناه من الملك ، وفصل الخطاب ، وغير ذلك ، وقوله تعالى : (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) تَفْصِيل لبعض الفضل الذى أعطاه الله إياه ، ومعناه : ياجبال رجعى معه التسبيح كلما سبح . روى أنه - عليه السلام- كان إذا سبح سبَّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يسمع منها ، ولا يعجز الله - جلت قدرته- أن يجعلها بحيث تسبح بصوت يسمع - وقد سبح الحصى فى كف رسولنا عليه الصلاة والسلام - وسمع تسبيحه ، فلا يبعد ما قيل : من أن الله - عز وجل - خلق فيها الفهم وناداها وأمرها بذلك كما ينادى أُولى الفهم ويأمرهم ، وأنها امتثلت ما أُمرت به . وقيل : المعنى ارجعى إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين ، واستخراج معدن وإنشاء طريق ، وقوله تعالى : (وَالطَّيْرَ) معناه : وسخرنا له الطير ؛ لأن إيتاءها إياه - عليه السلام- هو تسخيرها له ، وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره المذعنين لحكمه ، ما يشعر بأنه مَا مِنْ حيوان ولا جماد ، ولا صامت ولا ناطق ؛ إلا وهو منقاد إلى مشيئة الله - تعالى -

غير ممتنع على إرادته - سبحانه - وقوله تعالى : (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) معناه : طَوَّعناه ، وجعلناه فى يده ليناً يصنعه كيف شاء ، ويتصرف فيه بما يشاء .

١١ - (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى ألنا له الحديد وأمرناه أن اعمل منه سابغات ، ويحتمل أن تكون علة وغاية على معنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات .

وعن مقاتل أنه - عليه السلام - حين ملك على بنى إسرائيل كان يخرج متنكرًا فيسأَلُ النَّاسَ عن حاله ، فعرض له ملك فى صورة إنسان فسأله ، فقال : نعم العبد لولا خلة فيه ، فقال : وماهى ؟ قال : يُرْزَقُ من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده لتمّت فضائله ، فدعا الله - تعالى - أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه فعلمه صنعة الدروع ، وألان له الحديد ، فأثرى ، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين ، وكان يفرغ من الدرع فى بعض يوم أو بعض ليلة وثمنها ألف درهم ينفق بعضها على أهله ، وينفق الباقى فى مصالح المسلمين والصدقات .

كذا قيل ، ولعل الأقرب إلى الفهم أن داود - عليه السلام - كان يكره أن يرزق من بيت المال ، ويحب أن يأكل من عمل يده تورعاً ، فدعا الله أن يعلمه صنعة وييسرها له ليأكل من عمل يده فتم له ذلك وييسره الله له وكان أول من اتخذها .

وقوله تعالى : (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) معناه : وأحكم نسج الدرُوع وأتقن صنعتها بحيث تتناسب حلقها ولا تكون مضطربة قلقة ولا تكون غليظة فيشق حملها ولا خفيفة فيسهل كسرها ، وقيل : معنى قدِّر فى السرد : اقتصد فى نسج الدروع فلا تصرف وقتك كله فيه ، واعمل فيه بما يوفرلك القوت والإعاشة ، واصرف باقى وقتك فى عبادة الله وطاعته ، وهذا هو الأنسب بقوله تعالى : (وَاعْمَلُوا صَالِحاً) فإنه خطاب من الله - تعالى - لداود وآله وتكليف لهم بالعمل الصالح الذى يرضى الله تعالى ، ومع أن أهله لم يجر لهم ذكر

فإنهم يفهمون التزامًا من ذكره ، وأجاز بعضهم أن يكون المراد بالعمل الصالح إتقان عمل الدروع ، وحينئذ يكون الخطاب خاصًا ،ويحتمل أن يكون أمرًا عامًا بالعمل الصالح مطلقًا بما فى ذلك عمل الدروع .

وقوله تعالى : (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) معناه : إنى عالم بكل ما تفعلونه مُطَّلع عليه لا يخفى على شىء منه ، وهو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال متضمن للتحذير من مخالفته على وجه الترهيب والترغيب ، فإن من يعمل عملا للملك ، ويعلم أنه بمرأى منه وتحت عينه يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه حتى ينال رضاه ، ويَحْظَى بالأمن والأمان عنده .

(وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ) : بنصب الريح على معنى وأعطينا سليمان الريح ، وبالرفع على تقدير : ولسليمان الريحُ مسخرةٌ .

(غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) : جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك .

(وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) القطر : النحاس الذائب ، أى : أجرينا معدن النحاس سائلا كما ينبع الماء من العين .

(يَزِغْ) : يعدل ويخالف ما أمرناه به .

(مَحَارِيبَ) : جمع محراب . قيل : معناها قصور ، وقال المبرد : لا يسمى محراباً إلَّا ما يرتقى إليه بدرج – وقيل : المساكن والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال ، وقيل : المساجد .

(وَتَمَاثِيلَ) : جمع تمثال وهى الصور .

(جِفَانٍ) جمع جفنة : وهى ما يوضع فيها الطعام من أعظم القصاع وأكبرها ، ويليها فى الصغر القَصعة ، ويليها المِكْلة ، ويليها الصُّحَيفَة .

(كَالْجَوَابِ) : جمع جابية : وهى الحياض التى يُجْبى فيها الماءُ للإبل .

(قُدُور) جمع قدر وهى ما يطبخ فيه من فخار ونحوه على شكل مخصوص .

(رَاسِيَات) : ثابتات على الأثافى[1] لا تنزل عنها لعظمها .

التفسير

١٢ – (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) :

هذه الآية شروع فى تعداد ما من الله به على سليمان بعد بيان ما آتاه – عزَّ وجَلَّ – لداود عليهما السلام . والمعنى : وسخرنا لسليمان الريح ، وذللناها له تخضع لأمره ، وتتحرك على مقتضى إرادته كالمملوك المختص بالمالك يأمرها بما يريد ، ويسيطر عليها كما يشاءُ فهى مسخرة ومذعنة لأمره .

ومعنى (غدوها شهر ورواحها شهر) : جريها بالغداة – أول النهار – مسيرة شهر ، وجريها بالعشى – آخر النهار – مسيرة شهر ، فكانت تسير فى اليوم مسيرة شهرين للراكب أخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أنه قال فى الآية : كان سليمان –عليه السلام– يغدو من بيت المقدس فَيُقِيلُ باصطخر ثم يروح من اصطخر فيقيل بقلعة خراسان .

---

(١) الأثافى : ما يوضع عليه القدر من الحجارة ، ومفردها أثفية .

قال ابن الحاجب فى أماليه : إنما أعاد لفظ الشهر للإعلام بمقدار زمن الغدو وزمن الرواح ، والألفاظ التى تأتى مبينة للمقادير لايحسن فيها الإضمار ، ولم يقتصر على زمن الغدو ليقيس عليه زمن الرواح ؛ لأن الرياح كثيرًا ما تسكن ، أو تضعف حركتها بالعشى فدفع بالتنصيص على زمن الرواح توهم اختلاف الزمانين .

وإنما لم يقل : ومع سليمان الريح كما قال – فى داود – : ياجبال أوبى معه ، لأن حركتها بتسخير سليمان لها ، وسلطانه عليها بأمر ربها ، فتسير معه حيث شاء وهذا على خلاف تأويب الجبال ، فإنه كان تبعاً لتأويب داود – عليه السلام – ولم يكن مسلطاً عليها .

وقوله تعالى : (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) . معناه : وأجرينا له معدن النحاس بعد إذابته – كما ألنَّا الحديد لداود – فسال ونبع كما ينبع الماءُ من العين ، فلذلك سمى عين القطر باسم ماآل إليه ، وكانت الأعمال تتأتى به وهو بارد ، ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله :(وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ) أى : ومن الجن فريق يعمل بين يدى سليمان بإذن الله وأمره كما ينبىءُ عنه قوله تعالى : (وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا) أى : ومن يخرج من الجن عما أمرناهم به من طاعة سليمان والعمل بأوامره وإرشاداته (نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) : أى : نصله يوم القيامة ألوانًا من عذاب جهنم جزاءً وفاقًا لخروجه على أمرنا ، فالمقصود بالعذاب عذاب الآخرة ، وفى هذا دلالة على أن الجن مكلفون كالبشر .

وعن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون ، وهم شركاءُ فى الثواب والعقاب . ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولى الله – تعالى – ومن كان كافرًا فهو شيطان .

هذا وفى قوله تعالى :(بِإِذْنِ رَبِّهِ) بذكر لفظ الرب ، وقوله : عن أمرنا بالإضافة إلى الضمير لمحة لطيفة ؛ لأن لفظ الرب ينبىءُ عن الرحمة ، فناسب ذكره عند الإشارة إلى حفظ سليمان كما ناسب عند الإشارة إلى تعذيب الجن ذكر ضمير العظمة الموجب لزيادة الخوف .

١٣ ـ (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوٓا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) :

هذه الآية تفصيل لما يقوم به الجن من الأعمال لسليمان ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يشاء عمله من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات .

والمحاريب جمع محراب ، وهى قصور حصينة ، ومساكن شريفة ، ومنازل شاهقة سميت بذلك لأنه يحارب غيره لحمايتها ، وقيل : هى صدور المجالس.

قال المبرد : لا يسمى محراباً إلا ما يرتقى إليه بدرج ، وقيل : هى المساجد .

ويطلق المحراب أيضاً على المكان المعروف الذى يقف بحذائه الإمام ، وهو مما أحدث فى المساجد ولم يكن فى الصدر الأول ، ولذا كره الفقهاء الوقوف فى داخله .

وتماثيل : جمع تمثال . قال الزمخشرى : صور الملائكة والأنبياء والصالحين ، كانت تعمل فى المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام وغيرها ، ليراها الناس فيعبدوا مثل عبادتهم وكان اتخاذ الصور جائزاً فى شرعهم . كما قال الضحاك وأبو العالية .

وقد روى أنهم عملوا لسليمان ـ عليه السلام ـ أسدين فى أسفل كرسيه ، ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بجناحيهما والله أعلم بصحة ذلك . (وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ) جمع جفنة : وهى ما يوضع فيها الطعام مطلقاً وهى أعظم القصاع ، ويليها القصعة وهى ما تشبع العشرة ، ويليها الصفحة وهى ماتشبع الخمسة ، ويليها المئكلة وهى ما تشبع الاثنين والثلاثة ويليها الصحيفة ، وهى ما تشبع الواحد .

والجوابى جمع جابية : وهى الحياض الواسعة يجبى إليها الماء ، فهى مجبىٌّ إليها لاجابية ، ثم غلبت على إناء خاص كبير الحجم يملأ ماء .

(وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ) : جمع قدر ؛ وهو ما يطبخ فيه من فخار وغيره على شكل مخصوص ، وراسيات معناها ثابتات على الأثافى لا تنزل عنها لعظمها ، وصف القدور بثابتات بعد تشبيه الجفان بالجوابى يجمع إلى تحقيق التناسب حسن الاتساق ، كما أن تقديم الجفان وهى من أوانى الأكل على القدور مع أنها من أدوات الطبخ المقدم على الأكل يشير إلى أن هذه الأوانى معدة للطعام وأن السماط الذى كانت تستعمل فيه عظيماً .

وقوله تعالى : (اعْمَلُوٓا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا)معناه : اعملوا ياآل داود من الطاعات ، والأعمال الصالحات ماتؤدون به شكر الله على عظيم نعمه وجليل آلائه ، أو اشكروا ياآل داود شكرًا على هذه النعم .

روى ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لما قيل لهم : اعملوا آل داود شكرا لم يأت ساعة على القوم إلا ومنهم قائم يصلى. وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضيل أنه-عليه السلام- قال : يارب كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه : الآن شكرتنى حين علمت النعم منّى .

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) أى : وقليل من عبادى المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه ،قال ابن عباس فى تعريف الشكور : هو الذى يشكر على أحواله كلها ، وفى الكشاف : هو المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه ، وقد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعترافاً واعتقادًا وكدحاً ، وأكثر أوقاته ،وقيل : من يرى عجزه عن الشكر ؛ لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكرًا آخر لا إلى نهاية .

وقد نظم بعضهم هذا فقال :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... علىَّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمر
إذَا مس بالنعماء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وهذه الجملة فى ختام الآية يحتمل أن تكون من بقية خطاب آل داود داخلة فيه ، ويحتمل أن تكون جملة مستقلة جىء بها إخبارًا لنبينا-عليه الصلاة والسلام-تنبيهاً وتحريضاً على الشكر .

ومن بدائع التنزيل هذه المواءمة بين ما منَّ الله به على داود وما منَّ به على سليمان عليهما السلام ، فإن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء لداود وثلاثة أشياء لسليمان وناسب بينهما ، فالجبال المسخرة لداود يتاسبها الريح المسخرة لسليمان ، وتسخير الطير يناسب تسخير الجن ، وإلانة الحديد تناسب إسالة النحاس .وهكذا تتقارب النعم بينهما لتقوى الصلة بين الولد وأبيه .

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) : أو قعنا على سليمان الموت ، وحكمنا عليه به .

(دَآبَّةُ الْأَرْضِ) : هى الأَرَضة - بفتحات - وهى دُوَيْبة تأْكل الخشب ونحوه وتسمى سُرْفة ، كما تسمى سوس الخشب ، وإضافتها إلى الأَرْض من إضافتها إلى ما تحدثه وهو الأَرْض ، أَى : أَكل الخشب (مِنسَأَتَهُ) : عصاه ، سميت بذلك لأَنه ينسأُ ويطرد بها ، من نسأْت الكلب إذا طردته .

(خَرَّ) : سقط على الأَرض .

(تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ) : علِمَت ، من تبين الشىءُ إذا ظهر بعد التباس .

(مَالَبِثُوا فِى الْعَذَابِ) : ما مكثوا فيه وأَقاموا عليه .

(الْمُهِينِ) : البالغ الحد فى المهانة والذِّلَّة .

التفسير

١٤ - (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) : جرت هذه الآية على نمط القصص القرآنى من طى ما يعلم من أُسلوب القصة ويُفْهَمُه

سياقُهَا ، والمعنى :فلما تم لسليمان ما أنعم الله به عليه من نعم يسخرها فيما يشاءُ ويوجهها إلى إنجاز ما يريد ، فلما قضينا عليه الموت ، وأوقعناه وحكمنا به عليه ظلَّ أمر موته خفيا على الجن فَعَمِيَ عليهم بعض الوقت مادلهم عليه إلَّا دابة الأَرض.وهى الأَرَضَة أكلت عصاه التى كان متكئاً عليها جالسا على كرسيه [١] ، فسقطت وخرَّ سليمان ساقطاً على الأَرض بسقوطها .

روى أن داود ـ عليه السلام ـ أسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى .فتوفى قبل تمامه ، فوصّى به سليمان ـ عليهما السلام ـ فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه ،حتى إذا آن أجله وعلم به سأَل ربَّه أن يُعمّى عليهم موته ليفرغوا ، ولتبطل دعواهم علم الغيب ، فقام يصلى فى مصلاه متكئاً على عصاه ، فقبض روحه وهو متكىءٌ عليها فبقى كذلك ، وهم فيما أمروا به من الأَعمال ،حتى أكلت الأَرَضة عصاه فخرّ ميتاً ،وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه كلّما صلى .

(فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ) :

أى فلما سقط سليمان على الأَرض ميتا ، وظهر أَمر موته تبينت الجن وظهر من أمرها أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ـ كما يزعمون ـ لعلموا موته وقت حصوله ، فلم يلبثوا بعد موته فى الأَعمال الشاقة والعذاب البالغ الحد فى المهانة والذل ،والمراد بالجن فى قوله « تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ » جميع الجن ؛ كبراؤُهم وضعفاؤهم .

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾)

---

(١) انظر القرطبى ، فقد ذكر أنه اتكأ على عصاه على كرسيه حينما قام يصلى ، ومعنى قيامه للصلاة أداؤه لها ، من قولهم : قام بالأمر ، أى : أداه .

المفردات :

(سَبَإٍ) : قوم بلقيس ، وهو فى الأصل اسم لرجل هو سبأ بن يشجب بن قحطان ويجمع قبائل اليمن عامة ، ومن نسله عبد الله المنسوب إليه السبئية من غلاة الشيعة .

(مَسْكَنِهِمْ) : مواضع سكناهم وهي باليمن ، يقال لها مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

(آيَةٌ) : علامة واضحة دالة على وجود الصانع الحكيم .

(جَنَّتَانِ) : جماعتان من البساتين : جماعة عن يمين إقليمهم وجماعة عن شماله .

(الْعَرِمِ) : سد يعترض الوادى ، ويطلق أيضا على المطر الشديد ، والعرمُ : الصعب . من عَرِم الرجل فهو عارم : إذا شرس خلقه وصعب .

(وَبَدَّلْنَاهُمْ) : آتيناهم بدل جنتيهم بعد إهلاكهما (خَمْطٍ) : مُرٌّ بشع .

(أَثْلٍ) : شجر يشبه شجر الطرفاء لا ثمر له .

(سِدْرٍ) : هو شجر النبق .   (جَزَيْنَاهُمْ) : عاقبناهم .

(الْكَفُورَ) : المبالغ فى الكفر المتشبث به .

التفسير

١٥ - (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة بعض آلائه ونعمه على عباده المنيبين من أمثال داود وسليمان وما اختصهم به من فضل ، وأسبغ عليهم من خير لقاء شكرهم ، وجزاء امتثالهم وطاعتهم ، عرض فى هذه الآية طرفاً من قصة سبأ المنكرين للنعم ، المعرضين عن الطاعة موعظةً لقريش وتحذيرًا من كفرانهم النعم وإعراضهم عنها .

وسبأ بن يشجب ويسمى أيضاً عبد شمس وهو أول ملوك اليمن فى قول . ولقب بهذا اللقب لأنه أول من سبي السبي من ولد قحطان ، وفى بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله : أخبرنى عن سبإٍ . أرَجُلٌ هو أم

امرأة ؟ فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة : تيامن[١] منهم ستة وتشاءم[٢] منهم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد . وكندة وحمير ومذحج . والأشعريون وأنمار ومنهم بجيلة . وأما الذين تشاءموا : فعاملة ، وغسان ، ولخم ، وجذام .

والمعنى : لقد كان لشعب سبأ فى مساكنهم التى يسكنونها وقصورهم ووديانهم التى يعيشون فيها ويعمرونها آية واضحة وعلامة دالة بملاحظة سوابقها ولواحقها على وجود الصانع المختار ، والحكيم القادر على ما يشاء ، هذه الآية هى جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله . وكل بستان من هاتين الجماعتين يجمع ألواناً شتى من الأشجار والثمار ، وهذه البساتين ترى فى تقاربها وتضامها كأنها جماعة واحدة . والمقصود أن مساكنهم من العظمة ، والترف والنعيم بحيث تحفها الأشجار وتحيط بها الثمار من جميع الأنواع والأشكال عن يمين وشمال ،وهم ينعمون بها ،وينطلقون فى أكل ثمارها الموفورة ، روى أن المرأة كانت تخرج وعلى رأسها المكتل وتسير بين الأشجار فيمتلئ المكتل ممايتساقط من الثمار

فهذا قوله تعالى : (كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ) أى : كأنها تناديهم بلسان الحال ، وتدعوهم للأكل منها ، والشكر عليها . وقيل : هو على تقدير القول أى : قال لهم نبيهم ، « كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ » .

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) : استئناف يرشد إلى مقتضيات الشكر وموجبات الحمد أى : هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة بخيراتها الوفيرة وخصبها الجيد، وربكم الذى رزقكم هذه الأرزاق الواسعة ، وأفاء عليكم بهذه النعم وطلب شكركم رب غَفُورٌ واسع المغفرة لفرطات من يشكره .

١٦ ـ (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) :

المعنى : فتولوا وأعرضوا عن شكر الله تعالى ، وعن الإيمان به مع هذه الآيات الداعية إليه ، وهذه النعم المستوجبة له .

---

(١) اتجهوا جهة اليمن .

(٢) اتجهوا نحو الشام .

فأرسل عليهم سيل المطر الشديد ، فاجتاح السد الذى كان ينظم الرىّ فى البلاد .

وقوله تعالى : (وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ) معناه : عاقبناهم على إعراضهم وكفرهم وتكذيبهم نبيهم فأذهبنا جنتيهم ، وأبدلناهم بهما جنتين ذواتى ثمر خمط مُرٍّ لا يستسيغه أحد ، يجمع بين المرارة والحموضة ، وشجر آخر لا ثمر له يشبه شجر الطرفاء إلا أنه أكبر منه وهو الأثل ، وشىء قليل من شجر السدر وهو المعروف بالنبق .

وهذا النوع ينتفع به وله شأن عند العرب ، ولكنه كان قليلا عقابا لهم ، ولو أطلق لكان نعمة لانقمة . وقال الأزهرى : السدر سدران : سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغَسُول ، وله ثمرة عَفْصة لا تؤكل – وهو الذى يسمىّ الضال – وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غَسُول يشبه العُنّاب .

قال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيره الله شر الشجر بأعمالهم ، وتسمية البدل بجنتين للمشاكلة والتهكم .

ولفظ (قليل) إما أن يكون وصفاً لسدر كما تقدم ، وإما أن يكون وصفاً للثلاثة « خمط وأثل وشىء من سدر قليل » .

١٧ – (ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِىٓ إِلَّا الْكَفُورَ) أى : ذلك العقاب الذى ألحقناه بهم من التبديل بجنتيهم الوارقتين المثمرتين جنتين خبيثتين ذواتى أُكل خمط مرٍّ وأثل لا ثمر له وشىء من سدر قليل لا يغنى ، أولا ينتفع به – ذلك العقاب عاقبناهم به بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان وعن شكر النعم ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى مصدر الفعل (جزيناهم) أى جزيناهم ذلك الجزاء ، وتقديم لفظ (ذلك) وهو مفعول على الفعل العامل فيه وهو جزى من « جَزَيْنَاهُمْ » للتعظيم والتهويل ، أو للتخصيص على معنى : ذلك الجزاء الفظيع جزيناهمْ لاجزاءً آخر ، وما نجازى مثل هذا الجزاء ولانعاقب هذا العقاب الشديد المستأصل إلا المبالغ فى الكفر المصر عليه .

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) : هى الشام ، جعلناها مباركة بكثرة أشجارها ووفرة ثمارها ، والتوسعة على أهلها .

(قُرًى ظَاهِرَةً) : متواصلة يقرب بعضها من بعض ، أو ظاهرة مرتفعة على الآكام والمرتفعات وهى أشرف القرى ، أو مقامة على الطريق معروفة يسهل سير السابلة إليها .

(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) :جعلنا المسافات بينها مقدرة على أبعاد قريبة بحيث يسهل التنقل بينها .

(بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) : اجعل المسافات والأبعاد بيننا وبين القرى المباركة طويلة ممتدة لتطول أسفارنا إليها .

(أَحَادِيثَ) : جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

(مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) : فرقناهم كل تفريق ، وشتتناهم شر تشتيت .

التفسير

١٨ - (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) :

هذه الآية عود إلى ذكر ما أوتى قوم سبأ من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، بعد ذكر ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ومنازل إقامتهم ، ولم تذكر هذه النعم مع النعم التى قبلها

مباشرة لما فى المعاودة والتثنية من إثارة الانتباه ، وتجديد التذكير ، فيكون أوقع فى الأسماع وأقوى فى التأثير والزجر .

والمعنى : وجعلنا بين مساكن أهل سبأ وبين قرى الشام التى باركنا فيها بكثرة أشجارها ، ووفرة ثمارها وخيراتها ومياهها ، والتوسعة على أهلها- جعلنا بينهم - قرى أخرى كثيرة ظاهرة متواصلة بحيث يظهر لمن فى بعضها ما أمامه من الأخرى ، أو جعلناها مرتفعة على الآكام على العادة فى بناء القرى المنيعة الشريفة ، أو أقمنا أوضاعها على الطريق ليسهل توصل السابلة إليها(وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ) فجعلنا الأبعاد بين كل قرية وأخرى على مقدار معين لا يشق على المسافر قطعه ، ولا يطول وقته .

قيل : من سافر من قرية صباحاً وصل إلى الأخرى وقت الظهر والقيلولة ، ومن سار من قرية بعد الظهر وصل إلى أخرى بعد الغروب إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعاً ولا عطشا ولا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدوّ ونحوه ، وقوله تعالى : (سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) على إرادة القول ، بمعنى أبحناها وقلنا لهم : سيروا فيها ، وهذا القول إما بلسان أنبيائهم ، أى قال أنبياؤهم ومرشدوهم سيروا فيها حيث شئتم ، وكيف شئتم ليالى وأياماً آمنين لا تحسُّون مشقة ولا تستشعرون جوعاً ولا عطشاً ولا ترهبون عدوا ، وإما بلسان الحال . أى : يسرنا لهم السير وسهلنا أسبابه فاندفعوا فيه كأنهم مأمورون به . وعلى أى تقدير فالمعنى : سيروا فيها آمنين مطمئنين وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت أياماً وليالى كثيرة ، وتقديم الليل على النهار لأن الليل مظنة الخوف من المغتالين وقطاع السبيل .

١٩ - (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ...) الآية :

المعنى : بطروا النعمة وسئموا من طيب العيش ولم يعرفوا قيمته وملوا العافية ، وطلبوا الكدَّ والتعب فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا فاجعلها مسافات بعيدة . بحيث نسير إليها على نجائبنا ، ونفاخر بدوابنا ونربح فى تجارتنا ، وظلموا أنفسهم بما قالوا وما طلبوا وكانوا كبنى إسرائيل الذين ملُّوا المنَّ والسلوى ، وآثروا الذى هو أدنى ، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى ، وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب ، كما يفهم

من قوله تعالى : (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ) أى : ألحقنا بهم الخراب والدمار فجعلناهم بحيث يتحدث الناس عن أخبارهم حديث التلهى والاستغراب ، ويضربون بهم الأمثال فيقولون : ذهبوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل تفريق وشر تمزيق حيث لحق غسان بالشام ، وأنمار بيثرب ، وجذام بتهامة ، والأزد بعمان إلى غير ذلك . (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى : إن فى ذلك الذى ذكر من قصتهم ، واختلاف أحوالهم وتقلب الأيام بهم لعظات واضحة و آيات شاهدة لكل من راض نفسه على الصبر وغالب الشهوات وصبر على الطاعات ، وقدر نعم الله ، وقابلها بالمزيد من الشكر والوفير من الحمد ليستديمها ويستزيدها تصديقاً لقوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[1] » .

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) : حقق فيهم ظنه ووجده صادقاً .

(سُلْطَانٍ) : تسلط ، واستيلاء . (حَفِيظٌ) : محافظ .

التفسير

٢٠ ـ (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى واستجابتهم لوسوسة إبليس ، وتنكبهم السبيل السوى ، أخبر عنهم فقال : (وَلَقَدْ صَدَّقَ

(١) آية ٧ من سورة إبراهيم .

عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) أى : حقق عليهم ظنه ووجده صادقاً ، وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهما كهم فى الشهوات و كفران النعم ، أو ظنه ببنى آدم حين شاهد - آدم عليه السلام - أصغى إلى وسوسته ، وقال : إن ذريته أضعف منه عزماً ، والرأى الأول أقرب لاتصاله بقصة سبأ ، وقوله : « فَاتَّبَعُوه » أى : فاتبعه أهل سبأ . ومعنى (إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : إلا فريقاً قليلا هم المؤمنون لم يتبعوه ولم يتأثروا بوسوسته ، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار فإن المؤمنين قليل بالنسبة لكثرتهم ، .

٢١ - (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) :

أى : وماكان لإبليس على هؤلاء الغاوين من تسلط وقدرة على الاستيلاء عليهم بالوسوسة إلا ليظهر ما علمناه أزلا فى شأنهم ؛ مَنْ يؤمن بالآخرة ويصدق بالحساب والجزاء يوم القيامة بحسن اختياره ، ممن هو من هذا فى ريب بسوء اختياره .

قال الحسن : والله ما ضربهم بعصى ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله تعالى : (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) معناه : وربك على كل شىء وكيل قائم على أحواله وشئونه ، فلهذا لا يفوته العلم بمن يؤمن بالآخرة ممن هو فى شك منها .

و (حفيظ) إما مبالغة فى حافظ أو بمعنى محافظ .

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(زَعَمْتُمْ) : ظننتم وقلتم إنهم آلهة .

(مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) : وزن ذرة وقدرها .

(ظَهِيرٍ) : معين .

(فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) :أزيل الخوف عن قلوبهم ،يقال : فُزِّع عنه إذا أُزيل الخوف عنه ،مثل قولهم :قَرَّدْتُ البعير إذا أُزلت قراده ،والفزع :انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف.

التفسير

٢٢ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) :

لما بين الله -تعالى- حال الشاكرين ونعمه عليهم ،وحال المشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ المعروفة فى أخبارهم وأشعارهم ، عاد إلى خطابهم وقال لرسوله- صلى الله عليه وسلم- : قل- يارسول الله- لهؤلاء المشركين تنبيهاً على بطلان ماهم عليه ، وتبكيتاً لهم : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله فيما يهمكم من جلب نفع أودفع ضرر لعلهم يستجيبون لكم إن صحت دعواكم . ولم يمهلهم ليجيبوا بل قال- سبحانه-:(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » إشعاراً بتعينه جواباً ، فإنه لا يقبل المكابرة ، وهو متضمن حال آلهتهم فى الواقع ، وأنهم إذا كانوا من العجز والعوز لا يملكون وزن ذرة فى السمٰوات ولا فى الأرض من خير أو شر ولا يستطيعون جلب نفع ولا دفع ضرّ . فكيف يكونون آلهة تُعْبَدُ؟ وذكر السمٰوات والأرض للتعميم عرفاً فيراد جميع الموجودات . كما يقال : صباحاً ومساءً لجميع الأوقات وشرقاً وغرباً لجميع الجهات ، والمراد نفى قدرتهم على شىء من النفع أو الضر أو الإيجاد أو الإعدام ، وقوله تعالى :(وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ، وَمَالَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ) معناه : ومالآلهتهم آية شركة فى السمٰوات والأرض ، لاخلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ، وما لله جلّت قدرته من هؤلاء الآلهة من ظهير ولا معين يعينه فى تدبير أمر من أمورهما .

٢٣ - (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) :

هذه الآية : استمرار فى تسفيه آلهتهم ، واستقصاء لقطع كل ما يمكن أن يرجى منهم أو ينتظر من نفعهم .

والمعنى : لا توجد الشفاعة رأساً ، ولا تتأتى أصلا عند الله - تعالى - فى حال من الأحوال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين للشفاعة المستحقين لها فقد قال تعالى : « لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » وعدم الإذن للأصنام بالشفاعة واضح ، فلا مجال لنجاة عابديهم .

ويمكن أن يكون المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمشفوع أذن الله لشفيعه بشأنه ، فلفظ (مَنْ) فى قوله تعالى : « إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » واقع على الشفيع فى المعنى الأول وعلى المشفوع له فى المعنى الثانى ، وحاصل المعنى عليه : أن الشفاعة لا تنفع من الشفعاء المستأهلين إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة ، وهم المقصرون من أهل الإيمان ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص ، ومن شفاعة الأصنام بدلالته ، إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها فى الجملة ، فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المراد بنفى نفع الشفاعة نفيها رأسا ، وإنما علق النفى بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفى ماهو غرضهم من وقوعها .

وقوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) معناه : حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير الرضا بالشفاعة من الله ذى الجلال والإكرام ، قال المشفوع لهم المتلهفون على الإذن بالشفاعة المهتمون بأمرها ، قالوا للشفعاء : ماذا قال ربكم فى شأن الإذن بالشفاعة ؟ قال الشفعاء :

قال ربنا القول الحق حيث أذن بالشفاعة للمستحقين لها ، وهو المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وهذه الجملة وهى : (الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) من تمام الكلام الجارى على ألسنة الشفعاء ، قالوها اعترافاً بغاية عظمة الله وقصور شأن كل من سواه .

وقال القرطبى فى معنى الآية : إنه إذا أذن للشفعاء فى الشفاعة ، وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سرى عنهم قالوا للملائكة فوقهم - وهم الذين يوردون عليهم الوحى بالإذن - :(مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) أى : ماذا أمر الله به . (قَالُوا الْحَقَّ) : وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) : فله أن يحكم فى عباده بما يريد .

* (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَاتِ) : بالمطر وغيره .

(وَالْأَرْضِ) : بالنبات وسواه .

(قُلِ اللَّهُ) أى : قل إجابة عنهم إن لم يقولوه ، إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً .

(وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ) أى : وإنَّ أَحَدَ الفريقين منا ومنكم .

(لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : لَمُحِقٌّ متمكن من الحق ، أو مبطل منغمس فى الضلال الواضح .

(أَجْرَمْنَا) : أذنبنا . (تَعْمَلُونَ) : من الكفر والمعاصى .

(يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا) : يوم القيامة عند الحشر والحساب .

(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) : ثم يحكم ويفصل بيننا بالعدل .

(الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) : الحاكم الفيصل ، العليم بما ينبغى أن يقضى به .

(أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ) : أعلمونى هذه الآلهة التى جعلتموها أندادًا لله فى العبادة .

(كَلَّا) : ردع لهم عن اعتقاد شريك.

(الْعَزِيزُ) : الغالب على أمره . (الْحَكِيمُ) : فى تدبيره وتصريفه لخلقه .

التفسير

٢٤ – (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

لما ذكر الله أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض بقوله : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ »[1] أمر – سبحانه وتعالى – نبيه ﷺ بأن يقرر المشركين بقوله : (مَن يَرْزُقُكُمْ) ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله :(قُلِ اللهُ) أى : الله يرزقكم ، وذلك للإشعار بأنهم مقرون بقلوبهم إلَّا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك قد ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، ولأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال : فما بالكم لا تعبدون من يرزقكم ؟ وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟ وقد كانوا يقرون بألسنتهم مرة ، ويتلعثمون مرة ، عنادًا وإصرارًا وحذرا أن تلزمهم الحجة ، ونحوه قوله – عز وجل – : « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا »[2] :

أى : قل – أيها الرسول – لهؤلاء المشركين إلزاما لهم : من يرزقكم من السموات والأرض ، فينزل لكم الأمطار ويسوق لكم الأرزاق زرعاً نضيرًا ، وثمرًا وفيرًا ، وغير ذلك من سائر الأرزاق ظاهرها وباطنها ، وقل لهم بعد الإلزام والإفحام :(وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : وإن أحد الفريقين منا معاشر الموحدين ، ومنكم أيها المشركون لمتصف بأحد الأمرين : الاستقرار على الهدى ، والتمكن من الحق ، أو الانغماس فى الضلال البيِّن الواضح .

وهذا من الكلام المنصف الذى يقول كل من سمعه موافقاً أو مخالفاً – يقول – لمن خوطب به : لقد أنصفك صاحبك .

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٢٢

(٢) سورة الرعد ، من الآية : ١٦

وفى ذكره بعد ما تقدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو فى الضلال المبين ؛ لأن التعريض والتورية أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض وغلبة الخصم ، فكأنه قال لهم : أنتم الضالون حين أشركتم بالذى يرزقكم من السموات والأرض ، ونحوه قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، ومثله قول حسان ـ شاعر رسول الله ـ يخاطب أبا سفيان بن حرب ، وكان قد هجا النبي قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الحق والضلال للدلالة على استعلاء صاحب الهدى ، وتمكنه واطلاعه على ما يريد ، كالواقف على مكان عال أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء ، بخلاف صاحب الضلال فهو منغمس فيه ، حتى كأنه فى مهواة موحشة لا يدرى أين يتوجه .

٢٥ ـ (قُل لَّا تُسْئَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

المعنى : قل لهم ـ أيها الرسول ـ : لا تُسألون عما اقترفنا من آثام ، وارتكبنا من ذنوب ، ولا نُسأل عما تعملون من شرور ومعاصٍ وكبائرَ ، وهذا أدخل فى الإنصاف وأبلغ فيه ؛ حيث عبر عن الهفوات التى لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن الكبائر ، وأسند إلى المؤمنين فقيل : (لَاتُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا) وعن الكبائر من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات ، وأسند إلى المخاطبين ، فقيل : (وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

وذكر ابن كثير أن معنى الآية : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله ـ تعالى ـ وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال ـ تعالى ـ : « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] .

---

(١) سورة يونس الآية : ٤١

٢٦ - (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) :

قل لهم - أيها النبى ، بعد أن تبين الحق من الباطل - قل لهم : يجمع بيننا ربنا يوم القيامة عند الحشر والحساب، ثم يقضى بيننا بالحقّ ، ويفصل بالعدل ، فيدخل المحقين الجنة ، والمبطلين النار ، وهو القاضى الواسع العليم ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنُّصرة والسعادة الأبدية .

٢٧ - (قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ ...) الآية :

استفسار عن شبهتهم بعد إلزامهم بالحجة ، زيادة فى تبكيتهم ، والمراد : قل لهم : أعلمونى بالحجة والدليل فى أى شىء كانت الشركة ؟ هل شاركت الأصنام فى خلق شىء ؟ فبينوا ما هو وإلا فَلِمَ تعبدونها ؟

وقيل : (رأى) بَصَرِيَّةٌ ، والمراد : أرونيهم لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله - عز وجل - الذى ليس كمثله شىء فى استحقاق العبادة ، والغرض إظهار خطئهم العظيم .

وقال بعض الأجِلَّة : لم يُرِدْ من « أرونى » حقيقته ؛ لأنه ﷺ كان يرى معبوداتهم ويعلمها ، فهو تمثيل ، والمعنى : ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون - وهو خشب وحجر - تمت فضيحتكم وهذا كما تقول للرجل الخسيس الأصل : أرنى أباك الذى فاخرت به فلاناً الشريف ، ولا تريد حقيقة الرؤية وإنما تريد تبكيته وتحقيره .

(كَلَّا) : ردع لهم عن زعم الشركة ومذهبهم فيه ، أى : ليس الأمر كما زعمتم فليس له نظير ولا شريك ولا نديد ولاعديل ، وقد نبه على فحش غلطهم وأنهم لم يقدروا الله حق قدره بقوله :

(بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى : بل هو الله الموصوف بالغلبة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، فأين شركاؤكم - التى هى أخس الأشياء وأذلها - من صاحب هذه الرتبة العالية ؟ !

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً) أى : إلَّا إرسالة عامة للناس جميعا ، من الكف ، فإنها إذا عمتهم فقد كفَّتهم أن يخرج منها أحد ، قال الزجاج : أرسلناك جامعاً للناس فى الإبلاغ « فهى حال من الكاف ، والتاء للمبالغة » .

(الْوَعْدُ) المراد بالوعد : اليوم الموعود للجزاء .

(مِيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) أى : لكم ميعاد يوم مؤجل محدد إذا جاء لا يؤخر ساعة ولايقدَّم .

التفسير

٢٨ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

يقول الله - تعالى - لعبده ورسوله محمد ﷺ : وما أرسلناك إلا جامعاً للمكلفين من الناس ، مبشرًا من أطاعك بالجنة ، ومنذرًا من عصاك بالنار ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون صدقك فى دعوتك ، وعموم رسالتك للناس جميعاً فى شتَّى أنحاء الأَرض ، فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الْغَيِّ والضلال .

ومثل هذه الآية فى عموم دعوته قوله - تعالى - : « إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »[1] .

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٨

وقوله - جل شأنه - : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا »[1] .

ومثل ذلك ما ورد فى الصحيحين مرفوعاً عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ا هـ : ابن كثير ، وفى الصحيح - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم ، والكل صحيح ، وقال محمد بن كعب فى قوله - تعالى - : (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ) يعنى إلى الناس عامة .

واعلم أن رسالته ﷺ إلى الجن ثابتة فى مواضع أُخَرَ وبخاصة فى سورة الجن ، وسيأتى الحديث عن ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالى .

٢٩ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط جهلهم وعظيم غيِّهم استبعادًا لقيام الساعة ، واستهزاء باليوم الموعود للجزاء ثواباً أو عقاباً - يقولون - متى هذا اليوم الموعود بالجزاء الأخروى ، إن كنتم صادقين فى وعدكم به فأخبرونا ، قالوا هذا مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به ، والمراد بصيغة المضارع (يقولون) الاستمرار التجددى ، وقيل : عبر بها استحضارا للصورة الماضية لغرابتها ، والأصل : (قالوا) .

٣٠ - (قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) :

أى : قل لهم - أيها النبى - : لكم ميعاد يوم عظيم محدد فإذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يقدم ، ولما كان سؤالهم عن الوقت إنكارا وتعنتا لا استرشادا جاء الجواب على طريق التهديد مطابقاً لمجىء السؤال ، وهو أنهم مرصودون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه ولا تقدما عليه ، وهو يوم القيامة الذى ستبين الآيات التالية أحوالهم فيه .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ١

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المشركون من أهل مكة .

(بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :بالذى تقدمه من الكتب السماوية : كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث .

(الظَّالِمُونَ) : المنكرون للبعث ، ظلموا أنفسهم بكفرهم به .

(مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ) : محبوسون فى موقف الحساب .

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) : يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب .

(الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) : فى الدنيا من الكافرين وهم الأتباع .

(الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : الرؤساء والقادة .

(لَوْلَآ أَنتُمْ) : لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان .

(لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : باتباع الرسول .

(أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ) : استفهام بمعنى الإنكار ، أنكروا أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الإيمان وردوهم عنه .

(بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) : آثمين بإصراركم على الكفر .

(بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : بل صدَّنا مكركم بنا وخداعكم لنا فى الليل والنهار ، والمكر فى لسان العرب : الاحتيال والخديعة .

(أَندَادًا) : شركاء ونظراء فى العبادة ، جمع نِدٌّ ، وهو الشريك والمثيل ، يقال : فلان نِدٌّ فلان ، أى : مثله .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : أضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والإضلال ، وأخفاها كل عن الآخر حين عاينوا العذاب أو أظهروها ، فإنّ (أسرَّ) من الأضداد .

(الْأَغْلَالَ) : جمع غُل ، وهو القيد يوضع فى العنق ، وقد نطلق الأغلال على السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم .

التفسير

٣١ ـ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) :

يخبر الله - تعالى- عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالنبي وبالقرآن ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، وعدم الإيمان بالذى سبقه من كتب الله التى نزلت على الأنبياء السابقين تتحدث عن عبادته وحده ، وعن المعاد والثواب والعقاب ، يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ فى كتبهم ، فأغضبهم ذلك وقرنوا بالقرآن جميع ما تقدمه من كتب الله - عز وجل - فكفروا بها جميعاً .

وقيل : الذى بين يديه هو يوم القيامة ، أى : أنهم كفروا بالقرآن وبما جاء به من البعث والجزاء ، ثم أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم فى الآخرة فقال لرسوله ، أو لكل مخاطب : ولوترى فى الآخرة مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجّهم وهم يتحاورون ويتراجعون القول بينهم باللوم والعتاب ، بعد أن كانوا فى الدنيا أخلاء متناصرين ، وجواب (لو) مقدر ، أى : لرأيت أمرًا هائلا فظيعاً مخيفاً ، ثم ذكر ما يرجعونه من القول فقال : (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) : استئناف لبيان تلك المحاورة ، أى : يقول المستضعفون من الأتباع للمستكبرين من الرؤساء والقادة الذين اتبعوهم فى الغى والضلال : لولا أنتم صددتمونا عن الهدى ومنعتمونا من الإيمان ، وحُلْتُم بيننا وبين الحق لكنا اتبعنا الرسول ، وآمنا بما جاء به فنجونا من العقاب .

٣٢ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) :

استئناف بيانى ، كأنه قيل : فماذا قال الذين استكبروا حين اعترض عليهم الأتباع ووبخوهم ؟ فقيل من جهتهم : أنحن صددناكم عن الهدى ... إلخ ، أى : لسنا نحن الذين حُلْنا بينكم وبين الإيمان وصددناكم عنه ، ومنعناكم منه بعد إذ صممتم على الدخول فيه وصحت نياتكم فى اختياره ، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها ، وآثرتم الضلال على الهدى ، وأطعتم آمِرَ الهوى دون آمِرِ الهُدى ، فكنتم مجرمين مشركين مصرين على الكفر باختياركم لا لقولنا وتسويلنا ، ونحن ما فعلنا بكم أكثر من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل

ولابرهان ، وخالفتم باختياركم الأدلة والبراهين التى جاءت بها الرسل .

٣٣ ـ (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَٰقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

لما أنكر المستكبرون بقولهم : (أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ . . .) إلخ أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وردوا عليهم بقولهم: « بَلْ أَنتُم مُّجْرِمُونَ » يريدون أن ذلك بكسبهم واختيارهم ـ لما أنكروا وقالوا ذلك ـ رد عليهم المستضعفون بقولهم : (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ) : كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهتكم ؛ لأن الذى صدنا عن الهدى وصرفنا عن الحق خديعتكم ووسوستكم لنا فى الليل والنهار ، واحتيالكم علينا حين كنتم تطلبون منا أن نـكفر بالله ونجعل له شركاء ونظراء فى العبادة ، وزينتم لنا الشرك وحسنتم لنا الكفر وخدعتمونا بأننا على هدى ، فإذا جميع ذلك خـداع وكذب وباطل . (وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى : وأضمر الظالمون من الفريقين : ـ المستكبرين والمستضعفين ـ الندامة على ما كان منهم فى الدنيا من الضلال والإضلال فى جانب المستكبرين ، ومن الضلال والانقياد إلى المضلين فى جانب المستضعفين حينما رأوا العذاب وشاهدوه ؛ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق ، واشتغلوا عن إظهار الندامة بهول العذاب ، أو لأنهم علموا أن لافائدة من إظهارها ، وقال الزمخشرى وغيره : أسروا الندامة بمعنى أظهروها ، فإن (أَسَرَّ) من الأضداد ؛ إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب ، فمعنى أسرَّهُ : جعله سرا ، أو : أزال سره ، « وَجَعَلْنَا الْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى : وجعلنا السلاسل التى تجمع أيدى الكفار فى أعناق الكافرين ، والمراد بالكفار : المتكبرون والمستضعفون جميعاً ، والأصل (فى أعناقهم) إلا أنه أظهر كفرهم للتنويه بذمهم ، والتنبيه على موجب تلك الأغلال . (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى : ما يستحق هؤلاء جميعاً إلا جزاء ما كانوا يعملون من الشرور والآثام فى الدنيا .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(مُتْرَفُوهَا) : أصحاب النعمة والرياسة . (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) لا نؤمن به ولا نتبعه (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : قالوا ذلك لاعتقادهم أن الله أكرمهم فى الدنيا فلا يُهينهم فى الآخرة ، أو لإنكارهم عذاب الآخرة . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسِّعه امتحاناً . (وَيَقْدِرُ) يُضيِّقه ابتلاءً . (زُلْفَىٰ) الزلفى ، والزلفة : القربة ، وهى كالقربى (جَزَآءُ الضِّعْفِ) : الثواب المضاعف ، والضِّعْفُ : الزيادة . (وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ) غرفات الجنة : منازلها العالية .

التفسير

٣٤ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ) :

هذه الآية مسوقة لتسلية رسول الله عما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه وكفرهم به وتكذيبهم وعداوتهم له - عليه السلام - وليتأسى بما حدث لمن قبله من المرسلين حيث كذبهم المترفون .

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية من القرى رسولا يدعو أهلها إلى الحق ، ويأمرهم بالإيمان

ويخوفهم عاقبة المخالفة والخروج على أوامر الله إلا قال مترفوها : (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) أى : إنا بما جئتم به من التوحيد وغيره مكذبون لا نؤمن به ولا نتبعه ، وإنما كان التكذيب طبيعة المترفين وديدنهم لما شغلوا به من زخرف الدنيا وبهجتها ، وما غلب على قلوبهم منها ، فهم منهمكون فى الشهوات ، ولأن الأديان جميعها جاءت تقرر حقوق الإنسان من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية وهذه كلها أمور ليست فى مصلحتهم ، كما أن الأنبياء جاءوا بمناهج من السماء ، فيها أوامر ونواه ، واتِّبَاعُ الأنبياء ، والإيمانُ بدعوتهم يتطلب فعل الأوامر واجتناب النواهى ، وهذا يَشُقُّ على المترفين أولِى النعمةِ والثروة والرياسة وأصحاب الرفاهية ، ولهذه الحقيقة كان على رأس المكذبين لدعوات المرسلين ومناهجِ السماء المترفون الغارقون فى الملاهى والشهوات من الرؤساء والجبابرة .

أما الفقراءُ فإن قلوبهم – لخلوها من ذلك – أقبلُ للخير ، ولأن رسالات الأنبياء تحررهم من الأغلال وذل الإسار لكبرائهم ، وتقرر لهم حقوقهم ، وتحقق لهم مطالبهم – لهذا كله – كانوا أشد الناس حُبًّا لها وإقبالا عليها وتعلقا بها وتفانيا فى نشرها ، ولذا تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام .

ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة ، وحكى عن قوم نوح قولهم له : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ »(١) قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رزين قال : كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحـــد من قريش ، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينُهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دُلَّنى عليه ، – قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب – قال : فأتى النبى ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : أدعو إلى كذا وكذا . قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبى الا اتبعه أراذلُ الناس ومساكينُهم ، قال : فنزلت هـــذه الآية : (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) : قال : فأرسل إليه النبى ﷺ : إن الله – عز وجل – قد أنزل تصديق

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١١

ما قلت . وكذلك قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل : « سألتك : أضُعَفاءُ الناس اتَّبَعُوه أم شرفاؤهم ؟ فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل » ا هـ : ابن كثير ج ٣ ص ٥٤٠ وقال – تبارك وتعالى – إخبارا عن المترفين المكذبين :

٣٥ – (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

هذه الآية تحكى ما أجاب به المترفون رسلهم حين دعوهم إلى الحق .

والمعنى: وقال المترفون لرسلهم متباهين : نحن فُضِّلْنَا عليكم بالأموال والأولاد فى نعمة لا تشوبها نقمة ، وهو دليل كرامتنا على الله – عز وجل – ورضاه عنا ، فلو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه مخالفا لرضا الله لما كنا فيما كنا فيه من النعمة ، وهكذا قاسوا أمورَ الآخرة على أمور الدنيا ، وزعموا أن المنعم عليه فى الدنيا منعمٌ عليه فى الآخرة ، وأنهم لو لم يكونوا كرماء على الله لما وسع عليهم ، ولولا أن المؤمنين هانوا عنده لما حرمهم فعلى قياسهم ذلك قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) : أرادوا أنهم أكرمُ على الله من أن يعذبهم نظرا إلى أحوالهم فى الدنيا ، وهيهات لهم ذلك : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »[1] .

٣٦ – (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

قل – أيها النبى – لمن يزعم أن الغنى واليسار وكثرة المال والعيال دليل الكرامة والرضا – قل لهم – ردا عليهم ، وحسما لمادة طمعهم الكاذب ، وتحقيقاً للحق الذى يدور عليه أمر الكون : إن ربى ومالك أمرى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسع له ، ويضيق على من يشاء أن يضيق عليه ، فربما يوسع – سبحانه – على العاصى ، ويضيق على المطيع ، وربما يعكس الأمر ، وربما يوسع عليهما معا ، وقد يضيق عليهما معًا ، وقد يوسِّع على شخص مطيع أو عاصٍ تارةً ، ويضيّق عليه أخرى ، يفعل ذلك حسبا تقتضيه مشيئته – عز وجل – المبنية على الحكمة التامة والحجة القاطعة ، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضًا ، لاختص به المطيع ، وكذلك لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط ، لاختص به العاصى ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

والمراد : منع كون ذلك دليلا على ما زعموا ، لاستواء المعادى والموالى فيه . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) : ذلك لأنهم لا يتأملون ، فمنهم من يزعم أن مدار البسط : الشرفُ والكرامة . ومدارُ التضييق : الهوان والحقارة كهؤلاء المترفين المكذبين ، وهم لا يدرون أن الأول كثيرا ما يكون للاستدراج ، والثانى قد يكون للابتلاء ورفع الدرجات ، ومنهم من تحير واعترض على الله - تعالى - فى البسط على أناس ، والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم :

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُه وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاهُ مرزوقاً

هذا الذى ترك الأفهام حائرةً وصَيَّرَ العالمَ النِّحْرِيرَ زِنديقاً

ولعمرى إن العالم النِّحرير العارف هو الذى يقول :

ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤسُ اللبيبِ وطِيبُ عيشِ الأحمقِ

٣٧ - (وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) :

المعنى : وليست هذه الأموال والأولاد دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم ، وليست أموالكم ولا أولادكم بالخصْلة أو المزِّية التى تقربكم عندنا قربة ، لكن من آمن وعمل صالحا . فإيمانه وعمله يقربانه منا ، فأولئك لهم الثواب المضاعف ، فيجزون على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنة ومنازلها العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى وحرمان ، ومن كل شىء يحذر منه ، روى مسلم عن رسول الله ﷺ بسنده قال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] .

---

(١) ابن كثير .

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(يَسْعَوْنَ فِىٓ آيَٰتِنَا) أى : يمشون مسرعين فى القرآن بالرد له والطعن فيه (مُعَاجِزِينَ) : زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله عليهم . (فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) أى : عذاب فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يفلتون من العذاب . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه امتحاناً . (ويَقْدِرُ لَهُ) : يضيقه له ابتلاءً (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ) فى الخير .

(فَهُوَ يُخْلِفُهُ) : يعطى بدله . (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أى : وهو خير المعطين ، وإطلاق الرازقية على غيره – تعالى – مجاز ؛ لأنه موصل للرزق ، فهو رازق صورة ، وقال الآمدى : إن المعنى : خير من تسمى بهذا الاسم وأُطلق عليه حقيقة أو مجازا .

التفسير

٣٨ – (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) :

والذين يسعون فى معارضة آياتنا بالرد عليها محاولين إبطالها والنيل منها والطعن فيها ، وتعجيز أنبيائنا عن تبليغها وإيصالها للناس ليعملوا بها وينتفعوا بهديها ، ويسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسوله ، والتصديق بآياته زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله – تعالى – أو أنبيائه عليهم أولئك الذين يرتكبون ما سبق فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها ، لا يُفلتون ولا يجديهم نفعاً ما عوَّلوا عليه ، وجميعهم مجزيون بأعمالهم .

٣٩ - (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

قل أيها النبى : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء ، فأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا لديه - عز وجل - بأموالكم (وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أى : ومهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه فهو يخلفه عليكم ، أى : فهو يعوض عليكم ، لا معوض سواه ، إما عاجلا بالمال فقد جاء فى الحديث القُدُسى يقول الله تعالى : «أَنفِق أُنْفِق عليك» أو يعوضه بالقناعة التى هى كنز لا ينفد ، وإما آجلا بالثواب الذى كل خَلَفٍ دونه ، وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : « اللهم أعط ممسكا تلفا » ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقاً خلفاً[١] » (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) قال العلامة الزمخشرى : خير الرازقين وأعلاهم رب العزة ؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده ، أو سيد يرزق عبده ، أو رجل يرزق عياله ، فهو من رزق الله أجراه الله على أيدى هؤلاء ، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى ينتفع بها المرزوق بالرزق .

وقال القرطبى : ما أنفق فى معصية : فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البُنْيان فما كان منه ضروريا يَكِنُّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾)

(١) رواهما مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - قرطبى .

المفردات :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) أى : يجمعهم للحساب عابدين ومعبودين .

(أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) أى : أهؤلاء خصوكم بالعبادة دونى ؟ (سُبْحَانَكَ) : تنزيها لله عن الشرك . (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ) أى : أنت ربنا الذى نواليه ونطيعه ونخلص فى العبادة له . (يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله .

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ) أى : لا يملك المعبودون للعابدين .

(نَفْعًا) : شفاعة ونجاة .

(وَلَا ضَرًّا) : عذاباً وهلاكاً . (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) أى : ظلموا أنفسهم وهم المشركون .

التفسير

٤٠ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ) :

واذكر - أيها النبى - يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ، وحين يعظم بالناس الحال ، ويشاهدون من الأهوال ما لا يحيط به المقال ، ثم يقول الله للملائكة - أمام من كانوا يعبدونهم - : أهؤلاء خصُّوكم بالعبادة دونى؟ وهذا الكلام مع كونه خطابا للملائكة ، فهو تقريع للمشركين وتبكيت لهم ، وإقناط لهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة الملائكة - عليهم السلام - وليس للاستفهام والاستعلام ؛ لعلمه - سبحانه - بما تجيب به ، وهو على نهج قوله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - : « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ [1] » وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى منزهين بُرَآءَ مما وجه إليهم من موضوع السؤال الوارد على سبيل التقرير والغرض أن يقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون تقريعهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم ، وَهَوَانُهُمْ ألزم ، وتخصيص الملائكة بالذكر ؛ لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم ، ولأنهم الصالحون للخطاب ، ولأنه إذا بطلت عبادتهم ، فعبادة غيرهم أولى بالبطلان ، وذكر ابن الوردى فى تاريخه أن سبب حدوث عبادة الأصنام

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١١٦

فى العرب أن عمرو بن لحى مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام ، فسألهم ، فقالوا له : هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية ، فنستنصر بها ونستقى ، فتبعهم ، وأتى بصنم معه إلى الحجاز وسَوَّلَ للعرب عبادته فعبدوه . واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام .

٤١ - (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) :

استئناف بيانى : كأنه قيل : فماذا قال الملائكة حينئذ ؟ فقيل : قالوا - منزِّهين الله - سبحانك تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ، أنت الذى نواليه من دونهم ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتَهم من الرضا بعبادتهم لهم ؛ لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافيةً لذلك ، ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم : (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أى : الشياطين - كما روى عن مجاهد - حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله ، فهم خاضعون لتأثير الشياطين الذين زينوا لهم الشرك .

وقيل : صورت الشياطين لهم صورة قوم من الجن وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها ، وقال ابن عطية : فى الأمم السابقة مَنْ عَبَدَ الجن ، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال - تعالى - : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ »[1] .

٤٢ - (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

أى : فاليوم لا يملك بعض المعبودين لبعض العابدين نفعًا بالشفاعة ، ولا ضرًّا بالعذاب ؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم لله وحده ، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد ، فلا نافع ولا ضارَّ إلا اللهُ وحدَه .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

وهذا ما يقال للملائكة – عليهم السلام – من قبل الله عند جوابهم بالتبرؤ عما نسبه إليهم المشركون ، يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم أمام زاعمى عبادتِهم ، وتنصيصًا على ما يوجب خيبة رجاء العابدين فيهم .

وقيل : إن نسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم .

والمراد باليوم يومُ القيامة ، وتقييد الحكم به مع ثبوته على الإطلاق ، لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذ « وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا » وهم المشركون حيث ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان: « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » فى الدنيا ،يقال لهم ذلك توبيخا وتقريعاً .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(آيَاتُنَا) : القرآن . (قَالُوا مَا هَذَا) : يعنون رسول الله التالى للآيات . (يَصُدَّكُمْ) : يصرفكم ويمنعكم . (عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَآؤُكُمْ) : من الأصنام . (وَقَالُوا مَا هَذَا) : يعنون القرآن المَتْلُوَّ . (إفكٌ مُفْتَرًى) : مختَلَقٌ (لِلْحَقِّ) : أمر النبوة كله ، أو دين الإسلام . (سِحْرٌ مُّبِينٌ) : ظاهر لمن تأمله أنه سحر . (كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) : يقرأونها (مِعْشَارَ) معشار الشيء : عشره ، وقيل : المعشار : عشر العشر ، وقيل المعشار : عشر العُشَير ، والعُشَيرُ هو عشر العشر ، قال الماوردى : وهو الأظهر ؛ لأن المراد المبالغة فى التقليل . ا هـ : قرطبى . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى لهم بالتدمير ؟ والاستفهام للتهويل ، أى : كان إنكارى هائلا شديدا .

التفسير

٤٣ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

هذا بيان لبعض آخر من كفرهم ، أى : وإذا تتلى عليهم بلسان رسول الله ﷺ آياتنا الناطقة بأحقية عقيدة التوحيد وبطـلان الشرك ، يسمعونها من فمه الشريف ، قالوا : ما هـذا ؟ - يعنون رسول الله التالى للآيات الواضحات - إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم من الأصنام ، ويصرفكم عنه ، ويمنعـكم منه ، فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلٰهى ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عروق العصبية منهم ، مبالغة فى تحبيب الشرك إلى نفوسهم ، وتثبيتهم عليه ، وتنفيرهم عن التوحيد ، وقالوا : ما هذا - يعنون القرآن المتلو عليهم - إلا كذب مختلق ومفترى بإسناده إلى الله - عز وجل - وأشاروا إلى القرآن بهذه الإشارة للنيل منه - قبحهم الله - وأنّى لهم ذلك وهو الكتاب الكامل (لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) كما أشاروا إلى الرسول بمثلها فى قولهم الذى حكاه القرآن عنهم بقوله : (قَالُوا مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ) للغض من شأنه ولن يستطيعوا ، فهـو ﷺ خير

المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، وقال الذين كفروا للحق ، أى : لأمر النُّبُوَّة كله ، أو القرآن حين جاءهم من غير تدبر ولا تأمل فيه - قالوا - : إن هذا إلا سحر مبين ظاهر لكل من تأمل فيه

٤٤ - (وَمَا ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ) :

أى : وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ، كما قال - عز وجل - « أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ »[1] ولا أرسلنا إليهم قبلك من نذير ينذرهم بالعقاب على شركهم ، وفى وصفهم بأنهم قوم أميون أهل جاهلية لا ملة لهم ، وليس لهم عهد بإنزال كتاب ، ولا بعثة رسول ، فيه ما فيه من التهكم بهم ، كما قال - تعالى - : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ »[2] فليس لتكذيبهم وجه ولا شبهة .

٤٥ - (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : وكذب الذين تقدموهم من الأمم أنبياءهم كما كذبوا ، وما بلغ المشركون المكذبون من قومك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ السابقين : من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ، فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى وعاقبة إنذارى بالتدمير والاستئصال ولم يُغْنِ عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون ، فيلحذروا من مثله ؛ لئلا ينالهم ما نالهم ويصيبهم ما أصابهم ، فمن سنن الله أن ينصر أولياءه ويؤيد أصفياءه ويدحر مخالفيه وأعداءه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٥

(٢) سورة الزخرف ، آية : ٢١

* (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ) : أذكّركم وأحذركم بكلمة واحدة هي :

(أَن تَقُومُوا لِلَّهِ [1]) قيامهم لله : اهتمامهم بالتفكير لوجه الله فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ وليس المراد به ما يقابل القُعُود ، من قولهم : قام فلان بالأمر ، أى : اهتم به حتى أتمه .

(مَثْنَى وَفُرَادَى) أى : اثنين اثنين وواحدًا واحدًا .

(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) أى : يتفكر الاثنان كلاهما مع الآخر على سبيل التشاور والتفاهم للوصول إلى الحقيقة ، ويتفكر كل واحد فى نفسه بعد التشاور مع صاحبه .

(مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ) : جملة مستأنفة للتعليل ، أى : ثم تتفكروا فيما دعوتكم إليه لأنه ليس بصاحبكم جنون . (إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ) أى : ما محمد إلا رسول مُنْذِر لكم .

(مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) أى : لم أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، فالأجر لكم إن آمنتم بالله ورسوله .

(إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ) أى : ما أجرى إلّا عليه سبحانه .

---

(١) أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر تقديره : قيامكم لله ، وهو بدل من لفظ (واحدة) .

التفسير

٤٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الذين كفروا من قريش لمَّا جاءهم الرسول برسالته كذبوه وقالوا : ما هذا إلَّا إفك مفترى وسحر مبين ، كما أنهم كانوا يصفونه بالجنون ، وقد بين الله خطأهم بقوله : « وَمَآ آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ » أى : أنه ليس عندهم علم عن طريق الوحى جاءهم على لسان رسول قبلك ، لكى يعترضوا به على رسالتك ويردوها ، وأنه كان ينبغى لهم أن يُقْبلوا عليك ويؤيدوك فى رسالتك ، بدلًا من تكذيبهم إيَّاك ، وإعراضهم عن الكتاب الذى أيدك الله به وهو الحق المبين ، فى حين أنك فخرهم وعزهم ، وأنت الرسول العربى الوحيد الذى جاءهم ، وجاءت هذه الآية أمرًا للنبى ﷺ بمواصلة وعظهم وتذكيرهم لعلهم يهتدون ، ومعلوم أن العرب - مع إشراكهم - كانوا يعتقدون أن الله هو خالقهم ، وأنهم ما يعبدون آلهتهم إلَّا لتقربهم إلى الله زُلْفى ، ولهذا طلب إليهم فى هذه الآية أن يخلصوا فى تفكيرهم وبحثهم عن الحق من أجل الله الذى يقرون بألوهيته وربوبيته لأربابهم .

والمعنى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار : ما أنصحكم إلَّا بخصلة واحدة ، هى أن تتركوا التجمع فى الرأى القائم على التعصب لعقائد أصولكم ، وأن تنهضوا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا ، فالاثنان يشاور كلاهما الآخر ويتفاهم معه ؛ فإنه أعون على الوصول إلى الحق من الفكر الواحد ، فإذا انقدح الرأى بين الاثنين ، عاد كلاهما إلى نفسه ، للموازنة والبت فيما جاءكم به محمد ؛ فإنه ليس بصاحبكم هذا جنون ، فقد عرفتموه بالعقل الراجح والفكر الرشيد ، فلا يعقل أن يتصدى لأمر خطير تعتريه صعاب لا نهاية لها إلَّا وهو على نور من ربه ، وقد أيده الله بالقرآن وسواه من المعجزات ، ما محمد إلَّا محذر لكم قُبَيلَ عذاب شديد - هو عذاب الآخرة - فقد بعث قريبًا من الساعة ، قال ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ ، كَهَاتَيْنِ » مشيرًا إلى قربها بضم أصبع السبابة إلى الوسطى ، إيذانًا

بالفرق الصغير بينهما ، ولهذا كان ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وقربه ﷺ من الساعة نِسبِىٌّ ، فالأرض مخلوقة منذ ملايين من السنين لا يعلمها إلَّا علام الغيوب .

٤٧ - (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

لم يحدث أن النبى ﷺ سألهم على تبليغ الرسالة أجرًا ، قال - تعالى - فى سورة يوسف : « وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ » الآية (١٠٤) . وهذه الآية من هذا القبيل ، تنفى أوَّلًا نفيًا صريحًا أنه سألهم أجرًا ، وتثبت أن الأجر لهم إن آمنوا ، وتبين أن أجره فى تبليغ الدعوة من الله وليس منهم .

ومعنى الآية على هذا الوجه : قل - أيها الرسول - للمشركين من قومك : لم أسألكم على إيمانكم برسالتى أجرًا فالأجر لكم[1] من الله حين تؤمنون ، وما أجرى فى تبليغ الحكم إليكم إلَّا على الله وحده وهو على كل شىء رقيب وحاضر ، فلا يخفى عليه عملى وعملكم ، وسيجزى كل امرئ حسب عمله ونيته .

ويقول الزمخشرى فى تفسيرها : (فَهُوَ لَكُمْ) جزاءُ الشرط الذى هو قوله : (مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ) وتقديره : أى شىء سألتكم من أجر فهو لكم ، كقوله - تعالى - : « مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . . الآية » ، وفيه معنيان :

(أحدهما) : نفى سؤاله الأجر رأسًا ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئًا فخذه - وهو يعلم أنه لم يعطه شيئًا - ولكنه يريد به عدم الأخذ لتعليقه الأخذ على ما لم يحدث وهو الإعطاء .

(والمعنى الثانى) : أنه يريد بالأجر ما أراد فى قوله - تعالى - : « قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا » ، وفى قوله : « قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

---

(١) ففى الآية من وجوه البلاغة (الاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، فلفظ (الأجر) نفى أولا أنه طلبه منهم ، ثم أعاد الضمير عليه بمعنى آخر فى قوله : (فهو لكم) وهو الأجر من الله ، أى : فأجر الإيمان من الله لكم ، ثم بين صراحة أن أجره على الله بقوله : (إن أجرى إلا على الله) .

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » لأن اتخاذ السبيل إلى الله نفعه يعود إليهم ، وكذلك المودة فى القربى ، فقرابته قرابتهم ، وكلاهما أمر معنوى لا مال فيه . انتهى بتصرف يسير .

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(يَقْذِفُ بِالْحَقِّ) : يلقيه وينزله ليرمى به الباطل .

(وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) أى : لم تعد للباطل كلمة يبدأ بها أو يعيدها .

(فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي) : فإنما يعود ضرر الضلال عليها .

التفسير

٤٨ – (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

قل – أيها الرسول – : إن ربى ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، ويرمى به الباطل فيدمغه ، أو يرمى به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام ونشره فهو علام الغيوب .

٤٩ – (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) :

قل : جاء الدين الحق من عند الله ، وَزَهَقَ الباطل واضمحل ، فلم تبقَ للشرك مقالة يرددها بدءًا أو إعادة ، بعد أن علت كلمة التوحيد بنزول القرآن وسطوع البرهان ، وحينما فتح رسول الله مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، دخل المسجد الحرام فوجد أصنام المشركين

حول الكعبة فجعل يطعنها بطرف قوسه وهو يقرأ : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » و « قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

٥٠ - (قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ) :

سبب نزول هذه الآية - كما ذكره القرطبي - أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : تركت دين آبائك فضللت ، فنزلت الآية .

وقد أفادت أن ضلال الإنسان يعود ضرره عليه ؛ لأنه باختياره ، حيث لم ينتفع بهدى ربه ، وأن اهتداءه تعود منفعته عليه ؛ لأنه انتفع بهدى ربه ، وهذا الحكم عام لكل مكلف وإنما أمر الله رسوله أن يسنده إلى نفسه ، إمَّا رعاية لسبب النزول ؛ لتكون ردًّا على ما قاله له المشركون ، وإمَّا لأن الرسول مع جلالة قدره عند الله ، إذا كان الحكم بقسميه يتناوله ﷺ فإنه يتناول غيره بالطريق الأولى ، والتقابل بين شقى الآية يرجع إلى المعنى ، فكأنه قيل : قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، وإن اهتديت فإنما هدايتى لنفسى .

واختير الأسلوب الوارد فى الآية لما فيه من إسناد فضل اهتدائه ﷺ إلى ما أوحاه الله إليه .

ومعنى الآية : قل - أيها الرسول - : إن ضللت عن الحق ، فإنما يعود وبال ضلالى على نفسى ، فإن النفس أمارة بالسوء ، وإن اهتديت إلى الحق فبسبب ما أوحاه إلىَّ ربى وتوفيقه إياى للانتفاع به ، إنه - تعالى - عظيم السمع لكل مسموع ، قريب بعلمه من كل معلوم ، فلا يخفى عليه ضلال الضَّالين ، ولا اهتداءُ المهتدين ، وسوف يجازى كل امرىء بما كسبت يداه .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(إِذْ فَزِعُوا) : حين خافوا عند الموت أو البعث .

(مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) : من ظهر الأرض القريب من بطنها ، أو من بطنها القريب إلى المحشر .

(وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) التناوش : التناول السهل ، ـ أى : وكيف يتناولون الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد .

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ) : وقد كفروا بمحمد ورسالته قبل حضور الموت .

(وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : ويتكلمون فى محمد بما لم يظهر لهم من المطاعن .

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) : ومنعوا من الانتفاع بإيمانهم بعد فوات الأوان .

(بِأَشْيَاعِهِمْ) : بأشباههم ، جمع شِيع ، وشِيعٌ جمع شِيعة .

(فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) : فى شك موقع فى الريبة ، قال ابن عطية : الشكُّ المريب أقوى من مطلق الشك ، وكأنه يريد أن يقول : إن لفظ (مريب) وصف للفظ شك لتقويته ، فإن الريب بمعنى الشك والتهمة ، ومثله قولهم : عجب عجيب ، وشعر شاعر .

التفسير

٥١ - (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) :

كلام مستأنف يراد به حكاية أحوال الكفار حين يعرفون الحق معاينة وحضورًا ؛ وذلك عند حضور الموت ، أو حين بعثهم من قبورهم لحسابهم بين يدى رب العالمين .

والخطاب فى قوله -تعالى- : « وَلَوْ تَرَىٰٓ » إمَّا للرسول ﷺ وإمَّا لكل من يصلح للخطاب .

والمعنى : ولو ترى الكفار عند الموت أو البعث من قبورهم ، حين فزعوا وخافوا عاقبة كفرهم بعد أن أدركوا حقيقة أمرهم ، فلا فوت لأحدهم مما نزل به ، وأخذوا من مكان قريب حيث أخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من بطنها إلى المحشر ، لو تراهم حين ذاك لرأيت أمرًا هائلًا .

والمقصود من وصف مكان أخذهم بالقرب سرعة نزول العذاب بهم ، والاستهانة بهم ، وبهلاكهم ، وإلَّا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عز وجل .

٥٢ - (وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

وقالوا : آمنا بالله وحده ، أو بمحمد وما جاءنا به من الحق ، وكيف يتأتى لهم تناول الإيمان تناولًا سهلًا من مكان بعيد عن مكان التكليف فلا ينفع إيمانهم عند الموت ؛ لأنه فى حدود الآخرة ، ولا عند البعث لفوات زمان التكليف ومكانه .

٥٣ - (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

هذه الآية جملة حالية من ضمير قالوا فى الآية التى قبلها ، أى : وقال الكفار : آمنَّا بالله أو بمحمد من مكان بعيد بعد فوات الأوان ، وحالهم أنهم قد كفروا به من قبل - أى : زمن التكليف - وهم أحياء فى الدنيا ، ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر فى الرسول من المطاعن من موضع بعيد عنه ﷺ إن هذا الإيمان لا ينفعهم بعد فوات الأوان وتبدل المكان .

وفسرها الزمخشرى بقوله : « وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » وهو قولهم فى رسول الله ﷺ : شاعر ساحر كذاب ، وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى ؛ لأنهم لم يشاهدوا فيه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا ، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة عن حاله ؛ لأن أبعد شىء مما جاء به الشعر والسحر ، وأبعد شىء من عادته التى عرفت بينهم وجُرِّبت – أبعد شىء من عادته – الكذب والجنون .

٥٤ – (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ) :

ومنع الكفار من تحقيق ما يحبون من قبول إيمانهم فى الآخرة ، والنجاة من العذاب ، كما فعل بأشياعهم من قبل من كفار الأمم السابقين ، حيث لم يقبل لهم إيمان بعد خروجهم من الدنيا ، إن هؤلاء وأولئك كانوا من تكليفهم فى دنياهم فى شك قوى من صدق رسلهم فيما بلغوهم عن الله – تعالى – : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »[1] .

---

(١) سورة غافر : ٨٥

سورة فاطر

هذه السورة تسمى سورة الملائكة ، كما تسمى سورة فاطر ؛ لوجود هذين الاسمين فى الآية الأُولى منها .

مقاصد هذه السورة

بدأت بالحمد لله على بدائع خلقه ، وسوابغ نعمه ، ودعت الناس إلى ذكر نعم الله عليهم والعمل للآخرة ، وبينت أن العزة لله جميعًا ، وأنه « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وعقّبت ذلك ببيان آياته – تعالى – فى خلق الناس ، وفى تفاوت البحار عذوبة وملوحة وكثرة منافعها ، وفى إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، وعجز الآلهة المزعومة عن نفع عابديها فى الدنيا والآخرة .

وبينت آيات الله فى المطر وآثاره ، وفى اختلاف ألوان الجبال وألوان الناس والدواب والأنعام وأن العلماء هم الذين يخشون ربهم ، وأن قُرَّاء القرآن والصالحين من عباد الله يوفيهم الله أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، ووصفت الجنة ونعيمها الدائم ، والنار وأهلها وعذابهم المقيم ، ثم بينت أن شركاءهم الذين عبدوهم مع الله لا شرك لهم فى خلق السموات والأرض ، وأن الله – تعالى – هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا : « وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ » ، وبينت أن المشركين أقسموا إن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » ثم ختمت السورة بهذا الإنذار : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾)

المفردات :

(فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعها على غير مثال سبق ، من الفطر وهو الابتداء والاختراع .

(أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ) : أصحاب أجنحة ، وهو جمع جناح وهو اليد ، وسيأتى فى التفسير بيان ذلك .

(مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) أى : اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، حسب مراتبهم .

(يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ) أى : يزيد بحكمته فى بعض مخلوقاته ما يشاءُ من الزيادات على بعض آخر ، وإن اتفقوا فى الجنس والنوع .

(فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) : فلا أحد يستطيع إمساكها ومنعها .

(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ) : وما يمنعه الله ويحبسه فلا أحد يستطيع إطلاقه من بعد إمساك الله له .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : الغالب .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الفَطْر فى اللغة أصلًا : بمعنى الشق ، كأنه - تعالى - شق العَدَمَ فأخرج منه السموات والأرض ثم شاع إطلاقه على الابتداء والاختراع .

أخرج عبد بن حميد والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهما عن ابن عباس قال : (كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها - يعنى ابتدأتها -) والمقصود من فطر السموات والأرض أنه - تعالى - أبدعهما من غير مثال سبق .

والملائكة : أجسام نورانية ، خلقهم الله لطاعته : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » والأجنحة فى اللغة بمعنى : الأيدى ، وهى لكل كائن بحسبه ، فاليد فى الإنسان معروفة الشكل ، وفى الطيور لها ريش مصفوف عليها يعينها على الطيران ، وأمّا فى الملائكة فإنها تتناسب مع نورانيتهم ، والله - تعالى - هو الذى يعلم وصفها وشكلها والمقصود من قوله - تعالى - : « مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن الملائكة لا يتساوون فى عدد الأجنحة ، فطائفة بجناحين لكل منهم ، وأخرى بثلاثة أجنحة ، وثالثة بأربعة أجنحة ، ولعل ما فى الآية من باب ضرب المثل ، وأن من الملائكة مَنْ له أكثر من أربعة أجنحة[1] ، وهل المقصود من « مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أن نصف هذه الأجنحة فى الجانب الأيمن من الملائكة ، والنصف الثانى فى الجانب الأيسر منهم حسب درجاتهم ، أم أن العدد مكرر فى الجانبين ؛ لأن الأجنحة الثلاثة لا تنقسم . كل ذلك من باب الغيب الذى يترك علمه إلى الله وحده .

والمقصود من (الخلق) فى قوله - تعالى - : « يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ » إما الملائكة ، على معنى أنه - تعالى - يزيد فى عددهم أو فى عدد أجنحتهم ما يشاء ، وإمّا جميع الخلق ، أى : أنه - تعالى - صاحب الإرادة والمشيئة فى جميع خلقه ، فيزيد فيهم ضنفا وعددًا وجمالًا وحسنًا ، وعقلًا وعلما وغير ذلك مما يناسب كل صنف حسب حكمته جل وعلا .

---

(١) فقد جاء فى السنة ما يشير إلى ذلك .

ومعنى الآية : كل الثناء بالجميل على الله مبدع السموات والأرض بما فيهما أو فوقهما ، جاعل الملائكة رسلًا وسفراء بين الله وبين أنبيائه ، ليبلغوهم ما أوحاه إليهم ، ورسلًا بينه وبين الصالحين من عباده ، لإلهامهم ما فيه الخير لهم ولغيرهم ، وبينه وبين خلقه ليوصلوا إليهم آثار نعمته أو نقمته ، وقد جعلهم ذوى أجنحة مختلفة ، اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء عددًا وأجنحة وشكلًا وصورة ، أو يزيد فى جميع خلقه ما يشاء نوعًا وعددًا وقوة وعقلًا وعلمًا وحسنًا وغير ذلك من الكمالات أو ما يقابلها ، مما يناسب كل صنف حسب حكمته - جل وعلا - لا يمنعه مانع من تنفيذ مشيئته إن الله على كل شىء قدير .

٢ - (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المراد بفتح الرحمة : إطلاقها ، ولذا قوبل بالإمساك ، وفى اختيار لفظ الفتح إشارة إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالًا ، وتنكيرها لتعميمها فى كل فروعها .

ومعنى الآية : ما يطلق الله للناس أى نوع من أنواع رحمته ، كالعقل والعلم والحكمة والرزق والأمن والصحة وهدوء السر ، فلا أحد يقدر على إمساكه ومنعه عمن كتبه الله له ، وأى شىء يمسكه الله فلا أحد يقدر على إرساله من بعد إمساك الله له ، وهو القوى الغالب فلا يمتنع له مراد ، الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى : أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول :

« سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد . اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدُّ » .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ورَّادٍ مولى المغيرة بن شعبة قال : كَتب معاوية إلى المغيرة ابن شعبة : اكتب إلىَّ مما سمعت من رسول الله ﷺ فدعانى المغيرة فكتبت إليه أنى سمعت

رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لَا إِلٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وسمعته « ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات وعقوق الأمهات ، ومنع وهات »[1] .

وبعد أن بين الله - سبحانه - أنه الموجد للملك والملكوت ، والمتصرف فيهما على الإطلاق ، أمر الناس بشكر نعمته فقال :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تذكروها وأدوا حقها .

---

(١) متفق عليه من رواية المغيرة بن شعبة أخرجه البخارى فى « كتاب الأدب » باب : عقوق الوالدين ج ٨ ص ٤ ط / الشعب .

ومسلم فى « كتاب الأقضية » باب : النهى عن كثرة السؤال ... إلخ ج ٣ ص ٣٤١ رقم ١٢ ط / الحلبى مع تقديم وتأخير .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : فكيف تصرفون عن عبادة الله – تعالى – وحده .

(وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) : ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع .

التفسير

٣ – (يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) :

يرى الإمام ابن عباس أن المراد من الناس فى الآية أهل مكة ؛ لأن السورة مكية ، وقد مرَّ فى الآية السابقة الحديث عن كفارها ، وسيأتى تكذيبهم للرسول فى الآية التالية .

ويرى غيره أن المراد عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، فكلهم مأمورون بتذكر نعمة الله وشكره عليها ، وأهل مكة داخلون فيهم .

ونعمة الله بالنسبة لأهل مكة أنه – تعالى – أسكنهم حرمًا آمنًا ، والناس يتخطفون من حولهم ، وأنه يسوق الأرزاق إليهم وهم يسكنون فى واد غير ذى زرع ، وهم – بعد ذلك – يشتركون مع سائر الناس فى نعم الله عليهم .

والمعنى : يأيها الناس تذكروا نعمة الله التى أنعم بها عليكم فى خلقكم فى أحسن الصور ، ومنحكم نعمة العقل والكلام والقوة والإرادة ، ومكنكم بذلك من استنباط منافع الأرض ظاهرها وباطنها ، ومن الدفاع عن أنفسكم ، والسعى على أرزاقكم ، وأنزل الماء من السماء لترووا به أرضكم ، فتخرج الزرع النضير والثمر الوفير ، ومنه تشربون وتسقون ماشيتكم هل من خالق سوى الله يرزقكم من السماء والأرض ما به قوام حياتكم ، وسبب وجودكم ، وبقائكم ، لَا إِلَٰه إِلَّا هُو الخلاق الرزاق ، فكيف تُصْرفون عن توحيده والإيمان بما جاء به رسوله ﷺ .

٤ – (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

وإن يكذبك مشركو مكة – أيها الرسول – فلا تحزن ، فقد كُذِّبت رسل كثيرة قبلك من أممهم – والبلوى إذا عمت هانت – وإلى الله وحده ترجع أمور الخلائق جميعًا يوم الدين

فيحاسب كل امرىء على عمله ويجزيه عليه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٥ - (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) :

المراد بوعد الله : البعث والجزاء ، وقد أُشير إليهما فى الآية السابقة بقوله - تعالى - : « وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » .

والمعنى : يـٰأيها الناس إن وعد الله عبادَه بالبعث بعد الموت وحسابِهم وجزائهم على أعمالهم وعدٌ حق لا يتخلف ، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها ، فتركنوا إليها وتعملوا لها وتتركوا العمل للآخرة ، فإن الدنيا فانية وأنتم تاركوها وراجعون إلينا بعد حين ، ولا يخدعنكم بالله الشيطان الخداع الغشاش ، فيقول لكم : تمتعوا بدنياكم من حلال ومن حرام كما تحبون فإن الله غفور رحيم - لا يخدعنكم بقوله هذا - فكما أنه غفور رحيم فهو عزيز ذو انتقام ، فكيف لا يغضب ممن غفل عن مرضاته ، وأصر على عصيانه ، وهو مغمور بنعمه ، ويعلم أن بطشه شديد ، فهل من العقل أن يتعاطى المرء السم القاتل ، ويعتقد أنه لا يموت به ، ولقد أكد الله تحذيره من الشيطان فقال :

٦ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

إن الشيطان لكم عدو - أيها الناس - منذ بداية خلقكم ، فقد أخرج أباكم آدمَ من الجنة ، وتوعد بإضلال ذريته ، فاتخذوه لكم عدوا واحذروا إغراءه وإضلاله فى عقائدكم وشرائعكم ، فما يدعو المتحزبين معه والمشايعين له إلا إلى ملاذ الدنيا وشهواتها الآثمة ، ليورطهم فيها ، ويجعلهم من أصحاب جهنم وبئس المصير .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩)

المفردات :

(زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ) : حسنت له نفسُه وشيطانُه عملَه السيء.

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) : فلا تهلك نفسك تَحَسُّرًا عليهم .

(فَتُثِيرُ سَحَاباً) أى : تُظْهره وتنشره .

(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) أى : أرسلناه إلى أرض بلد لازرع فيه .

(كَذَلِكَ النُّشُورُ) أى : مثل إحياء الأرض بالنبات نشور الموتى وبعثهم من قبورهم .

التفسير

٧ - (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

حذَّر الله عباده فى الآية السابقة من خداع الشيطان حتى لا يكونوا باتباعه من أصحاب السعير ، وعقَّبها بهذه الآية ؛ لبيان مصير من يتبعه ومن يعرض عنه .

ومعنى الآية : الذين كفروا بسيرهم وراء الشيطان وقبولهم تغريره وخداعه لهم عذاب شديد لايُقَادَرُ قَدْرُهُ ، والذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات التى عرفوها من الكتاب والسنة لهم مغفرة لما عسى أن يحدث منهم من الذنوب « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] ولهم مع ذلك أجر كبير ، لإيثارهم طاعة الله على طاعة الشيطان .

٨ - (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

لما بين الله فى الآية السابقة مصير الكافرين الذين غرهم بالله الغرور ، ومصير المؤمنين الذين أعرضوا عنه وأخلصوا لربهم ، جاءت هذه الآية لتأكيد تفاوت الفريقين فى الجزاء تبعاً لتفاوتهم فى العمل ، ولكى تخفف عن الرسول ﷺ أثر ابتعاد قومه عن دعوة الحق .

والمعنى : أهما متساويان فى العمل حتى يتساويا فى الجزاء ؟ فمن زين له الشيطان عمله السيء فاعتقده حسناً وانهمك فى الكفر والمعاصى ، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ كلاً لا يستويان ، لست مسئولا يا محمد عن ضلال هؤلاء الضالين ، فإن الله يترك من يشاءُ فى ضلاله الذى أراده لنفسه ويعاقبه عليه ، ويُعين من يشاءُ على الهدى الذى اختاره لنفسه ويثيب عليه ، لإعراضه عن الإصغاء إلى تزيين الشيطان ، فلا تهلك نفسك تلهفاً على إيمانهم وحزناً على كفرهم ، إن الله عليم بما يصنعون فيجازيهم على كفرهم .

٩ - (وَاللهُ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) :

هذه الآية تشير إلى برهان كونى على استحقاق الله - تعالى - للعبادة وحده ، كما تشير إلى خطأ الكفار بعبادتهم أوثانهم التى لاشأن لها فى أرزاقهم ، وكفرهم بالبعث والنشور مع قيام الدليل عليه بإحياء البلد الميت .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

ومعنى الآية : والله وحده هو الذى أرسل الرياح لتحمل بُخار الماء إلى حيث يتكون سحاباً فتثيره وتفرقه ، ويسوقه الله إلى بلد أرضه يابسة لانبات فيها ، فتحيي به الأرض بعد يبسها ، كذلك بعث الناس من قبورهم يوم القيامة فى السهولة واليسر .

قال أبو حيان : وقع التشبيه [1] بجهات ، كما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاءُ تقبل الحياة ، أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب ، كذلك يجمع الله – تعالى – أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى ، أو كمايسوق – سبحانه – السحاب إلى البلد الميت ، يسوق – عز وجل – الروح والحياة إلى البدن : إ هـ .

وجاء بالمعنى الأخير حديث أبى رُزَين قال : قلت يارسول الله ، كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : يا أبا رُزَين ، أما مررت بوادى قومك مَحْلًا [2] ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه [3] .

راى الكلاميين فى كيفية البعث

اختلف علماءُ الكلام (علماءُ علم التوحيد) فى طريقة إعادة الجسم ، فقال بعضهم : إنها تكون بإعادة أجزاء المبعوث المتفرقة وضمها بعضها إلى بعض ، وقال آخرون : إن الإعادة عن عدم ، وقد اعترض على هذا الرأى ، بأنها إذا كانت عن عدم ، فهذا يؤدى إلى أن يكون البعث إيجادًا لشخص جـديد لم يكلف فى الدنيا ، فكيف يثاب ثواب الأول أو يعاقب عقابه ، وقد أجاب أصحاب هـذا الرأى بأن الثواب والعقاب للروح ، والجسد بدونها لا يحس بعقاب ولا بثواب .

---

(١) أى : تشبيه النشور . (٢) أى : جدبا لانبات فيه . (٣) ابن كثير ، والقرطبى .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) : يريد الشرف والمنعة .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) : إلى الله يصعد الكلام الطيب من التوحيد ، والذكر والدعوة إلى الحق ، وقراءة الكتاب ، والسنة ، والمراد من صعوده قبوله .

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) أى : أن العمل الصالح يرفع قدر الكلم الطيب عند الله تعالى.

(وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) : ومكر أهل السيئات يهلك ولاينفذ .

(ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً) أى : زوّج بعضكم ببعض .

(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يطول عمر أحد حتى يصير معمرًا .

(وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) : ولا ينقص من عمر أحد غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عنه .

(هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ) : هذا عذب شديد العذوبة .

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) : وهذا مالح شديد الملوحة يحرق بملوحته .

(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) : كاللؤلؤ والمرجان .

(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ) : الفلك تطلق على السفينة الواحدة ، وعلى أكثر منها ، والمراد هنا السفن ، ومعنى مواخر : جاريات تشق الماء بجريها .

التفسير

١٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ) :

كان الكفار يتعززون بالأصنام ، كما قال - تعالى - : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[1] » والمنافقون يتعزّزون بالمشركين ، كما قال - سبحانه - : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا »[2] فأنزل الله - تعالى - هذه الآية تخطئة لهؤلاء وأولئك ، وبياناً لأن العزة من الله لمن أطاعه ، فهو الذى تطلب منه العزة بطاعته .

والصعود هو التحرك إلى أعلى ، وهو لا يكون فى الكلام على الحقيقة ، فهو مجاز عن قبوله ، والمقصود من قوله : (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ . . .) قريش ، حيث اجتمعوا فى دار الندوة ليمكروا برسول الله ﷺ كما يشير إليه قوله - تعالى - : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ »[3]

---

(١) سورة مريم : ٨١
(٢) سورة النساء : ١٣٩
(٣) سورة الأنفال ، آية : ٣٠

ومعنى الآية : من كان يريد الشرف الرفيع والمنعَةَ ، فليطلبها من الله بطاعته ، فللهِ العزة جميعاً يهبها لمن يشاء، إليه يرتفع الكلام الطيب من التوحيد وقراءة القرآن ، والأحاديث النبوية والذكر والشكر والدعوة إلى الحق ونحوها ، والعمل الصالح يرفع قدر هذا الكلام الطيب عند الله - تعالى - بحيث يكون له من الأجر أعظم مما لو تجرد عن العمل الصالح ، ويصح أن يعود الضمير المستتر إلى الله - تعالى - ويعود الضمير الظاهر إلى العمل ، والتقدير : والعمل الصالح يرفع الله إياه ويتقبله كما صعد إليه الكلام الطيب وتقبله .

والذين يمكرون المكرات السيئات من قريش ضد رسول الله ﷺ لهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة ، ومكر أولئك هو يفسُدُ ولايتحقق « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » والآية وإن تنزلت فى مكر قريش برسول الله ﷺ فحكمها شامل لهم ولغيرهم ، كما قال - تعالى - : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] .

١١ - (وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

تضمنت هذه الآية أن الله - تعالى - خلق جميع البشر من تراب ، وذلك إمَّا باعتبار أبيهم آدم ، فقد خلقه الله من تراب ، وإما لأنهم خلقوا من النطفة التى ترجع إلى الأغذية ، والأغذية نشأت من تراب ، فهم مخلوقون جميعاً من تراب لهذا أو لذاك .

والمقصود من النطفة ماء الرجل الذى فيه الحيوانات المنوية وماء المرأة الذى فيه البويضة ، وقد مر بيان ذلك مستوفى فى تفسير قوله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ »[2] فارجع إليها إن شئت .

وهذه الآية تشير إلى دليل آخر من أدلة البعث غير ما تقدم والمقصود من قوله - تعالى - : (وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ) : وما يمد فى عمر أحد حتى يصير معمرًا ، فسماه معمرًا باعتبار

---

(١) سورة فاطر : ٤٣

(٢) الآية : ٥ من سورة الحج .

ما يؤول إليه ، والمقصود من قوله : (وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ) ولا ينقص من عمر أحد آخر غير المعمر ، كما تقول : عندى درهم ونصفه ، أى : ونصف درهم آخر غير الدرهم الأول ، وهذا هو المعروف فى علوم البلاغة (بالاستخدام) وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر .

ومعنى الآية : والله خلقكم يا بنى آدم من تراب ضمن خلق أبيكم آدم منه ؛ أو لأنكم خلقتم من الأغذية التى منشؤها التراب ، ثم خلقكم من نُطَف أبويكم ذكرانا وإناثا ثم جعلكم أزواجاً - يتزوج الذكر منكم الأنثى - ليبقى النوع الإنسانى إلى انقضاء الدنيا ، وماتحمل من أنثى بعد مباشرة الزوج لها إلَّا بعلم الله وتدبيره ، وما يعطى أحد عمرًا طويلا يصير به معمرًا وما ينقص من عمر غيره ، بأن يعطى عمرًا ناقصاً عن هذا المعمر إلَّا ثابتا فى كتاب[1] إن ذلك على الله سهل يسير ، فكذلك البعث والنشور .

ولابن عباس فى تفسير الآية رأى غير ماتقدم يرويه عنه سعيد بن جبير ، وهو أن المعنى : « وما يعمرمن معمر إلَّا كتب عمره كم هو سنةً ، كم هو شهرًا ،كمهو يومًا ،كم هو ساعةً ، ثم يكتب تحته ، أو فى كتاب آخر ، نقص من عمره يوم ، نقص من عمره شهر ، نقصت سنة ،حتى يستوفى أجله ، فما مضى من عمره فهو النقصان ، وما يستقبله فهو الذى يعمره » وقد شارك ابن عباس فى رأيه هذا ابن جبير وأبو مالك وحسَّانُ بن عطية والسُّدِّى ، كما ذكره الآلوسى ، وابن كثير..

ولكن جعل الآية شاملة لطويل العمر وقصيره أولى من قصرها على المعمر فقط ، فإن كليهما مكتوب عند الله - تعالى - .

١٢ - (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

---

(١) والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحف الملائكة .

ينبهنا الله بهذه الآية إلى أنه - تعالى - مع قدرته على خلق الأشياء المتباينة طبعاً فهو قادر على أن يجعلها مشتركة فى بعض المنافع ، وأن يجعل بعضها منفردًا ببعض آخر منها ، والبحر فى اللغة : الماء الكثير ملحاً كان أو عذبا ، فكل ماء مستبحر فى المحيطات والبحار والبحيرات والخلجان والأنهار صغيرها وكبيرها يسمى بحرًا ، والاشتراك بين الملح والعذب فى هذه التسمية واضح من النص الكريم ،وقد بين الله فى هذه الآية أن البحرين العذب والملح نأكل منهما لحماً طريا هو السمك بمختلف أنواعه وأحجامه ، والتعبير عنه باللحم الطرى للإشارة إلى لطافته وسهولة مضغه لضعف أليافه ، وأنه يكاد يكون لحماً خالصاً لقلة العظم فيه بالنسبة إلى سائر الحيوان ، كما أشار بالأكل منهما إلى المسارعة فى أكله قبل أن يفسد .

كما ذكر أننا نستخرج من كليهما حلية نلبسها ، كاللؤلؤ والمرجان ، ولكن المعروف أن ذلك لا يستخرج إلا من الملح دون العذب .

وقد أجاب النحاس عن ذلك : بأن الله جمع البحرين فى اللحم الطرى وأفرد أحدهما فى الحلية وهو الملح ، كما فى قوله - تعالى - : « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » والسكون فى الليل ، والابتغاء من فضله فى النهار ، وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر الملح عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج ، وقيل : من مطر السماء[1] .

على أن الحلية ليس بلازم أن تكون من اللؤلؤ والمرجان ، فأى مانع من اتخاذ حلية من عظام السمك الضخم فى المياه العذبة الفسيحة الأطراف ، كالبحيرات الاستوائية ، ولهذا قال بعض قدامى العلماء : لا يبعد أن تكون الحلية من الماء العذب عظام السمك التى يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر ، فتحمل ويتحلى بها .

وجاء فى التفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن العلم أثبت وجود الحلية فى الماء العذب ، كما أثبته الواقع ، فى المياه العذبة بإنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان وغيرها توجد أنواع من أصداف اللؤلؤ من الماس والياقوت ، إلى غير ذلك ، فارجع إلى تعليقه فى الهامش على هذه الآية ؛فإنه نفيس .

---

(١) انظر القرطبى .

ومعنى الآية : وما يستوى البحران فى صفاتهما وفى منافعهما ، هذا عذب شديد العذوبة سهل التناول لخلوه مما تعافه النفس ، وهذا ملح شديد الملوحة لذاع لايستساغ تناوله ، ومع تباينهما فى الصفة ، فإنكم تأكلون من كل منهما سمكا طرى الألياف ، وتستخرجون حلية تتحلون بلبسها ، وترى الفلك على اختلاف أحجامها تشق ماءه وهى تجرى بكم فيه ؛ لتطلبوا من فضل الله ورزقه متنقلين فيها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ولتشكروه - تعالى - بأن تعرفوه وتعرفوا حقوقه فتؤدوها كما أمركم بها .

(يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ) : يدخله فيه فينقص الليل ويزيد النهار .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : ذللهما وأجراهما خاضعين لمشيئته .

(لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : لوقت معين ، وسيأتى شرحه .

(مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) : القطمير : لفافة النواة .

التفسير

١٣ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) :

يدخل الله ـ تعالى ـ الليل فى النهار فيزيد النهار وينقص الليل ، وذلك فى فصلى الربيع والصيف ، ويدخل النهار فى الليل ، فيزيد الليل وينقص النهار ، وذلك فى فصلى الخريف والشتاء ، وأجرى الشمس والقمر خاضعين لمشيئته ، كل منهما يجرى فى فلكه ، ويرسل نوره لأجل سماه الله ، وهو يوم القيامة ، أو هو مدة الدورة فى كليهما ، فدورة القمر تستغرق شهرًا قمرياً ، ودورة الشمس تستغرق سنة شمسية ، ثم يعود كلاهما لابتداء دورة جديدة ، ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذا النظام هو الله ربكم له وحده الملك كله ، لا شريك له فيه ، والذين تدعونهم آلهة غيره من الأصنام ما يملكون قشرة نواة .

١٤ ـ (إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) : إن تدعوهم يا عابديهم لتفريج كرب أو قضاء حاجة لايسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات ، ولو سمعوا على سبيل الفرض والتقدير ما حققوا دعاءكم لعدم قدرتهم على النفع والضر ، ويوم القيامة يتبرأون من إشراككم بألسنة مقالهم يخلقها الله لهم ، أو بألسنة حالهم قائلين : ما نحن آلهة وما أمرناكم بعبادتنا ، وما كنتم إيانا تعبدون وإنما كنتم تعبدون هواكم .

ويحتمل أن تكون الآية عامة لمن عبد الأصنام والملائكة والبشر كعيسى ـ عليه السلام ـ وعدم سماع الملائكة وعيسى لهم ؛ لأنهم فى شغل عنهم بما هم فيه ، أو لأن الله صان أسماعهم عن ذلك الدعاء لقبحه ، ولو سمعوا ما استجابوا لهم .

* (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ) أى : المحتاجون إليه .

(هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) أى : المستغنى عما سواه بالذات ، المحمود بكل لسان .

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) : بأن يفنيكم ، ويستبدل بكم غيركم

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) أى : وما ذلك بصعب أو ممتنع على الله .

١٥ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

والمعنى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون فى أنفسكم إيجادا وإبقاء ، وفى حركاتكم وسكناتكم وفيما يعنّ لكم من أموركم ، أو خطب يُلِمُّ بكم ، وهو - سبحانه - الغنى بالذات عما سواه المحمود بكل لسان ، لِفَيْضِ إنعامه عليكم بعد فقركم إليه .

وفى توجيه الخطاب لجميع الناس تغليب للحاضرين منهم على الغائبين .

١٦ - (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى : إن يشأ يذهبكم - أيها العصاة - بإفنائكم وإبدالكم بخلق أطوع منكم وأزكى ، ليسوا على طبيعتكم ، بل مستمرون على طاعته وتوحيده ، أو بأن يأتى بعالم غيركم لا تعرفونه ، فإن غناه فى الأزل بذاته لا بكم .

وتفسير « الجديد » بما ذكر مروى عن ابن عباس ، وجملة « إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » تقرير وتأكيد لاستغنائه - عز وجل - عنهم .

١٧ - (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) :

المعنى : أن إذهابهم والإتيان بخلق جديد ليس على الله بصعب أو متعذر ، فهو - سبحانه - القادر المتصرف إذا أراد شيئاً قال : كن ، فيكون .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(وَلَا تَزِرُ) أى : ولا تحمل ، والوزر : الإثم والثِّقْل ، يقال : وزر يزر من باب وعد ، إذا حمل الإثم أو الثِّقل .

(وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا) أى : وإن تدع نفس أثقلها الإثم إلى حِملها – بكسر الحاء – وهو فى الأصل ما يحمل على الظهر ثم استعير للمعانى نحو : الذنوب والآثام . والجمع أحمال وحمول ، وهو من باب ضرب .

(وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) أى : ومن يصلح حاله فإن ثمرة صلاحه تعود إليه ، يقال : زكا يزكو إذا صلح ، وزكيته بالتثقيل : نسبته إلى الزكاة وهى الصلاح والطهر .

(وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) أى : المرجع والمآب .

التفسير

١٨ – (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ..) :

روى أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد ﷺ وعلىَّ وِزْركم ، فنزلت .

والمعنى : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى يوم القيامة ، بل كل نفس تحمل إثمها الذى اقترفته ، فلا تؤاخذ نفس بما لا تقترفه كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بجاره ، والمولى بوليه .

وأما قوله ـ تعالى ـ : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » فهو وارد فى الضالين المضلين ؛ فإنهم يحملون أثقال إضلالهم الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله من أوزارهم فليس فيه شىء من أوزار غيرهم ، والمراد بأثقالهم : ماكان بمباشرتهم ، وبما معها : ماكان بسببهم .

والمعنى : وإن تدع نفس مثقلة بحملها من الذنوب إنساناً ليتحمل عنها بعض أوزارها لم تُجب بحمل شىء منه ، ولو كان المدعو ذا قربى من الداعى كأب أو ولد أو أخ ، إذ كل مشغول بنفسه كما قال ـ تعالى ـ : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[1] .

وروى عن عكرمة : أن الرجل يأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول له : ألم أكن بك بارًّا ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ؟ فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة . فيقول : إن الذى سألتنى يسير ولكنى أخاف مما تخاف منه ، وإن الأب يقول لابنه مثل ذلك ، فيرد عليه نحوا من هذا ، ثم تلا عكرمة : « وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » .

وقال الفضيل بن عياض : هى المرأة تَلْقَى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ؟ ألم يكن لك ثديى سقاء ؟ ألم يكن حجرى لك وطاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : يابنى ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عنى منها ذنباً واحدًا ، فيقول : إليك عنى يا أماه فإنى بذنبى عنك مشغول .

(إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) : استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر ، أى : إنما تنذر بهذه الإنذارات ونحوها الذين يخشون ربهم غائبين

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

عن عذابه ، أو عن الناس فى خلواتهم ، وأقاموا الصلاة بأركانها وشروطها ، بقلوب واعية ، وأفئدة ذاكرة ، فإنما ينتفع بإنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل الكفر والعناد ، فلا تحزن على إعراضهم عنك وصدهم غيرهم عن دعوتك .

(وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) أى : ومن تطهر من الأوزار والمعاصى بالإيمان والتوبة والعمل الصالح ؛ فإنما يتطهر لنفسه ؛ لاقتصار نفع عمله عليها ، كما أن من تدنس بالمعاصى والإعراض عن دعوة الرسول لا يتدنس إلا عليها .

وهذه الجملة فيها حث على تطهير النفس وتزكيتها .

(وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) أى : وإلى الله المرجع والمآب لا إلى غيره ، وهو وعد للطائع بحسن العاقبة ، ووعيد للعاصى بسوء الخاتمة .

(وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : مثل للكافر والمؤمن . (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) : مثل للباطل والحق . (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) : مثل للثواب والعقاب ، والحرور : الريح الحارة كالسموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار ، نقل ذلك عن الفراء ، وقال الأخفش : الحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل .

١٩ ـ (وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : عطف على قوله : « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ » ، والأعمى والبصير : مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة والسدى وغيرهما ، أى : لا يستوى الكافر الذى يماثل الأعمى فى عدم الاهتداء إلى الطريق الموصلة للغاية ، لا يستوى مع المؤمن الذى يماثل البصير ، فى أنه يضع الأمور فى نصابها ، ويرى الضار والنافع ، ولا تلتبس عليه السبل ، ولا تخفى عليه المقاصد والغايات ، فيهتدى إلى خالقه ولا يشرك به غيره .

وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف ، إشارة إلى أن الكافر موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، فالاستبصار يأتى بعد ضده .

٢٠ ـ (وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ) :

أى : ولا يستوى الباطل المشبه للظلمات ، ولا الحق المماثل للنور ، إذ الظلمات تدعو إلى الحيرة شأن الباطل ، والنور يهدى إلى الطريق القويم ، شأن الحق .

وجمع الظلمات مع إفراد النور ، لتعدد فنون الباطل ، مع اتحاد سبل الحق ، وقدمت الظلمات على النور ، لأنها عدم والنور وجود ، والعدم مقدم على الوجود .

٢١ ـ (وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ) :

أى : ولا يستوى الثواب المشبه للظل فى أنه داع إلى الراحة والنعيم ، مع العقاب الذى يماثل الحرور ، وهى الريح الحارة ، وهى ريح تلفح الوجوه وتكاد تمسك الأنفاس .

وتكرير لفظ (لا) . . بين المتقابلين للتأكيد .

٢٢ ـ (وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ) :

تمثيل للمؤمنين الذين دخلوا فى الدين بعد البعثة بالأحياء ، وللكافرين الذين استكبروا وأصروا على كفرهم بالأموات .

(إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ) أى : يسمع من يشاء من أوليائه الذين خلقهم لجنته سماع تدبر وقبول لآياته .

(وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ) أى : إنك لا تسمع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ، وأبطل حواسهم فأصبحوا كالأموات ، وكما أنك لا تسمع الأموات الذين توسدوا القبور ، فكذلك لا تسمع من مات قلبه من هؤلاء المشركين الذين كتبت عليهم الشقاوة والجملة ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ، وإشباع فى إقناطه ـ عليه السلام ـ من إيمانهم ، حيث علم ـ سبحانه ـ من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيه ، فيهدى سبحانه من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفى عليك أمرهم ، فلا تحرص على إيمان قوم مخذولين رضوا بالباطل وأصروا عليه .

٢٣ ـ (إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ) :

أى : ما أنت إلا منذر بتبليغ رسالة ربك ، فإن كان المنذر ممن أراد الله له الهداية وفق ما علم ـ سبحانه ـ عن طبيعته ، وحسن اختياره ، سمع واهتدى ، وإن كان ممن أراد الله ضلاله ، وطبع على قلبه لإصراره على الكفر ضل وغوى ، فلا تحزن عليهم ؛ لأنه ليس عليك من أمر هدايتهم أو ضلالهم سوى التبليغ والإنذار ، وأما الاهتداء فليس من وظائفك ولا حيلة لك فى المطبوع على قلوبهم لسوء اختيارهم ، وخبث نفوسهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى · محقين بإرسالك ، أو إرسالا مصحوبا بالحق

(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أى : ما من أمة مضى فيها نذير من نبى أو عالم يقال : مضى يمضى مضيا : خلا .

(وَبِالزُّبُرِ) أى : الكتب : جمع زبور ، فعول من الزبر بمعنى الكتابة ، والزبور كتاب داود - عليه السلام - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا) من الأخذ : بمعنى الإيقاع بالشخص وإنزال العقوبة به .

(فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى : فكان إنكارى عليهم شديدا بليغا .

التفسير

٢٤ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) :

المعنى : إنا أرسلناك - أيها النبى - محقين بإرسالك لتكون بشيرا بالوعد الحق ، ونذيرا بالوعيد الحق ، وما من أمة من الأمم التى وجدت فى الأزمنة السابقة إلا سلف فيها نذير من نبى أو عالم ، قام بما كلف به من نذارة أو بشارة ، والاكتفاء بقوله : « نذير » للعلم بأن النذارة قرينة البشارة ، ولا سيما أنهما اقترنتا فى صدر الآية .

٢٥ - (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) : الآية تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى : وإن أصر هؤلاء المكذبون من كفار قريش على تكذيبهم إياك ، فلا تبال بهم ، ولا تعبأ بإعراضهم ؛ لأنه قد كذب الذين من قبلهم من الأمم الفانية التى اتبعت هواها ، وقد جاءتهم رسلهم بالمعجزات الباهرة ، والآيات والبراهين البينة ، والشرائع الموضحة الدالة على نبوتهم ، وصدق دعوتهم ، كما جاءتهم الصحف الإلهية كصحف إبراهيم ، وبالكتاب الذى يشع نورا وحكمة كالتوراة والإنجيل - على إرادة التفصيل - ، يعنى : أن بعض الرسل جاء بالبينات لقوم ، وبعضهم جاء بالزبر لآخرين ، وبعض جاء بالكتاب المنير لغيرهم ، لا على معنى إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر ، ويلاحظ أن البينات بمعنى الدلائل أو الشرائع جاءت لجميعهم .

٢٦ - (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى : ومع ماجاءهم به رسلهم من المعجزات والكتب استمروا على تكذيبهم ، فأمهلهم الله ثم عاقبهم بأنواع العقوبة التى تركتهم أثرًا بعد عين لكفرهم (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) الاستفهام للتهويل والتعظيم ، والمعنى : فكان إنكارى عليهم عظيمًا بليغًا استأصلهم حتى لم تبق لهم باقية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ) الجدد : الطرائق المختلفة فى ألوان الجبال ، جمع جُدة -بضم الجيم - وهى الطريقة .

(وَغَرَابِيبُ سُودٌ) : جمع غربيب ، وهو الذى أبعد فى السواد ، وأغرب فيه ، ومنه الغراب ، والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه لون الغراب : أسود غربيب ، ولفظ « سود » بدل من غرابيب وليس توكيدًا ؛ لأن توكيد الكلمات لا يتقدم عليها . إهـ : قرطبى نقلًا عن القاموس .

(وَالدَّوَابُّ) : جمع دابة ، وهى ما دب من الحيوان ، وغلب على مايركب ، ويقع على المذكر أيضًا : قاموس .

التفسير

٢٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا . . .) الآية .

استئناف مسوق لتقرير ما أشعر به قوله - تعالى - : « ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » من عظيم قدرته - عز وجل - وقال أبو حيان : هو لتقرير وحدانيته - تعالى - بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها - عز وجل - والاستفهام للتقرير ، والرؤية قلبية .

والمعنى : ألم ينته إلى علمك قدرة الله البالغة فيما ذكر ، وفى خلقه الأشياء المختلفة من شىء واحد وهو الماء الذى أنزله من السماء ، فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، وأبيض ، أو يراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع ، فيختلف كل نوع بتعدد أصنافه .

وقوله - تعالى - : (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) : إما عطف على ما قبله بحسب المعنى ؛ أو حال ، أى : وبعض الجبال ذو جدد بمعنى طرائق يخالف لون بعضها لون البعض الآخر ، حيث نجد منها طريقة بيضاء ، ومنها طريقة حمراء ، ومن الجبال ما اتحد لونه ، وهو الأسود شديد السواد ، وقيل : عطف على بيض فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بالجبال الملونة ، والغربيب تأكيد للأسود بحسب المعنى ، فيقال : أسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب ، وقد جاء فى الآية على التقديم والتأخير ، أى : سود غرابيب ، كما قال الفراء ، فيعرب بدلا كما تقدم .

وفى تلك الجبال التى تختلف ألوانها آيات واضحة على كمال قدرة الله ، وعظيم صنعه ، تنزهت أسماؤه عن الشريك والنظير ، وعلا علوًّا كبيرًا .

٢٨ - (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ . . .) الآية .

المعنى : وبعض الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، أى : اختلافًا كاختلاف الثمرات والجبال ، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود ، وقوله : « كَذَٰلِكَ » من تمام ما قبله والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء ، وهذا الاختلاف فى الألوان دليل على صانع مختار - جل شأنه -

وقوله - سبحانه - : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) تكملة لقوله - تعالى - : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم » بتعيين من يخشى الله - عز وجل - من الناس ، بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم ، أى : إنما يخشاه بالغيب العلماء الذين علموه بصفاته فعظموه ، ومن ازداد علمًا به ازداد منه خوفًا ، وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات مع أنها من أصل واحد ، ومَنْ عِلْمُه به أقل كان آمنا لجهله وسوء نظره فيما وراء هذه الحياة ؛ لأن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه ، كما قال - عليه الصلاة والسلام - : « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » ، وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم ، وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله - عز وجل - وأسند الدارمى أبو محمد عن مكحول قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ، ثم تلا : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآءُ ») وحيث كان الكفار بمعزل عن هذه المعرفة لم يفد إنذارهم بالكلية إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

وتقديم لفظ الجلالة وتأخير العلماء يؤذن أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ، وقرئ برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء ، ويكون المعنى : إنما يعظم الله من عباده العلماء ويجلهم ، فالخشية مستعارة للتعظيم ؛ لأن المعظَّم يكون مهيبًا .

(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) : تعليل لوجوب الخشية لدلالة العزة على كمال القدرة على عقوبة العصاة وقهرهم ، ودلالة المغفرة على إثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمعاقب المثيب حقه أن يُخشى ، ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة .

وفى بعض الآثار : نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - وقد ظهرت عليه هذه الخشية حتى عرفت فيه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ) : يقرءونه ، وفعله : تلاه يتلوه تلاوة ، ويقال : تلوت الرجل أتلوه تُلُوًّا على فُعُول : تبعته ، فأنا له تالٍ ، وتِلْو وزن حِمْل .

(لَن تَبُورَ) : لن تهلك . يقال : بار يبور بُورًا ـ بالضم ـ هلك . أو لن تكسد ، يقال : بار الشيء بَوْرا ـ بالفتح ـ : كسد ؛ لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه ، فالمعنيان متقاربان .

التفسير

٢٩ ـ (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) :

المراد من الذين يتلون كتاب الله ، الذين يداومون على قراءته حتى صارت لهم سمة وعنوانًا ، والمقصود بهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عطاء : هم المؤمنون أى : عامَّةً وهو الأرجح ، ويدخل فيهم الأصحاب دخولًا أوليًّا ، وهم مع مداومتهم على تلاوته يعملون به ، فتلك صفتهم .

وقيل : معنى يتلون كتاب الله : يتبعونه فيعملون بما فيه ، بجعل يتلو من تلاه إذا تبعه ، واختار بعضهم المعنى المتبادر حيث إنه ـ سبحانه ـ لما ذكر الخشية وهى عمل القلب ذكر بعدها عمل اللسان والجوارح والعبادة المالية .

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) أى : لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل بما دعا إليه ، فيقيمون الصلاة فرضًا ونفلًا ، وينفقون مما آتاهم الله كيفما تيسر لهم الإنفاق فى السر أو العلانية ، وقيل : السر فى الإنفاق المسنون ، والعلانية فى الإنفاق المفروض .

وكون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يُسْرِفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط ، فمِنْ للتبعيض ، ومقام المدح يشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب .

(يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) أى : يرجون بما قدموا من الطاعات معاملة مع الله لنيل ربح الثواب ، فالتجارة مجاز عن ذلك ، وهذه تجارة لن تهلك ولن تكسد ، وجملة (لَن تَبُورَ) صفة لتجارة جىء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران ؛ لأنها اشتراء باقٍ بفان ، وفيه إشعار بأنهم لا يقطعون برواج تجارتهم عند الله ، بل يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ألَّا يقبلها الله منهم .

٣٠ – (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

قوله – سبحانه – : « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ » متعلق بـ « لَن تَبُورَ » أى : لن تبور ليوفيهم أجور ما قدموا من الطاعات والأعمال الصالحة ، ويزيدهم عليه من خزائن فضله ، وفيض إنعامه . (إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) : تعليل لما قبله من التوفية والزيادة ، أى : غفور للذنوب ، شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب .

(وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَـٰبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مِنَ الْكِتَابِ) أى : القرآن .

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) أى : جعلنا القرآن ميراثًا منك لأُمتك التى اخترناها على سائر الأُمم .

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) : بأَن رجحت سيئاته على حسناته .

(وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ) : بأَن تساوت حسناته مع سيئاته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) : بأَن رجحت حسناته على سيئاته .

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) : الأَساور : جمع أَسورة جمع سوار ، فهى جمع جمع ، وهو مايلبس فى المعصم ، وسوار المرأَة معرب كما قال الراغب .

(الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) أى : أزال جنس الحزن الشامل لأحزان الدنيا والآخرة .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ) أى : تعب ومشقة ، يقال : نَصِب كفرح إذا تعب وأعيا .

(وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أى : إعياء وكلال من التعب ، يقال : لغب لَغْبًا ولغوبًا ، كمنع : أعيا أشد الإعياء .

التفسير

٣١ - (وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

المعنى : والقرآن الذى أوحيناه إليك -أيها النبي- هو الحق مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية ، بمعنى أنه لا ينفك عن التصديق لها وموافقته إيَّاها فى العقائد وأصول الأحكام ، وهو -سبحانه- محيط ببواطن أمور عباده وظواهرهم ، فَعلِمكَ وأبصر أحوالك ، ورآك أهلًا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذى اشتمل على سائر الكتب .

٣٢ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : نحن أوحينا إليك القرآن الكريم ثم قضينا بتوريثه منك الذين اصطفيناهم من عبادنا ، وهم -كما قال ابن عباس وغيره- : أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم ممن يسير سيرتهم إلى يوم القيامة ، أو أمته بأسرهم ، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وَسَطًا ، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله - عليهم الصلاة والسلام - وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله -تعالى- : « فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ[1] » والتعبير عن الإيراث بلفظ الماضى لتحقق وقوعه ، ولأنهم ورثوه أزلًا فى علم الله .

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٦٩

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : الفاءُ للتفصيل ، أى : ظالم لها بالتقصير وهو المرجأُ لأمر الله .

(وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) : يتردد بين العمل بالقرآن ومخالفته .

(وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ) أى : مقبل عليها ، حريص على تحصيلها قبل غيره ، بعلم الله وتوفيقه .

وفى قوله : « بِإِذْنِ اللهِ » تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأْخذها .

وخلاصة القول إن الظالم لنفسه : مَن رجحت سيئاته على حسناته ، والمقتصد : مَن استوت سيئاته وحسناته ، والسابق : مَن سبقت حسناته على سيئاته ـ كما تقدم فى المفردات ـ وكلهم من أهل الجنة مآلًا بعد عفو الله ، وقد روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال ـ وهو على المنبر ـ : قال رسول الله ﷺ : « سابقنا سـابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » ، وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون ، وأَمَّا الكافرون فصفتهم بعد هذا ، وهو قوله ـ تعالى ـ : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ » وكون الطبقات الثلاث من أهل الإيمان هو ما عليه الجمهور .

وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرة أفراده ، وأن المقتصدين قليل بالنظر إليهم ، والسابقين أقل من القليل ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله ، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعين توسيط المقتصد .

(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) أى : ما تقدم من توريث الكتاب ، والاصطفاء ، هو الفضل الذى لا يعادله فضل فى سموه ، وعلو منزلته عند الله . وقيل : الإشارة إلى السبق فى الخيرات ، وهو الفضل الذى لا ينال إلَّا بتوفيق الله وتأْييده .

٣٣ ـ (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) :

يخبر الله أن مأْوى هؤلاء المصطفين من عباده الجنة ، وهم الظالم لنفسه ، والمقتصد ،

والسابق ؛ لأن الدخول ميراث ، والميراث يستحقه العاق والبار إذا كان نسبهم صحيحًا ، وهؤلاء قد صح نسبهم إلى الإسلام بالإيمان ، غير أن الظالم يحبس يوم القيامة ويُردع ويقرع ثم يدخل هؤلاء جميعًا الجنة ، يحلون فيها بعض أساور من ذهب ، ويحلون لؤلؤا كذلك .

(وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) أى : حرير محض ، وتغيير الأُسلوب حيث لم يقل : ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأَن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما المحتاج إلى البيان ماذا يلبسون ؟ بخلاف الأَساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ، فجعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات ، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان صفة اللباس ، وهذا الحرير محظور عليهم فى الدنيا ، فكان لهم فى الآخرة ، ثبت فى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وقال : هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » .

٣٤ - (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) :

المعنى : ويقول الذين ظلموا أنفسهم بعمل ما يؤاخذون به - بعد أن يتلقاهم الله برحمته - : الحمد لله الذى أذهب عنا جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة إن ربنا يغفر الجنايات وإن كثرت ، شكور بقبول الطاعات وإن قلت .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : « غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر القليل من أعمالنا » .

٣٥ - (الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) :

هذا من تتمة كلام الذين حمدوا الله وأثنوا عليه ، أى يقولون : الحمد لله الذى أعطانا دار الإقامة فى الجنة التى لا انتقال بعدها من فضله ومنته وكرمه ، فإن العمل وإن كان سببًا لدخول الجنة فى الجملة ، لكن سببيته بفضل الله ، إذ ليس هناك استحقاق ذاتى ، ومن علم أن العمل متناه زائل ، وثواب الله دائم لا يزول لم يشك فى أن الله ما أحل من أحل دار الإقامة إلَّا بمحض فضله - سبحانه - كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنةَ . قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلَّا أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » .

(لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) أي : لا يمسنا فى الجنة تعب ومشقة ، ولا يلحقنا فيها كلال وفتور ، واللغوب وإن كان نتيجة النصب إلَّا أنه ضم إليه بالعطف ، وتكرير الفعل للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما ، قاله جمع من الأجلة .

وفرق بعضهم بين النصَب واللغوب فقال : النصب : التعب الجسمانى ، واللغوب : التعب النفسانى .

(وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا) : لا يحكم عليهم بموت ثان فتحصل لهم الاستراحة .

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) أى : يستغيثون فى النار بصوت عال ، والصراخ : الصوت المرتفع .

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أى : أولم نعمركم عمرًا يتذكر فيه من أراد التذكر والتفكر ، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه .

(وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ) : الرسول أو المشيب ، أو العقل ، أو موت الأقارب ، أو كل أولئك .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : بخفاياها من النزوات والميول ، وعبر عنها بذات الصدور لملازمتها لها .

التفسير

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) :

لما ذكر -سبحانه- أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم .

والمعنى : أن أهل النار يعذبون عذابًا مستمرًّا بحيث لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا بذلك من عذابها مثل قوله -تعالى- : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ » . « وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا » . « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » وهذا لا ينافى تعذيبهم بالزمهرير ونحوه ، ومثل هذا الجزاء البالغ الشدة يجازى كل كفور مبالغ فى الكفر ، لا بجزاء أخف منه وأيسر .

٣٧ - (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) :

المعنى : أن الكفار يستغيثون فى النار بصوت عال ؛ لأن المستغيث يصيح عاليًا وبه فسره هنا قتادة . ويقولون تحسرا وألمًا على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به ، يقولون : ربنا أخرجنا من النار إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ، ونطع بدل المعصية . وعن ابن عباس : أرادوا بالعمل الصالح : لَا إِلَهَ إِلَّا الله « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ » جواب من قبل الله -تعالى- وتوبيخ لهم . أى : ألم نمهلكم ونعمركم عمرًا يتمكن فيه المكلف من التذكر والتفكر وإن قصر ؛ لأن الحق واضح يستوى فى إدراكه من طال عمره ومن قصر ، إلَّا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم ، وقد جاء فيه ما أخرجه الإمام أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أعذر الله تعالى إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » . (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) : يحذركم ،

والمراد به جنس النذير ، فيشمل العقل والأنبياء وكتبهم ، ويؤيده أنه قرئ : « وَجَآءَكُمُ النُّذُرُ » بصيغة الجمع .

وعن ابن عباس ، وعكرمة ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع ، والحسين بن الفضل ، والفراء ، والطبرى : هو الشيب ، وفى الأثر : « ما من شعرة تبيض إلَّاقالت لأختها : استعدى فقد قرب الموت » .

(فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) الفاء فى قوله : « فَذُوقُوا » لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير ، أى : فذوقوا العذاب ؛ لأنه معد للظالمين أمثالكم وليس لكم ناصر ولا معين ، والمراد بالظلم هنا الكفر ، وأفادت الجملة استمرار نفى أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب .

٣٨ـ (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه ـ سبحانه ـ يعلم كل غيب فى السموات والأرض ، فلا تخفى عليه أحوالهم التى اقتضت الحكمة أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار ، ولو أجابهم وأعادهم إلى الدنيا لعادوا لما نهاهم عنه : (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) تعليل لما قبله ؛ لأنه إذا علم مضمرات الصدور ، وهى أخفى ما يكون ، فقد علم ـ عز وجل ـ كل غيب فى العالم .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ) أى : جعلكم خلفًا بعد خلف ، وقرنًا بعد قرن ، ترثون ما بأيديهم من مال وجاه ، والخلف : التالى للمتقدم ، والخلائف : جمع خليفة ، وهو مطرد فى فعيلة .

(إِلَّا مَقْتًا) : بغضا وغضباً .

(إِلَّا خَسَارًا) : هلاكًا وضلالًا .

التفسير

٣٩ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) :

الخطاب فى الآية قيل : عام ، واستظهره فى البحر ، وقيل : لأهل مكة .

والمعنى : أنه - سبحانه - ألقى إليكم مقاليد التصرف فى الأرض والانتفاع بما فيها من خيرات جمة ، وأباح لكم منافعها المتعددة ، وجعلكم تخلفون من قبلكم من الأمم ، وأورثكم ما بأيديهم من متع الدنيا ؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة ، أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الأمم الذين كذبوا الرسل فهلكوا ، فلم تتعظوا بحالهم ، وما حل بهم من الهلاك ، فمنْ جحد منكم ، وكفر بهذه النعمة العظيمة ، وغمطها حقها ، ولم يعتبر بما حل بالسابق من الأمم فعليه وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ثم بين - سبحانه - وبال كفرهم بقوله : (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) أى : أن عاقبة كفرهم هى مقت الله الشديد ، وخسار الآخرة الذى ما بعده شر ولا إذلال .

وجملة (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ) إلى آخر الآية بيان وتفسير لقوله - تعالى - : « فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ » ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له فعطف عليه .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمْ) أى : أخبرونى عن آلهتكم الذين أشركتموهم فى العبادة .

(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ) أى : نصيب فى خلقها .

(فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ) أى : حجة ظاهرة .

(بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : أباطيل تغر ، وهى قول الرؤساء للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم إلى الله – عز وجل .

التفسـير

٤٠ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) :

الآية عند الكثير فى عبدة الأصنام ، وقيل : فى غير عبادة الله –عز وجل– صنمًا كان أو ملكا أو غيرهما .

والمعنى : قل – أيها الرسول تبكيتًا للمشركين وإنكارًا عليهم – : أخبرونى عن شركائكم الذين أشركتموهم فى العبادة ، ودعوتموهم آلهتكم من دون الله : (أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزءٍ خلقوا من الأرض ، واستبدوا بخلقه دون الله حتى استحقوا الألوهية والشركة ، ثم أضرب عن ذلك فقال : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّموَاتِ) أى : بل ألهم شرك مع الله فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا) : أم بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أآتيناهم كتابًا ينطق بأنا اتخذناهم شركاء فهم على حجة واضحة من ذلك الكتاب المنزل عليهم بأن لهم شركة معه –سبحانه– خلقًا وبقاءً وتصرفا ، حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم . وليس الأمر كذلك فهم لا يملكون من قطمير ، وفى هذا رد على من عبد غيره ؛ لأنهم لا يجدون فى كتاب من الكتب السماوية أن الله –عز وجل– أمر أن يعبد غيره فهم لا يجدون تبريرا لما صنعوا ، وفيه إيماءٌ إلى أن الشرك أمر خطير سلكوه من غير دليل ، ولا بد فى إثباته من تعاضد الدلائل ، وهو ضرب من المستحيل .

وأسندت الشركة إليهم فى قوله ـ تعالى ـ : (أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ) أى : آلهتكم لأنهم هم الذين جعلوهم شركاء لله ـ تعالى ـ واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما قطعًا .

وقيل : الإضافة حقيقية ؛ لأنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه ، أو جعلهم الله شركاء لهم فى النار كما قال ـ سبحانه ـ : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ».

ولما تقرر نفى أنواع الحجج فيما ذكر أضرب عنه بذكر ما حملهم على الشرك فقال ـ سبحانه ـ : (بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) أى : إن الذى حملهم على الشرك هو تغرير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء لهم عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه ، وما هو إلا أباطيل اقترفوها للتغرير والتمويه .

* (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾)

المفردات :

(يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) : يحفظهما كراهة زوالهما ، أو يمنعهما ، فالإمساك مجاز عن الحفظ أو المنع .

(أَن تَزُولَا) : أن تنهدًا وتضمحلا .

التفسير

٤١ ـ (إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) :

قررت الآية السابقة أن الآلهة التى اتخذها المشركون شركاء لله ، أو عبدوها من دونه ، عاجزة عن خلق شىء من الأرض والسماء استقلالًا أو مشاركة ، وجاءت هذه الآية بعدها.

استئنافا يقرر قبح الشرك، ويصور قدرة الله- تعالى- الواضحة بذكر عظمته فى حفظ السموات والأرض .

والمعنى : إن من مظاهر قدرة الله - تعالى - الجلية التى لا تنكرها عين ، ولا يجحدها عقل ، إمساك الله السموات والأرض وحفظهما ومنعهما أن تنهدّا ، أو تغيرا مسيرتهما زمانًا أو مكانًا ؛ فإن الممكن حال بقائه لابد له من حافظ يحفظه ، ولا يكون ذلك إلّا دائم الوجود- سبحانه- (وَلَئِن زَالَتَا) أى : ولئن أشرفتا على الزوال بشرك هؤلاء المشركين- ما أمسكهما من أحد بعد الله كائنا من كان ، أو بعد زوالهما .

وقوله - تعالى- : (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) معناه : إن الله - تعالى - عظيم الحلم واسع العفو ، ومن جملة ذلك حلمه - تعالى - على المشركين ، وتوبته على من تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضى لتعجيل العقوبة لهم ، وعدم إمساك السموات والأرض ، وتخريب العالم الذى هم فيه ، وكانتا جديرتين أن تهدا هدًّا ، لشؤم معصيتهم كما فى قوله - تعالى- : « تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا »[1] .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال لرجل مقبل من الشام : « من لقيت ؟ قال : كعبًا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب ملك قال : كذب كعبٌ ، أما ترك يهوديته بعد ؟ ثم قرأ هذه الآية :

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾)

(١) سورة مريم الآية : ٩٠

المفـردات :

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : حلفوا وبالغوا فى الحلف واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم .

(نَذِيرٌ) : نبي يبلغهم ويخوفهم .

(أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) : أهدى من كل واحدة من أمة اليهود ، والنصارى وغيرهم ، فإحدى بمعنى واحدة ، وأريد بها العموم وإن كانت فى الإثبات لا تعم إلَّا لاقتضاء المقام ، أو المعنى : أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الأمم بمعنى واحدتها ، تفضيلًا على غيرها من الأمم ، كما يقال : واحد قومه ، وواحد عصره ، وقيل المعنى : أهدى من بعض الأمم والبعض المبهم قد يقصد به التعظيم ، وإحدى مثله .

(نُفُورًا) : تباعدا عن الحق وهرباً منه .

(اسْتِكْبَارًا) : تعاليًا وعتوا عن الإيمان .

(وَمَكْرَ السَّيِّئِ) : مكر العمل السيء وهو الشرك ، وخداع الضعفاء ، وردهم عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وأصل التركيب : استكبارًا فى الأرض ، وأن مكروا المكر السيئ ، ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضمر فيه الفاعل ، وأضيف إلى ماكان صفته .

(وَلَا يَحِيقُ) : ولا يحيط ، من حاق بالشيء إذا أحاط به ، من باب باع ، وقال الراغب : أى : لا يصيب ولا ينزل .

(سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) : طريقة الأولين وسيرتهم ، أى : سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم .

((تَبْدِيلًا) : وَضع غير العذاب موضع العذاب .

(تَحْوِيلًا) : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم .

التفسـير

٤٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا) :

بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأُمم ، ثم كان منهم بَعْدُ ما كان ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : حلف مشركو مكة ، وبالغوا فى الحلف ، واجتهدوا أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم من جهد ، لئن جاءهم رسول كما جاء اليهود والنصارى يدعوهم إلى عبادة الله ليكونن فى تصديقه واتباعه أهدى من كل أُمة من اليهود ومن النصارى ، ومن أية أُمة بلغت من الطاعة والهداية وحسن الاتباع أن يقال فيها واحدة الأُمم تفضيلا لها على غيرها ، فلما جاءهم نذير أكرم نذير ، وهو أشرف الرسل محمد ﷺ مازادهم النذير أو مجيئه إلا نفورا وتباعدًا عن الحق ، وهرباً من الإيمان به .

٤٣ - (اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها وتُتم معناها ، والمعنى : مازادهم الرسول أو مجيئه إلا تباعدًا عن الحق استكبارًا منهم ، وتجبرا فى الأرض واستعلاء وإمعاناً فى الشرك ، ومكر العمل السيء الذى يتفننون فى تبييته ، ويدينون به ، ويندفعون فيه من الخداع والصد عن الإيمان والكيد لرسول الله ، وإلحاق الأذى به وبأصحابه ؛ ظانين أن ذلك سيرد الدعوة ، ويضعف شوكة الرسول وصحبه ، جاهلين أن وبال مكرهم سينزل بهم ، ويذهب بكبريائهم ، ويذل استعلاءهم وعنادهم ، ولا يحيط المكر السيءُ ولا ينزل عقابه إلا بأهله الذين دبَّروه وبيتوه ، ومن أمثال العرب : « من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبا » وعن كعب أنه قال لابن عباس : قرأت فى التوراة : « من حفر مَغْواةً وقع فيها » قال : وَجَدْتُ ذلك فى كتاب الله ، فقرأ الآية .

وفى الخبر : « لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » : ولَا تبغوا ولا تعينوا باغيا ، فإن الله - تعالى - يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ » وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر ، والأُمور بعواقبها ووراء الدنيا الآخرة ، وصدق قول الله - تعالى - : (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ) أى : ما ينتظرون إلا سنة الله - تعالى - فيهم

بتعذيب مكذبيهم ، فلن تجد لسنة الله تبديلا بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ، ولن تجد لسنة الله تحويلا بأن ينقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم ؛ فالله عادل لايضع الشىء فى غير موضعه .

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥))

المفردات :

(لِيُعْجِزَهُ) : ليمنعه بالقهر والغلبة . (كَسَبُوا) : فعلوا من السيئات (دَآبَّةٍ) : حيوان يدب على الأرض ، وقيل : المراد الإنس والجن .

التفسير

٤٤ ـ (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا) :

ذكرت الآية السابقة جريان سنة الله ـ تعالى ـ على المكذبين من الأمم السابقة بإنزال العذاب بهم وإهلاكهم .

وجاءت هذه الآية استشهادا وتأكيدًا لهذا المعنى ، وتنويعاً فى المحاجَّة بمالا يستطيعون دفعه ، ولا يتأتى منهم إنكاره .

والمعنى : أقعد هؤلاء المشركون فى مساكنهم ، ولم يسيروا فى الأرض ، ولم يتنقلوا بين ربوعها فينظروا نظر اعتبار وتأمل بما يشاهدونه فى مسايرهم ، كيف كان عاقبة المكذبين من قبلهم من الأمم السابقة من آثار الدمار ، وعلامات الهلاك والخراب عقوبة لهم على معارضة أنبيائهم وتكذيبهم ، وقد كانت هذه الأمم أشد منهم قوة ، وأطول أعمارًا ، وأوسع نعمة ، فلم تغن عنهم قوة ، ولم يمنعهم طول أعمار ، ولم تدفع عنهم نعمهم من عذاب الله شيئاً ، وما كان الله ليمنعه عن مراده أى شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه - جلت قدرته - عليم لايغيب عن علمه شىء ، قدير لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٤٥ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) :

كان المشركون من شدة عنادهم ، وفساد عقائدهم يتعجلون العذاب الذى يتوعدهم الله به ، فأخبر الله - تعالى - فى هذه الآية وفى مثيلاتها من الآيات التى تعرض لذكر العذاب وتتوعد به ، أن للعذاب أجلا مضروبا هو يوم القيامة .

والمعنى : ولو يؤاخذ الله الناس جميعاً ، ويعاقبهم بما كسبوا من السيئات ، ويعجل لهم العذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم ، ما ترك ولا أبقى على ظهر الأرض من دابة تدب ، أو نسمة تدرج من إنسان وجن وحيوان ، قال - تعالى - : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً »[1] .

قال ابن مسعود : « كاد الجُعَل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم » فالمراد بالدابة على هذا عموم المخلوقات ، وقيل : إن المراد بالدابة المكلفون من الإنس ، ويؤيده ذكر (الناس) وقوله - تعالى - : (وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) بضمير العقلاء العائد إلى الناس .

ويوم القيامة هو الأجل المضروب لبقاء نوعهم . (فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) أى : فإذا حل يوم القيامة فإن الله - سبحانه وتعالى - بصير بأحوالهم فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ، إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير ، ولا يظلم ربك أحدا .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٥

سورة يس

وهى مكية وآياتها ثلاث وثمانون

المناسبة بينها وبين السورة التى قبلها أن السورة التى قبلها ذكرت النذير فى قوله تعالى : (لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وقوله : (فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ) وفسر النذير بأشرف الرسل والأنبياء محمد ﷺ فافتتحت سورة « يسٓ » بالقسم على صدق رسالته ، واستقامة طريقه ، تبكيتاً للمشركين على إعراضهم عنه ، وتكذيبهم إياه .

كما أنها عرضت لبعض ماعرضت له السورة السابقة « فاطر » من حركات الشمس والقمر وغيرهما من الآيات الكونية .

أهداف السورة وأغراضها

ابتدأت سورة « يسٓ » بالحديث عن صدق رسالة محمد ﷺ مؤكدة رسالته بالقسم : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) ثم انتقلت إلى الحديث عن أحوال المشركين الذين حقت عليهم اللعنة بمعارضتهم الدعوة ، فرزحوا فى أغلال الشرك عماة عن الحق ، لا يجدى فيهم نصح ، ولا يؤثر معهم إرشاد أو توجيه ، وخلصت من هذا إلى الإشارة إلى البعث الذى يلقى فيه كل إنسان عمله فى إمام مبين ، وكتاب محفوظ .

ثم عرضت الآيات بعد هذا إلى قصة أصحاب القرية ، وشدة مقاومتهم للرسل الذين أرسلوا إليهم ، وقوة لددهم ، وسوء حوارهم معهم ، وتطيرهم منهم .

كما عرضت لحوار أهل القرية مع الرجل الصالح الذى جاءهم من أقصى المدينة مسرعاً ، يدعوهم إلى تصديق الرسل واتباعهم فيما يدعونهم إليه من الهداية التى هم عليها ، ولا يبتغون على ذلك نفعاً ، ولا يسألون أجرًا ، فأوقعوا به ما أوقعوا مما أعقبه الجنة والنعيم ، وأوردهم موارد الهلاك والجحيم . (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) .

ثم انتقلت الآيات إلى عرض صور من مظاهر قدرة الله ، ومشاهد حكمته ، التى تصرف بها فى ملكوت السموات والأرض ، وتصنيف النبات ، وتسخير الأفلاك ، وتفجير الأنهار والبحار وتسيير الفلك لنقل الأحمال والأثقال ، وغير هذا مما تتجلى فيه آيات القدرة ، وبدائع الصنعة .

وتنتهى الآيات من هذا إلى غرض يكاد يكون المقصود الأول فى سياق السورة وهو البعث ومصائر الخلق بعده ، فأصحاب الجنة فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، وأهل الشرك يدفعون إلى الجحيم « هَذِه جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ » ويختم الله على أفواههم .

ثم تعود الآيات إلى مثل ما بدأت من صدق رسالة الرسول ، وتنزه قوله عن اللغو لتخلص منه إلى تعداد ألوان من القدرة تتمثل فى خلق الأنعام وتذليلها ، والانتفاع بها وبخيراتها وإنتاجها ، وبغير ذلك مما لا يتأتى منه شىء من آلهة المشركين المزعومة ، وتأتى فى هذا على أعظم ما تتجلى عنه قدرة الله من خلق الإنسان من ماء مهين ، ثم تسويته إنساناً سويًّا ، وخصماً مبينا ، وتنعى عليه نسيان أصله ، وغفلة عقله حين يستبعد العودة إلى الحياة بالبعث ، وخلق العظام وهى رميم ، وتقرر أن الله الذى خلقها أول مرة هو القادر على إحيائها ، فقد عرفوا أنه قادر على أن يجعل من الشجر الأخضر نارًا مضطرمة ، وعلى خلق السموات والأرض ، فلا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان ، فهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون .

وهكذا تدور السورة فى تجلية البعث فى صور مختلفة تقطع على كل منكر حجته ، وتؤكد لكل عاقل حقيقته .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْحَكِيمُ) : المتضمن للحكمة ، أو الناطق بها .

(صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) المراد بالصراط المستقيم : ما يعم العقائد والشرائع الحقة الشريفة بكمالها .

التفسير

١ - (يسٓ) :يصح أن تكون هذه الكلمة من قبيل الحروف المسرودة التى ابتدأت بمثلها سور أخرى ، مثل : (الٓمٓ) و (طسٓمٓ) وأمثالها ، فيكون الكلام عنها كالكلام الذى قيل فى مثيلاتها وبخاصة فى أول سورتى « البقرة ، وآل عمران » وهى على هذا خالية من الإعراب .

ويصح أن تكون اسماً للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه ، وعليه الأكثر ، وإعرابها على هذا كإعراب سائر التراجم . فهي مرفوعة خبرًا لمبتدإ محذوف ، أو منصوبة مفعولا به لفعل مضمر ، والتقدير : هذه يسٓ - أو اقرأ يسٓ .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - معناه :يا إنسان فى لغة « طيء » قالوا : والمراد به محمد ﷺ كما يشير إليه الخطاب بعده فى قوله - تعالى - : (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

قال الزمخشرى : إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله : يا أليسين ، فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما فى القسم بـ « مُ الله » فى « أيمن الله » .

وقال الآلوسى : وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن « يس » بمجموعه اسم من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو ظاهر قول السيد الحميرى :

يا نفس لاتمحضى بالود جاهدة . على المودة إلا آل ياسينا

ولتسميته ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف .

٢ ، ٣ ، ٤ ـ (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

قوله ـ تعالى ـ : « وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ابتداء قسم ، معناه : وأقسم بالقرآن المحكم ، أو المتضمن للحكمة والناطق بها ، وقوله ـ تعالى ـ : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » جواب للقسم معناه : إنك يا محمد لمن المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم بدعوتهم إلى الحق ، وتوجيههم إلى سبل الخير ، والجملة لرد إنكار المشركين المنكرين لرسالته ، المتمثل فى كثير من كلامهم فى مثل قولهم : « لَسْتَ مُرْسَلًا » . وفى مثل ما سبق فى سورة « فاطر » مما يشعر بأنهم فى قمة العناد ، من قوله ـ تعالى ـ : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، اسْتِكْبَارًا فِى الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ » .

وفى القسم بالقرآن أولا ، ووصفه بالحكمة ثانياً تنويه بقدره ، وإشادة بشأنه على أكمل وجه ، وأوفى بيان .

وقوله ـ تعالى ـ : (عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) خبر ثان داخل فى حيز القسم ، أى : إنك يامحمد لمن المرسلين ، وإنك على طريق مستقيم بالغ ذروة الكمال فى الاستقامة ، والبعد عن الزيغ والانحراف ، قائم على العقائد الصحيحة ، والشرائع الحقة الشريفة بكمالها ، وتضمنها كل خير للإنسان والإنسانية كما يفهم من التنكير المفيد للتعظيم والتفخيم ، والمقصود من هذه الآية التنويه بشأنه ﷺ وإعلاء قدره ، وتقرير أنه على السنة المثلى والطريق السوى ، فإن أحدا من أهل النظر لا يجهل أن المرسلين جميعاً على صراط مستقيم .

(تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(لِتُنذِرَ) : لتخوف وتعظ .

(لَقَدْ حقَّ الْقَوْلُ) : لقد ثبت ووجب القول بالعذاب .

التفسير

٥ ، ٦ - (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) :

قوله -تعالى- : (تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) : استئناف لإظهار فخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بالقسم به ، ووصفه بالحكمة .

والمعنى : نزل هذا القرآن تنزيلا على محمد من الله العزيز فى ملكه ، الرحيم بخلقه . ولهذا قال الله فى شأنه : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعبرين عن الغلبة الكاملة ، والرحمة الشاملة مزيد من التنويه بفضل القرآن الكريم ، وسمو مرتبته .

وقوله تعالى : « لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) : تعليل للتنزيل متعلق به ، أى : نَزَّل هذا القرآن العظيم العزيزُ الرحيمُ ؛ لتخوف به يا محمد قوماً لم ينذر ولم يخوف بمثله آباؤهم الأقربون ؛ لتطاول مدة الفترة عليهم حتى تغشاهم الجهل . وران على قلوبهم الكدر فهم غافلون لا تستشعر قلوبهم رسالة ، ولا تستشرف لرسل قبله حتى أصبحوا فى الحاجة الملحة إلى من ينذرهم ويرشدهم تخويفاً من عذاب الله ، وطمعًا فى رحمته .

وقيل : إن المعنى لتنذر قوماً الإنذار الذى أُنذر بمثله آباؤهم الأقدمون فى عهد إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – فنسوه وغفلوا عنه ، فـ (ما) هنا فى قوله : « مَآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ » مصدرية وليست نافية .

وهناك وجه غفل عنه معظم المفسرين ، وهو أن رسالة إسماعيل – عليه السلام – كانت للعرب العاربة ، أما العرب المستعربة الذين نشأوا من ذرية إسماعيل فلم يأتهم رسول قبل محمد ﷺ وقريش من ذريتهم .

٧ – (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : والله لقد ثبت القول بعدم الإيمان على أكثر هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الشرك ، وإعراضهم عن إجابة الرسول ، وعدم تأثرهم بالإنذار ، والتذكير ، وغلوهم فى العتو والعناد ، حتى صح فيهم قول القرآن على لسان إبليس : « وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[1] » .

وقوله تعالى : (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) متفرع على إصرارهم على الشرك ، وتماديهم فى العناد والمعنى : فهؤلاء مصرون على الشرك إلى الموت ، مختارون له لا ينتظر منهم امتثال ، ولايرجى ، لهم إيمان باختيارهم ، ولهذا هداهم الله إليه بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة .

(إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(أَغْلَالًا) : جمع غل ، وهو القيد الذى يوضع فى العنق ، تشد به اليد إلى العنق .

---

(١) سورة الحجر ، من الآية : ٣٩

(مُقْمَحُونَ) : رافعو رءوسهم ، غاضُّو أبصارهم ، من : قمح البعير إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب .

(سَدًّا) : حاجزًا ومانعاً .

(أغشَيْناهُمْ) : غطينا أبصارهم وأعميناهم .

التفسير

٨ ، ٩ - (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما تأكيد لمعانى الآية السابقة ، وتقرير لتصميم المشركين على شركهم ، وعدم إذعانهم للحق بتمثيل حالهم بحال من جعلت الأغلال فى أعناقهم منتهية إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم له فهم مقمحون رافعون رءوسَهم غاضون أبصارهم بحيث لايكادون يرون الحق ، أو يلتفتون إلى جهته .

وقوله -تعالى- : (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) : من تمام التمثيل وتكميله ، أى : وجعلنا مع ما ذكر من الأغلال أمامهم سداً عظيماً ، ووراءهم سَدًّا مثله . فأغشيناهم بذلك ، وغطينا أبصارهم فهم لايقدرون على إبصار شىء أصلا لا من أمامهم ولا من خلفهم .

ويصح أن يكون تمثيلا مستقلا ، فإن جعلهم بين سدين هائلين يغطى أبصارهم بحيث لايبصرون شيئاً ، ويعطى صورة جديدة تنم عن كمال فظاعة حالهم ، وكونهم محبوسين فى مطمورة الغىّ والجهالات محرومين من النظر والانتفاع بالأدلة والآيات .

وقيل : الآيتان فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ، ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم .

والأولى أن تبقى الآية على عمومها متممة لسياق الآيات قبلها وبعدها ، ولامانع أن يكون أبوجهل ضمن ما اشتملت عليهم من المشركين الذين حق القول على أكثرهم ، وتكون الآية من قوله – تعالى – :

١٠ – (وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

بياناً لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل ، أى : ويستوى عند هؤلاء المشركين المصرين على الكفر إنذارك إياهم وعدم إنذارك فقد اختاروا لأنفسهم ، وحق عليهم العذاب والنكال .

وقوله : (لَا يُؤْمِنُونَ) استئناف مؤكد لما قبله ، موضح لإجمال ما فيه الاستواء .

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(تُنذِرُ) : تخوف وتبلغ . (الذِّكْرَ) : القرآن .

(خَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ) أى : خاف عقاب الله قبل حلوله ، أو من غير أن يراه ، أو خافه فى سريرته ، ولم يغتر برحمته .

(نُحْيِى الْمَوْتَى) : نبعثهم من موتهم يوم القيامة للحساب .

(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) : ونكتب ما أسلفوا من أعمال صالحة وغير صالحة .

(وَآثَارَهُمْ) : أعمالهم التى تبقى بعد موتهم .

(أَحْصَيْنَاهُ) : بيناه وحفظناه ، وأصل الإحصاء العد للحفظ .

(إِمَامٍ مُّبِينٍ) : أصل عظيم ، مظهر لما كان وسيكون ، وهو اللوح المحفوظ .

التفسير

١١ - (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) :

لما قررت الآية السابقة أن إنذار الرسول وعدمه سواء فيمن أصر على تنكب طريق الصواب ناسب أن تجيء هذه الآية لتجلية حقيقة من ينتفع بأسلوب التذكير من القلوب اللينة ، والنفوس الخصبة التى تحسن اتباع القرآن خشية من الرحمن ، وجاءت الآية بعدها لبيان أن الله هو الذى يحيي موات القلوب ، كما يحيي الموتى ، وذلك حين يجيء أوان الهداية ، وقد حدث ذلك عند فتح مكة .

والمعنى : إنما يجدى الإنذار ، ويؤتى ثماره ، ويتحقق نفعه ، وتظهر آثاره مع من اتبع القرآن وتدبره ، وأدام فكره ونظره فيه ، وتأمل معانيه ، ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان ، وخشى الرحمن بالغيب ، فخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله ، أو خشى الرحمن وهو غائب عنه ، أو خشى الرحمن وتحاشى معصيته فى سريرته ، كما يتحاشاها فى علانيته وجلوته ، فمن كان هذا حاله ، وذاك سلوكه ، فهو حرى أن يبشره بمغفرة واسعة ، وأجر كريم عظيم ، لايقادر قدره ، ولا يخضع للتقدير حزره .

١٢ - (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) :

تنتهى الآيات السابقة كلها بهذه الآية تذييلا عاماً ينتظم المصممين على الكفر ، والمنتفعين بالإنذار والتخويف ترهيباً وترغيبا ، ووعيداً ووعداً ، وإيذاناً بأن الله الذى سوف يحيي موتاهم عند البعث ، سيحيي موات قلوبهم حينما يجيء أوان هدايتهم ، وقد تم ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة حيث أسلموا جميعاً عند فتح مكة .

والمعنى : إنا نحن -وحدنا دون غيرنا- القادرون على أن نحيي الموتى جميعاً المؤمنين منهم والكافرين ، المصدقين بالبعث منهم والمكذبين ، ونبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ونكتب ونثبت ماقدموا وأسلفوا من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، ونحفظها لهم ، ونثبت آثارهم التى يبقى بعد موتهم ثوابها من الحسنات : من علم علّموه ،

أو كتاب ألَّفوه ، أو نبع أجروه ، أو أرض وقفوا غلتها على الفقراء والمعوزين ، أو غير ذلك من نواحي البر ووجوه الخير ، كما نثبت آثارهم السيئة التي يبقى بعد موتهم شرها وضرها من القوانين الظالمة التي سنوها ، والعادات القبيحة التي اعتادوها واعتادها الناس تبعاً لهم ، والمظالم التي ارتكبوها ، وغير ذلك من ضروب الشر ، وألوان الفساد والمنكر .

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة فله أجْرُها وأجرُ مَن عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سنَّ سنةً سيئةً كان عليه وِزْرُها ووزر مَن عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً ، ثم تلا : « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » .

وفسر بعضهم الآثار بالخُطى إلى المساجد ، مستظهرين على ذلك بما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر ، والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري - قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله - تعالى - : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) : فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا » .

والأظهر أن تحمل الآثار على ما يعم الخطى إلى المساجد ، وغير ذلك من الأعمال الصالحة والطالحة ويترجح ذلك بأمور :

١ - أن الآية تذييل عام لكل ما سبقها من آيات .

٢ - أن السورة مكية ، واعتبار هذه الآية في بني سلمة يجعلها مدنية بين آيات السورة كلها .

٣ - أن قصارى ما يفيده الخبر اعتبار الخطى إلى المساجد من الآثار التي يبقى ثوابها بعد موت صاحبها ، وتعميم ذلك خير من تخصيصه .

وقوله - تعالى - : (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) معناه : وكل شيء من الأعمال كائنا ما كان قليلا أو كثيرًا ، عظيماً أو صغيرًا ، نافعاً أو ضارًّا ، بيناه وحفظناه في إمام مبين ، وأصل عظيم الشأن مظهرًا لما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ الذي يؤتم به ويقتدى ، ويتبع ولا يخالف .

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا) : ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ... » الآية ، وتارة أخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها .

(الْقَرْيَةِ) قيل : إنها إنطاكية (فَعَزَّزْنَا) : قوينا ودعمنا .

(الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ الواضح .

التفسير

١٣ ، ١٤ - (واضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) :

انتقلت الآيات إلى قصة أصحاب القرية وحوارهم مع الرسل الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى ، كما أرسل هارون تأييدًا لموسى - عليه السلام - وذلك تسلية للرسول ﷺ وتخويفاً للمشركين من مغبة إصرارهم على العناد والكفر .

والمعنى : واجعل يارسول الله أصحاب قرية إنطاكية مثلا لهؤلاء المشركين ، وطبق حال أمتك وسلوكهم معك ومثّله بحالهم من الغلو فى الكفر ، والإصرار على تكذيب الرسل ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك ، طبق هذا وقِسْهُ حتى يدركوا عاقبة سوء فعلهم ، ومآل كفرهم وعنادهم .

ومعنى (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) أى : وقت أن جاء أهلها المرسلون الذين أرسلهم الله تأييدًا لعيسى – عليه السلام – يدعون إلى توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وترك عبادة غيره .

وقوله – تعالى – : (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) : تفصيل للإجمال فى قوله : (إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ) .

ومعنى (إِذْ أَرْسَلْنَا) أى : وقت أن أرسلنا إليهم رسولين هما : « يحيى ، وبولس » – على ما قيل – وقوله تعالى – : (فَكَذَّبُوهُمَا) يشير إلى إيجاز فى الأسلوب مفاده : فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فعززناهما وقويناهما برسول ثالث هو « شمعون » – على ماقيل – فقال ثلاثتهم لأهل القرية : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) ندعوكم لعبادة الله دون غيره من الآلهة العاجزة التى لا تنفع ولا تضر ، وجاء قولهم : (إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) : مؤكدا يناسب حالهم وتكذيبهم للرسولين الأولين .

١٥ – (قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) : أى : قال أصحاب القرية إنكارًا لقول الرسل لهم : (إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) : ما أنتم فى أية حال من أحوالكم إلا بشر منا ومثلنا فأنّى لكم مزية موجبة لاختصاصكم بهذه الدعوة ، والارتفاع إلى مستوى القيادة علينا والدعوة لنا .

ثم يتدرجون فى الإنكار عليهم وتكذيبهم بإثبات البشرية لهم ، فينكرون أن يكون الله – تعالى – قد أنزل شيئاً مما يدعونهم إليه من الوحى والرسالة ، ثم يترقون من ذلك إلى تكذيبهم تكذيباً مباشرًا صريحاً بقولهم : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ) بأسلوب يحصرهم فى إطار الكذب والاختلاق ، ويسجل عليهم التمادى فيه .

١٦ - ١٧ - (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى : قال الرسل لأهل القرية : ربنا وحده يعلم حقيقة رسالتنا، وصدق دعوتنا، ويعلم إنا إليكم لمرسلون لتبليغكم الرسالة ، ودعوتكم إلى التوحيد ، يردون بذلك تكذيب أهل القرية ويسفهون قولهم بإشارات ثلاث :

أولا : بإسناد علم الرسالة إلى الله -تعالى- ردا على قولهم : (مَآ أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ) وهو أسلوب جرى مجرى القسم مع مافيه من تخويفهم ، وتحذيرهم معارضة علم الله .

ثانيا : بإعادة القول بتأكيد إرسالهم إليهم مع اختصاص الله بعلمه ، وأنهم لاينكرونه إلا عنادا ومكابرة .

ثالثا : ببيان أن مهمتهم تبليغ الرسالة تبليغا واضحا بالآيات الشاهدة على صدقه ، وأنهم بهذا التبليغ قد خرجوا عن عهدته ، فلا مؤاخذة لهم من جهة الله - تعالى - سواء صدقوا أو كذبوا .

(قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(تَطَيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصل التطير : التفاؤل والتشاؤم بالطير .

(لَنَرْجُمَنَّكُم) : لنرمينكم بالحجارة حتى تموتوا .

(لَيَمَسَّنَّكُمْ) : ليصيبنكم .

(أَلِيمٌ) : موجع .

(طَآئِرُكُمْ) : سبب شؤمكم .

(مُّسْرِفُونَ) : مجاوزون الحد فى العصيان مستمرون عليه .

التفسير

١٨ ـ ١٩ ـ (قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُواْ طَآئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) :

تطور حوار أهل القرية مع الرسل من مجرد التكذيب والإنكار إلى الشتم والتهديد ، والتوعد المقترن بالقسم ، قالوا لما ضاقت عليهم الحيل ، وعييت بهم العلل ، وانسدت أمامهم أساليب الجدل ـ قالوا ـ للرسل جريا على عادة الجهال : إنا تشاءمنا بوجودكم ، وضقنا من قولكم ، ثم أتبعوا ذلك قولهم توعدا مؤكدا بالقسم ، والله لئن لم ترجعوا عن دعوتكم ، وتمسكوا عن مقالتكم ، لنرمينكم بالحجارة وليصيبنكم منا عذاب أليم ، وإيذاء موجع لايقادر قدره .

قيل : إن سبب التطير انقطاع المطر عنهم ، أو انتشار الجذام فيهم ـ والله أعلم بصحة ذلك ـ ورد عليهم الرسل ، قالوا : طائركم وتشاؤمكم ملازم لكم ، نابع من قبح أعمالكم ، وسوء عقيدتكم ، ومافعلنا معكم مايقتضى تشاؤما ، أو يثير ضيقا ، سوى أن ذكرناكم وخوفناكم عذاب ربكم ، ودعوناكم لما فيه سلامتكم وسعادتكم ، وليس فى ذلك مايقتضى تشاؤما ، بل أنتم قوم مسرفون ومتجاوزون الحد فى الظلم والعتو ، ممعنون فى الشرك تعيشون فيه وتقيمون عليه ، والمصائب التى حاقت بكم من سوء أعمالكم .

(وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(أَقْصَى الْمَدِينَةِ) : أبعد مكان فيها .

(رَجُلٌ) قيل : هو حبيب النجار .

(يَسْعَىٰ) : يعدو مسرعا فى عدوه ومشيه .

التفسـير

٢٠ - ٢١ - (وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُــلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ) :

انتقلت الآيات من حوار أهل القرية مع الرسل إلى حوار بين رجل من أهل القرية وقومه تنويعا فى أسلوب التأسية ، وتوسيعا فى صور التسلية للرسول ﷺ وأصحابه .

والمعنى : وجاء من أبعد موضع فى المدينة رجل من أهلها يسرع فى عدوه ، ويجد فى سيره إثر تورط قومه فى تهديد الرسل ، وارتفاع أصواتهم بتوعدهم ، ينصحهم حرصا على هدايتهم ، وخوفا على الرسل منهم ، قال بنداء يتألف به قلوبهم : «يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) أى : صدقوا وأجيبوا المرسلين الذين أرسلهم الله لدعوتكم وهدايتكم ، وتحريركم عن الشرك ، وعبادة الأوثان .

(اتَّبِعُوا مَن لَّايَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ)أى : أجيبوا دعاء من لايبتغون من وراء دعوتكم أجرا ولايطلبون على إجابتها نفعا ولا كسبا ، وإنما يقومون بها امتثالا لأمر الله ، ورجاء فى هدايتكم وإرشادكم إلى مافيه استقامة دنياكم ، وسعادة آخرتكم ، وحسبكم فى صدقهم وتصديقكم لهم أنهم يدعونكم لما هم مهتدون إليه ، طامعون أن يكون لكم من الخير والهداية مايرجونه لأنفسهم دون أن يطلبوا على ذلك أجرا ، وذلك دليل على صدقهم .

قال وهب : كان حبيب مجذوما ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة ، وكان يدعوهم لعلهم يرحمونه ، ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله ، فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر يفرج عنك مابك ، فقال : إن هذا لعجيب ! ! ! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ ؟ فقالوا : نعم ، ربنا على مايشاء قدير ! ! وهذه لاتنفع شيئا ولاتضر ، ودعوا ربهم فكشف الله عنه كأن لم يكن به بأس ، فآمن وأقبل على التكسب ، فإذا أمسى تصدق من كسبه ، فأطعم عياله نصفا ، وتصدق بنصف. فلما هم قومه بقتل الرسل جاء فنصحهم ـ والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(فَطَرَنِى) : خلقنى وابتدأ وجودى ، من : فطر البئر إذا ابتدأ حفرها .

(تُرْجَعُونَ) : تردون من الموت إلى الحياة بالبعث .

التفسير

٢٢ - ٢٤ - (وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّاتغنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ . إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

هذه الآيات ومابعدها استمرار من الرجل فى حوار قومه مع التلطف والملاينة فى إرشادهم بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لها مع التعريض بهم والتقريع لهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره .

والمعنى : وأى شىء أصابنى ؟ وأى سفه خالط عقلى حتى أمسك عن عبادة ربى الذى ابتدأ خلقى ، وابتدع وجودى ووجودكم ، وله مرجعى ومرجعكم نرجع إليه بالبعث فيجازينا بأعمالنا خيرا وثوابا أو شرا وعقابا ؟

ومعنى قوله -تعالى -حكاية عنه : (ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ....) إلى آخر الآية أيستقيم لى ويتأتى فى عقلى أن أتخذ من دون الله آلهة غيره ، أعبدهم وأدين لهم ، إن يردنى - سبحانه وتعالى - بضر ، ويقدره على ؛ لاتغنى شفاعتهم عنى شيئا من النفع ، ولاتقدر أن تخلصنى

وتنقذنى مما أراده لى وقدره على بالنصرة والمظاهرة ، إنى إذا فعلت ذلك لنى ضلال مبين وهلاك أكيد ؛ لأن إشراك ماليس من شأنه جلب النفع ، ولادفع الضر ، بالخالق القادر الذى لاقادر غيره ولاخير إلا خيره ، سفه بين وضلال واضح .

(إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾)

التفسير

٢٥ - (إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) :

الخطاب فى هذه الآية يحتمل أن يكون من الرجل للرسل بعد أن نصح قومه بما نصحهم به ، فهموا بقتله ، فأسرع نحو الرسل قائلا : (إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ) وأكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة ، وصادق اليقين ، وأضاف الرب إلى ضميرهم لزيادة التقدير كأنه قال : بربكم الذى أرسلكم إلينا والذى تدعوننا إلى الإيمان به .

ومعنى (فَاسْمَعُونِ) : فاسمعوا إيمانى ، وسجلوه على ، واشهدوا لى به عند ربكم وربى . ويحتمل أن يكون الخطاب من الرجل لقومه شافههم به إظهارا للتصلب فى الدين ،

وعدم المبالاة بهم ، وإضافة الرب إلى ضميرهم لبطلان ماهم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا ، ويقال : إنهم قتلوه بعد أن وقف فى صف الرسل وقفة متينة .

٢٦-٢٧ - (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) :

اشتملت الآيتان على جوابين عن سؤالين مقدرين :

الأول : كيف كان لقاؤه ربه بعد هذا التمسك بالدين ، وقتل قومه له ؟ ؟ .

والجواب : قيل له : ادخل الجنة جزاءً موفوراً على صدق إيمانك ، وسخائك بروحك ويكون ذلك تبشيراً له بدخولها ، ووعدا له بها وأنه من أهلها .

الثانى : فماذا قال بعد نيله تلك الكرامة ، وتلقيه هذه البشرى ؟ ؟ .

والجواب : تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالرجوع عن الكفر ، والدخول فى الإيمان إشفاقًا على قومه أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأمرهم ، وأن عداوتهم له لم تكسبه إلا سعادة ونعيما .

ومعنى (بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) : ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى بإيمانى به وتركى عبادة الأصنام وأنه أعقبنى بذلك هذا الفوز العظيم ، والمراد تعظيم رحمته ، وتفخيم مغفرته تعالى .

وبالجملة فقد تمنى الرجل أن يعلم قومه حاله ، وعاقبة أمره لقاء إيمانه ، وصدق يقينه وتصلبه فى دينه ، وسخائه بروحه فداءً لعقيدته ، وانتصاراً لرسله حتى استحق أن يكون من جملة المكرمين من الله المبشرين بجنته ، الموعودين بنعيمه فى حظيرة قدسه ، ودار أنسه ، ومستقر رحمته .

* ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفـردات :

(صَيْحَةً) : صوتا قويا .

(خَامِدُونَ) : ميتون خامدون كما تخمد النار .

التفسـير

٢٨ - (وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أنه جاء رجل من أقصى المدينة (مدينة أنطاكية على ماذكره كثير من المفسرين) - جاء - يسعى ليحث قومه على اتباع المرسلين الذين لايطلبون أجرا على إرشـادهم ونصحهم وهم مهتدون ، فلمـا نصحهم ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه فقيل له - من عند الله جزاءً على إيمانه ، وحسن دعوته إلى الله - : ادخل الجنة فدخلها ، فلما شاهد ماشاهد من إكرام الله له قال : «يَالَيْتَ قَوْمِى يعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ » ليؤمنوا كما آمنت ، وهكذا : نصح هذا الرجل المؤمن قومه فى حياته بقوله : «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » وتمنى أن يعرفوا حُسْنَ جزائه بعد مماته ليؤمنوا وذلك بقوله : (يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَلِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ) فما أعظم هذا الرجل ، فقد كانُ حريصا على هداية قومه حيا وميتا .

وفى قوله تعالى : « وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » : يخبر الله - تعالى - أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إيّاه ، غضبا منه عليهم ، لأنهم كذَّبوا رسله وقتلوا وليّه ، ويذكر - عز وجل - أنه ما أنزل على قومه ملائكة لإهلاكهم ، بل كان الأمر أيسر من ذلك ، ومعنى قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ) أى : وما ينبغى فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم هذا الرجل - الذى يسميه كثير من المفسرين حبيبا - ماينبغى فى حكمتنا أن ننزل جندا من السماء ، لأن الله - تعالى - أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض بناءً على ما اقتضته الحكمة ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] » وكأنه أشار بقوله : « وَمَآ أَنزَلْنَا - وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ » إلى أن إنزال الجنود من السماء من عظائم الأمور ولايليق إنزالها إلا من أجلك يامحمد ، كما حدث فى غزوتى بدر والخندق انتصارا لك من قومك ، وماكان ينبغى أن نفعل ذلك من أجل غيرك .

٢٩ - (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) :

أى : ماكان إهلاكهم وعقوبتهم إلا بصيحة واحدة أرسلناها عليهم فإذا هم ساكنون سكون الميت كالنار الخامدة ، وفى ذلك تحقير لهم وتقليل لشأنهم ، روى أن الله - تعالى - بعث عليهم جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا ، ذكره الآلوسى وغيره ، وفى التعبير بإذا الفجائية فى قوله- تعالى - : « فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » مايشير إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة .

ولقد ذكر بعض المفسرين أن هذه القرية التى أهلك الله أهلها (أنطاكية) كما تقدم ذكره ، ويرى ابن كثير أنَّ أهل (أنطاكية) [2] كانوا أول أهل بلد آمن بالمسيح

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٤٠

(٢) أنطاكية فى القاموس بدون تشديد الياء وفى هامشه بتشديدها .

- عليه السلام - ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة التى فيها «بطارقة» وهى : ١ - القدس ٢ - أنطاكية ٣ - الإسكندرية ٤ - روما

فعلى هذا يتبين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن قرية أخرى غير أنطاكية المعروفة كما قال بذلك غير واحد من السلف . ا هـ ابن كثير .

(يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(يَاحَسْرَةً) الحسرة : الغم والندم .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن والمراد بهم : القوم المقترنون فى زمن واحد .

التفسير

٣٠ - (يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

نداء للحسرة تنزل بهم كأنما قيل لها : تعالى ياحسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل الذين جاءوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ، ويجوز أن يكون من الله على سبيل المجاز لتهويل ماجنوه على أنفسهم وفرط إنكاره له ؛ لأنهم ما يأتيهم رسول من الرسل إلا كانوا به يستهزئون ، ومنه يسخرون ، وبما جاءهم

به من الحق يكذبون ويجحدون ، والحسرة كما قال الراغب : الغم على مافات والندم عليه ، والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولا أوّليا .

٣١ - (أَلَمْ يَرَوْاكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

أى : ألم يعلموا فيتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من القرون الماضية والأمم السابقة المكذبين للرسل وهم كثيرون ، ألم يروا كيف قضينا أنهم إليهم لايرجعون ، وليس لهم فى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم من قولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] وهم القائلون بالدور من الدهرية وغيرهم من الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، يحكى عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أنه قيل له يوما : إن قوما يزعمون أن عليامبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : بئس القوم نحن : نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه ، أما تقرءون : « أَلَمْ يَرَوْاكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَايَرْجِعُونَ » .

٣٢ - (وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) :

بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا ، أى : ما كل الأمم السابقة واللاحقة إلا مجموعون لدينا مقهورون على الحضور إلينا يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، وهذا كقوله - تعالى - : «وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُم[2] » وفى الآية دليل على أن المهلك عقابا لايترك بل يعذب فى الآخرة على كفره فوق مانالاه من عقاب فى الدنيا .

---

(١) سورة (المؤمنون) الآية : ٣٧

(٢) سورة هود ، من الآية : ١١١

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ) : المُجْدبة .

(فَجَّرْنَا) : شققنا .

(الْأَزْوَاجَ) : الأنواع والأصناف ، وقال قتادة : الذكر والأنثى .

التفسير

٣٣ـ (وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) :

أى : ودلالة قوية لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه للموتى ، الأرض الجدباء تراها ميتة هامدة لاشىء فيها من النبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون .

وتقديم لفظ (منه) فى قوله ـ تعالى ـ :(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) للدلالة على أن الحَبَّ هو الشىء الذى يرتبط به معظم العيش ، فكأنه لامأكول سواه ، فإذا قلَّ الماءُ جاء القحط ووقع الضرر ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاءُ .

٣٤ـ (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) :

وأنشأْنا فى الأرض جنات ـحدائقـ وبساتين من : نخيل وأعناب وغيرهما ، وخصهما

بالذكر لأنهما غذاء ودواء وفاكهة ، وشققنا فيها من عيون الماء ماينبت الشجر ، ويخرج الزهر وينضج الثمر .

والجنات : جمع جنة – وهى كما قال الراغب – الجنة – كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض ، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة ، من الجَنّ وهو الستر .

٣٥ – (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) :

أى: وجعلنا فيها جنات ليأكلوا مما خلق الله فيها من الثمر، وليأكلوا من الذى عملوه وصنعوه بأيديهم ، والمراد به : مايتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما ، وقال الزمخشرى : وما عملته أيديهم من الغرس والسقى والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبّان أكله ، يعنى أن الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه ،وفيه آثار من كد بنى آدم .

ويجوز أن تكون (ما) نافية فى قوله : (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) والمعنى: وما عملت الثمر أيديهم فهو من خلق الله ، وأثر ذلك عن ابن عباس والضحاك وغيرهما .

(أَفَلَا يَشْكُرُونَ) إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم الكثيرة ، وحث ودعوة إلى شكر المتفضل ، ويكون الشكر بالتوحيد ، والعبادة ، وحسن الثناء على الله ، والاعتراف بآلائه .

٣٦ – (سُبْحَـٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) :

استئناف مسوق لاستعظام ماذكر فى الآيات الكريمة قبلها من بديع آثار قدرته ، وأسرار حكمته ، وروائع نعمائه ، الموجبة لشكره ، والمقصود من قوله : « سُبْحَانَ . . . » تنزيه الله – تعالى – عن كل نقص وتخصيصه بالعبادة ، والتعجيب من إخلالهم بذلك والحال هذه .

والمعنى : تنزيها وتقديسا لله الذى خلق الأشياء كلها على سنن : الذكورة والأنوثة من النبات والإنسان ومما لايعلم الناس ،قال –تعالى– : «وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[1] .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٤٩

فهو - سبحانه - جعل قانون الذكورة والأنوثة فى مخلوقاته كلها ، سواءٌ فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر ، وفيما لايعلمه الناس من الأحياء غير المنظورة من أزواج لم يطلعهم الله عليها ولاتوصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ، ولايبعد أن يخلق الله على هذا النحو من الخلائق مالم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به ؛ لأنه لاحاجة بهم فى دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لايعلمون قال - تعالى - : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »[(١)] .

وفى الإعلام بكثرة أنواع ماخلق - ماعلموه وماجهلوه - مايدل على عظم قدرته واتساع ملكه .

وقال الراغب : (الأزواج) : جمع زوج ، ويقال لكل واحد من القرينين ولكل مايقترن بآخر مماثلا له أو مضادا ، وكل مافى العالم زوج من حيث إن له ضدا أو مماثلاً ما ، بل لاينفك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض . ا هـ : آلوسى .

(وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) : ننزع من مكانه الضوء ونزيله ونفصله فيظلم .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨

(لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) : لحد معين من فلكها تنتهى إليه فى آخر السنة ، وسيأتى تفصيل أكثر .

(قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) : قدرنا سيره فى منازل ومسافات ، والمنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة .

(كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) العرجون القديم : أصل شمراخ النخل القديم وهو اليابس الذى دق وانحنى واصفر .

(ذَلِكَ) قال الراغب : مجرى الكواكب .

(يَسْبَحُونَ) : يسيرون ويدورون .

التفسير

٣٧ - (وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) :

بيان لقدرته - سبحانه وتعالى - الباهرة فى الزمان بعد ما بينها فى المكان ، أى : وعلامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب ألوهيته : الليل ننزع ونفصل عنه النهار الساتر له ، ونكشف ونزيل الضوء عن مكانه ؛ فإذا الناس داخلون فى الظلام المشتمل عليهم من كل جانب ، المحيط بهم من كل جهة .

٣٨ - (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

أى : وآية أخرى لهم الشمس تجرى لمستقر لها ، أى : لحد لها مؤقت تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ، أو لمُنتهَى لها من المشارق والمغارب فذلك حدها ، ومستقرها ؛ لأنها لا تعدوه ، أو لحد لها من مسيرها كل يوم فى رأى عيوننا وهو المغرب ، وقيل : مستقرها : أجلها الذى أقر الله عليه أمرها فى جريها فتستقر وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ذلك الجرى على هذا التقدير والحساب الدقيق الذى تَكل الفِطَنُ عن استخراجه وتتحير الأفهام فى استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علمه بكل معلوم .

٣٩ ـ (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) :

والقمر جعلناه بتدبير محكم وتنظيم دقيق منازل ، يبدو أول الشهر ضئيلا ، ثم يزداد نوره حتى يكتمل بدرا ، ثم يأخذ فى النقصان فى أواخر سيره حتى يعود فى مرآه كأصل الشمراخ إذا قدُم فدق وانحنى واصفر .

٤٠ ـ (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) :

إن الله ـ تعالى ـ قسم لكل واحد من الليل والنهار قسما من الزمان ، وضرب لهما حدا معلوماً ، ودبَّر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغى للشمس التى هى آية النهار أى : لا يصح ولا يستقيم لها أن تدرك القمر الذى هو آية الليل فتجتمع معه فى وقت واحد ، وتداخله فى سلطانه ، فتجعل الليل نهارًا ، ولا الليل بظلامه غالب النهار فيجعله ليلًا .

وكل واحد من الشمس والقمر فى مجراه الذى حدده الله له يسيران فيه كالسابح فى المـــاء ، ويدوران حسب النظام الذى وضعه الله ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى نهاية العالم حيث تطلع الشمس من مغربها فى آخر الزمان ، وجعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ، لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، والقمر يقطع فلكه فى شهر فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطؤ سيرها عن سير القمر ، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره فى رأى العين .

(وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(ذُرِّيَّتَهُمْ) : أولادهم ، وقال الطبرى : من نجا من ذرية آدم ، وسيأتى بيان ذلك .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) : فلا مغيث لهم من الغرق .

التفسير

٤١ - ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ :

وآية أخرى لهم أنا حملنا بنى الإنسان فى السفن المملوءة بهم الموقَرة بأمتعتهم وبأرزاقهم قيل : المراد بالفلك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام - ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفى أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم ؛ لأنه أبلغ فى الامتنان عليهم وأدخل فى التعجب من قدرته فى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة فى سفينة نوح - عليه السلام - وقال الإمام: يحتمل عندى أن تخصيص ذريتهم بالذكر لأن الموجودين المخاطبين من أهل مكة بهذا كانوا كفاراً لا فائدة فى وجودهم ، أى : لم يكن الحمل حملا لهم وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين - ذكره الآلوسى - والآية تحتمل العبرة والنعمة والإنذار .

٤٢ - ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ :

وخلقنا لهم من مثل الفلك ما يركبون عليه وهى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ماتحمل وقلة كلالها فى المسيرة ، وإطلاق السفائن عليها شائع معروف فى اللغة كما قيل : «سفائن بَرٍّ والسرابُ بحارها» ، وفسره مجاهد بكل ما يركب ، وقيل : هى السفن والزوارق التى كانت بعد سفينة نوح - قال النحاس : وهو أصحها لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس ١٠ هـ : قرطبى .

٤٣ - ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ :

وإن نشأْ إغراقهم فى الماء بما اكتسبت أيديهم ، وبما اجترحوا من سيئات ، وعملوا من موبقات ، مع ما حملناهم فيه من الفلك فلا مغيث لهم يحفظهم مما نزل بهم ولا هم ينجون من الغرق بعد وقوعه .

٤٤ - ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ ﴾ :

أى : لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا ، داعية إلى

الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة إلى زمان قدر فيه انتهاء آجالهم ، حسبما تقتضيه الحكمة ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله :

ولم أسلم لكى أبقى ولكن .·. سلمت من الحِمام إلى الحِمام (١) .

فنحن لا نغرقهم إلا رحمة منا بهم لنمتعهم إلى أجل قدرناه لهم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : خافوا واحذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم .

(وَمَا خَلْفَكُمْ) : عذاب الآخرة ،وقيل : (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) : ما تقدم من ذنوبكم ، (وَمَا خَلْفَكُمْ) : ما يأتى منها .

التفسير

٤٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها ولا يتأملون فيها ، أى : وإذا قيل لأهل مكة بطريق الإنذار بما نزل فيهم من الآيات : (اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) أى : احذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم (وَمَاخَلْفَكُمْ) أى : عذاب الآخرة الذى أعده الله لكم لسوء أعمالكم وإصراركم على كفركم (لَعَلَّكُمْ

(١) الحِمام - بكسر الحاء - : الموت .

تُرْحَمُونَ) أى : لكى يرحمكم ربكم إن اتقيتموه فتنجوا من العذاب ، وجواب (إِذَا قِيلَ لَهُمْ . . .) تقديره : أعرضوا ، ويدل على هذا الجواب قوله - تعالى - :

٤٦ - (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى : وما تأتيهم من حجة وعلامة على التوحيد وصدق الرسل إلا كانوا عنها معرضين لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها لأن دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

والمراد بالآيات : إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنعه - تعالى - وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها ، وإيتاؤها : نزول الوحى بها ، أى : ما نزل الوحى بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء ، وإمّا مايعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغرائب المصنوعات ، وإيتاؤها : ظهورها لهم ، أى : وما تظهر لهم من آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شئونه - تعالى - الشاهدة بوحدانيته - سبحانه - وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان به - عز وجل - .

٤٧ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الآية الكريمة لذمٍّ الكفار على ترك الشفقة على خلق الله إثر ذمهم على ترك تعظيمه - عز وجل - بترك التقوى ، وفى ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف ؛ لأنها كلها ترجع إلى أمرين : التعظيم لله ، والشفقة على خلقه - سبحانه - .

والمعنى : وإذا أمر الكفار بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحتاجين من المسلمين قال الذين كفروا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئَةَ الله - تعالى - فيهم فلا نطعمهم تحقيقاً لمشيئة الله ، ما أنتم فى أمركم لنا بإطعامهم إلا فى ضلال واضح ، حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله ، وقيل : (إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : قول الله لهم وهو رأى ابن جرير ،

وقيل : كلام المؤمنين للرد على الكافرين وآرائهم الضالة وأقيستهم الفاسدة ؛ لأن الله يطعم بأسباب : منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له ، وذلك لحكمة غابت عن عقولهم ، وهى نشر المودة والرحمة والتعاون والعدل الاجتماعى .

ولقد نزلت الآية الكريمة فى مشركى قريش حين قال فقراءُ أصحاب رسول الله ﷺ : أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله ، يعنون قوله ـ تعالى ـ :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً)[1] فحرموهم وقالوا : لو شاء الله لأطعمكم .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله أيفقرهم الله ونطعمهم نحن ؟ وعن الحسن وأبى خالد أن الآية نزلت فى اليهود أمروا بالإنفاق فقالوا ذلك ، والظاهر أنها فى كفار مكة كما تقدم .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ) : يعنون وعد البعث .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : نفخة الموت بها يموت جميع الناس ، يحدثها إسرافيل فى الصور .

(تَأْخُذُهُمْ) : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون .

(يَخِصِّمُونَ) : يختصمون ويتنازعون فى أمورهم غافلين عنها .

(١) سورة الأنعام ، أول الآية : ١٣٦

التفسير

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

ويقول المشركون للرسول والمؤمنين - استبعادا للبعث وإنكارا له واستهزاء بالمؤمنين - : متى يقع هذا الذى وعدتمونا به ويتحقق؟إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدوننا به فأخبرونا بذلك ، يقولون ذلك لأنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالّة عليه والآمرة بالإيمان بالله وبالبعث.

٤٩ - (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُم وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) :

جواب من الله -تعالى- أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة عظيمة وهى النفخة الأولى فى الصور التى يموت بها الناس ، ولأن الصيحة لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظرون لها تهكما بهم (تَأْخُذُهُمْ) أى : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون وهم يتخاصمون ويتنازعون فى معاملاتهم ومتاجرهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله -تعالى- : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[1] أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة -رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعةُ والرجل يليط[2] حوضه فلا يُسْقَى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطْعمُه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكلَتَهُ[3] إلى فمه فلا يطعمها » إ هـ : آلوسى .

٥٠ - (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) :

فلا يستطيعون لسرعة ما نزل بهم توصية على مايملكون ولا أن يوصوا بشىء فى أمورهم لأن الأمر أهم من ذلك ، ولا إلى أهلهم ومنازلهم يرجعون إذا كانوا فى خارج ديارهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ووجدوا ، ويرجعون إلى الله -عز وجل- لا إلى غيره - سبحانه - .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٦٦

(٢) يليط حوضه : يطينه واللياط - ككتاب - : الجص .

(٣) أكلته - بالضم - : اللقمة ، - وبالفتح - : للمرة من الأكل .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : القرن ، وحقيقة الصور وكيفية النفخ مما استأثر الله بعلمه .

(الأَجْدَاثِ) : القبور ، جمع جدث .

(يَنسِلُونَ) : يسرعون .

(مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا) : من أيقظنا من منامنا ؟

التفسير

٥١ ـ (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَاهُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) :

ونفخ فى الصور نفخة البعث فإذا الأموات من القبور إلى ربهم ومالك أمرهم يسرعون بطريق الإجبار لقوله ـ تعالى ـ : (لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[1] وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد الإساءة إلى من أحسن إليهم وربَّاهم بنعمه على موائد كرمه .

٥٢ ـ (قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) :

قال المبعوثون من القبور بعضهم لبعض : ياهلاكنا وعذابنا ، أو ياقومنا انظروا أهوال ما ينتظرنا وتعجبوا منه (مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ؟) أى : من أيقظنا من منامنا ، وفيه تشبيه الموت بالرقاد لعدم ظهور الفعل فى كل ، وقيل : سموا ذلك مرقدا مع علمهم بما كانوا

(١) سورة يس من الآية : ٣٢

يقاسون فيه من العذاب لعظم ما شاهدوه ، فكأن ذلك مرقدٌ بالنسبة لهم ، فقد روى أنهم إذا عاينوا جهنم وشاهدوا ما فيها من ألوان العذاب وأنواع النكال الذى لا يخطر على بال ، يرون ما كانوا فيه مثل النوم فى جنبها فيقولون :من بعثنا من مرقدنا ؟ فيأتيهم جواب سؤالهم : هذا يومُ البعث الذى وعد الرحمن عباده وصدق المرسلون فيما أخبروا به عنه ، وروى عن ابن عباس : أن الله -تعالى- يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا الأهوال قالوا ذلك - ويقول ابن عباس : نقول ، وهو- على ما قيل -جواب من قبل الله ، وقيل : من جهة الملائكة ، وقال قتادة ومجاهد : من قبل المؤمنين ، وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين- عليهم السلام- أو أجاب بعضهم بعضا به ، وكان الظاهر أن يجابوا بذكر الباعث ، لأنه هو الذى سألوا عنه ، بأن يقال : الرحمن ، أو الله بعثكم ، لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيراً بكفرهم وتقريعا لهم عنه ، مع تضمنه الإشارة إلى الباعث ، وذكر غير واحد : أنه من الأسلوب الحكيم ، على أن المعنى : لا تسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن ، وإنما الذى يهمكم أن تسألوا : ما هذا البعث ذو الأهوال العظيمة والشدائد ؟ وفيه من تقريعهم ما فيه .

٥٣ - (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) :

أى : ماكانت النفخة التى حكيت آنفا لدعوتهم للخروج من قبورهم إلا صيحة واحدة حدثت من نفخ إسرافيل - عليه السلام - فى الصور فإذا هم مجموعون عندنا ، وفى محل حكمنا محضرون لفصل الحساب من غير لبث طرفة عين ، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب مالايخفى .

٥٤ - (فَالْيَوْمَ لَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

فاليوم الحاضر أو المعهود وهو يوم القيامة الدال عليه نفخ الصور ، لاتنقص نفس من النفوس -برَّةً كانت أو فاجرة- أجر شيء مما عملته ، ولاتلقون إلا جزاء ماكنتم تعملون من خير وشر ، وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعاً لهم .

واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين ، إخبارا من الله – تعالى – عما لأهل المحشر على العموم ، كما يشير إليه تنكير نفس ، واختاره السكاكى .

(إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(شُغُلٍ) : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

(فَاكِهُونَ) : متلذذون أو فرحون أو متعجبون مما هم فيه .

(الْأَرَائِكِ) جمع أريكة ، وهى – كما فى الصحاح – : سرير منجد مزين فى قبة أو بيت .

(لَهُم مَّايَدَّعُونَ) : لهم مايطلبون ، أى : يتمنون .

(امْتَازُوا) : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

التفسير

٥٥ – (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) :

إخبارٌ لنا بما يكون يوم القيامة إذا صار كل إلى ما أُعد لهم من الثواب والعقاب ، فأصحاب الجنة اليوم فى شغل ، والشغل هو الشأن الذى يشغل المرء ويصده عما سواه من شئون ، لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ،

والمراد هنا الأول ،وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لايدرك كُنْهُه ، والمراد به ماهم فيه من النعيم الذى شغلهم عن كل ماسواه ، وماظنك بشغل مَنْ سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين ، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الخير الكثير والنعيم المقيم ، وتمتع بتلك الملاذ التى أعدها الله للمرتَضَيْنَ من عباده ، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور وضيافة الله .(فَاكِهُونَ) متلذذون فرحون معجبون بما أكرمهم الله به ، والفاكِهُ والفكِهُ : المتنعم المتلذذ ، ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ بها ، وكذلك الفُكاهة التى هى المِزاحة .

٥٦ ـ (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ) :

استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسرورا من مشاركة أزواجهم لهم فى ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال ، فهم وأزواجهم فى ظلال ، جمع ظُلَّة أو ظِلّ ، وفسر الإمام الظل بالوقاية عن مظان الألم ، ولأهل الجنة من ظل الله ـ تعالى ـ ما يقيهم كل سوء وألم ، والجمع (فى ظلال) باعتبار ما لكل واحد منهم من ذلك ، أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاية .

ويجوز حمل الظلال على القوة والمنعة ، كما يجوز حمله على الستور التى تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوها ، ووجود ذلك فى الجنة مما لا شبهة فيه ، فقد جاء فى الكتاب وصح فى السنة : أن فيها غرفاً ، وجاء فيها أيضاً ماهو ظاهر فى أن فيها شجرًا يظل من تحته ، وقد صح من رواية الشيخين أنه ﷺ قال : « إن فى الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ فى ظلها مائةَ عام لا يقطعها ، فاقرءُوا إن شئتم : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) »[1] .

وابن الأثير يقول : فى ظلها فى ذراها وناحيتها ، وهذا الرأى لدفع أنها تظلُّ من الشمس لأنه لا شمس فى الجنة ، والقول فى الآراء السابقة كذلك فى أنها لاتظل من الشمس ، إذ لا شمس فيها .

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

(عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ) : على السرر المنجدة المزينة بالستور متكئون ، والظاهر أن المراد بالأزواج : أزواجهم المؤمنات اللائى كن لهم فى الدنيا ، وقيل : أزواجهم اللاتى زوجهم الله - تعالى - إياهن من الحور العين ، كما يجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم فى الإحسان ، وأمثالهم فى الإيمان .

٥٧ - (لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ) :

بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمية والروحية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الأُنس ومحافل المتعة تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة .

والمعنى : لهم فى الجنة فاكهة كثيرة من خير أنواعها ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مذلَّلة لهم إن شاءوا أكلوا ، وإن شاءوا أمسكوا ، ولهم فيها كل ما يطلبونه ويتمنونه .

٥٨ - (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) :

أى : سلام يقال لهم قولا من جهة رب رحيم ، أى : يسلم عليهم الله - جل جلاله - بلا وسيط تعظيماً لهم ، فقد أخرج ابن ماجة وجماعة عن جابر قال : قال النبى ﷺ : « بينا أهــلُ الجنةِ فى نعيم إذْ سطع لهم نورٌ فرفعوا رءوسَهم فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهلَ الجنةِ وذلك قول الله - تعالى - : (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) قال : فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم » .

وقيل : يسلم عليهم عن طريق الملائكة لقوله - تعالى - : « وَالْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم »[1] . وروى ذلك عن ابن عباس ، يقول الآلوسى : وعلى الأول الأكثرون ، وأقول : لا منافاة ، فالله - سبحانه وتعالى - يسلم عليهم والملائكة كذلك .

---

(١) سورة الرعد، من الآيتين : ٢٣ ، ٢٤

٥٩ - (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) :

يقول الله - عز وجل - مخبرًا عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، يقول لهم : انفردوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة أيها المجرمون الآثمون ، فإنكم واردون غير موردهم ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة ، ونحوه قوله - تعالى - : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »[1] .

* (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ) : ألم أوصكم .

(أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) : ألا تطيعوه فى معصيتى .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) : إنه لكم عدو واضح العداوة .

(هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : هذا العهد طريق لاعوج فيه .

(جِبِلًّا كَثِيرًا) : خلقاً كثيرًا ، وقال الراغب : الجبل : الجماعة العظيمة ، وقال غيره : الجبل : الأمة ، وهى معَان متقاربة .

---

(١) سورة الروم، الآية : ١٤

التفسير

٦٠ - (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

هذه الآية من جملة ما يقال لبنى آدم الذين تركوا عبادة الله طاعة للشيطان ، وذلك بطريق التقريع والتبكيت والإلزام بين الأمر بالامتياز (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) والأمر بمقاساة جهنم (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) .

والعهد بمعنى الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد به هنا : مختلف الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله -تعالى- الزاجرة عن عبادة غيره ، التى أبلغها الرسل إلى بنى آدم ، ومن ذلك قوله -تعالى- : (يَابَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) . فكأن العهد مستعار لإقامة البراهين والحجج .

وفسره بعض المفسرين بالميثاق المأخوذ على بنى آدم فى عالم الذر فى قوله -سبحانه- : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) .

والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم من معصية الله ، عبر عنها بعبادته لزيادة التنفير منها ، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وإضافتها إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها ، فالتجوز فى النسبة .

ومعنى الآية : ألم أوصكم يابنى آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من المعاصى ، لأنه لكم عدو مبين واضح العداوة ، فقد أخرج أبويكم من الجنة ، فلماذا أطعتموه حتى أصبحتم بطاعته مجرمين كافرين مستحقين للخلود فى النار .

٦١ - (وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :

معطوف على (أن لا تعبدوا الشيطان) داخل معه فى العهد ، أى : ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا الشيطان وبعبادتى وحدى ، فهذا العهد صراط مستقيم لاعوج فيه ، فلماذا تنكرتم لعهدى ، وخالفتم وصيتى فاتبعتم الشيطان وأطعتموه ، وتركتم عبادتى ، وعبدتم آلهة أشركتموها معى ؟ .

٦٢ - (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ) :

استئناف مسُوق لتشديد التوبيخ والتقريع ، ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم للعهد ، والخطاب لمتأخريهم ومنهم كفار مكة .

والمعنى : ولقد أضل الشيطان منكم -يا بنى آدم- أمما كثيرة ، أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم ، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلاً ، فلذلك كفرتم ككفرهم واستحققتم العذاب مثلهم .

(هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ) : ادخلوها اليوم وقاسوا سعيرها .

(نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ) : نمنعها من الكلام .

(وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ) : كلام دلالة أو نطق .

التفسير

٦٣ - (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذا كلام مستأنفٌ تقوله خزنة جهنم لأهل النار عند إشرافهم على شفير جهنم بعد انتهاء التوبيخ والإلزام .

والمعنى : هذه ـ التى ترونها ـ جهنم التى كنتم فى الدنيا توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إن اتبعتم الشيطان فيما يزينه لكم من الكفر والمعاصى كقوله ـ تعالى ـ : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

٤ ـ (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

اصلوها : أمر تحقير وإهانة لأهل النار ، والمعنى : ادخلوا جهنم فى هذا اليوم وقاسوا ألوان العذاب فيها بسبب ما كنتم مستمرين عليه من الكفر والمعاصى فى الدنيا .

٦٥ ـ (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

الأفواه : جمع فوه ، وهو الفم ، والختم عليها كناية عن منعها من الكلام ، وتوفيقاً بين هذه الآية وبين آية سورة النور « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] أن يوم القيامة مواقف ، ففى موقف تخرس الألسنة ، وفى آخر تتكلم .

أخرج أحمد ومسلم وابن أبى الدنيا واللفظ له عن أنس فى قوله ـ تعالى ـ : (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ) قال : « كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون مم ضَحِكْتُ » ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : « من مخاطبةِ العبدِ ربَّه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم؟ فيقول : بلى ، فيقول : إنى لا أجيز علىَّ شاهدًا إلا شاهدًا منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْدًا لَكُنَّ ، فعنكن كنت أناضل ، وشهادة الأيدى والأرجل عليهم دلالتها على أفعالها ، وظهور آثار معاصيها عليها ، وقيل : ذلك على الحقيقة ، بأن ينطقها الله فتتكلم وتشهد ، وهذا هو ظاهر الآية والحديث .

---

(١) الآية ، ٢٤

(وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ) : لمحوناها وأزلنا معالمها .

(فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) : فسارعوا إلى الطريق .

(فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ) : فكيف يبصرون .

(لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ) : لَغَيَّرنا صورتهم فى مكانهم الذى يوجدون به .

(نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ) : نرجعه فيه من القوة إلى الضعف ونحو ذلك .

التفسير

٦٦ - (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ) :

هذه الآية والتى بعدها مسوقتان لبيان أن الكافرين فى هذه الدنيا تحت سلطان الله ، وأنه لو شاء عقابهم فيها بطمس الأعين والمسخ لفعل ، لكنه لم يشأ إمهالًا لهم ، وتوسيعاً لفرص التوبة .

والطمس لغة : إزالة الأثر ، والمراد من طمس أعينهم : إزالة معالمها بحيث لايكون لها فتحة تبصر منها ، ويجوز أن يراد به : إذهاب البصر مع بقاء العين مفتوحة .

والمعنى : ولو نشاء طمس أعين الكافرين فى الدنيا بأن نُزيل معالمها فتصبح ممسوحة ، أو نحبس ضوءها فلا تبصر ، فابتدروا بعد ذلك الطريق الذىاعتادوا سلوكه قبل الطمس ليسلكوه فلا يستطيعون ، فكيف يبصرون وقد طمست أبصارهم ، وأزيلت معالمها ، أوحبس

ضوءها فلا تنكشف لهم المرئيات ، لونشاءُ ذلك لفعلناه ، لكننا لم نفعل لنفسح لهم مجال التوبة .

٦٧ - (وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ) :

المراد بالمسخ تغيير الصورة على أى وجه يشاؤه الله - تعالى - مع إبطال القوى ، لقوله بعد ذلك : « فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ » .

وتحديد المسخ بقلبهم قردة وخنازير أو حجارة - كما جاء فى بعض الآراء - يعتبر تضييقاً للواسع لم يرد به دليل صحيح .

والمعنى : ولو نشاء مسخهم بتغيير صورهم على أى وجه مع إبطال قواهم ؛ لفعلنا ذلك فورًا بدون عناء ، بحيث يجمدون فى أماكنهم ، فلا يستطيعون بعد ما فعلناه بهم مضيًّا إلى الأمام إقبالا ، ولا يرجعون إلى الخلف إدبارا ، لكنه تعالى لم يفعل ذلك لعدم تعلق مشيئته به ، توسعة لمجال التوبة أمامهم .

والمقصود الأساسى من الآيتين بيان استحقاقهم طمس الأعين والمسخ فى الدنيا بسبب كفرهم ونقضهم عهد الله ، وعدم اتعاظهم بعقاب من سبقهم ، ولولا أنه تعالى شاء استبقاءهم وإمهالهم رحمة بهم - لعلهم يرجعون - لأنجز فيهم ما يستحقونه ، وعبر بقوله : « ولا يرجعون » بدل « ولا رجوعاً » المناسب لقوله (مضيا) مراعاة لفواصل الآيات .

٦٨ - (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) :

هذه الآية جاءت للاستدلال بما تضمنته على قدرته - تعالى - على تنفيذ ما تهددهم به من الطمس والمسخ لو تعلقت بهما مشيئته .

واعلم أن من سنن الله - سبحانه - أنه جعل الإنسان فى نشأته ينمو جسميًّا وعقليا نموًّا مطردًا ، وتزداد بذلك معالم صورته حسناً ، وقوته اقتدارًا ، حتى يصل إلى حد أراده الله لتمام خلقه ، فيبدأ كل شىء فيه يتناقص ، حتى يذبل بعد تفتح وازدهار ، ويضعف بعد قوة واقتدار ، ويخمد عقله بعد اتقاد وإضاءة ، وتتضاءل صورته بعد حسن وجمال ، فذلك هو تنكيسه الذى استفيد من قوله تعالى : « وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ » .

قال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جِدَّتَهُ وخانه ثقتاه السمع والبصر

وعن سفيان أن التنكيس يبدأ من سن الثمانين ، والحق أنه يختلف باختلاف تكوين كل إنسان ، والعوارض التى تمر عليه حسب مشيئة الله - تعالى - وقد يكون للوراثة بعض التأثير فى ذلك .

ومعنى الآية : ومن نطل عمره نَقْلِبْه فى الخلق والصورة والقوة على عكس ماكان عليه فى نشأته ، أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس خلق الإنسان فهو قادر على طمس أعينهم ومسخهم فى أماكنهم فى هذه الدنيا ، وأن الله - تعالى - لم يفعل ذلك لعدم تعلق مشيئته به .

(وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(وَمَا يَنبَغِى لَهُ) : ما يصح الشعر له ولا يصح منه .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) : ما القرآن إلا تذكير ووعظ وإرشاد .

(وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : وكتاب مقروء واضح يُقْرأ للاعتبار .

(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ) : ويثبت القول بالعذاب ويجب على الكافرين .

التفسير

٦٩ - (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) :

لما جاءهم محمد ﷺ بالقرآن زعموا أن محمدًا شاعر ، وأن القرآن الذى أيده الله به شعر ، فأنزل الله هذه الآية لإبطال ما زعموه من الأمرين ، فإن نفى تعليم الشعر لمحمد يستتبع نفى أن القرآن شعر ، وأن الذى جاء به شاعر .

والمعنى : وما علمنا محمدًا الشعر قبل أن يقول ما قال ، حتى يصح زعمكم أن محمدًا شاعر وماجاء به شعر ، وليس القرآن من قبيل الشعر لا وزنا ولا غرضاً ولا تكويناً ، فالشعر متكلف مصنوع ، ومبنى على خيالات وأغراض واهية ، وتصورات ومبالغات مخالفة للواقع ، حتى قالوا : أعذب الشعر أكذبه ، وله أوزان معينة وقواف ثابتة ، أما القرآن فليس له أوزان الشعر ولا خيالاته الواهية ، ولا أغراضه الهزيلة ، ولا يعرف الأكاذيب التى تصور الباطل حقًّا والحق باطلا ، ولا يعرف المبالغات التى تجعل من الحبة قبة ، ومن القليل كثيرًا ، بل نظم فريد لاعهد للبشر بمثله ، ولا يستطيعون أن يحاكوه ، اشتمل على العقائد النظيفة ذات البراهين العقلية ، والأدلة الكونية ، كما اشتمل على الأحكام المنظمة لشئون الخلق ، المعلمة لحقوق الخالق ، الموصلة إلى سعادة الدارين ، وعلى الأخلاق العالية ، والحكم السديدة ، فأين الثرى من الثريا ، وإذا انتفى أن يكون شعرًا انتفى أن يكون من جاء به شاعرا ؛ لأنهم وصفوه بالشاعر من أجله « وَمَا يَنبَغِى لَهُ » أى : وما ينبغى الشعر لمحمد ﷺ ولا يليق به ، ولا يستقيم له عقلا ؛ لأنه كما قال ابن الحاجب : لو كان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس فى أن ما جاء به من قبل نفسه ، وأنه جاء من تلك القوة .

وقال غيره فى معنى « وَمَا يَنبَغِى لَهُ » : وما يصح الشعر له ؛ لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ؛ ولأن من أحسنه المبالغة والانحراف فى الوصف ، وغالبه يميل إلى الكذب ، فلا يليق بمحمد الذى عرف بالصدق منذ صباه .

وقد حدث أن النبى ﷺ قال بعض عبارات قابلة لأوزان الشعر ، مثل قوله يوم حنين : « أنا النبى لاكذب . أنا ابن عبد المطلب » وهذا لا يجعل صاحبه شاعرًا ، لأنه كلام يرد على الخاطر من غير قصد إلى الشعر ، كما يحدث لكثير من الناس .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) : أى : ما القرآن إلا وعظ وتذكير من الله لخلقه ، ليسيروا على المنهج المستقيم ، وكتاب سماوى يقرأ ليعمل به ، واضح أنه من عند الله -تعالى- بما يشتمل عليه من ألوان الإعجاز ، فأين هو مما افترى عليه من الوصف بكونه شعرًا ومن جاء به شاعرًا .

٧٠ - (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

المراد بمن كان حيًّا : العاقل الفهم ، فإن الغافل كالميت فلا ينفعه إنذاره ، والمراد من القول :الوعيد بالعذاب ، ومعنى قوله : (وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) أنه يجب ويثبت عليهم لكفرهم ومعنى الآية : لينذر القرآن أو الرسول بالقرآن من كان ذا عقل وفهم فإنه هو الذى ينفعه الإنذار ، أما الغافل الجهول الذى يشبه الميت فهو بمعزل عن الاستفادة بإنذاره ، ويثبت القول المتضمن للوعيد ، ويجب على هؤلاء الغافلين المصرين على الكفر لعدم انتفاعهم بالإنذار والتخويف .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) : مما خلقنا ولم يخلقه غيرنا .

(أَنْعَاماً) : هى الأزواج الثمانية :من الإبل اثنين الذكر والأُنثى ، ومن كل من البقر والغنم والمعز اثنين كذلك .

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ) : جعلناها مذللة منقادة لهم .

(فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ) أى : فمنها مركوبهم ، فعول بمعنى مفعول كحلوب بمعنى محلوب ، وهو مما لا يقاس .

التفسير

٧١ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) :

هذه الآية استئناف مسوق لإنكار عدم اتعاظهم بما يرون من خلق الله للأنعام ، وتسخيرها وخيراتها لهم ، وبيان عدم شكرهم له على ذلك بالإيمان والعمل الصالح ، مع التعجب من

هذا الكفر مع قيام الأدلة على وجوب الإيمان ، فالهمزة للإنكار والتعجيب ، والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف ،والتقدير : أغفلوا ولم يعلموا علماً يقينياً مشابهاً للرؤية البصرية .

والمقصود من قوله : « مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا » مما أحدثناه بذاتنا من غير مدخل فيه لغيرنا لاخلقا ولاكسبا ، فالكلام استعارة تمثيلية فيما ذكر ، فليس لله أيد على الحقيقة قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » والتعبير بذلك للإيذان بعظم خلقها ومنافعها ، فإن صفة العظيم عظيمة ، ومعنى الآية : أغفلوا ولم يعلموا علماً يشبه الرؤية بالبصر أن الله خلق لأجلهم مما أحدثه بنفسه بغير شريك أنعاماً ذات خلق بديع ، ومنظر جميل ، ومنافع عديدة يحتاجون إليها فهم لها مالكون بتمليكنا ، مختصون بها لايزاحمهم فيها مزاحم .

ويجوز أن يكون المعنى : فهم للتصرف فيها مالكون ، يسخرونها ويضبطونها وينتفعون بلحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها ، وهذا الوجه يناسب معنى الآيتين التاليتين فكأنهما شرح لملكيتهم لها ، والاقتصار على الأنعام لعظم منافعها خصوصاً للعرب الذين كانوا أول من خوطبوا بالدعوة .

٧٢ - (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) :

أى : وجعلناها لهم مذللة منقادة لما يريدونه منها ، فبعضها ركوبهم - أى : مركوبهم - كالإبل ، وبعضها يأكلون منها ، والأكل منها عام ، يتناول الأكل من ذات لحومها ، والأكل من أثمانها وأثمان ألبانها وأوبارها وأشعارها وجلودها إذا باعوها ، كما يقال : فلان يأكل من كسب يده .

وإنما قال : (وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ) ولم يقل : ومنها مأكولهم على نحو سابقتها ؛ ليفيد الاستمرار التجددى الذى يستفاد من الفعل المضارع ، فإن الأكل يتجدد على الدوام ، بخلاف الركوب فإنه فى بعض الأحيان ، ولأن بعضها هو الذى يركب ، بخلاف الأكل فإنه عام لها ، ولذا غير الأسلوب ، وقيل : إنه غُيِّر رعاية للفاصلة .

٧٣ - (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) :

ولهم فى الأنعام بقسميها منافع غير الركوب والأكل ، فمن جلودها تصنع الحقائب والنعال والسروج وسائر المصالح المرتبطة بها ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ الناس اللباس والفراش والأثاث وسائر المتاع ، ومن عظامها يتخذ ما يُكَرَّر به الدبس ليكون سكرا أبيض ، وعلاج لين العظام بما يستخلص منها ، ومن ألبانها يشربون إلى غير ذلك من المنافع ، أيشاهدون هذه النعم فلا يشكرون الله - تعالى - الذى أنعم عليهم بها ، بأن يخصوه وحده بالعبادة؟.

(وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(مِن دُونِ اللهِ) : من غير الله .

(جُندٌ مُّحْضَرُونَ) : جند معدون لحفظهم ، أو محضرون فى النار .

التفسير

٧٤ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : واتخذ أولئك المشركون من غير الله القادر المنعم آلهة يعبدونها معه - سبحانه - راجين أن ينصروا بها فى دنياهم بإنقاذهم من الشدائد ، وفى أخراهم بالشفاعة لهم عند الله ، وهذا خطأ بيِّن ، فإن من لا يستطيع دفع المكروه عن نفسه ، لا يستطيع دفعه عن سواه ، ولذا قال - سبحانه - مستأنفاً ردًّا عليهم :

٧٥ - (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ) :

أى : لا تقدر آلهة المشركين على نصرهم ، والحال أن هؤلاء المشركين جند مهيأون لحفظها ووقايتها ، فكيف يعبدونها ويستنصرون بها ؟ ! .

ويجوز أن يكون المعنى : والآلهة المزعومة جند محضرون لتعذيب المشركين يوم الدين ، إذ تكون وقودا للنار التي يعذبون بها ، أو محضرون عند حساب الكفرة إظهارًا لعجزهم ، وإقناطا للمشركين من شفاعتهم ، وكلاهما معنى جيد .

والتعبير عن الآلهة فى المعنيين الأخيرين بالجند ، وكذا ذكر اللام الدالة على المنفعة فى « لهم » للتهكم بالمشركين الذين يستنصرون بهم ، فإنهم وقود لعذابهم أو شهود عليهم ، وكلاهما مباين لما أملوه فيهم من أن يكونوا جنود نصرة ومنفعة لهم .

٧٦ - (فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

هذه الآية لتسلية الرسول وتسرية الحزن عنه بسبب إشراكهم بالله ، وقولهم على الله وعلى رسوله مالا يليق ، وقد ختمت بإنذارهم على مقالتهم .

ومعنى الآية : إذا كان حالهم مع ربهم - سبحانه - ما علمته يامحمد من الإشراك ، فلا تحزن لقولهم فى الله بالإلحاد ، وفيك بالتكذيب والتهجين ، فإننا نعلم ما يسرون وما يظهرون من الجرائم فنجازيهم عليها حتى لا يستوى المحسن والمسىء ، والعلم بما ذكر مجاز أو كناية عن الجزاء عليه ، فالجزاء على الذنب من مقتضيات علم العادل الحكيم .

(أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(مِن نُّطْفَةٍ) : من منِىٍّ ، أطلقت عليه لأنه ينطف ، أى : يصب فى الرحم ، من النطف وهو الصب .

(خَصِيمٌ مُّبِينٌ) : شديد الخصومة واضحها .

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا) أى :جعل لنا مثلًا ونظيرًا من الخلق .

(وَهِىَ رَمِيمٌ) : وهى بالية أشد البلى ، وهى فعيل بمعنى فاعل من رمَّ إذا بلى ، ولم يؤنث مع المؤنث لأنه ألحق بالأسماء الجامدة لغلبة استعماله دون موصوف ، وقيل : هو اسم مفعول من رممته بمعنى أبليته ، وهو إذا كان كذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث كقتيل .

التفسير

٧٧ – (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) :

بعد ما بين بطلان شركهم ، وأقام الدليل على أنه – تعالى – هو المستحق للعبادة وحده ، أتبع ذلك إقامة البرهان على أن البعث حق ردا على إنكارهم له .

والهمزة فى (أَوَلَمْ) للإنكار والتعجب ، والواو لعطف مابعدها على جملة مقدرة أى : أغفل ولم ير الإنسان .

والمعنى : أغفل الإنسان المنكر للبعث ، ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة حقيرة ليس بينها وبين خلقه العظيم مناسبة تذكر ، فإذا هو شديد الخصومة ، واضح الجدال ، إذ ينكر البعث مع أنه فى قضايا العقل أيسر من الابتداء ، وإن كان كلاهما فى اليسر عند الله سواءً .

واعلم أن الإنسان مخلوق من منىّ الرجل ، وماء المرأة جميعًا ، فإن للمرأة ماءً كماء الرجل مع فارق سنذكره بعده ، سألت امرأة النبى – صلى الله عليه وسلم – : « هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ » قال : « نعم إذا رأت الماء » .

وفى ماء الرجل حيوانات منوية لاتحصى لكثرتها ، ولاترى إلّا بالمجهر لصغرها ، وفى ماء المرأة بويضة وحيدة تفرزها كل دورة طهر بعد الحيض ، فإذا التقى الرجل بالمرأة لقاءً جنسيًّا

فى طهرها ، وأخرجا ماءهما عند اللقاء ، وأراد الله الحمل ، لقحت بويضة المرأة بحيوان من منى الرجل فى قناة واصلة من مبيضها إلى الرحم ، يسميها الطب الحديث « القناة الفالوبية » نسبة إلى مكتشفها ، ثم تنحدر البويضة بعد تلقيحها بأربعة أيام إلى الرحم بعد انقسامها إلى عديد من الخلايا ، فتستقر فى قرار مكين من جدار الرحم حيث تتطور إلى إنسان سوى ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (انظر تفصيل ذلك فى مثله فى صدر سورتى الحج والمؤمنون) .

وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس قال : « جاء العاص بن وائل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعظم حائل ، ففتّه بيده فقال : يا محمد أيجمع الله هذا بعد ما رمّ ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » ، فنزلت الآيات : « أَوَلَمْ يرَ الْإِنسَانُ . . . » إلى آخر السورة .

والقصة متفقة فى جميع الروايات ، وإن اختلفت فيمن خاصم الرسول ، فعن مجاهد ، والسدى ، وعكرمة وغيرهم أنه أُبَىّ بن خلف الذى قتله الرسول فى أُحد بحربة ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل : غيرهما .

٧٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) :

هذه الآية معطوفة على الجملة المنفية فى الآية قبلها ، أى : أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة ، ففاجأ بالخصومة وضرب لنا مثلا .

والمعنى : وجعل لله نظيرا من الخلق ، إذ قاس قدرته على قدرتهم ، فنفى قدرته على أن يبعث الخلائق ، ونسى خلق الله له من نطفة ، إذ قال - وهو يضرب المثل لله بطريق الإنكار والنفى العام - : « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أى : شديدة البلى ، يريد أنه لا يستطيع أحد أن يحييها ، فأدرج المولى مع الخلائق فى هذا النفى العام ، وبهذا سواه بالخلائق فى العجز عن إعادة الحياة للعظم الرميم وجعله مثلهم ، فهذا هو معنى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » .

ومن العلماء من فسر المثل بالأمر الغريب ، والمعنى عليه : وأورد فى شأننا أمرًا غريبًا يشبه المثل فى غرابته ، وهو إنكار إحيائنا للعظم الرميم ، والمعنى السابق أظهر .

٧٩ - (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) الآية :

أمر من الله لرسوله أن يجيب على سؤال هذا المعاند ، مرشدًا إلى سبيل معرفة الحق .

والمعنى : قل له أيها الرسول : يحيي هذه العظام بعد أن تبلى أشد البلى - يحييها - الذى أبدعها أول مرة ورباها ، وذلك بأن يحيي الجسد كله والعظام فى جملته ، فتجرى فيها الحياة لجريانها فيه ، وتصبح صلبة مترابطة ، بعد أن كانت هشة متفتتة ، وذلك أيسر فى القياس من بدء خلقها ، فذلك من القياس الأولوى ؛ وكان الفارابى يقول : وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلى فى قوله - تعالى - : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (وهو الله تعالى ، أنشأ العظام وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئًا أولا قادر على إنشائه وإحيائه ثانيًا ، فيلزم أن الله - عز وجل - قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانيًا) . إﻫ .

(وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) : وهو بكل مخلوق واسع العلم ، ولهذا يعلم من كل إنسان صفاته التى كان عليها فى الدنيا ، وتفاصيل أجزائه وأوضاعها بعضها من بعض ، فيعيد كل ذلك على النمط الذى كان عليه ، على حد قوله - تعالى - : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

٨٠ - (الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) :

المراد من الشجر الأخضر على المشهور نوعان : (أحدهما) المرخُ ، (والثانى) العَفَار (بفتح العين) ، وإخراج النار منهما على ما قاله العلامة أبو السعود : بأن تقطع منهما عُصيَّتَين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى ، فتقدح النار بإذن الله - تعالى - وقيل : المراد من الشجر العموم ، لصلاحية كل الأشجار للاتقاد ، وفى المثَل : فى كل شجرة نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا من النار ، من مجدت الإبل إذا وقعت فى مرعى واسع كثير ، وإرادة المرخ والعفار أنسب بالمقام ، ويقول صاحب المختار : واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثرا منها كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما ، ويقال : لأنهما يسرعان الوَرْىَ ، فشُبِّهَا بمن يُكثِر العطاء طلباً للمجد .

وأجاز بعضهم - جمعًا بين الرأيين - أن يكون المعنى : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا بالفعل بقدح المرخ بالعفار ، فإذا أنتم من الشجر الأخضر المذكور توقدون النار فى سواه .

(١) الأعراف ، من الآية : ٢٩

ووجه الاستدلال على البعث بذلك : أن من قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء المضاد لها ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضا طريًّا فبلى ويبس .

(أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(بَلَىٰ) : حرف يجاب به بعد النفى لتحويل النفى إلى إثبات .

(بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ) اليد : كناية عن القدرة ، والملكوت مبالغة فى الملك ،كالرحموت فى الرحمة ، والرهبوت فى الرهبة ، ومعناه : الملك التام .

التفسير

٨١ ـ(أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

هذه الآية استئناف من جهة الله ـتعالى ـ لتأييد ما كلف الرسول بتبليغه ، وهو : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ »... الآيتين . والهمزة للإنكار والنفى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : أليس الذى أنشأها أول مرة ، وليس الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا وليس الذى خلق السموات والأرض ـ مع كبرهما وعظم شأنهما ـ بقادر على أن يخلقهم ومثلهم ويبعثهم من قبورهم مع صغرهم ، وحقارة شأنهم ، بل هو قادر وهو الخلاق الكثير الخلق ، العليم الواسع العلم ، فلا يعجز عن بعثهم .

٨٢ - (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) :

ذهب معظم السلف إلى أن الله حين يريد أن يخلق شيئًا يصدر فى شأنه أمرًا كلاميا هو قوله : « كُن » حسب النص « فيكون » .

والمعنى على هذا الرأى : ما شأن الله تعالى ، أو ما أمره إذا أراد إيجاد شىء إلّا أن يقول له : كُن فيكون ويحدث استجابة لأمر الله .

وذهب بعض المحققين إلى أنه لا قول أصلًا ، والمراد بما جاء فى الآية تمثيل قدرة الله فى تحقيق مراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع ، فى سرعة حصول المراد من غير امتناع ولا توقف ، ورجح هذا بأن الأمر الكلامى لا يوجه إلى معدوم ، بل إلى موجود .

والمعنى على هذا : ما شأنه - تعالى - إذا أراد إيجاد شىء إلّا أن ينفذه فورا فى الحين الذى حدده له .

٨٣ - (فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

المعنى : إذا كان قد تحقق ما تقدم بيانه من عظيم قدرة الله -تعالى- وأنه إذا أراد شيئًا قال له : « كُنْ فَيَكُونُ » فتنزيهًا للذى فى قدرته الملك التام لكل شىء عمّا نسبوه إليه من عدم قدرته على بعث الخلائق ، وإليه ترجعون جميعًا - مؤمنين وكافرين - لا إلى غيره ، فيثيب المؤمنين ، ويعاقب المنكرين .

واعلم أن الرجوع يوم القيامة سيكون للأرواح والأجسام على الوجه الذى كانت عليه فى الدنيا ، ليكون الحساب والجزاء لهما جميعًا .

فإن قيل : إنَّ الأجساد تلاشت وتداخلت فى تكوين غيرها بعد أن عادت إلى عناصرها الأُولى من تراب وهواء وماء ، فقد دخلت فى تكوين النبات والحيوان والإنسان ، فكيف يمكن إرجاع الأجساد بعد أن تداخلت فى تكوين غيرها .

فالجواب : أن المهم فى البعث هو الروح ، فهو المسئول الأول عن الأعمال ، وهو الذى يشعر بالنعيم والعذاب ، ولولاه لما كان تكليف ولا جزاء ، والله تعالى يخلق عند البعث جسدًا

لكل روح يشبه صاحبه تمام الشبه ، وينشئه من العدم أو من الكون على مثاله تمامًا ، ليمكن التمايز بين الناس حتى يستطيع أصحاب الظلامات تمييز غرمائهم عن غيرهم ، ولا يقال : إن الجسد الذى ينال الجزاء على هذا ليس هو الذى أطاع أو عصى ، بل غيره ؛ لأن الجزاء فى الحقيقة للروح لا للجسد ، والروح هو بعينه لم يتغير .

وقيل : يجمع الله الأجزاء المتفرقة ، ويعيدها كما كانت قبل الموت ، وينفخ فيها الروح ، والنفس تميل إلى الرأى الأول ، لما قلناه من تداخل عناصره بعد تحلله فى مخلوقات أخرى ومكلفين آخرين ، ويشير إلى الرأيين المذكورين صاحب الجوهرة بقوله :

وقل يعاد الجسم بالتحقيق عن عدم وقيل عن تفريق

سورة الصافات

مكية وآيها ثنتان وثمانون ومائة آية ، وقد نزلت بعد الأنعام

مناسبتها لما قبلها

تناسب الصافات (يس) التى قبلها فى أنها مثلها فى الكلام على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا والآخرة ، والمبدأ والمعاد ، وإثبات إمكان البعث ، ووجوب توحيد الله ونبذ الشركاء إلى غير ذلك من المقاصد المتجانسة ، فلذلك كانت تالية لها .

خلاصة ما جاء فيها

أقسم الله فى صدرها بمخلوقات عظيمة وصفها بأنها صافات وزاجرات وتاليات للذكر ، على أنه - تعالى - واحد ، وأنه رب المشارق والمغارب ، وبين جمال السماء وزينتها ، وأنها محفوظة من الشياطين ، وأنهم يرجمون بالشهب إن حاولوا التسمع إلى الملأ الأعلى - وهم الملائكة - ثم أثبت إمكان البعث بقدرته - تعالى - فإنه خلق الخلق كله ، فلا تصعب عليه إعادتهم ، وذكر أنهم سيعودون بأيسر سبيل ، وذلك بأن ينفخ فى الصور نفخة واحدة فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يحشرون ويسألون ، وأن بعضهم يلقى على البعض الآخر تهمة التسبب فى كفرهم ، وأن ذلك لاينفعهم ، فهم يومئذ فى العذاب مشتركون ؛ لأنهم « كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ » وأن عباد الله على نقيضهم ، فهم فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطوف عليهم الولدان بكئوس الشراب : (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) .

ثم قارنت بين هذا النعيم الذى ينعم به المؤمنون ، وبين العذاب الذى يشقى به الكافرون فهم فى نار جهنم ، وإذا طعموا يطعمون من شجر الزقوم ، ويشربون من الحميم ، ومرجعهم إلى الجحيم ، ثم ذكرت بعض القصص للأمم السابقة وما جره كفرهم عليهم من العقاب فى الدنيا ، ثم كذبت المشركين فى دعواهم أن الملائكة بنات الله ، وأن بينه وبين الجنة نسبا

ثم بينت أنه -تعالى- سبقت كلمته لعباده المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون ، وأوصت الرسول بالإعراض عنهم وعن سفاهتهم ، وختمت بتنزيه الله -تعالى- عمَّا يصفونه به من أن له شريكًا وأن له بنات ، وبالسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالصَّـٰفَّـٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَـٰرِقِ ۝٥)

المفـردات :

(وَالصَّافَّاتِ) أى : وحق الملائكة الصافين أنفسهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(فَالزَّاجِرَاتِ) : وصف ثان للملائكة المقسم بهم ، مأخوذ من الزجر وهو المنع أو الحث أو السَّوْق .

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا) : وصف ثالث لهم بأنهم يتلون ذكر الله .

(الْمَشَارِقِ) هى : مشارق الشمس والكواكب على امتداد خط المشرق .

التفسير

١ــ٤ ــ (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ) :

الصافات والزاجرات والتاليات أوصاف لم يذكر القرآن الكريم معها موصوفها ، وقد أقسم الله ــ تعالى ــ بها على أن إلهنا واحد ، وإذا كان المقسم هو الله ، والمقسم عليه وحدانيته ، فلابد أن يكون الموصوف المقسم بصفاته عظيما .

لهذا اختلف المفسرون فى الموصوف بهذه الصفات ، فقيل : هم الملائكة ، فهم يصفون أنفسهم حسب مراتبهم ومقاماتهم فى طاعة الله ، وانتظارا لأمره ، وقد جاء وصفهم بذلك فى قوله ــ تعالى ــ : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] .

(١) سورة الفجر ، الآية : ٢٢

والزجر يطلق لغة على المنع والنهى والحث والسَّوْق ، ولا يكون الزاجر إلَّا متسلطًا ، وليس بلازم أن يصحب الزجر صياح كما فى أصل معناه ، ووصف الملائكة به لزجرهم الأَجرام العلوية والسفلية على وجه يناسب المزجور ، من سوق كما فى سوق السحاب إلى مواقع المطر ، أو حث كما فى أمر رئيسهم لمرءوسهم ، أو نهى كما فى زجر العباد عن المعاصى بالتخويف من عواقبها ، أو منع كما فى كف الشياطين عن الإغواء واستراق السمع ، وكما أن الملائكة صافات وزاجرات ، فهم يتلون ذكر الله فيما بينهم فى جملة ما يذكرونه من معارف وتلاوات ، يعلمها الله ، كما يتلونه عندما يبلغون الأَنبياء وحْيه سبحانه .

وحمل هذه الأَوصاف على الملائكة قال به ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة ، وغيرهم . والملائكة ليسوا إناثًا لقوله -تعالى- : « وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »(1) ووصفهم هنا بأَوصاف الإناث مراعاة لتاء التأْنيث فى لفظها ؛ ولأَن الجمع يجوز تأْنيث وصفه أو ضميره على معنى الجماعة .

وقيل : إنه - تعالى - أَقسم بطوائف الأَجرام السماوية المرئية كالصفوف المرصوصة ، وبالأَرواح الزاجرات ، أى : السائقات لها فى مداراتها ، حيث ترعاها وتدبر أَمرها ، والمراد بها الملائكة الموكلة بها ، وبالجواهر القدسية الذين يَتْلون ذكر الله ، وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والمراد بها الملائكة الكروبيون ، وقيل : أَقسم بنفوس العلماء التى لها هذه الصفات الثلاثة ، وقيل : بنفوس الغزاة الصافين فى الجهاد ، والزاجرين الخيل ، أو العدو ، التالين لذكر الله لا يشغلهم العدو عنه .

ونحن نقول : لا مانع من إرادة من يتصف بهذه الصفات فى طاعة الله ممن ذكروا ومن غيرهم ، تعظيمًا لشأْنهم ، والعطف إما لتغاير الذات أو لتغاير الصفات ، وإن اتحدت الذات وكان العطف بالفاء للإيذان بالترتيب الوجودى أو الشرفى .

وقد يقال : ما فائدة القسم بأَن الإِلٰه واحد عند المنكرين ، والجواب : أَن القسم لتعظيم المقسم به ، وتأْكيد المقسم عليه - كما هو المعروف عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم -

---

(1) سورة الزخرف ، الآية : 19

أما تحقيق المقسم عليه فقد تكفل به قوله ـ تعالى ـ : (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) كما سنبينه بعد .

٥ ـ (رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) :

أفادت هذه الآية أنه ـ تعالى ـ خالق السَّمٰوات والأرض وما بينهما ورب مشارق الكواكب ، وهذه دعوى تحمل فى أعطافها الدليل عليها ، فإن وجود السموات والأرض فى الفضاء محفوظة من التلف مصونة من العيب ، مع أداء كل كوكب ونجم وظيفته نحو غيره من الكواكب ونحو نفسه ، مع عظمتها فى نفسها ، وعظمتها فى أغراضها ، وضرورة كل ذرة فيها لتحقيق أغراضها ، وانطواء كل ذرة على أسرار عظيمة ، كما كشفت عنه الكشوف المعاصرة ، كل ذلك وغيره من أسرار السموات والأرض ، يدل أوضح الدلالة على وحدة تدبيرها ، ووحدة مدبرها ومنشئها ، إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » والمشركون يقرون بذلك : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وحيث انتهى التفكير فى هذا الكون العجيب إلى أن منشئه واحد ، ومدبره والقائم على حفظه وأداء وظائفه واحد ، فإن ذلك يستتبع أن إلٰهنا الذى يجب أن نتجه بعبادتنا إليه واحد ، وهذا هو جواب القسم السابق : « إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وكثيرًا ما تتعرض الآيات القرآنية إلى ما بين السموات والأرض كشاهد على وجود الله وربوبيته ووحدانيته كما هنا ، ولابد أنه شىء عظيم حتى يجعل القرآن الكريم له هذه الأهمية فى عديد من الآيات ، وقد كشف الناس منه الأشعة الكونية والجاذبية ، والأجرام الكثيرة الدائرة بسرعة رهيبة فى الفضاء ، والشهب والسحب والرعد والبرق والأمطار والرياح ، وغير ذلك مما عرف ، أمّا ما لم يعرف فلا ريب فى أنه شىء عظيم ، فسبحان من خلق ودبر ، واحتجب عن العيون ذاته ، وأظهرته آياته .

(إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(السَّمَآءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى .

(شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) : خارج عن الطاعة .

(دُحُورًا) الدحور : الطرد .

(عَذَابٌ وَاصِبٌ) : عذاب دائم أو شديد .

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ) : إلَّا من اختلس من كلام الملائكة اختلاسة .

(فَأَتْبَعَهُ) أى : تبعه ، فهو رباعى بمعنى الثلاثى ويتعدى مثله .

(شِهَابٌ) : هو ما يرى مضيئًا مارقًا بسرعة فى الجو كأنه كوكب ساقط .

(ثَاقِبٌ) : مضىء .

التفسير

٦ـ(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) :

السماء لغة : كل ما علاك ، ولهذا تطلق على السحاب كما فى قوله ـتعالىـ : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا »[1] والمراد هنا ما جعل الله الكواكب زينة لها ، ولابد أن تكون شيئًا آخر غير الكواكب ، فإن الزينة شىء وما تزينه شىء آخر ، ولأن النبى ـصلى الله عليه وسلمـ

(١) سورة (ق) من الآية : ٩

كان يستفتح ليلة الإسراء والمعــراج ، وكان استفتاحه على السموات لاعلى الكواكب ، ولأن الكواكب لاحصر لها ، وتتجاوز الأرقام الحسابية التى عرفها البشر ، كما أن طبقاتها لاحصر لها أيضًا ، فهى مجاميع سُدُمية[1] ، لا يبلغها الحساب ، وطبقاتها لا يبلغها العدد ، وليست سبع طبقات ، والله تعالى يقول : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا »[2] .

والقبة الزرقاءُ التى تراها العيون ليست هى السماء التى جعلت الكواكب زينة لها ، فهى الغلاف الجوى المحيط بالأرض ، فإذا تجاوزه فلا يراه ، وهذا أمر تحقق علميًّا وكشفيًّا .

وعلى هذا تكون السموات السبع التى جعلت الكواكب زينة لها غير مرئية ولا معروفة لنا ، ولكننا نرى الكواكب التى جعلها الله زينة للسماء الدنيا أى : القربى من أهل الأرض ، وهى أول السموات السبع ، فسبحان من لا يعلم سواه عظمته وعظمة الكون الذى أبدعه .

وهذا التفسير هو الذى يساعد عليه ظاهر النص ، ومن العلماء من جعل السموات هى نفس الكواكب وما حولها من أجوائها والأشعة الكونية ، وقد انقسموا قسمين : فمنهم من يقول : إنها سبع طبقات كوكبية فعلًا ، ومنهم من يقول : إن العدد لا مفهوم له سوى التكثير ، فإن العرب تستعمل عدد السبع مفردًا أو جمعًا ، كالسبعين لغرض التكثير ، ويقولون : إنها طبقات كثيرة لا تقف عند عدد السبع

ونحن نقول لهؤلاء : إذا كانت السموات مجموعات من طبقات الكواكب ، فلماذا جعلت الكواكب زينة للسماء الدنيا وحدها كما فى هذه الآية وفى آية سورة الملك ، وكيف تكون زينة لنفسها ، والزينة شىء وما تزينه شىء آخر ، وكيف يستفتح الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليلة المعراج على كواكب ، ثم نقول : علينا أن نؤمن بأن لله سموات سبعًا ، وأن الكواكب زينة للسماء الدنيا منها ، ونترك العلم بحقيقة ذلك إلى الخالق – جل وعلا – .

والكواكب هى تلك الأجرام المتلألئة التى نشاهدها فى الفضاء ليلًا ، ومنها القمر أقربها إلى الأرض ، وقد وصل الإنسان فى عصرنا هذا إلى القمر داخل أجهزة علمية ، وقد حصل

---

(١) سدم : جمع سديم وهو مجموعة من الكواكب لا حصرَ لها .

(٢) سورة الملك ، من الآية : ٣

العلماء على معلومات عنه أكثر وضوحا من ذى قبل ، ومنها أن عناصر تكوينه تشابه عناصر تكوين الأرض ، وأن جوه لا يصلح لحياة الإنسان فوقه .

٧ - (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) :

وحفظنا السماء حفظًا بتلك الكواكب من كل عفريت من الجن شرير متمرد خارج عن الطاعة ، حيث تنزل منها الشهب فتحرق من يحاول استراق السمع فى جو السماء من أولئك الشياطين المتمردين .

٨ - (لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) :

الملأُ الأعلى : الملائكة أو رؤساؤهم ، والمعنى : لا يتمكن مردة الشياطين أن يتسمعوا ، ويصغوا إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم من شئون الخلائق ، فقد حفظت السماء منهم بشهب أصلها من الكواكب ، فإن حاولوا الاستماع يقذفون بها من كل جانب من جوانب السماء .

٩ - (دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) :

الدُّحُور : الطرد ، والواصب : الدائم أو الشديد كما تقدم فى المفردات .

والمعنى : ويقذف أولئك الشياطين بالشهب من كل جانب لأجل دحرهم عن مجتمع الملائكة فى جو السماء ، وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم . ولأولئك الشياطين عذابٌ شديد دائم فى الآخرة ، غير عذاب الإحراق بالشهب فى الدنيا .

١٠ - (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) :

أى : لا يتسمع أولئك الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلّا من اختلس منهم كلام الملائكة مسارقة ، فتبعه شهاب ثاقب ، أى : شعلة قوية الضوء والحرارة فتحرقه .

والشهاب : واحد الشهب ، وهى أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب ، سابحة فى فضاء الله - تعالى - فإذا وصلت فى دورانها إلى جاذبية الأرض جذبتها ، فمرت بسرعة متجهة

نحوها ، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء ، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل . ثاقب : أى ساطع .

(فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبرهم .

(طِينٍ لَّازِبٍ) : طين لاصق .

(يَسْتَسْخِرُونَ) : يبالغون فى السخرية .

التفسير

١١ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ) :

المعنى : فاستخبر يا محمد مشركى مكة المنكرين للبعث ، أهم أصعب خلقاً وإيجادًا ، أو أقوى خلقة وبنياناً ، أم من خلقناه من السموات وما فيها من الملائكة والكواكب وروائع العجائب ، والأرض وما فيها من جبال وتلال ، ونجاد ووهاد ، وزروع نضرة ، وزهور عطرة ، وجماد وحيوان ، وماء وحيتان ، ومابين الأرض والسماء من الرياح اللواقح ، والشهب الثواقب ، وغير ذلك من عجائب مبدعاته ، وروائع مخلوقاته ، إنا خلقنا بنى آدم من طين لاصق بعضه ببعض ، فى ضمن خلق أبيهم آدم ، أو خلقناهم أنفسهم من الطين ، فإن أصلهم النطفة ، والنطفة أصلها غذاء مخلوق من الطين ، فهم باعتبار هذا التسلسل مخلوقون من الطين .

وإذا كانوا مخلوقين من الطين على أى وجه ، فكيف يستبعدون بعثهم من التراب ، إذ قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ »[1] مع أنهم خلقوا فى أول أمرهم من تراب ممزوج بالماء فصار طيناً .

١٢ - (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) :

بل : هنا لابتداء كلام آخر ، كما قاله صاحب المغنى فى قوله - تعالى - : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »[2] وليست للعطف ، نقله الخطيب معلقاً على البيضاوى ، والخطاب للرسول وكل من يدافع عن الحق .

والمعنى : بل عجبت يا منصف الحق من قدرة الله على ماخلقه من الكائنات العلوية أو السفلية ، ومع هذا ينكر الكافرون البعث ، ويسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث .

١٣ - (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ) :

وإذا وعظوا ليؤمنوا بالبعث لا يتعظون ، لقساوة قلوبهم ، وقلة فطنتهم .

١٤ - (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) :

السين والتاء فى « يستسخرون » للمبالغة ، والمعنى : وإذا شاهدوا معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ماهم عليه ، يبالغون فى السخرية ، ويجوز أن تكون السين والتاء للطلب ، أى : يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا .

١٥ - (وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : وقالوا فى شأن الآية التى رأوها : ما هذا الذى نراه إلَّا سحر واضح .

١٦ ، ١٧ - (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

أى : أنُبعث نحن وآباؤنا الأولون إذا متنا جميعًا ، وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام ؟ يقولون ذلك منكرين نافين للبعث ، والهمزة فى « أئذا » وفى « أئنا » للإنكار والنفى .

---

(١) سورة المؤمنون من الآية : ٨٢ (٢) سورة الأعلى ، الآية : ١٦

(قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(دَاخِرُونَ) : صاغرون .

(زَجْرَةٌ) : صَيْحَةٌ .

(يَنظُرُونَ) : يبصرون ، أوينتظرون .

(يَاوَيْلَنَا) : يا هلاكنا .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، تقول : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يَوْمُ الْفَصْلِ) : يوم القضاء بعد البعث .

التفسـير

١٨ - (قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ) :

قل - يامحمد لمنكرى البعث - : نعم تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون الذين ماتوا قبلكم ، والحال أنكم جميعًا صاغرون أذلاء ، غير معجزين لقدرة الله - تعالى - .

وقد اكتفى هنا فى إجابة منكرى البعث بذلك من غير إقامة الدليل على إمكانه لأنه سبق قريبا ، ولأنه تكرر فى القرآن فى مواضع شتى .

١٩ - (فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ) :

الزجرة : الصيحة ، من : زجر غنمه : إذا صاح بها .

والمعنى : لاتستصعبوا البعث من القبور ، فما هو إلا صيحة واحدة ، وهى النفخة الثانية فى الصور فإذا هم قائمون من مراقدهم أحياء ينظرون بأبصارهم ، أو ينتظرون مايفعل بهم .

٢٠ ، ٢١ - (وَقَالُواْ يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

الدِّين : الجزاء ، تقول : أدانه القاضى ، أى : جازاه ، والفصل : القضاء والحكم ، ففيه فصل ، أى : فرق بين المحق والمبطل .

والمعنى : وقال المنكرون للبعث حين بعثوا وتذكروا ماكانت الرسل تقول لهم فى الدنيا عن هذا اليوم : هذا يوم الجزاء من الله لعباده ، ويقول بعضهم لبعض : هذا يوم القضاء والحكم فى نزاعنا مع رسل الله فى شأن البعث وغيره مما جاءونا به ، هذا هو اليوم الذى كنتم به تكذبون ، فما أشقانا فيه وقد كذبناهم ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : « هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » حكاية لكلام الملائكة للمنكرين للبعث لما بعثوا وقالوا : « يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ » وليس من كلام بعض المنكرين لبعض .

وكان أبو حاتم يقف على قولهم : « ياويلنا » ويجعل مابعده من كلام الملائكة جوابا للمنكرين وتوبيخا لهم وإيذانا بأن وَلْوَلَتَهم وتندمهم لاينفعانهم .

* (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ) أى : اجمعوا الظالمين وأمثالهم من أصحاب المعاصى .

(وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ) : من الأصنام والأوثان ، فإنها تحشر معهم .

(فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ) أى : فدلوهم ووجهوهم إلى طريق النار .

(مَالَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ) أى : لماذا لاينصر بعضكم بعضا .

(مُسْتَسْلِمُونَ) : منقادون ، أو قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، والانقياد تابع لذلك عرفا .

التفسير

٢٢ ، ٢٣ - (ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُم إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) :

خطاب من الله للملائكة ، أو من الملائكة بعضهم لبعض . وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - تقول الملائكة للزبانية :

(احشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ . . .) الآية ويراد بالظلم : الشرك ؛ قال تعالى : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) : وهو أمر بحشر الظالمين يوم البعث من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ، وقيل : من الموقف إلى الجحيم ، يحشرون هم وأمثالهم ونظراؤهم من الكفار ، فيحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية . وقال عمر بن الخطاب فى معنى الآية : أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم . يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . وقيل فى رواية عن ابن عباس : وأزواجهم أى : نساؤهم الموافقات على الكفر ، ورجحه الرُّمَّانى ، وقيل : مع قرنائهم من الشياطين ، وروى عن الضحاك وهو قول مقاتل - أيضا -: فيحشر كل كافر مع شيطانه فى سلسلة ، كما يحشرون مع مايعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان ونحوها مما لايعقل ؛ لأن الحديث عن المشركين عبدة ذلك . وحشرهم معها لزيادة التحسير والتخجيل .

(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) أى : فعرفوهم طريق النار ، ودلوهم عليه ، والجحيم : طبقة من طبقاتها شديدة الاشتعال . والتعبير بالهداية للتهكم .

٢٤ - (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ) :

أى: احبسوهم فى الموقف إنهم مسئولون عن شركهم وخطاياهم، وهذا الحبس يكون للحساب قبل السوق إلى الجحيم وبعده يساقون إلى النار، ونص الآية يؤذن بأن هذا الموقف ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب، بل ليسألوا عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم.

وظاهر الآية: أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى طريق الجحيم، بمعنى تعريفهم إياه، ودلالتهم عليه، لابمعنى إدخالهم فيه.

٢٥ - (مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ) :

المعنى: يقال لهم - على جهة التقريع والتوبيخ -: مالكم لاينصر بعضكم بعضا فيمنعه من عذاب الله، كما كنتم تزعمون فى الدنيا.

وقيل: هذه الآية إشارة إلى قول أبى جهل يوم بدر: نحن جميع منتصر.

والسؤال عن هذا فى موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم، والأمر بهدايتهم إلى الجحيم كما قيل: وتأخير السؤال إلى هذا الوقت؛ لأنه وقت تنجيز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصرة، وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية، والتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا. والخطاب لهم ولآلهتهم أولهم فحسب.

٢٦ - (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) أى: منقادون، وقال قتادة: مستسلمون لعذاب الله - عز وجل - بمعنى أن كلهم مستسلم غير منتصر.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۢ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

(يَتَسَآءَلُونَ) : يتخاصمون بطريق الجدال .

(تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) أى : تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، أو تأتوننا من جهة الخير فتنهوننا عنه ، وتمنعوننا منه - قاله قتادة .

(مِّن سُلْطَانٍ) أى : من حجة فى ترك الحق .

(قَوْمًا طَٰغِينَ) أى : مجاوزين الحد فى الضلال .

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ) أى : زينا لكم ماكنتم عليه من الكفر .

(غَاوِينَ) : بالوسوسة لكم . (بِالْمُجْرِمِينَ) : بالمشركين .

التفسير

٢٧ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

المعنى : وأقبل الرؤساء المُضِلُّون والأتباع المُضَلُّون . أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم

من الجن -أقبلوا- يتخاصمون، أى: يسأل بعضهم بعضا بطريق الخصومة والجدال، ويوبخه فى أنه أضله وفتح له بابا واسعا من المعصية .

٢٨ - (قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) :

استئناف بيانى، كأنه قيل: كيف يتساءلون ؟ فقيل: قالوا - أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء - : «إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ» .

والمعنى: إنكم كنتم تأتوننا فى الدنيا عن اليمين، أى: عن اليمن والخير، وتزعمون لنا أن ماأنتم عليه خير ودين حق ، فترغبوننا فيه ، وتهونون علينا أمر شريعة الحق ، وتنفروننا منها ، فتبعناكم فهلكنا، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاما ، دنيا وأخرى ، استعيرت لجهة الخير .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى القوة والقهر، واليمين تستعمل مجازاً عن القوة ؛ لأن بها يقع البطش ، أى : إنكم تحملوننا على الضلال وتقسروننا عليه .

أو : تأتوننا عن اليمين بمعنى الحلف . بمعنى أنهم كانوا يوالونهم مقسمين عليهم بأن ماهم عليه من الكفر هو الحق الذى يجب اتباعه .

٢٩ - (قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) :

استئناف، أى: قال الرؤساء أو القرناء -فى جوابهم بطريق الإضراب - : بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، فأنتم لم تكونوا مستعدين للإيمان ، حيث أعرضتم عنه مع تمكنكم منه ، مختارين غير ملجئين . وآثرتم عليه الكفر ؛ فلم تكونوا قابلين للإيمان قط حتى ننقلكم من استعدادكم للإيمان إلى الكفر بل كنتم على الكفر فأقمتم عليه متمسكين به للإلف والعادة .

٣٠ - (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَٰغِينَ) :

أى : وما كان لنا عليكم من قهر وتسلط ، أو حجة على ترك الحق نسلبكم بهما اختياركم ، وتمكنكم من الإيمان ، بل كنتم وفق طبيعتكم قوما مجاوزين الحد فى العصيان ،

مختارين له ، مصرين عليه دون إجبار ، وإنما دعوناكم إلى الضلال فأجبتم لموافقة هواكم لما دعيتم إليه .

٣١ـ (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ) :

ذلك ـ أيضا ـ من قول المتبوعين ، وهو تفريع على ماتقدم من عدم إيمان المتخاصمين ، وكونهم قوما طاغين فى حد ذاتهم . أى : وجب علينا وعليكم قول ربنا : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) فكلنا ذائقو العذاب الذى ورد به الوعيد .

فكأنهم قالوا : ولأجل أننا جميعا لم نكن مؤمنين ، وكنا قوما طاغين ، وثبت علينا وعيد ربنا بأنا ذائقون لامحالة لعذابه ـ عز وجل ـ .

٣٢ـ (فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ) :

أى : فدعوناكم إلى الغواية ، وزينا لكم ماكنتم عليه من الكفر ، فاستجبتم لنا باختياركم واستحبابكم الغى على الرشد .

(إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) جملة مستأنفة لتعليل ماقبلها ، أى : إنما أغويناكم لتكونوا مثلنا فى الغواية ـ والمراد الكفر ـ وهذا كقولهم : « رَبَّنَا هَـٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا [1] » .

٣٣ـ (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

المعنى : أن الفريقين المتسائلين ـ المضِل والمضَل ـ يوم إذ يتساءلون . وهو يوم القيامة هم فى العذاب الذى استحقوه مشتركون . كما كانوا مشتركين فى الكفر والغواية ، واستظهر أن المغوين أشد عذابا لإغوائهم لغيرهم مع ضلالهم ، فالشركة لاتقتضى المساواة .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٦٣

٣٤- (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) :

أى : إنا مثل ذلك الفعل الدال على الحكمة التشريعية نفعل بأُولئك المتناهين فى الإجرام وهم المشركون فى عهد الإسلام كما يشير إليه التعليل بقوله - تعالى - :

٣٥- (إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) :

أى : إنا مثلَ ذلك العذاب نفعل بالمشركين المتخاصمين من أُمتك يا محمد؛ لأَنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله - بطريق الدعوة والتلقين - يستكبرون عن القبول ، ومن ذلك ماروى أن النبي ﷺ لما قال لأَبى طالب - عند موته - واجتماع قريش حوله : قولوا : لا إلٰه إلا الله تملكوا بها العرب ، وتدين لكم العجم ، أَبَوا وأَنِفُوا من ذلك . وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ أنزل الله فى كتابه . فذكر قوما استكبروا . فقال : إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إلٰه إلا الله يستكبرون . وقد استكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ، ذكر هذا الخبر البيهقى . والذى قبله القشيرى[1] .

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) : يعنون محمدا ﷺ وقد كذبوا ، فما هو بشاعر ولا مجنون .

(بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ) : جاء بالتوحيد .

(إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصهم الله لطاعته .

(١) تفسير الإمام القرطبى .

التفسير

٣٦ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ :

يعنون بذلك ـ قبحهم الله ـ النبي ﷺ . وقد جمعوا بين إنكار الوحدانية وجحد الرسالة . أى : أنحن تاركو عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون ؟ والاستفهام للاستبعاد ، فرد الله ـ عز وجل ـ عليهم بقوله :

٣٧ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ :

تكذيبًا لهم ، ببيان أن ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد هو الحق الذى قام عليه البرهان ، وأجمع عليه كافة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ، وصدقهم ﷺ فيما أخبروا عن الله من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شرعه وأمره كما أخبروا قال الله ـ سبحانه ـ : « مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ[1] » .

٣٨ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ :

المعنى : إنكم لذائقو العذاب المؤلم بما كان منكم من الإشراك وتكذيب الرسل والاستكبار ، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين .

٣٩ـ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ :

أى : وما تجزون إلا بما عملتم من الضلال والشرك ، لايزاد عليه ولاينقص منه ، والآية تشير إلى أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لامن جهة غيرهم أصلا .

٤٠ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ :

أى : إنكم أيها المجرمون لذائقو العذاب الأليم . لكن عباد الله المخلصين الذين أخلصهم الله لطاعته لايذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب ، وإنما يجزون بالثواب أضعافا مضاعفة

---

(١) سورة فصلت من الآية : ٤٣

بالنسبة لأعمالهم ، فيجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ماشاء الله من التضعيف ، ويراد بهم على قراءة المخلصين ـ بكسر اللام ـ عباد الله الذين أخلصوا له العبادة .

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أى : عطية معلومة الخصائص .

(عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) أى : لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ، وإنما ينظر فى وجهه تواصلا وتحاببا .

(بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أى : بخمر من نهر ظاهر للعيون .

(لَا فِيهَا غَوْلٌ) : لاتغتال عقولهم وصحتهم .

(وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أى : ولا هم بسببها يسكرون . يقال : نُزِفَ الرجلُ ينزَف فهو منزوف ونزيف: إذا سكر .

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) أى : يقصرن أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم . وعين : جمع عيناء ، وهى شديدة بياض العين شديدة سوادها . وقال السُّدىُّ ومجاهد : «عين » : حسان العيون .

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) أى : بيض مصون عن الريح والغبار حيث تكنّه النعامة أو الفرخة بريشها .

التفسير

٤١ - (أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) أى : لهم رزق معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع عن النظر ، لذيذ الطعم طيب الرائحة إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة ، أو معلوم الوقت لقوله - تعالى - : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

٤٢ - ٤٤ - (فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) أى : إن الرزق المعلوم مع تميزه بخصائصه - كله فواكه - والمراد بها : ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم ، لكونهم مستغنين عن القوت ، لأن خِلْقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل ، والمراد بالفواكه : الثمار كلها رطبها ويابسها : قاله ابن عباس ، (وَهُم مُّكْرَمُونَ) عند الله - عز وجل - برفع الدرجات وسماع كلامه لا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم ، وهل فى هذا إشارة إلى النعيم الروحانى بعد النعيم الجسمانى الذى يأتى به الأكل .

وقيل : مكرمون فى نيل رزقهم حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال ، بخلاف رزق الدنيا ، ورزقهم هذا (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) وإضافة الجنات إلى النعيم على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر ، أى : فى جنات ليس فيها إلا النعيم ، وهم على سرر يقابل بعضهم بعضا للاستئناس والمحادثة ، والأسرة تدور بهم كيف شاءوا تواصلا وتحاببا بالنظر إلى الوجوه .

٤٥ - ٤٧ - (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) :

استئناف لبيان ما يكون فى مجالس أنسهم من شرابهم بعد ذكر مطاعمهم ، والكأس فى اللغة : الإناء وفيه شرابه ، فإن كان فارغاً يقال : إناء أو قدح ، وتطلق - أيضاً - على

الخمر مجازا ، وهو المراد هنا - ، والمعين : الماء الجارى الظاهر للعيون ، وكذلك تجرى الخمر فى الجنة كما قال - تعالى - : (وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ) .

ولم تعين هذه الآية من يطوف عليهم بالكأس ، وقد بين الله الطائفين فى قوله تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) وقوله : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) كما بينت السنة الصحيحة : أن أطفال المشركين ممن يطوف على أهل الجنة ، لخدمتهم .

وقد وصفت بأنها بيضاء ، وبأنها لذة لشاربيها ، ولتمام لذتها وصفت بها فكأنها نفس اللذة وعينها مبالغة .

وهى لاغائلة فيها ، فلا تؤثر فى شاربيها باغتيال عقولهم كما فى خمر الدنيا ، من غاله يغوله : إذا أفسده وأهلكه . والمراد هنا : نفى أن يكون فيها ضرر أصلا (وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ) أى : يسكرون ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، من نُزِف[1] الشارب إذا سكر ، ويقال للسكران : نزيف ومنزوف ، وعدى الفعل بعن بمعنى باء السببية ، أى : ولاهم بسببها يسكرون ، وأفرد هذا الفساد بالنفى مع اندراجه فيما قبله من نفى الغَوْل عنها ، لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه ، وصرْفُ الله السُّكرعن أهل الجنة ، لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم .

٤٨ ، ٤٩ - (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ) : المعنى : وعندهم نساء عفيفات قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم : قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب وغيرهم ، كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن ، وعدم ميلهن إلى سواهم . وقيل : المعنى : ذابلات الجفن مِراضُه ، وما أجمل ذبول الأجفان فى النساء وقد كثر التغزل بذلك قديماً وحديثاً ومنه قول ابن الأزدى :

مَرِضَت سَلْوتِى وَصَحَّ غرامى ... من لحاظ هُنَّ المِراضُ الصحاح

ويجوز أن يكون المعنى : قاصرات طرف أزواجهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن وهن « عين » جمع عيناء ، وهى : الواسعة العين فى جمال . وقال الحسن : العين : الشديدات بياض العين الشديدات سوادها ، ولصونهن من كل أذى شبهن بالبيض المكنون ، وحمله الجمهور

(١) بضم النون وكسر الزاى - على صيغة المبنى للمجهول .

على بيض النعام ؛ لأنه أجمل أنواع البيض لوناً وفيه صفرة قليلة تُحَب فى النساء . ومعنى أنه بيض مكنون : أن النعام تكنه بريشها من الريح والغبار . وقيل المكنون : المصون عن الكسر . أى : أنهن عذارى . وقيل : المراد بالبيض اللؤلؤ كقوله تعالى : « وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ »[1] أى المصون : فى أصدافه قاله ابن عباس ، إلى غير ذلك من أقوال وكلها تدور حول الإشادة بحسنهن .

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) : يتفاوضون فيما بينهم بأحاديثهم فى الدنيا وهو من تمام الأُنس فى الجنة .

(كَانَ لِي قَرِينٌ) أى صديق : ملازم .

(أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) : مجزيون محاسبون بعد الموت .

(فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) : فى وسطها ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب

(١) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(إن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) أى : لتهلكنى إن أطعتك ، والردى : الهلاك .

(لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) أى : لكنت مثلك من المحضرين إلى سواء الجحيم حيث أنت .

التفسير

٥٠ - (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

معطوف على « يُطَافُ عَلَيْهِمْ » أى : يطاف عليهم بالشراب ، فيقبل بعضهم على بعض ، يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وخلو البال .

٥١ - (قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ) أى : قالَ قائل من أهل الجنة فى تضاعيف محاورتهم : إنى كان لى ملازم ومصاحب من شأنه ما حكاه الله بقوله :

٥٢ - (يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) : يقول لى فى الدنيا على طريق التوبيخ : أءنك لمن المصدقين ، أى : بالبعث كما ينبىء عنه قوله سبحانه :

٥٣ - (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ) :

أى : لمبعوثون ومجزيون؟من الدِّين بمعنى الجزاء ، وهذا منه إنكار واستبعاد لوقوع البعث والجزاء بعد الموت ، وبعد أن صار الجسد تراباً وعظاماً نخرة .

قال أبو السعود : قيل : كان رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال له : أين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضنى الله - تعالى - فى الآخرة خيراً منه. فقال : أئنك لمن المصدقين بيوم الدين؟ والله لا أعطيك شيئاً : فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث .

٥٤ - (قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ) : هذا من قول الله لأهل الجنة ،وقيل : القائل بعض الملائكة ، وقيل : هو من قول المؤمن لإخوانه فى الجنة بعد ماحكى لهم مقالة قرينه فى الدنيا يقول لهم : هل أنتم مطلعون إلى أهل النار ، لأريكم ذلك القرين ، يريد بذلك صدقه فيما حكاه ، وعلى أن القائل هو الله أو بعض الملائكة يكون المعنى : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين ، فتعلموا منزلتكم من منزلتهم ؟

٥٥ ـ (فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ) :

فاطلع المسلم على أهل النار تلبية للعرض أو الأمر فرأى قرينه وسط الجحيم ، قال كعب فيما ذكر ابن المبارك : إن بين الجنة والنار كُوًى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى .

٥٦ ـ (قَالَ تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ) :

قال القائل لقرينه :إن كدت لتهلكنى بالإغواء وبما تزينه لى من عدم تصديق الوعيد بالبعث والحساب والجزاء .

٥٧ ـ (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

أى : ولولا العصمة والتوفيق فى الاستمساك بعروة الإسلام لكنت من الذين أُحضروا العذاب كما أُحضرت أنت وأمثالك .

٥٨ ، ٥٩ ـ (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه ابتهاجاً بما آتاه الله من الفضل العظيم ، وتقريعا للقرين بالتوبيخ .

والمعنى : أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفرح ، ويراد أن حال المؤمنين ألا يذوقوا إلا الموتة الأُولى فهم فى الجنة أحياءٌ حياة دائمة لا يعتريها فناء ، بخلاف الكفار فإنهم يتمنون فى موقفهم الموت كل ساعة ، وقيل لحكيم : ما شر من الموت؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت ،وهذا قول يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله بمسمع من قرينه ، ليكون تعذيباً لهذا القرين ، وزيادة فى توبيخه ، وقيل : هو قول يقوله أهل الجنة للملائكة يقولونه اغتباطاً وفرحاً .

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) هذه الجملة تفيد استمرار نفى العذاب وتأكيده ،واستمرار نفيه نعمة عظيمة مستوجبة للتحدث بها ، وذلك مفض إلى نفى زوال نعيمهم المحكى فى قوله تعالى : « أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ » الآيات ، واختير التعرض لاستمرار نفى العذاب دون إثبات استمرار النعيم ؛ لأن نفى العذاب أسرع خطورا ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب ، وقيل : درءُ الضرر أهم من جلب المنفعة .

٦٠ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

هذا من تتمة قول القائل : (أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ) وجوز أن يكون من كلامه- تعالى - قاله- سبحانه - تصديقاً لقول ذلك القائل، وتقريرا له مخبرا به - جلَّ وعلا - حبيبه ﷺ وأمته ، والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر .

٦١ - (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) :

أى :لنيل مثل هذا الأمر الرفيع ينبغى أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الزوال المشوبة بفنون الآلام ، وهذا الكلام من قول الله- عز وجل - لأهل الدنيا . أى : قد سمعتم ماف الجنة من الخيرات والجزاء و (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا) النزل : ما يُقدَّم للنازل من الرزق .

(أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) الزقوم : شجر مُرٌّ يكون بتهامة ، سميت به الشجرة الموصوفة وهى صغيرة الورق كريهة الرائحة .

(فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ) : محنة وعذاباً لهم فى الآخرة . وابتلاء لهم فى الدنيا .

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ) أى : ثمرها كأنه فى تناهى الكراهة وقبح المنظر رءوس الشياطين ، والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان أو رأس الشيطان أو وجهه .

(لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) أى : لشراباً ممزوجاً من ماء شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، قال الفراء : شابَ طعامه وشرابه : إذا خلطهما بشىء يشوبهما .

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) أى : إن مرجعهم ومردهم إلى دركات جهنم بعد أن ذهب بهم من مقارهم فيها إلى شجرة الزقوم ليأكلوا منها ويملأوا بطونهم .

التفسير

٦٢ - (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) :

ذلك من كلامه - عز وجل - عند الأكثرين لامن كلام القائل ، وهو متعلق بقوله - تعالى - : (أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ) :

والمعنى : أذلك الرزق المعلوم الذى حاصلهُ اللذة والسرور ، خير نزلا وطعاما أم شجرة الزقوم التى حاصلها الهم والغم ، ويراد من التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم ،ومعنى ذلك : أن الرزق المعلوم اللذيذ نزل أهل الجنة الذى يقدم لهم ، وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير نزلًا ؟ .

٦٣ - (إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ) :

أى : جعلنا شجرة الزقوم محنة وعذاباً لهم فى الآخرة ، وابتلاء لهم فى الدنيا ، فإنهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا : كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن إبراهيم -عليه السلام - ألقى فى النار ولم تحرقه ، فالله أقدر على خلق الشجر فى النار ، وحفظه من الاحتراق ، فالنار لا تحرق إلا بإذنه ومشيئته . على أنه لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرًا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الحيات والعقارب وخزنة النار . واختلف فى شأنها على قولين :

الأول : أنها معروفة من شجر الدنيا يعرفها العرب بتهامة من أخبث الشجر وأقبحه منظرا وطعماً .

والثانى : أنها لا تعرف فى شجر الدنيا ، فلما نزلت هذه الآية قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة .

٦٤ - (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ الْجَحِيمِ) :

أى : منبتها فى قعرها ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها .

٦٥ - (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَـٰطِينِ) :

أى : ثمرها كأنه لقبحه وهوله شبيه برءوس الشياطين ، وهى وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين إلا أنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين شديدة القبح ومن ذلك قولهم لكل قبيح : هو كصورة الشيطان ، ولكل حسن : هو كصورة ملك ، كما يتصورون صورة للغول وإن كانت لا تعرف ، ومنه قول امرىء القيس :

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقيل : الشياطين : الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف ، وقيل : إن شجراً - يقال له : الأستن - خشنا منتنا مرًّا منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين ، ولا حرج على قدرة الله - تعالى - أن ينبت هذا النوع من الشجر فى أصل الجحيم بأن يجعل فى تركيبه (كيمياء خاصة) تمنع احتراقه بالنار ، وتجعل النار غذاء له ، وكم لله من عجائب منها : أن الله - تعالى - جعل النار على إبراهيم بردًا وسلاماً . - كما تقدم ذكره -

٦٦ - (فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

أى : فمن شجرة الزقوم طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة يأكلون منها أو من ثمرها ، فيملأون البطون لغلبة الجوع ، أو لقهرهم على أكلها وإن كرهوها ؛ لأنهم لا يجدون إلا إياها أو نحوها ، كما قال - تعالى - : (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ)

٦٧ - (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّن حَمِيمٍ) :

أى : ثم إن لهم على أكلها لشرابا مزج بالحميم تعذيباً لهم .

٦٨ - (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ) :

أى : إن مرجعهم لإلى مقرهم من النار ؛ فإن فى جهنم مواضع أُعد فى كل موضع منها نوع من البلاء ، فالقوم يخرجون من مقارهم فى النار ، إلى موضع آخر فيه ذلك الشراب المشوب بالحميم ، ثم يردون إلى دركاتهم ، وهذا الحميم فى موضع آخر من جهنم خارج عن مقرهم . وقيل : خارج عنها لقوله ـ تعالى ـ : (هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ • يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ)[1] .

وكأن بين خروج القوم للشراب وعودهم إلى مساكنهم زماناً غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ، ولذلك جىء بلفظ ثم ، وهو فى مقابلة مالأهل الجنة من شراب ، وفيه يقول سبحانه : (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ . عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ[2]) والمدلول عليه بقوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) إلخ . كما أن الزقوم فى مقابلة مالهم من الفواكه .

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ) أى : وجدوهم وصادفوهم بعيدين عن الحق .

(يُهْرَعُونَ) أى : يسرعون كهيئة الهرولة ، وقيل : الإسراع الشديد .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : رسلا أنذروهم العذاب فكفروا .

(عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) أى : نهاية الذين أُنذروا وحذِّروا وهى إهلاكهم لكفرهم .

---

(١) الرحمن الآية ٤٣ ، ٤٤ (٢) سورة المطففين ٢٧ ، ٢٨

التفسير

٦٩ ، ٧٠ - (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) :

تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب ، بتقليد الآباء فى أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يستمسك به أصلا ، أى : صادفوهم ضالين فى نفس الأمر ، ليس لهم ما يصلح شبهة ، فضلا عن صلاحية كونه دليلا ، وكانوا فى اتباعهم آباءهم مسرعين إسراعاً شديدًا ، كأنهم يُحَثُّون على ذلك حثاً ، وقد فعلوا ذلك من غير أن يثبت لديهم أن آباءهم محقون فى حين أنهم على الباطل بأدنى تأمل .

٧١ ، ٧٢ - (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ *) :

أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين وهم قريش - ضل قبلهم - أكثر الأولين من الأمم السابقة ، حيث جعلوا مع الله آلهة أخرى ، وهو جواب قسم مقدر ، وكذا قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ) أى : والله لقد أرسلنا فى الضالين عددًا كثيرًا من الأنبياء بينوا لهم بطلان ما هم عليه . وأنذروهم ، وحذروهم عاقبته الوخيمة التى يصيرون إليها وهى النكال الشديد والعذاب الأليم ، وتكرير القسم فى الآيتين لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونهما .

٧٣ - (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) :

من الهول والفظاعة حيث لم يلتفتوا إلى الإنذار ، ولم يتأثروا به ، ويرفعوا له رأساً ، فأهلكهم الله ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم .

والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد يتمكن من مشاهدة آثارهم ، ولما كان المعنى أنهم أهلكوا هلاكاً فظيعاً استثنى منهم المخلصين بقوله - تعالى - :

٧٤ - (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) :

وهم الذين استخلصهم الله من الكفر للإيمان والعمل الصالح ، بموجب الإنذار ، أو الذين أخلصوا لله دينهم على القراءتين بفتح اللام وكسرها ، فهو استثناء من المنذرين فى الآية السابقة ، أو استثناءٌ من قوله - تعالى - : (وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ) .

(وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ) من النداء : وهو الاستغاثة .

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) أى : أهل دينه .

(مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) أى : الغرق ، أو الغم الشديد : على ما قاله الراغب .

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) أى : تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمةٍ لأنه محبب إلى جميع الأديان .

التفسير

٧٥ - (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) :

لما ذكر -تعالى- عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مع نوع تفصيل لما أجمل من قبل ، ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم ، مع بيان سوء عاقبة بعض المنذرين ، كقوم نوح - عليه السلام - وحسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله لطاعته ، كقوم يونس - عليه السلام - .

والقصص التى شرع فى بيانها هى : قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس -عليهم السلام- وفيها عبر بالغة ،وإنذار وتهديد لقريش ، وتسلية للرسول ﷺ .

وقدم الحديث عن قصة نوح لسبقه المذكورين جميعًا. ومعنى الآية: أن نوحا - عليه السلام -: نادى ربه نداء استغاثة متضمنا الدعاء على كفار قومه، وسؤال النجاة، وطلب النصرة، حين أيس من إيمانهم بعد أن دعاهم أحقابًا ودهورًا، فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن معه إلا القليل، وكان كلما دعاهم ازدادوا نفرة وتكذيبًا «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ»[1] فغضب الله لغضبه عليهم، ولهذا قال: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) أى: فوالله لنعم المجيبون نحن حيث أجبناه أحسن إجابة، ونصرناه على أعدائه، فانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، وفيه من تعظيم الإجابة ما فيه.

وأخرج ابن مردويه: عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت: كان النبي ﷺ إذا صلى فى بيتى فمرَّ بهذه الآية (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دُعى، وأقرب من بُغى فنعم المدعو، ونعم المعطى، ونعم المسئول ونعم المولى أنت ربنا، ونعم النصير.

٧٦ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ):

أى: ونجينا نوحًا وأهله وهم من آمن معه وأولاده - نجيناهم - من الغرق، والغمّ الشديد.

٧٧ - (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ):

أى: ضمنا لذريته وحدهم البقاء، فجميع البشر بعده من أحفاده. «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»[2]

قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه فذلك قوله: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)

وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولده.

فسام أبو العرب، وفارس، والروم، واليهود، والنصارى.

وحام: أبو السودان من المشرق إلى المغرب، والسند، والهند، والزنج، والحبشة، والبربر وغيرهم.

---

(١) سورة القمر، آية: ١٠ (٢) سورة نوح، من الآية: ٢٦

ويافث : أبو الترك ، ويأجوج ، والصقالبة .

والأكثر على أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح - عليه السلام - ولذا قيل له : آدم الثانى ، واستدل على ذلك بهذه الآية .

وقال قوم : كان لغير ولد نوح - أيضاً - نسل بدليل قوله - تعالى - : « ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ »[1]

وقوله : « قِيلَ يَا نوحُ اهبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ »[2] فعلى هذا يكون معنى الآية : وجعلنا ذريته هم الباقين دون ذرية من كفر ، فإنا أغرقنا أولئك ، ذكر ذلك القرطبى ، والراجح الأول لحصر البقاء فى ذريته صراحة فى قوله - تعالى - : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) .

٧٨ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : تركنا عليه ثناءً حسنًا فى الباقين من الأمم إلى نهاية الدهر . وهذا الثناء أشار إليه قوله : - تعالى - :

٧٩ - (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَٰلَمِينَ) :

هذا الكلام وارد على الحكاية ، وهو محكى بِتَرَك من قوله (وتركنا . .) فى موضع نصب بها على ماقاله الفراءُ وغيره من الكوفيين ، أى تركنا عليه هذا الكلام بمعناه ، والمراد أبقينا له دعاءَ الناس وتسليمهم عليه أمة بعد أمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقيل : هذا سلام من الله - عزَّ وجل - لا من الآخرين ، ومفعول تركنا مقدر ، أى : تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر ، وجملة « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ » مفعول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجى ، أى : وقلنا : سلام إلى آخره (فِى الْعَٰلَمِينَ) : من تتمة الجملة السابقة . جىء به للدلالة على الاعتناء التام بثبات هذا الدعاء واستمرار هذه التحية أبدًا فى العالمين ، من الملائكة والثقلين جميعًا .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٣

(٢) سورة هود ، من الآية : ٤٨

وقيل : المراد من العالمين الأنبياء ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا أُمر بالاقتداء به ، قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا » [(1)] .

٨٠ ـ (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

تعليل لما فعل به ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التكرمة السنية من إجابة دعائه أحسن إجابة ، وإبقاء ذريته ، وذكره الجميل وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، لكونه من المعروفين بالإحسان الراسخين فيه الذين نجزيهم أحسن الجزاء ، ويكون ما وقع له من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان ، وإحسانه مجاهدة أعداء الله ـ تعالى ـ والدعوة إلى دينه ، والصبر الطويل على أذاهم ، أى : مثل هذا الجزاء الكامل نجزى العاملين فى الإحسان ، أى : نجعل لهم لسان صدق يذكرون به بعدهم بحسب مراتبهم فى ذلك .

٨١ ـ (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تعليل لكونه ـ عليه السلام ـ محسنا بخلوص عبوديته ، وكمال إيمانه ، للدلالة على جلالة الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم .

٨٢ ـ (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) :

أى : المغايرين لنوح ـ عليه السلام ـ وأهله ، وهم كفار قومه أجمعين . فلم يبق منهم أحد ، ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفات القبيحة ، وثم للتراخى فى الذكر لا فى الواقع ، إذ بقاؤه ـ عليه السلام ـ ومن معه متأخر عن الإغراق .

* (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾)

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١٣

المفردات :

(مِن شِيعَتِهِ) : من أنصاره وأعوانه وأهل دينه الذين على منهاجه .

(بقَلْبٍ سَلِيمٍ) : بقلب خالص من آفات القلوب .

(أئِفْكاً) الإِفْكُ : أسوأُ الكذب والاختلاق .

التفسير

٨٣ ، ٨٤ – (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ *) :

هذه الآيات شروع فى جانب من قصة إبراهيم بعد الفراغ من قصة نوح –عليهما السلام–

وقصة إبراهيم متعددة الجوانب ، كثيرة الأحداث– وقد جاءت فى سور كثيرة من سور القرآن وكلُّها تعتمد الجانب العقدى أولا ثم تنتقل إلى الغرض الذى اختص بسورته ماعدا ماجاء فى سورة الأنعام ، فقد اختص بالجانبُ العقدى والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وخالقهما ومسخّرهما حتى خلص بابراهيم – عليه السلام – من هذا إلى توحيد الله ، وتوجيه وجهه إلى الذى فطر السمٰوات والأرض .

أما السور الأُخرى التى جمعت بين الكلام على العقيدة والتوحيد وجوانب أُخرى فكثيرة فى القرآن الكريم مع اختلاف فى العرض والتصوير ، والتطويل والتقصير . من ذلك ماجاء فى سورة البقرة من رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ، والاتجاه إلى الله أن يتقبل منهما وأن يباركه ، ويبارك ذريتهما .

وما جاء فى سورة مريم من حواره مع أبيه : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا »؟[1] وما انتهى إليه أمر أبيه من رفض الإيمان حتى اضطر إبراهيم – عليه السلام – إلى اعتزاله .

وماجاء فى سورة الأنبياء من تسفيه قومه على عبادة الأصنام ، وعلى الضلال الذى يعيشون فيه ، وما انتهى إليه أمره من الكيد للأصنام ، وتكسيرها ، وكيد قومه له بإلقائه فى النار التى جعلها الله عليه بردا وسلاماً ، وردّ كيدهم عليهم فكانوا هم الأخسرين .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن هذا أيضًا ما جاء فى سورة الشعراء حول تبكيت قومه على عبادة من لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، ثم يخلص من هذا إلى تعداد نعم الله ـ تعالى ـ عليه وعلى عباده ، وفضله فيهم « الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . . . »[1] . ثم تنتهى هذه الآيات بأصدق دعاء وأخلص تضرع « رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . . . » .

ثم تأتى هذه السورة ـ سورة الصافات ـ فتوضح محنة الابتلاء وما كان من صدق الأب فى تنفيذ أمر الله ، وما كان من طاعة الابن لأمر ربه ، والرضا بالقضاء حتى تجلّى عليهما بكشف البلاء ، وإنزال الفداء .

هذا وقد جاء أسلوب قصة إبراهيم مرتبطًا بقصة نوح ـ عليهما السلام ـ لما قيل من أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعتبر آدم الثالث بالنسبة للأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته إلا لوطا ، ومما يزيد فى حسن هذا الارتباط اشتراكهما فى المنحة ونجاتهما فى المحنة : فنوح ـ عليه السلام ـ نجاه الله من الغرق ، وإبراهيم نجاه الله من الحرق .

ومعنى : (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ) وإن من شيعة نوح وأنصاره ـ الذين تابعوه فى أصول الدين ، وسلامة العقيدة . وإخلاص التوحيد لله ـ لإبرٰهيم ـ عليه السلام ـ فقد اتفقت شريعتهما على توحيد الله ، واختصاصه بالعبادة ، وإن اختلفت فروع شريعتيهما .

وقيل : شايعه فى التصلب فى الدين ، ومصابرة المكذبين ، ونقل هذا عن ابن عباس .

وليس فى الكلام ما يمنع من اجتماع المعنيين معا .

وقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : توقيت وتوضيح للمشايعة ، والمعنى : شايعه حين جاء ربَّهُ ، أى : أقبل على ربه الذى أحسن خلقه وتربيته ـ جاءه ـ بقلب سليم خالص من آفات القلوب نَقِىٍّ من العلائق الدنيوية الشاغلة عن العبادة ، والتبتل لله تعالى .

---

(١) الآيات من ٦٩-٨٩ من سورة الشعراء .

وسلامة القلب أهم ما ينبغى أن يتوافر فى المسلم؛ لسلامة أعماله، وصلاح جميع أحواله.

٨٥، ٨٦، ٨٧ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ *) :

قوله - تعالى - « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ.. » الآيات بيان وتفسير لقوله - تعالى -: « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ».

والمعنى: إذ قال إبراهيم لأبيه آزر - منكرًا عليه، ساخرًا من سلوكه - ما الذى تعبدونه من دون الله ؟

أتريدون - لأسوأ الكذب، وأقبح الافتراء والسفه - أن تتخذوا آلهة موهومة، وأصناماً تصنعونها بأيديكم نؤمنون بها، وتخصونها من دون الله بالعبادة ولو فكَّرتم لرأيتم أنكم أشرف منها لأنكم الصانعون، وهى المصنوعة.

« فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى: فما ظَنكُمْ إذ تفعلون هذا الفعل المنكر بمن هو حقيق بالعبادة، جدير بالتوحيد؛ لأنه ربُّ العالمين، وخالقهم، ومدبر أمورهم حتى تركتم عبادته وحده، وأشركتم معه غيره من مخلوقاته.

أو فما ظنكم بما يفعل بكم رب العالمين، وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم من الإشراك به.

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾)

المفردات:

(نَظَرَ): تأمل بعينه.

(سَقِيمٌ): مريض عليل.

(فَتَوَلَّوْا): أعرضوا.

(مُدْبِرِينَ): راجعين.

التفسير

٨٨ - (فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ) :

نظر فيها كما كانوا يفعلون فى تعرف أحوالهم ، فأوهمهم من تلك الجهة ، وأراهم من معتقداتهم عذرا لنفسه .

والمعنى : فنظر إبراهيم -عليه السلام- حين دعاه قومه للخروج معهم فى عيدهم للعب واللهو والسمر -نظر فى النجوم - يوهم قومه أنه يستنبئها- ويستطلع الرأى من حركاتها ومطالعها ليريهم عذرا لنفسه فى عدم خروجه معهم فى عيدهم مأخوذا من معتقداتهم .

٨٩ - (فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ) :

أى : فقالَ إبراهيم حين نظر إلى النجم : إنى مريض عليل ، يقصد أنه مريض القلب من عبادتهم لغير الله -تعالى- ، وإن كان ظاهره الاعتذار عن عدم الخروج معهم لمرضه ، وعلى هذا يكون قوله : إنى سقيم من المعاريض على نحو ما ذكر فى سورة الأنبياء .

وقيل : كانت له -عليه السلام- حُمَّى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل ، فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة ، فإذا هى قد حضرت ، وكان صادقاً فى ذلك ؛ لأن نوبات الحمى لا تتخلف عادة ، قال المتنبى فى شأن الحمى واعتياد أوقاتها :

وزائرتى كأن بها حياء ... فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت فى عظامى

٩٠ - (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) :

أى : فأعرض قومه عنه وتركوه راجعين خائفين من عدوى المرض مسرعين إلى عيدهم حين أخبرهم بأنه سقيم ، ولوح لهم بالمرض .

وهكذا احتال فى عدم خروجه معهم بما لم يقنعهم بعذره فحسب ، بل بما حملهم على الفرار وإجلاء المكان منهم ليفعل بأصنامهم ما شاء .

(فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾)

المفردات :

(فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ) : مال إليها فى خفية وحيلة .

(بِالْيَمِينِ) : بالقوة والشدة .

(يَزِفُّونَ) : يسرعون . من زف القوم زفيفاً إذا أسرعوا . ومنه زفيف النعام .

التفسير

٩١ – (فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) :

أى : فمال إبراهيم –عليه السلام– فى خفية وحيلة وتسلل إلى الأصنام التى يتخذونها آلهة بعد أن خلا المكان بخروج القوم إلى عيدهم ، فقال للأصنام – استهزاءً بهم ، وسخرية منهم– : أَلاَ تأكلون من هذا الطعام المتعدد الأصناف ، المختلف الأنواع الذى نثره حولكم ، ووضعه بينكم هؤلاء السفهاء الجهال فى يوم عيدهم ، جاهلين أنكم أحجار صمٌّ وتماثيل بُكمٌ .

٩٢ – (مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ) :

أى : ما الذى دهاكم ، وأى شىء أصابكم وأسكتكم فجعلكم لاتردون جواباً ، ولا تنطقون . وهو سؤال يقصد به المبالغة فى السخرية والاستهزاء .

٩٣ – (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) :

أى : فمال إبراهيم – عليه السلام– متسلطاً مستعلياً عليهم متمكناً منهم يضربهم ضرباً

شديدًا أليماً بالغاً أقصى القوة والشدة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما ،وقوة الأداة تقتضى قوة الفعل وشدته .

وقيل : باليمين معناه بسبب اليمين ووفاء به ،وهو المذكور فى قوله تعالى : « وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ »[1] :

والمعنى الأول أولى وأوفى بالمقام ،ويتلاقى مع قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ »[2]

٩٤ - (فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ) :

فأقبلوا إلى إبراهيم بعد أن رجعوا من عيدهم فألْفوْا أصنامهم مهشّمة محطّمة ، أقبلوا يسرعون فى طلبه والإمساك به ظنا منهم أو يقيناً بأنه هو الذى فعل هذا بها .

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(مَا تَنْحِتُونَ) : ما تَبْرونه وتصنعونه بأيديكم .

(الْجَحِيمِ) : النار الشديدة الاتقاد . من الجحمة وهى شدة التأجج .

(كَيْدًا) : مكرًا وسوءا .

(الْأَسْفَلِينَ) : الأذلين المقهورين .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٤ ، ٤٥ من سورة الحاقة ، وأخذه باليمين مجاز عن أخذه بالشدة والقوة .

التفسير

٩٥ - ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ :

قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه حين واجهوه بتهمة تحطيم أصنامهم وقالوا له: « أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ » [1] قال : أيستقيم منكم ويصح فى عقولكم أن تعبدوا أصناماً نحتموها من الصخر ، وصنعتموها بأيديكم من الحجارة ، ثم تتخذونها آلهة تدعونها رغباً ورهباً من دون الله ، وإنما سألهم ذلك تبكيتا لهم ، وسخرية بهم ، واستخفافاً بعقولهم .

٩٦ - ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ :

هذه الآية من جملة كلام إبراهيم - عليه السلام - والمعنى : أتعبدون ما تنحتون وتتركون عبادة الله الواحد القهار والحال أن الله خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق هذه الأصنام التى تصنعونها لأن جوهرها ومادتها من خلق الله - تعالى - وأما صورها وأشكالها - وإن كانت من أعمالهم - فهى من إقداره لهم - جل شأنه - وخلق ما يتوقف عليه فعلهم من العدد والأسباب .

خرّج البيهقى من حديث حذيفة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله - عز وجل - خلق كل صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه » .

٩٧ - ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ :

أى : قال قوم إبراهيم حين انقطعت بهم الحجة ، وأعياهم الجواب المقنع - قالوا - : ابنوا له حائطاً ضخماً ، وبنيانا كبيرا واجمعوا فيه الأحطاب ، وأضرموا فيها النار ، وألقوه فى لهيبها المتقد ، وجحمتها المتأججة عقوبة له على فعلته ، وتخلصا من خطره وسطوته

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأنبياء .

٩٨ - (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) :

أى : وأراد قومه بهذا العمل معه كيدا به وإحراقاً له ، فرد الله كيدهم إلى نحورهم ، وجعل النار برهاناً على صدق دعوته وعلو قدره حيث جعلها عليه بردا وسلاماً ، وجعلهم الأذلين المقهورين الأسفلين .

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى) : مهاجر إلى حيث أمرنى . أو ذاهب إلى حيث أتجرد لعبادته .

(هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) : ارزقنى الولد الصالح .

التفسير

٩٩ - (وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : وقال إبراهيم -عليه السلام- بعد أن نجاه ربُّه من كيد قومه ، وجعل النار بردا وسلاماً عليه ، وبعد أن يئس من إيمانهم ، وكره المقام معهم - قال - : إنى مهاجر إلى حيث أمرنى ربِّى - يريد الهجرة إلى الشام - أو إنى مهاجر إلى حيث أتجرد لعبادته ، وأخلص لتقديسه وتسبيحه .

ومعنى سيهدين : سيرشدنى ويوفقنى إلى ما فيه صلاح دينى وراحة نفسى .

وبَتّ القول فى الهداية لسبق الوعد ، أو لفرط توكله ، أو بناء على ما جرت به السوابق معه ولم يكن كذلك حال موسى -عليه السلام- حيث قال : «عَسَى رَبِّى أن يَهْدِيَنِى

سَوَآءَ السَّبِيلِ »[1] بصيغة الرجاء والتوقع لعدم سبق الوعد معه ، أو لأنه كان بصدد أمر دنيوى فناسبه عدم الجزم .

١٠٠ - (رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ) :

هذه الآية اتجاه من إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه وتضرع إليه أن يرزقه من ذريته ما يعينه ، ويجبر ضعفه ، ويشد أزره ، والمعنى : ربِّ ارزقنى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ، ويؤنسنى فى الغربة ويواسينى فى الكربة ، يعنى بهذا طلب الولد لأن الهبة عند الإطلاق تخصه غالباً .

١٠١ - (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) :

هذه الآية صريحة فى أن المبشر به عيْن ما استوهبه - عليه السلام - والمعنى : فاستجاب الله دعاء خليله وبشره بغلام حليم ، وانطوت البشارة على بشارات ثلاث :

١ - أنه ولد ذكر. ٢ - أنه يبلغ ويدرك مدارك الشباب . ٣ - أنه يكون غاية فى الحلم ، والخلق والرضا .

وأى حلم يعدل حلمه - عليه السلام - وقد عرض عليه أبوه أمر ذبحه ، وهو فتى فى عنفوان شبابه وازدهار قوته ، فيقول فى إذعان ورضاً : « يَآ أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾)

(١) من الآية ٢٢ من سورة القصص .

المفردات :

(بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ) : وصل إلى رتبة أن يسعى مع والده فى أعماله ، ويعاونه فى حوائجه .

(تَرَى) أى : تشير وتفكر ، مأخوذ من الرأى .

التفسير

١٠٢ - (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَـٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) :

جرى الأسلوب فى هذه الآيات على نمط القصص القرآنى بطىِّ ما يقتضيه السياق وحذف ما ترشد إليه أحداث القصة ، والمعنى : وهبنا له هذا الغلام الذى استوهبنا إياه وبشرناه به ، « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » أى : فلما اشتد عوده وبلغ رتبة أن يسعى مع أبيه ويعينه فى أعماله ، ويساعده على حوائجه كاشفه بواقع الأمر وصارحه بحقيقته فناداه بإشفاق وتحنن « يَا بُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى » أى : فتأمل هذا الأمر ، وَأَدِرْ فيه رأيك ، وأشر علىَّ بما يستقر عندك .

وإنما شاوره - وهو حتم لا خيار فيه - ليعلم ما عنده ويهيئه لقبول ما نزل من بلاء الله - عز وجل - فيثبت قدمه إن جزع ، وليوطن نفسه فيهون الأمر عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله - تعالى - قبل نزوله خوفاً من المفاجأة ، ولتكون سنة فى المشاورة .

« قَالَ يَـٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » أى : فأجاب الغلام أباه فى طمأنينة وصدق امتثال : يا أبت افعل ما تؤمر به ، ونفِّذ ما أراكه الله ، ستجدنى إن شاء الله من جملة الراضين بأمر الله ، الصابرين على قضائه ، المذعنين لمشيئته وحكمه .

قال بعض أهل الإشارة : فلما استثنى [1] وفقه الله للصبر .

قيل : إن إبراهيم - عليه السلام - رأى ليلة الثامن من ذى الحجة كأن قائلا يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روَّى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، قائلا

---

(١) المراد من الاستثناء :

تعليق صبره على مشيئة الله - تعالى - فى قوله : (سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

فى نفسه : أمِنَ الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثمة سُمِّى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله . فمن ثمة سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهم بنحر ولده فسمى اليوم يوم النحر .

واختلف العلماء فى حقيقة الذبيح . هل هو إسماعيل أو إسحق ؟ والأظهر الأشهر أن الذبيح المخاطب هو إسماعيل - عليه السلام- إذ هو الذى وهب إثر المهاجرة ؛ لأن البشارة بإسحق بعده معطوفة على البشارة بهذا الغلام . ولقوله -عليه الصلاة والسلام- : «أنا ابن الذبيحين » فأحدهما جدّه إسماعيل ، والآخر أبوه عبد الله ؛ فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل الله - تعالى - له حفر بئر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرة ، فلما حصل ذلك وأسهم بين أولاده وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الإبل ،ولأن ذلك كان بمكة ولأن بشارة إسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه وذلك فى قوله - تعالى - : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ »(1) فكيف يأمره الله بذبحه وقد أخبره بأنه سيكون له منه يعقوب ، وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى ! ! ! أين عزب عنك عقلك ؟ ومتى كان إسحق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه .

ومما يقوى هذا الرأى وينصره أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون أخيه إسحق فى قوله : « وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ »(2) وهو صبره على الذبح .

ووصفه بصدق الوعد فى قوله : «إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ »(3) لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفّى به .

---

(١) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية ٥٤ من سورة مريم .

(فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(أَسْلَمَا) استسلما : لأمر الله ، وانقادا له .

(تَلَّهُ) : أضجعه.

(لِلْجَبِينِ) : يطلق الجبين على أحد جانبى الجبهة ، ويطلق أيضاً على الوجه .

(صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) : وفيتها حقها بالعزم على تنفيذ ما أمر الله .

(الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) : الاختبار البين الشدة .

(بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) : كبش سمين عظيم القدر .

(ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) : موبق لها ومهلكها بالكفر والمعاصى .

التفسير

١٠٣-١٠٦ـ(فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَآ إِبْرَاهِيمُ * قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَآءُ الْمُبِينُ) :

المعنى : فلما استسلم إبراهيم وولده لقضاء الله وانْقَادَا لإنفاذ أمره ، وأخلصا أنفسهما له وفوضا أمرهما إليه أضجع إبراهيم ولده على شقه فوقـع جبينه على الأرض ، وهو أحـد جانبى الجبهة ، أو : كبّه على وجهه بإشارة الولد كى لا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين تنفيذ أمر الله ، وأسلم الولد نفسه للذبح راضياً بقضاء الله ، صابرا محتسبا نفسه عند الله – لما فعلا ذلك – فى صدق ، وإخلاص أدركتهما رحمة الله ووافاهما النداء من قبل الله : يا إبراهيم ،قد صدقت الرؤْيا بالعزم على تنفيذ ما رأيت فى منامك وترتيب مقدماته ، وإعداد مقتضياته ، إنا كذلك نجزى المحسنين الذين ينزلون على قضاء الله ، ولا يؤثرون شيئاً على طاعته وتحصيل رضاه .

وهذا التذييل تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما ، وصدق عزمهما .

قال الآلوسى : أخرج غير واحد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىّ . اربط يدىّ إلى رقبتى، ثم ضع وجهى للأرض .

وفى الآثار حكاية أقوال كثيرة غير ذلك ، وكل هذه الأقوال تدور حول امتثال الغلام لأمر الله ، وإذعانه لقضائه .

وقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَآءُ الْمُبِينُ » تعقيب يجسد عظم البلاء ، وقسوته ، والمعنى : إن هذا الأمر الذى ابتلينا به إبراهيم وهذا الاختبار الذى سبرنا به غور إيمانه وعمق يقينه ، وتمحيص نبوته لهو الاختبار المتناهى فى وضوح شدته ، الذى يتميز فيه المخلصون ، أو لهو المحنة البينة الصعوبة البالغة أقصى غايات القسوة والمرارة ، إذ لا شىء أصعب ولا أقسى من أن يذبح الإنسان ولده بيده .

١٠٧ – (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) :

كان حديث الآيات السابقة عن عظم البلاء تنوبهاً بعظم الفداء ، وترشيحًا لجلال قدره ليقع قوله – تعالى –: « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ » موقعه من قوة التصور ، وسموّ التفخيم .

والمعنى : أنجينا الغلام من الذبح ، وعافيناه من محنته ، وفديناه بما يذبح بدله ـ فديناه ـ بكبش عظيم الجثة مكتنز لحمًا وشحمًا ، أو كبش عظيم القدر لأنه عطاء الله ، والعطاء يعظم بعظمة معطيه ، ولأنه يفدى به الله نبيًّا ابن نبي .

١٠٨ ، ١٠٩ ـ (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) :

أى : لم ينته فضلنا على إبراهيم وولده عند كشف غمته ، وإنزال الفداء ، بل تجاوزنا هذا وزدناه حيث تركنا عليه ، أى : أبقينا له وأعقبناه الثناء الحسن والذكر الجميل فى الأمم المتعاقبة بعده تتحرك به الشفاه وتنطلق به الألسن ترديدًا إلى آخر الزمان ـ تركنا عليه ـ « سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » . فكل أهل الأديان يحيونه بالسلام عليه بلغاتهم .

١١٠ ـ (كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء العظيم : من دوام الذكر ، وخالد الثناء نجزى المحسنين فى أعمالهم ، الصادقين فى نيّاتهم وإخلاصهم .

١١١ ـ (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ من جملة عبادنا المؤمنين الراسخين فى الإيمان ، الصادقين فى العقيدة ، ومن كان من جملة عبادنا المؤمنين لا يكون منه إلّا أطيب الأعمال ، وأصدق الطاعات ، ولا يكون له إلّا أكرم الحسنات ، وأوفى المثوبات .

١١٢ ـ (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وتوالى إكرامنا لإبراهيم ، واستمرت منحتنا عليه حيث بشرناه بعد إسماعيل بإسحاق ولدًا آخر ، وطويت فى هذه البشارة بشارات حسن تنشئته وإدراكه مدارك الرجال ، ونبوّته .

وفى ذكر الصلاح بعد النبوّة تعظيم لشأنه ، وإيماء إلى أنه الغاية للنبوة ، وأنه الثمرة المرجوة .

١١٣ ـ (وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) :

أى : وباركنا على إبراهيم وإسحاق ـ عليهما السلام ـ بأن أفضنا عليهما بركات الدين

والدنيا ، فأكثرنا نسلهما وجعلنا منهما أنبياء ورسلًا ، واختلفت أحوال ذريتهما فكان منها محسن بالإيمان والطاعة لنفسه ، وظالمٌ لنفسه بالكفر والمعاصى ظلمًا بيِّنًا ظاهر القبح .

وفى هذا تنبيه إلى أن الخبيث والطيب لايجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر فاجرًا ، وقد يلد الفاجر برًّا ، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وينبِّه إلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وإنما يعاب المرء بسوء فعله ، ويعاقب على ما اجترحت يداه لاعلى ما وجد من أصله وفرعه .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مَنَنَّا) : أحسنَّا وأنعمنا عليهما بالنبوة والنجاة والنصرة .

(الْكربِ) : المكروه والشِّدة .

(الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) : الواضح . وهو التوراة .

(الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) : الذى لاعوج فيه ؛ لأنه الموصل إلى الحق والصواب .

التفسير

١١٤ - ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ :

شروع فى قصة موسى وهارون بعد الفراغ من قصة إبراهيم وما تضمنت من أخبار غريبة ، وأحداث عجيبة ، ومنح جزيلة ، ومواقف جليلة .

وصدّرت قصتهما بالمنّة لإبراز فضل الله - تعالى - عليهما فى ظهورهما على قوم جبّارين فى أمة عاتية ، على رأسها فرعون الغاشم المتألّه ، لا يبالون بما يرتكبون من مظالم ، ولا يخجلون مما يقترفون من مغاشم .

والمعنى : ولقد أحسنّا وأنعمنا على موسى وأخيه هارون بالنبوّة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ، حيث بعثناهما فى قوم جبارين ، يستعبدون الأحرار ، ويسخرونهم فى مصالحهم، ويسومونهم سوء العذاب .

١١٥ - ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ :

أى : ونجّينا موسى وهارون ومن تبعهما من قومهما من تسلُّط فرعون وقومه وغشمهم ، وخلّصناهم من الكرب والشدة وألوان العذاب المتفاقم فى العظم والقبح المتمثل فى قوله تعالى : « وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ »[١] .

١١٦ - ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ :

أى : لم يقف أمرنا معهما على الإنجاء من كرب فرعون وقومه ، وبطشهم بهم ، بل تجاوز ذلك إلى نصر موسى وهارون وقومهما على هذا الطاغوت ، فكانوا هم الغالبين عليهم غلبة ليس وراءها غاية ، القاضين عليهم قضاء تركهم عبرة للعالمين وآية للمتأملين .

وقد بدىء فى الآية بالتنجية ، وإن كانت مقارنة للنصر للإشارة إلى أن مجرّد التّنجية من عذاب فرعون وقومه فى ذاتها نعمة ، فضلًا عمّا صحبها من النصر والغلبة ، لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار كل مرتبة من المراتب الثلاث : التنجية ، والنصر ، والغلبة نعمةً جليلة على حيالها .

(١) من الآية ٤٩ من سورة البقرة .

١١٧ - (وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) :

هذه الآية من جملة ما مَنَّ الله به على موسى وهارون ، وهى فى موقعها من تتابع المنن وتساوقها بعد التنجية والنصرة والغلبة ليتم الأمن والاستقرار ، ويتعبد الطريق إلى إنزال الكتاب .

والمعنى : وآتينا موسى وهارون بعد تحقيق ما سبق - آتيناهما - الكتاب المستنير الواضح فى تفصيل الشرائع ، البين فى توضيح الأحكام ، وهو التوراة .

١١٨ - (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) :

الهداية إلى الصراط المستقيم أثر لإتيان الكتاب .

والمعنى : وهديناهما بإتيان الكتاب الصراطَ المستقيم ، والطريق الممهّد الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفصيل الشرائع ، وتفاريع الأحكام .

١١٩ ، ١٢٠ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) :

أى : وأعقبناهما زيادة فى المنّة ووفرة فى الإحسان والفضل - أعقبناهما - الذكر الحسن والثناء الجميل فى الأمم التى تأتى بعدهما إلى آخر الزمان بقولهم : « سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » وما فى معناه .

١٢١ ، ١٢٢ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

إنا مثل هذا الجزاء الذى جازينا به موسى وهارون وقومهما من كل ما ذكرنا ، وما شهدت به الأحداث ، وصار حديثًا عجبًا بين الناس - إنَّا كذلكِ نجزى المحسنين منهم ومن غيرهم جزاءً سخيًّا وافيًا ، إنهما من جملة عبادنا المؤمنين المخلصين فى العبودية ، وكمال الإيمان الذين لا يصدر عنهم إلَّا العمل الصالح ، والسلوك السوى . ولا يقع منهم إلَّا ما يقتضى جزيل الثواب وعظيم الجزاء .

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾)

المفردات :

(إِلْيَاسَ) : هو إلياس بن يس من سبط هارون أخي موسى – عليهم السلام – بعث بعده ، وقيل هو « إدريس » .

(بَعْلًا) : اسم صنم لأهل بَكّ من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم باسم « بعلبك » ، وقال عكرمة وقتادة : البعل : الرب بلغة اليمن .

التفسير

١٢٣ ، ١٢٤ – (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ) :

هذه الآيات دخول على قصة إلياس ومن بلاغة التنزيل ، وروعة إعجازه اختلاف مداخل هذه القصص ، ففي قصة نوح – عليه السلام – كان المدخل : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ». وفي قصة إبراهيم : « وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » ، وفي قصة موسى وهارون : « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ » وهذا تفنن في الأسلوب يزيده جمالًا ، ويزيد القارىء إقبالًا ، حيث يتصدر كل قصة الحدث الجليل فيها .

وقد صدرت قصة إلياس ومَن بعده بتكرار المؤكدات ، لأن أخبارهم لم تبلغ في الاشتهار والتداول مبلغ نوح وإبراهيم وموسى – عليهم السلام – .

والمعنى : وإن من أنبياء الله –تعالى– ورسله الذين أرسلهم إلى أقوامهم لإرشادهم وهدايتهم إلياس من سبط هارون أخي موسى وبعث بعده ، فاذكر يا رسول الله إذ قال لقومه

حين بعث فيهم : ألَا تتَّقون الله وتخافون عذابه على كفركم به وجحدكم آلاءه ونعمه عليكم ، وإعراضكم عن توحيده وشكر عطائه ، واتخاذكم آلهة زائفة ، ومعبودات زائلة تالفة .

١٢٥ ، ١٢٦ ـ (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : أيستقيم منكم ، ويصح فى عقولكم وأفهامكم أن تعبدوا صنمًا أصم ، وحجرًا أبكم تجثون حوله ، وتقدمون له القرابين تدعونه لقضاء حوائجكم فتطلبون الخير مما لاخير فيه ، ولايملك لكم ولا لنفسه نفعًا ولاضرًا (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ، وتتركون عبادته وتوحيده وهو ربكم الذى خلقكم فأحسن خلقكم ، وصوركم فأبدع صوركم ، وخلق آباءكم الأولين السابقين عليكم من لدن آدم ـ عليه السلام ـ الذين عمرت بهم الدنيا ، وامتد الوجود ، وأجرى عليكم وعليهم نعمه ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه .

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾)

المفردات :

(لَمُحْضَرُونَ) : لشاهدون العذاب مساقون إليه ، والإطلاق فى الحضور اكتفاء بالقرائن ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفًا .

(إِلْيَاسِينَ) : لغة فى إلياس كسيناء فى سينين ، وهو الأولى ، وقيل : هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمُهلَّبيِّين والخُبَيْبِيِّين .

التفسير

١٢٧ ، ١٢٨ - (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

أى : فكذب قوم إلياس رسولهم وعارضوا دعوته ، وأنكروا عليه رسالته فحق عليهم عذاب الله ، وحقت فيهم كلمته فإنهم لشاهدون هذا العذاب ومدفوعون إليه ، ومساقون له لا يفلت منهم أحد إلَّا من آمن به وصدقه ، واتبع هداه فكان من الناجين المخلصين فى عقيدتهم وطاعتهم لله .

١٢٩ - ١٣٢ - (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) :

تختتم قصة إلياس - عليه السلام - بما اختتمت به قصص الأنبياء قبله .

والمعنى : وتركنا على إلياس - فى الأمم الآتية بعده - الذكر الحسن والثناء الجميل المتمثل فى قول الآخرين : « سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ » وما فى معناه ، إنا مثل هذا الجزاء من الثناء نجزى كل محسن من عبادنا المؤمنين الذين لا يصدر عنهم إلَّا القول الطيب والفعل الجميل .

(وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾)

المفردات :

(الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين ، من : غَبَرَ بمعنى بقى أو مضى فهو من الأضداد .

(دَمَّرْنَا) : أهلكنا .

(مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ) : داخلين فى الصباح والمساء ، أى : نهارًا وليلًا .

التفسير

١٣٣ - ١٣٦ - (وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) :

بدئت قصة لوط بما بدئت به قصة إلياس من تأكيد رسالته ، ثم ذكرت نجاته وأهله إلَّا امرأته من شناعة العذاب الذى لحق بقومه فهدَّم عليهم قراهم تنبيهًا إلى أن نجاته من هذا العذاب نعمة من أجلّ النعم .

والمعنى : وإن لوطًا - عليه السلام - لمن جملة المرسلين الذين أرسلهم الله لهداية أقوامهم فدعاهم ونصحهم ووجههم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم فعارضوه ، وكذَّبوه وأمعنوا فى الفاحشة النكراء من إتيان الرجال دون النساء ، فاستوجبوا أنكى عذاب وأقسى عقاب حيث ائتفكت بهم قراهم ، وتهدمت عليهم منازلهم فذهبوا فوق التراب أثرا ، وبقوا للناس عبرا ، فاعلم ذلك يا رسول الله ، واذكر لقومك ترشيدًا ونصحًا إذ نجينا لوطًا وأهله من هذا العذاب الشديد والبطش العتيد إلَّا امرأته العجوز التى انتصرت لقومها فكانت من الباقين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين فى التراب . ثمَّ دمَّرْنَا الآخرين فلم يبق منهم باق فإن فى ذلك شواهد على صدق دعوته وكونه من جملة المرسلين .

١٣٧ ، ١٣٨ - (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى : وإنكم يا كفار قريش لتمرون على منازلهم المهدَّمة فى سفركم إلى الشام للتجارة وأنتم داخلون فى الصباح وفى المساء ، أى : نهارًا وليلًا «وسدوم» من قراهم المؤتفكة فى طريقكم ترونها ، وتشاهدون ما حلَّ بأهلها .

وقوله -تعالى- : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » معناه : أتشاهدون ذلك فلا تتدبرون ولا تعقلون حتى تعتبروا وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وينزل بكم ما نزل بهم ، فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ، وأنتم فى مخالفتكم لرسولكم تفعلون مثل فعلهم .

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾)

المفردات :

(أَبَقَ) : هرب ، وأصل الإباق : هرب العبد من سيِّده بغير إذنه .

(الْمَشْحُونِ) : المملوء .

(فَسَاهَمَ) : قارع .

(الْمُدْحَضِينَ) : المغلوبين بالقرعة .

(الْتَقَمَهُ) : ابتلعه .

(وَهُوَ مُلِيمٌ) : داخل فى الملامة مستحق لها .

(الْمُسَبِّحِينَ) : الذاكرين .

(لَلَبِثَ) : مكث .

(يَوْمِ يُبْعَثُونَ) : يوم القيامة .

التفسير

١٣٩ - ١٤٢ - (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) :

بهذه الآيات الكريمة تنتهى قصص الأنبياء التى احتوتها هذه السورة من كتاب الله .

ومما يثير النظر ، ويسترعى الانتباه فى هذا التنزيل البليغ أن الفلك التى نجَّى الله بها نوحًا وأهله فى أول هذه القصص تكرر ذكرمثلها فى فلك آخر غرق منه يونس فى اليم فى آخر قصة منها .

ويونس – عليه السلام – هو يونس بن متّى ، قيل : إنه نُبِّئ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وحكى فى البحر أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس.

وقال الآلوسى : « يروى أنه أوعد قومه العذاب ، وأخبرهم أنه ينزل بهم إلى ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن ينزل العذاب بهم ، فعجُّوا إلى الله وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله – تعالى – وصرف عنهم العذاب ، فلمَّا لم ير يونس نزول العذاب استحيى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذَّابًا أبدًا ، ومضى على وجهه ، فأتى سفينة فركبها ، فلما وصلت اللجّة وقفت فلم تسر ، فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلَّا أنَّ فيكم رجلًا مشئومًا فاقترعوا ليلقوا من وقعتْ عليه القرعة فى الماء ، فوقعت على يونس ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى الماء » .

ومعنى الآيات : وإن يونس – عليه السلام – لمن جماعة المرسلين ، فاذكر يارسول الله قصته وخبره إذ هرب قبل أن يأذن له ربُّه إلى الفُلْك المملوء بالراكبين المزحوم بكثرتهم فرارًا من العذاب الذى أُخبر بنزوله على قومه .

وعبَّر عن خروجه بالإباق مع أن الإباق لا يكون إلَّا فى هرب العبد من سيِّده ، لأنه خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج فاعتبر إباقًا كإباق العبد من سيِّده ، وحسّنه أن كل مخلوق عبد لله تعالى .

وقوله – تعالى – : (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) معناه : فقارع مع من كانوا معه فى السفينة ليلقوا من تصيبه القرعة فى الماء فأصابته القرعة ، وكرروا ذلك ثلاثًا فلم تخطئه فكان من المدحضين بالقرعة المغلوبين فيها ، فلما رأى ذلك رمى بنفسه فى اليم ، فتلقاه الحوت وابتلعه ، وهو آتٍ بما يلام عليه مستحق لذلك .

١٤٣ ، ١٤٤ – (فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

أى : فلولا أن يونس – عليه السلام – كان من الذاكرين الله كثيرًا الذين ديدنهم التسبيح يعيشون فيه ويدومون عليه طوال حياتهم لا ينقطعون عن ذلك ولا يفترون لمكث فى بطن الحوت حيًّا إلى يوم يبعثون : يوم القيامة .

والمراد بالتسبيح: مطلق الذكر كما حمله بعضهم، وحمله بعض آخر على العبادة، وقال آخرون: إن التسبيح هو ما ذكره الله -تعالى- فى قوله: « فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَلَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »[1].

وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى حمله على الصلاة، بل رُوى عنه أنه قال: « كل ما فى القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة ».

وفى النص الكريم حثٌّ على إكثار الذكر، ومداومة التسبيح، وتعظيم لشأنه، وتنبيه إلى أن من أقبل على الله فى السراء، أخذ بيده عند الضراء.

أخرج ابن أبى شيبة عن الضحاك بن قيس قال: « اذكروا الله تعالى فى الرخاء يذكركم فى الشدة فإن يونس - عليه السلام - كان عبدًا صالحًا ذاكرًا لله - تعالى - فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى: « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . . . » الآية وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله - تعالى - فلما أدركه الغرق قال: « آمَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓ إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » فقيل له: « آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »[2].

وكما اختلف المفسرون فى كنه التسبيح اختلفوا فى مقدار المكث، فقيل: أربعون يومًا، وقيل: عشرون، وقيل: سبعة، وقيل: ثلاثة، وقيل: لم يلبث إلَّا قليلًا ثم أُخرج من بطنه عقب الوقت الذى التُقم فيه.

روى عطاء أنه حين ابتلع الحوت يونس أوحى الله- تعالى- إلى الحوت: « إنى جعلت بطنك له سجنًا ولم أجعله لك طعامًا ».

والمراد من الوحى إلى الحوت إلهامه، وحبس جهازه الهضمى عن هضمه، والله أعلم.

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٩٠، ٩١ من سورة يونس.

بيان للقراء الكرام

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فقد بدأنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ تفسير النصف الثانى من القرآن الكريم ، من قوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . . . » من الآية ٧٩ من سورة الكهف ـ كما وعدنا القراء ـ ووصلنا إلى نهاية الآيتين : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » من سورة الصافات الآيتين ١٤٣ ، ١٤٤ وبهما ينتهى الحزب الخامس والأربعون من القرآن العظيم ، وبذلك يكون قد تم تفسير ثلاثة أرباع القرآن الكريم .

وقد توفى فى هذه الفترة فضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت ، والسيد الأستاذ على عبد العظيم ، عضوا لجنة التفسير الوسيط ـ عليهما رحمة الله ـ وجزاهما أحسن الجزاء على صالح أعمالهما ، وقد حل محلهما فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مرسى عامر ، وفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم السويركى ، وأصبحت اللجنة مؤلفة كالآتى حسب ترتيب الحروف الهجائية :

١ ـ الشيخ إبراهيم السويركى .

٢ ـ الشيخ سيد مصطفى شريف .

٣ ـ الشيخ عبد المهيمن الفقى .

٤ ـ الشيخ محمد مرسى عامر .

٥ ـ الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بتنسيق أعمال هذه اللجنة ويتولى رياستها ، وقد عرف القراء ـ مما صدر من تفسيرها الأحزاب التى طبعت ـ أن اللجنة عند التزامها إخراج التفسير خاليا من التعقيد والمصطلحات الفنية ، إلا ما تدعو إليه شدة الضرورة ،

كما عرفوا خلوه من الإسرائيليات والآراء الهابطة ،كما أدركوا تقاربه بفضل التنسيق الدقيق والمراجعة اللذين يتولاهما رئيس اللجنة .

ونحن لا ندعى الكمال فيما قدمناه للقراء الكرام ،، كما لا ندعى خلوه من الخطأ ، فالعصمة لله ولرسوله ، وحسبنا أننا بذلنا فيه الوسع ، ورجونا فيه الأجر من رب العالمين ، وإننا لنشكر للقراء الكرام –فى مصر والبلاد العربية – إقبالهم على شراء ما يصدر منه من الطبعات .

وقد فرغت اللجنة من تأليف وتنسيق أكثرَ من ذلك ، وهو تحت الطبع .

والله تعالى ولى التوفيق ،

رئيس اللجنة
مصطفى محمد الحديدى الطير
عضو مجمع البحوث الإسلامية

* (فَنَبَذْنَٰهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾)

المفردات :

(فَنَبَذْنَاهُ) : فطرحناه وألقيناه .

(بِالْعَرَآءِ) : بالأرض الفضاء .

(سَقِيمٌ) : مريض ضعيف البدن .

(يَقْطِينٍ) : شجرة القرع وليس لها ساق تقوم عليه .

التفسير

١٤٥ - (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أن يونس - عليه السلام - التقمه الحوت وهو مُلِيم لأنه حين رأى العذاب لم ينزل بقومه ، وكان قد توعدهم به تركهم وقال : لا أرجع إليهم كاذبًا ، ولم يستأذن ربه فى تركهم ، ولولا أنه كان من المواظبين على تسبيح الله والدعاء لبقى فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، وفى هذه الآية الكريمة يقول - سبحانه - : « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » بأن حملنا الحوت على لَفْظِه وطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض لا شجر فيه ، ولا شىء يُغَطِّيه ويواريه من بناء أو سقف ، وهو عليل واهن البدن خائر القوى مما أصابه ، قال ابن عباس : كبدن الصبى حين يولد ، قيل : إنه نبذه على شط دِجْلَةَ قرب مدينة « نينوى » والله أعلم بمكان طرحه فى العراء .

١٤٦ - (وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ) :

أى : وأنبتناها عليه مُظِلَّة له كالخيمة ، واليقطين : يفْعِيل من قَطَن بالمكان إذا أقام به ، والمراد به على ماجاء عن ابن عباس فى رواية : الدُّبَّاء ، وهو القرع

المعروف أنبتها الله - تعالى - فغطَّته ووقته غوائل الجو لأنها تجمع خصالا عدَّة : برد الظِّلِّ ، ونعومة الملمس ، وعظم الورق ، وأنَّ الذباب لا يقع عليها كما قيل ، وكان - عليه السلام - لرقَّة جلده بمكثه فى بطن الحوت يُؤْذيه الذباب ، ومُماسَّة ما فيه خشونة ، ويؤلمه حر الشمس ، ويستطيب بارد الظل ، فلطف الله - تعالى - به بذلك ، وذكر الزمخشرى أنه قيل لرسول الله : إنك لتحب القرع : قال : أجل هى شجرة أخى يونس .

وذكر القرطبى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قُدِّم للنبى ﷺ مَرَقٌ فيه دُبَّاء وقَدِيد ، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء حول القصعة . قال أنس : فلم أزل أحب الدُّبَّاء من يومئذ . - أخرجه الأئمة - وقيل : اليقطين شجرة التين ، وقيل : الموز ، والأكثر على أنه القرع ، وعلى هذا يكون المولى - سبحانه - قد جعل لهذا القرع ساقًا عالية ليظلله ورقها ، والله على كل شىء قدير .

١٤٧ - (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) :

بعد أن أبَلَّ يونس من مرضه ، وعُوفى من ضعفه ، وصح بدنه ، أرسلناه إلى عدد كبير يقول من يراه : إنهم مائة ألف أو يزيدون فى مرأى الناظر ، والغرض الوصف بالكثرة ، وقيل : لَفْظ « أَوْ » فى قوله : « أَوْ يَزِيدُونَ » بمعنى الواو ، أى : ويزيدون مع استمرار التبليغ ، والمراد بقوله - تعالى - : (وَأَرْسَلْنَاهُ) ماسبق من إرساله إلى قومه من أهل نينَوى ، حين كُفْرهم قبل أن يؤمنوا ، وقيل غير ذلك .

١٤٨ - (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) :

فاستجابوا جميعاً لدعوته ، وآمنوا برسالته ، واتبعوا النور الذى أنزل معه بعد أن رأوا أمارات العذاب ، فأبقيناهم مُمتَّعين بمالهم وأملاكهم ، آمنين فى سربهم ، وبسطنا عليهم نعمتنا إلى الوقت المعلوم حين تنقضى آجالهم . وكان يونس لايعلم بأنهم آمنوا فرفع عنهم العذاب روى عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « إن يونس وعد قومه بالعذاب ، وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها وخرجوا ، فجاروا إلى الله واستغفروا فكف عنهم العذاب ، وغدا يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئًا ، فخرج يونس مغاضبًا ، فأتى قومًا فى سفينة فحملوه .. » انظر القرطبى .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبر كفار مكة توبيخا لهم ، وسلْهُم على سبيل الإنكار عليهم .

(إِفْكِهِمْ) : كذبهم .

(أَصْطَفَى) : أختارَ ، وهو استفهام توبيخ .

التفسير

١٤٩ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) :

أمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- فى صدر هذه السورة الكريمة بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء فى قوله -تعالى- : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ)[1] وساق البراهين الناطقة بأنه سيتحقق لامحالة وبيَّن ما سوف يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين ، وفصل - سبحانه - مالهم من النعيم المقيم ، ثم ذكر - سبحانه - أنه قد ضلَّ مِنْ قبلهم أكثر الأوَّلين ، وأنه - تعالى- أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء -عليهم السلام- بنوع تفصيل متضمنا كل منها ما يدل على فضلهم وعبوديتهم له - عز وجل - ثم أمره ﷺ هنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما زعموه من نسبة البنات إلى الله - تعالى - وقد قال بذلك

---

(١) سورة الصافات : من الآية ١١ .

جهينة ، وبنو سلمة ، وخزاعة وغيرهم ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ، فجعلوا لله الإناث ، ولأنفسهم الذكور فى قولهم : الملائكة بنات الله ، مع كراهيتهم الشديدة لهنَّ ، ووأدهن ، واستنكافهم من ذكرهنَّ ، وقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التَّجْسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام ، والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أقل الجنسين فى نظرهم له ، وأرفعها لهم كما قال ـ تعالى ـ : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[1] .

الثالث : أنهم استهانوا بالملائكة وهم أكرم خلق الله عليه ، وأقربهم إليه ، حيث حكموا عليهم بالأنوثة ، ولو قيل لأقلهم درجة وأدناهم منزلة : فيك أنوثة أو نحوها لثار لكرامته ، وللبس لقائله ثوب النمر .

١٥٠ ـ (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ) :

إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا ، أى : بل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم معاينون لخلقهم حتى حكموا هذا الحكم الباطل ، فهم من أشرف الخلائق عند ربهم ، وأعظمهم بعدا عن الأنوثة ، وقوله ـ تعالى ـ : (وَهُمْ شَاهِدُونَ) استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)[2] فإن هذه الأمور لا تُعْلَم إلَّا بالمشاهدة ، إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل ولا النقل ، فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهد خلقهم على هذه الصورة ليصح قوله ، ولا سبيل لهم إلى ذلك .

١٥١ ، ١٥٢ ـ (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

استئناف من جهته ـ تعالى ـ غير داخل تحت الاستفتاء ، سِيق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه الإفك والافتراء القبيح ، من غير أن يكون لهم دليل ولاشبهة ، وإنهم لكاذبون فيما يتدينون به مطلقاً أو فى هذا القول ، والمعنى : تنبه أيها السامع : إنهم من كذبهم واختلاقهم ليقولون : ولد الله ، بقولهم : الملائكة بنات الله ، وهو للمنزه

---

(١) سورة الزخرف : الآية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف : من الآية ١٩ .

عن الوالدية والولدية ، وإنهم لكاذبون فى هذا الادعاء بشهادة الأدلة على وحدانيته ـ تعالى ـ ، والولد يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

١٥٣ ـ (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) :

أى : أى شىء يحمله على أن يختار البنات ـ المكروهات فى زعمكم ـ على البنين المحبوبين لديكم وهو ـ سبحانه ـ الخالق للبنات والبنين ، ومثل ذلك قوله ـ تعالى ـ : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً)[1] والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والمراد : إثبات إفكهم وتقرير كذبهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى :

١٥٤ ـ (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

ماذا أصابكم حين حكمتم بغير دليل ، كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد مع وضوح بطلانه ؟

١٥٥ ـ (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أنسيتم دلائل القدرة والتنزيه المركوزة فى كل العقول ، فلا تتذكرون أنه لا يجوز أن يكون له ولد حتى وقعتم فى هذا الضلال ؟

(أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾)

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٠

المفردات :

(سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) : حجَّةٌ واضحة وبرهان على أن الملائكة بنات الله .

(الْجِنَّةُ) : الملائكة لأنهم يستجنُّون ، أى : يختفون ويستترون ، أو الجن .

التفسير

١٥٦ - (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) :

إضرابٌ وانتقال من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلًا ، أى : بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته ، ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من دليل حسِّى أو عقلى ، وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلى له سلطان وقوة ، ولا سبيل إلى ذلك .

١٥٧ - (فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء عن الله - تعالى - أنه اتخذ ماتقولونه ، ويكون ناطقا بصحة دعواكم إن كنتم صادقين فيها ، والأمر للتعجيز ، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم ، وفى الآيات السابقة من الإنباء عن السخط العظيم ، والإنكار الشديد لأقاويلهم ، والاستبعاد لأباطيلهم ، وتسفيه أحلامهم ، مع استهزاء بهم وتعجيب من قولهم مالا يخفى على من تأمّل فيها .

١٥٨ - (وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) :

التفات للغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب ، وسقوطهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أن يُعْرض عنهم ، وتُحْكَى لآخرين جناياتهم .

والمعنى : استمرأ المشركون غيَّهم ، وتمادوا فى باطلهم وضلالهم ، وجعلوا بين الله - سبحانه وتعالى - وبين الجن المستورين عن العيون قرابة ومصاهرة ، ووالله لقد علمت الجن إن الكفار لمحضرون إلى الله - تعالى - لينالوا جزاء ما ارتكبوا من جرم ، وما اجترحوا من إثم ، بسبب اعتقادهم الفاسد ، أخرج آدم بن أبى إياس ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وغيرهم ،

عن مجاهد قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق - على سبيل التبكيت - : فمن أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن ، وروى هذا ابن أبي حاتم : عن عطية ، أو أريد وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبًا حيث أشركوهم به - تعالى - في استحقاق العبادة ، وروى هذا عن الحسن حيث قال : أشركوا الشيطان في عبادة الله ، فهذا النسب الذى جعلوه .

١٥٩ - (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تعالى الله وتقدّس وتنزّه عن أن يكون له ولد ، وعمّا يصفه به الظالمون الملحدون المفترون من صفات النقص التى لا تليق بمقامه الكريم .

١٦٠ - (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

لكن عباد الله المخلصين وهم المتبعون للحق المنزَّل على كل نبي ورسول برآء مما يصفه به الكافرون ، وهم ناجون من النار .

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾)

المفردات :

(بِفَاتِنِينَ) : بمضلين أو مفسدين .

(صَالِ الْجَحِيمِ) : داخلها ومُقَاسٍ حرها .

(الصَّآفُّونَ) : الواقفون فى العبادة صفوفًا .

(الْمُسَبِّحُونَ) : المنزِّهون الله – تعالى – عمَّا لا يليق بجلاله .

(ذِكْرًا) : كتابًا . أو من يُذَكِّرُنا بأمر الله أو بكتابه .

التفسير

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ – (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ • مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ • إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) :

عود إلى خطاب المشركين ، والضمير فى (عليه) لله – عز وجل – .

والمعنى : فإنكم ومعبوديكم من دون الله ما أنتم وهم جميعًا على الله بفاتنين إلَّا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء اختيارهم يستوجبون أن يصْلَوْها ويذوقوا حرَّها ، ومعنى يفتنونهم على الله: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم ، من قولك : فتن فلان على فلان امرأته أى : أفسدها .

ويجوز أن تكون الواو فى قوله : (وماتعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم :كل رجل وضيعته .

والمعنى : فإنكم مع ما تعبدون ، من دون الله (مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ) أى :على الله (بِفَاتِنِينَ) أى : بمضلين مفسدين (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) أى : إلَّا من هو صال مثلكم معذب بالجحيم .

قال النَّحَّاس : أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضِلِّين أحداً إلَّا من قدَّر الله – عز وجل – أن يَضلَّ .

وفيها من المعانى أن الشياطين لايصِلُون إلى إضلال أحد إلَّا من كتب الله عليه أنه لايهتدى لسوء اختياره ، ولو علم الله– جلَّ شأنه– أنه يهتدى لحال بينه وبينهم .

١٦٤ – (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) :

هذه الآية ومابعدها من قول الملائكة تعظيمًا لله – عز وجل – وإنكارًا منهم عبادة من عبدهم ، أى : وما مِنَّا إلَّا له مقام معلوم فى العبادة والعلم والرُّتْبة ، والرُّجوع إلى أمر الله – تعالى –

فى تدبير العالم مقصور عليه لايتجاوزه ، ولا يستطيع أن ينزلَ عنه خضوعًا لعظمته ـ تعالى ـ وخشوعًا لهيبته ـ سبحانه ـ وتواضعًا لجلاله ـ جل شأنه ـ .

والآية تشير إلى أنَّ الملَك لا يتعدَّى مقامه إلى ما فوقه ، ولا يهبط عنه إلى ما دونه ، قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) وما بعدها ، نزلت ورسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى ، فتأخَّر جبريل ، فقال النبى : أهنا تفارقنى ؟ فقال : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى . وأنزل الله ـ تعالى ـ حكاية عن قول الملائكة : (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . . .) إلى آخر الآيات .

١٦٥ ـ (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) :

أى : وإنَّا لنحن الصَّافون أنفسنا فى مواقف العبودية دائمًا ، وقيل : الصافون أقدامنا فى الصلاة ، وقيل : الصافون حول العرش ننتظر الأمر الإلٰهى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الوليد ابن عبد الله بن مغيث قال : كانوا لا يَصُفُّون فى الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) ، وأخرج مسلم عن حذيفة قال : قال رسـول الله ﷺ : « فُضِّلْنا على الناس بثلاث : جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجُعِلت لنا الأرض مسجدًا ، وجُعِلت لنا تربتها طهورًا إذا لم نجد الماء ، وليس يصطف أحد من أهل المِلل فى صلاتهم غير المسلمين » .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد فقال : « ألَا تَصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يارسول الله ، كيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يُتِمُّون الصفوف الأُوَل ، ويتراصُّون فى الصف » . وقال أبو نَضرة : كان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أُقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : « أقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا يريد الله بكم هَدْى الملائكة ، ثم يقول : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبِّر » .

١٦٦ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) :

أى : المنزّهون الله عمّا لا يليق به - سبحانه - ويدخل فيه ما نسبه الكفرة إلى الله - تعالى - وقيل : أى القائلون : سبحان الله ، وأخرج عبد بن حُميد وغيره عن قتادة أنه قال : المُسبِّحون ، أى : المصلُّون ، ويقتضيه ما روى عن ابن عباس : أنَّ كل تسبيح فى القرآن بمعنى الصلاة ، والأُسلوب يُفيد أنهم المواظبون على ذلك من غير فُتور ، وخواص البشر لا تخلو من الاشتغال بالمعاش ، ولعلَّ الكلام لا يخلو عن تعريض بالكفرة .

قال الزمخشرى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) أى : الْمُنَزِّهُون ، أو المصَلُّون ، والوجه أن يكون وما قبله وهو قوله : (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم فى قوله : (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ) كأنَّه قيل: وقد علمت الملائكة وشهدوا : أن المشركين محضرون يوم القيامة لعقابهم ، وقالوا : سبحان الله ، فنزَّهوه عن ذلك ، واستثنوْا عباد الله المخلصين ، وبرَّءُوهم منه ، وقالوا للكفرة : إنَّكم وآلهتكم لا تقدرون أنْ تفتنوا على الله أحدًا من خلقه وتضلوه ، إلَّا من كان مثلكم ممن علم الله أنهم من أهل النار لكفرهم ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنس واحد ، وما نحن إلَّا عبيد أذلَّاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزلّ عنه خشوعًا لعظمته وتواضعًا لجلاله ، ونحن الصَّافُّون أقدامنا وأجنحتنا لعبادته ، مذعنين خاضعين مسبِّحين مُمَجِّدِين كما يجب على العباد لربهم .

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ - (وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

عود إلى الإخبار عن المشركين : بأَنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يقولون : لو أَنَّ عندنا ذكرًا ، أى : كتابا من كتب الأَولين الذين أُنزل عليهم التوراة والإِنجيل ، لأَخلصنا

العبادة لله ، ولما كذَّبنا كما كذبوا ، وخالفنا كما خالفوا ، وقيل : كانوا يتمنون قبل أن تُبعث يا محمد لو كان عندهم من يذكِّرهم بأمر الله ، وما كان من أخبار القرون الأُولى ، ويأْتيهم بكتاب من عند الله ، إذا لاتَّبعوه ، ولما حاربوه ، فجاءهم نبي هو خير الأنبياء ، وسيد المرسلين ، ومعه كتاب مُعجز مهيمن على سائر الكتب والأَخبار ، وهو القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ، حوى الخير والسعادة للبشرية كلها .

١٧٠ - (فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

فجاءهم الكتاب الذى تمنوه وطلبوه فكفروا به ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، وما يحل بهم من الانتقام ، وهو وعيد أكيد ، وتهديد شديد على كفرهم بربهم ، وتكذيبهم لكتابه ورسوله .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾)

المفـردات :

(فَتَوَلَّ عَنهُمْ) : فأَعرض عن كفار مكة .

(حَتَّىٰ حِينٍ) : إلى الوقت الذى أمهلوا فيه ، أَو إلى بدر أو فتح مكة .

(بِسَاحَتِهِمْ) : بفنائهم ، والمراد : بهم .

(فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) أى : فبئس الصباح صباحهم .

التفسير

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ – (وَلَقَدْ سبقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) :

استئناف مُقرِّر للوعيد ، وتصديره بالقسم لتمام العناية بتحقيق مضمونه ، أى : وبالله لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالنصرة والغلبة على الكافرين ، والكلمة هى قوله – تعالى – : (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وإنما سماها كلمة وهى كلمات عدة ؛ لأنها لمَّا انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة . وقُرِئَ : كلماتنا ، والمراد : الوعد بعلوهم على عدوهم فى مقام الحِجاج ، وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم على غيرهم فى الآخرة ، كما قال – تعالى – : « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] ولا يلزم انهزامهم فى بعض المشاهد ، وماجرى على بعضهم من القتل ؛ لأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شَوْبٌ من البلاء والمحنة ، فالحكم للغالب ، وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – : « إن لم يُنْصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة » .

١٧٤ – (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ) :

أى : فأعرض عن كفار مكة ، واصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة عليهم ، والظفر بهم ، وذلك يوم بدر ، أو فتح مكة ، والأخير هو الظاهر ، فإنه ﷺ قد نصر عليهم نهائيا فى فتح مكة ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وصدق الله إذ يقول : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) فقد أحياهم الله بالإسلام .

١٧٥ – (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

وأبصر ما يكونون عليه يوم القيامة من العذاب فسوف يُبصرون ما يكون لك من مزيد الثواب ، أو المراد : وأبصرهم يوم القيامة وهم يعذبون ، فسوف يبصرون ويندمون حين لا ينفعهم ذلك ، وفى ذكر ذلك تسلية للرسول ﷺ وتنفيس عنه .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٢ .

١٧٦ - (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) : استفهام توبيخ :

والمعنى : أسُلبوا عقولهم فبعذابنا يستعجلون ؟ فكأنه يقول : لا تستعجلوه فإنه واقع بكم ، إن استمررتم على كفركم وتكذيبكم لرسولكم ، ورُوى أنه لمَّا نزل (فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) قالوا : متى ذلك ؟ فنزلت .

١٧٧ - (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) :

أى : فإذا نزل العذاب الموعود بساحتهم وحل بهم وهم مصرون على الكفر فبئس صباح المنذرين صباحُهم ، رُوى فى الصحيحين : عن أنس - رضى الله عنه - قال : لما أتى رسولُ الله ﷺ خيبرَ وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَساحِى قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصنهم ، فقال ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم (فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) » .

قال الزمخشرى : مَثَّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنْذِرُوه فأنكروه بجيش أنذر بعضُ النصحاء قومه بهجومه عليهم فلم يلتفتوا إلى إنذارهم ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبَّروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشنَّ عليهم الغارة ، وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت فى وقت آخر ، وما فَصُحَتْ هذه الآية ولا كانت لها الرَّوْعة التى تحسُّ بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريق التمثيل . ا هـ :كشاف بتصرف .

١٧٨ - (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : أعرض عنهم إلى وقت ينتهى فيه أمرهم ولا تهتم بمعارضتهم وتكذيبهم إياك .

١٧٩ - (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

أى : أبصر ما يستقبلك ويستقبلهم ، فسوف يرون مابه يستعجلون ، إن استمروا على كفرهم .

والآية تسلية لرسول الله إثر تسلية ، وتأكيد لوقوع ما أنذروا به عقب تأكيد ، مع مافى إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن ما يبصره - عليه السلام - حينئذ من فنون المسرّات وما يبصرونه من أنواع المضار لايحيط به الوصف والبيان ، ويجوز أن يراد بقوله - تعالى - : (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾)

المفردات :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ) : تنزيهاً لربك يا محمد عما يصفه به المشركون .

(الْعِزَّةِ) : الغلبة والقدرة .

التفسير

١٨٠ - (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيهاً لله - تعالى - عن كل ما يصفه به المشركون مما لا يليق بكبريائه وجبروته ، مما حكى عنهم فى السورة الكريمة « كاتّخَاذ الصّاحبة والولد » وزعمهم أن الله لن ينصره عليهم وكأنه قيل : سبحان من هو مربّيك ومكمّلك ومن له الْعِزةُ والغلبة والبطش على الإطلاق عما يصفهبه المشركون ، وما يلحقونه به من الأُمور التى منها : ترك نصرتك عليهم ، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب والمقصود من قوله : (رَبُّ الْعِزَّةِ) أنَّهَا لَهُ - تعالى - وحده ، وما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلّا وهو - عز وجل - ربُّهَا ومالكها .

قال الزمخشري : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه ـ تعالى ـ بها ، كأنه قيل : ذى العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه بالصدق .

١٨١ ـ (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) :

تشريف للرسل كلهم بعد تنزيهه ـ تعالى ـ لنفسه عمّا ذُكر ، وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون من كل المكاره ، فائزون بكل المآرب ، لهم أمن الله ـ عز وجل ـ فى الدنيا ويوم الفزع الأكبر ؛ لأنهم الذين بلّغوا عن الله الشرائع ، ونشروا رسالة السماء إلى الأرض ، وكانوا رواد الناس إلى الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

١٨٢ ـ (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

إشارة إلى وصفه ـ تعالى ـ بصفاته الكريمة الثبوتية ، بعد التنبيه على اتصافه ـ عز وجل ـ بجميع صفاته السلبية . والمعنى : والثناء لله وحده . خالق العالمين ومربيهم على موائد كرمه ، القائم على الخلق أجمعين . وقال القرطبى : (الحمد لله رب العالمين) أى : على إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وقيل : على هلاك المشركين . ودليله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] .

قلت : والكل مراد ، والحمد يعمُّ . اهـ « بتصرف يسير » .

والمراد من هذه الآيات : تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه ـ سبحانه ـ وتحميده والتسليم على رسله ـ عليهم السلام ـ ولعلّ توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه ـ تعالى ـ وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده ـ تعالى ـ على مافيه من الإشعار بأن توفيقه ـ تعالى ـ للتسليم على المرسلين من جملة نعمه الموجبة للحمد .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٤٥ .

وهذه الآيات من الجوامع والكوامل ، ووقوعها فى موقعها هذا ينادى بأنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة - جل جلاله - وعمّ نواله ، وقد أخرج الخطيب : عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يسلم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وأخرج ابن أبى حاتم : عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن يُكْتَال له بالمكيال الأوفى من الأجـر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) » .

سورة «ص»

وجه مناسبتها لما قبلها

١ ـ سورة « صٓ » هى كالمتممة لسورة «الصافات» التى قبلها لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر فيها بعض الأنبياء الذين لم يذكرهم فى السورة السابقة كداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

٢ ـ كذلك لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة « الصافات » عن الكفار أنهم قالوا : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ » وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ ـ عزّ وجلّ ـ فى سورة « صٓ » بالقسم بالقرآن ذى الذكر ، وفصّل فيها ما أجمله هناك من أحوال كفرهم .

ومن دقّق النّظر فى السورتين لاحت له مناسبات أخرى كذكر قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم . وكيف نصر الله الحق وأعزّ سلطانه ، ودمر الباطل وقوّض صولجانه .

مقـــدمة :

سورة « صٓ » مكيّة وآياتها ثمان وثمانون آية . وهى السورة الثامنة والثلاثون من سور القرآن الكريم .

بدئت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن ذى الشّرف على أنه الحقّ لا ريب فيه ، ثم ذكرت أنّ الّذين كفروا ما منعهم عن الإيمان بالله ، والتّصديق برسوله إلّا الأنفة والتكبّر على الحقّ وحب الجدل والمشاقّة والمعاندة لرسوله .

ثم قصّ الله فيها أخبار الأنبياء والرسل السابقين ليكون ذلك زجرًا للكافرين والمكذبين ، وتثبيتًا للرّسول وللمؤمنين ، وليصبر الرسول على تبليغ الدعوة مهما لاقى فى سبيلها من أهوال وأذى .

وذكر الله فى هذه السورة ما لم يذكره فى سورة « الصَّافَّات » ذكر قِصَّة داود ذى القوَّة فى الدين والدُّنيا ، الأوَّاب الَّذِى ذَلَّل الله الجبال تسبِّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، وذلَّل له الطَّيْر تُرَجِّعُ معه التسبيح ، وقوَّى الله ملكه وآتاه النُّبوة والقضاء فى الخصومات ، ثم تحدَّثت السورة عن خبر الخصم الَّذين تَسوَّرُوا المحراب على داود ، وقضى بينهم دون تثبُّت ومراجعة لأقوال الخصم الآخر حتى يتَّضِح له وجه الحق جليًّا ، وعلم داود أن الله امتحنه بهذه القصة ، فاستغفر رَبَّه ، وخَرَّ راكعًا وأناب ، فغفر الله له ذلك ، وله عنده زلفى وحسن مآب ، ووَصَّى الله نبيَّه داود – وهي وصيَّة من الله كذلك لكل الولاة ، والحكام – أن يحكموا بين الناس بالحقِّ المنزَّل من عنده ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلُّوا عن سبيل الله ؛ لأنَّ العدل أساس الملك ، وقِوام الأمم ، وأمان الشعوب ، ولقد تَوعَّد الله من ضلَّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الشديد ، والعذاب الأليم .

ثم بيَّنت السورة أنَّ مِن حكمة الله وعدله ألَّا يُسوَّى بين المؤمنين والكافرين ، وذكرت السورة أن الله وهب لداود سليمان الكثير العبادة والإنابة ، ومن أخباره أنه عُرض عليه بالعَشِيِّ الخيلُ فقال : إنِّى آثرت حب الخير – أى : الخيل – لأنَّها عدَّة الخير ، وهو الجهاد فى سبيل الله ، وظلَّ مشغولًا بعرضها عليه حتى غابت عن ناظريه ، ثم أمر بردها عليه ليتعرف أحوالها وأخذ يمسح سوقها وأعناقها رفقًا بها وحبًّا لها ، وحدبًا عليها ، ولقد امتحن الله سليمان لئلا يغترَّ بأبَّهة الملك وعظمته فألقاه على كرسيِّه جسدًا بلا قُوَّة يستطيع بها تدبير الملك ، فتنبَّه لهذا الامتحان فرجع إلى الله وأناب ، وطلب من الله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، فسخَّر له الوهَّاب الرِّياح تجرى بأمره ، كما سخَّر الشياطين وجعلها طوع مشيئته .

وعقَّبت السورة على ذلك ببيان ما أعدَّه الله للطائعين والمتقين من ثواب وحسن مآب ، وللعاصين والطاغين من عذاب وعقاب وشر مآب .

ثم صوَّرت السورة تخاصم أهل النار وتحسرهم حينما يقولون : (مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) .

وفى السورة يأمر الله رسوله أن يقول للكافرين المشركين به : إنّما أنا منذر ولست إلهًا ، ومامن إله إلّا الله الواحد القهّار ، ربّ السّموٰات والأرض ومابينهما ، مالك جميع ذلك ، ومتصرف فيه ، العزيز الغفار يغفر مع عظمته وعزته . قل لهم يامحمد: إرسال الله إيّاى لكم خير عظيم وشأن بليغ هام أنتم عنه مُعْرضون غافلون ، لا تفكّرون فيه ، ولولا الوحى ماكنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى فى شأن آدم ــ عليه السلام ــ وخلقه وخلافته ، وامتناع إبليس عن السجود له ، ومحاجّته ربّه فى تفضيله عليه .

وهذه القصة ذكرها الله فى سورة « البَقَرة » وفى أول سورة « الأَعْرَافِ » وفى سورة « الْحِجْر » وسورة « سبحان » ــ « والكَهْف » وذكرها القرآن هنا ليذكّر الناس بما كان بين أبيهم آدم وعدوّه وعدُو الله إبليس عليه اللّعنة، وليعلموا أن تكبُّره كان سببًا فى طرده من رحمة الله إلى يوم القيامة .

وفى ختام السورة يقول الله ــ تعالى ــ : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : ماأسألكم على هذا الإبلاغ وهذا النصح أجرًا من عرض الحياة الدنيا ، وماأنا من المتكلّفين المتصنّعين المدّعين للنبوّة ، وماالقرآن الذى نزل علىّ إلّا تذكير وموعظة للعالمين ، ولتعلمنّ صحة خبره وصدق ماجاء به من وعد ووعيد ، وبعث وجزاء ، وعلوم وآيات كونية بعد حين ، عندما تُكشف الأستار ، وتُذاع الأسرار أمام من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾)

المفردات :

(صٓ) : اختلف فى تفسيره اختلافهم فى نظيره من فواتح السُّور ، فارجع إلى ما كتبناه فى صدر سورة « البقرة » .

(ذِى الذِّكْرِ) : ذى الشَّرف ، أو الذكر : الموعظة .

(عِزَّةٍ) : حمية واستكبار عن الحق .

(وَشِقَاقٍ) : ومعاندة ومخالفة .

(قَرْنٍ) : يطلق مجازًا على الأمة .

(فَنَادَوْا) : فاستغاثوا وجأروا ، والنداء والجؤار : رفع الصوت .

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) : وليس الوقت وقت فِرارٍ وخلاص .

والمناص : التأخر والفَوْت .

التفسير

١ - (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) :

(صٓ) : بالسكون على الوقف عند الجمهور ؛ لأنها حرف من حروف الهجاء مسرودة على منهاج التعداد ، ويقول فى مثله السلف : الله أعلم بمراده ، وقد فصلنا آراء العلماء فى مثله أول « البقرة » وغيرها فارجع إليه ، وقرأ أُبى والحسن وغيرهما « صادِ » بكسر الدال ، وأخرج ابن جرير عن الحسن : أنَّ صادِ - بكسر الدال منونا - أمْر من صَادى ، أى : عارض ، ومنه الصَّدى وهو ما يعارض الصوت الأول ، ويقابله بمثله فى الأماكن الخالية .

والمعنى : عَارِضِ القرآن بعملك ، أى : اعمل بأوامره ونواهيه ، وقال عبد الوهاب : أى : اعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن .

(وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) : قسم أقسم به ربنا - عز وجل - أى : أُقسم بالقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم فى المعاش والمعاد ، وقيل : ذى الذكر : ذى الشرف والمكانة ، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإنذار ، وجواب القسم

يدل عليه المقام ، أى : وحق القرآن إنه لمُعجز ، أو إنه ليجب العمل به ، وقيل : الجواب قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

٢ ـ (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) :

معنى الآية مع ما قبلها كما يلى : وحق القرآن المشتمل على التذكير والعبرة إنه ليجب الإيمان به ، لكن الكافرين لم يؤمنوا ، لا لخَلَل وجدوه فيه ، بل لأنَّهم فى استكبار شديد عن اتباع الحق ، وشقاق أى : مخالفة لله ومعاندة ومشاقّة لرسوله ، ولذلك كفروا به .

وأصل الشِّقاق : إظهار المخالفة على وجـه المساواة للمُخَالِف ، أو على وجه الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشّق أى : كأنه فى شِق غير شِق صاحبه ، فهو يترفَّع عليه بأن يكون معه فى شِق واحد ، ومثله المعاداة ، وهو أن يكون أحدهما فى عُدْوَة والآخر فى عُدْوة ، والتعبير بفِى فى قوله تعالى : (فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) للدلالة على استغراقهم فيهما ، والتنكير فى (عزة وشقاق) لشدتهما .

٣ ـ (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) :

وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضرابهم ، لتخويفهم بما أهلك به الأمم المكذِّبة المستكبرة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل ، وتكذيبهم الكتب المنزَّلة من السماء ، وتماديهم فى الشقاق والعناد والكِبْر .

والمعنى : كثيرًا ما أهلكنا قبلهم من أُمّة مكذِّبة ، وحين جاءهم العذاب وحلَّ بهم العقاب استغاثوا وجأَروا إلى الله بالدعاء والتوبة ، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا ، فليس الوقت وقت فرار من العقاب ، ولا وقت هرب ونجاة من العذاب بالتَّوبة والدعاء ، وما اعتبر كفار مكة بهؤلاء ، بل تمادوا فى غيِّهم وفرارهم من الإيمان ، وأخرج الطَّسْتى عن ابن عباس : أنَّ نافع بن الأزرق قال له : أخبرنى عن قوله تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) فقال : ليس بحين فِرار .

وعن الكلبى أنه قال : كانوا إذا تقاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض : مناص ، أى : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)[1] .

---

(١) وقال الفراء : النوص : التأخر ، يقال : ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا فروزاغ ، ويقال : ناص ينوص إذا تقدم . أضداد .

(وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾)

المفردات :

(عُجَابٌ) : بالغ الغاية فى العجب .

(الْمَلَأُ) الأشراف والوجوه .

(امْشُوا) : سيروا على طريقتكم وامضوا على دينكم .

(الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) : دين النصرانية .

(اخْتِلَاقٌ) : كذب وافتراء من غير سبق مِثْل له .

(الْأَسْبَابِ) : المعارج إلى السماء .

التفسير

٤ ـ (وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم ، أى : عجب مشركو مكّةَ من أنْ جاءهم رسول بشرمن جنسهم أمىّ من نوعهم ، والمراد : أنهم عدُّوا ذلك أمرا عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع ، وأنكروه أشد الإنكار ، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ، وأعجب العجب أن ينكروا أن يكون الرسول من البشر ، ولا ينكروا أن يكون الإله المعبود لهم من الحجر .

وقال الكافرون : هذا ساحر يجىء بالكلام المموه الذى يخدع به الناس ، شديد الكذب فيما يسنده إلى الله - عز وجل- من الإرسال والإنزال ، وهل ترى كفرًا أعظم ، وجهلا أبلغ من أن يسمُّوا من صدَّقه الله بوحيه ، وأيَّده بالمعجزة الدالة على صدقه ساحرًا كذابا .

وقوله-تعالى-:(وَقَالَ الْكَافِرُونَ) فيه وضع الظَّاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمًّا لهم ، وإيذاناً بأنه لايتجاسر على مثل ما يقولون إلَّا المتوغّلون فى الكفر .

٥ - (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) :

أى : أزَعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ، أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجَّبوا من ترك الشرك بالله لأنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم حُبَّ عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية ، أعظموا ذلك ، وتعجَّبوا غاية العجب وأشده ، وقالوا : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

وقيل : مـــدار تعجبهم عدم وفاء علم الإله الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة الموجودة فى هذا الكون الكبير ، أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إنَّ ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه فجاء النبى ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس فخشى أبو جهل إن جلس إلى أبى طالب أن يكون أرقَّ عليه فجلس فى ذلك المجلس فلم يجد رسولُ الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى مابال قومك يشكونك ؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ، قال : وأكثروا عليه القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال :

يا عم ، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : ما هى ؟ وأبيك لنعطينها وعشرا ، قال : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدًا إن هذا لشىء عجاب ، وفى رواية : أنهم قالوا : سلنا غير هذا . فقال — عليه الصلاة والسلام — : لوجئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها ، فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى يأمرك بهذا .

٦ — (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) :

أى : وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبى طالب بعد ما قاله لهم رسول الله ﷺ وشاهدوا صموده فى تبليغ الرسالة ، ونشر عقيدة التوحيد ويئسوا ممـــا كانوا يرجونه منه — عليه السلام — وكان فيهم : أبو جهل ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ابن عبد يغوث ، وعقبة بن أبى مُعيط يوصى بعضهم بعضاً — انطلقوا — وهم يتحاورون ويتفاوضون — أن سيروا على طريقتكم ، وداوموا على مسيرتكم ، واثبتوا على عبادة آلهتكم متحمِّلين لما تسمعونه فى حقِّها من القدح .

والإشارة فى (إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى ﷺ وشدة تمسُّكه بعقيدته من التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ، أى : إنَّ هذا لشىء يراد من جهته إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يُقَال من طرف اللسان أو أمر يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة إنسان ، فاقطعوا أطماعكم بنزوله على إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم ، وقال القفال : هذه عبارة تذكر للتحذير والتخويف .

وقيل فى معنى الآية : إنَّ هذا الذى يدَّعيه من أمر التوحيد أو يقصده من أمر الرِّياسة والترفُّع على العرب والعجم لشىء يُتَمَنَّى أو يريده كل أحد ، ولكن لا يكون لكلٍّ ما يتمناه أو يريده فاصبروا .

والمعنى : ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا ، ونكون له أتباعاً ، فيتحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه .

٧ - (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) :

أى : ما سمعنا بهذا التوحيد الذى يدعونا إليه محمد فى ملّة النصارى آخر المِلَل ، بل سمعنا خلافه وهو عدم التوحيد من أفواه النصارى ، لأنهم كانوا يدينون بالتَّثْلِيث ويزعمون أنه الدِّين الّذى جاء به عيسى - عليه السلام -، (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) أى : ما هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد وترك عبادة الأصنام إلّا افتراء من غير سبق مِثْلٍ له ، وكذب مصنوع اختلقه محمد وابتدعه .

٨ - (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) :
استفهام إنكار ،أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم وقالوا : أَخُصَّ محمدٌ بنزول القرآن عليه من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم ؟وهذا كقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[1] وأمثال هذه المقالات الباطلة ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد لرسول الله والحقد عليه أن خُصَّ دونهم بالرسالة ، وفاز من بينهم بالنبوة (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى) أى : ليس كفرهم بالقرآن عن يقين بل هم فى حيرة وتردُّد وتخبُّط فى شأن ذِكْرى وهو القرآن الذى أنزلته على رسولى لميلهم إلى التَّقليد، وإعراضهم عن الأدلة المؤدِّية إلى العلم بحقِّيَّته ، وليس عندهم بالنسبة للقرآن ما يقطعون به من التهم ، فلذا تراهم ينسبونه إلى السِّحر تارة ، وإلى الاختلاق مرة أخرى (بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) أى : بل إنهم لم يتحيروا ويتخبطوا إلّا لأَنَّهُمْ لم يذوقوا عذابى بعد ، فاغتروا بطول الإمهال ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك، يعنى : أنهم لا يصدقون إلّا أن يمسهم العذاب ، فيضطروا إلى التصديق ، ولن ينفعهم ذلك حينئذ .

وفى التعبير بلمَّا دلالة على أن ذوقهم العذاب محقق وقريب الوقوع إن لم يؤمنوا .

٩ - (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) :

يعنى : أنهم ليسوا بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا ، ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم وأشرافهم ، ويترفَّعوا بها عن محمد - عليه الصلاة

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣١

والسلام - وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير العطايا المصيب بها مواقعها . الذى يقسِّمها على ما تقتضيه حكمته ، يعطى - سبحانه - ما يريد لمن يريد ، وفى هذا إشارة إلى أن النبوّة هبة ربّانيّة ومنحة إلٰهيّة ليس لأحد من خلقه شأن فيها .

١٠ - (أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الْأَسْبَابِ) :

أى : بل ألَهم ملك هذه الأجرام العلويّة ، والأجسام السفليّة حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ، ويتحكّموا فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء ، فإن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج ، وليتدرّجوا فى المراقى والمناهج التى يُتّصل بها إلى السموات ، فليدبّروها وليتصرّفوا فيها ويعطوا النبوة لمن شاءوا .

وقال الزمخشرى ومتابعوه : أى : فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يُتوصّل بها إلى العرش حتى يستولوا عليه ، ويدبِّروا أمر العالم وملكوت الله - تعالى - وينزلوا الوحى على محمد ، وهذا أمر توبيخ وتعجيز .

ثم وعد نبيّه النصر عليهم فقال :

١١ - (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ) :

أى : هم جند حقير مقْمُوع[1] ذليل قد انقطعت حُجّتهم فقالوا ما قالوا ، والكلام مرتبط بما قبل (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) أى : هم جند حقير من الأحزاب الذين تحزّبوا على المرسلين فاستأصلناهم ، فلا تهمنك عزتهم وشقاقهم فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزّهم ، وهذا إيناس للرسول ﷺ وقد فعل بهم هذا فى يوم بدر ، قال قتادة : وعدهم الله أنّه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر .

---

(١) قمعه - كنعه - : ضربه وقهره وذلله ، والمقموع : المقهور . ا هـ : القاموس .

و (هُنَالِكَ) : إشارة لبدر وهو موضع تحزّبهم لقتال الرسول ، والأحزاب : الجند ، كما يقال : جند من قبائل شتّى ، وقال الفرّاء : المعنى : هم جند مغلوب ، أى : ممنوع من أن يصعد إلى السماء .

وأصل الْهَزْم : غمز الشّىء اليابس حتى ينحطم كهزم الشّنّ وهزم القِثّاء والبَطّيخ ، ومنه الهزيمة ، كما يعبر عنه بالحطْم والكسر .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الأَوْتَادِ) : جمع وتِد وهو معروف .

(وَأَصْحَابُ الْئَيْكَةِ) الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب .

التفسير

١٢ ، ١٣ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ) :

استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال الطغاة العتاة ، وما فعلوا من الكفر والتكذيب لرسلهم وما فُعِل بهم من العقاب تعزية للرسول وتسلية .

والمعنى : كذّبت قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، أى : صاحب الملك المستقر والعرش الثابت ، وأصل ذلك : أنّ البيت من بيوت الشّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقال الأَسْوَد بن يعْفُر :

ولقد غَنَوْا فِيها بأنعم عيشة ... فى ظل ملك ثابت الأوتاد

أو : ذو الأبنية العظيمة والجنود الكثيرة ، وقيل : ذو الأوتاد المعروفة ، كان المذنبون يُعَذَّبُون عليها فى عهد فرعون .

وقوم لوط وقوم شعيب أصحاب الشجر الكثيف الملتف أولئك الكفار المتحزبون على الرسل - عليهم السلام - كما تحزب عليك قومك يا محمد ، ولقد كانوا أعظم من قومك مكانة وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شىء لما جاء أمر ربك . وفى ذلك يقول سبحانه:

١٤ - (إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) :

استئناف جىء به تقريرا لتكذيب الأحزاب على أبلغ وجه ، وتمهيدا لما يعقبه ، ولقد ذكر القرآن تكذيبهم على وجه الإجمال فى الجملة الخبرية (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) ثم جاء بالجملة الاستثنائية وفصله فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذَّب الرسل ، لأنهم إذا كذَّبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا ، لأن دعوتهم واحدة ، وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا والاستثنائية ثانيا ومافيها من التوكيد أنواع من المبالغة المسجّلة عليهم استحقاق أشدّ العقاب وأبلغه ، ولذا قال : (فَحَقَّ عِقَابِ) أى : ثبت ووقع على كلٍّ منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم ، فأغرق قوم نوح ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق أيضا ، وقوم هود بالريح العقيم ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالحاصب ، وأصحاب الأيكة بعذاب الظُّلة .

(وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ) : وماينتظرون .

(فَوَاقٍ) الفَوَاقُ : الوقتُ بين الحلبتين .

التفسير

١٥ - (وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ) :

شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم ، فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه ، والنظر بمعنى الانتظار ، وبما أن القوم لاينتظرون وقوع

العقاب بهم لكفرهم برسلهم جعلوا منتظرين له لتحقق وقوعه إن بقوا على كفرهم ، وذلك على سبيل المجاز ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار مكة للتّحقير ،والمراد بالصيحة الواحدة : نفخة البعث والقيامة .

والمعنى : ماينتظر هؤلاء الكفّار المجرمون من قومك الذين هم أمثال أولئك الطوائف المُهلكة فى الكفر والتكذيب - ما ينتظرون- شيئا إلّا صيحة واحدة لاتحتاج إلى تكْرير وتَرْديد ، أو مالها توقُّف مقدار فَواق ناقة ، والفواق : الزمن الذى بين حلبتى الحالب ، ورضعتى الرّاضع ، وقيل : هل النفخة الأُولى رُوى عن أبى هريرة قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن فى طائفة من أصحابه ،وذكر حديثا مطولا جاء فيه : « يأمر الله - عز وجل - إسرافيل بالنفخة الأُولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ،فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلّا من شاء الله ، ويأمره فيمدُّها ويديمها ويُطوِّلها يقول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ ا هـ : ملخصا من القرطبى .

وليس المراد أن النفخة نفسها عقاب لهم لعمومها للبرّ والفاجر من جميع الأمم ، بل المراد : أنه ليس بينهم وبين العذاب الذى يستحقونه إلّا هذه النفخة إن بقوا واستمروا على كفرهم ، وقد لطف الله بهم ولم يستأصلهم كما فعل بكفار الأُمم السابقة إكرامًا لنبيه محمد ﷺ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] ولأنه سبق فى علم الله أنهم سوف يسلمون ، وقد مَنَّ الله عليهم بالإسلام بعد فتح مكة .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

(قِطَّنَا) : قسطنا ونصيبنا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

التفسير

١٦ - ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ :

حكاية لما قالوه عند سماعهم تأخير عقابهم إلى الآخرة ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : ياربَّنا عجِّل لنا قِطَّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة .

وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان فى الاستهزاء ، كأنَّهم يدعون إلى ذلك بكمال الرغبة والابتهال ، والقائل - على مارُوى عن عطاء - : النَّضر بن الحارث وهو الَّذى قال الله فيه : «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ»[1] وأبو جهل - على مارُوى عن قتادة - وعلى القولَين فالباقون راضون عن هذه السخرية ، فلذا جئ بضمير الجمع .

والقِط : القطعة من الشىء ، من قَطَّه : إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة[2] : قِطٌّ ، لأنَّها قطعة من القرطاس ، وقد فسَّره بها أبو العالية والكلبى ، أى : عجِّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها ، وجاء فى رواية أُخرى : أنَّهم أرادوا نصيبهم من الجنَّة ، وروى ذلك عن قتادة وابن جبير ، وذلك أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر وعد الله - تعالى - للمؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا منها ، لنتنعم به فى الدنيا . قال الفراء : القِطُّ فى كلام العرب : الحظ والنصيب .

﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) سورة المعارج : الآية ١

(٢) أى : صحيفة العطاء .

المفردات :

(الْأَيْدِ) : القوّة والبطش .

(أَوَّابٌ) : رجّاع إلى الله ، أو مُسبِّح .

(الْعَشِيِّ) : من زوال الشمس إلى غروبها ، وقال الراغب : إلى الصباح .

(الْإِشْرَاقِ) : وقت الضحى ، قال ثعلب : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت وصَفَت ، فوقت الإشراق وقت ارتفاعها عن الأُفق ولذا يقال : شَرِقت الشمس ولما تُشرِق .

(مَحْشُورَةً) : مجموعة ، أو محبوسة فى الهواء .

(شَدَدْنَا مُلْكَهُ) : قوّيناه بكل أسباب القوة . .

(الْحِكْمَةَ) : النبوّة ، أو كمال العلم والعمل .

(فَصْلَ الْخِطَابِ) الخطاب هنا : بمعنى الخصام ؛ لاشتماله عليه ، أو لأنه أحد أنواعه ، وفصل الخطاب : التمييز بين حقه وباطله .

التفسير

١٧ - (اَصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أى : اصبر يا محمد على مايقوله فيك المشركون من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية الّتى حكى القرآن عنهم بعضها فيما سبق ، كقولهم : (هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ... إلخ واذكر لهم قصّة عبدنا داود - عليه السلام - تعظيما لأمر المعصية فى نفوسهم وتنبيها لهم على قبح ما اجترءوا عليه ممّا رموا به الرسول ، فإن داود - عليه السلام - مع علو شأنه وإيتائه النبوّة والملك لما ألمّ بما هو خلاف الأَوْلى رجع إلى الله واستغفره مع أنّه لم يفعل معصية ، فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلّين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين .

قِيل : إنّ داود قضى بين الخصمين بسماع دعوى أحدهما دون سماع الآخر .

وقيل : المعنى اصبر على قولهم واذكر لهم قصص الأنبياء لتكون برهانا على صحة نبوّتك. ذكره القرطبي .

(ذَا الْأَيْدِ) أي : ذا القوة فى الدين والدنيا، شديد البطش فى مخالفة الله ، كثير الصبر على عبادته وطاعته ،(إِنَّهُ أَوَّابٌ) : إنه كان رجّاعا إلى الله وطاعته فى جميع أحواله وكل أموره وشئونه ، أخرج الدَّيْلمى : عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت النبي ﷺ قال : « هو الرجل يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله تعالى » قال ابن كثير : ثبت فى الصَّحيحين عن رسول الله أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله – عز وجل – صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولايَفر إذا لَاقَى ، وأنه كان أَوّابا » والتعبير بعبدنا إظهار لشرفه بهذه الإضافة .

١٨ – (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) :

استئناف لبيان قصته – عليه السلام – ويجوز أن يكون تعليلا لقوته فى الدين وأوّابيته إلى الله – عز وجل – وإيثار ذكر لفظ «معـه» على «اللّام» فى الآية الكريمة لأن تسخير الجبال له لم يكن بطريق التّفويض بالتّصرُّف المطلق فيها كتسخير الرِّيح لسليمان بل بطريق الاقتداء فى عبادة الله – تعالى – أى : إنّا ذلّلنا له الجبال وسخرناها تسبح معه آخـر النهار ووقت الضحى ، رُوى عن أم هانىء بنت أبى طالب : أن النبي ﷺ صلَّى صلاة الضحى وقال : « هذه صلاة الإشراق » وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن عطاء الخراسانى أن ابن عباس قال : لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى شئ حتى قرأت هذه الآية (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) وفى رواية عنه أيضا : ماعرفت صلاة الضحى إلَّا بهذه الآية ، وللعلماء فى صـلاة الضحى كلام طويل والحق سنّيتها ، وقد ورد فيها – كما قال الشيخ ولى الدين بن العراقى – أحاديث كثيرة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبرى : بلغت مبلغ التواتر ، وذكر الشافعية : أنها أفضل التطوع بعد الرواتب ، لكن النووى قدّم عليها صلاة التّراويح ، وأقلها ركعتان ، لخبر البخارى : عن أبى هريرة

أنه – عليه الصلاة والسلام – أوصاه بهما وألّا يدعهما . وأدنى كمالها: أرْبَع ، فستٌّ ، فثمان .

١٩ – (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) :

وذلّلنا لداود الطير وسخّرناها مجموعة من كل صنف ومكان (كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) أى : كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح ، قال ابن عباس : كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، فاجتماعها إليه : حشرها .

فالمعنى : وسخّرنا الطير مجموعة إليه لتسبّح الله معه ، ويجوز أن يكون الضمير فى (كُلٌّ لَهُ) عائدا على الله – تعالى – لا على داود ، والمعنى : كل من داود والجبال والطيرِ : أوّاب لله – تعالى – ، أى : مسبِّح مرجِّع للتسبيح .

٢٠ – (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) :

وقوينا ملك داود بالهيبة ، والنّصرة ، وكثرة الجنود ، ومزيد النِّعمة . قال ابن كثير : ذكرابن جرير : عن عكرمة : عن ابن عباس–رضى الله عنهما – : أن نَفَرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود – عليه السلام– أنّه اغتصبه بقرا ،فأنكر الآخر ، ولم يكن للمدعى بيِّنة ، فأرجأ أمرهما ، فلما كان الليل أمِر داود –عليه السلام– فى المنام بقتل المدَّعِى ، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدَّعِى ، فقال : يانبى الله علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى ؟ فقال له : إنَّ الله – تعالى – أمرنى بقتلك فأنا قاتلك لامحالة ، فقال : والله يانبى الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه ، وإنِّى لصادق فيما ادَّعيت ، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد ، فأمر داود –عليه السلام –بقتله فقُتِل ،قال ابن عباس : فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل وهو الذى يقول الله : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) ولقد ذكر هذا الخبر الزمخشرى والآلوسى . (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) : النبوَّة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأُمور ، وصاحبها حكيم (وَفَصْلَ الْخِطَاب) أى : الفصل فى الخصومات وعلم القضاء ، ورُوى عن على والشّعبى : أنه البيِّنة على من ادَّعى واليمين على من أنكر ، ورُوى عن أبى موسى الأشعرى أنّه : أمَّا بعد ، ويقول الآلوسى : والَّذى يترجح عندى أنَّ المراد بفصل الخطاب : علم القضاء

والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقف على مزيد علم ، ودقة فهم وتفهيم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك . وبلائمه أتم ملاءمة قوله - تعالى - بعد ذلك : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ) والله أعلم .

* (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ) : استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده .

(نَبَأُ) : خبر .

(الْخَصْمِ) : هو فى الأصل مصدر خصمه ، بمعنى خاصمه أى : جادله ، أو غلبه ، ويطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمراد به فى هذه الآية : الجمع .

(تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) : تصعدوا سوره وعلوه لينزلوا إلى داود

(الْمِحْرَابَ) فى الأصل : صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد ؛ لأنه فى صدره ، ويطلق على مكان العبادة .

(فَفَزِعَ مِنْهُمْ) الفزع : انقباض يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

(بَغَى بَعْضُنَا) : جار وظلم .

(وَلاَ تُشْطِطْ) : ولا تتجاوز العدل وتتخطى الحق .

(وَاهْدِنَا): دُلَّنا وأرشدنا .

(سَوَآءِ الصِّرَاطِ) والمراد : الطريق السوى ، وهو من إضافة الصفة للموصوف .

التفسير

ذكر ـ سبحانه ـ فى الآيات السابقة أن نبى الله داود كان عبدا لله ، قويا فى دينه ، توابا ورجاعا إلى ربه ، وأنه ـ جل ثناؤه ـ سخر الجبال معه تسبح فى العشى والإشراقَ وكذلك جمع له الطير كل يقدس الله ويعظمه ، وأنه ـ تعالى ـ قوى ملكه وأعطاه القول الحق والمنطق الفصل . ثم أتى ـ عز علاه ـ بعد ذلك بتلك القصة العجيبة ، وساقها فى كتابه الكريم المنزل لتدل على أن الكمال المطلق لله وحده ، وقدم لها بما يشوق إليها ويجذب إلى الاستماع والإصغاء لها فقال :

٢١ ـ (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ) :

أى : وهل جاءك يا محمد : نبأُ هؤلاء الخصماء الذين تسلقوا سور محراب داود وعلوه ، ودخلوا عليه وهو متبتل لربه منقطع لعبادة مولاه؟

٢٢ ـ (إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ) :

فما إن دخلوا عليه حتى خاف وفزع منهم ، إذ لم يأتوا البيت من بابه ، ولم يمنعهم حراسه وخدمه من الدخول عليه ، فظن ـ عليه السلام ـ أنهم يريدون به شرا ، ويقصدونه بسوء ، ولكنهم بادروه وقالوا له : لا تخف منا فما أردنا لك كيدا ، ولا أضمرنا لك شرا فشأننا وأمرنا أن أحدنا قد بغى وظلم صاحبه ، فجئناك ابتغاء أن تحكم بيننا بالحق والعدل ، ولا تتجاوز الحد فتحيد فى حكمك وتجور فى قضائك ، ونطلب أن ترشدنا وتدلنا على الصراط المستقيم فى تلك القضية التى اختلفنا فيها .

ويبدو أن الذى كلم سيدنا داود وطلب منه الحكم بالعدل والبعد عن الجور والظلم هو ذلك الخصم الذى شعر بمرارة الظلم وفداحته ، فأخرجه ذلك عن مَرْضِىِّ القول وجميل النطق .

وكان نبى الله داود ـ عليه السلام ـ فى احتمال خطأ الخصوم مثالا ، وقدوة حسنة لكل من يحكم بين الناس من حاكم أو محكَّم ، فلم يبدر منه ـ عليه السلام ـ ما يدل على غضبه من القائل أو استهجانه لما يقول .

(إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(نَعْجَةً) : هى أنثى الضأن ، وتطلق على المرأة مجازا ، لما هى عليه من السكون ، والضعف .

(أَكْفِلْنِيهَا) أى : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، والمراد ملكنيها ، أو اجعلها كِفلى ، أى : نصيبى .

(وَعَزَّنِى) : غلبنى .

(فِى الْخِطَابِ) : فى المجادلة والمحاجة .

(الْخُلَطَآءِ) : الشركاء .

(فَتَنَّاهُ) : امتحناه وابتليناه .

(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ) : سأله المغفرة ، وهى الصفح .

(خَرَّ رَاكِعاً) : سقط وهوى ساجدا .

(وَأَنَابَ) : ورجع إلى الله – تعالى – بالتوبة .

(لَزُلْفَىٰ) : لَقُرْبَةً ومكانَةً .

(مَآبٍ) : مرجع فى الآخرة .

التفسير

٢٣ – ٢٤ (إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ...) الآية :

فى الآية السابقة طوى ذلك المظلوم شكايته وأجملها ، وفى هذه الآية بسطها وفصلها فقال : (إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ) اختلف فى المراد من قوله : (أَخِي) أيريد أخاه فى النسب ، أم صاحبه وأخاه فى الإنسانية أم شريكه وخليطه .

وعقّب ذلك بأن سجل على أخيه تجاوزه تلك الأخوة فلم يقنع هذا الأخ بما أفاء الله عليه من نعمة اتسعت وجلت وعظمت حيث كان (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) بل ينفس على أخيه ما لديه من تلك النعمة فى أدنى صورها وهى (نَعْجَةٌ وَاحِـدَةٌ) يريد أن يستأثر لنفسه ويضمها إلى ملكه بعد أن تملكته الأَثَرة واستسلم لضراوة حب الذات ، وصـدق رسولنا ﷺ حيث يقول : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولا يمـلأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) طلب صاحب التسع والتسعين من أخيه الذى ليس له إلا واحدة أن ينزل له عنها ، وأن يعطيه إياها ، وكان صاحب التسع والتسعين أقوى فى سوق حجته والإدلاء بها فى فطانة وبلاغة فغلب شريكه وأخاه وأفحمه فى الجدال والمخاصمة فواساه نبى الله داود –عليه السلام– وسلاه بما جاء فى قوله –تعالى–: (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وبين نبى الله داود وأكد له أن كثيرا من الشركاء والخلطاء يبغى ويظلم بعضهم بعضا ولا ينجو من هـذا الخـلق الجائر والحيف القاسط إلا الذين آمنـوا بربهم وعلمـوا أنه يحاسبهم

على أعمالهم ويجازيهم عليها ، وهم مع إيمانهم هذا قد عملوا الأعمال المرضية والأفعال الصالحة التى تحفظ عليهم إيمانهم من أن يتسرب إليه وهن ، أو يصيبه ضعف ، وزيادة فى مواساة هذا المظلوم بين له - عليه الصلاة والسلام - أن هؤلاء المؤمنين الصالحين فى قلة قليلة (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) أى : ليس شأنك مع خليطك بالأمر الذى لا يماثله أمر ، بل إنه جرى على أكثر ما يفعله الخلطاء من غبن وجور . (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وعلم داود - عليه السلام - بدلائل لاحت له أن الله قد امتحنه وابتلاه وظهر له أنه فعل أمرا كان أولى به وأجدر ألا يفعله ؛ فهو نبى ورسول ، فطلب من الله أن يغفر ذنبه ويصفح عنه وهوى ساجدا وخاشعا لعظمة ربه معترفا بذنبه منيبا لبارئه وخالقه (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) فقبل الله منه - عليه السلام - توبته وإن له عند ربه لمنزلة ومكانة يزلفه بها ويدنيه من رحمته ، وإن له مآبا حسناً ومرجعاً كريما فى الآخرة عند مليك مقتدر .

وقد مضت الآيات السابقة دون ما إشارة إلى الذنب الذى وقع فيه داود فاستغفر ربه منه ، وقد كثر الكلام حول هذا الموضوع ، وتعددت الآثار الواردة فيه ، ومنها :

ما قيل من أن نبى الله داود رأى امرأة أحد جنوده فوقعت من نفسه فأرسل إلى قائده أن يقدم هذا الجندى على التابوت ، وكان من يقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله على يدى هذا الجندى وسلم من القتل فرده مرة أخرى وثالثة حتى قتل ، فلم يحزن عليه ، وتزوج امرأته .

وهذه الرواية عليها مسحة اليهود الذين دأبوا على النيل من الأنبياء والحط من شأنهم فإن ما ينسب إلى نبى الله داود يقبح أن ينسب إلى بعض المعروفين بالصلاح من آحاد الناس وعامتهم ، فكيف يسوغ أن ينسب إلى أحد الأنبياء كداود - عليه السلام - فعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - قال : « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » وهو حد القذف فى حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما روى أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة

على ما فى كتاب الله فالتماس خلافها كذب واختلاق ، فقال عمر – رضى الله عنه – : لَسَمَاعى هذا الكلام أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس .

وقيل : إن نبى الله داود خطب على خِطْبة أخيه فآثره أولياءُ المرأة على الآخر ، وكان ذلك جائزا فى شرعه ، وهذا أيضاً غير لائق بإنسان صاحب مروءة ، فما بالك بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم – ؟ .

وقيل : إن داود – عليه السلام – احتجب عن رعيته متبتلا منقطعا لعبادة ربه فعوتب فى ذلك لأنه ترك أمر رعيته دون القيام على شأنهم .

قال الإمام ابن عباس – رضى الله عنهما – : إن داود – عليه السلام – جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً يجمع فيه بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، ففاجئوه فى غير يوم القضاء ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفى يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه .

وقيل : إن داود – عليه السلام – تعجل ورمى بالظلم ذلك الذى سأل نعجة أخيه إلى نعاجه دون تثبت أو شهادة شهود ، ودون أن يسمع قول المدعى عليه .

ولعل هذا القائل يؤكد رأيه فى الآية بقوله – تعالى – عقبها وصية لداود – عليه السلام – : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) .

ونحن نرى صحة هذا الرأى . والله أعلم .

وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – داود وغيره منزهون عن الوقوع فى صغائر الذنوب مبرأون من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، كالذى قيل فى الرأى الأخير أو الذى قبله .

وهذا هو الحق الأبلج والسبيل المستقيم .. وما ذهب إليه هؤلاء المحققون من الأئمة – رضى الله عنهم – هو ما تطمئن إليه القلوب وتنشرح له الصدور ، لأن أقصى ما يتصور حدوثه من الأنبياء هو أن يفعلوا خلاف الأولى بمقامهم – عليهم الصلاة والسلام .

(يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) : استخلفناك على الملك فيها ، أو جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق .

(سَبِيلِ اللهِ) : طريق الله الحق وصراطه المستقيم .

(نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ) : من النسيان ، وهو إما أن يكون ضد الذكر والحفظ ، أو يكون بمعنى الترك العمد .

التفسير

٢٦- (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) ... الآية :

نبه الله – سبحانه وتعالى – نبيَّه داود – عليه السلام – إلى شرف مسئوليته وخطر وعظم رسالته فقال له : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) الآية ، أى : إنا أقمناك خليفة عنا فى الأرض ، أو جعلناك خليفة فيها لمن كان قبلك من الأنبياء والرسل تسوس وترعى عباد الله فيها ، وتبلغهم ما أنزل إليك من ربك وتقوم على شأنهم ، فاقض بينهم بالحق والعدل ولا تمل أو تحد عن ذلك فتتبع هوى نفسك ، فإن اتباع الهوى والميل إلى شهوة النفس يبعدك عن طريق الله السوى وسبيله المستقيم .

وللتنبيه على شناعة الضلال عن سبيل الله وتناهيه فى القبح قال له عقب ذلك : (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ) .

أى : أن الذين يزلون عن السبيل الحق وصراطه ويعدلون عنه لهم عذاب شديد الإيلام ؛ لأنهم نسوا يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، فعصوا الله وتركوا طاعته فكان لهم هذا العذاب الأليم والعقاب الشديد .

هذا ، وتوجيه الله -تعالى- أنبياءه ورسله بالأمر والنهى والإرشاد والنصح لا يقدح أبدا فى عصمتهم ولا ينال من رسالتهم ، فإن النبوة والرسالة لا تنافى دوام التذكير من الله - تعالى - .

ثم بين - سبحانه - أن الحساب والجزاء حق وعدل ونظام يقوم عليه أمر الدنيا وصلاحها واستقامة حالها فقال :

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بَاطِلاً) : عبثا ولعبا دون حكمة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب يأتيهم من النار .

(كَالْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من ينبعث وينطلق فى المعاصى .

التفسير

٢٧ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) أى : ما أنشأنا السماء والأرض وما فيهما من مخلوقات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله - ما خلقنا ذلك - خلقاً باطلا خاليا

من الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، ولكن خلقناها جميعاً للحق المبين ، وذلك بأن أنشأنا فيها نفوسا وأودعناها العقل والتمييز ، ومنحناها التمكين ، وأبعدنا عنها العلل ، وعرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف بعد أن أرسلنا إليها الرسل حتى لا تكون لهم حجة على الله ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء ، حسب أعمالها . (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى : خلقها باطلا وعبثا هو ما يظنه هؤلاء الكفار . فى حين أنهم يقرون ويعترفون أن الله هو خالق السموات والأرض مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) لأن إنكارهم البعث والثواب والعقاب يؤدى إلى أنها خلقت عبثًا ، وأن هذا الخلق قد خلا من الحكمة ، ومن جحد الحكمة فى خلق العالم فقد سفَّه الخالق وظهر منه أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكأنه غير مقر بذلك (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب شديد وهلاك يأتيهم من قبل النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت لهم بسبب كفرهم .

٢٨ ـ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ) :

بعد أن قرر ـ جل شأنه ـ أمر البعث والحساب بما مر من نفى خلق العالم عبثاً انتقل ـ سبحانه ـ إلى تقرير ذلك وتحقيقه بإنكار التسوية بين الصالحين والمفسدين ، أى : بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة الذين يعيثون فى الأرض فسادا ؟ أنقصر وجودهم جميعاً على الحياة الدنيا دون بعث أو حساب ؟ إن التسوية بينهما تنافى الحكمة وتخالف العدل . . . . فيتعين إذًا البعث والجزاء لرفع المصلحين إلى الدرجات العلى ورد المفسدين المضلين إلى الدركات السفلى فى جهنم وساءت مصيرا .

ثم جاء قوله ـ تعالى ـ : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) انتقالا إلى ما هو أظهر وأوضح فى استحالة التسوية بين الفريقين المذكورين ؛ أى : بل أنجعل المتقين كأولئك الذين انبعثوا وانطلقوا فى المعاصى لا يردهم وازع من نفوسهم ولا خوف من ربهم ؟ أيسوى الله بينهم دون جزاء حسن لمن اتقى ، وعذاب مقيم لمن كفر وفجر ، إن التسوية بين الفريقين أمر تأباه الحكمة وينافى العدل . (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

٢٩ ـ (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) :

أى : هذا القرآن الكريم كتاب أنزلناه إليك كثير الخير عظيم المنافع الدينية

والدنيوية لا تنفك عنه البركة ولا يزايله الخير ، أنزلناه إليك ليتفكر هؤلاء وغيرهم فى آياته ، وما تشتمل عليه من أمر ونهى ، وإرشاد وهداية ، وقصص حق ، ووعد ووعيد إنهم لو تدبروا لوقفوا على ما فيها من المعانى الفائقة ، والتأويلات اللائقة ، والدلالات الواضحة ، ويتعظ ذوو العقول الزاكية الخالصة من شوائب الزيغ والضلال .

فلو تفكر هؤلاء وتذكروا أو استحضروا ما هو مغروس فى فطرهم لعلموا أن البعث والحساب والجزاء حق ، ولكنهم غفلوا وعموا وصموا .

وفى الآية تعريض بأن هؤلاء الكفرة ليسوا من أهل التدبير ولا من أهل العقول .

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ) : أعطيناه ومنحناه إياه .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : كلمة (نِعْمَ) تدل على المدح والثناء .

(أَوَّابٌ) : رجَّاع ، أى : كثير الرجوع بالتوبة إلى الله ، أو كثير الرجوع إلى تسبيح الله .

(بِالْعَشِيِّ) العشى : من زوال الشمس عن كبد السماء إلى آخر النهار ، وقيل : إلى آخر الليل .

(الصَّافِنَاتُ) : جمع صافن ، وهو الذى يرفع إحدى يديه ويقف على مقدم حافرها ، وقيل : هو الذى يجمع بين يديه ويسويهما .

(الْجِيَادُ) : جمع جواد ، وهو الذى يسرع فى مشيه إسراعا جيدا .

(حُبَّ الْخَيْرِ) أى : حب الخيل ، لقوله ﷺ : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(فَطَفِقَ مَسْحاً) : فجعل يمسح مسحا .

التفسير

٣٠ - (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . . .) :

تشير هذه الآية إلى قصة سليمان بن داود - عليه السلام - .

ومعنى الآية : وأعطينا داود ابنه سليمان وورثناه إياه ، وكان سليمان حقيقًا بتلك المنزلة وجديرًا بهذه الوراثة المباركة ، فقد أثنى عليه ربه فقال : (نِعْمَ الْعَبْدُ) ، فوصفه بالْعُبُودِيَّةِ ، والْعبودِيَّة من أشرف الصفات وأسمى النعوت ، فقد نعت بها سيد الخلق رسولنا ﷺ قال - تعالى - : (سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ)[1] ، وقال ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » كما وصف سليمان بأنه - عليه السلام - كان كثير الرجوع إلى ربه يتوب إليه مما عساه أن يكون قد بدر منه من فعل غير الأولى ، أو أنه كان يكثر الرجوع إلى تسبيح الله وتنزيهه .

٣١ - (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِىِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ) :

أى : اذكر يا محمد ما كان من أمر سليمان فى استعراضه الخيل فى منتصف النهار ، تلك الخيل التى وصفت بالصفون والجودة فجمعت بين وصفين محمودين ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى موقفها ، وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها .

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ١

وقد عرضت على سليمان - عليه السلام - ليعلم ويقف على مدى قدرتها وقوتها وحسن تدريبها على خوض المعارك التى يتطلبها صاحب رسالة وملك، فيغزو بها أعداءه ويؤمن حدوده ويبعث الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم أن يعتدوا على ملكه .

٣٢ - (فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى) أى : فقال : إنى آثرت حب الخير بسبب ما هو مذكور ومسطر فى كتاب ربِّى وهو التوراة من مدح ربط الخيل وإمساكها على الثغور والحدود فى مواجهة الأعداء فذكر - عليه السلام - أنه لا يحبها لأجل زينة الدنيا وزخرفها ونصيب النفس وحظها وشهواتها وإنما أحبها لأمر الله - تعالى - وإعزاز دينه .

(حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) أى : حتى غابت عن بصره - عليه السلام - .

٣٣ - (رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) :

أمر سليمان - عليه السلام - الرائضين للخيل والقائمين على شأنها أن يردوها ويعيدوها إليه ، فلما عادت جعل يمسح سوقها وأعناقها تشريفًا وإعزازًا لها وشفقة عليها وإظهارًا لمكانتها ، إذ هى من أعظم ما يساعد المجاهد ويعاونه فى دفع عدوه والانتصار عليه ، وقد أبدى - عليه السلام - كمال التواضع فى مباشرة ذلك الأمر بنفسه . وهكذا يضرب الأنبياء الأمثال لأقوامهم وأتباعهم ليتأسوا بهم .

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(فَتَنَّا) : ابتلينا وامتحنا .

(جَسَدًا) : جسد إنسان .

(أَنَابَ) : رجع إلى ربه .

التفسـير

٣٤ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ . . .) الآية :

خير ما ورد فى تفسير هـذه القصة ما قاله رسولنا محمد ﷺ حيث قال : « قال سليمان : لأطوفن الليـلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشقِّ رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » فكانت هذه فتنة سليمان إذ أنه لم يقل : إن شاء الله ، وهذا هو الصحيح الذى جاء به الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - : أخرجه البخارى وغيره عن أبى هريرة .

أما ماورد من أنه ولد له ابن فقالت الجن والشياطين : إن عاش له ولد لنلقين منه مالقينا من أبيه من البلاء ، فأشفق سليمان - عليه السلام - منهم ، فجعل ابنه وظئره (حاضنته) فى السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقى هذا الابن على كرسيه ميتا ، تنبيها إلى أن الحذر لا ينجى من القدر ، وعوقب على ترك التوكل على الله ، فهذا خبر غير موثوق به ولا تطمئن إليه النفس ؛ لأن تسخير الريح كان بعد الفتنة .

(وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) :

أى : وقدم هذا الشق إلى سليمان وطرح على كرسيه فألقى الله فى روعه وقذف فى قلبه أنه قد فتن وامتحن وابتلى ووقف على سبب ذلك ،فكان أن أناب إلى الله ورجع إلى ربه تائبا مستغفرا عن هذه الزلة التى فرطت منه ، وهى أنه قد نسى أن يتجه إلى ربه فى منحه تلك الذرية التى تعينه على الجهاد فى سبيل الله « بأن يقول : إن شاء الله » .

وجاء العطف (بثم) فى قوله -تعالى- : (ثُمَّ أَنَابَ) التى تدل على التراخى والبعد لأنه لم يقع الاستغفار عقب حدوث الزلة ، فإن سليمان -عليه السلام - لم يعلم الداعى إلى الاستغفار والإنابة عقب ما وقع منه من ترك قوله : إن شاء الله إلا بعد أن وضعت له إحدى نسائه شق رجل ، وكان بين طوافه على نسائه وتركه ذكر المشيئة وبين إلقاء الشق على كرسيه زمن طويل ، فناسب أن يعطف بثم ، وهذا بخلاف قصة داود - عليه السلام -

فقد جاء العطف فيها بالفاء التى تدل على الفورية وسرعة المبادرة ، لأنه علم أن الله قد فتنه وابتلاه ، ومن فور علمه استغفر وأناب لأن اللائق فى هذا المقام المسارعة إلى الإنابة .

(قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(لَا يَنبَغِى) : لايتيسر .

(مِن بَعْدِى) : من دونى .

التفسـير

بين – سبحانه – إنابة سليمان ورجوعه إلى ربه بقوله : (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى) دعا سليمان ربه أن يغفر له ويصفح عنه ولا يعاقبه أو يحاسبه على مابدر منه من ترك ماهو أولى به أن يفعله ، وقدم – عليه السلام – الاستغفار – وإن كان مقصوداً لذاته – ليكون وسيلة إلى طلب الملك ، فمن كمال العبودية أن يقدم الإنسان الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ليمحى أثره ويكون دعاؤه أرجى للقبول ، ثم طلب – عليه السلام – من ربه أن يمنحه ملكا عظيما لا يدانيه ملك أحد غيره ؛ ولا يسلب منه ويعطى لسواه ، وقد طلب سليمان ذلك من ربه واستوهبه إياه ، لتكون استجابة الله له أمارة على قبول إنابته وعلامة على غفران الله له ماتركه من النطق بقوله : إن شاء الله عندما أحب أن تأتى نساؤه بفرسان يجاهدون فى سبيل الله كما مر بيانه .

وقيل : إن سليمان – عليه السلام – لم يطلب من ربه هذا الطلب إلا بعد أن أمره الله بطلبه لأنه – سبحانه – علم أنه لايستطيع أن يضطلع بهذا الملك ويقوم على تصريف

أمره وسياسته وتدبير شأنه أحد غير سليمان ،فكان أن امتثل سليمان وطلبه من ربه فاستجاب له ومنحه إياه .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : (إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) اعترافا مؤكدا من سليمان بأن الله ـ جل علاه ـ هو وحده صاحب العطاء الواسع الكثير وليس ذلك لأحد سواه .

(فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ) : فذللناها ويسرناها له .

(رُخَآءً) : لينة طيبة لا تتزعزع ولا تضطرب ، وقيل : طيعة له لاتمتنع عليه .

(حَيْثُ أَصَابَ) : حيث قصد وأراد .

(الْأَصْفَادِ) : جمع صفد ، وهو ما يُوثَق به الأسير من قيد أو غل .

(مُقَرَّنِينَ) : مجموعين فى قيد واحد يضمهم .

(فَامْنُنْ) : فأنعم على من شئت .

(أَمْسِكْ) : احبس وامنع من شئت .

التفسير

٣٦ـ (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ) :

فى هذه الآية الكريمة دلالة على أنه ـ سبحانه ـ استجاب لسليمان فور الفراغ من

دعائه فجاء قوله ـ تعالى ـ : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) بالفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب ، أى أن الله ـ تعالى ـ ذلل ويسر له الريح فور دعائه تطيع أمره ولا تتأبى عليه فتسير وتجرى بأمره حيث يريد ويقصد سيرا لينا لا اضطراب فيه ولا اهتزاز وذلك مع شدة سرعتها ، وعصفها فى جريها ، فقد جمع الله له فيها بين اللين وسرعة الجرى ، وهما لايجتمعان غالبا ؛ لأن السير الشديد يكون معه الاضطراب والتزعزع عادة .

٣٧ ، ٣٨ ـ (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) :

وسخـــر الله له الشياطين وهم مردة الجن وعتاتهم سخر له بعضهم فى أعماله ، فبنوا له ماشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وسخر له بعضا آخر يغوص فى البحار يجلبون له ما استتر فيها من كريم ماتحتويه من اللؤلؤ والمرجان ، وسلطه الله على من يرى أنه ملمٌّ ومؤذ فقرن وجمع بعضهم ببعض فى أصفاد وقيود ، أو أحكم قيد كل واحد منهم على حدة اتقاء شرهم ومنعا لضررهم .

٣٩ـ (هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

وقال له ربه ـ عقب تسخير الشياطين له تفضلا عليه ـ : هذا عطاؤنا ومنحتنا إليك أطلقنا فيه يديك ، فامنح من شئت وامنع من أردت ، فلا نسألك عن ذلك ولا نحاسبك عليه ، أنت فى خيار من أمر هؤلاء الشياطين فأمسك من شئت فى خدمتك ، وقيد من أردت من المردة فى أصفادك ، وأطلق سراح من تحب ، فلا عتاب ولا تثريب عليك ، يقول الله ذلك وهو يعلم حسن تصرفه فيما فوضه إليه .

٤٠ـ (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) :

أى : وإن لسليمان عندنا لقربى ، وكرامة عظيمة مع ما أنعمنا به عليه من الملك العظيم ، وله حسن مرجع ومأوى فى الجنة ، فله عز الدنيا وسعادة الآخرة ؛ لاستحقاقه ذلك عند ربه .

(وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بِنُصْبٍ) : بمشقة وتعب .

(وَعَذَابٍ) : وضر وألم .

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) الركض : الدفع القوى ، أى : ادفع واضرب برجلك الأرض ضربا شديدا قويا .

(وَذِكْرَىٰ) : وتنبيها وتذكيرا .

(لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ) : لأصحاب العقول الرشيدة .

(ضِغْثًا) : حزمة من حشيش أو نحوه .

(وَلَا تَحْنَثْ) الحنث : الخلف فى الحلف وعدم الوفاء به .

التفسير

٤١ - (وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) :

أى : واذكر - يامحمد - قصة أيوب وابتلاء الله له بالمرض والمشقة والألم ، ليكون - عليه السلام - مثالا كريما يحتذيه ويتأسى به كل من تصيبه مصيبة فى نفسه أو ولده أو ماله لينال جزاء الصابرين الذين وعدهم الله بالجزاء العظيم بقوله - تعالى - : « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] .

أو اذكر قصته ـ عليه السلام ـ فى نفسك لتكون عونا لك على الصبر على ماتلاقيه وتكابده من هؤلاء الضالين المعاندين المشركين ـ اذكر ـ أن الشيطان قد وسوس له ليثنيه عن يقينه وينال من طمأنينة قلبه بما يلح فى الوسوسة ودعــوة أيوب إلى القنوط واليأس من رحمة ربه ، وكان هذا الأمر قاسيا وشديدا على أيوب مع مرضه وعلته ، فضلا عن تسلط الشيطان على أتباعه حتى فتن بعضهم فى دينه ، ورده إلى الكفر بعد أن غرس فى نفوسهم أن الأنبياء لايبتلون ولا يمرضون ، وأن أيوب مادام قد أصابه المرض ومسه الضر فليس بنبي ولا رسول ،كما تسلط ذلك اللعين على آخرين حتى قالوا : ما ابتلى الله أيوب إلا لذنب أصاب أو جريمة اقترف ، فكان أيوب يعانى من مشقة تسلط الشيطان عليه بالوسوسة بالقنوط من رحمة الله ، كما يعانى ويتألم لفتنة أتباعه وتفرقهم عنه وتشككهم فى رسالته .

وكان أيوب ـ عليه السلام ـ فى قمة الأدب مع ربه فجاء هنا حكاية عنه قوله ـ تعالى ـ : (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) وجاء فى سورة الأنبياء قوله ـ تعالى ـ : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[2] فلم يزد ـ عليه السلام ـ أن نادى ربه وبسط شكاته فحسب ، وفوض أمره إلى ربه راضيا بما يقضيه فيه ، وما يقدّر عليه ، فلطف به ـ سبحانه ـ واستجاب إلى ماتتوق إليه نفسه ويطمئن به قلبه من أن يذهب مرضه الذى أتعبه ونال من جسمه وحط من قوته ، وأن يصرف الشيطان عنه وإن كان لاينال من عقيدة الأنبياء ولا من عباد الله الصالحين .

٤٢ ـ (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) :

أمره ـ تعالى ـ أن يضرب الأرض برجله ضربا قويا بقوله : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) فامتثل وضربها فنبعت عين ، فقال له ـ سبحانه ـ : (هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) فاغتسل ـ عليه السلام ـ فذهب سقمه وصح بدنه وشرب فأطفأ ظمأه .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٨٣

٤٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ) :

وبعد أن اكتملت له العافية من الله عليه وهب له ما كان قد تفرق عنه من ولده ، وبارك له فيهم فضاعفهم له وأعطاه كثير المال وجليل الخير ، وكل ذلك كان من رحمة الله وفضله عليه إذ سلط الله عليه البلاء فصبر ، ثم أزال عنه مانزل به ووصله بالآلاء والنعماء ، وذلك تنبيها لذوى العقول الرشيدة والبصائر النافذة والقلوب السليمة على أن من صبر ظفر ونال الجزاء الحسن .

٤٤ - (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أبطأت امرأة أيوب - عليه السلام - وهو فى مسيس الحاجة إليها ، فقد أنهكته العلة وقعد به المرض وألح عليه الشيطان فى نفسه وتابعيه ،فأقسم إن شفاه الله وأبرأه ليضربنَّها مائة جلدة ، وكان البرءُ والشفاءُ والمنة العظيمة بالعافية والرضا من ربه ، فكيف يضربها وهى التى رافقته فى رحلة مرضه وقاست ماقاست من حزنها عليه ، واعتصار قلبها لما كان يكابده من العلة وعانت من تفرق الولد والأهل وذهاب المال ،وأيوب - عليه السلام - يعرف لها ماقامت به نحوه وما عانت من أجله ، ولهذا كان يود ويرجو مخرجا من هذه اليمين التى التزم أمام ربه أن يبر ولايحنث فيها ، فكان أن جعل الله له مخرجا منه يرضى ربه ولا يضر زوجه ، فقال له :(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ) أمره - جل جلاله - أن يتحلل من قسمه بأهون شىء عليه وعليها ، وذلك بأن يعمد إلى حزمة من حشيش أو ريحان أو نحوهما تضم مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة ، ويكون بذلك قد وفى بقسمه ولم يؤذ زوجه الوفية له فى مرضه .

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

إنا علمنا أيوب صابرا محتسبا حابسا نفسه على إرادة ربه ، لم يستطع الشيطان أن يزعزع ثقته بربه أو يقلل من اعتماده عليه ـ سبحانه .

وقد يقال : كيف يوصف أيوب بالصبر وقد شكا ؟

والجواب : أن أيوب شكا إلى الله ولم يشك لأحد سواه ، وأن أيوب لجأ إلى الحبيب من العدو ، فضلا على أن الشكوى إلى الله ليست منقصة ولا نزولا بالهمة ، فإن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يُدعى ويُسأل ، ونبي الله يعقوب خاطب ربه وشكا إليه : « قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ »[1] وهذا لايقدح فى الصبر .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : أيوب فقد تناهى فى الكمالات وتسامى فى الدرجات (إِنَّهُ أَوَّابٌ) : أى : إنه رجاع إلى ربه منيب إليه ، لسانه رطب بذكره ، وقلبه عامر بالتفكر فيه والتعظيم له والخوف منه .

(وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(أُوْلِى الْأَيْدِى) : أصحاب الأعمال العظيمة فى طاعة الله .

(وَالْأَبْصَارِ) أى : والبصائر النافذة فى معرفته .

(أَخْلَصْنَاهُمْ) : جعلناهم خالصين .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٨٦

(بِخَالِصَةٍ) : بخصلة وصفة خالصة لا شوب فيها ولا كدورة هى :

(ذِكْرَى الدَّارِ) : تذكر الدار الآخرة ، أو التذكير بها ، أو الثناء الجميل عليه فى الدنيا .

(الْمُصْطَفَيْنَ) : جمع مصطفى ، وهو المختار من بنى جنسه .

التفسير

٤٥ - (وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ) :

أضافهم إليه - سبحانه - بالعبودية فقال : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا) وذلك تشريف لهم وإعلاء لشأنهم .

واذكر أيُّهَا - الرَّسُول - لقومك أو تذكر أنت إبراهيم وإسحاق ويعقوب - اذكر هؤلاء .

(أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ) أى : أصحاب الأعمال الطيبة والبصائر النيرة ، فقد استعمل - سبحانه - حواسهم فى طاعته : فألسنتهم رطبة بذكره ، وجوارحهم مشغولة بعبادته ، فكان الله سمعهم الذى يسمعون به ، وبصرهم الذى يبصرون به ، وذلك مع أفئدة بصيرة ، وعقول رشيدة ، وقلوب سليمة يملؤها ويعمرها التفكير فى الله - سبحانه وتعالى - فقد جمع الله لهم كمال العمل له ، مع عظيم معرفته .

وجاء التعبير عن الأعمال الظاهرة بالأيدى ، لأن أكثر الأعمال تباشر بها فيقال : هذا مما عملت أيديهم ، أو هذا ما قدمت يداه ، وإن كان هذا العمل لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى .

٤٦ - (إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) :

أى : إن الله قد أخلصهم له ونقاهم من كل شوب وكدورة تنال من مكانتهم ، وجملهم بتلك الخصلة الطيبة والخلة الحسنة ، وهى تذكرهم الدار الآخرة ، يعملون لها ويسعون من أجلها ، وكان نصيبهم من الدنيا هو عمل الخير وخير العمل الذى يقدمون به على ربهم ؛

ويقبلون بصحبته إلى مولاهم ، أو أخلصهم وميزهم بتذكرهم الدار الآخرة ، أو أنه - تعالى - أبقى لهم الثناء الحميد فى الدنيا ، وتقبل دعاء إبراهيم - عليه السلام - حيث قال : « وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »[1] .

أو أنهم يذكِّرون الناس بالآخرة ويحثونهم على التجافى عن الدنيا والبعد عن الإغراق فى طلبها .

٤٧ - (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) :

أى : وإن هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - عند الله لمن الذين اجتباهم واختارهم - سبحانه - فكانوا من صفوة وخيار رسله وأفضل أنبيائه .

(وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(هَٰذَا ذِكْرٌ) : شرف عظيم وذكر جميل يذكرون به دائماً .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : بساتين إقامة دائمة .

(مُتَّكِئِينَ) : مسندين ظهورهم أو جنوبهم إلى شىء معتمدين عليه فى حال قعودهم .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤

التفسير

٤٨ - (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) :

واذكر - يا محمد - أو تذكر أنت هؤلاء الرسل الذين صبروا وصابروا وأبلوا بلاء حسنا فى أداء رسالة ربهم ، وتحملوا سفه قومهم وجهلهم حتى يُهْتدى بهم ويكونوا مُثُلًا صالحة يتأسى بهم سواهم .

وكلهم من الصفوة الكرام البررة الذين انتخبهم ربهم واختارهم .

وقد أفرد - سبحانه - إسماعيل وفصل ذكره عن ذكر أبيه إبراهيم وأخيه إسحٰق للإشعار بعراقته وأصالته فى الصبر الذى هو المراد فقد صبر إسماعيل على الذبح لولا أن الله فداه بِذِبْحٍ عظيم .

والحكمة من ذكر أو تذكر هؤلاء تبدو فيما يأتى :

١ - أما إبراهيم - عليه السلام - فقد صبر وصابر على إيذاء قومه له فلم يداهنهم على كفرهم ، أو تلن قناته أوتضعف عزيمته عندما عزموا على تحريقه وإلقائه فى النار ثم ألقوه فيها فكانت عليه بردا وسلامًا .

٢ - وأما إسحاق - عليه السلام - فقد صبر على طمع قومه وجشعهم فكان يحفر الآبار ليسقى دوابه ويروى زرعه ، فيأتى هؤلاء العصاة أكلة السحت والحرام فيأخذونها منه فيتركها لهم ويحفر غيرها وهكذا ، ثم ما عاناه من تقدم السن ووهن العظم وفقد البصر .

٣ - وأما يعقوب - عليه السلام - فقد تأسى عن فقد أحب أبنائه إليه وأدناهم إلى قلبه ، فكان منه الصبر الجميل ، والاستعانة بالله على ما أصابه قال - تعالى - : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)[1] ثم ابتلى بأخذ ابنه الثانى شقيق يوسف بدعوى أنه سرق فاشتعل حزنه وتضاعف ألمه على يوسف ، ولكنه كان كبير الرجاء عظيم الأمل فى رحمة

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ١٨

ربه أن يرد الله إليه ابنيه قال ـ تعالى ـ : (عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً)[١] ولم يتسرب اليأس والقنوط إلى قلبه بل كان ينهى أولاده عنه ، قال ـ تعالى ـ : (وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ)[٢].

هذه المكابدة أذهبت بصر يعقوب (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ)[٣] إلى أن جمع الله بينه وبين أولاده ورد عليه بصره .

٤ ـ وأما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد صبر على الذبح وقال لأبيه :(سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[٤] كما كان مثالا للطاعة والبر بأبيه .

٥ ـ وأما اليسع ـ عليه السلام ـ فقد استخلفه إلياس ـ عليه السلام ـ على بنى إسرائيل فصبر على جهلهم وسفاهتهم وظلمهم وكفرهم ، ثم كان جزاء الله له أن اصطفاه رسولا .

٦ ـ وأما ذو الكفل ـ عليه السلام ـ فهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنه جابه الظلم وتصدى لهؤلاء الفجرة الذين طاردوا عددًا كبيرًا من أنبياء بنى إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم فكفلهم ذو الكفل وآواهم غير مبال بعسف الظالمين وكيدهم ، كذا قيل ، ولعله اسم له والأسماء لا تعلل .

٤٩ ـ (هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

(هذا) : إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسن هؤلاء الأنبياء والدالة على مناقبهم العظيمة (ذِكْرٌ) أى :شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبدًا ، أو هو إشارة إلى القرآن لقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)[٥] وهو مشتمل على أنباء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هذا ذكر مَن مضى من الأنبياء .

(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٨٣
(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٨٧
(٣) سورة يوسف ، من الآية : ٨٤
(٤) سورة الصافات ، من الآية : ١٠٢
(٥) سورة الحجر : من الآية : ٩

بعد أن بين – سبحانه – فى الآيات السابقة أن الحكمة تقتضى عدم التسوية بين المتقين والفجار ، جاءت هذه الجملة موضحة نعيم المتقين فى الآخرة ، وسيأتى فى الآية التالية بيان هذا النعيم .

٥٠ – (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ) أى : بساتين إقامة فتحت لهم فيها الأبواب تهيئة وإعدادًا وإكراماً لهم يدخلونها على أعز حال وأجمل هيئة (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[1] .

٥١ – (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ) :

أى : معتمدين فيها على أرائك ، أو وسائد من ديباج وإستبرق والأرائك : السرر المنجدة المزينة ، وهذه هى جلسة المطمئن الآمن والفرح المسرور ، وهم فى هذه الحالة من الحبور يطلبون من ربهم أن يمدهم ويعطيهم من ألوان الفاكهة وأصناف الشراب فيستجيب لهم الله ويعطيهم ما طلبوا (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ)[2] .

* (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) الطرف : العين ، ولا يجمع كما هنا لأنه فى الأصل مصدر ، ومن استعماله مفردًا مع الجمع قوله –تعالى– : « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » . والقصر : الحبس ، أى : حابسات عيونهن على أزواجهن ، وسيأتى مزيد بيان له فى التفسير .

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة يس ، الآية : ٥٧

(أَتْرَابٌ) أى : لِدَات على سِنٍّ واحدة ، تشبيهًا لهن فى التساوى والتماثل بالترائب التى هى ضلوع الصدر ، وهى جمع ترب ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(مَالَهُ مِن نَّفَادٍ) أى : ليس له انقطاع أبدا .

التفسير

٥٢ - (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) :

لا يزال الكلام متصلًا فى نعيم المتقين ، فهذه الآية تبين أن لهؤلاء المتقين فى الجنة زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى سواهم ، أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون إلى سواهن لجمالهن الفائق ، وهؤلاء الزوجات أتراب أى : متساويات فى السن ، فكلهن شباب وليس بينهن عجوز ، وذلك يستدعى محبة بعضهن لبعض ، وفى ذلك راحة لأزواجهن ، فإن تباغض الضرائر بسبب الفوارق فى الحسن بينهن ينغص عيش الأزواج ، فلذا تشابهن فى الحسن والطباع ، حتى تصفو الحياة فى الجنة ، وقيل : إن التساوى بينهن وبين أزواجهن ، وذلك أشمل وأكمل ، وأبعث على قصر الزوجات أبصارهن على أزواجهن .

وجاء فى وصفهن فى سورة الصافات قوله -تعالى-:(وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)[1] . ومعنى (عِين) : واسعات العيون حسانها ، ومفرده عيناء ، وقد شبهن ببيض النعامة تكنها النعامة بريشها من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء[2] ، وجاء فى وصفهن أنهن فى سن ثلاث وثلاثين سنة ، والآية فى الزوجات الآدميات كما قال ابن عباس :

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ٤٨ - ٤٩

(٢) وقال ابن عباس وغيره : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى .

٥٣ـ (هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : هذا الجزاءُ الذى وعدتم بهـأيها المتقون ـفى يوم الحساب ، فاللام فى قوله : (لِيَوْمِ الْحِسَابِ) بمعنى فى ، ويصح أن تكون للتعليل ، أى : هذا ماوعدتم به لأَجل يوم الحساب .

٥٤ـ (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ) :

إن هذا الذى ذكر من ألوان النعم وأصناف الكرم لرزقنا الذى أعطيناكموه ماله من انقطاع أبدًا ، وفيه دليل على أن نعيم الجنة أبدى لانهاية له .

(هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾)

المفـردات :

(لِلطَّاغِينَ) : المراد بهم الكفار .

(لَشَرَّ مَآبٍ) : لقبح مرجع .

(الْمِهَادُ) : الفراش وزنا ومعنى .

(حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) : الحميم : الماءُ الشديد الحرارة ، والغساق : عصارة أَهل النار ، وعن ابن عباس أنه الزمهرير ، أَخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر .

(وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) : وعذاب آخر من مثله أصناف .

(فَوْجٌ) : جمع كثير .

(مُقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ) أى : داخل معكم .

(لَامَرْحَبًا بِهِمْ) : دعاء من المتبوعين على أتباعهم .

(صَالُوا النَّارِ) أى : داخلون فيها .

(فَبِئْسَ الْقَرَارُ) : فبئس المقر جهنم .

التفسـير

٥٥ ، ٥٦ ـ (هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

لما ذكر الله فيما تقدم نعيم المتقين فى الجنة ، عقبه بذكر ما للطاغين من سوء المصير ، ولفظ « هذَا » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر هذا ، أو مبتدأ خبره محذوف أى : هذا كما ذكر . قال ابن الأنبارى : « هذَا » وقف حسن ، ثم تبتدئ : وإن للطاغين ، وهم الذين كذبوا الرسل ، وقال الجبائى – من المعتزلة – : المراد بهم أصحاب الكبائر ، سواء أكانوا كفارًا أم لا ، وأهل السنة على أن هذه الآيات فى الكفار ، وهو رأى ابن عباس .

ومعنى الآيتين : الأمر هذا الذى ذكر فى جزاء المتقين ، وإن للطغاة الذين كذبوا الرسل لَشَرٌّ مرجع يثوبون إليه : جهنم يدخلونها ويقاسون لهيبها ، فبئس الفراش جهنم .

٥٧ ، ٥٨ ـ (هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) :

الحميم : الماء الشديد الحرارة ، قال ـ تعالى ـ : (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)[1] . والغساق : صديد أهل النار يسيل من أجسادهم ، وقيل : الغساق : عذاب لايعلمه إلا الله ، وقيل : هو البارد المنتن والمقصود من لفظ : « آخَرُ » عذاب الزمهرير كما فسره ابن مسعود . ولكن ابن عباس يفسر الغسّاق بالزمهرير ، وعليه يكون معنى : « وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » : وعذاب آخر من شكل الغساق أو من شكل ماذكر أصناف .

---

(١) سورة محمد : من آية ١٥

والمعنى : العذاب هذا . فليذوقوه ، منه حميم شديد الحرارة ، ومنه غساق صديد أهل النار ، أو الزمهرير ولهم عذاب آخر من شكل هذا العذاب فى الشدة والفظاعة أصناف وأجناس .

٥٩ ، ٦٠ – (هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَامَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ * قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ) :

الاقتحام : الدخول فى شدة ، والآيتان حكاية لما يقوله أهل النار بعضهم لبعض ، من التلاعن والتكذيب . كما قال – تعالى – : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا »[1] .

تقول طائفة الرؤساء التى تدخل قبل طائفة الأتباع – تقول – إذا لحقوا بهم مع الخزنة من الزبانية : هذا فوج داخل معكم لا مرحبًا[2] بهم ، إنهم داخلون النار معنا لأنهم كفروا مثلنا ، فيرد الأتباع قائلين لرؤسائهم : بل أنتم أحق بما قلتم فلا مرحبًا بكم ، لأنكم ضالون مضلون ، فأنتم قدمتم العذاب لنا بإغوائنا وإغرائنا على العقائد الزائغة ، والأعمال القبيحة ، فبئس المقر والمنزل جهنم التى نصلاها سويا .

٦١ – (قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ) :

أى : يقول الأتباع أيضًا : ياربنا من تسبب فى عــذابنا وقدمه إلينا فزده فى النار عذابًا مضاعفًا ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة الأعراف ، وذلك فى قوله تعالى : (قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)[3] .

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٣٨

(٢) لا سعة لهم ولا نريد لقاءهم ، والرحب – بضم الراء وفتحها – : السعة ، كرحبا ، تقول : مرحبا أو رحبا وأهلا ، أى : أتيت سعة وأهلا فاستأنس ولا تستوحش ، بخلاف (لا مرحبا) فإنها على العكس ، وهى تشير إلى أنهم لا يريدون لقاءهم فصدورهم لا تتسع لهم ، لأنهم صالوا النار مثلهم فلا منفعة فى لقائهم تقتضى الترحيب بهم .

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٨

(وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(سِخْرِيًّا) : مسخورًا ومُسْتَهزَأً بهم .

(زَاغَتْ) : مالت .

(تَخَاصُمُ) أى : تنازع .

التفسـير

٦٢ - (وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ) :

أى : وقال الطاغون الكافرون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر : ماذا جرى لنا ، حيث لا نرى معنا فى النار رجالًا كنا نعدهم فى الدنيا من الأشرار الأراذل الذين لا خير فيهم ولا منفعة لهم ، يعنون بذلك فقراء المؤمنين ، وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم لهم فى الدين .

واستظهر بعضهم أن الضمير فى « قَالُوا » عائد على أتباع الرؤساء ، فإن الكلام متصل بمقالهم عن الرؤساء ، وكانوا - أيضًا - يسخرون من فقراء المؤمنين تبعًا لرؤسائهم .

وقيل : إن الضمير راجع إلى صناديد قريش : كأبى جهل وأمية بن خلف وغيرهما ، والرجال الذين كانوا يسخرون منهم ، هم عمار بن ياسر ، وصهيب ، وسلمان الفارسى ، وخبَّاب بن الأرت ، وبلال ونحوهم - رضى الله عنهم - على ما روى عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم ، والصواب : أن ذلك التحسر والتندم عام فى جميع الكفار ، السابقين ، واللاحقين ، فهم يتندمون على ما حدث منهم فى فقراء جميع الأديان ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٣ - (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) :

الهمزة فى (أَتَّخَذْنَاهُمْ) للاستفهام الإنكارى المصحوب بالتعجب ، والكلام فى هذه الآية موصول بتعجبهم فى الآية السابقة بقولهم : (مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ) أى : ماذا جرى لنا حيث لا نرى معنا فى النار رجالاً كنا نعدهم من الأشرار لفقرهم ومخالفتهم لنا فى الدين ، أتخذناهم مسخورًا بهم فى دنيانا وهم على حق فلذلك لا نراهم معنا فى النار ؟ أم مالت عنهم أبصارنا وهم فى النار فلا نراهم فيها ؟ .

٦٤ - (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ[1] أَهْلِ النَّارِ) :

أى : إن ذلك الذى حُكِى عن الكفار - متبوعين وتابعين - لحق تخاصم أهل النار وتنازعهم ، فلابد من حصوله يوم القيامة فى جهنم .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الْقَهَّارُ) : الغالب .

(الْعَزِيزُ) : الغالب .

(1) تخاصم أهل النار : خبر ثان لفظ (إن) أما الخبر الأول فهو لفظ (لحق) .

(نَبَأٌ عَظِيمٌ) : خبر عظيم .

(الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ) : جماعة الملائكة اختصموا مع إبليس فى شأن آدم ، وسنبين الآراء فى ذلك .

التفسير

٦٥ ، ٦٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

بعد أن بين الله حظوة المتقين عند ربهم يوم الدين ، وشقاء الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أمر الله نبيه أن يبين للمشركين أن مهمته فيهم هى الإنذار والبلاغ ، وأنه لا يبتغى مغنمًا منهم ولا أجرًا ، وأنه لا يوجد إلٰه لهم سوى الله الواحد القهّار ، فلا وجه لعبادتهم سواه ، فالله هو الغالب الذى لا يقهر ، وهو رب السموات السبع والأرض ، وما بينهما من الكواكب التى هى زينة للسماء الدنيا ، ومن الشهب والهواء والقوى الكونية التى بين السماء والأرض ، وهو العزيز الغالب لمن ناوأه فى ألوهيته ، الغفار لمن تاب من كفره ، وأناب إلى ربه ، مع عزته وقهره .

وفى هذه الأوصاف التى وُصِفَ الله بها فى الآيتين تقرير لتوحيده - تعالى - ووعد للمؤمنين ووعيد للمشركين على نحو ما بيناه .

٦٧ - ٦٩ - (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

قل - أيها الرسول - للمشركين : ما أخبرتكم به من أننى نذير لكم مِنْ عقوبة مَنْ هذه صفاته مِنْ أنه - تعالى - إلٰه واحِد قهّار ، رب السموات والأرض عزيز - قل لهم - : ما أخبرتكم به من ذلك خبر عظيم أنتم عنه معرضون لا يحرك همتكم ، لتمادى غفلتكم وجهالتكم ، فإن اليقظ العاقل لا يعرض عن مثله ، وقد قامت عليه الحجج الواضحة ، أما على توحيد الله فمما مَرّ من صفاته التى لا تمارون فيها وهو وحيد فى الاتصاف بها ، وأما على نبوة محمد ﷺ

فهو ما أخبرهم به من أن الملأ الأعلى اختصموا فى شأن آدم ، وما كان له من علم بذلك إلّا بطريق الوحى لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب وهو من أمة أمية ، فلولا أنه نبي ما كان له أن يعرف ذلك ، وسيأتى بيان اختصام الملأ الأعلى .

وروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، أن الضمير فى قوله : « هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ » راجع إلى القرآن ، ويدخل فيه ماذكر فى الرأى السابق دخولًا أوليًّا ، واختار هذا الرأى بعض الأجلة ، ويرشحه ماجاء فى أول السورة من قوله – تعالى – : (وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

وعلى أى حال فالكلام بجملته تحسير للمشركين ، وتنبيه على مكان الخطأ منهم ، وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذى يقتضيه مقام الدعوة .

والمراد بالملأ الأعلى : الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا فى السماء ، فالعلو حِسِّىٌّ ، وكان اختصامهم وتقاولهم فى شأن السجود لآدم ، وسيأتى بيان ذلك قريبًا فى قصة آدم .

٧٠ – (إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

إن : نافية بمعنى ما ، أى : مايوحى إلىَّ حال الملإ الأعلى ، وما يوحى إلىَّ من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم – مايوحى إلىَّ ذلك – إلّا لأنى نذير مبين من جهته تعالى .

ويصح أن يعود الضمير فى (يوحى) إلى القرآن الكريم الذى اشتمل على ما تقدم وأعجز البُلغاء ببلاغَتِه وغيرها من فنون إعجازه .

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(لِلْمَلَآئِكَةِ) : هم أجسام نورانية قادرة على التشكل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(بَشَرًا مِّن طِينٍ) : هو آدم – عليه السلام – .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) : هذا فى البلاغة يسمى تمثيلا ، فلم يكن هناك نفخ ، ولا منفوخ ، والمقصود : منحته الحياة ببث الروح فيه ، وإضافة الروح إلى الله من إضافة المملوك إلى مالكه ، كقلمى وكتابى ، وليس من إضافة الجزء إلى الكل ، وسيأتى إيضاح أكثر فى التفسير .

(فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) أى : فاسقطوا له ساجدين تحية له .

التفسير

٧١–٧٤–(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى خَالِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

شروع فى بيان الاختصام والتقاول الذى جرى بين الملأ الأعلى ، فهو بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بدل كل من كل ، وصح إسناد الاختصام إلى الملائكة لأنه بمعنى القول الذى قالوه بشأن خلقه آدم ، وهو قولهم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[1] . وقد قالوا ذلك بعد قوله –تعالى– لهم : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) : راجع القصة فى تفسيرنا لها فى سورة البقرة .

والاختصام وقع بينهم ، وبين إبليس وآدم – عليه السلام – وهم الذين عُبِّر عنهم بالملإ الأعلى فى الآية السابقة ، لأنهم كانوا فى الجنة وقت الاختصام ، فالمقصود من العلو علو المكان لا علو المكانة والمنزلة ، وقد يقال : إن إبليس كانت له منزلة عليا لعبادته قبل أن

(١) سورة البقرة، من الآية : ٣٠

يطرده الله من الجنة لكبريائه وإبائه تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ، فقد كان يعبد الله ـ تعالى ـ مع الملائكة قبل غضب الله عليه ، والاختصام الذى وقع من إبليس قوله لله تعالى : « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا »[١] .

وما ترتب على طرده من الجنة ، من وعيده لآدم وذريته بالإغواء فيما حكاه الله ـ تعالى ـ فى سورة الأعراف بقوله : (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَاتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)) إلى غير ذلك من سائر قصته .

والاختصام الذى وقع من آدم هو إنباء الملائكة بأسماء المسميات المختلفة التى علمه الله إياها ، بعد أن عجزت الملائكة عن معرفتها بقولهم : (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[٢] .

ويلخص ابن كثير قصة آدم مع الملائكة وإبليس تعليقًا على ما جاء فى هذه الآيات بشأنها فيقول ما يلى :

هذه القصة ذكرها الله ـ تعالى ـ فى سورة « البقرة » وفى أول « الأعراف » ، وفى سورة « الحجر ، وسبحان ، والكهف » وها هنا ، وهى أن الله ـ سبحانه ـ أعلم الملائكة قبل خلق آدم ـ عليه السلام ـ بأنه ـ سبحانه ـ سيخلق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته أن يسجدوا له إكراماً له وإعظاماً واحتراماً لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فامتثل الملائكة سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسًا ، بل كان من الجن ، فخانه طبعه وجبلته ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه ، وادعى أنه خير منه ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك وخالف أمر الله وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحلِّ أنسه وحضرةِ قدسه ، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس ـ أى : يئس ـ من

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٦١

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٢

الرحمة ، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض ، فسأل الله النَّظِرَةَ إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) كما قال : (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)[1] وهؤلاء المستثنون فى الآية الأخرى ، وهى قوله - تعالى - : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)[2] . انتهى مع تصرف يسير .

وقال البيضاوى : إن قصة آدم اختصرت فى هذه السورة اكتفاء بما مرَّ فى سورة البقرة ، واقتصارًا على ما هو المقصود منها ، وهـــو إنذار المشركين على استكبارهم على النبى ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم - عليه السلام- ومن الجائز أن تكون مقاولة الله - تعالى - إياهم بواسطة ملك ، وأن يفسر الملأ الأعلى بما يعم الله والملائكة . انتهى بتصرف يسير .

وإضافة الروح إلى الله - تعالى- فى قوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى » من إضافة المملوك إلى مالكه ، وليس المقصود أنه جزء من روح الله تعالى ، بل المقصود تشريف الروح التى أفاضها الله على آدم وخلقها له ، وقد كفر النصارى فى تفسير إضافة روح عيسى إلى الله - تعالى - فى كتبهم ، بأنه جزء من روح الله ، فوصفوه بأنه ابن الله لذلك ، ثم تمادوا وتطاولوا فجعلوه هو الله - تعالى - وهم يجادلون المسلمين فيما جاء بالقرآن من نحو قوله - تعالى - : (وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا[3]) . وقد ضلوا بذلك سواء السبيل ، فإن معنى الآية : فنفخنا فيها مبتدئين النفخ من روحنا وهو جبريل - عليه السلام- بدليل قوله- تعالى - : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[4] ، وهو الذى سماه الله فى القرآن الروح الأمين فى قوله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)[5] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٦٢
(٢) سورة الإسراء : آية : ٦٥
(٣) سورة الأنبياء ، من الآية : ٩١
(٤) سورة مريم ، من الآية : ١٧
(٥) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ - ١٩٤

ثم يقال لهم : لو كان الأمر كما زعمتم فى الآية لوجب عليكم اعتقاد أن آدم جزء من روح الله ، حيث جاء فيه هنا : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) . ووجب أن لا تقصروا بنوة الله على عيسى وحده ، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا .

واعلم أن كل شيء فى هذا الكون مضاف إلى الله ، فالسماء سماء الله والأرض أرض الله ، وروح الإنسان روح الله ، أى : مملوكة له ، وداخلة تحت أمره ، فمتى يعقل هؤلاء الكافرون ؟ .

ومعنى هذه الآيات إجمالًا مع ما قبلها : ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون فى شأن آدم ، إذ قال ربك - أيها الرسول - للملائكة : إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا عدلت خلقته وصورته ، وأحييته بخلق الروح فيه فخروا له ساجدين تحية وتبجيلًا وامتثالًا لأمر الله - تعالى - .

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلَّا إبليس تعاظم وصار من الكافرين ، باستنكاره أمر الله - تعالى - واستكباره على المطاوعة .

قد يقول قائل : إن الأمر بالسجود لآدم كان موجهًا إلى الملائكة ، فكيف يعاقب إبليس على عدم السجود له وهو غير مأمور به ؟ .

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنه كان موجودًا بين الملائكة وليس منهم ، فإذا كان أشرف منه قد أمر بالسجود لآدم ، فإن عليه أن يسجد له مثلهم من باب أولى .

وثانيهما : أن من ينزل على قوم فلابد أن يخضع لتكاليفهم وقوانينهم ، وإلَّا فإنه يستحق الطرد ، لأنه مستوطن غير صالح للاستيطان .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أى : لمن خلقته بنفسى من غير توسط أب ولا أم .

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) : أتكبرت من غير استحقاق أم كنت ممن علا واستحق التفوق ، وللكلام بقية فى التفسير .

(رَجِيمٌ) : مطرودٌ من الرحمة .

التفسير

٧٥ – (قَالَ يَآإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) :

معلوم أنه –تعالى– لا يشبهه شيء لقوله –تعالى– : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فالتعبير باليدين فى خلق آدم ليس مرادًا به الحقيقة عند أهل التأويل من الخلف ، فهو عندهم كما قال الآلوسى : تمثيل لكون آدم – عليه السلام – معتنى بخلقه ، فإن من شأن المعتنى به أن يُعْمل باليدين ، والمقصود أنه خلقه بنفسه من غير توسط أب ولا أم ، وجعله جسمًا صغيرًا انطوى فيه العالم الأكبر ، وكونه أهلًا لأن يفاض عليه ما لا يفاض على غيره من مزايا الآدمية ، وعند بعض آخر من أهل التأويل : أن اليد مجاز عن القدرة ، والتثنية للتأكيد على مزيد عناية الله بخلقه ، حيث طوى فيه العالم الأكبر . انتهى بتصرف يسير .

وقال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له ، وإن كان خالق كل شىء ، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئًا بيده إلّا على سبيل الإعظام والتكريم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكيد والصلة أى : لما خلقت أنا[1] ، ثم قال القرطبي : وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى بالحمل الثقيل يدان ، ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلّا بالقدرة بالإجماع ، وقال الشاعر :

تَحمَّلْت مِن عفراء ما ليس لى به ولَا لِلجبال الراسِيات يدان

وقيل : (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) : لما خلقت بغير واسطة . انتهى كلام القرطبي بتصرف يسير .

ومعنى : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ؟) أتكبرت من غير استحقاق ، أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ وقيل معناه : أحدث لك الاستكبار ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ، فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه ، وعلى الثانى باعتبار الحدوث والعدم ، ولذا قيل : أم كنت دون أم أنت[2] .

والمعنى الإجمالى للآية : قال الله – تعالى – لإبليس على لسان ملك : أى شىء منعك من أن تسجد لمن خلقته بنفسى بغير توسط أب وأم ، عناية بخلق من طويت فيه العالم الأكبر ، أتكبرت من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ .

٧٦ – (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) :

هذا جواب الاستفهام الأخير (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)[3] يعنى أنه من العالين حقيقة ، وليس متصنعًا للعلو ، فهو مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار – فى نظره – أشرف من الطين وأعلى منه ، فكيف يسجد الأعلى للأدنى .

---

(١) ومثل له بقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك) أى ويبقى ربك .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) وهو فى نفس الوقت متضمن للجواب على الاستفهام الأول « ما منعك أن تسجد » .

٧٧ ، ٧٨ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ) :

قال الله لإبليس ردًّا على كبريائه على آدم ، وتكبره على تنفيذ أمر خالقه : اخرج من الجنة التي أنت فيها ، أو من صورة المتقين التي كنت فيها إلى صورة العصاة الممقوتين ، فإنك مطرود من كل خير ، فالرجم كناية عن الطرد ، لأن المطرود يرجم بالحجارة ، أو : اخرج منها فإنك شيطان يرجم بالشهب ، أو : الرجم كناية عن الذلة ، وهذا وجه حسن ، ليوافق قوله -تعالى- فى سورة الأعراف : (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[1] وإن عليك إبعادى عن الرحمة إلى يوم الجزاء والعقوبة حيث تلقى يومئذ عاقبة طردك من رحمتى .

ويرى ابن عباس : أن الجنة التى كان فيها روضة فى عدن وليست جنة الخلد ، وبهذا الرأى أخذ كثير من العلماء[2] ، وعلى هذا يكون المراد من إخراجه منها : إخراجه من صورة المتقين إلى صورة المردة العصاة ، ويدل على ذلك أنه وسوس لآدم فيها حتى حمله على الأكل من الشجرة ، والله أعلم .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(رَبِّ فَأَنظِرْنِي) : رب فأمهلنى .

(يُبْعَثُونَ) : آدم وذريته .

(إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : إلى يوم الوقت الذى عينته لفناء الخلق .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٣

(٢) حيث قالوا : إنها جنة فى الأرض، بدليل أن آدم لما خلق من تراب الأرض لم يرد أنه رفع إلى جنة السماء.

التفسير

٧٩ ـ ٨١ ـ (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أراد إبليس اللعين أن لا يموت ، بأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث ، فلم يجبه الله إلى ذلك ، وأخره إلى الوقت المعلوم لله ـ تعالى ـ وحده ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخر إليه تهاونا به ، وإمهالًا له .

والمعنى: قال إبليس : رب فأخرنى إلى يوم يبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء ، يريد بذلك الحصول على وعد ببقائه دون أن يلحقه الموت الذى قضى به على سواه ، قال الله له : إنك من جملة المؤخرين الذين قضيت أزلا بتأخير موتهم إلى يوم الوقت المعلوم لى وحدى ، لحكمة أردتها ، وهذا اليوم هو يوم النفخة الأولى التى يصعق فيها الخلائق .

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥))

المفردات :

(فَبِعِزَّتِكَ) : فبسلطانك وقهرك (لَأُغْوِيَنَّهُمْ) : لأغرينهم بالمعاصى .

التفسير

٨٢ ، ٨٣ ـ (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

قال إبليس لما سمع وعيده باللعنة إلى يوم الدين : إذا كان عقابى ما ذكر فبسلطانك وقهرك لأزينن المعاصى لآدم وذريته أجمعين ، إلّا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم من الغواية ، فلن يتأثروا بغوايتى .

٨٤ - ٨٥ (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) :

قال الله متوعدًا إبليس : فالأمر الثابت ولا أقول سوى الحق . والله لأملأن جهنم من جنسك وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين .

(قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) : من المتصنعين .

(ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) : تذكير ووعظ لهم .

التفسير

٨٦ - ٨٨ - (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) :

قل أيها الرسول لأمتك : ما أسألكم على تبليغ القرآن والوحي أي أجر حتى تكذبوني من أجله ، فلم أطلب الملك ، ولا الزعامة ، ولا المال حتى تبتعدوا عني ، وتناوئوني ، وما أنا من المتصنعين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة وأتقول القرآن ، فما عرفتموه من سيرتي قبل النبوة يشهد لي بالصدق فيما دعوتكم إليه ، ما القرآن إلا تذكير ووعظ للعالمين من الإنس والجن ، والله لتعلمن نبأه من الصدق بعد حين ، حين ينتشر الإسلام ويدخل الناس فيه أفواجاً ، وعندما تموتون وحين تبعثون ، حينئذ تندمون ولات ساعة مندم .

سورة الزمر

مكية وآياتها خمس وسبعون

وتسمى سورة الغرف لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) وهى مكية كلها ، أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل : عن ابن عباس : أنها نزلت بمكة ولم يستثن .

ووجه اتصال أولها بآخر (ص) أنه – تعالى – قال فى آخر (ص) : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) وقال هنا : (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ) قال الآلوسى : وفى ذلك كمال الالتئام بحيث لو أسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ، ثم إنه ذكر آخر (ص) قصة خلق آدم وذكر فى صدر هذه قصة خلق زوجه منه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر – سبحانه – القيامة والحساب ، والجنة والنار ، وختم بقوله – سبحانه – : (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فذكر – جل شأنه – أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة قبلها ، وبين السورتين أوجه أخرى من الربط تظهر بالتأمل : انتهى كلام الآلوسى .

مقاصد السورة

بين الله – تعالى – فى هذه السورة أنه هو الذى أنزل الكتاب بالحق وطلب إلى عباده أن يخلصوا له العبادة ولا يشركوا به أحدًا ، وبين أنه لو أراد أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء – سبحانه – هو الله الواحد القهار ، وأتبع ذلك ببيان خلقه للسموات والأرض . . وما فيهما من الآيات الشاهدة بوحدانيته ، وأنه خلق عباده كلهم من نفس واحدة ، وبين أنه لا يرضى لعباده الكفر ، ولكنه يرضى منهم الشكر ، وفرق بين العلماء وغيرهم فقال : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم خوف المشركين من سوء المصير بقوله : (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) وبشر الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وكانوا يستمعون

القول فيتبعون أحسنه (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم بين أنه تعالى : (نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) وأنه ضرب للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، وأنه لايوجد أظلم ممن كذب على الله ، وكذب بالصدق إذ جاءه ، ثم بين أنهم يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ، فلا وجه لعبادتهم غيره ممن لا يرفع ضرًّا ولا يجلب نفعاً ، ثم بين أنه – تعالى – هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، وأنه (إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) ثم فتح الله –تعالى– أبواب الرحمة لجميع التائبين من الكفار والعصاة فقال : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . .) ثم قال : (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ثم بين أن الذين كذبوا على الله تسود وجوههم يوم القيامة ، ومصيرهم جهنم ففيها مثوى المتكبرين ، وأنه – تعالى – ينجى الذين اتقوا بمفازتهم من العذاب (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ثم بين أن المشركين ما قدروا الله حق قدره (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ثم قال : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) ثم بين أن الأرض يومئذ تشرق بنور ربها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) . ثم ذكر أن خزنة النار يوبخون أهلها قائلين : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وأن الذين اتقوا يساقون إلى الجنة زمرا (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) ثم قال : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾)

المفردات :

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ) : خبر لمبتدأ مقدر ، أى هذا تنزيل الكتاب ، أو مبتدأ خبره « مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » وهو على الأول متعلق بتنزيل ، والظاهر أن الكتاب على الأول مراد به السورة ، وعلى الثانى القرآن كله .

(زُلْفَى) أى : قربة ومنزلة ، وهى اسم مصدر من أزلفه إزلافاً أى : قربه تقريباً .

(كَفَّارٌ) : مبالغ فى الكفر .

(لَاصْطَفَى) : لاختار .

(الْقَهَّارُ) : الشديد القهر ، يَغْلِب ولا يُغْلَب .

التفسير

١ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآية نزلت لإحقاق الحق ، والرد على مزاعم قريش من أن القرآن من تأليف محمد وأنه يعلمه بشر .

والمعنى : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب الحكيم فيما يقول ، وأثر الغلبة والحكمة واضح فى القرآن العظيم ، فقد أعجز البشر أن يأتوا بمثله ، وغلبت أحكامه وتشريعاته سواه ، لما اشتمل عليه من الدقة والصدق ، ومراعاة مصلحة البشر دنيا وأخرى ، وكل ذلك شاهد بأنه من الله العزيز الحكيم ، وليس فى قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، وقد أكد الله نزوله من العزيز الحكيم بقوله :

٢ - (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) :

إنا أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن ملتبسًا بالحق أو بسبب إظهار الحق وتفصيله ، فاعبد الله أنت ومن آمن معك :اعبده مخلصًا له الدين ، فلا تشرك معه فى العبادة أحدًا ، فإنه لارب سواه .

وقد دَلَّ الأمر بإخلاص الدين لله على وجوب تجريد العبادة من كل شرك ، ففى الحديث القدسى : « من عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » .

وروى الحسن :عن أبى هريرة أن رجلًا قال : يارسول الله ، إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لايقبل الله شيئًا شورك فيه » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : (أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) .

ونقل القرطبى عن ابن العربى : أن هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافًا لأبى حنيفة ، والوليد بن مسلم ، فإنهما يقولان : إن الوضوء يكفى من غير نية . قال ابن العربى : وما كان ليكون من الإيمان شطرًا ، ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

٣ـ (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) :

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ، ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ، قال الكلبي : جوابه فى سورة الأحقاف : (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً)[1].

وجملة (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) مقول لقول مقدر ، أى : قالوا : ما نعبدهم وبه قرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد .

ومعنى الآية : ألا لله الطاعة الخالصة من شوائب الشرك ، فإنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر ، والذين اتخذوا من دون الله أربابًا ونصراء ، قالوا فى تبرير عبادتهم لهم : ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله تقريبًا ، يقولون ذلك مع أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، إن الله يحكم بينهم وحده يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون مع أهل الحق ، فيقضى بإدخال أهل الحق الجنة ، وأهل الباطل النار .

وقيل المعنى : يحكم بينهم وبين معبوديهم ، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم ، إن الله لا يوفق من هو كاذب كفار إلى الاهتداء للحق ، لإصراره على الكذب ، ومبالغته فى الكفر .

٤ ـ (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

هذه الآية للرد على من زعم أن الملائكة بنات الله ، وأن عيسى ابن الله .

وحاصل معنى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا ويسميه بهذا الاسم ما جعل هذه التسمية لهم ، وكان يصطفى مما يخلق ما يشاء ويسميه بهذا الاسم ، لكنه لا يصطفى من المخلوق الحادث ولدًا لاستحالة الولدية عليه ـ تعالى ـ ولأن الحادث لا يصلح ولدا للقديم ، وحيث بطلت الولدية للحادث ، فيستحيل على الله أن يريد اتخاذ الولد ، وهذا معنى ما يقوله علماء المنطق : إذا بطل التالى بطل المقدم .

(١) سورة الأحقاف من الآية : ٢٨

ونحو هذا المعنى قال الآلوسى : وجوز أن يكون المعنى فى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لجعل المخلوق ولدًا ، إذ لاموجود سواه إلا وهو مخلوق له ـ تعالى ـ والتالى محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق ، والولدية تأبى هذه المباينة[1] فالمقدم مثله ، ويكون معنى (لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) لاتخذه ابناً على سبيل تقدير المستحيل . . . انتهى بتصرف .

ثم ختم الله الآية بقوله : (سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) تنزيهاً له ـ تعالى ـ عن أن يتخذ ولدًا أو شريكاً فى الألوهية ، هو الواحد القهار الذى لا يشركه فى الألوهية شريك ، فلا يصلح ما سواه أن يكون له ولدًا ، فإنه مخلوق لله ، والمخلوق لا يسمى ولدًا لخالقه ، ولايصلح لذلك ، فضلا عن أن يكون له شريكاً ، والقهارية المطلقة تنافى قبول الزوال المحوج إلى الولد أو الشريك .

(خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾)

---

(١) لأن الولد صنو أبيه وشريكه فى صفاته .

المفـردات :

(بِالْحَقِّ) : بالحكمة والصواب .

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) أى : يلفُّه فيخفيه ، من : كَار العِمامةَ وكوَّرها على رأسه إذا لفَّها [1] .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : وذلَّلَهما لمراده .

(كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : كل يسير لمنتهى دوره ، أو لمنقطع حركته .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) : حواء ، وسيأتِى الكلام فى هذا الجعل .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز ، وكانت ثمانية أصناف ، لأن كُلاًّ منها ذكر وأنثى ، وإنْزَالها قضاؤُها .

(فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) : ظُلُمات البطن ، والرحم ، والمشيمة .

التفسير

٥ - (خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

هذه الآية مسوقة لإثبات وحدانية الله وقهره لما سواه ، والمراد من تكويره الليل على النهار وعكسه : أن يُذْهِب أحدهما ويأْتى بالآخر ليحل محله ، وقد عبر عن ذلك بالصورة البلاغية الموجودة فى الآية على سبيل الاستعارة ، فاطلب شرح ذلك من المطولات إن أردت .

ومعنى الآية : خلق الله هذا العالم المشاهد وغير المشاهد ، ملتبساً بالحق والحكمة والصواب ، يغشى الليل مكان النهار ، فتحل به الظلمة ، فيسكن الناس وينامون ويستريحون من كدِّ النهار ، ويغشى النهار مكان الليل ، فيحل به النور ، فينشط الخلائق ويعملون لما خلقوا من أجله ، وسخر الشمس والقمر حيث جعلهما يجريان فى مداريهما ، فيترتب على تذليلهما وجود النهار تارة ، والليل تارة أُخرى ، والفصول الأَربعة : الربيع ،

(١) أو من كور المتاع : ألقى بعضه على بعض .

فالصيف ، فالخريف ، فالشتاء ، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا الجريان لأجل سماه الله – تعالى – لانتهاء دورة كل منهما فى مداره ، أو لانقطاع حركته عند فناء العالم ، ألا هو العزيز القادر على عقاب المصرين على الكفر والمعاصى ، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

٦ – (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) :

وهذا دليل آخر على وحدانية الله وقهره لسواه ، وَتَرْكُ عطفه على خلق السموات والأرض ، للإيذان باستقلاله فى الدلالة على وجود الله وسائر كمالاته .

والمراد بالنفس الواحدة التى خلقنا منها : نفس آدم – عليه السلام – فقد خلقت منه زوجه ، ثم حدث التوالد بعد ذلك على النحو المعلوم ، وبدأ بخلق الإنسان ، لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره ، باعتبار مافيه من العقل وقبول الأمانة الإلٰهية وغير ذلك حتى قيل فيه :

وتزعم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واختلف فى معنى خلق حواء من آدم ، فمعظم العلماء على أنها خلقت من قصيرى ضلعه اليسرى وهى أسفل الأضلاع ، وقيل : إنه بمعنى أنها خلقت من جنسه ليسكن إليها ، وقيل : إنها خلقت من بقية طينته ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) فهو استدلال بنوع آخر من العالم السفلى ، والأنعام هى : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، وكانت ثمانية أزواج أى : أصناف ، باعتبار الذكر والأنثى فى كل منها ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ »[1] ، ومعنى إنزال هذه الأنعام الثمانية قضاؤها ، وإنزال الملائكة لتنفيذه ، فالكلام على سبيل المجاز .

---

(١) سورة الأنعام، من الآيتين : ١٤٣ – ١٤٤

وأما قوله -تعالى- : (يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ . .) فهو بيان لخلق مَنْ ذكر من بنى آدم والأنعام .

والمعنى الإجمالى للآية : خلقكم من نفس واحدة هى نفس آدم ، خلقها أولا ثم جعل من جنسها زوجها ليسكن إليها ، وقضى لكم من الأنعام ثمانية أصناف : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، ذكورها وإناثها ، يخلقكم ، ويخلق الأنعام خلقاً مدرجاً ، خلقاً من بعد خلق ، حيواناً سويًّا مِنْ بعْدِ عظام مكسوة باللحم مصورة داخل الرحم ، مِنْ بعْدِ مُضَغٍ ، من بعد علق ، من بعد نُطَف ، ويتم كل ذلك فى ظلمات ثلاث ، ظلمة البطن ، وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، أو الصلب ، والرحم ، والبطن ، ذلكم الذى أبدع هذه العظائم هو الله ربكم المستحق وحده لعبادتكم ، له الملك على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ، ليس لغيره شريك فى ذلك كله ، لا إله إلَّا هو ، فكيف تصرفون عن عبادته مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء الصارف عنها - كيف تصرفون - إلى عبادة غيره مع كثرة الصوارف عن هذا الغير .

(إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) : ولا تحمل نفس حاملة إثمها ذنب نفس أخرى ، وقال الأخفش :

لا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى : ا هـ . وفى معناه قوله -تعالى- : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[1] :

---

(١) سورة الطور من الآية : ٢١

التفسير

٧ - (إن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يخاطب الله عباده المصرين على الكفر بقوله : إن تظلوا على كفركم ، فإن الله غنى عنكم وعن إيمانكم ، وقد جاء فى الحديث القدسى أنه - تعالى - قال : « يا عِبادِى لَوْ أنَّ أولَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُمْ وجنَّكُم كانُوا علَى أفْجرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلكَ مِنْ مُلْكِى شيئا » أخرجه الإمام مسلم .

ومع كونه - تعالى - غنياً عن إيمان عباده ، وغير محتاج إليه ، ولا إليهم ، فإنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحبه لهم لسوء عاقبته ، وما قدره عليهم إلا لسوء اختيارهم وإصرارهم عليه ، وإن تشكروا نعمه عليكم بالإيمان والعمل الصالح فإنه - تعالى - يرضاه ويحبه لكم لحسن عاقبته .

ولا تحمل نفس آثمة بعملها إثم نفس أخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، مالم يتسبب فى إثم النفس الأخرىٰ ، كالآباء الذين يسيئون تربية أولادهم ، فينشئون على المعاصى مثل آبائهم ، فإنهم يتحملون إثم إضلالهم منضما إلى إثم ضلالهم ، من غير أن ينقص ذلك من إثم الأولاد المكلفين شيئاً ، فكلٌّ مسئول عن ضلاله ، وفى وجوب وقاية الأولاد من المعاصى التى تدخلهم النار ، يقول الله تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَآئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] .

ويختم الله الآية منذرًا ومتوعدًا بقوله : (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : ثم إلى الله - تعالى - رجوعكم بالبعث والنشور ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى دنياكم من خير فيثيبكم عليه ، أو شر فيعاقبكم عليه إنه عليمٌ بما انطوت عليه الصدور من النوايا والأسرار من طاعة أو معصية فلا تخفى عليه خافية .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٦

* (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ) أى : شدة من البلاء والفقر .

(مُنِيبًا إِلَيْهِ) أى : راجعا إلى الله منصرفا عما كان يدعوه من دون الله - عز وجل -

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ) أى : أعطاه وملكه نعمة عظيمة من لدنه يقال : خولك الله الشىء ، أى : أعطاك إياه . والأصل أعطاك خَوَلًا - بفتحتين - أى : عبيدا وخدما . أو أعطاك ما تحتاج إلى تعهده والقيام عليه . ثم عُمِّم لمطلق العطاء .

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) القانت : المطيع ، قاله ابن مسعود . وفى القاموس : أقنت : دعا على عدوه ، أو أطال القيام فى صلاته .

(ءَانَآءَ اللَّيْلِ) : ساعاته أوله ووسطه وآخره ، وعن ابن عباس : آناء الليل : جوفه .

التفسير

٨ - (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) :

الآية وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى : « إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ »[1] .

واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر . وقيل : المراد به معين وهو عتبة ابن ربيعة ، وأبو جهل ، أى : وإذا مس الكافر بلاء ونزلت به شدة دعا ربه راجعا إليه ، منصرفا عما كان يدعوه من دون الله فى حال الرخاء لعلمه أنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره .

« ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ » أى : إذا أعطاه نعمة عظيمة من لدنه أذهبت عنه شدته ، وأعـادت إليه رخاءه ، نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه . أو نسى الدعاء الذى كان يتضرع به من قبل التخويل والإعطاء . (فما) واقعة على الضر أو على الدعاء الذى كان يتضرع به . ويجوز أن يراد من لفظ (ما) فى قوله : (نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ) أن يراد بها الله - تعالى - كما فى قوله - سبحانه وتعالى - : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » وقوله : « وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ » أى : نسى ربه الذى كان يدعوه متضرعا إلى كشفه .

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ) : وجعل لله أمثالا وشركاء فى العبادة فى حال العافية .

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا) أى : قل يا محمد تهديدا لذلك الذى جعل لله أندادا : تمتع بكفرك تمتعاً قليلا أو زمانا قليلا فى الدنيا (إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) أى : ملازميها والمعذبين فيها على الدوام . والجملة تعليل لقلة التمتع . وفيه من الإقناط من النجاة وذم الكفر ما لا يخفى . كأنه قيل : قد أبيت ماأمرت به من الإيمان والطاعة . فاستمتع بهذا الكفر الذى أنت فيه تمتعاً قليلا لا ينجيك من عذاب الآخرة فمتاع الدنيا قليل .

٩ - (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ) :

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤

بين -سبحانه- بهذه الآية أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره فلا يستويان عند الله «وأم» المدغمة إما متصلة قد حذف قبلها ما يقابل ما بعدها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه . كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به : أأنت أيها الكافر الذى تدعو ربك فى الضراء وتنساه فى السراء أحسن حالا ومآبا ، أم الذى هو قانت يقوم بمواجب الطاعات ، ويداوم على وظائف العبادات فى ساعات الليل التى فيها العبادات أقرب إلى القبول ، وأبعد عن الرياء ، ويدعو فى حالتى السراء والضراء (سَاجِدًا وَقَآئِماً) أى : جـامعا بين الوصفين المحمودين . وتقديم السجود على القيام لأنه أدخل فى العبادة لحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

(يَحْذَرُ الآخِرَةَ) : استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله ، فكأنه قيل : ما باله يفعل هذا ؟ فقيل : يحذر الآخرة . أى : عذاب الآخرة (وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ) فينجو بذلك مما يحذر ، ويفوز بما يرجوه وهو الجنة كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية . مع الإضافة إلى ضمير الراجى . وجواب هذا الاستفهام أن المطيع هو الأحسن حالا ومآلا .

وإما أن تكون (أم) منقطعة وما فيها من الإضراب الانتقالى من التهديد بقوله تعالى : (تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ النَّارِ) إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل : بل الذى هو قانت من أصحاب الجنة .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) أى : قل لهم يا محمد - بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل - : هل يستوى الذين يعلمون حقائق الأحوال فيعملون بمقتضى علمهم كالقانت المذكور ، والذين لا يعلمون ما ذكر فلا يعملون ؟ كلاً لا يستوون والاستفهام للتنبيه على كون الأولين فى أعلى مدارج الكمال . وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر .

قال الزجاج : كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى فهو وارد على سبيل التشبيه ، أى : كما لايستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به ، وارد من جهته – تعالى – بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم ولا يتعظ بوعظ الله وبياناته الواضحة إلا أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل من المؤمنين . وهؤلاء بمعزل عن ذلك .

(قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾)

(اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) : احذروا معاصيه وامتثلوا أوامره .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال الأوزاعى : لا يوزن لهم ولا يكال وإنما يغرف لهم غرفاً لصبرهم على كل بلاء . ويشمل الصبر على الهجرة شمولا أوليا .

التفسير

١٠ – (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ...) الآية :

أمر الله رسوله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب . أى : قل لهم هذا بعينه وهو (اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به وهو التقوى فإنَّ نَقْلَ عبارة أمر الله – تعالى – أدخل فى إيجاب الامتثال به .

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ» تعليل للأمر بالتقوى ، أو لوجوب الامتثال به أى : قل للمحسنين فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص ، وهو الذى عبر عنه رسول الله ﷺ حين سئل عن الإحسان بقوله – عليه السلام – : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنك تَراهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنهُ يَراك » .

لهؤلاء المحسنين حسنة فى الآخرة عظيمة لا يدرك كنهها وهى الجنة ، وقيل المعنى : للذين أحسنوا فى الدنيا . حسنة فى الدنيا زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة ، قال القشيرى : والأول أصح لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

ويقول القرطبى تعليقاً على ذلك : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن ، وفى الآخرة الجزاء الحسن .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) أى : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى . وقيل المراد : أرض الجنة رغبهم فى سعتها ، وسعة نعيمها ، والجنة قد تسمى أرضاً ، قال تعالى : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» [1] والأول أظهر فهو أمر بالهجرة (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) ترغيب فى التقوى المأمور بها ، أى : إنما يوفى الذين صبروا على دينهم ، وحافظوا على حدوده ، ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه حين امتحنوا بالآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ، ومفارقة الأوطان . هؤلاء يوفون أجرهم بمقابلة ما كابدوا من الصبر ، يوفونه بغير حساب ، والمراد المبالغة فى الكثرة وهــو المقصود بقول ابن عباس : « لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يُعرف » أى : بغير تقدير .

ولأهل البلايا نصيب أوفر فنى الحديث أنه « تنصب الموازين لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلايا ، بل يصب عليهم الأجر صباً حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٧٤

وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة التقوى مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها واحتمال البلايا فى طاعة الله .

(قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) أى : من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك .

(أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) أى : أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وأسلم لله ، وآمن به .

(مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) أى : طاعتى وعبادتى .

(فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ) : أمر تهديد وتوبيخ ، أى : ستلقون حتما جزاء كفركم (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) عن ابن عباس : ليس من أحد إلا خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) أى : الواضح الظاهر .

(لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ)أى : لأولئك الخاسرين طبقات كثيرة من النار فوقهم كهيئة الظلل : جمع ظلة ، وأصلها : السحابة تظل ماتحتها .

(وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) : وسمى ما تحتهم ظللا لأنها تظل من تحتهم[1] والمراد أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجوانب .

التفسير

١١ - (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) :

أمر رسول الله ﷺ ببيان ما أمر به من الإخلاص فى عبادة الله -عز وجل- الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون .

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله - تعالى - .

١٢ - (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) :

أى : وأمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له لأجل أن أكون مقدم المسلمين فى الدنيا والآخرة . وكذلك كان ﷺ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها وأسلم لله وآمن به ، ودعا إلى عبادته ، وكان له إحراز السبق فى الدين بالإخلاص فيه ، وإخلاصه - عليه الصلاة والسلام - أتم من إخلاص كل مخلص ، فلم تكن له صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون .

١٣ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى : قل يا محمد لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك ، وذلك أن كفار قريش قالوا له -عليه الصلاة والسلام - : ألا تنظر إلى أبيك وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فنزلت

---

(١) أو هو من قبيل المشاكلة .

ردا عليهم . أى : قل إنى أخاف ترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ، أوالميل إلى أى شىء من المعاصى ؛ لأنى أخاف (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة ، ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والأهوال . والمقصود تهديدهم والتعريض لهم بأنه -عليه الصلاة والسلام - مع عظمته لو عصى الله - تعالى - ما أمن العذاب فكيف بهم .

١٤ - (قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) :

أى قل لهم : أعبد الله لا غيره -سبحانه - لا استقلالا ولا اشتراكا ، مخلصاً له دينى عن الشرك الظاهر والخفى ، أو مخلصا له دينى بعبادته - سبحانه - لذاته من غير طلب شىء منه - تعالى - كقول رابعة : سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك .

أمر - عليه الصلاة والسلام - أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة الله - تعالى - بإخلاص الدين له ، ثم الإخبار بخوفه من العذاب على تقدير عصيانه . ثم الإخبار بامتثاله الأمر على أبلغ وجه وآكده إظهارا لتصلبه ﷺ فى الدين . وحسما لأطماعهم الفارغة فى الرجوع إلى دينهم ، وتمهيدا لتهديدهم بقوله - عز وجل - :

١٥ - (فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

بدأت الآية بأمر تهديد ووعيد وتوبيخ : (اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ) أى : فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دون الله ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب .

ولكونه أمر تهديد عقبه بقوله : (قُلْ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) : أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخاسرين الكاملين فى الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه الذى هو عبارة عن إضاعة ما يهمهم ، وإتلاف مالا بد منه هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم باختيارهم الكفر لهما فأضاعوهما وأتلفوهما يوم القيامة حين يدخلون النار ،حيث عرضوهما للعذاب السرمدى ، وأوقعوهما فى هلكة ما بعدها هلكة ، والمراد بالأهل الأتباع الذين أضلوهم وقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وقيل المراد بالأهل : من أعده الله - تعالى - لمن

يدخل الجنة من الحور العين أى : خسروا أهليهم الذين يكونون لهم فى الجنة لو آمنوا فبعدم إيمانهم ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعد الله ـ تعالى . له أهلا فى الجنة إن أطاعه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس أنه قال فى الآية : خسروا أهليهم من أهل الجنة وكانوا قد أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : جملة مستأنفة . وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة تنبيه إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر ، وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس ، وفى توسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته ، وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى ، حيث استبدلوا بالجنة نارا وبالدرجات دركات .

١٦ ـ (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) :

الآية : بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام ، أى : لهم من فوقهم أطباق بعضها فوق بعض من النار ، ومن تحتهم أطباق كثيرة بعضها تحت بعض وتسميتها ظللا للمشاركة والمراد : أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجهات ، والتعبير جار بظلل مجرى التهكم ، ولذلك قيل لهم : من فوقهم ظلل ... إلخ .

(ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) أى : ذلك العذاب الفظيع الذى يخوف الله به عباده ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليبتعدوا عما يكون سببا فى إيقاعهم فيه . ثم وعظهم ـ تعالى ـ عظة بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة فقال مناديا لهم : (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى عليكم ، وغضبى منكم حتى تتحقق عبوديتكم لى التى هى عنوان الرضا عنكم ، والتشريف لكم ، والمراد فى الآية المؤمنون لأنهم المنتفعون بالتخويف ، وعممه آخرون فى المؤمن والكافر . وقيل : هو خاص بالكفار .

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ) الطاغوت : هو البالغ أقصى غاية الطغيان ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد به : الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان ، ويجمع الطاغوت على طواغيت وطواغ .

(وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ) أى : رجعوا إليه وتابوا .

(لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) : الثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت ،وحين يحشرون والبشرى : اسم لما يعطاه المبشَّر .

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَـوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) : هم الذين يسمعون الحسن والقبيح فيتحدثون بالحسن ، ويكفون عن القبيح فلا يتحدثون به .

(وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) : أصحاب العقول السليمة .

التفسير

١٧- (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ) :

قال ابن إسحاق : نزلت فى عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص وطلحة ، والزبير - رضى الله عنهم - سألوا أبا بكر - رضى الله عنه - فأخبرهم بإيمانه وذكرهم بالله فآمنوا . وقيل : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وغيرهما ممن وحدوا الله -تعالى- قبل مبعث النبى ﷺ. والمراد بالطاغوت هنا : ما يعبد من دون الله . وقال الزمخشرى : لا يطلق لفظ الطاغوت فى هذه السورة على غير الشيطان ، وكل

من عبد غير الله - تعالى - فهو يعبد الطاغوت ، أى :الشيطان ؛ لأن عبادة غير الله عبادة له فهو الآمر بها ، والداعى إليها .

والمعنى : والذين باعدوا أنفسهم ،ونزهوها عن عبادة الطاغوت البالغ الغاية فى الطغيان .

(وَ أَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ) أى : أقبلوا إليه إقبالا كليا معرضين عما سواه (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) بالثواب ، وحسن العاقبة عند حضور الموت ،وحين يحشرون (فَبَشِّرْ عِبَادِ) أى : فبشر - أيها الرسول - عبادى الذين هم أهل للبشرى بالثواب ، وهم المعنيون بقوله - سبحانه - :

١٨ - (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) :

أى : هم الموصوفون باجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله بأعيانهم . على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نُقَّاداً فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران حرصوا على ماهو أقرب عند الله وأكثر ثوابا .

وقيل : هم الذين يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء . والإبداء والإخفاء لقوله تعالى : (وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)[1] (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)[2].

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، إلى غير ذلك مما قيل فى : القرطبى وغيره .

(أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ) لدينه ولما يرضاه ، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة (وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) أى : وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة عن منازعة الهوى ،ومعارضة الوهم لاغيرهم . وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله ، وقبول النفس لها .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٧

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٧١

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(كَلِمَةُ الْعَذَابِ) : إشارة إلى نحو قوله ـ تعالى ـ : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)[1] وقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ) أى : طبقات قد أعد بناؤُها قبل يوم القيامة .

(تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : مبنية على صورة يتأَتى معها جرى الأَنهار من تحتها لتكمل المتعة بها .

التفسير

١٩ـ (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ) :

بيان لأَحوال أَضداد السابقين على طريق الإجمال . وهؤُلاء هم عبدة الطاغوت ومتبعو كهنتها . والآية كما قيل : نزلت فى أبى جهل وأَضرابه وكان النبى ﷺ يحرص كل الحرص على إيمانهم ، وأَعلمه الله أن من سبقت له الشقاوة ، وحق عليه القضاء بأَنه من أَهل النار ، لايستطيع ﷺ أن ينقذه منها ويجعله مؤْمنا .

والمعنى : أأَنت مالك أَمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأَنت تنقذه ؟ أى : لايستطيع أَحد أن ينقذ من أَضله الله ، وسبق فى علمه أنه من أَهل النار ، لسوء اختياره ؛ لأَنه لايقدر على الإنقاذ إلا المالك القادر ، والهمزة للإنكار . أى : النفى .

---

(١) سورة ص الآية : ٨٥ .

والهمزة الثانية فى الآية هى الأولى كررت مع الجزاء لتوكيد معنى الإنكار . ثم وضع من فى النار موضع ضميرهم لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد ، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار ، وقد جعل اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعائهم إلى الإيمان وحرصه على إيمانهم ـ جعل ـ سعيا فى إنقاذهم من النار ، والآية تسلية للنبى ﷺ عن حزنه على كفرهم وإصرارهم عليه .

٢٠ ـ (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ) :

لما بيَّن ـ سبحانه ـ أن للكفار ظللا من النار فوقهم ، ومن تحتهم ، بيَّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف ، لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا . ولفظ (لكن) للانتقال من قصة إلى قصة أخرى مخالفة للأولى وليست للاستدراك : ذكر ذلك القرطبى .

والمعنى : أن الذين اتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى : (يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ) ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة ، وبأن لهم درجات عالية فى جنات النعيم ، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم ، أى : لهم علالى بعضها فوق بعض مبنيات محكمات عاليات . وحسبك إشارة إلى رفعة شأنها أن الله ـ جل شأنه ـ بانيها ، وماذا يقال فى بناءٍ هو من صنع مبدع السموات والأرض دون غيره ، تلك الغرف تجرى من تحتها الأنهار فتزيدها رونقا وبهاء من غير تفاوت فى العلو والسفل . وهى مهيأة ومعدة لهم ، قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة . وفى ذلك من تعظيم المتقين وعلو شأنهم مافيه .

روى الإمام أحمد بسنده : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلَانَ الْكَلَامَ ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ » .

(وَعْدَ اللهِ) مصدر مؤكد لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ . . . إلخ) فإنه وعد وأى وعد (لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ) مع الفريقين لاستحالته عليه ـ سبحانه ـ لما فى خلفه من النقص المستحيل عليه ـ عز وجل ـ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(اللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ) المراد بها : السحاب .

(فَسَلَكَهُ يَنَٰبِيعَ) أى : فأدخله فى عيون وأنهار من الأرض . يقال : سلكت الشىء فى الشىء أنفذته . والينبوع : عين الأرض ومجرى الماء ،جمعه ينابيع ،وفعله من باب قعد أو نفع . والمراد : أن الماء بعد هبوطه فى الأرض يخرج من العيون والأنهار .

(ثُمَّ يَهِيجُ) أى : يَصْفَرُّ . يقال : هاج البقل يهيج : اصفرَّ . ا هـ : مصباح .

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَٰمًا) أى : متكسرا ، يقال : حطم حطما من باب تعب فهو حَطِم إذا تكسر . ا هـ : مصباح .

(أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ) الشرح فى الأصل : البسط والمد للحم ونحوه ، ويكنى به عن التوسيع . قال ابن عباس : وسّع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو على هدى منه – سبحانه – .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) قال المبرد : يقال : قسا القلب إذا صلب . وقلب قاس . أى : صلب لايرق ولا يلين .

(مِن ذِكْرِ اللهِ) أى : من أجل ذكره – سبحانه – الذى حقه أن تلين منه القلوب .

التفسير

٢١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

الآية استئناف وارد : إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة زوالها ، وقرب اضمحلالها بما ذكر من أحوال الزرع تحذيرا من الاغترار بها ، وتنفيرا من التشبث بأذيالها ، بعد أن وصفت الجنة بما يرغب فيها ، ويشوق إليها ، وإما للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء ، وما يترتب عليه من آثار قدرته - سبحانه - وآيات حكمته ورحمته .

والمعنى : ألم تر أيها المخاطب أن الله أنزل بعظيم قدرته من السحاب ماء المطر أنزله بأسباب أرادها الله. فإن تصعيد الأبخرة من البحار بسبب حرارة الشمس وتكوين الغيوم ونحو ذلك من الأسباب الجوية التى أنشأها الله - جل وعلا - لإنزال المطر على الجبال والسهول والأودية ، وسائر الأنحاء ، أنزله - سبحانه - فأدخله فى مسارب وينابيع فى الأرض كالعروق فى الأجساد (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ) ثم يخرج الله بالمطر (زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) أى : أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أو مختلفا ألوانه المُدرَكَةُ بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما ، ويشمل الزرع المقتات للبشر وغيره (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) أى : يتم جفافه بعد أن انتقل فى أطواره نموا ونضارة فتراه بعد خضرته مصفرا (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أى : فتاتا متكسرا .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) إن فيما ذكر تفصيلا من إنزال الماء ، وإخراج الزرع لتذكيرا عظيما لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل ، وتنبيهًا لهم على حقيقة الحال ، يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام ، فلا يغترون ببهجتها ولايفتنون

بفتنتها ، أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف فى الجنة .

٢٢ - (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب .

فالصدر محل للقلب الذى هو منبع الروح ، وانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنور الله .

والمعنى : أَكُلُّ الناس سواء ؟ فمن شرح الله صدره واهتدى . أى : خلقه متسع الصدر مستعدا للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ،ولم يتغير بالعوارض السيئة المكتسبة (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو بموجب ذلك مستقر على نور عظيم من ربه ، وهو اللطف الإلهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات الكونية والتنزيلية والتوفيق بها إلى الاهتداء إلى الحق . وسئل رسول الله عن الشرح فقال : (إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفتحَ . فقيل : هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، الإنابةُ إلَى دارِ الخُلودِ ، والتجافِى عن دارِ الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت) .

أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره ، وقد استولت عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن الآيات بالكلية حتى لايتذكر بها ولا يغتنمها .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ) أى : من أجل ذكر الله الذى حقه أن تلين منه القلوب بمعنى : أنهم إذا ذكر الله عندهم أو آياته - عز وجل - اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة كقوله : (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) وكانوا أهلا للويل وسوء المصير .

وأسند الشرح إلى الله - تعالى - إيذانا بأنه على أتم الوجوه ؛ لأنه فعل قادر حكيم ، وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يقابل بالضيق ؛ لأن القساوة كما فى الصخرة الصماء تقتضى عدم قبول شىء بخلاف الضيق فإنه يشعر بقبول شىء قليل ،وذلك غير مقصود .

وإسناد القساوة إلى القلوب دون الصدور للتنصيص على فساد هذا العضو الذى إذا فسد فسد الجسد كله .

(أُوْلَٰئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) أى: أولئك البعداء الموصوفون بماذكر من قساوة القلوب فى بعد عن الحق ظاهر لايخفى كونه ضلالا على أحد .

والآية قيل : نزلت فى على وحمزة - رضى الله عنهما - وأبى لهب وابنه . وقيل : نزلت فى عمار بن ياسر ، وأبى جهل وذويه ، والمراد منها العموم فى كل من شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه ، وكل من زادته الآيات رجسا وقساوة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

(ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) المراد به : القرآن الكريم .

(مُتَشَٰبِهًا) : يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة وغير ذلك .

(مَّثَانِىَ) : جمع مُثَنًّى[1] بمعنى مُردَّد ومكرَّر من التكرير والإعادة لما كرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ويثنى للتلاوة فلا يمل .

(تَقْشَعِرُّ)أى : تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ) المراد بذكر الله : الإسلام وآية الرحمة ونحو ذلك .

---

(١) بضم الميم وتشديد النون مفتوحا ، وهو جمع له على غير قياس ، وقياسه مثنيات .

التفسير

٢٣ ـ (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

عن ابن عباس أن قوما من الصحابة قالوا : يارسول الله ، حدثنا بأحاديث حِسَان ، وبأخبار الدهر فنزلت ، وعن ابن مسعود : أن الصحابة ملُّوا ملَّة فقالوا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : حدثنا فنزلت إرشادا لهم إلى مايزيل مَلَلَهم وهو تلاوة القرآن الكريم واستماعه منه ﷺ غضا نضيرا .

والمعنى : أن الله نَزَّل أحسن الحديث ، وهو القرآن العظيم ـ نزله كتابًا متشابهاً ـ ، يشبه بعضه بعضا فى الصدق والحق والوعظ والحكمة والإعجاز واستتباع منافع العباد فى المعاش والمعاد وجعله مثانى [1] أى : مرددًا ومكرَّرا وكرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه .

وقيل : هو مثانى لأنه يثنى فى التلاوة فلا يَمل ، ووقوع مثانى وهو جمع صفة لكتاب وهو مفرد باعتبار تفاصيله ، وتفاصيل الشيء هى جملته ألا تراك تقول : إن القرآن سور وآيات ، وأسباع وأخماس . فكذلك تقول : هو أحكام ومواعظ وأقاصيص (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ، ولتقرير كونه أحسن الحديث ، ومن هيبته تقشعر منه جلود الذين يخشون الله حقَّ خشيته ، بمعنى تتقبض تقبضا شديدا . والمراد : إما بيان خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير ، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها بطريق التحقيق .

والمعنى : أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم ، وإذا ذكروا رحمة الله ـ تعالى ـ تبدلت خشيتهم رجاء ، ورهبتهم رغبة

---

(١) جمع مثنى بالفتح مخففا من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى : «فارجع البصر كرتين» . بمعنى كرة بعد كرة . وهذا رأى آخر غير الذى سبق .

وذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى : تلين ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته - تعالى - وإنما لم يصرح بها لأنها أول مايخطر بالبال عند ذكره - تعالى - لأصالته كما يرشد إليه خبر (سبقت رحمتى غضبى) وليس فى الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى ذكر رحمته - عز وجل - ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع وهو من الشيطان .

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالت : (كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرىء عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرىء القرآن عليهم خرّ أحدهم مغشيا عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط ، فقال : مابال هذا ؟ قالوا : إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم .وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق .

فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقتهم وضرب رءوسهم بالأرض عند سماع القرآن .

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى : ذلك الكتاب الذى شرحت أحواله هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء من عباده ، الذين علم منهم اختيار الاهتداء بتأمّله ، والاتعاظ بما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ، ودلائل كونه من عند الله - تعالى - .

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى : ومن يخلق - سبحانه - فيه الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء اختياره ، فليس له من أحد يهديه إلى الحق ليخلصه من ورطة الضلال .

وقيل : الإشارة فى قوله : (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ) إلى المذكور من الاقشعرار واللين أى : ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه ـ تعالى ـ يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ، ومن لم يؤثر فيه الهدى لقسوة قلبه ، وإصراره على فجوره ، فما له من هاد يؤثر فيه حتى يهتدى .

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ) : وهو الذى يرمى به مكتوفا فى النار ، فيتقى بوجهه العذاب الشديد ؛ لأنه أول شىء تمسه النار .

(وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ) أى : وتقول الخزنة للكفار : ذوقوا جزاء كسبكم من المعاصى وهو العذاب والنكال .

(فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ) أى : فأصابهم العذاب الدنيوى .

(مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) أى : من الجهة التى لا يخطر ببالهم إتيان الشر منها .

(فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ) يقال لكل ما نال الجارحة : قد ذاقته . أى : وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال المبرد : والخِزْى من المكروه والخَزَاية من الاستحياء .

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك .

التفسير

٢٤ - (أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدى والضال. وقد نزلت - كما قيل - فى أبى جهل .

والمعنى : أَكُلُّ الناس سواء ؟ فمن شأنه أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه - يتقى - به - العذاب السيء الشديد . كمن هو آمِن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى اتقائه بوجهه ، فالوجه على حقيقته .

ويشير هذا إلى أن الإنسان إذا لقى مكروهًا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه ، والذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلَّا بوجهه الذى كان يتقى المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه. قال عطاء ، وابن زيد : يرمى به مكتوفًا فى النار ، فأول شيء تمس منه النار وجهه ، وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار ، وجوز أن يراد من الوجه الجسم كله .

ويقال للظالمين من جهة الخزنة : ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ووضع المظهر فى مكان المضمر - فقيل للظالمين ، ولم يقل لهم - لتسجيل الظلم عليهم والإشعار بعلية الأمر فى قوله تعالى : (ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) وصيغة الماضى مع أن قول الخزنة مستقبل للدلالة على تحقق الوقوع .

٢٥ - (كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأُخروى .

والمعنى : كذب الذين من قبل قريش من الأُمم السابقة عليهم ، فأتاهم العذاب المقدر لكل أُمة منهم من الجهة التى لا يحتسبون ولا يدور بخلدهم إتيان الشر منها ، لأن ذلك أقسى على النفس وأشد إيلامًا لها .

٢٦ - (فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : فأذاقهم الله الذل والصغار بمعنى أنهما وصلا إليهم كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما ، ولعذاب الآخرة المعد لهم أكبر وأنكى مما أصابهم فى الدنيا لشدته وسرمديته.

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا لعلموا ذلك واعتبروا به.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِن كُلِّ مَثَلٍ) : يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه .

(غَيْرَ ذِى عِوَجٍ)أى : غير مختلف وهو قول ابن عباس . والعوج -بكسر العين وفتحها- مصدر عوج كتعب . قال ابن الأثير : إن مكسور العين مختص بما ليس مرئيًّا كالرأى ، والقول . والمفتوح مختص بما هو مرئى كالأجساد . وعن ابن السكيت : أن المكسور أعم من المفتوح ، واختار المرزوقى أنه لافرق بينهما .

التفسير

٢٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد ضربنا للناس فى هٰذا القرآن الرفيع الشأن من كل مثل يحتاجون إليه ، للنظر فى شئون دينهم ، بمعنى بينا لهم ذلك بضرب الأمثال كى يتذكروا بها ويتعظوا .

٢٨ - (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

أى : وأنزلناه قرآنًا عربيًّا سلم مبناه ومعناه لا اختلال فيه بوجه من الوجوه ولا انحراف.

ونفى مصاحبة العوج عنه يقتضى نفى اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من (غَيْرِ عِوَجٍ)

ولما كان العوج (بالكسر) يقال فيما يدرك بالعقل والبصيرة والعوج (بالفتح) يقال فيما يدرك بالحس، عبر بالأول ليدل على أنه أبلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجًا فضلا عن الحس .

(لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) : الكفر والكذب بترك الاختلاق عليه والشك فيه .

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مُتَشَاكِسُونَ) أى : شرسو الطباع .

(وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ) أى : خالصًا لسيد واحد .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : الحق فيتبعونه .

التفسير

٢٩ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

هذا مثلٌ من الأمثلة القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضرب الأمثال هو التذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى . والمراد هنا بضرب المثل تشبيه حالة عجيبة بأخرى مثلها.

والمعنى : ضرب الله للمشرك الذى يعبد آلهة كثيرة - ضَرَبَ لَهُ - مثلًا عبدًا مملوكًا لجماعة

متشاحنين يتجاذبونه ويتعاورونه لا يلقاه رجل منهم إلَّا جرَّه واستخدمه ، فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يُرضى واحدًا منهم بخدمته ، ولا يدرى على أيهم يعتمد فى حاجاته ولا أيهم يرضى بخدمته ، فهمُّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وضرب لمن يعبد الله وحده مثلا رجلًا خالصًا لفرد واحد ، وليس لغيره سبيل عليه ، وذلك الفرد يَعُولُه ويعرف له صدق بلائه ، فهو فى راحة من الحيرة وتوزع القلب .

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما ، ونفى له على أبعد وجه وآكده . وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ، أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ، كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد مع الله آلهة ، والمؤمن الذى لا يعبد إلَّا الله وحده لا شريك له .

والسر فى إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بين المثلين ، وتنبيه للموحدين على أن مَا لَهم من المزية بتوفيق الله – تعالى – وأنها نعمة جليلة تقتضى الدوام على حمده وعبادته أو الحمد لله على إقامة الحجة عليهم .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيقعون فى ورطة الشرك والضلال .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ) مع التشديد : من لم يمت وسيموت ، ومع التسكين : من فارقته الروح .

(تَخْتَصِمُونَ) أى : يتخاصم فيه الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم ، قاله ابن عباس وغيره .

يقال : اختصم القوم : خاصم بعضهم بعضًا . اهـ : مصباح .

التفسير

٣٠ - (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) :

تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة ، وهو خطاب للنبى - صلّى الله عليه وسلم - أخبره فيه - سبحانه - بموته . ويدخل معه مؤمنو أمته . والمقصود من الضمير فى «إنهم ميتون» الكفار . وقد احتمل خطابه كما قال القرطبى خمسة أوجه :

أحدها : أن يكون ذلك تحذيرًا من الآخرة .

الثانى : أنه ذكره حثًّا على العمل .

الثالث : أنه توطئة للموت .

الرابع : لئلا يختلفوا فى موته كما اختلفت الأمم فى غيره حتى أن عمر - رضى الله عنه - لما أنكر موته احتج أبو بكر - رضى الله عنه - بهذه الآية مع قوله : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) . . . الآية .

الخامس : ليعلمه أن الله – تعالى – سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة .

وفى البحر : لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر – سبحانه – بأن مصير الجميع بالموت إلى الله – تعالى – وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو – عز وجل – الحكم العدل فيميز هناك المحق من المبطل .

وقيل : كانوا يتربصون موت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبروا بأنهم جميعًا سواء بصدد الموت ، فلا معنى للتربص وشماتة الفانى بالفانى .

وتأكيد الجملة فى (إِنَّهُم مَّيِّتُونَ) للإشعار بأنهم فى غفلة عظيمة عن الموت ، وتأكيد الأولى دفعًا لاستبعاد موته – صلى الله عليه وسلم – .

٣١ – (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) :

يعنى تخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم قاله : ابن عباس وغيره .

وقيل : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد ، . أى : ثم إنك وإياهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ) أى : عند مالك أمركم (تَخْتَصِمُونَ) فتحتج عليهم بأنك بلغت ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات فكذبوا ولجوا فى المكابرة والعناد معتذرين بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، ويقول السادة : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وغلبت علينا شقوتنا .

وقال جَمْعٌ : المـــراد بذلك الاختصام العام فيما جرى فى الدنيا بين الأَنام لا خصوص الاختصام بينه - عليه الصلاة والسلام - وبين الكفرة الطغام .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن عساكر : عن إبراهيم النخعى قال : نزلت هذه الآية (إِنَّكَ مَيِّتٌ . . .) إلخ ، فقالوا : وماخصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان بن عفان قالوا : هذه خصومة مابيننا .

وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يارسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه . فقال الزبير : والله إن الأَمر لشديد ، وقال ابن عمر : لقدعشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد حتى رأيت بعضًا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت .

وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ،فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم « صفين » وشد بعضنا على بعض بالسيوف . قلنا : نعم هو هذا .

وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من كانت له مظلمة من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألَّا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فَحُمِل عليه ثم طرح فى النار » .

* (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالصِّدْقِ) : الذى هو عين الحق ، وهو ما جاء به النبى ﷺ ، وفى ذروته القرآن الكريم

(مَثْوًى) : مقام ومسكن ، من : ثوى بالمكان يثوى ثَواءً وثُويًّا إذا أقام به .

التفسير

٣٢- (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ، وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) :

ذكرت الآية السابقة تخاصم المشركين عند الله يوم القيامة ، إذ يقول النبى ﷺ لهم : إنى بلَّغت فكذبتم ، واجتهدت فى الدعوة فلججتم فى الخصومة والعناد ، فيعتذرون بما لا طائل تحته ، وجاءت هذه الآية بعدها بيانًا لحكم الله عليهم وعلى غيرهم من سائر المكذبين للرسل .

والمعنى : لا أحد أشد ظلمًا ، ولا أقبح افتراءً واختلاقًا ممن اجترأ على مقام الألوهية ، وكذَب على الله فادَّعى معه الشريك أو نسب له الولد ، أو غير ذلك من أنواع الشرك ، وَغَلَا فى هذا وتجاوز مفاجئًا من غير رويَّة ولا تأمُّل فكذَّب بالأمر الذى هو عين الحق ،

وذات الصدق واليقين ، مما جاء به رسول الله ﷺ من الدعوة إلى توحيد الله ، والقرآن الكريم الذى هو أقوى برهان ، وأصدق بيان ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وقوله تعالى : (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) بأسلوب الاستفهام الداخل على النفى لينفيه تقرير وتأكيد للجزاء الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، أى : أن فى جهنم مثوى لهم أى : مقامًا متسعًا ومسكنًا دائمًا خالدًا جزاء ما افتروا على الله - سبحانه - وما سارعوا إليه من تكذيب رسوله ﷺ .

ووضع الظاهر فى قوله : (لِلْكَافِرِينَ) موضع الضمير أى : (لهم) لتسجيل الكفر عليهم وتأكيد استحقاقهم للخلود فيها لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم .

٣٣- (وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) :

الذى جاء بالصدق وصدق به هو محمد - صلى الله عليه وسلم - كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، والمؤمنون داخلون بحكم التبعية له فهو إمامهم ، ولذلك أخبر عنه بقوله : (أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) . ومثل ذلك مثل دخول الجند فى الأمير بالتبعية فى قولك : نزل الأمير بموضع كذا ، أى : نزل وتبعه جنوده ، وقيل : هو على تقدير : والفريق الذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، وحمل بعضهم الموصول على الجنس ، والمراد به حينئذ الرسول والمؤمنون ، وأيد هذا الرأى بقراءة ابن مسعود (وَالَّذِينَ جَآءُواْ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُواْ بِهِ) :

والمعنى : ومحمد الذى جاء بالقرآن الحق ، وصدق به هو ومن آمن معه - أولئك الموصوفون بما ذُكِرَ - هُمُ المتقون أى : الذين وقوا أنفسهم من الشرك ومن مثوى المشركين .

٣٤- (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) :

هذه الآية بيان لما يستحقه المصدقون المتقون من الكرامة والمنزلة ، أى : لهؤلاء المتقين المصدِّقين لما جاء به الرسول ﷺ - لهم ما يشاءون عند ربهم - من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر وسائر أهوال يوم القيامة ، ومن خيرات الجنَّة ونعيمها ، وطيب المقام فيها بعد دخولها ، إلى جانب ما نالوه فى الدنيا من مختلف أنواع النعم .

(ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) أى : ذلك الذى ذكر من حصول ما يشاءون فى الدنيا والآخرة جزاءُ المحسنين الذين أخلصوا إيمانهم وأحسنوا أعمالهم .

ووضع المحسنين موضع ضميرهم للإشادة بحسن أعمالهم ، وإبراز فضلهم .

٣٥- (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

قول الله تعالى : (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ . . . الآية) متعلق بمضمون ما قبله .

والمعنى : وعدهم الله ما يشاءونه من دفع المضار ، ونيل المسارِّ ، وحسن العاقبة ، ليكفِّر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الأعمال التى عملوها وخافوا عقابها[1] وليجزيهم أكرم جزاء ، ويثيبهم أوفى ثواب بأحسن ما كانوا يعملون من الطاعات ، حيث يرفع درجة الحسن من أعمالهم إلى درجة أحسنها ، ويثيبهم عليه ثواب أحسنها .

(أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بِكَافٍ عَبْدَهُ) : بحافظ ومانع رسوله مِمَّا يخوِّفونَهُ به .

---

(١) وإذا كفر الله عنهم أسوأ الذى عملوه ، فإنه - تعالى - يكفر عنهم ما دونه من باب أولى .

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) : يحذرونك ويهددونك بضرر الأصنام .

(عَزِيزٍ) : غالب لا يُغالَب ، منيع لا يمانَع ولا ينازَع .

(انتِقَامٍ) : عقوبة .

التفسير

٣٦ـ (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

دخول همزة الاستفهام على النفى يقتضى التقرير والإثبات ، وقد جاءت هذه الآية لتؤكد مضمون الآيات السابقة من توعُّد الظالمين الكذَّابين والمكذِّبين ، وصدق الوعد للصادقين والمصدِّقين .

والمعنى : الله ــ تعالى ــ بقوته وقدرته حافظ رسوله ، ومانعه من كل أذى يصيبه ، ومن كل مؤذٍ يريده بسوء .

وقوله تعالى : (وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) تسفيه لما كانَ المشركون يُهدِّدُون به الرسول ﷺ من ضرر أصنامهم . ويتوعدونه به .

روى أنَّهم كانوا يقولون له : إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وتصيبك مضرتها لعيبك إيَّاها ، فنزلت الآية . وفى رواية أخرى قالوا : « لتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل أو جنون كما قال قوم هود له : (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) .

وقال قتادة : مضى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شىء ، فعمد خالد إليها فهشم رأسها بالفأس » . وتخويفهم لخالد تخويف لرسول الله ﷺ لأنه الذى وجهه إليها .

ولما كان اتخاذهم الأصنام آلهة ، وتخويفهم بها وهى أحجار لا تدفع ضرًّا ولا تجلب نفعًا لنفسها فضلًا عن أن تنفع أو تضرُّ غيرها ــ لما كان هذا ــ ضلالًا منهم وإضلالًا من الله لهم لإصرارهم على الباطل ، جاء قول الله ــ تعالى ــ : (وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

أى : ومن يصرفه الله عن الهداية ، ويعمى قلبه عن اتباع الحق لسوء اختياره ، فهو ضال وما له من هادٍ أبدًا يهديه إلى الخير ، أو يوجهه إلى الحق ونور الإيمان .

٣٧ـ (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : ومن يوفِّقه الله إلى الهداية ويرشده إلى الحق ونور الإيمان فليس له من مضل يصرفه عن مقصده السَّوىّ ، ويدفعه إلى الغواية ومسالك السوء ، إذ لا راد لقضائه ـ تعالى ـ ولا مُعارض لإرادته . كما ينطق بذلك قوله ـ تعالى ـ : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ) أى : أليس الله بغالب لا يغالب ، منيع لا يمانع ولا ينازع ، ذى انتقام وعقوبة بالغة لمن يتمرد على أمره ونهيه .

وفى هذا تسلية للرسول ، وتثبيت للمؤمنين ، وتأمين لهم على مسالكهم فى الطاعة ، ومسيرتهم فى الاهتداء .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) : دافعات ضره ورافعاته .

(مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) : مانعات رحمته وحابسات لها .

(حَسْبِيَ اللَّهُ) : كافينى فى جميع أمورى .

(مَكَانَتِكُمْ) : حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها .

(يُخْزِيهِ) : يُذِلُّه ويُهينه . (مُقِيمٌ) : دائم لا ينقطع .

التفسير

٣٨ -(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) :

كان المشركون مع إشراكهم ، وعبادتهم الأصنام ، وادعائهم قدرتها وتأثيرها يعترفون أن خالق السموات والأرض هو الله لا يمارون فى ذلك ، ولا يجادلون فيه ، وجاءت هذه الآية توجّه الرسول ﷺ إلى سؤالهم عن ذلك لينتزع هذا الاعتراف فيكون حجة عليهم تبهتهم وتسفِّه أحلامهم .

والمعنى : ولئن سألت هؤلاء المشركين المعاندين مَنْ خلق السموات والأرض ، وأبدع صنعتهما وأحكم نظامهما ، وسخر فى السماء كواكبها ، وأجرى فى الأرض أنهارها ، وأرسى جبالها ، وأنبت أشجارها ، وبثَّ فيها من كل دابَّة ليقولنّ : خلقهن الله لوضوح الدليل ، وسنوح السبيل ، وما وجدوا سوى ذلك ردًّا ولا حاروا جوابًا .

قل لهم يا محمد بعد هذا الاعتراف منهم تسفيهًا وتبكيتًا : أفكَّرتم بعد هذا الاعتراف والإقرار فرأيتم أن آلهتكم التى تدعونها من دون الله ، وتزعمون لها التسلُّط والتأثير - إن أرادنى الله بضرٍّ وأذى هل هنَّ قادرات على أن تدفعه عنِّى ، وتحول بينه وبينى ، أو أرادنى برحمة ونعمة هل هنَّ قادرات أن تمنعها منى أو تحبسها عنِّى ، وعبر عن آلهتهم بصيغ المؤنث فى (كَاشِفَاتُ ، وَمُمْسِكَاتُ) لأنها مؤنثات الأسماء وهى اللَّات والعزى ومناة .

روى أنه ﷺ لمَّا سألهم سكتوا فنزل قوله - تعالى - : (قُلْ حَسْبِيَ اللهُ) أى : قل لهم أيها الصادق الأمين : حسبى الله وكافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ، ودفع الشر ، عليه وحده لا على أحد غيره يتوكل المتوكلون فى كل أمورهم ، ويعتمدون على حوله وقوته فى جميع شئونهم ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته - تعالى -

٣٩ ، ٤٠ - (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أى : قل لهم أيها الصادق الأمين بعد أن سجّلوا على أنفسهم باعترافهم بقدرة الله - تعالى - السّفه والعناد - قل لهم - : اعملوا على مكانتكم وحالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنت منكم ، إنى عامل على منهجى وطريقى التى لا تزال تزداد قوة تروع أمنكم ، بنصر الله لى وتأييده إياى ، إحقاقًا للحق وإعلاءً لكلمته ، وإذا كنتم الآن من هذا فى شك فسوف تعلمون فى مستقبل الأيام وعلى امتداد الزمن ، وتتابع الأحداث من يأتيه عذاب يخزيه ويذلّه فى الدنيا ويهينه ، ويحلُّ عليه فى الآخرة عذابٌ مقيم دائم لاينقطع ، وقد صدق فيهم عذاب الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر ، والذُّل والهوان يوم فتح مكّة ، وينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أفظع ، ونكال أبشع لمن بقى منهم على كفره .

(إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : متلبسًا بالصدق .

(بِوَكِيلٍ) : مسلّط تجبرهم على الهداية .

التفسير

٤١ - (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

تتجه هذه الآية إلى تقرير أمر الرسالة ، وإنزال القرآن الكريم ، وما يحتويه من

إرشادات وعظات ، يُسَلِّي بها نبيه ﷺ ويهوِّن عليه عناد قومه ومعارضتهم فيقول - الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ : (إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) أى : إنا أنزلنا عليك أيها الرســول العظيم القرآن الكريم بالحق والصدق لأَجل الناس فإنه مناط مصالحهم فى المعاش وفى المعاد ، وإن مهمتك فيه إبلاغه للناس بأَمانة وصدق ، كما أنزلناه إليك ليهتدى به من يريد الله له الهداية ومجانبة الشرك والضلال ، فمن أجابك إليه واهتدى به ، وعمل بما فيه فلنفسه ؛ لأَن نفعه عائد عليها ، وحسن عاقبته لها ، ومن أعرض ، وضل عن الانتفاع بهديه ، ولم يعمل بما فيه ، فإنما ضلاله على نفسه ؛ لأَن وبال ذلك ، وسوء عاقبته حائق بها ، وما أنت على الناس بوكيل ولا مسيلِّط تجبرهم على الإيمان والتُصديق ، وتلجئهم إلى الهداية والتوفيق ، فإنك لاتهدى من أحببتْ ولكن الله يهدى من يشاء .

(ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ) أى : يستوفيها ويسيطر عليها .

(فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ) : يحفظها ولا يردُّها إلى البدن .

(وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى) : يرد النفس النائمة إلى البدن عند اليقظة .

(أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : وقت سمّاه الله ينتهى به عمرها .

(لَآيَاتٍ) : لعِظَاتٍ بالغات .

التفسير

٤٢ـ (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « إن فى ابن آدم نفسا وروحًا ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها التَّنَفُّس ، والتَّحرك ، فيتوفَّيان معًا عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها عند النوم » .

هكذا روى عن ابن عباس ، ولكن الظاهر أنَّ هذه الآية الكريمة تمثل صورتين عجيبتين من صور قدرة الله – تعالى – على الخلائق ، صورة تحدث لكل حى مرَّة واحدة ولا تتكرر ، وهى الموت عند انتهاء الأجل ، وصورة تتكرر مع الحياة وتلازمها ، وهى النوم فى جميع حالاته وأوقاته : فهذا هو مضمون قوله – تعالى – : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... الآية).

والمعنى : الله يستوفى الأرواح ويسيطر عليها حين موتها وحين نومها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويقطع صلتها بالبدن ، ويرد النفس الأخرى النائمة التى منعها عن التصرف وقت نومها ولم يحن أجلها – يَرُدُّ تصرفها إلى بدنها فتحصل اليقظة بسبب ذلك ، ويجرى ذلك عليها إلى أجل مسمى هو انتهاء عمرها .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أى : إن فى ذلك التصرف العجيب ، والنمط الغريب الذى يجرى على نفوس الخلائق ، ويتكرر فى حاليه بينهم ، وتحت أبصارهم ، وأسماعهم ، لآيات بالغات ، وشواهد بيِّنات دالَّات على بليغ قدرة الله – تعالى – ودقة حكمه ، لقوم يتفكرون فى كيفية تعلق النفس بالأبدان ، وتوفِّيها عنها تارة بالكلية عند الموت ، واستبقائها عند الله بين السعادة والشقاوة ، وتوفِّيها تارة أخرى توفيًا ظاهرًا عند النوم ، وإرسالها إلى البدن ليعود إلى نشاطه ، حتى يحين أجلها .

٤٣ ، ٤٤ - (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى : بل أتخذوا : فأَمْ هنا منقطعة تتضمن معنى بل وهمزة الاستفهام .

والمعنى : بل أتَّخذ المشركون آلهة من دون الله ، ومن غير إذن منه شفعاء تشفع عنده - تعالى - لهم فى أمورهم الدنيوية والأُخروية .

قل لهم أيها الرسول (أوّلا) تسفيهًا وتبكيتًا : أيستقيم فى تفكيركم ، ويصح فى عقولكم أن تتخذوا أصنامكم شفعاء يشفعون لكم عند الله ، وترجون عندهم ذلك ، ولو كانوا لا يملكون شيئًا أصلًا ، فضلًا عن أن يملكوا الشفاعة التى هى المنزلة العليا ، والغاية القصوى ، التى لا يرقى إليها إلَّا الأنبياء والمرتضون . وكذلك لا يعقلون أمرًا من الأُمور ، ولا يرجو أحد منهم الشفاعة إلَّا المغرقون فى الجهل والضلال .

وقل لهم (ثانيًا) إثباتًا للحق وتأْكيدًا : لله وحده الشفاعة جميعًا بكل صورها ، وكافة أغراضها هو الذى يملكها ويملك الإذن بها إذا كان الشفيع مرتضى مأْذونًا له ، وأصنامكم تفقد أساسًا كل مقوماتها فضلًا عن الارتضاء لها والإذن لها .

وقوله - تعالى - : (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) تأْكيد لمضمون ما قبله وتقرير له .

والمعنى : لله وحده ملك السموات والأرض وملك ما بث فيهما من دابة ، ومن حق المالك ألَّا يتكلم أحد فى أمر من أمور ملكه إلَّا بإذنه ، ثم إليه وحده وليس لغيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجعون يوم القيامة ، فتعلمون الأُمور على حقيقتها ، وتتبينون ضلالكم وجهلكم باتخاذكم هذه الأَصنام آلهة ، ورجائكم فى نفعها وشفاعتها فتندمون ، ولات ساعة مندم .

(وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ) : دون ذكر الأصنام .

(اشْمَأَزَّتْ) : انقبضت ونفرت .

(مِن دُونِهِ) : من دون الله .

(يَسْتَبْشِرُونَ) : يفرحون ويسرون .

(فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

(عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : عالم السر والعلن .

(لَافْتَدَوْا بِهِ) : لقدموه فداءً لهم من العذاب .

(بَدَا) : ظهر .

(يَحْتَسِبُونَ) : يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

التفسير

٤٥ - (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

تصور هذه الآية تصرفًا من تصرفات هؤلاء المشركين ناشئًا عن تماديهم فى الشرك ، وإيغالهم فى تأليه أصنامهم ، وتمثل حالين من أحوالهم القبيحة تنعكسان على وجوههم انقباضًا وعبوسًا إذا سمعوا ذكر الله ، وبشرًا وفرحًا إذا سمعوا ذكر آلهتهم ، وذلك من إيغالهم فى الجهل وانحطاطهم فى سفاهة العقل وسوء التفكير .

والمعنى : قد كان من حالهم فى الدنيا أنه إذا ذكر الله وحده دون ذكر الأصنام انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين ، وظهر ذلك على وجوههم إنكارًا واشمئزازا ، وإذا ذكر الذين من دونه من أصنامهم وآلهتهم فرادى أو مع ذكر الله - تعالى - أسرع الفرح والسرور إليهم ، وظهر البشر على وجوههم ، لفرط افتتانهم بآلهتهم ، وتعصبهم لها ، ونسيان حق الله - تعالى - .

٤٦ - (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

هذا أمر وتوجيه من الله لرسوله بالدعاء والالتجاء إلى الله - تعالى - لما قاساه فى أمر دعوة هؤلاء المشركين ، ولما ناله من شدة شكيمتهم فى المكابرة والعناد ، فإنه - تعالى - هو المبدع للسموات والأرض بجملتها ، والعالم بالأحوال برمتها ، والفاصل بين المحقين والمبطلين ، وفيه تعليم للعباد أن يلجئوا إلى الله عند الشدائد .

والمعنى : قل أيها الرسول : اللهم يا فاطر السموات والأرض ومبدع صنعتهما على غير مثال سبق ، يا عالم كل سر وعلانية ، وكل غائب وشاهد ، لا يخفى عليك شأن من الشئون أنت وحدك تحكم بين عبادك ، وتقضى بينهم فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا قضاء يحسم كل خلاف ، ويخضع له كل مكابر ، ويستسلم له كل عات متجبر ، فيبهت بذلك كل ظالم ، وينتصف كل مظلوم .

هذا ، وأصل الفطر : ابتداء الخلق وابتداعه ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا (فطرتها) أى : ابتدأتها » .

٤٧ - (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ) :

ولو كان للذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، والإسراف فى العناد والمعارضة - لو كان لهم - ما فى الأرض جميعًا من الخيرات ، والكنوز والأموال ومثله معه ، لهان عليهم أن يبذلوه افتداء لهم وخلاصًا من سوء العذاب يوم القيامة ، لهول ما يشاهدون ، وفظاعة - ما يلاقون - وهيهات - وفى هذا قمة الوعيد ، وغاية الإقناط لهم من الخلاص والنجاة ما داموا به كافرين .

وفى قوله - تعالى - : (وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ) : ارتفاع بالوعيد إلى أقصى ما يتمثله متمثل ، أو يدخل تحت حذر وتقدير . أى : وظهر لهم من الله من ضروب العذاب ، وصور العقاب والانتقام ، ما لم يخطر على بالهم ، ولم يدخل فى تقديرهم وحسابهم .

وهذا الوعيد غاية فى التخويف والتحذير يقابلها فى الترغيب والتبشير قول الله - تعالى - : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ »[1] .

٤٨ - (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ) :

تمضى الآيات فى ترديد الوعيد وتُبْدِئُ فيه وتعيد ، لتقطع الحجة على كل مكابر ، وتعقد لسان كل عنيد ، فيقول الله - تعالى - : (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟) أى : وظهر - للمشركين يوم القيامة حين عرضت عليهم صحائف أعمالهم ، وأخذوا كتبهم بشمائلهم ، وقالوا وفى عيونهم عَبرة ، وقلوبهم فى غمرة : « مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ... الآية »[2] - بَدَا لهم يومئذ - سيئات ما عملوا فى دنياهم

---

(١) سورة السجدة - الآية : ١٧

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٩

وما اكتسبوا من فرطات وآثام ، (وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : نزل وأحاط بهم من صنوف العذاب وضروب العقاب ما كانوا به يستهزئون ويسخرون عند توعدهم به فى الدنيا ، ويستعجلون نزوله سخرية وإنكارًا ، وعتوًّا واستكبارًا ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] .

(فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مَسَّ) : أصاب وتمكّن .

(خَوَّلْنَاهُ) : أعطيناه وملكناه تفضلًا .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بوجوه الكسب ، أو على استحقاق وجدارة بما عندى من العلم.

(فِتْنَةٌ) : محنة وابتلاء .

(بِمُعْجِزِينَ) : بغائبين من العذاب ناجين منه .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

(يَبْسُطُ) : يوسع ويزيد .

(يَقْدِرُ) : يضيّق وينقص .

التفسير

٤٩ ـ (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

تحكى هذه الآية لونًا من سلوك الإنسان الذى لم يتمكن من قلبه دين يهديه ، ولم يتوفّر فيه عقل يرشده ، ولا تحكمه قيم أو تقيده ، فتضطرب أحواله ، وتختلف نزعاته ، وينعكس ذلك على سلوكه .

ويتمثل سلوكه تارة فى عقيدته ، وتارة فى أحواله وتصرفاته ، فإذا أصابته ضراء أو نزل به مكروب عرف الله ولجأ إليه بالدعاء ، ثم إذا كشف الله ضره ، ورفع كربه نسى ما كان يدعو إليه ، وعاد لما كان عليه من الزعم بأنه أوتيه على علم .

وهذه الآية التى بين أيدينا تحكى كفر الإنسان بالنعمة طغيانًا واستعلاء .

والمعنى : (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا) أى : إذا أصاب الإنسان ضر فى مال أو أهل أو عافية أو غير ذلك من الكوارث ـ إذا أصابه شىء من ذلك ـ دعانا وحدنا ولجأ إلينا ولم يدعُ لكشف ضره ، ودفع شره سوانا ، ملحًّا فى الدعاء ، مستمرًّا فى الرجاء ، ثم إذا تجلَّينا عليه بالإجابة ، وأعطيناه سؤله ، وملكناه وخوّلناه منّا نعمة تعاظم وتعالى ، وادعى لنفسه القدرة والجدارة وقال : إنما أوتيت ما أوتيته على علم عندى بوجوه الكسب ومهارة فى التصرف واستحقاق للنعمة ، ناسيًا فضل الله عليه ، وتضرعه إليه ، ولم تكن مقالته هذه عن حق أو عقل (بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ) وابتلاء ومحنة ، وكفر بالنعمة ، ولكن هؤلاء المذكورين لا يعلمون أن ما يجرى عليهم من النعم اختبار من الله يتمحص به الشاكر والكافر ، والحامد والجاحد ، أو لا يعلمون سبل الإخلاص ، ووسائل النجاة .

وفى قوله تعالى : (لَا يَعْلَمُونَ) بصيغة الجمع ، مع الإفراد قبله ـ فيه ـ دلالة على أن المراد بالإنسان الجنس ، وأن أكثره يسلك هذا السبيل .

وصدرت هذه الآية بالفاء دون الواو لترتبها على حال سابقة من مناقضتهم ، وتعكيسهم فى التسبب حيث يشمئزون إذا ذكر الله وحده ، ويستبشرون بذكر آلهتهم مع الله أو فرادى فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره وضاقوا باسمه دون من استبشروا بذكره وهشُّوا له .

٥٠ - (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : قد قال هذه المقالة وهى : (إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) الذين تقدموهم ، وسبقوا أيامهم وأزمانهم ، فلم تكن مقالتهم بدعًا ، ولا كفرهم حدثًا - قال هذه المقالة : قارون موسى الذى آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولى القوة ، فلما طلب منه أن يبتغى الدار الآخرة مع دنياه اعترافًا للمنعم ، وشكرًا للنعمة « قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ »(١)

وقالها فرعون تألُّهًا وتجبُّرًا : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِيٓ »(٢) وتطاول على مقام النبوَّة فقال فى شأن موسى - عليه السلام - : « أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ »(٣) .

وقال النمرود فى محاجة إبراهيم - عليه السلام - : « أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ »(٤) . وهكذا كانت النعم على طول الزمن سبيلًا للإنسان إلى التجبر والطغيان . وصدق الله العظيم إذ يقول : « كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ »(٥) ، وقوله تعالى : (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) معناه : فما دفع عنهم ولا أفادهم ما كانوا يجمعونه فى الدنيا ، ويحرصون على كسبه ، ما أغنى عنهم ذلك ولا دفع ما نزل بهم من العذاب ، مما ينبىء عنه قوله تعالى :

٥١ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) :

والمعنى : فأصاب هؤلاء جزاء سيئات ما كسبوه ، فأغرق الله فرعون وجنوده ، وخسف بقارون وبداره الأرض ، والذين أفرطوا فى الظلم من هؤلاء المشركين ، وأسرفوا فى العناد

---

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨
(٢ ، ٣) سورة الزخرف الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٨
(٥) سورة العلق الآيتان : ٦ ، ٧

سيصيبهم فى الآخرة جزاء سيئاتهم ، وعقاب ظلمهم وإشراكهم ، فوق ما أصابهم أشد إصابة فى الدنيا من القحط والقتل والذل والهوان ، فقد قحطوا عدة سنين ، ولقوا ما لقوا من القتل والأسر يوم بدر ، ومن الذُّل والهوان يوم فتح مكة ، حيث دانوا للإسلام ، وتحطمت كبرياؤهم .

(وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ) أى : بفائتين ولا ناجين من العذاب فى الآخرة كما وقع بهم فى الدنيا .

٥٢ ـ (أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

المعنى : أغفل هؤلاء وأولئك من المشركين والذين سبقوهم ممن أبطرتهم النعم ، وأفسدهم الترف والغنى ، فراحوا يتطاولون ، ويتكاثرون ـ أغفلوا ـ ولم يعلموا أن المنعم على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم هو الله ـ تعالى ـ وأنه يبسط الرِّزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، ويضيِّق الرِّزق على من يشاء منهم ، لحكمة لا يعلمها إلَّا هو ـ سبحانه وتعالى ـ .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى : إن فى ذلك الذى ذكر لآيات بينات وشواهد واضحات لقوم يستعدون للإيمان بالتفكر فى حكمته وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، فيهتدون بهديها ، ويسلكون سبيل الخلاص والنجاة ، وما أروع معنى ، ولا أبدع نسقًا أن ينزل بعد هذه الآيات قول الله تعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ . . . الآية) .

* (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) : تجاوزوا الحد فى المعاصى فجنوا عليها .

(لَا تَقْنَطُواْ) : لاتيئسوا .

(وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ) : ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة .

(وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ) : أخلصوا له العمل والعبادة .

(أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم) : القرآن .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(يَا حَسْرَتَىٰ) : يا ندامتى ويا حُزْنى .

(فَرَّطتُ) : ضيعت وقصرت .

(جَنبِ اللهِ) : حقه .

(السَّاخِرِينَ) : المستهزئين بدين الله .

(كَرَّةً) : رجعة إلى الدنيا .

التفسير

٥٣ - (قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

ذكر القرآن فى الآيات السابقة ما أعد الله للظالمين والمشركين من العذاب الأليم ، وجاءت هذه الآية للمؤمنين المفرطين فى المعاصى لبعث الأمل فى نفوسهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله .

والمراد بمغفرة الذنوب : التجاوز عنها وعدم المؤاخذة بها ، وهو المراد بسترها ، وقيل : المراد بها محوها من الصحائف ، كأن لم تكن فضلًا منه - تعالى - وكرمًا .

واستظهر بعض المفسرين إطلاق المغفرة للتائبين وغيرهم ، بدليل قوله -تعالى- : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ »[1] فهو ظاهر فى الإطلاق فيما عدا الشرك ، ويشهد للإطلاق أمور :

الأول : نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضى المذلة وهى أنسب بحال العاصى إذا لم يتب ، واقتضاؤها للرحمة ظاهر .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٤٨

الثانى : الاختصاص الذى تُشعر به الإضافة إلى ضميره - تعالى - فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه .

الثالث : إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوى على جميع معانى الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر فى سعتها ، وهو ظاهر فى شمولها التائب وغيره .

الرابع : وضع الاسم الجليل فى موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لا شىء آخر من توبة وغيرها .

الخامس : تعريف الذنوب فإنه فى مقام التمدح ظاهر فى الاستغراق فشمل الذنب الذى تعقبه التوبة والذى لا تعقبه التوبة .

السادس : التأكيد بلفظ (جميعًا) .

السابع : التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهى إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب ، أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة .

الثامن : حذف معمول الغفور فإن حذف المعمول يفيد العموم ، إلى غير ذلك مما قالوه.

وقال آخرون : إنها وردت فى غير موضع من القرآن الكريم مُقَيَّدَة بالتوبة ، فإطلاقها هنا يحمل على التقييد بها ، لأن المطلق يحمل على المقيد ما لم ينسخ ، ولا نسخ فى عقاب المؤمن المذنب ، وأيدوا ذلك بقوله تعالى : (وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ) فإنه عطف على (لَا تَقْنَطُواْ) كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة الله فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه - تعالى - وأخلصوا له - عز وجل - .

وقال بعض أجلة المحققين : إن قوله : (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ) خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأول : الكفار لمكان القرب وسبب النزول .

فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أنه مَن عَبَد الأوثانَ ، ودعا مع الله إلهًا آخر ، وقتل النَّفس التى حرم الله ، لم يُغْفَرْ له ، فكيف نُهَاجر ونُسْلِم ؟ وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك ؟ فأنزل الله - تعالى - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . . الآية) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : نزلت الآيات فى عياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا[1] فكنا نقول : لا يقبل الله - تعالى - من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا : أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه !! فنزلت هذه الآيات ، وكان عمر - رضى الله عنه - كاتبًا فكتبها بيده ، ثم كتب بها إلى عياش ، وإلى الوليد ، وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث : (قُلْ يَا عِبَادِىَ) إلى (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) بالمدينة فى وحشىٍّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه .

وقد فرح النبى ﷺ بنزول هذه الآية ، أخرج الإمام أحمد فى مسنده وابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهم عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أحب أن لى الدنيا ومافيها بهذه الآية (يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) إلى آخر الآية » .

وأصل الإسراف : الإفراط فى صرف المال ، ثم استعمل فيما ذكر مجازًا ، وقال الراغب : هو تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك فى الإنفاق أشهر ، وهو ظاهر فى أنه حقيقة فيما ذكرنا .

٥٤ - (وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) :

حث الله - تبارك وتعالى - عباده على المسارعة إلى التوبة فقال : (وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ) إلى آخر الآية - أى : وارجعوا أيها المسرفون على أنفسهم إلى ربكم ومالك أمركم بالإعراض عن معاصيه ، والندم عليها ، وأسلموا له بالإخلاص فى طاعته ، والامتثال لأمره ، والخضوع له بالعبادة ، والإقرار بوحدانيته ، قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا ينصركم أحد من الله ويدفع عنكم عذابه .

ولقد فرق بعض العلماء بين الإنابة والتوبة : بأن التائب قد يرجع من خوف العقوبة ، والمنيب يرجع استحياء لكرمه - تعالى - وذكر الإخلاص بعد الإنابة ليعلم العبد أن نجاته بفضل الإخلاص لله فى توبته .

---

(١) أى : رجعوا عن الإسلام .

٥٥ - (وَاتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

أى : واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم وهو القرآن ، أو العزائم دون الرخص ، وقال ابن زيد : يعنى المحكمات وكِلُوا المتشابه إلى علمه .

ولعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة من قبل أن يجيئكم العذاب فجأة وعلى غير استعداد ، وأنتم لا تشعرون ، أى : لا تعلمون أصلا بمجيئه فتتداركون ما يدفعه عنكم .

٥٦ - (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ) :

أى : أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ، واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم كراهة أن تقول نفس آثمة مذنبة : يا ندامتى ويا حسرتى وأسفى على ما ضيعت وقصرت فى جنب الله أى : فى حق الله - تعالى - حال أن كنت من المستهزئين بكتابه ودينه ورسله .

قال الراغب : أصل الجنب الجارحة ، ثم استعير للناحية والجهة - والمراد هنا : الجهة مجازًا ، والكلام على تقدير مضاف أى : فى جنب طاعة الله أو فى حقه - تعالى - أى : ما يحق له - سبحانه - ويلزم وهو طاعته - عز وجل - والتفريط فى جهة الطاعة كناية عن التفريط فى الطاعة نفسها ؛ لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى .

وتنكير (نفس) فى قوله تعالى : (أَن تَقُولَ نَفْسٌ) للتكثير بقرينة المقام ، ويجوز أن يكون تنكيرها للتبعيض ؛ لأن القائل بعض الأنفس ، واستظهره أبو حيان .

٥٧ - (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة : لو أن الله هدانى بالإرشاد والدلائل الموصلة ، لكنت من الذين وقوا أنفسهم من عذاب الله وعقابه بالإيمان والعمل الصالح ، وفسر أبو حيان الهداية بخلق الاهتداء .

٥٨ - (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) :

أو تقول تلك النفس المذنبة حين تشاهد العذاب وتعاين أهواله وشدائده : ليت لى رجعة إلى الحياة الدنيا فأكون من المحسنين فى العقيدة والعمل ، المؤمنين العاملين بما نزل ، وهكذا

يتمنون فى الآخرة الرجوع إلى الدنيا مرةً ثانية ليحسنوا ، ولقد كانوا فيها فما أحسنوا ، بل أساءوا إلى خالقهم بعبادة غيره وعدم طاعته . ولذا جاء قوله – تعالى – :

٥٩ – (بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

جوابًا من الله – عز وجل – لما تضمنه قول القائل : (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) من نفى أن يكون الله قد هداه – أى : بلى أيها النادم على ما كان منه فى الحياة الدنيا المتمنى الرجوع إليها لتكون من المحسنين فيها – بلى – قد جاءتك آياتى وتعاليمى على لسان رسلى ، وقامت حججى عليك ، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها والجاحدين لها ، وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى .

(وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(كَذَبُوا۟ عَلَى اللَّهِ) : وصفوه بما لا يليق به .

(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) : حقيقة أو لما يعلوها من الكآبة .

(مَثْوًى) : مأوى ومقامًا .

(بِمَفَازَتِهِمْ) : بفوزهم وظفرهم ببغيتهم .

التفسير

٦٠ – (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) :

المراد بالذين كذبوا على الله : كل من افترى على الله ووصفه بما لا يليق به – سبحانه –

نفيًا أو إثباتًا ، بأن نزهه - سبحانه - عمّا يجب أن يضاف إليه ، أو نسب إليه مايجب تنزيهه - سبحانه وتعالى - عنه (وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) بما ينالهم من الشدة التى تغبر ألوانهم حقيقة ، ويجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لما يعلو وجوههم من الكآبة ، ويلحقها من الهم والحزن ، ويظهر عليها من آثار الجهل بالله - عز وجل - فى هذا اليوم العصيب .

والظاهر أن الرؤية بصرية ؛ لأن ذلك أبلغ فى التشهير بهم وبيان قبح حالهم ، والخطاب للرسول ، أو لكل من تتأتى منه الرؤية (أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ) أى : أن فى جهنم مقرًّا ومقامًا للمتكبرين الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها ، والانقياد لها .

٦١ - (وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : وينجى الله الذين جعلوا لهم وقاية من عذاب الله بالتوحيد وفعل الطاعات - ينجيهم - بمفازتهم من العذاب لاختيارهم الهدى على الضلال (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ) أى : لا ينالهم من أذى جهنم شىء ، وهذا ومابعده بيان للمفازة (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أى : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، ناجون من كل شر ، نائلون كل خير ، أو المعنى : ولا هم يحزنون على مافاتهم من متاع الدنيا أو ذهاب نعيم كانوا يؤملونه فى الآخرة .

والمفازة مَفْعَلَةٌ من الفوز مصدر ميمى ، أو اسم مكان من فاز به :ظفر ،أو من فاز منه :نجا .

وعن النبى ﷺ فى تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الله مع كل امرئ عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لَا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعنَّ عنك فهى التى قال الله : (وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) » ذكره القرطبى .

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مفاتيحها ، وهو كناية عن ملكه لهما وتصرفه فيهما .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) : القرآن أو حجج الله وبراهينه .

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ) أى : على سبيل الفرض .

(لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) : ليبطلن وليفسدن .

التفسير

٦٢ - (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) :

الله خالق كل شيء من خير وشر وإيمان وكفر ، لكن لا بالجبر ، بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما . فالآية رادة على المعتزلة[1] ردًّا ظاهرًا (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) يتولى التصرف

---

(١) فإنهم يقولون : إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بقوة أودعها الله فيه ، مستندين إلى نحو قوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ، وقوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله) وقوله : (كل امرىء بما كسب رهين) ولذا يكون الثواب والعقاب على عمل العبد الذى كسبه باختياره ، وخلقه بإرادته مستعملا القوة الربانية التى أودعها الله فيه صالحة للخير والشر ، فأحسن استعمالها فى الخير وأساء استعمالها فى الشر .

فيهما كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، ولك أن تقول : إنه - تعالى - يتولى حفظ كل شيء خلقه ، فيكون ذلك إشارة إلى احتياج الأشياء إليه - تعالى - فى بقائها ، كما أنها محتاجة إليه - عز وجل - فى وجودها ؛ فهو ربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره ، وقهره وكلاءته .

٦٣ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ أُوْلٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : مفاتيحها كما قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة وغيرهم و (مَقَالِيدُ) قيل : جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل : جمع مقليد أو مقلاد ، أى : مفتاح .

ومقاليد السموات والأرض مجاز عن كونه مالك أمرهما ومتصرفًا فيهما لعلاقة اللزوم ، أو كناية عن القدرة والحفظ ، قال البيضاوى : كناية عن قدرته - تعالى - وحفظه لها ، وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والقهر لمكان اللام والتقديم ، ولم يقل : ويهلك الذين كفروا بخسرانهم كما قال سبحانه : (وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ...) الآية للإشعار بأن العمدة فى فوز المؤمنين فضله - تعالى - فلذا جعل نجاتهم مسندة إليه - تعالى - حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال ، بخلاف هلاك الكفرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال . ولذا لم يسند له - تعالى - على طريقة القرآن من إسناد الخير لله ؛ لأنه أصل كل خير ، ومنبع كل فضل ، وإسناد الشر للناس بما كسبت أيديهم .

٦٤ - (قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) :

أى : أبعد هذه الآيات الواضحات القاضية بعبادته - تعالى - وحده ، تأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - فقد قالوا له ﷺ : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلٰهك ، وذلك لفرط جهالتهم ، ولذا نودوا بعنوان الجهل .

٦٥ - (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قبْلك من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لئن أشركت بالله شيئًا على سبيل الفرض ليحبطن عملك ويبطلن ويفسدن ولتكونن من الخاسرين.

وقال : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ) على التوحيد مع أن الموحى إليهم جماعة ؛ لأنه على تأويل أُوحى إليك وإلى كل واحد من الرسل قبلك (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . .) الآية .

وقوله تعالى : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) عبر بهذا الكلام مع علمه - تعالى - بأن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؛ لأنه كلام على سبيل الفرض لبيان شناعة الشرك بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه .

ومذهب الشافعى : أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت ، وترك التقييد هنا اعتمادًا على التصريح به فى قوله تعالى : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[1] . ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد (وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بسبب حبوط العمل .

٦٦ - (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) :

رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت فاعلًا فاعبد الله وأخلص له العبادة وحده لا شريك له ، وكن من الشاكرين إنعام الله عليك الذى يضيق عنه نطاق الحصر ، ومنه أن جعلك سيد ولد آدم ، وبما أن النبى ﷺ إمام أمته ، فأمره بعبادة الله وشكره - تعالى - وحده أمر لأمته تبعًا له .

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم : ٢١٧

(وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) : وما عرفوهُ حقَّ معرِفَتِهِ حين أشركوا به غيرَهُ .

(قَبْضَتُهُ) القَبضَةُ : المرَّةُ من القبض ، وتطلق على المقدار المقبوض ، كالقُبْضَةِ بضم القاف أي : أنها ملكه وفى مقدوره .

(مَطْوِيَّاتٌ) : مجموعات .

(بِيَمِينِهِ) : بقدرته .

التفسير

٦٧ - (وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

(وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أى : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه والقادر على كل شىء ، والمالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قبضته وقدرته .

ويقول الزمخشرى فى كتابه (الكشاف) فى معنى هذه الآية وهو يمثل رأى الخلف : « لما كان العظيم إذا عرفه الإنسان حق معرفته ، وقدره فى نفسه حق قدره ، وعظمه حق تعظيمه ، قيل : (وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) على معنى وما عظموه حق تعظيمه ، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل والتمثيل فقال : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) والغرض من هذا الكلام إذا

أخذته كما هو بجملته وموضوعه تصويرعظمته لا غير ، وكذلك حكم مايروى مثل ذلك من الأحاديث . .ثم قال : والخلاصة هى الدلالة على القوة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانًا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلّا إجراء العبادة فى مثل هذه الطريقة من التخييل والتمثيل ، ولا ترى بابًا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله – تعالى – فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء : (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) المراد بالأرض : الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله : (جميعًا) ، وقوله :(والسموات) ، ولأن الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة .

(قَبْضَتُهُ)القبضة : المرة من القبض ، والقبضة–بالضم–المقدار المقبوض بالكف ، ويقال – أيضًا – : أعطى قَبْضَةً من كذا ، يريد معنى (القُبْضَة) تسمية بالمصدر ، وكلا المعنيين محتمل ، والمعنى : أن الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلّا قَبْضَةً واحدة من قَبَضَاته كأنه يقبضها قَبْضَةً بكف واحدة[1] ، وإذا أريد معنى القُبْضة – بضم القاف – فظاهر ؛ لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة ، (وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ) من الطى الذى هو ضد النشر ، أى : مجموعات. كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » وَعَادَة طاوى السجل أن يطوى بيمينه ، والمراد من قبضته ملكه بلا ممانع ولا منازع ، وبيمينه بقدرته (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى : ما أبرأ مَنْ هذه قدرتُه وعظمتُه وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء ، فسبحان للتعجب .اهـ كشاف بتصرف (ج ٣ ص ٣٥٥، ٣٥٦).

وقال الآلوسى فى قوله تعالى :(وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أصل القدر : اختصاص الشىء بعِظَمٍ أو صِغَرٍ أو مساواة ، قيل المعنى : وما وصفوه تعالى حق صفاته ، بل وصفوه بأنه خلق الخلق عبثًا ، وأنه لا يبعث الخلق ؛ لأنه لا يقدر على ذلك ، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ فى الصُّور الآتى ، وضمير الجمع فى (وَمَا قَدَرُواْ) لكفار قريش كما روى عن ابن عباس ، وقيل : الضمير لليهود فقد تكلموا فى صفات الله وجلاله فألحدوا وجسّموا وجاءوا بكل تخليط فنزلت الآية ردًّا عليهم .

---

(١) هذا إذا أريد بلفظ قبضة – بفتح القاف – المعنى المصدرى .

(وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الصُّور) لغة : البوق ، والمراد به القَرْن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهو من عالم الغيب لايعلم كنهه إلَّا الله .

(فَصَعِقَ) : مات .

(أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ) : أضاءت .

(بِنُورِ رَبِّهَا) : نوره سبحانه حين يتجلى لفصل القضاء ، وقيل : بما يقيمه فى الأرض من الحق والعدل .

(الْكِتَابُ) : صحائف الأعمال .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) أى : أُعطيت جزاء ذلك كاملًا .

التفسير

٦٨- (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) :

يقول الله - تبارك وتعالى - مخبرًا عن شدائد يوم القيامة ومايكون فيه من الآيات

العظيمة والأهوال الجسيمة (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)وهى نفخة الصعق ، والمشهور أن النافخ فيه ملك واحد ، وأنه إسرافيل ، بل حكى القرطبي الإجماع على ذلك ، وهذه النفخة هى التى يموت بها الأحياء مِن أهل السموات والأرض إلّا من شاء الله ، قال الإمام الآلوسى : لم يرد فى تعيين المستثنى - إلّا من شاء الله - خبر صحيح . انتهى .

ثم يقبض الله أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولًا وهو الباقى آخرًا بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ [1] ثم يجيب نفســه فيقول : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [2] أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء وحكمت بالفناء على كل شىء ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ويأمره أن ينفخ فى الصور نفخة أخرى ، وهى نفخة البعث ، قال تعالى :(ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) أى : فإذا هم قائمون من قبورهم أحياء بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، وقيل : ينظرون ، أى : ينتظرون ما يؤمرون به أو ينظرون ماذا يفعل بهم . قال - جل شأنه - : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ » [3] .

٦٩- (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أى : أضاءت الأرض بنور خالقها ومالكها ، والمراد بالأرض : أرض المحشر وهى الأرض المبدلة من الأرض المعروفة ، وذلك يوم القيامة إذا تجلى الحق - جل جلاله - لفصل القضاء ، وعن الحسن والسدى : تفسير نور الرب بالعدل وهو من باب الاستعارة ، وقد استعير لذلك بالقرآن فى مواضع متعددة منه ، أى : وأشرقت الأرض بما يقيمه ربها فيها من الحق والعدل ويبسطه - سبحانه - من القسطاس فى الحساب ، ووزن الحسنات والسيئات ، واختار الزمخشرى هذا الرأى وحقق « أولًا » تلك الاستعارة، بتكررها فى القرآن العظيم ، « وحققها ثانيًا » بإضافة النور إلى اسمه - تعالى -لأنه - سبحانه-

---

(١ ، ٢) سورة غافر من الآية : ١٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢٥

الحق العدل ، « وعيّنها ثالثًا » بإضافة اسمه - تعالى - (رَبّ) إلى الأرض « وبها » لأن العدل هو الذى تزين به الأرض ، « ورابعاً » بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق ؛ لأنه كله تفصيل الحق ، « وأيدها خامسًا » بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، « وسادسًا » بقوله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » فإنه يقتضى أن يكون العدل نورًا ، « وسابعًا » بأنه ختم الآية بنفى الظلم .

وقال الآلوسى : ولعل الأوفق مايشعر به كثير من الأخبار أن قوله - سبحانه وتعالى - : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) إشارة إلى تجليه - عز وجل - على خلقه يوم القيامة لفصل القضاء ، وقد يعبر عنه بالإتيان ، وقد صرح به فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ »[1] . ولا يبعد أن يكون هذا النور الوارد فى الحديث الصحيح : « إن الله لا ينام ولا ينبغى أن ينام يخفض قِسْطَه ويرفعه ،ويُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور » . (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) أى : وضعت صحائف الأعمال بأيدى الملائكة للحساب ، (وَجِىٓءَ بِالنَّبِيِّينَ) لِيُسألوا هل بلغوا أممهم ، وقيل : ليحضروا حسابهم ، (وَالشُّهَدَآءِ) أى : جميع الشهداء من الملائكة وأمة محمد والجوارح والمكان .

وأيًّا ما كان فالشهداء جمع شاهد (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى : وقضى بين العباد بالعدل (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص ثواب أو زيادة عقاب . على ماجرى به وعده - تعالى - لعباده ، على أن الظلم لا يتصور فى حقه تعالى ، فإن الأمر كله له - عز وجل - وهو أحكم الحاكمين قال تعالى : « وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا[2] . . . » الآية .

٧٠ - (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) :

أى : وأعطيت كل نفس جزاء عملها من خير أو شر كاملًا غير منقوص ،وهو - سبحانه - أعلم بفعلهم فلا يفوته شىء من أعمالهم .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٠

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٤٧

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(زُمَرًا) : جماعات متفرقة متتابعة .

(حَقَّتْ) : وجبت وثبتت .

(مَثْوَى) : مأوى ومسكن .

التفسير

٧١ - (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

بدأت الآية الكريمة تفصيل توفية كل نفس ما عملت بيانًا لكيفيتها ، ويخبر الله فيها عن حال الكفار وكيف يساقون إلى النار ، والسَّوق يقتضى الحث على المسير بعنف وإزعاج ، وهو الغالب ، ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا ، أى : سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجًا متفرقة متتابعة بعضها فى أثر بعض مرتبة حسب ترتيب طبقاتهم فى الضلال والكفر والفساد : (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ليدخلوها ، وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة ، فهى كسائر أبواب السجون ، لاتزال مغلقة حتى يأتى أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها ،

فتفتح ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ) أى : وقال لهم حراسها وزبانيتها الغلاظ الشداد على سبيل التقريع والتوبيخ والتنكيل : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ؟ سفراء عن الله من نوعكم تفهمون ماينبئونكم به ، ويسهل عليكم مراجعتهم والأخذ عنهم (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) أى : يقرءون عليكم آيات ربكم المنزلة لمصلحتكم فى القرآن وغيره ، ويقيمون عليكم الحجج والبراهين الدالة على صحة ما دعوكم إليه وأمروكم به ونهوكم عنه (وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) ويخوفونكم ويحذرونكم لقاء عذاب يومكم هذا ، وهو وقت دخولكم النار ؛ لأن المنذر به فى الحقيقة العذاب ووقته .

وقد شاع استعمال اليوم والأيام فى أوقات الشدة والمحنة ، وقيل : المراد به يوم القيامة لاشتماله على هذا الوقت .

واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع ؛ لأنهم وبّخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم ، ولو كان قبح الكفر معلومًا بالعقل دون الشرع لقيل: ألم تعلموا بما أودع الله فيكم من العقل قبح كفركم ، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المسندة إليها عن ذلك .

ولمن قال بوجوب الإيمان عقلًا أن يقول : إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ ؛ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحق بالتوبيخ والإنكار ، ولأن معرفة الله تجب أولًا بالعقل ، ثم يتلوها الإيمان برسله (قَالُوا بَلَىٰ) أى : قال الكافرون مقرين معترفين : قد أتانا رسل ربنا ، وتلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا (وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : وجبت وثبتت كلمة الله - تعالى - المقتضية للعذاب على الكافرين . وهذا الكلام منهم اعتراف لا اعتذار ، والمراد بكلمة العذاب : كلام الله الذى حكم عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم ، أو قوله تعالى لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[1] . ووضع الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى عِلِّيَّة استحقاقهم العذاب ، والزُّمَر جمع زُمْرة وهى الجماعة كما تقدم فى المفردات .

٧٢- (قِيلَ ادْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : قيل لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، أى : ماكثين فيها لا خروج

---

(١) سورة ص من الآية : ٨٥

لكم منها ولا زوال لكم عنها ، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة ، وترك ذكرهم للعلم بهم مما قيل ، ويحتمل أن يكون غيرهم ، ولم يذكر ؛ لأن المقصود ذكر هذا القول الذى يبعث فى النفوس الخوف والرعب من غير نظر إلى قائله ، وقال بعض الأجلة : أبهم القائل لتهويل المقول (فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى :قَبُحَ وساء مكان الكافرين جهنم لتكبرهم ، وفى التعبير بالمتكبرين إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين لهم - عليهم الصلاة والسلام - وهو فى معنى التعليل بالكفر ؛ لأنه سبب كفرهم ، ولا ينافى التعليل قبل ذلك بثبوت كلمة العذاب عليهم ؛ لأن حكمه وقضاءه عليهم بدخول النار بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له - سبحانه - فى الأزل ، وكذا قوله - عز وجل - : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ... الآية » . فهناك سببان قريب وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافى التعليل بآخر .

(وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان عظيم عليكم .

(طِبْتُمْ) : طهرتم من دنس المعاصى وطاب مثواكم .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : كُلُّ الثناء لله وحده .

(صَدَقَنَا وَعْدَهُ) : حققه بالبعث والجنة .

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) : ملَّكنا أرض الجنة .

التفسير

٧٣ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ :

هذا إخبار من الله عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون بلطف وتكريم إلى الجنة زمرًا ، أى : جماعة بعد جماعة متتابعة ، المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أمثالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف يناسبه .

والمراد بالسَّوْق هنا : الحث على السير بالإسراع إلى الإكرام ، بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام ، كما أنه للمشاكلة أيضًا .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ يدفع إيهام الإهانة ، على أنه قد يقال : إنهم لما أحبوا لقاء الله أحب الله لقاءهم ، فلذا حثوا على دخول دار الكرامة .

واختار الزمخشرى أن المراد بسوقهم سوق مراكبهم ؛ لأنهم لا يُذْهَبُ بهم إلا راكبين ، وتُعُقِّب بأن كون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل ، بل ورد العكس ، ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويركب أخرى وتَسْفَعُهُ النار مرة[1] فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله - تعالى - شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول : أى رب أَدْنِنِى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها ، فأشرب من مائها ، فيقول الله تعالى : يا بن آدم لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ، فيقول : لا يارب ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه » . اهـ : آلوسى .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ حتى إذا بلغوها وقد فتحت لهم أبوابها كما قال تعالى : « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ »[2] . ويدل ذلك على تقديم الفتح ، كأن

---

(١) أى : تلفحه وتصيبه إصابة يسيرة إذا مر بها .

(٢) سورة ص الآية : ٥٠

حراس الجنة فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم ، كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له ، وفى ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ) أى : قال لهم حفظتها وحراسها : أمان عظيم عليكم طهرتم فى الدنيا من فعل المعاصى وكرمتم فى الآخرة بما نلتم من النعيم والكرامة ، وقوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) عطف على فتحت أبوابها وجواب إذا مقدر أى : حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب وتلقى الملائكة لهم بالسلام - حتى إذا كان هذا - سَعِدُوا وفرحوا بقدر ما يلقون من نعيم وإكرام ، وإذا حذف الجواب فى مقام التكريم والإنعام ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل .

واستدل المعتزلة بقوله تعالى : (طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا) حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصى ،على أن أحدًا لا يدخل الجنة إلَّا وهو طيب طاهر من المعاصى ، إما لأنه لم يفعل شيئًا منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة فى الدنيا ، أما من لم يتب عن معاصيه فلا حظ له فى دخولها .

ورد بأنه وإن دل على أن أحدًا لا يدخلها إلَّا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة ، وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة .

٧٤- (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) :

(وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) عطف على : « قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا » أو على الجواب المقدر أى : دخلوها ، (وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) .

والمعنى : يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ،والعطاء العظيم ،والنعيم المقيم ،والملك الكبير ،يقولون عند ذلك : الثناء لله وحده الذى حقق لنا ما سبق أن وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) أرض الجنة التى أقاموا فيها واتخذوها مقرًا ومتبوأ ، وإيراثها تمليكها وتمكينهم من التمتع فيها تمكين الوارث فيما يرثه ، وقيل : ورثوها من أهل النار ، فإن لكل منهم مكانًا فى الجنة كتب له بشرط الإيمان ، (نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ)

أى : ينزل ويسكن كلٌّ منا فى أى مكان أراده من جنته الواسعة (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) من كلام الداخلين عند الأكثر ، والمخصوص بالمدح مقدر ، أى : فنعم أجر العاملين هذا الأجر أو الجنة ، ولم يقولوا : فنعم أجرنا ، بل قالوا : فنعم أجر العاملين للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين ، وقال مقاتل : هو من كلام الله ، أى : قال الله : فنعم أجر العاملين هذا الأجر العظيم الذى نلتموه .

(وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(حَآفِّينَ) : محيطين محدقين .

(وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) : فصل بين الخلائق بالعدل .

التفسير

٧٥ - (وَتَرَى الْمَلَآئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما ذكر الله حكمه فى أهل الجنة والنار ، وأنه أنزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد محيطون به من كل جانب ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ، ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل فى قضايا الخلق وقضى الأمر وحكم بالعدل ، ولهذا قال - عز وجل - : (وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ) أى : حكم بين الخلائق بالعدل ، ثم قال : (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أى : نطق الكون جميعه : الحمد لله رب العالمين الذى عدل فى

حكمه ، قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ »[١] واختتم بالحمد فى قوله تعالى : (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

قيل : إنهم يحمدونه إظهارًا للرضا والتسليم ، وقال ابن عطية : هذا الحمد خَتْمٌ للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء ، أى : إن هذا الحاكم العدل ينبغى أن يحمد الله عند تمام حكمه وكمال قضائه ، ومن هذه الآية جعلت (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) خاتمة المجلس فى العلم .

(١) سورة الأنعام الآية : ١ .

سورة غافر

مكية وآياتها خمس وثمانون

تسمى هذه السورة أيضًا سورة المؤمن ، لأن الله - تعالى - ذكر فيها قصة رجل مؤمن من آل فرعون ، وتسمى سورة الطَّوْل لقوله تعالى : « ذِى الطَّوْل » .

وهى أولى الحواميم السبع التى قال فيها ابن عباس - رضى الله عنهما - : « إن لكل شىء لبابًا ولباب القرآن آل حم أو قال : الحواميم » .

وكان يقال لهن : (العرائس) كما قال مِسْعَر بن كِدَام ، رواه القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن .

وروى عن عبيد الله قال : « إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلًا ، فمر بأثر غيث ، فبينما هو يسير ويتعجب منه ، إذ هبط على روضات دَمِثَات[1] فقال : عجبت من الغيث الأول ، فهذا أعجب وأعجب ، إن مثل الغيث الأول مثل عُظْم[2] القرآن . وإن مثل هؤلاء الروضات الدَّمِثَات ، مثل آل حم فى القرآن » أورده البغوى[3]

مقاصد السورة

بدأت هذه السورة بوصف القرآن العظيم بأنه منزل من عند الله العزيز العليم ، وأنه لا يجادل فى آيات الله إلَّا الذين كفروا .

ثم بينت أن تكذيب نبينا محمد ﷺ ليس أمرًا خاصًّا به ، بل هو أمر عام لكل الأنبياء والمرسلين ، وأن الله عاقب كل أولئك المكذبين .

ثم بينت أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه - تعالى - يُرى عباده آياته ، ويرزقهم من السماء ، وأنه رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم التلاق والحساب .

---

(١) جمع دمثة بفتح فكسر ، وهى الأرض السهلة الرخوة (٢) بوزن قفل ، أى : أكثره (٣) انظر ابن كثير .

وبينت أنه ـ تعالى ـ أمر رسوله أن ينذر قومه : « يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » وأنه ـ تعالى ـ يقضى بين عباده بالحق .

ثم بينت أن الله ـ تعالى ـ أهلك من قبل قريش من القرون المكذبة من هم أشد منهم قوة وآثارًا فى الأرض ، وأن عليهم أن يمروا بأرضهم ليتعظوا بما أصابهم ، ثم حكى قصة فرعون مع موسى ـ عليه السلام ـ وتكذيبه له ، وقصة مؤمن آل فرعون ووعظه لقومه ، وطلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحًا ، لعله يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى : « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » حيث وقى الله ـ تعالى ـ موسى سيئات ما مكر فرعون وقومه ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

ثم ذكرت أن الله ـ تعالى ـ أمر نبيه ﷺ بالصبر ووعده النصر فقال : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » .

وبينت أنه لا يستوى الكافر والمؤمن ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله تعالى قال : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » وذكرت بعض آيات الله فى كونه ، حيث جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا ، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، وأنه خلق عباده من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم أطفالًا ثم ليبلغوا أشدهم ، ثم ليكونوا شيوخًا ، ومنهم من يتوفى ـ من قبل .

ثم توعدت المكذبين والمجادلين فى آيات الله بالأغلال فى أعناقهم ، والسلاسل يسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون .

ثم ذكرت أن الله أرسل رسلًا من قَبْل نبينا محمد ﷺ منهم من قصه الله عليه ومنهم من لم يقصصه عليه ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

ثم بينت فى ختامها أن الله عاقب مكذبى الرسل من قبل نبينا ﷺ وأنهم لما رأوا بأس الله آمنوا بالله وحده ، وكفروا بما كانوا به مشركين : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾)

المفردات :

(قَابِلِ التَّوْبِ) : قابل التوبة والرجوع عن المعاصى إلى الطاعة .

(ذِى الطَّوْلِ) : صاحب الغنى والسعة – كما قال مجاهد – .

التفسير

١ ، ٢ – (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

تقدم الكلام على مثل (حمٓ) من الحروف المقطعة التى بدئ بها بعض السور كالبقرة ، وآل عمران ، فارجع إليه إن شئت .

ووجه مناسبة أولها لآخر الزُّمر ، أنه – تعالى – لمَّا ذكر هناك مايؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين ، ذكر جل جلاله هنا أنه غافر الذنب وقابل التوب ، ليكون ذلك استدعاءً للكافرين إلى الإيمان وترك ما هم فيه .

وَبَيْنَ السورتين أوجهٌ عديدة من المناسبة ، وحسبك فى ذلك أنه ذُكِرَ فى كلتيهما أهوالُ يوم القيامة ، وأحوال الكفرة فيه وهم فى المحشر وفى النار ، وقد فُصِّل فى هذه ما لم يفصل فى تلك .

وفى تناسق الدرر : وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر ، تآخى المطالع فى الافتتاح بتنزيل الكتاب – انظر الآلوسى .

٣ - (غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) : هذه كلها صفات للفظ الجلالة فى الآية التى قبلها .

ومعنى الآيتين : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب فلا يقهر ، العليم بكل شىء فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، غافر الذنب الذى سلف ، وقابل التوبة فى الحاضر والمستقبل ، من كل من تاب عن معاصيه من عباده ، شديد العقاب لمن طغى وآثر الحياة الدنيا على مرضاة ربه ، صاحب الخير الكثير ، فلا يليق بعاقل أن ينصرف عن مرضاته ، لَا إلٰه إلَّا هو إليه المرجع والمآب ، فيحاسب كل امرئ على ما قدمت يداه .

وهذه الآية تفتح باب المتاب للتائبين مهما كانت ذنوبهم ، وفى سعة رحمة الله يقول - سبحانه - : « قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »[1] فليبادر كل عبد بالتوبة من ذنبه قبل أن يلتحق بربه بمعاصيه وآثامه ؛ ليفوز بغفرانه ويتقى سوء عذابه .

وينبغى أن ينصح المؤمن التقى غيره حتى ينصلح حاله ، أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد ابن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذا بأس ، وكان يَفِد إلى عمر بن الخطاب ، ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين يتابع فى الشراب - قال : فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لَا إلٰهَ إلَّا هُو (غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه ، وأن يتوب الله عليه .

فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول : « غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ » قد حذرنى الله عقوبته ، ووعدنى أن يغفر لى .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان ، وزاد : « فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ، ثم نَزَع فأحسن النَّزْع[2] ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم زلَّ زَلَّة فسددوه ووفقوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه » .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٥٣ (٢) أى : ثم تاب فأحسن التوبة .

(مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(مَا يُجَادِلُ) : ما يخاصم .

(فَلَا يَغْرُرْكَ) : فلا يخدعك .

(تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) : تنقلهم فيها للتجارة .

(وَالْأَحْزَابُ) : الذين تحزبوا على الرسل فى كل أمة .

(لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ) أى : ليبطلوه ويزيلوه به .

التفسير

٤ - (مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ) :

الجدال : الخصام والنقاش ، وهو نوعان : جدال بالباطل ، وجدال بالحق ، وقد سجل الله فى هذه الآية الكفر على الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ، بالطعن فيها ، يريدون إدحاضها وإبطالها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ) .

أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحَلّ مشكلها ، واستنباط معانيها وأحكامها ، ورد أهل الزيغ عنها فهو جهاد عظيم فى سبيل الله .

وعندما نجادل أهل الكتاب فى عقائدهم ونصوص كتبهم ، نجادلهم بدون اعتداء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »[1] .

وقد كانت قريش تجادل فى القرآن غرورًا بما هم فيه من السعة والتجارة ، من مكة إلى الشام وإلى اليمن وبالعكس ، فأوصى الله نبيه ﷺ أن لا يغره ولا يخدعه تقلبهم فى تجارتهم فى البلاد ، وسلامتهم من العقاب مع كفرهم ، فإنه متاع فى الدنيا قليل ، عاقبته الهلاك فى الدنيا ، ثم العذاب يوم القيامة عقوبةً لهم إن بقوا على كفرهم ، « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يفلته » .

والمعنى الإجمالى للآية : ما يجادل فى آياتنا الواضحة البيان ، المؤيدة بالبرهان ، إلَّا الذين كفروا بالحق مع وضوحه ، فلا يغررك أيها الرسول ولا يخدعك تقلبهم فى التجارة من بلد إلى بلد ، وما هم فيه من الغنى والسعة ، فإن ذلك متاع قليل بعده الهلاك وسوء العقاب ، كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ »[2] .

وكما قال فى سورة لقمان : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ »[3] .

ثم سلى الله نبيه بما حدث للرسل قبله من أقوامهم فقال :

٥ - (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

القوم قد يؤنث بتأويل الجماعة ، وهو هنا كذلك ، ولذا أنث له الفعل فى كذبت والأخذ يستعمل بمعنى الحبس والمنع تارة ، وبمعنى الإهلاك تارة أخرى .

والمعنى : كذبت قبل قريش قوم نوح والأحزاب من بعدهم - كذب هؤلاء جميعًا - رسلهم الذين دعوهم إلى نبذ الأوثان ، وعبادة الواحد الديان ، وحاولت كل منهم حبس رسولهم ليقتلوه ، وهموا بذلك ، ومنهم من قتلوه ، وخاصموا بالباطل من القول ليقضوا

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٦

(٢) الآيتان : ١٩٦ - ١٩٧

(٣) الآية : ٢٤

به على الحق ، فأهلكتهم واستأصلتهم ، فكيف كان عقابى لهؤلاء؟ كان عقابًا مستأصلًا رادعًا لسواهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يَغْرُرْكَ تقلب قومك فى البلاد وما هم فيه من الحرية والسعة ، فهم أهْوَن على الله من أولئك .

٦ - (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) :

أى : ومثل قضائه على الذين تحزبوا على رسلهم من قبلك يا محمد - مثل قضائه ذلك - حقت كلمة ربك وقضاؤه بالإهلاك للمشركين من قومك - إن بقوا على كفرهم وشركهم ، لأنهم أصحاب النار مثل سابقيهم ، فالعلة واحدة ، وهى أنهم أصحاب النار وأهلها مثلهم ، لكونهم كفارًا معاندين ، مهتمين بقتل نبيهم اهتمام أولئك بقتل أنبيائهم .

(ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(الْعَرْشَ) العرش فى اللغة : بمعنى سرير الملك ، وسيأتى الكلام عليه فى التفسير .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة ، من عَدَن بالمكان أقام به .

التفسير

٧ - (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية) :

يقول القرطبي : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتًا وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة .

ويقول الآلوسى : هو جسم عظيم له قوائم الكرسى ، وماتحته بالنسبة له كحلقة ملقاة فى فلاة : اهـ .

وقد جاء فى وصفه ووصف أجسام حملة العرش آثار متعارضة ، لا نرى داعيا لذكرها فى تفسيرنا هذا .

والذى ينبغى أن نؤمن به هو أن لله عرشا عظيما هو مصدر أوامره للملائكته ، ليقوموا بما يكلفون به فى كون الله - تعالى - .

وإذا كان العرش هو الكرسى فإنه أكبر من السموات والأرض ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » . ولابد أن يكون تكوينه أعجب وأعظم من السموات والأرض ، وأن تكون فيه الهيمنة عليها والارتباط بها ، وهو حادث أوجده الله بعد أن لم يكن ، فقد جاء فى الحديث الصحيح : « كان الله ولا شىء معه ، وكان عرشه على المـــاء » .

ويجب الإيمان بأن العرش ليس موضعا لجلوس الله - تعالى - فإنه - تعالى - ليس كالأجسام حتى يحتاج إلى مكان « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[١] .

ولم أر حديثا صحيحا فى كون العرش له قوائم ، فإذا كان العرش يسع السموات ، والأرض فما حاجته إلى القوائم ، وعلى أى شىء يرتكز والسموات دونه كحلقة ملقاة فى فلاة ، إنه حينئذ يكون شأنه كشأن السموات فى أنها بغير عمد ترونها ، فهو مرفوع مثلها

---

(١) سورة الشورى من الآية : ١١

فى الفضاء الكونى بقدرة الله التى ربطت بين الكون برابطة الجاذبية ، وبما هو فوق مستوى العقول ، فسبحان العزيز الحكيم القدير العليم .

ومن العلماء من قال : إنه غير الكرسى وإنه أعظم منه ، استنادا إلى حديث أخرجه ابن مردويه بسنده عن أبى ذر قال : قال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع عند الكرسى إلّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى ، كفضل الفلاة على تلك الحلقة » .

وظاهر الآية أن الملائكة يحملون العرش حقيقة ، ونحن نقول : ما المانع من أن يكون المراد من حملهم إياه كونهم الرؤساء الذين يحملون مسئولية تبليغ أوامر الله لسائر ملائكته فى كونه . والله تعالى أعلم .

والملائكة الذين حول العرش كثيرون لا يحصى عددهم سوى الله – تعالى – وقيل : هم سبعون ألف صف يطوفون مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صَفٍّ قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ، رافعين أصواتهم بالتكبير والتهليل ، ومن ورائهم مائة ألف صَفٍّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم واحد إلّا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ، وقيل غير ذلك .

ولكننا نقول : إن محاولة ضبط أعدادهم من الرجم بالغيب ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : الملائكة الذين يحملون عرش الرحمٰن ويبلغون أوامر ربهم منه ، والملائكة المنبثون حول العرش ، ينزهون الله – تعالى – عن كل ما لا يليق به ، قائمين بحمد ربهم على نعمه التى لا غاية لها ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا قائلين فى استغفارهم : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) فرحمتك تتسع لذنوبهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عن معاصيهم وآثامهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من الطاعات ، واحفظهم من عذاب الجحيم .

---

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

٨ ، ٩ – (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

ومِنْ دعاءِ حملة العرش ومن حوله من الملائكة قولهم : ربنا وأدخل الذين رجعوا عن ذنوبهم واتبعوا سبيلك ، جنات عَدْن يقيمون بها هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وتجاوز عن تقصير بعضهم حتى يلحقوا فى الدرجة من هم أعلى منهم من آل بيتهم ، لتقر أعينهم وتستريح نفوسهم ، إنك أنت العزيز الذى تنفذ مشيئته ولا ترد كلمته ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وحكمه وقضائه ، وجَنِّبهم جزاء السيئات ووبالها ، ومن تُجنبه جزاءها يوم القيامة فقد رحمته ، حيث لطفت به فنجيته من عقوبتها وذلك هو الفوز العظيم الذى لا غاية وراءه .

قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾)

شروع فى بيان أحوال الكفرة أهل النار ، إثر بيان أحوال المؤمنين أهل الجنة ، فالأمور تتميز بضدها فضل تميز .

وقد دلت الآية على أن الكافرين يمقتون أنفسهم ويبغضونها ، وذلك حينما يعلمون أنهم أصحاب النار .

وقيل : إنهم يمقتونها حين يقول لهم الشيطان : « فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم »[1] ، وقيل : حين دخولهم النار .

ونحن نقول : إنه لا مانع من أن يمقتوا أنفسهم فى ذلك كله . والذين يناديهم هم خزنة النار ، وقيل : هم المؤمنون ليضاعفوا حسرتهم .

ومعنى الآية : إن الذين كفروا بالله ورسله ، ينادَوْن حين يمقتون أنفسهم لتسببها فى عذابهم - ينادون - حينئذ من الملائكة أو من المؤمنين : لَبُغْضُ الله لكم أشد من بغضكم لأنفسكم ، حين تُدْعَوْن من أنبيائكم إلى الإيمان فتكفرون ، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان ، فحق عقابكم لبغض الله لكم بسبب كفركم .

(قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾)

أفادت هذه الآية أن الكفار يسترحمون ويطلبون من الله الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا من الصالحات ما فاتهم ، ويتوسلون إلى ذلك ، بأنه قادر على تحقيق ما يطلبون فقد أماتهم مرتين ، وأحياهم مرتين ، فهم يرجون الإحياء مرة ثالثة .

والمقصود من إماتة المرة الأولى : أنه جعلهم تراباً لا حياة فيه قبل خلق آدم منه ، قال ابن مسعود : هذه الآية كقوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2] . وبهذا قال ابن عباس والضحاك وغيرهما .

وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أُحيُوا فى قبورهم ، ثم أميتوا ثم أُحيوا يوم القيامة وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٢

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨

ويرجح ابن كثير الرأى الأول ثم يقول : بل هو الصواب الذى لاشك فيه .

واستعمال الإماتة فى ذلك على سبيل التجوز ، والمراد : جعل الشىء لاحياة فيه ، وليس على معنى صرف الحياة عنه بعد أن كانت موجودة فيه ، كما تقول : ضَيِّقْ فَمَ القِرْبة ، أى جعله ضيقًا ، وليس على معنى أنه كان واسعًا فضيقه .

ويلخص ابن كثير مواقف الكفار فى يوم القيامة فيقول : والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله فى عَرَصات القيامة كما قال : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ »[1] . فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشدَّ مما سألوا أول مرة فلا يجابون ، قال الله تعالى : «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[2] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم : « وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ »[3] ، « رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[4] وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدموا بين يدى كلامهم مقدمة ، وهى قولهم : (رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) أى : قدرتك عظيمة ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وأننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا : (فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا للدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا : أن لا سبيل إلى رجوعكم إلى الدنيا ، وهذا الجواب ملحوظ غير ملفوظ ، وقد دلت عليه الإشارة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٣) سورة فاطر الآية : ٣٧

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠٧ — ١٠٨

(ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾)

فهذه الآية تعليل للمنع من إجابتهم ، المطوى بين الآيتين ، أى : ذلكم المنع بسبب أن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تجحده وتنفيه ، فأنتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدنيا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » . انتهى بتصرف .

« فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » : فهو الحكم العدل فى خلقه ، ولا حُكم يوم القيامة لسواه ، وقد حكم للمؤمنين بالجنة هم فيها خالدون ، وحكم على الكافرين بالنار هم فيها لا يخرجون .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)

الخطاب هنا لجميع البشر ، فآيات الله مرئية لعباده جميعا ، وحجته قائمة عليهم .

والمعنى : الله هو الذى يريكم آياته الدالة عليه فى السموات والأرض ، من الذرة إلى المجرة ، وهو الذى يطعمكم ويسقيكم ، حيث ينزل لكم من السماء أمطارا هى السبب الأول فى أرزاقكم ، فمنها تشربون ، وبها تروون زروعكم وبساتينكم ، فيخرج لكم بفضله أنواعًا مختلفة من الطعام والفاكهة العجيبة الشأن ، الكثيرة الألوان - صيفًا وشتاءً - وكلها تسقى بماءٍ واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض فى المذاق والغذاء والدواء ، وما يتذكر ويتعظ إلا من يرجع إلى الله عن طاعة نفسه الأمارة بالسوء ، والشيطان الذى يفسد على الناس عقولهم ، وأفكارهم ، ويرجع عن تقليد الآباء فى عقائدهم ، فهذا هو المنيب إلى الله ، الراجع إليه من الصوارف عن الهدى .

(فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾)

الخطاب هنا للمؤمنين ، والمراد من دعاء الله : عبادته .

والمعنى : فاعبدوا الله وحده مخلصين له الدين ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، ولو كره الكافرون .

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى أبى الزبير محمد بن مسلم بن مِدْرِسى المكى قال : « كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إِلَٰهَ إِلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىءٍ قدير ، لاحول ولا قوة إِلَّا بالله ، لا إِلَٰهَ إِلَّا الله ولا نعبد إِلَّا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إِلَٰهَ إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : « وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دُبُرَ كل صلاة » أى : يرفع صوته بهن عقب كل صلاة .

(رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) : عَلِيّ القدر جليل الشأن فى ذاته وفى صفاته .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحبه وخالقه لاعن حاجة إليه .

(يُلْقِى الرُّوحَ) : ينزل الوحى .

(يَوْمَ التَّلَاقِ) : يوم يلتقى الخلق بالخالق ، والمخلوقون بعضهم ببعض فى زحام القيامة .

(يَوْمَ هُم بَارِزُونَ) : ظاهرون لايخفى على الله منهم شىء .

التفسير

١٥ - (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) :

أمر الله فى الآية السابقة أن يدعو المؤمنون ربهم مخلصين له الدين ، وجاءت هذه الآية لتبين رفْعَةَ قدر الله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى سماواته وفى عرشه ، وأنه تعالى هو صاحب الشأن فى الوحى ، يلقيه على من يشاء من عباده الخيرة .

وإطلاق اسم الروح على الوحى ، لأنه للأرواح بمنزلة الروح للأبدان ، فكما تحيى الأبدان بالروح ، تحيى الأرواح بالوحى ، فهى بدونه فى حكم الميتة .

ومن العلماء من فسر الروح بالقرآن ، لقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا »[1] . ومنهم من فسره بجبريل ، لقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ❊ عَلَىٰ قَلْبِكَ »[2] وكلها معان متقاربة ، بل متلازمة .

ويوم التلاق هو يوم القيامة ، حيث يلتقى المخلوق بخالقه للحساب والجزاء ، ويلتقى جميع البشر بعضهم ببعض فى موقف الحساب والقضاء ، وهو يوم عصيب على العصاة والكافرين ، فلهذا كان من أهم أغراض الوحى لجميع الأنبياء إنذار أممهم أهوال هذا اليوم ليجتنبوها بالإيمان والطاعة .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله رفيع القدر فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، وفى سماواته ، وجميع كائناته ، صاحب العَرْش المحيط بهذا الكون ، ينزل الوحى من أمره على

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٩٣ ومن الآية : ١٩٤

من يختاره من عباده الأكرمين ، ليخوف الناس من يوم قيام الناس لرب العالمين ، وتلاقيهم معه للحساب والجزاء ، حتى يجتنبوا الموبقات ، ويفعلوا المنجيات من الطاعات .

١٦ - (يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) :

هذه الآية لزيادة توضيح المخاوف فى يوم « التَّلَاقِ » ولفظ « يَوْمَ » هنا بدل من « يَوْمَ التَّلَاقِ » فى الآية السابقة ، وقد بينت هذه الاية أن الخلائق يومئذ ظاهرون لله ، فلا يخفى على الله منهم شىءٌ مما عملوه فى الدنيا ، فقد أحاط بكل شىء علمًا ، كما أنهم ظاهرون بعضهم لبعض ، حيث زالت الجبال والتلال ، واستوت الأرض فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، ولا يوجد ملجأ يختفى فيه أحد عن الله أو عن غيره .

وقد كان فى الدنيا ملوك ملكهم الله على عباده ، وجعل لهم الحكم فى رعاياهم ، وقد زال سلطانهم فى الآخرة ، وأصبحوا مسئولين كسائر رعاياهم ، بل أشد منهم ، فإن الملك يومئذ لله الواحد القهار .

وفى هذا اليوم العصيب يُسْأَلُ من قِبَل الله : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجاب من جهة الخلائق : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

قال القرطبى نقلًا عن النحاس : وأصح ما قيل فيه ، ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله - عز وجل - عليها ، فيؤمَرُ مُنَادٍ ينادى : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورًا وتلذذًا ، ويقوله الكافرون غمًّا وانقيادًا ، وخضوعًا » ، ثم قال : والقول صحيح عن ابن مسعود ، وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

والمعنى الإجمالى للآية مَعَ ما قبلها مما يرتبط بها : يلقى الله الوحى من أمره على من يختاره من عباده لتبليغ رسالته ، لينذر يوم التلاق ، يوم جميع الناس ظاهرون لعلم الله ، لا يغيب عنه شىء من أفعالهم وذواتهم وصفاتهم ، ظاهرون بعضهم لبعض ، أولهم وآخرهم لا يحجب بعضهم عن بعض حجاب ، فقد سويت الأرض ، وأزيل منها الجبال والهضاب ، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ، وحينئذ يسأل الملائكة فى هذا اليوم العصيب والمحشر الرهيب : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) فيجيب الخلائق مؤمنهم وكافرهم : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

١٧ - (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) :

بعد ما يقر الخلائق بأن الملك يوم القيامة لله الواحد القهار ، يجابون من قبل الله على ألسنة الملائكة : اليوم تجزى كل نفس بما كسبته فى دنياها ، الحسنة بعشر أمثالها إلى ماشاء الله ، والسيئة بمثلها ، لا ظلم اليوم فى محكمة العدل الإلٰهى ، ولا بطء فى صدور الأحكام ، إن الله سريع الحساب ، لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر ، ولا حساب أمة عن حساب أخرى ، فإنه - تعالى - ليس محتاجًا إلى تذكر أعمال العباد أو الاطلاع عليها فى كتب أعمالهم ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكما يرزقهم فى ساعة واحدة يحاسبهم فى ساعة واحدة ، فكل واحد منهم يتلقى كتاب عمله ، ويرى فيه حسناته وسيئاته والحكم الذى صدر له أو عليه ، قال تعالى : « وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[(١)] كما أنه تعالى ليس محتاجًا إلى شهود « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[(٢)] . نسأل الله الأمان فى ذلك اليوم الرهيب .

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(يَوْمَ الْآزِفَةِ) : يوم القيامة ، سمى بالآزفة لقربه ، من أَزِفَ الشيءُ يأزَفُ أزفًا إذا قرب ، فهو من باب تعب .

(كَاظِمِينَ) : كاتمين مع الضيق .

---

(١) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة النور الآية : ٢٤

(حَمِيمٍ) : قريب يهتم لأمرهم .

(خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ) : هى النظرة الخفية إلى مايعاب فى العلانية .

التفسير

١٨ - (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) :

يأمر الله نبيَّه فى هذه الآية بأن ينذر قومه المشركين ويخوفهم من يوم القيامة المسمى : بالآزفة لقربه ، فإن مابقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى مامضى منه قليل جدا ، وقد ظهرت أشراطها وعلاماتها فضلا عن أن كل آت قريب .

ونظير هذه الآية : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ »[1] أى :قربت الساعة ، وقد وصف الله يوم الآزفة بأن القلوب تصل فيه إلى الحناجر ، وهذا على سبيل المجاز ، مثل قوله تعالى : « وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا »[2] .

وتراهم فى هذه الشدَّة كاظمين كاتمين لغمهم وكربهم ، لايتكلمون إلَّا بإذن الله ، وليس لهم شفيع يطاع ، فقد منع الله الشفاعة للكفار ، قال تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ »[3] فلا شفيع لهم فى هذا اليوم حتى يطاع .

والمعنى الإجمالى للآية : وخَوِّف المشركين - أيها الرسول - من يوم الساعة القريبة ، حيث يشتد فيه الأمر حتى كأن القلوب تبلغ الحناجر كاظمين كاتمين لهمومهم وأحزانهم وكروبهم ، ليس للظالمين فى ذلك اليوم صديق يشفق عليهم ، ولا شفيع مأذون له حتى يطاع وتقبل شفاعته .

---

(١) سورة النجم الآية : ٥٧

(٢) سورة الأحزاب من الآية : ١٠

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨

١٩ - (يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ) :

أى : يعلم الأعين الخائنة ، قال ابن عباس : هو الرجل ينظر إلى المرأة ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسَّس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، وقد علم الله - عز وجل - منه أنه يود لو نظر إلى عورتها .

وقال مجاهد : « هى مسارقة الأعين إلى مانهى الله عنه » وهذا أشمل ، وكما يعلم الله خائنة الأعين ، يعلم ماتخفيه صدور الناظرين : هل يزنون لو خلوا بها أو لا .

٢٠ - (وَاللهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

والله يُجَازى من نظر إلى المحارم ومن لم يَنظُر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش ومن عزف قلبه عنها .

والأوثانُ التى يعبدونها من دون الله لاتقضى بشىءٍ ؛ لأنها لا تعلم شيئًا ولا تملك ، إن الله هو السميع لأقوال خلقه البصير بأعمالهم ، فيجازيهم حسب أعمالهم .

* (أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ) أى : آخر أمرهم ، وعاقبة كل شىء آخره .

(وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ) أى : ما يبقى بعدهم كالقلاع والحصون . والمفرد : أثر مثل : سبب وأسباب .

(مِن وَاقٍ) : من مانع يمنع عنهم عذاب الله .

(بِالْبَيِّنَاتِ) أى : المعجزات الواضحات .

التفسير

٢١ - (أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ) :

المعنى : أقعد الكفرة المكذبون برسالتك ولم يسيروا فى الأرض فينظروا ما آل إليه حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأمثالهم . كانوا هم أشد منهم قوة وتمكنا فى التصرفات ، وأقوى آثارًا فى الأرض مثل : القلاع الحصينة ، والمدائن القوية ، وقد حكى الله عن قوم منهم : أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا مما لا يقدر عليه هؤلاء كما قال تعالى : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ »[1] ومع هذه القوة العظيمة ، والبأس الشديد لم يتركوا يمرحون ، بل حقت عليهم كلمة الله ، فأخذهم أخذًا وبيلًا . تركهم أثرًا بعد عين ، وما كان لهم واق من الله يمنع عنهم العذاب الذى حل بهم ، ويقيهم منه ، وأريد بذلك التنبيه على عجز شركائهم عن إنقاذهم من الهلاك .

٢٢ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى : سبب ذلك الأخذ البالغ الغاية فى الشدة أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات البينة ، والأحكام الواضحة التى تنير لهم طريق الحق . فقابلوهم ريثما أتوهم بالإعراض والكفر . فأهلكهم الله ، ودمّر عليهم بسبب ما صنعوا ؛ لأنه - سبحانه - متمكن مما يريده غاية التمكن قادر عليه .

(شَدِيدُ الْعِقَابِ) : لمن كذب برسله وآياته .

---

(١) سورة الأحقاف ، جزء من الآية ٢٦

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(بِآيَاتِنَا) : جمع آية وهى المعجزة .

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) المراد بالسلطان هنا : الحجة الواضحة والبرهان البيِّن .

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) أى : وما مكرهم إلَّا فى خسران .

(أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير عبادتكم لى بعبادتكم لغيرى .

(إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم) أى : جعلته معاذًا لى ولكم ، بمعنى : اعتصمت به ، يقال : استعذت بالله وعذت به معاذًا وعياذًا : اعتصمت .

التفسير

٢٣ ــ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

فى ذكر قصة الإرسال إلى فرعون ومن معه وتفصيل ما جرى . تسلية لنبيه ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه . وبشارة له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى

لموسى بن عمران . فإن الله أرسله بالمعجزات البينة والدلائل الواضحة ، والحجج القاهرة فكذبوه فأغرقهم الله .

والمراد بالسلطان المبين : ما أريد بالآيات ، ونُزِّل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين . وحكى الطبرسى أن المراد بالآيات : حجج التوحيد . وبالسلطان المبين : المعجزات الدالة على نبوته - عليه السلام - التى أرسل بها .

٢٤ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

فرعون ملك القبط بالديار المصرية وهامان وزيره فى مملكته ، وقارون قيل : هو الذى كان من قوم موسى . وقيل : غيره ، وكان مقدم جيوش فرعون . وذِكْرهما من بين أتباع فرعون لمكانهما فى الكفر وكونهما أشهر الأتباع .

(فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ) : يعنون أن موسى - عليه السلام - ساحر فيما أظهره من المعجزات التى حملوها على السحر . كذاب فى دعواه أن الله أرسله ، قالوا ذلك لما عجزوا عن معارضته .

٢٥ - (فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) :

لم يكترث موسى - عليه السلام - بقولهم عنه : ساحر كذاب ، ومضى فى تبليغ رسالة ربه بالبرهان القاطع الدال على أن الله - تعالى - أرسله إليهم ، وحينما عجزوا عن معارضته دفعهم العجز عن المعارضة والغيظ الذى تمتلئ به قلوبهم إلى الانتقام ممن آمن به ، حيث قالوا : (اقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَاسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ) أى : اصنعوا بهم ما كنتم تفعلونه من قتل أبنائهم وترك نسائهم أحياء كى تصدوهم عن مظاهرة موسى - عليه السلام - وتأييده ، فالأمر بالقتل والاستحياء حدث من فرعون مرتين ، المرة الأولى كانت قبل ميلاد موسى - عليه السلام - لأجل الاحتراز من وجود من يقتل فرعون بعد أن أخبره الكهنة والمنجمون بأن أحد بنى إسرائيل سوف يسلبه ملكه ، أو كان غرضه إذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، والمرة الثانية كانت بعد إرسال موسى - عليه السلام - إليه وإيمان من آمن معه كما يقول

قتادة ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى - عليه السلام - فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل غيظًا وحنقًا ، وزعمًا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منه أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكه على يده ، وقد شغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر ، فأغرق الله فرعون وجنوده وهذا معنى قوله تعالى : (وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) أى : إلَّا فى خسران وهلاك لا يغنى عنهم شيئًا ، وهذه الجملة جىء بها فى تضاعيف ما حكى عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بطلان ما أظهروه من الوعيد ، واضمحلاله بالمرة ، والإظهار فى موضع الإضمار حيث لم يقل وما كيدهم لذمهم بالـكفر ، والإشعار بعلة الحكم .

٢٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ) :

وقال فرعون لقومه : اتركونى أقتل موسى ، وكان فرعون إذا هَمَّ بقتل موسى - عليه السلام - كَفُّوه بقولهم : ليس هذا مما تخافه فهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلَّا ساحر يقاومه ساحر مثله . وإنك لو قتلته أدخلت على الناس الشبهة ، واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة ، وعدلت إلى المقارعة بالسيف ، ولكنه كان قتالًا سفاكًا للدماء فى أهون شىء . فكيف لا يقتل من أحسَّ أنه هو الذى يثل عرشه ويهدم ملكه . ولكنه مع ذلك كان يخشى إذا هَمَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك ، فقوله : (ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ... الآية) كان تمويهاً على قومه ، وإيهاماً بأنهم هم الذين يكفونه - وما كان يكفه فى واقع الأمر إلَّا ما تمتلىء به نفسه من هول وفزع وقوله : (وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ) تجلد منه وإظهار لعدم المبالاة بدعائه أى : لا يهولنكم ما يذكر عن ربه فإنه لا حقيقة له ، وأنا ربكم الأعلى .. قال ذلك استهانة بموسى حسب ظاهره . كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك . أما بحسب باطنه فكانت ترتعد فرائصه . ويضيق صدره . وتتلاحق أنفاسه خوفًا من دعاء موسى لربه ، ثم يقول تبريرًا لما زعم أنه يريد قتله ، للتمويه على أتباعه :

(إِنِّىٓ أَخَافُ) إن لم أقتله (أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) أى : أن يغير ما أنتم عليه – وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام التى أمرهم بنحتها وعبادتها لتكون لهم شفعاء عنده كما كان كفار مكة يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

(أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسَادَ) كما أنى أخاف أن يظهر فى أرضكم الفساد إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية ، بأن يُحيل أمنكم إلى اضطراب وتناحر ، فتتعطل المزارع والمكاسب ، ويهلك الناس قتلًا وضياعًا ، وقال قتادة : عنى بالفساد طاعة الله – تعالى – فأراد أن الفساد فى الأرض بظهور طاعة الله .

٢٧ – (وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : وقال موسى – عليه السلام – لقومه بعد ما تردد على لسان فرعون من حديث قتله : (إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم) . والخطاب فى قوله : (وَرَبِّكُم) لمن آمن بموسى أى : اعتصمت بالله ربى وربكم واستعذت به ويؤيده قوله تعالى فى سورة الأعراف : « قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا »[1] وليس الخطاب لفرعون وقومه ، فإن فرعون ومن معه لا يعترفون بربوبيته – تعالى – وفى قوله : (رَبِّى وَرَبِّكُم) بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه . ويعتصموا به اعتصامه ، فإن فى تظاهر النفوس تأثيرًا قويا فى استجلاب الإجابة وصدّر – عليه السلام – كلامه بإنّ تأكيدًا ، وتنبيهًا على أن السبب المؤكد فى دفع الشدة هو العياذ بالله – تعالى – ولم يُسَمِّ موسى فرعون حين استعاذ بالله ، بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة بقوله : (مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة الجرأة على الله – تعالى – ، وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة صاحبه ، وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ، ليكون أدل وأدل على أنه بلغ الغاية فى الطغيان ، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة . فقد استكمل القسوة والجرأة على الله – تعالى – ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٢٨

(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) أى : من أهله وأقاربه .

(يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) أى : يخفيه ويستره عن فرعون وقومه .

(جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : بالآيات التسع الدالة على صدقه .

(يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : إن لم ينزل بكم كل الذى يعدكم به ، بل بعضه هلكتم .

وَوَعَدَ يستعمل فى الخير والشر وهو فى الخير أكثر ، ويتعدى بنفسه وبالباء . وقالوا : أوعده خيرًا وشرًّا بالألف أيضًا وهو فى الشر أكثر .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ) : وهو الذى جاوز القصد وجانب الاعتدال فى أموره .

التفسير

٢٨ - (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) :

ذكر بعض المفسرين أن اسم هذا الرجل حبيب ، وقيل : شمعان قاله السهيلى ، وهو أصح ما قيل فيه ، وهو قبطى من أهل فرعون وأقاربه آمن بموسى سرًّا . قال السُّدى : وهو

الذى نجا مع موسى – عليه السلام – وهذا الرجل هو المراد بقوله : « وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَامُوسَىٰٓ . . . الآية »[1] وهو قول مقاتل ، وقال ابن عباس : لم يكن مؤمن من آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون ، ولم يتعرض له فرعون بسوء ؛ لأنه كان ابن عمه وصاحب شرطته كما قال الآلوسى ،أو لأنه كان يكتم إيمانه عن فرعون وملئه دون موسى – عليه السلام – ومن اتبعه – قال هذا الرجل المؤمن لقومه – : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ) أى : أتقصدون قتله كراهة أن يقول : ربى الله وحده من غير رَوِيَّة منكم فى أمره ، وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرة الشاهدة على صدقه ، والأدلة الكثيرة ، وهذا استنكار من ذلك الرجل عظيم ، وتبكيت لهم شديد ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة. ومالكم من شىء تأخذونه عليه إلَّا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله : (رَبِّىَ اللَّهُ) والحال أنه قد جاءكم بالبينات التى عاينتموها وشاهدتموها لا بينة واحدة جاءكم بها من عند ربكم الإله الحق. وهذا استدراج لهم إلى الاعتراف واستنزال لهم عن رتبة المكابرة . ثم أخذهم بالاحتجاج فقال :

(وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) ولم يكن ذلك لشك فى رسالته وصدقه ، ولكن تلطفًا فى كفهم أى : لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه إلى قتله :

(وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ) أى : وإن يكن موسى رسولًا صادقًا ، يصبكم بعض العذاب الذى يتوعدكم به إن لم يصبكم كله إذا تعرضتم له بسوء وفيه مبالغة فى التحذير فإنه إذا حذرهم من إصابة بعض ما يتوعدهم به أفاد أنه مهلك مخوف ،فما بالهم إذا أصابهم كله ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ، ولهذا قَدَّم احتمال كونه كاذبًا ، وقيل : المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا . وهو بعض ما يعدهم ، كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) : استئناف قصد به احتجاج آخر ذو وجهين :

أحدهما : أنه لو كان مسرفًا كذابًا لما هداه الله إلى البينات ، ولما أيده بتلك المعجزات .

وثانيها : أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ، ولعله أراد به

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٢٠

المعنى الأول ، وأوهمهم أنه أراد الثانى لِتَلِين شكيمَتهم . وفيه تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعائه الربوبية لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة .

(يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ) أى : غالبين فيها .

(مِن بَأْسِ اللهِ) أى : من عذابه .

(مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ) أى : ما أُشير عليكم إلَّا بما أرى لنفسى .

(إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : طريق الصلاح والصواب ، وهو خلاف سبيل الغى والضلال .

(يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ) : يطلق القوم على الرجال ليس فيهم امرأة . والواحد : رجل أو امرؤ من غير لفظه .

(مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) : يعنى أيام العذاب التى عذب فيها المتحزبون على الأنبياء .

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ) أى : مثل جزاء ما دأبوا عليه واعتادوه من الكفر وإيذاء الرسل .

(يَوْمَ التَّنَادِ) أى : يوم القيامة وسمى بذلك؛ لأنه ينادِى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور .

التفسير

٢٩ - (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من قول مؤمن آل فرعون ،وفى قوله :(يا قوْم) دليل على أنه قبطى ، ولذلك أضافهم إلى نفسه ليكون أقرب إلى قبول وَعظِهِ حيث قال : (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ) أى : غالبين على بنى إسرائيل فى أرض مصر لا يستطيع أحد أن يقاومكم فيها فى هذا الوقت . فاشكروا الله على ذلك وآمنوا .

وكون المراد بالأرض : أرض مصر قول السُّدى وغيره .

(فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا) قال ذلك تحذيرًا لهم من نقم الله إن كان موسى صادقًا ، أى : فلا تفسدوا أمركم ، ولا تتعرضوا لعذاب الله بقتله ، فإن العذاب إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، والاستفهام إنكارى . وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه معهم فيما يسوءهم من مجىء بأس الله - تعالى - تطييبًا لنفوسهم ، وإيذانًا بأنه مُناصح لهم ساع فى تحصيل ما يُجْدِيهم ، ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه ، وعندما سمع فرعون ذلك الذى نصحهم به قال : (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ) أى : ما أُشير عليكم إلّا بالذى أراه وأَسْتَصْوِبه لنفسى من قتله ، (وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : وما أهديكم بهذا الرأى من قتل موسى والإيمان بى إلا سبيل الصلاح والصواب . وما أُعلمكم إلا ما أعلم . ولا أُسر عنكم خلاف ما أُظهر . يعنى أنه لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول .

ولقد كذب حيث كان مستشعرًا للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولاه ما استشار أحدا أبدا .

٦

٣٠ - (وَقَالَ الَّذِىٓ ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) :

زادهم من الوعظ والتخويف وقد قوى الله - تعالى - نفسه ، وثبت قلبه ، فلم يرهب فرعون ، ولم يعبأ به ، وأتى بنوع آخر من التهديد والتحذير فقال : (يَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم . .) الآية . أى : إنى أخاف عليكم من تكذيب موسى والتعرض له بالسوء أن يحل بكم مثل ما حلّ بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية فى أيامهم بمعنى وقائعهم التى أذيقوا فيها وبال أمرهم ، والظاهر جمع اليوم ؛ لأن لكل حزب يومًا ولكنه أغنى عنه إضافته إلى الأحزاب مع التفسير بما بعده فى قوله تعـالى :

٣١ - (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) :

أى : إنى أخاف أن يحل بكم مثل جزاء دأب قوم نوح وعاد وثمود ، أى : عادتهم الدائمة من الكفر وتكذيب الرسل وسائر المعاصى .

(وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ) المراد بهم قوم لوط (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) فلا يعاقب بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام ، يعنى أن عذابهم وتدميرهم كان عـدلًا ؛ لأنهم استحقوا ذلك بأعمالهم ، وهو أسلوب بلغ الغاية فى البلاغة لنفى الظلم عنه - تعالى - حيث جعل المنفى فيه إرادة الظلم ، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد .

٣٢ - (وَيَا قَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) :

خوفهم العَذاب الأخروى بعد تخويفهم بالعَذاب الدنيوى . وأفصح عن إيمانه إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل ، أو واثقًا بأنهم لا يقصدونه بسوء ، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ، ويومُ التناد هو : يوم القيامة . سمى بذلك ؛ لأنه ينادى فيه بعضهم بعضًا للاستغاثة ، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور ، أو لتنادى أهل الجنة وأهل النار فينادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة ، وأصحابُ الجنة أصحابَ النار ، كما جاء فى سورة الأعراف ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يراد التذكير بكل نداء فى القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة .

وقرئ : (يَوْمَ التَّنَادّ) بتشديد الدال ، من ندَّ البعير : إذا هرب ، أى : يوم الهرب والفرار لقوله تعالى : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . . . الآيات »[1] ، وفى الحديث : « إن للناس جولة يوم القيامة ينِدّون[2] يظنون أنهم يجدون مهربًا » وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربًا فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفًا فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذْ سمعوا مناديًا : أقبلوا إلى الحساب .

٣٣- (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

أى : أن يوم التناد هو اليوم الذى تولون فيه عن الموقف منصرفين عنه إلى النار ، أو فارين منها إذا سمعوا زفيرها ولا ينفعهم الهرب - كما روى عن الضحاك آنفًا - ورُجح هذا القول بأنه أتم فائدة وأظهر ارتباطًا بقوله تعالى : (مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ) أى : من دافع ومانع يعصمكم فى فراركم من عذاب الله . وقال قتادة : ما لكم فى الانطلاق إلى النار من مانع يمنعكم منها .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى : ومن خلق الله فى قلبه الضلالة وفق اختياره فما له أحد يهديه طريق النجاة أصلًا ، وكأن الرجلَ المؤمن يئس من قبولهم نصحه فقال ذلك ، ووبخهم على تكذيب الرسل السابقين فقال :

(وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾)

---

(١) سورة عبس الآيات : ٣٤ ، ٣٥ (٢) أى : يهربون .

المفردات :

(حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ) أى : مات ، يقال : هلك الشىء هلكًا وهلاكًا وهلوكًا ومهلكًا بفتح الميم ، وأما لامها فمثلثة ، والاسم : الهُلْكُ مثل قُفْل .

(مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مشرك مرتاب بمعنى : شاك فى وحدانيته – تعالى – .

(بِغَيْرِ سُلْطَانٍ) : أى : بغير حجة وبرهان .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ) أى : عَظُمَ جِدَالُهم بُغْضًا عند الله .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله وختم على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك يختم على كل قلب متكبر جبار حَتَّىٰ لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

التفسير

٣٤ – (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) :

قيل : إن هذا من قول موسى – عليه السلام – وقيل : هو من تمام ونمط مؤمن آل فرعون . ذكَّرهم قديم عتوهم على نبيهم : يوسف بن يعقوب[1] بعثه الله رسولًا إلى القبط من قبل موسى . وأيده بالآيات الظاهرة الدالة على صدقه ، وقال ابن جريج : أيده بالبينات وهى : الرؤيا ، كذلك قال ، والله أعلم بهذه البينات التى أيده الله بها .

(فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ) من الدين أى : أسلافكم كانوا فى شك ، فنسب ما للآباء إليهم ، لاشتراكهم فى الضلال والتكذيب ، وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده فقال : « ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[2] . واستمر يدعوهم إلى دين التوحيد حتى (إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا) ضموا إلى الشك فى رسالته تكذيب رسالة من بعده .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ) أى : مثل هذا الإضلال الشديد يضل الله من هو مسرف فى العصيان شاك فيما تشهد به البينات ، لتعصبهم لدينهم ، والإمعان فى التقليد .

---

(١) وقيل : غيره .

(٢) سورة يوسف من الآية : ٣٩

٣٥ - (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) :

قال الزجاج : المراد بالذين يجادلون : كل مسرف مرتاب وهم يجادلون فى الله بغير حجة صالحة للتمسك بها لا نقلية أتتهم من جهته - تعالى - على أيدى الرسل - عليهم السلام - ولا عقلية استنبطوها من الكون .

(كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا) هذا من كلام مؤمن آل فرعون ، وقيل : ابتداءُ خطاب من الله - تعالى - وهو تقرير لما أشعر به الكلام السابق من ذمهم ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام ، أى : كبر بُغْضًا جدالُهم فى آيات الله بغير حجة - كَبُر بُغْضًا - عند الله وعند المؤمنين .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) أى : كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار ، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق ، وقرئ بتنوين قلب ، فما بَعْدَهُ صِفَتُه . ووصف القلب بالتكبر والتجبر ؛ لأنه منبعهما .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(ابْنِ لِى صَرْحًا) أى : بناءً عاليًا كالقصر ، من صَرَحَ الشيءُ : إذا ظَهَر .

(أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) أى : طرقها وأبوابها جمع سبب وهو كل مايتوصل به إلى الشيء .

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) أى : وما مكره واحتياله فى إبطال آيات الله لموسى إلَّا فى خسران وهلاك ، يقال : تَبَّ الله فلانًا أى : أهلكه ، وتبَّت يداه أى : هلكت أو خسرت .

التفسير

٣٦ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) :

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن فى قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يُخْفه عنهم ، وإن لم يصح ثَبَّتهم على دينهم ، لذلك أمر وزيره هامان ببناء الصرح فقال : (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا) أى : قصرًا عاليًا مكشوفًا لا يخفى على الناظر وإن بَعُد (لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) رَجاء أنْ أبلغ الأسباب أى : الطرق كما روى عن السدى ، وقال قتادة : هى الأبواب وهى : جمع سبب ويطلق على ما يتوصل به ، والمراد بها كما قال - سبحانه - :

٣٧ - (أَسْبَابَ السَّمَٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ) :

أى : لعلى أبلغ طرقها وأبوابها . وفى إبهام الأسباب ثم بيانها تفخيم لشأنها ، وتشويق للسامع إلى معرفتها .

(فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) أى : فأنظر إليه . وأراد بذلك أن يعلم الناس بفساد رأى موسى وقوله : إنّى رسول من رب السموات - أن يعلم الناس - أنه إذا كان رسولا منه فهو ممن يصل إليه . وذلك بالصعود إلى السماء وهو محال لا يقوى عليه الإنسان ، ومنشأ ذلك جهله بالله - تعالى - وكيفية استنبائه ، وزعمه أنه - سبحانه - مستقر فى السماء ، وأن رسله كرسل الملوك يلاقونه ويصلون إلى مقره وهو - عز وجل - منزه عن صفات المحدثين والأجسام ولا يحتاج رسله الكرام إلى ما يحتاج إليه رسل الملوك ، وهذا منه نفى لرسالة موسى من الله - تعالى - ولا تَعرُّض فيه لنفى الصانع المرسِل لَهُ : (وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) يحتمل أن يكون عنى به أن موسى كاذب فى دعوى الرسالة أو أن يكون عنى به أنه كاذب فى ادعاء أن له إلهًا غيرهُ كما قال : (مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله .

(وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ) أى : ومثل ذلك التزيين البليغ زين لفرعون عمله السيء فانهمك فيه انهماكًا قويًّا لا يرعوى عنه بأى حال ، (وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ) أى : عن سبيل الهدى والرشاد ، والفاعل فى الحقيقة هو الله - تعالى - ولم يفعل - سبحانه - كلاًّ من التزيين والصد إلّا لأن فرعون طلبه بلسان استعداده ، واقتضى ذلك سوء اختياره : وقرأ

الحجازيان ، والشامى ، وأبو عمرو وصَدَّ : بالبناء للفاعل وهو : ضمير فرعون . على أن المعنى ، وصَدَّ فرعونُ الناس عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات ويؤيده :

(وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) أى : وما مكره فى إبطال آيات موسى إلَّا فى خسارة وهلاك .

(وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) أى : أدلكم على طريق الهدى وهى الجنة .

(إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ) أى : يُمتع فيها قليلًا ثم تنقطع وتزول .

(وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) أى : دار الاستقرار والخلود .

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا فلا يجزى فى الآخرة إلَّا بما يعادلها .

(يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : بغير تقدير وموازنة ، بل أضعافا مضاعفة .

التفسير

٣٨ – (وَقَالَ الَّذِيٓ آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) :

هذا من تمام ماقاله مؤمن أهل فرعون أى : اقتدوا بى فى الدين أهدكم سبيلًا يبلغكم المقصود وهو دخول الجنة ، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي والضلال .

٣٩ - (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) :

أى : إن هذه الحياة الدنيا تَمتُّعٌ أو مُتَمتَّعٌ به يسيرٌ لسرعة زوالها ، أجْمل لهم القول أولًا حيث قال : (اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) ثم فصل فافتتح بذم الدنيا ، وتصغير شأنها ؛ لأن الإخلاد إليها رأس كل شر ، ومنه تتشعب فنون ما يؤدى إلى سخط الله - تعالى - ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال : (وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) لأنها الحياة الباقية وهى دار الاستقرار والخلود ودوام ما فيها .

٤٠ - (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

ذكر الله فى الآية الأعمالَ سيئَها وحسَنَها وعاقبةَ كل منهما ليُثَبِّط عمَّا يتلف ويُنَشِّطَ لما يُزْلِفُ فقال - سبحانه - :

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) أى : من عمل خطيئة فى الدنيا تعدى بها حدود الله فلا يجزى فى الآخرة إلا بما يماثلها عدلًا من الله - جل شأنه - .

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) أى : ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن مصدق بالله - جل شأنه - بقلبه ، ومؤمن بالأنبياء - عليهم السلام - فأُولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير تقدير وموازنة بالعمل ، بل أضعافًا مضاعفة ، تفضلًا منه - تعالى - ورحمة ، وفى تقسيم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والإشعار بالشمول ، والآية تفيد أن الإيمان شرط فى اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه .

وبعد أن قدم هذا المؤمن حديثه لقومه ناصحًا وموجهًا بذكر الدنيا وبيان أنها دار متاع وأنها لا تغنى عن المرء شيئًا يوم الجزاء ، لما تدعو إليه من شر وفساد ، ثم بين أن التعلق بالآخرة ، والتفانى فى الإقبال عليها سبب السعادة والنعيم ، لأنها دار الخلود والدوام - بعد هذا الحديث - كرر نداء قومه إيقاظًا لهم من سنة الغفلة واعتناء بالمنادى إليه ومبالغة فى توبيخهم على تثاقلهم عن الاستماع لنصحه ، كما تبين ذلك الآيات القادمة .

* (وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ) : أدعوكم إلى السلامة من العذاب بإيمانكم .

(النَّـــارِ) : العذاب بالنار ، والمراد أسبابه من الشرك والغيّ والمعاصى .

(الْعَزِيزِ) : الغالب القاهر .

(الْغَفَّارِ) : واسع المغفرة .

(لَاجَرَمَ) : لَا رد وإبطال لدعوتهم الرسول إلى عبادة الأوثان ، وجَرَمَ فعل ماض بمعنى حَقَّ وثبت ، كما فى قول الشاعر :

وَلَقَـدْ طَعَنْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ طَعْنَةً جَرَمتْ فزارةُ بَعدَها أَنْ يغضبوا

أى : حَقَّ لفزارة أن يغضبوا بعد هذه الطعنة .

وفاعل جرم فى الآية مصدر مؤول من أن وما دخلت عليه ، أى : حقَّ وثبت كون ماتدعوننى إلى عبادته لَا يصح أن يدعى لَا فى الدنيا ولَا فى الآخرة .

وقال الفراء : معنى (لَاجَرَمَ) فى الآية : لابد ولامحالة ، وعلى هذا تكون « بُدّ » اسم لا النافية للجنس ، وخبرها مصدر مؤول مما بعدها ، وهذا هو معناها الأصلى ، فلمّا كثر

استعمالها صارت بمنزلة « حقًّا » فلذلك يجاب عنها باللّام كما يجاب عن القسم ، ألا ترى أنهم يقولون : لَاجَرَم لآتيتك . انتهى كلام الفراء بتصرف .

(مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ) : مرجعنا إلى الله بالموت .

(الْمُسْرِفِينَ) : المشركين ، وكل من غلب شرُّه خيره فهو مسرف .

التفسير

٤١ - (وَيَا قَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) :

هذه الآية الكريمة من كتاب الله نداء من جملة النداءات التى تكررت فى هذه السورة ، وهيمنت على جوها ، وتنوعت بها أساليب التنبيه ، وألوان التحذير والتخويف، تذكر بالنعم وتحذر من وقوع النقم . كما فى قوله -تعالى- : (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَآءَنَا) .

كما تحذر من الفتن المهلكة والعقوبات المدمرة التى وقعت بالأُمم السابقة فأبادتها كما فى قوله : (وَقَالَ الَّذِيَ آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ) .

أو تذكر بيوم القيامة ومايحتويه من أهوال وشدائد ، كما فى قوله : (وَيَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) أو تنبه إلى أن الدنيا متاع سريع الزوال ، وأن الآخرة هى دار الدوام والاستقرار . كما فى قوله :(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) .

كما تَنْعَى على الكافرين والمشركين انتكاس الطبع ، وسوء السلوك . إيقاظًا لهم من سِنة الغفلة ، واهتمامًا بالمنادى ، ومبالغة فى توبيخهم على مـا قابلوا به دعوته .

واقترن النداء فى الآية بالعطف لأنه للموازنة بين الدعوتين : دعوته لهم إلى دين الله الذى ثمرته النجاة ، ودعوتهم له إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار ، وذلك لتحقيق أنه هاد وأنهم مضلون ، وأن ما عليه هو الهدى ، وما هم عليه هو الضلال .

والمعنى : ويا قوم إنِّى لأعجب من أمركم ، فأخبرونى كيف هذه الحال التى أنتم معى عليها ؟ أدعوكم إلى الخير ، ومسالك النجاة ونعيم الجنة ، وتدعوننى إلى الهلاك ، ومهاوى الجحيم .

وفى ندائهم بيا قوم وتكرار ذلك مع كل نداء مزيد من التلطف معهم . والإشفاق عليهم ، والتحنن فى دعوتهم إلى ما فيه خيرهم ونجاتهم ، لانتزاع شفقتهم وطاعتهم حتى ينزلوا على نصحه ، ويستجيبوا لدعوته ، ولا يتهموه كما فعل إبراهيم - عليه السلام - فى نصح أبيه ، حيث ناداه متلطِّفًا بقوله : « يَـٰٓأَبَتِ » .

٤٢ - (تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) :

هذه الآية تفسير وبيان للآية السابقة ، أى : تدعوننى لأُنكر وحدانية ربى ، وأُشرك به آلهة أخرى باطلة زائفة لم يقم دليل على ألوهيتها .

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) معناه : وأنا أدعوكم إلى عبادة الإله القادر الغالب على أمره ، الغفار لذنوب التائبين .

وخص هذان الوصفان : (الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) لاقتضائهما جميع الصفات،لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء من الله ، فإنهما مناسبان لحالهم .

٤٣ - (لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) :

لفظ (لَا) فى قوله : (لَا جَرَمَ) رد لما دعاه إليه قومه ، وجرم بمعنى حق ، وتقدم باقى الكلام عليها فى المفردات .

والمعنى : حقٌّ وثبت بطلان ما تدعوننى إلى عبادته من الأصنام ، فليس لها دعوة ترجى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فهى لا تضر ولا تنفع ، وأن مرجعنا إلى الله الذى أدعوكم إلى عبادته وأن المسرفين بعبادة غيره هم أصحاب النار لا ينفكون عنها ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

(فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(أُفَوِّضُ أَمْرِى) : أردّ أمرى وأسلمه إلى الله ليعصمنى .

(فَوَقَاهُ) : حفظه ونجاه .

(حَاقَ) : نزل ولزم وأحاط .

(سُوٓءُ الْعَذَابِ) : العذاب السَّيِّئ من الغرق والنار ، فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .

(السَّاعَةُ) : القيامة .

التفسير

٤٤ - (فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) :

هذا آخر مايقوله الناصح بعد أن يستكمل كل أساليب النصح ، ويستجمع جميع عبارات التحذير والتخويف ، يقول ذلك إعذارًا لنفسه ، وتهديدًا مُغَلَّفًا بأُسلوب النصح والإشفاق .

والمعنى : فسيذكر بعضكم لبعض عند مواجهة العذاب ومجابهة الحساب يوم القيامة ما دعوتكم إليه ونصحتكم به ، وحذرتكم مخالفته ، فلم يكن منكم إلَّا الإسراف فى العناد ، والإصرار على الكفر ، والإفحاش فى التهديد ، ولم يكن لى بعد هذا إلَّا أن أردَّ أمرى إلى الله ،

وأسلم نفسى إليه ، يحفظنى من كيدكم ، ويقينى من سيئاتكم ، إنه بصيرٌ بالعباد مطلع على أحوالهم التى من جملتها حالى وحالكم ، لايغيب عنه شأن ، ولاتخفى عليه خافية .

٤٥ - (فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ) :

الضمير فى قوله - تعالى - : (فَوَقَاهُ) لموسى - عليه السلام - .

والمعنى : فَوَقَى الله موسى ومن معه ، وحفظه من فرعون وبطشه ، وردّ كيده ومكره إلى نحره ، وأنزل به وبقومه العذاب البالغ أقصى درجات السوء فى الدنيا بالموت غرقًا ، وفى الآخرة بالنار إحراقًا ، وتلك عقبى الظالمين ، ومثوى المتكبرين المتجبرين ، ولم يصرح باسم فرعون امتهانًا له ، وإشعارًا بأصالته فى المسئولية .

٤٦ - (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) :

هذا كلام مستأنف مرتب على سؤال تقديره : كيف حال آل فرعون بعد غرقهم؟ فقيل : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . .) الآية .

وفى هذه العبارة غاية التهكم بهم وامتهانهم ، حيث بَدَّلَهُم الله باستروا حهم بأنفاس الصباح الندية ، وأنْسَام العِشاء الرخية - بَدلهم بذلك - العَرْضَ على النار غدوًّا وعشيًّا فى قبورهم ما دامت الدنيا حتى إذا قامت القيامة قال الله لخزنة جهنم : أدخلوا فرعون وآله المتجبرين أشد العذاب فى جهنم فى مقابل شدة جبروتهم .

وتحديد الوقتين لأنهما الوقتان المعتادان للاسترواح والراحة عند أهل الترف ، فيكون ذلك أنكى فى التهكم والسخرية ، وأجلى فى تصوير العذاب والامتهان ، ويكون ما بين الوقتين متروكًا لأمر الله - تعالى - يجرى عليهم عذابًا آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يراد بذكر الوقتين التأبيد ما دامت الدنيا جريًا على الأسلوب العربى فى التعبير أحيانًا عن جميع الوقت بذكر الطرفين كما فى قول الخنساء :

يُذَكِّرُنى طُلُوع الشَّمس صَخْرًا   وَأَذْكُرهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْس

ومثل هذا فى القرآن الكريم كقوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) أى : دائما فى كل وقت .

والظاهر هو المعنى الأول ، وهو عرضهم على النار فى وقتى الصباح والمساء ، فهو المناسب لحديث الصحيحين البخارى ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشىّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » . ومن أجل ذلك قيل بعذاب البرزخ .

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(يَتَحَاجُّونَ) : يحاجّ بعضهم بعضًا ويتخاصمون .

(الضُّعَفَاءُ) : الأتباع .

(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : للمتبوعين والسادة .

(تَبَعًا) : جمع تابع كخدم وخادم - أو على تقدير : ذوى تبع .

(مُّغْنُونَ) : حاملون أو دافعون .

(حَكَمَ) : قضى وفصل .

التفسير

٤٧ - (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ) :

المعنى : واذكر يأيها الرسول لقومك فيما تذكر لهم من أحوال هؤلاء المشركين ، وما يجرى عليهم من أجل شركهم وعنادهم – اذكر – إذ يتخاصمون فى النار ويحاجّ بعضهم بعضًا بعد دخولها واصطلاء جحيمها ، فيقول الأتباع الضعفاء المغلوبون للسادة القادة الذين استكبروا عليهم وسخروهم لمصالحهم وفتنوهم فى دينهم – يقولون لهم – متهكمين شامتين : إنكم كنتم تستعلون علينا فى الدنيا وتزعمون لأنفسكم السلطان ، والغلبة والقهر ، وإنا كنا لكم تبعًا فيما تدعوننا إليه ، وتأمروننا به ، فهل أنتم حاملون عنّا الآن أودافعون بعض ما نعانيه من هول النار وعذابها بسبب طاعتنا لكم واتباع أمركم ؟

٤٨ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) :

أى : قال السادة الذين استكبروا جوابًا للضعفاء الأتباع الذين سألوهم تهكمًا أن يحملوا عنهم أو يدفعوا بعضًا من العذاب الذى هم فيه – قال الذين استكبروا :

(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أى. نحن وأنتم فى النارِ سواء ، فكيف نغنى عنكم ونحن لا نقدر أن ندفع عن أنفسنا شيئًا من العذاب .

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) أى : إن الله القادر على الحكم المالك لكل شىء قد قضى وفصل بين العباد ، فأدخل أهل الجنّة الجنة ، وأهل النار النار ، وقدّر لكل منّا ومنكم عذابًا لا يدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(خَزَنَةُ جَهَنَّمَ) : القُوام على تعذيب أهلها .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالمعجزات والآيات .

(بَلَىٰ) : نعم جاءونا .

(ضَلَالٍ) : بطلان وضياع .

(الْأَشْهَادُ) : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، والمراد : الأنبياء والحفظة .

(اللَّعْنَةُ) : الإبعاد والطرد من رحمة الله .

التفسير

٤٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ) :

المعنى : وقال الذين انتهى أمرهم بدخول النار من الضعفاء والمستكبرين جميعًا حين استقروا فى الجحيم ، ولفهم اليأس ، وضاقت بهم الحيل ، وأعيتهم العلل - قالوا - لخزنة

جهنم القوّام بتعذيب أهل النار : ادعوا ربكم يخفف عنَّا شيئًا من هذا العذاب الذى نعانيه ، أو يدفع عنَّا يومًا من أيام العذاب لعلَّنا نسترد به قوتنا ، ونجمع فيه طاقتنا ، فيقوى احتمالنا له ، وصبرنا عليه .

وهو قول يمثل أقصى درجات المهانة والذل ، فإنه ليس أذل على النفس ، ولا أشد وقعًا من أن تبتغى الرحمة من القائم على تعذيبها ، أو ترجو الإشفاق من جلادها ، ولهذا اقتصروا فى طلبهم على تخفيف قدر يسير ، أو وقت قصير .

٥٠ - (قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) :

المعنى : قال خزنة جهنم لأهل النار الذين طلبوا منهم الدعاء بتخفيف العذاب عنهم - قالوا لهم - إلزامًا وتوبيخًا على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة : ألم تُنَبَّهوا إلى هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا بالحجج الواضحة ، والآيات البينة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما ينطق بذلك - قوله تعالى - : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا . قَالُوا بَلَىٰ »[1] أى : قال أهل النار لخزنة جهنم : نعم جاءونا ودعونا ونصحونا وأعذروا بالحجج والبراهين فعارضناهم وكذبناهم .

(قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) أى : قال خزنة جهنم لهم إمعانًا فى التوبيخ والتيئيس : إذ كان هذا شأنكم فادعوا أنتم ؛ فإن الدعاء مِنَّا مستحيل لمن يفعل فعلكم وما دعاؤكم مهما تضرعتم وطال دعاؤكم إلَّا فى بطلان وضياع .

ووضع الكافرين موضع ضميرهم بيانًا لمقتضيات البطلان، وقصد التوبيخ والامتهان ، وقوله - تعالى - :

(وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ) : يحتمل أن يكون من جملة الكلام المقول على لسان الخزنة، وأن يكون من كلام الله - تعالى - إخبارًا منه لرسوله - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٧١ .

٥١ - (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) :

هذه الآية استئناف كلام مسوق من جهة الله - تعالى - لبيان ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى، وهو فرع من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم الذين يؤمنون بهم، ويصدقون دعوتهم فى الحياة الدنيا وننتقم لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي .

(وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) : ويوم القيامة عند جمع الأولين والآخرين، وشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ ، وأداء الأمانة على وجهها ، وعلى الكفرة بالتكذيب والجحود والعناد .

ونصرهم فى الدنيا واقع لا شك فيه ولا سبيل إلى تخلفه ، وقد يتأخر حدوثه بعض الوقت لحكمة يعلمها الله - تعالى - .

٥٢ - (يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) :

المعنى : أنَّ يوم يقوم الأشهاد هو يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، أى : يوم لا يكون للظالمين معذرة أصلًا يعتذرون بها لانقطاع حجتهم ، ونفاد حيلتهم ، أو يوم يعتذر الظالمون فلا تقبل منهم معذرة ولا تدفع عنهم من العذاب قليلًا أو كثيرًا ، وتكون لهم اللّعنة ، والطرد من رحمة الله ، ولهم الدار التى يسوؤهم عذابها ويشقيهم المقام فيها . وهى جهنم .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(الْهُدَى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

(الْأَلْبَابِ) : العقول ، جمع لُبّ .

(يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ) : يخاصمون فيها بالباطل ويجحدون .

(سُلْطَانٍ) : برهان وحجة .

التفسـير

٥٣ ـ ٥٤ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ . هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة بمثابة تمثيل لنصرة الله ـ تعالى ـ لأنبيائه ، لأن تأييدهم بالمعجزات وإنزال الكتب عليهم نوع من نصر الله لهم ، بجانب كونه هدى وذكرى لأقوامهم .

والمعنى : ولقد كان من جملة نصرنا لرسلنا وصدق وعدنا لهم أن آتينا موسى ما يهتدى به من المعجزات الهادية إلى الحق ، وأورثنا قومه بنى إسرائيل التوراة هداية وتذكرة أو هاديًا ومذكرًا لذوى العقول السليمة والأفهام الخالصة من شوائب الوهم ، والصافية من غيوم الشكوك والأهواء .

٥٥ ـ (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) :

المراد من ذنبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خالف به الأَوْلى بالنسبة لمقامه ، وإن لم يكن ذنبًا فى حقه وحق غيره فى الواقع[1] .

والمعنى : إذا علمت ذلك ـ أيها الرسول ـ وسمعت ما قصصناه عليك من أن نصرة الرسل تكفل بها الله ووعد بها ، فَأَخْلِدْ إلى الصبر على أذى قومك فإن العاقبة لك ، وما سبق به

---

(١) وقيل : أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاستغفار تعبدى لرفع درجاته وهضم نفسه ، ولتصير الاستغفار سنة أمته .

الوعد من نصرتك ، وإعلاء كلمتك حق وصدق فانتظره ولا تستعجله ، وأقبل على التقوى ، واستدرك ما حدث منك مما يخالف الأولى بالنسبة لك – استدركه – بالاستغفار ودم على عبادة ربك تسبيحًا وتحميدًا وثناء عليه بالعشى « آخر النهار » ، والإبكار « الدخول فى الصباح » بخاصة ، أو فى جميع الأوقات ، والمراد من التسبيح والتحميد معناهما المعروف ، وقيل : المراد بهما الصلاة ، فعن قتادة : ركعتان بكرة – صُبْحًا – وركعتان عشيًّا – عصرًا – لأن الواجب بمكة كان ذلك . وبنحوه قال الحسن : ركعتان بكرة وركعتان عشيًّا ، وحكى فى البحر عن ابن عباس أن المراد الصلوات الخمس .

٥٦ – (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

المعنى : إن الذين من شأنهم أن يخاصموا فى آيات الله البينات ، وبراهينه الواضحات ويجحدونها من غير أن يقوم جدلهم فيها على علم ، أو يستند إلى برهان ودليل ، لا يفعلون ذلك عن رأى سديد ، وليس فى صدورهم من ذلك إلَّا كبرٌ على الحق ، وتعظُّم عن التعلُّم ، ما هُم ببَالِغِى هذا الْكِبْر الذى يُدْفَعُ به الحق ، أو ما هُم ببالغى ما أرادوه من جدلهم من إبطال آيات الله ، لأن الله – تعالى – أذلَّهم ، وجعل لك الغلبة عليهم فاستسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجًا .

وقوله – تعالى – : (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) توجيه للرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمر له أن يلتجئ إلى الله من كيد من يحسده ، ودفع من يبغى عليه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : إن الله – تعالى – هو عظيم السمع لأقوالهم وجدالهم ، واسع العلم بأحوالهم وأفعالهم .

(لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾)

المفـردات :

(الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ) : الغافل والمستبصر .

(السَّاعَةَ) : القيامة .

(لَا رَيْبَ فِيهَا) : لا شك فى وقوعها وحدوثها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين أذلاء .

التفسير

٥٧ - (لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

لما كان البعث من مواضع جدلهم الواسع ، ومكابرتهم الزائفة ناسب أن تأتى هذه الآية بعد آية الجدل تحقيقًا للحق ، وتبيينًا لأشهر مايجادلون فيه جهلًا وعنادًا من غير اعتماد على علم أو استناد إلى برهان، على منهاج قوله - تعالى - : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم[1] » .

---

(١) سورة يس من الآية ٨١ .

والمعنى : لخلق السموات والأرض على اتساعهما ، وامتداد طولهما وعرضهما ، وحكمة نظامهما وما يحتويان من كائنات عظيمة ، وما يختلف عليهما من تغاير أطوار ، وتباين أحوال ، وما يقع فيهما أو عنهما من أحداث - لخلق هذا كله - أكبر وأعظم من خلقه - تعالى - الناس ، لأن الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمة والأحداث الهائلة كلا شىء ، والمراد : أن من قدر على خلق ذلك فهو - سبحانه - على خلق ما لا يعدُّ شيئًا بالنسبة إليه بَدْءًا وإعادة أقدر وأقدر ، وقوله - تعالى - : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ولكن أكثر الناس من الكفرة والمشركين لا يعلمون شيئًا من هذا ، ولا يتدبرونه تدبرًا يهديهم إلى الحق ، ويردهم إلى الإيمان والتصديق ، فهو الذى تقتضيه الحكمة اقتضاء ظاهرًا ولكنهم لا يفقهون .

٥٨ - (وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ) :

نفت الآية السابقة العلم عمّن عطل عقله ، وجمد فكره فلم ينظر فى آيات الله نظرة تأمُّل ، ولم يعمق التفكير فى قدرته الظاهرة فى مخلوقاته ، وجاءت هذه الآية تبرز هذا المعنى بالقياس بين الأعمى والبصير ، وبين المحسن والمسئ ، ليستبين الحق من الباطل .

والمعنى : وما يستوى الأعمى الذى لا يبصر مباهج الحياة ووشيها وجمالها ، ولا يعرف عدوه من صديقه ، ما يستوى هذا الأعمى مع البصير الذى له عينان تجولان فى أرجاء الكون ، وتنطبع على ناظريهما آياته ، ويشاهد بهما البساتين وزهورها وثمارها ، ويتمتع بصفحات الجمال فى كل الكائنات علوبها وسفليها ، ويرى صديقه فيلاقيه ، ويبصر عدوه فيتقيه ، وإذا كان هذان لا يستويان فى الاستفادة من آيات الحياة الدنيا والشعور بجمالها وجلالها ، والاستمتاع بها ، فالأعمى محروم والبصير يتقلب فى النعيم ، وإذا كان هذان لا يستويان فمثلهما المؤمن الذى يعمل الصالحات فى دنياه ، فينعم فى الدنيا بحياته ويخلد فى الجنة بعد مماته ، فلا يستوى مطلقاً مع الكافر المسىء إلى نفسه وإلى ربه فى حياته ، الخالد فى النار بعد مماته (قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ) فلا تدركون الحقائق على وجهها .

وفى الآية لمحات :

١ - عدل عن التقابل الظاهر فى قوله - تعالى - : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ) فلم يقل : والمحسن والمسيء كما فى قوله : الأعمى والبصير ، إشارة إلى أن المؤمن أصل فى الإحسان وعَلَمٌ له .

٢ - قدم الأعمى لمناسبة العمى ماقبله من نفى العلم ، وقدم الذين آمنوا بعد عكس ما قبله لمجاورة البصير وشرفه ، على أن الافتنان فى الأسلوب قد يقتضى طرقاً أخرى ، فيقدم ما يناسب الأول ويؤخر ما يقابل الآخر كقوله - تعالى - : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ[١] » أو يؤخر المتقابلان كما فى قوله - تعالى - :

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ[٢] » .

٣ - وأعيدت (لا) مع المسيء تذكيرا للنفى ، لما بينهما من الفصل بطول الصلة ، ولإظهار المقصود بالنفى من الفرق بين المحسن والمسيء .

٥٩ - (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ) :

أى : إن القيامة آتية واقعة لا شك فى حدوثها ، ولا ريب فى وقوعها البتة ، لوضوح ظواهرها ، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ولكن أكثر الناس من الكفار والمعاندين لايؤمنون بحدوثها ، ولا يصدقون بوقوعها لقصور أنظارهم ، واستيلاء الأوهام على عقولهم .

٦٠ - (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية الكريمة توجيه من الله - عز وجل - لخلقه أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويجأروا له بالرجاء ، تعظيما لقدرته واعترافا بعجزهم وحاجتهم إلى عطائه وفضله .

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

(٢) سورة هود من الآية : ٢٤ .

والمعنى : وقال ربكم ادعونى ، أى : اعبدونى ، والدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن الكريم ، ويدل عليه قوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى) والاستجابة : الإثابة ، وفى تفسير مجاهد : « اعبدونى أثبكم » وعن الحسن وقد سئل عنها : « اعملوا وأبشروا فإنه حقٌّ على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » وعن الثورى أنه قيل له : ادع الله - تعالى - فقال : « ترك الذنوب هو الدعاء » وفى الحديث : « إذا شَغَل عبدى طاعتى عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وروى النعمان بن بشير - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ : « الدعاء هو العبادة » وقرأ هذه الآية . ويجوز أن يراد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويراد بعبادتى دعائى لأن الدعاء باب من أبواب العبادة ، ومن أفضل أبوابها ، يصدق ذلك قول ابن عباس - رضى الله عنه - : « أفضل العبادة الدعاء » .

وعن كعب : أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلاَّ نبياً مرسلا ، كان يقول لكل نبى : « أنت شاهدى على خلقى » وقال لهذه الأمة : « لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ [(١)] » وكان يقول : « ما عليك من حرج » وقال لنا : « مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ [(٢)] » وكان يقول : « ادعنى أستجب لك » وقال لنا : (ادْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ [(٣)]) .

وعن ابن عباس : « وحدونى أغفر لكم » وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ، ثم للعبادة بالتوحيد .

وقوله - تعالى - : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى . .) الآية ، معناه : إن الذين يستعلون عن عبادتى ويتعاظمون على توحيدى وطاعتى أو على دعائى والتضرع إلىَّ سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين لا يغنى عنهم تكبرهم من دخولها ولا يدفع عنهم من عذابها .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .
(٢) سورة المائدة من الآية : ٦ .
(٣) سورة غافر من الآية : ٦٠ .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۘ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾)

المفـردات :

(لِتَسْكُنُوا فِيهِ) : لِتُخلِدوا فيه إلى السكون والراحة .

(مُبْصِراً) : مضيئاً صالحا للحركة والعمل .

(تُؤْفَكُونَ) : تصرفون عن عبادة الله .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون ويُكَذِّبون .

التفسـير

٦١ - (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

تنتقل الآيات إلى بيان فضل الله على عباده بتنظيم أوقاتهم بين الراحة والسكون ، وبين العمل والحركة .

والمعنى : الله - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلما لتخلدوا فيه إلى الراحة والسكون استجماما من مشاق العمل والسعى ، وجعل النهار مبصرا مضيئاً ، ليعين على السعى والعمل فى تحصيل الأرزاق وإنجاز الأعمال ، وتوفير أسباب الحياة والعيش ، إن الله لذو فضل على الناس جميعاً : مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، بتدبير أحوالهم ، وتنظيم أوقاتهم، ولكن أكثر الناس لا يؤدون حق الشكر لهذه النعم لجهلهم بالمنعم وإغفالهم النظر فى نعمه .

٦٢ - (ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) :

أي : ذلكم المتصف بالصفات المذكورة : هو الله وهو ربكم وهو خالق كل شيء لا إله إلا هو ، فهذه جملة من الأخبار مترادفة تُعزِّز اللاحقة منها السابقة عليها وتقررها ، وتؤكد اتصافه - تعالى - بها واستحقاقه لها ، ليحسن بعدها موقع (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أى : فكيف تصرفون عن عبادة من هذا شأنه ، وتلك صفاته ، وهذه أياديه وفضائله .

٦٣ - (كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) :

أى : مثل ذلك الإفك العجيب والصرف الغريب عن الحق يصرف كل من جحد بآيات الله وأنكرها مع آثارها الظاهرة وشواهدها الباهرة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ج ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ج فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ج ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(قَرَارًا) : مَسْكَنًا ومستقرا تستقرون فيه . (بِنَآءً) : سقفا وقبة مضروبة عليكم .

(الطَّيِّبَاتِ) : الحلائل أو المستلذات من المطعم والمشرب والملبس وغيرها.

التفسير

٦٤ - (اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

تمضى هذه الآية فى تعداد آيات الله - تعالى - وبيان فضله المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان فى الآيات السابقة .

والمعنى : الله – سبحانه وتعالى – الخالق البارىء الذى لا يعجزه نظام . ولا يشغله شأن عن شأن : واسع القدرة ، بديع الصنعة ، ومن مظاهر قدرته ، وبدائع صنعته أن جعل لكم الأرض مستقرا تستقرون فيها ، وتعيشون عليها ، وتسعون فى مناكبها ، وجعل السماء لكم سقفا محفوظاً وقبّة مضروبة تدفئكم شمسها ، وتهديكم نجومها ، ويمطركم سحابها ، وصوركم فأحسن صوركم حيث خلق كل واحد منكم منتصب القامة متناسب الأعضاء مهيأً لمزاولة الصنائع ، واكتساب المعـارف والكمالات ، وزاد فضله فيكم وتضاعفت نعمه عليكم فرزقكم من الحلال الطيب ما تستلذون به مطعما ومشربا فاستحق بهذا كله التنزيه والتأليه ، فتنزه الله – تعالى – رب العالمين ، ومالك جميع الخلائق والمخلوقين ، فالكل فى ملكوته مفتقر إليه فى وجوده وسائر أحواله .

٦٥ – (هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : هو المتفرد بالحياة الذاتية لا إله إلا هو ، إذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته – عزّ وجل – فادعوه واعبدوه وحده لاختصاصه بما يوجب ذلك – ادعوه – مخلصين له الدين من الشرك الخفى والجلى ، حامدين له معترفين بربوبيته الكاملة المستأهلة لدوام الحمد والثناء .

وقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) من الكلام المقول على لسان المأمورين بالعبادة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : « من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله – تعالى – : (فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . . .) .

* (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(الْبَيِّنَٰتُ) : البراهين والآيات الواضحات التى تدل على التوحيد .

(أُسْلِمَ) : أنقاد وأخلص . (خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ):خلق أباكم آدم منه .

(نُطْفَةٍ) : مَنِىٌّ .

(عَلَقَةٍ) : دم غليظ .

(أَشُدَّكُمْ) : كمال عقلكم وقوتكم .

(أَجَلًا مُّسَمًّى) :يوم القيامة ، أو يوم الموت .

(قَضَىٰٓ أَمْرًا) : أراد إبراز أمر إلى الوجود .

(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) :يوجد عقب الأمر بالتكوين .

التفسير

٦٦ - (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فقد ذكر القرآن فى الآيات السابقة أن الله خالق كل شىء ، ثم بين بعض آلائه ونِعَمِه على خلقه حيث جعل لهم الأرض قرارا ، والسماء بناء ، وصورهم فأحسن صورهم ، ورزقهم من الطيبات ، ثم ذكر بعض صفاته الجليلة وأنه حى لا إله إلا هو ، فتوجهوا إليه وحده بالعبادة والحمد ، فالحمد كله حق ثابت ومقرر لله رب العالمين .

وجاءت هذه الآية لتبين أن الله المتصف بهذه الكمالات أمر رسوله أن يبلِّغ الناس أنه نهى عن عبادة غير الله الذى سبقت صفاته وأمرَ أن ينقادوا ويخلصوا لله رب العالمين فقال :

(قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . .) إلخ :

أى : قل يامحمد لهؤلاء المشركين وكانوا قد دعوه إلى دين آبائه - قل لهم يامحمد - : نهانى الله الحى القيوم الذى لا إله غيره عن أن أعبُدَ غير الله ، وأمرت أن أذل وأخضع وأنقاد له - تعالى - وأخلص له - عز وجل - دينى لأنه رب العوالم كلها المستحق وحده للعبادة دون سواه .

٦٧ - (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

الله وحده الذى خلقكم من تراب ، ثم من مَنِىٍّ ، ثم من قطعة عالقة بجدار الرحم فيها الخطوط الأولى للتخليق ، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ، ثم ينسأ أعماركم ويؤخرها لتبلغوا أشدكم من الكمال والقوة ، ثم يمد فى آجالكم لتكونوا شيوخا ، هو وحده الذى يقلبكم فى هذه الأطوار ، وعن أمره وتدبيره يكون ذلك كله .

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ) أى : من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله . جعلكم الله على هذا النظام وخلقكم على هذا النمط لتبلغوا وقتا مسمى عنده وهو يوم البعث ، وقيل : يوم الموت ولكى تعقلوا مافى هذا التنقل فى الأطوار المختلفة من فنون الحِكَم والعِبر والدلالة على أنه - تعالى - قادر على بعثكم ، وقال القرطبى :

(وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ذلك فتعلموا أنه لا إلٰه غيره .

٦٨ - (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) :

هو الذى يحيى الأموات ويميت الأحياء ، أو الذى يفعل الإحياء والإماتة المتفرد بذلك لايقدر على ذلك أحد سواه ، فإذا أراد إبراز أمر من الأمور إلى الوجود فإنما يقول له : كن فيكون ، من غير توقف على شيء من الأشياء أصلا ، فهو - سبحانه - لايُخالَف ولا يُمانَع ولايعجزه شيءٌ ، ماشاء كان لامحالة من غير كلفة ولا معاناة .

ويقول الزمخشرى - فى موقع جملة : (إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) مما قبلها - يقول : جعل هذا نتيجة لقدرته على الإحياء والإماتة وسائر ماذكر من أفعاله الدالة على أن مقدورا لا يمتنع عليه كأنه قال : فلذلك الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شيء عليه وأيسره .

وقال العلامة الآلوسى : وهذا عند الخَلَف تمثيل لتأثير قدرته - تعالى - فى المقدورات عند تعلق إرادته - سبحانه - بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور [الآلوسى ص ٨٤] .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾)

المفـردات :

(أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) : كيف تصرف عقولهم عن النظر فى الآيات .

(بِالْكِتَابِ) : بالقرآن . (وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا) : من الكتب أو الشرائع .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) : عقوبة تكذيبهم . وهذا وعيد لهم .

(الْأَغْلَالُ) : القيود تجمع الأيدى إلى الأعناق .

(يُسْحَبُونَ) : يجرون .

(الْحَمِيمِ) : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة .

(يُسْجَرُونَ) : توقد بهم النار أو تُملأ .

(ضَلُّواْ عَنَّا) : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم .

(تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ) : تبطرون ودون تفكير فى الآخرة .

(تَمْرَحُونَ) : تتوسعون فى الفرح والبطر ، وقيل المرح : الفخر والخيلاء .

(فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : فَقَبُح مقر المتكبرين جهنم .

التفسير

٦٩ ـ (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ) :

تعجيبٌ من أحوالهم القبيحة وآرائهم الفاسدة ، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

والمعنى : انظر يامحمد إلى هؤلاءالمجادلين فى آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها إلى الضلال مع صدقها ووضوحها مما يدعو إلى الإقبال عليها ، والإعراض عما سواها .

٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ - ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ * ﴾ :

الذين كذبوا بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب والشرائع وجادلوا فيها فسوف يعلمون عاقبة ما ارتكبوا من الجدال ، ووبال ما اجترحوا من التكذيب عند مشاهدة عقوبة ذلك، وجزاءه حيث تكون الأغلال والسلاسل فى أعناقهم والزبانية يجرونهم بها فى الماء الشديد الحرارة ، ثم بعد ذلك فى النار يسجرون ، أى : يطرحون فيها فيكونون وقودا لها .

قال مجاهد : يقال : سجرت التنور أى : أوقدته ، وسجرته : ملأته .

والمراد بهذا وماقبله ردع المجادلين فى آيات الله ، والمكذبين برسله وكتبه وتخويفهم ، برسم هذه الصورة الرهيبة المفزعة التى تقشعر من سماع وصفها الأبدان ، وتذوب لفائف القلوب .

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) أى : ثم يقال لهم -تقريعا وتوبيخا- : أين معبوداتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ !

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) أى : قال الكافرون : غابوا عنا ، من ضلت دابته :إذا لم يعرف مكانها .

وهذا لاينافى مايشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم فى النار كما ورد فى مواضع أخرى من القرآن ، لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف، فيجوز غيبتهم عنهم فى بعضها واقترانهم بهم فى بعض آخر ، ويجوز أن يكون ضلالهم استعارة لعدم النفع فحضورهم كالعدم .

(بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا) قال الكافرون : بل تبين لنا اليوم أنا لم نكن نعبد فى الدنيا شيئا يعتد به ، وهو إضراب منهم عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم ،أو ليست بنافعة ، إلى أنها ليست شيئا يعتد به ، وفى ذلك اعتراف بخطئهم

وندم على قبح فعلهم حيث لاينفع ذلك ، قال الآلوسى : وجعل الجلبى هذه الآية كقوله تعالى: « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » :[١] يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم .

وهكذا لايكتفى بهذا العذاب الجسدى الذى سبقت صورته البشعة ، بل يضم إليه عذاب نفسى وهو سؤالهم على سبيل التقريع والتأنيب : أين ماكنتم تعبدون من دون الله هل نفعكم هؤلاء الشركاء ؟ فأجابوا : (ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا) .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ) أى : مثل ذلك الإضلال يضل الله – تعالى – فى الدنيا الكافرين حتى إنهم يدعون فيها مايتبين لهم فى الآخرة أنهم ليسوا بشىء .

٧٥ – (ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ) :

تقول الملائكة للكافرين : ذلكم العذاب الذى أنتم فيه – المذكور فيما سبق من سحبهم بالسلاسل والأغلال وتسجيرهم فى النار ، وتوبيخهم بالسؤال – ذلكم جزاء ما كنتم تفرحون فى الأرض بغير ما يستحق الفرح ، وتظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة وتنكرون البعث والتوحيد ، وبما كنتم تبطرون وتأشرون[٢] حتى نسيتم لذلك الآخرة ، واشتغلتم بالنعمة عن المنعم ، وفى الحديث : « الله تعالى يبغض البَذِخِينَ الفَرِحين ، ويحب كل قلب حزين » ذكره الآلوسى والقرطبى .

والعدول فى الآية إلى الخطاب للمبالغة فى التوبيخ ؛ لأن ذم المرء فى وجهه أبلغ فى التوبيخ .

٧٦ – (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) :

أى : ادخلوا أبواب جهنم مُقدَّرا لكم الخلود فيها ، فبئس المنزل والمأوى الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه .

وكان مقتضى النظم الجليل حيث صُدِّر بلفظ (ادخلوا) أن يقال : فبئس مدخَلُ المتكبرين ، ليتجاوب الصدر والعجز كما تقول : زرت بيت الله فنعم المزار ، وصلِّ

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٣ .

(٢) البطر والأشر : قلة احتمال النعمة وعدم الشكر عليها .

فى المسجد الحرام فنعم المصلى ، وأجاب عن ذلك الآلوسى فقال : لما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى وصح التجاوب معنى .

وأجاب عن ذلك الزمخشرى فى كشافه فقال : الدخول المؤقت بالخلود فى معنى الثواء .

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(حَقٌّ) : كائن لا محالة .

(بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) أى : بعض الذى نعدهم من العذاب بالقتل أو الأسر لهم فى حياتك ، وجواب الشرط فى (فَإِمَّا) تقديره : فذاك .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) أى : نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل تعذيبهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : فإلينا وحدنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم .

(بِآيَةٍ) : بمعجزة .

(أَمْرُ اللَّهِ) قال الطبرى : قضاؤه ، وقال الزمخشرى : أمر الله القيامة ، وهما متقاربان .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل .

التفسير

٧٧ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) :

يأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ فى هذه الآية بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه : فإن الله سينجز له ما وعده به من النصر والظفر على قومه ، وجعل العاقبة له ولمن اتبعه فى الدنيا والآخرة .

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ) به من العذاب فى الدنيا فذاك ، وذلك وقع ، فإن الله قد أقر عينه من كبرائهم وعظمائهم ، أبيد بعضهم يوم بدر ، وأسر بعض آخر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته .

(أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1]) أى : أو نميتنك قبل ذلك ، أى : قبل أن تنتصر عليهم وننتقم منهم .

(فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) أى : فإلينا لا إلى غيرنا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم على أعمالهم ونعذبهم أشد العذاب .

فإن قيل : إن الله - تعالى - يعلم أنه سينصره فى حياته ، فلماذا لم يصرح بنصره على القطع؟

فالجواب : أن أهـل مكة كانوا يتمنون موت النبى ﷺ ويسعون فيه ، فالله رد عليهم بذلك مجاراة لهم ليفهمهم أن موت محمد لا يعفيهم من العذاب الموعود .

٧٨ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) :

فى هذه الآية رد على قريش فى طلبهم من الرسول آيات غير التى أتاهم بها ، فبينت أن مجئ الآيات فى عهد جميع الرسل لله وحده ، وخسر المعاندون .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين ، ذوى شأن عظيم من قبل إرسالك ، منهم من جئناك بأخبارهم وأوحينا إليك قصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة وذلك كنوح وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - .

---

(١) معطوف على نرينك داخل معه فى حيز الشرط ، ومؤكد مثله بنون التوكيد ، وهو شبيه بالواجب ، لوقوعه بعد إن الشرطية المدغمة فى (ما) الزائدة ، لتقوية التأكيد ، وليست نافية .

ومنهم من لم نقصصهم عليك وهم كثيرون ، أخرج الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، كم عدة الأنبياء؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر ، جما غفيرا » .

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) أى : وما صح وما استقام لرسول من أولئك الرسل أن يأتى بمعجزة إلا أن يأذن الله ، فالمعجزات : وهى الآيات الدالات على صدق الرسل : على تشعب فنونها واختلاف أنواعها عطايا من الله - تعالى - قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ، ليس لهم اختيار فى الإتيان بها ، أو تحقيق المقترح منها ، لأن الرسل عباد مربوبون له - تعالى - لا يأتون بشىء من تلقاء أنفسهم ، أو خضوعاً لاقتراح قومهم .

(فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ) : وهو قضاؤه بالعذاب فى الدنيا أو الآخرة يوم القيامة (قُضِىَ بِالْحَقِّ) أى : فصل بينهم بالعدل بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل .

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) أى : خسر المبطلون فى هذا الوقت - وهو وقت مجىء أمر الله - والمراد بالمبطلين : أهل الباطل على الإطلاق المتمسكون به ، فيدخل فيهم المفترون على الله والمعاندون والمقترحون للآيات دخولا أوليا .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل خاصة ، وقيل : الإبل والبقر والغنم والمعز .

(حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ) : أمرًا ذا بال تهتمون به .

(آيَاتِهِ) : دلائل قدرته ووحدانيته فى الآفاق وفى أنفسكم .

(فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) : لا تقدرون على إنكار شىء منها إلا أن تعاندوا وتكابروا .

التفسير

٧٩ - (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

المراد بالأنعام الإبل خاصة ، وعممها بعضهم لتشمل الإبل والبقر ، والغنم ، والمعز .

يقول الله - سبحانه - مُمتنًا على عباده بما خلق لهم : (اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ) أى : خلقها (لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : تفصيل لما دل عليه الكلام السابق إجمالا ، وتعليل لجعلها وخلقها ، أى : خلق لكم - سبحانه - الإبل وسائر الأنعام لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها .

٨٠ - (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :
ولكم فيها منافع كثيرة غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار والأشعار والجلود .

(وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ) أى : ولتبلغوا عليها أمرا ذا بال تهتمون به ، وذلك كجر الأثقال وحملها من بلد إلى بلد ، وعلى الإبل التى هى نوع من الأنعام فى البر ، وعلى السفن فى البحر تُحْمَلُون أنتم وأمتعتكم ، والمراد من ركوبها والأكل منها والحمل عليها والمنافع الأخرى تعلقها بالمجموع لا بالجميع ، فليس كل واحد من الأنعام يجتمع فيه الركوب والأكل والحمل وغيرها ، لأن المراد أن هذه المنافع موزعة بينها ، فمنها ما يجتمع فيه المنافع كلها كالإبل ومنها ما يكون فيه بعضها كالغنم .

٨١ - (وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَىَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ) :

ويريكم الله حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، ودلائله على كمال شئونه وقدرته ووحدانيته ، فأى آية من هذه الآيات الباهرات تنكرون حتى أشركتم به ؟ فإن كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكاره من له عقل ، وأنتم لا تنكرون أن ذلك من فضل الله على عباده ، ولكنكم مع ذلك تعبدون غيره ، وهو لا يقدر على خلق ذبابة . (فَأَىَّ) للاستفهام

التوبيخى ، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل بدل ضميره فى قوله-تعالى-: (آيات الله) لتربية المهابة ، وتهويل إنكار آياته فى صورة عبادتكم لغيره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(آثَاراً فِي الْأَرْضِ) : قصورهم ومصانعهم فيها .

(الْبَيِّنَاتِ) : المعجزات والشرائع الواضحات .

(فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ) : فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا .

(حَاقَ) : أحاط أو نزل .

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) : فلما عاينوا شدة عذابنا .

(وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) يعنون (بما كنا به مشركين) : الأصنام وسائر آلهتهم الباطلة .

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) : وهلك فى مكان نزول العذاب الكافرون .

التفسير

٨٢ - (أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّاكَانُواْ يَكْسِبُونَ) :

أى : أَقَعدوا فلم يسيروا فى الأرض ، فيروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ممن سبقهم من الأُمم المكذبة للرسل منذ الأَزمنة الماضية ، وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد والهلاك والتدمير ، ولقد كانوا أكثر منهم عددا ومالا وأَشد منهم قوة وبأْسًا وآثارا فى الأَرض من قصور ومصانع فما أَغنى عنهم ذلك شيئا ، ولا رد عنهم من بأْسه وعذابه ماكسبوه من قوة وسلطان وما جمعوه من أموال .

٨٣ - (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

فحين جاءت هذه الأُممَ رسلُهم بالشرائع والمعجزات والآيات الواضحات لم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا عليهم ، بل فرحت هذه الأمم بما عندهم من علوم الدنيا واستهزأوا بعلم الله الذى جاء به الأَنبياءُ ،كما قال- تعالى - : «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ »[1] فنزل بهم من بأْس الله مالا قبل لهم به ، وأَحاط بهم العذاب الذى أخبرهم به المرسلون وكانوا يستهزئون ويسخرون منه ويستبعدون وقوعه .

وقيل : المراد بما عندهم من العلم :علم الفلاسفة الذى فرحوا به وأقبلوا عليه ، وتركوا من أجله هدى السماء الذى جاء به الأَنبياءُ ، والزمان متشابه ،فقد رأَينا فى هذا الزمان من ترك وحى الله وشريعته فرحا بما أَصاب من فضلات هؤلاء الفلاسفة .

٨٤ - (فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) :

فلما رأَت تلك الأُمم عقابنا الذى أَوعدتهم به الرسل ، وعاينوا عذابنا الشديد الذى نزل بهم قالوا : صدقنا بالله وحده ، وأَنكرنا الأَصنام ، وجحدنا الآلهة الباطلة التى كنا

(١) سورة الروم ، الآية : ٧

مشركين بسبب عبادتنا لها ، وهكذا وحدوا الله - عز وجل - وأفردوه بالعبادة وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لاتُقال العثرات ولاتنفع المعذرة .

٨٥ - ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ :

أى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم عند رؤية عذابنا الشديد ، وخسر الكافرون وهلكوا وقت وقوع العذاب ، والحكمة الإلهية قضت ألَّا يقبل ذلك الإيمان ، لأن الله سن سنة قد سبقت فى عباده ، ألا يقبل الإيمان حين نزول العذاب ، ومثل هذا ماحدث لفرعون ، فلقد حكى القرآن عنه أنه قال - حين أدركه الغرق - : «آمَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1] فرد الله عليه فقال : «آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»[2] ولم يقبل الله من فرعون هذا الإيمان الذى اضطر إليه حين أدركه الغرق ، وتلك التوبة التى كانت حين حضره الموت ، ومات كافرا مهانا ، وأمضى الله فيه سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) سورة يونس ، من الآية ٩٠ .

(٢) سورة يونس الآية ٩١ وبعض الآية ٩٢ .

« سورة فصّلت »

مكية ،وآياتها أربع وخمسون ،نزلت بعد غافر ، وتسمى سورة السجدة ، وسورة حم السجدة ، وسورة الأقوات .

مناسبتها لما قبلها : ذكر-سبحانه وتعالى-فى سورة (غافر) : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . » الآية ٨٢ وكان ذلك متضمناً تهديدًا وتقريعاً لقريش ، وذكر-جل شأنه-هنا فى سورة فصلت تهديدًا وتقريعاً لهم ، وخصهم بالخطاب فى قوله-تعالى- : « فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . . . » الآية ١٣ ثم بين-سبحانه كيفية إهلاكهم وفيه نوع بيان لما فى قوله-تعالى- : « أَفَلَمْ يَسِيرُواْ . . . » إلخ الآية .

وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر كذكر قصص بعض الأنبياء ، والدعوة إلى التوحيد ، وبيان عاقبة المخالفين .

مقاصد السورة :

بدئت السورة الكريمة ببعض حروف المعجم كما فى بعض سور القرآن الكريم ، ولقد أشادت السورة فى أكثر من موضع بسمو القرآن ، ورفعة شأنه ، وما جاء به من تبشير وإنذار ، ثم ذكرت موقف المشركين من الرسول ﷺ ، وما أظهروه من تعنت معه ، وشدة إعراضهم عنه ، واستهزائهم به ، ومحاربة دعوته ، ومجابهته بالزور والأباطيل ، وموقف الرسول منهم ، وثقته بالله ، وثباته على دعوتهم إلى التوحيد والاستقامة ، ثم تمضى السورة فى تذكير المشركين بآيات الله فى خلق السموات والأرض ، وتنذرهم مما حدث لأقرب الأمم إلى منازلهم وهم عاد وثمود ، وما نزل بهم من عذاب ، وتخوفهم بذكر بعض مشاهد يوم القيامة ، يوم تشهد عليهم أعضاؤهم بما اقترفوا من سيئات ، وما يكون بينهم وبين هذه الأعضاء من مجادلة ومحاجة ، وما يدعو به الأتباع ربهم فى هذا اليوم العظيم :

(رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)(١)
ثم تتحدث عن المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وما أُعد لهم ، وتعقد الموازنة بين الخير والشر ، وتبين أثر الكلمة الطيبة والأخلاق الحسنة فى النفوس : (وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)(٢) .

ثم تمضى السورة الكريمة تلفت الأنظار إلى قدرة الله على البعث وإحياء الموتى ، وتنذر الملحدين فى آيات الله وهم لا يخفون عليه فقد وسع علمه كل شىء ، وتبين أن الذين كفروا بالقرآن من غير تدبر لآياته سيكون لهم العذاب الشديد والعقاب الأليم .

والسورة تذكر الرسول بأن ما يقال له من أعدائه قد قيل للرسل من قبله من أعدائهم ، فصبروا وصمدوا ، وبلغوا الرسالة ، وأدوا الأمانة ، وتبين أن ربك لذو مغفرة لمن يجيب داعى الله ، وذو عقاب شديد لمن تمرد ولم يلب النداء ، ثم يبين الحق — جل جلاله — أنه لوجعل القرآن أعجميا ، كما اقترح ذلك بعض المتعنتين والمكابرين ، لقالوا معترضين منكرين : هلا نزل بلغة نفهمها ولسان نعرفه ؟ ويأمر الرسول بأن يقول ردا عليهم : (هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

ثم تذكر السورة صورًا من طبائع الإنسان وأسلوب سلوكه . (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) وتختم السورة بمثل ما بدئت به من التنويه بالقرآن الكريم ، وأن الله سَيُظْهِر بحججه وآياته فى الآفاق وفى أنفس الناس — سيظهر — أنه الحق الذى لاريب فيه . (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وتوضح أن ما حدث من الكافرين من إنكارهم للرسالات سببه أنهم فى شك من لقاء ربهم . (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) .

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : بُيِّنت ومُيِّزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة .

(قُرْآناً عَرَبِيًّا) : مقروءًا باللسان العربى .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) : يعلمون ما فيه ، لكونه بلسانهم .

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) : انصرف واستكبر أكثرهم على الإصغاء إليه وهم كفار قريش .

(فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) : سماع قبول .

(أَكِنَّةٍ) : أغطية متكاثفة ، جمع كِنَان كَغِطاء وزْناً ومعْنًى .

(وَقْرٌ) : صمم ، وأصله : الثقل .

(حِجَابٌ) : ساتر مانع عن الإجابة .

التفسير

١ - (حمٓ) :

قال السلف : فى مثل هذه الحروف : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسورة أو للقرآن ، وقيل : حرفان مسرودان من حروف المعجم بُدِئَت بهما السورة كنهج القرآن وطريقته فى

افتتاح بعض سوره بذلك ، لبثّ الانتباه ، وللتدليل على إعجاز القرآن بأنه مؤلف من كلمات ذات حروف مما تنظمون منه كلامكم ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، ومحمد مثلكم ، وذلك دليل على أنه من عند الله ، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الحروف موسعاً فى أول سورتى البقرة وآل عمران ، فارجع إليه إن شئت .

٢ - (تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ) :

أى : هذا القرآن الكريم منزل من الله الرحمن الرحيم ، وإضافة التنزيل إلى الرحمن الرحيم من بين أسمائه - تعالى - الإيذان بأن ما فيه من تشريع وخير للبشرية ومصالح دينية ودنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية .

٣ - (كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

أى : القرآن كتاب ميزت آياته ، لفظاً بفواصلها ومقاطعها ، وأوائل السور وخواتمها ، ومُيِّزتْ مَعْنًى بما فيها من وعد ووعيد ، وشرائع وعقائد ، وقصص وأخلاق وعلوم . ومن أنصف عَلِمَ أنه ليسَ فى الكتب كتاب اجتمع فيه من العلوم والمعارف المتنوعة مثل ما فى القرآن وقال سفيان : فصلت بالثواب والعقاب ، وما ذكرنا أولا أعم ، ولعل ما ذكره من باب التمثيل لا الحصر ، وقيل : (فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) فى التنزيل ، أى : لم ينزل جملة واحدة ، وقرىء (فَصَلَتْ) بفتح الفاء والصاد مخففة ، أى : فرقت بين الحق والباطل . .

وقال ابن زيد : فصلت بين النبى ﷺ وبين من خالفه .

(قُرْءَانًا عَرَبِيًّا) أى : مقروءًا باللسان العربى ، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم .

(لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى : لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى المبين ، لا يلتبس عليهم شىء منه ، ولو كان غير عربى لما علموه .

٤ - (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) :

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) صفتان لقوله : (قُرْآناً) أى : تارة يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ، وتارة ينذر الكافرين والمخالفين بما أعد لهم من عذاب أليم وعقاب شديد ،

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ) أى : انصرفوا عن تدبره وقبوله ، والإصغاء إليه واتباعه ، فلم ينتفعوا به (فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) القرآن سماع تدبر وإمعان ، وقد جُعلوا لإعراضهم عنه غير سامعين له على سبيل المجاز .

٥ - (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) :

وقال الكافرون لرسول الله : (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّة مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) أى : قلوبنا فى أغطية متكاثفة لا ينفذ إليها شىء مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا من عبادة الأوثان (وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ) أى : وفى آذاننا صمم فلا نسمع ماتعرضه علينا . (ومِن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ) أى : ومن بيننا وبينك حجاب منيع وساتر غليظ ، يمنعنا من قبول ما جئتنا به ، ومن التواصل بيننا وبينك ، وهو الخلاف فى الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام ، وهو يعبد الله - عز وجل - .

و (مِنْ) فى قوله -تعالى- : (وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) للدلالة على أن الحجاب مبتدىء من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ، ولم يبق فراغ أصلا .

قال الآلوسى : وما حكاه الله عنهم فى الجمل الثلاث : (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) تمثيلات لتبوّ قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ، وطرد أسماعهم له ، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ .

وذكر أبو حيان : أنه لما كان القلب محل المعرفة ، والسمع والبصر معينين على تحصيل المعارف ، ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها شىء مما يدعو إليه الرسول (فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) أى : فاعمل على دينك ، أو فى إبطال أمرنا ، إننا عاملون على ديننا ، أو عاملون فى إبطال أمرك ، والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه ، وعلى الثانى مبارزة بالخلاف والتحدّى .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

(فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ) : فاسلكوا إليه الطريق المستقيم بالتوحيد .

(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) : لايؤدون الزكاة المفروضة إلى مستحقيها ، وقيل : المراد بالزكاة : المعنى اللغوى ، أى : لايفعلون ما يزكى أنفسهم ويطهرها وهو الإيمان والطاعة .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

٦ - (قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) :

أى : قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين المكذبين : ما أنا إلا بشر مثلكم ، لست ملكاً ولا جنيا لايمكن التلقى منه ، والفهم عنه ، ومعرفة ما يدعو إليه ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول السليمة ، وترفضه النفوس القويمة ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذى جاءت به كل الأديان ، ودعت إليه كل رسالات السماء ، ودلت عليه دلائل العقل ، فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة ، ولا تتمسكوا بعُرَى الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد : (قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ) بل اسلكوا فى الوصول إليه الطريق القويم ، واطلبوا منه المغفرة لما سلف

منكم من القول والعمل ، كالشرك بالله – عز وجل – (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ) أى : وعذاب أليم وهلاك شديد للمشركين لشركهم وعدم استقامتهم وتوبتهم .

٧ – (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

قال ابن كثير : قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : يعنى الذين لايشهدون أن لا إله إلَّا الله ، وكذا قال عكرمة ، وهذا كقوله–تعالى– : « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا »[1] وكقوله – سبحانه – : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »[2] والمراد بالزكاة هنا : طهارة النفس من الشرك والأخلاق الذميمة .

وقال السدى : (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أى : لا يؤدون الزكاة المعروفة ، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، وإن اعترض على هذا الرأى بأن إيجاب الزكاة كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة –كما ذكره غير واحد – وهذه الآية مكية ، فقد أجيب عن ذلك بأن إطلاق اسم الزكاة على طائفة مُخْرَجَةٍ من المال على وجه مخصوص كان شائعاً ومأمورًا به فى ابتداء البعثة ،قال –تعالى– : «وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[3] فأما الزكاة المعروفة ذات النصاب والمقادير المخصوصة فإنما بُيِّن أمرها بالمدينة .إ ﻫ : ابن كثير بتصرف . (وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) الجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة وبخلهم بها ، لإنكارهم للآخرة واستغراقهم فى الدنيا ، وإنما خُص منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة من بين أوصاف المشركين ، لأن أحب شئ إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته ، وصدق نيته وصفاء طويته ، ألا ترى إلى قوله–تعالى– : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ »[4]

أى : يثبتون ويدللون على ثباتها على الإيمان بإنفاق الأموال ، وفى هذا حث للمسلمين على إخراج الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الأعلى ، الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٣) سورة الأنعام – وهى مكية – من الآية : ١٤١

(٤) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٥

٨ - (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) :

لما ذكر ما ينال المشركين بقوله- تعالى- : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .) إلخ. ذكر ما ينال المؤمنين المخلصين ومعناه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جزاء حسن ، وأجر غير مقطوع ولا منقوص ، قال ابن عباس : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير مقطوع ، مأخوذ من : مَنَنْتُ الحبل : إذا قطعته ، وعنه أيضاً وعن مقاتل : (غَيْرُ مَمْنُونٍ) غير منقوص وهذان الرأيان متقاربان فى المعنى المراد . ولذا اخترناهما فى تفسير قوله - تعالى - (غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

والآية الكريمة - كما روى عن السدى - نزلت فى المرضى والزمنى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر - فى المرض والهرم - مثل الذى يكتب لهم وهم أصحاء شبان ولا تنتقص أجورهم ، وذلك من عظم كرم الله ورحمته ، نسأله -سبحانه- أن يتغمدنا برحمته إنه نعم المولى ونعم النصير .

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾

المفردات :

(فِى يَوْمَيْنِ) : من أيام الله ، لا من أيامنا .

(أَندَادًا) : جمع نِدّ ، وهو الكفء والنظير .

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ) : وجعل فيها جبالا ثوابت .

(وَبَارَكَ فِيهَا) : أكثر خيرها وزاده .

(وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) : قسم فيها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

(فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً) : فى أربعة أيام كاملة لانقصان فيها ولا زيادة .

التفسير

تمهيد :

بين الله - سبحانه - فى الآيات السابقة أن رسوله محمدًا ﷺ لم يكن إلا بشرًا كسائر البشر . أوحى إليهِ من ربه : أن إلههم إله واحد ، وأمرهم أن يستقيموا فى عبادته ويستغفروه عما فرط منهم من المعاصى والسيئات ، وهدد بالويل والثبور أولئك المشركين الضالين الذين لا يزكون أنفسهم ، ولا يطهرونها بالإيمان بشريعة الله ، وهم يكفرون بالآخرة ومافيها من جنة ونار وثواب وعقاب ، كما بين - جل شأنه - أن للمؤمنين الصالحين أجرًا دائماً ، وثواباً عظيماً غير مقطوع ، وبعد أن بين ذلك قال - سبحانه - فى تخطئة من كفر به :

٩ - (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا . .) :

قد يتبادر إلى بعض الأذهان أن المراد من اليوم فى الآية ما تعارف عليه الناس ، من أنه من الفجر إلى غروب الشمس ، أو من شروقها إلى غروبها ، أو مجموع النهار والليل .

ولكن هذا الذى يتبادر إلى بعض الأذهان غير صحيح ، فقبل خلق الأرض لم يكن الليل والنهار موجودين ، فإنهما نشآ بعد وجود الأرض ودورانها حول محورها وحول الشمس ، على أن النهار والليل بنظامهما فى أرضنا ليس موجودا فى كوكب آخر ، فلو أنك ذهبت إلى القمر أو إلى أى كوكب غيره لوجدت الليل والنهار يختلفان عن نظامهما فى أرضنا هذه .

إذا عرفت هذا فاعلم أن اليومين اللذين خلق الله فيهما ذات الأرض وجسمها من أيام الله - تعالى - وأيامه - جل وعلا - تختلف فى شئونه ، فمرة يكون اليوم ألف سنة ، قال - تعالى - : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ

سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »[١] وكقوله-تعالى- : «وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »[٢] ومرة يكون مقداره خمسين ألف سنة ، كقوله-تعالى- : « تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »[٣] وقد يكون أكثر من ذلك .

وحيث كان الأمر كذلك فالأيام التى خلق الله فيها الأرض والسموات لا نستطيع تقدير اليوم فيها بألف سنة ، أو بخمسين ألف سنة ، أو بأكثر من ذلك حسب سنة التطوير التى أرادها الله فى تكوينها، وحيث أمسك القرآن والسنة عن بيان مقدار اليوم فى خلقهما، فعلينا أن نمسك عن الحلس والتخمين فيه .

ولفظ (إنَّ) فى (أَئِنَّكُمْ) لتأكيد الإنكار، وقدمت عليها همزة الاستفهام الإنكارى لأن لها الصدارة ، أو الإشعار بأن كفرهم المؤكد من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه مع وجود هذه الآيات المقتضية لعميق الإيمان .

والمعنى : قل أيها الرسول منكرا على المشركين أشد الإنكار ، ومشعرا بأن كفرهم مع هذه الآيات لا يعقل ، قل لهم : لماذا تكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتلحدون فى ذاته وصفاته ، حيث جعلتم له أندادا وشركاء عبدتموهم معه-تعالى - مع أنهم لا شأن لهم فى خلقها ؟ !

واعلم أن المراد بالأرض الأرضون السبع ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »[٤] (ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى :ذلك العظيم الذى فعل ما ذكر هو رب العالمين ، وخالق ما كان وما يكون، إنه هو الذى يَمُدُّ كل مخلوق بأسباب حياته وبقائه ، ويمنحه مقومات وجوده بيسر وسهولة : « إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[٥] .

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٥ .

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٧ .

(٣) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

(٤) سورة الطلاق ، من الآية : ١٢ .

(٥) سورة يس الآية : ٨٢ . وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الست الأخرى فيها مكلفون مثلنا فى أرضنا هذه .

١٠ - (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ...) الآية :

أى : أنه - جل شأنه - أوجد فى الأرض جبالا ثوابت حتى لا تضطرب ولا تميد ، ليمشى الناس فيها ويترددوا فى أمر معاشهم ، ويحصلوا أرزاقهم ، ويعمروا تلك الأرض تحقيقاً لقوله - تعالى -: « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا »[1] (وَبَارَكَ فِيهَا) أى : وكثَّر فى الأرض خيرها ، فأجرى فيها عذب الماء ، فتنبت الزرع والأشجار ، قال - تعالى -: « يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ »[2]. ويسقى الله منه أنعاماً وأناسىّ كثيرا ، وأوجد فيها - سبحانه - البحار نأكل منها لحما طريا : السمك بأنواعه وأشكاله وطعومه ، ونستخرج منها حلية نلبسها ونتزين بها : كاللآلىء والمرجان ، ونمخر عبابها بالسفن الجوارى التى تنقل الناس من بلد إلى آخر يبتغون من فضل الله رزقاً حلالا طيبا ، فيتبادل الناس المنافع والخيرات (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) أى :قدر- سبحانه - أن يوجد من الأنواع المختلفة ما يناسب كل إقليم وبلد ، وخص أماكن بأنواع من النبات والثمرات والمعادن التى تدخل فى الصناعات ، وجعل بعضا آخر من تلك النعم فى بقاع أخرى ليكون كلٌّ فى حاجة إلى غيره فتعمر الأرض ، ويتعارف الناس ، ولله در القائل :

النَّاسُ للناس من بَدْوٍ وحاضرة بعضٌ لبعض وإن لم يَشْعُرُوا خَدَمُ

(فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّائِلِينَ) قد يخطر على الذهن أنه - تعالى - جعل فى الأرض رواسى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى زمن مقداره أربعة أيام ، وهذا خطأٌ لأنه يترتب عليه أن الله خلق الأرض وما عليها فى ستة أيام : يومين لخلق ذات الأرض وأربعة أيام لخلق ما عليها .

ووجه الخطأ فى ذلك أن الله -تعالى- خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ،[3] فوجب تأويل الآية ليبقى يومان من السِّتَّة لخلق السموات ، وذلك بتقدير مضاف ، أى :

---

(١) سورة هود من الآية : ٦١ .

(٢) سورة النحل من الآية : ١١ .

(٣) قال -تعالى- فى سورة السجدة : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ... » إلخ الآية الرابعة.

فى تتمة أربعة أيام ، بأن جعلها فى يومين آخرين غير اليومين الأولين ، فتم أربعة أيام ، وأولها الزمخشرى تأويلا جميلا ، فجعل (فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) خبرا لمبتدأ مقدر ، أى : كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن فى أربعة أيام .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : (سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ) بعد ما تقدم ليفيد أن الأيام الأربعة متساوية وكاملة لانقص فيها ، وأن هذا جواب للسائلين عن الأيام التى خلقت فيها الأرض ، وجعلت صالحة للمعاش ، وقوله : (لِّلسَّآئِلِينَ) خبر لمبتدأ تقديره : هذا الحصر فى الأيام الأربعة كائن للسائلين .

(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(ثُمَّ اسْتَوَى) : ثم قصد .

(فَقَضَاهُنَّ) : فخلقهن وأتقن أمرهن .

(وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) : وخلق فى كل منها ما أعد لها .

التفسير

١١ ـ (ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) :

أى : ثم اقتضت حكمته أن يخلق السماء بعد خلق الأرض وهو - سبحانه - لا يشغله شأن عن شأن فعمد إلى خلقها وقصد تسويتها ونقلها من الدخان إلى الكثافة . وهذا الدخان هو الذى يعبر عنه العلمانيون بالغاز ، وكان الله قد خلقه ليكون أساسا لخلقها .

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) أى : جيئا بعد أن خلقتكما بما خلقت فيكما من النافع والصالح وأظهراه وأخرجاه لخلق كى ينتفعوا به .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال الله - تعالى - للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين .

(قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) أى : امتثلنا أمرك طائعين .

وجمهور المفسرين يرى أن أمر الله صدر للسماء والأرض بعد خلقهما ، وفى قوله - تعالى - : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً) وجهان ، أحدهما : أنه قول تكلم به الله - سبحانه وتعالى - والثانى : أنه تمثيل لتحتم تأثير قدرته - تعالى - فيهما ، واستحالة امتناعهما عن ذلك ، لا إثبات الطوع والكره لهما .

وقيل فى قوله - تعالى - حكاية عن إجابة الأرض والسماء : (أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) إن الله - تعالى - خلق الكلام فى الأرض والسماء فتكلمتا كما أراد الله ، وقيل : لم يحدث منهما كلام ، وإنما هذا كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال وهو الظاهر .

وقال - سبحانه - : (طَآئِعِينَ) بجمع المذكر العاقل ، ولم يقل : طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى باعتبار أنها سموات وأرضون ، لأن الله أخبر عنهما وعمن فيهما من الذكور العقلاء فغلّب جانبهم ، وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة ، وذلك من صفات من يعقل أجراهما مجرى العقلاء فى التعبير عنهما ، ومثله قوله - تعالى - حكاية عن رؤيا يوسف - عليه السلام - لسجود الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر له « رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ [1] »

مع أن الضمير فى (رَأَيْتُهُمْ) ضمير جماعة العقلاء ، وقد عاد إلى الشمس والقمر والكواكب وهى غير عاقلة .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٤

وقيل :معنى الأمر فى قوله–تعالى– : (ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) هو الإيجاد ،أو كونا كما أردنا وقدرنا فكانتا ، وعلى هذا الرأى يكون الأمر للسموات والأرض قبل خلقهما .

١٢ – (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) :

أى : خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة فى يومين من أيام الله « وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا » أى : خلق– سبحانه – فى كل منها ما اقتضت حكمته أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما يعرفه البشر وما لا يعرفونه ، وقال قتادة والسدى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وخلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها . . (وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) أى :جمَّل السماء الأولى القريبة منا وحسنها بكواكب تضىء وهى النيرات التى خلقها الله زينة لها ، وخص كل واحد منها بضوء معين وسر مصون وطبيعة خاصة لا يعرفها ولا يعلمها إلا الله . (وَحِفْظاً) : أى وحفظنا السماء حفظا من أن ينالها تلف أو يصيبها ضعف (ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أى : ما تقدم من خلق الأرض وما فيها فى الأيام الأربعة ، وخلق السماء وما حوت وضمت فى يومين هو صنع العظيم القدرة الكامل العلم .

وما أحسن هذه الخاتمة وهذا التذييل لتلك الآيات فهذه الأعمال العظيمة لا تحصل ولا تتم إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

وللآثار التى ظاهرها التعارض اختلف فى أمر التقدم والتأخر فى خلق كل من السموات وما فيها والأرض وما فيها –أيهما أسبق خلقا– فذهب بعض العلماء إلى تقدم خلق السموات وما فيها على خلق الأرض وما فيها مستدلين بظاهر قوله–تعالى– : «أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ، مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[1] أى : دحا الأرض بعد أن سمك السماء ورفعها وسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . وذهب فريق آخر :

---

(١) سورة النازعات الآيات : من ٢٧ إلى ٣٣

إلى أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء وما فيها مستدلا بهذه الآيات التى نحن بصددها وبقوله ـ تعالى ـ : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ »[1] :

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الله ـ جلت قدرته ـ خلق ذات الأرض أولا قبل خلق السماء، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم أوجد الأشياء التى على الأرض من جبال وغيرها ، إذ لا يتصور حدوث العمران والحياة بصورها وأشكالها قبل خلق السموات وهذا واضح من قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) إلخ ،وهذا هو الجواب الذى أجاب به ابن عباس ، فقد روى الحاكم والبيهقى بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل إلى ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ فقال : رأيت أشياء تختلف علىَّ فى القرآن ،قال : هات ما اختلف عليك من ذلك ، فقال : الله ـ تعالى ـ يقول : (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) حتى بلغ (طائعين) فبدأ بخلق الأرض فى هذه الآية قبل خلق السماء ،ثم قال ـ سبحانه ـ فى الآية الأخرى : (أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا) ثم قال : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فبدأ ـ جل شأنه ـ بخلق السماء قبل خلق الأرض ،فقال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ :أما خلق الأرض فى يومين ، فإن الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخانا ، فسواهن سبع سماوات فى يومين بعد خلق الأرض ، وأما قوله ـ تعالى ـ : (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) فيقول : جعل فيها جبالا وجعل فيها أنهارا وجعل فيها شجرا وجعل فيها بحـورا ، قال الخفاجى تعليقاً على ذلك : يعنى أن قوله ـ تعالى ـ : (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا) بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه ، فيكون تأخرها فى هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها ، بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه لينتفع به أهلها . . إ ﻫ : بتصرف يسير .

والواقع أن السماوات والأرض كانتا دخانا « وهو ما يعبر عنه العلم الحديث بالغاز » وأن الله ـ تعالى ـ خلق الأرض والسماء من هذا الدخان بالكيفية الحكيمة التى أتقنها تدبيره وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا »[2] .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٩ . (٢) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠ .

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(أَعْرَضُوا) : ولَّوْا وانصرفوا .

(صَاعِقَةً) : كتلة نارية محرقة .

التفسير

١٣ - (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)[١] :

أى : فإن تولوا وانصرفوا عن الإيمان بوحدانية الله ، وبما جئت به بعد ماتلوت وقرأت عليهم من الأدلة والحجج الناطقة بوحدانية الله وقدرته، - إن أعرضوا بعد ذلك - فحذرهم وخوفهم صاعقة تصعقهم وتهلكهم كصاعقة عاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وخص هؤلاء بالذكر لأن قريشا كانت تعلم أحوالهم ، وتعرف بلادهم فى اليمن والحِجْر ، مصداق ذلك قوله - تعالى - : « وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ »[٢] .

١٤ - (إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) :

أى : أخذتهم الصاعقة والعذاب الشديد وقت مجىء الرسل لهم وتكذيبهم إياهم ، والرسل - عليهم السلام - لم يألوا جهدا ويقصروا فى هدايتهم وإرشادهم ، بل بذلوا غاية الوسع

---

(١) أى : أنذركم ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوع المنذر به .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ٣٨ .

وأتوهم (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) أى : من كل جانب واتخذوا فيهم كل حيلة ليثنوهم عن غيهم وضلالهم ، ويدلوهم على الصراط المستقيم ، ويدعوهم (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ) أى يفردوه بالعبادة والطاعة ، ولا يشركوا به أحدا ، ومع ذلك لم ير الرسل منهم إلا العتو والإعراض .

وعن الحسن : أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى ، وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى فيه عليهم .

(قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً) أى : قال الكفار : لو أراد ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة تدعونا إلى عبادته ، لذا (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) أى : فإذا كنتم بشرا مثلنا ولستم ملائكة فإنا لا نؤمن بكم ولا بما جئتم به ، ونسى هؤلاء الكفار أن الله لو أنزل ملائكة لجعلهم على صورة البشر حتى يألفهم الناس ، إذ لا يطيقون رؤية الملائكة فى صورهم الحقيقية ، وحينئذ يلتبس الأمر عليهم ، قال ـ تعالى ـ : « وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » [1] .

وقولهم : (فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) ليس إقرارا ولا اعترافاً منهم بإرسال الرسل وإنما هو من قبيل السخرية والتهكم ، نظيره ما قاله فرعون فى شأن موسى ـ عليه السلام ـ : « قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » [2] .

أخرج البيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلولا التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فَكَلَّمَهُ ثم أتانا ببيان عن أمره ؟ قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما ، ولا يخفى علىّ إن كان كذلك . فأتاه فقال له يا محمد : أأنت خير أم هاشم ؟ أأنت خير أم عبد المطلب ؟ فلم يجب رسول الله ﷺ قال : فيم تشتم آلهتنا

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩ .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢٧ .

وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان بك الباءة[1] زوجناك عشر نسوة تختارهنَّ من أى بنات قريش ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال ﷺ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ - حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) فقرأ حتى بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسك عقبة على فيه ﷺ فأنشده الرحم أن يكف عنه ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قال أبوجهل : يامعشر قريش ، ما أرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذلك إلا من حاجة أصابته ، انتقلوا بنا إليه ، فأتوه فقال أبو جهل : ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كنت فى حاجة جمعنا لك ما يغنيك عن محمد ، فغضب وأقسم بالله - تعالى - لايكلم محمدا أبدا وقال : لقد علمتم أنى أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقص عليهم القصة :فأصابنى بشىء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ - حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) حتى (أَنذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾)

---

(١) الرغبة فى النكاح والتزوج .

المفـردات :

(فَاسْتَكْبَرُوا) : فتعظموا وتعالوا .

(يَجْحَدُونَ) : ينكرون مع علمهم أنه الحق . (رِيحاً صَرْصَراً) :شديدة الحرارة من الصَّر- بفتح الصاد-بمعنى الحر ، وقيل غير ذلك : وسيأتى مزيد بيان فى التفسير .

(فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) : فى أيام مشئومات عليهم ؛ لأنهم عذبوا فيها .

التفسير

١٥ - (فأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ . . . .) الآية :

شروع فى تفصيل ما أعده الله -تعالى- لكل واحدة من الطائفتين من النكال والعذاب بعد أن أجمله - سبحانه - فى قوله تعالى : (فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) وبدأ الله - جل شأنه-بقصة عاد لأنهم أقدم زمانا ، أى : فأما عاد فتعالوا على من سواهم وتعظموا فى الأرض التى لاينبغى لأحد أن يتعظم فيها « فكلكم لآدم وآدم من تراب » كما أن نِعم الدنيا لاتدوم ولا تثبت على حال (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[1] بالإضافة إلى أن مالدى الناس من صحة ومال وقوة إنما هو منحة الله وعطاؤه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فتعظُّمهم واستكبارُهم حقيق أن يقول الله عنه :(بِغَيْرِ الْحَقِّ) وقيل : تعظموا عن امتثال أمر الله - جل شأنه- وعن قبول ماجاءتهم به الرسل ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل دفعهم غرورهم بقوتهم وزهوهم بها إلى مايوحى وينبىء بتماديهم فى صلفهم (وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) استنكروا بقولهم هذا ، ورأوا أن ماهم عليه من شدة جدير أن يجعلهم يتعظمون على من سواهم .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : أغفل هؤلاء ولم يعلموا أن الله الذى خلقهم وبرأهم من العدم هو - سبحانه - أشد منهم قوة ، إذ ليس لديهم قدرة ذاتية من أنفسهم ، وأمَّا مالديهم من قدرة فإنما هو بإقدار الله لهم يمنحهم إياها أو يمنعهم ، فالله أقدر منهم ومن كل من عداهم ، وانتهى

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٠

الأمر بهؤلاء أنهم أنكروا دلائل قدرة الله ومعجزاته فى كونه ، والتى أظهرها - سبحانه - على أيدى رسله .

١٦ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا) :

أى : سلطنا عليهم ريحا شديدة الحرارة ، من الصَّر - بفتح الصاد - بمعنى الحر ، وقال ابن عباس وغيره : باردة تهلك بشدة بردها ، من الصِّرّ - بكسرها - وهو البرد الذى يَصِرُّ أى : يجمع ظاهر الجلد ويقبضه ، وقال السدى وغيره : مُصَوِّتَة ، من صر يصِر إذا صوَّت .

وروى أنها كانت تحمل العير بأثقالها وأحمالها فترميهم بالبحر .

(فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ) وهى التى جاء ذكرها وبيانها فى قوله - تعالى - : « وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ »[1] أى : فى أيام مشئومات لأنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصه ، فيقال له : يوم سعد بالنسبة لمن تناله النعماء، ويقال له : يوم نحس بالنظر لمن تصيبه الضراء . وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : الأيام كلها لله - تعالى - خلق بعضها نحوسا وبعضها سعودا (لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ليجرعهم فيها غصص هذا العذاب الذى يصيبهم بالخزى والذل والندم والهلاك ، فيجمع الله عليهم عذاب البدن مع آلام النفس وتحسرها وندمها ، ولات ساعة مندم (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) أى : وللعذاب الذى ينالونه ويحيق بهم فى الآخرة أشد خِزْيا وذلاً ، إذ يكون على رءوس الأشهاد ، مع كونه شديد الإيلام .

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾)

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٦ ، ٧ .

المفـردات :

(فَهَدَيْنَاهُمْ) : فدللناهم وبينا لهم طريقى الضلالة والرشد .

(فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) : فآثروا ومالوا إلى الضلال وتركوا الطريق المستقيم .

(صَاعِقَةُ) : نار تنزل من السحاب فى رعد شديد ولاتصيب شيئا إلا أحرقته .

(الْهُونِ) : الهوان المخزى المذل المهين .

التفسير

بعد أن فصل عذاب عاد قوم هود أتى ببيان عذاب بعض الذين شاركوهم فى العصيان وتكذيب الرسل ، وهم ثمود قوم صالح فقال :

١٧ - (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ...) الآية :

أى : وأمّا ثمود فقد أوضحنا لهم على لسان رسولهم طريق الرشاد ودعوناهم إليه ، وأظهرنا لهم الآيات الكونية ، وأزلنا عن طريقهم كل ما يمنعهم من التبصر والإدراك ، (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) أى : فآثروا واختاروا الضلالة على الهداية بمحض إرادتهم دون إكراه منه - سبحانه - على فعل ما يفعلون ، (فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) فأخذتهم واستأصلتهم داهية العذاب الذى يضيف إلى إيلامه الخزى والذل والمهانة لهم ، وقد عاقبهم الله بهذا العذاب جزاءً ما اقترفوه من عقر الناقة التى أمروا بتركها تأكل فى أرض الله ونهوا عن أن يمسوها بسوء ، فضلا عما اكتسبوه من قبيح الذنب وفاحش الاعتقاد .

١٨ - (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) :

أى : أنقذنا الذين آمنوا بربهم وبما جاءَ به رسولهم صالح - عليه السلام - ، واتقوا الله فأطاعوه ، وابتعدوا عن المعاصى فلم يقترفوها ، نَجَّاهم وميزهم عن الكفار ،فلم يُنزِل بهم ما أنزله بهؤلاء الذين أجرموا من عذاب وعقاب ، بل جعلهم ربهم فى نجوة ومكانة رفيعة لاينالهم فيها هوان .

وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأن الله سيفعل بمؤمنى قومه وكافريهم مافعله بهؤلاء ، فينجى مؤمنيهم ويهلك كافريهم إن ظلوا على كفرهم .

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(يُوزَعُونَ) : يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، وقيل : يساقون ويدفعون إلى جهنم .

التفسير

١٩ - (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النَّارِ . . . .) الآية :

هذا شروع فى بيان عقوبة عاد وثمود فى الدار الآخرة بعد أن بين - سبحانه - عقوبتهم فى الدنيا ، أى : واذكر يا- محمد - يوم يجمع الله من القبور أعداءه الذين جحدوا به ، وأشركوا معه سواه ، وكذبوا رسله ، وآذوهم واضطهدوا من آمن بهم ، ونالوهم بألوان العذاب ، اذكر لقومك-أيها الرسول - يوم يجمع الله أعداءه هؤلاء للجزاء .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : يحبس ويمنع أولهم عن السير والمشى ، فيبقى فى مكانه لايغادره حتى يأتى آخرهم ، فيجتمعوا فى صعيد واحد ، ليدخلوا جهنم مجتمعين ، أو معناه : أنه - سبحانه - يسوقهم ويدفعهم إلى النار فى إذلال وإهانة لهم بعد حسابهم .

والقائمون بذلك هم الملائكة بأمر الله كما يظهر من قوله-تعالى-: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[1].

٢٠ - (حَتَّىٰ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : حتى إذا ماقربوا منها فى ساحة الحساب وسئلوا عن آثامهم وذنوبهم فأنكروا حصول ذلك منهم ، عندئذ تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بالذى كانوا يعملونه ويحدثونه من الجرائم والآثام فى الدنيا ، والمراد من الجلود هنا هو ظاهر البشرة ،ولفظ (مَا) فى قوله - تعالى - : (إِذَا مَاجَآءُوهَا) لتوكيد مجيئهم[2] وأنه لابد أن تحصل تلك بشهادة من الأسماع والأبصار والجلود عليهم .

٢١ - (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . . .) الآية :

وسألوا جلودهم سؤال إنكار وتقريع وتوبيخ : ماحملكم على أن تشهدوا علينا ؟ وعنكم كنا نناضل (قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء لاينطق ولايتكلم - أنطقنا- لنشهد عليكم بالحق ، فهو قادر على ذلك ، فقد خلقكم أول مرة من تراب ثم من نطف ، وإليه ترجعون ، فهذه الشهادة حق الله .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : « كنا عندَ رسولِ الله ﷺ فَضحكَ ، فقال : «هل تَدرونَ مِمَّ أضحكُ ؟» قلْنا : اللهُ ورسولُه أعلمُ ، قال : « من مخاطبةِ العبد ربَّهُ ، يقول : ألم تُجِرْنِي من الظلم ؟ قال : يقولُ : بلى ، قال فيقولُ : فإِنِى لَا أُجيزُ على نفْسِى إلا شاهداً مِنِّى ، قال يقولُ : كَفَى بنفسِك اليومَ شهيدا ، وبالكرامِ الكاتبين شُهودا ، قال : فيختم على فِيهِ فَيُقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، قال : ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، قال فيقول : بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً ، فعنكُنَّ كُنتُ أُناضِل » .

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) فليست بنافية .

واختلف فى كيفية الشهادة من الجوارح والجلود على ثلاثة أقوال ، أحدها : أن الله يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على مايعرفه .

الثانى : أن الله – تعالى– يخلق فى تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة التى نودى منها موسى – عليه السلام – .

الثالث : أن يظهر الله – تعالى– فى الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى شهودا .

(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(تَسْتَتِرُونَ) : تستخفون .

(أَرْدَاكُمْ) : أهلككم .

(مَثْوًى) : إقامة دائمة .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟) : وإن يسألوا الرضا من الله –تعالى –، أو : وإن يعتذروا .

(فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) : فما هم من المجابين إلى مايسألون .

التفسير

٢٢ - (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَايَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَا تَعْمَلُونَ) :

أى : ماكان استتارهم واستخفاؤهم عندما كانوا يقارفون الموبقات والأعمال القبيحة خوفا من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن كان هذا التستر والاختفاء لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لايعلم كثيرا من الأعمال التى يقدمون عليها فى خفية واستتار .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر علىَّ : ثقفيان وقرشى ،فقال أحدهم : أترون الله يسمع ماتقولون ، فقال الرجلان : إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلَّا لم يسمع ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل (وَمَاكُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

٢٣ - (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

هذا نص صريح فى أن من ظن بالله - تعالى - أنه يخرج شىء من المعلومات عن علمه - سبحانه - فإنه يكون من الهالكين الخاسرين « الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ »[1] .

قيل : والظن قسمان : ظن حسن بالله - تعالى - وظن فاسد ، وأما الظن الحسن فهو أن يظن به - سبحانه - الرحمة والفضل ،قال ﷺ حكاية عن الله - عز وجل - :

« أنا عندَ ظنِّ عبدِى بِى » وقال-عليه الصلاة والسلام-: « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بِاللهِ » والظن الفاسد : هو أن يظن بِالله أنه يَعْزُبُ ويغيب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان : ظنٌّ مُنْجٍ ، وظن مُرْدٍ . فالمنجى قوله :

---

(١) سورة الزمر من الآية : ١٥

« إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] وأما الظن المردى فهو قوله - تعالى - : (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ) .

٢٤ - (فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . . . .) الآية :

أى : فإن يمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك ، وتكون النار لهم محل ثواء وإقامة دائمة لا انفكاك لهم منها ؛ فلا يجدى صبرهم .

(وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ) وإن يطلبوا الرضا من الله فماهم من المجابين إليه .

وقال الضحاك : المراد وإن يعتذروا فماهم من المعذورين .

* (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أى : وأتحناهم لهم ، وجئناهم بهم ، يقال : قيض الله له رزقا ، أى :جاءه به وأتاحه له كما كان يطلب ، والقرناء :الأصحاب ، مِنْ قرن الشىء بالشىء :وصله به وأصحبه إياه ، وهو من بابَىْ : نصر ، وضرب .

(فَزَيَّنُوا لَهُمْ) : فحسنوا لهم .

(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) :من أمور الدنيا .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : من أمور الآخرة ، حيث حسنوا لهم التكذيب بها .

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : وجب عليهم الوعيد بالعذاب .

(خَلَتْ) : مضت .

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٢٠ .

التفسير

٢٥ - (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء مصير الكافرين فى الآخرة ، جاءت هذه الآية لتبين السبب فيما وصلوا إليه .

والله -تعالى- جعل للناس فى الدنيا قرناء من الجن والإنس يصحبونهم فى حياتهم ، وهؤلاء القرناء قد يكونون مؤمنين صالحين فيحضونهم على الخير ، وقد يكونون غير ذلك فيحملونهم على الشر .

وقد رزق الله الإنسان عقلا يميز به بين الخبيث والطيب ، وأعانه على هذا التمييز بشرع أنزله إليه على لسان نبي من الأنبياء ، فمن واجبه أن يستعمل عقله فى حاضره ومستقبله ، وأن يميز بين الخبيث والطيب ، والنافع والضار ، فإذا زين له قرينه الخير قبله ، وإذا زين له قرينه الشر رفضه .

ومن الناس من فسدت طباعهم لسوء تربيتهم ، فاختاروا قرناءهم من الإنس على منهجهم من السوء والشر ، فزينوا لهم الباطل والشر ، وترك الحق والخير ، فأطاعوهم فكانوا من الخاسرين .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة للتوعية من القرناء والأصحاب ، فلا يقبلون منهم سوى الدعاء إلى الخير ، ويرفضون منهم غيره حتى لايكونوا من الخاسرين ، فى جملة من حقت عليهم كلمة العذاب ، وهى قوله -تعالى- لإبليس : « فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ[1] » .

والمعنى الإجمالى للآية : وأتحنا للكافرين وأصحبناهم بقرناء السوء من الجن والإنس لسوء نشأتهم ، فزينوا لهم مابين أيديهم من الحياة الدنيا ، وما فيها من حلال وحرام

---

(١) سورة ص ، من الآية : ٨٤ ، والآية : ٨٥

وزينوا لهم ماخلفهم من إهمال شئون الآخرة، حيث دعوهم إلى التكذيب بها - كما قال مجاهد - ووجب عليهم الوعيد بعذاب الكافرين، فى جملة أمم كافرة قد مضت من قبلهم، إنهم كانوا خاسرين، حيث اشتروا العذاب الدائم، وباعوا النعيم المقيم.

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : مشركو مكة .

(لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) : لاتأخذوا بهذا القرآن، وافعلوا الباطل فيه، مِنْ لَغَا :قال باطلا، وبابه :عَدَا وصَدِىَ - أى :عَطِش.(يَجْحَدُونَ) :يكفرون وينكرون.

التفسير

٢٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) :

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن مصير مَن زين له قرينه الدنيا وترك الآخرة، جاءت هذه الآية ومابعدها للحديث عن حال مشركى مكة ومآلهم، وقد أشارت الآية إلى أن القرآن كان عدوهم اللدود، لأنه شديد التأثير على النفوس؛فلهذا تواصوا

باللغو فيه ليحولوا بينه وبين أسماع الناس، خشية أن يحملهم على الإيمان بما فيه من الآيات البينات ، والعظات المؤثرات، والأسلوب الفريد .

والمعنى : وقال الذين كفروا من أهل مكة : لاتسمعوا لهذا القرآن وافعلوا الباطل فيه من الصفير والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوا ، ولا يستفيد به أحد ، وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه مايقول : ا هـ .

(لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) محمدا على قراءته ، فلا يظهر مايقوله ، ولايستميل القلوب .

قال ابن عباس: قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى مايقول: ا هـ . كذلك كانوا يفعلون ، ولكن الله أتم دينه ومكّن لنبيه ، وبدل المؤمنين من بعد خوفهم أمنا «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[1] .

٢٧ ـ (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ) :

وعيد لأولئك الكافرين اللاغين فى القرآن ومن حملوهم على اللغو .

والمعنى : فوالله لنذيقن الذين كفروا وَلَغَواْ فى القرآن وحرضوا عليه عذابا شديدا فى الدنيا بنصرك عليهم، ولنجزينهم فى الآخرة على سيئات أعمالهم التى هى أسوأ الأعمال .

أما الأعمال الحسنة : من إغاثة الملهوف وصلة الرحم وقِرَى الأضياف ونحوها، فلا يجزون عليها فى الآخرة ، لأنهم أحبطوها بالكفر ، لقوله ـ تعالى ـ : «وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً»[2] .

٢٨ ـ (ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) :

أى : ماذكر من الجزاء الأخروى السيء ، جزاءٌ أعده الله لأعدائه ، هو النار لهم فيها دار الخلد ، لايموتون ، ولاهم منها يخرجون ، جزاءً بما كانوا بآياتنا يكفرون .

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

٢٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) :

وقال الكافرون وهم فى النار : ياربنا أرنا اللَّذين أضلانا وحملانا على الكفر والمعاصى من جنسى الجن والإنس ، ندسهما بأقدامنا انتقاما منهما ، ليكونا من الأسفلين ذُلاًّ ومهانة ، وفى الدرك الأسفل من النار مكانا ومُقَامًا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ) : أقروا بربوبيته وحده .

(ثُمَّ اسْتَقَامُواْ) : عملوا الصالحات .

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ) : عند الموت ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

(نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى : نحن الذين توليناكم فيها .

(وَفِى الْآخِرَةِ) : ونحن الذين نواليكم فى الآخرة حتى تدخلوا الجنة .

(وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ) : ولكم فيها ماتطلبون ـ مأخوذ من الدعاء بمعنى الطلب .

التفسير

٣٠- (إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَاتَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

هذه الآية شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، بعد بيان سوء أحوال الكافرين فيهما .

والمعنى : إن الذين اعترفوا بربوبية الله وحده فقالوا : ربنا الله ليس لنا إله سواه ، ثم استقاموا على هذا الاعتراف ، فلم يروغوا رَوَغَان الثعالب ، وأتبعوا هذا الاعتراف بالعمل الصالح ، فلازموا الطاعات ، وتجنبوا السيئات ، حتى لاتزل أقدامهم عن طريق مربوبيتهم وعبوديتهم لربهم - إن هؤلاء الصالحين - تتنزل عليهم الملائكة وهم لايرونهم ، يلهمونهم الخير ، وينفرونهم من الشر ، ويمدونهم فيما يعن لهم من أمور الدنيا والآخرة بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن ، فى مقابل مايفعله قرناء السوء مع الكفرة من إغوائهم ودفعهم للمعاصى .

وهؤلاء الملائكة يصحبونهم فى حياتهم وعند مماتهم وبعثهم ، قائلين لهم : لاتخافوا من مكروه يقع بكم ، ولا تحزنوا على شىء فاتكم ، أو لاتخافوا ردَّ حسناتكم فهى مقبولة ، ولاتحزنوا على ذنوبكم فهى مغفورة .

والمقصود إخبارهم بأن الله كتب لهم الأمن من كل غم بسبب صلاحهم ، ولا يقتصرون على ذلك ، بل يقولون لهم : أبشروا بالجنة التى كنتم توعدونها على ألسنة المرسلين ولعل هذه البشارة عند الموت أو البعث من القبور ، ولا مانع من أن تكون إلهاما فى الحياة الدنيا ، وفقا لقوله-تعالى- : «وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً»[1] .

روى الإمام أحمد بسنده ، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قُل ربىَّ الله ثمّ استقِمْ » قلت يا رسول الله : ما أكْثَر ما تخاف علىَّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه ثم قال : « هذا » أى : أخافُ عليك لسانَك .

(١) سورة طه ، الآية : ١١٢

٣١ - (نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) :

هذه الآية من تتمة بشارتهم فى الدنيا ، يقولون لهم : نحن أعوانكم فى أموركم فى الحياة الدنيا ، نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، وأولياؤكم فى الآخرة نمدكم بالشفاعة ، ونتلقاكم بالكرامة ، يقولون لهم ذلك فى مقابل ما بين الكفرة وقرنائهم ، من الإغواء فى الدنيا والجدل والخصام فى الآخرة - وقد مر بيانه - ويقولون لهم أيضاً : لكم فى الآخرة ما تشتهى أنفسكم من أنواع المتع والملذات ولكم ما تطلبون وتتمنون من الأمور الروحانية وسواها.

وقيل المراد بما تدعون : ما تقولون إنه لكم فهو لكم بحكم ربكم .

٣٢ - (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ) :

المشهور أن النُّزُلَ ما يُهَيَّأُ للنزيل - أى :الضيف - ليأكله حين نزوله ، والمعنى : أن هذا النعيم جعله الله ثواباً لهم من غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بعباده حيث يعطى الجزيل فى مقابل العمل القليل .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ۚ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ) : فى الجزاء ، و(لَا) : الثانية تأكيد للأولى .

(ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) : ادفع السيئة بالخصلة التى هى أحسن فى دفعها .

(وَلِىٌّ حَمِيمٌ) : صديق مشفق .

(وَمَا يُلَقَّاهَا) : وما يتخلق بها .

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) : وإما يأتينك منه وسوسة بالشر .

(فَاسْتَعِذْ بِاللهِ) : فلا تطعه معتمدًا على الله .

التفسير

٣٣ ـ (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

ولا يوجد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله وطاعته ، وعمل عملا صالحاً وقال : إننى من المسلمين ، ليكون قوله مطابقاً لفعله ، حتى يكون قدوة لغيره ، وقد نهانا الله ـ تعالى ـ عن المخالفة بين القول والعمل فقال : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَالَا تَفْعَلُونَ »[1] .

وكان زيد بن على ـ رضى الله عنهما ـ يفسر الدعاء إلى الله باللسان وباليد . فكان يدعو إلى الإسلام ويجاهد ، قال الآلوسى : ولعل هذا ـ والله تعالى أعلم ـ هو الذى حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بنى أمية ، وكان زيد هذا عالماً بكتاب الله ـ تعالى ـ وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه ، وهو فى حبس هشام بن عبد الملك ، وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر ، ويقال : إنه كان إذا تناظر مع أخيه محمد الباقر ، اجتمع الناس بالمحابر ، يكتبون ما يصدر عنهما من العلم ـ رحمهما الله تعالى ، ورضى عنهما ـ : ا هـ .

---

(١) سورة الصف ، الآيتان : ٢ ، ٣

٣٤ - ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ :

استئناف لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد ، إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه - عز وجل - .

وفى الآية ترغيب لرسول الله ﷺ فى الصبر على أذية المشركين ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان .

ومعنى الآية : ولاتستوى الخصلة الحسنة والخصلة السيئة فى الآثار والأحكام ، فإذا أساء إليك مسيء فلا تقابله بمثل ما صنع ، بل قابله بما هو خير وأفضل من سواه من أساليب المعروف ، فالفحش تقابله بالحلم والصبر ، أو تقول له :إن كنتَ صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك ، والغلظة تقابلها بالمداراة ، والإيذاء تقابله بالإحسان ، إلى غير ذلك من المتقابلات ، فإن فعلت ذلك صار عدوك المُشَاقُّ مثل الصديق المشفق ، بل قد تزول العداوة وتحل محلها الصداقة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودَّة بتدارك الهفوات بالحسنات

والآية - على ما قيل - نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان عدوًّا مبيناً لرسول الله ﷺ فصار عند أهل السنة وليا مصافيا - ذكره الآلوسى - وذلك لأن الرسول ﷺ لما فتح مكة عفا عنه ، وقال : « مَنْ دخلَ دارَ أبى سُفيانَ فهوَ آمِن » .

ومن الناس من لا تصلح معه الملاينة إذ يحسبها ضعفاً ويتمادى فى سيئاته ، فمثل هذا تستعمل معه المخاشنة بعد فشل استعمال الملاينة ، وذلك فى حدود الضوابط الشرعية .

٣٥ - ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ :

وما يُؤتى خَصْلةَ دفع السيئة بالحسنة إلا الذين شأْنهم الصبر والحلم ، وما يؤتاها إلا ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس - كما روى عن ابن عباس - أو ذو حظ عظيم من الثواب - كما قال قتادة - .

٣٦ - ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ :

النزغ : النخس بطرف قضيب أو نحوه بقوة ، استعير لوسوسة الشيطان الباعثة على الشر، ولفظ « ما » فى « إمّا » صلة للتأكيد ، والأصل : وإن ينزغنك فزيدت (ما) وأدغمت فى النون.

والمعنى : وإمّا يصرفنك الشيطان عن دفع السيئة بالحسنة ، حاملا لك على مقابلة السيئة بمثلها أو بأكثر منها ، فاستعذ بالله من شره ولاتطعه ، إنه – تعالى – سميع لاستعاذتك ، عليم بحسن نيتك فيعصمك ويعينك على صبرك .

وقيل إن المعنى : سميع لقول من آذاك ، عليم بفعله ، فينتقم منه مغنيا إياك عن هذا الانتقام .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ) : المراد بهم الملائكة .

(بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) المقصود بهما : الدوام ، فإن الملائكة ليس عندهم ليل ونهار .

(لَا يَسْأَمُونَ) : لا يملّون .

(خَاشِعَةً) : يابسة متطامنة ، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ، وقال القرطبى : الأرض الخاشعة الغبراء التى تنبت .

(اهْتَزَّتْ) : تحركت بالنبات .

(وَرَبَتْ) : انتفخت .

التفسير

٣٧ - (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

ومن دلائل وجود الله - تعالى - وقدرته ، ووحدانيته وحكمته ، وكمال صفاته ، أنك ترى الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وتعاقبهما بانتظام من غير فتور ، وتداخل بعضهما فى بعض ، فيزيد النهار وينقص الليل ، أو يزيد الليل وينقص النهار ، ويترتب على ذلك وجود الفصول الأربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ، ومعرفة عدد السنين والحساب .

ومن دلائله - تعالى - الشمس بنورها وأشعتها الساخنة الساطعة ، والقمر بضوئه وأشعته الخافتة وتنقلهما فى مداراتهما ومنازلهما بانتظام ، فينشأُ عن تنقل الشمس فيها الفصول الأربعة وحساباتها الفلكية ، وينشأُ عن تنقل القمر فيها زيادة ضوئه ونقصانه ، ومعرفة مبدأ شهره ونهايته ، كما أن لكليهما أثرًا بالغاً فى نمو الزرع وحياة الحيوان ، ومعرفة أوقات العبادات والمعاملات .

ولما كانت الشمس والقمر أظهر الكواكب بالنسبة لأهل الأرض ، وكان بعض الناس يسجدون لهما تقربًا إلى الله بعبادتهما ، أو إيماناً بأُلوهيتهما - لما كان الأمر كذلك - نهى الله عباده عن السجود لهما ، لأن الله - تعالى - خالقهما ، وهما من دلائل وجوده وكمال صفاته ، فقال-سبحانه-: (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

فالله لايحتاج إلى وسيط فى عبادته ، وهذا الوسيط يبعدهم عن الله ولا يقربهم منه ، وينسيهم الله ، فينسبون له النفع والضر ، والخير والشر ، فمن كان يعبد الله فلا يشرك معه أحدًا فى عبادته ، فهو أقرب إليه من حبل الوريد ، ولا يغفر أن يشرك به .

ويلاحظ أن فى المجرات ملايين الشموس والأقمار وسائر الكواكب ، وفيها أكبر من شمسنا وقمرنا وأرضنا ، ولكن الله خاطب عباده بما تقع عليه عيونهم وبما يعبدونه .

والضمير فى « خلقهن » يرجع إلى الليل والنهار والشمس والقمر ، وتأنيث الضمير الراجع عليها مع أن غالبها مذكر ، باعتبار أنها آيات ، ولأن كل جمع يصح تأنيث ضميره ، قال الناظم :

لا أبالى بجمعهم كل جمع مؤنث

وهذه الآية موضع سجدة بلا خلاف ، واختلفوا فى موضع السجود منها ، فقال مالك : موضعه (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) لأنه متصل بالأمر ، وقال ابن وهب والشافعى : موضعه (وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) فى الآية التالية ، لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال ، وبه قال أبو حنيفة .

واختلف النقل عن الصحابة على هذا النحو ، قال ابن العربى : والأمر قريب : انتهى بتصرف يسير من القرطبى .

٣٨ - (فَإِنِ اسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) :

فإن تَعَاظَمَ الكفار عن أن يسجدوا لله وحده ، فلا تعبأ بهم ، فإن الملائكة الذين هم فى حضرة القدس الإلهى يسبحون له دائماً ، وهم لا يملون التسبيح .

٣٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الخطاب هنا لكل عاقل .

ومعنى الآية : ومن دلائل قدرة الله -تعالى- على إحياء الموتى أنك ترى الأرض هامدة يابسة لانبات فيها ، فإذا أنزل الله الماء عليها تحركت بالنبات حين يبدو من بذوره ، وارتفعت به بعد خروجه حيث يزداد طولا وعرضاً ، ويصير أشجارًا وزروعا تسر الناظرين ، وتطعم الآكلين ، وتفكه المتفكهين ، بعد أن كانت ميتة هامدة ، إن الذى أحياها على هذا النحو العجيب لمحيي الموتى ، وباعث من فى القبور ، كما أحياها بعد أن كانت ميتة ، إنه على كل شىء قدير ، فآمنوا بالبعث والنشور للإنسان ، فما ترونه فى النبات والأشجار بعث ونشور لهما .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(يُلْحِدُونَ فِىٓ آيَاتِنَا) : يميلون عن الحق فيها ،والإلحاد :الميل والعدول ، والمراد بالآيات هنا القرآن .

(كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ) : كفروا بالقرآن ، فإن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام ، ويطلق الذكر على الشرف أيضاً ، والقرآن شرف للعرب ، حيث جاءت المعجزة المحمدية من لغتهم ، وحيث بدأ به عموم الرسالة من بينهم .

(كِتَابٌ عَزِيزٌ) : ليس له نظير ،أو : منيع لا تتأتى معارضته ،وأصل العز : حالة مانعة للإنسان عن أن يُغلب ، أو غالب للكتب حيث نسخ ما قبله ، وقال ابن عباس : كريم على الله تعالى .

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) :المراد :أنه لا يأتيه الباطل من جميع جهاته .

(حَكِيمٍ حَمِيدٍ) الحكيم : من يضع الشيء فى موضعه ، والحميد :المحمود ، وخبر إن الذين كفروا هو جملة « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ » أى :لا يأتيه الباطل منهم – أى : من الذين كفروا. قاله أبو حيان ، أو هو مقدر ، وتقديره خاسرون ،والخبر يحذف إذا دل عليه المقام ، وقدره

عمرو بن عبيد بقوله : كفروا به . بعد قوله لما جاءهم ، أى :إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به فى حال أنه كتاب عزيز . . . إلخ .

التفسير

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ آيَاتِنَا لاَيَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا ، فيكذبون القرآن ، ويصفرون ويصفقون عند قراءة النبى ﷺ له ، ويصفونه بالكذب وبالسحر وبالشعر وبأساطير الأولين - إن هؤلاء الملحدين - لا يخفون علينا ، فنحن نعلمهم ونعلم إلحادهم ، وسوف نجازيهم بالنار على هذا الإلحاد .

(أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ) جزاء له على إلحاده خَيْرٌ (أَم مَّن يَأْتِيٓ آمِنًا) منها يوم القيامة ، جزاء له على إيمانه ، ولا يقتصر أمرهم على ذلك ، بل يدخلون الجنة خالدين فيها أبدا .

ثم هدد الله الملحدين فقال :(اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فلا تخفون عليه « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[1] .

٤١ ، ٤٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) :

إن الذين كفروا بالقرآن حين جاءهم من غير مُهلة يفكرون فيها فى أمره - إن هؤلاء - كفروا به وإنه لكتاب عزيز منيع لاتتأتى معارضته ، ولا يأتيه الباطل من جميع جهاته لغة ، وعقيدة ، وتشريعاً ، وقصصاً ، وانسجاماً ، وترتيلا ، فهو فى هذه قمة لاترام ولاتنال ، منزل من إله (حَكِيمٍ) يأتى بالمعجزات التى لا يمكن معارضتها تأييدًا لرسله ، ويضع الشىء فى موضعه (حَمِيدٍ) محمود على ما أسدى من مختلف أنواع النعم ، التى منها تنزيل هذا الكتاب - محمود على ذلك - بلسان المقال أو بلسان الحال ، من كل مخلوق نالته نعمه - سبحانه - ، وإذا كان القرآن بهذه المثابة ، فكيف يكفر به الكافرون ويجحده الجاحدون؟

٤٣ - (مَايُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُوعِقَابٍ أَلِيمٍ)[2] :

---

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٢٧

(٢) «إن ربك لذو مغفرة» تعليل لما فهم من السياق من الأمر بالصبر ، وقيل :هى مقول القول الثانى ، مقصود لفظها لتكون نائب فاعل لقيل .

فى هذه الآية تسلية للنبى ﷺ عما يصيبه من أذية كفار مكة ، من طعنهم فى القرآن ووصفه ﷺ بالسحر ، والشعر ، والكذب ، والجنون .

والمعنى : ما يقال لك ـ أيها الرسول ـ من الكفار ، إلا مثل ماقيل للرسل قبلك من أقوامهم كما قال ـ تعالى ـ : « كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ »[1] .

فاصبر على مقالاتهم كما صبر الرسل من قبلك على مقالات قومهم ، فلا عليك من تكذيبهم ، (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) لأوليائه ، (وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) لأعدائهم ، فينصر أولياءه وينتقم من أعدائهم .

ويصح أن يكون المعنى : إن ربك لذو مغفرة لمن آمن من قومك ، وذو عقاب أليم لمن بقى منهم على كفره .

ويصح أن يكون المعنى : ما يقال لك من الله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، وهو : (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) فتلك المقالة لمواساتك ومواساة المرسلين قبلك ، فاصبر كما صبروا فسينصرك الله كما نصرهم ، ويعاقب أعداءك كما عاقب أعداءهم .

(وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾)

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٢ .

المفـردات :

(أَعْجَمِيًّا) : بلغة العجم .

(لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) : هلَّا بينت بلسان نفقهه .

(ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) : أيصح أن يأتينا كتاب أعجمي والمخاطب به عربي ؟ والعرب يقولون عمن يخالف لغتهم : أعجمي[1]

(فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ) : صمم فلا يسمعونه .

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) : فلا يبصرون هداه .

(أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) : هؤلاء كأنما ينادون من مكان بعيد فلا يسمعون لبعده ، فاختلف فيه بالتصديق والتكذيب .

(لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : لفي شك يقتضي الاضطراب والقلق .

التفسير

٤٤ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ...) الآية :

لما ذكر الله - تعالى - القرآن وبلاغته وفصاحته ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون - لمَّا ذكر ذلك - نبه بهذه الآية على أن كفرهم به كفر عناد .

ومعنى الآية : ولو جعلنا القرآن بلغة غير لغة العرب ، فنزلناه على بعض الأعجمين بلغته ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ، ولقالوا : لولا بينت آياته بلغتنا حتى نفهمه أيصح أن يكون قرآننا أو رسولنا أعجميا ، والمرسل إليه عربي ؟ فلهذا أنزله الله بلغتهم العربية ليفهموه ويعقلوه ويتدبروا آياته .

وعقب ذلك ببيان أن الناس بالنسبة للقرآن قسمان : مؤمنون يهتدون به ، وكافرون

---

(١) وقال القرطبي : والعجمي الذي ليس من العرب - فصيحاً كان أو غير فصيح - والأعجمي : الذي لا يفصح من العرب أو من العجم .

يعرضون عنه ، وذلك فى قوله : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) :

ومعناه : قل-أيها الرسول-لهؤلاء المعاندين : القرآن للذين آمنوا به هدى وشفاء من الشك والعلل ، لصفاء قلوبهم ، ونقاء عقولهم ، وبعد نظرهم ، وهو للذين كفروا بعيد عن قلوبهم ، فهم لذلك لا يسمعونه ، كأنهم صم لا يسمعونه ، فلهذا تواصوا بعدم سماعه واللغو فيه ، كما قال - تعالى-فى هذه السورة : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) .

وهم بعيدون عن النظر فيه ، كأنهم عمى لا يبصرون ، كأن من يدعوهم إلى الحق يناديهم من مكان بعيد ، لا يصل منه صوته إليهم ، لصممهم المصنوع ، ولا يرونه لتعاميهم عن رؤيته .

٤٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن حزنه لاختلاف قريش على القرآن ما بين مكذب ومصدق له .

والمعنى : وبالله لقد آتينا موسى كتاب التوراة ، فاختلف فيه قومه ما بين مكذب ، ومصدق ، فلا تحزن على اختلاف قومك على القرآن ، فتلك عادة قديمة فى الأمم ، ولولا كلمة سبقت من ربك فى حق أمتك ، وهى العدة بتأخير عذاب المكذبين منهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة - لولا ذلك - لاستأصلهم بالعذاب كما استأصل المكذبين قبلهم وإن كفار قومك لفى شك من القرآن موقع فى القلق والاضطراب .

٤٦ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

من عمل صالحًا بالإيمان بالكتب السماوية والعمل بموجبها فلنفسه نفعه لا لغيره ، ومن أساء بالكفر والعصيان فعلى نفسه ضره لا على غيره ، وما ربك بظلام للعبيد ، فلا يعذب أحدًا بغير ذنب .

* (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾)

المفـردات :

(وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا) أى : من أوعيتها .

(أَكْمَامِهَا) : واحدها كِمٌّ - بالكسر فالسكون - وهو وعاء الثمرة قبل أن ينشق عنها ، وتسمى الثمرة حينئذ الكُفُرَّى .

(قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّاكَ) أى : أخبرناك وأسمعناك .

(مَا مِنَّا من شَهِيدٍ) أى : ليس مِنَّا مَن يشهد بـأن لك شريكا .

(وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : أيقنوا وعلموا بـأنه لا فرار لهم من النار .

التفسـير

٤٧ - (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) :

أى: إذا سئل أحد عن الساعة قال : الله - تعالى - يعلم ، أو لا يعلمها إلا الله - عز وجل - وقد سئل عنها الرسول وهو سيد البشر من جبريل وهو من سادات الملائكة ، فقال : ما المسئول عنها بـأعلم من السائل . كما قال - تعالى - : « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا »[1] وكما أنه - سبحانه - اختص

(١) سورة النازعات الآية رقم ٤٤ .

بعلم وقت قيام الساعة فقد اختص كذلك بعلم مايخرج من ثمرات من أوعيتها قبل أن تنشق عنها ، وقرىء (من ثمرة) على إرادة الجنس . أما الجمع فلاختلاف الأنواع .

(وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) أى : وما يحدث من شىء من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ولا وضع واضع ، أى : ما يحدث شىء من ذلك إلا ملابسا بعلمه - تعالى - واقعا حسب تعلقه به من عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من النقص والتمام والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح ، والسعادة والشقاء ، وذكرت هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله - تعالى - .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِى) أى : واذكر يوم ينادى الله المشركين على رءوس الأشهاد قائلا: أين شركائى بزعمكم الذين عبدتموهم فى الدنيا . وفيه تهكم بهم ، وتقريع لهم .

(قَالُوا آذَنَّاكَ) أى : قال الذين نودوا : أسمعناك وأخبرناك .

(مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ) أى : ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينًا الحال ، أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ .

٤٨ - (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ) أى : وغاب عنهم ما كانوا يدعونهم من قبل فى الدنيا للعبادة ، ويرجون نفعهم ، على أن الضلال بمعناه الحقيقى وهو الذى يقابل الوجدان ، أى : لم يجدوهم حينما طلبوهم للاستنصار بهم أو ظهر لهم عدم نفع شركائهم ، وكان حضورهم كغيبتهم، على أن الضلال مجاز عن عدم النفع ، وأيقنوا مالهم من مهرب من عذاب الله ونكاله كما قال السدى وغيره . فالمراد بالظن هنا العلم ، وكونه بمعنى العلم يقع كثيراً ، وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللهِ . . . . »[1] أى : يعلمون ويوقنون .

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢٤٩

(لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(لَا يَسْئَمُ الْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ) أى : لا يمل ولا يفتر من طلب الخير كالمال والصحة والولد .

(وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ) : كالفقر والمرض وعدم الإنجاب .

(فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) من فضل الله ورحمته ، واليأس : صفة القلب ، والقنوط : يأس مفرط يظهر أثره على المرء فينكسر ويتضاءل .

(إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ) أى : الجنة .

(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أى : بالغ الغاية فى الشدة كأنه مُحَسٌّ مشاهد على صورة غليظة .

(وَنَئَا بِجَانِبِهِ) أى : تباعد عن ذكر الله ودعائه ، أو هو جانبه كناية عن الانحراف والتكبر والصلف .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ، مستعار مما له عرض متسع ، وذلك للإشارة إلى كثرته .

التفسير

٤٩ ـ (لَا يَسْئَمُ الْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) :

الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وقيل : فى عتبة بن ربيعة ، والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ومعناها : لا يسأم الإنسان ـ أى : الكافر ـ من دعاء أنواع الخير كالصحة والمال وكل مقاصد النعيم ، وإن نزل به شر من مرض أو عسر فهو يئوس من فضل الله قنوط من رحمته ، وقد بولغ فى يأسه من جهتين : من جهة الصيغة لأن (فعولا) من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوى فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثر اليأس ظاهرا عليه لا يفارقه كان فى ذكر القنوط ذكرٌ لليأس ثانياً بطريق أبلغ فى قطع الرجاء من فضل الله ورحمته .

وهذه الآية تعيب على الإنسان يأسه وقنوطه من رحمة الله ، وتحمله على الرجاء وعلى الدعاء بدفع الضُّر عنه .

وقدم اليأس لأنه صفة القلب التى تدعو اليائس إلى أن يقطع رجاءه من الخير ، وهى المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ، ثم يجىء القنوط بعد اليأس ليزيد أثره على الوجه ، فهو من باب التدرج من الأدنى إلى الأعلى .

٥٠ ـ (وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) :

المعنى : أن هذا الإنسان إذا فَرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق ليقولن بصفة التأكيد والوثوق : هذا شئ أستحقه على الله لرضاه بعملى ، أى : هذا حق وصل إلىّ لأنى استوجبته بما عندى من فضل وخير وأعمال بر ، فيرى النعمة حقًّا واجباً على الله له ، ولم يعلم أنه ابتلاء بالنعمة والمحنة . ليتبين شكره وصبره . وقال ابن عباس : معنى (هذا لى) أى : هذا من عندى بمعنى لا يزول عنى أبداً .

(وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً) فيما سيأتى (وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ)-كما يقول المصدقون بالبعث - إن لى عنده لَلْجنةأو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة بقياس أمر الآخرة على أمر الدنيا .

(فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ) : يتهدد الله - تعالى - من كان هذا عمله واعتقاده بكشف مستور أمره ،أى : فلنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا . فيظهر أنهم مستحقون فيها للإهانة لا للكرامة التى توهموها وأشادوا بها ، ولنذيقنهم من عذاب شديد لا يقادَرُ قدرُه ولا يُحَدُّ مداه ، فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ولا يتسنى لهم التقَصِّى منه .

٥١- (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) :

ضرب آخر من طغيان الإنسان ،أى : وإذا أنعمنا عليه أعرض عن الشكر وذهب بنفسه وتباعد بكليته صلفاً وغروراً . والجانب مجاز عن النفس كقوله - تعالى - : « يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللهِ »[1] ويجوز أن يكون المراد بجانبه عطفه ويقصد الانحراف والازورار كما قالوا : ثنى عطفه وتولى بركنه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ) : أى الضرر أو الفقر .

(فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) أى : كثير مستمر ،بمعنى أنه أقبل على الدعاء الدائم ، وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العَرْض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ،كما استعير الغلظ لشدة العذاب ، ولا منافاة بين قوله (فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ) وبين قوله : (فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) مع أن كلا عند مس الشر ، لأن الأول فى قوم، والثانى فى قوم آخرين ،أو يئوس قنوط بالقلب ، وذو دعاء عريض باللسان .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٥٦

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) أى : فى خلاف بعيد عن الحق كل البعد

(سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ) أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا فى الآفاق جمع أفق - بضمتين أو بفتحتين - وهى : النواحى عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها .

(وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، أو بما يحدث لهم من البلايا والأمراض وحوادث الأرض .

(أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ) أى : فى شك من أمر البعث .

(بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ) أى : بكل شىء فى الدنيا والآخرة محيط ، فلا يفوته شىء .

التفسير

٥٢ - (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : هذه الآية وما بعدها رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين ، وختم للسورة .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : إن كان من عند الله ثم جحدتم به مع تعاضد الأدلة والبراهين التى هى من موجبات الإيمان به - قل للمشركين المكذبين - إن كان هذا شأنه فأخبرونى .

(مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أى : من أضل منكم؟ فوضع الموصول موضع الضمير شرحًا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم ، حيث إنهم فى خلاف بعيد غاية البعد عن الحق .

٥٣ - (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) :

المعنى : سنريهم فى الآفاق آياتنا الدالة على حقية القرآن وكونه من عند الله . وفسرت الآيات بما أخبر به النبى ﷺ من الحوادث الآتية ، وآثار النوازل الماضية وما يسّر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا ، والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة . كما سنريهم آياتنا فى أنفسهم فيما ظهر بين أهل مكة خصوصاً وما حل بهم وقيل فى الآفاق ، أى : فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار . والأضواء والظلال والظلمات ، ومن النبات والأشجار والأنهار ، وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، نفعل ذلك معهم حتى يظهر لهم أن القرآن هو الحقُّ الذى لا شك فيه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كلُّه من عند الله المطلع على كل غيب وشهادة ، ولهـذا نصر حاملوه وكانوا محققين ، وفى تعريف الحق من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً ، والتعبير بقوله : (سَنُرِيهِمْ) إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشئُ لهم فتحاً بعد فتح وآية غبَّ آية إلى أن يظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون .

(أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) : استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقِّية القرآن ، أو لم يكفهم فى ذلك أنه - تعالى - شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده .

« لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ » (١)

---

(١) سورة « النساء » من الآية ١٦٦

٥٤ - (أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) :

أى : ألا إنهم فى شك عظيم من لقاء ربهم بالبعث لاستبعادهم إعادة الموتى بعد تحليل أجزائهم وتفرق أعضائهم مع أن الله على كل شىء قدير ، فهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة لتجزى كل نفس بما كسبت « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » .

(أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ) أى : ألا إن ربهم عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا تخفى عليه - عز وجل - خافية فيجازيهم على كفرهم ومريتهم فى لقاء ربهم ، وفى الآية دفع لشكهم فى إعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه ، أى : أنه عالم بمجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، مقتدر عليها لا يفوته شىء منها فهو - سبحانه - يعلم الأجزاء ويجمعها بعد أن تفرقت وصارت عظاماً ورفاتاً « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] .

وعلماء التوحيد فى ذلك على رأيين ، أحدهما : ما ذكر هنا ، والآخر : أنه - تعالى - يعيد الخلائق بخلق جديد ، لأن أجزاءهم دخَلتْ بعد تحللها فى تكوين خلائق أُخرى ، جيلا بعد جيل .

ويقولون : إن النعيم والعذاب للروح ، وأما الجسد فهو وعاؤُها ، والكسب إنما هو بها لابوعائها ، فلولا الروح لما استطاع الجسد أن يعمل شيئا ، وفى ذلك يقول صاحب الجوهرة :

وقُل : يُعاد الجِسم بالتحقيق عن عدم ، وقيل : عن تفريق

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٢٩ .

« سورة الشورى »

هذه السورة : مكية وآياتها ثلاث وخمسون ، وسميت الشورى لوجودها فى آياتها لإرشاد المؤمنين إلى السير فى تصريف مجتمعهم على أساسها ، ومناسبة هذه السورة للتى قبلها : اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ودفع طعن الكفرة فيه ، وتسلية النبى ﷺ بما ذكر فيهما من آيات تبين نصر المؤمنين وخذلان الكافرين والجاحدين .

اهم مقاصد السورة :

١ - افتتحت بالتنويه بشأن القرآن بأنه وحى من عند الله ، وكذلك كانت كتب الأنبياء السابقين .

٢ - أشادت بقدرة الله ، وأنه - سبحانه - لا يخرج عن سلطانه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

٣ - بينت أن السموات تكاد أن يتشققن من فوقهن لعظمة الله ، وكمال الخشية منه .

٤ - هددت الذين اتخذوا من دونه أولياء بأن الله حفيظ عليهم ليجازيهم بما اقترفوا .

٥ - أشارت إلى أنه - تعالى - لو شاء أن يجمع الناس على ملة واحدة لجمعهم ، ولكن الحكمة اقتضت أن يكون منهم المهتدى والضال .

٦ - أرشدت إلى مايفعله المؤمنون مع المشركين إذا خالفوهم فى الدين .

٧ - أشارت إلى القدرة البالغة فى أنه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ، ومن الأنعام أزواجا .

٨ - أكدت وحدة الشرائع .

٩ - نددت بشرك المشركين واختلافهم فى الحق ظلمًا بعد أن أمروا بإقامة الدين وعدم التفرق فيه .

١٠ - بينت أن الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم وأدركوا عهد الرسول لفى شك من كتابهم موقع فى الريب ، وسيأتى تفسيره .

١١ - أرشدت إلى ما يجب اتباعه فى دعوة الناس إلى الحق .

١٢ - بينت بطلان حجة الذين يجادلون فى الدين من بعد ما استجاب الناس لدعوته .

١٣ - ذكرت أن الذين يستعجلون الساعة هم الذين لا يصدقون بها ، أما الذين صدقوا بها فهم خائفون من وقوعها .

١٤ - أبرزت لطف الله بعباده حيث يرزق من يشاءُ كما يشاءُ بدون معقب له .

١٥ - حذرت من الانهماك فى طلب الدنيا حيث تكون عاقبته الحرمان من الآخرة .

١٦ - بينت سوء حال الجاحدين يوم القيامة ، وأنهم مشفقون مما كسبوا وهو واقع بهم . كما بينت حال المؤمنين ، وأن لهم ما يشاءُون عند ربهم .

١٧ - نددت بادعاء المكذبين على رسول الله ﷺ أنه افترى على الله كذبًا وردت ذلك الافتراء .

١٨ - بددت يأس اليائسين حيث أبانت أن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

١٩ - ذكرت الحكمة فى توزيع الرزق بين الناس بتدبير محكم ، فلم يكونوا جميعًا أغنياء ، ولم يكونوا فقراء ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا .

٢٠ - أشارت إلى عظم بركات الغيث ، ودلائل قدرة الله على خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة .

٢١ - ذكرت أن من آيات القدرة السفن الجوارى فى البحر كالأعلام إن يشأْ تهب الرياح فتسيرها ، وإن يشأْ يجعلها ساكنة ، فتظل ثوابت على وجه الماء ، أو يهلكهن بذنوب ركابها .

٢٢ - أعادت تهديد المجادلين ، فذكرت أنهم فى علم الله ، ليس لهم من عقابه مهرب .

٢٣ - عددت أوصاف المؤمنين ، ومن بينهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ومما رزقهم الله ينفقون ، وذكرت أن لهم ما هو خير وأبقى عند ربهم .

٢٤ ـ دعت إلى عدم قبول الذلة ، ودلَّت على أن الانتصار ـ بعد الظلم ـ أمر مشروع : (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)[١] .

٢٥ ـ دعت إلى الصبر والمغفرة (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[٢] .

٢٦ ـ بينت حال الظالمين حين يرون العذاب ، كما بينت حالهم حين يعرضون على النار ، وسجلت قول المؤمنين فى الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، : (أَلَآ إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ)[٣] .

٢٧ ـ حثتْ على الاستجابة قبل فوات وقتها (اسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ)[٤] وهددت من لا يستجيبون لله ورسوله (مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ)[٥] .

٢٨ ـ دعت الرسول إلى عدم الحزن على المعرضين لإعراضهم عن الاستجابة : (فَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَـٰغُ)[٦].

٢٩ ـ عنيت بتسلية الرسول ﷺ ببيان أن الحق لله فى هبة الإناث لمن يشاء والذكور لفريق آخر ، والجمع بينهما لفريق ثالث ، وحرمان فريق رابع منهما .

٣٠ ـ ذكرت طرق خطاب الله تعالى لأنبيائه وعباده .

٣١ ـ ختمت السورة ببيان أن مثل ما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك هذا القرآن ، وهو روح من أمر الله جعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَٰطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)[٧].

---

(١) سورة الشورى الآية ٤١
(٢) سورة الشورى الآية ٤٣
(٣) سورة الشورى من الآية ٤٥
(٤) سورة الشورى الآية ٤٧
(٥) سورة الشورى من الآية ٤٧
(٦) سورة الشورى من الآية ٤٨
(٧) سورة الشورى من الآية : ٥٢ والآية : ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) أى : يتشققن من عظمة الله وجلاله وقيل : من ادعاء الولد له .

(مِن فَوْقِهِنَّ) أى : يبتدئ التشقق من أعلاهن .

(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الْأَرْضِ) أى : يسألون الله أن يغفر للمقصرين فى الأرض من المؤمنين .

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) أى : بموكل بهم أو بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار .

التفسير

١ ، ٢- (حمٓ * عٓسٓقٓ) : هما اسمان للسورة ولذلك فصلا فى الخط وعدا آيتين. وقيل : هما اسم واحد وآية واحدة والفصل بينهما ليناسب مفتتح سائر الحواميم قبلها وبعدها حيث

رسم مستقلا فى السور المفتتحة بحروف الهجاء وقيل : إن أجزاءهما أسماء لحروف هجائية ، والمراد بها تحدى العرب أن يأتوا بسورة مثله لأنه مؤلف من كلمات ذات حروف هجائية مثلما يتكلمون وينطقون ، فليأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، وقيل : غير ذلك . والكلام فى إعرابها وفى معناها قد مضى فى مثله من سورة البقرة وغيرها ، وحسبك هنا ماتقدم .

٣ـ (كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) : كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق ، أى : مثل ما فى هذه السورة من المقاصد أُوحى إليك فى سائر السور وأوحى إلى من قبلك من الرسل فى كتبهم وصحفهم ، من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق وإلى ما فيه صلاح العباد ، أو مثل إيحاء هذه السورة أوحى إليك سائر السور . وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم كما فى قوله ـتعالى ـ : « إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ »[1] . الآية ، ومناط المثلية كونه بطريق المَلَك ، وفى جعل هذه السورة أو إيحائها مشبها به من تفخيمها والتنويه بها ما لا يخفى ، وخلاصة ما تشير إليه الآية : أن الله ذكر معانى هذه السورة فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من الإرشاد إلى الحق ، وهو العزيز فى انتقامه الحكيم فى أقواله وأفعاله .

٤ـ (لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ) :

استئناف مقرر لعزته ـتعالى ـ وحكمته ـعز وجل ـ فى قوله ـ سبحانه ـ : (ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) من الآية السابقة أى : لله وحده ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتدبيرا وهو العلى شأنه العظيم برهانه .

٥ـ (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) :

الآية واردة للتنزيه بعد إثبات الملكية والعظمة لله ـتعالى ـ فى الآية السابقة أى : تقرب السموات أن يتشققن من أعلاهن مع عظمتهن وتماسكهن خشية من الله وتأثرا بعظمته وعلو شأنه وروى ذلك عن قتادة ، وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : تكاد السموات يتشققن من الثقل لكثرة ما على السماء من الملائكة . قال ـعليه السلام ـ : « أَطَّتِ

---

(١) سورة النساء من الآية ١٦٣

السماء أطًّا وحق لها أن تئط ؛ ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد » والتشقق يحصل من أعلاهن بسبب ذلك ، وقيل : من ادعاء الشريك والولد لله – سبحانه – كما فى سورة مريم « تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا »(١)

وأيد هذا بقوله – تعالى – بعد : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » وكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن ، أى : من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، لأنها جاءت من الذين تحت السماء ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق . كأنه قيل : تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، أما الجهة التى تحتهن فحصوله بطريق الأولى .

(وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) خضوعاً لما يرون من عظمته ، وتنزيها عما لا يليق به ملتبسين بحمده . وقيل : يتعجبون من جرأة المشركين ، فذكر التسبيح موضع التعجب وعن على – رضى الله عنه – أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعرض المشركين لسخط الله (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة ، واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً فى إيمان الكافر . وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر ، وقال السدى وقتادة : المراد بقوله : (لِمَن فِي الْأَرْضِ) المؤمنون لقوله – تعالى – فى سورة غافر : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »(٢) وعلى هذا تكون الملائكة هنا حملة العرش ، وقيل المراد جميع ملائكة السماء وهو الظاهر من قول الكلبى ، وحيث خص من فى الأرض بالمؤمنين فيكون المراد من الاستغفار الشفاعة ، أو حقيقة الدعاء .

(أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) إذ ما من مخلوق إلا وله حظ عظيم من رحمته – تعالى – وإنه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وفيه إشارة إلى قبول استغفار الملائكة – عليهم السلام – وأنه – سبحانه – يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة والرحمة مع زيادة تقرير لعظمته تعالى ، وبيان لكمال تقدسه عما نسب إليه بترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه

---

(١) سورة مريم الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ (٢) سورة غافر من الآية ٧

٦ـ (وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

أى : والمشركون الذين جعلوا لله أندادا وشركاء يعبدونهم من دونه . الله ـسبحانهـ رقيب على أحوالهم وأعمالهم يحصيها عليهم ، ويعدها عدا ليجزيهم عليها . وما أنت ـأيها الرسولـ بموكل بهم ، أو بموكول ومفوض إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإنذار والبلاغ فحسب .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) أى : أنزلناه عربيا بلسان قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ) : وهى مكة ، والإنذار يتعدى إلى مفعولين ، وقد يستعمل ثانيهما بالباء .

(وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) : وهو يوم القيامة .

(لَا رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه . (وفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : فى النار ولهيبها .

التفسير

٧ـ (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : ومثل هذا الإيحاء البديع البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا إبهام عليك ولا على قومك .

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) أى : لتنذر أهل أم القرى وهى مكة ، وتنذر من حولها من سائر الخلق شرقا وغربا . وسميت مكة أم القرى لأن فيها البيت الحرام الذى يحج إليه أهل القرى العربية ، ولهذا كان فراق الرسول حين هاجر منها صعبا على نفسه ، روى الإمام أحمد بسنده : أن عبد الله بن عدى بن الحمراء أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة : « والله إنكِ خيرُ أرضِ اللهِ وأحبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ ولولا أنى أُخرجتُ منكِ ما خرجْت » وهكذا رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح . لهذا الفضل استحقت أن نسمى أمًّا (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) وهو يوم القيامة ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد كقوله ـ تعالى ـ : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ »[1] وفى العبارتين : (لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ) احتباك فقد حذف من الأولى ما أثبت فى الثانية ، و حذف من الثانية ما أثبت فى الأولى ، أى : لتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع تنذر يوم الجمع أم القرى ومن حولها ، ثم قرر ذلك بقوله : (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى : لا شك فيه .

(فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ) أى : هذا التفريق بعد جمعهم فى الموقف . فإنهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب ، منهم فريق فى الجنة ومنهم فريق فى النار المستعرة . والجملة استئناف فى جواب سؤال تقديره : ثم كيف يكون حالهم ؟ فيجاب بما ذكر .

٨ ـ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » :

أى : ولو شاء الله لجعلهم فى الدنيا أهل دين واحد ، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن يدخل فى رحمته ـ وهى الإسلام ـ من يشاء أن يدخله فيه ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولاريب فى أن مشيئته ـ تعالى ـ لكل من الإدخالين لاستحقاق كل من الفريقين أن يدخل مدخله تبعا لاختيار

---

(١) سورة هود من الآية ١٠٣

الداخلين فيهما قطعا ، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين تبعا لاختيارهم بعد ما أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين فيتأثر بعضهم بالإنذار فيصرفون اختيارهم إلى الحق فيوفقهم الله -تعالى- إلى الإيمان والطاعات ، ويدخلهم فى رحمته -عز وجل- ولا يتأثر به الآخرون ، ويتمادون فى غيهم ، فيبقون فى الدنيا على ما هم عليه من الكفر ، فينتهون فى الآخرة إلى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب ، قال مقاتل : ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، أى : مؤمنين كلهم على دين الإسلام كما فى قوله -تعالى- : (وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) أى : ولو شاء الله جعلهم أمة واحدة . لقسرهم على الإيمان ، ولكن الله -تعالى- بنى أمرهم على أن يختاروا ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله -تعالى- : (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ) ويعذب الكافرين الذين ظلموا أنفسهم وقيل فى ختام الآية : (وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ولم يقل : ويدخل من يشاء فى عذابه للإيذان بأن الإدخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى ، كما فى الإدخال فى الرحمة ، على أن ذلك أبلغ فى تخويفهم لإشعاره بأن كونهم فى العذاب أمر مفروغ منه إنما الكلام فى -أنه بعد تحتمه- هل من يخلصهم بالدفع أو بالرفع ، فإذا انتفى ذلك علم أنهم فى عذاب لا خلاص منه حيث لا ولى يتكفل بحمايتهم ولا نصير ينقذهم .

(أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾)

المفردات :

(أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) أى : بل اتخذوا أصناما وأوثانا يلون أمورهم .

(وَهُوَ يُحْىِ الْمَوْتَىٰ) أى : عند البعث .

(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) أى : أن غيره من الأولياء لا يقدر على شىء .

التفسير

٩ - (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

جملة (أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ) مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير .

أى : بل أتخذوا - مجاوزين الله - أولياء من الأصنام وغيرها ، و (أم) منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، وهى لاستنكار اتخاذهم الأولياء واستقباحه ونفيه على أبلغ وجه وآكده ، إذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الأولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الأصنام أولياء ، وهو أظهر الممتنعات (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ) كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولى . لا غيره - عز وجل - (وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ) عند البعث (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فهو الحقيق لذلك بأن يتخذ وليا . فليخصوه بالاتخاذ دون غيره .

(وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾)

المفـردات :

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ) أى : وما خالفكم الكفار والمشركون فى الدين أو ماحدث بينكم فيه خلاف .

(إِلَيْهِ أُنِيبُ) : أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأمور .

(فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقها ومبدعها على غير مثال ، يقال : فطره من- باب نصر - ابتدأه واخترعه .

(يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث ، يقال : ذرأ الشىء كثَّره وفرقه .

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : له مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن ، والمقاليد : جمع مِقْلاد أو مقليد .

(وَيَقْدِرُ) أى : يضيق ويقتر على من يشاء .

التفسـير

١٠ - (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين ،أى : ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب ، والمشركون فى شىء من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم فيه كاتخاذ الله وحده وليًّا . فقولوا لهم : حكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله لا إليكم ، وقد حكم بأن الدين هو الإسلام لا غيره ، وأمور الشرائع إنما تتلقى من بيان الله - سبحانه - الذى تكفل بإثابة المحقين من المؤمنين ومعاقبة المبطلين (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي) الإشارة إليه - تعالى - من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قال الطيبى : من كونه - تعالى - يحيي الموتى ، وكونه على كل شىء قدير ، وكونه - عز وجل - ما اختلفوا فيه فحكمه إليه (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أى : عليه لا على غيره توكلت فى كل أمورى ، وإليه أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الأمور لا إلى أحد سواه .

وقيل : المعنى : وما اختلفتم وتنازعتم فى شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره ، وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله ، والظاهر من سنة

رسول الله ﷺ وحيث كان التوكل على الله أمرا واحدا مستمرًا والإنابة إليه متعددة متجددة حسب تجدد موادها. أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع . فقيل : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

١١ - (فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) :

أى : ذلكم الله ربى هو خالق السموات والأرض ومبدعهما خلق لكم من جنسكم أزواجًا ، وخلق للأنعام أيضا من جنسها أزواجا ، أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا وخلق لكم من الأنعام أزواجا (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) أى : يكثركم ويزيدكم فيما ذكر من التدبير ،وهو أن جعل- سبحانه- للناس والأنعام أزواجًا يكون بينهم توالد وتناسل . أوجعل التكثير فى هذا الجعل لوقوعه بسببه ،والضمير فى (يَذْرَؤُكُمْ) يرجع للمخاطبين والأنعام بتغليب المخاطبين العقلاء على الغُيَّب مما لا يعقل(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) نفى للمشاركة فى كل شأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير البديع السابق ،والمراد نفى أن يكون مثله -سبحانه- شىء يزاوجه - عز وجل - وهو وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها .

والمعنى : ليس كذاته شىء بإرادة الذات من (المثل) كما قيل ، وعلى هذا لا فرق بين (ليس كذاته شىء) وبين (ليس كمثله شىء) فى المعنى، إلا أن الثانى كناية مشتملة على مبالغة هى أن المماثلة منتفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه . وهذا لا يستلزم وجود المثل إذ الغرض كاف فى المبالغة ،ومثل هذا شائع فى كلام العرب كما يقولون : مثلك لا يبخل ، يريدون به نفى البخل عن ذاته ويقصدون المبالغة فى ذلك بسلوك طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يماثله فرضا فقد نفوه عنه بطريق أولى . وقيل :يراد بالمثل الصفة ،أى : ليس كصفته صفة (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) أى : المدرك إدراكا تاما لجميع المسموعات ولجميع المبصرات أو الموجودات .

١٢ - (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : له - سبحانه وتعالى - مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن حفظًا وتدبيرا ،وهو- عز وجل - يوسع الرزق لمن يشاءُ ويضيقه على من يشاءُ حسبما تقتضية الحكمة العالية ، والعدل التام .

(إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) مبالغ فى الإحاطة به كما فى قوله -تعالى- : «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ» (١) فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغى أن يفعل عليه.
والجملة تعليل لما قبلها، وتمهيد لما بعدها من قوله -تعالى-: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ).

* (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) : سن لكم من الدين وبين وأظهر وقضى، والمشرعة والشريعة : مورد الماء.

(وَصَّىٰ) : أمر أمراً لازما جازما. (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) : اجعلوا الدين قائما بالمحافظة عليه ، وتقويم أركانه ، والحرص عليه من أن يقع فيه زيغ أو تفريط .

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ) : عظم واشتد.

(يَجْتَبِىٓ) : يجتلب ويصطفى.

(يُنِيبُ) : يرجع عن الكفر ويختار طريق التوحيد والهداية.

(بَغْيًا) : ظلما وحقدا وعداوة.

(مُرِيبٍ) : مقلق موغل فى الشك.

---

(١) سورة يونس من الآية ٦١

التفسير

١٣ - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ :

ختم الله الآية السابقة بقوله :﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليلا لما قبلها ، وتمهيدا لهذه الآية ومابعدها ، وإيذانا بأن ماشرع الله من الأحكام صادر عن كمال العلم والحكمة ،وقد حكت الآيات السابقة صورا كثيرة من ألوان القدرة ، ومظاهر التفرد بالوحدانية والملك ، وقررت أن الله وحده هو الولى لخلقه ، القادر على كل شىء ، فاطر السموات والأرض ،وأنه-تعالى-جعل من الإنسان أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا ينتظم بها أمرالدنيا ، بيده مقاليد السموات والأرض يتصرف فيها خلقًا وملكًا وإحياء وإماتة وبسطا وتضييقًا ، وهو العليم بكل ما فيها ومن فيها ، لا يعزب عن علمه شىء من أحوالها ، ولا يعجزه أمر من أمورها .

ثم جاءت هذه الآية لتبين أنه-تعالى-شرع لعباده ماينظم سلوكهم . ويقوم مسيرتهم بما جاء على لسان أنبيائه ورسله على تتابع الزمان ، فقال-تعالى- :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ...﴾ الآية ، والشارع هو الله - تعالى - المفهوم بالنص من الآيات السابقة ، والمخاطب أمة محمد ﷺ .

والمعنى : سنَّ الله - تعالى - لكم يا أمة محمد وأظهر وبين من أمور الدين وأحكامه ماسبق أن وصى به نوحًا ، والذى أوحاه إلى نبيكم ، وما وصى به من جاء بعد نوح من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- وأمرهم به أمراً مؤكداً لازما هو قوله-تعالى- : ﴿أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ﴾ والمقصود به دين الإسلام ، والاستسلام لله وذلك بتوحيده وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ويوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنًا ، وإقامة الدين : معناها تعديل أركانه ، والمواظبة عليه ، وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو تحريف ،والإسلام بهذا المعنى لا يختلف فيه أحد من الأنبياء فى أى عصر من العصور ، والبدء بذكر نوح - عليه السلام- لأنه أبو البشر بعد آدم - عليهما السلام -ولأنه - على ما قيل-أول الأنبياء بعد آدم .

وفى تقدم ذكر الرسول ﷺ على من قبله من الأنبياء إشعار بأن شريعته ﷺ هى الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ، وأنه النبى الخاتم ، وأن رسالته أعم الرسالات .

والمراد بالإيحاء إليه ﷺ إما الإشارة إلى ما ذكر فى خصوص هذه السورة من مثل قوله - تعالى - فى صدرها : (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ) ومن قوله - تعالى - فى ختامها : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا) وإما ما يعمها وغيرها من مثل ما وقع فى سائر المواقع من القرآن الكريم التى من جملتها : «ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقوله - تعالى - : « قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » وغير ذلك كثير فى القرآن الكريم .

وتخصيص الرسول بذكر الإيحاء ، وإيثاره على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة وغيرها من مثل قوله - تعالى - : «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً » وقوله - تعالى - : «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً » مما جاء فى هذه السورة بخصوصها ، ولما فى الإيحاء من التصريح برسالته ﷺ والالتفات إلى «نون» العظمة فى قوله - تعالى - : «وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ » لإظهار كمال العناية بإيحائه .

وقوله - تعالى - : «وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ » معناه - على ما اختاره غير واحد من الأجلة عام شامل للنبى ﷺ وأتباعه وللأنبياء والأمم قبلهم ، أى: لا تختلفوا فى أصل من أصول الدين وقوله - جل شأنه - : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً. أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً »(١) .

ولا يشمل هذا النهى الاختلاف فى الفروع فإنها ليست من الأصول المرادة هنا ، ولم يجمع النبيون على الاتفاق فيها ، أو يتحتم ديناً الاتفاق عليها كما يؤذن بذلك قوله - تعالى - : «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً »(٢) .

قال مجاهد : لم يبعث نبى إلا أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإقرار بالله - تعالى - وطاعته - سبحانه - وذلك إقامة الدين .

ومعنى الآية : شرعنا لكم ما وصينا به نوحا ، وما أوحيناه إلى نبيكم ، وما وصينا به الأنبياء قبلكم - شرعنا - لهم دينا واحدا فى الأصول ،وهى : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة

(١) سورة النساء الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٨

والصيام ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانات ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والزنى والإيذاء للخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات ، وما ينافى المروءات ، ونحو ذلك من الكمالات فهذا كله مشروع دينا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء فى الأصل ولا فى الصورة ، فأقيموا هذا الدين ولاتتفرقوا فيه ، واجعلوه قائما مستمرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب. (الآلوسى بتصرف).

والذى ينبغى اعتباره ــ ولا مجال للشك فيه ــ أن رسالات الأنبياء جميعاً متفقة فى أصول العقائد ومطلق العبادات ، والأمر بإتيان الفضائل ، واجتناب الرذائل . وقد تختلف فى الفروع أو فى بعضها تبعاً لتقادم الأزمان ، ولمقتضيات الأطوار ، وتطور أحوال الإنسان ، كما تختلف فى أسلوب الأداء فى رسالة عن رسالة أخرى .

وقوله ــ تعالى ــ : (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) معناه : شق على المشركين وعظم فى نفوسهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله ــ تعالى ــ ورفض عبادة الأصنام ، وضاقوا بدعوتك ولجوا فى عنادك تقليدا لآبائهم .

وقوله ــ تعالى ــ : (اللهُ يَجْتَبِيَ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) فيه تسلية للنبى ﷺ يمحو القلق من نفسه ، ويضفى على قلبه الراحة والاطمئنان إذا علم أن قلوب العباد ونواصيهم بيده ــ سبحانه وتعالى ــ يجتبى إليه من يشاء و يهدى إليه من ينيب .

والمعنى : الله ــ تبارك وتعالى ــ يصطفى إليه من يشاء من عباده الباحثين عن الحق ويهديه إلى الاستجابة ويرشده إلى التوحيد والطاعة ويختاره لحظيرة أنسه ، ودار قدسه ، ويهدى بالإرشاد والتوفيق من يترك المعاصى ويقبل عليه ، ويرجع إليه ، فلا تبال يا رسول الله بخلاف من خالفك ، ولا يشق ذلك على نفسك .

١٤ ــ (وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

هذه الآية شروع فى بيان أحوال أهل الكتاب بعد الإشارة الإجمالية إلى أحوال أهل الشرك ، قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : هم اليهود والنصارى لقوله – تعالى – : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[1]

والمعنى : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فى الدين الذى دعوا إليه فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيته بما شاهدوا فى رسول الله ﷺ والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتبهم – وهذا ما ذهب إليه العلامة أبو السعود – وقال الآلوسى : وما تفرق أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم منذ بعث نوح – عليه السلام – فى الدين الذى دعوا إليه – ما تفرقوا فى وقت من الأوقات – إلا من بعد ما جاء العلم من أنبيائهم بأن الفُرْقة ضلال وفساد وأمر متوعَّد عليه ، وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة ، وإقامة الدين .

ويضعف هذا الرأى أن مشاهير الأمم السابقة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال ، وأن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة ، وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء المكذبين دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام تأكيدا لوجوب إقامته ، وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه ، ومهما يكن القول فى التفرق فإنه لم يكن صادرا منهم عن حقيقة ، ولا قائما على رأى ، وإنما كان بغيا وظلما وعداوة وحسدا نابعا من طلب الدنيا والحرص على الرياسة « وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ » أى : ولولا قضاء قضى به الله ، وَعِدَة سبقت منه – جل شأنه – بتأخير العقوبة (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم (لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : لوقع العقاب باستئصال المبطلين منهم ، لعظم ما اقترفوه واستيجاب جناياتهم لذلك .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) أى : وإن المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب كتبهم لفى شك من القرآن مدخل

(١) سورة البينة الآية ٤ .

فى القلق والحيرة، ولذلك لا يؤمنون به لمحض البغى والمكابرة بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابين .

(فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(وَاسْتَقِمْ) : واستمر على المنهج المستقيم ودم عليه .

(أَهْوَآءَهُمْ) : ميولهم الفاسدة .

(مِن كِتَابٍ) أى : أىّ كتاب منزل من الله .

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) : لا محاجة ولا خصومة .

(يُحَآجُّونَ) : يجادلون ويخاصمون .

(فِى اللهِ) : فى دين الله .

(دَاحِضَةٌ) : زائلة باطلة .

التفسير

١٥ - (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

تناولت الآيات السابقة تفرق الأمم فيما جاءهم به أنبياؤهم ، والشك المريب الذى عاشوا فيه ، ثم جاءت هذه الآية ترشد إلى رفض هذا السلوك السيء وتحث على مدافعته واستئصاله ، فالإشارة فى قوله - تعالى - : (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ) أى : فمن أجل ما ذكر من التفرق فادع إلى دين الحق الذى أنت عليه .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق وما جر إليه من تشعب فى الكفر ، وشك مريب فى مقدسات الدين فادع يا محمد إلى الاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ، والعقيدة السمحة القويمة (واسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ) واثبت على هذه الدعوة ، والزم منهجها المستقيم (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ) الباطلة ولا تطاوع ميولهم الفاسدة ، واحمل الناس كافة على إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه ، فإن تفرقهم فى الدين وكونهم فى شك مريب يحتمان الدعوة إليه والأمر به .

(وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ) يعنى : دُمْ على الإيمان بكل كتاب من الكتب المنزلة من الله ، لا تفرق بين كتاب وكتاب منها ، ولا تقل :نؤمن ببعض ونكفر ببعض وفى هذا القول تحقيق للحق ، وبيان لاتفاق الكتب فى الأصول ، وتأليف لقلوب أهل الكتابين ، وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها .

(وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ) أى : وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فى فصل القضايا والخصومات ، وفى تبليغ الشرائع والأحكام ، فلا أخص بشيء منها شخصاً دون آخر ، وقيل : لأسوى بينى وبينكم . فلا آمركم بما لا أعمله ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

(اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ) أى : خالقنا وخالقكم ، ومتولى أمورنا وأموركم ، لا ندين إلا به ولا نخضع إلا لأمره .

(لَنَآ أَعْمَالُنَا) لا يتخطانا جزاؤها ثواباً أو عقاباً (وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لا تتجاوزكم آثارها ، فنحن لانستفيد بحسناتكم أو نتضرر بسيئاتكم . (لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) أى : لا خصومة ولا محاجّة بيننا وبينكم ؛ لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للخصومة موقع أو مجال ، ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة . (اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : الله يجمع بيننا جميعا يوم القيامة للحساب والجزاء وإليه وحده مصيرنا ومصيركم فيظهر هناك حالنا وحالكم ، ويفصل بيننا وبينكم ، ويلاقى كل واحد منا جزاءه من الثواب أوالعقاب فى هذا المصير المحتوم .

هذا ، وليس فى الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية السيف ، وبهذا يقول أبو السعود ، وهذا - كما ترى - محاجزة فى موقف المجاوبة ، لا متاركة فى موطن المحاربة حتى يصار إلى النسخ بآية القتال .

١٦ - (وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لما ذكرت الآية السابقة ظهور الحجة وانقطاع المحجة ، جاءت هذه الآية تنعى على أهل الكتاب الجدل بالباطل واللدد فى الخصومة ، قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى طائفة من بنى إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام ، ومحاولة إضلالهم فقالوا : « كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم » وفى رواية بدل - فديننا - « فنحن أولى به - تعالى - منكم » .

والمعنى : والذين يحاجون من أهل الكتاب فى دين الله بعد أن استجاب الناس لله أو لهذا الدين ، وأذعنوا له ، ودخلوا فيه أفواجاً لظهور حجته ، ووضوح محجته ، وعدالة أحكامه ، وسلامة قواعده - الذين يفعلون ذلك - (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أى : باطلة وزائلة لا تقبل عند الله ، ولا تصح فى منطق ولا عقل ، بل لا يقام لهم حجة أصلا ، لأن الحجة إنما تصح فيما يقبل فيه الرأى ويستقيم الترجيح ، والتعبير عن أباطيلهم بالحجة - وهى الدليل هنا - مجاراة لهم على زعمهم الباطل .

وقوله – تعالى – : (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) : بيان لما يستحقون وما يجرى عليهم فى الدنيا من الغضب الذى يتغشاهم ، والكآبة التى تعلو وجوههم فتفقدهم الطلاقة والبشر ، وبيان لما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب البالغ الحد فى القسوة والشدة ولا يدرك تصوره فيجتمع ، عليهم – إلى بطلان الحجة – غضب الله ، والعذاب الشديد .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب ، ويراد به الكتب السماوية المنزلة من الله تعالى .

(الْمِيزَانَ) : الشرع الذى يتحقق به العدل ، أو نفس العدل ، أو آلة الوزن .

(وَمَا يُدْرِيكَ) : وأى شىء يجعلك عالما دارياً ؟ .

(مُشْفِقُونَ مِنْهَا) : خائفون منها .

(يُمَارُونَ) : يجادلون ويشككون، من المرية والشك ، أو من : مريت الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة لإدرار اللبن ، لأن كُلاًّ من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة .

(لَطِيفٌ) : بليغ البرّ .

(حَرْثَ) الحرث : كسب المال ، وجمعه : أحراث ، والحرث : البذر الذى يوضع فى الأرض لينبت ، ويطلق على الزرع الحاصل منها ، وعلى ثمرة الأعمال .

التفسير

١٧ - (اللهُ الَّذِىٓ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) :

هذه الآيات من جملة تسفيه المشركين الذين يجادلون فى دين الله من بعد ما استجيب له ، وتمكنت دعوته ؛ ورسخت حجته ، وإمعان فى تهديدهم وتخويفهم وتحذيرهم مغبة ما يفعلون بتقرير صدق الكتب السماوية المنزلة من الله - تعالى - على أنبيائه المتمثلة فى قوله - تعالى - : (اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) .

والمعنى : الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أنزل الكتاب ملتبسا بالحق بعيدا عن الباطل فى أحكامه وأخباره ، قائما على الصدق فى كل ما جاء به من العقائد والعبادات والفضائل لا مجال فيه لجدل ، ولا سبيل إلى محاجة أو مكابرة فى شأنه .

والمراد بالميزان - والله أعلم - : الشرع الذي تحدد به الحقوق ، ويسوى به بين الناس ، أو العدل ، والمقصود بإنزاله الأمر به - وقيل : المراد خصوص آلة الوزن . والمقصود من الساعة القيامة فى قوله - تعالى - : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) أى: لعل القيامة قريب ، والاستفهام للتنبيه والإعذار ، والمعنى : وأى شىء يجعلك عالما داريا بما يغيب عنك من الأمور التى من جملتها قيام الساعة ؟ إن قيام الساعة قريب وشيك الإتيان فاتبع الكتاب ، وواظب على العدل ، واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ، ويوفى جزاؤها .

١٨ - (يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

قررت الآية السابقة أن القيامة على وشك الإتيان ثم جاءت هذه الآية بعدها توضح موقع الناس من أمرها ، وحقيقة إيمانهم بها ، وأبانت أنهم منها بين جاحد منكر يستعجل وقوعها سخرية واستبعادا ،وبين مؤمن مصدق بها مشفق من وقوعها مع عمله لها أو تقصيره فى شأنها

والمعنى : يستعجل وقوع الساعة وينادى بحصولها المشركون المنكرون لها سخرية واستبعادا ، كانوا يقولون : متى هى ؟ ليتها قامت حتى يظهر حال ما نحن عليه ، وما عليه محمد وأصحابه . أما الذين آمنوا وصدقوا فدائمون على الخوف منها والإشفاق من وقوعها مع عملهم الصالح ،وطاعتهم المرضية استقلالا لأعمالهم واستصغارا لحسناتهم ،مع يقينهم أن حصولها هو الأمر المحقق الكائن لامحالة ،وأشدهم خوفا منها هم المؤمنون المقصرون فى العمل لها.

ولعل من حلية الأسلوب ، وجمال تنسيقه ما قاله الجلبي من أن الآية من الاحتباك ، والأصل : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها ، والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلونها ، وفى التعبير بالفعل المضارع فى الجملة الأولى ، وبالجملة الاسمية فى الجملة الثانية ما يلمح إلى تجدد القلق والاضطراب فى نفوس الذين لا يؤمنون بها وتمكن الاستقرار والاطمئنان فى قلوب المشفقين منها .

وفى قوله — تعالى — : (أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) تنبيه على غفلة هؤلاء المشركين ، واستعظام لإنكار الساعة ، واستقباح لمماراتهم فيها ، وتشككهم وتشكيكهم فى حصولها ، وهى أقرب الغائبات إلى المحسوسات ، وذلك مما يقتضيه العقل الراجح ، والفطنة السليمة .

١٩ — (اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ) :

هذه الآية من كتاب الله يدق فيها الفهم بقدر ما يرق فيها اللطف ، فإن عباد الله منهم البرّ والفاجر ، وفيهم المؤمن والكافر ، وإن أرزاق الله التى تجرى على خلقه تتعدد حسا ومعنى ، ويختلف جريها على الناس سعة وضيقاً ، وإعطاء لشىء وحرمانا من آخر ، وهى فى جملتها لا تنقطع عن مخلوق — إنساناً ، أو حيوانا — قال — تعالى — : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[1] ولهذا تقدم فى الآية اللطف على إجراء الرزق ، وتعقب إجراء الرزق بالقوة والعزة .

---

[1] (١) سورة هود : الآية ٦

والمعنى : الله لطيف بعباده ، أى : برٌّ بليغ البر بعباده رفيق بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه ، وصنوف آلائه ما لا تبلغه الأفهام . قال حجة الإسلام - عليه الرحمة - : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دق منها ولطف ثم يسلك فى إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل ، واللطف فى الإدراك تم معنى اللطيف ، ولا يتصور كمال ذلك إلا فى الله - تعالى - والمقصود بالعباد جميع خلقه لإضافة العباد - وهو جمع - إلى ضميره - تعالى - فيفيد الشمول والعموم ، ومعنى قوله - تعالى - : (يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ) : يجرى رزقه على من يشاءُ بما شاء من أنواع الرزق فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه مشيئته وحكمته ، وهو القوى القادر الذى لا يعجز ، العزيز المنيع الغالب الذى لا يقهر . والتذييل بالاسمين الجليلين مؤذن بالتعليل ، كأنه قيل : لطيف بعباده عظيم الإحسان بهم ، لأنه - تعالى - القوى الباهر القدرة الذى غلبت قدرته جميع القدر ، يرزق من يشاءُ ، لأنه العزيز الذى لا يغلب .

٢٠ - (مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ) :

أى : من كان يطلب من المكلفين بأعماله ثواب الآخرة ، ويرجو رحمة الله وحسن جزائه يوم القيامة يضاعف الله له ثوابه بالواحد عشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاء ، ومن كان يطلب بأعماله الدنيا ويجرى وراء متاعها وزخرفها لا يريد غير ذلك يؤته من ذلك حسبا قسم الله له وقدر فى الدنيا ولا حَظَّ له فى الآخرة ، وما له فيها من أجر ولا ثواب ، لأنه أفرغ همه ، وقصر جهده على طلب الدنيا ، وفى هذا التوجيه حث على إخلاص النوايا ، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى .

ولم تشر الآية إلى أن لطالب الآخرة نصيبا فى الدنيا على نحو ماذكر لطالب الدنيا للتنويه بعظم أجره فى الآخرة والاستهانة بما يناله فى الدنيا مهما عظم بجانب ثواب الآخرة .

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(شُرَكَآءُ) : شياطين أو أصْنام . (شَرَعُواْ) : سوّلوا وزينوا .

(مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ) أى : مالم يأمر به كالشرك ونحوه .

(كَلِمَةُ الْفَصْلِ) : القضاء السابق بتأجيل عذابهم .

(لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ) : فصل بين المشركين والمؤمنين ، أو بين المشركين وشركائهم .

(مُشْفِقِينَ) : خائفين .

(رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) : أطيب بقاعها ، وأعلى منازلها وأنزهها . (يَقْتَرِفْ) : يكتسب .

التفسـير

٢١ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُم وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

هذه الآية تنعى على المشركين كفرهم الذى دعاهم إلى إيثار متاع الدنيا على العمل للآخرة ، وتنكر عليهم فى أسلوب توبيخى تقريعى ما هم عليه من العقائد الفاسدة ، والإخلاد

إلى الدنيا ، وهى فى مقابلة قوله – تعالى – : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً) لتدلَّ على أنهم فى شرع يخالف ما شرعه الله – تعالى – من كل وجه : حيث قابلوا إقامة الدين فى قوله – تعالى – : (أَنْ أَقِيمُواْ الدِّينَ) بالشرك ، والإشفاق من يوم القيامة باستعجال الساعة ، وطلب الآخرة بالعمل للدنيا .

والمعنى : بل ألهؤلاء الكفار والمشركين من أهل مكة شركاء من الشياطين سوَّلوا لهم من الدين وسنوا ما لم يأذن ويأمر به الله – تعالى – كالشرك وإنكار البعث فاتخذوه دينا لهم ومنهجا (وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى : ولولا أن الله قضى وحكم بتأخير العذاب فى هذه الأمة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة لوقع العذاب فى الدنيا على الذين يكذبونك ، ولفصل الله بين المشركين والمؤمنين فهلك من هلك عن بيِّنة وحىَّ من حىَّ عن بيِّنة ، أو لفصل بين المشركين وشركائهم من الشياطين والأصنام بما يقضى به الله فيهم

وبما أن شركاءهم من الشياطين حرضوهم على الشرك وشرعوه لهم ولم يأذن به الله ، فيكون الاستفهام الإنكارى الذى تضمنه لفظ (أم) مرادًا منه إنكار هذا الواقع وتوبيخهم عليه .

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : وإن لهؤلاء المشركين الذين يستوحون دينهم من شياطينهم ، لهم عذاب موجع بالغ غاية الإيلام والإيجاع فى الآخرة .

هذا ، وإسناد الشرع إلى الشركاء لأنهم سبب ضلالهم وفتنتهم كقوله – تعالى – : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ[1] ». وتسمية ما شرعوه دينا للتهكم والسخرية ، والتعبير بالظالمين عن ضميرهم للإشارة إلى أنهم – بشركهم – تجاوزوا حدّ الاعتدال فظلموا أنفسهم بالشرك ، وظلموا المؤمنين بمعارضتهم ، وظلموا دين الله بالافتراء عليه – وإنكار أحكامه العادلة ، ومنهجه القويم ، وإن الشرك لظلم عظيم .

٢٢ – (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) :

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية ٣٦

هذه الآية كلام مستأنف يعرض مشهدا من أحوال الناس يوم القيامة ، والخطاب فيه لكل أحد يصلح لتلقّى الخطاب ، قصدا إلى المبالغة فى عرض سوء حال الظالمين ، وجمال نعيم المؤمنين .

والمعنى : ترى يا من يصح منه أن يرى . ترى الظالمين الذين كانوا متجبِّرين فى الدنيا يرفلون فى الترف والنعيم – تراهم – يوم القيامة أذلاء صاغرين مشفقين أشد الإشفاق خائفين غاية الخوف من جزاء وعذاب ما كَسبوا من المعاصى واقترفوا من المظالم والمآثم وهو واقع بهم لا محالة لا ينجيهم منه خوف ولا يعفيهم إشفاق فإن يوم الجزاء لا يُنجى منه خوف ، ولا إشفاق من الكافرين الظالمين .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) :

آمنون مستقرون فى أطيب بقاع الجنات ، وأعْلى منازلها وأنزه ملاذها دانية عليهم ظلالها ، مُذَلَّلَة قطوفها ، لهم ما يشتهون من فنون الملذات عند ربهم ، فلا ينتهى فيها نعيم ، ولا ينقصه وافر العطاء .

(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) : أى ذلك الشأن الذى يعيشون ، والنعيم الذى يتنعمه أهل الجنة البالغ أعلى الدرجات فى السموِّ والراحة ، هو الفضل الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ أحد وصفه .

٢٣ – (ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) :

الكلام فى هذه الآية موصول بالكلام عن الفضل الكبير المذكور فى الآية قبلها .

والمعنى : ذلك الفضل المتناهى فى الكبر المتعاظم فى العلو هو الذى يبشر الله به عباده الذين أخلصوا الإيمان ، وأكثروا عمل الصالحات وداوموا عليها ، يبشرهم بذلك الفضل استعجالا لسرورهم فى الدنيا .

روى أن المشركين اجتمعوا فى مجمع لهم ، فقال بعضهم لبعض : أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا ؟ ، فنزل قوله – تعالى – : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) :

والمعنى : قل لهم يا أيها الرسول الكريم ردًّا على ما تساءلوا به : لا أطلب منكم على ما أنا فيه من تبليغ الرسالة - وتعليم الشريعة - لا أطلب منكم نفعا ولا أبتغى عليه أجرا إلَّا أن تودوا أهل قرابتى وتحفظوا حقهم وواجبهم وليس ذلك أجرا لأن قرابتكم قرابتى فهى صلة يفرضها الدم ، وتقتضيها حق قرابتى ورحمى ، وقد ذكر الطبرى فى هذه الآية آراءً لعل من تمام الإيضاح أن نذكرها كما أشار إليها غيره من المفسرين - قال - رحمه الله - عند ذكر هذه الآية : اختلف فى معناه على أقوال :

(أحدها) : لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرا إلَّا التَّواد والتَّحاب فيما يقرب إلى الله - تعالى - من العمل الصالح - عن الحسن والجبائى وأبى مسلم : قالوا : هو التقرب إلى الله - تعالى - والتودد إليه بالطاعة .

(ثانيها) : معناه إلَّا أن تودونى فى قرابتى منكم ، وتحفظونى لها - عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وجماعة قالوا : وكل قرشىّ كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة ، وهذا لقريش خاصّة ، والمعنى إن لم تودونى لأجل النبوّة فودونى لأجل القرابة التى بينى وبينكم .

(ثالثها) : أن معناها إلَّا أن تودوا قرابتى وعترتى وتحفظونى فيهم . عن ابن عباس - مرفوعاً إليه بكثير من الرواة قال : لما نزلت : (قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . . .) الآية قالوا : يا رسول الله ؛ من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم ؟ قال : علىّ ، وفاطمة ، وولدهما .

وأخرج الترمذى - وحسنه . والطبرانى . والحاكم - والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال - عليه الصلاة والسلام - : «أحبّوا الله - تعالى - لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبّونى لحبّ الله - تعالى - وأحبّوا أهل بيتى لحبّى » .

وأخرج أحمد والترمذى ، وصححه ، والنسائى عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال : إنَّا لنخرج فنرى قريشاً تتحدث ، فإذا رأونا سكتوا

فغضب رسول الله ﷺ ودرّ عِرْق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبّكم لله – تعالى – ولقرابتى » وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم .

(وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً) أى : ومن يكتسب عملا صالحا : ويصطنع طاعة خالصة من الطاعات التى من جملتها المودة فى القربى (نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) أى : نضاعف له فى جزاء هذه الحسنة بمقدار ما أحسن فيها وأضعافه بمضاعفة الثواب عليها – روى أن الآية نزلت فى أبى بكر – رضى الله عنه – لشدة محبته لأهل البيت .

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ) :واسع المغفرة يستر عيوب عباده ويغفر ذنوبهم إذا تابوا (شَكُورٌ) : عظيم الشكر لمن أطاعه يوفّيه حقه من الثواب ، ويتفضل عليه بالمزيد من غير حساب .

(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(افْتَرَىٰ) : اختلق .

(يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) : يطمس عليه وينسيه فلا يعى .

(يَمْحُ) : يزيل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : حقائقها ودخائلها .

(التَّوْبَةَ) : الرجوع عن المعاصى بالندم عليها ، والعزم على تركها أبدا .

التفسير

٢٤ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

الاستفهام المفهوم من لفظ (أم) لتوبيخهم على مقالتهم .

والمعنى : أيجترىء هؤلاء السفهاء ، وتطاوعهم ألسنتهم بنسبة مثله - عليه الصلاة والسلام - إلى الافتراء والكذب والاختلاق وهو من هو الذى لم يعرف عنه فى جاهلية ولا فى إسلام أنه ألمّ بكذبة قط ، ثم كيف يستقيم افتراؤه على الله والإفتراء على الله -عزّ وجلّ- أقبح الفرى وأفحشها ، وما عرف عنه ﷺ كذب على أحد مطلقاً مشرك أو مؤمن، فالافتراء منه ﷺ مستبعد ، وعلى الله مستحيل وقوله - تعالى - : (فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ) استبعاد للافتراء عن مثله ، أى فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترىَ عليه الكذب ، فإنه لا يفترى الكذب على الله إلّا من كان فى مثل حالهم مختوماً على قلبه . والأمر لم يكن على ذلك فقد تواتر الوحى ، وتكامل إنزال القرآن حتى أكمل الله دينه وأتم نعمته .

(وَيَمْحُ[1] اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) :كلام مستأنف غير معطوف على يختم مقرر لنفى الافتراء عنه ﷺ ، مسوق لبيان شأن من شئون الله - تعالى - وتقرير سننه بمحو الباطل

---

(١) وسقوط الواو من كلمة (يمح) ليس للعطف على (يختم) بل لمجرد التخفيف ، كما حذفت فى قوله - تعالى - : « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » .

وإزهاقه ، وتأكيد الحق وإحقاقه كما ينطق بذلك قوله – تعالى : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[1] .

والمعنى : ومن سنن الله – تعالى – أنه يمحو الباطل بقدرته وحكمته ، ويثبت الحق ويحققه ببرهانه وآياته .

ويجوز أن يكون الكلام مسوقا مسوق الوعد والبشارة للرسول ﷺ بأنه – تعالى – يمحو الباطل من البهتان والتكذيب ، ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لا مردّ له بنصرته عليهم .

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : إنه مطلع على دخائل القلوب بصير بحقائقها ، لا تخفى عليه خافية من أمورها ثم يجرى عليها أحكامه المناسبة لأحوالها .

٢٥ ، ٢٦ – (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) :

لوّحت الآيات السابقة بالوعيد لمن غوى وضل سبيل الهدى واتبع الهوى فابتدع شرعاً لم يأذن به الله أو ادعى افتراءً على الله ، وجاءت هذه الآيات تهبّ بنسائم الرحمة وتفتح مغاليق الخير والبرّ ، حتى لا ييئس عاص من رحمة الله ، ولا ينقطع طمع مذنب من رجاء الله ، فقال – تعالى – : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . . .) الآية :

والمعنى : وهو الله – تعالى – الذى يتفضل بواسع فضله ووافر برّه ورحمته بقبول التوبة عن عباده يتجاوز عما تابوا عنه وأقلعوا عن فعله فى ندم وحسرة ، فإن التوبة الصادقة هى الرجوع عن المعاصى والندم عليها ، والعزم على عدم معاودتها أبدا ، روى جابر – رضى الله عنه – أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على – رضى الله عنه – : « يا هذا ، إن سرعة اللسان

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ١٨

بالاستغفار توبة الكذّابين ، وتوبتك هذه تحتاج إلى توبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضَحِكته .

(وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ) أى : يتجاوز عن جميع السيئات الكبائر والصغائر ، وقيل : يعفو عن الكبائر ، وعن الصغائر باجتناب الكبائر (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) أى : ويعلم كل ما تفعلونه كائنا ما كان ، سرا أو جهرا كبيرا أو صغيرا خيرا أو شرا فيجازى بما شاء ويتجاوز عما يشاء حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة .

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) : يختص الله – تعالى – فى هذه الآية الذين آمنوا وعملوا الصالحات بمزيد من الفضل تقديرا لأعمالهم ، وبعثا لهممهم ، واستجلابا لغيرهم فى استباق الخيرات ، والمبادرة إلى الصلوات ، والكلام فى قوله – تعالى – : (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُواْ) على حذف اللام ، أى : يستجيب لهم كما فى قوله – تعالى – : « وَإِذَا كَالُوهُمْ »[1] أى : كالوا لهم .

والمعنى : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات دعاءهم ويثبتهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، فإن الطاعة لما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء والطلب ، وشابهت الإثابةُ والجزاءُ عليها الإجابة .

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ : « أفضلُ الدعاءِ الحمدُ » ، وسئل سفيان عن قوله – عليه الصلاة والسلام – فى الحديث : « أكبرُ دعائى ودعاءِ الأنبياء قَبْلى لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ ولهُ الحمدُ ، وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ » فقال : هذا قوله – تعالى – فى الحديث القدسى : « مَنْ شَغلهُ ذِكْرى عن مسألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطِى السائلين » وقيل الاستجابة فعلهم أى : يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها ، وعن إبراهيم بن أدهم – لما قيل له : ما بالُنا ندعُو فلا نُجَاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تُجيبوه ، ثم قرأ « وَاللهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »[2] .

---

(١) سورة المطففين من الآية ٣ (٢) سورة يونس ، الآية : ٢٥

ومعنى (وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ) : يضاعف لهم أجرهم ويزيد ثوابهم على ما استحقوا من الثواب بموجب الوعد والعدل، وذلك من واسع فضله ووافر عطائه وكرمه، وإذا كان للذين آمنوا وعملوا الصالحات ثواب أعمالهم ومضاعفة أجورهم فضلا من الله - تعالى - فإن الكافرين الذين عاشوا حياتهم فى الكفر والمعاصى لهم فى الآخرة - جزاء كفرهم وعصيانهم - عذاب بالغ الحد فى المهانة والشدة والتهديد . مقابل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد .

* (وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(بَسَطَ) : وَسَّع وكَثَّر .

(لَبَغَوْاْ) : لَطَغَوْا وتكَبَّرُوا .

(بِقَدَرٍ) : بتقدير حكيم .

(الْغَيْثَ) : المطر النَّافع الذى يُغيث النَّاس بعد الجدب .

(قَنَطُواْ) : يَئِسوا من نزوله .

(وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) : يبسطها ويُعمّها .

التفسير

٢٧ - (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) :

فيما سبق من الآيات يمتنّ الله على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه ، فيعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، وبأنه يُجيب دُعَاءَ المُؤْمنين إلى ما طلبوا ويزيدهم خيرا ، وفى هذه الآية

يمنّ عليهم أيضاً – سبحانه وتعالى – بأنّه مُحيط علما بما خفى وظهر من أُمورهم ، فيقدِّر بحكمته لكلٍّ ما يصلحُ شأْنه فيقول : (وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الْأَرْضِ ...) الآية .

سبب النزول :

قيل : نزلت هذه الآية فى قوم من أَهل الصُّفة تمنُّوا سَعَةَ الرِّزق والغنى ، قال خبّاب بن الأَرت : فينا نزلت ، وذلك أَنّنا نظرنا إلى أَموال بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير وبنى قَيْنقَاع فتمنيناها فنزلت . (ذكره الزّمخشرى والآلوسى) .

والمعنى : ولو وسع الله الرِّزق على جميع عباده ، وكَثَّره عندهم وأَعطاهم فوق حاجتهم لطغوا وظلموا ، وتكبَّروا فى الأَرض ، وفعلوا مايستتبعه الكبر من العلوّ والفساد « فإنّ الغنى مبطرة مأْشرة » وكفى بحال قارون عبرة[1] وفى الحديث : « أَخْوَفُ ما أَخافُ على أُمتى زهرة الدُّنيا وكثرتُها » .

ولكن يُنَزِّل اللهُ الرِّزق بتقدير مُحكم ، فيُوسّعه على من يشاء ، ويُضيِّقه على من يشاء تبعا لما اقتضته حكمته وفى الحديث : « إنّ مِنْ عبادى من لا يُصْلحه إلا الغِنَى ولو أفقرتُه لأَفسدتُ عليه دينَهُ ، وإنّ مِن عبادى من لا يُصْلحه إلَّا الفقر ولو أَغنيتُهُ لأَفسدتُ عليه دِينَهُ » .

وهو – سبحانه – محيط علما بما خفى وظهر من أُمور النّاس ، يعلم ماتصير إليه أَحوالهم فيقدر بحكمته لكلٍّ ما يُصْلح شأْنه ، ولو أَغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أَفقرهم جميعاً لهلكوا ولله درّ الغزالىّ حيث يقول : « ليس فى الإِمكان أَبدع مّما كان » .

وقد يبْغِى الفَقِيرُ ولكن ذلك قليل ، والْبغى مع الغنى أَكثر وقوعاً .

٢٨– (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ) :

ومن نعم الله وآلائه على عباده أَنه هو الذى ينزل المطر فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه فيغيثهم به بعد يأْس من نزوله ، وينشر رحمة الغيث بتكثير منافعه وآثاره فى كل شىء ، وفى كلِّ مكان فى السَّهل والجبل والنَّباتِ والحيوان – أَو يعم الكائنات برحمته الواسعة المشتملة على ما ذكر من المطر وغيره ، وهو وحده – الذى يتولى أُمور عباده بالإِحسان ونشر الرحمة ، (الْحَمِيدُ) : الْمُسْتَحِق للحمد على ذلك – لا غيره –

---

(١) أى موقع فى الأثر وهو البطر .

ذكر ابن كثير ، والزمخشرى : أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : اشتدّ القحط وقنط الناس فقال عمر: مُطِرتم[1] ثم قرأ (وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) .

(وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا) : وما فرّق ونشر فيهما .

(دَابَّةٍ) : هى كل ما يدبّ[2] على الأرض من إنسان وغيره .

(جَمْعِهِمْ) : حشرهم بعد البعث للمُحاسبة .

(مِن مُصِيبَةٍ) : من بليّة وشدّة .

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) : فبما ارتكبتم من الآثام .

(وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) : وما أنتم بجاعلين الله عاجزا عن عقابكم فى الأرض.

التفسـير

٢٩ - (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ) :

بعد أن ذكر الله آلاءه ونعمه على عباده ذكر - سبحانه - مظاهر قدرته ودلائل عظمته وقوّته فقال :

(وَمِنْ آيَـٰتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ. . .) إلخ أى : ومن آياته الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه القاهر خلق السموات والأرض على ما هما عليه من الصنع البديع ، والنظام

(١) يعنى : جاء أوان إمطاركم بعدما قنطتم .
(٢) أى : يمشى ويسير .

المُتقن ، فإنهما بذاتهما وصفاتهما العجيبة تدلان على قدرته وعظمته وبديع صنعه ، وَمَنْ له أدنى عقل وإنصاف يجزم باستحالة صدورهما من الطبيعة التى لاعقل لها ولا إرادة ومن آياته - أيضاً - خَلْقُ ما نشر وفرّق فى السموات والأرض من دابة وهى تشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها ولغاتها وطباعها وأجناسها وأنواعها ، وقد فرّقهم فى أرجاء السّموات ، ونشرهم فى أنحاء الأرض ، وهو - مع هذا - على جَمْعِهم وحشرهم بعد البعث للمحاسبة - إذا يشاء - تَامُّ القدرة كاملها .

وظاهر الآية : وجود الدّابة فى السّموات والأرض وبه قال مجاهد وفسّر الدابة بالنّاس والملائكة .

ويرى الزّمخشرىّ : أنّ مافى أحد الشيئين يصدق أنّه فيهما على الجملة فالآية على أسلوب « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »[1] وإنّما يخرجان من الملح .

ويجوزأن يكون للملائكة مشى مع الطَّيران فَيُوصَفُوا بالدَّبِيبِ كما يُوصف به الأناسى ، ولايبعد أن يخلق الله فى السَّموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسىّ على الأرض ، وسبحان الَّذى خلق ما نعلم ومالا نعلم من أصناف الخلق . (انتهى كلام الزمخشرى ملخصًا) . وصدق الله العظيم حيث يقول : «وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ »[2] .

٣٠ - (وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ) :

أى : وما أصابكم ونالكم - أيها النَّاس - مِن مصيبة مِن مصائب الدنيا أو مكروه من مَكَارِهها كالمرض والفقر والضِّيق وسائر النَّكبات فبسبب معاصيكم وما ارتكبتم من مُوبقات ، واجترحتم من سيِّئات فى الدنيا ، ويعفو الله - سبحانه - عن كثير من الذنوب فلا يُعاقِب عليها بمصيبة عاجلا أو آجلا ، ويجوز أن يكون المراد : ويعفو عن كثير من النَّاس فلا يعاقبهم ، والظَّاهر : المعنى الأول وهو الذى تشهد له الأخبار .

---

(١) سورة الرحمن : الآية (٢٢) .
(٢) سورة النحل من الآية (٨) .

فقد روى الترمذىّ عن أبى موسى أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا يُصيب عبدًا نَكْبةٌ فما فوْقَها أو دُونَها إلا بذنب ، وما يَعْفُو اللهُ - تعالى - عنه أكثر ، وقرأ : (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)[1] ومن لاذنب له كالأنبياء - عليهم السّلام - قد تصيبهم مصائب ، ففى الحديث « أَشدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأَمثلُ فالأَمثلُ » ويكون ذلك لرفع درجاتهم ، أو لحكم أخرى يعلمها الله ثُمّ إنّ المصائب قد تكون عقوبة على الذّنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه فى الآخرة إذا تقبل العقوبة بنفس راضية ، وعلى ذلك يحمل ما رُوى عن علىّ - كرم الله وجهه - وقد رفعه إلى رسول الله ﷺ : « مَن عُفِىَ عنهُ فى الدُّنيا عُفِىَ عنه فى الآخِرة ، ومن عُوقِب فى الدّنيا لم تُثَنّ عليه العقوبةُ فى الآخرة » وعنه - أيضاً - كرّم اللهّ وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن

٣١ - (وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

أى : ولستم بقادرين على أنْ تجعلوا الله عاجزا عن إنزال المصائب بكم فى الدُّنيا عقابا لكم على ما كسبت أيديكم وإن هربتم فى أقطار الأرض كلّ مَهْرَب ، ومالكم من دونه من مُتَولٍّ بالرّحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب ، ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه إذا وقع بكم .

(وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾)

(١) سنن الترمذى : كتاب التفسير - سورة الشورى - ج ٥ / ٣٧٧ رقم ٣٢٥٢ ط / الحلبى وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

المفردات :

(الْجَوَارِ) : جمع جارية وهى السُّفن .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال أو كالقصور العالية .

(فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ) : فَيَصِرْنَ ثوابت سواكن لا تتحرك .

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ) : أو يُهلكهنّ بالغرق .

(مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) : ما لهم مِن مَهْرب ولا مَخْلص من العذاب .

التفسير

٣٢ - (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) :

أى : ومن آيات الله ودلالته الدّالة على قدرته الباهرة وسلطانه القاهر- السُّفن الجارية فى البحر ،كالجبال الشّاهقة فى عظمها ، سخرها الله - تعالى - فى البحر بأَمره لخدمة الإِنسان وقضاء مصالحه ، وأَجْرَاها بقُدرته ليسهل انتقال الناس من مكان إلى آخر ، فتروج التِّجارة ، وتَرْتقِى الصِّناعة ، ويتبادل النّاس المنافع ، وتزدهر العلوم والمعارف .

٣٣ - (إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى : إن يشأ الله يُسكن الرِّيح ويمنع حركتها فتظل السُّفن ثوابت على ظهر الماء لاتتحرّك ولا تجرى بالنّاس إلى مقاصدهم وقضاء مآربهم .

إنّ فى ذلك الذى ذُكر من السّفن المسخّرة فى البحر تحت أمره وحسب مشيئته وسيرها ووقوفها بأَمره - إن فى ذلك - لدلالات عظيمة واضحة على قدرة الله ليعتبر بها المؤمنون الصّابرون فى الضّراء ، الشّاكرون فى السّراء ،لأَنّ الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر .

٣٤ - (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ) :

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ) معطوف على (يُسْكِن) فى الآية السابقة .

لأَنّ المعنى : إن يشأ الله يبتلِ المسافرين فى البحر بإحدى بليّتين : إمَّا أن يُسْكن الرِّيح فتبقى السفن على متن البحر ويمتنعنَ من الجرى ، وإمّا أن يُرْسِـل الرِّيح عاصفة فتهلك أهلها إغراقا بسبب ما كسب أهلها من الذّنوب ، ويعف عن كثير فلا يُعاقبهم بما سبق « كشاف بتصرف » وقال بعض علماء التفسير فى قوله ـ تعالى ـ : (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ) :

إنّ المعنى : وإنْ يشأ اللهُ يُرسل الريح قَويّة عاتية فتأْخذ السّفن وتُميلها عن سيرها المستقيم وتُصرفها ذات اليمين وذات الشمال آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة ، فيهلك من فيها إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذّنوب ، وهكذا لو شاءَ الله لسكّن الريح فوقفت السفن ، أو أثارها وأهاجها فشردت السفن وأبِقت وأهلكت مَنْ فيها ولكن من لطفه ورحمته أن يرسل الرّياح بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية . (ابن كثير بتصرف) .

وهو قريب مما قاله صاحب الكشاف .

٣٥ـ (وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَـٰتِنَا مَالَهُم مِّن مَّحِيصٍ) :

المعنى: إن يشأ الله إمساك الريح أو إرسالها عاصفة ، فيهلك من فى السفن لينتقم من العصاة وليعتبر المؤْمنون ويعلم الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ويُشَكِّكون النّاس فيها أنّهم فى قبضته مقهورون برُبُوبيّته ، ما لهم من مَهْرب من عذابه ، ولا مَحِيد لهم عن عقابه ، ولا مَخْلَص لهم من بأْسه ، ولا مَلْجَأ لهم من بطشه .

(فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ) : فما أُعطيتم مِنْ أثاث الدُّنيا وزينتها .

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : يُتمتَّع به فيها ثم يزول .

(وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : وعلى الله وحده يعتمدون .

(كَبَائِرَ الْإِثْمِ) : أى الفواحش وكبائر الذنوب وقُرِئَ كبير الإثم وعن ابن عبّاس هو الشِّرك .

(الْفَوَاحِشَ) : ما عَظُم قُبْحهُ من الذّنوب كالزِّنى .

(اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) : أَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِن التوحيد والعبادة .

(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) : شأْنُهم التّشاور ومراجعة الآراء فى أُمورهم .

(الْبَغْيُ) : الظُّلم والعدوان .

(يَنتَصِرُونَ) : يَنْتَقِمُون بمثل ما عُوقِبُوا بِه .

التفسير

٣٦ - (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

عن على - كرّم الله وجهه - أنّه قال : اجتمع لأبى بكر - رضى الله عنه - مالٌ فتصدق به كلّه فى سبيل الله فَلاَمَهُ المُسلمون وخَطَّأَه الكافرون فنزلت .

والمعنى : يقول الله - تعالى - مُحَقِّرا شأْن الدُّنيا وزينتها وما فيها من المتاع والنّعيم (فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) إلخ ، أَى : وما أُعطيتم ونلتم من زخارف الدُّنيا ، وجمعتم من أَموال ، ورزقتم من بنين فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدّنيا ، وهى دار فانية ومتاع زائل .

وما عند الله من ثواب الآخرة ونعيمها خير فى ذاته لخلوص نفعه ، وأَبقى زمانا ، حيث لا يزول ويَفْنَى ، وقد أَعدّه الله - سبحانه - للّذين آمنوا وصبروا على ترك اللّذات فى الدُّنيا ، وعلى خالقهم ومربيهم - لا على غيره - يعتمدون فى كُلِّ الأُمور ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحذورات .

٣٧ - (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) :

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ...) إلخ عطف على (الَّذِينَ آمَنُوا) فى الآية السابقة ، وكذلك ما بعده من الآيات والمعنى : ومن صفات المؤمنين أَنّهم الذين يبتعدون عن كبائر ما نهى الله عنه كالشِّرك وعن كل ما عَظُمَ قُبْحه وفَحُشَ أَمره كالزِّنى ، وإذا ما تعرض لهم أَحد بالإساءة إليهم فى الدُّنيا كانت سجيّتهم الصَّفح وسَلِيقتُهم الغفران والعفو .

والتعبير بقوله - تعالى - : (هُمْ يَغْفِرُونَ) إشارة إلى أَنّهم المختصون بالغفران فى حال الغضب ، لا يُذْهِب الغَضَبُ أَخلاقهم ، وقد ثبت فى الصّحيح أَنّ رسول الله ﷺ « ما انتقم لنفسه قط إلّا أن تُنْتَهكَ حُرماتُ الله » .

٣٨ - (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

سبب النزول :

قيل : نزلت فى الأنصار دعاهم الله - تعالى - على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته - سبحانه - فاستجابوا له فأثنى عليهم - جلّ وعلا - بما أثنى هنا .

والمعنى : والّذين أجابوا دعوة خالقهم ومُرَبِّيهم إلى ما دعاهم إليه من التّوحيد والعبادة وأجابوا رسله ، واتّبعوا أمره ، وخافوا زجره ، وأقاموا الصّلاة بالمواظبة عليها والإتيان بها كاملة ، والاحتفاء بها ، وكان شأنهم التّشاوُر فى شئونهم ، ولا يُبرمون أمرا حتى يتدارسوا طلبا للعدل ، وابتغاء الوصول إلى الحقّ ، فلا ينفرد أحدهم برأى ، ولا يستبدّ بهم فرد أو قِلّة من النّاس ، ومّما رزقهم الله وأنعم به عليهم يُنفقون ويبذلون فى وجوه الخير المتعدّدة وفى الآية حث على الشورى ، أخرج عبد بن حميد والبخارى فى الأدب وابن المنذر عن الحسن قال : «ما تَشَاور قوم قطّ إلّا هُدُوا لأَرْشد أمرهم : ثم تلا (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ولقد كانت الشورى بين النبى وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب ، وكذلك بين الصّحابة ، وكانت - أيضاً - بينهم فى الأحكام كقتال أهل الرِّدة ، وميراث الجدّ ، وعدد حدّ الخمر وغير ذلك ، والمراد بالأحكام : ما لم يرد فيه نصّ شرعى ، وإلّا فالشورى لا معنى لها مع النص ، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله - عزّ وجلّ - إلى آراء الرِّجال ، والله - سبحانه - هو العليم الخبير ، ويُؤيد ما قُلنَاهُ ما أخرجه الخطيب عن علىّ - كرّم الله وجهه - قال : « قلْتُ يا رسولَ اللهِ : الأمرُ ينزلُ بِنا بعدَك لم يَنزِلْ فيه قرآنٌ ولم يُسْمَعْ مِنكَ فيه شىءٌ قال : اجمَعُوا العابِدَ مِنْ أُمَّتى واجعلوه بينَكُم شُورَى ولا تقضوهُ بِرأْى واحِد » .

وينبغى أن يكون المُستشار عاقلا عابدا - أخرج الخطيب عن أبى هريرة مرفوعا « اسْتَرشِدُوا العاقلَ تُرْشَدُوا ، ولا تَعْصوهُ فَتَنْدَمُوا » .

هذه صورة الإسلام المشرقة ، وتلك تعاليمه الخالدة ، يجعل من أوصاف المؤمنين وأخلاقهم التّشاور فى الأمر وجمع الرأى إلى الرأى .

٣٩ - (وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) :

المعنى : ومن جملة أوصافهم أنهم الذين يغضبون إذا بغى عليهم أحد ، وينتقمون ممن اعتدى عليهم وظلمهم ، ويقتصرون فى الانتصار على ما جعل الله

لهم ولا يعتدون ، ومعنى القصر المفهوم من قوله تعالى :(هُمْ يَنتَصِرُونَ) أنهم هم الذين لا يتجاوزون الحدفى أخذ حقوقهم ،وغيرهم يعدو ويتجاوز ، وهذا لا ينافى أنهم يعفون ويصفحون فلكل محله ومجاله

فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه وذنبه محمود ، ولفظ المغفرة مشعر به ، كما أن الانتصار من المُخاصم المُصِرّ المعاند محمود ، ولفظ الانتصار مشعر به ولو جاء أحدهما موضع الآخر لكان مذموما كما يشير إلى ذلك قول الشاعر

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإنْ أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

فوضع النّدى فى موضع السّيف بالعلا ∴ مُضِرّ كوضع السّيف فى موضع النّدى

وعن النّخعى أنّه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق .

(وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(سَيِّئَة) : الخطيئة والذنب

(سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) . سُمِّيت مُقَابلة السيّئة سّيئة لمشابهتها لها فى الصورة ، وقال الزمخشرى : لأنها تسوء مَن تنزل به .

(عَفَا) : صفح عمن أساء إليه .

(وَأَصْلَحَ) أى : وأصلح بينه وبين مَن يُعَاديه بالعفو والإغضاء .

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) : فثوابه على الله .

(لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) : يكره ويبغض المعتدين .

(وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) : ولَمَنْ عَاقَبَ بمثل ما عُوقِب به .

(سَبِيلٍ) : مؤاخذة ولوم وحرج .

(وَلَمَن صَبَرَ) : سكت وحبس نفسه عن الانتصار لنفسه .

(وَغَفَرَ) : تجاوز عن ظالمه .

(لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) أى : لمن الأمور الجادة المطلوبة شرعاً .

التفسير

٤٠ - (وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : شرع الله الانتصار من الظالم بأخذ الحق منه ومقابلة السيئة بمثلها من غير زيادة ، وندب إلى الفضل وهو العفو والإصلاح ، وهذا أسمى مما وصلت إليه البشرية قديما وحديثا من تقنين وتشريع ، فقد شرع القصاص ؛ لأن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يأخذ الإنسان حقَّه لنفسه وينتقم ممن يعتدى عليه ، وبخاصة مع النفوس المريضة التى لا يُقَوِّمها ويُصْلح شأنها إلا رَدْعُها والانتقام منها . ولكنه معهذا ندب ودعا إلى الفضل وهو العفو والإحسان ، ليرتقى بالبشرية إلى أعظم درجاتها ، وليرتفع بها إلى الذروة فى السَّماحة والمروءة ، وفى قوله -تعالى- : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ) بيان لفضيلة العفو والتسامح لأن الفاعل لذلك لن يضيع حقه ولن يذهب أجره وفضله ، بل أجره على الله ، وناهيك بمن كان أجره على الله .

وعن النبى ﷺ « إذا كان يَوم القيامةِ نادَى منادٍ : مَنْ كانَ له علَى اللهِ أَجْرٌ فَلْيَقُم : قال : فيقُوم خَلْقٌ فَيُقالُ لهم : ما أَجْرُكُم علَى اللهِ ؟ ، فيقولون : نحن الذين عَفَوْنا عَمَّنْ ظَلَمَنا : فَيُقال لهم : ادْخلوا الجنّة بإذنِ اللهِ » الكشاف .

ومعنى قوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) أنه يمقت ويبغض البادئين بالظلم ، والذين تجاوزوا الحد فى الانتقام وفيه إشارة إلى أن الانتصار مظنة التجاوز وعدم الاعتدال عند أخذ الحق وبخاصة فى حالة الغضب والتهاب الحمية فربما يجاوز المنتصر لنفسه حقه وهو لا يشعر وفى ذلك حَثٌّ على العفو والصفح .

٤١ - (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَـٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) :

المعنى : ولَمَنْ عاقبوا المُعتدين بمثل ما اعتدوا به عليهم دون زيادة فهؤلاء ما عليهم من لوم ولا مُؤاخذة ولا جُناح .

٤٢ - (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

فى هذه الآية تعيين لمن عليهم السبيل بعد نفيه عن المنتصرين بعد ظلمهم ، والمعنى : إنما الحرج واللّوم على الّذين يبدءُون الناس بالظلم أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون حقهم ويتكبرون فى الأَرض بغير الحق ، فهؤُلاء لهم عذاب مُوجع شديد الإيلام .

٤٣ - (وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) :

المعنى : وأقسم لَمَن صبر على الظُّلم والأَذى وغفر ولم ينتصر لنفسه وتجاوز عن ظالمه وفوّض أمره إلى الله إنّ ذلك المذكور من الصبر والمغفرة لمن عزم الأُمور أى لمن الأُمور الجادة العظيمة التى ينبغى للعاقل أن يُوجبها على نفسه ويلتزم بها ، لأَنها مطلوبة شرعا وهى من الصّفات الحميدة التى رغّب الشّارع فيها وأجزل لصاحبها العطاء ، روى أحمد عن أَبى هريرة قال : « إنّ رجلا شتم أَبا بكر - رضى الله عنه - والنبى ﷺ جالس فجعل النبى يعجب ويبتسم فلما أَكثر ردّ عليه بعض قوله ، فقام النبى ﷺ ، فلحقه أَبو بكر ، فقال يا رسول الله : إنّه كان يَشتُمُنى وأَنتَ جالسٌ ، فلما رَدَدْتُ عليه بعض قولِه غَضِبتَ وقمْتَ قال : إنهُ كان معكَ مَلَكٌ يردُّ عَنكَ فلمَّا رَدَدْتَ عليهِ بعضَ قولِه حضَرَ الشيطانُ فلمْ أَكن لأَقعُدَ مع الشّيطان »

(وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾)

المفـردات :

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ) : ومَنْ يَخذُلْه اللهُ لأنّه ضَلَّ الطَّريق لسوء اختياره .

(فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ) أى : فماله من ناصر يتولّاه بعد خذلان الله إيّاه .

(هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ) : هل إلى رجوع إلى الدنيا .

(مِن سَبِيلٍ) : من طريق .

(خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ) : خاضعين متضائلين بسبب الذلّ .

(يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ) : ينظرون إلى النّار مُسارَقة خوفاً منها .

(الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) أى : خسروا أنفسهم بالتّعرض للعذاب الخالد وخسروا أهليهم بالتفريق بينهم .

(مُقِيمٍ) : سرمدى دائم .

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللهِ) : ليس لهم غير الله يدفع عنهم عذابه .

التفسير

٤٤ - (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ) :

والمعنى : ومن يبعده الله عن طريق الحق والهدى لسوء اختياره ، فما له من ناصر يتولّى هدايته بعد خذلان الله إيّاه ، وترى الكافرين حين يشاهدون عذاب الآخرة ويعاينون أهوالها يسألون رَبَّهُم وهم فى ذِلة وانكسار : هل من طريق إلى الحياة الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحا غير الذى كُنَّا نعمل .

يتمنون ذلك ولكن أنّى لهم ذلك ؟ فليس إلى مردّ من سبيل ، هكذا قضى الله ولا رادّ لقضائه .

٤٥ - (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ) :

وترى الظالمين - كذلك - يعرَضُون على النار خاضعين متضائلين بسبب الذّل الذى اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله -تعالى- ، وبما يلاقون من الأهوال عقابا لهم -يراهم- يُسَارِقُون النَّظر إلى النَّار خوفاً من مكارهها كما ترى المُهيأ للقتل ينظر إلى السّيف ، وهكذا شأن الناظر إلى الشدائد لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها أويملأ عينيه منها كما يفعل إذا نظر إلى الأشياء المحبوبة .

ويقول الذين آمنوا يوم القيامة : إن الخاسرين خسارة عظيمة هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فأُلقِى بهم فى النّار ، وفقدوا مُتْعَتهم وحُرِموا نعيمهم فخسروا بذلك أنفسهم وحيل بينهم وبين أزواجهم وأحبابهم وأقاربهم فخسروهم .

وينبه الله -تعالى- فى ختام الآية إلى أن الكافرين فى عذاب دائم أبدى لا خروج لهم منه ولا محيد لهم عنه .

٤٦ - (وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ) :

المعنى : وما كان للظالمين أولياء يَلُون أمرهم ، ولا نصراء مما عبدوهم من دون الله ومن أطاعوهم فى معصيته يدفعون عنهم عذابه وينقذونهم منه ، ومن يضلّه الله عن الهدى وقد اختار الكفر السلوك السيء وأصرّ عليه فما له من طريق موصّل إلى الحقّ فى الدّنيا ، ولا إلى الجنّة فى الآخرة ، لينجّيه من سوء المصير وعذاب السّعير .

(ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم) : سارعوا إلى إجابته بالتوْحيد والعبادة .

(لَا مَرَدَّ لَه مِنَ اللهِ) : لا يردّه اللهّ بعد إذ أتى به

(وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) : وما لكم من إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم .

(حَفِيظاً) : رقيباً ومُسيطرا .

التفسير

٤٧ـ (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالَكُم مِّن نَّكِيرٍ) :

أى : سارعوا إلى إجابة خالقكم ومربيكم وذلك بالتوحيد والعبادة من قبل أن تنتهى الحياة التى هى فرصة للعمل ، ويأتى يوم القيامة والحساب الذى لا يرده الله بعد إذ قضى

به ، ليس لكم يومئذ من ملاذ تلجئون إليه وتتحصنون به من العذاب ، وما لكم من مُنكِر لعذابكم ومُخَلِّص لكم منه ، أو لن تقدروا أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوِّن فى صحائف أعمالكم ، وتشهد به أعضاؤكم .

٤٨ ـ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ) :

فإن أعرض المشركون وامتنعوا عن إجابتك والإيمان بدعوتك فلا تحزن عليهم أيها الرسول ،فما أرسلناك عليهم رقيبا ومُسيْطرا ، إنما كلفت بالبلاغ وتأْدية الرسالة وقد بلغت وأديت وإن شأْن الناس وطبيعتهم إذا منحناهم من لدنا نعمة كالصحة والغنى والأَمن فرحوا واستبشروا ، وإن تُصِبْهم سيئة من بلاء ومرض وفقر بسبب معاصيهم وماصدر منهم من السيئات فإنهم ينسون النِّعْمة ويجزعون لنزول البلاء كُفْرا وجُحُودا ، إلَّا مَنْ هداه الله وألْهم رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالمؤمن كما قال ﷺ : « إنْ أصابَتْهُ سرَّاءُ فشكَرَ فكانَ خيرا له وإنْ أصابَتْهُ ضراءُ فصبَر فكان خَيرا له وليسَ ذلكَ لأَحدٍ إلَّا لِلمؤْمن » .

(لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾)

المفـردات :

(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا) : يتفضل على من يشاء بالجمع بين الذكران والإناث فى ذريته .

(عَقِيماً) : لا ولد له .

التفسير

٤٩ ، ٥٠ - (لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) :

لما ذكر الله إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها أتبع ذلك أنَّ له - لا لغيره - ملك السموات والأرض فهو خالقهما والمتصرف فيهما يَخْلُق مَا يَشَاءُ فيهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضاً بالإناث لا غير ، وبعضا بالذكور دون الإناث ويتفضل - سبحانه وتعالى - على من يشاءُ من عباده بالجمع بين الذكور والإناث على التعاقب أو فى حمل واحد ، ويجعل من يشاء عقيماً لا ولد له .

وتقديم الإناث على الذكور فى الآية : قيل إنه لبيان أن الله يُعطى ما يُريدُه لا مايُريده الناس، لأن الناس تهوى الذكور وخصوصا العرب ، وقيل : التقديم توصية برعايتهن لضعفهن ولا سيما أنهم قد كانوا قريبى عهد بالوأد وفى الحديث « مَنْ ابتُلِيَ بِشيء من هذه البناتِ فأحْسنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرا مِنَ النار » وقال الثَّعالبى : إشارة إلى ما تقدم فى ولادتهن من اليُمْن ، وعن قتادة : من يُمْنِ المرأة تبكيرها بأُنثى .

جاء لفظ الذكور مُعَرَّفا ولفظ الإناث مُنَكَّرا ، للتنويه بما للذكور - عادة - من مكانة فى نفوس الآباء والرغبة فيهم ، لأن التعريف تنويه وإشادة .

* (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾)

يجمل بنا قبل الدخول فى تفسير هذه الآية الكريمة أن نتعرض لتعريف الوحى ونبيّن أقسامه ، حتى يتضح المقام ويكمل البيان فنقول وبالله التوفيق :

– **الوحى واقسامه :**

يطلق الوحى ويراد منه الإيحاء ، كما يطلق ويراد منه الموحى به ، حسب مقتضيات الأحوال .

(أ) فالوحى بمعنى الايحاء :

فى الشرع ، وفى اصطلاح علماء الكلام[1] هو إعلام الله أنبياءه ما يريد إبلاغه إليهم بما يفيد العلم اليقينى القطعى بأن ذلك من عند الله – عز وجل – وأنواعه ثلاثة :

١ – إعلام بطريق الإلقاء فى القلب والنفث فى الروع ويكون فى اليقظة كما يكون فى المنام .

٢ – الكلام من وراء حجاب ، أى بدون رؤية النبى لربه – عز وجل – بحيث يسمع كلامه ولا يراه .

٣ – إعلام الله نبيَّه ما يريد أن يبلغه إياه بوساطة الملك .

(ب) الوحى بمعنى الموحى به :

ينقسم هذا النوع من الوحى إلى متلوّ وغير متلوّ :

١ – فمن الوحى المتلو :

القرآن الكريم الذى جعله الله آية باهرة ، ومعجزة قاهرة وحجة باقية على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وتكفل – سبحانه – بحفظه من التبديل والتحريف إلى قيام الساعة فقال : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[2] .

نزل به الأمين جبريل – عليه السلام – على النبى ﷺ بلفظه ومعناه يقظة من غير أن يكون لواحد منهما دخل فيه بوجه من الوجوه ، وإنما هو تنزيل من الله العزيز الحكيم قال تعالى : «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ[3] » كما أن من الوحى المقروء الكتبَ السماويةَ المنزلة من الله على الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كالزبور على نبى الله داود ، والتوراة على رسول الله موسى ، والإنجيل على رسوله عيسى – عليه السلام – وقد أصاب هذه الكتب التغيير والتحريف

(١) أى علماء التوحيد. (٢) سورة الحجر الآية ٩

(٣) سورة الشعراء الآيات من : ١٩٢ – ١٩٥

بعد وفاة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، إذ لم يتكفل الله بحفظها لأنها ليست نهاية التشريع ولا خاتمته، فالتشريع الخاتم جاء به النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن هنا كان القرآن الكريم مهيمنا ورقيبا على ما جاء فيها، قال تعالى: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ»[1].

٢ – الوحي غير المتلو وهو ما يلي:

(ا) السنة النبوية المطهرة لقوله –تعالى–: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ»[2] والسنة الشريفة منزلة من عند الله بالمعنى، أما لفظها فهو من عند النبي ﷺ وليست معجزة بألفاظها وأسلوبها ولا متعبدا بتلاوتها كالقرآن الكريم، ولا تصح الصلاة بها بخلاف القرآن العظيم، فإنه معجزة فى ألفاظه، متعبد بتلاوته، ولا تصح الصلاة بدونه.

هذا، ومن الوحي: اجتهاد الرسول ﷺ، لأن الله –جل شأنه– يقره عليه إذا أصاب، وينبهه ويرشده إلى الخطأ إن أخطأ، ولا يقره عليه بل يدله على الصواب.

وفى عصرنا الحديث –ظهر بعض المسلمين الذين ينكرون العمل بالسنة وقد أخبر الرسول عنهم بذلك فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ إنى أوتيتُ القرآنَ ومثله معه، ألاَ يُوشكُ رجلٌ شبعان على أريكته فيقول: عليكم بهذا القرآنِ فما وجدتُم فيه مِن حلالٍ فأحِلوه، وما وجدتم فيهِ من حرامٍ فَحَرِّموه، ألاَ إنّ ما حرَّم رسولُ اللهِ كما حرَّم اللهُ».

(ب) الحديث القدسي: وهو ما كان مضافا إلى الله –تعالى– كقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادى إنِّى حرَّمت الظلمَ على نفْسى وَجعلتُه بينكم محرَّما فلا تَظالَموا» وهو كالحديث النبوى معناه من عند الله، أما لفظه فقيل: إنه من عند الرسول ﷺ ونسب إلى الله –سبحانه– لأنه موجه منه –جل شأنه– إلى عباده ولزيادة الاهتمام بمضمونه، وحث النفوس

(١) سورة المائدة، من الآية ٤٨

(٢) سورة النجم، الآيتان ٣، ٤

على العمل بما اشتمل عليه من المعانى والآداب . وقيل : غير ذلك من الأقوال التى لا تخرجه عن كونه وحيا ، وقد يطلق الوحى على غير ما جاء من عند الله إلى رسله ، كأن يُطلق ويراد منه الإلهام ، مثل قوله -تعالى- : « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[1] كما يطلق ويراد منه التسخير مثل قوله -تعالى- : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ »[2] وبعد هذه المقدمة نعود إلى شرح الآية ومفرداتها كما يلى :

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ) :

المفـردات :

(وَحْيًا) : إلقاء فى القلب .

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) : أو يكلمه من وراء حجاب دون أن يراه.

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) : أو يبعث الله المَلَكَ للأنبياء ليبلغهم ما أمر الله به .

(عَلِىٌّ) : متعال عن صفات المخلوقين .

(حَكِيمٌ) : يجرى - سبحانه - أفعاله على سَنَن الحكمة.

روى فى سبب نزول هذه الآية : أن اليهود قالوا للنبىّ ﷺ : ألا تكلم اللهَ وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ، ونظر إليه ، فإنا لا نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال النبى ﷺ : لم ينظر موسى إلى الله فنزل قوله -تعالى- : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ..) إلخ.

التفسـير

٥١ - (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ) :

---

(١) سورة القصص الآية ٧

(٢) سورة النحل الآية ٦٨

أى : وما صح وما استقام لفرد من أفراد البشر أن يكلمه الله إلّا نفثا وإلقاء فى قلبه مناما ـ كما حصل لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما أمر بذبح ولده قال ـ تعالى ـ حكاية عن ذلك : «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ»[1].

وقد حصل الوحى بالنفث والإلقاء فى القلب لرسولنا ﷺ فقد ورد أنه قال : «إنَّ رُوحَ القُدُسِ نفثَ فى رُوعِى أن نفْسا لن تَموتَ حتى تَسْتكمِلَ رزقَها وأجَلها ، فاتقوا اللهَ وأجْمِلوا فى الطلبِ ، خذوا ما حلَّ ودعوا ما حَرُمَ».

(أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) أى : أن يسمع الرسولُ الكلام من غير أن يبصر من يكلمه والمراد أن السامع محجوب عن رؤية ربه ـ جلت قدرته ـ فى الدنيا أما فى الآخرة فيمنحها الله للذين قال فى حقهم : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»[2].

وقد حصل الوحى من وراء حجاب لموسى ـ عليه السلام ـ فى بدء رسالته وقد رأى نارا فطلب من أهله المكث والبقاء فى مكانهم حتى يستطلع الأمر قال تعالى : «فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ»[3] وقد حدث ذلك له أيضاً عند مجيئه لميقات ربه قال تعالى : «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقاً»[4] الآية أما رسولنا ﷺ فقد كلمه ربه من وراء حجاب ليلة الإسراء والمعراج عند فرض الصلاة ومراجعته ربّه ـ عز وجل ـ فى التخفيف عن أمته فى عدد الصلوات .

كما كلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ملائكته من وراء حجاب فى أمر خلق آدم ـ عليه السلام ـ وجعله خليفة فى الأرض ، قال تعالى : «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً»[5].

---

(١) سورة الصافات ، من الآية ١٠٢

(٢) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة طه الآية ١١ وجزء من الآية ١٢

(٤) سورة الإعراف من الآية ١٤٣

(٥) سورة البقرة من الآية ٣٠

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) أى : أو يبعث الله - تعالى - ملكا رسولا كجبريل - عليه السلام - إلى أنبيائه فيسمع الأنبياء صوت الملك ، وتارة يرونه عيانا فى صورة بشر كما كان يتمثل جبريل - عليه السلام - لرسولنا ﷺ فى صورة أعرابى أو فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى ؛ وتارة أخرى كان يراه الرسول ﷺ فى صورته الحقيقية . وقد يأتى الوحى دون رؤية النبى ﷺ للملَك وإنما يسمع عند قدومه دويًا أو صلصلة شديدة لا يعلم إلا الله كنهها وحقيقتها فيعتريه ﷺ حالة روحية لا يدرك الحاضرون منها إلّا أماراتها الظاهرة مثل ثقل البدن وتَفَصُّد جبينه الشريف عرقا . روى البخارى - رضى الله عنه - عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما - عن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل النبىّ ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله ﷺ : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعَيْتُ ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملكُ رجُلًا فيكلمنى فأعِى ما يقول ، قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرقاً » .

وتارة يسمع الحاضرون عند وجهه الكريم دويًّا كدوىّ النحل عند مجىء الوحى أخرج الترمذى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحى يسمع عند وجهه كدوىّ النحل » (فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ) أى : فيخاطب الملَكُ الأنبياء بإذن الله وأمره ما أراد الله أن يبلغه لهم .

(إِنَّهُ عَلِيٌّ) أى : إن الله - جلت قدرته - متعال عن مشابهة الخلق أجمعين (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] .

(حَكِيمٌ) : يجرى أفعاله على الحكمة وهى إصابة الحق على أكمل وجه ، وخلاصة معنى الآية الكريمة : وما صح ولا استقام أن يكلم الله أحدًا من خلقه إلَّا على صورة من الصور

---

(١) سورة الشورى من الآية ١١ .

التى بينتها الآية الكريمة بأن يلقى الله فى قلب رسوله وينفث فى روعه -مناماً أو يقظة- بما يريده منه ، أو يكلمه من وراء حجاب فيسمع الرسول الكلام دون أن يرى شيئاً ، أو يرسل الله للأنبياء ملكاً يبلغهم ما أمر به من لدن ربه وليس فوق ذلك ولا دونه وحى ولا تبليغ من الله .

فما يدعيه المنجمون إنما هو الرجم بالغيب ، وكذلك ما يخبر به الجن ، والله -سبحانه- متعال ومنزه عن مماثلة ومشابهة الخلق أجمعين ، يجرى أفعاله على مقتضى حكمته الرشيدة .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾)

المفـردات :

(رُوحاً) : قرآناً وقيل : غير ذلك .

(مِنْ أَمْرِنَا) : من لدنَّا .

(نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) : نخلق ونوجد الهداية بإرادتنا إلى من نختاره من عبادنا الذين آثروا الحق على الباطل .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ) : وإنك لترشد وتدل .

(إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق معتدل موصل إلى المطلوب لا يضل من يسلكه .

(أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) : ألا إلى الله وحده لا إلى غيره يرجع شأن الخلق وأمورهم كلها يوم القيامة .

التفسير

٥٢ - (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ ...) إلخ الآية :

أى : ومثل إيحائنا إلى الأنبياء من قبلك ، أوحينا إليك يامحمد القرآن العظيم الذى هو من أمرنا ومن شأننا ، - أوحيناه - كما شئنا على من شئنا بهذا النظم المعجز والتأليف المحكم. وسمى القرآن الكريم روحا لأن الله يحيى به القلوب والنفوس من موت الجهل والغفلة والضلال .

وقال ابن عباس روحاً : نبوة . وقال الحسن وقتادة :رحمة من عندنا ، وقال الربيع : جبريل والأول أولى وأظهر .

(مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) أى : ما كنت يامحمد تعلم ما هى الكتابة لأنك من قوم أميين لا يعرفونها ،ولا تعرف ما هو الإيمان حتى تكون قد أخذت ما جئتهم به عمن كان يعلم ذلك من أهل الكتاب ،وهو كقوله تعالى : «وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[1] - روى هذا المعنى عن ابن عباس فإنه لم يكن قبل بعثته وتنبيئه يعلم أنه سيكون رسولا ، وكذلك لم يكن على دراية ومعرفة بالملائكة والعالم العلوى :وما أطلعه الله عليه وعلمه إياه بعد النبوة من الشرائع والأحكام ،وهذا لا ينفى أنه ﷺ كان مؤمناً بربه قبل النبوة لأنه ﷺ كان يتعبد فى الغار كما روى أنه قال للراهب بحيرا فى أثناء رحلته إلى الشام حين استحلفه الراهب باللات والعزى ،قال له الرسول ﷺ :«لا تسألنى بهما فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما » . وقد ثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسجد لصنم ولا أشرك بالله ولا زنى ولا شرب الخمر ،ولا شهد ما كانوا يجتمعون عليه ويسمرون فيه ، ويأتون ما يباح وما يحرم ، قال ﷺ : « لمَّا نشأت بُغضت إلىَّ الأوثان وبُغض إلىَّ الشعر ولم أهم بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمنى الله منهما ثم لم أعُد » .

وهذا شأن كل الأنبياء فقد اصطفاهم ربهم واختارهم وما عرفوا بشرك أو كفر قبل النبوة وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٨.

(وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) أى : ولكن جعلنا القرآن الكريم وأنزلناه نورًا ونبراساً نضىءُ به الطريق لعبادنا ليكونوا على بينة من أمرهم ، ونوجد ونخلق به الهداية فيمن نريد هدايته من عبادنا فنجعله راشدًا مهدياً وذلك وفق اختيار العبد وصرف نفسه نحو الاهتداء بكتاب ربه والاهتداء بما جاء به .

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : وإنك يا محمد لتدل وترشد إلى صراط سوى وسبيل قويم وحقيقة سمحاء ودين خالص ، فهدايتك هداية إرشاد وتبليغ فحسب ، قال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »[1] وقال - جل ثناؤه - : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[2] وتفخيماً لشأن هذا الصراطِ المستقيم وتقريرا لاستقامته واعتداله وتأكيدًا لوجوب سلوكه نسبه - سبحانه - وأضافه إلى نفسه فقال : (صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) وَوَصَفَ - عز وَجَلَّ - ذاته بأنه له - وحده - ما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً فيما نعلم منهما وما لا نعلم فكل شىء تحت قبضته وقهر عظمته .

(أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) أى : ألا إلى الله وحده دون سواه ترجع أمور المخلوقات جميعاً يوم القيامة ليحكم فيها - سبحانه - بحكمه العادل وقضائه المبرم فالوسائط قد ارتفعت والناس كلهم قد جُردوا من حولهم وقوتهم فقد سلبوا الأسباب التى كانت لهم فى الدنيا .

وفى هذا من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم بالثواب المقيم والفوز العظيم ، كما فيه من التهديد والوعيد بالعذاب الشديد للضالين المكذبين .

---

(١) سورة القصص من الآية ٥٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٩٩ .

« سورة الزخرف »

هذه السورة مكية وآياتها تسع وثمانون آية .

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة (وزخرفا) ، وصلتها بسورة الشورى التى قبلها : أن كلا منهما أشادت بالقرآن الكريم فختمت الشورى بالآيتين :

«وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا » إلى قوله تعالى : « أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ، وافتتحت سورة الزخرف بالقسم بالقرآن الكريم على أنه محفوظ فى أم الكتاب (وهو اللوح المحفوظ) ، وأنه من عند الله عظيم القدر رفيع الشأن منزل على مقتضى حكمة الله – جل وعلا – .

بعض مقاصد السورة :

١ – أبانت السورة كون القرآن الكريم موصى به من عند الله – تعالى – وأنه نزل بلسان عربى مبين ليفهمه العرب وليتدبروا آياته عساهم يعقلون ما اشتمل عليه من الأحكام ومكارم الأخلاق فيحملهم بذلك ويدفعهم إلى الإيمان به .

وإيثار العرب بتحمل مسئولية الرسالة المحمدية العالمية ، لأن لهم أخلاقا كريمة وصلابة فى الدين ، وشجاعة فى الحق ، وصدقاً فى الوعد ، وهمة فى الوفاء .

٢ – أن السورة جاءت بتهديد المشركين بإهلاكهم كما فعل بمن قبلهم ، وذلك إذا استمروا على كفرهم وعنادهم (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) .

٣ – وضحت هذه السورة الكريمة بعض الآيات الكونية التى تظهر قدرة الله وتفرده بالجلال وأنه – سبحانه – حقيق بالوحدانية ، وذلك عن طريق لفت نظر المخاطبين إلى ما هو واضح وبيّن فى ملكه من أرض مهدها وبسطها لهم إلى سماء أنزل منها ماء بمقدار معلوم فأحيا به الأرض بعد موتها وأنبت فيها الزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ، وأنه – سبحانه – سيخرج الناس ويبعثهم من قبورهم يوم القيامة ، كما يحيي الأرض

وينبت فيها النبات ، وأنه – جل شأنه – خلق للناس جميع الأصناف التي تنفعهم في معاشهم ، وسخر لهم السفن والأنعام ليركبوها ويستقروا على ظهورها (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) .

٤ – تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من معتقدات قبيحة ، كنسبة الولد إلى الله (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا) كما نعت عليهم سفههم في دعواهم أن الله جعل لنفسه البنات وآثرهم واصطفاهم بالبنين ، كما عابت عليهم أنهم جعلوا الملائكة إناثا وتوعدتهم (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) .

٥ – أثبتت السورة وأكدت أن إبراهيم – عليه السلام – الذي كان المشركون يدعون أنهم في شركهم على دينه وطريقته – أثبتت – أنه بريء مما يعبدونه (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) .

٦ – أبانت السورة أن المشركين يقيمون أمر اختيار الرسول ﷺ على مقاييس فاسدة ومعايير خاطئة باطلة (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فرد الله عليهم مسفها رأيهم وموبخا لهم على سوء فهمهم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) .

٧ – وضح الله لهؤلاء المشركين أن الاستعلاء في الأرض لا ينجي من عذاب الله ، فقد أهلك الله فرعون ومن معه لتسلطهم وكفرهم واغترارهم بما لديهم من الدنيا وزخرفها (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) وأنهى – سبحانه – هذه السورة الكريمة بعرض بعض مشاهد يوم القيامة ، كالنعيم الذي يسعد به المؤمنون (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) كما أبانت ما يناله المجرمون من نكال وعذاب أليم (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) وفي آخر آياتها يسلي الله – تعالى – رسوله ﷺ ويطمئنه ويأمره بالإعراض عن الكافرين ، كما يهددهم ويتوعدهم (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(جَعَلْنَاهُ) : أنزلناه .

(فِى أُمِّ الْكِتَابِ) : فى اللوح المحفوظ .

(لَدَيْنَا) : عندنا .

(لَعَلِىٌّ) : لرفيع المنزلة عظيم القدر .

(حَكِيمٌ) : محكم لا ينسخه غيره ، وقيل : غير ذلك .

التفسير

١ـ٢ (حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

١ - (حمٓ) : هذه الحروف وما يماثلها من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم قد سبق الكلام فيها مطولا فى أول سورة البقرة ، وفى الحق أنه لم يأت القرآن الكريم بشئ فى معنى هذه الكلمات ، كما لم يرد فى سنة رسول الله ﷺ أثر فى ذلك ، والأولى أن نترك أمر المراد منها إلى الله - تبارك وتعالى - وقد كان بعض السلف يقولون فيها : الله أعلم بمراده .

٢ - (وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) : هذا قَسَم بالقرآن الكريم ، أى أقسم بالكتاب الواضح البيّن ، الظاهر الدلالة فهو من أبان اللازم بمعنى اتضح ، أو الموضح لأصول مايحتاج إليه من أمور الدين فهو حينئذ يكون من أبان المتعدى إلى المفعول .

٣ ـ (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :هذا هو جواب القسم ، فالله ربنا يقسم بكتابه المبين على أنه أنزله قرآنا عربيا بلغتكم يا معشر العرب ، وذلك لتتدبروا آياته وتقفوا على معجزاته وأسرار بلاغته ، ليدفعكم ذلك ويدعوكم إلى الإيمان والعمل بما جاء فيه ، وفى القسم والحلف بالكتاب المبين على أن القرآن الكريم منزل من عند الله دليل على شرف هذا الكتاب وعلو مكانته وهو من الأيمانِ الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه .

٤ ـ (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) :

أى : وإن القرآن الكريم مثبت عند الله فى أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ كما يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ »[1] ووصف القرآن بأنه فى أم الكتاب للإشارة إلى كمال الحفظ ، وعظيم الرعاية ، وتمام العناية به ، ويؤكد ذلك ويعززه قوله ـ سبحانه ـ : (لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ) أى : أنه عندنا فى مكان قدسى محاط بكمال التقدير والتعظيم والحفظ ، كما أنه رفيع الشأن ، جليل القدر ، تسمو منزلته بين سائر الكتب المنزلة ، لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ومحكم التشريعات ، وجميل السجايا ، وكريم الشمائل والأخلاق (حَكِيمٌ) أى : أن القرآن ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره ، بل هو باق كتاب حُكم وتشريع ، وخاتم للكتب ، فهو صالح لكل زمان ومكان ، كما أنه هـو حاكم وشاهدٌ على غيره من الكتب المنزلة بين الصحيح فيها والموضوع ، قـال تعالى : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ »[2]

---

(١) سورة البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٨ .

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ) : أفننحى ونبعد عنكم ،وهو مأخوذ من قولهم :ضرب غرائب الإبل ، إذا نحاها وأبعدها إذا دخلت على إبله عند الورد والشرب .

(الذِّكْرَ) : القرآن الكريم . والذكر فى اللغة بمعنى الشرف ، وكذلك القرآن ، فهو شرف للعرب .

(صَفْحاً) أى : إعراضاً عنكم ، وأصل الصفح أن تولى الشيء صفحة عنقك أو جانبك إعراضاً عنه .

(مُّسْرِفِينَ) : متجاوزين الحد فى الكفر والضلال .

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا) : كم : يراد بها هنا التكثير أى : كثيراً أرسلنا .

(بَطْشاً) : شدة وعنفا .

(مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) : سبق فى غير موضع من القرآن الكريم قصتهم العجيبة .

التفسـير

٥ - (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ) :

بيّن الله - سبحانه - أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب لكى يعقلوه ويتدبروا آياته ، ولكنهم مع هذا كله ظل أكثرهم على الإسراف فى العناد والضلال ، فقال لهم الله : (أَفَنَضْرِبُ

عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً) أى : أنهملكم فننحّى عنكم إنزال القرآن الكريم الذى فيه شرفكم ورفعتكم ، أنصرفه عنكم لأنكم لازلتم مستمرين ومنهمكين وغارقين فى الإسراف والضلال متجاوزين الحد فى الكفر مصرين عليه أنفعل ذلك بكم ؟ ولكن حكمتنا تقتضى أن نُذَكركم وننزل القرآن الكريم عليكم ، ولا نترك ذلك بسبب أنكم تعرضون عنه ولا تلتفتون إليه ، بل نفعل ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة : وقيل ـ المعنى ـ إن حالكم من الإعراض والغلو فى الإسراف والكفر وإن اقتضى ترككم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر وتمكثوا فى العذاب الدائم ، لكننا لسعة رحمتنا ومزيد فضلنا لا نفعل ذلك بكم بل نرشدكم وندلكم على الحق والصراط المستقيم . وهذا الرأى موافق فى المراد لما سبقه .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرّره عليهم برحمته .

٦ ، ٧ ـ (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : وكثيرًا ما أرسلنا وبعثنا أنبياء ورسلاً قبلك فى أمم سبقت وأقوام سلفت كانت تأتيهم رسلهم بالبينات والذكر ، فقابلوهم بالسخرية والاستهزاء وشتى ضروب الأذى . ولكن أنّى لهم أن يفلتوا من عقابنا أو يسبقونا ويعجزونا عن أن ننكل بهم ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

٨ ـ (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : فأنزلنا عذابنا الشديد المهلك المستأصل بهؤلاء القوم الذين كانوا أقوى وأشد من قومك بأساً وأكثر عنفاً وبطشاً وأصلب عودًا وأوفر جمعاً وعددا ، ولم يغنهم ذلك أو يمنعهم من عذابنا شيئاً ، فمنهم من أرسل الله عليه الحصى والحجارة ومنهم من أخذه الله بالزلزال والصيحة وصاعقة العذاب الهون ، ومنهم من خسف الله به وبداره الأرض ، ومنهم من أغرقه الله وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

وفى هذا مزيد من إدخال السرور والطمأنينة على قلبه ﷺ ووعد له بأن الله ناصره على قومه ، كما فيه من الوعيد بالويل والهلاك لهؤلاء الذين عاندوا رسول الله وكذبوه واستهزءوا به وسخروا منه .

(وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ) أى : سبق وسلف فى القرآن الكريم فى غير موضع منه قصصهم العجيبة فى التكذيب والعقوبة التى أنزلها الله بهم ، والتى من حقها أن تسير سير المثل شهرة وذيوعاً .

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(ٱلْعَزِيزُ) : الذى لا يقهر ولا يغلب ، وقيل : الذى لا نظير له .

(مَهْدًا) : مكاناً مبسوطاً موطأً .

(سُبُلًا) : جمع سبيل أى : طرقاً تسلكونها .

(بِقَدَرٍ) : بمقدار تقتضيه حكمته .

(فَأَنشَرْنَا) : أحيينا .

(مَّيْتًا) : خالية من النبات فهى كالميت .

(تُخْرَجُونَ) : تبعثون وتنشرون من قبوركم .

(الْأَزْوَاجَ) : جمع زوج وهو الصنف والنوع .

(الْفُلْكِ) : السفينة ويستعمل مع المفرد والجمع ، وهو فى الجمع بمعنى السفن .

(لِتَسْتَوُواْ) : لتستقروا .

(سَخَّرَ) : ذلل وطوع .

(مُقْرِنِينَ) : مطيقين .

(لَمُنقَلِبُونَ) : لراجعون إلى الله فى الآخرة .

التفسير

٩ - (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) :

أى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ليقولن دون تردد ولا تشكك :خلقهن وبدأهن (الْعَزِيزُ) :الذى لا يقهر ولا يغلب ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه (الْعَلِيمُ) : الواسع العلم المحيط بكل شئ ، فهو قيوم السموات والأرض ، فألسنتهم ناطقة وفطرتهم شاهدة وقلوبهم موقنة بأنه - سبحانه - خالق السموات والأرض وأنه هو العزيز العليم ، ولكنهم مع هذا الإقرار يشركون معه فى الربوبية ، مالا يستطيع جلب الخير ولا دفع الشر ، وليزيدهم الله - سبحانه - تذكيرًا وعلماً به وتبياناً لبعض نعمه وآلائه عليهم قال :

١٠ - (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) :

أى : أنه - سبحانه- مع كونه قد خلقكم وبرأكم لم يتركم سدى دون عناية أو رعاية بل هو - جل شأنه- قائم على كل أسباب حياتكم عظيمها ودقيقها (جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا)

أى : بسط لكم الأرض ووطأها لكم تستقرون عليها وتترددون فوقها بيسر وسهولة (جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) أى : خلق لكم فيها سبلا وطرقا لتمشوا فيها وتسلكوها فى ظعنكم وإقامتكم (لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أى : لكى تهتدوا وترشدوا إلى ما تقصدون من أماكن ، وما تريدون من متاع .

أو لتتفكروا فى ذلك فيرشدكم ويهديكم تفكركم إلى توحيد الله وتمجيده .

١١ - (وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) :

هذه الآية الكريمة استمرار وامتداد لبيان أنعم الله وآلائه عليهم فبين لهم أنه - تعالت عظمته - نزّل من السحاب ماء بمقدار معلوم حسب إرادته ومشيئته الحكيمة ، لا هو بالماء القليل الذى تشق أو تستحيل معه الحياة ، ولا هو بالكثير الذى يتلف ويؤذى ، بل قد يقتل ويفنى ، وإنما هو بحسب ما يحتاجه الناس لهم ولدوابّهم واستنبات الزرع من أرضهم ، ولذا قال تعالى :

(فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً) أى : فأحيينا به أرضاً قحلاء جرداء حيث جعلناها تنبت الزرع والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، قال تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ »[1] (كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) أى : مثل إحياء الأرض الجرز التى لم يكن فيها كلأ ولا نبات ثم أنبتت من كل زوج بهيج أى مثل هذا الإخراج والإحياء نخرجكم من قبوركم أحياء وننشركم بعد موتكم ، وما ذلك على الله بعزيز فهو - سبحانه - خلقكم بدءًا ، وكما بدأكم تعودون .

١٢ - (وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) :

أى : وهو الذى - جل شأنه - خلق الأصناف كلها من جبال متنوعة الألوان والأحوال والأحجام ، إلى أناس يختلفون فى ألوانهم وألسنتهم ، إلى حيوان تتباين أنواعه ، إلى عوالم فى البر والبحر وفى السموات وفى الأرض ، لا يعلم حقيقتها إلا هو - سبحانه - (وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) ومنّ عليكم وسخر وأجرى لكم من السفن ما يحملكم فى جوفها ، وذلل لكم الأنعام من الإبل وغيرها ما تركبونه وتعلون ظهره .

١٣ - (لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) :

أى : لتستقروا على ظهورها وتتمكنوا منها ثم تذكروا بقلوبكم وألسنتكم نعمة ربكم وعطاءه لكم وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، أى : تجعلون ألسنتكم ترجمانا على ماملأ

(١) سورة الحج ، الآية : ٦٣

قلوبكم معلنا ما انطوت عليه جوانحكم ، فتقولون بلسان ذاكر عن قلب شاكر : تنزهت وتقدست ياربنا عن أى وصف لا يليق بك ، أنت الذى ذللت لنا هذه المخلوقات التى تفوق قدرتنا ويستعصى علينا قيادها ، فلو أردت لمنعت حركة السفن فلا تغادر مكانها ولاتبرح موضعها كما قال تعالى : « إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ »[1] ولو شئت ألا تمكننا من هذه الدواب والأنعام التى لا حول لنا معها ولا قوة إلا بك - لو شئت - لفعلت ولكنك يسَّرتها لنا وملكتنا أمرها ، أخرج أحمد وأبوداود والترمذى وصححه ، والنسائى وجماعة عن على - كرم الله وجهه - أنه أُتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله - ثلاثاً ، والله أكبر - ثلاثاً (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) سبحانك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت ، ثم ضحك فقيل له : عمَّ تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلتُ ثم ضحك فقلت : يا رسول الله ممَّ ضحكت ؟ فقال « يتعجب الرب من عبده إذا قال : رب اغفر لى فيقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » كما روى أن رسول الله ﷺ كان يقول أيضاً : « اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر ، واطْو لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا » وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « آيبون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون » : كما روى الإمام أحمد وغيره أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « ما من بعير إلّا فى ذروته شيطان فاذكروا اسم الله - تعالى - عليه إذا ركبتموه كما أمركم » وظاهر النظم الكريم أن تَذَكُّر النعمة والقولَ المذكور لا يخصان الأنعام بل يشملان الأنعام والفلك ، وذكر عن بعضهم أنه يقال عند ركوب السفينة : « بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »[2] ويقال عند النزول منها : « اللهم أنزلنا منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين » .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ٣٣ .

(٢) سورة هود ، من الآية ٤١ .

وقيل المراد من النعمة فى قوله تعالى : (ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ) : هو الهداية للإسلام وتفضله – سبحانه – علينا برسول الله – عليه الصلاة والسلام – وجعلنا خير أمة أخرجت للناس.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى مِجّلز قال : رأى الحسين بن علىّ – رضى الله عنهما وكرم وجهيهما – رجلا يركب دابة فقال :سبحان الذى سخر لنا هذا ، فقال الحسين : أو بذلك أُمِرْتَ . فقال الرجل فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذى هدانا للإسلام ، الحمد لله الذى مَنَّ علينا بمحمد ﷺ ، الحمد لله الذى جعلنا خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : (سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) .

(وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) أى : وما كنا أبدًا مطيقين ذلك ولا قادرين عليه ، فأنت يا ربنا بيدك نواصى الأمور .

١٤ – (وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) :

أى : وإنا لراجعون وصائرون إلى الله ربنا بعد مماتنا ، وفى ذلك تنبيه للعاقل الأريب أن يتخذ من أمور الدنيا عبرة يعتبر بها وينظر من خلالها إلى الآخرة ، فإذا ركب الأنعام والفلك ذكر ركوبه ورحيله إلى الآخرة ، وإذا تزود للدنيا تنبه إلى زاد الآخرة ، وهو التقوى « وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ »[1] وإذا تزين بلباس الدنيا دفعه ذلك إلى أن يتحلى ويتجمل بالتقوى لباس الآخرة « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ »[2] .

(وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾)

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧
(٢) سورة الأعراف من الآية ٢٦

المفـردات :

(جُزْءًا) : أى ولدًا .

(لَكَفُورٌ) : لشديد الكفر .

(مُّبِينٌ) : ظاهر الكفران أو مظهر له .

(وَأَصْفَاكُم) : وآثركم واختار لكم.

(بُشِّرَ) : أخبر .

(مَثَلاً) : مماثلا وشبيها .

(كَظِيمٌ) : مملوء بالكرب والغم .

(يُنَشَّؤُاْ فِى الْحِلْيَةِ) : يربى ويَشِبّ فى الزينة .

(فِى الْخِصَامِ) : فى الجدال .

(غَيْرُ مُبِينٍ) : غير قادر على إظهار حجته .

التفسـير

١٥ - (وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) : أى نسب هؤلاء الكافرون إلى الله الولد وجعلوا هذا الولد من خلقه وعباده ، وهذا دليل على عنادهم وأنهم مناقضون لما يقولون ، حيث اعترفوا بأن الله - جلت قدرته - خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه - سبحانه - بصفات المخلوقين التى تناقض كونه خالقا للسموات والأرض وخالقًا لما فيهما ، وهذا يدل على فرط جهلهم وسخافة عقولهم ، فربنا - سبحانه - لا تناله الوحشة فيحتاج إلى أنيس ، ولا يصيبه الذل فيتعزز ويتقوى بولى أو نصير ، ولا يعتريه الضعف فيفتقر إلى معين ، ولا يموت فيحتاج إلى من يرثه بل إنه - جل شأنه - الغنى فلا يفتقر ، العزيز فلا يذل ، القوى فلا يضعف ، الباقى فلا يعتريه فناء وصدق ربنا القائل : «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ »[1] وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل : أولادنا أكبادنا تمشى على الأرض ، والمقصود من الجزء هنا البنات ، ولهذا عقبه الله بقوله :

(١) سورة الإسراء : من الآية ١١١ .

(أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ) (إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) أى : إن هذا الصنف والنوع من المخلوقات المنكر لأنعم ربه أشد الإنكار مبالغ فى ذلك ، يبدو ذلك الإنكار منه واضحا جليا أو يعلنه ويجاهر ويذيع به .

١٦ - (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ) :

أى : بل أتخذ لنفسه - سبحانه - ممن خلقه أخسَّ النوعين شأنا وأدناهما منزلة ، وهو البنات وآثركم واختار لكم أفضلها وهو الذكور مع أنكم أشد خلق الله نُفُورًا من الإناث وأمقتكم لهن حتى بلغ بكم المقت أشده ، واستبد بكم البغض فاقترفتم فى حقهن أبشع أنواع التنكيل ، إنكم وأدتموهن ودفنتموهن أحياء ولم تتحرك فى قلوبكم رحمة الأبوة ولم تتردد فى جوانحكم عواطف الإنسانية إنكم بزعمكم هذا واقترائكم قد فقدتم الحياء كله فلم تخجلوا من الشطط والجور فى القسمة التى صورها فكركم السقيم وعقلكم المريض .

١٧ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) :

فى هذه الآية يصور الله حالهم وشأنهم أنهم إذا ما أُخبِرَ أحدهم أنه قد ولد له أنثى ، إذا أُخبر بذلك اربَدّ واغتم واسودّ وجهه من سوء ما بشر به إن بعض هؤلاء السفهاء كان يغاضب زوجه إذا ولدت أنثى . روى أن بعضهم هجر لذلك البيت الذى فيه امرأته فقالت :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا   ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا

١٨ - (أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) :

فى هذه الآية تكرير لإنكار الله عليهم زعمهم أنه - تعالى - اتخذ لنفسه بنات وأصفاهم بالبنين أى : أو جعلوا لله - تعالى - مَن شأنه أن يتربى فى الزينة من الذهب والفضة والحرير ونحوها مع أنه فى الجدال غير قادر على تقرير دعواه بالحجة والبرهان ، ولذا يلجأ إلى البكاء إذا عجز عن الدفاع ، أيليق أن ينسب هذا الصنف إلى الله تعالى ؟ ألا ساء ما يحكمون . إن زعمهم هذا يدل على خفة أحلامهم وسفاهة عقولهم .

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(جَعَلُوا) : سَمَّوا .

(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) : أحضروا خلق الله الملائكة فشاهدوهن إناثا .

(سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : ستسجل فى ديوان أعمالهم .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : ما هم إلا يظنون ويكذبون .

(أُمَّةٍ) : دين وملة وطريقة .

(مُتْرَفُوهَا) : المنعمون المنغمسون فى الشهوات .

التفسير

١٩ - (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) :

أى : إن هؤلاء المشركين سَمَّوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وقد أنكر عليهم ذلك السفه والجهل ووبخهم على افترائهم فقال - جل شأنه - : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ) :

أى : أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إناثا ؟ إنهم لم يشهدوا خلقهم ، ولم يقفوا على أمرهم حتى يحكموا هذا الحكم ، إذ لا سبيل إلى معرفة أنوثة الملائكة إلا عن طريق المشاهدة ولم يشاهدوا خلقهم ، فلم يبق إلا طريق العقل أو النقل . والعقل بدوره عاجز وقاصر عن معرفة ذلك قطعا ، لأن هذا الأمر ليس من الأمور التى يحكم فيها العقل ولم يأت بها النقل فدعواهم هذه لا سند لها من رؤية أو عقل أو نقل وقد هددهم الله وتوعدهم – سبحانه – بقوله : (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) : أى : أنها ستسجل وترصد فى صحائف أعمالهم قال – تعالى – (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)[1] (وَيُسْأَلُونَ) : عن دعواهم سؤال تقريع وإهانة ، ويحاسبون على ذلك حسابا ينتهى بالعذاب الأليم ، لأن هذه الدعوى ما هى إلا افتراء على الله وفحش فى حقه – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

٢٠ – (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) :

وقال الكفار : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناهم ، ولكننا عبدناهم بمشيئته وإرادته ، ويبنون على ذلك أنهم ما داموا قد عبدوا الملائكة بإرادة الله ومشيئته فلا يعاقبهم الله على ذلك لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا على مقتضى مشيئة الله . فرد الله عليهم بقوله : (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : أى ما هم إلا يتوهمون ويتقولون على الله زورا وبهتانا بدعوى أنه – تعالى – راض عن عبادتهم للملائكة فإنه – تعالى – واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، وقد بين لهم ذلك بآياته الكونية ، وبرسالات رسله ، ولذا عقبه بقوله :

٢١ – (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) :

أنكر الله – سبحانه – على المشركين عبادتهم للملائكة بلا دليل ولا برهان وأبطل دعواهم أى : بل أنزلنا عليهم وجئناهم بكتاب من قبل القرآن أو من قبل الرسول ﷺ نطق بصحة ما يدعون من هذا الباطل فهم بهذا الكتاب متمسكون وعليه يعولون ؟ لم يثبت أن لديهم كتابا بذلك يستمسكون به .

٢٢ – (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) :

(١) سورة «ق» الآية ١٨

هذا إبطال لما يزعمون ،أى أنهم لم يأتوا بحجة أو دليل من النقل أو العقل يؤيد ما ذهبوا إليه وزعموه ، بل إنهم اعترفوا بأنه لا سند لهم ولا حجة لديهم ولا أثارة من علم عندهم سوى أنهم قلدوا آباءهم وأسلافهم فيما اعتقدوه ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على ملة وطريقة وإنا تابعناهم وسايرناهم على نهجهم وطريقتهم ، وهؤلاء بهذا التقليد قد تركوا التبصر والتدبر فيما يحيط بهم من آيات بينات وحجج واضحات تملأ السموات والأرض بل إنها فى أنفسهم أفلا يبصرون ! ولو تأملوا لهداهم ذلك إلى أن الله - جلت قدرته - هو الحقيق أن يعبد وحده دون سواه ، وأن ينزه عن الأولاد ذكورًا أو إناثا .

٢٣ - (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) :

أى : وكما سار هؤلاء الكفار على نهج آبائهم وطريقتهم فى عبادة غير الله ولم يأتوا بدليل ولا حجة تؤيد ما زعموا ، كذلك كان الشأن بالنسبة للأمم السابقة ،أى إن هؤلاء ليسوا بدعاً فى هذا الزعم الكاذب ، فما بعثنا قبلك من نذير يحذر قومه مغبة كفرهم وضلالهم، ويدعوهم إلى توحيد ربهم إلا قال مترفو هذه الأمم الذين أبطرتهم النعمة وأعمتهم الشهوات عن النظر فيما جاء به المرسلون وأنفوا أن يكونوا تبعاً لغير شهواتهم قالوا : إنا وجدنا آباءنا وأسلافنا على دين وطريقة وإنا مقتدون ومتأسون بهم ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى طلب الحق والوقوف عنده بل آثروا الدعة والنعيم فى الدنيا ، ولم يتفكروا فيما يصيبهم من خزى الآخرة وعذابها .

وتخصيص المترفين بالذكر مع أن غيرهم مثلهم فى عبادتهم وتقليدهم لآبائهم - تخصيصهم بالذكر - لأنه يفيد بطريق الأولى أن غيرهم ممن هم دونهم تبع لهم .

* (قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ) : قال : أتقلدون آباءكم ولو جئتكم بأكثر هدى مما وجدتموهم عليه ؟! وسيأتى فى الشرح مزيد إيضاح .

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : فتأمل كيف كانت عاقبتهم .

التفسير

٢٤ - (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) :

حكى الله قبل هذه الآية أنه - تعالى - ما أرسل فى قرية من نذير إلّا قال مترفوها : إنّا بما أرسلتم به كافرون ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لحكاية بقية ما جرى بين الرسل المنذرين السابقين وبين أممهم ، تسلية لنبيه محمد ﷺ عن قول قريش فى آية سبقت هذه القصة مباشرة: (إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)[1]

ومعنى الآية : قال كل نذير من الرسل السابقين لقومه : أتهتدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم من الضلالة ؟ قالوا لرسلهم : إنا ثابتون على دين آبائنا (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) .

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٢٢ .

وعبر بقوله : (بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) مع أنهم ليسوا على شيء من الهدى مجاراة لقولهم : إنهم على هدى ، أو أفعل التفضيل هنا على غير بابه ، والمراد أن ما جاءهم به هو الهدى دون ما عليه الآباء .

٢٥ - (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

فانتقمنا من الأمم المكذبة لرسلها بعذاب الاستئصال ، فتأمل - أيها الرسول - كيف كانت عاقبة المكذبين لرسلهم ، وسوف يلاقى قومك مثل جزائهم إن أصروا على كفرهم فلا تحزن عليهم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) : براء : مصدر بَرِئَ ، بمعنى تباعد ، والوصف منه : برىء ، ويستعمل براء بدلًا من برىء للمبالغة فى البراءة ، ولا يثنى ولا يجمع كشأن المصادر ، فيقال : رجلان بَرَاء ورجالٌ بَرَاء ، أمَّا بَرِىء فيثنى ويجمع فيقال : بريئان وبريئون وبرآء .

(إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى)[1] أى : ابتدأنى واخترعنى ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى : ابتدأتها . ولفظ « إلَّا » فى قوله : (إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) بمعنى لكنْ .

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ) : وجعل الله ، أو جعل إبراهيم كلمة التوحيد المفهومة من قوله : (إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى) - جعلها - كلمة باقية فى ذرية إبراهيم .

---

(١) فطر : من باب نصر .

التفسير

٢٦ ، ٢٧ - (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) :

الكلام فى قصة إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه وقومه ، تمهيد لما فيه أهل مكة من العناد والحسد والابتعاد عن تدبر الآيات ، وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى بالتقليد الأفضل الأعلم الذى يفتخرون بالانتماء إليه ، وهو إبراهيم - عليه السلام - فكأنه بعد لومهم على التقليد لغيرهم يلومهم على تخصيص آبائهم الوثنيين بالتقليد ، وترك تقليد أبيهم إبراهيم الذى ترك فيهم كلمة التوحيد .

ومعنى الآيتين : واذكر - أيها الرسول - لقومك وقت قول إبراهيم - عليه السلام - لأبيه آزر وقومه : إننى برئ أشد البراءة مما تعبدونه من دون الله ، لكن الذى خلقنى وابتدعنى فإنه سيهدينى بعد توحيده إلى سواه من المعارف الإلٰهية .

٢٨ - (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

وجعل الله - أو إبراهيم - كلمة التوحيد التى دان بها إبراهيم بين أبيه وقومه الوثنيين - جعلها - باقية فى ذريته ، حيث أوصى بها بنيه ويعقوب ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ » الآية ١٣٢ .

وقد قامت ذريته من الأنبياء والصالحين والمتأملين فى آيات الله فى الجاهلية - قامت ذريته - بالدعوة إلى التوحيد ، لكى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد الله - تعالى - ومن هؤلاء الموحدين فى الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد دان بالتوحيد مخالفًا قومه ، وفى ذلك يقول :

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب أَدِينُ إذا تقسمت الأُمور

تركت اللّات والعُزّى جميعًا كذلك يفعل الرجل الخبير
فَلَا العُزّى أدين ولا ابْنَتَيْهَا كذلك يفعل الرجل الخبير
وَلَا هُبَلًا أزور وكان ربًّا لنا فى الدّهر إذ حُلْمِى(1) صغير

وقال أُمية بن أبى الصَّلت :

إلٰهُ العَالَمِينَ وكل أرض ورب الرَّاسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شِـــدَادا بلا عمد يُرَيْنَ ولا رجال
وسواها وزينها بنـــور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شُهُب تلألأُ فى دجاها مراميها أشد من النصال
وشق الأرض فانبجست عيونًا وأنهارا من العذب الزلال
وبارك فى نواحيها وزكّى بها ما كان من حَرْث ومال
وكل مُعَمَّر لابد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوال
وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال
وحل المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

* * *

(1) حلمى صغير – بضم الحاء – أى : عقلى صغير .

(بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(جَآءَهُمُ الْحَقُّ) : القرآن .

(وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) : ورسول ظاهر الرسالة ، من أبان ، بمعنى : اتضح وظهر ، ويستعمل لازمًا كما جاء هنا ، ومتعديًا كقولك : أبنت الكلامَ ، أى : أوضحته .

(عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) : على رجل من إحدى القريتين عظيم بالمال والجاه ، والمراد بالقريتين مكة والطائف .

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) : أهم يعطون النبوة التى هى نعمة ربك - أهم يعطونها - لمن يشاءون ، فأى شأن لهم بها ؟! .

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا) : ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، فيكون بعضهم سببًا لمعاش بعض .

التفسير

٢٩ـ (بَلْ[١] مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَآبَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ) :

أى : بل متعت أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ وآباءهم بالإمهال فى الدنيا والنعمة ، وهم على ما هم عليه من الوثنية ، حتى جاءهم القرآن بالتوحيد وهو الحق من ربهم ، وجاءهم رسول ظاهر الرسالة من عند الله تعالى ، بما أيدناه به من المعجزات الباهرات ، وكان عليهم أن يتركوا ما هم عليه من الوثنية والاشتغال بمتاع الحياة الدنيا ، بعد أن جاءهم الحق الذى كان عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ على لسان الصادق الأمين ، ولكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للطهر من أدران الماضى والرجوع عنه ـ جعلوه ـ سببًا للتوغل فيما كانوا عليه من ضلال مبين ، ووصف هذا الحق بأنه سحر مبين ، وكفروا به ، كما حكاه الله بقوله :

٣٠ـ (وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) :

وحين جاء قريشًا القرآنُ الذى هو حق من ربهم ليخلصهم من ضلالهم ، ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا شرًا ، وضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به ، فسموا القرآن سحرًا وكفروا به ، واحتقروا رسول الله ﷺ وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣١ـ (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ) : مكـة والطائف . (عَظِيمٍ) : فى قومه بالرياسة والجاه والمال ، يعنون بهذا الرجل الوليد بن المغيرة المخزومى من مكة ، وحبيب بن عَمْرو بن عُمَيْر الثقفى من الطائف .

وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى ، وكان الوليد رجلًا ثريًا له رياسة وجاه فى قومه بمكة ، وكانوا لذلك يسمونه ريحانة قريش ، وكان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقًّا لنزل علىَّ أو على أَبى مسعود ـ يقصد بأَبى مسعود عروة بن مسعود الثقفى ، وكان يكَنَّى بأَبى مسعود .

---

(١) بل للإضراب الانتقالى من قوله ـجل شأنهـ : « لعلهم يرجعون » إلى مجىء الحق وكفرهم به ، فكأنه قيل : بل لم يرجعوا إلى الحق بل كفروا به ، كما سيتضح من الشرح التالى .

وهذا لون آخر من إنكارهم للنبوة ، وذلك أنهم أنكروا أولًا أن يكون النبي بشرًا ، ثم لما بُكِّتوا بتكرير الحجج على أن النبوة لا يصح أن تكون من الملائكة ، بل يجب أن تكون من البشر ، ولم تعد لهم حجة على دعواهم أن يكون الرسول مَلَكًا ـ لمَّا حدث ذلك ـ جاءُوا بالإنكار من وجه آخر ، فتحكموا على الله أن يكون الرسول أحد هذين الرجلين .

وتعبيرهم عمَّا جاء به الرسول بكونه قرآنًا ، ليس من باب اعترافهم به ، بل هو من باب الاستهانة ، وكأَنهم قالوا : لو كان هذا الذى يدعيه محمد قرآنًا حقًّا من عند الله لنزل على أَحد هذين الرجلين .

وما كان محمد ﷺ بأَقل منهم شرفًا ، فهو من أعظمهم حسبًا ، ولا ينقص من قدره أنه كان قليل المال ، وقد غفل هؤلاء المنكرون عن أن الرسالة إنما تستدعى عظيم النفس ، بالتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل وعلو الهمة ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية ، ولذا دانت لمحمد ﷺ الجزيرة العربية فى حياته ، ومكن الله لدينه فى أنحاءِ الأَرض ، واستخلف أُمته على كثير من بقاعها ، وفاءً بوعده تعالى : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ . . . »(1)

٣٢ ـ (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) :

فى هذه الآية استنكار وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن على من أرادوا ، والرحمة يجوز أن يكون المراد منها عمومها وتدخل النبوة فيها ، ويجوز أن يراد منها النبوة ، وعلى هذا يكون المراد من قسم الرحمة إعطاءها لا تقسيمها ، أما على المعنى الأَول فالمراد من قسمها تقسيمها وهو الظاهر .

والمعنى : أَلَهُمْ حَقٌّ فى تقسيم رحمة ربك فيجعلوا قسمًا منها وهو النبوة لمن أرادوا ؟ نحن قسمنا من رحمتنا أَسباب معيشتهم فى الحياة الدنيا ، قسمة تقتضيها الحكمة ، ولم نفوض

(١) سورة النور ، من الآية : ٥٥ .

أمرها إليهم ، لعجزهم عن تدبيرها ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة فى الرزق وغيره من مظاهر الحياة ، فمنهم ضعيف وقوىٌّ ،وغنىٌّ وفقير ، ورئيس ومرءوس ، وحاكم ومحكوم ، ليسخر بعضهم بعضًا فى مصالحهم ، ويستخدموهم فى مهنهم حتى يتعايشوا ، لا لكمال فى الموسع عليه ، ولا لنقص فى المقتر عليه ، فنحن الذين نقسم رحمتنا لا هم ، ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لهلكوا .

فإذا كانوا فى تدبير خاصة أمرهم بهذا العجز ، فما ظنهم بتدبير أمر الدين ؟! ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة التى هى من رحمة الله ، واختيار مَنْ يصلح لها ويقوم بأمرها ، ورحمة ربك بالنبوة ومايتبعها من سعادة الدارين ، أو رحمته بالهداية إلى الإيمان خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالعظيم من رُزق تلك الرحمة دون حطام الدنيا ،فلا وجه لتعاليكم على محمد بمال أو بجاه .

(وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) : ومصاعد عليها يصعدون إلى عوالى قصورهم .

(وَسُرُرًا) : جمع سرير ، ويطلق على مكان النوم المعروف ، وعلى الكرسى الذى يجلس عليه ، وهو المراد هنا ، ولذا جاء بعد السرر . قوله ـ سبحانه ـ : (عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ) .

(عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) أى : يتربعون ، ومنه قوله ﷺ : « أنا لا آكُلُ متَّكِئًا » أى : متربعًا على الهيئة التى تدعو إلى كثرة الأكل ، وكان يأكل مستوفزًا غير متربع ولا متمكن ، وليس المراد به الميل على شق كما يظنه بعض عوام الطلبة . انتهى من القاموس .

ويطلق السرير أيضًا على الملك والنعمة وخفض العيش ، إلى غير ذلك من المعانى التى ذكرها صاحب القاموس .

(وَزُخْرُفًا) أى : نقوشًا وتزاويق ، أو ذهبًا ، وسيأتى فى الشرح ما قيل فى ذلك .

(لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : لمَّا هنا بمعنى إلَّا .

التفسير

٣٣ - (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) :

الآية استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا عند الله ، ودناءة قدره عنده جل وعلا .

ومعنى الآية : ولولا أن يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ، ومصاعد من فضة عليها يصعدون إلى طبقات قصورهم ، لأنهم يحبون الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، وما ذلك إلَّا متاع الحياةِ الدنيا وهو مع كونه نعمة حقير عند الله فيمنحه الحقير عنده وهو الكافر ، وإن كان لا يستحق النعمة ، ولكننا لم نفعل ذلك حتى لا يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر ، حيث يفتتن المؤمنون الفقراء بغناهم فيكفرون كما كفر هؤلاء ، لهذا جعلنا فى كل من الكفار والمؤمنين أغنياء وفقراء ، حتى يعلم الناس أن الغنى ليس دليلًا على رضوان الله وحبه ، وأن الفقر ليس دليلًا على سخط الله وكراهيته ، وحتى يكون الناس طبقات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخْريًّا .

٣٤ - (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) :

أى : ولجعلنا لبيوت الكفار أبوابًا من فضة وسررا من فضة عليها ينامون أو يجلسون[1] ، لهوان متاع الدنيا عندنا فلا نعبأ بأن نعطيه من لا يستحقه ، لينالوا عذابهم فى الآخرة .

---

(١) راجع المفردات .

٣٥ - ﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ :

قال الحسن : الزخرف : النقوش والتزاويق ، وقال ابن زيد : هو أثاث البيت وتجملاته وقال ابن عبّاس : الزخرف : الذهب ، وقال الراغب : الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ، وقال صاحب المختار : الزخرف : الذهب ، ثم يشبه به كل مُمَوَّه مزوق .

والمعنى : ولجعلنا لبيوت الكفار نقوشًا وزينة من ذهب وغيره ، وما كل ذلك من البيوت وزخارفها إلّا متاع الحياة الدنيا ، والآخرة بما فيها من نعيم يعجز الواصفون عن وصفه ، خالصة للمتقين الذين اجتنبوا الكفر وسائر المعاصى .

وفى الآية تزهيد فى متاع الدنيا وزخارفها ، والحث على التقوى ، وقد أخرج الترمذى وصححه وابن ماجة عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانتِ الدنيا تُساوِى عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَى منها كافرًا شَرْبَةَ ماءٍ » .

وفى صحيح الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا سِجنُ المؤمِنِ وجنّةُ الكافِرِ » .

وعن على - كرم الله وجهه - : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب فى يد مجذوم .
وقال بعض الشعراء :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذًا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال آخر

إذا أبقت الدنيا على المرءِ دينه ... فما فاته منهـــا فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن زَقٍّ من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثوابًا لمحسن ... ولا رضى الدنيا عقابًا لكافر

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(وَمَن يَعْشُ) – بضم الشين – أصله : يعشو مضارع عشا فجزم بحذف واوه[1] ، ومعناه ومن يَتَعَامَ ويعرض وليس بأعمى ، وقرىء « وَمَن يَعْشَ » (بفتح الشين) وماضيه عَشِيَ كرضي يرضى ، ومعناه يعمى لفقد بصره ، انظر الآلوسي .

(نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) : نُتِحْ ونسبب له شيطانًا جزاءً على كفره .

(بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) : مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإنهما متباعدان ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ »[2] وقال الفراءُ : أراد المشرق والمغرب ، فغلب اسم أحدهما كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعُمَران لأبي بكر وعمر .

(فَبِئْسَ الْقَرِينُ) : فبئس الصاحب .

التفسـير

٣٦ـ (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) :

المراد بالذكر هنا إما القرآن ، وإضافته إلى الرحمن ، للإيذان بنزوله رحمة للعالمين ،

---

(١) لأنه فعل الشرط .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ١٧

وإما مصدر ذكر ، أى : ومن يَتَعَامَ عن أن يذكر الرَّحْمٰن نُتِحْ ونسبب له شيطانًا يستولى عليه استيلاء القَيْضِ على البيض ، والقيض : قشر البيضة الخارجى .

ومعنى الآية : ومن يَتَعَامَ ويعرض عن القرآن الذى أنزله الرحمن ، أو عن أن يذكر الرَّحْمٰن وألوهيته ونعمه ، فانغمس فى كفره ومعاصيه ، نجعل له شيطانًا جزاءً له على كفره ، فهو قرين له فى الدنيا ، يمنعه من الواجب والحلال ، وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ، فهو مصاحب له فى الدنيا لإغوائه ، وفى الآخرة حتى يدخل معه النار ، جزاءً له عن تعاميه أو عماه عن ذكر الرَّحْمٰن .

وقد جاء فى الخبر : « إن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار ، وإن المؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه » .

٣٧- (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) :

ذكر ضمير الكافر هنا بلفظ الجمع ، لأن (مَنْ) فى قوله : (وَمَن يَعْشُ) جَمْعٌ فى المعنى وإن كان مفردًا فى اللفظ .

والمعنى : وإن الشياطين ليصدون فى الدنيا قرناءهم من كفرة الإنس ، ويحسب هؤلاء الكفار أنفسهم أنهم مهتدون ، وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

٣٨- (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) :

أى : ويستمر هؤلاء الكفار معرضين عن ذكر الله ، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه قال الكافر للشيطان المقارن له : يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين[1] ، حتى لا أستمع إغواءك فبئس الصاحب أنت .

٣٩- (وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) :

هذه الآية حكاية ما يقال لهم من جهة الله تعالى .

---

(١) تقدم فى المفردات بيان المراد من المشرقين فارجع إليه .

والمعنى : ولن ينفعكم يوم القيامة تمنيكم بُعْدَ الشياطين عنكم فى الدنيا بُعْدَ المشرقين ، – لن ينفعكم ذلك – حين تبين لكم أنكم ظلمتم أنفسكم باتباعكم إياهم ، لأنكم فى العذاب مشتركون كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا .

وقال سيبويه : (إذ) فى قوله : (إذ ظَّلَمْتُمْ) حرف جيء به للتعليل وليست ظرفًا ، والمعنى عليه : ولن ينفعكم تمنيكم بُعْدَ الشياطين المقارنين لكم – لن ينفعكم– يوم القيامة فى أنكم وإياهم فى العذاب مشتركون ، لأنكم جميعًا ظلمتم أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى. والكلام فى هذا الموضوع طويل ، وحسب القارىء ماتقدم .

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ) : فَدُمْ على العمل بالقرآن الذى أُوحى إليك .

(إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : فإنك على طريق لاعوج فيه .

(وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) : وإن القرآن لشرف لك ولقومك .

التفسير

٤٠ - (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

كان رسول الله ﷺ يبالغ فى دعوة قومه إلى الحق ويبذل فى ذلك جهده ، وهم لا ينفكون عن شركهم ، بل يتوغلون فى غيهم وتعاميهم عمًّا يشاهدونه من شواهد النبوة ، ويَتَصامون ويتعامون عن بينات القرآن ، فهم كالصم العمى ، فنزلت هذه الآية لتسلية النبى ﷺ عن همه وضيقه لعدم استجابتهم .

ومعنى الآية : أفى قدرتك هداية هؤلاء المعاندين ، فأنت تسمع الصم الذين لا يسمعون أو تهدى العمى الذين لا يبصرون ومن كان فى بعد عن الطريق المستقيم ، إن ذلك ليس لك أيها النبى ، بل هو لله العلى القدير ، فهو الذى يرد السمع للصم الذين لا يسمعون ويرد البصر للعمى الذين لا يبصرون ، ويهدى أَهْلَ الضلال إلى الصراط المستقيم ، فلا يضق صدرك بتصاممهم وتعاميهم وضلالهم ، فقد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة على أتم وجه ، فما عليك إلَّا البلاغ المبين ، وقد فعلت .

٤١ ، ٤٢ - (فَإِمَّا[1] نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ) :

أى : فإما أن نقبضك إلينا - كما تمنوا - قبل أن نُبَصِّرك عذابهم ، ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين فإنا لا محالة منهم منتقمون فى الدنيا والآخرة ، أو نتركك حيًّا نُبَصِّرك بالعذاب الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، بحيث لا مناص لهم من تنفيذ وعدنا ولا ملجأ يقيهم من قدرتنا وقهرنا .

وهكذا كان ، فإنه لم يفلت أحد من صناديدهم فى غزوة بدر وغيرها إلَّا من اعتصم بالإيمـــان .

---

(١) أصلها فإن ما فأدغمت النون فى الميم ، ولفظ (ما) للتوكيد ، وهى تقتضى توكيد الفعل بعدها بنون التوكيد مثل لام القسم ، نحو : لأصومن ، وما يعطف على فعلها يؤكد مثله ، ولذا أكد نتوفى فى قوله تعالى : « أو نتوفينك » من الآية : ٧٧ من سورة غافر .

٤٣، ٤٤ - (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ) :

خطاب للنبى ﷺ ولأُمته تبعًا له ، لأنه إمامهم ، وفيه تسلية له ﷺ على ما يرى من عناد قومه ، وتقوية لمـا هو عليه من الاستمساك بوحى ربه .

والمعنى : إذا كان أحد هذين الأمرين واقعًا بقريش المعاندين لك ، فدم على الاستمساك بالقرآن الذى أُوحى إليك من ربك ، لأَنك على صراط مستقيم يوصلك إلى مرضاة الله تبارك وتعالى ، ولا تهتم بمعارضتهم ، واستمر على دعوتهم .

وإن القرآن لشرف لك ولقومك وللعرب جميعًا ، فقد نزل بلغتهم على نبى منهم ، وكل من آمن من الشعوب غير العربية تعلموا لغة العرب لكى يفهموا لغة القرآن والمرادَ منه أمرًا ونهيًا ، وجميع مافيه من الأَنباءِ ، فشرفوا بذلك .

وكما أنه شرف للعرب فهو شرف لكل من آمن به ، فإنه دستور الحق الإلٰهى ، أخرج الطبرى عن ابن عباس قال : أَقبل النبى ﷺ من سرية أَو غزاة ، فدعا فاطمة فقال : « يا فاطمة اشترى نفسك من الله ، فإِنى لا أُغنى عنك من الله شيئًا » وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ، ثم قال نبى الله ﷺ : « ما بنو هاشم بـأَولى الناس بـأُمتى ، إن أَولى الناس بـأُمتى المتقون ، ولا قريش بـأَولى الناس بـأُمتى ، إن أَولى الناس بـأُمتى المتقون ، ولا الأَنصار بـأَولى الناس بـأُمتى ، إن أَولى الناس بـأُمتى المتقون ، ولا الموالى بـأَولى الناس بـأُمتى ، إن أَولى الناس بـأُمتى المتقون ، إنما أَنتم من رجل وامرأَة[1] وأَنتم كجِمام[2] الصاع ، ليس لأَحد فضل على أحد إلَّا بالتقوى » .

وأخرج الطبرى أَيضًا عن أَبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينتهينَّ أَقوام يفتخرون بفحم من فحم جهنم ، أَو يكونون شرًّا عند الله من الجعْلان[3] التى تدفع النتن

---

(١) أى : من آدم وحواء .

(٢) الجمام : ما فوق المكيال من الطفاف .

(٣) الجعلان - بكسر الجيم - جمع جعل - بفتحها - وهو دويبة حقيرة .

بأنفها ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب ، إن الله أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية[١] وفخرها بالآباء ، الناس مؤمن تقى وفاجر شقى » .

وفسر بعضهم الذِّكر بالتذكير ، أى : وإن القرآن لتذكير لك ولقومك .

ثم ختم الله الآيتين بقوله : (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) أى : وسوف تسألون يوم القيامة عن القرآن الذى شرف الله به قومك ، أى : تسألون عن القيام بحقوقه .

٤٥ ـ (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) :

كانت قريش تعبد الأوثان زاعمة أنهم يتقربون بعبادتها إلى الله ، وذلك ما حكاه الله بقوله : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٓ »[٢] . وقد كذبوا ، فأى صلة بين أحجار لا تضر ولا تنفع وبين الله الخالق الرازق ، حتى يتقربوا بعبادتها إليه سبحانه : « وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ »[٣] والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد .

ولمَّا دعاهم النبى ﷺ أن يتركوا عبادتها إلى عبادة الله تعالى وحده ، عجبوا من ذلك وقالوا ما حكاه الله عنهم فى سورة صٓ بقوله : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ »[٤] . ولما أفهمهم أن الله لا يرضى عن ذلك وأن الكتب السماوية مجمعة على تحريم عبادتها وتكفير من يعبدها قالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ »[٥] وقصدوا بالملة الآخرة النصرانية ، وأهلها يتعبدون بالعهد القديم الشامل للتوراة ، والعهد الجديد الذى هو الإنجيل ، وقد كذبوا فالتوراة والإنجيل حرما عبادة غير الله تعالى ، وقد أمر موسى قومه بمحاربة الوثنيين فى الأرض المقدسة ، فامتنعوا لجبروت هؤلاء الوثنيين ، وقالوا لموسى: « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »[٦] فحبسهم الله فى التيه

(١) أى : العيب الذى كان فى الجاهلية فى الأحساب ، بأن يحط المفتخر من افتخر عليه بالطعن فى حسبه .
(٢) سورة الزمر ، من الآية : ٣
(٣) سورة ص ، من الآية : ٦٥
(٤) الآية رقم : ٥
(٥) سورة ص ـ الآية رقم : ٧
(٦) سورة المائدة ، من الآية : ٢٤

أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، حتى نشأ جيل جديد أقوى إيمانًا وإقدامًا من آبائهم ، ففتح بهم أريحا وسائر البلاد المقدسة .

والأمر فى قوله تعالى : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا » موجه إلى الرسول ﷺ والمعنى على هذا : واسأل أيها الرسول أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا ، أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين ، قال الفراء : إنما يخبرون عن كتب الرسل ، فإذا سألهم النبى ﷺ ، فكأنه سأل المرسلين – عليهم السلام – وعلى الوجهين السؤال موجه إلى الأمم ، ولكنه بمنزلة سؤال الرسل ، لأنهم يحكون ما جاء فى كتبهم .

وروى ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى وعطاء ، وهو إحدى روايتين عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال فى بعض القراءات : « واسأل من أرسلنا إليهم رسلنا قبلك » ، وروى أن فى قراءة عبد الله بن مسعود « واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا » والقراءتان المذكورتان شارحتان للمراد من هذه القراءة .

ومعنى الآية على هذا الوجه : واسأل أيها الرسول المرسلين قبلك فى شخص أممهم لتسمع قريشا إجابتهم – اسألهم – أجعلنا فى كتبهم من غير الرحمٰن آلهة يعبدون ، فسيقولون : لا معبود فى كتبنا سواه ، فأنت لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد – لم تأتهم – بأمر ابتدعته أنت ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين .

وأمر الرسول ﷺ بسؤالهم ، كناية عن أمر قريش بسؤالهم ، فهو من باب قولهم : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ويصح أن يكون الأمر بالسؤال موجهًا إلى كل واحد من قريش وليس موجهًا إلى الرسول ﷺ وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا : (أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ليعلموا الحقيقة حتى لا يقولوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

وعلى هذا يكون أسلوب القرآن مع قريش فى هذا الموضوع له طريقتان :

(إحداهما) أن يكون الخطاب موجهًا إلى جماعتهم ، وذلك فى قول الله تعالى : « فَاسْأَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] .

(وثانيهما) أن يكون موجهًا إلى كل واحد منهم ، وذلك فى قوله تعالى هنا : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَآ) .

وفى كلا الوجهين من البلاغة ما فيه ، فقد جعل سؤال أمم الرسل سؤالًا لنفس الرسل ، لأنهم سيجيبون من كتبهم ، والله تعالى هو الموفق .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَمَلَئِهِ) أى : وأشراف قومه ، وخصوا بالذكر ؛ لأنهم بطانته وجلساؤه ، وغيرهم تبع لهم ، وقد يطلق الملأ على الجماعة كما فى المختار .

(بِمَا عَهِدَ عِندَكَ) : بعهده عندك أننا إن آمنا كشف عنا العذاب .

(إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) أى : فى المستقبل .

(ينكُثُونَ) : ينقضون العهد .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٤٣

التفسير

٤٦ ، ٤٧ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ) :

لَمَّا أعلم الله النبي ﷺ أنه منتقم له من أعدائه ، وأقام لهم الحجة باستشهاد الأنبياء السابقين واتفاق الكل على التوحيد ، أكد ذلك بقصة موسى وفرعون ، وأنه دعاه وقومه إلى التوحيد ، فلما كذبوه أغرقهم الله - تعالى - ، كما فيه إبطال قولهم : (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) لأن موسى لم يكن لديه من زخارف الدنيا شيء ومع ذلك بعثه الله إلى فرعون وهو ملك جبار ، وإلى قومه وهم أيضًا جبابرة - بعثه الله إليهم - ليدعوهم إلى التوحيد كما يدعو محمد قومه إليه ، فليس الفقر بمانع من إرسال أصحاب النفوس الزكية برسالات ربهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى - عليه السلام - مع أنه كان فقيرًا - أرسلناه - إلى ملك جبار هو فرعون ، وإلى قومه ، ولم تبلغوا أنتم يا أهل مكة شيئًا يذكر مما كانوا فيه من العظمة ، فقال لهم : إني رسول رب العالمين إليكم ، فلما جاءهم بآياتنا التسع[1] المؤيدة له ، فاجئوا أول ما رأوها بالضحك استهزاء وسخرية ولم يتأملوا فيها ، يوهمون أتباعهم أنها سحر وتخييل ، وأنهم قادرون على إبطالها .

ولعلهم كانوا يضحكون من الآية الأولى قبل أن يروا آثارها ويعلموا جديتها ، فلما ابتلعت عصاه سحرهم لم يكن هناك سبب لضحكهم ، وبخاصة بعد أن غمرهم الطُّوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، واتضح لهم أنه حينما ينذرهم يقع إنذاره إن لم يسلموا ، ولذا كانوا يتضرعون إليه ليزيل عنهم ما نزل بهم ، كما سيجيء .

٤٨ - (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) :

---

(١) وهي : عصاه ويده والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ونقص الزروع والأنفس والثمرات .

السابقة عليها ، وقيل: معناه أن الأُولى تقتضى علمًا والثانية تقتضى علمًا ، فبضم الثانية إلى الأُولى يزداد الوضوح ، ومعنى أُخوة الآية للأُخرى أنها قريبة منها فى المعنى ، ومشاكلة لها فيه .

وقد ختم الله الآية بقوله: (وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : وأخذناهم بالعذاب المتدرج المتكرر الذى تشتمل عليه تلك الآيات ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر ، ولم نعاجلهم بالعذاب المستأْصل .

٤٩ - (وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) :

نادوا موسى فى الأَعراف باسمه ، كما حكاه الله تعالى فيها بقوله : « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] ونادوه هنا بقولهم : (يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ) ويحمل ذلك على أنهم نادوه مرة باسمه ، ونادوه مرة أُخرى بـ (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) أو أن فريقًا منهم ناداه بغير ما ناداه به فريق آخر .

وكان علم السحر هو العلم العظيم عندهم ، وكانوا يعظمون السحرة لذلك ، فنادوه بـ(يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) تعظيمًا له ، فكأَنهم قالوا : يـٰأَيها العالم ، قال ابن عباس : (يَـٰٓأَيُّهَا السَّاحِرُ) يـٰأَيها العالم ، وهذا هو رأْى الجمهور .

وقيل : هو من قولهم : ساحَرْتُه فسحرتُه ، أى : غلبته بالسحر ، كما يقال : خاصمته فخصمته ، أى : غلبته فى الخصومة ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يـٰأَيها الذى غلبنا بسحره ، وقيل : خاطبوه بما كانوا يخاطبونه من قبل ، وكان مقتضى طلبهم منه رفع الرِّجز عنهم بدعاءِ ربه أن لا يخاطبوه بذلك ، إلَّا أنهم سبق لسانهم إلى ماتعودوه فى خطابهم له ، وقيل غير ذلك ، والمعنى الأَول أرجح .

ومعنى الآية : يـٰأَيُّهَا العالم : ادع لنا ربك بما أخبرتنا عن عهده إليك أننا إن آمنا يكشف عنا العذاب - ادعه - لينفذ وعده ؛ إننا لمهتدون مستقبلًا بعد زوال العذاب .

---

(١) الآية : ١٣٤ .

وقد فسر هنا اهتداؤهم بأنه يكون فى المستقبل ، بعد زوال العذاب ، ليطابق ماجاء فى سورة الأعراف : « لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » أى : إننا لمؤمنون لك مستقبلا على سبيل الاستمرار الذى يقتضيه التعبير بالاسم « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » .

٥٠ - (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) :

أى : فدعا موسى ربه فكشف العذاب عنهم ، فلما كشفه فاجئوا بنقض العهد الذى قطعوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

(وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مِن تَحْتِى) : من تحت قصرى ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(مَهِينٌ) : ضعيف حقير ، أو مبتذل ذليل ، فهو من المهانة بمعنى الذلة والحقارة ، والابتذال .

(وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) : ولا يكاد يفصح عمَّا فى فؤاده .

(أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ) : جمع سوار ، وهو كالحلقة من ذهب أو فضة تزين به الأيدى .

التفسير

٥١ - (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

نداءُ فرعون فى قومه إن كان على الحقيقة فيكون قد جمع أشراف قومه ، ورفع صوته بما قاله ، والأشراف يبلغون نداءه إلى أتباعهم ، وإن كان على المجاز كان المعنى : نادى رجاله فى قومه بأمره ، وذلك كقولهم : هزم الأمير أعداءه ـ وهو فى قصره ـ يعنون أن جنوده هم الذين هزموا الأعداء ، ولكونه هو الآمر للجنود أسند الفعل إليه .

ومعنى قوله : « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ » أن بيده تصريف أمورها ، ويعنى بمصر القطر كله ، من الإسكندرية إلى أسوان ـ كما فى البحر ـ والأنهار كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس ونهر طولون ، وهو نهر قديم كان قد اندرس ، فجدده أحمد بن طولون ، وكان قصره عند مبدأ هذه الخلجان ، فلذلك قال : (وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى) أى : من تحت قصرى وقال قتادة : كانت له جنان وبساتين بين يديه تجرى فيها الأنهار .

وفسر الأنهارَ بعضُهم بالأموال ، يريد أن أمواله تشبه الأنهار فى كثرتها ، وجريانُها من تحته كناية عن خروجها وانتشارها من تحت أمره ، أو من خزائنه التى وضعها فى قصره تحت سكنه .

ولا يخفى ما بين افتخار هذا اللّعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد .

ومعنى الآية : ونادى فرعون فى قومه أهل القطر المصرى متباهيًا ومفتخرًا : أليس لى ملك مصر بأقاليمها وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أتغفلون فلا تبصرون عظمتى وقوتى وضعف موسى وفقره ، فلا يغرنّكم ما يأتى به من السحر .

٥٢ ـ (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) :

بل أنا فى عظمة ملكى خير من هذا الذى هو ضعيف حقير ولا يكاد يفصح عمّا فى فؤاده ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ به عقدة فى لسانه منذ طفولته ، ولازمته إلى ما قبل النبوة ، فلمّا جاءته الرِّسالة طلب من ربه حلها بقوله : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُواْ قَوْلِى »[1] فاستجاب الله له وحَلَّ عقدته ، فعيره اللّعين بالحبسة التى كانت فى لسانه أيّام كان عنده ،

---

(١) سورة طه : ٢٧ ـ ٢٨

ولـمَّا حلت عقدته كان يناظر فرعون ويقيم عليه الحجة ، وكان أخوه هارون -عليهما السلام- يصدقه ويؤازره فى مناظرته ودعوته .

٥٣ - (فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَآئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) :

قال القرطبي : إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف ، ثم نقل عن مجاهد وله : كانوا إذا سوَّدوا رجلًا[1] سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته ، فقال فرعون : هلَّا ألقى رب موسى عليه أسورة من ذهب إن كان صادقًا .

والمعنى : هلَّا جعل رب موسى لموسى أسورة من ذهب ليستحق السيادة والشرف الذى يدعيه ، أو ضَمّ إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربه ، حتى يتكثر بهم ويُصَرِّفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب وأدعى إلى تصديقه ، يريد فرعون بهذا الكلام أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك ، تبدو عليهم مظاهر الرياسة وتكون معهم حاشية تقوى رسالتهم وتعظم شأنها ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله لموسى مع تفرده ووحدته - حِفْظَه - من فرعون مع كثرة أتباعه وقوتهم ، وأن إمداد موسى بالعصا واليد البيضاء من غير سوء وغيرهما من المعجزات ، كان أبلغ من أن يكون له أسورة من ذهب أو ملائكة تكون له حاشية وأعوانًا دليلًا على صدقه .

وليس يلزم للرسل ما ذكره فرعون ، لأن الإعجاز كاف ، وقد كان من الجائز أن يُكَذِّب موسى مع وجود الأسورة الذهبية وحضور الملائكة ، كما كذبه مع ظهور الآيات .

وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى بأن لله ملائكة ، وليس عن عقيدة ، لأن من لم يعرف خالقه لا يؤمن بأن له ملائكة .

---

(١) أى : جعلوه سيداً .

(فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) أى : طلب منهم الخفة فى مطاوعته فأَطاعوه ، ومعنى الخفة السرعة فى إجابته ومطاوعته ، كما يقال : هم خفاف إذا دُعُوا ، أَو معناه : وجد عقولهم خفيفة ، أَو استجهلهم ، يقال : استخفه : حمله على الجهل ، ومنه « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

(آسَفُونَا) : أَغضبونا .

(وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) : وعبرة لمن يكفر بعدهم .

التفسير

٥٤ - (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

فحمل فرعون قومه على الجهل لخفة عقولهم ، فطلب منهم الكفر بموسى ، فأَطاعوه ولم يخالفوه لأَنهم كانوا قومًا خارجين عن الحق .

والمراد من قومه جنوده ، لأَن الانتقام كان منهم ، كما جاءَ فى قوله - تعالى - :

٥٥ - (فَلَمَّآ آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أَى : فلمَّا أَغضَبَنَا فرعونُ وجنوده انتقمنا منهم فأَغرقناهم أَجمعين ، لأَنهم تبعوه وأَيدوه فى كفره ، وخرجوا معه لإجبار بنى إسرائيل على العودة إلى خدمتهم .

٥٦ - (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ) :

أى : فجعلنا فرعون وقومه المغرقين متقدمين إلى النار - كما قاله ابن عباس وزيد ابن أسلم وقتادة - أو متقدمين إلى العقاب ، وجعلناهم عبرة للكفار المتأخرين عنهم ، يتعظون بما أصابهم ، أو مثلاً يضرب لمن كفر بعدهم .

* (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) : ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وسروراً .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : شداد الخصومة مجبولون على اللجاج ، يقال : خصم الرجل من باب تعب : إذا أحكم الخصومة فهو خصيم .

(وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) أى : أمرًا عجيباً كالمثل فى غرابته حيث كان من غير أب .

(لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ) : علامة لها ، بنزوله من السماء يُعلم قرب وقوعها .

(فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشكُّن فى قيامها .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) : ظاهر العداوة لكم .

التفسير

٥٧ - (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) :

نزلت هذه الآية والتى بعدها بياناً لعناد قريش بالباطل والرد عليهم . وقد روى أن الضارب لهذا المثل عبد الله بن الزِّبَعْرى السلمى قبل إسلامه ، قال للنبى ﷺ وقد سمعه يقرأ قوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] ... الآية .

أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأُمم ؟ فقال -عليه السلام- هو لكم ولجميع الأُمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول عنه : كان نبيًّا وعبدًا صالحاً من عباد الله ؟ فإن كانَ فى النار فقد رضينا أن نكون وآلهتنا معه ، فعجبت قريش من مقالته وظنوا أن الرسول -عليه السلام- قد أُلزم الحجة . فضجوا وارتفعت أصواتهم فرحاً وبهجة ، وذلك معنى قوله تعالى : (إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) فأنزل سبحانه عندئذ قوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »[2] ردا عليهم وتقبيحاً لقولهم .

وحاصل المعنى : ولما ضَرَبَ ابن الزِّبعرى عيسى بن مريم مثلا وحاجك أيها الرسول بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك المثل ولأجله ترتفع لهم جلبة ، ويعلومنهم ضجيج وضحك حيث زعموا أن ابن الزِّبعرى ألزمك الحجة . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ » الآية تأْييدًا وإبطالًا لحجته ، لأن عيسى - عليه السلام - من الذين سَبَقَتْ لَهُم الحسْنى فأُبعدوا عن النار ، والحجة إذا كانت تسير سير الأَمثال شهرة قيل لها : مثل . وقرئ (يَصُدُّونَ) بضم الصاد ، من الصدود بمعنى الإعراض ، وروى ذلك عن علىّ - كرم الله وجهه - والمعنى عليها : إذا قومك يعرضون عن الحق بالجدال كحجة داحضة واهية .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٩٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١

٥٨ ـ (وَقَالُوٓاْ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) :

حكاية لطرف من المثل المضروب ، أى : أآلهتنا خير أم عيسى ؟ يعنون أن الظاهر عندك أن عيسى خير من آلهتنا ، فحيث كان عيسى فى النار فلا بأس أن نكون مع آلهتنا فيها (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) أى : ماضربوه لك ـ هذا المثل ـ إلا لأجل الجدل والخصام والغلبة فى القول لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ، وفى ذلك إبطال لباطلهم إجمالا . اكتفاء بما فصل فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ » ... الآية ، (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) أى : لُدٌّ شداد الخصومة ، مجبولون على المكابرة وحب المغالبة بحق أو بباطل ولو تأمل ابن الزِّبعرى الآية ما اعترض عليها لأنه تعالى قال : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل ومن تعبدون ؛ لأنه أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ومن عُبد مثله كعزير والملائكة .

٥٩ ـ (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوّة ، فهو رفيع المنزلة علىّ المكانة ، ولكنه لا يستحق أن يكون معبودًا لكونه عبدًا من عباده تعالى ، ولم يكن إلها أو ابن إله كما زعمت النصارى (وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) أى : أمرا عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة حيث كان آية يستدل بها على قدرة الله تعالى ، فإنه كان من غير أب ثم جعل الله له من المعجزات إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك مما لم يجعل لغيره فى زمنه مماحمل بعض الناس على الافتتان به ، والحق أنه بشر جعله الله دليلا على قدرة الله تعالى شأنه ، حيث وُجد من غير أب وهو بشر وكان مثلا لبنى إسرائيل يستدلون به على قدرة خالقه .

٦٠ ـ (وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) :

الآية تذييل لتحقيق أن مثل عيسى ـ عليه السلام ـ ليس ببدع من قدرة الله ، وأنه قادر على ابدع من ذلك وأبرع من خلق عيسى عليه ـ السلام ـ مع التنبيه على أن الملائكة أيضاً

لا تصح عبادتهم من دون الله ، لأنهم مخلوقون لله ، ولا فرق بين المخلوقين توالدًا وإبداعاً فى عدم الصلاح للمعبودية .

أى : لو نشاءُ – لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر – لجعلنا بدلا منكم ملائكة مستقرين فى الأرض كما جعلناهم مستقرين فى السماء ، أو لجعلنا بدلكم ملائكة يخلف بعضهم بعضاً أو يخلفونكم فى عمارة الأرض .

٦١ – (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : الضمير فى (إِنَّهُ) لعيسى – عليه السلام – لأن السياق فى ذكره ، أى : بنزوله يعلم قرب مجيئها ؛ لأنه شَرَطٌ من أشراطها ، واعتباره عِلْماً لها على المجاز بتسمية ما يعلم به عِلْماً ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسّدى وقتادة : إنه خروج عيسى – عليه السلام – وذلك من أعلام الساعة ؛ لأن الله ينزله قبل قيامها ، ويؤيد ذلك القراءة الأخرى وإنه لَعَلَمٌ للساعة – بفتحتين – أى : أمارة ودليل على وقوعها ، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى – عليه السلام – قبل يوم القيامة إماماً عادلا وحكماً مقسطاً . فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير .. » إلخ ، إلى غير ذلك من الأحاديث المذكورة فى كتب الصحاح [1] (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أى : فلا تشكُّن فى وقوعها ، وقال السدى : فلا تكذبون بها ولا تجادلون فيها فإنها كائنة لا محالة (وَاتَّبِعُونِ) أى : واتبعوا أيها المجادلون هداى أو شرعى أو رسولى . وقيل : هو قول رسول الله ﷺ على تقدير (قل) أى : قل لهم : اتبعون فى التوحيد وفيما أبلغكم به عن الله (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : هذا الذى أدعوكم إليه طريق قويم يوصل إلى الجنة .

٦٢ – (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

أى : ولا يَحُولَنَّ الشيطان بينكم وبين اتباعى لأنه عدو لكم بيّن العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة ، ونزع عنه وعن زوجته لباسهما ، وعرّضكم للمحن والبلايا .

---

(١) وقيل : معناه : أنه بحدوثه من غير أب ، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة .

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ) أى : الآيات الواضحة كإحياء الموتى ونحوها من المعجزات ، وقيل : المراد بها هنا الإنجيل .

(قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ) أى : بالنبوّة ، أو الإنجيل ، أو بكل ما يؤدى إلى الإحسان .

(بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) : من الأمور الدينية ؛ لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا .

(صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) أى : طريق لا عوج فيه ، موصل إلى جنات النعيم .

التفسير

٦٣ - (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

استمرار فى رد شبه المجادلين ببيان أن عيسى - عليه السلام - لما جاء من عند ربه بالآيات الواضحات وهى - كما قال ابن عباس - إحياء الموتى وإبراء الأسقام والإخبار بكثير من الغيوب ، أو هى آيات الإنجيل ، أو بما تقتضيه الحكمة من الشرائع ، ولا مانع من إرادة الجميع - لمَّا جاءهم بذلك - قال : قد جئتكم من عند ربى بالحكمة (وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) من أمور الدين وما يتعلق بالتكليف مما اختلفتم فيه بعد تبديل التوراة . أما ما يختلفون فيه

من أمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء - عليهم السلام - كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ في قضية تأبير النخل : « أنتم أعلمُ بأُمورِ دنياكم » .

(فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أى : فاتقوا الله من مخالفتى وافعلوا ما يقيكم من عذابي وأطيعون فيما أبلغكم عن الله - تعالى - وفيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره .

وحاصل المعنى : أن عيسى - عليه السلام - ليس معبودًا كما زعم المجادلون ؛ لأنه لما جاءهم بالآيات الواضحة والمعجزات البينة قال : قد جئتكم بالإنجيل لأدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ولأُبين لكم ما اختلفتم فيه من الأُمور الدينية ، فاتقوا الله واحذروا من مخالفته وأطيعوه فيما دعاكم إليه من التوحيد وغيره مما تستقيم به أموركم .

٦٤ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) :

بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد أنه - سبحانه - لا شريك له ، والتعريف بالشرائع التى جاء بها الأنبياء - عليهم السلام - وهذا المأمور به طريق إلى الله لا عوج فيه ولا يضل سالكه ولا يشقى .

(فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾)

المفـردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ) أى : تفرقوا . والأحزاب جمع حزب ، وهى الفرقةُ المتحزبة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) : فهلاك للذين كفروا وأشركوا ، وويل : كلمة عذاب ، أو واد فى جهنم .

(أن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً) أى : فجأة على غرة .

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أى : وهم غافلون عنها .

التفسير

٦٥ - (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) :

لما ذكر -تعالى- أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق أتبعه ذكر ضلال الفرق المتحزبة من اليهود والنصارى الذين بُعث إليهم ، وهم أمة دعوته ، فقد خالف بعضهم بعضاً فى شأنه . وقيل : المراد فرق النصارى الذين تفرقوا فى شأنه شيعا وأحزابا : من النسطورية والملكانية واليعقوبية ، وقد اختلفوا فيه . فقالت النسطورية : هو ابن إله . وقالت اليعقوبية : هو الله . وقالت الملكانية : ثالث ثلاثة أحدهم الله - فسره الكلبى ومقاتل - وهم أمة دعوته (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) أى : فهلاك للذين ظلموا حيث إنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك . ولم يقولوا عنه -عليه السلام- إنه عبد الله ورسوله (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) وهو يوم القيامة ووصف يوم بأليم على المجاز ، أى : أليم عذابه .

٦٦ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

الاستفهام للإنكار ، وإلا بمعنى غير .

والمعنى : ما ينتظر الأحزاب الذين ذكروا فى الآية السابقة - ما ينتظرون - شيئاً غير إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها غير مترقبين لها ، مشتغلون بأمور الدنيا ، وذلك قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وفى هذا تهكم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذى لابد من وقوعه ، ومع ذلك فهم عنها غافلون وبها غير مكترثين ، وقيل : المعنى لا ينتظر مشركو العرب إلا إتيان الساعة ، ويكون المراد على هذا الذين تحزبوا على رسول الله وكذبوه من المشركين .

وأيِّد بما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقومُ الساعةُ والرجلانِ يحلبانِ النعجةَ ، والرجلانِ يطويان الثوبَ ، ثم قرأ -عليه الصلاة والسلام- : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾)

المفـــردات :

(ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ) أى : الأصدقاء يوم القيامة جمع خليل وهو الصديق الصميم الّذى تخللت المحبة قلبه .

(تُحْبَرُونَ) أى : تفرحون وتسرون سرورًا عظيماً يظهر أثره على وجوهكم حُسْناً ونضرة .

(بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ) الصحاف : جمع صحفة وهى إناء كالقصعة ، وقال الزمخشرى : قصعة مستطيلة وهى للطعام ، والأكواب للشراب ، جمع كوب وهى كوز لا عروة له . وقال قتادة : إنها الآنية المدورة الأفواه .

(ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا) : جعلها لكم ميراثاً .

التفسير

٦٧ - (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) : الآية تذكر حالا من أحوال القيامة ، وقد نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبى ﷺ فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبى معيط فقال له أمية : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فقتله النبى يوم بدر ، وقتل أمية فى المعركة : حكاه النقاش .

والمعنى : المتحابون فى الأمور الدنيوية لغير الله يعادى بعضهم بعضاً يوم القيامة لانقطاع علائق المحبة والتواد التى كانت تربط بينهم ، لظهور كونها أسباباً للعذاب ، قال ابن كثير : كل خلة وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة (إِلَّا الْمُتَّقِينَ) فإن صداقتهم لما كانت فى الله فإنها تبقى على حالها فى الدنيا ، وتزداد فى الآخرة قوة لما يراه كل منهم من آثارها من الثواب ورفع الدرجات .

٦٨ - (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) :

حكاية لما ينادَى به المتقون المتحابون فى الله يوم القيامة تشريفاً لهم ، وتطييبا لقلوبهم ، وذلك بتقدير القول ، أى : فيقال لهم : يا عباد ، أو فأقول لهم : يا عباد ، بناء على أن المنادِىَ هو الله تعالى .

والمعنى : لاخوف عليكم - أيها المتقون - فى هذا اليوم العصيب ، ولا أنتم تحزنون فيه على ما فاتكم فى الدنيا ، رَوَى المعتمر بْن سليمان عن أبيه : ينادى مناد فى العَرَصَات : يا عبادى لاخوف عليكم اليوم ، فيرفع أهل العَرَصَات رءوسهم على الرجاء ، فيقول المنادى :

٦٩ - (الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ) :

فييأس أهل الأديان الباطلة وينكسون رءوسهم ، ويستبشر الذين آمنت قلوبهم وبواطنهم . وانقادت ظواهرهم وجوارحهم . وقوله - تعالى - : (وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ) يفيد أنَّ تلبسهم بالإيمان فى الماضى اتصل بزمان الإيمان فى الآخرة واستمر عليه ، والكلام على هذا أبلغ .

٧٠ - (ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) :

أى : يقال لهم : يا عبادى الذين آمنوا ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات أو أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تسرون سرورًا عظيماً يظهر حَباره-بفتح الحاء وكسرها-أى : أثره على وجوهكم نضرة وحسنا ، كقوله-تعالى - : « تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »[1] وقيل : تكرمون : قاله ابن عباس والكرامة فى المنزلة : الحُسْن .

٧١ - (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) :

أى : بعد دخول المؤمنين الجنة حيث فعلوا ما أمروا به : يطاف عليهم بأطعمة فى صحاف من ذهب وبأشربة فى أكواب من ذهب ، وجواز استعمالها خاص بأهل الجنة لزيادة أسباب النعيم لهم ، أما لأهل الدنيا فلا يجوز ، روى الأئمة من حديث أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تَشْرَبُوا فى آنيةِ الذهبِ والفضةِ ولا تأْكلوا فى صِحافِهما » وهذا يقتضى التحريم ولاخلاف فى ذلك كما قال القرطبى ، ولم تذكر فى الآية الأطعمة ولا الأشربة . حيث إنه لامعنى للإطافة بالصحاف والأكواب من غير أن يكون فيها شىء ، واستغنى بوصف الصحاف بقوله (مِن ذَهَبٍ) عن الإعادة مع الأكواب ، كما فى قوله تعالى : « وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ »[2] (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) تعميم ببيان أن فيها كل ما تشتهيه الأنفس من الطيبات وتلذ الأعين بمشاهدته من أنواع الجمال ، وذلك شامل لكل نعيم ولذة ، أما الإطافة عليهم بأوانى الذهب والفضة فهو بعض أنواع التنعيم والترفيه ، قال سعيد بن جبير : المراد من قوله : (وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) النظر إلى الله-عز وجل- كما فى الخبر : « أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » (وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) أى : باقون دائمون فى الجنة أبد الآبدين ، قال القرطبى : لأنها لو انقطعت لتبغضت ؛ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ ، ومُسْتَعْقِب للحسرة عند فقده . والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشريف .

---

(١) سورة المطففين ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٥ .

٧٢ - ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ :

أى : يقال لهم على سبيل الامتنان والتفضل : تلك الجنة التى كانت توصف لكم فى الدنيا جعلت لكم كالميراث ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة ، حيث شبه ما استحقوه بسبب أعمالهم من الجنة ونعيمها الباقى لهم - شُبِّه - بِمَا يخلفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق ، وأياً ما كان فدخول الجنة بسبب العمل لا يتم إلا بفضل الله ورحمته - عز وجل - والمراد بقوله ﷺ : « لَيس يُدْخِلُ أَحَدَكم الجنَّةَ عَملُه » أن إدخال العمل الجنة لا يكون على سبيل الاستقلال والسببية التامة ، فلا تعارض ، وقال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارًا ، فالكافر يرث نار المسلم ، والمسلم يرث جنة الكافر ، وذلك قوله : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا ... ﴾ الآية .

٧٣ - ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ :

أى : لكم أيها المؤمنون فى الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط ، قال ابن عباس : هى الثمار كلها رطبها ويابسها ، لا تأكلون إلا بعضها فى كل نوبة . وأما الباقى فعلى الأشجار دائماً بحيث لا ترى شجرة منها خلت من ثمرها لحظة ؛ فهى مزيَّنة بالثمار أبدًا ، خلاف أشجار الدنيا التى تخلو منها كثيرًا ، وفى الحديث : « لا يَنزِعُ رجلٌ فى الجنةِ منْ ثمرِها إلا نبتَ مكانَها مثلُها » .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) أى : الكافرين ؛ لذكرهم فى مقابلة المؤمنين .

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) أى : لا يخفف .

(وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) : آيسون من تخفيف العذاب ، من الإبلاس : وهو الحزن من شدة اليأس .

(لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : لِيُمِتْنَا فنستريح ، من قضى عليه : أماته .

(إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) أى : مقيمون متلبثون ، من باب قتل .

(أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا) أى : أحكموا كيدهم ، من الإبرام : وهو الإحكام والإتقان ، يقال : أبرم الحبل : أتقن فتله .

(سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) أى : الحديث الذى حدثوا به أنفسهم ، والذى تحدثوا به فيما بينهم ولم يطلع عليه أحد سواهم .

التفسير

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ـ (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) :

لما ذكر ـ سبحانه ـ أحوال أهل الجنة أتبعها ذكر أحوال أهل النار ؛ ليبين فضل المطيع على العاصى .

والمعنى : إن المجرمين الذين تمادوا فى الإجرام ، ورسخوا فيه ، وهم الكفار حسبما ينبىء عنه إيرادهم فى مقابلة المؤمنين : فى عذاب جهنم خالدون ما كثون فيها أبدا ، وعليه فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين فيه كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج . حيث تبين أن المراد بالمجرمين الكافرون ، وخلودهم فى النار بسبب كفرهم أى : لا يخفف عنهم وهم فيه مبلِسُونَ ، أى : لا يخفف عنهم العذاب لحظة بل يستمر على شدته ، وقوة حدته (وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) أى : آيسون من كل أمل ورجاء فى أن يفتر عنهم العذاب أو يخفف (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) بمعنى : وما ظلمناهم بعقابنا لهم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم لما يؤدى إلى العذاب الخالد لهم وهو الشرك .

٧٧ ـ (وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) :

المعنى : لما اشتد بهم العذاب ، ويئسوا من فتوره ، ووقع عليهم من الجوع ما يعدل ما هم فيه من العذاب . كما فى بعض الآثار ، حينئذ نادوا مالكا وهو خازن جهنم ، خلقه الله لغضبه إذا زجر النار زجرة أكل بعضها بعضاً ، نادوه فقالوا : (يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) أى : سل ربك أن يميتنا حتى نستريح مما نحن فيه ؛ أى : قال لهم مالك : (إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) فى العذاب أبدا لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره ، كما قال ـ تعالى ـ : « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »[1] قال بعض الأجلة : فى الجواب استهزاء بهم ؛ لأنه أقام المكث مقام الخلود .

---

(١) سورة فاطر من الآية ٣٦ .

٧٨ - (لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

يحتمل أن يكون هذا من تمام قول مالك لأهل النار . أى : إنكم ماكثون فى النار لأننا جئناكم فى الدنيا بالحق فلم تقبلوا ، والمقصود من قوله : (جِئْنَاكُمْ) الملائكة لأنهم رسل الله وهو واحد منهم . ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم . أى : جئناكم فى الدنيا بالحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب فأعرضتم وكذبتم ، وهو خطاب توبيخ وتقريع لهم من جهته تعالى ، مقررًا لجواب مالك لهم بقوله : (إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) ومُبَيِّنا لسبب مكثهم ، ولا مانع من خطابه - سبحانه - للكفرة تقريعاً (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) أى : ولكن أكثركم للحق - أىَّ حَق كَانَ - كارهون لا تقبلونه وتنفرون منه ، وفسر الحق بذلك دون تفسيره بالحق المعهود وهو التوحيد أو القرآن ؛ لأنهم كانوا كارهين لكل حق مشمئزين منه سواء أكان الخطاب لقريش أم لأهل النار . وقد يقال :المراد بالحقّ الحقُّ المعهود ، وعُبِّر بالأكثر ؛ لأن من الأتباع من يكفر تقليدًا .

٧٩ - (أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) :

قال مقاتل : نزلت فى تدبير المشركين المكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة حين استَقَرَّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ﷺ فتضعف المطالبة بدمه ، ولفظ (أَمْ) معناه بل والهمزة الإنكارية ، وبل للإضراب الانتقالى من توبيخ أهل النار إلى حكاية مؤامرة قريش على الرسول . المعنى : بل أأحْكم مشركو مكة بالفعل أمرًا من كيدهم برسول الله ﷺ فى دار الندوة حيث تآمروا على قتله ، كلَّا لم يحكموا أمرهم فلذا نجا منهم ، فإنا مُبْرِمُون ومُحْكِمون رَدَّ كيدهم ، وحمايته منهم ، فلذا أخرجناه من بينهم وهم له راصدون ، ولم ينفعهم كيدهم ولم يغن عنهم شيئاً كقوله تعالى : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ الْمَكِيدُونَ »[1] .

وقال قتادة : أم أجمعوا على التكذيب ، فإنا مجمعون على الجزاء بالبعث .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٢ .

وكانوا يتناجون فى أنديتهم ، ويتشاورون فى أمره ﷺ ويتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل يسلكونها ، فكادهم الله وردَّ وَبَال ذلك عليهم حيث قال ـ سبحانه ـ :

٨٠ ـ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أيظن هؤُلاء المشركون أنالا نسمع سرهم فى أنفسهم ، ولا نسمع نجواهُم مما يتحدثون به فيا بينهم على سبيل التناجى ولم يطلع عليه أحد سواهم (بَلَىٰ) نسمعها ونطلع عليها (وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وهم الحفظة الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم حيثما كانوا . فهم عندهم دائماً يكتبونها وكل ما صدر عنهم من أقوال وأعمال صغارها وكبارها .

(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

((فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ) أى: المنقادين ،وهو جمع عابد ،وَيجمع عابد أيضاً على عُبّاد وعبدة .

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى : تنزيهاً له وتقديساً . نزّه الله نفسه وأمر النبى بالتنزيه عما لا يليق به .

(عَمَّا يَصِفُونَ) أى : عما يقولون من الكذب .

التفسير

٨١ ـ (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ الْعَٰبِدِينَ) :

رد لباطل المشركين بتنزيهه ـ جل شأنه ـ عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد .

والمعنى : قل-أيها النبي-للمشركين تحقيقاً للحق ، وتنبيهاً لهم على أن الدافع لك على مخالفتهم فى عبادة الملائكة ليس لغضبك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم ، وإنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوه إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله . قل لهم : (إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ) أى - : إن صح ذلك وثبت ببرهان واضح تأتون به ، وحجة صحيحة تدلون بها (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفَرْض ، والمراد نفى الولد ، وذلك لأنه علق العبادة على كينونة الولد لله ، وهى محال فى نفسها فكان المعلق عليها محالا مثلها . ونظيره قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [1] » .

وقال ابن الأعرابى : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الآنفين من أن يكون له - سبحانه - ولد ، وقال ابن عباس والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، بجعل (إن) بمعنى (ما) ويكون الكلام على هذا تامًّا . ثم يبتدىء (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له ، والوقف على العابدين تام .

٨٢ - (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيها وتقديسا لله - تعالى - عما يصفونه به من كونه - سبحانه - له ولد ، وتعاليا عن كل ما يقتضى الحدوث ؛ لأنه واحد أحد فرد صمد .

وفى إضافة رب إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته عز وجل ، فكيف يتصور أن يكون شىء منها جزءا منه ، وفى إعادة الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾)

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٢٢ .

المفـــردات :

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ) أى: فاتركهم يدخلوا فى باطلهم ، يقال : خاض فى الأمر : دخل فيه .

(وَيَلْعَبُواْ) بكل ما يريدون ، واللُّعْبَةُ وزن غرفة : ما يُلعَب به ، والفعل من باب فرح .

(حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه .

التفسير

٨٣ - (فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

هذه الآية أُخرجت مخرج التهديد لكفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة .

والمعنى : فاتركهم - أيها النبى - حيث لم يذعنوا للحق - اتركهم - يدخلوا فى باطلهم وضلالهم ويلعبوا فى دنياهم (حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم القيامة الذى وعدوه ، وسوف يلاقون فيه مصيرهم حيث تحل بهم الشدائد والأهوال التى هى فوق الاحتمال ، وقال عكرمة وجماعة : إنه يوم بدر وقد وُعِدُوا الهلاك فيه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفـــردات :

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير خلقه ، العليم بمصالحهم ما كان وما يكون .

(وَتَبَارَكَ) من : البركة واليمن ، أى : هو سبحانه المتصف بهما .

(إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد .

(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى ؟! مِنْ أَفَكَ يأفِك إفْكا ، بمعنى كذب ... إلخ .

(وَقِيلِهِ يَارَبِّ) : القيل والقول والقال والمقال واحد .

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ) أى : فأعرض عنهم .

(وَقُلْ سَلَامٌ) أى : تَسَلُّم منكم ومتاركة ، وليس المراد أمره ﷺ بإلقاء السلام عليهم .

التفسير

٨٤ - (وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

هذا تكذيب للمشركين فى أن لله شريكاً وولدا ، وتقرير لوحدانيته - تعالى - والمعنى : أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة فى السماء وفى الأرض ؛ فكل من فيهما خاضعون له أذلاء بين يديه . وفى ذلك نفى للآلهة السماوية والآلهة الأرضية ، وإثبات الأُلوهية لله وحده مختصة به لا تتعدَّاه - عز وجل - إلى غيره .

(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أى : الحكيم فى تدبير شئون خلقه العليم بأحوالهم ، ما كان منها وما يكون ، وهذا بيان لاختصاص الأُلوهية به - تعالى - ونفيها عن سواه لأن من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحق الأُلوهية .

٨٥ - (وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

استمرار فى تقرير وحدانيته - تعالى - وأنه لا شريك له فى شئون الكون خلقاً وملكاً وتدبيرا وتصرفا .

والمعنى : تعظَّم وتَعَالَى الذى له وحده كمال التصرف فى السموات والأرض وفيما بينهما من مخلوقات الجوِّ المشاهدة وغيرها (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) أى : وقت قيامها ويراد بها يوم القيامة ، أى : وعنده العلم بالزمان الذى تقوم فيه القيامة .

وفى تقديم الخبر فى قوله - سبحانه - : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) إشارة إلى استئثاره - عز وجل - بعلم ذلك (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاء على ما اقترفتم من آثام ، والالتفات إلى الخطاب للتهديد .

٨٦- (وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) : بيان لعجز آلهتهم وإشادة بمكانة التوحيد .

والمعنى : ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤُهم يوم القيامة ونصراؤُهم عند الشدائد والأهوال (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ) وهو التوحيد ، فإن هؤلاء هم الذين يشفعون عند الله فى المؤمنين المقصرين ، وقال ابن عباس : أى : إلا من شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيشفعون للمؤمنين إذا أذن لهم ، ويراد بهم عيسى وعزير والملائكة وأضرابهم - عليهم السلام - فإنهم يشهدون بالحق والتوحيد لله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) حقيقة ما شهدوا به واعتقدوه ، والآية تفيد أن الشهادة على غير علم بالمشهود به لا يعوَّل عليها ، وقال مجاهد وغيره : المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم كأنه قيل : ولا يملك هؤلاء الملائكة وأضرابهم الشفاعة فى أحد إلا فيمن وحد عن إيقان وإخلاص .

وإفراد الضمير فى قوله : (شَهِدَ بِالْحَقِّ) وجمعه فى قوله : (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) باعتبار لفظ مَنْ ومعناها .

٨٧ـ(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : ولئن سألت العابدين والمعبودين عمن خلقهم ليقولن : خلقنا الله لا الأصنام ولا الملائكة لتعذر المكابرة فى ذلك مع فرط ظهوره (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) :

أى : فكيف يُصرفون عن عبادته ويصرفون عنها إلى عبادة غيره ، ويشركونه معه ـ عز وجل ـ مع إقرارهم بأنه ـ تعالى ـ خالقهم جميعاً ، أو مع علمهم بإقرار آلهتهم بذلك والمراد التعجب من إشراكهم مع رجاء شفاعتهم لهم وهم يعترفون بأن الله خالقهم ، وقيل المعنى : ولئن سألت الملائكة وعيسى (مَنْ خَلَقَهُمْ) لقالوا : الله ، ومعنى (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أى : فكيف يؤفك هؤلاء المشركون ويصرفون وينقلبون عن الحق فى ادعائهم إياهم آلهة .

٨٨ـ (وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) :

الكلام خارج مخرج التحزن والتحسر والتشكى من عدم إيمان أولئك الذين أشركوا بالله ، أى : وعند الله علم الساعة ، وعلم قول الرسول ـ عليه السلام ـ : (يَارَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ . .) الآية بعطف قيله على الساعة من قوله ـ تعالى ـ : (وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقيل : إن الواو للقسم ، وقوله تعالى : (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) جوابه ، وفى الإقسام به من رفع شأنه ـ عليه السلام ـ وتفخيم دعائه والتجائه إليه ـ تعالى ـ ما لا يخفى .

وخلاصة المعنى : أن رسول الله ﷺ التجأ إلى ربه يشكو قومه الذين كذبوه ، وعبدوا غير الله . بما يشير إلى التحسر والتحزن والتشكى من عدم إيمانهم ، وأشار ـ عليه السلام ـ إليهم بهؤلاء ، دون قومى ، تحقيراً لهم ، وبراءة منهم لسوء حالهم .

والمراد من الإخبار بعلمه أنهم لا يؤمنون وعيده إياهم حيث تمسكوا بشركهم ، وأبوا أن ينقادوا لدعوة الإيمان .

٨٩- (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى : فأعرض - أيها النبى - عن هؤلاء الكفار من مشركى مكة ، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم وعنادهم ، وقل لهم : أمرى تسلُّم منكم ومتاركة لكم ، فليس ذلك أمرا بتحيتهم والسلام عليهم ، وإنما هو أمر بالتباعد عنهم ، والتبرؤ منهم . . .

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) أى : فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم بما يلاقونه من جزاء عادل ينزل بهم حين يسأل المرء عما قدمت يداه ، وهو وعيد وتهديد للمشركين ، وتسلية للرسول ﷺ .

((سورة الدخـــان))

هذه السورة مكية وآياتها تسع وخمسون ، وسميت بسورة الدخان لقوله ـ تعالى ـ فيها : (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وهي تناسب ما قبلها في أنه ـ عز وجل ـ ختم ما قبلُ بالوعيد والتهديد حيث قال تعالى : (وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) وافتتح هذه بالحديث عن القرآن الكريم ثم عقب بالإنذار الشديد لهؤلاء المشركين بقوله تعالى : (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وقوله ـ سبحانه ـ : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) كما ذكر ـ تعالى ـ هناك قول الرسول ﷺ : (يَارَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) وهنا نظيره فيما حكى عن موسى ـ عليه السلام ـ (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى غير ذلك من المناسبات بين السورتين .

اهم اهـداف السورة :

تحدثت عن نزول القرآن الكريم في ليلة مباركة وهي ليلة القدر ، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تُفصل فيها أُمور الخَلق وتقدر ، وقد اختارها الله لإنزال آيات التنزيل هُدًى لعباده ورحمة بهم وذكرت آيات التوحيد ، والآيات التي تكشف عن أحوال الكفار ، وعرضت حديث موسى وبني إسرائيل وفرعون . وكشفت عما حل بقوم فرعون وبينت عاقبة أمرهم وردت على منـــكري البعث من مشركي قريش . وأشارت إلى أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله من الأُمم الطاغية التي تعرضت لانتقام الله وإهلاكه جريا على سنته ـ سبحانه ـ مع الطغاة المجرمين ، ثم أكدت أن يوم القيامة هو موعد الفرق بين جميع الخلائق ، وختمت السورة بتسجيل ذل الكفار بالعقوبة وبيان ما يحيق بهم . وعزَّ المؤمنين في الجنة بتفصيل ما ينالونه من نعمة وكرم ، ومنزلة الرسول ﷺ وشرفه بتيسير القرآن على لسانه في قوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) كما بدأت بالحديث عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ) أى : والقرآن الواضح للمتدبرين ، من أبان : بمعنى اتضح

(فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ) : كثيرة البركة ، هى ليلة القدر على الأصح .

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) أى : يفصل ويبين كل أمر ذى حكمة وهو ما قضاه الله من أحوال العباد وحاجاتهم فى هذه الليلة المباركة ، ومن أعظمها نزول القرآن .

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) أى : تريدون اليقين وتطلبونه . كما يقال : فلانٌ يُتْهِمُ أى : يريد تِهَامة .

(بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ) أى : فى تردد ولعب فيما يظهرونه من الإيمان والإقرار بأن الله خالقهم .

التفسير

١ ـ (حمٓ) سبق الحديث مفصلا عن حروف المعجم التى افتتحت بها أوائل بعض السور ولا سيما أول سورة البقرة .

٢ ، ٦ ـ (وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ. إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أقسم الله سبحانه بالقرآن العظيم تشريفا له وتنويها بعلو قدره حيث قال :(وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) وأشار جواب هذا القسم إلى أن إنزاله فى ليلة ذات فضل وبركة لما ينزل الله على عباده فيها من البركات والخيرات بنزوله المستتبع للفوائد الدينية والدنيوية بأجمعها حيث قال سبحانه :(إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ) وهى ليلة القدر على الأصح بدليل قوله تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] وقوله : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[2] ويراد من إنزاله فيها أنه ابتدئ إنزاله كما قيل ، أو أنزل جملة فيها إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ على الرسول منجما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الأسباب ، وقيل : كان ينزل منه فى كل ليلة من ليالى القدر إلى سماء الدنيا ما ينزل فى سائر السنة .

وفى تعيين هذه الليلة من شهر رمضان أقوال كثيرة ، أشهرها : أنه أنزل فى إحدى ليالى الوتر من العشر الأخير منه ، ومنهم من قال : إنها ليلة السابع والعشرين منه ، وهو المشهور بين الناس . ومن العلماء من قال : إن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شعبان ، وقال القرطبى نقلا عن الزمخشرى : وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث فى فضلها ولا فى نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليها ، وفى البحر قال الحافظ أبو بكر ابن العربى : لا يصح فيها شئ ولا نسخ الآجال فيها ، وعلق الآلوسى على ذلك بأنه لا يخلو من مجازفة ، والله أعلم

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) : استئناف مبين لما يقتضى الإنزال كأنه قال : إنا أنزلناه لأن من شأننا ألا نترك الناس دون إنذار وتحذير من العذاب رحمة بهم لنلزمهم الحجة

---

(١) سورة القدر ، الآية الأولى .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) : استئناف كالذى قبله ، فإن كونها مفرق الأمور المحكمة يستدعى أن ينزل فيها القرآن الذى هو من عظائمها ، ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل فيها كل أمر حكيم بمعنى محكم أو منزل على ما تقتضيه الحكمة من بيان أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ، فهى مبتدئة من هذه الليلة إلى الليلة الأخرى من السنة القابلة . وهذا الأمر لا يغيّر ولا يبدل بعد إبرازه للملائكة ، بخلافه قبله وهو فى اللوح المحفوظ ، فإن الله يمحو منه ما يشاءُ ويثبت ، قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر فى كل رمضان هى ؟ قال : إى والله إنها لفى كل رمضان ، وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها ، وروى هذا التعميم عن غير واحد من السلف ، قال ابن عيسى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده (أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) منصوب على الاختصاص ، أى : أعنى بهذا الأمر أمرا عظيما حاصلا من عندنا . والمراد بالعندية أنه أمر على وفق الحكمة والتدبير ، فهو بيان لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بقوله ـ سبحانه ـ : (كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) .

وحاصل المعنى : أن جميع ما نقدره فى تلك الليلة ، وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد أمر من جهتنا على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا . فزاد بذلك فخامة وجلالا (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) بدل انتقال من (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) لتفصيله أى : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم ، أو لاقتضاء رحمتنا بهم التى سبقت إرسالهم بالشرائع ، ووضع الرب موضع الضمير فقيل : رحمة من ربك . ولم يقل مِنّا للإيذان بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين وإضافته إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتشريفه .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أى : إنه هو السميع لكل مسموع من أقوال العباد ، العليم بكل معلوم من أحوالهم وذلك تحقيق لربوبيته وأنها لا تكون إلا لمن هذه أوصافه

وحاصل المعنى للآيات السابقة : أنه تعالى أنزل القرآن على رسوله ﷺ فى ليلة القدر المباركة التى يُبَيّن فيها للملائكة كل أمر حكيم من الأُمور المتعلقة بعباده ، التى تصدر من جهته -تعالى- وفق الحكمة والتدبير ، ومن أجلّها وأعظمها القرآن ، وقد أنزله الله على رسوله ﷺ رحمة بالعباد جريا على سنته فى خلقه حيث أرسل الرسل بالكتب لإفاضة رحمته سبحانه بهم ، وهو يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم .

٧- ﴿ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ :

أى : إن كنتم موقنين فى اعترافكم بأَنه تعالى رب السموات والأَرض وما بينهما وخالقهن ، إذا سئلتم من خلقهن يلزمكم الاعتراف بأَن من حقه إرسال الرسل وإنزال الكتب ؛ لإرشاد الخلق بأَنه لا معبود سواه ، ولذا عقبه بقوله :

٨- ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ :

الآية مستأْنفة مقررة لما قبلها ، أى : لا رب غيره ، ولا معبود سواه يحيى الأَموات ويميت الأَحياء وهو خالقكم وخالق من تقدم من آبائكم . وإليه المرجع والمآب ، فإذا كان هذا شأْنه فما لكم أيها المشركون لا تتقون تكذيب محمد ﷺ حتى لا ينزل بكم العذاب الأَليم حيث تفقدون الولى والنصير .

٩- ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ :

إضراب إبطالى أبطل به إيقانهم المزعوم فى قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ لعدم جريانهم على مقتضاه ، أى : ماقالوا ذلك عن جد وإذعان ، وإنما قالوه تقليدا لآبائهم ، وهم فى شك مما ذكر من شئونه تعالى ، لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وقيل : يلعبون . يضيفون إلى النبى ﷺ الافتراء استهزاءً . شأْنهم شأْن الصبى الذى يلعب فيفعل مالايدرى عاقبته . والالتفات عن خطابهم إلى الغيبة إعراض عنهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم .

(فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(فَارْتَقِبْ) أى : فانتظر أيها النبى .

(بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى : واضح بيّن ، ويراد به الغبار المتصاعد بسبب الجَدْب .

(يَغْشَى النَّاسَ) أى : يشملهم ويحيط بهم .

(أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ) أى : من أين لهم الاتعاظ بشيء مما شاهدوه ، والذكرى والذكر بمعنى واحد .

(ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) : أعرضوا مكذبين .

(يَوْمَ نَبْطِشُ) أى : نعاقب بشدة ، من بَطَش يبطِش-بكسر الطاء وضمها-إذا أخذه بعنف وقوة .

التفسير

١٠ ، ١١ - (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

تسلية للرسول ﷺ وتهديد ووعيد للمشركين . والفاء فى قوله تعالى : (فَارْتَقِبْ) لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ماقبلها. فإن كونهم فى شك ولعب مما جاءهم به رسولهم

يقتضى ترقب عذابهم ، والمعنى : فانتظر أيها النبى عذابهم يوم تأتى السماء بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، وهى ظلمة تعرض للبصر لضعفه ، فيتوهم ذلك ،فهو كناية عنه ، وفسر أبو عبيدة الدخان به ، وبعض العرب تسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى منه فأطلق على كل مؤذ .

وسبب نزول الآية : أن قريشا لما استعصت على الرسول ﷺ وأبى أكثرهم الإسلام . دعا عليهم فقال : « اللهم أعِنى عليهم بسبع كسبع يوسف » . فأصابهم قحط شديد وبلاء حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام . وكنى عنه بالدخان لِمَا تقــدم بيانه ، وكلما اشتد الجدب اشتد الدخان تكاثفًا . فكان الرجل يحدث الرجل فيسمعه ولايراه وذلك قوله -سبحانه- : (يَغْشَى النَّاسَ) أى : يضمهم ويحيط بهم . وقيل : هو يوم فتح مكة كما فى البحر عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال : (يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ) هو يوم فتح مكة ، ويُروى عن أبى هريرة أنه قال : كان يوم فتح مكة دخان وهو قول الله تعالى : (يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) وقال الآلوسى : يحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حلَّ بأهل مكة فى ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما ، وقيل : إنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة ، وهو شَرَط من أشراطها. قاله علىّ -كرم الله وجهه- وابن عمر وابن عباس وغيرهم (هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : يقول الله لهم ذلك تهويلا وتقريعا . وقيل : إن الناس هم القائلون لذلك حينما يرون الدخان ، أى : أنه عذاب شديد الألم بالغ الأثر . والإشارة بهذا للدلالة على قرب الوقوع وتحققه .

١٢ - (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) :

الآية - كما صرح به غير واحد من المفسرين - وعد منهم بالإيمان إن كشف عنهم - جل وعلا- العذاب ، وكأنهم قالوا : ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا. ولكنهم عدلوا عنه إلى ما فى النظم الكريم حيث قالوا : (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) إظهارا لمزيد الرغبة فى الإيمان . كما فى بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان ومعه نفر إلى رسول الله ﷺ

يناشدونه الله تعالى والرحم، وواعدوه إن دعا لهم وزال عنهم ما بهم أن يؤمنوا، وذلك قولهم: (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . . .) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج .

١٣ ، ١٤ - (أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) :

رد لكلامهم بنفى صدقهم فى الوعد بالإيمان . حيث إن غرضهم هو كشف العذاب عنهم والخلاص منه فحسب، أى : من أين لهم التذكر والاتعاظ والوفاء بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم (وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى : والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر، وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم وأدخل فى الادكار من كشف العذاب، حيث جاءهم رسول بيِّن الرسالة مؤيد بالآيات الواضحة . والمعجزات القاهرة التى تخرلها صم الجبال ، لبيان مناهج الحق وشواهد التوحيد، ومع هذا لم يؤمنوا به بل كذبوه (ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى : ثم انصرفوا عن ذلك الرسول المؤيد من الله وظلوا كافرين بعد ماشاهدوا منه ماشاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه ، والتعبير بثم للاستبعاد أو التراخى الرُّتبى ، ولم يكفهم التولى عنه ، والإعراض عن اتباعه ، بل بهتوه (وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، كما قالوا عنه : مجنون لايعى مايقول ، فهل يتوقع من قوم هذه طبيعتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟! .

١٥ ، ١٦ - (إِنَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) :

والمعنى : أننا نكشف عنكم العذاب كشفا قليلا، أو زمانا قليلا، لأنكم عائدون إلى ماكنتم عليه من العتو والثبات على الكفر ، وقد تحقق كلاهما حيث كشف الله عنهم العذاب بدعاء النبى ﷺ ، فما لبثوا أن عادوا إلى ماكانوا عليه من الكفر، ومن قال إن الدخان يكون قبل يوم القيامة وهو شَرَط من أشراطها قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف .

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) أى : واذكر يوم نبطش بالكفار البطشة الكبرى حيث يؤخذون بقوة وشدة . أخرج ابن جرير وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة قال : قال ابن عباس : البطشة الكبرى : يوم بدر لما وقع فيه من قَتْلٍ وأَسْر وتَشْريد لمشركى قريش ،واختار ابن كثير أنها يوم القيامة وكونها يراد منها يوم القيامة هو الأنسب . قال الرازى :القول الثانى أصح ؛لأن يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذى يوصف به هذا اليوم العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل فيه . ولمّا وصفت البطشة بأنها الكبرى وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، ولاشك أنها لاتكون إلا يوم القيامة (إِنَّا مُنتَقِمُونَ) أى : يومئذ ننتقم من هؤلاء المشركين انتقاماً قويا شديدا يظهر أثره فيهم .

(* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾)

المفــــردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وامتحنا .

(أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ) : أن أسلموا لى بنى إسرائيل . أو أجيبوا دعوتى وصــــدقوا رسالتى .

(وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ) : ألّا تتجبروا وتتكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ورسوله .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها .

(عُذْتُ بِرَبِّى) : التجأت إليه ، وتوكلت عليه .

(أن تَرْجُمُونِ) : أن تقتلونى رجماً بالحجارة ؛ أو بغير ذلك .

(فَاعْتَزِلُونِ) : فخلونى واتركونى كفافا لالىَ ولا علىّ .

التفسير

١٧ ـ (وَلَقَد فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) :

حكت الآيات السابقة على هذه الآيات أحوال مشركى مكة ، وماكان منهم من معارضة دعوة النبى ﷺ وتورطهم فى العناد وإلحاق العذاب بالمؤمنين ، وتماديهم فى ذلك حتى استحقوا ما وقع عليهم من عذاب أليم ، بدخان مبين غشيهم من كل صوب وناحية ، واضطرهم أن يلجئوا إلى الرسول ﷺ ليدعو لهم برفع العذاب عنهم فقد آمنوا وتابوا ؛ وقد كشف الله عنهم العذاب قليلا ، وهو عليم بحقيقتهم . وسوء طويَّتهم إمهالاً لهم إلى الانتقام الأعظم والبطشة الكبرى يوم القيامة إن أصروا على كفرهم (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) وجاءت هذه الآيات تقرّر أن فتنة مشركى مكة لم تكن بدعا من النفوس البشرية ولاحَدَثا فريدًا فى الطبيعة الإنسانية ، وإنما جرت فيهم على سنن ما جرت عليه فى قوم فرعون وغيرهم من الأُمم السابقة .

والمعنى : ولقد امتحنا واختبرنا قبل مشركى مكة قومَ فرعونَ بإرسال موسى عليه السلام إليهم فلم يكن منهم إلّا التمرد والعصيان ، وأصل الفتنة : وضع المعدن فى النار وَصَهْرُه لِتُعرف جودته وينفى خبثه ، أى : عاملناهم معاملة المختبر الممتحن ليظهر حالهم ، وتتضح حقيقتهم ، فأمهلناهم ، ووسعنا عليهم فى الرزق ووفرة النعمة ، فيكون معنى الفتنة ما يفتتن به الشخص ويغترّ به فيصرفه عما فيه صلاحه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »[1] ومعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) أى : وشاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاظ ما يوجب السمع والطاعة حيث جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ وهو كريم على الله ، كريم فى نفسه ، متصف بالخصال الحميدة ، والصفات الجليلة حسباً ونسباً ،

(١) سورة التغابن، من الآية : ١٥

لأن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلَّا فى أحساب قومه ، وأشرف أنسابهم ، جامعاً لأنواع المحامد ، وكريم المنافع .

١٨ ، ١٩ — (أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) :

هذا مقول على لسان موسى — عليه السلام — لفرعون وقومه .

والمعنى (وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ) وطلب منهم فقال : (أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ اللهِ) أى : أطلقوا معى بنى إسرائيل ، وخلصوهم من الاستعباد والذُّل ، والعذاب والتسخير ، فهو كقوله تعالى: « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »[1] والتعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى أن استعبادهم ظلم وطغيان ، ويجوز أن يكون المعنى :أدوا إلىَّ ما آمركم به ، وأدعوكم إليه من الإيمان . وقبول الدعوة ، فيكون المقصود بعباد الله قوم فرعون .

وقوله —تعالى— : (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) تعليل لوجوب المأمور به ، أى : أدوا إلى ما أدعوكم إليه ، فإنى رسول من الله ، أمين على ما أُوَدِيه ، وأدعوكم إليه ، قد ائتمننى ربى— جل شأنه— على وحيه وصدقنى بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة .

(وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى اللهِ إِنِّىٓ آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) أى : أَدُّوا إلى عباد الله ولا تتجبروا ولا تتكبروا على الله بالاستعلاء على أمره ، والاستهانة بوحيه ورسوله ، لأنى آتيكم من جهته — تعالى — بسلطان مبين ، وحجة واضحة فى ذاتها . موضحة صدق دعواى لاسبيل إلى إنكارها ، ولا إلى الإنكار علىّ فى تبليغها .

وقال قتادة : « لَا تبغوا عَلَى الله » وقال ابن عباس : « لاتفتروا على اللهِ » والفرق بين البغى والافتراء أن البغْىَ بالفعل والافتراء بالقول .

وفى ذكر الأمين بعد الأمر بالأداء ، والسلطان بعد النهى عن العلو والاستكبار — فيه — من روعة الأسلوب وجزالة التنسيق مالا يخفى .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥ .

٢٠، ٢١ - ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ، وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ :
قيل إنه لمّا قال : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ توعّدوه بالقتل فقال : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي . . ﴾ الآية .

أى : التجأت إليه وتوكلت عليه ليحفظنى من شركم، ويعصمنى من كيدكم، فلا ينالنى منكم أذى من شتم أو ضرب أو رجم بالحجارة ، وإن دمتم على كفركم ، وعنادكم؛ ولم تؤمنوا لى وتصدقوا دعوتى فاعتزلونى واجتنبونى وامنعوا عنى شركم وكفوا أذاكم فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحكم .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفــردات :

(فَأَسْرِ) : أمر من أسْرَى ، أى : فَسِرْ بهم ليلاً ، وسرى من غير همز بمعنى سار ليلا .

(رَهْوًا) : مفتوحاً ، ويصح أن يكون (رَهْوًا) بمعنى (ساكناً) أى : اترك البحر ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ، من رها البحر : إذا سكن ، وبابه عدا .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَعُيُونٍ) : جمع عين ، والمراد عين الماء .

(وَنَعْمَةٍ) النَّعمة – بالفتح – : التنعيم ، يقال : نَعَمَ الله فلانا فتنعم ، والنِّعمة – بالكسر – : ما أنعم الله به عليك ، واليد والصنيعة والمنة ، وكذلك النُّعمى .

(فَاكِهِينَ) : متنعمين ، (وقرىء فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرين بطرين لا تؤدون حق النعمة .

التفسير

٢٢ – (فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) : لما أدرك موسى – عليه السلام – تناهى قومه فى الكفر وإصرارهم على التكذيب واستيأس من هدايتهم ، وانقطع رجاؤه فى إيمانهم ، مع تماديهم فى الإيذاء ، دعا ربَّه أن يعذبهم وينتقم منهم وينزل بهم ما يستحقون ، وقوله تعالى : (أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) تعريض بالدعاء عليهم بذكر سبب ما يستحقون العقاب ، ولذلك سُمِّى دعاء ، أى : دعا ربَّه بأن هؤلاء قوم مجرمون يستحقون تعجيل العذاب ، قيل : كان دعاؤه : « اللهم عجل لهم ما يستحقون بإجرامهم » وقيل : هو قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[1] « وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »[2] .

٢٣ ، ٢٤ – (فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) :

قوله – تعالى – فأسر بعبادى على تقدير جملة قولية بعد الفاء ، أى : فقال له ربه عند دعائه : أسر بعبادى ليلا ، وهم بنو إسرائيل ، أو على تقدير القول قبلها ، أى : إذ كان الأمر كما تقول فأسر ببنى إسرائيل ليلا ، فقد دبَّر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجى الله

---

(١) سورة يونس من الآية : ٨٥ .

(٢) سورة يونس آية : ٨٨ .

المتقدمين ، ويغرق التابعين ، فمعنى (متبعون) : يتبعكم فرعون وجنوده ، ليلحقوا بكم فيغرقوا ، فإن الله -تعالى- قدر عليهم الغرق ، قال القرطبي : وسير الليل فى الغالب إنما يكون عن خوف ، والخوف يكون بوجهين : إما من العدو فيتخذ الليل سترًا مسدلا فهو من أستار الله تعالى ، وإما من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرٍّ أو جدب فيتخذ السرى لذلك ، وكان النبى ﷺ يسرى ويُدلج ، ويترفق ويستعجل بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض ، وإذا سافرتم فى السَّنةِ[1] فبادروا بها نِقْتها[2] » ولهذه المعانى ذكر الليل ، مع أن السرى لا يكون إلَّا ليلا ، وليدل ذكره على أن ذلك كله وقع فى جزء من الليل . (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) هذا تعليم لموسى -عليه السلام- بما يفعله فى سيره قبل أن يسير ، وقبل أن يلج البحر ، وعبارة الخطيب : « واترك البحر » أى : إذا سرت بهم ، وتبعك العدوّ ووصلت البحر ، وأمرناك بضربه بالعصا ودخلتم فيه ونجوتم منه فاتركه بحاله ، ولا تضربه بعصاك ليلتئم ، بل أبقه على حاله ليدخله فرعون وقومه فينطبق عليهم ، وقيل : كان ذلك الأمر بعد أن خرج من البحر وأراد أن يضربه ليلتئم .

والمعنى : واترك البحر بعد ولوجك فيه وخروجك منه -اتركه- مفتوحاً أو ساكناً ثابتا على هيئته عند دخولك فيه ، ليلجه فرعون وقومه خلفكم فيغرقوا (إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) أى : أنهم جماعة قدر الله عليهم الغرق فى البحر ، عقوبة لهم على عنادهم وإصرارهم على الكفر ، وتماديهم فى التجبر والضلال .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ - (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ • وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) :

هذه الآيات انتقال بالحديث عما وقع لفرعون وقومه من عذاب وجزاء بالإغراق - انتقال من ذلك - إلى خسارتهم ما كانوا فيه من نعمة وشرف ، تعظيماً لعقابهم .

---

(١) السنة : الجدب .

(٢) نقتها - بكسر النون وسكون القاف منها - ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها .

والمعنى : كثيرًا جدًّا كانت لهم أموال وخيرات متعددة الأصناف والأنواع تركوها فى مصر من بساتين كثيرة وجميلة ، وعيون ثَرَّة يجرى ماؤُها فى قنواتٍ بين الزروع والأشجار فتزيدها بهجة وروعة ، وكم تركوا فيها من زروع مختلفة الألوان والمطاعم متفاوتة الأشكال والمظاهر ، ومجالس شريفة ، ومحافل غاصّة ، ونواد خاصّة ، وغير ذلك من صنوف النعم وألوان الخيرات التى كانوا يتنعمون بها فاكهين متمتعين مسرورين لا يزعجهم إقلال ولا يخافون حرمانا ، وقرىء (فَكِهِينَ) بمعنى أَشِرِين بطرين لم يشكروا هذه النعم ولم يَحْمَدُوا عليها .

٢٨ ، ٢٩ - (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) :

أى : مثل ذلك التنعيم نعمناهم وأترفناهم فلم يقيموا لها وزناً فحرمناهم من هذه النعم كلها وأورثناها قوماً آخرين وهم بنو إسرائيل كما فى قوله تعالى فى سورة الشعراء : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »(١) أى : أنهيناها إليهم سهلة سائغة فى غير جهد ولا مشقة ، وصارت لهم بعد أن كانوا مستعبدين فيها ، وصدق الله العظيم : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ(٢) »

والمقصود من هذه الآية أنهم ورثوا من ملك فرعون فى أرض الشام ، التى هاجروا إليها وكانت تابعة لمصر فى عهد فرعون ، ولم يثبت تاريخاً أنهم عادوا إلى مصر بعد أن هاجروا إلى الشام ، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) المعنى : أنزلنا بفرعون وقومه ما أنزلنا من إهلاك وإغراق واستئصال أموال وأحوال ، وأورثنا ما كان لهم من جنات وعيون وزرع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين أورثناها قوما ليسوا منهم فى دين ولا قرابة ولا ولاء ، فما بكت عليهم أرض ولا سماء ، لظلمهم وعدوانهم ، والمقصود من عدم بكائهما عليهم هوانهم على الله وسائر العالمين ، فالآية تمثيل للمبالغة فى تهوين شأْنهم وتحقير أمرهم

---

(١) الآية : ٥٩

(٢) سورة الأعراف آية:١٣٧ .

وقوله ـ تعالى ـ : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) معناه : وما كان فرعون وقومه ممهلين ولا مؤجّلين من وقوع العذاب بهم حين جاء حينه وحضر وقته ـ ماكانوا مؤجلين ـ إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة بل عُجِّل لهم عذاب الاستئصال فى الدنيا لشدة جرمهم .

(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾)

المفـــردات :

(الْعَذَابِ الْمُهِينِ) : العذاب البالغ الحد فى الإهانة .

(عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) : متكبرا من المسرفين فى الظلم .

(عَلَىٰ عِلْمٍ) : على معرفة بحالهم .

(الْآيَاتِ) : المعجزات .

(بَلَاءٌ مُّبِينٌ) : امتحان كاشف واختبار واضح .

التفسـير

٣٠ ، ٣١ ـ (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ) :

هذه الآيات تمثل مرحلة أخرى من قصة قوم فرعون تقرر معانى الآيات السابقة . وتصرح بمفهومها ؛ فإن هلاك فرعون وقومه ، ومآل مُلكهم إلى بنى إسرائيل نجاة أية نجاة لهم .

والمعنى : ولقد كان فى إهلاكنا فرعون وقومه أن نَجّينا بنى إسرائيل ، وخلصناهم من الاستعباد والتسخير والعذاب الممعن فى المهانة بقتل الأبناء واستخدام البنات وغير ذلك مما كان يقع عليهم من فرعون ذلك الطاغية المتجبّر المتناهى فى الشدة ، المسرف فى صنوف الإجرام .

وفى التصريح باسم فرعون مايشعر بأن مجرد ذكره كاف فى تصور مايصدر منه من العنت والفساد ، والتجبر والطغيان .

٣٢ ، ٣٣ - (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) :

تضيف هذه الآيات إلى بنى إسرائيل فضلا آخر زائدا على فضل إنجائهم من عذاب فرعون .

والمعنى : لم يقف أمرنا مع بنى إسرائيل على تخليصهم من فرعون ، بل اصطفيناهم واخترناهم عالمين استحقاقهم لذلك بما يصدر عنهم من العدل والإحسان ، والفهم والإيمان بعد أن استقام أمرهم فى أواخر عهد موسى وفى عهد يوشع من بعده ، حيث فتح بهم أريحا ، وأطاح بالشرك فى هذا الإقليم ، وغير ذلك من حسن السيرة ، ولكنهم لم يحافظوا على هذه الاستقامة التى تأدبوا بها بعد عقابهم فى التيه أربعين عاما ، فبغوا فى الأرض فسلط عليهم غيرهم ، ومعنى (عَلَى الْعَالَمِينَ) أى : عالمى زمانهم ، فلا يلزم اصطفاؤهم على أمة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - لقوله تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[1] وقوله - تعالى - : «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »[2] .

وقيل : اصطفيناهم على العالمين بكثرة أنبيائهم .

(وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ) أى : وأنزلنا عليهم من المعجزات والبراهين كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات مافيه بلاء مبين

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

أى : اختبار ظاهر وامتحان واضح من النعمة أو الشدة؛لأن البلاء يكون بالشدة والرخاء ، والحرمان والعطاء « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً »[1] وماكان من هذه الآيات لموسى عليه السلام فهو لهم ، أيضا ، ومن أجل هدايتهم وإيمانهم ، فهو من جملة ما أوتوه فى الجملة .

وهكذا عرضت الآيات الشريفة فى ثنايا الكلام عن مشركى مكة فتنة قوم فرعون – ونظمتها – فى مراحل ثلاث :

(الأولى) : إرسال موسى –عليه السلام– إليهم ودعوته إياهم من قوله تعالى : « وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » إلى قوله تعالى : « وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَاعْتَزِلُونِ » .

(الثانية) : دعاؤه عليهم بعد أن استيأس من طاعتهم ، وضاق بعنادهم وكفرهم واستئصالهم بالغرق وانتقال أموالهم إلى بنى إسرائيل ، من قوله تعالى :(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ) إلى قوله تعالى : (وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ) .

(الثالثة) : ماكان نتيجة طبيعية لهلاك فرعون وقومه من نجاة بنى إسرائيل واصطفائهم على عالمى زمانهم أو بكثرة أنبيائهم ، وإيثارهم بملك فرعون فى الأرض المباركة بالشام على علم وبصيرة بأحوالهم . من قوله –تعالى– : (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) .

(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾)

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٥ .

المفـردات :

(هَٰؤُلَاءِ) : مشركى مكة .

(مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ) : الموتة التى نموتها فى الدنيا ثم لانحيا ولا نبعث بعدها .

(بِمُنشَرِينَ) : بِمُعادين ولا مبعوثين مرة أُخرى .

(تُبَّعٍ) : لقب لملك سبأ كلقب كسرى لملوك الفرس ، ولقب قيصر لملوك الروم والمراد تبع الحميرى الأكبر .

التفسير

٣٤ ، ٣٥- (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) :

عادت الآيات إلى مابدأت به فى أول السورة من الحديث عن مشركى مكة وعنادهم بعد أن ذكرت طرفا من أحوال قوم فرعون ، ومعارضتهم لموسى عليه السلام ومناهضتهم لدعوته ، وما حاق بهم من عذاب ، تحذيراً لقريش أن يصيبهم بسوء صنيعهم ما أصاب قوم فرعون ، وتأسية للرسول ﷺ فهى موصولة بقوله تعالى : (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ) قبلها ، وبقوله : (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) بعدها .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين من قريش ومن غيرهم ليصرون على الكفر والعناد وينكرون فى إصرار أَمْرَ البعث والجزاء ويقولون :(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ) أى : ما العاقبة وما نهاية أمرنا إلا الموتة الأُولى أى الوحيدة بعد حياتنا والتى نفارق بها الدنيا ثم لانعود بعدها ، ولايكون لنا نَشْرٌ ولا عود كما يخبر المؤمنون وصاحبهم ، فالمقصود بقولهم الموتة الأُولى : الموتة الوحيدة التى لاتتكرر ، ولايقصدون إثبات موتة ثانية .

٣٦ ، ٣٧-(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) :

قوله تعالى :(فَأْتُوا بِآبَائِنَا) استمرار فى الحديث عن إنكارهم البعث ، قيل : إن مشركى مكة طلبوا من الرسول - عليه الصلاة والسلام - تصديقا لأخبار البعث أن يدعو

الله ليُحيي لهم قصى بن كلاب- وكان فى أيامه كبيرهم ومستشارهم فى النوازل-ليشاوروه فى صحة النبوة والبعث ، فيدل ذلك على صدقكم إذا أحييتموه ، أو إذا سألناه فصدقكم ، والخطاب فى قوله:(فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ) لمن وعدوهم بالبعث والنشور من الرسول والمؤمنين ،أى : فأحيوا لنا مَنْ مات من آبائنا إن كنتم صادقين فى دعوى قيام الساعة وبعث الموتى .

ولما كان قولهم هذا ينطوى على جهل ،وتجبر واستعلاء بعيداً عن الحجة جاء قوله تعالى :(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ) يهددهم بأنهم ليسوا أعظم قوة ولا أعز منعة من هؤلاء الأقوام الذين أهلكهم الله بسبب إجرامهم .

والمعنى : أهؤلاء المشركون المنكرون للبعث خير فى القوة والمنعة والجاه والسلطان ، أم قوم تبع الأكبر الحميرى من أهل سبأ الذين كانت بساتينهم عن يمين وشمال والذين من قبلهم من عاد وثمود وأضرابهم .

وقوله تعالى :(أَهْلَكْنَاهُمْ) استئناف لبيان عاقبة أمرهم ، ونهاية بغيهم ، كما أن قوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ) تعليل لإهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ماكانوا فيه من غاية القوة والمنعة فأنتم بالاستئصال أهون منهم ، لأنكم أضعف منهم قوة ، وأوهن شأناً .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾)

المفـردات :

(لَاعِبِينَ) : لاهين عابثين .

(يَوْمَ الْفَصْلِ) : يوم القيامة الذى يفصل الله بين عباده فيه .

(مِيقَاتُهُمْ) : موعدهم .

(مَوْلًى) : صاحب يتولى معونة صاحبه ، أو ولى يتصرف فى أمور وليه ، من الولاية .

(الْعَزِيزُ) : الغالب الذى لايعجزه شىء .

(الرَّحِيمُ) : الواسع الرحمة .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ـ (وَمَاخَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَاخَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) :

هذه الآيات دخول فى بيان حكمة البعث ، وإيضاح غايته تعميقا لإيمان المؤمنين وتسفيها لإنكار المنكرين .

والمعنى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من عوالم ـ ماخلقناهما ـ لاهين بخلقهما لغير غرض ، عابثين به فى غير غاية ـ ماخلقناهما وما بينهما ـ إلا بالحق . ملتزمين بصدق الغاية وتحقيق الحِكمة ، وهو أن ينال كل إنسان جزاء عمله ، الخير بالخير والشرّ بالشرّ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ، ولكن أكثر الناس من الجهل وسفاهة العقل لايعلمون أن الأمر كذلك فينكرون ، مع أنهم يعلمون أن الله خالق كل ذلك وأنه حكيم ، وليس من الحكمة أن لايبعث الخلائق حتى يأخذ للمحق حقه ، ويعاقب المسىء .

ويجوز أن يكون الاستثناء من عموم الأسباب ، والمعنى : ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، وهو عبادة الله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» ثم بعثهم وحسابهم وجزاؤهم .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢- (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

هذه الآيات تهديد بملاقاة الجزاء بعد تقرير إمكان البعث ، وأنه سيكون ، أى : إن يوم القيامة الذى يفصل الله فيه بين الحق والباطل ، وبين المحق والمبطل ، هو موعد الخلق وميقاتهم أجمعين ، المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ليواجه كلٌّ جزاء ما قدم فإما ناراً وزقوماً وإما جنات ونعيما .

(يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) أى : يوم الفصل هذا يوم لا يغنى صاحب عن صاحبه ، ولا يعين قريب قريبه ، ولا يغنى والد عن ولده ولا ولد عن والده ولا يدفع حليف عن حليفه ، ولا تتعصب قرابات ، ولا تتناصر صلات «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ »[1] لا تجد نصيرًا ولا مجيرًا (إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لا يمنع من عذاب يوم الفصل شىء ، ولا يمتنع عليه أحد إلا من يتجلىَّ الله عليه بالرحمة والعفو وقبول الشفاعة فيه من المؤمنين ، إن الله هو العزيز الغالب الذى لا ينصر أحدٌ من أراد عذابه ، الواسع الرحمة لمن أراد أن يرحمه .

وفى هذا الاستثناء تنفيس لهول الكربة ، وانفراج لِبَابِ الرحمة حتى لا ييئس عائذ ، ولا ينقطع رجاء لائذ .

(١) سورة عبس الآيات من ٣٧ - ٤٠ .

(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(شَجَرَةَ الزَّقُّوم) : شجرة مرة .

(الْأَثِيمِ) : كثير الإثم ، والمراد : الكافر .

(الْمُهْلِ) : مايمهل ويصهر فى النار حتى يذوب ، وقيل : دُرْدِيٌّ الزيت .

(فَاعْتِلُوهُ) : فجروه بعنف ومهانة .

(سَوَاءِ الْجَحِيمِ) : وسط النار .

(تَمْتَرُونَ) : تشكُّون .

التفسير

٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ - (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) :

هذه الآيات تصوير لنوع من العذاب الذى يتجرعه الكافر فى نار جهنم .

والمعنى : إن شجرة الزقوم هذه الشجرة المرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، إن هذه الشجرة طعام الكافر كثير الإثم يطعمها فتنزل فى جوفه

غاية فى الحرارة كدُرْدِىِّ الزيت ، أو دردى القطران يغلى فى جوفه كغلى الماء الذى بلغ أعلى درجات الحرارة فيقطع أمعاءه .

٤٧ ، ٤٨ ـ (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَآءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ) :

يقال لزبانية جهنم :جرّوه فى عنف وشدة واحتقار ومهانة فارموه وسط النار ،ثم ضاعفوا عليه العذاب فصبوا فوق رأسه من هذا العذاب مايحرق جلده ، فيجتمع عليه من العذاب عذاب الباطن والظاهر .

٤٩ ـ (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) :

وقولوا له ـ زيادة فى الامتهان ، وإمعانا فى الإذلال والتقريع والتوبيخ ـ : ذق وتجرع من صنوف العذاب وألوانه ، فلطالما ادّعيت لنفسك فى كفرك وغُلَوَائك أنك أنت العزيز الذى لا يُذل ، الكريم الذى لايُمتهن ولا يبتذل .

روى أن أبا جهل عمرو بن هشام قال لرسول الله ﷺ : مابين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ماتستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بى شيئا . لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم ، فنزلت :

٥٠ ـ (إِنَّ هَٰذَا مَاكُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ) :

أى :إن هذا العذاب الذى تقاسون ، والجزاء الذى تلاقون ، إن هذا ما كنتم تنكرون وتشكُّون فيه ، وعدل الأُسلوب من الإفراد إلى الجمع باعتبار المعنى ؛لأن المراد جنس الأَثيم .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(أَمِينٍ) : يأمن صاحبه الآفات ، أو فناء نعيمه ونعمه .

(سُندُسٍ) : هو الحرير الرقيق .

(وَإِسْتَبْرَقٍ) : هو الديباج الغليظ شديد البريق .

(حُورٍ) : جمع حَوْراء ، من الحور : وهو شدة سواد العين فى شدة بياضها .

(عِينٍ) : جمع عيناء وهى واسعة العينين .

(وَوَقَاهُمْ) : وحفظهم .

(فَضْلًا) : تفضلا .

التفسير

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ـ (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ) :

حكت الآيات السابقة عذاب الآثمين الكافرين ، وعددت ألوانه وصوره ، وجاءت هذه الآيات تعرض نعيم المتقين وهناءتهم ، لتتألف صورة متكاملة تمثل هوان الآثمين فى

عذابهم وذلِّهم ومهانتهم ، وبهجة المتقين فى نعيمهم وعزّهم ومكانتِهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

والمعنى : إن المؤمنين المتقين الذين حققوا لأنفسهم الأَمن ، وزكوها بعمل الصالحات الباقيات فَوَقَوْها من العذاب - إن هؤُلاءِ المؤمنين - ينزلون يوم القيامة فى مقام أَمين يأْمنون فيه من الآفات والمنغصات ، ومن كل ما يكرهون ، لا يخافون من حرمان أَو إقلال أَو فوات .

وقوله : (فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) بيان للمقام الأَمين ، وما يحتويه من أَلوان النَّعِيم من بساتين مثمرة مورقة ، وعيون من الماءِ ثرة ، بين الأَشجار والزهور دافقة ، وملابس متنوعة متفاوتة من رقيق الحرير ، وغليظ الديباج الأَخاذ البرّاق مما كانوا يتحاشون استعماله فى الدنيا طاعة ، وتواضعا ، وعزوفاً عن نعيمها ، وهم بين هذا كله يتنعّمون بالجلوس على الأَرائك متقابلين ينظر بعضهم وجوه البعض ولا يُعْرِض عنه؛ زيادة فى التكريم والنَّعيم .

٥٤ ، ٥٥ - (كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) :

لا تزال الآيات موصولة فى وصف نعيم المتقين ، أَى : الأَمر كذلك ، أَو مثل هٰذه الإِثابة أَثبناهم ، وقرَنَّاهم زيادة فى النعيم بحور عين كثيرات ، من حور الجنة الجميلات اللاتى ترغب النفس فى النظر إلى وجوههن وعيونهن الجميلة .

وقوله - تعالى - : (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ) إشارة إلى أن نعيمهم لا يقف عند ما بين أَيديهم وتحت نظرهم ، وإنما هو شامل لكل ما يخطر ببالهم من كل ما يشتهون ، أَى : يدعون ويطلبون كل ما يحبون وما يشتهون من كل فاكهة فتتوفّر لهم ، لا يتخصص شىء منها بزمان أَو مكان ، آمنين لا يخافون من تعاطيها مضرَّة أَووجعا أَو قلة أَو نفادا .

٥٦ ، ٥٧ - (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى : ومن جملة ما يتنعمون به الخلود الدائم فى الجنَّة لا يذوقون فيها الموت ، ولا يلحقهم إلا الموتة الأُولى التى فارقوا بها الحياة لينعموا بعدها بنعيم الآخرة ، والمقصود أنهم لايذوقون فيها الموت أبدا ، ولفظ (إلَّا) بمعنى لكن ، أى : لكن يذوقون الموتة الأُولى فحسب .

(وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) أى : حقق الله لهم هذا النعيم كله وحفظهم من العذاب وجنبهم دار الجحيم ، وفيه الإشارة إلى أن وقايتهم من عذاب جهنم وحدها أعظم نعمة ، وأجلّ تكريم ، فكيف إذا انضم إليها كل هذا النعيم .

وإنما خصهم بذلك ، وإن كان أهل الآخرة كلهم لايموتون ، لما فى ذلك من البشارة لهم بالحياة الهنيئة فى الجنة ، فأمّا من يكون فى النار ، وفيما هو فيه من الشدة والهول فإنه لا تطلق عليه هذه الصفة ؛لأنه يموت موتات كثيرة بما يقاسيه من أهوال ،وما يعانيه من عذاب ونكال ، ثم يحيا بعد كل موتة ليعود إليه العذاب ، وقوله تعالى : (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) معناه : هذا الذى نالوه من ألوان النعيم فى الجنة نالوه وأُعطوه تفضلا من الله وتكرُّماً ، فإن جميع أعمالهم الصالحة لاتكافئُ أبسط نعم الله عليهم فى الدنيا . ذلك الذى نالوه هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، لأنه خلاص من المكاره والمعاطب وتحقيق للمطالب والرغائب .

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾)

المفـردات :

(يَسَّرْنَاهُ) : سهلناه .

(بِلِسَانِكَ) : بلغتك العربية

(فَارْتَقِبْ) : فانتظر .

التفسير

٥٨، ٥٩ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ) :

تنتهى هذه السورة المباركة بمثل ما بدأت به من الحديث عن القرآن الكريم وإنزاله فى ليلة مباركة ، ليكتمل فيها شرف البدء والختام بالحديث عن أعظم كتاب وأصدق كلام .

أى : فإنما أنزلنا الكتاب المبين بلغتك وسهّلناه بنزوله قرآناً عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل فهمه وتدبّره لكى يتذكروا ، وينتفعوا بهديه ، فيعملوا بموجبه ، وإن لم يستجيبوا ويتعظوا فانتظر عاقبة أمرهم ، وما يحلّ بهم ، فإنهم منتظرون عاقبة أمرك وما يحلّ بك ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والعاقبة عند ربك للمتقين .

وفى الآية تكريم للرسول والعرب بنزول القرآن بلسانهم أى تكريم .

((سورة الجاثية))

سورة الجاثية من جملة سور «آل حم» لباب القرآن وعرائس آياته ، وهى سورة مكية ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

نزلت بعد سورة الدخان على ماهو معروف من نزول سور « آل حم » جملةً مرتبة متتابعة .

وسميت سورة الجاثية لقوله - تعالى - فيها : (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) أى : باركة على الرُّكب مستوفزة ، وتسمّى أيضا سورة الشريعة ، وسورة الدهر لذكر هذه الألفاظ فيها ، والأصل أن تسمى السورة باسم أمر ذى بال مذكور فيها ، وغلب عليها هذا الاسم لما جاء فيها من الأهوال التى يلقاها الناس يوم الحساب حيث تجثو الخلائق على الرّكب فى انتظار الحساب ، ويغشاهم من الفزع مالايخطر على بال .

وبدأت بالحديث عن القرآن جريا على أسلوب السور التى تبدأ بِسَرْدِ حروف المعجم ، وليتصل أولها بآخر السورة التى قبلها .

اهدافها :

تناولت هذه السورة العقيدة الإسلامية ، وأفاضت فى الحديث عنها ، والتوسع فى تحقيقها ، فتكلمت عن الإيمان ، والوحدانية ، والرسالة المحمدية ، والقرآن والبعث والجزاء .

وقد بدأت كغيرها من سور «آل حم » بالكلام عن القرآن ، وإنزاله من العزيز الحكيم ، ثم عرضت لذكر آيات الله فى خلق السموات والأرض ، وما بثّ فيهما من إنسان وحيوان ، وبدائع صنع ، وروائع حكمة ، وتجلّى هذا فى اختلاف الليل والنهار ، وتسخير الرّياح والأمطار ، وإنبات الزرع والأشجار ، وجرى البحور والأنهار ، ثم عرضت لأحوال الكافرين الذين يصمّون أسماعهم ، ويعطلون عقولهم ، فلا يتدبرون فى هذه الكائنات ولا يتّعظون بهذه الآيات ، ثم تنتقل إلى الحديث عن نعم الله تعالى على العباد ، وتسخير مافى السموات ومافى الأرض جميعا لتيسير حياتهم ، وتسهيل معاشهم ، وتُعَقِّب ذلك بأن لكلٍ واحد جزاءه (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

ثم تتحدث عن بنى إسرائيل وما أفاء الله عليهم من النبوات والحكمة ، وما يسّره لهم من الطيبات ، وآتاهم من البينات والآيات فلم يكن منهم إلا الخلاف ، والاندفاع فى الطغيان والانحراف .

ثم تتجه الآيات إلى نبوّة سيدنا محمد ﷺ وأنها جاءت على منهاج واضح ، وشريعة مستقيمة يجب اتباعها ، والسلوك على هديها ، والبعد عن الأهواء وسلوك سبيل الطغاة الجاحدين الذين لا يفلتون من عذاب الله ، ولايكونون أبدا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم خوّفت الآيات فى أسلوب شديد من اتباع الهوى والضلال على علم ؛ فيختم على السمع والقلب ، ويغشى النظر فلا يكون لصاحبه هداية ، ويندفع فى ضلاله فينكر البعث والجزاء ، وإذا تتلى عليه آيات الله ولّى مستكبرا معرضا عن الاتعاظ والاعتبار خلودا إلى الدنيا ، وغرورا بها ، وكفرا بالله الذى خلقهم ، وأحياهم ثم يميتهم ويجمعهم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، وتدعى كل أمة إلى كتابها لتلقى جزاءها ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ، وأما الذين كفروا فيقال لهم : ألم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم مجرمين . فاليوم جزاؤكم جهنّم لاتخرجون منها ولا تستعتبون .

ثم تنتهى آيات السورة بإثبات الحمد والكبرياء لله ربّ السموات والأرض العزيز الحكيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾)

المفردات :

(حمٓ) : حرفان من المعجم .

(الْكِتَابِ) : القرآن .

(الْعَزِيزِ) : القوى الغالب .

(الْحَكِيمِ) : العالم المتقن للأمور الذى يضع الشىء فى موضعه .

التفسير

١ ، ٢ - (حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

ختمت سورة الدخان بقوله - تعالى - : «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ» ثم بدأت هذه السورة بالحديث عن القرآن أيضا تنويها بفضله ، وإبرازا لمنزلته ومكانته ؛ وقوله تعالى : (حمٓ) سرد لحرفين من المعجم لاتشكيل على أواخرهما ، والكلام عنهما مثل الكلام عن سوابقهما من السور المبدوءة بحروف المعجم معنى وموقعا وإعرابا وبخاصة سورة البقرة .

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) : أضاف الله - سبحانه وتعالى - تنزيل القرآن إلى نفسه فى مواضع من السور استفتاحا بتعظيم شأنه ، وتفخيم قدره ، وما اقتضى هذا المعنى لايكون تكريرا .

(إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَبُثُّ) : ينشر ويفرّق .

(وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : وتعاقبهما وتفاوت أحوالهما .

(رِزْقٍ) : مطر يتسبب عنه الرزق .

(أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) : أحياها بالزروع .

(مَوْتِهَا) : جفافها ويبسها .

(تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) : اختلاف أحوالها .

التفسير

٣ـ (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

كلام مستأنف مسوق للتنبيه على الآيات التكوينية ، الآفاقية والنفسية ، أى : إن فى خلق السموات وما حوت من كواكب وأفلاك ،وفى خلق الأرض ومايجرى فى جوّها من طيور وسحب ، وما يختلف عليها من صحو وغيم ، وما يسمع فيها من رعد ،ويُرى من برق ، وفى خلق الأرض وبسطها وما بث فيها من خلائق وأجرى فيها من أنهار ، وأنبت من زروع ، وأرسى من جبال ، وأبدع من عجائب ـ إن فى هذا كله ـ لآيات وحججا تدل

على أن لها خالقا قادرا . ومدبّرا حكيما ، وعالما بصيرا -لآيات- ينتفع بها الذين يطلبون الإيمان ، وينشدون الهداية ، ويحسنون التدبّر فى الآيات ، والإذعان للمعجزات .

٤- (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

المعنى : وفى خلق الله إياكم ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من بدائع الصنعة ، وعجائب الخلقة ، واختلاف الأشكال والألوان ، والألسن والأجناس ، وما يتعاقب عليكم من أحوال وأطوار ،منذ أول نشأتكم ، وأنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم حتى انتهاء آجالكم ، وفى خلق مايبثّ من دابة ، وما ينتشر على الأرض من أجناس الحيوانات ، وأصناف الحشرات مما يمشى على بطنه ، وما يمشى على رجليه ، وما يمشى على أربع أو أكثر ، مع اختلاف منافعها ، والمقاصد المطلوبة منها - إن فى هذا كلّه - دلائل وبراهين لقوم يطلبون الاطمئنان على وجود الصانع الحكيم ، وينشدون اليقين والاستقرار ليصل بهم ذلك إلى الإيمان والتوحيد ، والتزام الطاعة ، والسلوك السديد .

٥- (وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : وفى اختلاف أحوال الليل والنهار من التعاقب والطول والقصر ، والحرّ والقرّ والنور والظلمة ، وما يتبع ذلك من تغاير الفصول ، واختلاف المنافع ، والمقاصد ، وفيما ينزل من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد يبسها وجفافها ، فينبت الزرع ، ويَحْفُل الضرع ، وتجرى الأرزاق ، وتعمر الآفاق ، وفى تصريف الرياح فتهب مرّة جنوبا وأخرى شمالا ، وحيناً صَباً بالرحمة وماء السحاب ، وحيناً دَبُورا تبعث العذاب ، وفيما تؤدّيه من تزاوج النبات ، وتيسير سير السفن فى الأنهار والمحيطات - إن فى هذا كله - شواهد صدق وآيات حق لقوم يعقلون الآيات والأدلة ، ويحسنون الانتفاع بالعقل فيديرون فيها الفكر والرأى ، ليعلموا أن لهذه الأشياء صانعا حكيما ، وخالقا قادرا عظيما .

وفى تنكير الآيات فى المواضع الثلاثة تنبيه إلى كثرتها ، وتفخيمها كمًّا وكيفا ،

(تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك ، وهى كلمة تقال للعذاب ، كما يقال : وَيْحٌ للرحمة .

(أَفَّاكٍ) : كثير الكذب .

(أَثِيمٍ) : مذنب كثير الإثم .

(يُصِرُّ) : يستمسك ويدوم .

(فَبَشِّرْهُ) البشارة فى الأصل : الخبر المغير للبشرة خيرا كان أو شرًّا ، وخصها العرف بالخبر السار ، واستعمالها فى الشر تهكم .

(مُسْتَكْبِراً) : متعالياً عن الإيمان بما سمع .

(هُزُواً) : سخرية واستهزاء .

(مِن وَرَآئِهِمْ) الوراء : اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام .

(الرِّجْزِ) : أشد العذاب - ويطلق أيضا على القَذر كالرجس .

التفسير

٦ - (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآيات وعيد لمن لم يصدق الآيات السابقة فلا يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر، وبكل ماتجىء به والنبوات من الشرائع .

والمعنى : تلك الآيات من القرآن أو السورة أو ماذكر من السموات والأرض وما فيهما الناطقة بالبراهين على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته نقرؤها عليك ونتلوها مقرونة بالصدق ، لتبلِّغها وتقرأها عليهم، فلا ينبغى أن يكون منهم إلاَّ تصديقها والإيمان بها ،فإنه ليس وراءها غاية ، ولا بعدها بيان ، وإذا لم يؤمنوا بها فبأَى حديث بعد حديث الله وآياته المفصلات يؤمنون ويصدقون ، فإنه لا أبين من هذا البيان ، ولا آيات أوضح من هذه الآيات فى صدق الدلالة ونصوع البرهان .

فالمقصود بالحديث القصص القرآنى الذى يستخرج منه عبر تميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، عن الإلٰهيات وأحوال الآخرة .

٧ ، ٨ - (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

أىْ : هلاك وعذاب لكل مبالغ فى الكذب دائم عليه ، كثير الإثم ملازم للمعصية .

وقوله -تعالى- :(يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ) بيان لحال الأفاك المستحق للويل ، أوصفة له ، أى : يسمع هذا الأفاك الأثيم آيات الله من القرآن الكريم تتلى عليه وتقرأ ثم لايلبث بعد سماعها أن يغلبه جهله ويشده عناده وكفره فيعرض عنها ويصرّ على إنكارها ، ويقيم على هذا الكفر ويلازمه مستكبرا عن الإيمان بما سمعه متعظِّما فى نفسه عن الانقياد للحق مثل غير السامع أصلًا .

(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) أى : فأخبره ساخرا مستهزئا بعذاب بالغ أقصى غايات الإيلام والإيجاع على إصراره ذلك .

٩ ، ١٠ - (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّاكَسَبُواْ شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

كان النضر بن الحارث يشترى أحاديث الأعاجم يلهى بها عن القرآن ، ويعارضه ، ولما سمع أبو جهل قوله - تعالى - : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » سخر واستهزأ ، وأحضر تمرا وزبدا فجمع بينهما ، وأكل منهما وهو يقول فى سخرية : هذا هو الزقوم الذى يخوفنا محمد به ، نحن نتزقمه ، أى : نملأ به أفواهنا ، والمعنى : وإذا علم هذا الأفاك الأثيم وبلغه شىء من آياتنا من حجج أو وعيد بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما علمه .

أولئك الكذابون الآثمون لهم عذاب بالغ المهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم ، وقوله - تعالى - : (مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ . .) . الآية :

أى : من قدامهم جهنّم ،لأنهم متوجهون إليها ، وإلى ما أُعدّ لهم فيها ، أو من خلفهم بعد موتهم ، فإن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو من قدّام ، ولايغنى عنهم ماكسبوا من الأولاد والأموال ولايدفع شيئا من عذاب الله ، كما لايغنى عنهم ما اتخذوا من دون الله من الأصنام شيئا ، وإن زعموا غير ذلك . ولهم عذاب عظيم لايقادر قدره ،واختلاف الفواصل للترق فى وصف العذاب تبعًا لتعاظم الذنب ، فالعذاب الأليم جزاءُ الإصرار على الإعراض عن الآيات ، والعذاب المهين جزاء للاستهزاء بها أشد وأبلغ ، والعذاب العظيم جزاء أوفى لاتخاذ آلهة غير الله .

١١ - (هَـٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ) :

بهذه الآية تختم آيات الوعيد .

والمعنى : أن القرآن الكريم فى غاية الكمال من الهداية كأنه الهداية نفسها ،والذين كفروا به وبآياته لهم عذاب من أشد العذاب وأقساه وقعا وألما .

وتنكير عذاب فى المواقع الثلاثة للتهويل، وزيادة التخويف ، كما أن وضع آيات ربهم موضع الضمير لزيادة تشنيع كفرهم ، وتفظيع حالهم مع التنويه بمنزلة القرآن الكريم .

(۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ) : ذلَّل .

(بِأَمْرِهِ) : بإذنه وتسخيره .

(يَغْفِرُوا) : يعفوا ويصفحوا .

(لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) : لايتوقَّعون وقائعه بأعدائه ونقمته فيهم .

(لِيَجْزِىَ قَوْمًا) : ليُكافِىء المؤمنين الغافرين

(وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا) أى : ومن أساء فعلى نفسه أساء .

التفسير

١٢ - (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

بعد أن ساق القرآن فيما تقدم من الآيات أدلّة كونية وعقلية على عقيدة الإيمان وتوعد المخالفين الآثمين بما توعّد . ذكر هُنَا بعض نِعَم الله وآلائه ، وفضله الّذى

منّ به على عباده ، ليشكروه على مابه أنعم ، وليتفكّروا فى بديع صُنْعه ، وعظيم قُدرته فقال ـ سبحانه ـ : (اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ...) إلخ .

والمعنى : الله وحده ـ لاشريك له ـ هو الَّذى ذلَّل لكم البحر وهيأه وأعده سائلا يطفو عليه مايتخلخل كالأخشاب ، لِتَسير السفن فيه مَاخِرَة عُبَابه ، حاملة النَّاس وأرزاقهم ومتاعهم بأمره ـ سبحانه ـ وإذنه ، ولتطلبوا من فضله من خيرات البحر ومنافعه بالتَّجارة والصيد واستخراج المعادن ، ولكى تشكروه على حصول المنافع المجلوبة لكم من الأقاليم النَّائية ، فتُخْلِصُوا له الدين والعبادة .

١٣ ـ (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :

أى : وذلَّل لكم مافى السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بحرارتها وضوئها ، وسخر لكم مافى الأرض من دابة وشجر وزرع وبحار وأنهار وغيرها من جميع ما تنتفعون به ويُسَهِّل لكم سُبُل الحياة ، هذه الأشياء وغيرها كائنة منه ، وحاصلة من عنده ، فهو مُكَوِّنها ومُوجِدها بقدرته وحكمته ثم سخَّرها لخلقه .

إنَّ فيما ذُكر من نِعَم لآيات عظيمة الشأن كثيرة العدد لقوم يتفكَّرون ويتدبرون فى بدائع صنعه تعالى وعظائم شئونه ـ جلّ شأنه ـ فإنَّ ذلك يدعوهم إلى الإيمان به والشُّكر له .

١٤ ـ (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

سبب النزول :

حكى النَّحاس والمهدوى عن ابن عباس أنَّها نزلت فى عمر ـ رضى الله عنه ـ شتمه مُشرك من غفَارٍ [1] بمكة قبل الهجرة فهم أنْ يَبْطِش به فنزلت ، ورُوِى ذلك عن مقاتل ، وهذا ظاهر فى كونها مكِّية كأخواتها من آيات السورة (ذكر ذلك الآلوسى والزمخشرى) .

وقيل : إنَّ النبى ﷺ وأصحابه نزلوا فى غزوة بنى المُصْطَلِق على بئر يقال لها (المُرَيْسِيع) فأرسل ابن أُبَىّ غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ماحبسك ؟

---

(١) غفار : اسم قبيلة .

قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى مَلَأَ قِرَبَ النبى - ﷺ - وقرب أبى بكر ، فقال ابن أبى : ما مثلُنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سَمِّن كلبك يأْكُلْك فبلغ ذلك عمر-رضى الله عنه-فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه فأنزل الله الآية ، وحكاه الإمام عن ابن عباس أيضا ، وهو يدل على أنّها مدنية ، وكذلك ماروى عن ميمون بن مهران قال : لما أنزل الله قوله-تعالى-: (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .) إلخ قال فِنْحَاصُ اليهودى : آحتاج رب محمد ؟ فسمع بذلك عمر فاستلَّ سيفه وخرج فبعث النبى ﷺ فى طلبه حتى رده ، ونزلت الآية . (ذكره الآلوسى) .

والمعنى : قل-أيها النبى الكريم - للمؤمنين : اغفروا لمن أساء إليكم فيغفروا ويصفحوا عن الأذى الذى أصابهم من الذين لايتوقعون وقائع الله تعالى ، ولايخافون نقمته عليهم لكفرهم ، ولو عقلوا لخافوها وبدلوا بكفرهم إيمانا حتى لاتنزل بهم وقائعه ونقمه ، وقد أمر الله رسوله أن يبلغ المؤمنين أمره-تعالى-بأن يغفروا لمن أساء إليهم حتى لايشغلوا أنفسهم بقتالهم قبل أوانه ويتركوا أمر عقابهم لله تعالى فيجزيهم بما كانوا يكسبون .

١٥ - (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) :

الآية مستأنفة لبيان الجزاء المذكور فى الآية السابقة ، والمعنى : من عمل صالحاً فلنفسه الأجر والثواب على عمله ، ومن أساء بفعل القبائح وعمل السيئات فَعَلَى نَفْسِه أساء ، فعليه وزرُ عمله وقُبْح فعله ، ثم إلى مُرَبِّيكم وخالقكم ومالك أموركم تُرجعون وتعودون يوم القيامة فيُجَازيكم على أعمالكم خيرًا على الخير ، وشرًّا على الشّر .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾)

المفــردات :

(ٱلْكِتَابَ) : التَّوراة ، أو هى والزَّبور والإنجيل .

(وَالْحُكْمَ) : والقضاء بين الناس ، أو الفقه فى الدِّين .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) : وفضَّلناهم بكثير من نِعَم الدنيا على العالمين ،أو فضَّلناهم فى الدين على عَالَمِى زمانهم الوثنيين .

(بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ) : أدلَّة فى أمر الدِّين ويندرج فيها المعجزات .

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) : ظلما وعداوة وحسدا .

(شَرِيعَةٍ) : منهاج وطريقة .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) : ولا تتّبع مالاحجة عليه من آراء الجهال التابعة للشهوات .

(هَٰذَا) أى : القرآن .

(بَصَآئِرُ) : بينات واضحات .

التفسير

١٦ - (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ) :

والمعنى : ونقسم لقد أعطينا بنى إسرائيل التّوراة والزّبور والإنجيل والقضاء بين النّاس والحكم بما فى هذه الكتب ، والنّبوة المُعْطاةَ من عند الله ، حيث أرسل فيهم كثيرًا من الأنبياء-عليهم السلام - لكثرة أمراضهم الخلقية وشدة مُخَالفتهم ، ورزقناهم من المُسْتَلَذَّات والخيرات المتنَوِّعة كالمنّ والسلوى وغيرهما من خيرات الشام ، وفضّلناهم بكثير من النِّعم فى الدنيا - فضلناهم - على العالمين حيث آتيناهم مالم نُؤت غيرهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما ، فما رَعَوا هذه النِّعم حق رعايتها ، وما شكروا الله عليها ، فالمراد تفضيلهم على العالمين من بعض الوجوه ، فلا ينافى ذلك تفضيل أمّة مُحَمَّد ﷺ عليهم من جهة المرتبة والشّرف والثّواب ، قال -تعالى- : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »[1] وقيل :المراد بالعالمين عَالَمُو زمانهم .

١٧ - (وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوٓا إِلَّا مِن بَعْدِ مَاجَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

وأعطيناهم دلائل ظاهرة وحججاً واضحة فى أمر الدين كمعجزات موسى-عليه السلام- وعن ابن عباس :آيات من أمر النّبى ﷺ وعلامات مبيِّنة لصدقه ، ككونه يُهَاجر

---

(١) سورة آل عمران من الآية:١١٠ .

من مَكَّة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مِمَّا ذكر فى كُتُبهم ، فما وقع بينهم اختلاف فى ذلك الأمر إلَّا من بعدما جاءهم العلم ، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف مُوجبا لحُدُوثه وحصوله ظلما وعداوة وحسدا منهم للنبى ﷺ ، وفى ذلك يقول الله – تعالى – فى سورة البينة : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » إنَّ رَبك – أيّها الرسول – سيفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كانوا فيه يتنازعون ويتفرقون من أمر الدين ، وسينال كل ما يستحقُّه من الجزاء ، وفى هذا تحذير لأُمّة محمد أنْ تسلك مَسْلكهم وتنهج منهجهم لئلاَّ يصيبها ما أصابهم وما سيُصيبهم ، ولهذا قال سبحانه .

١٨ – (ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

ثم جعلناك – أيها الرسول ، بعد اختلاف أهل الكتاب – على طريقة واضحة ، ومنهاج قويم من أمر الدِّين الَّذى شرعناه لك ولِمَنْ سَبَقَك مِنْ رُسلنا ، فاتَّبع ما يُوحى إليك مِنْ ربِّك وهو شريعتك الحقَّة الثَّابتة بالدلائل والحُجَج ، ولا تتَّبع مالا دليل عليه مِنْ آراء الجهال فى دينهم الباطل المبنىِّ على البدع والأهواء .

قيل : المُراد بهم بنو قريظة والنَّضير ، وقيل : رؤساء قُريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك ، واللَّفظ عام يصدق على كل مُعَوِّق عن طريق الحقِّ مُضِلٍّ عن الصِّراط المستقيم .

ولقد جاء فى البحر : الشَّريعة فى كلام العرب : الموضع الذى يَرد منه النَّاس فى الأنهار ونحوها ، فشريعة الله حيث يرد النَّاس منها أمر الله – تعالى – ورحمته والتقرب منه عزَّ وجل : (ذكره الآلوسى)

١٩ – (إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ) :

الجملة مستأنفة وهى تعليل للنَّهى السابق فى قوله – تعالى – : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أى : أَنَّ الطَّامِعين فى اتِّباعك لهم ، الباذلين فى سبيل ذلك كل نفيس ، لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً لو اتَّبعْتهم ، وإنَّ الظَّالمين المتجاوزين حدود الله

بعضهم أنصار بعض وأعوان لهم على الباطل ، فلا تُوَالهم باتِّباع أهوائهم ، ودم على ما أنت عليه مِنْ مُوَالَاتك لله - سبحانه - والإعراض عمن سواه واتِّباع شريعته ، فذلك خُلُق المتقين وأنت قدوتهم وإمامهم ، والله ناصرهم وَوَلِيهم ، وشتَّان بَيْنَ مَنْ كان وليُّه الشَّيطان ومَنْ كان وليّه الرّحمن وما أَبْيَنَ الْفَرْق بين الولايتين

٢٠ - (هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) :

أى : هذا القرآن الَّذى أُنزل عليك معالم للنَّاس ودلائل تبصِّرهم بالدِّين الحقّ ، وهو هُدى يعصمهم من الضَّلالة ويُرْشدهم إلى طريق الخير ومسالك البرّ ، ورحمة من العذاب لقوم يطلبون اليقين ، فإذا عرفوا دليل الحق آمنوا به ولم يجادلوا فيه .

(أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ) : اكتسبوا الكفر والمعاصى

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أى : كَاسِبُهم .

(سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) : قَبُح ما يقضون به .

(أَفَرَأَيْتَ) أى : أنظرت من هذه حالُه فرأيت[1]

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ) : من اتخذ هواه معبودًا له فخضع له وأطاعه .

(وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) أى : تخلى الله عن هدايته لعلمه أنه يستحقُّ ذلك ، لاختياره له بعد بلوغ العلم إليه وإعراضه عنه .

(وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) : وأغلق سمعه فلا يقبل ما ينفعه ، وختم على قلبه فلا يعتقد حقا لإصراره على كفره .

(وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً) : غطاءً أو ظُلْمَةً فلا يُبصر دواعى الهدى .

(فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ) : فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه؟ أى : لا أحد يهديه .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون النظر فلا تتعظون .

التفسير

٢١ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

استئناف مسوق لاستنكار التَّسوية بين حال المسيئين والمحسنين .

سـبب النزول :

جاء فى البحر عن الكلبى أن عُتبة وشيبة والوليد بن عُتبة قالوا لعلىّ - كرّم الله وجهه - ولحمزة - رضى الله عنه - وللمؤمنين : والله ما أنتم على شىء ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحَالُنَا أفضلُ من حالكم فى الآخرة كما هو أفضل فى الدّنيا ، و (أَمْ) فى الآية بمعنى بل والهمزة لإنكار الحسبان ، أى : بل أحَسِب .

---

(١) أبو حيان جعل (أفرأيت) بمعنى أخبرنى .

والمعنى : بل أحسب الَّذين اكتسبوا ما يسيء إليهم من الكفر والآثام أن نُصَيِّرهم كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات ونُسَوِّى بين الفريقين بعد الممات بالجنة ونعيمها كما يزعم الكافرون ؟ ! قَبُحَ ما يَقْضُون به مِن الحُكْم الجائر الَّذى يُسَوِّى بين المحسنين والمسيئين ، فإنهم وإن تساووا محيا فى نحو الرزق والصحة لا يستوون مماتا ، فالمؤمنون فى روضة يحبرون ، والكافرون فى النار خالدون ، وقال الزّمخشرى: المعنى إنكار أن يستوى المحسنون والمسيئون محيا وأن يستووا مماتا لافتراق أحوالهم فى ذلك ، والآية مُتَضَمِّنة للرد على الكفَّار كما يُعرف بأدنى تدبّر ؛ لأنَّ الله إذا أنكر عليهم المُساواة فكيف بالأفضليّة ؟ ! قال ابن عطيّة : إنَّ لفظ الآية يعطى أنَّ اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالإيمان .

٢٢ - (وَخَلَقَ اللهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

الآية الكريمة دليل على إنكار حسبانهم السابق ؛ لأن خلق العالم بالحقّ المقتضى للعدل يستدعى انتصاف المظلوم من الظَّالم والتَّفاوت بين المسىء والمحسن ، وإذا لم يكن فى الْمَحْيَا كَان بعد الممات حقًّا ، والمعنى : وخلق الله السّموات والأرض بالحكمة والصّواب دون العبث والباطل ، وأقام نظامهما على العدل والإنصاف لتظهر دلائل ألوهيته وأمارات قدرته وحكمته ، ولتُجْزى كلّ نفس بما فعلت من خير أو شرّ وهم لا يُظْلَمُون بنقص ثواب أو زيادة عقاب ، وذلك منه تفضُّل وكرم ؛ لأنَّ الخلق عبيده يفعل بهم مايشاء ، ولكن شاءت حكمته وعدله ذلك ووعد به ، ووعده لا يتخلَّف .

٢٣ - (أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

هذا القول الكريم تَعْجيب مِنْ حال مَنْ ترك مُتَابعة الهُدى إلى مُطاوعة الْهَوَى فكأنه يعبد الهوى ، فالكلام على التَّشبيه .

والمعنى : أنظرت فرأيت - أيها الرسول - حال من اتَّخَذَ إلٰهه هواه ، فهو مطواع لهوى النَّفس ، يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنَّه يعبده كما يعبد الرّجل إلهه :وقرئ (آلِهَةً هَوَاهُ) لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا وجد ماهو أحسن منه رفضه إليه أو أبقى عليه فكأنَّه اتَّخذ هواه إلها أو آلهةً شَتَّى يعبد كلّ وقت واحدا منها ، وأضلَّه الله فصرفه عن الهداية وخذله عن طريق الحقّ على علم منه - تعالى - بذلك ؛ لأنَّه علم أنَّ ذلك اختياره وإرادته وإصراره علية ، أو أضلَّه الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه وأغلق الله سمعه وقلبه فَحِيلَ بينه وبين أن يسمع ما ينفعه مِنَ الهُدَى ، أو يَعِى شيئا بعقله ويهتدى به ، وجعل على بصره غطاء وغشاوة ، فلا يُبصر الحقّ ولا يرى حجّةً يستضىء بها ؛ لأنه محجوب عن الاستبصار والاعتبار ، والكلام على التمثيل كما يُقرِّر ذلك العلَّامة الآلوسى ، فمن يهديه من بعد إضلال الله إيّاه وإعراضه عنه وخذلانه له لاستحقاقه ذلك بإصراره على الكفر ؟أى لا أحد يهديه ، (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى : أتتركون التفكر والنَّظر فلا تتذكَّرون ولا تتَّعظون ؟ .

(وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحياها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) :يموت بعض ويولد آخرون ولامعاد ولاقيامة ، وسيأتى فى التفسير زيادة إيضاح .

(وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) : وما يُهْلكنا إلّا مُرور الزّمان .

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أى : ماهم إلّا قوم يتوهمون .

(مَاكَانَ حُجَّتَهُمْ) أى : ماكان قولهم الّذى ساقوه مساق الحجّة وليس بِحُجّة .

(ائْتُواْ بِآبَآئِنَا) : أحضروا آباءنا أحياء فى هذه الدنيا بعد أن ماتوا .

(قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ) : يُخْرجكم إلى الوجود بعد أن كنتم نطفا .

(ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) : ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة لا فى هذه الدنيا .

التفسير

٢٤ - (وَقَالُواْ مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) :

وقال المشركون : ما الحياة إلّا حياتنا الدنيا الّتى نحن فيها ولا حياة سواها .

(نَمُوتُ وَنَحْيَا) أى : تموت طائفة وتحيا أُخرى ولا حشر أصلا ، وقيل المعنى : نحيا ونموت ،يزعمون أن الحياة فى الدّنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة بالبعث ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النّسل والذّريّة مجازًا ،كأنّهمْ قالوا : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا ، وقيل : نكون مواتا نُطفا فى الأصلاب ونحيا بعد ذلك . (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ) أى : وما يفنينا إلّا طول الزّمان ومرور اللّيالى والأيّام ،وينكرون بذلك ملك الموت وقَبْضَه الأرواح بأمر الله .

وما يقولون ذلك القول وهو قصر حياتهم على الحياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدّهر ، ما يقولونه عن علم صحيح ويقين معتمد على عقل أو نقل ولكن عن ظن وتخمين وتوهّم وتخيّل .

٢٥ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

أى : وإذا قُرئت عليهم آيات الله واضحات الدّلالة على قدرته تعالى على البعث ما كانت حجتهم فى رد البعث إلا قولهم ائتوا بآبائنا أحياء فى هذه الدنيا إن كنتم صادقين فى أنّنا نُبْعَثُ بعد الموت ، وتسمية القرآن قولهم هذا حجّةً لسوقهم إيّاه مساق الْحُجَّة ، وعلى سبيل التّهكم بهم ، أى : ما كان حجّتهم إلّا ما ليس بحجّة ،والخطاب فى قوله تعالى : (ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) للرّسول والمؤْمنين ، إذ هم قائلون بمقالته من البعث طالبون من الكفرة الإقرار به ، ويجوز أن يكون للرّسول وللأنبياء قبله الّذين يقولون مقالته .

٢٦ - (قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : قل - أيّها الرّسول - لهؤلاء المنكرين للبعث : الله يحييكم ابتداء كما تشاهدون ذلك إذ يُخرجكم من النُّطف إلى هذا الوجود ، ثم يُميتكم عند انقضاء آجالكم - لا الدّهر كما تزعمون - ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة للحساب ، لا شكّ فى هذا الجمع .

ودليل إمكانه : أنّ من قدر على الخلق ابتداء قادر على الإعادة، وهى عليه أهون ، ودليل وقوعه وحصوله : أنّ البعث أمر مُمْكن - كما قدّمنا - وتقتضيه الحكمة لإعطاء كل ذى حق حقه ، وأخبر به الرّسول الصّادق ،وكلّ ما هو كذلك واقع لامحالة ،ولكن أكثر النّاس لا يعلمون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكُّر فى الدّلائل ، والقادر على البعث قادر على الإتيان بآبائكم ، وهو من تمام الكلام الّذى أُمربه الرّسول ، أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحقّ ، وتنبيهاً لهم على أنّ ارتيابهم لجهلهم وعجزهم عن النظر والتّفكّر .

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْمُبْطِلُونَ) : أهل الباطل وهم الكفَّار .

(جَاثِيَةً) : باركة على الرُّكب مُسْتَوفِزة ، وعن ابن عبّاس : جاثيةً : مُجتمِعَة ، وعن السّدى جاثية : خاضعة بلغة قريش .

(كِتَابِهَا) : صحيفة أعمالها ، وأفرد على الجنس . (يَنطِقُ) : يشهد .

(نَسْتَنسِخُ) : نستكتب الملائكة أعمالكم .

التفسير

٢٧ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) :

بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلى فى السّموات والأرض وفيما بينهما بالله -عزّوجلّ- إثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والجمع والبعث للمجازاة ؛ فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص ، يخبر الله تعالى أنه - وحده - مالك السّموات والأرض والحاكم فيهما والمسيطر عليهما فى الدنيا والآخرة ، ولذا قال : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) أى : وفى هذا اليوم - وهو يوم القيامة- يخسر أهل الباطل وهم الكافرون بالله المُكَذِّبون بما أنزله على رسله من الآيات ، المنكرون للبعث .

٢٨ ـ (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

وترى ـ أيُّها المكلف ـ كلّ أمّة من الأُمم المجموعة باركة على ركبها متحفّزة وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره ، وذلك من عظم الموقف وهول المحشر ، كلّ أُمّة تُدعَى إلى صحيفة أعمالها الّتى كتبها الحفظة لتُحاسَب على ما فيها ، ويقال لهم : اليوم تستوفون جزاء ماكنتم تعملون فى الدنيا من خير أو شرّ ، فنى الدنيا كان العمل ، واليوم يوم الجزاء على هذا العمل ، والمراد من كتاب كل أُمة : كتاب كل واحد من مكلفيها .

٢٩ ـ (هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هذا القول من تمام ما يقال لهم حينئذ .

والمعنى : ويُقَال لهم : هذا كتابنا الذى سجّلنا فيه أعمالكم ، يشهد عليكم بالعدل وينطق بالصّدق ، ويستحضر جميع ما عملتم من غير زيادة ولانقصان ، وعلّل لشهادته عليهم بالحقّ فقال :

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : إنّا كُنّا نأْمر الملائكة الحفظة أن تكتب أعمالكم لتُحَاسَبُوا عليها .

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ۚ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾)

المفــردات :

(فِى رَحْمَتِهِ) : فى جنته . (مَا السَّاعَةُ) : أى شىء الساعة ؟ ما حقيقتها؟ .

(وَحَاقَ بِهِم) : وأحاط بهم ونزل . (نَنسَاكُمْ) : نترككم فى العذاب ترك المنسى .

(كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا) : كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم بالإيمان ، والعمل الصالح .

(آيَاتِ اللهِ) : القرآن . (هُزُوًا) : سُخريًا .

(وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) : وخدعتكم فاطمأننتم إليها . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولاهم يُطلب منهم الْعُتبى وهى أن يُرْضُوا ربَّهم بالتَّوبَةِ والاعتذار .

(الْعَالَمِينَ) : ماسوى الله ، وجُمع لاختلاف أنواعه .

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ) : وله وحده العظمة والجلال والسلطان .

التفسير

٣٠ - (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَالِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والتى بعدها تفصيل للجزاء المترتب على قوله - تعالى - فيما تقدّم : (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ) أو (الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ) : لما فيه من الوعد والوعيد .

والمعنى : فأمَّا الَّذين آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصَّالحة الموافقة للشَّرع فيُدخلهم ربهم فى رحمته وهى الجنَّة ، كما ثبت فى الصَّحيح أنَّ الله تعالى قال للجنَّة : « أنتِ رحمتى أرْحمُ بِكِ مَنْ أشاء » ذلك الجزاء وهو الإدخال فى الجنة هو الفوز الظاهر كونه فوزًا لا فوز وراءه .

٣١ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) :

أى : وأمَّا الَّذين كفروا فيقال لهم تقريعًا وتوبيخًا : ألم تأتكم رُسلى فلم تكن آياتى تُقرأ عليكم فاستكبرتم عن اتِّباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وتعاليتم عن قبولها ، وكنتم قومًا كافرين لتكذيبكم إيَّاها ؟!

٣٢ـ (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) :

وإذا قال لكم رسول الله المُبَلِّغ عن ربّه - أَيُّهَا المنكرون للبعث - : إنَّ ما وعدكم الله به من البعث والجزاء حقٌّ ثابت وواقع ، والسَّاعة لا شكَّ فى مجيئها ووقوعها قُلتم استغرابًا ، وتكذيبًا : ما نعلم ما السَّاعة ؟ أى شىء هى ؟ وما حقيقتها ؟ ما نتوهَّم وقوعها إلَّا توهمًا مرجوحًا وما نحن بمتحققين أنَّها آتية .

وقيل : المعنى : وما نحن بمستيقنين إمكان السَّاعة ، أى :لا نتيقن إمكانها أصلًا فضلًا عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) فقولهم هذا ردٌّ لذاك .

قال الآلوسى : ولعلَّ المُثْبتين لأَنفسهم الظَّنّ من غير إيقان بأمر السَّاعة غَيْرُ القائلين : (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . .) الآية فانَّ ذلك ظاهر فى أنَّهم منكرون للبعث جازمون بنفى السَّاعة ، فالكفرة صنفان : صنف جازمون بنفيها كأَئِمَّتهم ، وصنف متردّدون مُتَحيِّرون فيها ، فإذا سمعوا ما يُؤْثر عن آبائهم أنكروها ، وإذا سمعوا الآيات الْمتْلُوَّة تقهقر إنكارهم فَتَرَدَّدُوا ، ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلَّا أنَّ كُلَّ قول فى وقت وحال ، فهو مضطرب مختلف الحالات ، تارة يجزم بالنَّفى فيقول : (إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا . . .) الآية ، وأُخرى يظنّ فيقول : (إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا) إهـ :آلوسى بتصرف .

٣٣ـ (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

وظهر حينئذ لهؤلاء الكُفَّار سيئات ما عملوا ، أى : قبائح أعمالهم ، فإن العقوبة دليل على ذلك ، أو سيئات ما عملوا ، أى : جزاء أعمالهم السيئات وأحاط بهم من كل جانب العذاب والنّكال جزاء استهزائهم بآيات الله وسخريتهم منها .

٣٤ـ (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

وقيل لهؤلاء المشركين من قبل رب العزة توبيخًا وتقريعًا : اليوم نترككم فى العذاب كما تركتم الاستعداد للقاء ربّكم فى هذا اليوم بالتّقوى والإيمان ، ونجعلكم بمنزلة الشّىء المنسى الذى لايبالى به كما لم تُبَالوا أنتم بلقاء ربّكم هذا ولم تخطروه ببال فأنتم كالشّىء الّذى يطرح نسيا منسيا ، ومقرّكم ومنزلكم النّار ، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها ولا مانعين لكم ومدافعين عنكم من ويلاتها وعقابها .

وقد ثبت فى الصّحيح أنّ الله يقول لبعض العباد : ألم أزوّجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أُسَخِّر لك الخيل والإبل ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أظننت أنّك ملاقىّ ؟ فيقول : لا فيقول الله- تعالى - : «فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي» ذكره ابن كثير .

٣٥- (ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) :

ذلكم العذاب الّذى نزل بكم والجزاء الّذى جازيناكم به لأنّكم كفرتم بالله واتّخذتم قرآنه وحُجَجَه ومُعجزاته سُخريًّا ، تسخرون منها وتهزءون بها ، وخدعتكم الحياة الدّنيا بزينتها وزُخْرفها فاطمأننتم إليها ووثقتم بها ، وحسبتم أنْ لاحياة سواها ولاحياة لكم بعدها ، فاليوم لايستطيع أحد إخراج هؤلاء من النار ولاهم يُطلب منهم أنْ يُعتبوا ربهم سبحانه ، أى : ولا هم يطلب منهم إرضاؤه بالتّوبة والاعتذار لفوات الأوان ، والالتفات فى قوله- تعالى - : (لَايُخْرَجُونَ مِنْهَا) إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم من رتبة الخطاب استهانة بهم .

٣٦- (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ) :

هذه الآية تفريع على ما اشتملت عليه السّورة الكريمة ، فقد احتوت على آلاء الله وأفضاله واشتملت على الدلائل الكونية ، وانطوت على البراهين السّاطعة والنّصوص القاطعة فى المبدأ والمعاد .

والآية إخبار عن استحقاقه - تعالى - الحمد وحده ؛ لأنه رب السموات والأرض ورب العالمين ، ويجوز أن يراد بها الإنشاء وهو طلب الحمد لله ، والمعنى : فللّه وحده الحمد والثناء فاحمدوه وحده فهو خالق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما ورب ذلك كله ، وهذه الربوبيّة تُوجب تخصيص الحمد بالله على نعمه الكثيرة وآلائه العظيمة .

٣٧- ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

وله - وحده - العظمة والملك والسلطان والكمال ، فهو سبحانه الّذى كلُّ شىء خاضع لديه فقير إليه ، وقيل الكبرياء : كمال الذّات وكمال الوجود ، وخُصّ ذلك بالسموات والأرض لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيها ، وقد ورد فى الحديث الصّحيح : «العَظَمَةُ إزارِى والكبرياءُ ردائى ، فَمَن نازَعنِى واحدًا منْها ، أَسْكَنْتُه نارى» ذكره ابن كثير .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) الّذى لايُقْهر (الْحَكِيمُ) فى كل ماقضى وقدّر ، يضع الشّىء فى موضعه .

وفى هذه الجمل إرشاد - على ماقيل - إلى أوامر جليلة ، كأنّه قيل : له الحمد فاحمدوه ، وله الكبرياء فكبّروه ، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه - عزّ وجلّ - وجعلها بعضهم مجازا أو كنايات عن الأوامر المذكورة . والله أعلم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شـعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٢٥٩٠ — ١٩٨٧ — ٢٥٠٠٤

« سورة الأحقاف »

هذه السورة مكية وآياتها خمس وثلاثون

صلتها بما قبلها

تحدثت كلتا السورتين – الجاثية والأحقاف – عن القرآن الكريم ، وأنه منزل من عند الله العزيز الحكيم فى خلقه وتدبيره ، كما أن كلا من السورتين ذكرت نموذجاً شريراً من البشر ؛ ففى سورة الجاثية جاء ذكر اليهود وما أفاء الله عليهم من الخير « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » ولكنهم اختلفوا فيه بعد ماجاءهم العلم وبغى بعضهم على بعض ؛ حسداً وعناداً ، وكذلك الأمر فى سورة الأحقاف حيث عاند الكفار واستكبروا عن الحق ، قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّاسَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ - أنها - كشأن السور المكية - تدعو إلى العقيدة الصحيحة من توحيد الله - تعالى - إلى تصديق رسالة الرسل – عليهم السلام – إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب .

٢ – أنها تؤكد صحة رسالة رسولنا ﷺ وصدق ما جاءهم به عن الله – تعالى – .

٣ – أنها أوضحت ضلال الكفار وبهتانهم وخطأهم فى عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع .

٤ – أنها ردَّت على المشركين وسفَّهتهم فى زعمهم أن القرآن سحر مبين ، قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِيَ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) .

٥ – أنها جاءت بمثالين : أحدهما للولد الصالح البار بوالديه وقد بلغ كمال عقله ورشده فقال : (رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) وثانى المثالين جاءت به للولد الفاجر العاق لوالديه الذى يقابل نصحهما

له وحرصهما عليه بالسخرية والاستهزاء ، وذلك عندما يدعوانه إلى الإيمان بالله فيقول : (أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ) إلى أن يقول : (مَاهَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

٦ - عرضت السورة لأُولئك النفر من الجن الذين صرفهم الله ووجههم إلى رسول الله ﷺ لسماع القرآن الكريم فأنصتوا إليه عند سماعه ، ثم ذهبوا إلى قومهم منذرين ومخوفين لهم من أن يخالفوه ؛ لأن القرآن مصدق لما جاء به موسى - عليه السلام - ولأنه يهدى إلى الحق الثابت والصراط المستقيم ، وآمرين لهم باتباع ما جاء فيه ليغفر الله لهم ذنوبهم وينجيهم من عذاب أليم ، وذلك تنبيه وتوبيخ للمشركين ؛ حيث آمن به الجن وكفر به المشركون وعاندوا .

٧ - جاء فى هذه السورة أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يصبه إعياء أو ضعف أو تعب هو - سبحانه - قادر على إحيائهم بعد موتهم ، وحسابهم على ما اقترفوا من كفر ومعاصٍ فى الدنيا ، وهذا تهديد لهم . وكانت نهايتها أمرًا من الله لرسوله أن يصبر على تكذيب قومه وإيذائهم له كما صبر أصحاب العزائم العالية من الرسل - عليهم السلام - ونهاه - جل شأنه - أن يستعجل لهم العذاب فإنه آتيهم لامحالة ، و (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) .

سبب تسمية السورة بهذا الاسم :

أنه قد ذكر فيها كلمة الأحقاف ، وهى اسم للمكان الذى كانت فيه مساكن عاد قوم هود ، وقد دمرهم الله بالريح الصرصر العاتية جزاء كبرهم وطغيانهم ، قال تعالى : (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) إلى قوله تعالى : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(وأَجَل مُّسَمًّى) : زمان محدود تنتهى عنده ؛ وهو مُدَّة بقاءِ الدنيا .

(أُنذِرُواْ) : خُوِّفوا .

(مُعْرِضُونَ) : مولون ومضربون عنه ، من أعرضت عنه : أضربت ووليت عنه .

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(شِرْكٌ) أى : مشاركة وإسهام .

(أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) : بقية من علوم الأَولين ، وقيل غير ذلك ، وسيأْتى بيانه فى الشرح .

التفسـير

١ - (حمٓ) : هما حرفان من حروف المعجم تقدم الكلام فيهما وفيما يماثلهما من الحروف الواردة فى أوائل بعض سور القرآن الكريم كسورة البقرة وغيرها ، وكل ماقيل

فى هذا الشأن مبنى على فهم واجتهاد ، وليس له سند قاطع من كتاب الله – تعالى – أو من سنة رسوله ﷺ والأسلم والأحكم أن نترك أمر المراد منها إلى علم الله فنقول : الله أعلم بمراده .

٢ – (تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

أى : هذا القرآن العظيم منزل من عند الله العزيز الذى لايغالب ولا يقهر ، بل هو القاهر فوق عباده وهو – سبحانه – الحكيم فى خلقه وتدبيره ، وليس لأحد من الخلق دخل فى تأليف هذا القرآن الكريم على أية صورة من الصور .

٣ – (مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ) :

أى : ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما مما يعلمه ومالا يعلمه المخلوقون جميعاً إلّا خلقاً ملازما للحق لا ينفك عنه ولا سبيل إلى العبث فيه ؛ قال تعالى : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا [(١)] » ، وقال تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً [(٢)] » وقال جل شأنه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [(٣)] » فهذا الخلق منه – سبحانه – قد ارتبط بالتدبير الحكيم ، والتقدير العظيم ليدل به – تعالت عظمته – على تفرّده ووحدانيته وكمال قدرته ، وأنه هو الذى يجب أن يعبد دون سواه كما أن هذا الخلق للسموات والأرض وما بينهما مقدر بأجل وزمان ينتهى عنده ، ثم بعده يكون فناء الدنيا وقيام الساعة : « يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَٰتُ [(٤)] » وإن هؤلاء الكفار عن الهول والنكال الذى أنذروا وخوفوا به من أهوال الآخرة من الحشر والحساب والصراط والميزان وما ينتهى إليه أمرهم من العذاب المقيم – إن هؤلاء الكفار – معرضون عنه لا يلتفتون اليه ولا يفكرون فيه جهلا وكبراً واستهزاء . .

---

(١) المؤمنون ، من الآية : ١١٥
(٢) ص ، من الآية : ٢٧
(٣) الدخان ، الآيتان : ٣٨ ، ٣٩
(٤) إبراهيم ، من الآية : ٤٨

وبعد أن بين الله - سبحانه - أنه منزل الكتاب الحكيم وأنه - وحده - خالق السموات والأرض وما بينهما على مقتضى حكمته ، وأن هؤلاء الكفار مع هذا كله معرضون ومدبرون عما خوفوا به من العذاب جاء قوله تعالى ·

٤ - (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّاتَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

جاء هذا القول الحكيم تسفيهاً لهم ، وقاطعاً عليهم سبيل اللجاج والجدل ، أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الضالين المكذبين الذين يعبدون غير الله من مخلوقاته أو مما تصنعه أيديهم - قل لهم - : أخبرونى عما تعبدون من دون الله وتزعمون أنها آلهة تتزلفون إليها وتتقربون منها - أعلمونى وأرشدونى - عن المكان الذى استقلت آلهتكم بخلقه من الأرض أخلقوا الماء أو اليابس ؟ الشرق أو الغرب ؟ السهل أو الجبل ؟ الحيوان أم الجماد ؟ عالم البر أو عالم البحر ؟ دقيق المخلوقات أم عظيمها ؟ .

إن هذه المعبودات أقل شأناً وأدنى منزلة من أن تخلق شيئاً ، إنها مخلوقة لله ، أو مصنوعة بيد الإنسان الذى خلقه الله ، إنها لا تملك لكم رزقاً فى السموات ولا فى الأرض ، إنها لاتضر ولا تنفع ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قل لهم - أيها الرسول على سبيل التدرج معهم - : (أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ) أى : بل ألهم شركة وإسهام مع الله - جل شأنه - فى خلق السموات؟ هل ساعدوا الله وأعانوه فى شىء من ذلك ؟ - قل لهم يامحمد - : (ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) أى : هاتوا لى الدليل وأقيموا لدىَّ الحجة ، هل عندكم من كتاب من الكتب المنزلة من عند الله قبل القرآن تشهد لكم بذلك ؟ أو هل لديكم بقية من علوم الأولين تنطق باستحقاقهم العبادة وأنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، أو اشتركوا فى خلق السموات ، أو هل اختصكم الله وحدكم بعلم من عنده يؤيد ما تدّعون (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) أى : إن كنتم محقين فى دعواكم فهاتوا مالديكم من الأدلة ، فإن الدعوى لا تصح مالم يقم عليها برهان عقلى أو دليل نقلى ، وحيث لم يقم عليها شىء من العقل أو النقل فقد تبين بطلانها ، وأقيمت الحجة عليكم وظهر ضلالكم وبهتانكم .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(غَافِلُونَ) :أصله من : غفل عن الشيء : تركه وسها عنه ، والمراد هنا أنهم لاهون لا يسمعون.

(حُشِرَ النَّاسُ) : جمعوا يوم القيامة فى صعيد واحد .

(افْتَرَاهُ) : نسبه كذبًا إلى الله .

(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تندفعون وتخوضون فيه .

التفســير

٥ ، ٦ - (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) :

(وَمَنْ أَضَلُّ) الاستفهام هنا لإنكار أن يكون فى الضالين كلهم من هو أشد ضلالا من عبدة غير الله ، أى : ليس هناك من هو أبلغ ضلالا وأبعد إفكاً وانحرافاً عن الحق من هؤلاء الذين يعبدون غير الله من المخلوقات : أوثانًا أو ملائكة أو جنًّا أو بشرًا ، ويتركون عبادة السميع العليم القادر على كل شيء ، إنهم يعبدون معبودات لا ينفعون ولا يضرون ، قال

ـ تعالى ـ : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » .[1] إن هذه الآلهة المزعومة لا تستجيب ولا تلبى ما يطلبونه منها مدة بقاء السموات والأرض وإلى أن تقوم الساعة؛ إذ لا قدرة لها على ذلك فهى لا تسمع ولا تدرى ، قال تعالى : « إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »[2] فإذا قامت القيامة وحشر النّاس وجمعوا فى صعيد واحد واشتد كربهم كانت هذه المعبودات أعداء لمن عبدوهم ، وكانوا عليهم ضدًّا يخالفونهم ويلحقون بهم الذل والهوان ، بعد أن اتخذوهم فى الدنيا ليكونوا لهم مجدًا وعزًّا وذخرًا ، قال تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا »[3] وقال أيضًا : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »[4] . كما أن العابدين الضالين ينكرون ـ يوم القيامة ـ أنهم عبدوا هذه المخلوقات ، ويزعمون أنهم ما أشركوا بالله شيئًا ، قال ـ تعالى ـ حكاية عنهم : « ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ »[5] .

والمعنى : لا أحد أضل ولا أشقى ممن يعبدون آلهة غير الله لا تستجيب ولا تلبى نداءهم فى الدنيا ؛ إذ أنها لا تسمع ولا تبصر ، فهى جماد ، أمّا إذا كانت من الجن أو الإنس أو الملائكة فإنهم مشغولون بأمر أنفسهم ، أو أن الله يحمى أسماعها عن أن تسمع دعاء هؤلاء ، فضلًا عن أنها لا تملك شيئًا ، وفى يوم الحشر تكون هذه المعبودات أعداء لعابديهم تكذبهم وتتبرأ منهم ، كما يتبرأ العابدون من معبوداتهم ويقولون : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيجمعون بين الشرك بالله والكذب ، وكل ذلك لا يغنيهم من الله شيئًا .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٤ (٢) فاطر ، من الآية : ١٤ (٣) سورة مريم الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٤) البقرة ، الآية : ١٦٦ (٥) الأنعام ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

٧- (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) :

أى : وإذا تقرأ - يا محمد - على هؤلاء الكفار المعاندين آياتنا المنزلة عليك - وهى واضحات ظاهرات لا لبس فيها ولا غموض ، أو مظهرات ومُبيِّنات لما أُنزلت فى شأنه من الأُمور التى يلزم إظهارها وبيانها ، قال الذين كفروا وجحدوا هذه الآيات دون تدبر وتأمل - : (هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) أى : ماجئت به - يا محمد - سحر واضح بيّن ، وذلك لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثلها ، وإذا سمعها غير المعاند آمن بها ، فلهذا قالوا عنها : إنها سحر بين ؛ لأنها تأخذ بألباب العقلاء فيؤمنون .

٨- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

فى هذه الآية الكريمة ينكر الله عليهم ويوبخهم على شناعة قولهم : إنه ﷺ افترى وكذب على الله - جل شأنه - ونسب إليه القرآن .

أى : بل أيقولون افترى محمد على ربه القرآن ونسبه إليه ؟ قل لهم - مسفها - : لو افتريتُه ونسبتُه زورًا وبهتانًا إلى ربى - كما تزعمون - لعاجلنى الله بعقوبة هذا الكذب ، وأنتم لا تقدرون على منع ربى - جل شأنه - وكفه عن معاجلتى ، ولا تستطيعون دفع شىء من عقابه عنى ، فكيف أفترى القرآن على الله وأتعرض لعقابه ؟ أيفعل ذلك من لديه بقية من عقل ؟ ! .

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) أى : هو - سبحانه - عليم بالذى تأخذون وتندفعون بحماقة وتسرع فى القدح والذم والطعن فيه ، وتسميته سحرًا تارة وافتراءً تارة أُخرى إلى غير ذلك من ضروب النيل من كتاب الله .

(كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أى : يكفينى ويملأُ قلبى اطمئنانًا أن الله - سبحانه - شهيد بينى وبينكم ، يشهد لى بالصدق فيما أُبلغه لكم عنه ، ويشهد عليكم بالجحود ، والنكران والكفر .

وفى هذه الآية الكريمة ما لا يخفى من التهديد والوعيد على إفاضتهم واندفاعهم فى تنقيص ما أوحى الله به إلى رسوله .

(وَهُوَ الْغَفُورُ) أى : وهو وحده الذى يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات ، بل قد يبدلها حسنات ، وهو (الرَّحِيمُ) بعباده يفتح لهم أبواب رحمته وييسر لهم طرق الخير ، وينعم عليهم بنعمه الدقيقة التى لا يفطن إليها إلَّا من جعل الله له نورًا فى قلبه .

وفى ختم وتذييل الآية الكريمة بهذين الوصفين الجليلين له - سبحانه - فتح لِبَاب الرجاء فى الله ، وسدٌّ لِبَابِ اليأْس والقنوط من رحمته ، أى : هلم أيها العاصون والكافرون إلى ساحة رضوانى ، تتوبون فأَتوب عليكم ، وتستغفرون فأَغفر لكم ، وتلجأُون إلى رحابى فأَضمكم إلى جنابى وأَشملكم بفيض رحماتى .

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ) : ما كنت مستحدثًا فى الدين ، وهو من قولهم : فلان بدْعٌ فى هذا الأَمر ، أى : هو أَول من فعله ، فيكون المعنى : قل : ما أَنا أَول من جاء بالوحى من الله .

التفسير

٩ - ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ آيات عجيبة ، ويسألونه عمّا لم يوح به الله من الغيوب - عنادًا ومكابرة - فأمر الله رسوله أن يقول لهم : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أى : قل يا محمد لهؤلاء الكفار المنكرين الظالمين : ما أنا أول من جاء بالوحى من عند الله ، بل قد أرسل الله الرسل قبلى مبشرين ، ومنذرين ومبلغين ما أنزل إليهم من ربهم ؛ ولا يقترحون على الله الآيات ، ولا يتحدثون عن الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، فكيف أقترح على الله تلك الآيات التى تريدونها ، أو أخبركم بالغيب الذى استأثر الله بعلمه ،فكيف تستنكرون وتستبعدون بعثتى إليكم وأنا على هداهم وطريقتهم ؟

﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ أى : لا أعلم ما يحدث بى ، أأخرج من بلدى وأهلى كما أخرجت الأنبياء - عليهم السلام - قبلى ؟ أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ؟ ولا أدرى ما يفعل بكم ؟ أأمتى المكذّبة أم أمتى المصدقة ؟ أأمتى المرمية بالحجارة من السماء قذفًا أم المخسوف بها خسفًا ؟أو المراد : أتؤمنون فتدخلوا الجنة ، أم تكفرون فتُعذبوا ، وتُستأصلوا بكفركم وشرككم ؟ثم أنزل الله بعد ذلك قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »[1] فعرف أنه لا يقتل ، ثم أنزل : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[2] فعرف أن دينه سيظهر على الأديان كلها ، ثم أنزل : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[3] فأخبره الله بما يصنع به وما يصنع بأمته.

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ أى : ما أنا إلّا متبع وممتثل وحى الله أبلغه إليكم ، وليس لى من الأمر شىء فيما تقترحون وتطلبون .

---

(١) الإسراء ، من الآية : ٦٠ (٢) التوبة ، من الآية : ٣٣
(٣) الأنفال ، الآية : ٣٣

(وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) أى : لست إلّا منذركم ومخوفكم عقاب الله حسبما يوحى إلىّ مظهرا ومبيّنًا ذلك لكم بالحجج القاطعة والمعجزات الباهرة التى يؤيدنى الله بها .

والمعنى الإجمالى : لست أول رسول جاء بالوحى من الله ، بل قد سبقنى الرُّسل إلى أقوامهم مبشرين الطائعين ، ومنذرين ومخوفين الكافرين والعاصين ، ولست أعلم مايحصل لى فى الدنيا من البقاء فى بلدى أم أخرج إلى غيرها وأهاجر إلى سواها ، أم أقتل كما قتل بعض الأنبياء قبلى ، ولا أدرى مايحصل لكم : أتكذبون فتعذبوا وتستأصلوا أم تصدقون فتنصروا ثم تدخلوا الجنة ، ولست إلّا متبعًا وممتثلاً أمر ربى ؛ فليس لى من الأمر شىء فيما تقترحون وتطلبون من الآيات الغريبة والمعجزات العجيبة ، وما أنا إلّا منذر لكم ومخوف عقاب الله وَفق مايأمرنى به رَبِّى مُؤيّدًا منه – سبحانه – بالحجج والبراهين الساطعة . وحسبكم القرآن فى الدلالة على صدقه ، فإنه آية الآيات .

١٠ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِى إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

روى البخارى ومسلم والنسائى عن سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه – قال : (ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلّا لعبد الله بن سلام – رضى الله عنه – وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) وعلى هذا تكون الآية مدنية .

وقد رُوى أنه (لَمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة نَظَر عبد الله بن سلام إلى وجهه ﷺ فَعَلِمَ أنه ليس وجه كَذَّاب ،وتأَمَّلَهُ فتحقق أنه النبىُّ المُنْتَظَر ، وقال له : إنّى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلّا نبىّ : ما أوّل أشراط الساعة ؟ وما أوّل طَعَام يأكله أهل الجنّة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال – عليه الصلاة والسلام – : أمّا أول أشراط الساعة

فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه وإذا سبق ماء المرأة نزعته، فقال عبد الله: أشهد أنّك رسول الله حقًّا، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قومٌ بهت، وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى[1] عندك، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ: أى رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال الرسول ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر).

وعلى هذا فالشاهد هو عبد الله بن سلام.

والمعنى: قل- يا محمد لهؤلاء اليهود-: أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمعت شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله ومسارعته ومبادرته إلى الإيمان به مع استكباركم عليه، وعن الإيمان بالذى جاء به، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ والمراد من قوله - تعالى -: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) هو التوراة؛ فإن كلاًّ منهما مُنزل من عند الله، أو على مثل القرآن الكريم فى المعنى، وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد، ويدل على ذلك قوله - تعالى -: (وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)[2]، وقوله: (إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ)[3]، وقيل: (مِثْل) فى قوله تعالى: (عَلَىٰ مِثْلِهِ) كناية عن القرآن نفسه مبالغة، ويكون المعنى: وشهد شاهد على القرآن بأنه من عند الله، وقيل: الشاهد موسى - عليه السلام - وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبىّ ﷺ وبه قال الشعبى.

(وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى: والله - تعالى - لا يأخذ بيد الظالم فيرشده ويهديه إلى سواء السبيل؛ فأنتم بظلمكم أنفسكم واستعلائكم على الإذعان للحق لا يهديكم الله، وستمكثون فى الحيرة والضلال ومأواكم النار وبئس المصير.

---

(١) بهته بهتا وبهتاً وبهتانا: قال عليه ما لم يفعل: القاموس.

(٢) الشعراء، الآية: ١٩٦ (٣) الأعلى، الآية: ١٨

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(إِفْكٌ) : كذب وبهتان .

(إِمَامًا) : قدوة وأسوة يؤتم ويقتدى به .

التفسـير

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ) :

ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة أقوالٌ ، منها : أنها نزلت فى بنى عامر وغطفان وتميم وغيرهم لَمَّا قالوا ذلك فى شأن مَنْ أَسْلَمَ منهم ، وقيل : إنها نزلت فى اليهود لَمَّا أسلم عبد الله ابن سلام ، وقيل : نزلت لَمَّا أسلمت زنّيرة - وكانت أمة لعمر بن الخطاب وقد أسلمت قبله وكان يضربها لإسلامها - فأُصيبت فى بصرها ، فقال المشركون لها : أصابك اللّات والعزى ، فرد الله عليها بصرها ، فقال عظماء قريش : لو كان ما جاء به محمدٌ خيرًا ما سبقتنا إليه زنيرة .

أي : قال الذين كفروا بالقرآن الكريم وبالرسول العظيم - استكبارًا واستعلاء - قالوا فى شأن المؤمنين الذين آمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه : لو كان خيرًا وهداية ما سبقَنَا فى الإيمان به هؤلاء الأدنون الأراذل والمستضعفون والعبيد والإماء .

وما دفع هؤلاء الكافرين المكذبين إلى ما ذهبوا إليه إلّا أنهم يظنون أن لهم عند الله وجاهة ومنزلة ومكانة ، فهم يبنون أمر الدين على أمر الدنيا ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك عنهم فقال - تعالى - : (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) والكفار بظنهم هذا قد أخطأُوا خطأً بينًا ؛ فقد غاب عنهم ، بل أعماهم كبرهم فلم يهتدوا إلى أن الميل إلى الخير والانعطاف نحو الرسل واتباعهم إنما يكون ذلك منوطًا بكمالات نفسية وملكات رُوحيَّة ، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا والإقبال على الآخرة وما يقرب منها : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) أى : أنهم لَمَّا لم يصيبوا الهدى والرشاد بالقرآن الكريم مع وضوح إعجازه عادوه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا : هذا كذبٌ قديم وأساطير مأْثورة نسبها محمد إلى الله .

وقيل لبعضهم : هل فى القرآن : (من جهل شيئًا عاداه ؟) قال : نعم ، قال الله - تعالى - : (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) ، ومثله : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ »(1) .

١٢ - (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) :

أى : ومن قبل القرآن كانت التوراة التى أنزلها الله على موسى - عليه السلام - إمامًا يقتدى به فى شرائعه - سبحانه - ورحمة لمن صدق به وعمل بما جاء فيه ؛ وأنتم أيها الكفرة المكذبون لا تنازعون فى ذلك ؛ فالتوراة التى تؤمنون بها مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلمتم أنها من عند الله - وأنتم مقرون بذلك - فاقبلوا حكمها بأن محمدًا رسولٌ - حقًّا - من عند الله .

(وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا) أى : وهذا القرآن كتاب رفيع القدر عظيم الشأْن مصدق لما نزل قبله من الكتب ، وقد جاء لسانًا عربيًّا فصيحًا نازلًا بلغتكم التى برعتم فى

(1) يونس ، من الآية : ٣٩

فنونها وضروبها ، فكيف تنكرونه وتجحدونه ؛ وهو أفصح بيانًا وأظهر برهانًا وأبلغ إعجازًا من التوراة ؟

(لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) أى : ليكون القرآن الكريم إنذارًا وتخويفًا متجددًا للذين ظلموا غيرهم بالافتراء والكذب عليهم ، كما ظلموا أنفسهم بحرمانها من الخير العظيم والنعيم المقيم فى الآخرة ، مع تعريضها للعذاب الأليم والهوان والذل فى النار ، كما يكون القرآن بشارة وإخبارًا بالمنزلة الكريمة عند الله للذين أحسنوا وأخلصوا أعمالهم وراقبوا مولاهم فى سرهم وعلانيتهم .

وفى هذا تحذيرٌ للمؤمنين أن يسلكوا مسالك الذين ظلموا ؛ ودعوة إلى الكافرين أن يتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه ليعمهم بإحسانه وفضله ، فباب التوبة مفتوح ، والله ــ سبحانه ــ يقول : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ »[1] .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾)

التفسير

١٣ ــ (إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

أى : إن الذين قالوا بلسانهم تعبيرًا عما اشتملت عليه قلوبهم ، ودلالة على ما اطمأنت به نفوسهم ، وأذعنت له أفئدتهم ، قالوا : ربنا الله رعانا بإحسانه وحفّنا بلطفه ، وتكفل

(١) النساء ، من الآية : ١١٦

- سبحانه - تفضلا منه بأسباب حياتنا ، ثم استقاموا على شريعته فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ولزموا محجته فلا يلحقهم ما يخافونه ويكرهونه فى الآخرة ، ولا يروّعون ؛ لأنهم خافوه - سبحانه - فى الدنيا فأمنهم فى الآخرة ؛ إذ لا يجمع الله على المؤمن خوفين : خوف الدنيا وخوف الآخرة ، كما أنه لايصيبهم حزن ولا أسف على ما خلفوه فى الدنيا من مال أو ولد أوجاه ، فكل نعيم دون الجنة زائل .

١٤ - (أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : أولئك الذين سمت بهم أعمالهم ، وعلت منزلتهم لدى ربهم هم أصحاب الجنة الذين يمكثون فيها أبدًا ، ويقيمون بها سرمدًا ، يتفضل الله عليهم بهذا النعيم الدائم كفاء وجزاء على ما كانوا يعملونه - بتوفيق الله - فى دنياهم من خير ، ويقدمون من برّ ، ويبذلون من طاعة .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : ألزمناه وأمرناه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً) : بكره ومشقة وتعب فى الحمل والوضع .

(وَفِصَالُهُ) الفصال : الفطام ، وهو مصدر (فَاصَل) فكأن الولد فاصل أمه والأم فاصلته .

(أَشُدَّهُ) : كمال قوته وعقله ورشده .

(أَوْزِعْنِى) : ألهمنى ووفقنى .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

لما كان أمر الأولاد يختلف مع والديهم برًّا وعقوقاً كما يختلف أمر الأمم مع أنبيائهم استجابة لهم وإعراضاً عنهم كانت هذه الآيات متصلة بما قبلها .

التفسير

١٥ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . .) الآية :

سبب النزول :

هذه الآية الكريمة نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - روى ذلك عن ابن عباس وعلىّ - رضى الله عنهم - .

قال علىّ - كرم الله وجهه - : هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أسلم أبواه جميعاً ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره فأوصاه الله بهما ولزم ذلك .

وعند قوله - تعالى - : (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فأجاب الله أبا بكر فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله ، منهم : بلال ، وعامر بن فهيرة . ولم يدع شيئاً من الخير إلّا أعانه الله عليه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أصبح منكم اليوم صائماً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَن تَبِع منكم اليوم جنازة ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « مَنْ أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا . قال رسول الله ﷺ : « ما اجْتَمَعْنَ فِى امرئ إلَّا دخَلَ الجنة » .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ودعا أبو بكر أيضاً فقال : (وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) فأجابه الله تعالى ؛ فلم يكن له ولد إلَّا آمنوا ، وقد أدرك أبواه وولَدُه عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ ﷺ وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - .

وقد استدل الإمام علىّ - كرم الله وجهه - بهذه الآية الكريمة مع التى فى سورة لقمان : « وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ » مع قوله - تعالى - فى سورة البقرة : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » استدل - رضى الله عنه - بذلك على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه على ذلك عثمان وجماعة من الصحابة - رضى الله عنهم - فعن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فذُكر ذلك لعثمان - رضى الله عنه - فأمر عثمان برجمها فبلغ ذلك عليًّا - كرم الله وجهه - فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ فقال : بلى . قال : أما سمعت الله - عز وجلّ - يقول : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وقال : (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) فما نجده بقى إلَّا ستة أشهر . قال عثمان - رضى الله عنه - : والله مافطنت بهذا .

قال معمر : فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة أشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : هذا ابنى ولا أشك فيه .

وفى هذا إشارة إلى أن مدة الحمل والرضاع معاً لا تتجاوز الثلاثين شهرا ؛ فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع واحد وعشرون

شهرًا ، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولان كاملان ؛ لأن الله – تعالى – يقول : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) .

والمعنى : وألزمنا الإنسان وأمرناه أن يحسن إلى والديه إحساناً عظيماً وأن يبرهما براً كريماً ، فالإحسان إلى الوالدين هو ثانى أفضل الأعمال ، فعن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه سأل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أىّ ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أىّ ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » متفق عليه .

كما عد رسول الله ﷺ عقوقهما ثانى أكبر الكبائر ؛ فعن أبى بكرة نفيع بن الحارث – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ : « ألَا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ – ثلاثاً – قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » متفق عليه .

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا) أى : قاست بسببه فى حال الحمل به مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب (وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) أى : بمشقة أيضاً من الطلق وشدته (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) أى : أنها لم تقف مشقتها وتعبها عند الوضع بل استمر ذلك فى مدة رضاعه وفطامه ؛ فقد سهرت عليه وقامت على أمره وعانت من تربيته فى تلك الفترة الدقيقة من حياته ماجعلها تتعب ليستريح ، وتشقى ليسعد ، وتسهر لينام ، كل ذلك مع حسن رعاية وكمال عناية رجاء أن تستمر حياته ويمتد به العمر وتنعم به كبيرًا كما سعدت به صغيرًا .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى : حتى إذا قوى وشب واكتهل واستحكمت قوته (وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه ؛ فسنُّ الأربعين تمام النضج وتمام الحلم ، فعنده تكمل الملكات وتتناهى الكمالات ، ولايرجى لأحد بعد أن يبلغ هذا العمر أن يزاد فى عقله ، فإذا بلغ هذه السن (قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ) أى : اتجه إلى ربه الذى رعاه ورباه وجعله يتقلب فى مَنِّه وكرمه وإنعامه قائلا : يارب رغبنى وألهمنى أن أقوم بحق نعمتك العظيمة التى أنعمت بها على ، واهدنى إلى القيام بصرفها

وتوجيهها إلى ما خلقتها له ، فنعمك يارب وفيرة وآلاؤك جليلة ؛ فقد وفقتنى إلى نعمة الإسلام ، وجعلتنى من خير أمة أخرجت للناس ، وأنعمت علىّ بالصحة والعافية والغنى عن الناس . ورزقتنى الولد ولم تجعلنى فردًا منقطع الذرية ، وأسألك أن تديم علىّ شكر النعمة التى أنعمت بها على والدىّ من الإيمان بك وبرسولك ، وبالتحنُّن والشفقة علىّ حتى ربيانى صغيرًا (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ) أى : اجعل عملى كثيرًا عظيماً سالماً من عدم قبولك له ، وذلك بأن يكون خالصاً من الرياء والعجب حتى يكون على وَفق رضاك (وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى) أى : اجعل الصلاح والبر وعمل الخير ساريا فى ذريتى راسخاً فيهم حتى يكونوا لك عبيد حقٍّ ، ولى خَلَفَ صِدق . (إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى : إنى رجعت عما كنت عليه مما لا ترضاه أو يشغلنى عنك ، وإنى من الذين أسلموا إليك أمرهم وأخلصوا أنفسهم لك وأفردوك بالعبادة .

جاء فى كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى : وكان مالك بن أنس يقول : اشتكى أبو معشر ابنه إلى طلحة بن مصرِّف ؛ فقال له : استعن عليه بهذه الآية وتلا : (رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِح لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

نقول : هذا توجيه سديد وإرشاد حكيم ؛ فخير الدعاء ما كان بالمأثور من كتاب الله – تعالى – أو من السنة النبويّة المطهرة .

١٦ – (أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة التى بها علت منزلتهم وسمت مكانتهم عند ربهم يتقبل الله – سبحانه – منهم أفضل أعمالهم وأحسنها – من الأعمال المفروضة والمندوبة – فيجازيهم عليها أفضل جزاء وأكمل ثواب ، أما الأعمال المباحة فليست محل ثواب إلا إذا اقترنت بها نيّة الطاعة والقربى لله – عزّ وجل – وذلك كمن يأكل ناوياً أن

أن يتقوى بذلك على أمر مفروض أو مندوب ونحو ذلك ، فإن الله يثيبه عليه ، والحكم عكس ذلك إذا اقترنت بالمباح ولابسته نية المعصية فإن الله يعاقب عليه « وإنما لكل امرىء مانوى » .

(وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ) أى : يتجاوز الله عن سيئات المذنبين ؛ لتوبتهم المشار إليها بقوله - تعالى - فى الآية السابقة : (إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أو لغلبة حسناتهم على سيئاتهم ، لقوله - تعالى - : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] أو لاجتناب الكبائر ، لقوله - تعالى - فى سورة النساء : «إِنْ تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيماً » أما أصحاب السيئات الذين لم يكونوا من هؤلاء وهم مسلمون مؤمنون ، فأمرهم مفوض إلى الله تعالى ، فإما أن يعفو عنهم أو يعاقبهم .

وهؤلاء الذين يتجاوز الله عن سيئاتهم (فِىٓ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ) أى : فى عداد أصحاب الجنة منتظمون فى سلكهم يحقق الله لهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا على ألسنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من الجزاء الحسن والنعيم المقيم فى جنة عرضها السموات والأرض ، ويتمتعون فيها بما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فسبحانه من إله كريم برّ رحيم .

(وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾)

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١١٤

المفـــردات :

(أُفٍّ لَّكُمَا) الأُفّ : صوت يصدر عن المرء عند تضجره ، وأصله : الوسخ الذى حول الظفر ، وقيل : الأُف : وسخ الأذن ، يقال ذلك عند استقذار الشىء ثم استعمل ذلك عند كل شىء يُتضجر ويُتـأذى منه [1] .

(أُخْرَجَ) : أُبعث من القبر بعد الموت .

(وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ) : وقد مضت الأزمان .

(وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ) : وهما يلجآن إلى الله أن يدفع الكفر عن ولدهما .

(وَيْلَكَ) : هَلَاكا لك ، وأصل الويل : دعاءٌ بالهلاك يُقام مقام الحث على الفعل أو الترك ؛ إشعارًا بأن ماهو مرتكب جدير أن يُهْلِك مرتكبَه ، والمراد هنا : الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الدعاء بالهلاك .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيل وأكاذيب السابقين التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : ثبت ووجب .

التفســير

١٧ - (وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا...) الآية :

هذه الآية الكريمة عامة تتناول كل كافر عاق لوالديه منكر للبعث ؛ فقد جاء فى الاية التالية : (أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ . .) فدل ذلك على أن الحكم عام لكل من يقول ذلك لوالديه ، ونزولها فى شخص معين لاينافى العموم ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالمراد من الذى قال لوالديه أف لكما : كل من يقول ذلك لهما .

---

(١) اللسان : مادة (أفف) .

وجاء فى كتاب روح المعانى للعلامة الآلوسى : وزعم مروان – عليه ما يستحق – أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وردت عليه السيدة عائشة – رضى الله عنها – أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله [بن المدائنى] قال : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله – تعالى – قد أرى لأمير المؤمنين – يعنى معاوية – فى يزيد رأيا حسنا ، أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن ابن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر – رضى الله عنه – والله ما جعلها فى أحد من ولده ، ولا لأحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : (أُفٍّ لَّكُمَا) ؟ فقال عبد الرحمن : ألستَ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله ﷺ أباه ؟ فسمعت عائشة – رضى الله عنها – فقالت : مروان ؛ أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت – والله – ما فيه نزلت . نزلت فى فلان بن فلان .

ومعنى الآية : أن هذا الولد الكافر بالله المنكر للبعث ، قال لوالديه وقد دعواه إلى الإيمان بالبعث : إنى أتضجر منكما ، وأضيق بما تُلقيان على مسامعى من سقط القول وسخف الكلام ، أتعدانني وتخبرانني أن أُخرج حيا من قبرى ، وأبعث بعد موتى ؛ وقد مضت القرون والأزمان ولم يبعث أحد من قبره يخبرنا بذلك ؟ وكأن هذا العاق قد تمثل بقول القائل :

ما جاءنا أحد يُخبرُ أنَّه فى جنَّةٍ لَمَّا مضى أو نارِ

ولكن شفقة الوالدين وفرط حنانهما عليه دفعهما إلى الالتجاء إلى الله والاستغاثة به رجاء أن يغيثه بالتوفيق حتى يرجع عما هو فيه من الضلال والكفر وإنكار البعث ؛ وحملهما ذلك أيضاً على أن يحضانه على الإيمان بالله ويحذرانه مغبة ما هو مقيم عليه ، فيقولان له : (وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) أى : هلاكاً لك إن أصررت على ما أنت عليه من الكفر ، صدق بالله وبالبعث ، فإن وعد الله حق لا يتخلف ، فأولى لك أن تقبل على ما دعوناك إليه من الإيمان ، ولكن هذا الشقى الفاجر – مع الحث والتحذير له من والديه – يصر ويقول : (مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى : ما هذا الذى تسميانه وعد الله إلا أباطيل وأكاذيب السابقين الأولين قد كتبوها وسطروها من غير أن يكون لها حقيقة .

١٨ – (أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ) :

أى : هؤلاء الكفار الذين بعدوا من الحق وعن الصراط المستقيم قد وجب عليهم القول والوعيد الذى قاله الله لإبليس ومن تبعه - عليهم اللعنة -: « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[١] وسيكونون فى عداد أمم وجماعات من الجن والإنس كانوا على شاكلتهم كذبوا كما كذبوا وعاندوا واستكبروا وساروا على نهجهم فباءوا بالخسران والحرمان من الجنة التى خسروها بسوء معتقدهم وفحش عملهم .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾)

المفـــردات :

(الْهُونِ) : الهوان والذل .

التفسير

١٩ -(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

أى : ولكل فريق من الأبرار الأتقياء ، والعاقين الأشقياء لكل منهما منازل ينزلون فيها فى أخراهم ، فأهل الجنة لهم درجات ونعيم يتقلبون فيه ، فى سعادة غامرة ، وقلوب بالرضا عامرة ، ونفوس مطمئنة فى جنات تختلف منازلها رفعة وعلوا ، فالذين رفعتهم أعمالهم إلى درجات أعلى لا يجدون فى نفوسهم على مَنْ دونهم فى الجنة استكبارا أو استعلاء ، كما لا يجد الذين منحهم الله فى جناته دون ذلك فى صدورهم غلاً ولا حقدًا على من فوقهم منزلة فى الجنة ، قال - تعالى - : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ »[٢] .

(١) سورة ص ، الآية : ٨٥ . (٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧

أما الفريق العاق العاصى فإنه يتدنّى ويتسفل فى دركات النار يلقى سعيرها ويعذّب بألم عقابها يتلاومون فيها ويلقى كلٌّ على صاحبه التبعة ، ويتبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا ، وهم يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ .

وهذا النعيم المقيم ، وذلك العذاب الأليم يجزيهم الله - سبحانه - به جزاءً وفاقًا على أعمال عملوها فى الدنيا فلاينقص الله من أجر الطائعين ، ولا يزيد فى عقاب العاصين : « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

٢٠ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ...) الآية :

لَمَّا ذكر - سبحانه وتعالى - أحوال بعض الأشقياء ومآلهم أردفه - جل وعلا - بذكر حال الكافرين عامة فى أخراهم ، أى : ذكِّرْ يا محمد هؤلاء المعاندين المكابرين - ذكرهم - يوم يُظهر الله للكفار نار جهنم فينظرون إليها ويعلمون أنهم ملاقوها فيقال لهم - تقريعا وتوبيخًا وتسفيهًا لهم عمّا قدموا - : استنفدتم طيباتكم من المآكل والمشارب والملابس ، والمفارش وأنواع المتع والشهوات ، وتمتعتم بتلك اللذائذ واستعجلتموها فى الدنيا ، فليس لكم حظٌّ ولا نصيبٌ منها فى الآخرة ؛ لأنكم لم تكونوا مؤمنين حتى تنالوا النعيم الأبدى الخالد ، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها ، وقضيتم حياتكم فى لهو الشهوات وحمأة المعاصى ، وعميت أبصاركم عمّا ينفعكم فى الآخرة من الإيمان بالله والعمل فى مرضاته ، فى هذا اليوم -وهو يوم القيامة- يُجازيكم الله عذاب الذُّل وعِقَاب الهَوَان ؛ لأنكم كنتم فى الدنيا تَسْتَعْلُونَ وتَتَكَبَّرُونَ بغيرِ استحقاقٍ لكم فى ذلك الصلف والكِبْر ، وتستنكفون أن تعترفوا بأنكم خلق الله وعباده ؛ فترفعتم عن الإيمان بالله إلهًا واحدًا ، ومع هذا الكُفْر الصَّريح الدَّائم مِنْكُم كُنْتم مستمرين على الفسق خارجين عن طاعته - سبحانه - فقد جمعتم بين ذنب القلب بالكفر ، وذنب الجوارح بالعصيان والفسق .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩

هذا ، والترفع والزهد فى الاستمتاع بلذائذ الحياة سمة الصالحين وحلية الأولياء ، وأسوتهم فى ذلك رسولنا ﷺ فقد ورد فى صحيح مسلم وغيره أن عمر - رضى الله عنه - دخل على النبى - عليه الصلاة والسلام - فى مشربته حين هجر نساءه ، قال عمر : فالتفت فلم أر شيئًا يرد البصر إلا أهبًا[1] (جلودًا معطونة قد سطع ريحها) ، فقال : يارسول الله ؛ أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر فى الديباج والحرير ؟ فقال :فاستوى جالسًا وقال : « أفى شك أنت يابن الخطّاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » ، فقلت : استغفر الله لى ، فقال : « اللهم اغفر له » .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الخبز والزيت ، والخبز والخلّ ، والخبز واللّبن ، والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى غير المجفف) ، وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجىء بخبز متفلع (مشقق غليظ) فجعل يأكل ويقول : كلوا ، فجعلنا لا نأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله ياأمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا ، فقال : يابن العاص ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بعناق[2] سمينة فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصليّة (مشويّة) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشنّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، إلى أن قال : والله الذى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركناكم العيش ، ولكنّى سمعت الله - تعالى - يقول لأقوام : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا) .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحمًا فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : ما هذا ياجابر؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله فى بطنه ؟ أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا)

---

(١) أهبا : جمع إهاب ، وهو الجلد الذى لم يدبغ .

(٢) العناق : الأنثى من ولد المعز .

قال ابن العربي : وهذا عتاب منه على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ؛ فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره له الطباع وتستمرئه العادة ، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمّارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوّله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد طيّبًا أو قفارًا (طعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ؛ وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلًا ولا يجعله دَيْدَنًا ، ومعيشة النبي ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة - رضوان الله عليهم - منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحلّلة ، وهو حسن ؛ فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ؛ فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل فقد أذهبه .

* (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾)

المفـــردات :

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ) : هو هود - عليه السلام - وكانت أخوته لعاد في النسب لا في الدين .

(إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأَحْقَافِ) : وهي جمع حقف ، وهو : ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلًا ، من احقوقف الشيء : إذا اعوج .

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، والنذر : جمع نذير .

التفسير

٢١ - (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

لمَّا كان أهل مكة مستغرقين فى الكفر معرضين عن الإيمان وماجاء به الرسول ﷺ ناسب تذكيرهم بما جرى لعادٍ ، وقد كانوا أكثر أموالا وأشد قوة وأعظم جاهًا منهم ؛ فسلط الله عليهم العذاب العظيم بسبب شركهم وطغيانهم ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ عن تكذيب من كذبه من قومه ، وإنذارٌ لقريش لكفرهم .

والمعنى : واذكر -أيها النبىُّ- لهؤلاء المشركين قصة هود - عليه السلام - وقت إنذاره قومه عادًا عاقبة الشرك - وهى العذاب العظيم - ليعتبروا بها ، وقيل : أمره بأن يتذكر فى نفسه قصة هود - عليه السلام - ليقتدى ويهون عليه تكذيب قومه له .

وكان قومه بالأحقاف وهى مساكنهم ، وكانت رمالاً عظيمة مشرفة على البحر بأرض يقال لها : الشَّحْر ، والشَّحْر قريب من عدن ، يقال : شِحْر عُمَان ، وهو ساحل البحر بين عُمَان وعدن ، وقال ابن إسحاق : مساكنهم من عمان إلى حضرموت ، أى : فى الجنوب الشرقى من جزيرة العرب .

وبعض المنقبين فى الزمن القريب يرى أن مساكنهم شرق العقبة ، معتمدين على كتابات خطية عثروا عليها فى خرائب معبد كشفوا عنه فى جبل إرَم ، ووجدوا فى جانب الجبل آثارا جاهلية قديمة ، فرجحوا أن هذا المكان هو موضع إرم التى ذكرها القرآن الكريم[1] (وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده ، أى : واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله وبعده ، وهو

---

(١) المنتخب عند تفسير الآية .

أن لا تعبدوا إلا الله ، إيذاناً باشتراك المنذرين جميعاً فى معنى العبارة المحكية ، وتنبيهاً على أنه إنذار ثابت قديماً وحديثاً ، اتفقت عليه الرسل فى دعوتهم إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له . (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة إن عبدتم غير الله ، والجملة تعليل للنهى ، أى : لا تعبدوا إلا الله ؛ لأنى أخاف عليكم أشد العذاب وأقساه .

(قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا) أى : لتصرفنا وتمنعنا عن عبادة آلهتنا .

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب ، وهذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد ، فكما يقال : وعده خيرا وبالخير ، يقال : وعده شرا وبالشر .

(قَوْماً تَجْهَلُونَ) أى : تتصفون بالجهل وعدم الإدراك فى سؤالكم استعجال العذاب ممن بعث إليكم منذرا .

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ) : جمع واد ، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذا للسيل .

(رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : بل الذى زعمتموه سحاباً ممطراً هو ريح متكاثفة فيها عذاب مؤلم لكم .

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) أى : فاجأتهم الريح فدمرتهم ولم يبق شىء يرى إلا مساكنهم .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أى : مثل هذه العقوبة نعاقب من أجرم مثل جرمهم .

التفسير

٢٢ ـ (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :
أى : قال قوم هود إنكارا عليه : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ـ كما قال الضحاك ـ من الأفك بمعنى الصرف ، وقد وعدتنا بإنزال العذاب بنا عقاباً لنا على الشرك فى الدنيا فعجل بهذا العذاب إن كنت صادقاً فى وعدك بنزوله بنا .

٢٣ ـ (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) :
أى : فأجابهم ـ عليه السلام ـ قائلا : إنما العلم بوقت نزول العذاب ، أو بجميع الأشياء التى من جملتها ذلك عند الله وحده ، فيعلم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم ويأتيكم به فى وقته ، وأما أنا فلا علم لى بوقت نزوله ولا مدخل لى فى اقتراح إتيانه وحلوله . (وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ) من مقاصد الرسالة التى من جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك ، من غير وقوف على وقت نزوله (وَلَٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أى : شأنكم الجهل حيث تقترحون علىَّ ما ليس من وظائف الرسل من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته ، ولو كنتم على شىء من العلم لأدركتم أن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

٢٤ ، ٢٥ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَااسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَىٰٓ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : فأتاهم العذاب الذى استعجلوه ، فلما رأوه سحاباً ممتداً فى عرض الأُفق متوجها نحو أوديتهم حسبوه سحاباً ممطراً ، وكان المطر قد أبطأ عليهم فاستبشروا به ، حيث (قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) فرحاً به ، ولا سيما أنه قدجاء من واد جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثاً - قاله ابن عباس وغيره - ولكن ما توقعوه تبين لهم أنه سراب خادع حين قال لهم هود - عليه السلام - :(بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى : هو العذاب الذى استعجلتموه لما قلتم : (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أتاكم متمثلاً فى ريح كثيفة عاصفة تحمل الفساطيط[1] وترفع الظعينة[2] بين السماء والأَرض ثم تضرب بها الصخور ، وقد اعتزل هود ومن معه فى حظيرة - كما روى عن ابن عباس - ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلذه الأَنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأَرض ، وتدمغهم بالحجارة .

ونقل القرطبى عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أول ما رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم وأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشى تطير بهم الريح ما بين السماء والأَرض مثل الريش ، وأمر الله الريح فأَمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال ، واحتملتهم فرمتهم فى البحر ، فهى التى قال الله فيها : (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) اهـ . أى : تهلك هذه الريح كل شىء مرت عليه من نفوسهم وأموالهم بإذن ربها وتقديره ، وفى ذكر الأَمر والرب والإضافة إلى ضمير الريح من الدلالة على عظمة شأْنه - عز وجل - ما لا يخفى ، وكان الرسول ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسأَلك خيرها وخير

---

(١) الفساطيط : جمع فسطاط ، وهو السرادق .

(٢) تطلق الظعينة على الجمل يظعن عليه ، وعلى الهودج فيه امرأة أو لا .

ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » فإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّى عنه ، فسألته السيدة عائشة فقال : لعله يا عائشة كما قال قوم هود : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) أخرج الحديث مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

(فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَىٰٓ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ) أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم عن آخرهم فأصبحوا بحيث لا يرى إلا مساكنهم وقد بقى منها ما يدل عليها ، وقرأ الجمهور «ترى» بالتاء ونصب مساكنهم خطاباً لكل أحد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم ، أو الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) أى : مثل تلك العقوبة التى نزلت بعاد ، يجزى الله كل من كذب رسله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ) أى : جعلنا لهم سلطاناً وقدرة على التصرف فى الذى ما مكناكم فيه ولا سخرناه لكم .

(فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ) أى : لم تنفعهم تلك الحواس أى نفع فى دفع العذاب عنهم ، حيث أهملوا الانتفاع بها فانغمسوا فى الضلال .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) أى : يكفرون بها .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاءً به .

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ) أى : كررنا الحجج والدلالات لكى يرجعوا عن كفرهم .

(قُرْبَاناً آلِهَةً) القربان : كل ما يتقرب به إلى الله – تعالى – من طاعة ونسيكة – قاله الكسائى – وجمعه : قرابين ، أى : اتخذوا الآلهة متقرَّباً بها إلى الله – تعالى – .

(بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عن نصرتهم .

(وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم وامتناع نصرتهم إياهم هو دليل كذبهم وافترائهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى .

التفسـير

٢٦ – (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

خطاب لأهل مكة على سبيل التهديد ، والمعنى : ولقد مكنا الأُمم السابقة فى الدنيا وأعطيناهم من القوة والسعة وطول الأعمار وسائر التصرفات ما لم نعطكم مثله يا أهل مكة ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما جعلها الله له فيعرفوا بكل منها مختلف النعم التى يستدلون بها على شئون الخالق المنعم – عز وجل – فى تفضله عليهم فيؤمنون به ويداومون على شكره . (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ) أى : أنها لم تغن عنهم أى شىء من الإغناء ، ولم تُذهب عنهم شيئاً من عذاب الله ، حيث

لم يستعملوا سمعهم فى استماع الوحى ومواعظ الرسل ، وأبصارهم فى اجتلاء الآيات الكونية الناطقة بقدرة الله ووحدانيته ، وقلوبهم فى التأمل طلباً لمعرفة الله .

وإفراد السمع فى النظم الكريم وجَمْعُ غيره لاتحاد المدرك به وهو الأصوات ، وتعدد مدركات غيره ، وقد تأتى الإضافة إلى جمع مرادا بها الجمع ، فكأنه قيل : أسماعهم .

(إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ) : تعليل لما سبق من عدم إغناء سمعهم عنهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، أى : لأنهم كانوا يكفرون بالله وينكرون آياته المنزلة على رسله إعراضاً عنهم ، وتكذيباً لهم .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أى : ونزل بهم العذاب الذى أحاط بكل جهاتهم ، وكانوا يستعجلونه بطريق السخرية والاستهزاء فلم يبق منهم ولم يذر أحدا .

٢٧ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : تهديد آخر لكفار مكة وتخويف لهم بذكر سوء عاقبة أمثالهم السابقين .

والمعنى : ولقد أهلكنا القرى المجاورة لكم والمحيطة بكم كقرى عاد وحِجر ثمود ومساكن سبأ وقرى قوم لوط ، وكانوا يمرون بها فى أسفارهم وكانت أخبارها متواترة عندهم ، وكررنا الحجج وأنواع البينات والعظات ووضحناها لأهل تلك القرى (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أى : لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى إلى الطاعة والإيمان .

٢٨ - (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونَ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) :

الآية تهكم بالمشركين ، والمعنى : فهلاَّ نصرهم الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بها إلى الله تعالى لتشفع لهم ، حيث كانوا يقولون : « مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَىَ اللهِ زُلْفَى » وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهلاَّ منعوهم من الهلاك الواقع بهم ؟ ! (بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ) أى : غابوا عنهم ولم ينصروهم ؛ لأنهم آثمون بعبادتهم فكيف ينصرونهم أو يشفعون لهم ؟ هذا إذا

كانت معبوداتهم عاقلة كالبشر أو الملائكة ، فإن كانت غير عاقلة كالأصنام والكواكب كان المعنى : غاب عنهم نفعهم لعدم فائدتهم ، فهم جمادات فكيف ينصرونهم ؟

وقيل المعنى : ترك المشركون الأوثان وتبرأوا منها ، أو هلكت معبوداتهم فاستحال نصرها لهم (وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى : وضلال آلهتهم عنهم فى الدنيا ويوم القيامة هو أثر كذبهم فى قولهم : إنها تقربنا إلى الله ، وإنها شفعاؤنا عنده .

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾)

المفـــردات :

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ) أى : وجهنا إليك نفرا من الجن ، والنفر : من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة من الرجال .

(فَلَمَّا قُضِيَ) أى : فرغ من تلاوته .

(وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) : رجعوا إليهم مخوفين من عذاب الله .

(كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ) : وهو القرآن الكريم .

(مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى : لما قبله من التوراة ؛ لأنهم كانوا مؤمنين بموسى .

(فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ) أى : لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها .

(أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أولئك الذين لا يستجيبون لله فى خسران واضح بيِّن بحيث لا يخفى على أحد .

التفسير

٢٩ - (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) :

فى القصة المذكورة توبيخ لمشركى قريش حيث إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله ، وهؤلاء معرضون عنه مصرون على الكفر به ، مع أنهم من أهل اللسان الذى نزل به ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، والجن ليسوا كذلك .

والمعنى : واذكر - أيها النبى - لقومك الوقت الذى صرفنا فيه ووجهنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن منك وهم - كما قال ابن عباس - سبعة نفر من جن نصيبين ، وقال زر بن حبيش : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، وقيل : كانوا سبعة ، ثلاثة من أهل نجران وأربعة من أهل نصيبين ، كذلك قيل - والله أعلم - فلما بلغوا تهامة اندفعوا إلى بطن نخل ، فوافوا رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى جوف الليل ، وقيل : يؤم أصحابه فى صلاة الفجر ، فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض : أنصتوا تمكيناً لنا من سماعه وتأدباً معه ، وحينما قُضِى القرآن وفُرِغ من تلاوته (وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) أى : انصرفوا قاصدين مَنْ وراءهم من قومهم منذرين لهم عاقبة مخالفة القرآن ، ومخوفين إياهم بأس الله إن لم يؤمنوا .

وروى عن سعيد بن جبير ما يشير إلى أن رسول الله ﷺ ماقرأ على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر بهم فأنبأه الله تعالى باستماعهم حيث أوحى إليه قوله تعالى: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ . .) وقيل: بل أمره الله - تعالى - أن ينذر الجن ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف إليه نفرا منهم ليستمعوا منه وينذروا قومهم . فقد روى أنه ﷺ قال : « إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب ، خطَّ لى خطا فقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديداً حتى خفت على رسول الله ﷺ إلى أن قال : ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال رسول الله: هل رأيت شيئاً ؟ قلت : نعم ، رجالاً سودا ، مستشعرى ثياب بيض . فقال: أولئك جن نصيبين » وكانت هذه القصة قبل الهجرة بثلاث سنين على ما صح عن ابن عباس . وهذه الرواية لا تعارض الرواية التى تقول : إنهم صادفوا وقت قراءته ﷺ فإن ذلك كان فى واقعة أخرى ، بل قيل: إن وفادة الجن كانت ست مرات ، ولتعدد الوقائع اختلفت الروايات فى عدد الجن الذين حضروا وفى المكان والزمان لاستماعهم القرآن .

ويستفاد من الآية : أن فى الجن نذرًا وليس فيهم رسلاً كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ »[1] وأما قوله - تعالى - : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ »[2] فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما ، وتعلق قوم بظاهر النص فقالوا : إن الجن كانت لهم رسل منهم - انظر تفسير الآية فى الكشاف .

٣٠ - (قَالُواْ يَاقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : قال الجن لقومهم حينما رجعوا إليهم : ياقومنا إنا سمعنا كتاباً عظيم القدر رفيع الشأن أنزل على رسول من بعد موسى ، وقد ذكروا بعديته لموسى دون بعديته لعيسى ؛ لأن عيسى كان مأمورًا بالعمل بمعظم ما فى التوراة أو بكله ، حيث أنزل عليه

(١) سورة يوسف من الآية ١٠٩ . (٢) سورة الأنعام من الآية ١٣٠ .

الإنجيل مشتملًا على كثير من المواعظ ، وقليل من التحليل والتحريم . فهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، أو لأن الجن كانت يهوداً - كما قال عطاء - (مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) أى :أن القرآن مصدق لما تقدمه ، وأرادوا به التوراة أو جميع الكتب الإلهية السابقة . (يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) أى : أنه يرشد إلى العقائد الصحيحة وإلى طريق مستقيم من الأحكام الفرعية ، أو مايعمها وغيرها من الأركان والقواعد على أنه من ذكر العام بعد الخاص .

٣١- (يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

يحتمل أنهم أرادوا بداعى الله ما سمعوه من القرآن الذى طلبوا الاستجابة له والإيمان به ، ووصفوه بالهداية إلى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما ،

ويحتمل أنهم أرادوا به محمدًا ﷺ حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين - الإنس والجن - وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهى سورة الرحمن فطلبوا الاستجابة له والإيمان به ، وهذا يدل على أنه كان مبعوثاً إلى الجن والإنس ،قال مقاتل : لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ويؤيد هذا مافى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطيتُ خَمْسا لم يُعَطهنَّ أحدٌ قَبْلِي ، كانَ كلُّ نَبِيٍّ يُبعثُ إلى قومِه خاصةً ، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ إلى آخر الحديث » قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس ، وفى رواية من حديث أبى هريرة : « بعثت إلى الخلق كافة ،وختم بى النبيون » .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم وهو الذنوب السالفة ،وقيد الخطاب معهم بمايدل على التبعيض دفعاً لتوهمهم أنهم إذا أجابوا داعى الله -تعالى -وآمنوا به يغفر لهم ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر ، وقال أبو السعود : أى : بعض ذنوبكم وهو ماكان فى خالص حق الله تعالى ؛ فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان .

(وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذابٍ أَلِيمٍ) مُعَدٌّ للكفرة ،ويدل هذا على أن الجن مكلفون ، واختلف فى أن لهم أجرًا غير غفران الذنوبِ والإجارةِ من العذاب الأليم أَوْ لا ، والأظهر أنهم فى حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً ، قال ابن عباس : لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على أبوابها . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون فى الإساءة يجازون فى الإحسان مثل الإنس ، وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى وغيرهم ، وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لقوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ »[1] ولعل الاقتصار على ما ذكر من غفران الذنوب لهم والإجارة من العذاب الأليم ؛لأن المقام مقام إنذار ، فلذا لم يذكر فيه شىء من الثواب ، وقيل : لاثواب لمطيعهم إلا النجاة من النار قال الحسن : ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، فيقال لهم : كونوا تراباً فيكونون تراباً ، وبه قال أبوحنيفة ، وعلق القشيرى على هذا الخلاف فقال : والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله ، على أن ماذكر من الجزاء على الإيمان بتكفير الذنوب والإجارة من العذاب يستلزم دخول الجنة ؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لامحالة .

٣٢ - (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

إيجاب للإجابة بطريق الترهيب بعد إيجابها بطريق الترغيب، أى : ومن لايؤمن بالله استجابة لداعيه ، فإنه لايفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، لبالغ قدرته وعظيم سلطانه ، وقد نجح هذا الأسلوب فى كثير منهم ، فجاءوا إلى رسول الله يبتغون سبيل الهدى والرشاد ، وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة، بمعنى أنه ليس بمعجز - له تعالى- بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل فى أعماقها . (وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ) إبراز لاستحالة نجاته بمعاونة أنصار يمنعونه من عذاب الله بعد بيان استحالة نجاته بنفسه ، وعاد الضمير مفردًا فى قوله -تعالى- : (وَلَيْسَ لَهُ) باعتبار لفظ (مَنْ) والمراد به الجمع ،ويؤيد ذلك قراءة ابن عامر : (ولَيْسَ لَهُمْ) بضمير الجمع (أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى : أولئك الموصوفون

(١) سورة الرحمن الآية ٧٤ .

بعدم إجابة داعى الله فى ضلال واضح بيِّن لا يخفى على أحد كونه ضلالاً ؛ لبعده عن الحق ومجافاته له ، وجمع (أولئك) باعتبار معنى (مَنْ) .

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) أى : أو لم يعلموا ؛ لأن المراد بالرؤية هنا العلم :

(وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) أى : لم يتعب به أصلاً .

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ) أى : يوقفون عليها ويمررون بها .

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ) أى : كأنهم حين يرونها لم يمكثوا فى الدنيا إلا وقتاً يسيراً من نهار لشدة العذاب وطول مدته .

(بَلَاغٌ) أى : أن ما وعظوا به كفاية فى الموعظة ، أو تبليغ من الرسول .

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : الخارجون عن طاعة الله ، أو عن الاتعاظ بما وعظوا به .

التفسير

٣٣ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

الهمزة فى (أَوَلَمْ يَرَوْا) للإنكار ، والمعنى : أغفل هؤلاء الكفار المنكرون للبعث ولم يعلموا علماً جازماً أن الله العظيم أبدع خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال يحتذيه ، ولم يلحقه بذلك تعب أصلاً ، أو لم يعجز عنه - أوْ لم يُرِدْهُ - (بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ) أى : أنه - سبحانه - وقد أبدع خلق السموات والأرض فى الابتداء قادر قدرة بالغة على أن يحيى الموتى بعد الفناء ، ويعيدهم بعد تفرق الأشلاء .

ودخلت الباء هنا فى خبر أنَّ تأكيدًا للمعنى لاشتمال النفى فى أول الآية على أن وما فى حيزها كأنه قيل : أوليس الله بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى : (بَلَىٰٓ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تقريرًا للقدرة على وجه عام ليكون كالبرهان على المقصود ، فكأنه قيل : إحياء الموتى شىْء ، وكل شىْء مقدور له - تعالى - فينتج عنه أن إحياء الموتى مقدور له ، ويلزمه أنه قادر على إحياء الموتى : تفسير الآلوسى .

٣٤ - (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

أى : وذكِّر الكفار يوم يوقفون على النار فيقال لهم تقريعاً : (أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ) إشارة إلى ما يشاهدونه من حيث هو من غير لفظ يدل عليه إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه ، أو إشارة إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به بدليل التصريح به بعد فى قوله : (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) وفى ذلك توبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وكان جوابهم مؤكدًا بالقسم حيث قالوا : (بَلَىٰ وَرَبِّنَا) كأنهم يطمعون فى الخلاص من العذاب بالاعتراف بحقية ذلك ، وأنى لهم ذلك ؟ ! (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) أى : فيقول المقرِّر : فذوقوا العذاب بسبب استمراركم على الكفر فى الدنيا .

ومعنى أمرهم بذوق العذاب : الاستهانة بهم والتهكم والتوبيخ لهم ، وذوق العذاب تمثيل لإدراك آثاره الأليمة والإحساس بها إحساساً لاشك فيه .

٣٥ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) :

أى : إذا كانت عاقبة أمر الكفرة إنزال العذاب بهم بسبب كفرهم فاصبر- أيها النبى - على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد بما يصيبك من أذى قومك الذى أنزلوه بك وبمن اتبعك . اصبر كما صبر أُولو العزم والثبات من الرسل المجتهدين فى تبليغ الوحى فلم يصرفهم عنه صارف ، ولم يعطفهم عنه عاطف ، وإنك من جملتهم بل من عليتهم . فكل الرسل كانوا أُولى عزم كما قال ابن عباس ، ولفظ (من) على هذا للتبيين ، وقيل : هى للتبعيض ، والمراد من أُولى العزم : أَصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاغين فيها ، وقد اختلفوا فى تعيينهم على أقوال : أشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأَنبياء محمد ﷺ فهم خمسة - قاله مجاهد - وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدة طويلة ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحاق[1] صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد الولد ، وذهاب البصر ، ويوسف صبر على البئر والسجن ، وأيوب صبر على الضر ، وهناك أقوال أُخرى كثيرة ذكرها القرطبى وغيره فمن أرادها فليرجع إليها .

(وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) أى : لاتدْعُ على كفار مكة بتعجيل العذاب لهم فإنه على شرف النزول بهم يوم القيامة وهو قريب لاشك فيه « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيباً »[2] .

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَايُوعَدُونَ) من العذاب الذى أمروا بذوقه لم يمكثوا فى الدنيا حتى جاءهم هذا العذاب ، أو فى قبورهم حتى بعثوا للحساب - كما قال النقاش لم يمكثوا - إلا وقتاً يسيراً

---

(١) الأصح أن الذبيح إسماعيل - عليه السلام - .

(٢) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧

يقدر بساعة من نهار فى جنب يوم القيامة لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته حتى أنساهم هولُ ذلك طول مكثهم فى الدنيا أو فى قبورهم ، وهذا الذى وعظتم به (بلَاغٌ) أى : كاف فى الموعظة ، أو هذا القرآن بلاغ للناس - قاله الحسن - بدليل (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ) (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أى : لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن الاتعاظ بأمر الله ، أو عن الطاعة ، وفى الآية من الوعيد والإنذار ما فيها .

« سورة محمد »

هذه السورة مدنية وعدد آياتها ثمان وثلاثون ، ولها اسمان سميت بهما ، أحدهما : سورة محمد ، لقوله - تعالى - فى أول السورة : (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) وثانيهما : القتال لقوله - تعالى - فيها : (فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ) من الآية رقم ٢٠

ومناسبتها للسورة التى قبلها أن حديثها عن الكفار الذى بدئت به متصل بما ختمت به سابقتها التى ذكرت حالهم يوم يعرضون على النار ، بسبب كفرهم وإيذاء الرسول وإنكار البعث ، وقررت مصيرهم بقوله - تعالى - : (فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) حتى قال ابن كثير : لا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقطت من البين البسملة لكانا كلاماً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة آخذاً بعضها بعنق بعض .

أهم أهداف السورة :

١ - بينت فى بدايتها أن الله أبطل أعمال الكافرين لإعراضهم عن الحق واتباع الباطل ، والوقوف فى وجه الدعوة ليصدوا الناس عن دين الله ، وأنه - سبحانه - كفّر عن المؤمنين سيئاتهم ؛ لأنهم نصروا الحق وسلكوا طريقه واتبعوا ما أنزل على محمد ﷺ .

٢ - بينت - بإطناب - وجوب الدفاع عن الحق وما يتطلبه ذلك عند لقاء الكفار فى بدء المعركة ونهايتها ، وذكرت جزاء من قتل فى سبيل الله (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ) الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

٣ - وعدت المؤمنين المدافعين عن دين الله بالتأييد والنصر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ) ... الآية ، وأوضحت أن للكافرين الشقاء والخسار (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) ؛ لأنهم كرهوا ما أنزل الله فأبطل أعمالهم .

٤ - حذرت كفار مكة سوء المصير فضربت لهم الأمثال بالطغاة المتجبرين من الأمم السابقة ، وبينت أن الله دمر عليهم بسبب إجرامهم وطغيانهم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) الآية ، ثم ذكرت جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعاقبة الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ، وأشارت إلى أن سنة الله إهلاك القرى الظالمة التي هي أشد من قريتك التي أخرجتك (فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) .

٥ – ذكرت أنهار الجنة التي ينعم بها المؤمنون ، وشراب الكافرين الذي يقطع أمعاءهم .

٦ – تحدثت بإسهاب عن المنافقين ، وعما جبلوا عليه من الإنكار لما يسمعون من الرسول حيث كانوا يقولون لأولى العلم : ماذا قال آنفاً ؟ تمادياً في الإعراض عن الحق وعلى جهة الاستهزاء ،واستمرت آيات السورة تعدد مساوئهم مع تحذير المؤمنين أن يكونوا بينهم حتى لايستمعوا لتثبيطهم ، وهددتهم بهتك أستارهم بإظهار الرسول على أحقادهم التي يخفونها حيث كانوا يقولون مالا يفعلون .(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ) .

٧ – ثم ختمت السورة مؤكدة أن الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما وضح الحق وتبين الهدى لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم ، وأنهم إذا ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، وذمت البخلاء في الإنفاق وبينت استغناء الحق ، وفقر الخلق في قوله : (وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ..) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ) أى : أعرضوا عن الإسلام وامتنعوا عن الدخول فيه ، من : صد صُدودًا ، أو منعوا الناس عن الدخول فيه ، من : صده صدًّا .

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطل كيدهم ومكرهم وتدبيرهم .

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) أى : أزالها ومحاها بالإيمان والعمل الصالح .

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم فى الدين والدنيا ، والبال كالمصدر ولايعرف منه فعل .

(اتَّبَعُواْ الْبَاطِلَ) أى : الشرك أو الشيطان .

(اتَّبَعُواْ الْحَقَّ) : التوحيد والقرآن .

التفسير

١ - (الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

قال ابن عباس: نزلت فى المطعمين يوم بدر وهم اثنا عشر رجلاً من أهل الشرك منهم أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبىٌّ وأُمية ابنا خلف كانوا يمنعون

الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر ، وقد أنفقوا فى سبيل ذلك نفقة كثيرة ، وقيل : المراد بهم أهل الكتاب الذين كفروا وصدوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام ، وقيل : هم أهل مكة الذين كفروا بتوحيد الله وصدوا عن الإسلام من أراد الدخول فيه ، والحق أن الآية عامة لكل من كفر وأعرض عن الإسلام ، أو كفر ومنع الناس من الدخول فيه[1] ويدخل فى العموم كل ما نقل من أقوال دخولًا أوليا ، هؤلاء أبطل الله أعمالهم وجعلها ضائعة ليس لها من يثيب عليها ، ولا أثر لها أصلاً ، بمعنى أنه حكم ببطلانها وضياعها لا بمعنى أنه أبطلها وأحبطها بعد أن لم تكن كذلك ، وبطلانها بإبطال كيدهم ومكرهم بالنبى ﷺ حيث جعل الدائرة تدور عليهم ، أو بإبطال ما عملوه فى كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام ، وقرى الأضياف ، وحفظ الجوار وعمارة المسجد الحرام ونحوها من كل مكرمة لهم وفخر .

٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) :

قال ابن عباس فيما صح عنه : هم أهل المدينة الأنصار ، وقيل : هم ناس من قريش ، وقيل : من أهل الكتاب ، والحق أن الآية عامة ويدخل فيها من ذكر دخولا أوليا ، وتخصيص الإيمان بما نزل على محمد مع دخوله فيما قبله تنبيه على سمو مكانته بين الكتب السابقة التى جاء بها الرسل قبله .

والمعنى : والذين آمنت قلوبهم ، وانقادت جوارحهم فعملوا الأعمال الصالحة ، وآمنوا بما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم ، أولئك المؤمنون الذين وصفوا بما ذكر (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) التى حدثت منهم قبل الإيمان فأزالها ولم يؤاخذهم بها . (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أى : حالهم وشأنهم بالتوفيق فى أمور الدين ، والتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصر والتأييد على عدوهم حتى دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها .

---

(١) لأن (صد) تستعمل لازمة بمعنى أعرض ، والمصدر : الصدود ، ومتعدية بمعنى منع ، والمصدر : الصد .

٣ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ) :

بدئت الآية بالإشارة إلى مامر من إضلال أعمال الكافرين، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم .

والمعنى : أن إضلال أعمال الذين كفروا بسبب أنهم اتبعوا الباطل وهو الذى لا أصل له أو اتبعوا الباطل وهو الشيطان - قاله مجاهد - ففعلوا ما فعلوا من الكفر والصد عن سبيل الله ، وأن رعاية المؤمنين بسبب أنهم اتبعوا الحق الذى لا محيد عنه كائن من ربهم ، فآمنوا به وعملوا الأعمال الصالحة (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ) أى : مثل هذا البيان الواضح يبين الله للناس أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم ، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم .

ويجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل - سبحانه - اتباع الباطل مثلًا لعمل الكفار ، والإضلال مثلًا لخيبتهم ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم .

(فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قَيْدَ مَنْ أسرتموهم بعد إثخانهم بكثرة القتل وإضعافهم بالجراح . والوثاق – بالفتح والكسر – : اسم لمـا يوثق به كالقيد والحبل ونحوهما ، والجمع وُثُق .

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) المن : إطلاق الأسير بغير عوض ، والفداء : إطلاقه بعوض .

(حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح ، والكُراع [(١)] وغير ذلك ، وإسناد الوضع للحرب وهو لأهلها على سبيل المجاز .

(لَانتَصَرَ مِنْهُمْ) أى : لانتقم منهم فأهلكهم بغير الحرب كالزلزلة .

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : أمركم بالحرب ليختبر بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكافرين تمحيصًا للمؤمنين ، ويمتحن الكافرين بالمؤمنين تمحيقًا لهؤلاء الكافرين .

---

(١) الكراع – بضم الكاف – : اسم يجمع الخيل : مختار الصحاح .

(فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : فلن يضيعها وإنما يجازيهم بها أحسن الجزاء .

(عَرَّفَهَا لَهُمْ) أى : يهدى أهل الجنة إلى مساكنهم فلا يخطئونها ، وذلك إلهامٌ منه تعالى.

التفسير

٤ - (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

بدئت الآية بالفاء لترتيب ما فى حيزها من الأمر بجهاد الكافرين على ما قبلها من ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم ، وصلاح أحوال المؤمنين وفوزهم ، مما يقتضى أن يترتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام .

والمراد بالذين كفروا - كما قال ابن عباس - : المشركون عبدة الأوثان ، وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، ذكره الماوردى ، واختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه .

وهؤلاء الكافرون أنتم مأمورون بضرب رقابهم فى الحرب ، وهو كناية عن قتلهم فى أى موضع ، وعبر به عنه لتصوير القتل بأبشع صورة وهو حز العنق ، وفصل العضو الذى هو رأس البدن وأشرف أعضائه ، ومجمع حواسه ، وفى بقاء الجسد ملقى بدون رأسه شناعة ما بعدها شناعة . (حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ) بأن أكثرتم فيهم القتل ، وأخذتم من لم يقتل منهم أسرى بعد أن أوهنتموهم بالجراح . (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أى : فأحكموا قيدهم حتى لا يفلتوا منكم ، وعندما يتم التحفظ عليهم تكون عاقبة أمرهم التخيير فيهم . (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) وظاهر الآية على ما ذكره السيوطى فى أحكام القرآن العظيم - : امتناع القتل بعد الأسر ، وبه قال الحسن ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أنه قال : أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - رجلا يقتله فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال

الله - تعالى - : (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) ذكر ذلك الآلوسى .

ويقول القرطبي : وليس فى تفسير المن والفداء منع من غيره مع الأسرى ، فقد بين الله فى الزنى حكم الجلد ، وبين الرسول حكم الرجم، ولهذا اختلف العلماء فى حكم الأسارى ، فذهب الأكثرون إلى أن الإمام بالخيار إن شاء قتلهم إن لم يسلموا ؛ لأن النبى ﷺ قتل- صبرا - عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث ؛لأن فى قتلهم حسماً لمادة فسادهم بالكلية ، وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرًا بنفسه فذلك من حق الإمام ، ما لم يتوقع شرًّا منه ، وإن شاء الإمام استرقهم ؛لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام ، وإن شاء تركهم أهلَ ذمة كما فعل ذلك عمر مع أهل السواد إلَّا أسارى مشركى العرب والمرتدين فإنه لا تقبل منهم جزية ولا يجوز استرقاقهم . والحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وعن سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلَّا بعد الإثخان والقتل بالسيف لقوله - تعالى - : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ »[1] فإذا وقع بعد ذلك أسر فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل وغيره ، وتفصيل هذه الأحكام تكفل بها الفقهاء . (حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى : آلاتها وأثقالها من السلاح وغيره مما لا تقوم الحرب إلَّا به ،وإسناد وضع الأوزار إليها - وهو لأهلها - إسناد مجازى ، والمراد من هذا الرأى أن هؤلاء الكافرين يقتلون حتى تنتهى الحرب ، فيكون بعدها إمَّا الأسر وإمَّا الفداء ، وتستمر الأحكام السابقة جارية فيهم إلى أن يظهر الإسلام على الدين كله ، ولا يبقى للمشركين شوكة بهزيمتهم أو بالموادعة وإلقاء السلاح ، أو حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم ويسلموا .
(ذَٰلِكَ) أى : ذلك حكم الكفار ، أو : افعلوا ذلك ، وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . (وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ) بغير قتال ، بأن يهلكهم بخسف ونحوه كرجفة وغرق وريح صرصر عاتية ، وقال ابن عباس : ولو يشاء لأهلكهم بجند من الملائكة .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٦٧

(وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) أى : ولكن أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم ، فينالوا الثواب العظيم ، ويُخلَّد فى صحف الدهر ما لهم من الفضل الكبير ، وليبلو الكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم - عز وجل - ببعض انتقامه ، فيتعظ به بعض منهم ويكون سبباً لإسلامه . (وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : والذين استشهدوا فى قتال المشركين ، فلن يضيع الله ثواب أعمالهم ، وهم عنده - عز وجل - أحياء ينعمون برزق دائم ، ونعيم مقيم ، فرحين بما آتاهم ربهم من فضله .

قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ، ورسول الله ﷺ فى الشِّعب وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعْلُ هبَل ، ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، وقال المشركون : يوم أُحد بيوم بدر والحرب سجال ، فقال النبى ﷺ : « قولوا : لَا سواء ؛ قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون . فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم .

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) المراد : هداية هؤلاء الشهداء إلى الجنة بإرشادهم إلى مسالكها والطرق المفضية إليها ليصلوا إلى ثواب أعمالهم من النعيم الخالد والفوز الدائم والفضل العظيم ، أو سيحقق الهداية لمن بقى منهم بصونهم عمَّا يورث الضلال ويحبط الأعمال ، وكما أنه - سبحانه وتعالى - تكفل بأنه سيهديهم فقد تكفل كذلك بأن يصلح بالهم ، أى : شأنهم ، قال الطبرسى : المراد إصلاح ذلك فى العقبى . ولا تكرار لذلك مع قوله - سبحانه - : (كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) لأن المراد به هناك إصلاح شأنهم فى الدين والدنيا ، فاختلف المراد .

٦ - (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) :

أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم التى حددت لكم ، وهديتم إليها ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد أنه قال : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدًا ، وفى الحديث : « لأَحَدُكم بمنزله فى الجنة أعْرَفُ منه بمنزله فى الدنيا » وذلك إلهامٌ منه - عز وجل - أو طيبها لهم بأنواع الملاذ

ـ كما قال ابن عباس ـ من العَرْف : وهو الرائحة الطيبة ، ومنه : طعام مُعَرَّف ، أى : مطيَّب ، وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا ، وهو بذكر أوصافها ، والمراد أنه ـ تعالى ـ لم يزل يمدحها لهم حتى عشقوها ، فاجتهدوا فيما يوصلهم إليها . وقال الحسن : وصف الله ـ تعالى ـ لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) : عند القتال ، أو على محجة الإسلام ، أو على الصراط .

(فَتَعْسًا لَّهُمْ) أى : هلاكًا ، والتعس كما يطلق على الهلاك يطلق على العثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط كما فى القاموس . والفعل من باب (منع) ، وجوز قوم تَعِسَ ـ بكسر العين ـ من باب فَرِح ، ومنه حديث أبى هريرة : « تَعِسَ عبد الدينار والدرهم » .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى : أبطلها ؛ لأنها كانت للشيطان وفى سبيله .

(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أى : أهدرها وكانت فى صور الخيرات كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القُرَب .

التفســير

٧- (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) :

أى : إن تنصروا دين الله ورسوله ﷺ بتحمل مشاق الدعوة وما تتطلبه من بذل وتضحية ينصركم على أعدائكم ، ويفتح لكم ؛ إذ هو ـ سبحانه ـ المعين الناصر ، وغيره هو المُعَان

المنصور ، ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب ومواقفها ، أو على محجة الإسلام ، ويمدكم دائماً بالتمسك بالطاعة والتوفيق .

٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) :

دعاء على الذين كفروا بالله وأعرضوا عن دينه ، أى : فهلاكًا لهم وشقاء ، وهو منصوب بفعل من لفظه محذوف وجوبا سماعًا ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - يريد فى الدنيا القتل ، وفى الآخرة التردى فى النار ، وقيل غير ذلك .

(وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) لأنها كانت للشيطان الذى زين لهم الضلال ، وحبب إليهم الفسوق والعصيان وبذلك استحبوا العمى على الهدى .

٩ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

أى : ما ذكر من التعس وضلال الأعمال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن الكريم لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام التى تخالف ما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ، فأهدر الله لأجل ذلك أعمالهم التى كانت موطن فخرهم من صور الخيرات كعمارة المسجد الحرام وقِرَى الأضياف ، وأصناف القرب الأخرى ، إذ الإيمان شرط للإثابة على الأعمال فلا يقبل الله العمل إلا من مؤمن ، وقيل : أحبط أعمالهم ، أى : عبادة الأصنام .

وفى الآية تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن الكريم للتعس والإضلال .

* (أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(عَاقِبَةُ) : آخرة ، وعاقبة كل شيء : آخره .

(دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ) : أهلك الله عليهم ما يختص بهم ، يقال : دمَّرهم ، أى : أهلكهم ، ودمَّر عليهم ، أى : أهلك عليهم ما يختص بهم وهو أبلغ .

(مَوْلَى) : ناصر .

(مَثْوًى) : منزل ودار إقامة .

التفسير

١٠ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) :

بينت الآيات السابقة فى مستهل هذه السورة شيئًا من أحوال الكافرين ، والمؤمنين ، ووعدت المؤمنين بالنصر والتمكين فى الأرض ، والتثبيت على محجة الإسلام ، إذا نصروا الله ورسوله ونَعَتْ على الكافرين كفرهم وما يجرى عليهم من التعس والخسران وبطلان الأعمال ، ثم جاءتْ هذه الآية التى تدعو إلى النظر فى عاقبة الأمم السابقة التى سلكت مسالك الكفر فوقعت فى متاهات الضلال .

والمعنى : أَقَعَدَ هؤلاء الكفار فلم يسيروا فى نواحى الأرض ، ولم يضربوا فى مناكبها فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم على مثل حالهم من الكفر والعناد ، وما نزل بهم من عذاب ، وحَلَّ بديارهم من تدمير وخراب ؟ ! أهلكهم الله ودمَّر عليهم كل ما لهم من أموال ومنازل . ولكم - أيها الكافرون - أمثال ما لهؤلاء السابقين فإنكم جميعًا فى الكفر سواء .

ووضع الظاهر موضع الضمير لإبراز الجزاء مع الإشارة إلى استحقاقه بذكر سببه .

١١ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) :

أى : ذلكَ الجزاء الذى مضى به قضاء الله ، وجرت عليه سنته من تدمير الكافرين ، واستئصال المفسدين مع نصر الموحدين والتمكين للطائعين - ذلك كله - جار على سنة أنه - تعالى - ولى المؤمنين يهديهم وينصرهم ، ويصلح حالهم ، وأن الكافرين ضائعون ، لا ناصر ينصرهم ، ولا مُعين يُعينهم أو يدفع عنهم .

ولا يخالف هذا قوله - تعالى - : « وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] فإن المولى فيه بمعنى المالك ، وفى الآية التى نحن بصددها بمعنى الناصر .

---

(١) سورة يونس من الآية ٣٠

سأل أبو سفيان يوم أحد عن النبي ﷺ وعن أبي بكر ، وعمر - رضى الله عنهما - فلم يُجَبْ ، قال : أمَّا هؤلاء فهلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : كذبت يا عدوَّ الله ، بل أبقى الله - تعالى - ما يسوؤك ، وإن الذين عددت أحياءٌ ، فقال أبو سفيان : يومٌ بيوم ، والحربُ سجال ، أما إنكم ستجدون مُثْلَةً[1] لم آمر بها ولم أَنْهَ عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعْلُ هُبَل - اعْلُ هبل . فقال النبي ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجلّ . ثم قال أبو سفيان : لَنَا العُزَّى ولا عُزَّى لَكُم . فقال ﷺ : ألا تجيبوه ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم .

١٢ - (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) :

هذه الآية بيان لثمرة ولايته - تعالى - للمؤمنين الأخروية بعد بيان ثمرتها فى الدنيا بالنصر ، والتمكين فى الأرض .

والمعنى : إن الله - تعالى - يتفضل على عباده الذين آمنوا به والتزموا طاعته بفعل المأمورات وترك المنهيات - يتفضل عليهم - فى الآخرة فيدخلهم جنات تزدهى بألوان الجمال من أشجار تجرى من تحتها الأنهار ، ومناظر تعجب الأبصار ، زاخرة بأطايب الخيرات ، والثمار ، وأصناف من الفواكه كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة .

والذين كفروا وركنوا إلى الدنيا ، وغرتهم زخارفها ، وجرفهم متاعها فاندفعوا وراء شهواتهم يأكلون كما تأكل الأنعام نهمين غافلين ، لا يهمهم إلا إشباع بطونهم ، وإرضاءُ غرائزهم ، لا يفكرون فى حساب ، ولا يتدبرون فى عاقبة هواهم - هؤلاء فى الآخرة - النار مثواهم ودار إقامتهم ، يطعمون زقُّومها ، ويشربون حميمها ، ويصطلون بلهيبها جزاء غفلتهم فى دنياهم ، وبعدهم عن سواء السبيل .

---

(١) المثلة : التمثيل بالقتيل بنحو قطع اليد أو الأنف بعد القتل .

١٣ - (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيَ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) :

الخطاب فى هذه الآية إلى الرسول ﷺ تسلية له وتهوينًا عليه أمر هجرته من بلدته ، وتهديدًا للمشركين بالهلاك والدمار كما هلك من كانوا قبلهم من الطغاة المتجبرين الذين كانوا أشد منهم بطشًا ، وأعظم قوة ومنعة فأقفرت منهم الدنيا ، وخلت الديار .

والمعنى : وكم من قرية كان أهلها أشد قوة ، وأعتى بطشًا ، وأعز سلطانا ومنعة من أهل قريتك : مكة التى أخرجك منها أهلها بتتابع أذاهم ، وتلاحق كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، فكانت نهاية أمرهم الهلاك بأنواع العذاب ، فلم يكن لهم دافع يدفع عنهم ، ولا ناصر ينصرهم ، فهؤلاء المشركون من أهل مكة لهم نهاية كنهايتهم إن استمروا على كفرهم .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ لمَّا خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنتِ أحبّ بلاد الله - تعالى - إلى الله وأنتِ أحبّ بلاد الله - تعالى - إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلَكِ أخرجونى منك لم أخرج منك » .

١٤ - (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) :

هذه الآية تستحث العقل وتستنهض الفكر إلى ضرورة النظر ، والتمييز بين الحق ، والباطل ، والصحيح والفاسد ، والضار والنافع ، والتسامى عن الانقياد الأعمى للآباء ، واتباع الشهوات ، بعد بيان نعيم المؤمنين ، وشقاء الكافرين .

والمعنى : أيستقيم فى العقل السليم ، والفكر القويم أن يستوى مَنْ كان على حجة ظاهرة وبرهان نيّر من الله مالك أمره ومربِّيه ، فأيده بالقرآن وسائر المعجزات والحجج العقلية - أفمن كان كذلك - يماثل من زيّن له الشيطان سوء عمله ، وحسن له سبل غوايته ، فأمعن فى الشرك الذى هو أقبح القبائح ، وانغمس فى المعاصى والمنكرات ، وجرى مع الغواة والمفسدين فاتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزواتهم الطائشة ، وانهمكوا فى الملذات ، وذابوا فى الضلالات؟!!

وجمع الضمير فى قوله : (وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) مراعاة لمعنى (مَنْ) وأفرد مع قوله : (أفمَن كَانَ) مراعاة للفظها .

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

المفـــردات :

(مَثَلُ) المثل : الوصف العجيب الشأن .

(آسِنٍ) : متغير الطعم والرائحة .

(لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) : لم يصر فيه حموضة كألبان الدنيا ولا ما يكره من الطعوم .

(مُّصَفًّى) : خال من الشمع ومن جميع العلائق والمخلفات .

(حَمِيماً) : حارًّا بالغ الحرارة .

(أَمْعَآءَهُمْ) : جمع مِعًى . وهى ما ينتهى إليها الطعام فى البطن .

التفسير

١٥ - (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . . .) الآية :

هذه الآية كلام مستأنف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين فى قوله - تعالى - آنفًا : (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ....) وتصوير نعيمها ، وتعداد خيراتها ، ومقارنة نعيم أهلها بعذاب أهل الجحيم .

والمعنى : مثلُ الجنة الموعودة للمؤمنين ، وشأنها العجيب ما يتلى عليكم من جلائل النعم ، فى هذه الجنة أنهار من الماء النقى المتجدد الذى لم يداخله كدر ، ولم يلحقه تغير فى لون أو طعم لطول مكثه ، وأنهار من لبن لم تطرأ عليه حموضة ولم يستكره له طعم، كما يحدث فى ألبان الدنيا ، وأنهار من خمر لذيذ الطعم مستساغ المذاق ليس فيها كراهية ريح ، ولا غائلة سكر ، ولا يجد شاربها إلَّا اللذة والمتعة ، وأنهار من عسل خالص صرف مصفًّى من الشمع ، ومن جميع الشوائب وفضلات النحل ، وفيها غير هذا من كل الثمرات ، وأصناف المطعومات مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكل ذلك من الوفْرة والكثرة بحيث لا يخاف منه حرمان ، ولا إقلال . ولهم قبل هذا مغفرة واسعة من ربهم تمحو ذنوبهم ، وترفع درجاتهم .

وقوله تعالى : (كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِى النَّارِ) معناه : أَمَثَل الجنة التى أعدت للمتقين وعلمتم أوصافها كمثل جزاء من هو خالد فى النار متهاوٍ فى دركاتها ، شرابُهم فيها الحميمُ الشديد الحرارة ، فإذا شربوا منه قطع أمعاءهم ؟!

والتعبير عن فريق المؤمنين بالمتقين يؤذن بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها ، وترك السيئات عن آخرها ليتقى عذاب الله على تركها . كما أن التعبير عن فريق الكافرين بمن هو خالد فى النار ، لإبراز مهانتهم بسوء مآلهم ، وتأبيد عذابهم .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : الصحابة الذين وعوا حديث رسول الله ﷺ .

(آنِفًا) أى : سابقًا ، وهو اسم للساعة التى قبل الساعة التى أنت فيها ، وهو اسم فاعل على غير قياس ؛ لأنه لم يسمع له فعل ثلاثى .

(طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : طمس الله على قلوبهم وختم عليها .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(أَشْرَاطُهَا) : علاماتها .

(مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : مكان تقلبكم فى الدنيا ، وموطن إقامتكم فى الآخرة .

التفسير

١٦- (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ ...) الآية :

تحكى هذه الآية صورة من صور بعض المشركين ، ونموذجًا من سلوكهم فى مجلس النبى ﷺ وأصحابه الذين يجلسون إليه ، ويتلقون عنه ، ثم تمضى الآيات بعدها فى مقارنة

بين الذين طبع الله على قلوبهم ، وبين المهديين من المؤمنين لتُبرز مقدار سفه المشركين ، ورشد المؤمنين .

والمعنى : ومن هؤلاء الكافرين المتورطين فى نعيم الدنيا بغير اعتبار ولاتدبر للعاقبة – من هؤلاء – من يحضر إلى مجلسك ليستمع ما تقرؤه على أصحابك من قرآن ، وما توجههم إليه من هَدْى ، حتى إذا خرجوا من عندك وفارقوا المجلس قالوا لمن حضرك وكان معهم من الصحابة رضوان الله عليهم – قالوا – فور خروجهم : ماذا قال محمد سالفًا فى المجلس الذى كنا فيه ؟ يقولون ذلك سخرية واستهزاء كأنَّهم لم يفهموا ماقال الرسول ، أو كأنه كلام لا ينهض إلى درجة الفهم ، أو لا ينبغى سماعه فضلًا عن فهمه – أُولئك القائلون هذا القول – هم الذين طمس الله على قلوبهم ، وأظلم بصيرتهم بسوء اختيارهم ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونزعاتهم الطائشة فقالوا ما قالوا ، وفعلوا ما فعلوا ممَّا لاخير فيه .

١٧ – (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) :

أى : الذين طلبوا الهداية وحرصوا عليها حتى نالوها ، وهداهم الله إلى طريق الحق وثبتهم عليها – هؤلاء – زادهم الله هدى بالتوفيق والفهم وآتاهم تقواهم ، أى : أعانهم على العمل الصالح الذى يقيهم عذاب الله ، ويدنيهم من ثوابه .

وقوله – تعالى – : (وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) مقابل لقوله – تعالى – فى شأن الكافرين : (وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم) ومن بديع التنسيق وإحكام الإعجاز أن أغلب الآيات فى هذه السورة جارٍ على هذا التقابل ؛ كما فى قوله – تعالى – : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) . وقوله : (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) ومن ذلك أيضًا : (طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) . مقابل : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ) .

١٨ – (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) :

أى : فهل ينتظر هؤلاء الغافلون اللاهون إلا القيامة تباغتهم ، وتأتيهم فجأة وهم فى غفلة

لايتذكرون بذكر أحوال الأمم الخالية ، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأهوال فقد جاء أشراطها ، وظهرت أماراتها فلم يرفعوا لها رأسًا ، ولم تنبه فيهم غافلًا ، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها مع مشاهدتهم لها كانشقاق القمر ، وغير ذلك من الأشراط التى أهمها بعثة الرسول ﷺ ولهذا جاء فى أسمائه أنه نبىّ التوبة ، ونبىّ المَلْحَمَة ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، وقال البخارى : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو رجاء حدثنا سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها : « بعثتُ أنا والساعة كهاتين » .

وقوله تعالى : (فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ) معناه : فكيف للكافرين المنكرين الانتفاع بالتذكير إذا جاءتهم القيامة ، وأى سبيل لهم إليه ؟ وهو حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفعه حينئذ كقوله - تعالى - : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ »[1] .

١٩ - (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) :

قوله تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) أمر مسبب عن مجموع القصة من مفتتح السورة حتى هنا ، على معنى : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، فهو من موجبات السعادة ولا يهمك كفر هؤلاء بوحدانيته ، فقلوب العباد ونواصيهم بيده ، ومصادر الأمور ومواردها بأمره ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، واستغفر لذنبك ، وتضرع إلى الله أن يغفر لك فى كل حال ما هو دونه ، فقد ذكر العلماء أن لنبينا - عليه الصلاة والسلام - فى كل لحظة عروجًا إلى مقام أعلى مما كان فيه ، فيكون ما عرج منه فى نظره الشريف ذنبًا بالنسبة لما عرج إليه فيستغفر منه ، وحملوا على ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - : « وإنه ليران على قلبى » .

---

(١) سورة الفجر ، من الآية : ٢٣ .

ويجوز أن يكون استغفاره ﷺ من قبيل ترك الأَوْلَى بالنسبة إلى منصبه الجليل مَّما يمكن أن يكون بالنسبة لغيره من أجلّ الحسنات ، من باب حسنات الأَبرار سيئات المقربين .

ومهما يكن أو يُقَلْ فإن النبى ﷺ يؤدى لله جميع الطاعات ، ويتضرع برفع الدعوات أداءً لشكر آلائه ، ورفعًا لدرجاته ، وإرشادًا للمؤمنين .

(وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) أى : والله يعلم أطواركم فى الدنيا ومراحلكم فيها ، فإنها أطوار ومراحل لابد من قطعها لامحالة ، يستقيم فيها من يستقيم ، ويضل من يضل ، ويعلم مثواكم ومستقركم فى الآخرة ، أهل النعيم فى دار النعيم ، وأهل العذاب فى الجحيم ، فإن الآخرة هى العقبى ، وهى منازلكم ، ومواطن إقامتكم فلا يأْمركم إلا بماهو خير لكم فيهما فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فى المقامين ، فإنه زادكم عند من لاتخفى عليه أحوالكم .

وخص المتقلب فى الدنيا ، والمثوى فى الآخرة؛ لأن الدنيا دار حركة دائبة ، وتقلب مختلف لطلب الرزق وغيره ، أما الآخرة فدار سكون واستقرار ، لاتقلب فيها ولامدار . فالرزق فيها موفور والنعيم مقيم .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾)

المفـــــردات :

(سُورَةٌ) : طائفة من آيات القرآن تأْذن بالجهاد .

(مُحْكَمَةٌ) : مبينة قاطعة لاتأول فيها .

(مَرَضٌ) : ضعف إيمان ونفاق .

(الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) : من حضرته أعراض الموت وغشيته .

(أَوْلَىٰ لَهُمْ) : هلاك وعذاب لهم .

(عَزَمَ الأَمْرُ) : جد الأمر .

(عَسَيْتُمْ) : قاربتم .

(أَقْفَالُهَا) : جمع قفل : وهو مايحكم به الغلق .

التفسير

٢٠ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) :

عرضت الآيات السابقة شيئاً من أحوال الكافرين ، واختصت منهم طائفة تسمع إلى الرسول ﷺ فى مجلسه ثم تنكر ما سمعت فور خروجها من المجلس ، وتتساءل عنه سخرية واستهزاء ، وإمعانًا فى العناد ، ثم جاءت هذه الآيات بعدها على سنن هذا النسق تتناول الذين اهتدوا وبارك الله هداهم ، وآتاهم تقواهم ، واختصت منهم جماعة يتعجلون تنزيل آيات من القرآن قاطعة فى الإذن بالجهاد ليضربوا على أيدى المشركين ، ويردوا كيدهم ، وينهنهوا[1] جبروتهم ، فإذا أنزلت هذه الآيات أشفق من نزولها مرضى القلوب وضعاف الإيمان ، وشملهم الضجر ، وتَغَشَّاهم الخوف حتى أفزع قلوبهم ، ونظروا إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت .

وفسر بعض المفسرين (الذين فى قلوبهم مرض) بالمنافقين ، والسورة مكية والمجتمع المكى كان صريحاً لا نفاق فيه ولاضعف إيمان ، اللهم إلا أن يكون ذلك مما سبق حُكْمُهُ نزولَهُ ، أو تكون الآية مدنية .

والمعنى : ويقول الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وأجابوا دعوته - يقولون - حرصا على الجهاد ، وتحمسا لنصرة الدعوة ، وتوعدا للمشركين : هلَّا أنزل الله طائفة من القرآن بينة قاطعة بمشروعية الجهاد ، والإذن به حتى ننتصر لدعوتنا ، ونرد كيد أعدائنا ، فإذا أُنزلت سورة محكمة لاتشابه فيها ، وذكر فيها الإذن بالجهاد ، والأمر به صراحة بحيث لايحتمل التأويل بوجه آخر - وكل آيات الجهاد محكمة كما قال قتادة - إذا أُنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض من ضعاف الإيمان والمنافقين خائفين مشفقين ، ينظرون - إليك - أيها الرسول الكريم - نظر من حضرته أعراض الموت ، وغشيته أماراته فشخص بصره جبنا وهلعا ، وقوله - تعالى - : (فَأَوْلَىٰ لَهُمْ) تهديد ووعيد

---

(١) أى : يذهبوه ويكفوه .

بمعنى فأهلكهم الله - تعالى - هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك ، أو الكلام على تقدير مبتدأ وأولى خبره ، أى : فأولى لهم الهلاك .

٢١ - (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) :

كلام مستأنف ، أى : أمرهم طاعة ، أو طاعة وقول معروف خير لهم ، ويجوز أن يكون حكاية لقولهم ، ويؤيده قراءة أبى : (يقولون طاعة) أى : أمرنا طاعة ، وقولنا معروف (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ) أى : إذا جدّ الأمر بالقتال وأخذ طريق التنفيذ خالفوا وتخلفوا ، أو ناقضوا ، أو كرهوا ، فلو صدقوا الله فى الحرص على الجهاد ، ورجاء مشروعيته لكان الصدق خيراً لهم مما صاروا إليه وظهر عليهم ، وقيل : لو صدقو الله فى الإيمان ، وتأكد فى يقينهم ، ويجوز أن يكون جواب « إذا » جملة (فَلَوْ صَدَقُواْ اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام فلو جئتنى لأطعمتك .

٢٢ - (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ) :

الخطاب للذين فى قلوبهم مرض ، والمعنى : فهل عسيتم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليتكم الأولى من الإفساد فى الأرض وقتل بعضكم بعضاً ، وتقطيع الأرحام بينكم تناصراً على الباطل ، وتهالكا على الدنيا ، فإن ضعفكم فى الدين ، والحرص على الدنيا جعلكم حين أمرتم بالجهاد الذى هو السبيل إلى إحراز كل خير وصلاح ، ودفع كل شر وبلاء جعلكم حين أمرتم به تشفقون على أنفسكم ، وتنقضون عهدكم ، ومن كان كذلك لايبعد عنه التولى عن الإيمان والعودة إلى الشرك لكى تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، كعادتكم فى الجاهلية .

ويصح أن يكون المعنى : فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم أن تفسدوا فى الأرض ، وترجعوا إلى التناهب والقتل وقطع الأرحام ووأد البنات : كما كنتم فى الجاهلية .

وتخصيص الأرحام بالذكر تأكيد لحقها ، وذم لما يشيع بين كثير من الناس من جفائها ، وتحذير منه ، وقد قال - تعالى - : (وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

٢٣ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ) :

الإشارة فى (أُولَٰئِكَ) للمخاطبين فى قوله تعالى : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) بأسلوب الالتفات تحقيراً لشأنهم ، وحكاية لفظائع أحوالهم .

والمعنى : أولئك المذكورون آنفاً لعنهم الله فطردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته فأذهب أسماعهم لتصامِّهم عن سماع الحق ، والإذعان له ، وأعمى أبصارهم لتعاميهم عن مشاهدة الآيات الكثيرة الماثلة فى أنفسهم ، وفى الآفاق المنصوبة حولهم ، فعلوا كل ذلك باختيارهم فتركهم الله ولم يُنقذهم ، وأبقاهم فى صممهم عن آيات الحق ، وعماهم عن دلائله .

٢٤ - (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) :

أى : أغفل هؤلاء ، وضلوا فلا يتدبرون القرآن ،ولا يراجعون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يُخلصوا فى إيمانهم ، ويمتثلوا أمر الله بالجهاد كما امتثله المؤمنون ، إنهم لم يتدبروا ولم يتفكروا ، بل قلوبهم مقفلة محكمة الغلق بالأقفال والمغاليق ، فلا يكاد يصل إليها ذكر ، ولا يتحرك فيها تأمل أو فكر فتحولوا عن التفكر إلى الطمس والتحجر .

وتنكير القلوب : إما لتهويل حالها بإبهام أمرها فى القساوة والجهالة فهى قلوب منكرة لا يُعْرَف مثل حالها ، ولا يُقادر قدرها فى الغفلة والجمود ، وإما لأن المراد منها قلوب بعضهم ، فالتنكير للتقليل .

وإضافة الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة .

واستدل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالآية على منع بيع الجارية إذا ولدت ، أخرج الحاكم وصححه وابن المنذر عن بريدة قال : كنت جالساً عند عمر إذ سمع صائحاً ، فسأل ، فقيل : جارية من قريش تباع أمها ، فأرسل يدعو المهاجرين والأنصار ، فلم تمض ساعة حتى امتلأت الدار والحجرة ، فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه ثم قال : أما بعد :

فهل تعلمون أن كان مما جاء به محمد ﷺ القطيعة ؟ قالوا : لا ، قال : فإنها قد أصبحت فيكم فاشية ، ثم قرأ : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ) ثم قال : وأىُّ قطيعة أقطع من أن تباع أم امرىء فيكم ؟ قالوا : فاصنع ما بدا لك ، فكتب فى الآفاق : أنْ لاتباعَ أمُّ حُرٍّ ، فإنها قطيعة رحم وإنه لايحل .

ويلاحظ أن الجارية تعتق بعد وفاة سيدها من أجل ولدها منه ذكرًا كان أو أنثى ، فلا يحل له بيعها ويحرمها من حريتها المرتقبة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾)

المفــــردات :

(ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم) : رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر .

(سَوَّلَ لَهُمْ) : سهل لهم وحسّن ،

(وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) : أمهلهم ومد فى الأمانى .

(أَسْخَطَ اللَّهَ) : أوجب غضبه وعقابه .

(أَحْبَطَ) : أبطل وأذهب .

(أَضْغَانَهُمْ) : أحقادهم جمع ضغن .

(بِسِيمَاهُمْ) : بعلامتهم المميزة لهم .

(لَحْنِ الْقَوْلِ) : فحواه ومعاريضه من لحنت له ، بمعنى قلت له قولا فهمه عنى وخفى على غيره ، وفيه : لحِن-بالكسر-من باب طرب بمعنى فطن ، ولحنَ -بالفتح- من باب نفع بمعنى أخطأ .

التفسير

٢٥ - (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) :

هذه الآيات امتداد للحديث عن مرضى القلوب ضعاف الإيمان ، تكشف دخائلهم ، وتفضح سرائرهم ، وتهددهم بإظهار أمرهم ، وسوء عاقبتهم ، قال الآلوسى : وفى إرشاد العقل السليم : هم المنافقون الذين وصفوا فيما سبق بمرضى القلوب وغيره من قبائح الأحوال فإنهم قد كفروا به - عليه الصلاة والسلام - وقال ابن عباس وغيره : نزلت فى منافقين كانوا قد أسلموا ثم نافقت قلوبهم ، وما قاله ابن عباس لايخالف ما جاء فى إرشاد العقل السليم الذى تقدم ذكره ، فهم جميعاً ارتدوا عن الإسلام ، وهم جميعاً مرضى القلوب الذين سبق وصفهم بقبائح الأعمال ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : هم أهل الكتاب جميعاً .

والمعنى : إن الذين رجعوا إلى ماكانوا عليه من الكفر وارتكاب المعاصى ، وإشاعة الفساد من بعد ماتبين لهم الهدى ، واتضح أمامهم السبيل والقصد ، والسلوك السوى بالدلائل الباهرة ، والمعجزات القاطعة القاهرة - إنهم - وقعوا فى حبائل الشيطان الذى سهل لهم سبل الغواية ، ويسر أسباب الكفر ، وأمهلهم فى هذا السبيل ، ومد لهم فيه ما شاء من إضلال وإغواء ، وما شاءوا من قبائح وجوامح أهواء

٢٦ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَانَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ) :

المعنى : ذلك الارتداد إلى الكفر ، والنكسة إلى الجاهلية بسبب أن هؤلاء المرتدين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على سيدنا محمد ﷺ حقدًا وحسدًا مع علمهم أنه من عند الله ، وطمعاً فى إنزاله عليهم ، وهم يهود بنى قريظة والنضير الذين قال لهم المرتدون : سنطيعكم فى بعض الأمر ، أى : فى بعض أموركم وأحوالكم ، وهو ما حكى عنهم فى قوله ـ تعالى ـ : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] أى : سنطيعكم فى بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والموافقة على الخروج معهم إذا خرجوا ، والتناصر مع اليهود ، وغير ذلك مما بيَّتوه سرًّا ، ودبَّروه خفية ففضحه الله ، والله يعلم إسرارهم وإخفاءهم فيكشفه فى الدنيا ، ويعذبهم عليه فى الآخرة .

٢٧ ـ (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) :

المعنى : هؤلاء المرتدون يفعلون ما يفعلون ، ويحتالون بحيلهم الخسيسة فى الدنيا ، فكيف يكون حالهم ، وأى شىء يفعلون إذا حضرهم الموت ، وغلَّلتهم أعراضه وغشيتهم أهواله ، فلم تبق لهم حيلة ، ولم يستطيعوا فكاكاً أو وسيلة ، وتتوفاهم الملائكة على أهول الوجوه وأفظع الحالات ، يضربون وجوههم احتقارًا وأدبارهم امتهاناً واستصغارًا .

وضرب الوجوه والأدبار زيادة فى المهانة والإذلال ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره » .

٢٨ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) :

ما تزال الآيات تمضى فى أحوال المرتدين وتكشف سلوكهم .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١١

والمعنى : ذلك الذى يجرى عليهم من المهانة عند الموت من ضرب وجوههم وأدبارهم إذلالا واستهزاء بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله واستوجب غضبه من الكفر وارتكاب المعاصى وكرهوا ما يرضاه – جلّ شأنه – من الإيمان وعمل الطاعات ، وما يقتضى مغفرته ورضوانه فأحبط الله أعمالهم ، أى : أبطل ثواب الأعمال الطيبة التى عملوها حال إيمانهم .

وفى تعليل ضرب الوجوه والأدبار باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه ما يشير إلى أن اتباع ما أسخط الله يقتضى التوجه والتحول فيناسبه ضرب الوجه ، وكراهة رضوان الله يقتضى الإعراض والتولى فيناسبه ضرب الأدبار .

٢٩ – ٣٠ – (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ) :

المعنى : بل أحَسِبَ الذين فى قلوبهم مرض ، فأخفوا كفرهم وأسروا ضغنهم وعداوتهم أنه لن يخرج الله أحقادهم فيظلوا مستورين مجهولين لا يفضح الله أحقادهم ، ولا يعلن أضغانهم للرسول ﷺ وللمؤمنين ؟ كلا ، فهو حسبان باطل ، وظن خاطىء ، ولو نشاء إعلامك لأعلمناك بهم ، ولعرفناكهم بدلائل تعرفهم بها بأعيانهم فلعرفتهم بسياهم وبعلاماتهم التى نسمهم بها ، والله لتعرفنّهم فى فحوى القول ومعاريضه ، دون حاجة إلى تعريفك بسياهم والعلامات المميزة لهم ، والله يعلم أسراركم وخفاياكم فيجازيكم – أيها المنافقون – عليها لا يخفى على الله منها شىء .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله – تعالى – : (وَلَوْ نَشَآءُ) لإبراز العناية بالإراءة ، وعن أنس – رضى الله عنه – : « ماخفى على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شىء من المنافقين » .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾

المفــردات :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ) : لنختبرنكم .

(شَاقُّوا الرَّسُولَ) : عادوه وعاندوه .

(سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) : سيبطل أعمالهم ويمحو ثوابها .

التفسير

٣١ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ) :

هذه الآية الكريمة بمثابة التذييل الشامل للآيات السابقة التى تناولت طوائف المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، توضح أن حكمة الله - تعالى - تقتضى أن يعامل خلقه وعبيده معاملة الممتحن لهم ، المختبر لأحوالهم لتنكشف حقائقهم ، ويظهر - واقعاً وعملا - ما يعلمه الله أزلا . فيجرى عليهم جزاؤه على مقدار ما يكون من أحوالهم ومايجنيه عليهم اختيارهم السيئ فى سلوكهم وأعمالهم .

والمعنى : ولنعاملنكم معاملة الممتحن لكم ، المتطلب معرفة أخباركم وأسراركم حتى نعلم من واقع أعمالكم ، ونعرف من ظواهر أحوالكم ، ومشاهد سلوككم فيما فرض عليكم من

التكاليف والأوامر والنواهى ، التى من جملتها الجهاد ، ونعلم الصابرين على مشاقها ، الصادقين فى أدائها ، وتظهر أحوالكم وأخباركم فيترتب على هذا جزاؤكم العادل الذى تشهد به أعمالكم ، وتصدقه جوارحكم ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون .

٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَشَآقُّواْ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ) :

هذه الآية وعيد لمن يكشف الامتحان حقيقة كفره ، ويفضح قبح طويته .

والمعنى : إن الذين كفروا فأنكروا وحدانية الله ، وعارضوا رسالة محمد ﷺ وصدوا الناس عن اتباعه وشاقوه ، وبالغوا فى عداوته وعناده حتى صاروا فى شق غير شقه من بعد ما تبين لهم الهدى فى معجزاته الحاسمة فى صدقه ، القاطعة برسالته ، ومن بعد ما علموا من نعوته ﷺ التى صرحت بها كتبهم ، وتحدثوا بها هم أنفسهم ، إن هؤلاء أيًّا كانوا ومهما كانوا لن يضروا الله بكفرهم ومشاقتهم وعنادهم شيئاً من الأشياء ، أو شيئا من الضرر ، والله بالغ أمره لأنه هو القادر الغالب ، وسيبطل مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقة رسوله ، ويضيع ثواب ماعسى أن يكونوا عملوه من صالحات فى دنياهم .

٣٣ - (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوآ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوآ أَعْمَالَكُمْ) :

هذه الآية من جملة ثمرة الابتلاء وغايته ، فكما هددت الآية قبلها الكافرين وأوعدتهم جاءت هذه الآية تنبه المؤمنين إلى مداومة الطاعات والحرص على سلامتها .

والمعنى : يا أيها الذين صدقوا فى إيمانهم وتمحيص عقيدتهم ، وسلكوا مسالك الطاعة ، داوموا على هذه الأعمال الصالحة واحرصوا على سلامتها لتنالوا ثوابها ، فلا تُلْبِسُوها غشًّا ولا نفاقاً ، ولا تخلطوها بِعُجْب أو رياء ، ولاتذهبوا بها مذهبا يأكل الحسنات من منٍّ أو أذى .

قيل : إن ناساً من بنى أسد قد أسلموا ، وقالوا لرسول الله ﷺ : قد آثرناك ، وجئناك بنفوسنا وأهلينا . كأنهم يمنُّون ، فنزلت .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفـــردات :

(فَلَا تَهِنُوا۟) : فلا تضعفوا ولا تزلوا .

(السَّلْمِ) – بفتح السين وكسرها – : الصلح والمهادنة .

(الْأَعْلَوْنَ) : القاهرون الغالبون .

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ) : والله ناصركم ومعينكم .

(وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) : ولن ينقص أعمالكم ولن يضيعها

التفسير

٣٤ –(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) :

فى الآية السابقة أمر الله – تبارك وتعالى – عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ونهاهم عن الارتداد عن الدين؛ لأن الارتداد مبطل للأعمال فقال :(يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ اللهَ وَأَطِيعُوا۟ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَالَكُمْ) وهنا يذكر صفة الكفار ونهايتهم فيقول – سبحانه – : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

قيل : نزلت هذه الآية فى أهل القليب ، وحكمها عام فى كل من مات على كفره ؛ لأن مدار عدم المغفرة هو الإصرار على الكفر حتى الموت .

والمعنى : إن الذين امتنعوا عن الدخول فى الإسلام وسلوك طريقه والاهتداء بهديه وصدوا الناس عنه ، ومنعوهم من الانضواء تحت لوائه ، ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم .

٣٥ - (فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ) :

الخطاب هنا للمؤمنين ، أى : إذا علمتم أن الله - تعالى - مبطل أعمال الكافرين ومعاقبهم وخاذلهم فى الدنيا والآخرة ، فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفاً أمامهم وتدعوا إلى المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبينهم ،فأنتم الذين قدر الله لهم النصر والغلبة . قال ابن كثير : أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمامُ فى المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ عام الحديبية ، حين صدّه كفار قريش عن دخول مكة للعمرة ، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم ﷺ إلى ذلك ، بل وسمى الله ذلك الصلح فتحاً مبينا ، وقوله - جلت قدرته - : (وَٱللَّهُ مَعَكُمْ) بشارة عظيمة بالنصر على الأعداء والظفر بهم ؛ لأن من كان فى معية الله ومصاحبته لايخذل ولايذل ولاينتصر عليه مخلوق .

وقوله - تعالى - : (وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ) أى : ولن يحبط أعمالكم ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً .

(إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾)

المفـــردات :

(فَيُحْفِكُمْ) : فيجهدكم بطلب كل المال ويلحف عليكم فى المسألة .

(أَضْغَانَكُمْ) : أحقادكم الدفينة .

التفســير

٣٦ - (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) :

أى : ما الحياة الدنيا إلا كاللعب واللهو ، فلا ثبات لها ولا استقرار ، ولا اعتداد بها ، شأنها كذلك إلا ماكان منها لله - عز وجل - وإن تؤمنوا بما أُنزل عليكم ، وتتركوا المعاصى والآثام ، وتفعلوا ما أمركم الله به من أنواع البر والخير وقاية لأنفسكم ، يؤتكم ثواب إيمانكم وتقواكم بعمل الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون ، ولايطلب منكم التصدق بكل أموالكم ، فهو - سبحانه - يعطيكم كل الأُجور على أعمالكم ولا يسألكم إلا بعض المال ، وهو ما شرعه الله - سبحانه وتعالى - من الزكاة وغيرها لمواساة البائسين والتنفيس عن الفقراء والمحتاجين .

وقيل : معنى (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) : لا يسألكم ماهو مالكم حقيقة وإنما يسألكم ماله - عز وجل - فهو المالك الحقيقى لهذه الأموال التى أنعم بها عليكم .

وقيل : (وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ) أى : ولا يسألكم أموالكم لحاجته إليها بل ليرجع ثواب إنفاقكم إليكم فى يوم أنتم فى أشد الحاجة إلى هذا الثواب .

٣٧ - (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) :

أى : إن يسألكم الله أموالكم فيجهدكم بطلب كل الأموال تبخلوا بالأموال وتمتنعوا عن بذلها لمستحقيها ويظهر الله أحقادكم لمزيد حبكم لهذه الأموال ، وحرصكم عليها وكراهيتكم لإنفاقها .

قال ابن كثير : قال قتادة : إن فى طلب إخراج المال إخراج الأضغان . وصدق قتادة ؛ فإن المال محبوب ولايصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وذكر الزمخشرى فى تفسير قوله - تعالى - : (وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ) أى : تحقدون على رسول الله وتضيق صدوركم لذلك ، وتظهرون كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم .

وقال سفيان بن عيينة : أى : لايسألكم كثيرًا من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر ، فطيِّبوا أنفسكم .

٣٨ - (هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَالَكُمْ) :

(هَآ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ) أى : أنتم أيها المخاطبون-هؤلاء الموصوفون بما تضمنه قوله- تعالى - : (إِن يَسْأَلْكُمُوهَا) . . . إلخ . وكررت هاء التنبيه للتأكيد .

(تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ) استئناف مقرر ومؤكد لما قبله لاتحاد معناهما ، فإن دعوتهم للإنفاق معناه سؤال الأموال منهم ، وأنَّ بخل ناس منهم معناه عدم الإعطاء المذكور ، والإنفاق فى سبيل الله الذى دعى المخاطبون إليه هو الإنفاق المطلوب شرعاً مطلقاً ، فيشمل النفقة للعيال والأقارب ، والجهاد فى سبيل الله وإطعام الضيوف والزكاة ، وليس خاصاً بالإنفاق فى الغزو أو بالزكاة كما قيل .

(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ) أى : فمنكم ناس يبخلون ويمتنعون عن الإنفاق فى سبيل الله وأوجه الخير ، والذى يبخل عن بذل المال وإنفاقه فى سبيل الله لايضر إلانفسه ؛ لأنه سيحرمها من ثواب البذل ، ثم أخبر - سبحانه - أنه لايأمر بالإنفاق ولا يدعو إليه لحاجته له ، ولكن لحاجتكم أنتم واحتياجكم للثواب فقال : (وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَالَكُمْ) :

أى : والله - سبحانه - هو الغنى الحقيقى بالذات لا غيره ، ، وأنتم الفقراء بالذات الكاملون فى الفقر ، فما يأمركم به - سبحانه - فهو لخيركم ومصلحتكم لاحتياجكم

إلى ما فيه من المنافع فى الدنيا والآخرة ، فإن امتثلتم فلكم ، وإن تعرضوا عن الإيمان وطاعة الله واتباع شرعه بالإنفاق وغيره من أنواع الخير يخلق مكانكم قوماً آخرين ، وهذا كقوله - تعالى - : « وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [1] » ثم لا يكون هؤلاء القوم أمثالكم فى التولى عن الإيمان وطاعة الله ، بل يكونون راغبين فيهما ، مطيعين لأوامر الله ، قيل : هم الأنصار ، وقيل : أهل اليمن وقيل : كندة والنخع ، وقيل : الرُّوم ، وقيل : غير ذلك ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة : قولان .

والشرطية غير واقعة ، أى : قوله - تعالى - : (وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) فعن الكلبى : شرط فى الاستبدال توليهم ، لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل - سبحانه - قوماً غيرهم . اهـ : آلوسى بتصرف .

(١) سورة فاطر من الآية ١٦

« سورة الفتح »

(وهى مدنية وآياتها تسع وعشرون)

مناسبتها لما قبلها

قال العلامة الآلوسى : حسن وضعها هنا بعد سورة محمد (القتال) :

١ – لأن الفتح بمعنى النصر رتب على القتال .

٢ – ولأنه ذكر فى كل منهما المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين .

٣ – ولأنه قد جاء فى السورة الأولى محمد (القتال) الأمر بالاستغفار ، قال – تعالى – : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية ١٩ من سورة محمد ، وذكر هنا فى سورة الفتح وقوع المغفرة فى قوله – تعالى – : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) الآية رقم ٢ ، إلى غير ذلك من المناسبات المتعددة .

مقدمة :

جاء فى حديث صحيح أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما ما يدل على أن سورة الفتح نزلت بعد مُنصَرَفه ﷺ من الحديبية ، وأن ذلك عند كراع الغميم (مكان قرب مكة) فقرأها – عليه الصلاة والسلام – وهو على راحلته ، ومثل ذلك يعد مدنياً على المشهور ، وهو أن المدنى ما نزل بعد الهجرة .

ولقد بدئت السورة الكريمة بالبشارة بالفتح المبين ، وبما أفاء الله به على رسوله والمؤمنين من نصر عزيز وتأييد ، وبما أنزله من سكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وذكرت جزاء المؤمنين وعذاب المشركين والمنافقين الذين تشككوا فى انتصار الرسول على أعدائه ، ثم تمضى الآيات مبينة أن الله أرسل محمداً للناس شاهداً ومبشراً ونذيراً ، ليتحقق الإيمان بالله ورسوله ، ويعم الخير والحق بين الناس بطاعته وتعظيمه – عز وجل – ومحدثة عن قدر الذين بايعوا الرسول وعاهدوه على نصرته ، والاستشهاد فى سبيل دعوته ، وأنهم بعملهم هذا ومبايعتهم له إنما يبايعون الله ، ويد الله فوق أيديهم بالنصر والتأييد ، فمن نقض منهم العهد بعد ميثاقه فضرر ذلك عليه ، ومن أوفى بالعهد فسيؤتيه الله أجراً عظيماً .

ووضحت الآيات صورة الموقف المخزى للأعراب الذين تخلفوا عن القتال مع رسول الله حينما دعاهم إلى النفير ، وأعذارهم الواهية الكاذبة فى ذلك ، وفضحتهم وكشفت عن نفاقهم وسوء طويتهم ، وأنهم تخلفوا عن القتال لظنهم السيء أن الله لن ينصر نبيه - وذكرت طلبهم الخروج معه بعد ذلك لا حبًّا فى القتال والجهاد ، ولكن حُبًّا للغنائم وابتغاء متاع الحياة الدنيا .

وتناولت الآيات أصحاب الأعذار الذين يباح لهم التخلف عن القتال لعجزهم عن مباشرته وأنهم لا إثم عليهم فى ذلك ، كما بينت السورة الخير العظيم الذى حظى به من رضى الله عنهم فى بيعة الرضوان ، وذكرت منَّة الله فى كف الكافرين عن المؤمنين ، والمؤمنين عن الكافرين يوم فتح مكة بعد أن نصرهم الله وأقدرهم عليهم ، وختمت السورة ببيان أن الله صدق رسوله الرؤيا بالحق ، وكان الرسول قد رأى فى منامه أنه يدخل هو ومن معه من المؤمنين المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لايخافون ، وببيان خُلُقِ محمد وأصحابه : (أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) وببيان نعتهم وصفتهم فى التوراة والإنجيل، وبذكر ما أعده الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من المغفرة والأجر العظيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾)

المفــــردات :

(فَتَحْنَا) أصل الفتح : إزالة الإغلاق ، وفتح البلد - كما فى الكشاف - : الظفر به عنوة أوصلحاً بحرب أو بغيرها ؛ لأنه منغلق مالم يُظْفر به ، فإذا ظفر به فقد فتح .

(نَصْرًا عَزِيزًا) : يقل وجود مثله ويصعب مناله .

التفسير

١ - (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) :

المعنى : إنا فتحنا لك يامحمد فتحاً عظيماً بيناً ظاهراً بانتصار الحق وأصحابه وخذلان الباطل وأربابه ، وقال قتادة : معناه : حكمنا وقضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت الحرام ، يعنى فى عمرة القضاء .

فالفتح على هذا من الفتاحة : وهى الحكومة .

وقوله - تعالى - : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) هو إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور سنة ست من الهجرة وروى ذلك عن ابن عباس وأنس ، قال ابن عطية : وهو الصحيح . وقال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام قال القرطبى : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

وقد خفى كون مافى الحديبية - فتحاً على بعض الصحابة حتى بيَّنه -عليه الصلاة والسلام-

أخرج البيهقى عن عروة قال : أقبل رسول الله - صلى ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله : والله ماهذا بفتح ؛ لقد صُدِدْنا عن البيت وصُدَّ هدينا ، وعكف رسول الله بالحديبية ، وَرَدَّ رجلين من المسلمين خرجا ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك - فقال : « بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم فى الأمان ، وقد كرهوا منكم ماكرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحُد ؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؛ أنسيتم يوم الأحزاب ؟ إذجاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ قال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتوح ، والله يانبى الله ما فكرنا

فيما ذكرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا . وذهب جماعة إلى أن المراد بالفتح الوارد فى السورة فتح مكة وهو – كما فى زاد المعاد – . الفتح الأعظم الّذى أعزّ الله به دينه ، واستنقذ به بلده وطهّر حرمه ، واستبشر به أهل السماء ، ودخل الناس بعده فى دين الله أفواجاً ، وأشرق وجه الأرض به ضياء وابتهاجاً .

وعلى هذا الرأى فنى مجىء المستقبل بصيغة الماضى فى قوله – تعالى – : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) تنزيله منزلة المحقق ، وفيه من الفخامة والدّلالة على علوّ شأن المخْبِر مالايخفى – كما فى الكشّاف – وذلك – على ما قيل – لأنه يدلّ على أنّ الأزمنة كلّها عند الله على السّواء وأنّ مُنْتَظَره كمُحَقّقٍ غيره ، وأنّه – سبحانه – إذا أراد أمرًا تحقّق لامحالة ، وأنّه – لجلالة شأنه – إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من الأسباب القريبة والبعيدة .

ولم يُذْكر المفعولُ للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأنّ مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه – سبحانه – لاخصوصية المفتوح ، وذكر لفظ (لَكَ) فى الآية لبيان مقام الرسول الرّفيع عند الله – عزّ وجلّ – .

٢ – ٣ – (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) :

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) أى : ليغفر لك الله ما تقدم وما تأخر مما يعد ذنبا لمثلك ، فهو من قبيل : حسنات الأبرار سيئات المُقَرَّبين . أو ليغفر لك ماهو ذنب فى نظرك ، وإنْ لم يكن ذنباً ولاخلاف الأولَى عنده – تعالى – ، كما ترشد إلى ذلك الإضافة فى لفظة (ذَنبِكَ) وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : « أفلا أكون عبداً شكورًا » (وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أى : ويكمّل نعمته عليك بإعلاء الدين وانتشاره فى البلاد ، وغير ذلك مما أفاضه الله – تعالى – عليه من النعم الدّينيّة والدّنيوية بعد الفتح

(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) أى : ويرشدك إلى الطّريق المستقيم فى تبليغ الرّسالة وإقامة الحدود وبما يُشَرّعه الله لك من الشّرع العظيم والدّين القويم .

وهذا وإن كان حاصلا قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتّضاح سُبُل الحقّ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا من قبل .

(وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) أى : وينصرك الله على أعداء الرّساله والكافرين بالدّعوة والمحاربين لها نصراً يعز وجود مثله ويصعب مناله ويرفع به قدرك وذلك بسبب تواضعك وشدة خضوعك لأمر الله – عزّ وجلّ – كما جاء فى الحديث الصّحيح : « ما زاد الله عبدا بِعَفْو إلا عزّاً ، وما تواضع أحد لله – عزّ وجلّ – إلا رفعه الله » قال الآلوسى : وفى الكشّاف : لم يجعل الفتح علّة للمغفرة ، لكن لاجتماع ماعدّد من الأُمور الأَربعة وهى :

١ – المغفرة .

٢ – وإتمام النّعمة .

٣ – وهداية الصّراط المستقيم .

٤ – والنّصر العزيز كأنه قيل : يَسّرنا لك فتح مكّة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين وأغراض العاجل والآجل .

وحاصله أن الفتح علة لمجموع المتعاطفات ، لا لكل واحدة منها على حدة .

وقال الصّدر : أظهر الاسم الجليل فى الصّدر فى قوله – تعالى – : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ) وهنا فى قوله :(وَيَنصُرَكَ اللهُ)، لأن المغفرة تتعلّق بالآخرة والنّصر يتعلّق بالدّنيا فكأنّه أشير بإسناد المغفرة والنّصر إلى صريح اسمه – تعالى – إلى أن الله – عزّ وجلّ – هو الّذى يتولّى أمرك فى الدّنيا والآخرة ، وقال الإمام : أظهرت الجلالة فى قوله : (وَيَنصُرَكَ اللهُ) إشارة إلى أن النّصر لايكون إلا من عند الله ، كما قال – تعالى – : « وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندَ اللهِ »[1] .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٢٦

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(السَّكِينَةَ) : الطمأنينة والثبات والسُّكون .

(ظَنَّ السَّوْءِ) : ظنّ الأمر الفاسد المذموم ، وهو أنَّ اللهَ لاينصر نبيّه والمؤمنين .

(عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ) : دعاء عليهم بالهلاك والدّمار الَّذِى يتربّصونه بالمؤمنين .

التفســير

٤ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيماً) :

بيان لما أنعم الله به عليهم من مبادىء الفتح ، أى : هو وحده ـ سبحانه ـ الَّذِى أنزل

الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بسبب الصلح والأمن ؛ ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة بدل القتال ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ويقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها .

أو : هو الَّذِى أنزل فى قلوب المؤمنين السُّكون والاطمئنان إلى ما جاء به الرّسول من الشرائع ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم بالله واليوم الآخر ، والرأى الأول أظهر .

وبهذه الآية الكريمة وبنصوص كثيرة أخرى ، ومنها ما روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : قلنا : يا رسول الله ، إنَّ الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : « نعم ، يزيد حتّى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتّى يدخل صاحبه النار » أقول : بهذا وبأمثاله استدل جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثين والمعتزلة على أنَّ الإيمان يزيد وينقص ، ونقل ذلك عن الشافعى ومالك ، وقال البُخارىّ : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت واحداً منهم يختلف فى أنَّ الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص .

وهذه قولة حقٌّ ، وإلَّا لكان إيمان آحاد الأُمة المنهمكين فى الفسق والمعاصى مساوياً لإيمان الأنبياء والصديقين .

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة وتبعه صحبه وكثير من المُتكلمين : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حدّ الْجزْم والإذعان وهذا لا يُتصَور فيه زيادة ولا نقصان ، واختار هذا الرَّأى إمام الحرمين ، وفى هذا الموضوع كلام كثير ذكره العلامة الآلوسى وغيره فليرجع إليه فى الموسوعات من أراد التّوسّع فى هذا المقام .

ثم ذكر سبحانه - أنّه لو شاء لانتقم من الكافرين فقال : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) أى : ولله جنود السّموات والأرض يُدَبِّر أمرها كيفما يريد ، فيُسَلِّط بعضها على بعض تارة ، ويجعل السّلم بينها تارة أُخرى حسبما تقتضيه مشيئته ، ومن ذلك ما وقع فى الحديبية ، ولو أرسل على الكفّار ملكا واحدا لأباد خضراءهم ولكنّه - سبحانه - شرع لعباده المؤمنين الجِهاد والقتال ليثيبهم عليه ، وكان اللهُ

ولا يزال - مُحيطا علمه بجميع الأُمور ، ذا حكمة بالغة يضع الشىء فى موضعه اللائق على مقتضى حكمته .

٥- (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا) :

أخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال : أُنزلت على النبىّ ﷺ : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فى مرجعه من الحديبية ، فقال : « لقد أُنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ مما على الأَرض » ثم قرأَها عليهم ، فقالوا : هنيئاً مريئًا يا رسول الله ، قد بيّن اللهُ - تعالى - ذلك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . .) حتى ، بلغ (فَوْزًا عَظِيماً) آلوسى .

وهذه الآية وما بعدها علّة لما دلّ عليه قوله - تعالى - :(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من التصرف والتدبير أى : دبّر - سبحانه وتعالى - ما دبّر من تسليط المؤمنين ونصرهم على الكافرين؛ ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها ، فيدخلهم ربّهم جنّات تجرى من تحتها الأَنهار دائمين فيها باقين أبدا ، ويمحو عنهم سيّئاتهم ولا يؤاخذ عليها بل يعفو ويرحم ويصفح ويغفر ، وكان ذلك الجزاء عند الله فوزا بالغ العظم؛ لأَنه منتهى ما تصبو إليه النّفوس ، وتهوى الأَفئدة .

وذكر المؤمنات فى الآية بعد المؤمنين دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور؛ لأَن الجهاد والفتح على أَيديهم ، وهكذا فى كل موضع يوهم الاختصاص يصرّح بذكر النّساء .

وتقديم الإدخال فى الذّكر على التّكفير - مع أَنّ التّرتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلوب الأَعلى ، قال الآلوسى : ويجوز عندى أن يكون التّكفير فى الجنّة ، على أَنّ المعنى : يُدخلهم الجنّة ويُغطى سيّئاتهم ويسترها عنهم فلا تمرّ لهم ببال ولا يذكرونها أَصلا ، لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم .

٦ـ (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) :

قوله ـ تعالى ـ :(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ) عطف على قوله ـ تعالى ـ :(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أى : فعل الله ما فعل ودبرما دبر ليُدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجرى من تحتها الأنهار ، ويُعذّب المَنافقين الّذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون والمنافقات ، والمشركين مع الله غيره والمشركات الظانين بالله ظنّا سَيِّئاً ، وهو أنّه ـ سبحانه ـ لن ينصر رسوله والمؤمنين ، وكذلك سائر ظنونهم الفاسدة من الشّرك وغيره ـ عليهم وحدهم دائرة السّوءِ والهلاك والدّمار ، وما يظنّون ويتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم لا يفلتون منه ، وسَخِط الله عليهم وطردهم من رحمته وأبعدهم عن نعيمه وجَنته ، وأعدّ لعذابهم جهنّم وساءت جهنّم نهاية ، وقبُحت مرجعاً ومآلا لهم .

٧ـ (وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ولله جُنود السّموات والأرض يدبِّر أمرها بقدرته وحكمته وبأسه وسطوته وكان اللهُ غالبا على كلّ شيء ، ذا حكمة بالغة فى تدبير كُلِّ شأن .

وقوله ـ تعالى ـ : (وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ذكرت هذه الآية سابقا ، على أنّ المراد أنّه ـ عزَّ وجلّ ـ المدبِّر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ختمت الآية السابقة بقوله ـ تعالى ـ : (وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

وأعيد ذكرها هنا للتّهديد بأنّهم فى قبضة الله المنتقم ، ولذلك ختمت الآية بقوله ـ تعالى ـ : (وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) فلا تكرار كما قال الشّهاب .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

المفــــردات :

(وَتُعَزِّرُوهُ) : وتنصروه .

(وَتُوَقِّرُوهُ) : وتُعظِّموه وتُبجِّلوه .

(وَتُسَبِّحُوهُ) : وتُنزِّهوه ، وتُصلّوا له .

(بُكْرَةً وَأَصِيلاً) : غدوة وعشيًّا .

(يُبَايِعُونَكَ [١]) يعاهدونك على الجهاد والانتصار لدعوتك وذلك فى بيعة الرِّضوان بالحُدَيبية .

(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) أى : إنّما يعاهدون اللهَ ؛ لأَنَّ المقصود من البيعة إطاعة الله وامتثال أمره .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أى : قدرته وقوته فوق قدرتهم وقوّتهم .

---

(١) (يبايعونك) مفاعلة من البيع ، يقال : بايع فلان السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له ، وكثيرا ما تطلق على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم .

(فَمَن نَّكَثَ) : فمن نقض العهد والبيعة .

(فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ) أى : فإنه يضر نفسه ويوردها موارد الهلكة ، فلا يعود وبال نقضه وضرر نكثه إلا عليه .

التفسير

٨ - (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) :

هذا توضيح وبيان لما بعث من أجله الرّسول ﷺ والمعنى : إنّا أرسلناك يا محمد شاهدا على أمتك لقوله - تعالى - : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[١] وعن قتادة : شاهدا على أمّتك وشاهدا على الأُمم التى قبلك، وعلى الأنبياء الذين سبقوك بأنهم قد بلّغوا ، ومبشرا المتّقين بحسن الثّواب على الطّاعة ، ونذيرا للعصاة بالعذاب على المعصية .

٩ - (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

الخطاب للنبّى ﷺ ولأُمته كقوله - تعالى - : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ »[٢] .

فيفيد أنَّ النّبى مخاطب بالإيمان برسالته كالأُمة ، وقال الواحدى : الخطاب فى (لِتُؤْمِنُوا) وما بعدها للأُمة .

والمعنى : أرسلناك يا محمد شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لكى تؤمنوا يا أُمته بالله ورسوله وتنصروا الله بنصر دينه وتعظموه - سبحانه - وتنزّهوه عما لا يليق به أول النهار وآخره .

وقيل : البكرة والأصيل جميع النهار ، ويكنى بالتعبير عن جميع الشىء بطرفيه . وقال ابن عباس : المراد بهما صلوات الفجر والظهر والعصر .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ[٣] بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) :

المعنى : إنّ الذين يعاهدونك يا محمد يوم الحُديبية على الجهاد فى سبيل نُصرتك

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ (٢) سورة الطلاق من الآية : الأولى

(٣) يقال : وفى بالعهد وأوفى به إذا تممه . وأوفى : لغة تهامة ومنه قوله تعالى : (أوفوا بالعقود) اهـ . كشاف .

إنّما يُعاهدون اللهَ ؛ لأنّ المقصود من بيعة الرّسول وإطاعته : إطاعة الله – تعالى – وامتثال أوامره لقوله – تعالى – : « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ »[1] .

(يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) : استئناف مُؤَكِّد لما قبله ، والمراد بيد الله : قدرته ونصره ، أى : قدرة الله معك وتأييده فوق قدرتهم وتأييدهم ، فثِق بنصرة الله – تعالى – قبل نصرتهم وإن صدقوا فى مبايعتك . والسّلف يأخذون بظاهر الآية كما جاءت مع تنزيه الله – تعالى – عن الجوارح وصفات الأجسام ، وكذلك يفعلون فى جميع المُتَشابهات يقولون : إنّ معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذّات ، وأنّى ذلك وهيهات هيهات ! !

(فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) أى : فَمَن نقض عهدك بعد ميثاقه ورجع فى بيعته بعد تأكيدها وتوثيقها فلا يرجع وبال نقضه إلّا على نفسه ، ولا يعود ضرر نكثه إلّا عليه (وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً) أى : ومن أوفى بالعهد الذى عاهد عليه الله بإتمام بيعتك وألزم نفسه تحقيقها والقيام بأعبائها فسيُعطيه الله ثواباً بالغ العظم وهو الجنّة وما يكون فيها ممّا لا عين رأت ولا أُذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

من حديث البيعة : بعث الرسول – عليه الصلاة والسلام – عثمان بن عفان – رضى الله عنه – إلى أشراف قريش بمكّة يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا للبيت الحرام ومُعظّما له ، واحتبسته قريش عندها ، وبلغ الرّسول أنّ عثمان قد قُتِل فقال رسول الله : (لا نبرح حتى نُنَاجز القوم) ودعا النّاس إلى البيعة فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة على الموت فى سبيل الله ، أو على ألّا يفرّوا من قريش ، فبايع النّاس ولم يتخلف أحدٌ من الحاضرين إلا الْجدّ بن قيس أحد بنى سلمة ، فكان جابرٌ يقول : لكأنّى أنظر إليه لاَصِقاً بإِبْطِ ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من النّاس ، وضرب الرسول بإحدى يديه على الأُخرى مُبَايعا عن عثمان ، وقال : « اللّهم إنّ عثمان فى حاجة الله – تعالى – وحاجة رسوله » ثم أتى رسول الله أنّ الذى كان من أَمر عثمان باطل . ا هـ : ملخصا بتصرف عن محمد بن إسحاق فى السير وذكره ابن كثير .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٨٠

(سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(الْمُخَلَّفُونَ)[1] قال الطَّبرىّ: المُخلَّفون هم الذين تَخلَّفوا فى أهليهم عن صحبة رسول الله يوم الحديبية ، جمعُ مُخلَّف .

(الْأَعْرَابِ) فى المشهور : سكّان البادية من العرب لا واحد له .

(فَمَن يَمْلِكُ لَكُم) : استفهام بمعنى النفى أى : لا أحد يملك لكم .

(وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) : وهو ظنّهم أن لن ينقلب الرَّسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا بل يقتلون .

---

(١) (المخلفون) جمع مخلف : وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف ، وضده المقدم .

(بُورًا)[١] ؛ هالكين لفساد عقيدتكم .

(سَعِيرًا) : نارًا موقدة ملتهبة ، ونكّرت للتّهويل أو التنويع .

التفسير

١١ - (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) :

أى : سيقول لك من خلّفهم النّفاق من أهل البَادية وهم قبائل جُهينة ومُزينة وغِفار وغيرهم ، استنفرَهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت ، وأحرم رسول الله ﷺ وساق معه الهدى ليعلم أنّه لا يُريد حربا ، ورأى أولئك الأعراب أنّه - عليه السلام - يستقبل عدوًّا قويّا من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش ، ولم يكن الإيمان لدى الأعراب قد تمَكن فى قلوبهم ، فقعدوا عن الخروج مع النبى ﷺ وتَخلفوا عن الجهاد معه ، ، وقالوا : نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع مُحمّد ولا أصحابه إلى المدينة من هذه السفرة ففضَحهُم الله فى هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصلوا إليه ، وحين جاءُوا مُعْتَذرين إليه قائلين :

شغلتنا أموالنا وأهلونا عن الذّهاب معك ، إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظها ويحميها من الضّياع ، فاستغفر لنا الله ليغفر لنا تخلُّفَنا عنك ، حيث لم يكن عن تكاسل وتباطؤ فى طاعتك ، فأنزل الله تكذيبا لهم فى اعتذارهم بما سبق : (يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّالَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ) أى : إنَّ كلامهم من طرف اللّسان غيرُ مطابق لما فى الجَنَان ، ثُمَّ أمر - سبحانه وتعالى - رسوله أن يردّ عليهم عند اعتذارهم بتلك الأباطيل فقال :

---

(١) بورا : مصدر كالهلك ، أو جمع بائر كباذل وبذل ، وعائذ وعوذ .

(قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا)أى : لايقدر أحد أن يردّ ما أراده الله فيكم ويدفع عنكُم قضاءه إن أراد بكم مايضركم أو أراد بكم ماينفعكم ، وليس الشُّغُل بالأَهل والمال عذرا ،فلا ذاك يدفع الضّرر إن أراده–عزَّ وجلَّ – ولا محاربة العدوّ تمنع النَّفع إن أراد بكم نفعا ، ثم أعقب ذلك بما يتضمن تهديدا لهم فقال :(بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) أى : بل كان الله بكل ماتعملون محيطا ، فيعلم – سبحانه – سرّ تخلُّفكم وقصدكم فيه ، ويجازيكم عليه يوم القيامة ، ثم هتك الله سترهم وبين مكنون ضمائرهم بقوله :

١٢ – (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً) :

والمعنى : لم يكن الأَمر كما تقولون ، بل ظننتم أن لن يرجع الرّسول والمؤمنون من ذلك السّفر إلى عشائرهم وذوى قرباهم أبدا ، فلم يكن تخلُّفكم تخلُّف مَعْذور ولا مَقْهور بل تخلُّف نِفاق ؛ لأَنّكم اعتقدتم أنَّ الرّسول ومن معه من المؤمنين سيُقتلون وتُسْتَأْصل شَأْفَتُهم ، وتُبَادُ خَضْرَاؤُهم ولايرجع منهم أحد ، فتخلَّفتم لذلك ، وحسّن لكم الشيطان والنِّفاق ذلك الظَّن الخبيث فى قلوبكم ، حتى تمكَّن منكمْ وحملكم على مافعلتم ، فاشتغلتم بشأْن أنفسكم ومصلحة ذواتكم غير مبالين بالرّسول ﷺ وبالمؤمنين . (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ) وهو ظنهم ألاَّ يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وأعيد لفظ (ظَنَنتُمْ) لتشديد التوبيخ والتسجيل عليهم بالسّوء ، أو هو عام فيشمل ذلك الظنَّ وسائر ظنونهم الفاسدة الّتى من جملتها الظَّن بعدم رسالته ﷺ فإن الجازم بصحّتها لايحوم فكره حول ماذُكِر من الاسْتِئْصَال للرّسول وأصحابه ، وكنتم فى علم الله الأَزلىّ قوماً هالكين ، لفساد عقيدتكم وسوء نيّتكم ، أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ولاخير فيكم .

١٣ – (وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً) :

هذا كلام مبتدأ من جهته – عزَّ وَجَلَّ – غير داخل فى الكلام السابق ، مُقرِّر لبوارهم وهلاكهم ، ومبين لكيفيته ، أى : ومن لم يُصدِّق بالله ورسوله كهؤلاء المخلَّفين فإنَّا أعددنا

للكافرين نارا مسعورة موقدة ملتهبة ، وكان الظّاهر أن يقال : فإنّا أعددنا لهم ، فعدل عن ذلك إلى الظاهر وهو لفظ (الكافرين) إيذانا بأنّ من لم يجمع بين الإيمان بالله - سبحانه - والإيمان برسوله ﷺ فهو كافر مستحق للسّعير بكفره .

١٤- (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : ولله - وحده - ملك السّموات والأرض يدبّره تدبير قادر حكيم ، وهو - جلّ شأنه - المتصرّف فى الجميع كما يشاء ، - له هذا الملك - يغفر لمن يشاء المغفرة له ويعذّب من يشاء أن يُعَذِّبه ، من غير دخل لأحد فى شئ من غفرانه أو تعذيبه ، وكان الله - ولايزال - عظيم المغفرة لمن يشاء ، ولايشاء - سبحانه - المغفرة إلا لمن تقتضى الحكمة المغفرة له ممن يؤمن بالله وبرسوله ، وأما من عدا ذلك من الكافرين المُجَاهرين والمنافقين فهم بمعزل عن ذلك ، وفى تقديم المغفرة وختم الآية بكونه (غَفُوراً رَّحِيماً) بصيغة المبالغة فيهما فيه من واسع غفرانه وعظيم رحمته مافيه ، وفى الحديث : « كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق : رحمتى سبقت غضبى » أى : قضى بذلك وأوجبه على نفسه ، والآية كما قال أبو حيّان لبعث الرجاء فى قلوب المنافقين إذا آمنوا حقيقة ، وقيل : لقطع أطماعهم الفارغة فى طلب استغفاره - عليه السّلام - لهم .

(سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : اتركونا نخرج معكم لخيبر .

(كَلَامَ اللهِ) : حكمه القاضى باختصاص أهل الحديبية بمغانم خيبر .

التفســير

١٥ – (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا) :

المراد من المغانم هنا مغانم خيبر التى انطلقوا إليها بعد الحديبية كما عليه عامّة المُفسِّرين وأُيِّد بأَن السِّين تدلّ على القرب ، وخيبر أقرب المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية فإرادتها كالمتعينة ، وقد جاء فى الأَخبار الصحيحة أن الله وعد أهل الحُديبية أن يُعَوِّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا مُوادِعين لايُصيبون شيئا ، وخصّ – سبحانه – ذلك بهم .

والمعنى : سيقول الأَعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية : إذا ذهبتم إلى مغانم لتأْخذوها (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) : دعونا واتركونا نخرج معكم إلى خيبر

ونشهد معكم قتال أهلها ، وذلك لطمعهم فى عرض الدنيا لِمَا يرون من ضعف العدوّ ، ويتحققون النصر عليه ، يريدون بذلك تغيير كلام الله ووعده وحكمه وقضائه باختصاص أهل الحُديبية بمغانم خيبر ، قل لهم يامحمّد : لن تتبعونا ، والمراد نهيهم عن الاتباع الذى أرادوه من قولهم : (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) وهو الانطلاق معهم إلى خيبر .

(كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللهُ مِن قَبْلُ) أى : مثل ذلك الحكم بعدم اتباعكم لهم - حكم الله- من قبل ذلك بتلك الغنائم لمن خرج إلى الغزو مع رسوله فى عمرة الحديبية (فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا) أى : فسيقول المُخلفون للمؤمنين عند سماع هذا النهى : لم يأمركم الله بذلك بل تحسدوننا أن نُشاركم فى هذه الغنائم .

(بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً) أى : ليس الأمر كما زعموا بل كانوا لايفهمون إلّا فهما قليلا ، وهو فهمهم لبعض أمور الدُّنيا ، وهو ردّ لقولهم الباطل فى المؤمنين ، ووصف لهم بما هو شر من الحسد وهو الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين .

(قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾)

المفـــردات :

(أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب شدّة وقوّة فى الحرب.

(فَإِن تُطِيعُوا۟) أى : تستجيبوا وتنفروا للجهاد .

(حَرَجٌ) : إثم فى التخلف عن الجهاد وقتال الكفار .

التفسـير

١٦ - (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنَ تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

المعنى : قل للمُتخلِّفين من أهل البادية الذين دُعُوا للخروج مع رسول الله زمن الحُديبية فتقاعسوا - قل لهم - : سَتُدْعَوْن إلى قتال قوم ذوى شدَّة وبأس وقوّة فى الحرب ، شُرِع لكم جهادهم ، وقتالهم ، ولكم النُّصرة عليهم أو يُسْلمون فيدخلون

فى دينكم بلا قتال بل باختيارهم ، فإن تستجيبوا لهذه الدّعوة وتلبّوا أمر الله وداعى الجهاد يعظم الله لكم الأجر فى الدّنيا بالغنيمة ، وحسن الأحدوثة والذِّكر ، وفى الآخرة بالجنَّة ، وإن تُعْرِضُوا عن الجهاد وتُصِمّوا آذانكم عن داعى الله كما أعرضتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة لتضاعف جُرمكم . وهنا أمور :

١ – قال – تعالى – : (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ) كررّ ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمّهم وإشعارا بقُبْح التخلف وشناعة القُعود عن الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه.

٢ – اختلف المُفسِّرون فى هؤُلاء القوم الذين سيُدْعَوْن إلى قتالهم وهم أولوا بأس شديد على أقوال : فرجّح الزَّمخشريّ والآلوسيّ : أنَّ المراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الرّدة الَّذين حاربهم أبو بكر – رضى الله عنه – لأنَّ مشركى العرب والمرتدّين هم الَّذين لايُقبل منهم إلاَّ الإسلام أو السّيف عند أبى حنيفة ، ومن عداهم من مشركى العجم وأهل الكتاب والمجوس تُقبل منهم الجزية ، وعند الشّافعىّ لاتُقبل الجزية إلاَّ من أهل الكتاب والمجوس دون مشركى العجم والعرب (راجع الآلوسى والكشاف) .

وعن عطاء والحسن : المراد بهم الفرس والرّوم ، وفسّر القائلون بهذا الرأى قوله – تعالى – : (أَوْ يُسْلِمُونَ) بأو ينقادون ، لأنَّ الرّوم نصارى ، وفارس مجوس يُقْبَل منهم إعطاء الجزية ، وعن قتادة : ثقيف وهوازن ، وعن سفيان : هم الترك ، وقيل : هم الأكراد (ابن كثير والكشاف) .

٣ – ذكر الزَّمخشرىّ والآلوسىّ : أنَّه شاع الاستدلال بهذه الآية على صِحّة إمامة أبى بكر – رضى الله عنه – قال الآلوسى : والإنصاف أنَّ الآية لاتكاد تصحّ دليلا على إمامة الصّديق – رضى الله عنه – إلاَّ إن صحَّ خبر مرفوع فى كون المراد بالقوم بنى حنيفة[١] ، ودون ذلك خرط[٢] القتاد (آلوسى) .

(١) هم قوم مسيلمة الكذاب (٢) القتاد : شجر له شوك ، وخرط القتاد : تنظيفه من الشوك .

١٧ - (لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى هذه الآية الكريمة الأعذار المبيحة لترك الجهاد فمنها ماهو لازم كالعمى والعرج البيِّن ، ومنها ماهو عارض كالمرض الَّذى يطرأ أيَّاما ثم يزول ، فهو فى حال مرضه مُلْحق بذوى الأعذار اللَّازمة حتى يبرأ فقال : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) أى : ليس على الأعمى إثم فى التخلُّف عن الجهادِ فى سبيلِ الله ، ولا على الأعرج إثم ولا على المريض إثم كذلك لما بهم من العذر والعاهة ، وليس فى نفى الإثم عنهم نهى لهم عن الغزو ، بل قالوا : إن أجرهم مضاعف إذا خرجوا للقتال ، ولقد غزا ابن أُمّ مكتوم - رضى الله عنه - وكان أعمى ، وحضر فى بعض حروب القادسيّة وكان يحمل الرّاية ، كما غزا بعض العلماء (وهو أعمى) مع الجيش الإسلامىّ وهو يحارب التّتار والصّليبيّين ولما سُئِل عن ذلكِ - وقد أذن الله له فى ترك الجهاد - وما سَيُقدِّم من خدمات للجيشِ المقاتل ؟ فقال : أُكثِّر سواد المسلمين وأحرس متاعهم وأُحرِّضهم علي القتال ، وأستجيب لقولِ الله : « انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالًا »[1] وفى البحر : « لو حُصِر المسلمون فالفَرضُ مُتوجِّه بحسب الوُسْع فى الجهاد »

ثم قال - تبارك وتعالى - مُرَغِّبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله : (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً) أى : ومن يُطع الله ورسوله فى كل ماذُكر من الأوامر والنَّواهى يدخله جنَّات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يُعرض عن طاعة الله ورسوله يعذِّبه عذابا بالغ الألم بالذِّلة والصَّغار فى الدّنيا والنَّار فى الآخرة ، وقيل فى الوعيد :(يُعَذِّبْهُ) إلخ دون يدخله نارا أو نحوه؛ لأنَّ العقاب يوم القيامة بالعذاب الأليم يستلزم إدخال النار ، وإدخالهم فيها لايستلزم ذلك ، والله أعلم .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٤١

(* لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) : قبل منهم بيعتهم .

(يُبَايِعُونَكَ) : يعاهدونك على السمع والطاعة .

(السَّكِينَةَ) : طمأنينة القلب .

(وَأَثَابَهُمْ) : جازاهم .

التفسير

١٨ - (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) :

المراد من المؤمنين هنا : أهل الحديبية [1] إلا جد بن قيس فإنه كان منافقاً فلم يبايع ، وهى بيعة الرضوان لقوله - تعالى - : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) .

وخبر الحديبية : أن النبى ﷺ خرج معتمرًا ومستنفرًا الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم وخرج - عليه الصلاة والسلام - بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتبعه من العرب وكانوا فى ألف وأربعمائة على أرجح الأقوال فأحرم - عليه الصلاة

(١) الحديبية - وقد تشدد الياء - : بئر قرب مكة - حرسها الله - أو شجرة حدباء هناك .

والسلام – وساق معه الهدى ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب ، فلما وصل ﷺ الحديبية بركت ناقته فقال الناس : خلأت[1] خلأت ، فقال النبي ﷺ : (ماخلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل[2] عن مكة . لاتدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها) ثم نزل هناك ، فقيل : يارسول الله ،ليس بهذا الوادى ماء فأخرج – عليه الصلاة والسلام – سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل فى قليب[3] من تلك القلب فغرزه فى جوفه فجاش بالماء الرَّوَاء[4] حتى كَفَى الجيش .

وبعث رسول الله ﷺ خِرَاش – بكسر الخاء – بن أمية الخزاعى رسولاً إلى أهل مكة يعلمهم أنه جاء معتمرًا لايريد قتالاً فلما كلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش[5] فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ﷺ فدعا عمر – رضى الله عنه – ليبعثه فقال : يارسول الله ،إن القوم عرفوا عداوتى لهم وغِلَظى عليهم وإنى لا آمن ، وليس بمكة أحد من بنى عدىّ يغضب لى إن أوذيت ، فَأَرْسِل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها وهم يحبونه ، وإنه يُبَلِّغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى قريش وقال له – عليه الصلاة والسلام – : اخْبِرْهم أنَّا لم نأْت لقتال وإنما جئنا عُمَّارًا ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره – عليه الصلاة والسلام – أن يأْتى رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله – سبحانه – يظهر دينه بمكة قريباً ، فذهب عثمان – رضى الله عنه – إلى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره ، فأَتى قريشاً فأخبرهم ، فقالوا له : إن شئت فطف بالبيت ، وأَمَّا دخولكم فلا سبيل إليه ، فقال – رضى الله عنه – : ما كنت لأَطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسوه ، فبلغ رسول الله والمسلمين أن

---

(١) خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

(٢) حبسها حابس الفيل : أى : أن الله الذى منع فيل أبرهة أن يشترك فى هدم الكعبة حبسها ومنعها كذلك أن تتجاوز هذا المكان لحكمة يعلمها الله – سبحانه وتعالى – .

(٣) القليب : هو البئر قبل أن تبنى بالحجارة .

(٤) الرواء : الكثير .

(٥) الأحابيش : هم الأعراب الذين حول مكة ، حبشى – بالضم – جبل أسفل مكة ، إليه تنسب أحابيش قريش ، لأنهم تحالفوا : إنهم ليد على غيرهم ، ما سجى ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى .

عثمان قد قُتل ، فقال ﷺ : لانبرح حتى نناجز[1] القوم ، ونادى مناديه ﷺ : ألا إن رُوح القدس (جبريل) قد نزل على رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فأمره بالبيعة ، فاخْرجوا على اسم الله – تعالى – فبعضهم بايعه على ألا يفر ، وبعضهم بايعه على الموت ، وبعضهم بايعه على مافى نفس رسول الله ﷺ ولما بايع الناس قال – عليه الصلاة والسلام – : (اللهم إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله) فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم ، ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان – رضى الله عنه – وجماعة من المسلمين ثم جرى السفراء بين رسول الله ﷺ وكفار قريش وطال التراجع والتنازع إلى أن جاء سهيل بن عمرو العامرى فقاضاه على أن ينصرف – عليه الصلاة والسلام – عامه هذا حتى لايتحدث العرب أنَّا أخذنا ضُغطة[2] ، فإذا كان مِنْ قابِلٍ أتى ﷺ معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح حاشا السيوف فى قُرِبها ، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج ، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل الناس ويأمن بعضهم بعضاً ، وعلى أنَّ من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدًّا لم يردوه إلى المسلمين ، فقالوا : يارسول الله ،أنكتب هذا ؟ قال : نعم إنه مَنْ ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، فجاء عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقال : يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال :(بلى) قال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : (بلى) قال : ففيم نعطى الدَّنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : (يابن الخطاب إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا) فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظا ، فأتى أبا بكر فقال له ما قاله لرسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزل القرْآن على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيَّاه ، فقال : يارسول الله أوَ فَتْحٌ هو ؟ قال : (نعم) فطابت نفسه ورجع ...

حقًّا لقد كان صلح الحديبية فتحاً عظيماً ، فبعده دخل كثير من العرب فى الإسلام وجاءت

---

(١) المناجزة فى الحرب : المبارزة .

(٢) ضغطة : قهرا .

الوفود إلى رسول الله ﷺ من جهات شتى تدخل فى دين الله ، وما ظنه بعض المسلمين كعمر - رضى الله عنه - أنه دنيّة ونقيصة وذل فى دينهم ما كان إلّا عزة ومنعة ، فقد صح أن رسول الله ﷺ بعد أن رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير - وهو رجل من قريش قد أسلم - فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به ، وفى الطريق خدع أبو بصير أحد الرجلين وأخذ سيفه وقتله به ، وفرّ الآخر إلى المدينة ، وقال لرسول الله ﷺ : قد قتل - والله - صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يارسول الله قد - والله - أوفى اللهُ ذمتك وقد رددتنى إليهم ، ثم نجانى الله - تعالى - منهم ، فقال ﷺ :(ويل أمه مِسْعر[1] حرب لو كان معه أحد) فلما سمع أبو بصير ذلك عرف أن رسول الله ﷺ سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف[2] البحر ، ولحق به - هربا من قريش - أبو جندل ابن سهيل بن عمرو وكان قد جاء إلى رسول الله ﷺ مسلما فى الحديبية بعد الصلح ، فطلب أبوه سهيل بن عمرو أن يرده رسول الله ﷺ إليه إنفاذاً للعهد ، ففعل الرسول ذلك ودعا لأبى جندل أن يجعل الله له مخرجاً .

ولحق بأبى بصير وبأبى جندل من كان يسلم من قريش ، حتى اجتمعت منهم جماعة فما يسمعون بِعيرٍ خرجت من قريش إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم جزاء ما أصاب المسلمين على أيديهم من القتل والتعذيب وأخذ الأموال ظلماً ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم ، وقالوا له : اضممهم إليك حتى نأمن ، ففعل ﷺ وأجابهم إلى ما طلبوا .

ومما تجدر الإشارة إليه والتنويه به ما حدث بعد فراغ الرسول ﷺ من إتمام عقد صلح الحديبية أنه قال لأصحابه : (قوموا فانحروا ثم احلقوا) فما قام رجل منهم حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على زوجه السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر لها ما لقى من الناس ، قالت له : يا نبىّ الله أتحب ذلك ؟

---

(١) مسعر حرب : موقد نار حرب .

(٢) سيف البحر - بالكسر - : ساحله .

اخرج فلا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك : نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا .

لقد رضى الله عن المؤمنين وقبل منهم مبايعتهم لرسول الله ﷺ ومعاهدتهم له على السمع وبذل الطاعة بما رضوا به ورضخوا له من بيع أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، مع علمه – سبحانه – بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص فى مبايعتهم وحبهم للإسلام وحرصهم عليه ونصرتهم له ، فأنزل – جل شأنه – الطمأنينة وسكون القلب عليهم بصدق وعده وتحقق جزائه وأثابهم وجزاهم على تلك البيعة (فَتْحاً قَرِيباً) هو فتح خيبر والصلح مع أهلها ، بعد عودتهم من الحديبية مباشرة .

وفى تقييد البيعة بأنها كانت تحت الشجرة إشارة إلى عظم منزلتها لدى الله لأنها كانت امتثالا لأمر رسوله ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل – عليه السلام – وأمره بها ، ولم تكن لخوف منه – عليه الصلاة والسلام – ولذا استحقت رضاه – تعالى – الذى لايعادله شئ ، وقد ترتب على هذا الرضا من الثواب مالا يكاد يخطر على بال ، ويكفى فى ذلك ما أخرج أحمد عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال : (لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)كما صح برواية الشيخين وغيرهما أنه ﷺ قال لهم : (أنتم خيرُ أهل الأرض) .

١٩ – (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً) :

أى : ومنحهم – سبحانه – مع هذا الفتح والصلح غنائم كثيرة وأموالا وفيرة أفاءَ الله بها على المسلمين من خيبر ، فجمع الله لهم بهذا الصلح أمناً واطمئناناً على نفوسهم من جانب هؤلاء اليهود مع رزق واسع وخير عميم ، والفضل فى هذا كله لله – سبحانه – فهو العزيز الذى لايغالب ولا يُقهر (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) والحكيم : الذى لا تجرى أحكامه وقضاياه إلا على مقتضى الحكمة .

هذا ، وقد قسم النبىّ ﷺ غنائم خيبر بين المقاتلين فأعطى للفارس سهمين وللراجل سهماً واحدًا .

(وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾)

المفــردات :

(وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) : دفعها ومنعها أن تحول بينكم وبين اغتنامها .

(آيَةً) : علامة وأمارة .

(قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا) : قد قَدَرَ الله عليها واستولى .

(لَوَلَّوُاْ الأَدْبَارَ) : لانهزموا وأعطوكم ظهورهم هرباً منكم .

(وَلِيًّا) الوليّ : من ينفع برفق ولين .

(نَصِيرًا) النصير : من ينفع بعنف .

(سُنَّةَ اللهِ) : طريقة الله .

(خَلَتْ) : مضت وسلفت .

(تَبْدِيلاً) : تغييرًا .

التفسير

٢٠ - (وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيمًا) :

أى : وعدكم الله - أيها المسلمون - ووعد الله لايتخلف ؛ إذ الخلف فى الوعد كذب وحاشا لله ذلك .

أى : وعدكم - سبحانه - بمغانم كثيرة من أموال وسلاح وأرض وسبى تأخذونها من الكفار فى مستقبل أيامكم إلى يوم القيامة إذا تحققت فيكم صفات المؤمنين ، إذ قد وعد الله رسله والمؤمنين النصر على أعدائهم ، قال - تعالى - : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »[1] .

(فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ) أى : فقدم لكم مغانم خيبر عاجلة دون مشقة أو قتال تطييبا لخاطركم ، ومنع أهل خيبر ومن جاء لنصرتهم من بنى أسد وغطفان أن ينالوكم بسوء ؛ حيث قذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار هاربين فارين فزعا وخوفاً . (وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولتكون هذه الغنائم أمارة وعلامة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله بمنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وأنه - سبحانه - كفيل بنصرهم والفتح عليهم ، أو يعرف بها المؤمنون صدق الرسول ﷺ فى وعده إياهم فتح خيبر وما يلى ذلك من فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، (وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيماً) أى : ويثبتكم الله على الهدى والطاعة ولا يفتنكم فى دينكم ، أو يزيدكم هدى وتقوى ؛ فإن قوماً هذا شأنهم وفيهم رسول الله ﷺ جدير بهم أن يكونوا على الجادّة والصراط السوىّ والطريق المستقيم .

٢١ - (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا) :

أى : وأعطاكم ومنحكم غنائم أخرى غير ما غنمتموه من خيبر وهى غنائم هوازن فى

---

(١) سورة غافر الآية : ٥١

غزوة حنين ، إذ لم تستطيعوا اغتنامها والحصول عليها وقت أن ركنتم إلى كثرتكم ، واعتززتم بقوتكم ، واعتمدتم على كثرة عددكم وقلة عدوّكم فقلتم : لن نغلب اليوم عن قلة ، وكان الجيش الإسلامى فى اثنى عشر ألفاً وجيش الكفار فى أربعة آلاف ، فلم تغن عنكم هذه الأعداد شيئاً حتى ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم الأدبار منهزمين ، ثم أدركتكم عناية ربكم – سبحانه – فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وملأ قلوبهم اطمئناناً وثقة فى الله – جل وعلا – وأنزل جنوداً من الملائكة لم تبصروها فكانت عوناً لكم على عدوّكم وعذّب الله الذين كفروا فهزمهم وأعطاكم غنائمهم بعد أن أحاط بها وحفظها لكم ومنعها من سواكم ؛ والله – سبحانه – قدير لا يعجزه ولا يفوته شىء فى الأرض ولا فى السماء ولا فيما وراء ذلك مما لا نعلمه ، فغلبة المؤمنين على هؤلاء الكفار واغتنام أموالهم أمر واقع لامحالة إذ قد حكم به الله وقضاه .

٢٢ – (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) :

أى : ولو امتنع المشركون وغيرهم عن أن يصالحوكم ، وأصروا على قتالكم وحاربوكم لانهزموا وفرّوا وأعطوكم أدبارهم وظهورهم تُعْمِلون فيها أسلحتكم قتلاً وجرحاً ، ولأمكنكم منهم أخذاً وأسراً ، ثم هم مع ذلك لايجدون من وَلِىّ يتولى أمرهم ويحرسهم من بأس الله على أيدى المؤمنين ، ولايجدون أحداً ما ينصرهم ويقاتل معهم ، قال الإمام الفخر الرازى : أريد بالولى : من ينفع باللطف . وبالنصير : من ينفع بالعنف ، أى : لا ينالون ولا يصيبون عوناً من أحد يدفع عنهم برفق ولين أو يقف بجانبهم يحمل السلاح ويخوض معهم الحرب فى قتالهم للمؤمنين .

٢٣ – (سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) :

أى : سنّ الله – سبحانه – غلبة أنبيائه ونصرتهم – عليهم الصلاة والسلام – سنة وطريقة قديمة فيمن مضى من الأمم ، قال – تعالى – : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى [1] » والمراد :

---

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة .

أن سنته - تعالى - أن يكون النصر والعاقبة لأنبيائه - عليهم السلام - ولن تتغير سنة الله وطريقته معك ، فالغلبة والعاقبة لك عليهم لامحالة .

وفى هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وإنزال للطمأنينة على قلوب المؤمنين ، وبشارة ووعد بأن النصر لهم ، كما أن فيه تهديدا للمشركين بأن الدائرة تدور عليهم .

(وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(كَفَّ) : دفع ومنع .

(بِبَطْنِ مَكَّةَ) المراد : الحديبية .

(أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) : أمكنكم منهم وجعلكم ذوى غلبة تامة عليهم .

(وَالْهَدْىَ) : ما يهدى ويساق إلى البيت الحرام من النَّعَم تقربًا إلى الله .

(مَعْكُوفًا) : محبوسًا وموقوفًا .

(تَطَئُوهُمْ) : تدوسوهم بأقدامكم ، والمراد : أن تبيدوهم وتهلكوهم .

(مَعَرَّةٌ) : مكروه ومشقة ، من : عرَّه بمعنى عراه إذا دهاه بما يكره ويشق عليه . وقيل : من العُرّ ، وهو الجرب الصعب اللازم .

(تَزَيَّلُواْ) : تفرقوا وتميز بعضهم عن بعض .

التفسير

٢٤ - (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) :

أخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وغيرهم عن أنس بن مالك قال : لَمَّا كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة فى السلاح من قِبل جبل التنعيم يريدون غِرة[1] رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) إلخ الآية ، فهذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كفّ أيدى المشركين عنهم فى الحديبية فلم يصل إلى المسلمين منهم سوءٌ كما منع - سبحانه - أيدى المؤمنين عن المشركين مع تمكنهم منهم فلم يقاتلوهم ، وحفظ كلاًّ من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خير للمؤمنين ، وعاقبة كريمة لهم فى الدنيا والآخرة ، والله - سبحانه - بصير بكم وبأعمالكم - أيها المؤمنون - يعلم مافيه الخير لكم ، ولذلك منعكم عن قتال المشركين حفظا لكم ورحمة بكم ، ورعاية لحرمة بيته العتيق من أن تراق فيه الدماءُ وتزهق الأرواح ، كما أن فى هذا الكف أيضاً إبقاءً على قوم لكم بهم رحم وقربى ، ولعل الله يهدى بعضهم إلى الدخول فى الإسلام .

٢٥ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ...) الآية :

---

(١) الغرة - بالكسر - : الغفلة ، أى : يريدون أن يصادفوا من رسول الله ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم . إه : القرطبى .

جاءت هذه الآية الكريمة للإشارة إلى أن الاختلاف بين المؤمنين والكفار باق ، والنزاع قائم ، والعداوة مستمرة ، ولم ينته ما بينهما بالاتفاق والصلح ومنع أيدى كل فريق عن الآخر ، إذ أن هؤلاء لايزالون على كفرهم ، وإمعانهم فى عداوتكم ، فلهذا قاموا بصدكم ومنعكم عن دخول المسجد الحرام للزيارة والاعتمار ، مع أنهم قد علموا أنكم لا تريدون بهم شرًا فقد سُقتم الهدى من البدْن إلى البيت الحرام ، وعكَفتموها وحبستموها عليه قربى وزلفى لله - سبحانه وتعالى - فقد أشعرتموها فحززتم أسْنمتها حتى سالت منها الدماء ليعلم أنها هدى ، فمنعوا تلك البدن أن تبلغ المحل الذى اعتاد زُوَّار بيت الله وقُصَّاده أن يذبحوها فيه وهو منى[1] ، وقد سبق أن حدثهم فى هذا الشأن الحليس بن علقمة الكنانى ، وكانوا قد أرسلوه إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : يامعشر قريش لقد رأيت مالا يحل صده ؛ الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، ولكن المشركين ركبوا رءوسهم وقالوا له : اجلس إنما أنت أعرابى لاعلم لك .

أى : أن هؤلاء الكفار قد ازدادوا كفرًا وعداوة لكم فلا تأمنوهم ، وإنما كان كف الله أيديكم عنهم بعد أن أظفركم عليهم وأمكنكم منهم لحكمة يعلمها هو - سبحانه - .

وقد جاء بيانها فى قوله - تعالى - : (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى : ولولا كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين يقيمون بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عالمين بهم وبأماكنهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، كأن يقول المشركون : إن المسلمين قد فعلوا بأهل دينهم من الإهلاك مثل ما فعلوا بنا ، وكذلك ما يصيب المسلمين وينالهم من الضيق والمشقة من أن يقتلوا إخوانهم فى الإسلام وهم عدّتهم على أعدائهم ، فضلا عن الرحمة التى تسود وتعم المسلمين فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، أى : لولا كراهة إهلاككم المؤمنين لما كف أيديكم عن قتال أهل مكة من المشركين .

---

(١) منى : مكان قرب مكة ، وسمى بذلك لما يمنى به من الدماء ، أى : يراق .

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ) أى : كفَّ أيديكم عنهم ليدخل الله فى رحمته الواسعة من يريده – جل شأنه – من المؤمنين الذين يعيشون بين المشركين فى مكة ، فيجعل لهم بعد خوفهم أمنًا ، وبعد ذلهم عزًّا ، فيؤدون فى ظل ذلك عبادتهم لربهم على أكمل وجه وأتم صورة فى علانية دون استخفاء ، أو : لِيَمُنَّ الله ويدخل من يشاءُ من المشركين فى رحمته ، وذلك باعتناقهم الإسلام بعد أن رأوا ما عليه المؤمنون من تواد وتراحم وخلق كريم ودين قويم .

(لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) أى : لو تفرق هؤلاء المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا هؤلاء الكفار فى الدنيا بالقتل والسبى وغير ذلك من ضروب التنكيل الشديد والإيلام العظيم .

(إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(الْحَمِيَّةَ) : الكبر والأنفة .

(سَكِينَتَهُ) السكينة : هى الوقار والحلم .

(أَلْزَمَهُمْ) : اختار لهم وطلب منهم .

(كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ) : هى : لَا إِلٰهَ إلا الله ، كما جاء فى حديث الترمذى وغيره مرفوعًا ، وقيل غير ذلك .

(أَحَقَّ بِهَا) أى : أولى بها من غيرها ومتصفين بمزيد استحقاق لها .

(وَأَهْلَهَا) : وأصحابها المستأهلين لها .

التفسير

٢٦ – (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ . . .) الآية :

هذه الآية الكريمة تحكى ما كان من المشركين عند كتابة صلح الحديبية وتوثيقه ، وذلك أن النبىّ ﷺ دعا عليا – كرم الله وجهه – فقال له : اكتب (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب (باسمك اللهم) فكتبها ، ثم قال – عليه الصلاة والسلام – : (اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : (والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى. اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو) إلى آخر ما جاء فى كتاب الصلح .

أى : تذكر – يا محمد – وذكر المؤمنين بذلك الوقت الذى ملأ فيه الكافرون قلوبهم كبرًا وأنفة بعدت بهم عن الحق ، ونأت عن الصراط المستقيم ، حيث لم يذعنوا لما جاء به رسول الله ﷺ ورفضوا الإقرار بالبسملة والتسليم برسالة الرسول ﷺ ولم يرضوْا بكتابة ما أملاه رسول الله ﷺ فى وثيقة صلح الحديبية ، ولكن الله برعايته ولطفه أدرك المؤمنين بكريم عطفه وعظيم فضله ، فأنزل الطمأنينة والوقار والحلم عليهم، وثبتهم وأرضاهم وشرح صدورهم إلى ما أمر به رسول الله ﷺ ولم يدخل قلوبهم ما دخل فى قلوب المشركين من الحمية .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن الله – تعالى – أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فأشار إلى ثلاثة أشياء :

(أحدها) : جعل ما للكافرين بِجَعْلهم فقال : (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) ، وجعل ما للمؤمنين بِجَعْل ِ الله – تعالى – فقال : (فَأَنزَلَ اللهُ) وبين الفاعِلَيْن مالا يخفى .

(ثانيها) : جعل للكافرين الحمية ، وللمؤمنين السكينة ، وبين المفعولَيْن تفاوت .

(ثالثها) : أَضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأَضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، وقال : (سَكِينَتَهُ) وبين الإضافتين ما لا يذكر ، ثم استطرد الإمام الفخر فقال : قال الله فى حق الكافر : (جَعَلَ) ، وفى حق المؤمن : (أَنزَلَ) ولم يقل : خلق ولا جعل سكينتهُ إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة فى الحال ، أما السكينة فكانت كالمحفوظة فى خزائن رحمته معدَّة لعباده فأَنزلها . وقال : (الْحَمِيَّةَ) ثم أَضافها بقوله : (حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) ، لأَن الحمية فى نفسها صفة مذمومة ، وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحًا ، وللحمية فى القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية ، وأَما السكينة فى نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لِحُسْنٍ اعتبار ، فقال : (سَكِينَتَهُ) اكتفاء بحسن الإضافة .

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) أَى : اختارها لهم وأَلزمهم بها - سبحانه - تكريماً وتشريفًا لهم ، وكانوا أَحق وأَولى من سواهم وأَجدر من غيرهم بهذا التكريم ؛ فهم صفوة خلقه وأَصحاب رسوله - رضى الله عنهم - المختارون لدينه الحنيف . وقيل : هم أَحق بها فى الدنيا وهم أَهلها بالثواب فى الآخرة .

وكلمة التقوى هى : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، ومُحَمَّد رَسُول الله) التى أَبى سهيل ابن عمرو أَن تكتب فى صلح الحديبية ، وقيل : هى لَا إِلٰهَ إلا الله ، والله أَكبر ، وقيل : هى الثبات والوفاء بالعهد .

(وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا) أَى : يعلم - سبحانه - حق كل شىء فيسوق ويعطى الحق لمن يستحقه ، ويمنح العطاء من يستأْهله ، وذلك حسب ما تقتضيه حكمته وتوجبه رحمته .

(لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾)

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر وغيره أن رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك إلى العام القابل بسبب صلح الحديبية قال بعض المنافقين - استهزاء - : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية .

التفسير

٢٧ - (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ . . .) الآية :

أى : لقد أرى الله - سبحانه - رسوله الرؤيا الصادقة ، ورؤيا الأنبياء كلها كذلك صادقة محققة ؛ إذ هى أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء ، وهذه الرؤيا ملتبسة ومرتبطة بالحق ؛ وهو الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، فقد أظهرت وأبانت حال المتردد والمتزلزل فى إيمانه ، وحال المطمئن الراسخ فيه الذى انشرح به صدره .

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ) أى : والله لتدخلن المسجد الحرام ؛ ويكون دخولكم إياه بمشيئته - سبحانه - وحده ، ولا يرجع ذلك إلى قوة المسلمين وجلادتهم ومصابرتهم ولا إلى إرادة المشركين ومشيئتهم .

وفى تعليق الدخول على مشيئة الله مع أنه – سبحانه – خالق الأشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها ليُعَلِّم العبادَ أن يقولوا ذلك عندما يريدون فعل شيء أو تركه تأدُّبًا معه – جل شأنه – وتأكيدًا لقوله – تعالى – : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ »[1]. قال ثعلب : استثنى – سبحانه وتعالى – فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، أى : علق الدخول على مشيئته ، ليفعل الخلق مثل ذلك فيما لا يعلمونه .

(آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) أى : أنكم تدخلون المسجد الحرام آمنين متمكنين من أدائكم النسك وتصلون به إلى غايته ؛ يحلق بعضكم ويقصر آخرون .

هذا ، والحلق أفضل وأولى بالرجال ، والتقصير أحق بالنساء .

(لَا تَخَافُونَ) قد تكفل الله – سبحانه – لرسوله ومن معه بكمال الأمن بعد تمام النسك ، أى : تدخلون آمنين تحلقون وتقصرون ، ويبقى ويدوم أمنكم بعد خروجكم من الإحرام فأنتم فى حفظ الله ورعايته فى حال الإحرام وبعده .

(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) أى : فعلم الله ما فى صلح الحديبية من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموا أنتم به ؛ عَلِمَهُ – سبحانه – واقعًا وحاصلًا ، وقد علمه أزلًا قبل وقوعه وهو بكل شيء عليم .

(فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) أى : جعل الله لكم من قبل دخولكم المسجد الحرام محلقين مقصرين – جعل لكم – من دون ذلك ومن قبله فتحًا عظيمًا قريبًا هو فتح خيبر ، وما أصبتم فيه من الغنائم دون قتال ، أو المراد من الفتح القريب : هو صلح الحديبية الذى قال عنه الزهرى : ما فتح الله فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ؛ لأنه إنما كان القتال حين يلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا ، فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، فلقد

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ، وبعض الآية ٢٤

دخل فى تَيْنِكَ السنتين فى الإسلام مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر ، يدلك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان فى عشرة آلاف .

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾)

المفــــردات :

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على كل ما يدين ويتعبد به الناس من حق أو باطل .

التفسـير

٢٨ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا) :

أى : هو ـ سبحانه ـ الذى أرَى نبيه الرؤيا الصادقة هو ـ كذلك ـ الذى أرسله وبعثه مصاحبًا للهدى والدليل الواضح والحجة البالغة والمعجزة الباهرة ، وأرسله بالدين الحق الذى لا يأتيه الباطل ، ولا ينال منه الزيف ، ولا يعتريه التحريف ، ليعليه ـ سبحانه ـ ويرفعه على كل ما يدين الناس ويتعبدون به من الشرائع والملل من الحق والباطل ، وإظهار الإسلام على الحق من الشرائع والملل يكون بنسخ بعض أحكامه المستبدلة والمتغيرة بتبدُّل الأعصار والأزمان ، وأما إظهاره على الباطل فيكون ببيان بطلانه وزيفه .

هذا ، والإسلام بمبادئه وتعاليمه وشرائعه يسمو فى كل زمان ومكان على كل شرعة ومنهاج ، وذلك عند أصحاب الفطر المستقيمة والقلوب النقية السليمة ، كما أنه ـ كذلك ـ عند من له أدنى بصر وبصيرة ، ولا يضير الإسلام أن خالفه المخالفون ، فهم فى واقع أمرهم معترفون فى داخلهم ، ولكنهم يستكبرون فينكرون ، وصدق الله القائل : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[1] . (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) هذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعد له بأنه ـ سبحانه ـ لا محالة سيحقق له ما وعده به من إظهار دينه على جميع الملل والنحل وكفى الله شهيدًا لنبيه ﷺ على ذلك ، وشهادته له تكون بإظهار المعجزات على يديه ، وقيل : (شَهِيدًا) على رسالته ﷺ ، وفى الآية ـ على هذا ـ تسفيه للكفار الذين أبوا أن يكتبوا فى عقد صلح الحديبية (محمد رسول الله) .

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾)

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٣

المفـــردات :

(يَبْتَغُونَ) : يطلبون فى جد واجتهاد .

(سِيمَاهُمْ) : علامتهم وأمارتهم التى تميزهم .

(مَثَلُهُمْ) : وصفهم العجيب الشأن الجارى مجرى المثل فى الغرابة .

(شَطْأَهُ) شطء الزرع : فروخه ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه ، أى : جانبيه .

(فَآزَرَهُ) : فأعانه وقواه .

(فَاسْتَغْلَظَ) : فصار من الدقة إلى الغلظ .

(فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) : استقام على قصبه . والسُّوق : جمع ساق .

التفسير

٢٩ - (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . .) الآية :

أى : هو محمد الذى وصف بالرسالة فى قوله - تعالى - : (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ، وفى قوله - جل شأنه - : (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ) وجاء النص فى هذه الآية بالتصريح بذكر اسم الرسول ﷺ تفخيمًا لشأنه وزيادة فى إنزال السكينة والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، بعثًا للرجاء لدى بعض الشاكّين المترددين كى يثبتوا على الإسلام ، فضلًا عن أن ذلك يغيظ قلوب الحاسدين والحاقدين على رسوله ﷺ ، وجاء وصف الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة - رضوان الله عليهم - بأنهم أشداء على الكفار لقطع أمل الكفار ورجائهم فى أن يداهنهم أو أن ينزل ويتجاوز عن بعض ما جاء به ، وقد أمر الله رسوله ﷺ فى غير هذه الآية بالغلظة على الكفار فقال : « يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »(١) كما وصفه ربه - جل وعلا - بالرحمة والرأفة بالمؤمنين فقال : « لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) من الآية رقم ٩ : من سورة التحريم .

رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »[١] أما صحابته - رضى الله عنهم - فشأنهم معه ﷺ هو الطاعة والتأسى وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، وقد قال الله فى حقهم : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ »[٢]. وشدة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومن معه على الكفار تكون عند ملاقاتهم فى الحروب ، فلا تضعف عزائمهم ولا تلين قناتهم ، فالمؤمن قد وعده الله إحدى الحسنيين إما الشهادة والموت فى سبيل الله ، أو الظفر والنصر ، أما فيما يتصل بمعايشة الكفار غير الحربيين فينبغى أن يكون المسلم على حذر منهم ، لأنهم لا يألون جهدًا فى المكر والكيد للمسلمين والنيل منهم ، وصدق الله القائل : « يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ »[٣] وهذا لا يمنع حسن الجوار معهم والبر بهم والعدل فيهم

وقوله -تعالى- : (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) أى : يتراحمون فيما بينهم ، فلا يبغى بعضهم على بعض ؛ فهم فى تعاطف وتوادّ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وعن الحسن - رضى الله عنه - : بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه .

أخرج أبو داود عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما » كما أثر (أن أحد الصحابة قدم على رسول الله فى المدينة فاعتنقه وقبّله) غير أن الإمام النووى فى كتابه الأذكار قال فى التقبيل وكذا المعانقة : لا بأس به عند القدوم من سفر ونحوه ، ومكروه كراهة تنزيه فى غيره ، ولعل دليله فى هذا ما روى أن رسول الله ﷺ - فى حديث أخرجه الترمذى عن أنس فى زيادة رزين - لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أينحنى له ؟ قال : (لا) . قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : (لا ، إلا أن يأتى من سفره) .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨

(٢) سورة المائدة ، من الآية : ٥٤

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ١١٨

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) الخطاب هنا لكل من تتأتى منه الرؤية ، أى : تبصر وترى منهم كثرة الصلاة فى أغلب أحوالهم وكثرة أحيانهم ليلا ونهارًا ؛ ينبئ ويدل على ذلك التعبير بالفعل المضارع (تَرَاهُمْ) فإنه يدل على استمرار الفعل وتجرده (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) أى : يرجون فى جد واجتهاد بانكسار قلب ، وذلة نفس أن يمنحهم الله من فضله ويمن عليهم من رضوانه تفضلًا منه وتكرمًا ، لأنهم لا يرون لهم أجرًا على ما قدموا من عمل طيب ، وأن ما قاموا به من طاعة وعبادة فهى – فضلًا على أنها بتوفيقه – دون أقل نعمة تفضل الله بها عليهم ، فنعم الله وأفضاله كثيرة تجل وتعظم عن الإحصاء والحصر ، ويقف الإنسان منها عاجزًا عن عدّها وبيانها « وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[١] .

(سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) أى : العلامة التى تميز المؤمنين عن سواهم أن ترى فى وجوههم سمة حسية وأمارة تنبئ عنهم وتدل عليهم ، وذلك يكون من كثرة ما يسجدون لربهم . قال جار الله الزمخشرى فى الكشاف : وكان كل من العَلِيَّيْن : على بن الحسين زين العابدين ، وعلى بن عبد الله بن عباس أبى الأملاك يقال له : ذو الثَّفِنَات[٢] ؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير .

وعن سعيد بن جبير : هى سمة فى الوجه ، فإن قلت : فقد جاء عن النبىّ ﷺ : (لا تعلبوا صوركم)[٣] .

وعن ابن عمر – رضى الله عنه – أنه رأى رجلًا قد أثر فى وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تَشِنْ صورتك . قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة ، وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ، ونحن نتحدث فيما حدث فى جبهة السَّجاد الذى لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله – تعالى – وعن بعض المتقدمين : كنا نصلى فلا يُرى بين أعيننا شىء ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الرءوس أم خشنت الأرض ؟ وإنما أراد من تعمد ذلك للنفاق ، وقيل : هو صفرة

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٣٤ .

(٢) ثفن البعير : غلظت وصلبت المواضع التى يبرك عليها .

(٣) العلب : هو الأثر ، أى : لا تعيبوا صوركم بما تحدثون من أثر كما يثلم ويكسر حرف الإناء والسيف .

الوجه من خشية الله ، وقال بعضهم : ليس هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان فى زنجى أو حبشى . وعن عطاء - رحمه الله - استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل ، وفى الأثر : (مَنْ كثُرتْ صلاتُهُ بِالليْلِ حَسُنَ وجْهُهُ بالنَّهار) ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن أُبَىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله - تعالى - : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) : « النور يوم القيامة » . قال الإمام الآلوسى : ولا يبعد أن يكون النور علامة فى وجوههم فى الدنيا والآخرة ، لكنه لما كان فى الآخرة أظهر وأتم خصه النبىّ ﷺ بالذكر .

(ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما سبق من صفاتهم الحميدة وشمائلهم العظيمة ، وجاء اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) الذى يدل على البعد للإيذان بعلو شأنهم وبعد منزلتهم فى الكمال والفضل .

وقوله - تعالى - : (مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ) أى : وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى المثل لكونهم على صورة فريدة طيبة ومثال غريب لتميزهم فى عباداتهم ، وأنهم أسوة لسواهم ، وقدوة يحتذيها غيرهم ممن يأتى بعدهم ، وجاء هذا الوصف الجليل لهم فى الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا موسى - عليه السلام - وهو التوراة .

(وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) أى : وصفتهم العظيمة فى الإنجيل الذى أنزله الله على سيدنا عيسى - عليه السلام - كزرع أخرج فراخه من أغصان وأفنان وأوراق ، فتفرعت فى جانبيه فأعانه ذلك وقوّاه فصار من الدقة إلى الغلظ ، واشتد فاستقام وانتصب هذا الزرع على أصوله وقصبه وسيقانه .

(يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أى : معجبًا لهم بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره ، وخص الله - سبحانه - الزُّرَّاع بالذكر ؛ لأنهم أعرف من غيرهم بجيِّد الزرع من رديئه ، وبقويِّه من ضعيفه ، ويحيطون علمًا بآفاته وعلله وعيوبه ، فإذا أعجبهم وظفر باستحسانهم له - وهم أهل الخبرة فيه - فسواهم أولى وأجدر بالإعجاب ، وأحق أن يحظى لديهم بما يملأ نفوسهم رضًا عنه وانفعالًا به .

وذكر ابن جرير، وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . نقول : وعلى هذا يكون الوصف للصحابة وحدهم .

وقال صاحب الكشاف : هو مثل ضربه الله – تعالى – لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبيّ ﷺ قام وحده ثم قواه الله – تعالى – بمن معه كما يقوى الطاقة الأُولى ما يحتف بها مما يتولد منها .

وظاهر قول الزمخشرى أن الزرع هو رسول الله ﷺ ، والشطء هو الصحابة ، ولكل وجهة .

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) أى : فعل الله – تعالى – هذا لمحمد ﷺ ولأصحابه ليغيظ بهم الكفار ويجلب لهم الحسرة والندامة .

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) أى : وعد الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا بالله حق الإيمان وعملوا من الصالحات ما جعلهم أهلًا لصحبة رسوله ﷺ وعدهم وبشّرهم بمغفرة منه لما عسى أن يكون قد بدر منهم من ذنوب هى إلى الصغائر أقرب ، كما وعدهم وبشرهم بأجر عظيم وثواب كريم فى الآخرة .

وقد استنبط الإمام مالك من هذه الآية تكفير الذين يبغضون الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – فإن الصحابة يغيظونهم ، ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، ووافقه كثير من العلماء ، وفى كلام السيدة عائشة – رضى الله عنها – ما يشير إلى ذلك ، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها فى قوله – تعالى – : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) قالت : أصحاب رسول الله ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم .

أعاذنا الله من ذلك ، وثبت قلوبنا على محبته ﷺ ومحبة أصحابه الذين قال فيهم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ، وقال : « لا تسبوا أصحابى ؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[1] خرجهما البخارى – والله أعْلم .

---

(١) أى : لم يدرك مد أحدهم ولا نصف المد إذا تصدق بمثل جبل أحد ذهبا ، والمد – بالضم – مكيال هو رطلان أو رطل وثلث ، أو ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يده بهما وبه سمى مدا ، وقد جربت ذلك فوجدته صحيحا. القاموس المحيط .

« سورة الحجرات »

مدنية وآياتها ثمانى عشرة

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة ألوانًا من الأدب الرفيع ، منها وجوب انتظار حكم الله ورسوله فى أمور الدين وعدم سبقه بالحكم ، وأن لا يرفع المسلمون أصواتهم فوق صوت النبىّ ﷺ ولا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، وبيان أن الذين يخفضون أصواتهم عنده لهم مغفرة وأجر عظيم ، كما تضمنت أن نداءه ﷺ من وراء الحجرات فى وقت راحته لا يجوز وأن على أولئك المنادين أن ينتظروه حتى يخرج إليهم ، ليتحدثوا معه فيما جاءوا من أجله ، وحذرت من قبول المؤمنين خبر الفاسقين حتى يتحققوا من صدقه ، لكيلا يصيبوا قوما بجهالة فيصبحوا على ما فعلوا نادمين ، وأوجبت عليهم الإصلاح العادل بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، فإن لم يتم الصلح قاتلوا الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله - تعالى - : (فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

ونهت عن سخرية بعضهم من بعض ذكورًا كانوا أو إناثًا ، وعن التعاير بالألقاب ، وأمرت باجتناب كثير من الظن « إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ونهت عن التجسس وعن الغيبة ، وبينت أن الله - تعالى - خلق عباده من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب ، فإن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وكشفت كذب بعض الأعراب فى ادعائهم الإيمان ، ودعتهم إلى صدق الإيمان فإن الله بهم عليم (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وجه ارتباطها بما قبلها :

ترتبط سورة الحجرات بسورة الفتح قبلها بعدة روابط ، منها : أنهما مدنيتان ومشتملتان على أحكام ، وأنَّ سورة الفتح فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة ، وتلك ختمت

بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا ، وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ وبخاصة مطلعها وهذه تضمنت تشريفا له فى مطلعها ، إلى غير ذلك .

السبب العام لنزول هذه السورة :

قال القرطبي : قال العلماء : كان فى العرب جفاءٌ وسوءُ أدب فى خطاب النبيّ ﷺ ، وفى تلقيب الناس ، فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق .

الأسباب الخاصة لنزول آياتها :

تشتمل هذه السورة على عدة أحكام وآداب ، ولكل آية منها سبب اقتضى نزولها ، وسنبين ذلك فى موضعه – إن شاء الله تعالى – .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ) : لا تقدموا أمرًا قبل أن يحكم الله فيه ورسوله .

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) : لا تجعلوا أصواتكم أعلى من صوته .

(وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) أى : ولا تساووه فى الجهر كما يساوى بعضكم بعضًا فيه .

(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) أى : كراهة أن يبطل ثوابها وأنتم لا تدرون .

التفسيـــر

١ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

تشتمل هذه الآية على صورة بلاغية ، حيث استعير التقدم بين اليدين استعارة تمثيلية للقطع بالحكم فى أمر دون اقتداء بكتاب الله وبرسوله ، تصويرًا لشناعته بصورة المحسوس ،

فمثله كمثل تقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فالمراد من الآية : لا تقطعوا أمرًا ، ولا تجرؤوا على ارتكابه قبل أن يحكم الله فيه ورسوله ، فإن ذلك شديد القبح كالذى يسبق سيده فى سيره .

سبب النزول :

اختلف الرواة فى سبب نزول هذه الآية ، فقد روى الواحدى بسنده عن ابن جُرَيْج قال : حدثنى ابن أبى مُلَيْكَة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قَدِم ركبٌ من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أَمِّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلَّا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله - تعالى - : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ) إلى قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) ورواه البخارى عن محمد ابن الصباح .

وروى المهدوى بسنده أن النبى ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذا مضى إلى خيبر ، فأشار عمر برجل آخر فنزل : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ) .

وروى الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بنى عامر فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فَسَلِمُوا ، وانكفأوا إلى المدينة فلقوا رجلين من بنى سليم ، فسألوهما عن نسبهما ، فقالا : من بنى عامر لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفرٌ من بنى سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن بيننا وبينك عهدًا ، وقد قتل منا رجلان ، فوداهما النبى ﷺ بمائة بعير فى قتلهم الرجلين.. إلى غير ذلك من الأقوال ، ولا نرى مانعًا من حدوث هذه الأسباب جميعًا قبل نزول الآية فلا تعارض بينها ؛ فتكون الآية قد نزلت بشأنها جميعًا ، ليلتزم أصحابها بالأدب مع رسول الله ﷺ وأن لا يُحْدِثوا أمرًا قبل سؤاله وحكمه .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت من غير سبب ، لتكون دستورًا للمسلمين فى أعمالهم وأقوالهم ، فلا يقدموا طاعة عن وقتها ، ولا يخالفوا عمل رسول الله ﷺ أو قوله فيها ، فهو

إمام أمته وأسوتها : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا »(١) ..

ويدخل فى عموم هذه الآية – كما قال ابن كثير – حديث معاذ قال : قال النبى ﷺ حين بعثه إلى اليمن : « بِمَ تحكم ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله ﷺ . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيى ، فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسولَ الله » .

وقد ختم الله الآية بالتحذير من مخالفة هذا النهى فقال : (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه ، فإنه سميع لأقوالكم عليم بها ، وبأعمالكم ، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

المعنى الإجمالى للآية :

يا أيها الذين آمنوا اتَّبِعُوا رسول الله فى أقواله وأفعاله ، ولا تسبقوه بالحكم فى أمر من أمور الدين أو سياسة الأمة ، فإن ذلك ليس من حقكم ، بل انتظروه حتى يحكم فيه فهو إمام أمته ، إن الله عظيم السمع واسع العلم ، فيسمع أقوالكم ، ويعلم بها وبأعمالكم فيجازيكم بالخير إذا امتثلتم ، ويعاقبكم إذا خالفتم .

بعض ما يستنبط من احكام الآية :

تعتبر الآية أصلًا فى إيجاب اتباع رسول الله ﷺ وعدم مخالفته فى قوله أو فعله ، فإنه كما قال – تعالى – : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ »(٢) .

٥ ولهذا قال النبى ﷺ فى مرض موته : « مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناسِ » فقالت عائشة لحفصة – رضى الله عنهما – : قولى له : إن أبا بكر رجل أسيف – أى : سريع البكاء – ، وإنه متى يقم مقامك لا يُسْمِع الناسَ من البكاء ، فَمُرْ عمر فليصل بالناس ، فقال ﷺ : « مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ بِالناس » .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .
(٢) سورة النجم ، الآيتان : ٣ ، ٤ .

ويفهم من الآية أن كل عبادة مؤقتة بوقت لا يجوز تقديمها عليه ،كالصلاة والصوم والحج .

واختلف فى تقديم الزكاة عن وقت وجوبها ، فأجازه قوم وبه قال أبو حنيفة ، والشافعى ، ومنعه قوم منهم أشهب ، فلا تقدم على وقتها لحظة واحدة .

وقد اعتمد الذين أجازوا تقديمها على وقتها – اعتمدوا – على فعل النبى ﷺ ، فقد استعجل من العباس صدقة عامين ، ولأنه ﷺ قد أقر جمع زكاة الفطر قبل يوم الفطر ، حتى تعطى لمستحقيها قبل يوم الوجوب ، وهو يوم عيد الفطر ، وبهذا القول نقول ، فيجوز إعطاء الزكاة قبل تمام الحول ، فإذا حال الحول وقد نقص المال فما دفعه من الزيادة عن الواجب عليه يعتبر صدقة تطوع ، وإذا زاد كما فى عروض التجارة ، فإنه يستكمل الزكاة بإخراج نصيب هذا القدر الذى زاد .

وقد ختم الله الآية بقوله – سبحانه – : ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : وخافوا الله واجعلوا لأنفسكم وقاية من عقابه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، إن الله سميع لأقوالكم عليم بها وبأعمالكم، فيجزيكم الجزاء اللائق بامتثالكم أو مخالفتكم .

٢ – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ :

سبب نزول الآية :

روى البخارى والترمذى بسندهما عن أبى مُلَيْكَةَ قال : حدثنى عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قَدِم على النبى ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، استعمله على قومه [1] ، فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبى ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك – قال – : فنزلت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ... ﴾ الآية ، قال :

---

(١) أى : اجعله واليا وأميرا عليهم .

فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه . قال أبو مُلَيْكَة : وما ذكر ابن الزبير جده - يعنى أبا بكر - فقد كان والد أمه أسماء ذات النطاقين .

وسيأتى فى أسباب نزول الآية التالية رواية تفيد أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال : (والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار) .

وهذه قد سبق مثلها فى أسباب نزول الآية التى قبلها ، فتكون قصة أبى بكر وعمر من أسباب نزول الآيتين ، بل والآية التالية كما سيجىء - إن شاء الله تعالى - ويلاحظ على هذه الرواية أن الذى اقترح الأقرع بن حابس هو أبو بكر ، فى حين أن الرواية السابقة تفيد أنه اقترح تأمير القعقاع بن معبد ، وأن الذى اقترح تأمير الأقرع بن حابس هو عمر .

وعلى أى حال فالواقعة صحيحة وإن اختلفت الروايتان فى الشخص الذى اقترح كلاهما تأميره .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : لَمَّا نزلت هذه الآية : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) إلى (وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) ، وكان ثابت ابن قيس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أحْبِطَ عملى ، أنا من أهل النار ، وجلس فى أهله حزينًا ، فتفقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تَفَقَّدك رسول الله ﷺ مالَكَ ؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ وأجهر له بالقول حَبِط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال . فقال : « لَا ، بل هو من أهل الجنة » قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت ابن قيس بن شماس ، وقد تحنط ولبس كفنه وقال : (بئسما تقودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل) . وجاءت قصته فى الصحيحين عن أنس نحو هذه الرواية .

وقال عطاء الخراسانى : حدثتنى ابنة ثابت بن قيس قالت : لَمَّا نزلت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ...) دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه يسأل ما خبره ؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت ، وأنا أخاف أن يكون حُبِطَ عملى ، فقال ﷺ : « لست منهم بل تعيش بخير » . قالت : ثم أنزل

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » فأغلق بابه وطفق يبكى ، ففقده النبى ﷺ فأرسل إليه فأخبره ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحب الجَمَال وأحب أن أسود قومى ، فقال : « لست منهم ، بل تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة » قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيلمة[1] ، فلما التقوا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة ، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلَا ، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها ، فبينما رجل من المسلمين نائمٌ أتاه ثابت فى منامه فقال له : أُوصيك بوصية ، وإيَّاك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، إنى لَمَّا قُتِلت أمس مَرَّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يَسْتَنُّ فى طِوَله[2] ، وقد كفأ على الدرع بُرْمَة ، وفوق البرمة رَحْل ، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعنى أبا بكر - فقل له : إن عَلَيَّ من الدين كذا وكذا ، وفلان من رقيقى عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالدًا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها ، وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته - قال - : ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت .

رأينا فى تعدد أسباب النزول :

لا نرى مانعًا من أن تكون الآية بسبب رفع الصوت على رسول الله ﷺ من كل من أبى بكر وعمر وثابت بن قيس أو غيرهم ، لتكون قاعدة عامة فى مخاطبة النبى ﷺ توقيرًا له ، ورفعًا لمقامه فوق كل مقام .

وكلُّ ما حدث من رفع الصوت على الرسول قبل نزول هذه الآية لا عقاب عليه ، فلما نزلت وجب الالتزام بها .

معنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : عظموا رسول الله ﷺ إذا حدثتموه ، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم الحد الذى يبلغه

(١) هو مسيلمة الذى ادعى النبوة كاذبا ، وكان خالد بن الوليد قائدا للجيش الذى يقاتله .
(٢) أى : وعند خيمته فرس مربوط بحبل طويل يمرح فيه فى المرعى .

بصوته ، وأن تغضوا وتخفضوا منها ، بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم ، وجهره باهرًا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم واضحة ، وسابقة ظاهرة ، وامتيازه بَيِّنًا ، فَلَا تغمروا صوته بلَغَطكم ، ولا تبهروا منطقه بصخبكم ، ولا تخاطبوه بيا محمد ويا أحمد ، ولكن قولوا : يا نبي الله ، أو يا رسول الله – انتهوا عمَّا نهيتم عنه – لئلا يتأذى نفسيًّا برفعكم أصواتكم ، واجتنابكم أسلوب التوقير له ، فتحبط أعمالكم ويضيع ثوابكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك فى دنياكم ، بل تعلمونه فى أخراكم .

وإذا وصل الجهر بالصوت إلى حد الاستخفاف والاستهانة فذلك كفر – والعياذ بالله – فالغرض من الآية أن يكون صوت المؤمن عند خطابه لرسول الله ﷺ خفيضًا مناسبًا لمقامه وهيبته ، لكن بحيث يسمعه .

ولا يتناول النهى رفع الصوت الذى لا يتأذى به ، وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو وما أشبه ذلك ، ففى الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لَمَّا انهزم الناس يوم حنين : « اصرخ بالناس » .

وكان العباس أجهر الناس صوتًا ، روى أن غارة أتتهم ، فصاح العباس : يا صباحاه فأُسقطت الحوامل لشدة صوته ، وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

زَجْرَ أَبِى عُرْوَة السباعَ إذا أشفق أن يختلطن بالغنم

وأبو عُرْوة كنية العباس – رضى الله عنه –

وقد أثنى الله على من يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ووعدهم المغفرة والأجر العظيم فقال :

٣ – (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) :

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ حين يكلمونه أو يكلمون غيره

بين يديه إجلالًا له ، أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم على خفض أصواتهم عنده .

ولفظ (امْتَحَنَ) من قولهم : امتحنْتُ الفضة ، أى : اختبرتها حتى خَلَصتْ ، وروى عن أبى هريرة أنه قال : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ ...) قال أبو بكر : (والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار) أى : إلا كصاحب المسارَّة ، وقال عبد الله بن الزبير : لَمَّا نزلت : (لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَاتَكُمْ ...) ما حدث عمر عند النبى ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ) : يرفعون أصواتهم من خارج حجرات أزواجه ﷺ طالبين خروجه إليهم ، وسيأتى الحديث عنهم .

التفســير

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) :

كان الأعراب ذوى خشونة وجفاء فى أخلاقهم وطباعهم قبل أن يدخلوا الإسلام فيرقق طباعهم ويحسن أخلاقهم .

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام القائلة - أى : نصف النهار - فجاء وفد من أعراب بنى تميم يفادون أسراهم عند رسول الله ﷺ فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات أن يخرج إليهم دون أن ينتظروه حتى يخرج من حجرته ، فأنزل الله عليه تلك الآية .

قال مجاهد وغيره : نزلت فى أعراب بنى تميم ؛ قَدِم الوفد منهم على النَّبى ﷺ فدخلوا المسجد ونادوا النبى ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا فإن مدحنا زَيْنٌ وذمنَا شَيْنٌ ، وكانوا سبعين قدموا لفداء ذرارى لهم ، وكان النبى ﷺ نَام القائلة .

وروى أن الذى ناداه منهم هو الأقرع بن حابس ، وأنه هو القائل : إن مدحى زين وإن ذمى شين ، فقال النبى ﷺ : « ذاك الله » رواه الترمذى عن البراء بن عازب ، والمراد من قوله ﷺ : « ذاك الله » أن الذى مَدْحُهُ زين وذمه شين هو الله تعالى .

وفى رواية عن زيد بن أرقم قال : « أَتَى أُناس النبى ﷺ فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه ، وإن يك مَلِكًا نَعِشْ فى جنابه فأتوا النبى ﷺ فجعلوا ينادونه : يا محمد ، يا محمد .

وهناك روايات أخرى لسبب النزول ، وحَسْب القارئ ما تقدم .

والحجرات جمع حجرة[1] والمراد بها بيوت النبى ﷺ التى أسكن فيها زوجاته ، وقد بينت الآية أن أكثر هؤلاء المنادين لا يعقلون ، ويفهم منها أن أقلهم يعقلون وهم الذين لم يوافقوا على ندائه قبل أن يخرج إليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أن الأعراب الذين ينادونك - أيها النبى - من وراء الحجرات وقت راحتك فى النهار أو الليل ، أكثرهم لا يعقلون ، حيث لم يفرقوا بين ما يليق وما لا يليق وقد أوضح الله لهم ولغيرهم كيف يكون الأدب مع رسول الله ﷺ فقال :

٥ - ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ :

كان النبى ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا فى أوقات يشتغل فيها بمهمَّات نفسه ، وذلك حقٌّ له ، فمن سوء الأدب إزعاجه وقت راحته ، وعلى من أراد لقاءه أن ينتظره حتى يخرج .

---

(١) والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحيط بها ، وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت عليه .

ومعنى الآية : ولو أن هؤلاء الذين نادوك من وراء الحجرات وأنت مستريح – لو أنهم – انتظروك حتى تخرج إليهم ، لكان انتظارهم وصبرهم خيرًا لهم فى دينهم ودنياهم ، والله – تعالى – واسع المغفرة شامل الرحمة ، فيقبل التوبة ممن تاب وآمن ، ومن هذا الأدب نعلم أنه ينبغى أن لا ينادى الناس بعضهم بعضًا من وراء مساكنهم ، وأن لا يستأذنوا فى أوقات الراحة ، وينبغى أن يكون الاستئذان بالقرع الخفيف على الباب ، وقد قام مقامه الضغط على (زر الكهرباء) ليصلصل الجرس ، فإذا فتح للطارق سلم على من فتح له . أى : قال له : السلام عليك ، ولا يدخل البيت إلا بإذن ممن له حق الإذن ، وفى هذا يقول الله – تعالى – : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »[1]

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾)

(١) سورة النور ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

المفردات :

(فَاسِقٌ) : مرتكب للمعصية خارج عن الطاعة ، من فَسَقَت الرُّطَبة : خرجت عن قشرها.

(بِنَبَإٍ) : بخبر .

(فَتَبَيَّنُوا) : فتثبتوا .

(أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ) : لئلا تعتدوا على قوم بغير علم .

(لَعَنِتُّمْ) : لأصابكم العنت وهو المشقة والإثم .

(أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) : أولئك هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه ، من الرشادة : وهى الصخرة .

التفسير

٦ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) :

الخبر الكاذب تكون آثاره بعيدة عن الصواب مجانبة للحق ، ولذا ينبغى التدقيق فى التعرف على راوى الخبر ، هل هو ممن عرف بالصلاح والصدق فيقبل خبره ، أم هو ممن عرف بالفسق والكذب فيتحرى عن خبره ويتثبت منه .

ولهذا أنزل الله هذه الآية الكريمة لتوعية المسلمين بالتدقيق فى تلقى الأخبار ، لما يترتب على قبولها من الفساق من سئ الآثار .

سبب نزول الآية :

روى سعيد عن قتادة أن النبى ﷺ بعث الوليد بن عُقْبَة مُصَدِّقًا إلى بنى المصطلق - أى : جابيًا للصدقة منهم وهى الزكاة - فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم لإحنة كانت بينه وبينهم - كما جاء فى بعض الروايات - فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره بأنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، فبعث نبى الله ﷺ خالد بن الوليد ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، وانطلق خالد حتى أتاهم

ليلًا ، فبعث عيونه - أى : جواسيسه - فلما جاءُوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ، فعاد إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت الآية ، فكان نبى الله يقول : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان » .

وجاء فى رواية أُخرى أن وفدهم قدم على النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله سمعنا رسولك فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ما عندنا من الصدقة ، فاستمر راجعًا ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا لنقاتله ، والله ما خرجنا لذلك ، فأنزل الله هذه الآية .

هل كان الوليد فاسقا ؟ :

تقول الآية : (إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ) وهى تشير إلى أن الوليد كان فاسقًا ، فكيف يبعثه النبى لجلب الصدقة من المسلمين ؟

والجواب : أنه ﷺ لم يكن يعلم بحاله ، فلما أرسله وحدث منه ما حدث ظهر فسقه ، فنزلت الآية للتحذير من قبول من يحتمل أنه فاسق حتى يتبينوا .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إن جاءكم من يحتمل فسقه بخبر خطير فتثبتوا من صدقه ، لكى لا تصيبوا قومًا وتعتدوا عليهم وأنتم جاهلون للحقيقة ، فتصبحوا نادمين على ما فعلتم من التسرع فى الانتقام منهم ، قبل التثبت من حال خبرهم ، وذلك حين تظهر الحقيقة مخالفة للخبر بعد التورط فى آثاره .

٧ - (وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) :

المعنى : واعلموا يا صحابة رسول الله أن فيكم رسول الله فاصْدقوه ولا تكْذبوه ، وعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، فلو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، لنالتكم المشقة والإثم ،

فإنه لو قاتل الذين كذب عليهم الوليد بن عقبة ، لكان خطأً كبيرًا ، ولأصاب العنت ، والإثم الوليد بن عقبة الذى أراد قتالهم ولأصاب من كان على رأيه منكم .

ثم خاطبهم الله مشيرًا إلى أنهم - مع خطئهم فى المشورة فى كثير من الأمور - مقيمون على الحق فقال : (وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ) أى : ولكن الله حبب إليكم الإيمان بالله ورسوله وحسَّنه فى قلوبكم حتى اخترتموه (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) فرفضتموها « أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم المستقيمون على طريق الحق مع تصلب فيه .

والرشد مأخوذ من الرشادة ، وهى الصخرة ، كما تقدم فى المفردات .

٨ - (فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

أى : فعل الله ذلك بكم فضلا وإنعاماً منه ، والله عليم بما يصلحكم ، حكيم فى تدبير أموركم .

(وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(طَآئِفَتَانِ) : جماعتان .

(فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا) : فإن تعدت وظلمت .

(حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ) : حتى ترجع إلى أمره .

(وَأَقۡسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ) الإقساط[1] : العدل أى : واعدلوا فى الإصلاح بين الطائفتين إن الله يحب العادلين .

التفسير

٩ - (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا) الآية :

مقدمة :

بعث الله محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولا يتحقق ذلك إلا بالوحدة وعدم التفرق بين المسلمين ، امتثالا لقوله - تعالى - : « وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... [2] » فإذا وسوس الشيطان بين فريقين منهم حتى اقتتلوا ، وجبت المسارعة إلى الإصلاح بينهما ، كما كان النبى ﷺ يصنع مع أصحابه ، وعلى الفريقين أن ينقادوا إلى الصلح حفاظاً على الوحدة بين المسلمين ، ومن أجل ذلك نزلت هذه الآية والتى تليها .

سبب النزول :

روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال : (قلت : يارسول الله ، لو أتيت عبد الله بن أُبَىٍّ - يعنى ابن سلول رأس المنافقين - فانطلق إليه النبى ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، قد أذانى نَتَنُ حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لَحِمَارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم حرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية)[3] وعلى أساسها أصلح النبى بينهم .

---

(١) إفعال من القسط - بكسر القاف - وهو العدل ، أما القسط - بفتح القاف - فهو الظلم ، ومنه قوله - تعالى - : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .

(٢) من الآية ١٠٣ من آل عمران .

(٣) رواه الإمام أحمد بسنده عن معتمر ، ورواه البخارى فى الصلح عن مسدد ، ورواه مسلم فى المغازى بسنده عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه .

وقال مجاهد : نزلت فى الأَوس والخزرج ، قال مجاهد : تقاتل حيَّان من الأَنصار بالعصى والنعال فنزلت .

وتوفيقاً بين الروايتين نقول : إن عبد الله بن أُبى بن سلول والذين تعصبوا له أَوسيون والذين جابهوهم خزرجيون وعلى رأْسهم عبد الله بن رواحة كما جاء فى إحدى الروايات .

كيف يكون الإصلاح بينهما ؟

يكون الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين بالعدل وعدم التحيز إلى فئة على حساب الأُخرى ، فإن دين الإسلام دين مساواه ، وبذلك ترضى نفوسهما ويزول ما بينهما ، ومن وسائل الصلح التنازل عن حق الإمارة ، فقد بويع الحسن بن على - رضى الله عنهما - بعد قتل أَبيه ، ثم تنازل عن حقه فى الإمارة والخلافة ، حقْناً لدماء المسلمين وجمعا لكلمتهم وقد أَخبر النبى ﷺ بذلك فى طفولة الحسن .

روى الإمام البخارى بسنده عن أَبى بكرة أَن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علىٍّ ، فجعل ينظر إليه مَرَّةً وإلى الناس أُخرى ويقول : « إن ابنى هذا سيِّدٌ ، ولعل الله - تعالى - أَن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فكان كما قال ﷺ فقد أَصلح الله به بين أَهل الشام وأَهل العراق ، بعد الحروب المدمرة التى كانت بين أَبيه وبين معاوية .

(فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أَى : فإن تطاولت إحداهما على الأُخرى ولم تستجب للصلح فهى باغية عليها ، فيجب على المسلمين قتالها حتى ترجع إلى حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فإن رجعت إليه فكُفُّوا عن قتالها ، وأَصلحوا بينهما بالعدل وأَقسطوا إن الله يحب المقسطين .

بعض ما يستنبط من احكام الآية :

١ – استدل البخارى وغيره بالآية على أن المؤمن لايخرج عن إيمانه بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج وفريق من المعتزلة ، والآية صريحة فى ذلك ، فإنها سمّتهم (المؤمنين) مع قتالهم ، وكما صرح به الحديث الصحيح السابق « ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

٢ – دلت الآية على وجوب قتال الفئة الباغية على الإمام وعلى سواه من المسلمين ، كما أنها حجة على من منع قتال المؤمنين مطلقاً ، محتجاً بقوله ﷺ :« قتال المؤمن كفر » فلو كان قتال المؤمن الباغى كفرا ، لكان أمر الله بقتاله أمرا بما يكفر ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا – كما أن هذا القول مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » ولو كان قتال المؤمن محرماً على الإطلاق ، لما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة مانعى الزكاة من المؤمنين .

وقد أمر الصديق أن لايتبع فارٌّ ، ولا يجهز على جريح منهم ، ولا تَحِلُّ أموالهم ، بخلاف الواجب فى الكفار .

ويقول الطبرى : لو كان الواجب فى كل خلاف بين فريقين الهرب منه ولزوم المنازل ، لما أُقيم حَدٌّ ولا أُبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ماحرم عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم ، وذلك مخالف لقوله ﷺ : « خذوا على أيدى سفهائكم » : إهـ . فلذلك كله يحمل حديث « قتال المؤمن كُفْرٌ » على قتال غير البغاة منهم استحلالًا له .

قتـــال على ومعاوية :

كان القتال لشبهة قامت بينهما ، فالإمام علىٌّ طلب البيعة من أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ، ومعاوية طلب الأخذ بثأر عثمان ممن يوجد منهم فى معسكر على ، فكان علىٌّ يقول : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه ، وكان معاوية ومن معه يقولون : لاتستحق البيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً .

وكان عليٌّ أحسن رأيا من معاوية فى هذا ، لأنه لوقتل الذين قتلوا عثمان قبل تمام البيعة ، لتعصبت لهم قبائلهم وصارت حربا أخرى ، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من أولياء دم عثمان فى مجلس الحكم ، فيجرى القضاء بالحق والمسلمون يد واحدة .

٣ - يستنبط من قوله - تعالى - : « فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ » أن لا يطالبوا بما جرى بينهما من دم ، ولا ما أنفق من مال ، فى طلب ذلك منهم تنفير لهم عن الصلح .

٤ - قال القرطبى : لا يجوز أن يُنْسبَ إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوع به ، إذكانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله -عز وجل- ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا الله بالكف عما شجر بينهم ، وأن لا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ﷺ عن سبهم ، وذكر أن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم ، قال -تعالى - فى سورة التوبة : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... »[1] وقال فى سورة الفتح : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... »[2] هذا مع ما ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى ﷺ « أن طلحة شهيد يمشى على الأرض » فلو كان ما خرج له معصية لم يكن بالقتل فيه شهيداً .

ثم قال القرطبى : وسئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال : تلك دماء طهر الله منها يدى فلا أخضِّب بها لسانى . يريد التحرز من الحكم على بعضهم بما لايكون مصيباً فيه .

ثم قال القرطبى : وقال الحسن البصرى : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبْنَا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف

(١) من الآية ١٠٠

(٢) من الآية ١٨

عما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأياً مِنَّا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله – عز وجل – إذ كانوا غير متهمين فى الدين – انتهى ما قاله القرطبي وما نقله عن غيره بتصرف يسير .

١٠ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

إنما المؤمنون إخوة فى الدين ، والأُخوة فيه أقوى من الأخوة فى النسب ، فاتقوا الله فى الإصلاح بينهم لعلكم ترحمون فى الدنيا والآخرة .

أخرج الصحيحان بسنديهما عن النبي ﷺ أنه قال : « المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره – بِحَسْبِ امرئ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه » .

راى على فيمن قاتلوه :

سئل الإمام على – رضى الله عنه – عمَّن قاتلوه : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فَرُّوا ، فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ؛ لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا ، فقيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(قَوْمٌ) : هم الرجال دون النساء .

(وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) : ولا يعب بعضكم بعضاً .

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) أى : بئس أن يسمى المسلم كافرًا أو زانياً بعد إيمانه .

التفسير

١١ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..) الآية :

من أهداف الإسلام العظمى أن يجعل المؤمنين مجتمعا فاضلا يقوم على مكارم الأخلاق ، وقد اشتملت هذه الآية على آداب رشيدة من دستور الإسلام الخلقى ، وبيان ذلك فيما يلى :

نهى الله المؤمنين فى صدر هذه الآية عن سخرية بعضهم ببعض ، والاستهزاء بهم ، والقوم يطلق على الرجال بخاصة ، وقد يدخل النساء فى القوم مجازًا ، ولكن الله شاء أن يعنى بهذه الخصلة ، فنهى النساء عنها نهياً مستقلا عن نهى الذكور لكثرة وقوعها بينهن .

سبب نزول الآية :

اختلف فيه ، فقال الضحاك : نزلت فى وفد بنى تميم الذين تقدم ذكرهم فى تفسير أول السورة ، استهزءوا بفقراء الصحابة مثل عمّار وخباب وابن فهيرة ، وبلال وصهيب وسلمان الفارسى ، وسالم مولى أبى حذيفة وغيرهم حين رأوا رثاثة حالهم ، فنزلت فى الذين آمنوا من هؤلاء المستهزئين .

وقيل : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلماً ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت ، وقيل غير ذلك .

وسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما ، فالمراد أن لا يقدم أحد من الرجال أو النساء على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الهيئة أو ذا عاهة فى بدنه أو غير ذلك ، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله .

وقد كان السلف يبالغون فى البعد عن السخرية ،وهو لا يكلفنا شيئاً ، فينبغى أن نكون مثلهم ، فالعبرة فى الإسلام بالقلوب لا بهيئات الناس ومظاهرهم قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وإذا رأيت إنسانا على معصية فانهه ولا تسخر منه .

ويقول الله – تعالى –:(وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) واللمز : العيب ، وقد يكون باللسان أو الإشارة أو العين أو غير ذلك ، وقال : (وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ) ولم يقل : ولا يلمز بعضكم بعضاً ، ليشير بذلك إلى أن المؤمنين كنفس واحدة ، فمن عاب غيره منهم فكأنما عاب نفسه ، قال ﷺ : « المؤمنون كجسد واحد ، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أو : لا تَفْعلوا ماتلمزون به ؛ فإن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه .

ثم يقول الله – تعالى – : (وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَابِ) والنَّبَزُ – بالتحريك – : اللقب ، ويكثر إطلاقه على لقب السوء ، وبالتسكين (النَّبْز) المصدر ، تقول : نبزه ينبزه نبْزًا : إذا لقبه بما يسوءه ، أخرج الترمذى فى سبب نزولها عن أبى جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها فعسى أن يكره ، فنزلت هذه الآية (وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَابِ) قال : هذا حديث حسن .

وقال قتادة : هو قول الرجل للرجل : يافاسق ، يا منافق .

ومن الآية وسبب النزول عرفنا أن تلقيب الرجل بما يكره منهى عنه .

وجاء فى الآية « بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ » أى : بئس أن يسمى الرجل كافرًا أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، روى أن أبا ذَرٍّ كان عند النبى ﷺ فنازعه رجل ، فقال له أبوذر : يا ابن اليهودية ، فقال ﷺ : « ما ترى ؟ ها هنا أحمر وأسود ؟ ما أنت بأفضل منه » .

وقيل فى معنى الآية : إن من لقَّب أخاه أو سخر منه فهو فاسق .

واستثنى من ذلك ما غلب عليه الاستعمال ولم يكن لصاحبه فيه كسب ولايتأذى منه ، لأنه لمجرد التمييز لا الإيذاء ، كالأعرج والأحدب والطويل والقصير ، ومثل ذلك قد يأتى فى أسانيد الحديث ورجاله .

ويجوز تلقيب الإنسان بما يحب ، ولهذا لقب الرسول ﷺ عُمَرَ بالفاروق ،وأبا بكر بالصديق ، وعثمان بذى النورين ، قال ﷺ : « من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه » ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن ، وقد لقب أبو بكر بالعتيق كما لقب بالصديق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بن الوليد بسيف الله .

المعنى الاجمالى للآية :

يا أيها الذين شرفهم الله بالإيمان : لا يسخر أحد من أحد ، فلا يستهزئ الرجال بالرجال ،ولا النساءُ بالنساء ،عسى أن يكون المسخور به خيرًا عند الله من الساخر ،لنظافة قلبه وصفاء نفسه ، ولا يَعِبْ بعضكم بعضا بالقول أو الإشارة أو نحوهما ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ، فإذا لمزتَ أخاك وعبتَهُ فكأنما لمزت نفسك وعبتها ، بئس الوصف الفسوق بعد الإيمان ، فمن حق الإيمان أن يعصم الناس عن أن يعيب بعضهم بعضا ، فإذا فعل المؤمن ذلك فقد فسق بعد الإيمان ، وذلك أمر لا يليق بالمؤمنين ، ومن لم يتب من الاستهزاء بغيره وتنقيصه بالعيب فيه ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(الظَّنّ) المراد به فى الآية : الاتهام .

(وَلَا تَجَسَّسُواْ) التجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً) : لا يتحدث عنه فى غيبته بما يكره .

(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ) الشعوب : رءُوس القبائل كربيعة ومضر ، والقبائل فروعها ، وقال ابن عباس : الشعوب : الجمهور ، والقبائل : الأفخاذ .

التفسـير

١٢ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ...) الآية :

بعد أن بين الله - تعالى - فى الآية السابقة تحريم السّخرية والتنابز بالألقاب ، جاء بهذه الآية استكمالا لحقوق المسلم على أخيه .

وقد اشتملت هذه الآية على تحريم سوء الظن بالناس ، والتجسس عليهم ، وحديث السوء عنهم فى غيبتهم ، وقد جاء فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ .

قال : « إياكُم والظَّن ، فَإنَّ الظَّن أكذبُ الحديثِ ، ولا تَجسَّسُوا ، ولا تَباغَضُوا ، ولا تَنَابَزُوا وَكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً » .

والظَّن فى الآية والحديث هو الاتهام ، فلا يحل لمسلم أن يتهم أخاه ، صيانة لأعراض الناس وتأميناً لهم من سوء السمعة بدون مقتض ، ومنعاً للعداوة وآثارها .

ويفهم من النهى عن كثير من الظن أنه يجوز بعض الظن ، وذلك إذا وجدت أمارة تقتضيه ، قال القرطبى : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل مالم نعرف له أمارة صحيحة وسببا ظاهرا كان حراماً واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنُّ الفساد به والخيانة محرم ، بخلاف من اشتهر عند الناس بتعاطى الرِّيب ، والمجاهرة بالخبائث .

ونزيد على ذلك فنقول : إنه لاينبغى أن تتهم إنسانا بأنه هو الذى أحدث لك بعض الأضرار فى أرضك أو بيتك أو سمعتك ، ما لم تقم أمارة قوية على ذلك ، حتى لا تتورط معه فيما يضرك ويضره ، فربما كان ما أصابك مِّمن يظهر لك مودة وأنت به واثق .

ويجوز الحذر من شخص أو أشخاص ، خشية أن يأتيك ضرر من جهتهم ، وليس لك أن تتهمهم بغير دليل ، فإن اتهمتهم لوجود أمارة تدل عليه فلك الحق فى اتهامهم ، ولكن ليس لك الحق فى الانتقام منهم ، فربما كانوا برآء ، وعليك أن تلجأ إلى القضاء ، فهو الذى يفصل الحق من الباطل .

ويجوز التجسس لتوقى هذه الأضرار ، دون أى مساس بحرمات من تتجسس عليه ، وكان عمر بن الخطاب يفعل ذلك .

قال عمر بن طلحة فى كتابه (العقد الفريد للملك السعيد) : وأما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فإنه بذل جهده فى تسديد الأمور ، وسَدِّ الثغور وسياسة الجمهور ، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاده ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار والٍ ولا عاملٌ ولا أمير إلا وله عليه عَيْنٌ (أى : جاسوس)

لايفارقه ، فكانت أخبار الجهات كلها عنده كل صباح ومساء ، حتى أن العامل كان يتوهم فى أقرب الخلق إليه أنه عين عليه : انتهى بتصرف .

والتجسس : هو البحث فى خفية عما يكتم عنك ، ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور الخفية .

والمقصود من النهى عنه فى الآية أن يأخذ المؤمنون ما ظهر من الناس ، ولا يتبعوا عورات المسلمين ، فلا يبحث المسلم عن عيب أخيه ليطلع عليه بعد أن ستره الله ، عن أبى بَرْزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : « يامَعْشرَ من آمَن بِلسانِهِ ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ ، لاتغتابوا المسلمين ، ولاتتبعوا عوراتهم ؛ فإن من تتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع اللهُ عورَتَهُ يَفضَحْهُ فى بيتِه » .

وجاء عن زيد بن وهب قال : أُتِيَ ابن مسعود فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا ، فقال عبد الله : إناقد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهرْ لنا شيء نأخذْ به .

(وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) :

الغيبة : أن تذكر أخاك فى غيبته بما فيه من المكاره ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهوالبهتان . فنى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذِكْرُكَ أخاكَ بِما يَكْرَهُ » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كَانَ فيهِ ما تَقُولُ فقدِ اغْتَبْتَهُ ، وإن لم يكنْ فقدْ بَهتَّهُ » .

والمقصود من هذا صيانة أعراض الناس ، وتركهم إلى الله فما بينهم وبينه .

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) :

هذه الجملة تشير إلى أن غيبة المؤمن تشبه أكل لحمه ميتاً ، واستعمال أكل اللحم مكان الغيبة مألوف فى كلام العرب ، قال شاعر منهم :

فإن أكلوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحومَهم وإن هدموا مَجْدِى بنيْتُ لهم مجدًا

وقد مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه ، كما أن الحىّ لايعلم بغيبة من اغتابه ، وقال ابن عباس : إنما ضرب هذا المثل للغيبة ؛ لأن أكل لحم الميتة حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين ، وقبيحة فى النفوس .

والغيبة تأكل الحسنات ، قال ﷺ : « ماصام من ظل يأكل لحوم الناس » والغيبة تكون فى الدين والأخلاق والخِلْقة والحسب والنسب ، ولا خلاف بين العلماء فى أنها من الكبائر ، فعلى المغتاب أن يتوب إلى الله .

كيف تكون التوبة من الغيبة ؟

اختلف العلماء فى كيفية التوبة منها ، فقال بعضهم : هى مظلمة يكفى فيها الاستغفار لمن اغتابه إلى جانب الاستغفار لنفسه ، وقال آخرون : هى مظلمة لابد فى التوبة منها من طلب العفو ممن اغتابه ، لقوله ﷺ : « مَنْ كانت له مَظْلمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شىء ، فليتحللْه منه قبل أن لا يكون له دينارٌ ولا درهم ، إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدر مَظْلمته ، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبِه فحُمِلَ عليه » أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة .

من لا غيبة لهم :

لا تحرم الغيبة للفاسق المجاهر بفسقه ، ولا فى عرض الشكوى على القاضى ، كقولك : فلان ظلمنى أو خاننى أو نحو ذلك ، ولا فى الاستفتاء كقول هند عن زوجها أبى سفيان : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى أنا وولدى ، أفآخذ من غير علمه ؟ فقال : « فخذى بالمعروف » .

ولاتحرم فى النصيحة والتحذير ، ولا فى التعريف : كفلان الأعرج أو الأعمى .

(فَكَرِهْتُمُوهُ) :

أى : فكرهتم أكل لحم أخيكم ميتا ، فكذلك فاكرهوا غيبته ، وقيل : لفظه خبر ومعناه أمر ، أى : فاكرهوا غيبته .

(وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية بهذه الجملة ، لحمل الناس على ترك الغيبة وعلى التوبة منها .

والمعنى : واتقوا الله بترك الغيبة والتوبة إليه منها ومن سائر الذنوب إن الله تواب رحيم يقبل التوبة من التائبين ، ويعفو عن سيئات المسيئين ، إذا حسنت توبتهم لرب العالمين .

١٣ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) :

بَعْدَ أن ذكر الله - تعالى - تلك الآداب السامية التي حفلت بها هذه السورة ، ختمها بلون من الأدب العالي ، وهو تعليم عباده أن لا كرم ولا شرف عند الله إلا بالتقوى كيفما كانت الأحساب والأنساب ، حتى لا يتعالى بعضهم على بعض بغير حق ، فكل الناس من آدم وحواء ، فلا وجه للتعالى بالأحساب والأنساب ؛ ليظل الناس إخوة متواضعين متحابين .

وجاء فى معنى الآية فى كتاب (آداب النفوس) للطبرانى بسنده عن أبي نضرة قال : حدثنى - أو حدثنا - من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « ياأيها الناس : ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإن أباكُم واحدٌ ، ألا لافضل لعربيٍّ على عجمى ولاعجمى على عربى ، ولا لأَسودَ على أحمرَ ، ولا لأَحمرَ على أسودَ إلا بالتقوى ، ألَا هَلْ بلَّغْت ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : «لِيبلغْ الشاهدُ الغائب » .

سبب نزول هذه الآية :

أخرج أبو داود بسنده عن الزهرى - مُرْسَلًا - قال : « أمر رسولُ الله ﷺ بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا لرسولِ الله ﷺ : أنزوج بناتنا مَوالينا ؟ فأنزل الله - عز وجل - : (إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ .) وقيل فى سبب نزولها غير ذلك ، ولا مانع من نزولها من أجل عدد من الحوادث المتشابهة .

وقد عرف من الآية والحديث وسبب النزول أن الناس متماثلون فى الآدمية ، فلا شرف فيهم إلا بتقوى الله - عز وجل - .

واعلم أن الناس أربعة أصناف : صنف خلق من تراب هو آدم - عليه السلام - وصنف خلق من أب دون أم وهو حواء ؛ فقد خلقت من أحد أضلاع آدم ، وصنف خلق من أم دون أب وهو عيسى - عليه السلام - وصنف خلق من أبوين ذكر وأنثى وهو جميع البشر ماعدا هؤلاء ، وقد خلقهم الله على هذا النحو ليعلم الناس قدرة الله على خلق مايشاء كما يشاء .

وعقب الله خلقه للناس من ذكر وأنثى بقوله :(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ) والشعوب : جمع شَعْب - بفتح وسكون[1]

والشعب : ماتشعبت منه القبائل ، فالعرب شعب ، وقبائله مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وقد يطلق الشَّعب على القبيلة العظيمة ، قال ابن عباس : الشعوب : الجمهور مثل مضر ، والقبائل : الأفخاذ ، وقد جعلهم الله كذلك ليتمايزوا ويتعارفوا ، كأن يقول الواحد منهم : أنا من شعب مصر : من قبيلة كذا ، فيعرف نسبه .

ولقد جعل الله الشعوب والقبائل تتخذ لها أماكن مستقلة ، ليزداد التعارف بين الناس بذكر المكان ، وقد كان الناس - عربا أو عجما - عند نزول الآية قبائل متمايزة ، ضمن شعوب تعمهم ، ولكنهم الآن فى معظم الأمم ، قد اختلط بعضهم ببعض ، وأصبح التعارف بينهم بالانتماء إلى الأمم ، وبيان البلدان التى يعيشون فيها ، والمساكن التى يأوون إليها .

وعقب الله هذه الجملة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) لبيان أن التقوى هى الأمر المُراعَى عند الله ، وليس الحسب والنسب والمال والوظيفة .

(١) أما الشِّعب - بكسر الشين - فهو الطريق إلى الجبل ، وجمعه : شعاب .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله — تعالى — يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي لأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ ».

وفى حديث مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا : «إنَّ أولياء أبي ليسوا لى بأولياء، إنَّ وليِّيَ اللهُ وصالحو المؤمنين».

وقد ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) أى : أنه — تعالى — عليم خبير بأحوال الناس نحو هذه الآداب ، فيثيب من تأدب بها ، ويعاقب من أعرض عنها .

صور مشرقة من محو الفوارق الطبقية فى الزواج :

لقد كان لهذا الأدب تأثيره فى محو الفوارق بين طبقات الناس ، فقد ذكر الطبرى بسنده عن أبي الجَعْد قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة فطعن عليها فى حسبها ، فقال الرجُلُ : إنى لم أتزوجها لحسبها ، إنما تزوجتها لدينها وخلقها ، فقال النبي ﷺ : « مايضرك أن لا تكون من آل حاجب بن زرارة ؟ » ثم قال النبي ﷺ : «إن الله —تعالى— جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة ، وأتمَّ به الناقصة ، فأذهب به اللوم ، فلا لوم على مسلم، إنما اللومُ لومُ الجاهلية » .

وفى الصحيح عن عائشة — رضى الله عنها — أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان ممن شهد بَدْرا مع النبي ﷺ —تبَنَّى سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى امرأة من الأنصار[1] ، وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد ابن الأسود ، وتزوج بلال بن رباح أخت عبد الرحمن بن عوف ، فدلَّ ذلك على جواز نكاح المولى العتيق من الحرة ، ومَنْ نَسَبُه خامل ممن نسبه عالٍ ، وأن المعوَّل عليه فى الإسلام هو التقوى ، وهى التى اعتبرها المالكية أساس الكفاءة دون الحسب والنسب والغنى[2] وما إلى ذلك من الفوارق الطبقية .

---

(١) أى : عتيقها .

(٢) أما الحنفية والشافعية فقد اشترطوا الكفاءة فى ذلك .

* (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(الْأَعْرَابُ) : هم سكان البادية بخاصة ، والأعراب اسم جنس وليس جمعا ، والنسبة إليه أعرابى ، أما العرب فهم أهل الأمصار ، وهو اسم جنس أيضا ، والنسبة إليه عربى .

(آمَنَّا) : صدقنا بألسنتنا وقلوبنا .

(أَسْلَمْنَا) : صدقنا بألسنتنا دون قلوبنا .

(وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) : وحتى الآن لم يدخل التصديق فى قلوبكم .

(لَايَلِتْكُمْ) : لاينقصكم .

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) : قل لهم أيها الرسول : أتخبرون الله بدينكم بقولكم : آمنا ؟ .

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) : يعدون إسلامهم مِنَّة عليك ، والمنة : النعمة التى لايطلب لها ثواب ممن أنعم بها عليه .

التفسير

١٤ ـ (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَايَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ختم الله الآية السابقة بقوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) وجاءت هذه الآية لتفيد أن الإيمان باللفظ ليس إيمانا عند الله ، بل هو إسلام وخضوع ظاهرى يقصد به السلامة من القتل لشركهم ، وجر المغانم إن جاهدوا بعد إسلامهم ، ومن كان كذلك فلا تقوى عنده ، ولا كرامة له عند الله تعالى .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى بنى أسد بن خزيمة ـ قبيلة تجاور المدينة ـ أظهروا الإسلام وقلوبهم دَغِلَةٌ[1] ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .

وقال القرطبي : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة ، قدموا على رسول الله ﷺ فى سنة جَدْبة ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذِرَات[2] وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا الصدقة ، وجعلوا يَمُنُّونَ عليه ، فأنزل

(١) أى : فاسدة غير مخلصة .

(٢) جمع عذرة : وهى الغائط .

الله – تعالى – فيهم هذه الآية . وقيل غير ذلك فى سبب نزولها ، وتعتبر هذه الرواية تفصيلا لما قبلها .

على أى سبب نقله الرواة فالآية خاصة ببعض الأعراب ، لأن منهم من آمن بالله واليوم الآخر ، وفيهم قال الله – تعالى – : «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[1] » .

ومعنى الآية : قالت الأعراب الذين حول المدينة لرسول الله ﷺ : آمنا ، يقصدون إيهامه أنهم صدقوا به وبرسالته مخلصين ، وقد كذبوا ؛ فإنهم منافقون ، ولهذا كذبهم الله – تعالى – بقوله لرسوله ليبلغهم : (قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ) أى : قل لهم : لم تصدقوا بقلوبكم ، ولكن قولوا : أسلمنا بألسنتنا ؛ رغبة فى جلب المنافع ودفع المضار ، وحتى الآن لم يدخل الإيمان فى قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله فتُصَدِّقوا بقلوبكم كما صدقتم بألسنتكم لاينقصكم شيئا من أجور أعمالكم التى تؤدونها بعد صدق الإيمان ، إن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة ، فبادروا بالإخلاص ليغفر لكم نفاقكم الذى أنتم فيه ، ويرحمكم بقبول توبتكم .

١٥ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

إنما المؤمنون–حقيقة–هم الذين صدقوا بالله ورسوله بقلوبهم ، ثم لم يطرأ على إيمانهم ريبة وشك ، وبذلوا الجهد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا طلبوا للجهاد ، أولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الصادقون فى إيمانهم لا أنتم أيها المنافقون الذين قَدِمتم لنيل المغانم ، واتقاء المغارم .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٩٩

ولما نزلت هذه الآية جاءوا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون ، فأنزل الله فيهم الآية التالية :

١٦ - (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

قل - أيها الرسول - لهؤلاء الأعراب المنافقين : أتعرِّفون الله بدينكم وتخبرونه به زاعمين أنكم مخلصون فيه ، والله يعلم مافى السموات وما فى الأرض ، من الكليات والجزئيات ، والله بكل شىء عليم ، فلا يحتاج إلى من يعلمه ويعرفه ، فلا يخفى عليه سِرُّكم ونجواكم .

١٧ - (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

يعد هؤلاء الأعراب المنافقون أن إظهار إسلامهم مِنَّة ونعمة عليك أيها الرسول ، حيث قالوا : لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان الذين كفروا بك ، قل لهم - أيها الرسول - : لا تمنُّوا علىَّ إسلامكم الذى زعمتموه إيمانا ، بل الله - تعالى - هو الذى يمن عليكم أنْ وفقكم للإيمان إن كنتم مؤمنين كما زعمتم ، وما أولئك بالمؤمنين ، ولذا عقب الله هذه الآية بقوله تأكيدا لتكذيبهم :

١٨ - (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إن الله - تعالى - يعلم ماغاب عن العيون فى السموات والأرض ، والله بصير بما تعملونه أيها الأعراب فى سركم وعلانيتكم ، فكيف يخفى عليه حالكم ؟ .

« سورة ق »

مكية وآياتها خمس وأربعون

مجمل معانيها :

تضمنت هذه السورة عجب الكفار من مجيء منذر منهم ، وأنكروا البعث قائلين : (ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) مع أن الله – تعالى – خلقهم أول مرة ؛ وعابت عليهم أنهم لم ينظروا إلى آيات قدرته فى خلق السموات والأرض وما فيهما ومابينهما (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) وبينت أنهم يبصرون إحياء الله للأموات من آن لآخر فى الزروع والأشجار (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) أى : كذلك البعث ، ثم حكت تكذيب قوم نوح وأصحاب الرَّسِّ وثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع – حكت تكذيبهم – لأنبيائهم ، فنزل بهم وعيد الله باستئصالهم ، وبينت أنه – تعالى – خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن عليه رقباء من الملائكة ثابتين ، وحكت أهوال الموت والقيامة ، وغفلة الإنسان عن ذلك كله ، وأن التابعين والمتبوعين فى الكفر يختصمون لديه – تعالى – فيلقى التابعون مسئولية كفرهم على المتبوعين ، والمتبوعون يتبرأون منهم ، فيقول لهم الله – تعالى – : (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) وحكت فوز المتقين بنعيم الجنة خالدين فيها أبدا (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) ثم حثت النبى ﷺ على الصبر والتسبيح (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) ثم أبانت أنه – تعالى – يحيى ويميت وإليه المصير ، ثم نفت عنه ﷺ مسئولية كفرهم ، وأوجبت عليه مداومة التذكير (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) : ذى المجد والشرف ، فهو من قبيل النسب بغير الياء المشددة كلابن وتامر ، أى : صاحب لبن وصاحب تمر .

(هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) : هذا شئٌ يقتضى التعجب والإنكار – كما زعموا – .

(ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) : ذلك البعث رجع بعيد عن الوقوع أو عن الإمكان .

(وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) : وعندنا كتاب حافظ لكليات الأُمور وجزئياتها ، والمراد به : علم الله ، أو اللوح المحفوظ .

(فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) : فهم فى أمر مضطرب ، من : مَرَجَ الخاتمُ فى أصبعه : إذا تحرك واضطرب من الهزال .

مقـــدمة :

سورة (ق) سورة عظيمة فى مبانيها ومعانيها ، لها تأثير واغل فى أعماق النفوس ، ولهذا كان النبى ﷺ يخطب بها يوم الجمعة ، جاء فى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : (لقد كان تنُّورُنا[1] وتنُّور رسول الله ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذتُ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤُها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل أبا واقد الليثى : « ماكان يقرأ به رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » و « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ » .

وعن جابر بن سمرة (أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الفجر بـ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » وكانت صلاته بعدُ تخفيفا) وكل ذلك قد حدث وهو مروى بصحاح الأحاديث.

التفسير

١ - ٣ (قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) :

(قٓ) سبق الكلام على مثله من الحروف فى سورتى البقرة وآل عمران ، فارجع إليه فيهما ، والقرآن : هوالكتاب الذى أنزله الله بلفظه على نبيه محمد ﷺ ليكون معجزة مؤيدة له ، باقية إلى قيام الساعة ، أما معجزات الأنبياء قبله فقد فَنِيَت ولم يبق منها إلَّا الحديث عنها .

وقد وُصِف القرآن بلفظ (الْمَجِيدِ) بمعنى ذى المجد والشرف ، وشرفه بالنسبة إلى سائر الكتب واضح ، أما غير الإلٰهية فظاهر ، وأما الإلٰهية فلإعجازه وكونه غير منسوخ بغيره ، واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيق عنها كل واحد منها .

---

(١) التنور : الذى يخبز فيه وهو الفرن .

وقال الراغب : المجد : السعة والكرم ، ثم قال : ووصف القرآن به لكثرة مايتضمن من المكارم الدنيوية والأُخروية . إﻫ .

وقد أقسم الله بالقرآن المجيد ، وجواب القسم مقدر يدل عليه المقام ، وتقديره : إنا أنزلناه لتنذر به الناس ، أو إنك لمنذر بالبعث وماوراءه .

وقد عقَّب الله هذا القسم بقوله : (بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ) ، ولفظ (بَلْ) للإضراب الانتقالى عمَّا ينبئ عنه جواب القسم المقدر ، فكأنه قيل : إنا أنزلناه لتنذر الناس بالبعث وماوراءه فلم يؤمنوا ، بل جعلوا كلا من المنذِر والمنذَر به عرضة للتنكير والتعجب ، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والتلقى بالقبول .

ثم أكدوا تعجبهم وبينوا أهم ماينكرونه ويتعجبون منه فقالوا : (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ) يعنون أنهم إذا ماتوا وتحولت لحومهم وعظامهم إلى تراب ، لا يعقل أن تعود إليهم الحياة مرة أخرى ، وجواب الاستفهام مقدر ، أى : نرجع .

ومعنى الآية : أئذا تحولت لحومنا وعظامنا إلى تراب بعد الموت نرجع إلى الحياة مرةً أخرى ؟ ذلك الرجوع إليها حينئذ رجوع بعيد عن التصديق وعن القبول .

وهذا الاستبعاد ناشئ عن قصر نظرهم وسوء فهمهم ، فإن مَن خلقهم من تراب يُعِيد خلقهم منه ، وهو أهون من البدء .

وقد ردَّ الله عليهم ، وعاب سرعة تكذيبهم للحق من غير روية فقال :

٤ ، ٥ــ (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ . بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ) :

أى : أن بعثهم حينئذ لاصعوبة فيه على الله ــ تعالى ــ فقد علم ماتأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، وعنده كتاب حافظ لتفاصيل الكون كله ، ومنها ماتنقص الأرض من الموتى بعد موتهم .

والمراد بالكتاب الحفيظ : علم الله – تعالى – على سبيل التمثيل ، أو اللوح المحفوظ ، ثم أضرب عن إنكارهم البعث انتقالاً إلى ما هو أفظع منه ، وذلك فى قوله – جل وعلا – : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ :

أى : بل كذبوا بالقرآن الذى هو كلام الله ومعجزته الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وكان تكذيبهم به حين جاءهم من غير روية ، وبلا تفكر وتدبر ، وبتكذيبهم له تكذيبا لما فيه من توحيد الله – تعالى – وسائر كمالاته ، وكذبوا بنبوة محمد ﷺ فهم فى أمر مضطرب ، فتارة يقولون : إنما يعلمه بشر وما هو من كلام الله ، وأخرى يقولون : إنه شعر ، وثالثة يقولون : هو أساطير الأولين .

ويقولون عن محمد ﷺ : إنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون ، وكل ذلك ناشئ عن نظرات سطحية لا عمق فيها ، وعن تقليدهم للآباء ، وزعمهم أنه لو كانت نبوة من البشر لكلف بها رجل من الرؤساء ، وذلك قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[1] يعنون بهما : مكة والطائف ، فهم فى أمر مريج مضطرب لا يثبتون على حال ، وقد ذابت كل أكاذيبهم مع الزمن ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، ومنهم أهل مكة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وصدق الله – تعالى – إذ يقول : « وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[2] .

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٣١

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨١

(أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١)

المفــردات :

(كَيْفَ بَنَيْنَاهَا) : كيف أنشأناها فى عظمتها وحسنها ، ورفعها بغير عمد ترونها .

(وَزَيَّنَّاهَا) : وجعلنا لها زينة بالكواكب على أبدع نظام ، وأكمل إحكام .

(وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) : وليس فيها شقوق وخلل .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : بسطناها فى رأى العين ، وإن كانت فى حقيقتها مكورة .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يَبْهَج ويَسُرُّ مَنْ نظر إليه ، وفعله بَهِج بوزن طرب ، والبهجة : الحسن ، وفعله بوزن ظَرُف وطَرِب ، فهى مشتركة بين الوزنين .

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(وَحَبَّ الْحَصِيدِ) : وحب الزرع الذى شأنه أن يحصد ، أى : يقطع .

(بَاسِقَاتٍ) : طويلات .

(لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ) : لها طلع منضود بعضه فوق بعض .

(كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) : مثل ذلك خروجكم للبعث من قبوركم .

التفسير

٦ - (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ) :

جاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتعيب على المشركين شركهم واضطرابهم فى أمر الحق الذى جاء به محمد ﷺ عن ربه ، ومنه البعث والنشور - تعيب عليهم ذلك - مع وجود الآيات الكونية الدالة على توحيد الله وإمكان البعث وهم غافلون عنها .

ولقد أشارت هذه الآية إلى أن لله سماء ، ولهذه السماء زينة ، فأما الزينة فهى الكواكب التى يرونها متلألئة فى الفضاء ، دائرة فيه بقدرة الله - تعالى - وأما السماء الحقيقية فهى محجوبة عنا ؛ لأنها من شأن الله ، ولسنا بحاجة إلى معرفة حقيقتها ووظائفها ، فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ »[1] ، ويقول فى سورة فصلت : « وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[2] ، ويقول فى سورة الملك : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ »[3] ثم يقول فيها : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ... »[4] إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن لله سبعَ سموات ، وأن الكواكب زينة للسماء الأولى منها ، ولا شك أن الزينة غير المزيَّن ، فهى أمر زائد على الذات .

ومعلوم أن طبقات الكواكب وسُدُمها ليست سبعًا ، بل هى ملايين الملايين ، وأن الرسول ﷺ ليلة المعراج عُرج به إلى تلك السموات لا إلى الكواكب .

---

(١) الآية رقم : ٦ .
(٢) من الآية رقم : ١٢ .
(٣) من الآية رقم : ٣ .
(٤) من الآية رقم : ٥ .

ومعنى الآية : أَعَمِيَتْ قريش حين أشركوا وأنكروا البعث - أعموا - فلم ينظروا إلى الكواكب فوقهم بحيث يشاهدونها كل وقت ، كيف بنيناها وأحكمناها ، وجعلناها زينة للسماء الدنيا وما لها من شقوق ولا فتوق ، فهى تامة السلامة من كل عيب .

واعلم أيها القارئ الكريم أن القبة الزرقاء التى تَرى خلالَها الكواكبَ ما هى إلَّا الغلاف الجوى ، وفوقه ظلمة حالكة السواد ، كما اكتشف ذلك علماء الفلك ، فإذا أُطلق عليه لفظ (سماء) فهو إطلاق لغوى ، فإن كل ما علاك سماء .

٧ ، ٨ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) :

الأرض مثل الكرة ، غير أنها منبعجة[1] من جهة القطبين ، وهى تدور فى الفضاء تحت الشمس ، وتنتقل فى مدارها من برج إلى برج ، ويترتب على ذلك وجود الليل والنهار ، والربيع والصيف والخريف والشتاء .

وظاهر الآية يدل على أن الأرض مفروشة ومبسوطة ، وهذا لا ينافى أنها كروية ، فهى مبسوطة فى رأى العين ، كروية فى الحقيقة ، ولهذا ترى الشمس تشرق فى بعض الأقاليم ، وغيرها مما يليها لا يزال الليل فيه ، فلا تُرَى الشمسُ فيه إلَّا بعد حين يطول أو يقصر حسب البعد والقرب ، وذلك ناشىء من كرويتها ، فَعاليها يحجب ضوء الشمس عن سافلها ، ولو لم تكن الأرض كروية لأشرقت الشمس على جميع أقاليمها فى وقت واحد .

والمعنى : والأرض بسطها الله فى رأى العين ومهَّدها ليتيسر السير عليها والانتفاع بها ، وخلق فيها جبالًا ثوابت تحفظها من أن تميد وتضطرب بمن عليها ، وأنبت فيها بقدرته من كل صنف حسن يسر الناظرين والآكلين ، وقد فعل الله ذلك تبصيرًا وتذكيرًا لكل عبد منيب راجع إلى الحق ، فالصنعة البديعة تدل أوضح الدلالة على الصانع المبدع المتفرد فى إبداعه .

---

(١) أى : ناقصة .

٩-١١- ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ[١] بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ[٢] . رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ :

تخصيص النخل بالذكر مع اندراجه فى الجنات ، لبيان فضلها على سائر الأشجار ، وتوسيط الحب بين الجنات والنخل لتأكيد استقلال النخل وامتيازها عنها ، مع ما فيه من رعاية الفواصل .

ومعنى الآية : ونزلنا من السحاب ماء مباركا كثير الخيرات - أنزلناه - فى جميع الأقاليم فى أوقات مناسبة لمصالح العباد ، فأنبتنا بهذا الماء المبارك بساتين كثيرة مشتملة على أطيب أنواع الثمار والفاكهة ، وأنبتنا به حب الزرع الذى يحصد ويقطع ليستخرج منه حبه كالبر والشعير والذرة وغيرها ، وأنبتنا به النخل طويلات لها طلع منضود بعضه فوق بعض . - أنبتنا كل ذلك - رزقا للعباد ، يستوجب الإيمان والشكر ، وأنبتنا بذلك الماء أرضا جدبة لا نبات فيها ، مثل هذه الحياة الناشئة عن الإحياء خروجُ الموتى من القبور ، فالنبات يذبل ويجف بعد ازدهاره ويصبح ميتا ، والله - تعالى - يعيد إحياءه ويبعثه بعد الموت ، وإحياء الموتى مثل ذلك ، أفلا تعقلون ؟ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

---

(١) اسم جنس . واحده نخلة .

(٢) الطلع أول ما يبدو من ثمرة النخل ، قال صاحب المختار : أول الثمر طلع ثم خلال ، ثم بلح ثم بسر ثم رطب ، ثم تمر - انظر مادة (بلح) .

المفـــردات :

(قَوْمُ نُوحٍ) : من أُرسل إليهم ، والقوم : جماعة الرجال ، وقد يندرج فيه النساءُ مجازًا كما هنا ، وتأنيث الفعل المسند إليه (كَذَّبَتْ) باعتبار أنه اسم جنس بمعنى الجماعة .

(وَأَصْحَابُ الرَّسِّ) الرس : هى البئر التى لم تُبْن ، وقيل : هو اسم لوادٍ معين .

(فِرْعَوْنُ) : المراد به هو وقومه ، كما تسمى القبيلة باسم أبيها .

(الْأَيْكَةِ) : مجتمع الشجر ، ويطلق عليها لفظ الأَجمة .

(وَقَوْمُ تُبَّعٍ) : الحميرى .

(أَفَعَيِينَا) : أفعجزنا ، والعيُّ بالأَمر : العجز عنه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

(بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ) : بخلق آدم وذريته .

(بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) : بل هم فى خلط وشبهة من البعث .

التفسير

١٢ـ ١٤ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) :

هذه الآيات مستأنفة لتقرير أن البعث حق ، وأنهُ مُتَّفق عليه من جميع الرسل ، وأن الأُمم التى سبقت قريشًا كذبت رسلها وأنكروا البعث فعاقبهم الله ـ تعالى ـ ، وفى ذلك تسلية للنبى ﷺ وتهديد للكفرة من قومه .

وأصحاب الرَّسِّ قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب ـ عليه السلام ـ وقيل : هم قوم حنظلة ابن صفوان ، وإخوان لوط : قومه وأهله الذين بعث إليهم ، وقيل : إنهم كانوا أصهاره ، وليس المراد بالأخوة القرابة من النسب ، وأصحاب الأَيكة أى : سكان مجتمع الشجر ، قيل : إنهم ممن بعث إليهم شعيب غير أهل مدين ، وكانوا يسكنون هذه الأَيكة فنُسِبوا إليها .

وتُبَّع : هو تُبَّع الأكبر الحميرى ، واسمه أسعد ، وكنيته أبو كُرَبٍ ، وكان رجلًا صالحًا بين قومه الكافرين ، أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : كان تبع رجلًا صالحًا ، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه . وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سهل الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ : « لَاتَسبُّوا تُبَّعا فإنه كانَ قدْ أَسْلَمَ » .

وأخرج ابن عساكر وابن المنذر عن ابن عباس قال : (سألت كَعْبًا عن تُبَّعٍ ، فإننى أسمع الله - تعالى - يذكر فى القرآن قوم تبع ولا يذكر تبعا . فقال : إنه كان رجلًا من أهل اليمن مَلِكًا منصورًا ، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند ، فرجع فأخذ طريق الشام فأَسَرَ بها أحبارًا ، فانطلق نحو اليمن ، حتى إذا دنا من مكة طار فى الناس أنه هادم الكعبة ، فقال له الأحبار : ما هذا الذى تحدث به نفسك ؟ فإن هذا البيت لله ، وإنك لن تسلط عليه ؟ فقال : إن هذا لله - تعالى - وأنا أحق من حَرَّمه ، فأسلم من مكانه ، وأحرم فدخلها محرمًا ، فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعًا ، حتى إذا قدم على قومه ...) إلى آخر ما ذكره كعب فى هذا الأثر الطويل ، وخلاصة ما ذكره بعدُ أنه طلب من قومه أن يؤمنوا كما آمن فامتنعوا ، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم[1] .

والمعنى الإجمالى للآيات : كذب بالحق قبل قريش قومُ نوح ، مع أنه كان ينصحهم ويطلب منهم الإيمان به ، كما كذب به أصحاب الرَّسِّ[2] ممن بعث إليهم شعيب ، أو هم قوم حنظلة ابن صفوان ، وكذبت به ثمود قوم صالح وعادٌ قوم هود وفرعون وقومه ، وقوم لوط وأصحاب الأشجار المجتمعة - الأيكة - وقوم تبع ، كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم فحق عليهم وعيدى وثبتت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا بعذاب استأصل كفارهم ، وفى الآخرة بعذاب ينتظرهم .

١٥ - (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى : أقصدنا خلقهم من تراب ثم من نطفة فعيينا وعجزنا عن تحقيق ما قصدناه وأردناه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة ؟ كلا لم نعجز عن خلقهم كذلك ، فلماذا ينكرون بعثنا إياهم

---

(١) انظر الآلوسى فى شرح قوله -تعالى- : « أهم خير أم قوم تبع » فى سورة الدخان ، وقد أطال الكلام فيه ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) أى : أصحاب البئر التى لم تبن .

بعد موتهم ، وهو فى القياس أهون من بدئهم ، إنهم معترفون بالخلق الأول صادرًا عنا فلا ينكرونه ، بل هم فى شكٍّ واضطراب من خلق جديد ، وهو إحياؤهم بعد موتهم لينال كل امرئ جزاء ما قدم من خير أو شر .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) : ماتحدثه به من الخواطر .

(حَبْلِ الْوَرِيدِ) : الحبل معروف ، والمراد بالوريد : عرق كبير فى العنق ، وأضيف الحبل إليه لإفادة أنه ممتد فى الجسم امتداد الحبل .

(الْمُتَلَقِّيَانِ) : هما ملكان جعلهما الله لكل إنسان ، ليكتبا أعماله من خير أو شر عن اليمين وعن الشمال .

(قَعِيدٌ) أى : كلا الملكين ملازم له ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله (رَقِيبٌ عَتِيدٌ) : ملك حاضر مهيأ يرقب أقواله وأعماله ويكتبها .

التفسير

١٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) :

الوسوسة لغة : الصوت الخفى ، ومنه وَسْواس الحُلِىّ ، (أى : صوت احتكاك بعضه ببعض) وما توسوس به نفسه : ما يخطر بباله من الخواطر الخفية المختلفة .

والمراد من قربه - تعالى - من العبد أكثر من حبل الوريد أنه - سبحانه - أعلم بحاله سِرًّا أو علناً ، فهو أقرب إليه بعلمه من حبل الوريد الذى يمتد فى عنقه ، وليس المراد منه القرب الذاتى ، لأنه - تعالى - ليس له مكان ، فهو من باب التمثيل والتشبيه ، وليس من باب الحقيقة .

وعن الأَثْرم أنه يقال : فى العنق الوريد ، وفى القلب الوتين ، وفى الظهر الأبهر ، وفى الذراع والفخذ الأكحل والنَّسا ، وفى الخنصر الأسلم : انتهى .

وبالجملة فحبل الوريد مَثَلٌ فى شدة القرب ، وإضافة الحبل إليه للبيان كشجر الأَراك .

١٧ - (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) :

لفظ (إِذْ) ظرف بمعنى حين ، متعلق بلفظ (أَقْرَبُ) فى الآية السابقة ، أو مفعول لفعل مقدر تقديره : اذكر ، والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان يكتبان أعماله وأقواله فى كتاب يتسلمه يوم القيامة ، فيعلم منه أنه من الناجين إن تلقاه بيمينه ، أو من أهل النار إن تلقاه بشماله أو من وراء ظهره - أعاذنا الله من ذلك - .

وعِلْمُ العبد بكتابة أعماله مع علمه بأنه -تعالى- أعلم بحاله مما يحمله على إحسان العمل ،

وقوله - تعالى - : (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) معناه عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف قعيد من الأول لدلالة الثانى عليه ، والمراد من قعود الملك ملازمته للعبد للكتابة .

١٨ - (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) :

أى : أن أقوال العباد من خير أو شر أو غيرهما يكتبها ملك ملازم له يرقبها ويسجلها فى صحيفته ، فإن كانت خيرًا كتبها الرقيب الذى عن يمينه ، وإن كانت شرًّا كتبها

الرقيب الذى عن يساره ، وتخصيص القول بالذكر للإيذان بأن الفعل الذى هو أظهر من القول يكتب أيضاً من باب أولى ، وقال اللقانى فى شرح الجوهرة : مما يجب اعتقاده أن لله - تعالى - ملائكةً يكتبون أعمالَ العباد من خير أو شر أو غيرهما ، قولا كانت أو فعلا أو اعتقادًا ، همًّا كانت أو عزما ... إلخ وقال الإمام مالك وجماعة : يكتبان كل شىء حتى الأنين فى المرض.

والمعنى الإجمالى لهذه الآيات : ولقد خلقنا الإنسان جسدًا وروحاً وعقلا ، ونعلم ماتحدثه به نفسه من الخواطر خيرًا كانت أو شرًّا ، ونحن أقرب إليه علماً من حبل الوريد فى عنقه - نحن أقرب إليه - حين يتلقى الملكان المتلقيان أحوال العبد الظاهرة والخفية ليسجلاها فى صحيفة أعماله ، وهذان الملكان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، ما ينطق من قول إلا عنده مراقب ملازم له من الملكين الموكلين به ، يكتب ما يصدر عنه من الأقوال وكذا الأفعال والنوايا .

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾)

المفـــردات :

(وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) : وأحضرت شدة الموت حقيقة ماكتبه الله على عباده من الموت الذى يليه البعث والجزاء .

(تَحِيدُ) : تميل وتعدل .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) : ونفخ فى البوق .

(مَعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) : من الملائكة .

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ) : فكشفنا عن عقلك الحجاب الذى سببته الغفلة .

(فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) : فبصرك اليوم حاد ونافذ .

التفسير

١٩ - (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) :

بعد ما ذكرت الآيات إنكار المشركين للبعث ، وأثبتت بأقوى الحجج أنه سيحصل . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين لهم أن هذا الذى أنكروه سيلقونه حقًّا .

وسكرة الموت : مايحدث للمرء وهو مشرف على الموت من شدائد حتى تخرج روحه من بدنه .

والمعنى : وجاءت شدة الموت بحقيقة الموت الذى يبعث بعده الخلائق للجزاء ، ونبهت إليها رسل الله جميعاً ، ذلك الحق هو الذى كنت تميل وتنصرف عن التفكر فيه أيها الكافر ، لشدة غفلتك وعمق غوايتك .

٢٠ - (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) :

الصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والله أعلم بحقيقته وحقيقة النفخ فيه ، ولإسرافيل نفختان فى الصور كما جاءت به السنة ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية يبعث عندها الموتى - وهى المرادة هنا - وهذه الآية معطوفة على ما قبلها لبيان مايحدث بعد الموت .

والمعنى : ونفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث ، وقتُ ذلك النفخ يومُ إنجاز الوعيد الذى توعد الله به الكفار فى الدنيا .

٢١ - (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) :

وجاءت كل نفس من نفوس الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، معها ملكان : أحدهما يسوقها إلى المحشر سَوْقاً مُنَاسِباً لعمل المَسُوق ، بحيث يكون برفق للمؤمنين ، وبشدة للكافرين .

جاء فى الحديث مرفوعاً عن جابر أن أحدهما : ملك الحسنات ، وثانيهما : ملك السيئات اللذين كانا يكتبان أعمال العباد فى الدنيا ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقيل : غير ذلك فارجع إليه فى المطولات إن شئت .

٢٢ - (لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) :

هذه الآية استئناف مبنى على سؤال مقدر نشأ مما قبلها ، كأنه قيل : فماذا يكون بعد النفخ ومجىء كل نفس معها سائق وشهيد ؟ فقيل : يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التى لم يصدق بها فى الدنيا - من البعث وما بعده - يقال له : لقد كنت فى غفلة من هذا الذى تعاينه ، فكشفنا عنك الآن الحجاب الذى غطى عليك أمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى أمور الدنيا وحدها ، فبصرك اليوم نافذ لزوال المانع للبصائر فى الدنيا عن إدراك ما بعد الموت .

(وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(قَرِينُهُ) : شيطانه المقارن فى الدنيا .

(هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) : هذا ما عندى مُعَدٌّ ومهيأٌ لجهنم .

(عَنِيدٍ) : مبالغ فى العناد .

(مُرِيبٍ) : شاك فى الله - تعالى - أو فى البعث .

التفسير

٢٣ - ٢٦ - (وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) :

لكل إنسان شيطان مقارن له ومصاحب فى الدنيا ، يمتحنه الله بوسوسته ، فإن عصَاه دخل الجنة ، وإن أطاعه دخل النار ، جاء فى الحديث : « مَا مِنْ أَحدٍ إلا وقدْ وُكِلَ به قرينه من الجنِّ ، قالوا : ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : ولَا أنا إلَّا أن اللهَ - تعالى - أعانني عليْهِ فأَسْلمَ فلا يَأْمرُنى إلا بِخَيْر » .

والمعنى : وقال الشيطان المقارن للكافر : هذا الإنسان هو ما عندى وتحت إغوائى ، عتيد أعددته لجهنم وهيأته لها بإغوائى فاستحقها .

قال الله -تعالى- مخاطباً للملكين السائق والشهيد : اطرحا فى جهنم كل مبالغ فى الكفر للمُنْعِمِ ونعمته ، مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مبالغ فى منع الخير والبر عن الناس فلا يتصدق على محتاج للصدقة ، معتد ظالم للحق متجاوز له ، شاك فى دين الله وفى البعث الذى أشرك بالله فجعل معه إلهًا آخر ، فألقياه أيها الملكان فى العذاب الشديد .

حاشية

جملة (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) خبر عن (الَّذِي) وجاءت الفاء فى خبره لأنه فى معنى الشرط ، وقيل : فى الكلام تقدير ، أى : فيقال فى حقه : ألقياه فى العذاب الشديد ، ويلاحظ أن قوله -تعالى- : (فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) فيه تكرار لقوله سابقاً : (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) والغرض منه التوكيد كما فى قوله -تعالى- : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٨

* (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(قَرِينُهُ) : الشيطان المقيّض له .

(مَآ أَطْغَيْتُهُ) : ما حملته على الفساد والطغيان .

(ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : مغرق طويل مجاف للحق .

(قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ) : عذرت إليكم.

(بِالْوَعِيدِ) : بالإنذار والتخويف من عاقبة العصيان والطغيان .

(مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ) : ما يغير القول عندى .

التفسير

٢٧ - (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) :

كلام مستأنف استئناف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول على تقدير أنه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله - تعالى - : (رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ) كأن العبد الكافر قال : قرينى أطغانى وحملنى على العصيان والضلال ، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الضلال إليه .

ولهذا الاستئناف تجرّدت الجملة عن العاطف بخلاف الجملة فى قوله - تعالى - :(وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَالَدَىَّ عَتِيدٌ) فإنها قرنت بالعاطف لتدلّ على الجمع بين مفهوميها فى الحصول وهو مجىء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ، والقرين هنا الشيطان المقيّض له .

والمعنى : قال الشيطان المقيض للكافر ، المقارن له والموكل به - ذا على إنكاره - : ربَّنَا ما أوقعته في الطغيان ، ولا حملته على الضلال قسرا واستكراها ، ولكن كان هو فى ضلال بعيد عن الحق ، مغرق فى العناد والفساد ، فأعنته عليه بالإغراء والإغواء من غير قسر ولا إلجاء فهو كقوله-تعالى- : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي »[1].

٢٨ - ٣٠ - (قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ) :

استئناف آخر مبنى على سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : ماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال -عزَّ وجلَّ- : (لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ) .

والمعنى : لايخاصم بعضكم بعضاً عندى فى موقف الحساب والجزاء فإن ذلك لن يفيدكم ، ولا يغنى عنكم شيئاً ، وقد قدمت إليكم ، وأعذرت بالوعيد والتخويف ، والتحذير من عاقبة الطغيان فى الدنيا ، على ألسنة رسلى ، وفى كتبي المنزلة عليهم فلم تسمعوا ، ولم تطيعوا فلا تطمعوا فى الخلاص مما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة ،وقد علمتم ما قدمت وما أعذرتكم به ، ومن جملته ما قلته لإبليس : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ »[2] فاتبعتموه معرضين عن الحق ، مغرقين فى الكفر والضلال .

وقوله-تعالى- : (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) فضٌّ لخصومتهم ،وقطع لرجائهم ، معناه : لايقع عندى تبديل ولا تغيير لما قررناه وأردناه وقدمناه فى دار الدنيا من أنى أعاقب من جحدنى ، وكذَّب رسلى ، وخالفنى فى أمرى لا يُبَدَّل من ذلك شىء بغيره وقوله- تعالى- : « وَمَآ أَنَاْ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » وارد لتحقيق الحق على أبلغ وجه ، ولتبيين أن عدم التبديل للقول وتحقيق موجَب الوعيد ليس من جهته-تعالى-من غير استحقاق له منهم ، بل إنما ذلك لما صدر منهم من الجنايات الموجبة له .

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم ، وهو لا يكون منه . ويجوز أن يكون لرعاية جميع العبيد من قبيل قولهم : فلان ظالم لعبده ، ظلَّام لعبيده . وقيل إن فَعَّالاً تأتى بمعنى فاعل أى : وما ربك بظالم لعبيده.

(١) سورة إبراهيم من الآية ٢٢ .
(٢) سورة ص ، الآية : ٨٥

وقوله ـ تعالى ـ : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ...) إمَّا مرتبط بقوله ـ تعالى ـ : (وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) ويوم : ظرف معمول لظلام ، وإما مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكرْ لهم يوم . .

وهو سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمر جهنم وأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يُطرح فيها من الجِنَّة والناس فوج بعد فوج حتى تمتلىء ، أو أنَّهَا من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعدُ محلّ فارغ ؟ أو أنها لغيظها على العصاة ، وحنقها منهم تطلب زيادتهم .

والمعنى : وما أنا بظلام للعبيد يوم نقول لجهنم هل امتلأْت ، أو : اذكر يا محمد وأنذر بهذا اليوم الآتى لامحالة يوم نقول لجهنم وقد دفعت إليها أفواج الكافرين الضالين : هل امتلأْت ؟ وتقول بعد امتلائها : هل بقى من موضع لم يمتلىء ؟ ـ تعنى : قد امتلأْت ـ ، أو أنها تستزيد وفيها موضع للمزيد .

هذا ، ويجوز أن يكون الكلام على تحقيق القول من جهنم ، وهو غير مستنكر ؛ فإنه ـ تعالى ـ سوف ينطق الجوارح فتشهد على صاحبها ، والإذن لها بنفسين ، ونحن متعبدون باعتقاد الظاهر مالم يمنع مانع ، ولامانع هنا فإن القدرة صالحة والعقل مجوّز ، وأمور الآخرة لا ينبغى أن تقاس بأمور الدنيا .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل مِنْ مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط . قط . وعزتك وكرمك ، ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسلكهم فى فضول الجنة » وليس المراد بقدم الله حقيقة ، فإنه ـ تعالى ـ لا يشبه الحوادث ، ولكنه كناية عن أن النار ذليلة لأمره ، وفسره بعضهم بأنه ـ تعالى ـ يضع فيها من يقدمهم للنار ، قال ابن الأثير : قدمه ، أى : الذين قدمهم لها من شرار خلقه ، فهم قَدَمُ الله ـ تعالى ـ للنار ، كما أن المسلمين قدمه للجنة ، والقدم : كل ما قدمت من خير أو شرّ . وقيل : وضع القدم أو الرجل مثل للردع والقمع ، فكأنه قيل : يأْتيها أمرُ الله فيكفّها عن طلب المزيد .

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(أُزْلِفَتْ) : دنت وقربت للمتقين .

(أَوَّابٍ) : رجّاع إلى الله .

(حَفِيظٍ) يحفظ توبته من النقض أو يحفظ ذنوبه ليرجع عنها ويستغفر منها .

(خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ) : خاف عذاب الرحمن .

(بِالْغَيْبِ) أى : خاف الرحمن وهو لايراه ، أو خاف الرحمن وهو فى خلوته بعيدًا عن الناس فلا يراه أحد .

(مُنِيبٍ) : راجع إلى ربه .

التفسير

٣١-٣٣ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) :

هذه الآيات شروع فى بيان حال المتقين عند النفخة الثانية للصور ، ومجىء النفوس إلى موقف الحساب بعد عرض حال الكافرين ، والأظهر فيه أنه عطف على (وَنُفِخَ فِى الصُّورِ)

والمعنى : وأدنيت الجنة وقربت للمتقين الذين وقوا أنفسهم من الكفر ، وتحاشوا المعاصى ، وقاموا على اتباع الأوامر واجتناب النواهى فاستحقوا أحسن الجزاء ، وأوفر النعيم فى جنات تجمع كل أنواع المتاع من الأنهار والأشجار ، وطيب الثمار ، ومن الأزواج الكرام ، والحور الحسان ، والخدم من الولدان . وهى قريبة منهم فى مكان غير بعيد بحيث يشاهدونها ، ولا يلحقهم تعب أو ضرر ولا مشقة فى الوصول إليها ، أو المراد حصول هذا لهم غير بعيد لأنه آت لا محالة ، وكل آتٍ قريب .

وقوله - تعالى - : « هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ » إشارة إلى الجنة ، أى : هذا الذى ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب على ألسنة الرسل لكل رجّاع إلى الله عائذ به مراقب له لا يغفل عن ذكره ، ولاينام عن طاعته ،حفيظ لعهده أن ينتقض ، ولتوبته أن تنتكس ، حافظ لذنوبه حذرًا أن يقع فيها مرة أخرى مستغفرًا منها ، فهو أبداً مع الله ندماً على ما فرط فيه فى ماضيه ، وعزماً على الاجتهاد فى عمل ما يرضيه ، روى عن ابن عباس ، وسعيد بن سنان ، وقريب منه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن يونس بن خباب قال : قال لى مجاهد : « ألا أُنبئكَ بالأوّاب الحفيظِ ؟ هو الرجلُ يذكُرُ ذنبه إذا خَلا فيستَغفرُ اللهَ - تعالى - منه » .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير : كنّا نعد الأوّاب الحفيظ الذى يكون فى المجلس فإذا أراد أن يقوم قال : اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقوله - تعالى - : (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) زيادة فى الإيضاح والبيان لمعنى الأوّاب الحفيظ .

والمعنى : هذا الجزاء الموفور ، والنعيم المذكور لمن اشتد خوفه من ربّه ، وعظمت مراقبته لخالقه كأنه يراه أو يخشى ربّه ويراقبه فى خلوته وَغيبته عن أعين الناس حياءً من الله .

والمعنى فى قوله - تعالى - : (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) أَنَّهُ يداوم ذلك ، ويقيم عليه حتى يوافيه أجله فيلقى الله بقلب عاش مقبلا على طاعته ، طامعاً فى رحمته . مؤمنا بعاقبته وأوبته حتى أتى الله بقلب سليم .

٣٤، ٣٥ - (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) :

هذا على تقدير القول ، أى : يقال لهم : ادخلوها ، والمعنى : ادخلوا أيها المتقون الأوابون المنيبون ادخلوا الجنة ، واستمتعوا بنعيمها بأمان من كل مكروه ، وسلامة من كل آفة ، وسلام من الله وملائكته عليكم ، ذلك يوم الإقامة الدائمة التى لا ينقطع مداها ، ووقت الخلود الذى تعيشون فى نعيمه بلانهاية ، ولا يستكثر ذلك على أهل الجنة فلهم كل ذلك ، ولهم مايشاءون من صنوف المطالب ، وألوان النعم كائنا ما كان ، فعند الله كل ما يشتهون ، ولديه الزيادة على ما يستشرفون مما لايخطر لهم على بال ، ولا تدركه مشيئتهم من معالى الكرامات ، ومجالى الخيرات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ومع أن لهم ما يشتهون فى الجنة ، فعند الله مزيد عليه مما لا يخطر على بال .

وقال أنس وجابر : المزيد : النظر إلى وجه الله -تعالى- بلا كيف ، وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبى ﷺ ، منها ما أخرجه الديلمى عن علىٍّ - كرم الله وجهه - عن النبى ﷺ فى قوله -تعالى- : (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) قال : « يتجلى لهم الرب -عز وجل- » إلى غير ذلك من الأحاديث .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(بَطْشًا) : قوة وشدة ومنعة .

(نَقَّبُوا۟) : جالوا فى أقطارها ، وساروا فى نواحيها وطوفوا .

(مَحِيصٍ) : مهرب وملجأ يلجأون إليه .

(أَلْقَى السَّمْعَ) : تنبّه وتيقظ .

(شَهِيدٌ) : فَطِنٌ غير متغافل .

التفسير

٣٦ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ) :

هذه الآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ ، وتطمين لقلبه ببيان أن مشركى قريش لن ينالوا منه شيئًا ولن يخلصوا إليه بسوء ، وأن قوة الله التى أهلكت قبلهم قرونًا كانت أشد منهم بطشًا ، وأقوى منعة فوق قوتهم وجبروتهم ، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من سبقوهم من الطغاة المتجبرين .

والمعنى : وكثيرًا أهلكنا قبل مشركى مكة والمنكرين من أهلها من أهل القرون السابقة من هم أشد منهم بطشًا ، وأعتى قوة ، وأعزّ منعة أمثال عاد وثمود وأضرابهم الذين ملكوا البلاد ، وعاثوا فيها الفساد ، واستبدوا بالعباد ، وساروا فى أقطار الأرض ، وجاسوا خلالها ، وجابوا أقطارها ، فما أفادوا من ذلك ، ولا ظفروا بمهرب من الهلاك ، ولا بمعدل عن الموت ، ولا وجدوا إلا الحسرة والتساؤل (هَلْ مِن مَّحِيصٍ ؟) هل من مهرب نهرب إليه من الهلاك ؟

٣٧ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) :

أى : إن فى ذلك الإهلاك ،أو فى ذلك المذكور من أول السورة من الآيات والمشاهد والأخبار لعظة بالغة ، وعبرة رادعة لكل من له قلب وعقل واع يعقل مايقال ، وينتفع به ، ويدرك كنه مايشاهده ، ويوقظ سمعه ، ويلقيه لكل مايوجّه إليه فيجتمع له من سلامة القلب وإلقاء السمع مايحقق له النفع ، والوقوف على جلية الأمر وهو شهيد وحاضر بفطنته ويقظته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾)

المفـردات :

(لُغُوبٍ) : تعب وإعياء .

(أَدْبَارَ) : أعقاب الصلاة ، جمع دُبُر ، ويطلق على الظهور أيضًا ، قال ـ تعالى ـ : « لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » .

(الصَّيْحَةَ) : المرّة من الصوت الشديد ، والمراد بها نفخة البعث .

(يَوْمُ الْخُرُوجِ) : يوم الخروج من القبور للبعث ، وهو من أسماء يوم القيامة .

التفسير

٣٨ ـ (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) :

استئناف كلام آخر لتأكيد ما قبله بتقرير قدرته ـ تعالى ـ على خلق السموات والأرض ، وتمهيد لمـا بعده ببيان أن القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه أمر من أمور الدنيا والآخرة .

قيل : إن هذه الآية تكذيب لليهود فى زعمهم أن الله ـ تعالى ـ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وجعلوا هذا اليوم للراحة عندهم .

والمعنى : ولقد خلقنا السموات والأرض ومابينهما من أصناف المخلوقات ، وأنواع الكائنات فى ستة أيام ، وما أصابنا من تعب ولا إعياء مع قلة الزمن ، وضخامة هذه الأجرام ، وتعدّد أنواعها وأشكالها ، واختلاف أحوالها ، وتباين حركاتها ، وذلك ممّا لا تفى بإحصائه القوى والقدر ، فضلًا عن إيجاده .

٣٩ ، ٤٠ - (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) :

تتجه الآيات إلى تسلية الرسول ﷺ والترويح عنه بطلب الإعراض عن أقوال المشركين واليهود ، والالتجاء إلى الله بالتسبيح والحمد .

والمعنى : إذا كان أمرنا فى القدرة كما ترى فى خلق السموات والأرض ومابينهما فى أقل زمان وفى غير إعياء ولا نصب ، فاصبر يا رسول الله على مايقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد ، فإن من قدر على خلق العالم بهذه الصفة قادر على بعثهم ، وعلى الانتقام من المنكرين والمستبعدين .

أو : فاصبر على مايقوله اليهود من مقالة الكفر والتشبيه، أو : فاصبر على كل ما يقال من هؤلاء وهؤلاء ، ومهما يكن فإن هذا متصل بقوله - تعالى - : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) تسلية للرسول ﷺ ، ومدخلًا لقوله - تعالى - : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى : قدس ربك وسبح بحمده ونزّهه عن كل مايقوله هؤلاء وهؤلاء ، وعن العجز وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الإخبار بالبعث ، وعن وصفه - تعالى - بما يقتضى التشبيه نزّهه عن هذا كلّه ، وعن كل مالا يليق بذاته حامدًا له ما أنعم به عليك من إصابة الحق ، مداومًا على هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، وهما وقتا العصر والفجر لأفضليتهما ، وقد نوّه القرآن الكريم بفضلهما فى قوله - تعالى - : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا »[1] ، وفى قوله - تعالى - : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٧٨

الْوُسْطَىٰ »[1] وهى العصر على رأى كثير من المفسرين ، ومن فضل هذا الوقت أيضًا القسم به فى قوله - تعالى - : « وَالْعَصْرِ » .

وقوله - تعالى - : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ) معناه :وسبحه بعض الليل وفى جزء منه ، ولعل المقصود به السَّحَر ، فإنه الوقت المفضل للتهجد والتسبيح والاستغفار ، وأعقاب السجود أى : آخر الصلاة بعد انقضاء السجود والسلام .

وهذا بناء على تفسير التسبيح بالتقديس والتنزيه والذكر - فإذا فسّر التسبيح بالصلوات الخمس كان المراد بما (قبل الطلوع) الفجر ، وبما (قبل الغروب) الظهرَ والعصرَ ، وبـ (ومن الليل) العشاءين والتهجد وما يُصَلَّى بـأدبار السجود من النوافل بعد المكتوبات .

٤١ - (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) :

أى : واستمع - يا أيها الرسول- أخبار ما يوحى إليك من أحوال يوم القيامة يوم ينادى المنادى فيقول : أيتها العظام البالية ، واللُّحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء .

قيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالحشر ، وفى هذا الأمر تهويل وتفظيع لأخبار هذا اليوم .وقوله : من مكان قريب معناه :من مكان يسمعه الخلائق كلهم على حال واحدة فلا يخفى على أحد قريب أو بعيد ، فكأنهم نودوا جميعا من مكان قريب . قيل : من صخرة فى بيت المقدس ، وقيل : من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم . والتعبير القرآنى فوق كل بيان .

٤٢ - (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) :

تتصل هذه الآية بقوله - تعالى - : (وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِى الْمُنَادِ) أى : استمع يوم ينادى المنادى يوم يسمعون نفخة البعث ناطقة بالحق الذى طالما أنكروه ، وكذبوا أخباره وهو البعث الذى يسمعون النداء به حقا واقعًا ، وحقيقة ماثلة ، ذلك يوم الخروج الذى

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨

يخرج به الموتى من قبورهم لملاقاة جزائهم . و يجوز أن يكون المعنى : ذلك النداء نداء يوم الخروج من القبور - ويوم الخروج - اسم من أسماء يوم القيامة .

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾)

المفـــردات :

(ٱلْمَصِيرُ) : المرجع للجزاء فى الآخرة .

(سِرَاعاً) : مسرعين .

(حَشْرٌ) : جمع بعد البعث .

(يَسِيرٌ) : سهل هيِّن .

(بِجَبَّارٍ) : بمتسلط قهار .

(فَذَكِّرْ) : فخوف وحذر .

التفسير

٤٣، ٤٤ -(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) :

يخبر الله - سبحانه وتعالى - فى هذه الآية عن نفسه .أنه هو القوى القادر الذى يحيي الخلق فى الدنيا بعد أن كانوا عدماً ، ثم يميتهم بعد استيفاء أجلهم بعد أن كانوا أحياء ، ثم يبعثهم من قبورهم بعد أن صاروا تراباً ، وذلك بقوله مؤكدًا :(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ) أى : إنا نحن نحيي ونميت فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ،وإلينا المصير ، أى :

وإلينا وحدنا الرجوع للجزاء فى الآخرة لا إلى أحد غيرنا استقلالا أو اشتراكاً، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً: يتعلق الظرف بقوله: (وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) أى: وإلينا المرجع والمآب يوم تتصدع الأرض، وتنشق عن أجسامهم البالية فيخرجون منها مسرعين إلى الداعى بلا توان ولا تأخير، (ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) أى: ذلك الحشر، وهذا الجمع هين علينا يسير مع شدة التفرق، وتباعد القبور وتناثر الأشلاء أو تحولها إلى تراب، لا يشق علينا، ولايقدر عليه غيرنا.

٤٥ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ):

هذه الآية تختم سورة (ق) بما يسلى الرسول ﷺ ويسرى عنه همَّه، ويهدد المشركين ويحذرهم عواقب الكفر والتكذيب.

والمعنى: نحن أعلم بما يقول هؤلاء الكفار من نفى البعث، وتكذيب الآيات الناطقة به، وغير ذلك مما لا خير فيه، فلا تعبأ بقولهم، ولا تبتئس من أحوالهم، فما عليك إلَّا البلاغ وما أنت عليهم بمتسلط تقهرهم على الإيمان، وتقسرهم على التصديق، ولا من مهمتك ذلك (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) أى: فحذِّر وخوِّف بالقرآن من يخاف العقاب ويخشى العذاب فيسمع لك، ويستجيب لدعوتك إشفاقاً من الوعيد، ورجاء فى الوعد، وطمعاً فى رحمة الله . . .

« سورة الذاريات »

سورة الذاريات مكّية ، وآياتها ستون آية باتفاق ، وقد بدأت بالقسم على تحقيق الوعيد الذى ختمت به السورة قبلها لرعاية التناسب بين ختام السورة السابقة وابتداء السورة اللاحقة .

مقاصد السورة :

ابتدأ الله – سبحانه وتعالى – السورة الكريمة بالقسم على صدق البعث وتحقيق وقوعه ، ووقوع الجزاء ـ أقسم سبحانه – بمخلوقات من مخلوقاته لها آثارها الواضحة ، وظواهرها الشاهدة ، ومنافعها التى لا ينكرها أحد ، ولا يجحد عقلٌ فضلها على الإنسان والحيوان ، والنبات ، فإن الرياح تسوق الأمطار إلى جميع الأقطار ، وتدفع السفن فى البحار تحمل الأمتعة والأثقال والمسافرين ، وتمخر عباب البحار ، فتسهل كل صعب وتقرب كل بعيد ، كل هذا مما يقع تحت العيان ، ولا يستطيع أن ينكره إنسان ، كما أن ما يتفاوت الناس فيه من أحوال وما يجرى عليهم من أحداث ، وما يختلفون فيه من منازل وأرزاق مما يكون فى الأبناء دون الآباء ، أو فى الآباء دون الأبناء ، أو يحظى به العاجز الضعيف ، ولا يدركه المتجبر العنيف ، لا يكون إلّا بتقدير ، وبتسخير من الحكيم الخبير .

وبعد أن تؤكد الآيات أمر البعث والجزاء تكشف حال المنكرين للبعث والجزاء ، وتسفه أقوالهم فى الدنيا ، وتصور مآلهم فى الآخرة : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ . ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) .

ثم تخلص الآيات من هذا وذاك إلى المتقين فتشيد بما ينتظرهم فى الآخرة من جميل النعيم فى جنّات وعيون ، لقاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا من طاعة الله ، والسهر فى عبادته ، والإنفاق الدائم فى سبيله ، متوخين الإحسان فى كل أعمالهم ، وسائر أحوالهم : (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن دلائل القدرة ، بأقوى ما يشد الانتباه ، ويثير الفكر من نظر الإنسان فى نفسه ، وما أودع فيه من عجائب الصنع ، وبدائع الخلق ، وتفكره فيما يحوى هذا الكون فى سهوله ووهاده فى أرضه وسمائه ، وما يقدّر على الإنسان من أرزاق تقضى بها حكمة الكريم الرزاق ، معقبة ذلك بما لا يدع مجالًا لمن ينكرون أو يتشككون : (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) .

ثم تستهدف الآيات غرضًا آخر فتذكر طرفًا من قصص الرسل والأنبياء ، وأحوالهم مع أقوامهم إعجازًا للقرآن الكريم بإخباره عن أحوال الغابرين ، وتسلية للرسول ﷺ بذكر ما جرى لإخوانه من الرسل السابقين .

واختصت هنا طائفة من الرسل اشتدت معاناتهم مع أممهم وأقوامهم ، فذكرت إبراهيم وموسى - عليهما السلام - وعرضت للأمم التى أوغلت فى الطغيان ، وأغرقت فى التجبر من أمثال عاد وثمود وقوم نوح ، فلاقت أشد النكال وأسوأ المآل .

ثم عرضت الآيات إلى الحديث عن مظاهر القدرة ببناء السموات وامتدادها ، وفرش الأرض وبسطها وتمهيدها ، وتعدد المخلوقات وازدواجها مما لا يتحقق إلا بقدرة لا يقادر قدرها ، وحكمة لا يدرك كنهها ، ويقين يدفعنا إلى صدق الإيمان ، ويسوقنا إلى الفرار إلى الله ، والاعتماد عليه دون سواه .

ثم تختم السورة بالغرض الأسمى ، والمقصد الأعلى ، والغاية العليا من خلق الإنسان والجان ، وهى توحيد الله - تعالى - وعبادته : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ثم تهدد الكافرين بسوء المصير : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(الذَّارِيَاتِ) : الرياح تذرو الغبار وغيره .

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا) أى : فالحاملات السحب المثقلة بمياه الأمطار .

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) : فالسفن التى تجرى فى البحار والأنهار فى يسر وسهولة .

(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) : فالملائكة التى تنفذ أوامر الله وقضاءه .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) : إنما البعث الذى توعدونه لصادق .

(وَإِنَّ الدِّينَ) : الجزاء يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ) : حاصل .

التفسير

١ - ٦ - (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) :

اختتمت سورة (ق) بالتذكير بالوعيد ، والتخويف من وقوعه . وافتتحت سورة الذاريات بتأكيد خبره ، وصدق وقوعه إبداعًا فى الإعجاز ، وإحكاما للتنسيق بين السورتين .

والمعنى : أقسم بالرياح التى تذرو الغبار ،وتطيّر التراب والرمال ، وتهب بين الزروع فتلقح الأشجار ، وتدفع السفن فى البحار والأنهار ، وتسوق السحب إلى حيث يشاءُ الله بالأمطار ، وأقسم بالسحب المثقلة الموقرة بالمياه التى تفرغها فى الفيافى والقفار ، وتجرى بها القنوات والأنهار ، فيشربها الإنسان والحيوان ، ويُروى بها الزروع والأشجار ، ويعيش عليها جميع الكائنات ، وأقسم بالسفن التى تمخر عبابَ المياه فى يسر ورخاءٍ تحمل الأمتعة والأحمال ، وتعين على الترحل والانتقال ، وتمكّن من الانتفاع بخيرات البحار ، وتربط بين الأقطار ، فى أمن وسلامة من البحار وأمواجها ، وأقسم بالملائكة تنزل بأوامر الله وأقضيته فتجريها على الخلق كلّ بما قدر له رزقًا وحرمانًا وإحياءً وإماتةً ، وإقامة وسفرًا ، وصحة ومرضًا ، وإنجابًا وعقمًا ، وغير ذلك ممّا يجرى على الإنسان بقضاء الله .

وقد ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسوله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكوّاء فقال : يا أمير المؤمنين ... ما معنى قوله ـ تعالى ـ : (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ؟) فقال على ـ رضى الله عنه ـ : الريح . قال : (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ؟) قال : السحاب . قال : (فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) . قال : السفن . قال : (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) قال : الملائكة ، ذكره ابن كثير ، ومثله فى الكشاف .

وقد أقسم الله بهذه الأشياء لكثرة ما فيها من المنافع ، والمشاهد الواقعة بين الناس بحيث لا ينكرها أحد ، ولما تتضمنه من الدلالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وتناهى قدرته ، وبدائع صنعته .

وفى هذا القسم إشعار بأن لله ـ تعالى ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وأنه يجوز للمخبر بأمر أو المتحدث عن شأن أن يقسم على صدقه ، وإن كان من القداسة أو المنزلة بحيث لا يتطرق إلى خبره شك تأكيدا للخبر ، واهتماماً بشأنه . وقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) هو المقسم عليه ، أى : إنّ الذى توعدونه من أمر البعث والثواب والعقاب والجنة والنار لصادق ثابت لا مجال فيه لريب ، وإنّ الجزاء على الأعمال لحاصل وواقع لا فوت منه ، ولا مفرّ عنه فافعلوا فعلكم ، وانتظروا جزاءكم .

(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(الْحُبُكِ) المراد من الحبك هنا : طرائق النجوم . وقال ابن عباس وغيره :ذات الخَلْق المستوى الجيد ، من قولهم : حبكت الشيء : أحكمته وأحسنت عمله .

(مُخْتَلِفٍ) : متخالف متناقض .

(يُؤْفَكُ عَنْهُ) : يصرف عنه .

(الْخَرَّاصُونَ) : الكذَّابون المقدرون مالا صحة له .

(غَمْرَةٍ) : فى لُجَّة تغمرهم من الجهل والضلال .

(يَوْمُ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، من : دِنْتُه ، أى : جازيته .

(يُفْتَنُونَ) : يعرضون على النار للحرق . وأصل الفتنة : عرض المعدن على النار لتظهر جودته ، ثم استعمل فى الإحراق .

التفسـير

٧ - ١٤ - (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) :

أكَّد القسم فى الآيات السابقة صدق البعث والقيامة ووقوع الجزاء ، ثم جاءت هذه الآيات وأنشأت قَسَمًا آخر يسفِّه عقول المشركين ويندد بغوايتهم وجهلهم فقال-تعالى- : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) .

والمعنى : وأقسم بالسماء ذات الطرائق المختلفة لمسيرة النجوم فى خَلْق مستو وزينة منتشرة فى نواحيها ، إنكم أيها المشركون لفى قول متخالف متناقض متدافع فتعتقدون وجود الله ، وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه ، وتقولون فى الرسول تارة : إنه مجنون ، وأخرى إنه ساحر أو شاعر ، والساحر لا يكون إلا عاقلًا حرِّيفًا ، والشاعر لا يكون إلا موهوبًا متصرفًا وتقولون فى شأن القيامة لا حشر ولا حياة بعد الموت ، وتزعمون أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتضاربة ، والآراء المتضادة .

ولعل النكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها ، واختلاف هيئاتها ،وقوله-تعالى- : « (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) معناه :يصرف عن القرآن أو عن الرسول ﷺ من صرف عن الخير إذ لا صرف أفظع وأشد منه ، وقيل : يصرف عنه من صرف فى علم الله وقضائه .

ويجوز أن يكون الضمير فى (عَنْهُ) للقول المختلف على معنى : يَصْدُر إفك من أُفِكَ عن القول المختلف وبسببه .

وقوله-تعالى- : (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) دعاءٌ عليهم كما فى قوله-تعالى- : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) وأصله الدعاءُ بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى لُعن ، أى : أُبعد الكذابون المقدرون لما لا يكون ولا صحة له عن رحمة الله ، وهم أصحاب القول المختلف الذين هم فى غمرة وشدة من الجهل والضلال غافلون ساهون عما أُمروا به : (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) أى : متى وقوع يوم الجزاء ؟ لا يقصدون بالسؤال استعلامًا ، ولكن يسألون سخرية واستبعادًا . وقوله-تعالى- : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) جواب لسؤالهم بما يسوءهم من الجزاء الذى لا محالة نازل بهم ، أى : يكون هذا الجزاءُ يوم يعذبون ويحرقون بالنار - قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أُدخل

النار قيل : فُتِنَ ، فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب لإظهار حقيقته ، ويقول لهم خزنة جهنم امتهانًا وتبكيتًا : ذوقوا فتنتكم وعذابكم بالإحراق ، هذا الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا تكذيبًا وإنكارًا قد وافاكم ، وحاق بكم فوقعتم فيه ، وعرفتم صدقه .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ) : قابلين ما أعطاهم ربهم راضين به .

(يَهْجَعُونَ) : ينامون . والهجوع : النوم ليلًا .

(الْأَسْحَارِ) : جمع سَحَر ، وهو الوقت الذى قبيل الصبح .

(حَقٌّ) : نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم .

(لِلسَّآئِلِ) : للمستجدى الذى يسأل الناس .

(الْمَحْرُومِ) : المحتاج المتعفف الذى لا يسأل الناس ، ولا يفطن أحد لحاله فيحرم الصدقة .

(آيَاتٌ) : دلائل واضحات .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ) :

انتقلت الآيات بعد شرح أحوال المشركين ، وعرض ما يستحقون من العذاب ، وما أعدَّ لهم من سوء الجزاء إلى وصف أحوال المتقين وما ينتظرهم من نعيم لقاء ما أخذوا به أنفسهم فى الدنيا من الإحسان ، وقاموا عليه من الطاعة والانهماك فى العبادة وبذل الصدقات ، فى سبيل الله عن رِضًا وسخاء .

والمعنى : إن المتقين الذين سلكوا الطريق السّوى فلزموا الطاعة ووقوا أنفسهم من مهالك الشرك ، ومهاوى المعاصى سيسعدون فى الآخرة بألوان مختلفة من النعيم فى جنات متعددة الأشجار والثمار ، تزيدها العيون الجارية فيها بالماء جمالًا وبهجة ، وتزيد المتقين نعيمًا ومتعة ، ويتلقون هذا النعيم راضين حامدين - وكيف لا يرضون وكل ما آتاهم حسن مرضى يُتَلقى بحسن القبول ، وعظيم الرضا والشكر ، فإن عملهم الصالح فى الدنيا لا يساوى شيئًا بجانب هذا النعيم .

١٧ ، ١٨ ، ١٩ - (كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

هذه الآيات بيان لأعمالهم الصالحة ، وتعداد لصور من إحسانهم . أى : ومن جملة إحسانهم أنهم كانوا يسهرون ليلهم فى العبادة ، ولا ينامون من الليل إلا قليلًا ، ومع طول السهر فى العبادة وقلة الهجوع كانوا يداومون الاستغفار فى السحر قبيل الفجر ، ويحرصون على ذلك فلا يفوتهم . قال الحسن : مدّوا الصلاة إلى الأسحار ، ثم أخذوا بالأسحار فى الاستغفار .

(وَفِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) : وفى أموالهم نصيب وافر استوجبوه على أنفسهم لكل محتاج مستعرض للمسألة أو متعفف لا يسأل أحدًا ولا يفطن الناس له فيحرم من الإحسان والصدقة . والمقصود من هذا الحق الصدقة ، لا الزكاة ، لأن السورة مكية والزكاة مدنية ، وقيل : المحروم هو الذى لا سهم له فى الغنيمة ، أو الغارم ، والأصل هو أن المحروم الممنوع الرزق لترك السؤال أو ذهاب المال أو غير ذلك مما يصير به الإنسان فقيرًا ولا يتعرض للمسألة .

وفرّق قوم بين الفقير والمحروم بأنه قد يحرمه الناس بترك الإعطاء وقد يحرم نفسه بترك السؤال ، فإذا سأل لا يكون ممن حرم نفسه بترك السؤال ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه ولم يحرمه الناس .

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ - (وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) :

فى هذه الآيات توجيه إلى التدبر فى آيات ومظاهر قدرته -تعالى- للانتفاع بذلك فى ترسيخ العقيدة ، وتعميق الإيمان ، فإن من ينظر فى آثار قدرة الله على الأرض التى تقلّه ، وفى نفسه وتكوين خلقه وجسمه ، وفى السماء التى تظلّه - إن من ينظر فى ذلك كله - يجد من دلائل القدرة ما يدعم الإيمان ، ويؤكد اليقين بالصانع الحكيم .

والمعنى : وفى الأرض التى تعيشون عليها ، وتمشون فى مناكبها دلائل على الصانع وحكمته وعلى الخالق وقدرته من حيث إنها كالبساط لما فوقها كما قال- تعالى - : « الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا[1] » وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها ، وهى متنوعة بين سهل وجبل ، وصلبة ورخوة ، وخصبة وسبخة ، ويتعدد فيها أنواع النبات وتسقى بماء واحد فتأتى بالثمار مختلفة ، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكل ، وكلها موافقة لحوائج الناس ومنافعهم فى صحتهم واعتلالهم ، وحلهم وترحالهم ، وفيها من العيون المتفجرة والمعادن

(١) سورة طه من الآية : ٥٣ .

المتنوعة ، والدواب المنبثة ، والحشرات المختلفة فى برها وبحرها المتعددة الصور والأشكال والحركات والأفعال من الوحشى والإنسى ، والنافع والمؤذى - فى هذا كله آيات للموقنين الموحدين الذين يلتمسون سبل الهداية والسلوك السوى الموصل إلى المعرفة ، فهم ينظرون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأولها فازدادوا إيمانًا على إيمانهم .

(وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أى : وفى خلقكم آيات ودلائل ، أى : وفى حال ابتداء خلقها ، وتنقلها من حال إلى حال ما تتحير فى تصوّره الأذهان - وحسبك بالقلوب - وما ركب فيها من عقول ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة ، وناهيك بما سوّى فى الأعضاء من المفاصل فإذا تعطل شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذّلّ ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله - تعالى - : (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) : أغفلتم فلا تنظروا فى أنفسكم فتبصروا هذا كلَّه بعين البصيرة وتقدروا نفعه لكم ، وآثاره فى حياتكم فيزداد إيمانكم ، ويعظم شكركم .

وهو تعنيف على ترك النظر فى الآيات الأرضية والنفسية .

(وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) أى : وفى السماء تقدير رزقكم وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من المطر ، والشمس والقمر والمطالع والمغارب التى تختلف بها الفصول فتختلف المحاصيل ، وتتنوع الأرزاق .

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالسماء السحاب ، وبالرزق المطر ، ومعنى قوله - تعالى - : (وَمَا تُوعَدُونَ) أى : الذى توعدونه من خير وشر ، وثواب وعقاب ، أو جنة ونار لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء .

٢٣ - (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) :

هذا القسم لتأكيد المقسم عليه وتحقيقه ، والأرجح فى ضمير (إِنَّهُۥ لَحَقٌّ) أن يكون راجعًا إلى كل ما تقدم من أول السورة .

والمعنى : فورب السماء والأرض إن كل ماتقدم فى هذه السورة من أخبار وأحوال ، وأوصاف وتذكير حقٌ واقع وأمر ثابت لايرق إليه شك ، ولايختلف فى أحقيته أحد ، وكما أنه لاشك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى ألا تشكوا فى حقيته ، فهو كما نقول : إن هذا حق مثل [1] أنك تبصر وتسمع .

روى عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابىّ على قعود له .

فقال : مَن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كتاب الرحمن . قال : اتلُ علىَّ ، فتلوت (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ...) فلما بلغت قوله – تعالى – : (وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) . قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على مَنْ أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى .

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف بالبيت ، فإذا بمن يهتف بى بصوت دقيق فالتفت فإذا هو الأعرابى قد نحل واصفر فسلّم علىَّ واستقرأنى السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : « قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » . ثم قال : وهل غير هذا ؟ « فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ... » فصاح وقال : يا سبحان الله . مَنِ الذى أغضب الجليل حتى حلف . لم يصدقوه بقوله : حتى ألجأوه إلى اليمين . قالها ثلاثًا ، وخرجت معها نَفْسُه .

---

(١) وكلمة مثل منصوبة على أنها صفة لمحذوف تقديره : إنه لحق حقا مثل ما أنكم تنطقون ، أو منصوبة على أنها حال ، وتوغلها فى الإبهام يمنع تعرفها بالإضافة ، ويصح أن تكون صفة لكلمة حق فى محل رفع ، وبنيت على الفتح لإضافتها لغير متمكن ، كما فى قوله تعالى : « لقد تقطع بينكم » .

(هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) الضيف : النازل على محلة قوم وليس منهم ، ويقال للواحد والجمع ، ويجمع على ضيوف ، وضِيفَان وأَضيَاف ، واختلف فى عددهم، قيل : ثلاثة ، وقيل : تسعة ، وقيل : اثنا عشر .

(مُنكَرُونَ) : مجهولون .

(فَرَاغَ) : مال فى خفية .

(فَقَرَّبَهُ) : قدّمه .

(فَأَوْجَسَ) : أحس فى نفسه .

(صَرَّةٍ) : صيحة وضجة .

(فَصَكَّتْ) : ضربت .

(عَقِيمٌ) : عاقر .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ) :

هذه الآيات شروع فى مقصد آخر من مقاصد هذه السورة يتمثل فى عرض طائفة من القصص والأخبار الصادقة ليتسلى بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ويتأسى بما لاقاه الأنبياء السابقون من عنت أقوامهم ، وعانوا من عنادهم وكفرهم وبما وقع للأمم التى أغرقت فى العناد وأسرفت فى الفساد ، وأمعنت فى الضلال والإضلال .

وقد بدأت هذا المقصد بحديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة ، واستهلته بالاستفهام المشوق إلى طرافة الحديث ، المؤذن بأنه حديث تستلذه الأسماع ، وتطيب بسماعه النفوس ، لأنه مما لا يعلمه الرسول إلا بطريق الوحى .

والمعنى : هل أتاك - أيها الرسول - حديث ضيف إبراهيم الذين استضافوه من الملائكة المكرمين عند الله فى المنزلة وفى شرف الوفادة ، وعند إبراهيم - عليه السلام - حيث قام على خدمتهم بنفسه وزوجه .

وقوله - تعالى - : (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) توقيت للحديث أى : هل أتاك هذا الحديث وقت دخلوا عليه بيته فبادروه بقولهم : نؤمنك أمانا ونسلم عليك سلاما حتى لايروعك ولا يخيفك دخولنا ، قال ردًّا عليهم : عليكم سلام دائم ، أو أمرى معكم سلام . وقوله : قوم منكرون ، أى : أنتم قوم مجهولون عندى لامعرفة لى بكم ، ولا عهد لى معكم ، والظاهر أن هذا خاطر حدَّث به نفسه ، لأنه ليس من كرم الضيافة أن يقول المُضيف مهما كان لمضيفه : أنا لا أعرفك فضلا عن أن يكون القائل إبراهيم ، المضياف الكريم .

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ - (فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) :

المعنى : فمال إلى أهله فور دخولهم عليه فى خفية منهم فإن من حسن أدب المضيف أن يبدأ ضيفه بالقرى ، وأن يبادره به حذرًا من أن يكفه ويمنعه ، أو يعذره أو يصير منتظرًا ، وقوله – تعالى – : (فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) أى : مكتنز لحماً وشحماً غير مهزول جاء به بسرعة .

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) أى : فقدم الطعام إلى الضيف وطلب إليهم تناوله بقوله : ألا تأكلون ؟ فهو بمثابة قولنا للضيف عند إحضار الطعام : تفضل لتناوله . ولم يقبل الضيف على الطعام ، ولم يتقدموا للأكل (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) فأحس فى نفسه خيفة وإشفاقا منهم ، وعرفوا ذلك منه (قَالُواْ لَا تَخَفْ) فقالوا له مطمئنين : لاتخف ، وكشفوا عن حقيقتهم (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) يشب ويكبر حتى يدرك مدارك الرجال ، ويصير من أهل العلم والمعرفة ، وهو إسحاق – عليه السلام – لقوله – تعالى – : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ[1] » والظاهر أن زوجه كانت تقف قريباً من إبراهيم وضيفه بحيث تسمعهم ولا يرونها ، فلما سمعت البشارة دهشت ، ونسيت ما ينبغى منها (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) أى : فأقبلت عليهم فى صيحة وضجة ، وضربت جبهتها بأصابعها على عادة النساء إذا سمعن أمراً عجيباً ، وقالت : أنا عجوز عاقر ، فكيف تتأتى هذه البشارة ؟ ! ! وكيف ألد ؟ ! !

٣٠ – (قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) :

قالت الملائكة : الأمر كما سمعت ، أو مثل ذلك القول الكريم قال ربّك ، وإنما نحن معبّرون بخبرك به – عنه تعالى – لا أنّا نقول ذلك من تلقاء أنفسنا ، إنّه هو الحكيم الذى يضع الأمر فى موضعه وضعاً متقنا ، العليم الذى يكون قوله حقاً لا محالة .

وقد تعددت رواية هذه القصة هنا وفى سورة هود وسورة الحجر ، واختلفت أساليبها فبرز فى كل واحدة من هذه الروايات جانب لم يظهر فى الموقع الآخر على أسلوب القصص القرآنى إذا تعددت رواياته .

---

(١) سورة الصافات الآية : ١١٢

* (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : فما شأنكم الخطير الذى جئتم من أجله .

(مُسَوَّمَةً) : مُعَلَّمة ، من السُّومة – بالضم – وهى العلامة ،أو مُرْسلة – من : أُسيمت الإبلُ فى المرعى إذا : أُرْسلتْ .

(لِلْمُسْرِفِينَ) : للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور .

(آيَةً) : عَلَامة دَالَّة على ما أَصابهم مِنْ عذاب .

التفسير

٣١ – (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

قال إبراهيم – عليه السّلام – لضيوفه المُكرَمين لَمَّا عَلِم أَنَّهُم ملائكة وهم لا ينزلون إلا بإذن الله لأَمر خطير ويفعلون ما يؤمرون : فما شأْنكم العظيم الَّذِى أُرسلْتم إليه غير البشارة بالغُلَام؟ وفيم جئتم ؟ .

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ – (قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) :

قالت الملائكة لإبراهيم : إنا أُرسلنا مِنْ قِبَل الله إلى قوم مُفْرطين فى العصيان ، وهم قوم لُوط ؛لنُلقى عليهم حجارة من طين لا يعلم كنهها إلّا الله ، وهذه الحجارة مُسَوَّمة ،أى :مُعَلَّمَة بما

يدل على أنها ليست من طين أرضنا ، وقيل : مُسوَّمة ، أى : مُرسلة ، مِنْ : أُسِيمَتِ الإبلُ إذا أُرْسلت من (عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) أى : أَنَّهَا مُعَدَّة فى علم الله للمُجاوزين الحدّ فى الفُجُور ، التَّاركين ما أحلّ الله لهم من الطَّيِّبات ، المُقبلين على ما حرّم الله من الخبائث ، حيث كانوا يأْتون الذُّكْران من العالمين مع كفرهم وشِرْكهم .

ووضع الظَّاهر موضع ضميرهم فى قوله ـ تعالى ـ : (لِلْمُسْرِفِينَ) ذمًّا لهم بالإسراف بعد ذمّهم بالإجرام وإشارة إلى علَّةِ الحكم .

٣٥ ، ٣٦ ـ (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) :

هذَا الكلام حكاية من جهته ـ تعالى ـ لِمَا جرى على قوم لُوط ـ عليه السَّلَام ـ بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ من الكلام ، والفَاءُ مُفْصِحَةٌ عن جُمَل لمْ تُذْكَر اكتفاءً بذكرها فى مواضع أُخَرَ ، كَأَنَّهُ قِيل : فقاموا من عنده وجاءوا لُوطا فجرى بينهم وبينه ماجَرَى ، فَبَاشروا ما أُمِرُوا به فذلك قوله ـ تعالى ـ : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : فأَخرجنا مَنْ كان فى قُرى قوم لُوط مِمّن آمن بِلُوط ـ عليه السَّلَام ـ فما وجدنا فيها غير أهل بيت من المُسْلِمِين ، والمراد بهم ـ كما أخرج ابن المنذر عن مجاهد ـ لوط وابنتاه ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جُبير أَنَّهُ قال : كانوا ثلاثة عشر . « آلوسى » .

واحتجّ بهذه الآية من ذهب إلى رأى المعتزلة الذين لا يفرقون بين الإسلام والإيمان لأَنَّه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ؛ لأَنَّ المعنى : فأَخرجنا مَن كان فيها مِن المؤمنين فلم يكن المُخْرَج إِلَّا أهل بيت واحد . وبهذا الرأى أخذ بعض أهل السنة ومنهم البخارى . قال ابن كثير : وهذا الاستدلال ضعيف ؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين . وعندنا : أَنَّ كُلَّ مُؤمن مُسْلم ولا ينعكس ، فاتَّفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال . اهـ : ابن كثير ص ٢٣٦ .

والوجدان فى قوله ـ تعالى ـ : (فَمَا وَجَدْنَا) معناه : العلم ـ على ما قاله الراغب ـ وذهب بعض الأَجلَّةِ إلى أَنَّهُ لا يُقَال : ما وجدت كذا إِلَّا بعد الفحص والتَّفتيش ، وحُمِل عليه معنى الآية ، أى :

فأخرج ملائكتنا (مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فما وجد ملائكتنا فيها (غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ) .

٣٧ - (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) :

أي :وتركنا فى القُرى التى أهلكناها وهى قُرى قوم لُوط « وإضمارها بغير ذكر لشُهرتها » - تركنا فيها - علامة دالَّة على ما أصابهم من العذاب وما نزل بهم من العقاب ؛ ليكون ذلك عبرة بالغة وعظة نافعة للَّذين من شأْنهم أن يخافوا العذاب الأَليم لسلامة فِطْرتهم ورِقَّة قلوبهم ، وهم المؤمنون ، دُون مَنْ عَدَاهم مِنْ ذوى القُلُوب القاسية فإِنَّهُمْ لايعتدّون بها ولايعتبرون بهذه الآيات ، والمراد بها تلك الأَحجار التى أهلكوا بها ، وقيل :ماء مُنْتِن ،قال الشّهاب : كأَنه بحيرة طبريّة .

(وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بدليل واضح له سلطان على القلوب ، وهو ما ظهر على يديه من المعجزات .

(فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ) : فأعرض فرعون بِقُوَّته وسلطانه عن الإيمان ، ومنه قوله -تعالى- : « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » وستأتى فى الشرح معان أُخرى .

(مُلِيمٌ) : آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

(الرِّيحَ الْعَقِيمَ) : الشَّدِيدة الَّتى لا خير فيها فقد دمرتهم .

(كَالرَّمِيمِ) : كالشَّىْء البَالى الهالك المُتَفَتِّت مِنْ عَظْم أو نبات أو غير ذلك .

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ) : فأهلكتهم الصَّيحة ، أو نار من السَّماء .

التفسير

٣٨- (وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

وفى قصة مُوسى عظة وعبرة إذْ أرسلناه إلى فرعون مُؤَيَّدًا مِنَّا بسُلطان مُبين وهو ما أظهرناهُ على يده من مُعجزات باهرة وحجج واضحة ودلائل ظاهرة .

٣٩ - (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

أى : فازْوَرَّ فرعون وأعرض عن الإيمان بما جاء به موسى من الحقّ المبين استكبارًا وعنادًا -على أَنَّ رُكْنه جانب بدنه وعِطْفِه - والتَّولِّى به كناية عن الإعراض كِبْرًا وخُيَلاء وعُجْبًا ، وقيل : تولَّى بما كان يتقوَّى به من قومه وجنوده وملكه وسلطانه ، والرّكن يُسْتَعَار للقوّة وقال فرعون عن مُوسى : لا يخلو أَمره فيما جاءنا به من أن يكون ساحرًا أو مجنوناً ، كأَنَّ فرعون جعل ما ظهر على يديه -عليه السَّلام- من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجنّ ، وتردّد فى أَنَّه حصل باختياره فيكون سحرًا ، أو بغير اختياره فيكون جُنوناً .

وقال أبو عبيدة : (أو) بمعنى الواو ؛ لأَنَّ القرآن حكى عن اللَّعين « فِرْعَوْن » أَنَّهُ قال « الأَمْرَين » قال عن مُوسى مرّة : « إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ »[1] وقال مرّة أُخرى : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ »[2] وهكذا كان يتلوّن تلوّن الحرباء .

٤٠ ـ (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ) :

فأَخذنا فرعون ومَن اعتزّ بهم وتقوّى من جنوده وأَعوانه فطرحناهم فى اليمّ غير مُقَدِّرين لهم ، ورميناهم فى البحر غير مُبَالِين بهم - فعلنا بهم ذلك - وفرعون مُرتكب مايلام عليه من الكفر والطُّغيان لتكذيبه بالرّسول وادِّعائه الأُلوهيّة ، وشاركه فى ذلك جنوده فأُغرقوا معه ، وفى الكلام من الدّلالة على غاية عظيم شأْن القدرة الربّانية ونهاية قماءة فرعون وقومه وذلتهم أمام قدرة الله .

٤١ ـ (وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) :

وفى قصة عاد وإهلاكهم عبرة وعظة إذ أَرسلنا عليهم الرّيح العقيم ، وهى الشّديدة الّتى لا خير فيها ، فهى لاتُلقح شيئاً - كما أَخرجه جماعة عن ابن عبّاس وصَحّحه الحاكم - وفى لفظ : هى ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر ، كأَنه شبّه عدم تضمّن المنفعة بعقم المرأة .

وهذه الرّيح كانت « الدّبور » لما صحّ من قوله - صلى الله عليه وسلم - : « نُصِرت بالصَّبَا وأُهلِكت عاد بالدّبور » .

٤٢ ـ (مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) :

أَى : ما تدع من شىء مرّت عليه هذه الريح إِلَّا صيّرته كالرّميم ، أَى : كالشّىْء البالى المتفتّت من عظم أَو نبات أَو غير ذلك ، فالرّميم مِنْ : رمّ الشىءُ ، أَى : بَلِى .

---

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٣٤

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ٢٧

وفسّره السّدى هنا بالتُّراب ،وفسّره ابن عيسى بالمُنْسَحِق الذى لا يُرَمّ ،أى : لا يُصْلح ، والشيءُ هنا عام مخصوص ، أى : ماتذر الريح مِنْ شىءٍ أراد الله تَدْمِيره وإهْلَاكه مِنْ ناس أو ديار أو شجر أو غير ذلك إلّا جعلته كالرّميم ، رُوِى أنَّ الرِّيح كانت تمرّ بالنَّاس فيهم الرّجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتُهلكه .

٤٣ ، ٤٤ ـ (وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ) :

وفى قصّة ثمود وإهلاكهم آيات ،أى : عظات وعبر . إذ قيل لهم : تمتّعوا فى دياركم إلى وقت معلوم وهو وقت انقضاء آجالهم وفناء أعمارهم ،فاستكبروا عن امتثال أمر ربّهم وتعالوا عن الاستجابة لما دعاهم إليه الرّسول فأهلكتهم الصّاعقة وهى نار من السّماء ،وقيل : صيحة منها فهلكوا وهم ينظرون إليها ويُعَايِنُون وقوعها بهم ؛ لأنَّهَا كانت نهارا .

وقال مجاهد : (وَهُمْ يَنظُرُونَ) بمعنى ينتظرون ، أى : وهم ينتظرون الأخذ والعذاب ، وانتظار العذاب أشدّ من العذاب .

٤٥ ـ (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ) :

أى : فما تمكّن أهل ثمود من النُّهوض للهرب حين نزول العذاب بهم ووقوعه عليهم ، وما كانوا قادرين على الانتصار بدفع العذاب عنهم بغيرهم بعد أن عجزوا عن دفعه بأنفسهم .

٤٦ ـ (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) :

أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين ؛ لأنَّهُم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله لما كانوا فيه من الكفر والمعاصى .

(وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(بِأَيْدٍ) : بقوة .

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) : لقادرون ، من الوُسْع : بمعنى الطَّاقة والقدرة .

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا) : والأَرض مهّدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها .

(زَوْجَيْنِ) : صِنْفَين مُزدوجين ونوعين مختلفين .

(فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) : فالجأُوا إليه وسارعوا إلى طاعته .

التفسير

٤٧ ، ٤٨ - (وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ) :

يقول الله-تعالى-مُنَبِّهًا على خلق العالم العُلْوىّ والسُّفْلِىّ؛ليفكِّر النَّاس فى بديع صنعه وعظيم خلقه فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً - يقول - :والسّماء أحكمنا خلقها وجعلناها سقفاً محفوظاً بقوة عظيمة ،وإنَّا لقادرون على أكثر من هذا ،فقد وَسِعَت قُدْرَتُنا كُلَّ شىء فضلا عن السّماء ، أى : قد وسّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد .

والآية الكريمة تشير إلى أَنَّ التَّوسعة مُستمرة على الزَّمن ،وهو ما أثبته العلم الحديث ،وعرف بنظرية التَّمدّد الَّتى أصبحت حقيقة علميّة فى أوائل هذا القرن ، أشار إليها القرآن الَّذى

أُنْزِلَ على النبيّ الأُمّى محمد -صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم- منذ أربعة عشر قرناً (اهـ :المنتخب بتصرف) والأرض هَيَّأْنَاهَا وبسطناها لتستقروا عليها وتصلح لحياتكم فوقها ، فنعم المهيِّئُون لها نحن ونعم الجاعلون لها كالمهاد .

٤٩ - (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أي : ومن جميع المخلوقات خلقنا أزواجاً : سماء وأرضاً ، وليلا ونهارًا ، وشمساً وقمرًا ، وبرًّا وبحرًا وضياءً وظلاماً ، وإيماناً وكفرًا ، وموتاً وحياةً ، وشقاءً وسعادة ، وجنة ونارًا ، حتى الحيوانات والنباتات خلقنا فى كل صنف منها الذكور والإناث ، ولهذا قال -تعالى- : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أى : فعلنا ذلك كلَّهُ من بناء السّماء وفرش الأرض وخلق الأزواج كى تتذكّروا فتعرفوا أنّهُ -عزّ وجلّ- الرّبّ القادر الّذِى لا يُعْجِزه شىءٌ فتعملوا بطاعة الله ولاتعبدوا سواه ، وقيل : المراد بجميع ماذكر الاستدلال على قدرة الله على البعث والحشر والنشر ؛ لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة .

٥٠ ، ٥١ - (فَفِرُّوٓا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

ثم فَرّع على قوله -تعالى- : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فقال : ففِرُّوا إلى الله ، أى : قُلْ لهم يا مُحَمّد : فسارعوا إلى طاعته وثوابه وفروا من معصيته وعقابه ، وهو تمثيل للاعتصام به - سبحانه - واللُّجوء إليه والاعتماد فى الأمور عليه ، إنِّى لكم من عقابه المعَدّ لمن لَمْ يفرّ إليه -سبحانه - ولم يوحّده نذير مبين ، بيَّنه الله - سبحانه - بالمعجزات ، أو مُبيِّن ما يجب أن يُحْذَر منه .

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ...) إلخ عطف على الأَمْر السّابق فى قوله - تعالى- : (فَفِرُّوٓا إِلَى اللهِ) وهو نهى صريح عن الإشراك بالله ، على نحو : وحدوه ولا تشركوا به .

والمعْنى : ولا تشركوا به شيئاً إنِّى لكم من الله نذير مبين عاقبة الإشراك ، وكرّر قوله تعالى : (إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) فى الآيتين السابقتين لاتِّصال الأَوّل بالأمر والثّانى بالنّهى والغرض من ذلك كلِّه الحثُّ على التّوحيدِ والمبالغة فى النّصيحة والتّأكيد ، وعلل لذلك

الآلوسىّ فقال : المُنْسَاق إلى الذهن – على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة – أنه تعالى أمر بها أوّلا وتَوَعَّدَ تاركها بالوعيد المعروف له فى الشَّرع وهو العذاب دون خُلُود ، ونَهَى–جَلَّ شأْنه–ثانياً أنْ يُشْرَكَ بعبادته ، وتَوَعَّدَ المُشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلُود ، فى النار ، وعلى هذا يكون الوعيدان مُخْتلفَين مُتَغايرَين ، وتكون الآية فى تقديم الأَمر على النَّهى فيها نظير قوله–تعالى– : « فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[1] وقوله : « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً »[2] .

(كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(طَاغُونَ) : مُتَجاوزون الحدّ فى الكفر .

(بِمَلُومٍ) : بفاعل مايلام عليه .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ١١٠

(٢) النساء ، من الآية : ٣٦

(لِيَعْبُدُونِ) : ليخضعوا لى ويتذلّلوا ، أو ليعرفونى .

(الْمَتِينُ) : شديد القوّة .

(ذَنُوباً)[1] : نصيباً من العذاب .

(فَوَيْلٌ) : فهلاك ، أو حسرة ، أو شِدّة عذاب .

التفسير

٥٢ ـ (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) :

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مُسَلِّياً لنبيِّه ـ عليه الصَّلاة والسّلام ـ : مثل هذا الشأن كان شأن الأُمم السَّابقة مع رسلهم : فكما قال لك هؤُلاء المشركون من أهل مكّة قال مثله المُشركون الأَوّلُونَ لرسلهم ، فهذه شِنْشِنَةُ المكذِّبين وتلك سِمَةُ الكافِرين .

وفى البحر : (أو) للتفصيل ، أى : قال بعضهم : هو ساحر ، وقال بعض : هو مجنون ، وقال بعض : هو ساحر ومجنون ، فجمع القائلون فى الضمير ، ودَلّت (أو) على التفصيل .

واستشكلت الآية بأن قوله ـ تعالى ـ : (إِلَّا قَالُوا) يدلّ على أَنّ الَّذِين من قبلهم كُلَّهُم كَذَّبوا مع أَنَّهُ ما مِنْ رسول إلَّا آمن به قوم ، وأجاب الإمام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأَكثر ، وذكر المكذب فقط ؛ لأنه الأوفق بغرض التَّسْلِية .

٥٣ ـ (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

المعنى : أَتواصَى الأَوّلون والآخرون بهذا القول ؟ أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتّى قالوه جميعاً مُتَّفقين عليه ؟

وهؤُلاء وأُولئك لم يتواصوا به فى الحقيقة ؛ لأَنَّهُمْ لم يلتقوا فى زمن واحد بل هم قوم طُغاة مُتَجاوزون للحدّ خارجون عن طاعة الله تشابهت قلوبهم . فقال مُتَأَخِّرُهم كما قال مُتَقَدِّمهم ، جمعهم المقصد الواحد وتلاقوا فى الطَّعن على الرّسل ، والحامل لهم على هذا القول هو الطغيان والعناد والتَّمرُّد والتَّكذيب لرسالات السَّماء .

---

(١) أصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهرى : لا يقال لها ذنوب وهى فارغة ، وتذكر وتؤنث ، وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقا شراً كان النصيب أو خيرا ، وفى الكشاف : هذا تمثيل ، أصله فى السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب (١ هـ : آلوسى ص ٢٤) .

والضمير فى (بِهِ) للقول السابق ، ومقصود الاستفهام فى (أَتَوَاصَوْا بِهِ) التَّعجيب من إجماعهم على هذا القول الكاذب .

٥٤ ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) :

أى : فأعرض ـ يا محمد ـ عن جدال هؤلاء المُعَانِدِين فقد كرّرت عليهم الدّعوة ولم تأْلُ جهدًا فى البيان فلم يستجيبوا ، وعرفت منهم العناد واللَّجاج فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلَّغت الرِّسالة وأديت الأَمانة وبذلت مجهودك فى التبليغ والدّعوة ، وما أنت بملوم على عدم استجابتهم إنْ عَلَيْكَ إلَّا البلاغ ، وإنَّمَا أنت منذر . وقد فعلت .

٥٥ ـ (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقىّ فى الشُّعَب وجماعة من طريق مجاهد عن علىّ ـ كرّم الله وجهه ـ قال : لمّا نزلت (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) لم يبق منّا أحد إلَّا أيقن بالهلكة إذ أُمِر النبىّ ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ أن يتولَّى عنّا ، فنزلت (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) فطابت أنفسنا .

وعن قتادة : أنَّهم ظنُّوا أنَّ الوحى قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأَنزل الله (وَذَكِّرْ) الخ ، والمعنى : دُمْ على التَّذكير والموعظة ولا تَدَعْ ذلك : فالأَمر بالتذكير للدّوام عليه ، فإنَّ الذكرى تفيد وتُجْدى مع الَّذين قدّر الله هدايتهم وعلم أَنَّهُمْ سيدخلون فى ساحة الإيمان لاختيارهم ذلك ، أو مع المؤمنين بالفعل : فإنها تزيدهم بصيرة بالدّين وقوّة فى اليقين .

٥٦ ـ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) :

استئناف مؤكّد للأمر الَّذى قبله مُقَرِّر لمضمون تعليله ؛ فإنَّ خلقهم للعبادة مما يدعوه ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ إلى تذكيرهم ، ويُوجب عليهم التَّذكُّر والاتعاظ ، ولعل تقديم الجنّ فى الذكر لتقدّم خلقهم على خلق الإنس فى الوجود ، ولم يذكر الملائكة لاستغنائهم عن التذكير والموعظةِ ؛ لأَنَّهُمْ عباد مُكرمون ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون .

والمعنى : وما خلقت الجنّ والإنس لشيء يعود علىّ بالنفع ،وإنّما خلقتهم لتكون غايتهم العبادة (والعبادة غاية التّذلّل) أى :خلقتهم مهيئين صالحين للعبادة حيث رَكّبتُ فيهم عقولا وجعلت لهم حواس يدركون بها الطاعة والمعصية حتى لايكون للعصاة حجة على الله .

وقال ابن جريج ومجاهد : (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أى : ليعرفونى ، وهو مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب ، ولَعَلّ السِّرّ فيه : التّنبيه على أنّ المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة ، قيل : وهو حسن ؛لأنه لو لم يخلقهم -عزّ وجلّ- لم يُعْرَف وجوده وتوحيده -سبحانه وتعالى- وهذا إشارة إلى ما صحّحوه عن رسول الله فيما رواه عن ربّه : « كنت كنزًا مَخفِيًّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأُعْرَفَ » .

قال الآلوسىّ : والّذِى ينساق إليه الذّهن : أنّ الحصر الوارد فى الآية حصر إضافىّ ،أى : خلقهم للعبادة دون ضِدّها أو دون طلب الرّزق والإطعام ؛أخذا من تعقيب ذلك بقوله تعالى : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) .

٥٧ - (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) :

هذه الآية الكريمة لبيان أنّ شأنه -تعالى- مع عباده ليس كشأن السّادة مع عبيدهم ؛ لأنهم إنّما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم أو للقيام على خدمتهم ورعايتهم ففيها نفى أن يكون ملكه إيّاهم لذلك ،فكأنه -سبحانه وتعالى- قال : ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين ملّاك العبيد بعبيدهم ، وما أريد منهم تحصيل رزق ؛ فأنا الرزاق الغنى عن العالمين وما أريد أن يطعمونى ؛فأنا أُطْعِم ولا أُطْعَم ،غنى عنهم وعن مُرَافقتهم ،فَلْيشتغلوا بما ينفعهم ويُسعدهم وما خُلِقوا لأجله مِنْ عبادتى وطاعتى والخضوع لى .

وفى الآية الكريمة لطائف :

الأُولى : أنّه -سبحانه وتعالى- كرر نفى الإرادتين ؛ لأنّ السيد قد يطلب من العبد التّكسّب له وهو طلب الرّزق وقد لا يطلب ؛لأنّه غنىّ ،ولكن يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطّعام ، فنفى الإرادة الأُولى لا يستلزم نفى الإرادة الثّانية ؛ فكرر النّفى على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك .

الثانية : أنّ ترتيب النّفيين كما تضمّنه النظم الجليل من باب الترّقى فى بيان غناه -عزّ وجلّ -فكأنّهُ قال- سبحانه - : لَا أُريد منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك من تقديم الطّعَام .

الثالثة : أنّهُ-سبحانه وتعالى-قال : (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ) دون ما أُريد منهم أن يرزقون ؛ لأن المقصود عين الرزق لا الفعل .

وقال-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) دون : وما أُريد من طعام ؛لأن المقصود نفى الفعل نفسه - وهو تقديم الطعام - والمراد أن الله -تعالى-غنى عن أن يقدم عباده له رزقاً أو يقوموا على خدمته .

٥٨ - (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) :

أى : إن الله هو الرّزّاق الّذِى يرزق جميع خلقه - لاغيره سبحانه - وهو ذو القدرة شديد القُوة لا يعجز عن شىء ، والجملة تعليل لنفى الإرادة فيما تقدّم فى قوله -تعالى-: (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) قال الإمام : كونه-تعالى-هو الرّزّاق ناظر إلى عدم طلب الرزق ؛لأنّ من يطلبه يكون فقيراً محتاجاً وكونه (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله-سبحانه- : (وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) ؛لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له ، فكأنّه قِيل : لا أُريد منهم من رزق ؛لأنّى أنا الرّزّاق ،وما أُريد منهم من عمل كالإطعام ؛ لأنّى قوى متين .

وكان الظّاهر أن يأتى السياق الكريم (إِنِّى أَنَا الرَّزَّاقُ) كما جاء فى قراءة له-صلى الله عليه وسلم- لكن التفت إلى التصريح بالاسم الجليل لبعث الهيبة فى النفوس وأنه هو الرازق وحده دون سواه .

٥٩ - (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ) :

أى :إذا ثبت أنّ الله-تعالى-ما خلق الجنّ والإنس إلا ليعبدوه وأنّه سبحانه مايُريد منهم من رزق إلى آخر ما تقدّم ، فإنّ للّذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خُلِقوا له من العبادة

وإشراكهم بالله -عزّ وجلّ- وتكذيبهم رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهم أهل مكّة وأحزابهم من الكُفّار قد أعدّ الله لهؤلاء نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأُمم السَّابقة ، وعن قتادة : سجْلا[1] من العذاب مثل سَجْل أصحابهم ، فلا يطلبوا مِنِّى أن أعجل فى الإتيان بالعذاب قبل أوانه ، فهو لاحق بهم لامحالة .

٦٠ - (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى :فهلاك وعذاب شديد للّذين كفروا من يومهم الّذى يُوعدونه لما ينالهم فيه من الشّدائد والأهوال وما يلاقونه فيه من عذاب وعقاب ، وفى الآية بعض اللطائف :

١ - وضع الموصول موضع الضميرفجاء النّظم (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) بدل فَوَيْلٌ لهم ؛ تسجيلا عليهم بما فى حَيِّز الصِّلة من الكفر ، وإشعارا بعلّة الحكم .

٢ - الفاءُ فى قوله : (فَوَيْلٌ) لترتيب ثبوت الويل لهم على أنّ لهم عذاباً عظيماً .

٣ - المراد بذلك اليوم ، قيل : يوم بدر ، ورُجِّح بأنّه الأوفق لما قبله مِنْ حيث إنّه ذنوب من العذاب الدّنيوىّ ، وقيل : يوم القيامة ، ورُجِّح بأنّه الأنسب لما فى صدر السورة الكريمة الآتية : والله أعلم .

---

(١) السجل : الدلو المليئة (المختار) .

تفسير سورة الطور

هذه السورة مكيّة كما رُوِى عن ابن عبّاس وابن الزبير-رضى الله عنهم-ولم نقف على استثناء شيء منها ، وهى تسع وأربعون آية .

ومناسبة أوّلها لآخر ما قبلها اشتمال كُلّ منهما على الوعيد .

وقال الجلال السّيوطىّ : وجه وضعها بعد الذّاريات تشابههما فى المطلع والمقطع ، فإنّ فى مطلع كلٍّ منهما صفة حال المتّقين ،وفى مقطع كلٍّ منهما صفة حال الكفّار ،ولا يخفى ما بين السّورتين الكريمتين من الاشتراك فى غير ذلك :كالدّعوة إلى وحدانيّة الله وترك الشّرك ، وهو المقصد الأوّل من مقاصد القرآن ، بل من مقاصد جميع الأديان .

مقاصد السورة :

يقسم الله-تعالى-فِى أوّل سورة الطُّور بخمسة أشياء لها شأن عظيم على وقوع العذاب يوم القيامة بالمُكذّبين ، ثم تمضى آيات السُّورة مُبَيِّنة بعض ألوانه وضروبه ،وبعض التّغْييرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تقع فى ذلك اليوم (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً) ثم تنتقل إلى ذِكْرِ ما أعدّه الله للمتّقين من جنّات ونعيم وما يتلذّذون به ويلقونه من صنوف التّكْريم ، حيث يُلْحِق اللهُ بهم ذريّتهم المؤمنة ويرفعهم إلى درجتهم لتقرّ بذلك عيونهم ويتمّ سرورهم .

ثم تدعو الآيات رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إلى المُدَاومة على التّذكير ،فهذه رسالته ،وهو-بفضل ما أنعم الله به عليه من النُّبوة ورجاحةِ العقل-ليس بكاهن ولا مجنون ولا شاعر ، كما تدعوه إلى عدم الالتفات إلى ما يتقوّله عليه المتقوّلون ،وعدم المبالاة بما يصفون به القرآن الّذى عجزوا عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ثم تأْخذ الآيات فى توبيخ الكافرين والمُشْركين وتقبيح آرائهم الضّالّة ،وتَسْفِيه مُعتقداتهم الفاسدة ، مُظْهِرة ضلالهم

مُغْلنة سوءَ تقديرهم ، آمرة الرّسولَ بأَنْ يَدَعَهم غير مُكترث بهم حتى يلاقوا يومهم الَّذى فيه يُصعقون ، يوم لايُغنى عنهم مكرهم شيئاً من العذاب ولاهم يُنصرون ، فإنَّ للَّذين كفروا عذاباً فى الآخرة غير العذاب الَّذى يُصيبهم فى الدّنيا ، ولكنَّ أكثرهم لايعلمون .

وتُختم السّورة بأَمر الرّسول بالصّبر لحكم ربّه ؛ فهو فى عنايته وكلاءته ، وبالتّسبيح بحمده (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفـردات :

(الطُّورِ) : جبل بسيناء .

(كِتَابٍ مَّسْطُورٍ) : مكتوب على وجه الانتظام .

(رَقٍّ) : ما يُكْتب فيه جلداً أو غيرهُ .

(مَنشُورٍ) : مبسوط ظاهر .

(الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) : هو بيت فى السّماء السّابعة اسمه الضُّراح ، وقيل : الكعبة .

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) : السّماء .

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) : المُوقَد أو المملوء ناراً يوم القيامة .

(لَوَاقِعٌ) : لنازل وكائن على شِدّة .

(تَمُورُ) : تضطرب ، وبه قال ابن عبّاس ، أو تدور كالرّحى ، وبه قال مجاهد .

(فِي خَوْضٍ[1]) : فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب .

(يُدَعُّونَ) : يُدْفَعُون بعُنف وشِدّة .

(اَصْلَوْهَا) : ادخلوها وقاسوا حرّها وشدائدها .

التفسير

يُقسم الله -تعالى- بمخلوقاته الدّالة على قدرته العظيمة إنَّ عذابه لواقع بأعدائه لا محالة وإنَّهُ لا دافع له عنهم .

١ - (وَالطُّورِ) :

أى :ومن جملة ما يقسم الله به الطور ،وهو الجبل الَّذى يكون فيه أشجار ،مثل الجبل الَّذى كلَّم الله موسى عنده ،فإن لم يكن فيه شجر لا يُسمَّى طورًا وإنَّمَا يقال له جبل ،والمراد به هنا جبل سيناء ويُسَمَّى طور سيناء .

---

(١) أصل الخوض : المشى فى الماء ، ثم تجوز فيه عن الشروع فى كل شىء ، وغلب فى الخوض فى الباطل ، قال -تعالى- : (وخضتم كالذى خاضوا) سورة التوبة من الآية ٦٩ .

٢ - (وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ) :

ويقسم الله بكتاب مسطور ،أى :مكتوب على وجه الانتظام ؛ فإنّ السّطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ما قاله الفرّاء : الكتاب الّذى تكتب فيه الأعمال ويُعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو شماله ،وهو المذكور فى قوله-تعالى- : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا »[١] وقيل : هو اللّوح المحفوظ ،وقيل :هو القرآن وغيره من الكتب السّماوية المنزّلة المكتوبة فى صحف مُيَسّرة للقراءة يقرؤها الناس جهارًا ولهذا قال : (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) .

٣ - (فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ) :

ويقسم - سبحانه - وتعالى بالرّق المنشور ، والرّق : ما يكتب فيه جلدا أو غيره ، ونشره : بسطه وظهوره للناس يرجعون إليه ويهتدون بهديه ويقرأونه بسهولة ويسر .

وقيل : وصفه بالنّشر والظّهور للإشارة إلى صحّة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جُعِلَ مُعَرّضاً لنظر كل ناظر مع الأمن عليه من الاعتراض لسلامته .

٤ - (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ) :

ويقسم الله-تعالى- بالبيت المعمور ، قال ابن كثير : ثبت فى الصّحيحين أنّ رسول الله -صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم-قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته للسّماء السّابعة : « ثُمَّ رُفِعَ بِى إِلَى البَيْتِ المعمور وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه » : فهو فى السّماء يتعبّد فيه الملائكة ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، وقال الحسن : هو الكعبة وعمرانها بالمُجاورين عندها والحجّاج إليها .

٥ - (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) :

ويُقسم الله-تعالى-بالسقف المرفوع وهو السّماء كما رواه جماعة وصحّحه الحاكم عن على -كرم الله وجهه- وبه قال سفيان وتلا قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ »[٢] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٣ .

(٢) الأنبياء ، الآية : ٣٢ .

وعن ابن عبّاس : هو العرش ، وهو سقف الجنَّة ، أو سقف لجميع المخلوقات .

٦ - (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) :

ويُقسم الله بالبحر المسجور ، والجمهور على أنَّ المراد به بحر الدّنيا ،وبأن المسجور بمعنى الموقد نارا قال - تعالى - : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »[1] أى : أضرمت فتصير نارًا تتأجج محيطة بأهل الموقف :رواه سعيد بن المسيّب عن علىّ- كرّم الله وجهه - وقيل المسجور : المملوء .

والواو الأُولى فى قوله -تعالى- : (وَالطُّورِ) للقسم ،وما بعدها للعطف كما قال أبو حيان ، والجملة المقسم عليها قوله - تعالى - : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) .

٧ - (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) :

هذا هو المقسم عليه بما سبق ،أى : إنَّ عذاب ربِّكَ الَّذِى تَوَعَّد به الكافرين لكائن لامحالة على شدة ،كأنَّهُ مهيَّأ ومعدّ فى مكان مرتفع فيقع وينزل على من يحلّ به من مستحقّيه من الكُفَّار والمكذِّبين ، وفى إضافة العذاب إلى لفظ الرّب مع إضافة الرّب إلى ضميره-عليه الصَّلَاة والسَّلَام - أمان له - صلَّى الله عليه وسلم - وإشارة إلى أنَّ العذاب واقع بمن كذَّبه .

٨ - (مَالَهُ مِن دَافِعٍ) :

عن جعفر بن زيد العبدىّ قال : خرج عمر يَعُسُّ[2] فى المدينة ذات ليلة فمرّ برجل من المسلمين فوافقه قائماً يُصلِّى ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ (وَالطُّورِ) حتَّى بلغ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *مَّالَهُ مِن دَافِعٍ) قال : قسم-وربّ الكعبة-حقّ ، فنزل عن حماره ، واستند إلى حائط فمكث مليًا ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لايدرون ما مرضه - رضى الله عنه - .

وأخرج أحمد وسعيد بن منصور وابن سعد عن جبير بن مطعم قال :

قدمت المدينة على رسول الله لأُكلِّمه فى أسارى بدر ، فدُفِعْت إليه وهو يُصلِّى بأصحابه صلاة المغرب ،فسمعته يقرأ : (والطُّورِ)إلى قوله-تعالى- : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *مَّالَهُ

---

(١) سورة التكوير ، الآية: ٦ .

(٢) أى : يطوف بالليل ، وهو من باب رد : مختار الصحاح .

مِن دَافِعٍ) فكأنَّمَا صدع قلبى ، وفى رواية فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وماكنت أظنّ أن أقوم من مقامى حتّى يقع بى العذاب . والمعنى : ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك .

٩ ، ١٠ ـ (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) :

يحكى القرآن بعض التّغيرات الكونيّة والآيات الإلهيّة الّتى تحدث فى يوم القيامة فيقول : (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا) ويوم : ظرف للعذاب الواقع الّذِى ليس له دافع أى : يقع ذلك العذاب ويحدث يوم تضطرب السّماء اضطراباً شديدًا ، وتدور كالرّحى وبموج بعضها فى بعض ، ولمّا ذكر من مشاهد يوم القيامة ما يحدث للسّماء ذكر مايحدث للأرض فقال : (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) أى : وتنتقل الجبال مِنْ مَقَارِّها وتتحرك تحركاً ظاهرًا ، وتذهب فتصير هباءً منبثاً وتُنْسَفُ نسفاً ، والإتيان بالمصدرين فى (مَوْرًا وَسَيْرًا) للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة والأعراف المألوفة ؛ لأن ذلك من أحوال يوم القيامة ،أى : تمور السّماء مورًا عجيباً ،وتسير الجبال سيرًا غريباً لايدرك كنههما .

١١ ، ١٢ ـ (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) :

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى :إذا وقع ذلك ،أو كان الأمر كما ذكر فويل فى ذلك اليوم للمُكَذِّبين بالحقّ من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم .

(الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) أى : الذين هم فى أباطيلهم وأكاذيبهم يلهون ويعبثون ، وغلب الخوض فى الاندفاع فى الباطل والكذب .

١٣ ، ١٤ ـ (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) أى : يوم يُدْفعون إلى جهنّم دفعاً عنيفاً بأن تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجمع نَوَاصِيهم إلى أقْدَامِهم فيُدفَعُون إلى النّار دفعاً على وجوههم .

(هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) أى :وتقول لهم الزّبانية-تقريعاً وتوبيخاً- :هذه النار التى كنتم بها تكذّبون فى الدُّنيَا ، ومثلها فى التكذيب بها تكذيبهم بالوحى النّاطق بها .

١٥ ـ (أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) :

استفهام قصد به التقريع والتهكم بهم ، كأنه قيل : كنتم تقولون للوحى الَّذِى أنذركم: هذا سحر ، أفهذا الَّذِى تشاهدونه من العذاب فى النّار سحر أيضاً ؟ أم أنتم عمى عن المخبربه كما كنتم فى الدنيا عمياً عن الخير ؟ .

١٦ ـ (اَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى :ادخلوا النار وقاسوا شدائدها وذوقوا حرّها ، فافعلوا ما شئتم من الصّبر وعدمه وسواء أصبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها والأمران (الصّبر وعدمه) سواء عليكم فى عدم النّفع ، إذ كلّ لايدفع العذاب ولا يُخفّفه وإنّما تُلاقون اليوم فى الآخرة جزاء ما كنتُمْ تعملون فى الدُّنيا .

وقوله-تعالى- :(إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليل للاستواء ، فإن الجزاء لمّا كان مُحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه ـ سبحانه وتعالى ـ إيّاه بمقتضى عدله « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] كان الصّبر وعدمه مُستويين فى عدم النفع .

ووجّه الزّمخشرىّ كَوْنَ قوله-تعالى- : (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) تعليلا للاستواء فقال : لأنّ الصّبر يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يُجَازَى عليه الصّابر جزاء الخير ، فأمّا الصّبر على العذاب ـ الَّذِى هو الجزاء ـ ولا عاقبة له ولا منفعة فيه ، فلا مزيّة له على الجزع .

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩ .

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(فَاكِهِينَ) : متلذِّذين ناعمين .

(مَصْفُوفَة) : موصول بعضها ببعض باستواء حتّى يصير صفا .

(وَزَوَّجْنَاهُمْ) : وقرنَّاهم .

(بِحُورٍ) : حُورٍ : جمع حوراء ، من الحَوَر : وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بيِّنة الحَوَر .

(عِينٍ) : جمع عيناء ، وهى المرأة واسعة العين ، أى : وقرنَّاهم بنساء واسعات العيون حسانها .

التفسير

١٧ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) :

شُروع فى ذكر حال المؤمنين وما أُعدّ لهم من نعيم مقيم بعد ذكر حال الكفَّار وما أُعدّ لهم من عذاب أليم كما هو نَسَق القرآن وطريقته فى التَّرغيب والتَّرهيب .

والمعنى : إنَّ المتقين المطيعين لله العاملين بشرعه الَّذِين جعلوا لهم بعقيدتهم وسلوكهم وقاية من النَّار ، فى جنَّات فسيحات لا يحاط وصفها ونعيم عظيم لايقادر قدره ، والتنوين فى الموضعين (فِى جَنَّاتٍ ، وَنَعِيمٍ) للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى : نوع من الجنات ونوع من النعيم مخصوصين بهم ، ويجوز أن تكون الآية من جملة القول للكفَّار إذ ذاك زيادة فى غمِّهم وحزنهم وتكديرهم .

١٨ - (فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) :

أى : مُتَنَعِّمين مُتَلَذِّذين بما أعطاهم ربهم من أنواع الإحسان والنَّعيم وبما منحهم من أصناف الملاذِّ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ، وقد نجّاهم الله من عذاب النّار وتلك نعمة مستقلّة بذاتها مع ما أُضيف إليها من نعمة دخول الجنة الّتى فيها من النّعيم مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وإظهار لفظ الرّبّ فى موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم فى قوله-تعالى- : (رَبُّهُمْ) للتّشريف والتعليل .

١٩ - (كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيٓئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : ويقال لهم : كلوا واشربوا أكلا وشرباً هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً لاتنغيص فيه ، ولا يلحقكم فيه مشقّة ولا يُعقِب وَخَامة ، جزاء ما كنتم تعملون فى الدُّنيا من عمل صالح .

٢٠ - (مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) :

أى : متكئين على سرر مجعولة على صف وخط مستقيم مع تقابل وجوه بعضها إلى بعض لتعدّد الصفوف كما قال-تعالى- : « عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ [1] » وجعلنا لهم قرينات صالحات وزوجات حساناً من الحور العين . قال الرّاغب : لم يجىء فى القرآن : زوجناهم حوراً . كما يقال زوجته امرأة . تنبيها على أنّ ذلك لايكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفرّاء : تزوجت بامرأة : لغة (أزد شنوءة) .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ امْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾)

(١) سورة الصافات ، الآية : ٤٤ .

المفردات :

(وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ) : وما نقصنا الآباء بسبب إلحاق الأبناء بهم .

والفعل (ألت) من باب : ضَرَبَ ، وعَلِمَ ، وبهما قرئ .

(رَهِينٌ) : مرهون عند الله بعمله .

(يَتَنَازَعُونَ) : يتجاذبون ويتعاورون ، وقيل : التّنازع مجاز عن التّعاطى .

(كَأْساً) : [1] إناء به خمر ، والكأس مؤنث سماعى كالخمر .

(لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :لا كلام ساقط أثناء شربها ، ولا فعل يستوجب الإثم ، وقال مجاهد : لا يَسْتَبُّون ولا يُؤَثِّمُون .

التفسير

٢١- (وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِىءِ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) :

كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنّة .

والمعنى : والّذين آمنوا واستحقُّوا درجات عالية ، واتّبعتهم ذرّيتهم بإيمان ولم يبلغوا درجات الآباء ، ألحقنا بهم ذريّتَهم فى الدّرجة ، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلا عليهم وعلى آبائهم ، ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من ثواب عملهم شيئاً بأن أعطينا الأبناء بعض مَثُوباتهم ، وإنما رفعنا منزلة الأبناء إلى منزلة الآباء بمحض التفضل والإحسان ، ولما أخبر -سبحانه- عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذّرية ، إلى منزلة الآباء من غير عمل منهم يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل ،وهو أنّهُ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، فلا يحمل الآباءُ شيئاً من أخطاء ذرّيتِهم ؛لأنّ كلّ إنسان مرهون بعمله لايؤخذ به غيره ، فقال : (كُلُّ امْرِىءِ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) .

---

(١) قال الراغب: الكأس : الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد بانفراده كأسا ، ولكن المشهور أنها لا تسمى كأسا إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء (آلوسى) .

والآية الكريمة تشير إلى أنَّ الكسب بمنزلة الدَّيْن ،ونفس العبد بمنزلة الرّهن ، ولايفكّ الرّهن مالم يؤدّ الدَّيْن ، فإن كان العمل صالحاً فقد أدّى ؛لأنَّ العمل الصَّالح يقبله ربُّه- سبحانه وتعالى - ويصعد إليه-عزّ وجلّ - وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص إذ لا يصعد إليه -سبحانه - غير الطيِّب ، أخرج سعيد بن منصور وابن جرير والحاكم والبيهقى فى سننه عن ابن عبّاس قال : « إنَّ الله ليرفع ذريَّة المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه ، ثم قرأ الآية » وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عنه أنه قال : إن النبى - صلَّى الله عليه وسلَّم- قال : « إذا دخل الرّجل الجنَّة سأل عن أبويه وزوجته وولده فَيُقَال له : إنَّهمّ لم يبلغوا درجتكَ وعملك ، فيقول : ياربّ قد عملت لى ولهم فيؤْمَر بإلحاقهم به ، وقرأ ابن عباس الآية » .

والآية على ما ذهب إليه كثير من المُفَسِّرين فى الكبار من الذُّريَّة ، وقال منذر بن سعيد : هى فى الصِّغار .

ورُوى عن الحبر والضَّحّاك أنهما قالا : إنَّ الله يلحق الأبناء الصِّغار وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بآبائهم المؤمنين ، وجعل (بإيمانٍ) على هذا الرّأى متعلقاً بألحقنا ،أى :ألحقنا بالآباء المؤمنين الصالحين ذُرّيتَهم الصِّغار الَّذين لم يبلغوا التكليف - أوكانوا كباراً مكلفين مؤمنين ولكنهم لم يبلغوا درجة آبائهم فى العمل الصالح ، والبعد عن المعاصى - ألحقناهم بآبائهم فى درجتهم فى الجنة إكراماً لهم ، ولنكمل بهم مسرتّهم :

٢٢ - (وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

أى :وزدناهم على ماكان لهم من مظاهر النِّعم فى وقت بعد وقت بفواكه كثيرة ولحوم من أنواع شتَّى مما يُستطاب ويُشْتَهى وإن لم يُصَرِّحوا بطلبه .

٢٣ - (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) :

أى : يَتَجَاذَبُون فى الجنَّة-تَجَاذُبَ مُلَاطفة ويَتَعَاطَوْنَ تَعَاطِيَ تَوَادّ - كأساً مليئة بالشَّراب لا يكون منهم بِشُرْبها كلام باطل من لغو الحديث وسقط الكلام ولاعمل فاحش يستوجب

الإثم فاعلَه كما هو دَيْدَنُ النَّدَامى فى الدُّنيا ، وإنما ينطقون بالحكَم وأَحَاسِن الكلام ويفعلون ما يفعل الكرام . والله أعلم .

﴿ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ) : يخدمهم غلمان مترددون عليهم .

(مَكْنُونٌ) : مصون ومحفوظ فى صدفه .

(مُشْفِقِينَ) : أرقاء القلوب من خشية الله .

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : فتفضل علينا كرماً منه .

(السَّمُومِ) : النار الشديدة الحرارة ، وسميت سموما ؛ لأنها تخترق مسام الجلد .

التفسير

٢٤ ـ (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) :

بعد أن ذكر الله النعيم الذى تفضل به على أهل الجنة أتبعه نعماً أخرى ،وأولها يتضمنه قوله ـ تعالى ـ : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ) أى : ويقوم على خدمتهم من آن لآخر ولدان لهم لم يصلوا إلى درجة البلوغ ، وفى ذلك مزيد إيناس لمن يخدمهم

وفى قوله- تعالى- : (غِلْمَانٌ لَّهُمْ) ما يشير ويوحى بأن هؤلاء الولدان قد خصهم الله بأولئك المخدومين فى الآخرة لاينفكون عن خدمتهم ولا ينقطعون عن تبعيتهم لهم وأنهم مع تلك الخصال الطيبة على الصورة الحسنة والمنظر البهيج كأنهم اللؤلؤ المصون فى صدفه صفاء وبياضاً ونقاء ونفاسة ، هذا هو شأن الخادم ، فما بالك بالمخدوم .

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : بلغنى أنه قيل : يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : « والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

٢٥ - (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ) :

أى : وأقبل كل واحد منهم على أخيه بوجهه ، وقد امتلأ بشرًا وحبورًا ، يسأل كل واحد منهم أخاه ورفيقه فى الجنة كما يسأله أخوه ، كل يسأل عن الأحوال والأعمال التى استوجبت ماهم فيه ، يسأله سؤال تلذذ وفرح بما ينعمون من ثواب حسن عظيم ، لا يشوبه خوف من انقطاع أو إشفاق من نقصان فيجيبون على هذا التساؤل بما حكاه عنهم فى قوله :

٢٦ - (قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) :

أى : قال كل واحد منهم : إنا كنا فى الدنيا بين أهلينا وأولادنا لايشغلنا عن مولانا وإلٰهنا شىء ، كنا خائفين من عصيانه ، رقاق القلوب من خشيته ، منصرفين إلى طاعته ، وجلين من عاقبة الأمر ونهاية المطاف وهو اليوم الآخر .

٢٧ - (فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) :

أى : فتفضل علينا بمنّه وكرمه وحفظنا وجعلنا فى وقاية من عذاب النار وسعيرها ، وكانت الجنة هى دار المقام لنا ؛ لأنه فى الآخرة : إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، وليس فيما حل بنا من حفظ وما أقمنا فيه من كريم المنزل والمقعد الصدق عند ربنا ليس لنا فى ذلك من فضل ، فإن أعمالنا الصالحة بتوفيق الله ومعونته ، وهى مع هذا قليلة بالنسبة إلى هذا النعيم وذلك بعد أن زحزحنا - سبحانه - عن النار بفضله وسعة كرمه ، قال النبىّ - صلى الله عليه وسلم - : « لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال :

ولا أنا إلَّا أن يتغمدنى الله بفضل رحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنينّ أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله يزداد خيرًا ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب » ومهما عبد العبد ربه فآلاء الله التى غمره بها لا تحصى ونعمه لا تعد ، وإن أدقّ نعمة من الله على عبده لتزيد على أضعاف أضعاف ما يؤدى العبد لربه من عبادة وطاعة ، ولو كان من خاصة المقربين وقضى حياته ساجدًا لله - تعالى - والسموم : اسم من أسماء النار كما قال الحسن ، ثم أشار - سبحانه - إلى كمال تعظيمهم لأمر الله بقوله :

٢٨ - (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) :

أى : إنَّا كنا فى الدنيا قبل أن نقدم ونصير إليه - سبحانه - لم تشغلنا أولادنا ولا أهلونا ولا أموالنا ولا ما كنا فيه من جاه زائف وسلطان زائل ، فكنا ندعوه ونلجأ إليه ونعبده فهو - جل شأنه - حقيق بالطاعة والانقياد والإذعان لأمره ، فهو البر التام الإحسان العميم الفضل إذا عُبد أثاب وإذا سئل أجاب .

(فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) : بسبب تفضل الله عليك بالنبوة وغيرها .

(بِكَاهِنٍ) الكاهن : هو الذى يخبر بالغيب بضرب من الظن ، والمشاهد أنه يستمد إخباره بالغيب عن الجن ، وهذا عن الماضى ؛ أما عن المستقبل فلا سبيل له إليه فقد استأثر الله بعلمه .

(نَتَرَبَّصُ) : ننتظر .

(رَيْبَ الْمَنُونِ) : حوادث الدهر ومصائبه . والمنون : هو الدهر ، وقيل : هو الموت .

(أَحْلَامُهُمْ) : جمع حلم وهو العقل .

(طَاغُونَ) : مجاوزون الحد فى العناد .

(تَقَوَّلَهُ) : اختلقه من تلقاء نفسه .

التفسير

٢٩ - (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) :

أى : فدم على التذكير بما أوحاه الله إليك ولا تبال بافتراءاتهم ، فإن من أنعم الله عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين فضلا عن أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان قبل النبوة أعلاهم رأياً ، وأرجحهم عقلاً ، وأبينهم حجة ومنطقاً منذ أن ترعرع وشب إلى أن بلغ الأشد ، فما أبعد من كان هذا شأنه عن أن يكون كاهناً أو مجنوناً ، والكاهن يعتمد فى إخباره عن الغيب على الجن وبضرب من الظن .

والراغب الأصفهانى فى مفرداته خص الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية ، والعراف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة ، فضلا على أن الكهان كانوا عندهم من أكثرهم فطنة وهو ضد المجنون الذى لايعقل ، فكيف جمعوا بين هذين الوصفين المتناقضين فى افترائهم على الرسول؟! .

٣٠ ـ (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) :

المنون : الدهر ، من المن بمعنى القطع ، لأنه يقطع الأعمار ، والريب : مصدر (رابه) إذا أقلقه فيكون المراد حوادث الدهر وصروفه التي تقلق النفوس ، أو المراد بالمنون : الموت ، وريْبُهُ : نُزُولُهُ .

روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر يهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت هذه الآية ، وقد نفى الله ـ تعالى ـ عنه فقال : « وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّاتُؤْمِنُونَ .. » الآية ٤١ من سورة الحاقة .

٣١ ـ (قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) :

أى : قل لهم ـ يا محمد متهكماً بهم مهددًا لهم ـ : انتظروا موتى ما شئتم فإنى أتربص وأنتظر هلاككم وفناءكم كما تتربصون هلاكى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » .

وفى هذا الأسلوب عِدَةٌ وبشارة لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله مهلكهم ومبيدهم . ثم تنتقل الآيات مستهزئة بهم ساخرة منهم ومن عقولهم وذلك فى قوله ـ تعالى ـ :

٣٢ ـ (أَمْ تَأْمُرُهُم أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) :

أى : بل أتأمرهم عقولهم وألبابهم بهذا التناقض فى القول ، فتارة هو عندهم كاهن ، وتارة مجنون ، وتارة أخرى شاعر ، وكانت قريش يُدْعَوْن أهل النهى والأحلام الراجحة ، لأن جميع العالم العربى يأتونهم ويخالطونهم ، ولكنهم فى شأن الرسول أغفلوا عقولهم وأهدروا الاحتكام إليها والعمل بمقتضاها .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله ـ تعالى ـ بالعقل؟ ! فقال : تلك عقول كادها الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أى : لم يصحبها التوفيق ، فلذا لم يؤمنوا وكفروا .

قال الإمام الآلوسى : وأنا لا أرى فى الآية دلالة على رجحان عقولهم ،ولعلها تدل على ضد ذلك (بهذا) التناقض فى المقال ،فإن الكاهن والشاعر يكونان ذَوَىْ عقل تام وفطنة وقَّادة ، والمجنون مغطى عقله مختل فكره ، وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا فى حيصَ بيصَ حتى اضطربت عقولهم ، وتناقضت أقوالهم ،وكذبوا أنفسهم من حيث لايشعرون ا هـ . ولكل وجهته .

(أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) أى : بل هم قوم مجاوزون الحدود فى المكابرة موغلون فى العناد ، ولا يحومون حول الرشد والسداد ، لذلك تناقضوا فى وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٣٣ ـ (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) :

أى : بل أيقولون ـ كذباً وزوراً ـ : إن محمدًا اختلق القرآن الكريم من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه بهتاناً وافتراءً ، فليس الأمر كمـــا يقولون (بَل لَّا يُؤْمِنُونَ) بل إنهم لا يؤمنون بك ولا بما جئت به مع وضوح الحق لديهم جحداً واستكباراً ، قال الله ـ تعالى ـ : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » .

٣٤ ـ (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : فليأتوا بكلام يماثله فى البلاغة والإعجاز إن كانوا صادقين فيما يدّعونه من أنك يا محمد أتيت به من عندك ؛ فما أنت إلا واحد منهم نشأ بينهم ولم يفارقهم ،مع أن بلغاء العرب قد عجزوا وأفحموا ـ بعد أن تحديتهم ـ عن الإتيان حتى بسورة من مثله ،ومحمد عربى مثلهم ولم يعرف عنه أنه تبارى مع الفصحاء والبلغاء ، فإذا كنتم قد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلكم يعجز عن الإتيان بمثله ، لأنه فوق مستوى البشر أجمعين ، لقد كان وعاش أمياً لايعرف القراءة والكتابة مثلكم ، فلو أنه قدر على نظمه لكان غيره من الفصحاء والبلغاء أقدر على ذلك منه ،ومع ذلك بدا عجزهم حتى عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الله وأبان عجزهم فقال : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(خَزَآئِنُ رَبِّكَ) الخزائن : هى البيوت التى تُهيأ لجمع أنواع مختلفة من النفائس والذخائر ، والمراد بها هنا : مفاتيح الرحمة والرزق وغير ذلك من عظائم النعم .

(الْمُصَيْطِرُونَ) : الأرباب الغالبون والمتسلطون القاهرون .

(سُلَّمٌ) : مُرْتَقًى ومصعد .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة بينة .

(مَّغْرَمٍ) : من الغرم والغرامة ، قال الراغب : ما ينوب الإنسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه .

(مُّثْقَلُونَ) : محملون ما يثقلهم ويجهدهم . (كَيْدًا) : مكرا .

(الْمَكِيدُونَ) : المكور بهم الذين يلقون جزاء مكرهم .

٣٥ ـ (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) :

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أى : أم خُلِقُوا هذا الخلق الدقيق العظيم وصوروا هذا التصوير البديع ، فجاءُوا على هذا النظام الحسن من استقامة فى أبدانهم ، ونطق بألسنتهم ، وإدراك فى عقولهم ، وتدبير لأمر معاشهم ، واهتداء إلى ما يصلحهم ويحفظهم ، أَخُلِقُوا هذا الخلق وقدروا التقدير المحكم الذى عليه فطرتهم من غير خالق ومقدر ؟

(أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) أى : أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولا يلتفتون إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف يتصور عقل سليم وفكر مستقيم أن المعدوم يخلق ويوجد سواه فضلًا عن أن يخلق نفسه ؟ وهم مع شركهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم . قال ـتعالى ـ : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[1] وإذا اعترفوا بأن ثَمَّ خالقاً قد خلقهم وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فما الذى يمنعهم من الإذعان له بالعبادة دون الأصنام ؟ إنه هو التقليد لآبائهم ، ومن أجله أهدروا عقولهم ، وعاندوا فى الإقرار بالحق .

٣٦ ـ (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ) :

أى : بل أهم الذين خلقوا السموات والأرض ؟ كلا ، إنهم لم يخلقوها بل لم يقفوا على شىء من أسرارها وما تضم من مخلوقات جليلة عظيمة وعديدة ، فضلا عن أنهم أقروا بأن الله هو الذى خلقهن فقال ـ عز من قائل ـ : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ »[2] .

٣٧ ـ (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) :

أى : بل أعندهم وتحت أيديهم ووفق تصريفهم مفاتيح رزق الله ورحمته من النبوة وغيرها من عظائم نعمه ودقائقها فيقسموها على من يشاءُون ويؤثروا بها من يريدون ويمسكوها

---

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٩ .

عمن لايرغبون ولا يحبون ؟ فلهذا رأوا أن تكون الرسالة لرجل من القريتين عظيم ؟ واستبعدوا النبوة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - لفقره .

(أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) أى : بل أهم الأرباب الغالبون والمعبودون القاهرون حتى يدبروا أمر الخلق ، وينفردوا بهذا التقدير المحكم والتدبير المتقن ، ويعطوا النبوة لمن شاءوا ، ويستعيدوها من سواه ، إنهم ليسوا كذلك ،فالله وحده هو قيوم السموات والأرض وليس له نِدٌّ ولا شريك .

٣٨ - (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : بل أيَدَّعُونَ أن لهم مرتقى ومصعدًا منصوباً إلى السماء يستمعون وهم صاعدون فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى به إليهم من علم الغيب حتى يعلموا أن الظفر والغلبة والعاقبة لهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ادعوا ذلك وزعموه لزمهم أن يأتوا بحجة واضحة ودليل ظاهر بيّن يصدق دعواهم ، وأنّى لهم هذا الدليل ؟ وليس لهم إليه من سبيل .

٣٩ - (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) :

هذا إنكار وتوبيخ ووعيد لهؤلاء الذين بلغ بهم التَّدنِّى فى السفه والغلو فى العناد إلى أن ادعوا أنَّ الملائكة إناث ، وأن الله قد اختارها لنفسه وآثرهم بالبنين ، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يعرفوا فطرتهم ، ولم يقفوا على حقيقتهم حتى يصفوهم بالأنوثة ويزعموا مع ذلك أنهم بنات الله « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] وهم يزعمون أن لهم البنين فيختارون لله ما يكرهون ، ولهم ما يحبون « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »[2] . ليس الأمر كما تزعمون أيها الحمقى - تعالى الله عما تقولون علوًّا كبيرًا - فهو - سبحانه - منزه عن الشريك والصاحبة والولد .

٤٠ - (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

أى : بل أتطلب منهم أجرًا وجزاءً على هدايتك لهم وإرشادهم إلى دين الله الحق تلزمهم بهذا الأجر وتجبرهم عليه ، فهم من هذا الغرم الثقيل الفادح المجهد لهم يزهدون فى اتباعك

---

(١) سورة الزخرف من الآية : ١٩ .
(٢) سورة الزخرف الآية : ١٧

ويصدون عنك ؟ إنك لم تطلب منهم أجرًا على تبليغ رسالة ربك ، بل لقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة على خير أداء وأفضل تبليغ امتثالًا لأمر ربك ، وكنت مع ذلك شديد الشفقة عليهم والرحمة بهم رغبة فى إيمانهم .

٤١ - (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم ولديهم علم ما غاب عن الناس مما هو مسطور فى اللوح المحفوظ وغيره ومما استأثر الله بعلمه ، فعرفوا أن ما أخبرهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من أمر القيامة وما فيها من بعثٍ وحساب ، ثم جنة أو نار ، أعلموا أن ما أخبرهم به الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس له حقيقة ، وإنما هو أمرٌ باطلٌ ،وهم لذلك يكتبون للناس بذلك ويخبرونهم ؟ ليس هذا لديهم ولاهم فى شىء منه .

٤٢ - (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) :

هذه الآية الكريمة من الإخبار بالغيب؛لأنها نزلت قبل اجتماع المشركين فى دار الندوة قبيل هجرته - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وائتمارهم عليه ، فمنهم من كان يرى أن يحبس حتى يموت ، واقترح آخرون أن يخرج وينفى من ديارهم ، ثم اتفقوا جميعاً على أن يختار من كل قبيلة شاب جَلْد فيضربوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ضربة رجل واحد فيتفرق دَمُهُ فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم فيقبلون ديته ،ولكن الله - سبحانه - أعماهم فهم لايبصرون ، وخرج - صلى الله عليه وسلم - من بينهم بعد أن حثا التراب عليهم . والمعنى : بل أيريدون الخديعة والمكر بك لينالوا منك ويقضوا عليك ، إن الله - سبحانه - لن يمكنهم منك ،ولن يصلوا فيك إلى ما يريدون ،فالله راعيك وحافظك ، أما هم فبسبب كفرهم سينزل الله بهم عاقبة مكرهم ،ووبال خداعهم « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[1] وسيلقون جزاءهم فى الدنيا هوانا وقتلا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : بل ألهم إله خلقهم ورزقهم يحييهم ويميتهم ويعطيهم ويمنعهم غير ربِّ السموات والأرض رب العالمين ، فهم لإلٰههم هذا يدينون بالربوبية ويشركونه مع الله فى العبادة ، إن الله - سبحانه - تنزه وتعالى عما يشركون فهو الذى تقدس عن أن يكون له شريك أو ند أو نظير .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] .

(وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾)

المفــردات :

(كِسْفًا) : قطعة .

(مَرْكُومٌ) : ملقى بعضه فوق بعض .

(فَذَرْهُمْ) : فدعهم واتركهمْ .

(يُصْعَقُونَ) : يهلكون ويموتون .

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١١

(دُونَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك .

(لِحُكْمِ رَبِّكَ) : لقضاء ربِّك فيما حملك من رسالته .

(بِأَعْيُنِنَا) : فى حفظنا وحراستنا .

(إِدْبَارَ النُّجُومِ) : غيبها وذهاب ضوئها بطلوع الفجر الثانى .

التفسير

٤٤ ـ (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ) :

أى : وإن يروا بأعينهم ويظهر لهم قطعة عظيمة من السماء تسقط عليهم لتهلكهم وتقضى عليهم لقالوا ـ من فرط طغيانهم وشدة عنادهم ـ :هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض يحفل بالمطر ويمتلئ بالغيث يسقينا ويروينا ،ولم يصدقوا أنه كِسْف وقطعة تنزل لعذابهم ، وهم بقولهم هذا يتبعون طريق وسنن من كان قبلهم فى صلفهم وكبرهم كعاد قوم هود عند ما رأوا سحاباً استقبل أوديتهم فرحوا به واستبشروا وقالوا : هذا يأتينا بالمطر ، وقد حكى القرآن الكريم عن رسولهم هود ـ عليه السلام ـ أنه قال لهم :

« بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »[1] .

٤٥ ـ (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ) :

أى : اتركهم ـ يا محمد ـ غير مكترث بهم ولا ملقياً لهم بالاً حتى ذلك اليوم الذى فيه يلقون حتفهم وهلاكهم وهو يوم غزوة بدر حيث ينصرك الله نصراً مبيناً مؤزرًا تطمئن به قلوبكم ،ويقهر به عدوكم ،ويُلقى الله به الرعب فى قلوب من تحدثه نفسه أن ينازلكم أو يتعرض لملاقاتكم .

---

(١) سورة الأحقاف ، من الآية : ٢٤ والآية : ٢٥ .

٤٦ – (يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : فى هذا اليوم الذى هو يوم بدر لا يفيد ولا يغنى عنهم ما مكروا به ودبروه فى دار الندوة لإلحاق الأذى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا الكيد والمكر الذى عاونهم فيه إبليس – عليه اللعنة – كما لم ينفعهم ما أعدوه من العدد والعُدّة لمناصبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم وراء ذلك لايجدون أحدًا ينصرهم ويمنع عنهم نزول الهزيمة بهم ، وقتل سادتهم وشجعانهم وأشرافهم .

٤٧ – (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : لا يقف شأن إنزال الهوان والعذاب بهم عند هذا الحد ولا يقتصر على إحاطته بهم يوم بدر ، بل وإن لهؤلاء الظالمين أنفسهم بكفرهم ،والظالمين غيرهم بالقتل والتعذيب والإذلال ،إن لهؤلاء جزاء ظلمهم – عذاباً مهيناً غير هذا العذاب الذى نزل بهم وهو ما يصيبهم من القحط والجدْب فى السنين السبع التى أكلوا فيها الجيف ، وردئ الطعام ومُرّه ، أومايلقونه من مصائب الدنيا وعذاب القبر ،وهم عن ذلك فى غفلة ،وأكثرهم لايعلمون ما سيحل بهم من الوبال والهلاك ، وبعضهم يعرفه ويعلمه غير أنه يصر على الكفر والضلال عنادًا وكبرًا وَصَدًّا .

٤٨ – (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) :

أى : اصبر –يا محمد– على ما حملك الله من رسالته ،وما يتبع ذلك مما ابتلاك الله به من سفه قومك وإعراضهم (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) أى : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما يحدث منك وما يفعله أعداء الله بك ،فنحفظك ونرعاك ونحرسك ، وفى التعبير بصيغة الجمع فى قوله – تعالى– : (بِأَعْيُنِنَا) للدلالة على المبالغة فى الحفظ ،كأن معه من الله–تعالى–حُفَّاظًا يكلؤونه بأعينهم ، وقال الإمام الآلوسى نقلا عن العلامة الطيبى : إنما أفرد هناك – يعنى فى سورة طه – فقال فى شأن موسى–عليه السلام– : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » لإفراد الفعل هناك وهــو كلاءة موسى « رعايته وحفظه » وهنا لمــا كان لتصبير الحبيب – يعنى محمدًا ، صلى الله عليه وسلم – على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها

أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه ــ عز وجلّ ــ ثم قال : ومن نظر بعين بصيرة علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم ــ عليهما أفضل الصلاة والتسليم ــ وفى هذا وعد للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالنصر والحفظ والرعاية ، وبشارة للمسلمين بالظفر والأمان .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) أى : نزه ربك وقدّسه ، قال عون بن مالك وابن مسعود وغيرهما : المراد : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ،فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ،ودليل هذا ما أخرجه الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ،أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلّا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك » وقيل : المعنى : حين تقوم من منامك ،قال حسان بن عطية : ليكون متفتحاً لعمله بذكر الله ، وقال الكلبى : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهى صلاة الفجر ، وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ؛أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ،ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ربُّ السموات والأرض ومن فيهن ، وأنت الحق ،ووعدك الحق ،وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنّار حق ، والساعة حق ،والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ،وأسررت وأعلنت ،أنت المقدم وأنت المؤخر ،لا إله إلّا أنت ولا إله غيرك » متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضاً أنّهُ ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران .

٤٩ ـ (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) :

أى : وفى بعض الليل نزه ربَّك وقدِّسه وعظِّمه ، وخص ـ سبحانه ـ بعض الليل وأفرده بالتسبيح والتقديس له ـ جلَّ شأْنه ـ لأَن العبادة فى جوف الليل أَشق على النفس وأَبعد عن الرياء ،ويجوز أَن يراد بالتسبيح هنا :الصلاة فى الليل والتهجد فيه ، وهذه الصلاة من خصوصياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الواجبة عليه وحده ، والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من التسبيح لله ، ومنه سُبحة الضحى ، أى : صلاة الضحى (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) :هو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثانى ، وهو البياض المنشق من سواد الليل ، والمراد به : صلاة ركعتين قبل الفجر ، وهذا مروى عن كثير من الصحابة كعمر وعلى وأَبى هريرة وغيرهم ـ رضى الله عنهم جميعا ـ كما هو مأْثور أيضا عن كثير من التابعين كالحسن البصرى والنخعى والشعبى وغيرهم ،كما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله : بت ليلة عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ركعتين قبل الفجر ،ثم خرج إلى الصلاة فقال : «يا بن عباس ، ركعتان قبل الفجر إدبار النجوم ، وركعتان بعد المغرب إدبار السجود »وفى صحيح مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شىء من النوافل أَشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح . وعنها أَن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها . والله أَعلم .

سورة والنجم

وتسمى - أيضاً - سورة النجم - بدون واو - وهى مكية وآياتها ثنتان وستون آية ،وهى كما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال :أول سورة أعلن النبى - صلى الله عليه وسلم - بقراءتها فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى وغيره قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة : (والنجم) فسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسجد الناس كلهم إلّا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا ، وهو أميّة بن خلف ، وفى البحر أنه - عليه الصلاة والسلام - سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبى لهب ،فإنه رفع حفنة من تراب وقال : يكفى هذا ، فيحتمل أنه هو وأمية بن خلف فعلا ذلك .

وعن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - أن عتبة بن أبى لهب ، وكانت تحته بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدًا فلأُوذينّهُ ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى والذى دنا فتدلى ، ثم تفل فى وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (اللَّهم سلط عليه كلباً من كلابك) وكان أبو طالب حاضرًا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا بن أخى عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه الأرض مسبعة (كثيرة السباع) فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ، فإنى أخاف على ابنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله » وقال حسان :

من يرجع العام إلى أهله فما أكِيلُ السبع بالراجع

ومناسبتها لما قبلها : أن سورة الطور ختمت بقوله -تعالى- : (وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)، وافتتحت سورة النجم بقوله-تعالى- : (وَالنَّجْمِ)، وأيضاً فى مفتتحها ما يؤكد الإنكار

والرد على الكفرة فيا نسبوه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الشعر والكهانة والجنون ، ومن الزعم بأنه يتقول ويختلق على الله القرآن ، ويدّعى أنه من عند الله ، مما هو مذكور فى سورة الطور كقوله – تعالى – : « فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ » وقوله– تعالى– : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » .

وذكر أبو حيان : أن سبب نزولها قول المشركين : إن محمدًا – عليه الصلاة والسلام – يختلق القرآن ، فنزلت السورة الكريمة للرد عليهم .

بعض مقاصد السورة :

١ – أنها – شأن السور المكية – تعنى بالرسالة وتؤكدها ، قال –تعالى– : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .

٢ – أن السورة الكريمة تحدثت عن المعراج الذى كان تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد عام الحزن على وفاة زوجه أم المؤمنين السيدة خديجة – رضى الله عنها – وعمه أبى طالب ، وما رآه – عليه الصلاة والسلام – من آيات ربه الكبرى ،وعجائبه العظمى فى الملكوت الأعلى ، عند سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى .

٣ – أنها تنعى وتعيب على هؤلاء المشركين عبادة غير الله من الأوثان والأصنام وغيرها من المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع ،ولا تسمع ولا تبصر ، بل إن بعضها قد صنعوه بأيديهم (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ *وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) الآيات. ثم إنها تسفههم على أن آثروا أنفسهم بالبنين ، وجعلوا لله ما يكرهونه ويأنفون منه وهو البنات قال تعالى : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ) .

٤ – أنَّهَا أخبرت عن الحساب والجزاء يوم القيامة : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) .

٥ ـ أنها تحدثت عن أن الله هو الذى يحيى ويميت وأنه إليه المنتهى والمصير ، وأنه وحده هو الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) .

وكانت خاتمة السورة أن ذكرت أصنافاً من العذاب لأمم خالفت أنبياءها وآذتهم ، فأنزل الله بهم ما يستحقون ، وذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعد له وللمؤمنين بنصر الله ، كما أن فيها وعيدًا وتهديدًا للمشركين أن يحل بهم ما نزل بغيرهم ممن هم على شاكلتهم ، قال ـ تعالى ـ : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(هَوَىٰ) : سقط أو نزل .

(مَا ضَلَّ) : مازلّ ولا بعد عن طريق الهدى .

(وَمَا غَوَىٰ) : ماخاب ولا أمعن فى الجهل .

(ذُو مِرَّةٍ) : ذو حصافة فى رأيه ومتانة فى دينه .

(فَاسْتَوَىٰ) : فاستقام على صورته الحقيقية .

(دَنَا) : قرب .

(فَتَدَلَّىٰ) : امْتَدَّ من أعلى إلى أسفل فزاد قربه .

(قَابَ قَوْسَيْنِ) القاب : ما بين المقبض وطرف القوس ، والقوس : آلة على هيئة الهلال ترمى بها السهام ، أى : مقدار قوسين عربيتين .

(أَفَتُمَارُونَهُ) : من المِراء ، وهو الملاحاة والمجادلة ، أى : أفتجادلونه .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَاغَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) :

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) المراد بالنجم هنا : هو جنس النجوم ،وهى من خلق الله ، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وتصك وترمى بِجُزَيْئَات منها الشياطين التى تسترق السمع فيتبعها من هذه النجوم الشهاب الثاقب الذى يصدها ويدفعها ، كما أنها تزين السماء الدنيا بالزينة الحسنة ،والحلية البهيجة قال-تعالى- : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ »[1] فضلا عن أن هذه النجوم آية باهرة تدل على كمال اقتداره - سبحانه - وعظيم سلطانه ؛ إذ هى فى أفلاكها ومداراتها لاتضل ولايصطدم بعضها ببعض بل تسير وفق نظام بديع محكم والمراد بِهُوِىِّ النجم سقوطه على الشياطين ، وفيه إشارة إلى أن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- سيظهر ويقهر الله أعداءه ، كما تفعل الصواعق التى تهوى من النجوم بما يكون فى طريقها .

أقسم- جل شأنه-بالنجم الذى له هذه الصفات الجليلة والخصائص العظيمة (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ) على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يضل ولم يبعد عن الحق ولم يغب أو ينأ عن الهدى ، بل هو على الصراط المستقيم (وَمَا غَوَىٰ) أى : وما خاب ولا انخرط فى سلك الجهال المارقين عن الدين الصحيح ، بل هو راشد مهتد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغىّ . وفى القسم بالنجم بهذا المعنى على أنه - عليه الصلاة والسلام- منزه عن شائبة الضلال والغواية - فى هذا القسم - من البراعة البديعية ، وحسن التصوير ، وجمال الواقع مالاغاية وراءه ؛ لأن النجم شأنه أن يهتدى به السارى إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : والنجم الذى يهتدى به السابلة إلى مقاصدهم ،ويسترشدون به فى مسالكهم نحو غاياتهم ماعدل محمد عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ، وفى هذا من التمثيل مايعطى

---

(١) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة الصافات .

بأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الصواب فى أفعاله وأقواله ، ما اعتقد باطلا قط ، وعطف قوله : (وَما غَوَىٰ) على قوله : (مَا ضَلَّ) من قبيل عطف الخاص على العام .

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) أى : وما يتكلم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن الكريم عن هوى نفسه ورأيه أصلا إنما هو وحى من عند الله يوحيه الله إليه ، وقيل المراد : ما يصدر نطقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى شأن الدين مطلقاً ـ قرآنا كان أو غيره ـ عن هوى بل كُلُّهُ وحى . وهناك من المفسرين من يرى أن نطق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجتهاده ليس صادراً عن هوى النفس ، وإنما هو واسطة بين ذلك والوحى ، ويجعل الضمير فى قوله : (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) راجعاً للقرآن الكريم ، وبهذا قال العلامة الآلوسى . كأنه قيل : إذا كان هذا شأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه لا ينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذى جاء به وخالف ما عليه قومه ، واستمال به قلوب كثير من الناس ، وكثرت الأقاويل فيه . ما هو إلا وحى يوحيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه الناس .

وفى قوله ـ تعالى ـ : (وَمَا يَنطِقُ) مضارعاً وهو مايدل على الحال والمستقبل مع قوله ـ سبحانه ـ : ما (ضَلَّ) (وَمَا غَوَىٰ) بصيغة الماضى فيهما ما يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ ميَّز ، وقبل أن يتدرج ويترقى فى أمور الحياة ويتدرب عليها ، وقبل أن يختاره ربه ـ جل وعلا ـ نبيًّا ورسولا فكيف به وقت أحكمته التجارب وتوجته الرسالة فهو لاشك ـ وهذه حاله ـ أبعد من أن ينطق عن هوى نفسه ، أو يتكلم عن شهوة ، وفى هذا الأسلوب ـ كما يقول العلامة الآلوسى ـ : حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم .

٥ ـ (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) :

أى : علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن الكريم وأنزله عليه من عند الله ـ عز وجل ـ ملك شديدة قواه وهو جبريل ـ عليه السلام ـ ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم

لوط ثم قلبها ، وقد صاح صيحة بثمود قوم صالح ـ عليه السلام ـ فأصبحوا جاثمين هالكين ، كما كان هبوطه على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف .

٦ ـ (ذُومِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ) :

(ذُو مِرَّةٍ) أى :ذو حصافة فى عقله ، وجزالة فى رأيه ، ومتانة فى دينه ، وقد ائتمنه الله ـ تعالى ـ على وحيه إلى جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ (فَاسْتَوَى) أى : فاستقام جبريل ـ عليه السلام ـ على صورته الحقيقية التى خلقه الله ـ تعالى ـ عليها دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وكان ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صورة الصحابى الجليل « دحية الكلبى » كما كان يتمثل وينزل فى صورة أعرابى ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب أن يراه فى صورته التى جبل وخلق عليها .

٧ ـ (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) :

أى : جبريل ـ عليه السلام ـ بالجهة العليا من السماء فاستقام وظهر وملأ الأفق ، وكان ذلك عند غار حراء فى أوائل النبوة .

٨ ـ (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) :

أى : ثم قرب جبريل ـ عليه السلام ـ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فَتَدَلَّىٰ)فتعلق فى الهواء ودنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دُنُوًّا خاصاً ونزل بقربه .

٩ ـ (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ) :

أى : فكان مقدار مسافة قرب جبريل ـ عليه السلام ـ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمقدار قوسين عربيتين أو أقرب من ذلك على تقديركم ومعاييركم ،وهذا كناية عن شدة القرب .

١٠ - ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أى : فأوحى جبريل - عليه السلام - إلى عبد الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - الذى أوحاه إليه من عند الله - سبحانه - ولم يبين - جل شأنه - الموحى به ، وذلك لتفخيمه وتعظيمه ، أى : أوحى إليه أمرًا عظيماً .

١١ - ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ :

أى : ما كذب قلب محمد ما أبصره بعينيه من صورة جبريل - عليه السلام - أى : ما قال فؤاده - صلى الله عليه وسلم - لما رآه ببصره : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذباً وحاشاه أن يكون كذلك ، بل إنه - عليه السلام - عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

١٢ - ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ (١) عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ :

أى : أفتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل - عليه السلام - الحقيقية بعد ما رآه قبل على صور تمثل فيها بصورة آدمية ؟ كان ذلك حتى لا يشتبه عليه بأى صورة ظهر فيها .

---

(١) وهو من المراء، وهو المجادلة، واشتقاقه من مرى الناقة : إذا مسح ضرعها ليخرج لبنها وتدر به، فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجة ، فكأنه يستخرج دره : الآلوسى .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ ﴾

المفردات :

(نَزْلَةً أُخْرَىٰ) : مرة أخرى من النزول .

(سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) السدرة : شجرة نبق فى السماء ، إليها ينتهى علم كل الخلائق .

(جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) : الجنة التى يأوى إليها المتقون ، وقيل غير ذلك .

(مَازَاغَ الْبَصَرُ) : ما مال بصر الرسول عما رآه .

(وَمَا طَغَىٰ) : وما تجاوز ما رآه إلى غيره .

(آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) : عجائبه الملكية والملكوتية .

(اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) : أصنام لهم كانوا يعبدونها .

(قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) : قسمة جائرة .

(مِن سُلْطَانٍ) : من برهان وحجة .

(مَا تَمَنَّىٰ) : ما تشتهى نفسه .

التفسير

١٣ - (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) :

أى : ولقد رأى النبىُّ - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - فى صورته التى جبل عليها مرة أخرى ، والرؤية فى هذه المرة كانت بنزول كالرؤية فى المرة الأُولى عند غار حراء يشير إلى ذلك قوله تعالى : (نَزْلَةً أُخْرَىٰ) وقيل : رأى محمد - عليه الصلاة والسلام - ربه - جل وعلا - بلا كيف ولا انحصار . كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وغيره .

١٤ - (عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) :

هذه السدرة هى شجرة نبق عن يمين العرش فى السماء السابعة . (الْمُنتَهَىٰ) : اسم مكان ؛ لأنها - كما أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس - إليها ينتهى علم كل عالم ، وما وراءها لايعلمه إلَّا الله - تعالى - وقيل : لأنها تنتهى إليها أعمال الخلائق بأن تعرض على الله عندها ، أو تنتهى عندها أرواح الشهداء ، أو أرواح المؤمنين مطلقاً .

١٥ - (عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ) :

أى : عند سدرة المنتهى تكون جنة المأوى التى يأوى ويرجع إليها المتقون ، أو يصير وينزل فيها أرواح الشهداء .

١٦ - (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ) :

أى : رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - وقت ما يغطى ويستر السدرة ما يغطيها ويسترها من الأشياء الدالة على عظمة الله وجلاله مما لا يحيط به الوصف ، ولا يقدر على إدراك حقيقته الأفهام ، وقيل : ما غشاها وسترها من الملائكة . أخرج عبد بن حميد قال : استأذنت الملائكة الرب - تبارك وتعالى - أن ينظروا إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه - صلى الله عليه وسلم -

١٧ - (مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ) :

أى : ماعدل بصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ، وما تجاوز ما أذن له فى رؤيته ولا تعداه إلى سواه ، فقد أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلّا ما أمر به ، ولايسأل فوق ما أعطى له ، ولله درّ القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها

١٨ - (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لقد نظر وأبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضاً من عجائب خلق الله وآياته العظمى كرؤيته جبريل - عليه السلام - فى صورته الحقيقية وكرؤية سدرة المنتهى وما شاهده فيها ، وقد أخرج البخارى وجماعة ،عن ابن مسعود فى الآية :(رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق) .

١٩ ، ٢٠ - (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) :

لما ذكر الوحى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الآيات السابقة وذكر - سبحانه - أيضاً بعض آثار قدرته حاجّ المشركين وسفههم ووبخهم إذ عبدوا مالا يعقل ، وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التى تعبدونها وقد أوحت وأنزلت إليكم شيئاً كما أوحينا إلى محمد ؟ وهل رأيتم من عجائب خلقها كما رأى محمد من آيات ربه الكبرى ؟ واللات والعزى ومناة أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله : فاللات لثقيف بالطائف . وقيل فى هذا الصنم : إنه كان رجل يلت السويق للحاج على حجر ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالا له وسموه بذلك ، وهناك أقوال أخرى غير هذه فى سبب التسمية ، وبقيت اللات إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، أما العزى : فكانت لقريش أو لغطفان وهى سمرة ببطن نخلة بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ، فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

ياعز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ورجع وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال - عليه الصلاة والسلام - : « تلك العزى ولن تعبد أبدًا » . وكانت مناة لهذيل وخزاعة ، وقيل : لبنى هلال ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليًّا - كرم الله وجهه - فهدمها عام الفتح ، وسميت (مناة) ؛ لأن دماء الذبائح والنسائك كانت تمنى (تراق) عندها تقرباً إليها ، أو هى مأخوذة من النوء لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها (الْأُخْرَىٰ) :صفة ذم وهى المتأخرة الوضيعة ، وهى - أيضاً - تدل على ذم السابقتين (اللَّاتَ وَالْعُزَّى) ، لأن أخرى تأنيث آخر تستدعى المشاركة مع السابق عليها فى الحكم ، وهو هنا الذل والوضاعة ونزول القدر والمكانة .

٢١ - (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) :

بعد أن سفه الله أحلامهم ووبخهم على ما اقترفوه من عبادة هذه الأصنام مع وضوح آثار عظمة الله فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته - بعد ذلك - أنحى عليهم مرة أخرى بالتقريع والتوبيخ لتفضيلهم أنفسهم على جنابه - عز وجل - حيث جعلوا له - سبحانه - الإناث التى يأنفون منها ، واختاروا لأنفسهم الذكور ، وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله وكانوا يعبدونها ويزعمون أنها شفعاؤهم عند الله - تعالى - فقال لهم :

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ) أى : أيستقيم قولهم هذا لدى أرباب العقول السليمة والفطر المستقيمة ؟

٢٢ - (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) :

أى : قسمتكم هذه قسمة جائرة ظالمة حيث اصطفيتم لأنفسكم الذكور ، وجعلتم لله الإناث ، ومن شأنكم أنكم تستنكفون من أن يولدن لكم وينسبن إليكم ، فضلا عن أن تجعلوا هؤلاء الإناث أندادًا لله وتسمونهن آلهة .

٢٣ - (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) .

(إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ) :

أى :ما الأصنام التى تَدَّعون أنها آلهة–ما هى–إلا أسماء ليس تحتها فى الحقيقة مسميات ، وما تزعمونه لها هو أمر أبعد شىء عنها ، وأشد منافاة لها ، فهى لاتدفع عن نفسها ولاتنفع ولا تضر غيرها (أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) أى : قد تابعتم آباءكم وقلدتموهم فى عبادتها واتخاذها آلهة ، وهى ليست إلّا مجرد تسميات لجمادات وضعتموها أنتم (مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) .

أى : ما هى إلّا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم على صحة تسميتها آلهة برهان ودليل من الله تتعلقون وتتمسكون به .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ) :المراد بالظن هنا : هو التوهم ، وشاع استعماله فيه ، أى : ما تتبعون ولا تسيرون إلّا وراء وهم باطل حيث يدور فى خلدكم العليل وعقلكم السقيم أنَّ ما أنتم عليه حق ، وأن ما تزعمونه من آلهة تشفع لكم .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ) :أى : والحال أن الله –سبحانه–قد أرسل إليكم رسوله – صلى الله عليه وسلم – تفضلا منه وإنعاماً عليكم يهديكم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فكيف تتركون ما جاءكم من الهدى والرشاد إلى ما أنتم عليه من دين باطل واعتقاد فاسد .

٢٤ – (أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ) :

أى : بل ليس للإنسان مطلقاً ما يتمناه وتشتهيه نفسه يتصرف فيه حسب إرادته ، وهذا يقتضى نفى أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى لدى الله يوم القيامة ، قال تعالى – حكاية – عن بعض هؤلاء الكفار :

« وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ » كما ينفى ما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أو يكون بعضهم هو النبى ونحو ذلك من أمانيهم الكاذبة الخادعة .

٢٥ - (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ) :

أى : هو-سبحانه - وحده مالك الدنيا والآخرة يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء وليس لأحد أن يعقب عليه فى شىء منهما ،بل ماشاء الله - تعالى - له كان ومالم يشأ لم يكن . والله أعلم .

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ) كم هنا : اسم استفهام خبرى فلا يحتاج إلى جواب ، والمراد منه التكثير ،ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره جملة (لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً) ومعناه : وكثير من الملائكة .

(لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) أى : لمن يشاء الله أن يشفع له الملائكة ويراه أهلا للشفاعة .

(يُسَمُّونَ الْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ) بأن يقولوا : إنهم بنات الله ، « تعالى اللهُ عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا » .

(إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم الباطل .

(لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) : لا ينفع الظن من الحق شيئاً من النفع .

(فَأَعْرِضْ عن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا) : اترك ولا تهتم بمن أعرض عن قرآننا .

التفسير

٢٦ - (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) :

بهذه الآية يوبخ الله من عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن عبادتهم تقرب إلى الله تعالى ، فقد نبهت ودلت على أن الملائكة مع كثرة عبادتهم وكرامتهم على الله لاتملك أن تشفع إلّا لمن أذن الله - تعالى - أن يشفعوا له من عباده ممن يستحق الشفاعة من الموحدين فكيف تطمعون أن يشفعوا لكم ، لأنكم تعبدونهم ؟ وإذًا كانت الملائكة المقربون إلى الله لاتشفع لكم فكيف تطمعون فى شفاعة الأصنام أيها المشركون .

ومعنى الآية على هذا : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم شيئاً من النفع لأحد من عباده المذنبين إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاؤه من عباده ويرضاه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فالله لايأذن لأحد من الملائكة فى الشفاعة لهم ، أولا تكون منهم شفاعة أصلا إلا من بعد أن يأذن الله ...الخ . وأجاز بعضهم أن يكون معنى الآية : وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاؤه منهم بالشفاعة ، ويراه أهلا لها .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) :

إن الذين لايصدقون بالبعث والحساب والجزاء فى الآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، فيقولون : هم بنات الله - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - وليس لهم بهذا الادّعاء من علم ، فإنه ليس عليه دليل عقلى ولانقلى ، ما يتبعون فى هذه التسمية إلّا التوهم الباطل ، وإنه لا يغنى من الحق شيئاً من الإغناء .

وقد أنكر الله فى هاتين الآيتين أمرين ونفاهما :

أحدهما : دعوى أنوثتهم .

وثانيهما : أنهم بنات الله ، وقد توعدهُم الله على ذلك فى سورة الزخرف فقال - سبحانه - : « وَجَعَلُواْ الْمَلَآئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً ، أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[(١)] .

٢٩ ، ٣٠ - (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ) :

اترك ولا تهتم أيُّها الرسول بمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم بالحق ، وهو القرآن العظيم ، المشتمل على العقائد الصحيحة ، وعلى علوم الأولين والآخرين ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا قاصراً نظره عليها كالنضر بن الحرث ، والوليد بن المغيرة ، ولا تحرص على هداهم أكثر مما فعلت ، ولا تأس على القوم الكافرين ، ذلك الذى تقدم فى شأن عقيدتهم ، وقصر نظرهم على الدُّنيا وإنكارهم للآخرة هو منتهى ما وصلوا إليه من الإدراك والفهم ، إن ربك هو أعلم بمن انحرف عن السبيل الموصل إلى مرضاته ، وهو أعلم بمن اهتدى إليه ، فسوف يجزى كليهما بالجزاء الذى يستحقه .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩ .

(وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) : ويجزى الذين اهتدوا بالمثوبة الحسنى .

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ) الذين :خبر لمبتدأ محذوف ، أى :هم الذين يجتنبون . إلخ والجملة بيان لمن اهتدى ، وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ويكبر عقابه .

(اللَّمَمَ) : ما صغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره ، ومنه لمة الشَّعَر ، لأنها دون الوفرة .

(فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ) : فلا تصفوها بالطهارة .

التفسير

٣١ - (وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) :

أى : ولله وحده جميع مافى السموات ومافى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، - له تعالى كل ذلك - خلقاً وملكاً وتصرفاً ، خلقهما وخلق ما فيهما ومَلَكَه ليجزى الذين أساءوا بعقاب ما عملوا ، ويجزى الَّذِين أحسنوا فآمَنُوا وعملوا الصالحات بالمثوبة الحسنى .

٣٢ - ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ :

هذه الآية بيان للذين أحسنوا ومدح لهم ، فكأنه قيل : المحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ولا يفعلونها ، ولكن قد يفعلون اللمم .

وكبائر الإثم : ما عظم من الذنوب ، ووصفها بعضهم بما ورد فيه وعيد شديد كالغيبة والنميمة ، والفواحش هي نفس الكبائر - كما ذهب إليه بعض العلماء - فعطفها على الكبائر لتقبيحها ، وذهب آخرون إلى التفرقة بينهما ، فالكبائر : ما ورد فيه وعيد شديد أو لعن بلا إقامة حدّ ، والفواحش : ما ورد فيها الحد كالزنى والسرقة والقتل بغير حق ، ويشبه هذا الرأى ما نقل عن مقاتل : كبائر الإثم : كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد .

واللَّمَمَ : ما يُلم به العبد من صغائر الذنوب ، ومثَّل له أبو سعيد الخدرى بالنظرة ، والغمزَة ، والقبلة ، وفسره الرُّمَّانى : بأنه هو الهم بالذنب وحديث النَّفْس دون ارتكاب له ، وعليه فالاستثناء فيه منقطع بمعنى : (لكن) قد يحدث منهم اللمم ، وعن ابن عباس : هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم يتوب ، وبه قال مجاهد والحسن ، ودليل ذلك قوله - تعالى - : « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ »(١) ثم قال : « أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. »(٢) ودليله من الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وعليه يكون متصلا .

والآية عند الأكثرين تدل على انقسام المعاصى إلى كبائر وصغائر حقيقة كما تقدم [وقال جماعة من الأئمة منهم أبو إسحاق الإسفراينى والباقلانى وإمام الحرمين - قالوا - : إن المعاصى كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها كبيرة والأخرى صغيرة بالنسبة إليها ، وكلها قابلة للتوبة منها وتكفر بها ، وبهذا قال معظم المعتزلة . وقال بعض العلماء : إنه لا خلاف فى المعنى بين الرأيين ، فإنه لاخلاف بين العلماء فى أنَّ من المعاصى ما يقدح فى العدالة ، ومنها مالا يقدح فيها ، وإنما سَمَّوها كلها كبائر نظرًا لعظمة الله الذى لا يصح أن يعصى .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٦ .

وبعد هذا نقول : استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، واحذر الصغائر فإنها مدرجة إلى الكبائر ، نسأل الله العصمة منها .

(إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) حيث يغفر الصغائر بتجنب الكبائر ؛ بل ويغفر الكبائر بالتوبة منها .

(هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) الله أعلم بكم أيها الناس حين أنشأكم من الأرض ، حيث خلق أباكم آدم من ترابها ، أو أنشأكم جميعاً منها ، فإن النطفة التى خلقكم منها ناشئة من الأغذية ، والأغذية منشؤها الأرض .

والله تعالى أعلم بكم وقت كونكم أجنة فى بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة بعضها يلى بعضاً ، وإذا كان الأمر كذلك فلا تزكوا أنفسكم وتصفوها بالطهر من الإثم ، هو أعلم بمن اتقى المعاصى كما يعلم من فعلها ، فيجازى كلا على عمله ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

وهذه الآية نزلت -على ما قيل- فى قوم من المؤمنين ، كانوا يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون استعظاما لها وتكاثرا : صلاتنا وصيامُنا وحجنا ، وهذا مذموم منهى عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء ، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ، ولذا قيل : المسرَّة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

(أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(الَّذِى تَوَلَّىٰ) : الذى رجع معرضاً عن الإسلام بعد ما كان مقبلا عليه .

(وَأَكْدَىٰٓ) :أمسك ورجع عن الإسلام ، وأصله : بلغ الكُدْية : وهى الصخرة ، يقال لمن

يحفر الأرض وتصادفه كدية فيمسك عن الحفر - يقال له - : أكدى ، ثم استعمله العرب فيمن أعطى ولم يتمم العطاء ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره .

التفسير

٣٣ ، ٣٤ - (أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ . وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ)[1] :

هاتان الآيتان وما بعدهما مما يتصل بهما نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على دينه فعيَّره بعض المشركين وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ فقال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له أن يتحمل عنه عذاب الله إن أعطاه شيئاً من ماله ، فأعطاه ما كان قد وعده به ثم بخل بباقيه فنزلت .

وقال مقاتل : كان الوليد قد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا) أى : من الخير بلسانه ثم قطع ذلك وأمسك عنه ، وقيل غير ذلك .

ووجه صلة هذه الآيات بما قبلها : أنه - تعالى - لما بين فى الآيات السابقة جهل المشركين فى عبادة الأصنام ، ذكر فى هذه الآيات قصة أحد زعمائهم فى جهله ورجوعه عن الحق .

والمعنى : أفرأيت -أيها الرسول- هذا الذى رجع عن الحق ولم يثبت عليه ، وأعطى قليلا من مدح الإسلام والإقبال عليه ، وقطع العطاء فلم يستمر عليه ، بل رجع إلى شركه ودين قومه .

---

(١) « أفرأيت » الهمزة هنا : للتعجيب من سوء حال الذى تولى ، ورأيت : بمعنى علمت ، وأبصرت .

(أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(يُنَبَّأْ) : يُعْلم ويُخْبر .

(وَفَّىٰٓ) : أتم ما أمر بتبليغه على أكمل وجه فى الوفاء .

(أَن لَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) أن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، أى : أنه ، والوِزْر : الحمل .

(سَوْفَ يُرَىٰ) : سوف يعرض عليه وعلى أهل القيامة ، من : أريته الشىء أى : جعلته يراه .

(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء ،وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما .

التفسير

٣٥ - (أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ) :

أى : أعند هذا الَّذِى أكدى علم بما غاب عنه من أمر عذاب الآخرة وأهوالها فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، أو معناه : فهو يرى أن ما سمعه من القرآن باطل .

٣٦ - ٣٨ - (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) :

أى : بل ألم يخبر هذا الَّذِى تولى عن الإسلام وأعطى قليلا منه ولم يستمر عليه ، ألم يخبر بتوراة موسى وصحف إبراهيم الذى وفى ماكلف به ؟ فما أمره الله بشىء إلَّا فعله . وما نهاه عن شىء إلَّا تركه - ألم يُخْبَر بما فى هذه الصحف - أن لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى من الذنوب ؟! فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ولا يعاقب إلَّا بذنب نفسه .

وأطلق على النفس لفظ وازرة « حاملة » لأن من شأنها حمل الذنوب ، سواء أكانت مذنبة أم لم تكن مذنبة .

فإن قيل : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من سنَّ سُنَّةَ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » فقد دل على أن الإنسان يحمل ذنب غيره ، فالجواب أنه فى ذلك يحمل ذنب إضلاله لغيره الذى هو ذنبه لاذنب سواه ، بالإضافة إلى ذنب نفسه ، أمَّا الآخر الذى قَلَّده فإنه يحمل ذنب ضلال نفسه .

وتخصيص صحف موسى وإبراهيم بالذكر دون سائر الأنبياء؛ لأن موسى أقرب أصحاب الشرائع إليهم ، وأن إبراهيم كان رسول الله إليهم ، ولا تزال بقية مما جاء به معروفة بينهم ، أما صحف غيرهما من الأنبياء فإنها لم تكن لها بقية لديهم .

وفى تفسير (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) قال الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - : كانوا قبل إبراهيم - عليه السلام - يأخذون الرجل بذنب غيره ، يأخذون الولى بالولى - أى : القريب بالقريب - فى القتل والجراحة فيقتل الرجل بذنب أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه ، والزوجة بزوجها ، وزوجها بها وبعبْدِهِ ، فبلغهم إبراهيم - عليه السلام - عن الله تعالى : (أَلَّاتَزِرُ نَفْسٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : « وفَّى » أى : عمل بماأُمِر به وبلغ رسالات ربه ، قال القرطبى : وهذا أحسن لأنه عام .

ونحن نقول : لاخلاف بينهم وبين ابن عباس فيما قالوه ، لأن ابن عباس لايقصد أنه اقتصر على تبليغهم ذلك ، فإنه بعض ما أمره الله تعالى به ووفاه ، ولذا قال تعالى فى شأنه :

٣٩ ـ ٤١ ـ (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ) :

أى : وجاء فى صحف موسى وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ : أن عمل الإنسان سوف يراه حَاضِرُو القيامة ويطلعون عليه ، تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسىء ، أو يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفة أعماله .

وجاء فى هذه الصحف أيضاً أن الإنسان سوف يجزى يوم القيامة على سعيه وعمله الجزاء الأوفى .

(وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(الْمُنتَهَىٰ) المراد به : انتهاء الخلق ورجوعهم إلى الله ـ تعالى ـ .

(مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ) أى : من نطفة إذا تصب وتدفق فى الرحم ، يقال : أمْنى الرجل ومنى ، ومعناهما واحد ، وأصل النطفة فى اللغة : الماء القليل ، ثم أطلقت على المنى لقلته .

(النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) : الإحياء بعد الإماتة .

التفسير

٤٢ ـ (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ) :

أى : أن الخلق ينتهون إلى الله ـ تعالى ـ ويرجعون إليه وحده لا إلى غيره ، حيث يحاسبهم فيثيب المحسن ويعاقب المسىء .

وقيل : معناه : أنه - عز وجل - منتهى الأفكار ، فلا تزال الأفكار تبحث فى حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وصفاته انتهى سيرها فلا تفكر فى ذلك وإلا هلكت ، وأيد هذا المعنى بما أخرجه البغوى عن أبى بن كعب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى الآية : « لا فكرة فى الرب » .

٤٣ - ٤٧ : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ) :

معنى هذه الآيات : أنه - تعالى - أضحك عباده وسرهم بما يبعث على فرحهم وسرورهم ، وأبكاهم بما يبعث على حزنهم وبكائهم ، ومن ذلك أنه - تعالى - وحده أمات الأحياء فأبكى من حولهم ، وأحياهم حين منَّ عليهم بالذرية فضحكوا عند ميلادهم ، وأنه - تعالى - خلق الزوجين الذكور والإناث من الإنسان وغيره - خلقهم من نطفة إذا تدفقت فى الأرحام ، وأنه - تعالى - سوف يحيى الموتى فى النشأة الأخرى ليحاسبهم ويجزى المحسن بالإحسان ، والمسىء بالإساءة وفاء بوعده الذى لايخلف ، وذلك لكى لايتساوى المحسن والمسىء .

(وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) أى : أنه هو أغنى من شاء وأعطاه القنية ، وهى : ما يبقى من المال .

(الشِّعْرَىٰ) : ألمع كوكب وأضوؤه .

(عَادًا الْأُولَىٰ) : أولى القوم هلاكاً بعد قوم نوح ، وللكلام بقية فى التفسير .

(الْمُؤْتَفِكَةَ) : قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت .

(أَهْوَىٰ) أى : أهواها الله - تعالى - إلى الأرض بعد أن رفعها .

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) : فبأى نعم ربك تتشكك ؟ ! .

التفسير

٤٥ - (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) :

أى : وأنه - تعالى - هو وحده أغنى من شاء من عباده وأعطاهم القَنية ، وهى ما يبقى ويدوم من الأموال ، كالرياض والحيوان والبناء والتحف ، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله فى قوله -تعالى- : (أَغْنَىٰ) لأن القنية هى أشرف الأموال وأنفسها ، وعن ابن زيد والأخفش : معناهما : أغنى وأفقر ، ووُجِّه ذلك بأنَّهُمَا جعلا الهمزة للسلب والإزالة فى أقنى ، كما فى أشكى ، أى : أزال شكواه ، وقيل غير ذلك .

٤٦ - (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ) :

الشعرى : كوكب قوى الإضاءة ، ويطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وأُطلق عليها لفظ العبُور ؛ لأنها عبرت الحجرة فلقيت سهيلا ، كذا قيل ، وهما شِعْريان ، الشعرى العبور ، والشعرى الغُمَيصاء ، ويقال : إن الشعرى أكبر من الشمس ، وإنما ترى أصغر منها لأنها بعيدة عنها بُعْدًا كبيرًا فى جو السماء ، ولهذا جاء ذكرها فى الآية ، فكان ذلك من آيات إعجاز القرآن .

وقيل : إنما ذكرت لأن العرب كانوا يعبدون شِعرَى العبور ، لأنها أكبر حجماً من شِعرى الغميصاء ، فقيل لهم : إنه - تعالى - هو رب الشعرى ومالكها ، فهو أحق بالعبادة منها .

قال السُّدِّى : عبدتها حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة ، رجل من خزاعة ، أو هو سيدهم ، واسمه وَخْز بن غالب .

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها فى العالم ، ويزعمون أنها تقطع السّماء عرْضاً ، وسائر النجوم تقطعها طولا ، ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، ولكن هذا الفريق من العرب كان لا يعبدها ويقتصر على تعظيمها .

وجاء فى هامش المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - جاء فيه - أن قدماء المصريين كانوا يعبدونها أيضاً ، لأن ظهورها من جهة الشرق حوالى منتصف شهر يوليو قُبَيْلَ شروق الشمس متفق مع زمن الفيضان فى مصر الوسطى ، أى : مع أهم حادث فى العام عندهم .

ولما كانت الشعرى لاتظهر قبيل شروق الشمس إلّا مرة واحدة فى العام ، فلهذا جعلوا ظهورها أول العام الجديد . انتهى بتصرف يسير .

٥٠ - ٥٢ - (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ . وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ . وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ) :

وصف القرآن الكريم عادًا المهلكة بأَنَّهَا الأُولى ، والمراد من هذا الوصف : أَنَّهَا أُولى الأُمم هلاكاً بعد قوم نوح - كما قاله جمهور المفسرين .

وقال الطبرى : وصفت بالأُولى لأن فى القبائل عادًا الأُخرى ، وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وقال المبرد : عاد الأُخرى هى ثمود ، وقيل غير ذلك .

والمعنى : وأنه - تعالى - أهلك عادًا الأُولى لتكذيبهم رسولهم وبقائهم على الشرك بالله ، وأهلك ثمودًا فما أبقى أحدًا من كفارهما ، وأهلك كفار قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ، لأَنهم كانوا أشد منهما ظلما للحق ولأنفسهم ، وأَشد منهما طغياناً ، فإن نوحاً - عليه السلام - مكث يدعوهم إلى الحق ألف سنة إلّا خمسين عاماً ، فلم يؤمن منهم سوى من ركبوا سفينته ، فهم الذين نجوا من الإهلاك بالطوفان.

٥٣ - ٥٥ - (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ . فَبِأَىِّ آلَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ) :

أى : وأسقط قرى لوط إلى الأَرض بعد أن رفعها إمعاناً فى تعذيبهم ، لأَنهم كانوا مع

شركهم يأتون الرجال دون النساء ، ولم ينفع فيهم نصح لوط - عليه السلام - فَغَشّى الله أهلها ما غشى من الحجارة التى رجمهم وغطاهم بها ، كما جاء فى قوله - تعالى - : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ »[1] فبأى نعم ربك تتشكك يأيها الذى أعطى قليلا وأكدى .

(هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(هَـٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) : هذا القرآن منذرٌ لكم من نوع الكتب الأُولى التى أنذر بها الأنبياء .

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) : قربت القيامة الموصوفة فى القرآن بقربها .

(كَاشِفَةٌ) : نفس قادرة على تبيين وقتها ، من الكشف بمعنى التبيين .

(الْحَدِيثِ) أى : القرآن .

(وَأَنتُمْ سَامِدُونَ) : وأنتم لاهون .

---

[1] (١) سورة الحجر ، الآية : ٧٤ .

التفسير

٥٦ - (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ) :

لفظ (هذا) يشير إلى القرآن الكريم ، ومعنى الآية : هذا القرآن نذير لكم من جنس الكتب الأُولى التى جاء بها الرسل السابقون ، فإنها أنذرتهم من عذاب الله على شركهم كما أنذركم القرآن ، وبهذا الرأى قال قتادة .

وقيل : إنَّهُ يشير إلى نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : هذا النبى منذرٌ لكم ، من جنس الأنبياء المنذرين قبله ، فإن أطعتموه نجوتم من عذاب الله ، وإن خالفتموه لَحِق بكم ما حلَّ بمكذبى الرسل السابقين .

وهذان الرأيان من أفضل ما قيل فى معنى الآية :

٥٧ ، ٥٨ - (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) :

أى : قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، وقيل : لفظ الآزفة : عَلَمٌ بالغلبة على الساعة .

وقد أخبر الله - تعالى - أن هذه الآزفة ليس لها من غير الله نفس كاشفة ومبينة لوقت وقوعها ، لأنها من أخفى المغيبات ، فالكشف هنا بمعنى التبيين ، وهذا هو رأى الطبرى والزجاج ، وهذا التفسير موافق فى المعنى لقوله - تعالى - : «لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ »[1] هو من أحسن ما قيل فى معنى الآية .

والتَّاء فى (كَاشِفَةٌ) لتأنيث الموصوف المُقَدَّر ، وهو كلمة (نفس) التى ذكرناها فى معنى الآية ، وقيل : إن كلمة (كَاشِفَةٌ) مصدر من المصادر السماعية كالعافية وخائنة الأعين ، أى : ليس لها من دون الله كشف وتَبْيين .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٨٧ .

٥٩ ـ ٦٢ ـ (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) :

الاستفهام فى لفظ (أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ) للتوبيخ ، والحديث : ما يتحدث به ، والمراد به هنا : القرآن ، ولفظ (سَامِدُونَ) معناها : لاهون ـ كما قال ابن عباس ـ واستشهد عليه بشعر هزيلة بنت بكر وهى تبكى قوم عاد :

ليت عادًا قبلوا الحق ولم يبدوا جحودًا
قيل قم فانظر إليهم ثم دَعْ عنك السمودا

وقال الضحاك : سامدون : شامخون متكبرون .

وفى الصحاح : سَمَد سُمُودًا : رفع رأسه تكبرًا ، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقيل غير ذلك .

ومعنى هذه الآيات : أفمن هذا القرآن الذى حدثتكم به تعجبون إنكارًا ، وتضحكون استهزاءً وأنتم لاهون عنه ، غير مقبلين عليه، فاسجدوا لله واعبدوه ، ولاتسجدُوا لأصنامكم ومعبوداتكم .

سورة القمر

مقاصدها :

تحدثت هذه السورة عن قرب الساعة وإعراض المشركين عن الإيمان بها ، مع أنهم قد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح له وكفرهم بما جاءهم به ، فأغرقهم الله – تعالى – ، ثم عقبته بقوم عاد وتكذيبهم لرسولهم هود – عليه السلام – فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وذكرت بعده قصة ثمود ، وأنهم عوقبوا بصيحة واحدة جعلتهم كهشيم المحتظر ، لتكذيبهم رسولهم صالحاً – عليه السلام – وعقرهم الناقة التى جعلها الله آية لصدقه .

وجاءت بعدها قصة قوم لوط وعقابهم صباحاً بريح تحمل الحصباء ، وتقذفهم بها حتى هلكوا ، لأنهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء مع شركهم .

وتلتها قصة آل فرعون الذى ادعى الألوهية فأغرقه الله مع جيشه الذى تبع بنى إسرائيل وهم هاربون من قتله لهم وتسخيرهم – تبعهم – ليردهم إلى مصر .

وذكرت عقب ذلك أن كفار قريش ليسوا خيراً من هؤلاء المهلكين ، فسيهزمهم الله ويولون الدبر ، وسوف يعذبهم الله فى الآخرة ، وأن عذابهم فيها أدهى وأمر من إهلاكهم فى الدنيا .

وبينت السورة أن كل شىء خلقه الله بقدر ، وما أمره فى الإتيان بالساعة إلا كلمح بالبصر ، وأن كل شىء فعلوه مثبت فى كتب أعمالهم ، يكتبها ملائكة جعلهم الله لكتابة أعمال العباد ، وختمت السورة بقوله – تعالى – : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) .

تفسير سورة القمر

هذه السورة مكية ، وآياتها خمس وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾)

المفردات :

(السَّاعَةُ) : القيامة .

(سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) : دائم .

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عندها .

(مُزْدَجَرٌ) : ازدجار ومنعٌ من القبائح .

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ) أى : واصلة إلى غاية الإحكام .

(فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) : فما يفيد المنذرون لهؤلاء ، والنذر :جميع نذير ،بمعنى منذر ، وكلمة (ما) فى قوله تعالى : (فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) إمّا نافية فتكون حرفاً ، أو استفهامية للإنكار والتوبيخ فتكون اسماً .

التفسير

١ - (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) :

هذه السورة تبين مواقف الكفار فى مواجهة الحق مثل التى قبلها ، والمراد من اقتراب الساعة شِدَّةُ قربها ، وذلك بنسبة ما بقى من عمر الدنيا إلى ما مضى منه ، فالباقى منها قليل وإن مضى أكثر من أربعة عشر قرناً بعد نزول هذه الآية ، والله - تعالى - هو وحده الذى يعلم مقدار ما مضى من عمرها منذ إنشاء الخليقة ، فقد يكون ملايين السنين ، وقد جاء من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى ذلك ، روى قتادة عن أنس قال : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كادت الشمس تغيب فقال : « ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا ما بقى من هذا اليوم » وما نرى من الشمس إلا يسيرا . ولا صحة لما روى عن كعب ووهب ، وهو أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة ، مضى منها خمسة آلاف وستمائة ، فهذا رجم بالغيب ولم يُرْوَ عن المعصوم - صلى الله عليه وسلم - ولأن الباقى من عمرها على ما قالوا هو أربعمائة سنة ، مع أنه قد مضى بعد نزول الآية أكثر من أربعة عشر قرناً ، وذلك يوضح كذب هذا الخبر .

وانشقاق القمر حقيقة وقعت قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس : (أن أهل مكة سألوه - عليه الصلاة والسلام - أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما) .

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرقتين ، فرقة على الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » .

ومن حديثه أيضاً : « انشق القمر على عهد رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقال رجل : انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السُّفَّار فأخبروهم بذلك » رواه أبو داود الطيالسى

وفى رواية البيهقى : فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه ، فقالوا : رأيناه : فأنزل الله - تعالى - : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) .

وقد أجمع جمهور المحدثين والمفسرين على أن الانشقاق حقيقة ، قال القرطبى ، ثبت ذلك فى صحيح البخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر ، وأنس ، وجبير ابن مطعم ، وابن عباس - رضى الله تعالى عنهم - ثم قال : وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ ،وهو منتظر ، أى : قرب وقوعه ، يقول الماوردى تقريراً لعدم وقوعه : إنه إذا انشق ما بقى أحد إلا رآه لأنه آية ، والناس فى الآيات سواء .

وقيل معناه : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح . ثم قال القرطبى : قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فى رؤيته ، لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - من الله عند التحدى ... (١) إلى آخر ما قاله القرطبى .

ونحن نقول : إنه آية وحقيقة مرئية ، بدليل قوله - تعالى - عقب ذلك ما يلى :

٢ - (وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) :

فهذه الآية ناطقة بأنهم رأوا انشقاق القمر ، ووصفوه بأنه سحر مستمر . أى :متتابع ، وهو ظاهر فى ترادف معجزاته- صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف فى تفسير كلمة (مُّسْتَمِرٌّ) فقيل : معناه دائم ، وقيل : معناه ذاهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء وغيرهم ، واختاره النحاس ، وهو يفيد أنهم يتعللون بذهابه تسلية لأنفسهم ، وقال أبو العالية والضحاك معناه : محكم قوى شديد ، من المِرَّة ،وهى القوة ، وقيل غير ذلك ، والمعنى : وإن تُشاهِد قريش علامة وبرهاناً على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- يعرضوا عن الإيمان بنبوته ، ويقولوا : هذا سحر ؛ فإنه لابقاء له ، مع أن هذه الآية من أقوى الأدلة على نبوته ، وإن مثلها كمثل

---

(١) ويجاب أيضا بأن الانشقاق فى وقت الغفلة ، فلم يكن مهتمًا بأمره سوى قريش ،وقد ذهب الناس إلى مضاجعهم فقريش هم الذين رأوه وقت التحدى ، ولأن زمن الانشقاق كان قليلا ، ورؤية القمر فى بلد لاتستلزم رؤيته فى غيره ، لاختلاف المطالع ، فقد يكون القمر مرئيا فى بلد ولكنه لا يرى فى بلد آخر ، لأن الأرض كروية ،إلى غير ذلك مما ذكره الآلوسى ، فارجع إليه فإنه وفى المقام حقه .

انشقاق البحر لبنى إسرائيل حتى عبروا على أرض يابسة ، والماء على أيمانهم وشمائلهم ، لايصيبهم منه شيء ، وكذلك شأن آيات المرسلين ، فهى خارقة للعادة ، لايمكن للبشر أن يأتوا بمثلها ، حتى تكون آية ومعجزة أيدهم الله بها ، للدلالة على صدقهم .

٣ - (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ) :

وكذبت قريش هذه الآية ، واتبعوا أهواءهم فى تكذيبهم إياها ، مع أنها واضحة الدلالة على صدقه ، وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، ومن حجتها أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - فسوف يمضى إلى غاية يتبين عندها حقيقته وعلو شأنه ، ولن ينجح عنادهم فى إبطال أمره ، ومنع استقراره .

٤ ، ٥ - (ولَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) :

أى : وبالله لقد جاء قريشاً فى القرآن من أخبار الأولين وأخبار الساعة ، مافيه ازدجار وانتهاء عَمَّا هُمْ فيه من الضَّلَال والقبائح . هو حكمة واصلة إلى غاية الإحكام لاخلل فيها « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا »[1] ولكنهم أصروا على الكفر والتكذيب ، فأىَّ إغناء تغنيه النذر عنهم ، وأية فائدة تحصل لهم .

والنُّذُر : جمع نذير ، بمعنى منذر .

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾)

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢ .

المفـردات :

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) : فأعرض عنهم .

(الدَّاعِ) الداعى : هو إسرافيل – عليه السلام – وقيل : غيره .

(إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ) النكر : بمعنى المنكر الفظيع ، وهو أهوال يوم القيامة .

(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) أى : ذليلة ، والمراد ذليلة نفوسهم ، لأن خشوع الأبصار ناشيء عن خشوع النفوس ، فهو كناية عنه .

(الْأَجْدَاثِ) : القبور ، وهو جمع جَدَث .

(مُهْطِعِينَ) : مسرعين مادين أعناقهم .

التفسير

٦ – ٨ – (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) :

الأمر فى قوله – تعالى – : (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) مترتب على ما قبله من عدم إفادة النُّذُر لهم ، ولذا قُرِن بالفاء التى هى لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وكأنه قيل : إذا كانت النذر لا تغنى عنهم ولا تفيد فأعرض عنهم واترك الاهتمام بهم ، والأسى على عدم إيمانهم ، فقد أديت الرسالة ووفيت الأمانة فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

وليس الغرض منه الأمر بترك تبليغ الرسالة لهم ، فإنه – صلى الله عليه وسلم – ظل يدعوهم إلى الحق قبل الهجرة وبعدها ، حتى آمنوا جميعاً فى العام الهجرى الثامن ، فالغرض منه أن لا يبالى بكفرهم ، وقد عقَّب الله هذا الأمر بوعيدهم بعذاب الآخرة بقوله : « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى : اذكر لهم يوم ينادى المنادى إلى شىء منكر فظيع ، قال الآلوسى : يكنى بالنُّكر عن الفظيع (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) ذليلة نفوسهم ، يخرجون من القبور كأنهم فى كثرتهم وانتشارهم فى كل مكان – كأنَّهُمْ – جراد منتشر – يخرجون – مسرعين إلى الداعى ، مادين أعناقهم خوفاً وهلعاً ، يقول الكافرون من شدة الهول وسوء المنقلب – يقولون – : هذا يوم صعب شديد . نسأل الله السلامة .

* (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾)

المفـردات :

(وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) أى : وصفوا نوحًا ـ عليه السلام ـ بالجنون وزجروه عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف .

(فَانتَصِرْ) : فانتقم لى منهم . (بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) : كثير متتابع ، يقال : همره يهمِره ويهمُره بكسر ميم المضارع وضمها : صبّه . فهمر وانهمر .

(عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : قد قضاه الله أزلا ، وهو هلاكهم بالطوفان .

(عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) . على سفينة ذات ألواح عريضة ومسامير تثبت بها تلك الألواح ، ودسر جمع دِسار أو دَسْر : وهو المسمار .

(بِأَعْيُنِنَا) : بكلاءة وحفظ منا .

(وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً) أى : أبقينا خبرها أمرا داعيا للعظة والاعتبار .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى : فهل من معتبر بتلك الآية ؟ والأصل مدتكر : أبدلت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال ، وقيل غير ذلك فى أصلها .

التفسير

٩ ـ ١٧ ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

شروع فى تعداد بعض ماذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ، وتفصيل لها ، وبيان عدم تأثرهم بها تقريراً لما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ : (فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) .

والمعنى : كذب قبل أهل مكة قومُ نوح فكذبوا عبدنا نوحاً ـ عليه السلام ـ تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذّب جاء عقيبه منهم قرن آخر مكذب مثله .

وقيل : معنى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) ابتدأت التكذيب ، ومعنى (فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا) أتموه وبلغوا نهايته . أو : لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، والفاء ـ عليه ـ للسببية ، وفى ذكره ـ عليه السلام ـ بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له وتشنيع على مكذبيه الذين لم يقتصروا على مجرد التكذيب ، ولم يقنعوا به بل دفعهم حقدهم وسوء طويتهم إلى أن ينسبوه إلى الجنون حيث قالوا عنه : إنه مجنون ؛ يقول مالا يقبله عاقل ، وزجروه عن تبليغ الرسالة بأنواع الأذية والتخويف ، والوعيد الشديد فقالوا له : « لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » [1] .

ولما استحكم يأسه من استجابتهم له بعد أن دعاهم ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وعلنا لجأ إلى ربه فدعاه قائلا : (أَنِّى مَغْلُوبٌ) من جهة قومى ، مالى قدرة على الانتقام منهم (فَانتَصِرْ) لى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١١٦ .

بإعانتى عليهم وتمكينى من الإيقاع بهم ، وذلك بعد أن صبر على إيذائهم له طويلا .
روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وقد استجاب - سبحانه وتعالى - لدعائه بما أشار إليه قوله - جل وعلا - : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ - أى : السحاب - بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ) أى : كثير منصب ، وهذا كناية عن كثرة الأمطار وشدة انسيابها من السحاب حتى كأنها أنهار تفتحت بها أبواب السماء ، وإلى ذلك ذهب الجمهور ، ومما يدعو إلى العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا جزاء تمردهم والتمادى فى تكذيبهم للرسل ، وكما فتحت أبواب السماء بماء منهمر استجابة لدعوته - عليه السلام - كذلك فجرت الأرض عيوناً بأن جعلت كلها كأنها عيون متفجرة ، وهذا أبلغ فى الدلالة على كثرة الماء وغزارته . وقد اشتد بهم الهول ، وعظم الفزع حينما التقى ماء السماء وماء الأرض على حال قدرت وسويت ، وهى قدر ما أنزل على قدر ما أخرج ، كما قال - سبحانه - : (فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) أى : على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، أو المعنى : فالتقى الماء على أمر قدره الله فى اللوح المحفوظ وهو إهلاك قوم نوح بالطوفان . وهذا المعنى خير من سابقه وأظهر .

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) أى : وحملنا نوحاً ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح عريضة شد بعضها إلى بعض بمسامير ، وقال الليث : الدسار : خيط من ليف تشد به ألواح السفينة ، ولعله بعض الحشو الذى يوضع بين الألواح ، ثم يطلى بالقار ليمنع دخول الماء . (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ) وقدرنا لهذه السفينة أن تجرى فى ذلك الماء المتلاطم الأمواج بحفظنا ورعايتنا وجعلنا ذلك جزاء وثواباً لنوح - عليه السلام - ، لأنه كان نعمة ورحمة لقومه كفروها وجحدوا فضلها . وقرىء : جزاء لمن كان كَفَرَ ، بالبناء للفاعل ، أى : الإغراق جزاء للكافرين (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً) أى : أبقينا خشب السفينة على الجودى زمناً طويلاً حتى رآها أوائل هذه الأمة كما روى عن قتادة والنقاش ، أو أبقينا خبرها أو جنسها بإبقاء السفن ، كقوله - تعالى - : « وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » [1] . وذلك للعظة والاعتبار . وجوز أن يكون الضمير فى

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

قوله : (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً) للفعلة التى فعلناها ، وهى إنجاء نوح ومن معه وإهلاك الكافرين « فهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى : فهل من متعظ يتعظ ويعتبر بتلك الآية الجديرة بالاعتبار والاتعاظ (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ) استفهام تعظيم وتعجيب ، بمعنى كان عذابى الواقع بهم وإنذارى لهم على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف ، وذلك لتكذيبهم رسلى وإنكارهم آياتى .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) جملة قسمية وردت فى آخر هذه القصة والقصص الثلاث التى تليها[1] تقريراً لمضمون ما سبق من قوله – تعالى – : (وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الْأَنبَآءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ • حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِى النُّذُرُ) وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية فى الازدجار ، ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار ، أى : وتالله لقد سهلنا هذا القرآن على قومك حيث أنزلناه بلسانهم وجمعنا فيه أنواع المواعظ الشافية ، والعبر الزاجرة ، والوعد والوعيد للتذكر والاتعاظ . ومع كل هذه الدوافع الداعية إلى الاهتداء أعرضوا عنها وضلوا ضلالاً بعيداً ، ويشير إلى ذلك قوله – تعالى – : (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى : فلا يوجد فى قريش من يتعظ ويتذكر ، فالاستفهام هنا للإنكار والنفى على أبلغ وجه وآكده . وقيل فى معنى هذه الآية : ولقد سهلنا القرآن للحفظ وأعنَّا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟

روى أن أهـــل الأديان لايتلون كتبهم مثل التوراة والإنجيل والزبور إلا نظرا ، ولا تحفظ فى الصدور ، وعلى الألسنة كالقرآن ، وعن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

---

(١) قصة عاد ، وقصة ثمود ، وقصة قوم لوط .

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(رِيحًا صَرْصَرًا) أى : ريحاً باردة ،وقيل : هى الشديدة الصوت ، قال صاحب القاموس : وريح صر وصرصر : شديدة الصوت ، أو الباردة .

(فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) أى : فى يوم شؤم عليهم وشر استمر فيهم بنحوسته وعذابه حتى الهلاك .

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ) أى : أصول نخل بدون فروع ، منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ، يقال : قعر النخلة -كمنع- : قلعها من أصلها فانقعرت . والنخل : اسم جمع يذكر ويؤنث .

التفسير

١٨ - ٢٢ -(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ) :

شروع فى قصة أخرى ، ولم تعطف ، وكذا ما بعدها من القصص إشارة إلى استقلال كل قصة فى القصد والاعتبار والاتعاظ ، ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم قصداً إلى الاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب ، وقوله -سبحانه- فى بدء القصة : (فَكَيْفَ كَانَ

عَذَابِى وَنُذُرِ) لتوجيه السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى عليهم فى تعذيب عاد قبل ذكره كأنه قيل : كذبت عاد ، فهل سمعتم؟أو فاسمعوا يا أهل مكة كيف كان عذابى وإنذارى لهم بالعذاب . ثم بين ما أجمل فى عقابهم بقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) أى : أرسلنا عليهم ريحاً باردة ـ كما روى عن ابن عباس وقتادة والضحاك ـ وقيل :أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الصوت ، وكان ذلك فى يوم شؤم مستمر ، والمراد به مطلق الزمان لقوله ـ تعالى ـ : «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ»[1] وقوله تعالى : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً »[2] وقد استمر هذا الشر حتى أهلكهم جميعاً ، ولم تبق منهم باقية ،وقد روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وأمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ،كأنهم أصول نخل بدون فروع منقلع عن مغارسه وملقى على الأرض ، وقد شبهوا بأعجاز النخل لطول قاماتهم (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ) تهويل وتعظيم للعذاب والنُّذُر ، وتعجب من أمرهما بعد بيانهما . فليس فيه شائبة تكرار مع ما سبق فى هذه القصة .

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..) الآية ، أى : سهلناه للتذكر والاتعاظ ، أو للحفاظ . وقد سبق .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾)

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١٦ .

(٢) سورة الحاقة ، من الآية : ٧ .

المفردات :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) أى : بما سمعوه من نبيهم من الإنذارات والمواعظ .

(وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) أى : واحدًا من آحادهم لامن أشرافهم .

(لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) أى : لفى بعد بين عن الحق . وسُعُر :جمع سعير وهى النَّار المشتعلة أو الجنون .

(بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) أى :بل هو شديد الكذب متكبر بطر ، والبطر :دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها .

التفسير

٢٣ - ٢٦ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) :

استئناف لبيان قصة صالح - عليه السلام - .

والمعنى : كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التى سمعوها من نبيهم ، أو كذبوا بالرسل - عليهم السلام - فإن تكذيب أحدهم وهو صالح تكذيب لجميعهم لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وعلى هذا فالنذر جمع نذير ، بمعنى منذر ، ثم تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة دونهم فقالوا إنكارًا له :أبشرًا من جنسنا نتبعه ، متفردًا ليس له أتباع ولا نصراء يشدون أزره ويدفعون عدوه ،أو واحدًا من آحادنا لا من أشرافنا كما يفهم من التنكير ، فإذا اتبعناه مع كونه بشرًا واحدًا ونحن أمة جمة إنا إذا اتبعناه وهو على هذا الحال لفى بُعْد واضح عن الصواب ، وجنون بيِّن لأن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل ،أو كنا فى ضلال وسعر ، أى :نيران ، جمع سعير ، وهى النار ،يقصدون المبالغة ، وروى أن صالحًا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ،أى :نيران ،فعكسوا عليه لغاية عتوهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذًا كما تقول ،ثم زادوا فى إنكارهم وجحدهم لرسالته وتكذيبهم له حيث قالوا :أألقى عليه الكتاب والوحى من بيننا وفينا من هو أحق وأولى منه بالنبوة؟!وهو استفهام معناه الإنكار ،ومرادهم

أن الأمر ليس كذلك ، بل هو متجاوز الحد فى الكذب شديد البَطَر . وهو على ما قاله الراغب : دَهَش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها ، ويقاربه فى المعنى :الطرب ، وهو خفةٌ أكْثَرُ ماتعترى الإنسان فى الفرح ،والتعبير بالإلقاء يتضمن العجلة فى ادعائه النبوة دون تدرج ، وقوله تعالى : (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) حكاية لما قاله سبحانه لنبيه صالح -عليه السلام - وعدًا له ، ووعيدًا لقومه ، أى : سيعلمون عن قريب عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على ما ادَّعاه ،أهو صالح أم من كذبه ؟والمراد أنهم سيعلمون لا محالة أنهم هم الكذابون الأشرون وقد أُورِدَ ذلك مورد الإبهام إيماء بأنه لا يكاد يخفى .

والإتيان بالسين فى قوله : (سَيَعْلَمُونَ) لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ) أى : مخرجوها وباعثوها من الصخرة الملساء (فِتْنَةً لَّهُمْ) : ابتلاءً واختبارًا .

(فَارْتَقِبْهُمْ) : فانتظر مايؤول إليه أمرهم .

(وَاصْطَبِرْ) : اصبر على أذاهم حتى يأتى أمر الله .

(كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) : كل حصة ونصيب من الماء يحضرها من كانت له .

(فتَعَاطَى فَعَقَرَ) أى : فتناول السيف فعقر الناقة بضرب قوائمها . قيل : لا يطلق العقر فى غير ضرب القوائم ، وربما قيل : عقره : إذا نحره .

(صَيْحَةً وَاحِدَةً) : هى صيحة جبريل - عليه السلام - .

(كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) أى : كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، وقيل : الهشيم : ما تساقط وتفتت من الشجر الذى أقيمت به الحظيرة وهى التى تقيمها العرب وأهل البوادى للمواشى والسكنى من القصب وأغصان الشجر .

التفسير

٢٧ - ٣٢ - (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ . وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ . فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

استئناف لبيان حصول الموعود به حتمًا .

والمعنى : إنا باعثو الناقة ومخرجوها ناقة عشراء من الصخرة الصماء كما سألوا - إنا باعثوها - لتكون حجة وآية على صدق صالح - عليه السلام - فيما جاءهم به واختبارًا لهم ، وقد سألوا ذلك على سبيل الاستهزاء ، فانتظرْ يا صالح ما يؤدى إليه أمرهم وتبصَّر عواقبهم . ولا تعجل حتى يأتى أمر الله وهو ناصرك عليهم ، وأعلمهم بأن ماء البئر التى لهم يكون بينهم وبينها كل نصيب وحظ منه محضور يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضره الناقة يوم وردها ، ويحضرونه يوم وردهم . وقيل : يحضرون الماء فى نوبتهم واللبن فى نوبتها . قال ابن عباس : إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا فى نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئًا واستمروا على هذه الوتيرة من القسمة وقتًا ، ولكنهم ملُّوها وأرادوا التخلص منها ، فنادوا صاحبهم وهو قُدار بن سالف ، قال ابن إسحاق : فكمن لها فى

أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فخرت ، ورغت رغاء شديدا تحدَّر سقَبها[١] من بطنها ثم نحرها ، ويشير إلى ذلك قوله -تعالى- : (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) أى : فاجترأ على الأمر العظيم أشقى قومه غير مكترث به فأحدث العقر بالناقة وتناوله. وقيل : فتعاطى الناقة فعقرها أو السيف فقتلها . والتعاطى :تناول الشىء مطلقًا أو بتكلف، وإنما قيل فى آية أخرى : « فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا »[٢] بإسناد العقر إليهم جميعًا لرضاهم به ، أو لأنه بمعونتهم .

وقوله -سبحانه- : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » لتوجيه قلوب السامعين إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره ،وقد مر نظيره . وقد أشار التنزيل إلى تنكيل الله بهم، وإهلاكه إياهم فقال : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً) هى صيحة جبريل - عليه السلام - فى طرف منازلهم ، فأهلكهم الله بها فصاروا هشيمًا مفتتا كالعشب اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء ، أو كالورق المتساقط مما يعمل به صاحب الحظيرة حظيرته من قصب وأشجار ، وصاحب الحظيرة هو المحتظر . قال ابن عباس : المحتظر : هو الرجل الذى يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك :فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . والحظيرة (الزريبة) التى يقيمها العرب وأهل البوادى للسكنى ولمنع البرد والسباع عن الغنم والإبل ،وهى من الحظر وهو المنع ، ثم أقسم سبحانه على أنه سهل القرآن للتذكر والاتعاظ .

(فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) : إنكار ونفى للمتعظ من قريش على أبلغ وجه . وقد سبق مثل ذلك مفصلًا .

---

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الشمس من الآية : ١٤ .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا) أى : ريحًا شديدة تثير الحصباء وهى الحصى الصغيرة .

(نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ) : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

(فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ) أى : شكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه .

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ) : أرادوا منه تمكينهم ممن كان عنده من الملائكة فى هيئة الأضياف طلبًا للفاحشة ، والضيف يطلق بلفظ واحد على الواحد وغيره لأنه مصدر فى الأصل ويجوز المطابقة فيقال : ضيف وضيفة وأضياف وضيفان .

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) أى : سوَّينا أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق .

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم العذاب وقت الصباح فى البكرة وهى أول النهار .

التفسير

٣٣ - ٤٠ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ . إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ . وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ . وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . فَذُوقُواْ عذَابِى وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

الآيات استئناف أخبر به - سبحانه - عن قوم لوط بأنهم ساروا على سنن المكذبين لرسلهم من الأقوام الماضية ، فعاقبهم بأن أرسل عليهم ملكًا يرميهم بالحصى والحجارة ، أو أرسل عليهم حاصبًا وهو اسم للريح الشديدة أو الباردة التى كانت ترميهم بالحصباء وهى الحصى أو ترميهم بالحجارة كما قال أبو عبيدة ، وقال ابن عباس : هو ما حُصبوا به من السماء من الحجارة فى الريح ، وعليه قول المتنبى :

مستقبلين شمال الشام تَضْرِبنـــا بحاصب كنديف القطن منثور

بمعنى أرسلنا عليهم حصى وحجارة نزلا من السماء فى الريح ، وحينما نزل بهم عذاب الله أهلكهم[1] إلَّا آل لوط . قيل : المراد بهم : ابنتاه ومن آمن معه ، وقيل : المراد ابنتاه لأنه لم يكن على دينه أحد سواهما حتى ولا امرأته التى أصابها ما أصاب قومها ؛ هؤلاء الآل نجيناهم بسحر من الأسحار حينما خرجوا آخر الليل فى الوقت الذى يختلط فيه سواد الليل ببياض النهار ، وكانت تنجيتنا للوط وابنتيه أو له ولابنتيه ولمن آمن معه إنعامًا منا عليهم ، ومثل ذلك الجزاء الكريم نجزى من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة .

ثم حكى - سبحانه - موقف لوط منهم وموقفهم منه قبل حلول عذاب الإبادة بهم فقال تعالى : (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا) أى : أخذتنا الشديدة لهم بالعذاب ، فما التفتوا إلى ذلك ولا اهتموا به ، بل شكوا فيه ، وكذَّبوا بكل ما أنذرهم به . كما حكى - سبحانه - أيضا ما وقع منهم من أنهم راودوه عن ضيفه من الملائكة الذين حضروا إليه فى صورة شباب مُرْد حِسَان محسنة من

---

(١) وقد فصلت بعض أنواع العذاب التى عوقبوا بها فى سورة الحجر .

الله فأضافهم لوط – عليه السلام – فبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بالأضياف فأقبلوا يُهرعون من كل مكان طلبا للفجور بهم ، فطمس الله أعينهم ،وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وكان لوط يدفعهم ويمانعهم دون أضيافه ، وروى أن جبريل – عليه السلام – استأذن ربه – سبحانه – ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عميانًا مع بقاء أبصارهم فلم يروهم ولم يهتدوا إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط – عليه السلام – فخرجوا يتحسسون بالحيطان ويتوعدون لوطًا بالانتقام منه فى الصباح . وقيل : الطمس مجاز عن حجب الإدراك ، وذلك أنهم حينما دخلوا المنزل ونظروا لمن فيه لم يروا شيئًا فجعل ذلك كالطمس فعُبِّر به عنه .

وقلنا لهم على ألسنة الملائكة : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ويراد من الأمر الخبر ، بمعنى فأذقناهم عذابى الذى أنذرهم به لوط – عليه السلام – وهو الطمس لأنه من جملة ما أنذروه من العذاب ، أما عذاب الإبادة الذى أهلكوا به فقد صبحهم بكرة كما قال تعالى : (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً) أى : أتاهم فى الصباح أول النهار كما تشير إلى ذلك (بُكْرَةً) وهى أخص من الصباح فليس فى ذكرها زيادة ، بل هى كالتأكيد . وكان هذا العذاب دائمًا مستقرًا لا يفارقهم ولا ينفك عنهم حتى يسلمهم إلى النار فى الآخرة ، وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهى إلى الإبادة ، وقوله – تعالى – : (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) حكاية لما قيل لهم من جهته – تعالى – تشديدًا للعذاب الواقع بهم ، وفائدة تكرير (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) ، وتكرير (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ...) الآية . فى هذه القصص أن يجدد المشركون عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادِّكارًا واتعاظًا . وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه . وهذا حكم التكرار فى قوله – تعالى – : « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » عند كل نعمة عدها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل أوان .

(وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(آلَ فِرْعَوْنَ) المراد بهم : القبط وهم أهله وشيعته بمصر .

(النُّذُرُ) : الإنذارات المتكررة ،أو النذر : موسى وهارون إطلاقًا للفظ الجمع على الإثنين .

(عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) : لايغالب ولايعجزه شيءٌ .

التفسير

٤١ ـ (وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ) :

صُدِّرت قصة آل فرعون بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الاعتناء بشأْنها لعظم ما فيها من الآيات ، وهول ما لاقوه من العذاب ، وقوة إيجابها للاتعاظ ،والاكتفاء بذكر آل فرعون عن ذكره للعلم بأَن نفسه أولى بذلك ، لأنه رأس الفساد وقمة الضلال .

والمعنى : وبالله لقد جاءَ آل فرعون الإنذارات المتكررة بما سيلقونه من عذاب ونكال أو فقد جاءَهم الرسل يوسف وغيره إلى أن جاء موسى وهارون ، وقد كان منهم ما حكاه الله بقوله :

٤٢ ـ (كَذَّبُوا۟ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ) :

هذا استئناف مبنى على حكاية مجيء النذر ،كأنه قيل : فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : (كَذَّبُوا۟ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا) أى : بمعجزاتنا الدالة على توحيدنا ، ونبوة أنبيائنا ،فإن تكذيب البعض تكذيب للكل ،أو المراد بالآيات كلها معجزات موسى - عليه السلام - وهى

الآيات التسع : العصا واليد والسنون والطمسة والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وكان جزاؤهم أن قهرناهم بسبب تكذيبهم فأخذناهم أخذ عزيز لا يغالب ولا يدافع ، مقتدر على الانتقام منهم وفق إرادته لا يعجزه شيء عن تنفيذ ما يريد .

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾)

المفـــردات :

(خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ) أى : من الكفار السابقين مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون .

(أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) أى : ألكم براءة وسلامة من العذاب فى الكتب المنزلة على الأنبياء .

(وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) أى : ينصرفون منهزمين ، ويراد من الدبر الأدبار .

(أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) أى : فى أقصى غاية الفظاعة من الداهية ، وهى الأمر الشنيع الذى لا يهتدى للخلاص منه ، وفى نهاية المرارة التى لا يستساغ احتمالها ، ولا يتسنى الصبر عليها .

التفســير

٤٣ - (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) :

الاستفهام للإنكار ومعناه النفى .

والمعنى : أكفاركم يا أهل مكة أو يا أمة العرب أقوى وأشد وأكثر عددا أو أقل كفرًا

وعنادًا وأقرب طاعة وانقيادًا من كفار الأُمم المعدودين الذين أُهلكوا بسبب كفرهم، وهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وآل فرعون- أكفاركم خير من أولئكم - ليكون ذلك سندًا وحجة لهم من أن يحل بهم مثل عذاب السابقين؟ ولأن الاستفهام فى قوله : « أَكُفَّارُكُمْ ... » إلخ إنكارى فى معنى النفى فكأنه قيل : ليس كفاركم خيرًا من أولئك الكفار فى الدنيا وزينتها ولا ألين منهم شكيمة فى الكفر والعصيان ، بل هم دونهم فى القوة وغيرها مما تستدعيه مباهج الحياة ، وأسوأ حالًا منهم فى الكفر والعناد ، وقد أصاب من هم أقوى منكم ما أصابهم فلم لاتخافون أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم من العذاب الذى أهلكهم ، وتركهم أثرًا بعد عين مع أنكم دونهم قوة وبأسًا ، وأكثر منهم كفرًا وعتوًا .

وقيل : أكفاركم ،ولم يقل أأنتم ، للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم .

(أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ) : إضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر إلى التبكيت بوجه آخر ،فكأنه قيل : بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصى فيما نزل من الكتب على الأنبياء أو فى اللوح المحفوظ كما يرى ابن عباس ، فلذلك تصرون على ما أنتم عليه ولاتخافون .

٤٤ - (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ) :

إضراب وانتقال إلى وجه آخر من التبكيت ، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ،وحكاية قبائحهم لغيرهم .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء الكفار - واثقين بشوكتهم وغلبتهم على جند الله - : نحن أولو حزم وعزم أمرنا مجتمع متحد لا يضام ولا يرام ،أو منتصر بمعنى ممتنع على محمد وصحابته أو نحن جمع منتصر ،أى : متناصر ينصر بعضنا بعضًا ويعاونه ، وروى أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر فتقدم الصف وقال : نحن نَنْتَصر اليوم من محمد ، أى :نغلبه وننتقم منه ، وكان الظاهر أن يقال : نحن جميع منتصرون إلَّا أنه أفرد نظرًا للفظ جميع فإنه مفرد لفظًا جمع معنى ، ورجح جانب اللفظ لخفة الإفراد مع رعاية جانب الفاصلة .

٤٥ - (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) :

رد لقولهم السابق ، والإتيان بالسين للتأكيد .

والمعنى : سيهزم جمع مشركى مكة ،أو الكفار لا محالة ويولون الأدبار منهزمين .

قال سعيد بن جبير : قال سعد بن أبى وقاص : لما نزل (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - يثب فى الدرع ويقول : « اللَّهُمَّ إن قريشًا جاءت تحادُّك ، وتحادّ رسولك بفخرها فأَخِنْهم - أى : أَهْلِكْهُم - الغداةَ . ثم قال : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبى - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن غيب فكان كما أخبر . قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . فالآية مكية . وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة قال : أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل يوم بدر (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وقال عمر بن الخطاب : قلت : يا رسول الله أىّ جمع يهزم؟فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرتُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى آثارهم مُصْلِتًا بالسيف [1] وهو يقول : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) . فكانت ليوم بدر ، وقيل : ويولون الدبر ولم يَقُل :الأدبار إما لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ، أو لإرادة أن كل واحد منهم يولى دبره ،وقد كان كذلك يوم بدر وغيره .

٤٦ - (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ) :

إضراب انتقالى لبيان أن ما وقع لهم ببدر ليس نهاية عذابهم ، بل الساعة موعد عذابهم الأصلى ، وهذا من طلائعه وبوادره ، وعذاب الساعة أشد وأنكى مما لحقهم يوم بدر من الهزيمة والقتل والأسر ، و« أدهى » مبالغة : من الداهية ،وهى الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه ، و « أَمَرُّ » مبالغة فى شدة المرارة عند الذوق على سبيل الاستعارة لصعوبتها على النفس ، وإظهار الساعة فى موضع الإضمار لشدة تهويلها وبث الحزن فى نفوسهم .

---

(١) مسكا به : وهو يقاتلهم .

(إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(فِى ضَلَالٍ) أى : فى بعد عن الحق فى الدنيا .

(وَسُعُرٍ) أى : واحتراق فى نيران جهنم . وسعر : جمع سعير .

(ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) أى : يقال لهم : ذوقوا آلام سقر ، و « سقر » علم لجهنم ولذلك لم تصرف .

(خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) أى : مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه .

التفسير

٤٧ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ) :

أى :إن المجرمين من الأولين والآخرين فى بعد عن الحق فى الدنيا وفى نيران مسعرة فى الآخرة لما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفِرَق ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فى خسران وجنون .

٤٨ - (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) :

أى : يوم يسحبون فى النار على وجوههم يقال لهم - تقريعًا وتوبيخًا - : ذوقوا أيها المكذبون مس سقر ،بمعنى قاسوا حرها وألمها ، وهو المراد من المس فإنه سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع فى الاستعمال ، وفى الكشاف (مَسَّ سَقَرَ) كقولك : وجد مس

الحمى وذاق طعم الضرب ، لأن النار إذا أصابتهم بحرها ، ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم بذلك مسًّا ، والكلام على المجاز .

٤٩ - (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) :

أى : إن كل شىء من الأشياء خلقناه مقدرًا بقدر معلوم اقتضته الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين ، أو مقدرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه قد علمنا حاله وزمانه . وحَمْل الآية على القَدَر الذى يقابل القضاء هو المأثور عن كثير من السلف، وروى الإمام أحمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال:جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت . وقال أبو ذر - رضى الله عنه - : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ؟ فنزلت الآية (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). فقالوا :يا محمد ،يَكْتب علينا الذنب ويعذبنا؟قال : أنتم خصماء الله يوم القيامة .

وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلَّا من كافر ، ثم أكَّد هذا بقوله : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شىء بقدر .

وسمعت ابن عمر يقول : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : كل شىء بقدر حتى العَجْز والكَيْس ،أو الكَيْس والعجز . وهذا إبطال لمذهب القدرية[1] والآية من باب (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وهذا هو المقصود من قوله- تعالى- : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

---

(١) الذين يقولون : لا قدر وأن الخير والشر بأيدينا .

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى : ما أمرنا إلا كلمة واحدة ، وهى قول الله – تعالى – : كُنْ (كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) فى السرعة واليسر ؛ لأن اللمح : النظر بسرعة ، وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة .

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ) : أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة ، أو أتباعكم .

(وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى كتب الحفظة .

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) أى : مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، يقال : سطره يسطُره سطرًا : كتبه ، واستطر مثله .

(فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ) أى : فى جنات وضياء ، ومنه النهار ؛ لضيائه .

(فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ) : فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة .

(عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) أى : عند مليك عظيم الملك كامل القدرة ، يفعل ما يشاء .

التفسير

٥٠ - (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) :

أى : وما شأننا إلَّا فعلة واحدة على نهج لا يختلف ووتيرة لا تتعدد وهو الإيجاد بلامعالجة ومشقة ، أو : وما أمرنا فى خلق الأشياء إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ،فإذا قصدنا شيئاً نريد إيجاده قلنا له : كن ،فيكون . وهذا الأمر الصادر منا فى اليسر والسرعة كلمح بالبصر لأن اللمح هو النظر بخفة وسرعة على قدر ما يلمح أحدكم ببصره ، والمراد : التقريب للعقول فى سرعة تعلق القدرة بالمقدور وفق الإرادة الأزلية . وقيل :هذا فى قيام الساعة ،فهو كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] .

٥١ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) :

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم فى الكفر والضلال من الأمم السابقة ، (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) أى :من متعظ يتعظ ويعتبر بذلك؟ بمعنى أنه لا معتبر ولامتعظ من قريش حيث بالغوا فى الإعراض فلا يسمعون ولا يبصرون .

٥٢ - (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ) :

أى : وكل شيء مفعول فى الدنيا لهؤلاء الكفار من النظراء والأتباع مكتوب عليهم على التفصيل ثابت فى ديوان الحفظة . وأجمعت القراء على رفع كلمة (كل) فى الآية ليستفاد منها المعنى المراد ، وهو أن كل ما فعلوه من الكفر والمعاصى مكتوب فى صحف أعمالهم صغيرًا كان أو كبيرًا .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٧٧ .

٥٣ - (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) :

أى : وكل صغير وكبير من الأعمال كما روى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .. وقيل : من الأعمال ومن كل كائن إلى يوم القيامة ، كل ذلك مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله مثبت فيه . ومسطور من السطر بمعنى الكَتْب . وقال صاحب اللوامع :يجوز أن يكون من طرّ النبات والشارب : ظهر ، وعليه يكون المعنى : وكل صغير وكبير ظاهر فى اللوح مثبت فيه .

٥٤ ، ٥٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) :

ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله - تعالى - :(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) إلخ مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترغيب والترهيب بين سبحانه مالهم من حسن الحال بطريق الإجمال فقيل : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) الآية . .

والمعنى : إن الذين اتقوا الله فابتعدوا عن الكفر والمعاصى ، فى جنات عظيمة الشأن رفيعة المقدار ، وأنهار لها صفاؤها وتدفقها ، وأفردت الأنهار اكتفاء بالجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسير النهر بالسعة ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ماهو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : بما يعمهما .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن محمد بن كعب قال : ونَهَر ،أى :فى نور وضياء ،وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه . وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، أى : أنهم لا ليل ولا ظلمة عندهم فى الجنات .

وكما أنهم فى جنات ونهر فهم فى مجلس صدق ، ومكان مرضى . قال جعفر الصادق -رضى الله عنه- : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق وهو المقعد الذى يصدق الله -تعالى- فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح لهم-عز وجل- النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد لإرادة الجنس ،هذا المجلس عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شىء فى الكون إلّا وهو تحت ملكوته-سبحانه-ما أعظم شأنه ، ويشير إلى ذلك الإتيان بصيغة المبالغة فى (مَلِيكٍ)

والتنكير فيه وفى (مُقْتَدِرٍ) كما يشير إلى أن قربهم منه-سبحانه-بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث يتحقق لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان ، وتكل دونه الأذهان فالعندية عنده- جل شأنه- عندية منزلة وكرامة لامسافة ولاممامسة .

قال عبد الله بن بريدة :روى أن رسول الله قال : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الله - تبارك وتعالى - فيقرأون القرآن على ربهم ، وقال ثور بن يزيد عن خالد بن معدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون :يا أولياء الله انطلقوا ، فيقولون :إلى أين؟ فيقولون:إلى الجنة ،فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا فيقولون : فما بغيتكم؟ فيقولون :مقعد صدق عند مليك مقتدر.وفى رواية فيقولون : بغيتنا المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أنى أصبحت فإذا أنا على ليل طويل وليس فيه أحد غيرى فنمت فسمعت حركة خلفى ففزعت فقال :أيها الممتلىء قلبه (فَرَقًا) لا تفرق ،أى :لاتفزع . وقل :اللهم إنك مليك مقتدر ،ماتشاءُ من أمر يكون ثم سل ما بدا لك قال : فما سألت الله-تعالى-شيئاً إلا استجاب لى ، وأنا أقول :اللهم إنك مليك مقتدر ماتشاءُ من أمر يكون ، فأسعدنى فى الدارين ، وكن لى ولا تكن علىّ ،وانصرنى على من بغى علىّ ، وأعذنى من همّ الدَّيْنِ وقهر الرجال وشماتة الأعداء .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب١٦٧٩ / ١٩٨٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٤٧٨ س ١٩٨٨ - ٤ ٬٠٠٠ ٢٥

« سـورة الرحمن »

آياتها ثمان وسبعون

نزلت سورة الرحمن بمكة عند الجمهور ، وغيرهم يقول : إنها مدنية ، ولكل من القولين رواته ، وتسمى (عروس القرآن) كما أخرجه البيهقى عن على - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ قال : « لكلِّ شىء عروس ، وعروس القرآن سورة الرَّحمن » ووجه مناسبتها لسورة - القمر - التى سبقتها ، أنها مُفَصِّلة لما أُجمل فى آخرها ، قال الإمام جلال الدين السيوطى : لمَّا قال - سبحانه - فى آخر ما قبلها « بل السَّاعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » ثم وصف - سبحانه - حال المجرمين فى سقر وحال المتقين « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » فصَّل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل على الترتيب الوارد فى هذا الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة والإشارة إلى شقها ، ثم وصف النار وأهلها ، ولذا قال سبحانه : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) ولم يقل : الكافرون أو نحوه؛ لاتصاله معنى بقوله تعالى هناك : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » ثم وصف الجنة وأهلها ، ولذا قال تعالى فيها : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وذلك هو عين التقوى ، ولم يقل : لمن آمن أو أطاع أو نحوه ، لتوافق الألفاظ فى التفصيل ، ويعرف بما ذكر أن هذه السورة شرح لآخر السورة قبلها . اهـ .

وبالجملة فقد اشتملت كلتاهما على أحوال المؤمنين والكافرين فى الدنيا ، ومآل أمرهم فى الآخرة .

وتكرر فى هذه السورة قوله - تعالى - : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) للتقرير بالنعم المختلفة المعدودة فكلما ذكر - سبحانه - نعمة أنعم بها ، وبَّخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أُحْسِنْ إليك بأن خوَّلْتُكَ فى الأموال ، ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ، فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرَّرُ به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، قاله السيد المرتضى فى كتابه (الدُّرَرُ والغُرَر) وذكر عديدًا من القصائد فيها مثل هذا

التكرار ، قال الآلوسيّ : ولا يرد على ما ذكره أن هذه الآية قد ذكرت بعد ماليس نعمة ، لما ستعلمه إن شاء الله فى محله : ونحن سنبيِّن ذلك - إن شاء الله تعالى - .

مقاصد هذه السورة الكريمة :

بينت هذه السورة أنه - تعالى - علَّم نبيه القرآن وأوحاه إليه ، وأنه خلق كل إنسان وعلمه كيف يُعَبِّر عن مقاصده ويبينها ، وأنه سيَّر الشمس والقمر بحساب دقيق ، بحيث لايعتريهما خلل فى ذاتهما أو فى دورانهما ، وأن النجم من النبات - وهو ما ليس له ساق ، - والشجر - وهو ماله ساق - يخضعان لإرادته وتكوينه - تعالى - وأنه رفع السماء ، وشرع الميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنه جعل الأرض مقرًّا للناس ، وأنبت لهم فيها أشجار الفاكهة وحبوب الطعام كالحنطة والشعير ، وأنبت لهم مصادر العطر كالريحان ، وأنه خلق الإنسان من طين جاف كالفخار ، وخلق الجن من لهيب النار ، وأنه رب المشرقين والمغربين ، وأنه أرسل البحرين - المالح والعذب - وجعلهما يلتقيان ، ومع هذا لا يبغى أحدهما على الآخر فيبطل خاصيته وصفاته بحاجز وحائل من قدرة الله - تعالى - ، وأنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وسيأتى شرح ذلك بمشيئة الله - تعالى - وأن لله السفن الجارية فى البحر ، ولها قلاع مرفوعة كأنها أعلام - أى جبال - وأن كلاًّ من على الأرض فانٍ ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ، وأنه تعالى : له شئون كثيرة فى خلقه كل يوم ، فلذا يسأله من فى السموات والأرض ماهم بحاجة إليه ، وأنه - سبحانه - سيقصد مجازاة خلقه يوم الدين ، وليس له شاغل يشغله عن ذلك ، وهناك ينادى المنادى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) هرباً من الحساب والعقاب (فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) ولا سلطان لكم ، فالملك يوم القيامة والحكم لله الواحد القهار ، يُرسَل على الكفار يومئذ لهبٌ من النار فلا ينصر بعضُهم بعضاً ، فإذا انشقت السماء وانصدعت يومئذ ، وكان لها لون أحمر كحمرة الورد ، وكانت صافية كالدهن المذاب (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ) لأن هذا وقت صدور أمر الله بعذابهم ، بعد أن شهدت عليهم جوارحهم ورأوا ذنوبهم واضحة فى كتبهم .

ثم بين الله حال المؤمنين ، فذكر أنهم صِنْفَان ، أحدهما أرفع درجة من الآخر .

فأولهما : له جنتان فى أعلى درجات الجنان ، وثانيهما : له جنتان أدْنى من السابقتين ، ووصف هذه الجنان وصفاً رائعاً يبين ما فيهن من جلائل النعم التى يتنعم بها هؤلاء وأولئك ، جعلنا الله - تعالى - منهم ، وختم السورة بقوله - جل وعلا - : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) : علَّمه النطق المعرب عما فى الضمير .

(بِحُسْبَانٍ) : بحساب وتدبير .

(يَسْجُدَانِ) : يخضعان لتدبيره – تعالى – .

التفسير

١ – ٦ – (الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ *) :

ذكر الله – سبحانه – فى هذه السورة كثيرًا من نعمه وآياته ، وأول مابدأ به منها القرآن العظيم ؛ لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكانة ، فعليه تدور السعادة الدنيوية والأُخروية فما من غاية تنتهى إليها آمال الأُمم إلا موجودة وسائلها فيه ، وهو منهج الحق وصراطه المستقيم ، وآية الآيات على نبوة نبينا محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، ولذا تكفل الله بحفظه فقال – جل وعلا – : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩

وقد أسندت نعمة تعليم القرآن وغيرها من النعم إلى (الرحمن) الذى هو أحد أسماء الله الحسنى؛ لأنها من رحمته - تعالى - بعباده .

ولم يذكر فى الآية مَن الذى علمه الرحمنُ القرآنَ، قيل: هو الإنسان، فإن تعليمه من نعمه - جل وعلا - على البشر جميعاً، فمن حفظه ووعاه فإنه يعلمه غيره، وهكذا إلى أن تقوم الساعة؛ لأن الله - تعالى - تعهد بحفظه .

وقيل: المراد بالإنسان محمد ﷺ، فإنه أول من تعلمه من البشر، وهذا مآله إلى الرأى السابق؛ لأنه ﷺ علمه الصحابة، والصحابة علَّمُوه مَنْ بعدهم، وهكذا .

والمراد من تعليم القرآن: تعليم ألفاظه ومعانيه على وجه يعتد به، وقد يصل العلم بمعانيه إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه، فإنه - تعالى - لم يغفل شيئاً فيه، أخرج أبو الشيخ فى كتاب (العظمة) عن أبى هريرة مرفوعاً «إن الله لوْ أغفل شيئاً لأغفل الذرّة والخردلة والبعوضة» .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم: عن ابن مسعود: أنزل الله فى هذا القرآن علم كل شىء، ولكنّ علمنا يقصر عما بين لنا فيه .

وقال أبو العباس المرسى: جَمَعَ القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط به علماً إلّا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله به - سبحانه - .

وقال ابن عباس: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله - تعالى - .

وقال الفخر الرازى: المراد بتعليم القرآن جعل الشخص بحيث يعلم القرآن. فهذه الآية كقوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ»[1] .

والنعمة التالية لتعليم القرآن أنه تعالى (خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) وقدم تعليم القرآن على خلق الإنسان وتعليمه البيان، للإشارة إلى أنه أفضل النعم، وأنه يبين الغاية من خلق

---

(١) سورة القمر من الآية: ١٧

الإنسان - وهى عبادة الله - قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »[١] .
والمراد من الإنسان : الجنس ، وبخلقه : إنشاؤه على ما هو عليه من القُوى الظاهرة والباطنة ، والمراد من تعليمه البيان : تمكين الإنسان من التعبير عما فى نفسه وفهم بيان غيره ، وهو الذى يدور عليه تعلم القرآن ، وقيل تعليمه البيان : تعليمه التكلم بلغات مختلفة .
وقيل المراد بالإنسان : آدم ، وبتعليمه البيان تعليمه الأسماء كلها ، أو علم الدنيا والآخرة ،
والنعمة الثالثة جاءت فى قوله - تعالى - : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أى : الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق فى مداريهما وبروجهما ومنازلهما ، فتختلف بذلك الفصول والأوقات ، وتُعلَم السنون ، والشهور ، والأيام ، والليالى ، وتنتظم بذلك أمور أهل الأرض .

ويرى علماء الفلك أن القمر يدور حول الأرض ، وأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن الشمس تدور حول شىء لم يعلم حتى الآن .

والنعمة الرابعة جاءت فى قوله - تعالى - : (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) والمراد بالنجم : النبات الذى ينجم ويظهر فوق الأرض ، وليس له ساق كالبقول ، والمراد بالشجر : ماله ساق تحمله كالنخل والتفاح ونحوهما ، والمراد بسجودهما : خضوعهما لله - تعالى - فيما أراده منهما تكوينا وإثمارا ، ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس وابن جبير وأبى رُزَين .

وقال مجاهد وقتادة : النجم : نجم السماء ، وسجوده مع الشجر خضوعهما لأمر الله - تعالى - وإرادته فيما أراده منهما .

والرأى الأول أحسن وأحرى بالقبول ، فإن ذكر النجم مع الشجر يستدعى أن يكون النجم من النبات ، وهو الأجدر ببلاغة القرآن[٢] .

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٥٦

(٢) واعلم أن لفظ « الرحمن » مبتدأ ، والجمل التى بعده أخباره ، ويقدر ضمير فى كل من (الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان) ليرتبطا بالمبتدأ ، والتقدير : الشمس والقمر يجريان بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له .

(وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ۝٩)

المفـــردات :

(وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) : وشرع العدل ، يقال : وضع الله الشريعة - أى شرعها .

(أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ) : لئلا تتجاوزوا فيه الحق .

(وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) واجعلوا وزنكم بالعدل .

(وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) : ولا تنقصوه .

التفسير

٧ - ٩ - (وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) :

المراد من السماء هنا : ما جعلت الكواكب زينة لأولاها ، كما فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ »[1] والمراد من رفعها : الرفع الحسِّى بحيث نراها فوقنا بعيوننا أو الحسِّى والمعنوى - أى الرتبىّ - فمرتبة السماء ومقامها عال ؛ لأنها منشأُ أحكامه - تعالى - وأوامره ، ومسكن ملائكته - عز وجل - فما أعظم ملكوت القادر العليم .

---

(١) سورة الملك من الآية : ٥

والمرادِ من وضع الميزان : شرع العدل فى الأمر كله ، والعدل هنا : هو تقويم الأمور وجعلها متلائمة متعادلة لا إفراط فيها ولا تفريط ، ولا تفاوت يُخل بها ويفسدها ، وهو بهذا المعنى يشمل خلق السموات والأرض وغيره ، وفى هذا المعنى يقول ﷺ : « بالعدل قامت السموات والأرض »[1] فأنت ترى السموات متلائمة فى تكوينها لا عيب فيها ، وفى ذلك يقول الله – سبحانه – : « الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ »[2] أى : هل ترى فى خلقها من شقوق وعيوب تخل بها ؟

ويقول الآلوسى فى تفسيرها : أى : شرع العدل وأمر به ، بأن وفر على كلٍّ مُسْتَعِدٍّ مُسْتَحقَّه ، ووفَّى كل ذى حق حقه ، حتى انتظم أمر العالم واستقام ، ثم قال :

فالمراد عدل الله – عز وجل – وإعطاؤُه – سبحانه – كل شىء خلقه . ثم قال : هذا المعنى مروى عن مجاهد والطبرى والأكثرين .

وقال الحسن بن الفضل : معناه وشرع القرآن ؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وعن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك أن المراد بالميزان : ما يعرف به مقادير الأشياء ، من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فمعنى (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) : خلقه مخفوضاً على الأرض ، حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء ، وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وعطائهم .

ونرى أن المعنى الأول هو المناسب ، حتى لا يتكرر مع قوله – تعالى – : (وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) كما أنه هو المناسب لما قبله من رفع السماء ، أما ميزان الناس فلايناسب ما قبله ، والفجوة واسعة بينهما .

---

(١) انظر تفسير روح المعانى للآلوسى ، ج٩ ص١٠١ تفسير قوله تعالى :(ووضع الميزان) فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الملك الآية : ٣

ومعنى قوله : (أَن لَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ) وشرع العدل فى الأمر كله ؛ لئلا تجوروا على الناسِ فى أموركم المختلفة .

ومعنى : (وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ) وأقيموا وزنكم فى بيعكم وشرائكم بالعدل ، ولا تبخسوا فى الكيل والميزان .

(وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا) : خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد .

(لِلْأَنَامِ) : للإنس ، أو لهم وللجن .

(ذَاتُ الْأَكْمَامِ) صاحبة الأكمام ، وهى أوعية الطلع ، مفردها كِمّ بكسر الكاف .

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ) أىْ : ذو التبن .

(وَالرَّيْحَانُ) : هو على وزن فَعلان من لفظ الرِّيح ، ويطلق على كل مشموم طيب الرِّيح من النبات ، كما يطلق على الريحان المعروف وعلى الرزق .

(آلَاء) : الآلاء النعم ، واحدها أَلَى بفتح الهمز وقد يكسر ، مثل مِعًى وأمعاء .

التفسير

١١ - ١٣ - (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالأنام : الناس فى رواية عن ابن عباس ، وفى رواية أخرى عنه وعن قتادة وابن زيد وغيرهم : الأنام : الحيوان كله - كما فى مجمع البحرين . وقال الحسن : الإنس والجن . والظاهر أنها مخلوقة للإنس والجن والحيوان والسمك ، فإنهم جميعاً يعيشون فيها ، وينتفعون بخيراتها ، وقال صاحب القاموس : الأنام : الخلق .

وقد عقب الله هذه الآية بقوله : (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) ففيهما تقرير للآية التى قبلها ، من أن الأرض موضوعة للأنام ، فقد تضمنت بعض النعم التى أعدها الله فى الأرض لمنفعتهم ، من فاكهة كثيرة يتفكهون بها ، ونخل ذات أكمام - أى : أوعية تشتمل على الطَّلْع الذى يحوله الله إلى بلح فرطب فتمر ، فيتغذون بثمارها ويتفكهون ، وحَبٌّ ذى تبن وريحان ، فالحب : القمح والشعير والذرة وغيرها ، وهو غذاء للإنس والجن والحيوان ، والتبن لغذاء الحيوان ، والريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، منعش للنفوس كالورد والياسمين ، كل ذلك وغيره أعده الله لمنفعة الأنام ، فما أعظم نعم الله على خلقه وأحقه بالشكر عليها ، وبذل الوسع فى طاعته ، ثم يخاطب الله الكافرين من الثقلين الداخلين فى عموم الأنام بقوله موبخا لهم ومنكراً عليهم (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الفاء فى قوله : (فَبِأَيِّ آلَاءِ) لترتيب التوبيخ والإنكار بعدها على كفرهم بالنعم التى قبلها ، مع أنها من موجبات الإيمان ، أى : إذا كانت هذه نعماً عليكما أيها الثقلان ، فبأى نعم الله الذى رباكما تكفران ، بإنكار كونها من نعم الله عليكما ، أو إنكار دلالتها على وجود الله ووحدانيته ، أخرج ابن جرير والخطيب فى تاريخه وغيرهما بسند صحيح : عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : « مالى أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيت على قوله - تعالى - : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا : لا بشىء من نعمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد » .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفـــردات :

(صَلْصَالٍ) : طين جاف له صلصلة ـ أي صوت ـ إذا نقر .

(كَالْفَخَّارِ) : الفخار : الخزَف ، وهو ما أحرق من الطين حتى تحجر .

(مِن مَّارِجٍ) : من لهب خالص ، وسيأتى بسط الآراء فيه .

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أرسل البحرين العذب والملح .

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) : رب مشرق الشمس ومغربيها ـ صيفًا وشتاء .

(بَرْزَخٌ) : حاجز .

(اللُّؤْلُؤُ) : صغار الدر .

(وَالْمَرْجَانُ) كبار الدُّر ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى بيانه .

التفسير

١٤ - ١٦- (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الآيتان الأُوليان تمهيد لتوبيخ الثقلين على إخلالهما بموجب شكر النعمة المرتبطة بذاتى كل واحد منهما ، والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - وقيل الجنس الشامل لأولاده ، فهم مخلوقون من الصلصال تبعاً لأبيهم .

والصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة - أى : صَوْت - إذا نُقِر ، وقيل : هو الطين المنتن ، من صَلَّ اللحم إذا أنتن ، والفخار : هو ما أحرق من الطين حتى تحجر ، ويسمى الخزف .

واعلم أن أصل آدم ومنشأه هو التراب ، ثم تحول التراب إلى طين ، ثم إلى حمأ مسنون - أى : طين يابس منتن ، ثم إلى صلصال كالفخَّار ، ولهذا ترى منشأه يختلف باختلاف الآيات ، فتراه فى بعضها التراب ، وفى أخرى الطين أو الحمأ المسنون أو الصلصال فلا تعارض بينها ؛ لأن كلا منها يتكلم على طور من أطوار خلقه ، ولا عجب فى أن يكون منشأ الإنسان ما ذكر ، فإن الله على كل شىء قدير ، وهو الذى يقول للشىء : كن فيكون .

وجاء فى الآية الثانية : أن الجانَّ خُلق من مارج من نار ، فالجانُّ أبو الجن ، وهو إبليس كما قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس إبليس ، كما جاء فيها أنه خلق من مارج من نار ، ولفظ (مِن) فى قوله تعالى : (مِن مَّارِجٍ) يشير إلى مبدأ خلقه ، وفى قوله : (مِن نَّارٍ) يبين المراد من مارج ، فإن أصله من مرج الشىء إذا اضطرب واختلط ، فيصدق على النار وغيرها ، فجاء قوله : (مِن نَّارٍ) ليبينه ، ومعناه كما قال الجوهرى فى الصحاح : نار لادخان لها خلق منها الجان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد : أنه اللهب الذى يعلو النار ، يختلط بعضه ببعض ، أحمر ، وأصفر ، وأخضر - كما نقله القرطبى .

وقد عقب الله هاتين الآيتين باستفهام إنكارى توبيخى ، وذلك فى قوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ؟ ، أتكفران بمنشأ خلقكما ، أم تكفران بغيره ؟ .

١٧ - ١٨ - (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بالمشرقين : مشرق الشمس شتاء وصيفاً ، وبالمغربين : مَغْرباها كذلك ، وقيل : المشرقان مشرق الشمس ومشرق القمر ، والمغربان كذلك ، وهذه الآية كناية عن أنه - تعالى - ربها ورب ما بينها من الكائنات .

والمعنى : الذى أبدع ما مرّ من النعم هو مالك المشرقين والمغربين وما بينهما ، لايشاركه فى خلقها أحد ، وحيث كانت المشارق والمغارب ومابينها من إبداعه - تعالى - وداخلة فى ملكوته ، فمن حقه أن يُعبد ولا يُجحد ولا تُكذب آلاؤه ونعمه ، ولهذا أنكر على المشركين تكذيبهم لآلائه ونعمه ، ووبخهم على هذا التكذيب بقوله - جل وعلا - بعد هذه الآية - : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أتكذبان بخلقه المشارق والمغارب وما بينها من الكائنات واختلاف الفصول وما يترتب عليه من المنافع والمصالح ، أم تكذبان بغير ذلك ؟ اللهم لا بشىء من آلائك نكذب ، سبحانك فلك الحمد .

١٩ - ٢٣ - (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

قال الآلوسى فى معنى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) أى : أرسلهما وأجراهما ، من مرجت الدابة فى المرعى ، أى : أرسلتها فيه ، أى : أرسل الله البحر الملح والبحر العذب .

ونقول : إن هذا هو التفسير الموافق لقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا »[1] ولقوله : « وَمَا يَسْتَوِى

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣

الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »[١] .

أما قول الحسن : إنهما بحرا فارس والروم ، فإنه مخالف لصريح الآيات المذكورة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقد ذكر الله أن هذين البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان ، فأما التقاؤهما فيكون عند مصاب الأنهار فيها ، وأما البرزخ الذى بينهما فهو القدرة الإلهية التى منعت أن يبغى الماء الملح على العذب فيحوله إلى ملح ، وأن يبغى العذب على الملح فيحوله إلى عذب ، فبقى كلاهما يؤدى وظيفته التى خلق لها .

وهل هذا الحاجز هو أنه – تعالى – خلق الأرض كروية ، وأن الارتفاع الكروى هو الذى يمنع أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويدل على ذلك أن الشمس تشرق فى أرض قبل أخرى ، وتغرب فى أرض قبل أخرى ، بسبب هذا التكوير ، فيبقى كل منهما فى مكانه لا يبغى على الآخر ، ولا يمنع لقاؤهما فى طرفيهما من أن يبقى ما وراء هذا اللقاء حافظاً لخواصه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولاشك فى أن جاذبية الأرض تبقى كل شىء فى مكانه ، من جبال ورمال وإنسان وحيوان وغير ذلك ، مع سرعة الأرض الخارقة فى دورانها ، ولو كانت الأرض مسطحة لبقيت الشمس مشرقة فيكون الوقت كله نهاراً لا ليل فيه ، ولا بقى شىء من البحرين محافظاً على خواصه ، فإنه يندمج كل منهما فى الآخر .

وقيل : إن البرزخ الذى بينهما هو الأرض اليابسة التى بينهما ، وحينئذ يكون المراد من لقائهما تقابلهما وتجاورهما ، والذى قلناه هو المتعين ، وفيه من الدلالة على قدرة الله مافيه ، ويلاحظ أنه لا توجد أرض يابسة عند مصاب الأنهار كما زعموا ،

---

(١) سورة فاطر من الآية : ١٢

وذكر الله – تعالى – أنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، ويقول بعض المفسرين : إن اللؤلؤ صغار الدر ، والمرجان كباره ، ونقل ذلك عن الإمام على – رضى الله عنه – وقيل : عكس ذلك ، وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وروى عن ابن مسعود أن المرجان الخرز الأحمر ، وعلى هذا يكون اللؤلؤ شاملا لكباره وصغاره ، وهذا هو المتعارف بين الناس .

وجاء فى الآية أن كليهما يخرج من البحرين الملح والعذب ، مع أن المعروف هو وجودهما فى الملح دون العذب ، وأجاب القرطبى عن ذلك بقوله : إن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله – تعالى – : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُم » وإنما الرسل من الإنس دون الجن : قاله الكلبى وغيره : وقال الزجاج : قد ذكرهما الله ، فإذا أخرج من أحدهما شىء فقد خرج منهما ، وهو كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً »[1] ، ولكن أجمل ذكر السبع ، فكأن مافى إحداهما فيهن ، إلى غير ذلك مما ذكره القرطبى .

والحق أنه يخرج من كليهما كما أظهره العلم الحديث ، فقد جاء فى هامش التفسير المنتخب الذى أخرجته وزارة الأوقاف المصرية ، تعليقاً على قوله تعالى : « وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا »[2] – جاء فى الهامش – « أن اللؤلؤ كما يستخرج من أنواع معينة من البحر الملح ، يستخرج أيضاً من أنواع أخرى صدفيات من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلاندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان » إلخ بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية ، كالماس الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة ، ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٥ و ١٦

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٢

ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ، ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال) وسيبريا - ثم قال : ويغلب أن يكون أصفر أو بنيًّا ، إلى آخر ما جاء فى الهامش المذكور من الأحجار الكريمة التى تستخرج من الرواسب النهرية .

والمعنى الإجمالى للآيتين : أرسل الله - تعالى - البحرين الملح والعذب ، وجعلهما يلتقيان فى أطرافهما ، وهذا الالتقاء والتمازج فى الأطراف لم يجعل أحدهما يبغى على الآخر بإيصال خاصيته فى داخله ؛ لأنه - تعالى - جعل بينهما حاجزاً يمنع التمازج الكلى بينهما ، وهذا الحاجز هو تدرج أجزاء الأرض إلى الارتفاع الكروى ، وهذه الكروية مع سرعة دورانها الرهيبة تبقى كليهما فى داخله محافظاً على خاصيته ، ومثل ذلك كمثل الشمس تشرق فى أرض وبلاد أخرى وتغرب كذلك ،وهذا بسبب الارتفاع الكروى الذى يحجز إشراقها أو غروبها فى أرض قبل أخرى ، بالإضافة إلى جاذبيتها الشديدة ، فهى تجذب كل ما فوقها إليها ، حتى لا يفارق مكانه بسبب سرعتها ، ولو كانت غير كروية لا ختلط الملح بالعذب ، وأبطل كل منهما خاصية الآخر ، ولأشرقت الشمس على جميع بقاعهـا فى وقت واحد ، فيبقى الزمن كله نهاراً لا ليل له ، وكل ذلك بقدرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ومن العلماء السابقين من قال : إن الحاجز بين البحرين هو الأرض اليابسة بينهما ، وجعل التقاءهما تقاربهما ، وهذا غير متيسر فى كل الأنهار ، بل المشاهد هو التلاقى الامتزاجى فى الأطراف ، حتى لايكون الماءُ العذب آسنا متغير الطعم واللون ، فماقلناه أوَّلاً هو الحق ، وصدق الله - تعالى - إذ يقول : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ .. »[1]

ويعقب الله - تعالى - هاتين الآيتين بقوله : (فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) مّما لكما فى ذلك من المنافع ، وبقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) أى : يخرج من البحرين الملح والعذب اللؤلؤ والمرجان ، على ما تقدم بيانه ، فكما جعل الأرض

---

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣

تنبت لنا الزروع والأشجار ، والحب ذا العصف والريحان ، جعل البحرين لنأكل منهما لحمًا طريًّا ، ونستخرج منهما حلية نزدان بها ، فكل من البرِّ والبحر أساس حياتنا وزينتنا ، وكل ذلك آلاء ونعم لايمكن تكذيبها وإنكارها ، فبأيها تكذبان أيها الثقلان .

(وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾)

المفــــردات :

(وَلَهُ الْجَوَارِى) : وله السُّفُن – جمع جارية .

(الْمُنشَآتُ) : المرفوعات الشرع كما قال مجاهد ، من أنشأه بمعنى رفعه ، ويدخل فى هذه الجوارى السفن التى تدار بمحركات آلية ، فهى له – سبحانه – .

(كَالْأَعْلَامِ) : كالجبال المرتفعة ، جمع علم وهو الجبل الطويل .

(فَانٍ) : هالك .

(وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ) : ويبقَى ذاته ، وسيأتى بيانه فى موضعه .

(كُلَّ يَوْمٍ) : المراد باليوم : الزمان مطلقاً ، فيصدق على كل وقت ولحظة .

(هُوَ فِى شَأْنٍ) أى : فى أمر من الأمور العظيمة ، ويجمع على شئون .

التفسير

٢٤ - ٢٥ - (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

ولله من النعم على عباده السفن التى تجرى فى البحر ، تحمل الناس وما يتَّجرون فيه من قطر إلى قطر ، ومن مكان إلى مكان ، وهذه السفن منشآت - أى : مرفوعات كالجبال فوق ظهر الماء بقدرته - تعالى - فهى ملك له - جل وعلا - فهو الذى خلق ما صنعت منه ، وهو الذى يجريها فوق سطح الماء ويحفظها من الغرق فى رحلاتها الطويلة والقصيرة ، فيسلم أهلها وتجارتهم ، فهى لله خلقًا وملكًا وتصرفًا ، ولا يمنع ذلك ملك الناس لها ، فهو الذى أرشدهم إلى كيفية صناعتها وإجرائها فى مختلف البحار ، فكل أمورها ترجع إلى الله - تعالى - فهى وأهلها لله رب العالمين ، فبأى نعم الله فى شأن السفن الجوارى تكذبان يا معشر الثقلين .

٢٦ - ٢٨ - (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الضمير فى عليها يرجع إلى الأرض التى وضعها الله للأنام ، والمراد من وجه الله : ذاته - جل وعلا - فإضافة لفظ « وجه » إلى لفظ « رب » إضافة بيانية ، فكأنه قيل : ويبقى ربك ، واستعمال الوجه بمعنى الذات مجاز مرسل ، ومثل ذلك شائع فى لغة العرب ، وهذا هو تفسير الخلف ، منعًا لاعتقاد أن لله وجهًا يشبه وجه الإنسان ، وأنه جزء من ذاته ، فإن ذلك كفر ، قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

أما السلف فيقولون : إن لله وجهًا لا كوجه الإنسان ، فالمماثلة للخالق ممنوعة ، وذهب بعض العلماء إلى تأويلات أخرى . وحسب القارئ ما تقدم .

وجلالُ الله عَظَمته ، وإكرامه - تعالى - هو تنزيهه عمًّا لا يليق به من الشرك وسواه من صفات النقص ، كما تقول : أنا أكرمك عن كذا أى : أنزهك عنه ، والله - تعالى - متصف بهما ، سواءٌ أجَلَّه ونزهه الناس ، أم لم يفعلوا ذلك .

والله - تعالى - يعدد فى هذه السورة آلاءه ونعمه ، فما وجه ذكر الفناء للخلق فى آلائه - تعالى - ؟ والجواب : أن الفناء بابٌ للبقاء والحياة الأبدية فى جنة عرضها السموات

والأرض ، وقال الطيبى : المراد من قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) ملزوم معناها ؛ لأنها كناية عن مجىء وقت الجزاء ، وهو من أَجَلّ النعم على المؤمنين ، ولذلك خص الجلال والإكرام بالذكر ؛ لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب ، تبشيرًا للمؤمنين ، وتحذيرًا للعباد من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، ولذلك رتب عليها بالفاء قوله تعالى : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) .

٢٩ ـ ٣٠ ـ (يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ[1] * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المراد بمن فى السموات والأرض : أهلهما من الملائكة والإنس والجن وغيرهم ممن لا يعلمهم إلّا الله ـ تعالى ـ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل الجنة كعرض السموات والأرض لأهل هذه الأرض ، بل لهم ولغيرهم من المكلفين فيهما ممن نعلمه ومن لا نعلمه ، فقد جاء فى القرآن أن الأرض سبع كالسموات ، قال تعالى فى آخر سورة الطلاق : « اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ » وكان ابن عباس يرى أن الأرضين الأخرى بها مكلفون مثلنا ، كما أن سكان السماء لا نستطيع القطع بأنهم الملائكة فحسب ، فقد يكون فيهن سكان عقلاء مكلفون ، فلهذا جعل الله الجنة كعرض السماء والأرض ،لكى تتسع للمكلفين فيهن ، والله ـ تعالى ـ أعلم .

والمراد من كل يوم كل وقت من الأوقات ، ولحظة من اللحظات ، والمراد من الشأن الشئون المختلفة ، فهو مفرد فى معنى الجمع ، كما فى قوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » أى : أطفالًا .

وشئون الله تعالى فى كل لحظة لا تعد ولا تحصى ، كما أن كلامه لا يعد ولا يحصى ، قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ »[2] ، ومن شئونه ـ جلّ وعلا ـ أنه ينشئ أشخاصًا ويفنى آخرين ، ويغفر

(١) كل يوم هو فى شأن كلام مستأنف ، وكل ظرف لما بعده .
(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٧

ذنوبًا ويفرج كروبًا ، ويرفع أقوامًا ويخفض آخرين ، ويجيب دعاء بعض الداعين ، ولايجيبه لآخرين ، ويعز ويذل ، ويرزق ويمنع ، إلى غير ذلك من شئون الكون .

وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت ، وروى أن عبد الله بن طاهر ، دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى ، قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة ، وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » ، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الأمة ، ويكون توبة فى هذه الأمة ؛ لأن الله – تعالى – خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم ، وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها ولايبتديها[1] ، وأما قوله : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » فمعناه : ليس له إلّا ما سعى عدلًا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلًا ، فقام عبد الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه ، أى : أمر بعطائه والإنعام عليه .

وبعد هذا نقول : إن تلك الأراء ما هى إلّا نماذج من شئونه – تعالى – وشئونه لا تحصى والمعنى الإجمالى للآيتين : يسأل الله أهل السموات وأهل الأرض عن حاجاتهم وضروراتهم ؛ لأنه هو الذى خلقهم ، وهو الذى يجيب مسألتهم ، كل وقت هو – سبحانه – فى شئون كثيرة لا تحصى من شئون ملكوته ، ومن جملتها سماع أسئلة عباده والبت فى أسئلتهم ، إيجابًا أو سلبًا ، فالله – سبحانه – لا يغفل عن ملكوته طرفة عين ، فلهذا لا ترى نقصًا فى سمواته وأرضه ، فهو « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٭ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[2] ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، وهو الذى تسألونه فيحقق أسئلتكم

---

(١) أى شئون مما كتبه الله – تعالى –، يظهرها فى الحين الذى قدر ظهورها فيه ، ولا يبتدئ إرادتها والعلم بها .

(٢) سورة الملك الآيتان : ٣ و٤

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾)

المفـــردات :

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ) : سَنَأْخذ فى جزائكم فقط أيها الإنس والجان .

(أن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَار السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : أن تخرجوا من جوانبها .

(إِلَّا بِسُلْطَانٍ) : إلَّا بقوة وقهر .

(شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) أى : لهب من نار ونحاس مذاب يصب فوقكم .

(فَلَا تَنتَصِرَانِ) : فلاتمتنعان من العقوبة بهما ، وسيأتى فى الشرح بيان ما تقدم .

التفسـير

٣١ - ٣٢ - (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

جاء فى الآية السابقة أنه - تعالى - (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) أى : كل وقت هو فى شئون ملكوته التى لاتحصى ولاتعد ، ومن جملتها شئون الثقلين ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه - سبحانه - سيفرغ من شئونهم الدنيوية من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير

سائر أحوالهم - سيفرغ من ذلك كله - إلى شأن واحد هو جزاؤهم يوم القيامة على أعمالهم فى الدنيا .

ويجوز أن يكون المعنى : سنفرغ من شئون الدنيا كلها - ومنها شئون الثقلين فيها - إلى جزائهم فى الآخرة فإنه - سبحانه - سيبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وتبرز الخلائق وتظهر بالبعث والحشر بعد موتهم وفنائهم ، أى : سيحيون لجزائهم منه - تعالى - .

ومعلوم من الدين بالضرورة أنه - تعالى - وقد انتهى من شئون الدنيا - فإنه معنى بشئون الآخرة - وما أكثرها - فليس شأنه فى الآخرة مقصوراً على جزاء الثقلين ، فلهذا تعتبر الآية من قبيل الوعيد للإنس والجن بأنه - تعالى - سيعاقبهم إن كفروا وعصوا ربهم ، وبهذا المعنى قال ابن عباس - رضى الله عنهما - .

وقيل : إنَّ فرغ قد تكون بمعنى قصد ، وهو المراد هنا ، ونقل هذا عن الخليل والكسائى والفراء ، وعلى هذا يكون المراد حينئذ : تعلق الإرادة بجزائهم تعلقًا تنجيزيًّا .

وقد عبر الله عن الإنس والجن بالثقلين لعظم شأنهما ، ولذا يقال : العظيم القَدْر ثَقَلٌ ، ومنه قوله ﷺ : « إنى تارك فيكم الثَّقَلَيْن - كتاب الله وعِتْرتى »[1] ، وقيل : لأنهما مثقلان بالتكاليف .

والمعنى الإجمالى للآيتين : سنقصد تنجيز عقابكم يوم القيامة ، ونريد تحقيق ما أردناه لكما أزلًا أيها الثقلان إن لم تؤمنوا ، فبأى نعمة من نعمى التى مِنْ جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة ، لعلكم تتقونه بإيمانكم - فبأى نعمة منها - تكذبان .

٣٣ - ٣٤ - (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

---

(١) انظر : مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤ ، والطبرانى ج ٥ ص ١٩٠ حديث ٤٩٨٠ ، والحاكم ج ٣ ص ١٤٨

المعشر : الجماعة ، وقد ذكر الله فى الآية السابقة مايفيد أنه سيعاقب الجن والإنس إن كفروا ، وجاءت هذه الآية لتعجيزهم عن الهَرَب للتخلص من عقابه .

والمعنى : ياجماعة الجن والإنس أنتم راجعون إلينا بعد الموت لعقابكم على كفركم ومعاصيكم ، فإن قدرتم على الهرب والتخلص منه بالخروج من جوانب السموات والأرض ، فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابى ، لا تخرجون منها إلَّا بسلطان وقوة وقهر ، أنتم لا تقدرون على ذلك . عاجزون عن تحقيقه ؛ لأنكم لا سلطان ولا قدرة لكم على تحقيقه ، فأنتم محصورون فى ملكوتى فى حين لا ملكوت لغيرى حتى تخرجوا إليه - إن قدرتم - فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان وتكفران ، ومنها تحذيركم من العقاب لتتقوه .

٣٥ - ٣٦ - (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ . فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

شواظ النار : لهيبها الخالص من الدخان ، وبهذا المعنى أخذ ابن عباس ، وقيل : هما جميعًا ، حكاه الأخفش عن بعض العرب ، والنحاس : هو دخان النار على القول الأول ، وقيل : هو النحاس المعروف سمى الصُّفْر ، يذاب ويصب على رءوسهم ، وروى هذا : مجاهد وقتادة ، وكذا ابن عباس فى رواية عنه .

وهذه الآية جواب عن سؤال مقدر عن الداعى للفرار أو عمَّا يصيبهم .

والمعنى : يرسل عليكما أيها الثقلان لهب شديد من نار ، كما يرسل عليكما نُحَاسٌ مذاب يصب فوق رءوس الكافرين منكما ، فلا تمتنعان من العذاب ، ولا تستطيعان الهرب منه لو أردتموه ، فبأى نعم ربكما تكذبان ،ومنها تنبيهكم إلى أنكم لا تستطيعون الفرار من العذاب إن بقيتم على كفركم .

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾)

المفــردات :

(فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) أى: كالوردة فى الحمرة ، لامعة كالدهان ، والدهان قيل إنه مفرد كالدهن ، وقيل : إنه جمع دهن ، وقال الحسن : أى كالدهان المختلفة ؛ لأنها فى الإعراب خبر ثان لكانت أو نعت لوردة .

(يَطُوفُونَ) : يترددون .

(حَمِيمٍ آنٍ) : ماءٌ شديد الحرارة .

(بِالنَّوَاصِي) : جمع ناصية وهى : مقدم الرأس .

٣٧ - ٤٢ - (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

انشقاق السماء : انصداعها يوم القيامة ، وبعد انشقاقها تكون حمراء كالوردة ، لامعة كالزيت ، أو صافية كصفائه .

وجواب إذا تقديره . كان ما كان مما يعجز عنه البيان .

ومعنى هذه الآيات : فإذا تصدعت السماء ، فصارت حمراء كالورد . صافية كالزيت ، يكون من الأهوال ما لا يقدر على وصفه البيان ، فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان ، ومنها ما تقدم من ذكر أهوال يوم القيامة ، توعية للثقلين لحملهما على الوقاية من تلك الأهوال بالإيمان ، فيوم تكون السماء كذلك لا يسأَلُ عن ذنبه إنس ولا جان ، كما قال تعالى : « وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »[1] لأن الله حفظها عليهم وسطرتها الملائكة فى كتبهم .

يعرف هؤلاء المجرمون بعلاماتهم ، من سواد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ »[2] ، وكما قال ــ سبحانه ــ : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا »[3] فتأخذ الملائكة بشعور مقدم رءوسهم وبأقدامهم ، فيقذفونهم فى نار جهنم فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين .

وجعل ذلك من نعم الله عليهم من جهة أن فيه تحذيرًا لهم من هذا المصير ، وحملًا لهم على الإيمان .

فإن قيل : إنه قد جاء فى القرآن أنهم يُسأَلون ، كقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[4] ، فالجواب : أن فى يوم القيامة الطويل مواقف ، ففى بعضها يسألون ، وفى آخر لا يسألون ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ ، وحيث نفى فهو استخبار محض ، يعنى : أن سؤالهم لمعرفة أخبار جرائمهم لا يحصل ؛ لأن الله وملائكته يعلمونها ، ولأنها مكتوبة فى صحائفهم ، ولأن أعضاءهم تشهد عليهم

(١) سورة القصص من الآية : ٧٨
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦
(٣) سورة طه من الآية : ١٠٢
(٤) سورة الحجر الآيتان : ٩٢ و ٩٣

٤٣ ـ ٤٥ـ(هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

(هَٰذِهِ جَهَنَّمُ) : مقول لقول مقدر ، وهذا المقدر معطوف على قوله تعالى : (يُؤْخَذُ) أى : ويقال للمجرمين ، أو مستأنف جوابًا لسؤال مقدر ، أى : ماذا يقال لهم حينئذ ، والذى يقول لهم هذا هم الملائكة الذين وكل إليهم تعذيبهم .

والمعنى : يقول الملائكة الذين وكل إليهم عقابهم توبيخًا وتأنيبًا ومضاعفة لآلامهم ـ يقولون لهم ـ حين يأخذون بنواصيهم وأقدامهم ويلقونهم فى النار : هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون أمثالكم يترددون بينها وبين شراب شديد الحرارة يقطع أمعاءهم ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها المكذبون من الإنس والجن .

واعتبر هذا القول نعمة من نعم الله فى الدنيا للثقلين ؛ لأنه ربما دعاهم إلى الإيمان ليتقوا هذا العذاب .

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾)

المفـــردات :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أى : خاف قيام ربه وهيمنته عليه ، فمقام : مصدر ميمى مضاف إلى الفاعل ، فالقيام هنا مثله فى المعنى قوله - تعالى :- « أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[١] وللكلام بقية فى شرحها .

(جَنَّتَانِ) : بستانان .

(أَفْنَانٍ) : جمع فَنٍّ بمعنى : نوع ، أو جمع فَنَن وهو ما دَقَّ ولان من الأغصان .

(زَوْجَانِ) : صِنفان ، وسيأْتى بيان ذلك فى موضعه من الشرح .

(مُتَّكِئِينَ) : الاتكاءُ الاعتماد والتحمل ، والتُّكَأَةُ العصا وما يتكأُ عليه ، ومنه بمعنى الجلوس قوله ﷺ : « أنا لا آكل متكئًا »[٢] أى : جالسًا على هيئة المتمكن المتربع المستدعية لكثرة الأكل ، بل كان قعوده مستوفزًا[٣] .

(إِسْتَبْرَقٍ) : ديباج ثخين ، والديباج الحرير المنقوش ، وهو فارسىٌّ مُعَرَّب .

(وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ) أى : ما يجنى ويؤخذ من ثمار أشجارها .

التفسير

٤٦ - ٤٩ - (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

ذكر الله فيما مضى من الآيات أحوال أهل النار ، وجاءت هذه الآيات وما بعدها لتبين الآلاء والنعم التى أعدها الله لعباده المؤمنين الأبرار ، وهم الذين خافوا مقام ربهم يوم الحساب.

وهذه الآيات نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - روى عن ابن الزبير وابن شوذب وابن أبى حاتم عن عطاء ، أنه - رضى الله عنه - ذكر ذات يوم وفكر فى القيامة والموازين والجنة والنار ، وصفوف الملائكة وطى السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتشار

---

(١) سورة الرعـد من الآية : ٣٣

(٢) رواه البخارى .

(٣) ومن معانى الاتكاء: الاضطجاع على الجنب . انظر : لفظ « وكأ » ولفظ « ضجع » فى القاموس

الكواكب ، فقال : وددت أنى كنت خَضِرًا من هذه الخضر ، تأْتى علىَّ بهيمة فتأْكلنى وأنى لم أُخلق ، فنزلت : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) وهى وإن نزلت بسبب خوف أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فالعبرة بعموم اللفظ لكل خائف ، لا بخصوص السبب .

ومقام مصدر ميمى معناه : قيام ، وهو مضاف إلى الفاعل ، أى : ولمن خاف قيام ربه وهيمنته عليه يوم القيامة ، وذلك هو المقصود من قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ »[1] وهذا المعنى مروى عن مجاهد وقتادة ، أو هو اسم مكان ، والمراد به : مكان وقوف الخلق وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإضافته للرب لأنه لا سلطان فيه لغيره - جلَّ وعلَا - وهذا المعنى موافق للمراد من قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[2] أى : يوم وقوف الناس وقيامهم فى أماكنهم منتظرين قضاء رب العالمين .

والجنتان لكل واحد من المتقين ، إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه ، والأُخرى منزل أزواجه وخدمه ، كما يفعله الرؤساءُ والمترفون فى الدنيا ، وإلى هذا ذهب الجبائى ، وقيل : بستانان ، أحدهما : داخل قصره والآخر : خارجه .

والخوف من الله - تعالى - هو خوف من حسابه وعقابه على فعل المعاصى وترك الطاعات ، فيحمله هذا الخوف على تقوى الله - تعالى - وقال مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله - تعالى - فيدع الذنب ، وما قاله مجاهد مثال لباعث من بواعث الخوف من الله تعالى ، فالخوف من الله - تعالى - أوسع من ذلك ، فمن أطاع الله وترك المعاصى يعد خائفًا منه - جلَّ وعلَا - سواءٌ حملته النفس على معصيته فكف عنها خوفًا منه تعالى ، أو لم تحمله ، ولكنه دأب على طاعته وترك معصيته ، خوفًا منه ، حتى أصبح ذلك خلقا له .

وقد وصفت الجنتان بأَنهما ذواتا أفنان ، وما بينهما جملة اعتراضية للتنبيه على أن التكذيب بالموصوف أو بالصفة موجب للإنكار والتوبيخ ، وأفنان إمَّا جمع فَنٍّ بمعنى النوع ،

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٣٣

(٢) سورة المطففين الآية : ٦

أى : صاحبتا أنواع من الأشجار والثمار ، وروى ذلك عن ابن عباس وابن جبير والضحاك ، وعليه قول الشاعر :

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا لهوتُ به والعيش أخضر ناضر

وإمَّا جمع فَنَن ، وهو ما لَانَ ودق من الأغصان ، كما قاله مجاهد وابن الجوزى وعلى تفسيرها بمعنى الأغصان يكون تخصيصها بالذكر مع أنها ذواتا جذوع وأوراق وثمار أيضًا لأنها هى التى تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار ، فكأنه قيل : ذواتا ثمار وظلال ، فالأغصان كناية عن ذلك .

٥٠ ـ ٥٥ـ (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى الجنة لكل خائف مقام ربه عينان تجريان بالماء الزلال ، إحداهما بالتسنيم والأخرى بالسلسبيل ، وروى هذا عن الحسن ، وقال عطية العوفى : عينان : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان ، فى الجنتين من كل فاكهة صنفان : صنف معروف لهم فى الدنيا ، وصنف آخر غريب لم يعرفوه ، أو صنف يابس ، وآخر رطب ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، معتمدين على فرش من ديباج ثخين ، سواءٌ كان الاعتماد جلوسًا عليها أو نومًا أو اضطجاعًا وإذا كانت الفرش بطائنها من إستبرق فكيف بالظواهر ، وقيل لابن عباس : بطائنها من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال ـ تعالى ـ : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ »[1] .

وثمر الجنتين قريب ، يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولى الله ـ تعالى ـ إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا : فبأى نعم ربكما تكذبان أيها الثقلان .

---

(١) سورة السجدة من الآية : ٧

(فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾)

المفـــردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) : نساءٌ قصرن أبصارهن على أزواجهن ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لم تفتض بكارتهن .

التفسير

٥٦ ـ ٦١ ـ (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ • كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ • هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

المعنى : فى هذه الجنات المعدة لمن خافوا مقام ربهم فاتقوه وكانوا من الأبرار – فيهن – نساءٌ قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن سواهم ، أخرج ابن مردويه بسنده عن النبى ﷺ أنه قال فى ذلك : « لا ينظرون إلَّا إلى أزواجهن » أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون سواهن ، لم يفتض بكارتهن ولم يجامعهن إنس ولا جان قبل هؤلاء المتقين ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، كأنهن فى صفائهن الياقوت وفى حمرتهن المرجان[1] ، فبأى نعم ربكما تكذبان ، هل جزاءُ الإحسان فى الطاعة إلَّا الإحسان فى الثواب . **فهؤلاء**

(١) ذكر هذا المعنى قتادة – كما فى البحر .

الخائفون أحسنوا فتركوا المعاصى وأقبلوا على الطاعات ، فأحسن الله إليهم هذا الإحسان الذى تقدم بيانه .

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾)

المفـــردات :

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) : ومن تحت هاتين الجنتين السابقتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان .

(مُدْهَامَّتَانِ) : شديدتا الخضرة .

(نَضَّاخَتَانِ) : فوارتان بالماء ، صيغة مبالغة من النضخ ، وهو فوران المـــاء .

التفسير

٦٢ - ٦٩ - (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تحكى هذه الآيات نعيمًا آخر ، لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، فهاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، والجنتان السابقتان للسابقين - كما قاله ابن زيد والأكثرون - وقال

الحسن : الأُوليان السابقين والأُخريان التابعين ، وهو بذلك يجعل أصحاب اليمين من جملة السابقين ، وهذا القول روى موقوفًا ، وصححه الحاكم عن أبى موسى .

ومعنى هذه الآيات : وأقل من الجنتين السابقتين جنتان لصنف آخر ممن خاف مقام ربه ، وقد وصف الله هاتين الجنتين بأوصاف فصل بينهما بقوله تعالى ـ : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إيذانًا بالإنكار والتوبيخ على تكذيب كلّ من الموصوف وصفته .

وأول هذه الأوصاف أن الجنتين « مُدْهَامَّتَانِ » أى :خضراوان ـ كما روى عن ابن عباس وغيره ، وأصل هذا التفسير عن النبى ﷺ فقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ قال : « سألت النبى ﷺ عن قوله ـ تعالى ـ « مُدْهَامَّتَانِ » فقال ﷺ : « خضراوان » والمراد أنهما شديدتا الخضرة من كثرة الرى ، حتى أصبح لونهما يميل إلى الدهمة وهى السواد ، وَوَصْف هاتين الجنتين بذلك دون السابقتين ، للإيذان بأن الغالب فيهما النبات والرياحين المنبسطة على الأرض ، أما وصف السابقتين بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » ، فللإيذان بأن الغالب فيهما الأشجار ، فإنها هى التى توصف بأنهما « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » والنبات يوصف بالخضرة الشديدة .

وثانى هذه الأوصاف « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى : فوارتان بالماء ، قال البراءُ بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين.

وثالث هذه الأوصاف (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وقد عطف نخل ورمان على فاكهة مع أنهما منها ، للإيذان بفضلهما ، وقيل : إنهما لم يخلصا فى الدنيا للتفكه ، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاءٌ ، والرمان فاكهة ودواءٌ ، فكأنهما جنس آخر فعطفا على الفاكهة ، ولهذا قال أبو حنيفة : من حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رُمَّاناً أو رُطبا لم يحنث ، وخالفه صاحباه .

(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾)

المفـــردات :

(خَيْرَاتٌ) : جمع خَيْرة ، وصف بنى على فعلة من الخير ، كما قالوا شَرَّة من الشر ، قاله أبو حيان ، وقال الزمخشرى : أصله خيِّرات بالتشديد فخفف : كما قال ﷺ - هيْنُون لَيْنُون - بإسكان بدل تشديدها .

(حُورٌ) : جمع حوراء ، أى : بيض كما روى عن ابن عباس ، وقال ابن الأثير : الحوراءُ هى شديدة بياض العين ، شديدة سوادها ، وزاد فى القاموس أن تستدير حدقتها وترقُّ جفونها ويبيض ما حولها .

(مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ) : مُخَدَّرات ملازمات لبيوتهن ، لايطفن فى الطرق .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) : لَمْ يطأْهن ، فهن أبكار .

(رَفْرَفٍ) : قال الجبائى : هى الفرُش المرتفعة ، وسنزيده بياناً فى الشرح .

(حِسَانٍ) حملا على المعنى .

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) : تنزه وتقدس .

التفسير

٧٠ - ٧٨ -(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ ربكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

فى هذه الآيات الكريمة بقية أوصاف الجنتين الأخيرتين ، وبدأت بالوصف الرابع لهما وهو (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) والتعبير بالجمع فى قوله : (فِيهِنَّ) مع أنهما جنتان باعتبار جميع الجنان التى يمنحها الله لهؤلاء الأبرار .

والمعنى : فى هذه الجنات نساءٌ مختارات حسان الخَلْق والخُلُق ، وقال قتادة : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

وهؤلاء الخيرات الحسان حور مقصورات فى الخيام غير نساء الدنيا ، وهن مخدَّرات أى : ملازمات لبيوتهن لا يطفن بالطرق ، عاكفات على أزواجهن ، وقد وصفهن بالحُور ، وهو شدة بياض بياض العيون ، وشدة سواد سوادها ، مع استدارة الحدقة ورقة الجفون وبياض ما حولها .

وقد وصفت هذه الحور بأنهن أبكار لم يَطَأْهن إنْس ولا جان قبل أزواجهن ممن خافوا مقام ربهم .

ووصف أصحاب هذه الجنان بأنهم يعتمدون على رفرف خضر وعبقرى حسان جلوساً أو اضطجاعاً أو نوماً ، والرفرف جمع رفرفة ، ولهذا وصف بخضر جمع أخضر ، وهو ما يطرح على ظهرالفرش للنوم ، وهذا التفسير لابن عباس وغيره ، وقال الجبائى : هى الفرش المرتفعة ، وقال الحسن : هى البُسُطُ .

كما يتكئون على عبقرى حسان ، والعبقرى لفظ يطلق على الشىء العجيب النادر . والمراد به : الجنس ولذا وصف بالجمع .

وفسره أبو عبيدة بأنه ماكُلُّهُ وشْىٌ - أى : نقش - من البسط ، وفسره مجاهد بأنه الديباج الغليظ ، وقيل غير ذلك .

ثم ختمت السورة بقوله تعالى : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

أى : تعالى الله صاحب العظمة والتكريم ومنزه عن أن يكون له شريك فى هذا الإنعام وفى هذا الملكوت العظيم .

« سـورة الواقعة »

وهى مكيَّة كما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عبَّاس ، وآياتها ستٌّ وتسعون نزلت بعد سورة طه .

مناسبتها لما قبلها :

سورة الواقعة متَّفقة مع ما قبلها [سورة الرحمن] فى أنَّ كلّ منهما وصف القيامة والجنَّة والنَّار ، قال بعض الأَجِلَّة : انظر إلى اتصال قوله ـ تعالى ـ : (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) بقوله ـ تعالى ـ فى سورة الرحمن : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (١) » وأنَّه اقتصر فى سورة الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى سورة الواقعة على ذكر رَجِّ الأَرض ، فكأَنَّ السورتين لتلازمهما وتوافقهما سورة واحدة ، ذُكِر فى كلٍّ شيْءٌ .

وقد عُكِس الترتيب فذُكِر فى أوَّل سورة الواقعة مافى آخر سورة الرَّحمن ، وفى آخر هذه مافى أول تلك ، فافتتح فى سورة الرحمن بذكر القرآن ثم ذكر الشمس والقمر ثم ذكر النبات ثم خلق الإنسان والجان ، ثم صفة يوم القيامة ، ثم صفة النَّار ، ثم صفة الجنَّة .

وبُدِئ فى سورة الواقعة بذكر القيامة ، ثم صفة الجنَّة ، ثم صفة النَّار ، ثم خَلْق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النَّار .

المعنى العام للسورة :

تقْرعُ سورة الواقعة سَمْعَك ، وتبعث الخوف والرَّهبة فى نفسك حين تحَدِّثك عن وقوع يوم القيامة ، وما يصاحب ذلك الوقوع مِنْ أُمُور جِسام ، وأحداث عِظام ، حيث ترج الأَرض وتزلزل زلزالها ، وتتفتَّت الجبال تَفْتِيتا وتصير غبارًا منتشرًا متطايرًا ، وتذكر أحوال الناس يومئذ وأَنواعهم فهم أصناف ثلاثة :

١ ـ أَصحاب اليمين .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٣٧

٢ ــ أصحاب الشمال .

٣ ــ والسَّابقون .

وتبيِّن بتفصيل ما أعدَّ الله لكلٍّ من نعيم مُقيم جزاء عملهم الصالح ، أو عذاب أليم يناسب كفرهم وعصيانهم وخروجهم عن أوامر ربِّهم وتكذيبهم بيوم الدِّين وقولهم : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) ؟ (أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[1]) ؟

وتتحدث السورة بعد ذلك عن بعض آلاء الله ونعمه ، وآثار قدرته فيما خلق وأبدع فى الزرع والماء والنار ، وأن ذلك يستوجب تسبيح الله وتقديسه على نعمه الغامرة ، وشكره على آياته الظاهرة الباهرة ، وتوضِّح أنَّ مَنْ خلق هذا وأَوْجَده إله قادر على البعث ، وإعادة الناس إلى الحياة مرَّة ثانية للحساب والجزاء ؛ لأَنَّ الإعادة أسهل من البداءة عادة .

وتذكر السّورة أنَّ الله ــ سبحانه ــ قضى بين النَّاس بالموت وجعل لموتهم وقتاً مُعيَّنا وهو ــ سبحانه ــ ليس بعاجز على أن يبدِّل صورهم بغيرها وينشئهم خلقاً آخر فى صور أخرى لا يعرفونها ، وفى السُّورة قَسَمٌ على مكانة القرآن وعلو شأْنه وتقريع للكافرين على قبح صنعهم وعجيب شأْنهم ، حيث وضعوا التَّكذيب موضع الشُّكر ، وقابلوا النعمة بالجحود والكفر ، وفى آخر السورة إجمالى ما فصلته أولاً عن أحوال الأَصناف الثلاثة ، وما ينتظر كلَّ صنف من ثواب أوعقاب .

وتختتم السورة ببيان أنَّ كلَّ الَّذِى ذكر فيها وجاءت به هو حق اليقين ولذا فسبِّح باسم ربِّك العظيم .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٤٧ و ٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) : حدثت وقامت القيامة .

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) : لا تكون نفس مُكذِّبة بوقوعها يوم القيامة

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) : خافضة لأقوام رافعة لآخرين والخفض والرفع يُستعملان عند العرب فى المكان والمكانة .

(رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) : زُلزلت وحُرِّكت تحريكاً عظيماً .

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) : فُتِّتت تفتيتاً شديدًا أو سيقت وسُيِّرت من بسّ الغنم إذا ساقها

(فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) : فكانت غبارًا منتشرًا متفرقاً .

التفسير

١ - (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : إذا قامت وحدثت القيامة ، فالواقعة من أسماء يوم القيامة كما صرّح بذلك ابن عبّاس وسُمِّيت بذلك للإيذان بتحقيق وقوعها لامحالة كما قال تعالى :

« فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ »[1] قال الزمخشرى : وقعت الواقعة هو كقولك : كانت الكائنة وحدثت الحادثة فكأنّهُ قيل : إذا وقعت التى لابدّ من وقوعها ، ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه أى : نزل ماكنت أترقب نزوله وقال الضحّاك : الواقعة الصَّيحة وهى النفخة الأخيرة فى الصور وجواب إذا تقديره حدث كيت وكيت ، وفى إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة .

٢ - (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) :

اعتراض يُؤَكِّد تحقيق الوقوع أو حال من (الْوَاقِعَةُ) كما قال ابن عطيَّة ، أى : لايكون حين وقوعها نفس كاذبة تنكر وقوعها وتنفيه وتجحده .

وقال ابن كثير : أى : ليس لوقوعها - إذا أراد الله كونها - صارفٌ يصرفها ولادافعٌ يدفعها ، ومعنى كاذبة كما قال محمد بن كعب لابدَّ أن تكون .

ويجوز أن تكون (كَاذِبَةٌ) مصدرًا بمعنى التَّكذيب وهو التَّثبيط أى : ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصَّادقة من ذى سطوة قاهرة ، وروى نحو ذلك : عن الحسن وقتادة وابن جرير .

٣ - (خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) :

أى : هى خافضة رافعة ترفع أقواماً وهم السّعداء وتضع آخرين وهم الأشقياء ، تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين فى الجحيم وإن كانوا فى الدنيا أعزَّاء ، وترفع آخرين إلى أعلى

---

(١) سورة الحاقة الآية : ١٥

عِلِّيين إلى النَّعيم المقيم وإن كانوا فى الدنيا وضعاء هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما . وقيل : تزلزل الأَشياء وتُزيلها عن مقارّها فتخفض بعضاً وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفا ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمرّ فى الجوّ مر السحاب ، فالخفض والرفع إما حسّى أو معنوىّ .

٤ - (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) :

أى : إذا زُلزلت الأَرض واهتزَّت وحُرِّكت تحريكاً شديدًا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، وإذا بدل مما قبلها أى : تخفض وترفع وقت رجّ الأَرض وبسّ الجبال .

٥ - (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) :

أى : وفُتتت الجبال تفتيتاً دقيقاً أو وسيقت وسُيِّرت من بسّ الغنَم إذا ساقها فهو كقوله تعالى : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ »[1]

٦ - (فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا) :

أى : فصارت الجبال بسبب ذلك البس غبارًا منتشرًا ، والمراد : مطلق الغبار عن الأَكثرين ، وقال ابن عباس : الهباء : هو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كُوَّة ، وفى رواية أُخرى عنه : أَنَّه الَّذِى يطير من النَّار إذا اضطرمت .

قال ابن كثير : وهذه الآية كأَخواتها دالة على زوال الجبال عن أَماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها أى : قلعها .

---

(١) سورة النبأ الآية : ٢٠

(وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَزْوَاجاً) : أصنافاً وأنواعاً وعن مجاهد فِرَقاً .

(فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) : فأصحاب اليُمْن والبركة ، أو ناحية اليمين .

(وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) : وأصحاب الشُّؤم ، أو جهة الشِّمال .

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) : عن ابن كيسان : هم المسارعون إلى كلِّ ما دعا الله إليه ، ورجّحه بعضهم ؛ لأنه عام يشمل كلَّ الأنواع .

التفسير

٧ - (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً) :

خطاب للأُمة الحاضرة والأُمم السالفة كما ذهب إليه الكثير ، والمعنى : وصرتم جميعاً فى يوم القيامة أصنافاً وأنواعاً وفرقاً ثلاثة ، قال الآلوسى : كل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود أو الذكر فهو زوج :

قال ابن كثير : ينقسم النَّاس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف :

١ - قوم عن يمين العرش ويُؤْتَوْن كتبهم بأَيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين - قال السّدى : هم جمهور أهل الجنة .

٢ - وآخرين عن يسار العرش ويُؤْتَوْنَ كتبهم بشمالهم ويؤخذ بهم ذات الشِّمال وهم عامّة أهل النّار .

٣ - وطائفة يُساقون بين يديه - عزّ وجلّ - وهم أخصّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين ، فيهم الرُّسل والأنبياء والصديقون والشهداء .

وهكذا قسّمهم إلى هذه الأنواع الثّلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم ، وذلك إشارة إلى قوله - تعالى - فى آخر السورة (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)[1] ... إلخ .

٨ ، ٩ - (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) :

شروع فى تفصيل للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائرعلى ألسنة المفسرين أنَّ أصحاب الميمنة مبتدأ خبره جملة ما أصحاب الميمنة والرابط الظاهر القائم مقام الضمير فى قوله - تعالى - : (مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) وكذا يقال فى قوله - تعالى - : (وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) .

والأصل فى الموضعين ماهم ؟ أىْ . أى شىء هم فى حالهم وصفتهم ، والمراد تعجيب السامع لشأن الفريقين فى الفخامة والفظاعة ، كأنَّهُ قيل : فأصحاب الميمنة هم فى غاية من حسن الحال وما أعظم مكانتهم ، وأصحاب المشأمة هم فى نهاية سوء الحال وما أسوأ مكانتهم ، واختلفوا فى الفريقين :

١ - فقيل أصحاب الميمنة : أصحاب المنزلة السّنية . وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنيّة .

٢ - وقيل : الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، والذين يؤتونها بشمالهم .

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٨٨ و ٨٩

٣ – وقيل : الذين يُؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنَّة ، والَّذين يؤخذ بهم ذات الشِّمال إلى النَّار .

٤ – وقيل : أَصحاب اليُمن ، وأَصحاب الشُّؤْم ، فإن السعداء ميامين على أَنفسهم بطاعتهم ، والأَشقياء مشائيم على أَنفسهم بمعاصيهم روى هذا عن الحسن والربيع (ا هـ . بتصرف آلوسى – وكشاف) .

١٠ – (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) :

هذا هو الصنف الثَّالث من الأَزواج الثلاثة ، ولعل تأْخير ذكرهم مع أَنهم أَسبق الأَصناف وأَقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أَحوالهم ، واختلف فى تعيينهم فقيل .

١ – هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم ، روى ذلك عن عكرمة ومقاتل .

٢ – وقيل : هم من ذكروا فى الحديث الذى أورده صاحب « البحر » : « سئل الرسول ﷺ عن السابقين فقال : هم الَّذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للنَّاس كحكمهم لأَنفسهم » .

٣ – وقيل : هم السّابقون إلى الهجرة والصّلوات والجهاد ، أَو هم أَهل القرآن أَو هم الأَنبياء .

٤ – وقيل – كما نقل عن ابن كيسان – هم المسارعون إلى كل مادعا الله إليه ، ورجحه بعضهم بالعموم .

وجعل ما ذكر فى أَكثر الأَقوال من باب التمثيل .

والشائع أن (السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) مبتدأ وخبر والمعنى : والسّابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت مكانتهم ومنزلتهم ، كقولهم : أنا أبو النجم ، وشعرى شعرى ، وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم مالا يخفى (اهـ . آلوسى بتصرف) ولم يقل : والسابقون ما السابقون على غرار الأولين فى قوله - تعالى - : (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) . إلخ لأنه جُعِل أمرًا مفروغاً منه مُسلّما به مستقلاً بالمدح والتعجّب .

١١ - (أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) :

مبتدأ وخبر والجملة استئناف وبيان ، أى : أولئك المقرّبون عند الله ، الموصوفون بذلك النّعت الجليل الذى استحقوه حُظوة ومكانة عنده ، أو الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم ، والإشارة بأُولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد - مع قرب المشار إليه - للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل .

١٢ - (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

أى : كائنين فى جنات النعيم وفائدة ذكر (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) بعد ذكر كونهم مقرّبين للإشارة بالأول إلى اللذة الروحية ، وبالثانى إلى اللذة الحسية .

(ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(ثُلَّةٌ) : المشهور أنها الجماعة كثرت أو قلت ، وقال الزَّمخشرىُّ : الاستعمال غلب على الكثير فيها .

(الْأَوَّلِينَ) : الأُمم الماضية قبل الرّسول ، أو الأَولين من صدر أُمة محمد .

(الْآخِرِينَ) : أُمّة محمد أَو المتأَخّرين منهم .

(مَوْضُونَةٌ) : منسوجة بالذّهب بإحكام .

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ) : يدور عليهم للخدمة .

(بِأَكْوَابٍ) أَقداح لا عُرا لها ولا خراطيم .

(وَأَبَارِيقَ) : أَوانٍ لها عُرًا وخراطيم .

(كَأْسٍ) : إناء شرب الخمر .

(مَعِينٍ) : خمر جارية من العيون .

(لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم صُداع بشربها .

(وَلَا يُنزِفُونَ) : لا تذهب عقولهم بسببها .

(وَحُورٌ عِينٌ) : ونساء بيض واسعات الأعين حسانها .

(اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : اللؤلؤ المستور المصون فى صدفه مما يُغَيِّره .

(لَغْوًا) : كلاماً لا خير فيه .

(تَأْثِيماً) : حديثاً قبيحاً يأْثم قائله .

التفسير

١٣ ، ١٤ ـ (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ):

وقد اختلفوا فى المراد بـ (الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) فى الآية السَّابقة فقيل :

١ ـ المراد بالأَوّلين الأُمم الماضية ، والآخرين هذه الأُمَّة ، وهذه رواية عن مجاهد والحسن واختار ابن جرير هذا القول .

قال ابن كثير : وهذا الّذِى اختاره ابن جرير هو قول ضعيف ؛ لأَنَّ الأُمَّة المحمدية خير الأُمم بنصّ القرآن ، فيبعد أن يكون المقرّبون فى غيرها أَكثر منها ، اللّهُم إلاَّ أن يقابل مجموع الأُمم بهذه الأمة ، [والظاهر أَنَّ المقرّبين من أمة محمد أَكثر من سائر الأُمم] والله أَعلم .

فالقول الثانى فى هذا المقام هو الرّاجح وهو أَن يكون المراد بقوله ـ تعالى ـ : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) أى : من صدر الأمة [أَمَّة محمّد ﷺ] (وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) أى : من هذه الأُمّة ، وقال ابن أَبى حاتم : حدّثنا أَبى ، حدثنا أَبو الوليد ، حدثنا السّرى بن يحيى قال : قرأَ الحسن : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ

الْأَوَّلِينَ) قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة ، وروى عن محمد بن سيرين أنه قال فى قوله – تعالى – : (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) .

كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمّة فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ولا شكّ أنّ أوّل كلّ أمّة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولقد ثبت فى الصّحاح قوله ﷺ : (خير القُرون قرنى ثم الّذين يلونهم ثُم الّذين يلونهم) .

١٥ ، ١٦ – (عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) :

(عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ)[1] أى : ومستقرّين على سرر منسوجة بالذهب مشبّكة بالجواهر الكريمة من الدُّرّ والياقوت بإحكام ، وقيل موضونة : أى : متصل بعضها ببعض متقاربة كحِلَقِ الدِّرع .

(مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ) أى : مضطجعين على السُّرر فى راحة واستقرار وهدوء وطمأنينة متقابلة وجوههم ليس أحد وراء أحد .

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم فى قفا صاحبه ، وهو وصف لهم بِحُسْن العشرة وكمال الخلق ، ورعاية الآداب ، وصفاء النّفوس وطهارة القلوب .

١٧ ، ١٨ – (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) حال آخر ، أو استئناف أى : ويدور حول السابقين المقرّبين للخدمة ولدان مُخلدون أى : باقون أبدًا على هيئة الولدان وشكلهم وطراوتهم لا يتحوّلون عن ذلك ، وإلاّ فكلّ أهل الجنة مُخَلَّد لا يموت .

---

(١) (موضونة) من الوضن وهو نسج الدرع ، استعير لمطلق النسج ، أو لنسج محكم مخصوص ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها ؛ لأنه موضون أى : مفتول والمراد هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أى : منسوجة بالذهب . (إ هـ . آلوسى) .

وقال الفراءُ وابن جبير : (مُخَلَّدُونَ) أى : مُقَرَّطون بخلدة وهى ضرب من الأقراط قيل : الولدان : هم أولاد أهل الدنيا الَّذِين ماتوا صِغاراً فلم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيِّئات فيعاقبوا عليها ، روى هذا عن على ـ كرم الله وجهه ـ وعن الحسن . واشتُهر أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال : (أولاد الكفَّار خدم أهل الجنَّة) .

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) :

(بِأَكْوَابٍ) أى : ويدور عليهم الولدان بآنية لا عُرَا لها ولا خراطيم ، والظَّاهر أنَّهَا الأقداح وبذلك فسَّرها عكرمة وهى جمع كوب .

(وَأَبَارِيقَ) : جمع إبريق وهو إناء له خرطوم وعروة .

(وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ) أى : وبكأْس ملئت خمرًا من عيون جارية كما قال ابن عباس وقتادة ، أى : لم يُعصر كخمر الدنيا وقيل : (مَعِين) خمر ظاهر للعين مرئيَّة بها ؛ لأنَّها كذلك أهنأُ وألذُّ .

١٩ ـ (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ) :

(لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى : لا يصيبهم بشربها صُداع يصرفهم عنها ، والمراد : أنه لا يلحق برءُوسهم صداع لأَجل خِمار يحصل منها كما فى خمور الدنيا ، أو لا يُفرقون عنها : بمعنى : لا تُقطع عنهم لذَّتهم بسبب من الأسباب .

(وَلَا يُنزِفُونَ) أى : ولا تذهب عقولهم بسكرها من نُزِف الشارب كَعُنِىَ إذا ذهب عقله ، فهى لذَّة بلا ألم ولا سكر بخلاف شراب الدُّنيا والآية الأُولى (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) لبيان نفى الضَّرر عن الأجسام والثانية (وَلَا يُنزِفُونَ) لبيان نفى الضَّرر عن العقول .

٢٠ ، ٢١ ـ (وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) :

(وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) أى : ويطوف الولدان عليهم بما يتخيّرون من الفاكهة والثِّمار أى : يأْخذون خيره وأفضله والمراد بما يرضونه ويعجبهم .

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ) أى : ولحم طير مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه .

والظَّاهر أنَّ الآية تشير إلى أنَّ الولدان يطوفون بهما عليهم فى الجنة ، مع أنَّه جاء فى الآثار والأحاديث أنَّ فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنَّائم ، وأنَّ الرجل من أهل الجنَّة يشتهى الطير فيقع فى يديه نضجا ، وإنَّما كان طواف الولدان عليهم للإكرام ولمزيد المحبَّة والتَّعظيم والاحترام وهذا كما يناول أحد الجالسين على مائدة جليسا معه بعض ما عليها من الفاكهة ونحوها ، وإن كان ذلك قريباً منه اعتناءً بشأنه وإظهارا لمحبته والاحتفاء به ، وتقديم الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحال تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع ، فإن حاجته إلى اللحم أشدّ من حاجته إلى الفاكهة ، بل هم فى حالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشَّبعان فإنه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللّحم .

قال ابن كثير فى تفسير قوله – تعالى – : (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ) هذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيُّر والانتقاء لها .

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ – (وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

(وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) : أى : ولهم فى الجنَّة نساءٌ بيض واسعات العيون حسانها كأمثال اللُّؤلؤ المكنون ، أى : المصون فى صدفه ، وقيّد بالمكنون أى : المستور بما يحفظه ؛ لأنَّه أصفى وأبعد عن التغيُّر .

(جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى يُعطون هذا الجزاء العظيم وينالون هذا الثواب الجزيل بسبب ما كانوا يعملون من الصالحات فى الدُّنيا .

٢٥ ، ٢٦ – (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) :

أى : لا يسمعون فى الجنة (لَغْوًا) وهو ما لا نفع فيه من الكلام أو هو القبيح منه ، (وَلَا تَأْثِيمًا) أى : لا يسمعون حديثًا ينسب إلى الإثم قائله أو سامعه إن رضى به .

(إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) أى : إلّا أن يقول بعضهم لبعض : سلامًا سلامًا أى : نسلم سلامًا قال تعالى - تعالى - : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)[1] قال ابن عباس : أى يُحَيِّى بعضهم بعضًا بالسَّلام ، وقيل : تحييهم الملائكة أو يحيِّيهم ربهم - عزَّ وَجَلَّ .

والتَّكرير للدَّلالة على ذيوع السَّلام وكثرته ؛ لأن المراد سلام بعد سلام .

والكلام من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾)

(سِدْرٍ) : السدر : شجر النبق .

(مَخْضُودٍ) : قُطِع شوكه أو مثقل بالثمر .

(وَطَلْحٍ) : الطلح : شجر الموز روى ذلك عن علىّ وغيره .

(مَنضُودٍ) : فى الصحاح : المنضود : المرصوص بعضه فوق بعض .

---

(١) سورة إبراهيم من الآية : ٢٣

(وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) : وظل دائم ممتد منبسط لاينقلص ولايتفاوت .

(وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ) : وماء مصبوب فى غير أُخدود لاينقطع عنهم .

(وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) : المراد بالفُرُش : مايفرش للجلوس عليه ،و (مَّرْفُوعَةٍ) مرتفعة القدر أو مرفوعة على الأَسرَّة ، وقيل : المراد بالفُرُش : النساء ، ومرفوعة فى المنزلة أو على الأَرائك ، فالرفع حسّى أو معنوىّ .

(إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً) أى : ابتدأْنا خلقهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة .

(عُرُبًا) : متحببات إلى أزواجهنّ جمع عَروب كَصبور وهى حسنة التودد لزوجها .

(أَتْرَابًا) : متساويات فى السِّن أو الأَخلاق .

(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) : جماعة كثيرة من سابقى هذه الأُمَّة .

(وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) : وجماعة كثيرة من مُتَأَخِّرِيها .

التفسير

٢٧ - (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) :

لَمَّا ذكر الله - تعالى - مآل السّابقين وهم المقرّبون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأَبرار كما قال ميمون بن مهران :أصحاب اليمين منزلتهم دون السّابقين المقرّبين فقال :

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) أى : أىّ شىءٍ أصحاب اليمين ، وما حالهم ، وكيف مآلهم ؟ والجملة استئنافيَّة مشعرة بالتفخيم والتَّعجيب من حالهم .

والمعنى : وأَصحاب اليمين لا يعلم أحد ما جزاءُ وثواب أَصحاب اليمين، إنّه شىءٌ عظيمٌ ثم فسّر ذلك وفصَّله فقال :

٢٨ - (فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ) :

أى : وأصحاب اليمين فى سدر مخضود يتنعّمون ، عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد - السدر المخضود : النَّبق الّذى لا شوك له ، وعنهم - أيضًا - هو الموقَّر والمثقل بالثَّمر على أنَّه

من خَضَد الغصنَ إذا ثناه وهو رطب فمخضود مَثْنِىّ الأغصان كنى به عن كثرة الثَّمر .
ويدل على أن المخضود هو الذى خُضد أى : قطع شوكه ما أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقىّ عن أبى أُمامة قال : كان أَصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إنَّ الله – تعالى – ينفعنا بالأَعراب وسائِلِهم .

أَقبل أعرابى يوما فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مُؤْذية وما كنت أرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها . قال : وما هى ؟ قال : السِّدر فإن له شوكًا ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله يقول : (فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ) ؟ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وإنَّ الثَّمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونًا من الطَّعام ما فيها لون يشبه الآخر .

وقال أبو العالية والضحَّاك : نظر المؤمنون إلى وَجّ (وهو واد بالطائف مخصب وفى اللِّسان وجّ موضع بالبادية) فأَعجبهم سدره فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا . قال الآلوسى والظرفية فى قوله – تعالى – : (فِى سِدْرٍ) : مجازية للمبالغة فى تمكنهم من النعم والانتفاع بما ذكر .

٢٩ – (وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ) :

أى : وشجر موز قد نضِّد حمله من أسفله إلى أعلاه أى : متراكب قد رُصّ بعضه فوق بعض ليست له ساق بارزة ، روى ذلك عن علىّ وأخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ، وأَبى هريرة وأَبى سعيد الخدرىّ .

٣٠ – (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) :

أى : وهم كائنون فى ظلٍّ ممدود أى : دائم ممتد منبسط لا يتقلَّص ، ولا يتفاوت ولا يذهب كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار أَنَّه ظل الأَشجار . أخرج أحمد والبخارى ومسلم والتِّرمذى وابن مردويه عن أَبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « فى الجنة شجرة يسير الرَّاكب فى ظِلِّها مائة عام لا يقطعها وذلك الظِّل الممدود » .

٣١ – (وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ) :

أى : وماءٍ مُنْصَبّ حيث شاءُوا لا يحتاجون فيه إلى آنية أو رشاء . قال القُرطبىّ : أصل السَّكب الصَّب أى : وماءٌ مصبوب يجرى اللَّيل والنَّهار فى غير أُخدُود لا ينقطع عنهم ، وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة ، وكانت الأَنهار فى بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماء إلَّا بالدَّلو والرَّشاء ، فوُعِدُوا فى الجنَّة خلاف ذلك ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة فى الدُّنيا ، وهى الأَشجار وظلالها والمياه والأَنهار واطِّرادها .

وقيل : كأَنَّه لمَّا شبَّه حال السَّابقين بأَقصى مايُتصور لأَهل المدن من كونهم على سُرُر تطوف عليهم خُدَّامهم بأَنواع الملاذ ، شبَّه حال أَصحاب اليمين بأَكمل ما يُتصَوَّر لأَهل البَوَادى مِنْ نزولهم فى أَماكن خصبة فيها مياه وأَشجار وظلال إيذانًا بأَنَّ التَّفاوت بين الفريقين كالتَّفاوت بين أَهل المدن والبَوَادى [اهـ . آلوسى بتصرف] .

٣٢ ، ٣٣ – (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّامَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ) :

أى : فاكهة كثيرة الأَنواع والأَصناف ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ، لا مقطوعة فى أى وقت من الأَوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشِّتاء ، (وَلَا مَمْنُوعَةٍ) أى : ولا يُمْنَع من أَرادها بشوك ولا بُعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنَتْ منه حتى يأْخذها قال – تعالى – : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا »[1] ، وقيل : ليست مقطوعة بالأَزمان ولا ممنوعة بالأَثمان .

٣٤ – (وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ) :

أى : وفُرُش مرفوعة نُضِّرت وفُرِشت حتى ارتفعت ، أو مرفوعة على الأَسرة ، فالرفع حسِّى كما هو الظاهر ، وقال بعضهم : رفيعة القدر ، على أنَّ رفعها معنوى بمعنى شرفها ، وأيًّا ما كان فالمراد بالفُرش على هذا : ما يُفْرَش للجلوس والنوم عليه .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

وقال أبو عبيدة : المُرَاد بالفُرُش : النِّساء ؛ لأَن المرأة يُكنى عنها بالفِراش كما يكنى عنها باللِّباس ورفعهنَّ فى الأَقدار والمنزلة ، وقيل : على الأَرائك ، وأيّد إرادة النساء بقوله - تعالى - : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً)؛لأَن الضمير فى الأَغلب يرجع على مذكور متقدم وليس إلَّا الفُرُش ، وعلى التفسير الأَول أُضمر لهن ؛ لأَن ذكر الفُرُش وهى المضاجع دل عليهن .

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ - (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

(إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) :

المراد بـأَنشَأْنَاهُنَّ : أعَدْنا إنشاءهنَّ من غير ولادة ؛ لأَنَّ المُخبر عنهنَّ بذلك نساء كن فى الدنيا ، فقد أخرج ابن جرير والتِّرمذىّ وآخرون عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ المنشآت اللَّاتى كنّ فى الدُّنيا عجائز عُمْشًا رُمْصًا » وأتت عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أُم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز إن الله - تعالى - يقول : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ..) الآية .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الإِنشاء هو الاختراع الذِى لم يُسبق بِخَلْق ويكون ذلك مخصوصًا بالحور العين ، فالمعنى : إنا ابتدأناهن ابتداءً جديدًا من غير ولادة ولا خلق أوّل ، ومما تقدم يتبين أن المراد بقوله - تعالى - : (إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً) اللَّاتى أُعيد إنشاؤهنَّ وهن نساء الدُّنيا أَو اللَّاتى ابتُدِئ إنشاؤهنَّ وهن الحور العين .

(فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا) :

تفسير لما تقدم أى : فصيرناهنّ أبكارًا أو فخلقناهنّ أبكارًا .

(عُرُبًا أَتْرَابًا) :

(عُرُبًا) : متحببات عاشقات لأَزواجهنّ ، واشتقاقه من أَعْرب إذا بين فالعَرُوب تُعرب وتُبِين عن محبتها لزوجها بتكسّر ودلّ وحسن كلام .

(أَتْرَابًا) : مستويات فى سن واحدة ، كأنَّهُنَّ شُبِّهن فى التّساوى بالتّرائب الّتى هى ضلوع الصدر وهن أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين ، وكذا أزواجهنّ ، يقال فى النساء : أتراب ، وفى الرِّجال : أقران ، وكانت العرب تميل إلى من تجاوزت حدّ الصِّبا من النِّساء ، وانحطّت عن الكِبَر ، أخرج التِّرمذىّ عن معاذ مرفوعًا : « يدخل أهل الجنَّة الجنَّة جُرْدًا مُرْدًا مُكحَّلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين » والمراد بذلك تمام الشباب وكماله .

وقيل : أتراب أى : مستويات فى حسن الخلق وكريم الطباع ، لاتباغض بينهن ولا تحاسد يَألفن ويُؤْلَفن .

(لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

متعلق بأنشأْنا أو بجعلنا أى : إنَّا أنشأْناهنَّ إنشاءً لأصحاب اليمين ، أو فجعلناهن أبكارًا عُرُبًا أترابًا لأصحاب اليمين .

والمعنى : هنَّ مهيَّئات ومُعدَّات لنعيم وتمتُّع أصحاب اليمين ، وقيل : الحُورُ العينُ للسَّابقين والأترابُ العُرْب لأصحاب اليمين (ذكره القرطبى) .

٣٩ ، ٤٠ - (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) :

عاد ورجع الكلام إلى قوله - تعالى - : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ) .

أى : هم جماعة كثيرة من الأوَّلين وجماعة كثيرة من الآخرين والمراد بهما : المُتَقَدِّمون والمتأَخِّرُون إمَّا من الأُمم السابقة وهذه الأمة ، أو من هذه الأُمة فقط على ما سمعت فيما تقدَّم .

ولم يقل - سبحانه - فى حق أصحاب اليمين - جزاءً بما كانوا يعملون كما قاله - سبحانه - فى حق السَّابقين إشارة إلى أنَّ ما أُعطوه من جزاء كان بمحض فضل الله .

ثمَّ الظَّاهر أنَّ ما ذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الَّذى ينتهون إليه ، فلا ينافى أن يكون منهم من يُعَذَّب لمعاصٍ فعلها ومات غير تائب عنها ، ثم يدخل الجنَّة ولا يمكن أن يُقال : إن المؤمن العاصى من أصحاب الشمال ؛ لأنَّ صريح أوصافهم الآتية يقتضى أنَّهم كانوا كافرين . (اهـ . آلوسى) .

(وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(سَمُومٍ) قال الراغب : الرِّيح الحارَّة الَّتى تؤثّر تأْثير السّم ، والمراد هنا : النَّار ولفحها .

(وَحَمِيمٍ) : وماءٍ شديد الحرارة .

(يَحْمُومٍ) : دخان حار شديد السواد .

(لَّا بَارِدٍ) : ليس باردًا حتّى يخفف حرارة الجوّ .

(وَلَا كَرِيمٍ) : وليس كريماً يعود عليهم بالنفع ، بل هو حارٌّ ضارّ .

(مُتْرَفِينَ) : مُنَعَّمِين متّبعين هوى أنفسهم .

(الْحِنثِ الْعَظِيمِ [١]) : الذنب الكبير كالشرك ونحوه .

(مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) : هو يوم القيامة .

(زَقُّومٍ) : شجر فى النَّار كريه المنظر والطَّعم والرائحة .

(الْحَمِيمِ) : الماء الَّذى اشتدّ غليانه وقال القُرطبىّ : هو صَديد أهل النَّار .

(الْهِيمِ) : الإبل العِطَاش التى لاتُرْوَى لداء يُصيبها ، وقال ابن كيسان وابن عباس : الأَرض ذات الرِّمال الَّتى لَاتُرْوَى من الماء لِتَخَلْخُلِهَا .

(نُزُلُهُمْ) : مايقدم للنَّازل إذا حضر .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

التفسـير

٤١ ـ (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ) :

لَمَّا ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أَصحاب اليمين وما أعدّ لهم من النَّعيم المقيم كرامة لهم عطف عليهم بذكر أَصحاب الشِّمال فقال : (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ) أى : وأَصحاب الشِّمال لا يُدْرى ما هم فيه من العذاب والأَهوال وسمَّاهم أَصحاب الشِّمال ؛ لأَنهم ـ يأْخذون كتبهم بشمالهم أو لأَنهم يكونون فى جهة الشمال .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ـ (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

٤٢ ـ (فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ) :

فى هذه الآية ومابعدها بيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ماينال أَصحاب الشِّمال من عذاب ومايُصيبهم من نكال وعقاب فذكر أَنَّهم (فِى سَمُومٍ) أَى : ريح حارة تؤثِّر تأْثير السّم وتنفذ فى المسام وتحيط بهم من كل جانب ، (وَحَمِيمٍ)أَى : ماءُ حار قد انتهى حرّه وبلغ

---

(١) ومنه بلغ الغلام الحنث ـ أى الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب ـ وحنث فى يمينه خلاف بَرَّ فيها وتحنث إذا تأثم .

الغاية ، إذا أحرقت النَّار أجسامهم فَزِعوا إلى الحميم ، كالَّذِى يفزع من النَّار إلى المـاء ليطفئ به الحر فيجده حميمًا حارًّا فى نهاية الحرارة والغليان ، وقد مضى فى سورة محمد قوله – تعالى – : « وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ »[1] .

٤٣ – (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ) :

أى : يفزعون من السُّموم إلى الظِّل كما يفزع أهل الدُّنيا فيجدونه ظِلاًّ من (يَحْمُومٍ)[2] أى : من دخان شديد السَّواد والحرارة .

وتسمية هذا ظلاًّ على التشبيه التهكمى ، وعن ابن عباس اليحموم – سرادق النَّار المحيط بـأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلَّهم ، وقال ابن زيد : جبل أسود من النار يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شىء .

٤٤ – (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) :

صفتان للظِّل : أى : ظل لا بارد ليخفِّف حرارة الجو كسائر الظِّلال ولا كريم أى : ولا نافع لمن يـأوى إليه ، ونفى ذلك ليزيل توهم ما فى الظِّل من الاسترواح إليه .

والمعنى :أنَّه ظلٌّ حارٌّ ضار ومن ذلك النَّفى جاء التهكم والتعريض بـأَنَّ الَّذى يستـأهل الظِّل الَّذى فيه بردٌ وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم . (آلوسى – وكشاف) .

٤٥ – (إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ) :

تعليل لابتلائهم بما ذكر من أصناف العذاب وألوان العقاب . أى : وإنَّمَا استحقوا هذه العقوبة ؛ لأنَّهم كانوا فى الدُّنيا مُتْرَفِين ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المتروك يصنع مايشاء لايُمْنع .

---

(١) سورة محمد الآية : ١٥

(٢) اليحموم فى اللغة الشديد السواد وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار . وقيل : مأخوذ من الحمم وهو الفحم (قرطبى) .

والمعنى : أنَّهم عُذِّبوا ؛ لأنهم كانوا فى الدنيا قبل ذلك أى : قبل ما ذُكِر من العذاب مُتَّبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره وارتكاب نواهيه - سبحانه عزَّ وجلَّ - ، وقيل : المُترف هو الذى أترفته النعمة أى : أبطرته وأطغته .

٤٦ - (وَكَانُواْ يُصِرُّون عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) :

أى : وكانوا يُصَمِّمون بل ويُقيمُون ويُدَاومُون على الذَّنب العظيم والكبائر كالشِّرك ، وقيل : الحنث اليمين الغموس ، وظاهره الإطلاق ليعمّ كل ذلك ، وما ذكر تمثيل له ، وقال التاج السُّبكى فى طبقاته : سألت الشَّيخ - يعنى والده تقِىّ الدِّين - : ما الحنث العظيم ؟ فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله - تعالى - : « وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ »[1] وهو تفسير حسن ؛ لأن الحنث وإن فُسِّر بالذَّنب مطلقًا أو العظيم منه فالمشهور استعماله فى عدم البرّ بالقسم ، وتُعُقِّب هذا بأنه يترتب عليه التكرار فى قوله - تعالى - : (وَقَالُواْ أَئِذَا مِتْنَا ...) الآية .

وأجيب بأنه لا تكرار ؛ لأن المراد بالأول فى قوله تعالى : (وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ) وصفهم بالثبات على القسم الكاذب وبالثانى فى قوله - تعالى - :

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً) إلخ - وصفهم بالاستمرار على الإنكار على أنه لامحذور فى تكرار ما يدل على إنكارهم البعث .

٤٧ - (وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

أى : وكانوا يقولون منكرين للإعادة مكذِّبين بالبعث مستبعدين لحصوله : أئذا متنا وكان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً نخرة أئنا لعائدون إلى الحياة مرة أخرى ونُبعث ، إن هذا لمُستبعد وقوعه ولا يمكن حصوله وحدوثه ، وتقديم التراب ؛ لأنه أبعد عن الحياة التى يقتضيها ماهم بصدد إنكاره من البعث .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٣٨

٤٨ - (أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ) :

عطف على محل إن واسمها أو على الضمير المُستتر فى (مبعوثون) والمعنى : أو يبعث - أيضاً - آباؤنا الأقدمون الذين صاروا تراباً متفرّقاً فى الأرض - يقولون ذلك زيادة فى الاستبعاد لحصول البعث يعنون أن آباءهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل .

٤٩ ، ٥٠ - (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

أى : قل لهم يا مُحَمّد : ردًّا لإنكارهم وتحقيقا للحقّ : إن الأوّلين والآخرين من الأُمم ومن جملَتهم أنتم وآباؤكم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة ، ومعنى كونه معلوماً : أنه معيّن عند الله ، والميقات : مَاوُقّت به الشيءُ أى : حُدّ ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لايتجاوزها مَن يريد دخول مكة إلا مُحْرِما والمعنى : لمجموعون منتهين إلى ذلك اليوم .

وتقديم الأوّلين فى قوله : (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) للمبالغة فى الرّد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشدّ من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى .

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ) :

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) عطف على (إِنَّ الْأَوَّلِينَ) داخل فى حيِّز القول . وثم للتراخى الزمانى . أى : قل لهم : ثم إنكُم أيهَا الكافرون الضالون عن الهدى المكذّبون بالبعث أو بما يعمه وغيره ، والخطاب لأَهل مكة وأمثالهم (لَآكِلُونَ) بعد دخول جهنم من شجر هو الزقوم وهو شجر فى جهنّم قبيح المنظر كريه الطَّعم والرّائحة فمالئون من هذا الشجر بطونكم من شدة الجوع الّذى اضطركم وقسركم على أكل مثلها ممّا لا يؤكل وتعافه النّفوس .

٥٤ ، ٥٥ - (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) :

أى : فشاربون عقيب ذلك بلاريْث على ما تأكلون من هذا الشّجر من الحميم وهو المـاء الّذِى اشتد غليانه - وقيل صديد أهل النّار - أى : يُورثهم حَر ما يأكلون من الزقوم مع

الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماءً يظنُّون أنَّه يزيل العطش ويذهب الظمأ فيجدونه شديد الحرارة .

(فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)[١] :

أى : فشاربون بكثرة كشرب الإبل العطاش أو المريضة التى لاتروى بشرب الماء فلا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم .

قال الزمخشرى : والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقُّوم فإذا أكلوا وملأُوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الَّذِى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم .

وقيل (الْهِيمُ) : الرِّمال التى لا تُرْوَى من الماء لتخلخلها ، ومفرده هَيَام بفتح الهاء .

٥٦ - (هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) :

أى : هذا الَّذِى ذكِر من ألوان العذاب الَّذِى تقشعر منه النُّفوس وتذوب من هوْله لفائف القلوب هذا الَّذِى ذكر نُزُلهم يوم الدِّين أى : يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، فإذا كان ذلك نُزُلهم وهو ما يقدَّم للنَّازل مما حضرفما ظنك بما ينالهم بعد دخولهم النار ، وفى جعله ألوان العذاب وأنواعه السابقة نُزُلًا أى : مما يُكرم به النَّازل فيه من التهكم ما لا يخفى ، ونظير ذلك قول الشاعر :

وكنَّا إذا الجبار بالجيش ضافنا ⠀⠀ جعلنا القنا والمرهفات له نُزُلا

قال ابن كثير فى قوله - تعالى - : « هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » أىْ : هذا الَّذِى وصفنا - يقصد من ألوان العذاب السابق ذكره فى الآيات السابقة - هو ضيافتهم المعدة الدائمة عند ربهم يوم حسابهم كما قال - تعالى - فى حق المؤمنين :

---

(١) قال ابن عباس وغيره : الهيم : جمع أهيم وهو الجمل الذى أصابه الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً يقال : إبل هيماء وناقة هيماء ، كما يقال : جمل أهيم . اه : آلوسى .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا »[1] .

أى : ضيافة وكرامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

(أَفَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(مَا تُمْنُونَ) ما تقذفونه وتصبّونه فى أرحام النّساء من المنىّ .

(قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) : قضينا به بينكم ، وكتبناه عليكم .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) : وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

(عَلَى أن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) : على أن نبدّل صوركم بغيرها ونغيّر خلقكم .

(وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) أى : نخلقكم فى خلق وصور لا تعرفونها أو ننشئكم فى البعث ونخلقكم على غير صوركم فى الدنيا .

(النَّشْأَةَ الْأُولَى) : خَلْقكُمْ من نطفة ثم من علقة إلخ ، أو خَلْق آدم ونشأته من تراب .

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٠٧

التفسير

٥٧ - (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) :

يقول الله - تعالى - مقرِّرًا للمعاد ورادًّا على المكذِّبين من أهل الزيغ والإلحاد الَّذِين قالوا : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) يقول - تعالى - رادًّا عليهم - :

(نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ) أى : نحن ابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورًا أليس الَّذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ولذا قال : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) أى : فهلاَّ تصدّقون بالبعث - تحريض لهم وتحضيض على الإيمان به . وقال الزَّمخشرىّ : (فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ) تحضيض على التَّصديق إمَّا بالخلْق ؛ لأنَّهم وإن كانوا مصدِّقين به بدليل قوله - تعالى - : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ »[1] إلاَّ أنَّهُم لمَّا كان مذهبهم وسلوكهم فى الحياة خلاف ما يقتضيه التَّصديق فكأنَّهم مكذِّبون به ، وإمَّا تحضيض على التَّصديق بالبعث ؛ لأنَّ من خلق أوَّلًا لا يمتنع عليه أن يخلق ثانياً ، واختار الآلوسى الرأى الأوَّل .

٥٨ ، ٥٩ - (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَـٰلِقُونَ) :

أى : أخبرونى ما تقذفونه فى أرحام النساء من المنىّ أأنتم تقدّرونه وتتعهدونه فى أطواره المختلفة وتصوّرونه بشرًا سويًّا تام الخلقة أم نحن المقدِّرون المصوّرون ، قال القرطبى : وهذا احتجاج عليهم أى : إذا أقررتم بأنَّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث .

٦٠ ، ٦١ - (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) :

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) أى : نحن قضينا به بينكم وكتبناه عليكم وقَسْمناه ووقتنا موت كلّ أحد بوقت معيّن حسبما تقتضيه مشيئتنا وما نحن بمسبوقين ولا عاجزين ولا مغلوبين (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ) أى : على أن نذهبكم ونأتى

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٦١

مكانكم أشباهكم من الخلق (وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ) من الخلق والصور والأطوار التى لا تعرفونها ولا تعهدونها والمراد : ونحن قادرون على ذلك أيضاً .

قال الزمخشرىّ : المعنى إنّا لقادرون على الأمرين معاً ، على خلق ما يماثلكم ومالا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم ، وقال القرطبىّ : المعنى : وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فيُجَمّل المؤمن ببياض وجهه ويقبّح الكافر بسواد وجهه مثلا - قاله سعيد بن جبير .

٦٢ - (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد أيقنتم أن الله - سبحانه - أنشأكم النشأة الأُولى من خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة إلخ - وقال قتادة : وهى خلق آدم من التراب فهلّا تتذكرون أنّ من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقوى وأقدر . وفى الخبر : (عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنّشأة الآخرة وهو يرى النّشأة الأولى ، وعجبا للمصدّق بالنّشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار » ا هـ. آلوسى وقرطبى بتصرف .

(أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(مَا تَحْرُثُونَ) : ما تبذرون حبه وتعملون فى أرضه .

(تَزْرَعُونَهُ) : تنبتونه وتروونه نباتاً يرفّ .

(حُطَاماً) : هشيماً متكسّرًا قبل أن يبلغ نضجه .

(تَفَكَّهُونَ) : تتعجّبون من سوء حاله وتندمون .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) : لمعذبون بهلاك أموالنا .

(نَحْنُ مَحْرُومُونَ) : لا حظ لنا أو محرومون الرّزق بالكلية .

التفسير

٦٣ ، ٦٤ – (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) :

هذه حجّة أخرى ودليل على البعث ، أى : أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر أأنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ، وإنّما منكم البذر وشقّ الأرض ؟ فإذا أقررتم بأنّ إخراج السنبل من الحَبّ الذى بُذر ليس إليكم فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وبعثهم ؟ وأضاف الحرث إليهم والزّرع إليه – تعالى – لأنّ الحرث فِعلُهم ويجرى على اختيارهم . والزرع من فعل الله وينبت على اختياره لا على اختيارهم – روى أبو هريرة عن النّبى ﷺ أنّه قال : « لا يقولنّ أحدُكم زَرعتُ وليَقُلْ حَرثتُ فإنّ الزّارعَ هو اللهُ »[1] .

قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله – تعالى – (ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) .

قال الماوردىّ : وتتضمّن هذه الآية أمرين : أحدهما : الامتنان عليهم بأنه أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم – الثانى : البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذره وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر ثم جعله قويًّا مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة مَنْ أمات أقوى عليه وأقدر .

وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفطر السليمة .

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ –(لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰماً فَظَلْتُم تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) :

---

(١) انظر سنن البيهقى ج ٦ ص ١٣٨ باب ما يستحب من حفظ المنطق فى الزرع .

(لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : نحن أنبتنا ما تحرثون بلُطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم . (لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) أى : هشيماً متكسراً متفتتا لشدة يبسه من بعد ما أنبتناه قبل استوائه واستحصاده فظللتم بسبب ذلك (تَفَكَّهُونَ) أى : تتعجَّبون من سوء حاله إثر مشاهدتكم له على أحسن حال ـ روى ذلك عن ابن عبّاس ـ وقال الحسن : تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ودليله قوله ـ تعالى ـ : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنفَقَ فِيهَا »[1] أو تندمون على ما اقترفتم لأجله من المعاصى ، وقال عكرمة : تتلاومون على ما فعلتم ـ وأصل التفكّه : التَّنقل بصنوف الفاكهة ، استعير للتَّنقل بألوان الحديث ، وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به فى الآية عن التعجب أو الندم أو التلاوم كما سبق .

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) أى : لظلتم تفكهون فى المقالة وتنوعون كلامكم فيها فتقولون تارة إنا لمغرمون أى معذبون أو مهلكون بهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك ، أو لملزمون الغرم بعد جهدنا فيه .

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) وتقولون تارة أخرى : بل نحن محرومون . أى : سيئو الحظ محدودون لا مجدودون ، أو محرومون من الرزق بالكلية ، كأنهم لما قالوا :إنا لمعذَّبون لملزمون الغرم بعد بذل الجهد أضربوا عن ذلك وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا وعدم حظنا ، أوبل نحن محرومون الرزق بالكلِّية . وعن أنس أن النبى ﷺ مرّ بأرض الأنصار فقال : « ما يمنعكم من الحرث » ؟ قالوا : الجدوبة ، فقال : لا تفعلوا فإنَّ الله ـ تعالى ـ يقول : أنا الزَّارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر ثم تلا (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)[2] .

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٤٢

(٢) انظر تفسير القرطبى ج١٧ ص٢٢٠ تفسير قوله ـ تعالى ـ :« بل نحن محرمون » فقد ورد الحديث بلفظه .

(أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(الْمُزْنِ) : السّحاب واحدته مُزْنة ، وقيل : الأبيض منه خاصّة وهو أعذب ماء .

(أُجَاجاً) : مِلحا زُعاقا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا لزرع .

(تُورُونَ) : توقدون وتقدحون الزناد لاستخراجها .

(أأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا) : أأنتم أنبتم شجرتها التى منها الزناد .

(تَذْكِرَةً) : تذكيرا لنار جهنم عند رؤيتها .

(وَمَتَاعاً) : ومنفعة .

(لِلْمُقْوِينَ) : للذِين يَنْزِلُون القواء وهى القفر أو للمسافرين ، والمراد المُسْتَمتعون بالنار والمُحتاجون إليها .

التفسير

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ – (أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْنَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) .

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ) أفرأيتم الماء العذب الذى تَشربون منه لتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ، أأنتم أنزلتموه من السّحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا ، فإذا عرفتم بأنا ننزله فلم لا تشكرونني بإخلاص العبادة لى ؟ ولم تنكرون قدرتى على الإعادة ؟ وتخصيص الماء بهذا الوصف (الَّذِى تَشْرَبُونَ) مع كثرة منافعه ؛لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به ، وإنزال الأمطار يتطلب أحوالا جوية خاصة لايمكن أن يسيطر عليها الإنسان سيطرة كاملة أو يوفّرها صناعيًا توفيرًا تامًّا بسهولة مثل هبوب تيار بارد فوق آخر ساخن ولقد حاول الإنسان استمطار السُّحب العابرة صناعيا ، إلا أن هذه المحاولات لاتزال مجرّد تجارب على أن الثابت علميا أن نجاح بعض هذه التجارب تمّ على نطاق ضيِّق جدًّا مع وجوب توافر بعض الظروف الملائمة . ا هـ .

(لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً) أى : لو نشاء صيرناه أجاجاً أى مِلْحاً زعاقا لا يستساغ ولايمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار ، وقيل الأُجاج : كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار .

(فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) حث وتحضيض على شكر جميع النعم لأنّه أفيد وأشمل ، دون عذوبة الماء فقط ، نعم ورد أنّ رسول الله ﷺ كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحا أُجاجا بذنوبنا » قال ابن الأثير : إن اللام فى « لجعلناه » أُدخلت فى المطعوم دون المشروب ؛لأنّ جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً فى العرف والعادة ، وأما المطعوم فإنّ جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع يكون عن سخط شديد . ا هـ . بتصرف .

٧١ ، ٧٢ـ (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ) :

(أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ) : أخبرونى عن النار التى تظهرونها بالقدح ـ من الشّجر الرَّطب ـ أأنتم أنشأْتم تلك الشجرة وأودعتم فيها النّار أم نحن المنشئون الخالقون ؟ فإذا عرفتم قدرتى فاشكرونى ولا تنكروا قدرتى على البعث .

٧٣ - (نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) :

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً) استئناف معين لمنافع النار مبين لفوائدها أى : نحن جعلنا النار تذكيرًا لنار جهنم حيث علّقنا بها أسباب معاشهم لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به وهددوا ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم لما فى الصّحيحين وغيرهما عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « نارُكم هذه الّتى تُوقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نارِ جهنم » وقيل : تبصرة فى أمر البعث؛لأنّ من أخرج النّار من الشّجر الأخضر المضادّ لها قادر على إعادة ما تفرقت موادّه (وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ) ومنفعة لهم ، والمقوون الّذين ينزلون القواء وهى القفر وتخصيص المقوين بذلك؛لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزّناد ، وقيل (لِلْمُقْوِينَ) أى : المسافرين أو الفقراء والجائعين ولعلّ الأقرب أنّ المراد بالإقواء : الاحتياج فإن المنتفع بالنار محتاج إليها .

٧٤ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

هذا القول مرتّب على ماعدّد من بدائع صُنْعِهِ وروائع نِعَمِه ، والمراد فَدُم على التّسبيح واستمر عليه بذكر اسم ربك العظيم؛لأنّه عليه السّلام غير معرض عن ربّهِ ، وتعقيب الأمر بالتّسبيح بعد ما عدد وذكر من النعم إمّا أولا : لتنزيه سبحانه عما يقوله الجاحدون لوحدانيته عزّ وجلّ ، الكافرون بنعمه مع عِظَمِهَا وكثرتها ، أو ثانياً للشكر على تلك النّعم السابقة التى عدّهَا ونبه عليها ، أو ثالثاً للتعجب من أمرهم فى غمط آلائه وآياته الظاهرة ، ويحتمل الكلام عموم الخطاب لكل من يتأتى خطابه ...

* (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾)

المفـردات :

(بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) : بمساقطها ومغاربها ، وقيل غير ذلك ، وسيأتى فى التفسير .

(مَكْنُونٍ) : مصون ومحفوظ

التفسـير

٧٥ - (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) :

لما ذكر الله - سبحانه - فى الآيات السابقة جزاء كل من السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وما يلقونه من نعيم تتفاوت درجاته وتتباين منازله حسب مقام كل من الطائعين ، وما يناله ويعانيه أهل الشقاء وأصحاب الشمال من عذاب مقيم فيه شدة عليهم وإيلام بهم جزاء ماكانوا يعملون فى الدنيا من كفر وعصيان ونكران ليوم يبعث الله فيه عباده للحساب ، لما ذكر ذلك جاء قوله - تعالى - :(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) وما بعده من الآيات للتأكيد على أن القرآن الكريم الذى ذكرت فيه تلك الأمور هو من عند الله - جل شأنه - وفى قوله - تعالى - : (فَلَا أُقْسِمُ) حلف وقسم بناء على أن (لَا) جاءت فى النظم الكريم لتأكيد القسم وتقويته ، نظير ذلك قوله - تعالى- : (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ)[١] أى : ليعلم أهل الكتاب ، ويتلاقى مع هذا الرأى قراءة الحسن (فَلَأُقْسِمُ) نقول : هذا ما يقتضيه سياق الآيات وما عليه جمهور المفسرين ، وذهب بعضهم إلى أن (لَا) نفى وردّ

(١) سورة الحديد من الآية : ٢٩

لما يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : لا صحة لما يقولون فى القرآن الكريم من هذا الافتراء ثم قيل : (أُقسم) وهذا منسوب إلى سعيد بن جبير وبعض النحاة .

ومواقع النجوم : مساقطها ومغاربها وخصها - جلت قدرته - بالقسم لما فى غروبها من ذهاب أثرها وذلك للدلالة على وجود حكيم دائم لا يتغير يؤثر فيها ظهوراً وخفاء ، وقد استدل الخليل إبراهيم - عليه السلام - بأُفول الكوكب ، وغروب القمر ، وذهاب الشمس على وجود الصانع الذى لا يغيب ولاتأخذه سنة ولا نوم ، أو أقسم - سبحانه - بها فى هذا الوقت لأنه أوان قيام المتهجدين وانقطاع المتبتلين إليه - تعالى - ونزول رحمته وفيض رضوانه عليهم . وقد ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : مَنْ يدعونى فأستجيبَ له ، مَن يسألنى فأعطيَه ، من يستغفرنى فأغفرَ له »[1] . والنزول كناية عن القرب والعناية .

وقال جماعة منهم ابن عباس - رضى الله عنهما - : النجوم نجوم القرآن ، ومواقعها أوقات نزولها ، فإن القرآن نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد .

٧٦ - (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم جليل ، لو تعلمون قدره ومكانته لعظمتم المقسم عليه وهو القرآن الكريم .

٧٧ - (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) أى : إن هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ حسن مرضىّ رفيع القدر فى جنسه بين الكتب المنزلة من عند الله ، كثير المنافع ، أو كريم على الله أو على المؤمنين ؛ لأنه كلام ربهم وشفاء صدورهم ، وقيل : كريم لما فيه من كريم

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٦ كتاب التهجد بالليل ، باب الدعاء والصلاة آخر الليل فقد ورد الحديث بلفظه .

الأخلاق ومعالى الأمور ، وقيل : لأنه يكرِّم حافظه ويعظِّم قارئه ، والحق أن القرآن الكريم جدير وحقيق بهذه الصفات جميعاً .

٧٨ - (فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) :

أى : فى كتاب جليل عظيم القدر مصون ومحفوظ من التبديل والتغيير والباطل والبهتان والمراد بقوله : (كِتَابٍ) قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : هو المصحف الذى بأيدينا لا يعتريه تحريف ولا زيف .

٧٩ - (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) :

أى : لا يصل ولا يفضى إلى القرآن ولا يطلع عليه ولا على ما فيه إلاّ المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية وهم الملائكة ، أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية : ذاك عند رب العالمين (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الملائكة ، أما عندكم فيمسه المشرك والنجس والمنافق الرجس ، وقيل :(لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) من الشرك وهم المؤمنون وروى عن الإمام محمد الباقر وعطاء وطاوس وسالم والشافعى وغيرهم - رضى الله عنهم جميعاً - أن المراد بهم : هم المطهرون من الأحداث ، والخلاف فى ذلك مبسوط فى كتب الفقه ولكل رأيه ، فمن أراد مزيدًا فليرجع إليها .

ومع هذا الاختلاف لم ينازع أحد فى دلالة الآية على عظم شأن القرآن ، وعظيم الاعتناء به ولاينحصر هذا بمنع غير الطاهر من مسّه بل يكون بأشياء كثيرة تدل على تعظيمه وتوقيره .

٨٠ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : القرآن الكريم منزل من لدن رب العالمين فهو - سبحانه - هو الذى ربّاهم ورعاهم وبلغ بهم الغاية خَلْقاً وإبداعاً .

وليس القرآن العظيم كما يقولون ويزعمون أنه من عند غير الله ، وأنه سحر وشعر وكهانة ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، والكفار والمشركون قد أقروا بذلك وعلموه ولكنهم ينكرونه كبرًا وعنادًا كما قال - تعالى - : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »[1]

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٣

ووصف القرآن بقوله : (تَنزِيلٌ) لأنه نزل منجماً مفرقاً من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله - تعالى - فإنها قد نزلت دفعة واحدة ولقد جرى هذا اللفظ (تَنزِيلٌ) مجرى أسماء القرآن وأطلق عليه فقيل : جاء فى التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل يريدون به القرآن الكريم .

(أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـــردات :

(مُدْهِنُونَ) : متهاونون به كما يَدَّهن فى الأمر أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به[1]

التفسـير

٨١ - (أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ) :

أى : أتعرضون فبهذا القرآن الكريم أنتم متهاونون كمن يتهاون فى الأمر ويلين فيه استهانة به وحطًّا من شأنه ، وعن ابن عباس والزجاج (مُدْهِنُونَ) : مكذبون .

٨٢ - (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) :

أى : وتجعلون جزاء رزق الله لكم وتفضله عليكم بنعمه التى لاتحصى ولاتعد أنكم تكفرون بربكم وتكذبون القرآن الناطق بأن الله هو الذى أغاثكم ، وأنزل

(١) وأصل الادهان : جعل الأديم (الجلد) ونحوه مدهوناً بشىء من الدهن حتى يلين .

عليكم المطر فأنبت لكم به الزرع وأدرّ به الضرع ، وأطفأ ظمأكم ، وأحياكم به كما أحيا الأرض بعد موتها ، وتنسبون ما حل بكم من عظيم فيضه إلى النجوم والأنواء فتقولون : مطرنا بنوء كذا[١] .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما : عن زيد بن خالد الجهنى قال : « صلى رسول الله ﷺ الصبح فى الحديبية فى إثر سماء (بعد مطر) وكانت من الليل ، فلما سلم أقبل علينا فقال : « هل تدرون ما قال ربكم فى هذه الليلة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : قال : (ما أنعمت على عبادى نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ، فأما من آمن بى وحمدنى على سقياى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى) .

(فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(الْحُلْقُومَ) : تجويف خلف تجويف الفم[٢] .

(غَيْرَ مَدِينِينَ) : غير مربوبين لله من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم وقيل : غير ذلك وسيأتى .

---

(١) النوء : سقوط نجم فى المغرب وطلوع آخر يقابله من ساعته فى المشرق . إهـ. قاموس .
وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع ؛ لأنه فى سلطانه ، نهى الإسلام عن ذلك ؛ لأن ذلك شأن الله وحده .

(٢) وفيه ست فتحات ، فتحة الفم الخلفية ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة وهى مجرى الطعام والشراب والنفس — من المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية .

التفسـير

٨٣ ، ٨٤ – (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ) :

الضمير فى قوله – تعالى – : (بَلَغَت) للروح ولم يتقدم لها ذكر ؛لأن المعنى معروف وواضح ونظيره قول حاتم الطائى :

أماوىّ ما يغنى الثراءُ عن الغنى إذا حشرجت[1] يوماً وضاق بها الصدر

والروح – كما ذهب سلف هذه الأمة المحمدية – جسم لطيف سار فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، وهو حىّ بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الأجسام . (فَلَوْلَا) هذا حث وتحضيض أريد به التبكيت والتعجيز أى : فهلاً إذا بلغت ووصلت الروح إلى حلقوم ذلك الذى حان حينه ، ودنا أجله ، وهو يجود بنفسه ، وأنتم أيها الحاضرون حوله فى هذا الوقت تشاهدون ما يعانيه من سكرات الموت ، وما يقاسيه من غمراته .

٨٥ – (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) :

أى : ونحن بعلمنا وقدرتنا أو بملائكتنا الموكلين بذلك أقرب إلى ذلك المحتضر فى كل هذا منكم حيث لا تعرفون مِنْ حاله إلّا ماتشاهدونه من آثار الشدة النازلة به من غير أن تقفوا على حقيقتها وكيفيتها وأسبابها ولا تقدروا على دفعها بما ينفع مع تعطفكم وشفقتكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك .

٨٦ ، ٨٧ – (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : فهلّا إن كنتم – كما تزعمون – غير مربوبين لله وغير مخلوقين له ولستم فى قهره وسلطانه ، أو غير مجزيين ولا محاسبين بأعمالكم يوم القيامة ، وذلك بإنكاركم البعث فهلّا (تَرْجِعُونَهَا) أى : ترجعون الروح إلى جسدها وتعيدون إليه الحياة كاملة (إِن كُنتُمْ

---

(١) فالضمير فى حشرجت يرجع إلى الروح وهى مفهومة من الكلام .

صَادِقِينَ) فى دعواكم أنكم غير مربوبين أو لا محاسبين ولا مبعوثين فارجعوا الأرواح إلى الأبدان . ولن تستطيعوا ذلك فبطل زعمكم .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(فَرَوْحٌ) : الرَّوْح – بفتح الراء – الرحمة أو الاستراحة .

(وَرَيْحَانٌ) : الريحان : كل مشموم طيب من النبات .

(فَنُزُلٌ) : النُّزُول : مايُعد ويُقدم للضيف من الزاد .

(حَمِيمٍ) : ماءٌ شديد الحرارة .

(تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) : إدخال فى النار ومقاساة لألوان عذابها .

(حَقُّ الْيَقِينِ) : عين اليقين ونفسه الذى لامرية فيه .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ) : فنزه ربك عما لايليق به .

التفسـير

٨٨ ، ٨٩ - (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) :

هذا شروع فى بيان حال المتوفى بعد الممات وماينتظره من ثواب أو عقاب إثر بيان حاله عند الوفاة وما لاقاه من سكرات الموت وشدائده .

(فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أى : فأَمَّا إن كان المتوفى من السابقين من الأَزواج الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى أول السورة فله استراحة من الدنيا وعنائها وكدرها ، أوله رحمة واسعة من الله - تعالى - وله ريحان يتمتع برائحته الطيبة ، فهو فى هناءة بال ، وسعة فضل ورحمة ومكان عبق بـأَريج عطر يفوح شذاه وينتشر عَرْفه ، ومقره فى الجنان يتمتع فيها ويسعد .

٩٠ ، ٩١ - (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) :

أى : وأما إن كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين وهم أهل اليمن والبركة والسلامة فى آخرتهم ، وأصحاب المنزلة الجليلة عند ربهم فيقال له : سلامٌ لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى ذلك : تـأْتيه الملائكة من قِبَل الله - تعالى - تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين وذلك عند موته ، وقيل : عند بعثه يوم القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها ، ويحتمل أنه يسلم عليه فى هذه المواطن كلها ، ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام .

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ - (وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) :

أى : أما إن كان المتوفى من المكذبين بالبعث المنكرين له ، الضالين الذين زلوا وبعدوا عن الهدى وضاعوا وتاهوا فى دروب الهوى والمعاصى ونـأَوا عن الحق فجزاؤهم أن يقدم لهم الماء المتناهى فى الحرارة - على سبيل الإهانة لهم والتنكيل بهم والسخرية منهم - يشربونه بعد أكل الزقوم يصهر به ما فى بطونهم ولهم مع ذلك إدخال وإقامة وخلود فى النار يذوقون سعيرها ويقاسون ألوان عذابها .

٩٥، ٩٦ - (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۞ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

أى : إن ما ذكر فى تلك السورة وقصصناه عليك لهو محض اليقين وخالصه ، وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدًا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن فأمَّا المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأمَّا الكافر فأيقن يوم القيامة حين لاينفعه اليقين .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) : هذا ترتيب[1] وأمر بالتسبيح؛ لأن ماورد فى هذه السورة الكريمة يُوجب أن يُنَزَّه الله - تعالى - عما لا يليق مما ينسبه الكفار إليه ، سواءٌ كان ذلك منهم قولًا أو عملًا أو حالا « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » . أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه ، وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال : « اجعلوها فى سجودكم » والله أعلم .

---

(١) كما تشير إليه الفاء فى قوله تعالى : (فَسَبِّحْ) .

((ســورة الحديد))

هذه السورة الكريمة من السور المدنية وآياتها تسع وعشرون آية

سبب التسمية :

وسميت بهذا الاسم لذكر الحديد فيها ، وهو ذو أثر عظيم فى حياة الناس جميعًا حاضرهم وباديهم فى سلمهم وحربهم ، فعليه تقوم المصانع التى تمد الإنسان بما يحتاجه فى طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه ، وبه يدافع عن وطنه وحرماته فمنه تصنع الأسلحة البرية والبحرية والجوية إلى غير ذلك من أنواع القوة والبأس وشتى المنافع الجليلة للبشرية : (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) .

مناسبتها لما قبلها :

إن سورة الواقعة ختمت بطلب التسبيح والتنزيه لله « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » . وهذه السورة بدئت بالتسبيح (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) فكان أول سورة الحديد واقع موقع التعليل لما فى آخر سورة الواقعة فكأنه قيل : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ؛ لأنه (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

ما جاء فى فضلها مع اخواتها :

أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه النسائى وابن مردويه والبيهقىّ فى شعب الإيمان عن عرباض بن سارية « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد » .

بعض مقاصد السورة :

١ ـ تحدثت السورة فى أولها عن أن الله ـ تعالى ـ تدين له المخلوقات جميعًا ، وتسبح بحمده ، وتنطق بلسان الحال أو بلسان المقال بعظمته وجلاله (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٢ - ذكرت بعضًا من أسمائه - تعالى - التى تدل على تفرده وتوحده ، فهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، وأنه الظاهر بقدرته وآثاره ، الباطن الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وأنه له ملك السموات والأرض خلقًا وإبداعًا ، وأنه العليم بكل مايلج فى الأرض ، ويعلم كذلك مايخرج منها ، ومايتنزل من السماء ومايعرج فيها ، وأن الأمور كلها راجعة إليه وحده (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

٣ - تدعو السورة الكريمة إلى الإيمان بالله ورسوله ، وتنعى على الكافرين عدم الإيمان مع أن الرسول ﷺ يدعوهم ويذكرهم بما أخذه الله على عباده من المواثيق : (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) فضلًا عمَّا لهم من عقول بها يميزون الصحيح عن الفاسد .

٤ - كما تحدثت عن طلب الإنفاق والحث عليه والبذل فى سبيل الله (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) .

٥ - تعرضت السورة لذكر الفريقين : فريق الجنة ، وفريق السعير .

فأما الفريق الأول فيسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ليهديهم الصراط المستقيم - فيدخلون الجنة .

أما الفريق الضال فإنه لا نور له ويحال بينه وبين نور المؤمنين فلا يستطيع اللحاق بهم ويسخر منهم فيقال لهم : (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) فلا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بعمل المؤمنين حتى يلحقوا بهم .

٦ - مثلت السورة الكريمة الدنيا ومافيها من متاع زائل ولهو ولعب وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد ، مثلتها بالزرع الذى سقاه المطر الوابل حتى نضر وأينع وأعجب به الزُّرَّاع ثم يصيبه الذبول والضمور حتى يصير هشيمًا تذروه الرياح ، وكذلك أمر الدنيا تتزين وتأخذ زخرفها حتى يظن أهلها أنهم قادرون عليها فيأتيها أمر الله ليلًا أو نهارًا بالفناء فتصير كالزرع المحصود الذى لم يكن موجودًا بالأمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نزّه الله عما لا يليق به[1] .

(الْأَوَّلُ) : الذى كان قبل كل شىء .

(الْآخِرُ) : الباقى بعد فناء كل شىء .

---

(١) قال الزمخشرى : أصله التعدى بنفسه ؛ لأن معنى سبّحته : بعدته عن السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد.

(الظَّاهِرُ) : الذى يعرف بالأدلة الدالة عليه .

(الْبَاطِنُ) : الذى لاتدرك حقيقته ولاتحوم العقول حوله .

(يَلِجُ) : يدخل .

(يَعْرُجُ) : يصعد .

(يُولِجُ) : يُدخل .

التفسير

١ ـ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

التسبيح : هو تنزيه الله ـ تعالى ـ اعتقادًا وقولًا وعملًا عمًّا لا يليق بجنابه ـ سبحانه ـ وأسند التسبيح إلى ما فى السموات والأرض ؛ليعم جميع ما فيهما من الموجودات عقلاء وغيرهم فتسبيح العقلاء يكون بلسان المقال ، فإنهم ينزهونه ويقدسونه بألسنتهم كما ينزهونه ـ بقلوبهم وأعمالهم ، أما بالنسبة لغير العقلاء فإن تسبيحهم يكون بلسان الحال أى : إن حدوث هذه الموجودات على ما هى عليه من إبداع وإتقان يدل على الصانع الواجب الوجود المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص ، وذهب بعضهم إلى أن التسبيح على حقيقته فى الجميع العاقل وغيره ، وأن كل مخلوق يسبِّحه تسبيحًا قوليًّا مستدلين على ذلك بقوله ـ تعالى ـ : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[١] .

وافتتحت سورة الإسراء بالمصدر « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى ... » وبعض السور بالفعل الماضى (سَبَّحَ) كسورة الحديد ، وسورة الحشر وغيرهما ، وبعضها بالفعل المضارع (يُسَبِّحُ) كسورة الجمعة ، والتغابن ، وبعضها بفعل الأمر (سَبِّحْ) كسورة الأعلى ليشعر استيعاب هذه الكلمة لجميع ماتدل عليه من المصدر والفعل بأن المخلوقات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود إلى الأبد مسبحة مقدسة لذاته ـ سبحانه وتعالى ـ فى كل الأزمان قولًا وفعلًا ،

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

طوعًا وكرهًا ، (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أى : القادر الذى لا ينازعه ولا يمانعه شئ ، فهو – سبحانه – لا نظير له ولا مثيل ، (الْحَكِيمُ) أى : الذى لا يفعل إلّا ماتقتضيه الحكمة ، ولعزته ينتقم من المكلف الذى لا يسبحه عنادًا ، ولحكمته يجازى من قدّسه ونزهه طواعية وانقيادًا .

٢ – (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : له – سبحانه – لا لغيره ملك السموات والأرض ملكًا حقيقيًّا أبديًّا غير حادث ، ولا زائل ، أما ملك غيره فهو موقوت بزمان مرهون بوقت يحدث بعد أن لم يكن ، ويزول مهما امتد به الزمن ، وهو – جل شأنه – يحيي الأشياء من العدم المحض ، ويميت كل شئ ويبقى وجهه الكريم وحده قال – تعالى –: « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[١] . وهو – تعالت قدرته – مقتدر ومتمكن من كل شئ مما نعلم ومما لا نعلم ، لا يعجزه أمر ، ولا يشغله شأن عن شأن .

٣ – (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى : هو وحده (الْأَوَّلُ) بلا ابتداء ، القديم الذى كان من قبل كل شئ ، فهو الموجد والمحدث للموجودات ، وهو (الْآخِرُ) بِلَا انتهاء ، الباقى – سبحانه – بعد فناء كل شئ ، (الظَّاهِرُ) بالأدلة الدالة عليه من خلق وإبداع (الْبَاطِنُ) الذى لا تُدرك حقيقته ولا تحوم حوله العقول ، ولا يعلم ذاته إلّا هو وحده – تبارك وتعالى – والواو الأُولى بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) تدل على أنه – سبحانه – الجامع بين الصفتين الأُولية والآخرية ، والواو التى بين (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) للدلالة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، أما الواو الوسطى الواقعة بين (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) (و) (الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) فتدل على أنه هو الجامع بين مجموع الصفتين الأُوليين ، ومجموع الصفتين الأُخْرَيَيْن ، فهو مستمر الوجود فى جميع الأَوقات الماضية والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن ، جامع للظهور بالأدلة ، والخفاء فلا يدرك بالحواس[٢] .

---

(١) سورة الرحمن الآيتان : ٢٦ و ٢٧

(٢) الكشاف بتصرف .

وختتمت الآية وذيلت بقوله – تعالى – : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لئلا يتوهم أن خفاءه – تعالى – عن الأشياء يستلزم خفاء الأشياء عنه – عز وجل – ولكن ليس الأمر كذلك ، بل هو – لا غيره – عالم كمال العلم وتمامه بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون .

٤ – (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

أى : هو – جلت قدرته – وَحْدَهُ الَّذِي أَوْجَدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ فِي سِتَّةِ أَوْقَاتٍ أَوْ مِقْدَار ستة أيام من أيام الدنيا ولو شاء – سبحانه – لخلقها فى طرفة عين (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) أى : استواء يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، قال الإمام مالك – رحمه الله – : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وقال الإمام أحمد – رحمه الله – : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل ، فلا يقال : كيف ؟ ولم ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حادّ . هذا هو مذهب سلف هذه الأمة ، أما مذهب الخلف فيؤولون الاستواء بالاستيلاء . ومذهب السلف – كما يقولون – أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ولكل وجهته .

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) أى : هو – سبحانه – يعلم علما لا يدانيه علم بما يدخل فى الأرض من القطر ، والبذر ، والحشرات ، والهوام ، والكنوز ، والموتى ، وغيرها يعلمه علمًا تفصيليًا محيطًا ويعلم – كذلك – ما يخرج منها من نبات ونفائس ومعادن ونحوها مما تحويه الأرض وتضمه فى أثنائها (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) أى : ويعلم – جلت عظمته – ما ينزل من السماء من ملائكة وشهب ومطر ورحمات أو نوازل ويعلم – أيضًا – ما يعرج فيها ويصعد إليها من كلم طيب ودعوات وعبادات أو ذرات البخار أو جن يسترق السمع أو أرواح تصعد إلى بارئها أو ملائكة ترفع أعمال العباد إلى مبدئها وخالقها قال – تعالى – : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] ، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) أى : وهو – تعالى – مع خلقه جميعًا

(١) سورة الملك من الآية : ١٤

بعلمه وقدرته وتدبيره وقيوميّته وذلك فى كل أحوالهم وشتى شئونهم قال - تعالى - : « وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »[1] ، (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو - عز شأنه - بما تعملون وما تدعون وتتركون رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم محيط بسركم وجهركم فيجازيكم على ما يصدر منكم .

٥ - (لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

هذا تأكيد لِمَا سبق فى أول السورة ، وتمهيد للتذكير بالبعث حيث ورد بعده قوله - تعالى - : (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى : له - لا سواه - ملك السموات والأرض فى الدنيا وإليه - وحده لا لغيره - جل وعلا - يصير أمر الخلائق فى الآخرة بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

٦ - (يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : أنه - سبحانه - يدخل الليل فى النهار بأن ينقص من الليل ويزيد فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل بأن ينقص من النهار ويزيد فى الليل ؛ لأن حكمته تقتضى ذلك لصلاح الناس فى أمر معاشهم وللدلالة - على كمال قدرته ، وهو عليمٌ ومحيطٌ إحاطة تامة بما تكنه وتخفيه الصدور من أسرار وإن دقت وخفيت ، ولا يقدر أحد سواه على معرفة حقيقتها وكنهها ، ومن كان على هذه الصفات الجليلة فلا يستقيم أن يُعبد أحدٌ سواه .

---

(١) سورة يونس من الآية : ٦١

(ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١))

المفردات :

(مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) : خلفاء فى التصرف فيه أو خلفاء عمن كان قبلكم .

(وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) : قال مجاهد : هو الميثاق الأول وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركّب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر فيها .

(قَرْضاً حَسَنًا) : القرض ما أُخرج لاسترداد بدله ، والحسن ما كان بإخلاص بلا مَنّ ولا أذى .

التفسير

٧ - (آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) :

أى : صدقوا واعتقدوا بأن الله ربكم وأن محمدًا رسولكم ؛ لأن الإيمان شرط فى قبول الأعمال الصالحة ، وأنفقوا وتصدقوا من أموال الله التى فى أيديكم وقد أعطاكم وموَّلكم إياها تستمتعون بها ، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها ، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة وما أنتم فيها إلَّا بمنزلة الوكلاء والنواب ، ويسهل عليكم الإنفاق والبذل منها فى سبيل الله كما يسهل ويهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه ، أو أنه - سبحانه - جعلكم فى هذا المـال خلفاء من الذين كانوا قبلكم من الوالدين والأقارب والأزواج ، وورثكم إيَّاه فاعتبروا بحالهم ، حيث انتقل منهم إليكم وسينقل منكم إلى الذين بعدكم ، فلا تبخلوا وانفعوا - أنفسكم بالإنفاق منها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة سمعت قتادة يحدث عن مطرف عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ألهاكُمُ التكاثر ، يقول ابنُ آدمَ : مالى مالى وهل لك مِنْ مالك إلَّا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْت ، أو تصدقْتَ فأَمْضَيْتَ » ورواه مسلم وزاد « وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُهُ للناس » .

(فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) أى : فالذين صدقوا وآمنوا بربهم ورسوله وأنفقوا مّما منحهم الله وجعلهم مستخلفين فيه ، لهم أجرٌ عظيم جليل فى منزلته ، وكبير فى مقداره وهو الجنة ، ويا له من جزاء حسن كبير .

٨ - (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

جاء هذا القول الكريم للإنكار عليهم وتوبيخهم على ترك الإيمان أىْ : وأىّ عذر لكم فى ترك الإيمان بالله ، والحال أن الرسول ﷺ بين أظهركم يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويبينه لكم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة (وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ) وهو ما كان من إخراجهم من

ظهر آدم وأشهدهم بأنه – سبحانه – ربهم فشهدوا كما قاله البغوى ، وروى عن مجاهد وعطاء والكلبي وقتادة قال – تعالى – : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَا »[1] وهو العهد المأخوذ يوم الذر ، أو وقد نصب لكم الأدلة التى منها ما هو موجود فى أنفسكم قال – تعالى – : (وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) كما نشر – سبحانه – الآيات فى الآفاق ومكنكم من النظر فيها بما أودع فيكم من عقول .

وفى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَة   تَدُلُّ عَـلَى أَنَّهُ الوَاحِـد

(إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) أى : إن كنتم مصدقين ومؤمنين فى وقت من الأوقات ، أو لموجب مّا فالآن أحرى بكم وأجدر أن تؤمنوا لقيام الأدلة والبراهين عليكم .

٩ – (هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هذا ذكرٌ لبعض الأدلة والآيات الدالة على وجوب الإيمان به ، أى : هو – وحده – الذى ينزل على رسوله ﷺ معجزات ظاهرات ودلائل واضحات أكبرها وأعظمها القرآن الكريم ليخرجكم – جلت قدرته – من ظلمات الكفر وحمأة الشرك والضلال إلى نور الإيمان والهدى أو ليخرجكم رسوله ﷺ بما يرشدكم ويبلغكم ما أنزله الله عليه من الوحى ، وإنه – سبحانه – فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل – هداية لكم – لهو – تقدست ذاته – شديد الرأفة عظيم الرحمة بكم حيث يسّر وأتاح لكم طريق الخلود فى الجنّة ساحة رضوانه ومستقر رحماته .

١٠ – (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

هذا تأنيب وتوبيخ لهم على تركهم الإنفاق والبذل فى كل خير بعد أن طلبه الله منهم وحثهم عليه وذلك بعد أن أنكر عليهم ترك الإيمـان به – سبحانه – وبرسوله ﷺ

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٧٢

أىْ : ائُّ سبب لديكم منكم من إنفاق الأموال فى سبيل الله – تعالى – والشأن فيها أنه لايبقى لكم ولا لغيركم منها شىء ، فأنفقوا ولا تخشوا فقرًا أو إقلالا ؛ فإنّ الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض وأنها كلها باقية له – عزّ وجلّ – فهو مهلككم فوارث أموالكم .

(لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ) هذا بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق ، ذلك بعد أن أبان – قبل – أن للمنفقين جميعاً أجرا كبيرًا ، وجاء هذا للحث والترغيب فى تحرى ما هو أفضل وأكثر ثواباً من الأعمال ، أى : لايتساوى فى الفضل والأجر من أنفق ماله ، وبذل نفسه فى سبيل الله قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية ، مع من أنفق وقاتل بعد الفتح (أُولَـٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ) أى : أولئك الذين كتب الله لهم السبق فى الإنفاق والقتال أرفع منزلة وأجل قدرًا من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، وإنما كان أولئك أعظم درجة من هؤلاء ؛ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند شدة الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين آنذاك وكثرة أعدائهم ، فضلاً عن أنه ليس هناك ما ترغب فيه النفوس من الحصول على المغانم والأسلاب ، فكان ذلك أنفع وأشق على النفس ، وفاعله أقوى يقيناً بما عند الله – تعالى – وأعظم رغبة فيه ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

(وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ) أى : وكلّ فريق من الفريقين من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بشّره الله ووعده الحسنى ، قيل : هى الجنة ، وقيل : هى أعم من ذلك كالنصر والغنيمة فى الدنيا .

(وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى : وهو – سبحانه – بما تعملونه ظاهرًا وباطناً خيرًا أو شرًّا خبير به وعليم يجازيكم على حسبه ، فهو وعد للمؤمنين الطائعين ووعيد للكافرين والمذنبين .

وهذه الآية – على ما ذكره الواحدى عن الكلبى – نزلت فى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وهى تشمل غيره ممن اتصف بذلك ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

ولذلك قال الله - تعالى - : (أُولَـٰئِكَ) التى تدل على الجمع نعم هو أكمل من سواه فإنه أنفق قبل الهجرة وقبل الفتح جميع ماله وبذل نفسه مع رسول الله ﷺ لذا قال ﷺ « ليس أحدٌ أَمَنَّ علىَّ بصحبته مِنْ أبى بكر) - فرضى الله عنه وأرضاه - .

١١ - (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) :

هذا استفهام أريد به الحث والندب إلى الإنفاق فى سبيل الله ، والقرض الحسن : هو البذل بإخلاص ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات ، وفى التعبير بالقرض ما يشعر بأنه عائد إلى صاحبه ؛ لأنه أخرج لاسترداد البدل ، أى : مَن ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة ما بين السبع إلى السبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف وله مع هذا أجر عظيم وجزاء جميل ،حقيق أن يتنافس فيه المتنافسون ؛ لأنه مع زيادة مقداره هو - أيضاً - رفيع فى منزلته وهو الجنة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإنى أقرضت ربى هذا الحائط ، وله حائط (بستان) فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال : فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت : لبيك قال : اخرجى فقد أقرضته ربى - عزَّ وجل - وفى رواية قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله ﷺ قال : (كم مِن عِذْق رَدَاح[1] فى الجنة لأبى الدحداح) وفى لفظ (رُبَّ نخلةٍ مدلاةٍ عروقها من دُرٍّ وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة)[2] .

---

(١) العذق : هو من التمر كالعنقود من العنب ، الرداح : المثقل بثمره .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بنحوه .

(يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۚ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾)

المفـردات :

(يَسْعَىٰ) : يمضى مسرعاً .

(انظُرُونَا) : انتظرونا أو أمهلونا .

(نَقْتَبِسْ) : الاقتباس طلب القبس وهو الجذوة من النار ، والمراد : نستضىء ونهتدِ بنوركم .

(فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ)[1] : أوقعتموها فى بلية وعذاب أو أهلكتموها بالنفاق .

---

(١) الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار . (الراغب الأصفهانى) .

(وَتَرَبَّصْتُمْ) : وانتظرتم بالرسول وبالمؤمنين شراً .

(وَارْتَبْتُمْ) : وشككتم فى أمر الدين .

(وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) : وخدعتكم الأباطيل والآمال الكاذبة .

(فِدْيَةٌ) : فداء ، وهو ما يبذل لحفظ النفس عند النائبة والمصيبة .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ) : مقامكم ومنزلكم .

(هِيَ مَوْلَاكُمْ) : هى حق وأولى بكم ، أو هى التى تتولى أمركم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : وساءت النار مرجعاً ومصيراً لكم .

التفسير

١٢ - (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ...) إلخ الآية :

الرؤية فى قوله - تعالى - : (تَرَى) بصرية ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية ، أى : اذكر لهم - يا محمد - ذلك تفخيماً لشأن هذا اليوم وزيادة فى إدخال الإيناس والاطمئنان على قلوب المؤمنين ليفرحوا بما أعد لهم من السعادة والفوز ، اذكر لهم يوم ترى أنوار المؤمنين والمؤمنات تتلألأ من أمامهم وعن أيمانهم ليستضيئوا بها على الصراط .

أخرج ابن أبى شيبة وغيره والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه قال : « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يُطْفأُ مرة ويَتَّقِد أخرى » ، وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقيل : يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط ، المراد : أنه يكون لهم فى جهتين جهة الأمام وجهة اليمين ، لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، أما الأشقياء فإنهم يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم ، وهل هذا النور خاص بمؤمنى الأمة الإسلامية أو هو عام لكل مؤمن ؟ والظاهر أنه عام ، إلاَّ أنه يمكن أن يقال :

أن ما يكون من النور للأمة الإسلامية أجل وأبهى من النور الذى يكون لغيرها ، (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) أى : بسبب إيمانهم تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم : لكم البشارة اليوم بدخول جنات تجرى من تحتها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ليست برديئة الطعم ، ولابكريهة المذاق ، ولا تذهب بعقولهم كخمر الدنيا ، وأنهار من عسل مصفًّى ، وهم فى هذه الجنات خالدون فيها خلودًا أبديًّا (ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى : وهذا الجزاء الذى سألوه وظفروا به هو الفوز الذى لا فوز بعده فلا يعظمه ظفر ؛ لأنه سبب السعادة الأبدية « فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ »[1] .

١٣ - (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) :

أى : اذكر لهم ذلك اليوم الذى يعترى فيه المنافقين الخزى والهوان ، وقد فاز فيه المؤمنون وظفروا بالنور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وفى هذه المقابلة التى تبين ما عليه كل من الفريقين ما يشعر بتعظيم شأن المؤمنين ، وبالحط والمهانة للمنافقين إذ يقولون فى هذا الموقف العصيب للذين آمنوا : انتظرونا وأمهلونا حتى نأخذ قبساً من نوركم نستضىءُ به فنحن قد منعناه وحرمنا منه وقد أصبحنا فى ظلمة فلا ندرى كيف نمشى فيها .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يدعو الناسَ يومَ القيامةِ بأمهاتهم سترًا منه على عباده ، وأمَّا عندَ الصراطِ فإنَّ اللهَ يُعطى كلَّ مؤمنٍ نورًا ، وكلَّ منافقٍ نورا فإذا استوَوْا على الصراطِ أطفأ اللهُ نورَ المنافقين والمنافقاتِ فقال المنافقون : انظرونا نقتبسْ مِن نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتْمِم لنا نورَنا فلا يذكرُ عند ذلك أحدٌ أحدًا »[2] .

---

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٤ و ٥٥

(٢) انظر كنز العمال ج ١٤ ص ٦٤٢ رقم ٣٩٧٦٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس، وقال: رواه الطبرانى .

(قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءَكُمْ) أى : يقول المؤمنون أو الملائكة للمنافقين والمنافقات - استخفافاً واستهزاءً بهم - ارجعوا إلى المكان الذى قسم الله فيه النور ، فاطلبوا من هناك نوراً لكم فإنكم لا تقتبسون من نورنا ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار - وذلك سخرية بهم أيضاً - إذليس إلى الدنيا رجعة ، أو يقولون لهم - على سبيل التبرى منهم والطردِ والإبعاد لهم - تنحوا عنا . (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ) أى : فحيل بين الفريقين بحاجز له باب يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، باطن هذا السور وجانبه الذى يلى المؤمنين فيه الجنة التى هى مستقر الثواب والنعيم ، وظاهر هذا السور وجانبه الذى يلى المنافقين والكفار يكون من جهته العذاب الأليم فى النار التى وقودها الناس والحجارة .

١٤ - (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) :

أى : بعد أن يصير أمر المنافقين إلى ضرب السور بينهم وبين المؤمنين ومشاهدتهم العذاب ينادون المؤمنين قائلين لهم مستنجدين بهم : ألم نكن معكم فى الدنيا نفعل كما تفعلون من نطق بالشهادتين وصلاة وصيام وزكاة وحج ونحو ذلك من شعائر الإسلام فيقول لهم المؤمنون : (بَلَىٰ) كنتم معنا فى الظاهر (وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ) أى : ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق وأوقعتموها فى بلية وعذاب ، وانتظرتم بالمؤمنين شرًّا ، وتربصتم بهم الدوائر والحوادث المفجعة ، والنوازل المهلكة ، وشككتم فى أمر دينكم ، ولم يتمكن الإيمان من قلوبكم ، وخدعتكم الأباطيل والأمانى الكاذبة ، وظننتم أن الإسلام لا يطول أمره ولا يمتد ظله ، حتى فاجأكم الموت وأنتم على باطلكم ، وخدعكم الشيطان وأدخل فى روعكم وقلوبكم أن رحمة الله واسعة ، وأن عفوه ومغفرته تشملكم فلا يعذبكم على ما بدر منكم ، ولكنه كذبكم وضللكم وهو اليوم يتبرأ منكم .

١٥ - (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

أى : فى هذا اليوم الشديد القاسى لايقبل الله منكم - أيها المنافقون - فداء تحفظون به أنفسكم من نزول العذاب بكم ولو كان ملء الأرض ذهباً ومثله معه كما لا يقبل الله ذلك من الذين كفروا ، وفى هذا تيئيس وإقناط للكافرين من عفو الله عنهم إذ قد يتوهمون أن هذا العذاب الشديد والخلود الدائم فى النار إنما يكون للمنافقين فحسب جزاء خداعهم ومكرهم وإخفائهم الكفر وإظهار الإسلام ، والحق أن هذا جزاء من كفر بالله ولم يستيقن ذلك بقلبه غير أن المنافقين لهم الدرك الأسفل من النار .

(مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : إن النار - وحدها - هى المكان الذى تأوون إليه وتقيمون وتخلدون فيه خلودًا أبديًّا إذ هى - لا غيرها - أولى وأحق بكم أو هى ناصركم ولا تنصركم إلا بإيلامها وسعيرها وهذا من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح المرجع والمنقلب نار جهنم .

* (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ يَأْنِ) : ألم يجيء ويحن الوقت ....

(أن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ) : أن تلين قلوبهم وتنقاد لأوامر الله .

(وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) : وما نزل من القرآن الكريم .

(الَّذِين أُوتُواْ الْكِتَابَ) : اليهود والنصارى .

(الأَمَدُ) : الزمن الممتد والغاية .

(فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) : غلظت وصلبت .

(فَاسِقُونَ) : خارجون عن حدود دينهم .

(يُحْيِي الْأَرْضَ) : يجعلها خصبة بالنبات والزروع .

(مَوْتِهَا) : جدبها وقفرها .

(الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ) : المتصدقين والمتصدقات الذين يبذلون أموالهم فى الطاعات من الصدقة ، أو المبالغين فى الصدق لله ولرسوله من التصديق .

(الْجَحِيمِ) : النار .

التفسير

١٦ - (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

هذه الآية استئناف ناع على المؤمنين الفاترين المتخاذلين تخاذل المنافقين وتثاقلهم عن أمور الدين ، ورخاوة هممهم فيها ، وتكاسلهم فيما ندبوا إليه .

رُوِىَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا مقلِّين مجدبين بمكة ، فلما هاجروا إلى المدينة أصابوا الرزق والنعمة ، وفتروا عما كانوا عليه من الحماس والنَّشاط لدينهم فنزلت .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - . ما كان بين إسلامنا ، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنوات - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، وعن الحسن - رضى الله عنه - أما والله لقد استبطأهم ، وهم يقرءون من القرآن أقل مما يقرءون ، فانظروا فى طول ما قرأتم منه ، وما ظهر فيكم من الفسق ، وعن أبى بكر - رضى الله عنه - أن هذه الآية قرئت بين يديه ، وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديدًا ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنَّا حتى قست القلوب .

هذا على أن الآية نزلت فى بعض المؤمنين المتكاسلين فى شئون الدين - وقيل إنها نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم ، فقالوا :

حدثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب فنزلت : « الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ »[١]. إلى قوله – تعالى – : « لَمِنَ الْغَافِلِينَ » . فخبّر أن القرآن أحسن القصص ، وأنفع لهم من غيره ، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله ، ثم عادوا فسألوه عن مثل ذلك فنزلت آية : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ...[٢] » فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله . ثم عادوا فسألوا سلمان فنزلت هذه الآية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ...) عن الكلبى ومقاتل . قال الآلوسى – بعد ماساق هذه الرواية : ليس بشىء .

وسواء كان نزولها فى المنافقين أو فى بعض المؤمنين المتخاذلين المتكاسلين ، فإنها استنهاض للهمم فى جانب العبادة ، وإيقاظ للفتور والتكاسل عن الطاعة ، وتنبيه إلى استدامة المواظبة عليها والنهوض لها ، والالتزام بها فى كل الأوقات والأحوال ، فلا يتكاسل عنها إلا منافق ، ولا يفتر عن أدائها إلا مذبذب ضعيف الإيمان ، ضال عن سبيل الله ، « وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً »[٣] .

والمعنى : ألم يجىء الوقت ، ويحن الحين للذين آمنوا أن يتمكن الإيمان فى نفوسهم ، ويخالط شغاف قلوبهم فتلين من جمودها وترق من قسوتها وغلظها ، وتتحرر من جاهليتها وجهلها فتخشع لذكره – تعالى – وتخافه وتطمئن به ، وتسارع إلى طاعته بالامتثال لأوامره ، والانتهاء عما نهى عنه من غير توان ولا فتور ، وتخشع لما نزل من القرآن الكريم وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالمراد بما نزل من الحق هو القرآن الكريم المشتمل على ذكر الله – أيضاً – ووجه عطفه على ذكر الله أنه جامع للأمرين الذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، ويصح أن يراد من الخشوع لذكر الله الوجل والخوف والانقياد التام وبما نزل من الحق زيادة الإيمان عند سماع القرآن الكريم – كما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[٤] .

---

(١) أول سورة يوسف .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٨

(٤) سورة الأنفال من الآية : ٢

ومعنى ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ ﴾ أى : لا يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب قبلهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فطال عليهم الأجل وبعد العهد بينهم وبين أنبيائهم أو طالت أعمارهم ، ولم يعاجلهم الجزاء ، فاغتروا وقست قلوبهم ، وتحجرت وزال خشوعها وفشا فيهم الفساد فساءت أعمالهم ، واستمرءوا المعصية ، وغلب عليهم الشر فكثير منهم فاسقون خارجون على دينهم رافضون لما فى كتبهم .

١٧ - ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ :

نعت الآية السابقة على بعض المؤمنين فتورهم فى العبادة ، وعابت عليهم استهواء النعم لهم ، وانصرافهم إلى الترف والنعيم ، وجاءت هذه الآية تطمعهم فى الرجاء ، وتفتح لهم باب القبول ، ومداخل الرحمة حتى لايتملكهم يأس ، ولا يستولى عليهم قنوط ، ويعودوا لما كانوا عليه من النشاط فى العبادة ، والهمة فى الطاعة والحماس للدعوة ، وجرى فيها الأسلوب مجرى التمثيل لإبراز القدرة فى أكمل صورة ، وعرضها فى أوضح بيان حيث شبهت تليين القلوب الغليظة وإنارتها بالإيمان والذكر وتلاوة القرآن بعد الكفر والجحود والظلمة والوحشة - شبهتها - بإحياء الأرض بعد الغيث بالنبات وخصبها بالزرع والخضرة ونبض الحياة بعد الجدب والقفر والعفاء ، وهذا كله ترغيب فى الخشوع والخشية ، وتحذير من القسوة والغلظة .

والآية خطاب عام يتلقاه كل راغب فى الهداية ، طامع فى الرحمة من الذين أشارت إليهم الآية السابقة ومن غيرهم بياناً لمزيد فضل الله ، وواسع رحمته .

والمعنى : اعلموا معاشر المؤمنين أن قدرة الله فوق كل القدر ، وأن فضل الله عظيم على عباده يهبط على القلوب فيوجهها إلى الهداية ، ويحييها بالإيمان ، ويوفقها للطاعة بالذكر والتلاوة ، كما يحيي بالغيث الأرض الجدبة فتؤتى ثمرها من النبات والزرع ، وتصبح ندية خضراء بعد أن كانت مقفرة جدباء .

وقوله - تعالى - : (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بعد هذا التمثيل معناه : قد وضحنا لكم الحجج ، والبراهين ، التى من جملتها هذه الآيات . كى تعقلوا ما فيها ، وتعملوا بموجبها فتنعم حياتكم ، وتسعد آخرتكم .

١٨ -(إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُواْ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) :

هذه الآية دخول على فضائل الأعمال ، وبيان حال العاملين ودرجاتهم ، بعد أن عرضت الآية السابقة مظاهر قدرة الله وفضله ، فى إحياء القلوب وإثرائها بالإيمان والخير بعد الشر ، والعطاء بعد الجفاء .

والمصَّدقون والمصَّدقات يمكن أن يراد بهم المتصدقون بأموالهم ، الباذلون لها عن طيب نفس ، وخلوص نية على المستحق للصدقة ، ويجوز أن يراد بهم الذين صدقوا الله ورسوله من التصديق لا من الصدقة .

والمعنى : إن المتصدقين والمتصدقات الذين بذلوا أموالهم فى وجوه الخير للمحتاجين ، وإغاثة الملهوفين ومساعدة المنكوبين ابتغاء وجه الله قرضًا حسنا خالصًا من الرياء ، بعيدا عن التفاخر ، والتكاثر - إن هؤلاءِ - يضاعف الله لهم أجرهم ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاءُ والله واسعٌ عليم ، ولهم أكثر من هذا أجرٌ كريم فى نفسه ثمين فى جوهره جدير أن يتنافس فيه المتنافسون لذاته ومن غير مضاعفة فكيف إذا ضوعف أضعافًا مطلقة .

١٩ -(وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

الكلام فى هذه الآية يمكن أن يكون مبنيًّا على جملة واحدة فحواها أن الذين آمنوا بالله ورسله فى منزلة الصديقين والشهداء فى أجرهم ونورهم ، ويقابل هذه الجملة جملة (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا) .

ويمكن أن يكون الكلام مبنيًّا على أكثر من جملة على معنى : (وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ) جملة ، (وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) جملة أخرى ، ويقابل ذلك (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) . ولعل الاحتمال الأول هو الأقرب إلى الفهم .

والمعنى : والذين آمنوا بالله، وأفردوه بالألوهية ، وخصوه بالعبادة وآمنوا برسله جميعًا لم يفرقوا بين رسول ورسول ، ولم يقولوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ولم يتعصبوا لرسالة بعد موت رسولها وبعثة غيره غير رسالة محمد ﷺ فإنها هي الرسالة الخالدة الخاتمة – هؤلاء في منزلة الصديقين المبالغين في الصدق السابقين في الإيمان وفي كل خير ، وفي منزلة الشهداء الذين بادروا إلى الشهادة ، واستشرفوا إلى الاستشهاد في سبيل الله – تعالى – لهم ما للصديقين والشهداء في المنزلة من علو المرتبة ، ورفعة المحل ، ومن الأجر والنور – المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال .

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) وهذا فريق يقابل فريق الذين آمنوا بالله ورسله ، وضعا لفريق الجنة في النعيم ، وفريق الكفر في الجحيم « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ »[1] .

والمعنى : والذين وصفوا بالكفر ، والكذب والتكذيب ، وجحدوا آيات الله ، وكذبوا رسالات الرسل عنادًا وكفرًا أولئك أصحاب الجحيم المقيمون فيها ، الملازمون لها بحيث لا يفارقونها ، ولا يجدون منها مخلصًا ، ولا عنها معدلًا .

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ٤٢ .

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾)

المفـــردات :

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ) : قيل : اللعب مارغب فى الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة ، والمراد أنها عبث لابقاء له ولا دوام .

(وَزِينَةٌ) : تتزين فى عيون أهلها ، أو يتزين بها أهلها .

(تَفَاخُرٌ) : تكبر وتعال .

(الْكُفَّارَ) : الزُّرَّاع .

(يَهِيجُ) : يَجِفّ بعد خضرته ونضارته .

(حُطَامًا) : هشيمًا متكسرًا .

(فِى كِتَابٍ) : مكتوبة مثبتة فى علم الله – تعالى – أو فى اللوح .

(أَن نَّبْرَأَهَا) : أن نخلقها .

(تَأْسَوْا) : تحزنوا وتندموا .

(مُخْتَالٍ فَخُورٍ) : متكبر كثير الفخر .

التفسير

٣٠ – (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) :

الأمر فى هذه الآية كالأمر فى قوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) موجه إلى كل من يتدبر الآيات ويتلقاها بفهم ووعى ، وينتفع بهديها ، ويسير على منهاجها وقد جاءت بعد بيان حال الفريقين فى الآخرة تكشف زيف الحياة التى اطمأن إليها أصحاب الجحيم ، وتشير إلى أنها من محقرات الأمور التى لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها وهى لعب لا ثمرة لها ، ولهو يشغل الإنسان عمّا يفيده ، ويعود عليه بالنفع فى دنياه ، وزينة زائلة ، تستهوى الجهال ، وتغريهم بالمظاهر الخداعة التى لا ترفع خسيسة ، ولا يحصل به شرف ، وتفاخر بالأنساب البالية ، وتكاثر بالعدَد والعُدَد ، وجمع ما لا يحل له ، وغير ذلك من الأمور الفانية التى تزهو وتزدهر ، ثم لا تلبث أن تذبل وتخبو ، كغيث ينزل فى أرض جرز جرداء قاحلة فتخصب وتخضر بالنبات وتزدهر بالزرع ، ويمتلئ قلب

الزراع بهجة بها ، ويغمرهم الفرح والبشر بمظهرها ونضارتها ، ثم لا تلبث أن تجف بعد النداوة ، وتصفر بعد الخضرة ، ثم تصير هشيمًا جافًا وحُطامًا متكسرًا .

وإذا صح أن يتفاخر أو يتكاثر أهل المعاصى بالأنساب والجاه ، أو الأموال والرجال فإن تفاخر المؤمنين ينبغى أن يكون بالتواضع ، والطاعة ، وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ « إنَّ اللهَ أوحَى إلىَّ أن تَواضَعوا حتى لا يبْغِيَ أحدٌ على أحد ، ولا يَفْخَر أحدٌ على أحد » .

وبعد أن بينت الآية حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها ، وتنفيرًا من العكوف عليها ، أشارت إلى ما يلقاه الكافرون فى الآخرة من عذاب ، فقال تعالى : (وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ) أى : بالغ أقصى درجات القسوة والشدة لأعداء الله ، جزاءً وفاقًا لانهماكهم فى مفاتن الدنيا وملاهيها ، واطمئنانهم إليها وفى الآخرة - أيضا - مغفرة عظيمة ورضوان من الله أكبر لا يقدر كنههما ولا يقادر قدرهما للمؤمنين الصديقين الذين أخلصوا لله الإيمان ، وداوموا الصدق ، وأحسنوا العمل فنالوا المغفرة والرضوان .

وفى مقابلة العذاب الشديد وحده بالمغفرة والرضوان إشارة كريمة إلى غلبة الرحمة ، ومزيد الفضل ، كما يشعر بذلك - أيضًا - إطلاق العذاب الشديد ، وتقييد الرحمة ، والرضوان بأنهما من الله - تعالى .

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) أى : وليست الحياة الدنيا - وإن طالت وتعددت نعمها - إلّا متاع الغرور لمن اغتر بها وانخدع ، واطمأن إليها واشتغل بمفاتنها عن العمل لآخرته ، روى عن سعيد بن جبير : « الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله - تعالى - وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة » .

وقال ذو النون : يا معشر المريدين ، لا تطلبوا الدنيا ، وإن طلبتموها لا تحبوها فإن الزاد منها ، والمقيل فى غيرها .

٢١ - (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

لما حقَّر الله – تعالى – الدنيا، وصغَّر أمرها، وعظم أجر الآخرة بعث وحث عباده على المسارعة إليها، والمسابقة لنيل ما وعد فيها من المغفرة المنجية من العذاب الشديد، ومن الفوز بدخول الجنة ونعيم الرضوان الأكبر، فقال تعالى: (سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) .

والمعنى: سارعوا مسارعة السابقين لإخوانهم فى المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة من ربكم وتحصيل موجباتها من الأعمال الصالحة، وإلى جنَّة مبسوطة وافرة السعة عرضها كعرض السماء والأرض فكيف بطولها؟ أعدها الله للذين آمنوا بالله ورسله عن إخلاص فى العقيدة، وصدق فى الإيمان، واجتهاد فى عمل الصالحات فشملهم بذلك الرضا، وتمّ لهم الفوز، مع جزيل الجزاء وكريم العطاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء تفضلًا وإحسانًا فى غير إيجاب عليه، ولا حساب له، والله ذو الفضل العظيم الذى لا ينفذ بالعطاء، ولا يخضع لغاية أو أهواء.

وهكذا تطلب الآية السبق إلى مقتضيات المغفرة، ومؤهلات الفوز بالجنة لتنتقل بالعبد من التفانى فى الحطام الزائل والمتاع الفانى إلى الإسراع فى طلب النعيم المقيم، والمتاع الخالد.

وقدمت المغفرة على الجنة فى الذكر؛ لأنها تطهير يمهد لدخول الجنة تقديماً للتخلية على التحلية، والمراد بقوله: (عَرْضُهَا) مساحتها فهى واسعة كسعة السموات والأرض، وقيل: المراد بالعرض ما يقابل الطول وإذا كان العرض بهذا القدر فالطول أكبر كما هو المعتاد، والمراد أن مساحتها واسعة.

٢٢، ٢٣ – (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) :

هاتان الآيتان: دعوة إلى التزام القصد والاعتدال، فى تلقى الأحداث، واستقبال النعم، فلا تفرط النفس فى الأسى والحزن على ما يفوتها، ولا يحملها تتابع النعم على البغى والطغيان، فإن كل ما يصيب الإنسان أو يناله مقدر له بتقدير الله، ومما سبق به الكتاب فى الأزل القديم. والله يحب من عباده أن يتلقوا المكاره بالرضا والصبر، وأن يستقبلوا النعم بالتطامن والشكر. ومن رضى فله الرضا والأجر، ومن حمد فله المزيد والشكر.

والمعنى : ما أصاب من مصيبة ، وما وقع على الأرض من نوائب وأحداث كجدب أو نقص فى الثمار والزرع ، أو زلزلة أو غير ذلك مما يقع على الأرض أو فيها من كوارث ، أو فى أنفسكم ، من مرض أو كسور أو حروق ، أو فقر أو موت أو غير ذلك مما يجرى على الإنسان – ما أصاب من شىء من ذلك – إلا وهو مكتوب مثبت فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الأنفس أو المصائب أو الأرض – إن ذلك الإثبات فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ يسير سهل على الله لاستغنائه عن العُدَّة والمُدَّة ، وإن كان عسيرًا فى ذاته أو على غير الله . وقد أخبركم الله بذلك ، وأعلمكم به لكيلا تأسَوْا وتحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ، أو مما ترجون لأنفسكم مما تظنونه خيرًا ، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله – تعالى – منها فإن من علم أن كلَّ شىء بقضاء وقدر ، يفوت ما قُدِر فواته ، ويأتى ما قُدِر إتيانه لا يُفْرط فى جزعه على ما فات ، ولا يُعظم فرحه بما هو آت .

وإذا كان فى طبيعة الإنسان أن يحزن عند مضرة تنزل به ، وأن يفرح عند منفعة تناله ، فإن الذى ينبغى هو القصد والاعتدال فى ذلك وأن يكون الحزن صبرًا ، والفرح شكرًا ، والمذموم من الحزن والفرح ، أن يكون الحزن جزعًا مجافيًا للصبر والرضا بالقضاء ، وأن يكون الفرح أشرًا مطغيًا صارفًا عن الشكر والثناء . (وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) أى : والله لا يحب كل متكبر على الناس متكاثر بأمواله ونعمه عليهم – وكل من فرح بحظ من الدنيا وعظَّم نفسه فقد اختال وافتخر ، وتكبر على الناس .

٢٤ – (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

هذه الآية بيان لمعنى المختال الفخور وتوضيح لطبعه وسلوكه ؛ فإن المغتر بالمال المختال المتكبر يضن به غالبًا شحًّا وبخلًا ، ويأمر غيره بذلك ، ولما كان البخل بالمال والدعوة إلى إمساكه إعراضًا عن طاعة الله ، وتنكبًا لطريق الهداية ختمت الآية بقوله – تعالى – : (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

والمعنى : ومن يمسك المال معرضًا عن إنفاقه فى سبيل الله لا يحرم إلَّا نفسه ولا يضر غيرها فإنَّ الله غنى عن إنفاقه وهو – سبحانه – محمود فى ذاته لا يضره إعراض المعرضين

عن شكره بالتقرب إليه بشيء من نعمه ، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق ؛ لأن ثواب نفقته إليه .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(رُسُلَنَا) : الملائكة إلى الأنبياء ، أو الأنبياء إلى الأمم .

(الْبَيِّنَاتِ) : الحجج والمعجزات .

(الْكِتَابَ) : جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية .

(بِالْمِيزَانِ) : الآلة المعروفة أو العدل .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل .

(بَأْسٌ شَدِيدٌ) : قوة ومنعة كآلات الحرب والقتال .

(وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) : مصالح تنفعهم كأدوات الصناعة والزراعة والبناء .

(ثُمَّ قَفَّيْنَا) : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول .

(رَأْفَةً) : مودة ولينًا .

(وَرَحْمَةً) : تعطفًا وحنانًا وعند اجتماعهما يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ، ورأب الصدع وبالرحمة ما فيه جلب الخير .

(وَرَهْبَانِيَّةً) : مبالغة فى العبادة ، والانقطاع إلى الآخرة ،وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان .

التفسير

٢٥ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) :

فصلت الآيات السابقة فريق العصاة المكذبين ، وفريق الطائعين المصدقين ، وعرضت لوصف الدنيا وحقارتها وسرعة انتهائها ، وخوفت من الافتتان بها ، والاطمئنان لها إذ تناولت ذكر الجنة ونعيمها ، ونادت بالتسابق إليها ، والإسراع فى طلبها ، والتمتع بنعيمها ، وبقى المقام محتاجًا إلى تنظيم العمل ، وتفصيل السلوك الذى يباعد بين العبد وارتكاب المعاصى ، ويقربه من ربه ، ويؤهله للعمل عن تدبر ، ويوضح له طريق الخير ،وطريق الغواية ؛ليختار لنفسه حتى لا يكون له على الله حجة « فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] فجاءت هذه الآية تبين فضل الله - تعالى - على خلقه ،

(١) سورة الفتح من الآية : ١٠

بتتابع الرسالات ، وإنزال الكتب والميزان لإقرار العدل ، فلا يبغى أحد على أحد ، كما جاءت تبين إنعام الله بالنعم الجليلة التى تجمع لهم القوة والمتعة مع الرخاء والمنفعة .

وفى تخصيص الحديد بالذكر ، مقرونًا بالبأس والمنفعة لمحة إلى أن فيه من معدات القوة مايحرس الأمن ويحفظ التوازن بين الأفراد والجماعات والأمم ، والحديد أصل وأساس لكل تقدم صناعى وحضارى ، ولذا كان جديرًا أن تسمى به السورة دون غيره من الأمور التى ذكرت فيها أو عرضت لها .

والمعنى : لقد كان فضلنا على الخلق ، وإنعامنا عليهم أن أرسلنا رسلنا من الملائكة إلى الأنبياء ، أو من الأنبياء إلى أممهم داعين ومرشدين وأيدناهم بالمعجزات ، والحجج الباهرات الواضحات التى تؤكد صدقهم ، وتحتم تصديقهم ، وذلك ليدعوا الناس إلى الخير ويوجهوهم للهداية وسلامة السلوك الذى يكفل لهم راحة دنياهم ، وسلامة آخرتهم ، وأنزلنا مع الرسل الكتب التى تحفظ رسالتهم ، وتشرح دعوتهم ، وتؤكد صدقهم من التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وسائر الكتب والألواح والصحف السماوية التى نزلت مع الرسل ، كما أنزلنا آلة الوزن ليلتزم الناس بالعدل ، ويقوم عليه التعاون والتعامل ، ويمتنع الظلم والعدوان .

قيل : إن جبريل – عليه السلام – نزل بالميزان المعروف فدفعه إلى نوح – عليه السلام – وقال : « مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا به » ، وقيل المراد بالميزان : العدل والمساواة بين الناس فى التعامل .
(وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ) أى : خلقناه كقوله – تعالى – : « وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ »[1] وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل من السماء .

وقال قطرب : وأنزلنا الحديدَ أى : هيأناه لكم ، وأنعمنا به عليكم ، وقيل : نزل آدم – عليه السلام – من الجنة ، ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان ، والكلبتان ، والميقعة[2] ، والمطرقة ، والإبرة .

ومعنى (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) : أى : قوة ومنعة ؛ لأن آلات الحروب تتخذ منه – وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى قوة تحميهما ؛ ليحصل القيام بالقسط ؛ فإن الظلم من شيم

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٦ (٢) من معانيها المسن الذى يحدد به .

النفوس ، ومن لم يدافع عن نفسه بسلاحه يهدم ، وقوله – تعالى –: (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) أى : مصالح تنفعهم فى معاشهم وتيسير أعمالهم إذ ما مِن صنعة إلّا والحديد أو ما يعمل بالحديد آلتها ، وفيه إيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى القائم بالسيف ؛ ليحفظ العدل ، يحتاج إلى ما به قيام التعايش ليتم التمدن الذى يحتاجه بقاء النوع .

(وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) هذه الجملة معطوفة على محذوف يدل عليه السياق ، أو الحال ؛ لأنها متضمنة للتعليل .

والمعنى : فعل الله ذلك ليبسر حياتهم ، وينفعهم ، ويقطع حجتهم ، وليعلم الله علمًا يتعلق به الجزاء ، ويترتب عليه الثواب والعقاب ليعلم من ينصره بالتوحيد والطاعة ، وينصر رسله بالتصديق واتباع ما جاءوا به دون أن ينظر الله ويبصره .

(إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) أى : إنه الله قادر لا يعجزه أمر ولا يفوته هارب منيع لا يغلبه غالب ولا يدركه طالب وهذا تذييل جاء تحقيقًا للحق ، وتنبيهًا على أن التكاليف ليست لحاجته – تعالى – إلى نصرتهم فى إعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، بل إنما جاء ذلك ليصلوا بالتكاليف إلى الثواب ، فإن الله غنى بقدرته وعزته عمّا سواه فى كل مايريده .

٢٦ –(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

هذه الآية نوع تفصيل لما أجمل فى قوله – تعالى –: « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا » وتكرير القسم لإظهار مزيد العناية بالأمر ، ووجه اختصاص « نوح وإبراهيم » بالذكر لسبقهما ، واشتهارهما حتى سميا أَبَوَى البشر ، واقتران عهد كل واحد منهما بأحداث لها أبعادها فى تاريخ الإنسانية ، وشعائر العبادات .

أما نوح – عليه السلام – فقد حدث فى عهده الطوفان الذى يعتبر طورًا جديدًا فى مسيرة الإنسانية ، ولذلك قيل عنه : إنه آدم الثانى .

وأمّا إبراهيم – عليه السلام – فلحواره مع أبيه ، وقصته مع ولده وارتحاله إلى مكة به ، وما تبع ذلك من نبع ماء زمزم ،ثم ما كان من ابتلائه بأمره بذبح ولده وافتدائه ، وما بقى بعد ذلك ممّا قيل فى السعى بين الصفا والمروة ، وما شرع فى الأضحية فى شريعة محمد ﷺ وحسبه فوق هذا كلّه أنه خليل الله .

والمعنى : ولقد كان من أخبار إرسالنا الرسل أن أرسلنا نوحًا وإبراهيم ، وأوحينا إليهما ، وجعلنا فى ذريتهما النبوة ، فكل الأنبياء من ذريتهما ، وأنزلنا عليهم الكتب المقدسة التى تحفظ شريعتهم ، وتفصل رسالتهم ، وقال ابن عباس المراد بالكتاب : الخط بالقلم .

ثم قال – تعالى – : (فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فمن هذه الذرية ، أو من المرسل إليهم منتفع بهذه الرسالة مهتدٍ سائر على النهج السوى ، مستجيب لدعوة رسوله ، ملتزم بالعمل بها ، وكثير منهم فاسقون خارجون عليها مجافون لها ، متنكبون طريق الهداية والطاعة .

ولم تقل الآية : ومنهم « ضال » مقابل فمنهم « مهتد » على مايقتضيه ظاهر المعادلة مبالغة فى الذم ؛ لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول إليه بالتمكن منه ومعرفته أبلغ فى الضلال ، وأقبح منه على أن قوله – تعالى – : (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ) يؤذن بغلبة أهل الضلال والفسق على غيرهم .

٢٧ –(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) :

لاتزال الآيات تتحدث عن إرسال الرسل بدءًا بنوح وإبراهيم – عليهما السلام – ونهاية بعيسى – عليه السلام – وصولًا إلى بعثة سيد الرسل وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ،

وخص عيسى بالذكر؛لأن رسالته آخر الرسالات قبل رسالة نبينا ﷺ مع ما تحتويه من التنويه ببعثته ، والحديث عن رسالته مما يكاد يكون إرهاصًا بها ، ودعوة لها .

والمعنى : ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم – عليهما السلام – وعلى أعقابهم رسلنا متتابعين رسولًا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم – عليه السلام – وآتيناه الإنجيل تفصيلًا لرسالته ، وتصديقًا لدعوته ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه (رَأْفَةً) أى : مودة ولينًا يجمعهم على الخير ، ويدفع عنهم الشر ، (وَرَحْمَةً) أى : تعطفًا ومحبة تجلب لهم المنافع ، وتقيهم المضار ، (وَرَهْبَانِيَّةً) أى : ورضينا منهم مبالغة فى العبادة بالانقطاع إلى الخلوات ، وتجنب النساء والشهوات وغير ذلك ، إنها رهبانية استحدثوها من عند أنفسهم والتزموها عن رغبتهم ما فرضناها عليهم ولا رضيناها منهم إلَّا ابتغاء وجه الله ، أو ما ابتدعوها إلَّا ابتغاء وجه الله ، وكان عليهم بعد ذلك أن يحافظوا عليها ، ويداوموا على عمل مقتضياتها لأنها نذر التزموه ، وعهد مع الله ينبغى الوفاء به ، ولكنهم قصروا فيها فما رعوها حق رعايتها وذلك بتقصيرهم فيما ألزموا به أنفسهم من عمل الطاعات ، وبأن بعض من أدرك منهم رسالة سيدنا محمد ﷺ لم يؤمن بها ولم يصدقها ، ولذلك جاء قوله – تعالى – : (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) أى : فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانًا صادقًا – صحيحًا راعى فيها تحقيق الرهبانية بالعمل الصالح والإيمان برسول الله ﷺ – آتيناه أجره الذى يناسب إيمانه وعمله .

(وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن حد الاتباع ، بعيدون عن الإيمان الصحيح .

عن ابن مسعود قال : « كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال : يا ابن أم عبد : هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم ، فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلَّا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ، ولم يبق

للدين أحد يدعو له ، فتعالوا نتفرق فى الأرض ، إلى أن يبعث الله النبى الذى وعدنا به عيسى – عليه السلام – يعنون محمدًا ﷺ فتفرقوا فى غيران الجبال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ، ومنهم من كفر ، ثم تلا هذه الآية ، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ... ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : يا ابن أم عبد ، أتدرى ما رهبانية أمتى ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : الهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، والعمرة »[1] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

(الَّذِينَ آمَنُواْ) : المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب ، أو الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ

(كِفْلَيْنِ) : نصيبين تثنية كفل ، وقيل الكفل : الضعف .

(أَهْلُ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٧٥ تفسير قوله تعالى : « ثم قفينا على آثارهم » فقد ورد الحديث بنحوه .

التفسير

٢٨ - (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

تختتم السورة بهذا النداء الكريم للذين آمنوا تأمرهم بالتقوى ، وتعدهم بمضاعفة الأجر والنور الذى يهديهم ويحميهم من ظلمات الكفر والجهل ، ويصلهم بالمغفرة والفضل .

والمعنى : يـٰأيُّها الذين آمنوا بالرسل المتقدمة اتقوا الله ، وانتهوا عمَّا نهاكم عنه ، واحفظوا أنفسكم من مهاوى الشرك ومهالك المعاصى ، وادخلوا فى طاعته ، وأخلصوا فى عبادته ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يعطكم نصيبين من رحمته ، نصيبًا لإيمانكم بأنبيائكم ، ونصيبًا لإيمانكم بمحمد ﷺ وتصديقكم برسالته ودعوته التى نسخت الشرائع السابقة . فلم يبق وجه للإيمان بها وحدها بعد بعثته - عليه الصلاة والسلام - دون التصديق برسالة محمد ﷺ (وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) أى : يهيئ لكم نورًا تمشون به يوم القيامة حسبما نطق به قوله - تعالى - : (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) ويغفر لكم ويستر عليكم ما أسلفتم من الكفر ، أو قدمتم من المعاصى ، والله واسع المغفرة عظيم الرحمة .

وعن مجاهد : نورًا أى : بيانًا وهدًى ، وقال ابن عباس : هو القرآن .

واستظهر أبو حيان كون الخطاب لمن آمن من أمة محمد ﷺ ، غير أهل الكتاب ، والآثار تؤيد ذلك . أخرج الطبرانى فى الأوسط : عن ابن عباس وابن أبى حاتم : عن سعيد ابن جبير ، قالا : إن أربعين من أصحاب النجاشى قدموا على النبى ﷺ فشهدوا معه أحدًا ، فكانت فيهم جراحات ، ولم يقتل منهم أحد ، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة ، قالوا : يا رسول الله ، إنا أهل ميسرة ، فأذن لنا نجئ بأموالنا نواسى بها المسلمين فأنزل الله

ـ تعالى ـ فيهم : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ .. »[1] إلى قوله ـ سبحانه ـ : (أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) فجعل لهم أجرين ، فلما نزلت هذه الآية قالوا : يامعشر المسلمين ، أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللهَ ..) الآية ردًّا عليهم ، ومن لم يؤمن بكتابكم ، فله أجر كأجوركم .

وفى الكشاف أن قائل ذلك ، من لم يكن آمن من أهل الكتاب ، قالوه حين سمعوا تلك الآية يفخرون بها على المسلمين وعلى هذا فمعنى الآية : ياأيها الذين اتسموا بالإيمان اثبتوا على تقوى الله ـ عز وجل ـ فيما نهاكم عنه يؤتكم نصيبين من رحمته لإيمانكم بالرسالات المتقدمة عليكم ، وتصديقكم لرسلها ، وإيمانكم برسولكم محمد ﷺ كما فعل أهل الكتاب الذين آمنوا به ، فأنتم وهم سواء فى الإيمان بالرسل أجمعين .

٢٩ ـ (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

قال مجاهد : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منّا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا به ، والآية تتعلق بمضمون جملة قبلها على تقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) .

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ) : (لَا) هنا زائدة أى : ليعلم الذين يؤمنوا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب اليهود والنصارى أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله تحصيلًا لأنفسهم أو منعًا لغيرهم ، رزقًا أو هداية ، أو مغفرة وفضلًا ، وأن الفضل كل الفضل بيد الله وليس بأيديهم حتى يصرفوه عمن شاءوا إلى من شاءوا ، وأنه ـ تعالى ـ يختص بفضله من يشاء إذا شاء

---

(١) سورة القصص من الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤

وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع قال : حدثنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى سالم ابن عبد الله أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - وهو قائم على المنبر - :

« إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ، ثم عجزوا فأعطوا قيراطًا قيراطًا ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين ، قال أهل التوراة : ربنا ، هؤلاء أقل عملًا ، وأكثر أجرًا ، قال : هل ظلمتكم من أجركم من شىء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء » .

والله أعلم

« سـورة المجادلة »

مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

أهم مقاصدها :

بيان حكم ظهار الرجل من امرأته ، بأن يقول لها - مثلا - : أنت علىَّ كظهر أمى ، وأن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم - أى : لعنوا مثلهم - وأن لهم فى الآخرة عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى يعلم جميع ما فى السموات والأرض ، ومن ذلك أنه يعلم السر والنجوى ، وبيان مصير الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، وأن على المؤمنين إذا قيل لهم : تفسحوا فى المجالس أن يتفسحوا ، وأن الذين يتولون قومًا معادين للإسلام أعدَّ الله لهم عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى قضى بأن يَغْلِب هو ورسله جميع أعداء الدين ، وأن من يتركون مودة من يحادون الله ورسوله - ولو كانوا أقاربهم - أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ، وأنهم سيدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

اسماء هذه السورة :

تسمى المجادلة ، بكسر الدال وفتحها ، والكسر أشهر ، وتسمى أيضًا سورة (قد سمع) وسورة الظهار .

مناسبتها لمـا قبلها :

ختمت السورة السابقة بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من ذلك حيث سمع الله شكوى هذه المرأة ، وأزال شكوى كربتها ، بما بينه من حكم الظهار ، وجاء فى مطلع السورة السابقة ذكر صفات الله الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وأنه سبحانه « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ » ، وافتتح هذه السورة بذكر أنه تعالى سمع قـول المجادلة التى شكت إليه تعالى ، إلى غير ذلك من المناسبات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾)

المفــردات :

(تَحَاوُرَكُمَا) : تراجعكما فى الكلام من حار إذا رجع ، ويجوز أن يكون المراد به الكلام المردَّد السمع للمسموعات .

التفســـير

١ ـ(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) :

نزلت هذه الآية والآيات بعدها فى امرأة من الأنصار اسمها خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجى ، وقيل غير ذلك ، ولكن الأكثرين على أنها هى خولة بنت ثعلبة المذكورة ، وأن زوجها هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، فدخل عليها يومًا فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكان هذا أول ظهار فى الإسلام .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، فندم أوس من ساعته ، فدعاها فأبت وقالت : والذى نفسى بيده : لاتصل إلىَّ وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىَّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى ـ أى كثر ولدى ـ جعلنى عليه كأمه وتركنى إلى غير أحـــد ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله تُنعِشُنى بها وإياه فحدثنى بها ، فقال

- عليه الصلاة والسلام -: والله ما أُمرت فى شأنك بشىء حتى الآن - وفى رواية : ما أراك إلّا قد حرُمْتِ عليه - فقالت : ما ذكر طلاقًا ، وجادلت رسول الله - عليه الصلاة والسلام - مرارًا ، ثم قالت : اللَّهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى ومايشق علىَّ من فراقه ..

وفى رواية قالت : أشكو إلى الله - تعالى - فاقتى وشدة حالى ، وأن لى صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللَّهم فأنزل على لسان نبيك ، ومابرحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال ﷺ : ياخولة أَبْشِرِى . قالت : خيرًا . فقرأ عليها - عليه الصلاة والسلام - (قَدْ سَمِعَ ...) وكان عمر - رضى الله عنه - يكرمها إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله تعالى لها .

روى ابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات : أنها رأته - رضى الله عنه - وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : ياأمير المؤمنين . حبست رجال قريش على هذه العجوز قال : ويحك . أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله لشكواها من فوق سبع سمٰوات . هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها[1] .

وفى رواية أخرى : أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - والناس معه على حمار ، فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت : ياعمر قد كنت تدعى عُميرًا ، ثم قيل لك : عمر ، ثم قيل لك : ياأمير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب - وهو واقف يسمع كلامها - فقيل له : ياأمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لازلت إلّا للصلاة المكتوبة ، أتدرون مَن هذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سمٰوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر[2] .

---

(١) حكاه الآلوسى .

(٢) حكاه القرطبى .

وروى النسائى وابن ماجه والبخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت بعد أن نزلت الآية (قَدْ سَمِعَ) : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله تعالى :(قَدْ سَمِعَ ...) الآيات[1] .

والسماع مجاز ، أو كناية عن القبول . والسمع والبصر من صفات الله تعالى ، وهما غير صفة العلم ، فكل المسموعات والمبصرات يعلمه الله تعالى .

وبعض العلماء قال : إنهما كناية عن العلم ، وهذا خطأ لما فيه من محو صفتى السمع والبصر وهما من صفاته وأسمائه تعالى : « وَلِلهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ، نقل القرطبى عن الحاكم أبى عبد الله قوله : والسمع والبصر من صفات الله كالعلم والقدرة والحياة والإرادة فهما من صفات الذات . لم يزل الله سبحانه وتعالى متصفًا بهما .

والمعنى الإجمالى للآية : قد سمع الله - تعالى - قول خولة بنت ثعلبة التى تُسائلك فى حكم ظهار زوجها منها بقوله لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، وتشتكى إلى الله - تعالى - لينزل فى شأنها حكمًا غير الطلاق الذى جعلوه فى الجاهلية حكمًا للظهار ، وكانت هذه الشكوى إلى الله - تعالى - بعد أن أفهمها الرسول ﷺ أنه - سبحانه - لم ينزل فى شأنه حكمًا ، والله يسمع تحاورها معك - أيها الرسول - وترديدها للشكوى ، إن الله عظيم السمع للمسموعات وإن كانت همسًا ، عظيم البصر للمرئيات وإن كانت دقيقة ، فلهذا لم يخف عليه - سبحانه - ما جرى بينك وبينها من الحوار .

---

(١) حكاه الآلوسى .

(ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾)

المفـردات :

(يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّنْ نِّسَآئِهِم) : يقول الرجل منكم لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى أو ما فى معناه ، وسيأتى بيانه .

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ) : ما أمهاتهم .

(مُنكَرًا) : يستنكره الشرع والعقل .

(وَزُورًا) : وكذبًا منحرفًا عن الحق .

التفسـير

٢ ـ (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّآئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) :

شروع فى بيان الظهار وحكمه المترتب عليه شرعًا ، والظهار : مصـدر ظَاهَرَ ، وحقيقة الظهار ـ كما قال القرطبى ـ : تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرٍ محلَّلٍ بظهر مُحَرَّمٍ ، وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى فهو مظاهر ، أما لو قال لها : أنت علىَّ كظهر ابنتى أو أختى أو غيرهما من المحارم فإنه يكون مظاهرًا عند أكثر الفقهاء ، ومنهم من قال : لا ظهار إلّا بالتشبيه بظهر الأُم ، وهو مذهب قتادة والشعبى ؛ لأنه هو الذى قام عليه الحكم ، والأول هو المعتمد ؛ لأن تشبيه المظاهِرِ ظهر امرأته بظهر أمه ، هو تشبيه بظهر محرم ، فليكن مثله فى الحكم التشبيه بظهور كل المحارم .

قال القرطبي فى المسألة الثالثة : وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وسترا .

وفى الظهار صريحه وكنايته آراء شتى ، فارجع إليها إن شئت فى موسوعات التفسير أو الفقه .

والظهار يكون فى كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها ، على أن يكون صادرًا من كل زوج يجوز طلاقه .

والمعنى الإجمالى للآية : المؤمنون الذين يقولون لنسائهم : أنت علىَّ كظهر أمى مخطئون[1] ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة ، فهو كذب لا يليق بالمؤمنين أن يقولوه ، ما أمهاتهم على الحقيقة إلَّا اللَّائى ولَدْنَهم ، فلا تشبه نساؤهم بهن ، وإنما يشبه بهن المرضعات[2] وزوجات الرسول – كما جاء فى الكتاب والسنة – وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا التشبيه منكرًا فى الشرع والعقل والطبع ، وزورًا – أى : وكذبًا باطلًا – وإن الله لعظيم العفو والغفران للتائبين وغيرهم فإنه تعالى واسع المغفرة .

ويفهم من الآية أنه حرام ، بل قال بعضهم : إنه من الكبائر ؛ لأنه إقدام على تبديل حكم الله بغير إذنه ، ولهذا أوجب الله فيه الكفارة العظمى .

(وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾)

(١) على أن خبر المبتدأ محذوف ، ويصح أن تكون الجملة التى بعده خبره .

(٢) أى : فى الحرمة والكرامة ، أما الزوجات فأبعد شىء عن الأمومة ، فلا يشبهن بهن .

المفـــردات :

(يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) قال الفراء : اللام فى قوله : (لِمَا قَالُواْ) بمعنى عَنْ ، أى : يرجعون عمَّا قالوه ، ويريدون وطء نسائهم بعد أن حرَّموه على أنفسهم .

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : فعليه إعتاق رقبة .

(مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) أى : من قبل أن يجامعها .

(ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أى : ذلك التغليظ فى الكفارة لكى تعملوا بشرائع الله التى شرعها لكم ، فلاتعودوا إلى الظهار الذى هو من شرائع الجاهلية .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) أى : أحكامه التى حددها فلايحل تركها .

التفســـير

٣ - (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بين الله فى الآية السابقة الحكم الإجمالى للظهار ، وهو أنه منكر وزور ، وجاءت هذه الآية وما بعدها بيانًا لحكمه تفصيلًا شاملًا لظهار أوس زوج خولة التى حاورت الرسول ﷺ بشأنه ، ولظهار غيره من الأزواج .

وقد بينت الآية أن المظاهر الذى يعود لما قال فى امرأته ، فعليه تحرير رقبة من قبل أن يمسها بالوطء ، والعود لِمَا قاله ؛ رجوعه عن تحريمها على نفسه كأُمه ، إلى الرغبة فى وطئها الذى حرَّمه على نفسه ، فاللَّام فيه بمعنى : عن ، كما قاله الفراء ، أى : يعود ويرجع عن تحريمها إلى الرغبة فى وطئها .

وقد جاء فى الآية أنه لايحل له وطؤها حتى يكفر عن ظهاره بتحرير رقبة ، أى : إعتاق رقيق كامل الرق ؛ ليصبح بهذا الإعتاق حرًّا بعد عبوديته ، يتصرف تصرف الأحرار ، لاتصرف العبيد ، ولا بد فى هذا الرقيق أن يكون سليمًا من العيوب - ذكرًا كان أو أنثى - ويجب أن يكون مسلمًا عند مالك والشافعى كما فى كفارة القتل ، وعند أبى حنيفة :

يجزئ الكافر ومن فيه شائبة رِقٍّ كالمكاتب ، فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزئ عند المالكية والحنفية ، وقال الشافعى : يجزئ ؛ لأن نصفى العبدين فى معنى العبد الواحد ، ولكل دليله .

وقد أوجب الله فى هذه الآية أن يكون الإعتاق قبل أن يجامعها ، فإن جامعها قبل التكفير أَثِمَ وعَصَى ولا يسقط عنه التكفير ، بل يأتى به قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها ، سواء أكانت الكفارة بالعتق أم بالصوم أم بالإطعام .

أما مسُّها بغير الوطء قبل الكفارة كالقُبْلَة والمباشرة بغير وطء فلا يحرم عند أكثر العلماء ، وقيل : ذلك وما أشبههن من أنواع المسيس حرام قبل أن يكفر ، وبه قال مالك وهو أحد قولين عند الشافعى ، وهو الظاهر ؛ لأن مثل ذلك يؤدى إلى الوطء قبل التكفير [١] .

والمعنى الإجمالى للآية : والرجال الذين يظاهرون من نسائهم ثم يرجعون عما قالوه من تحريم وطئهن كالأُمهات إلى الرغبة فى وطئهن ، فعلى كل واحد منهم إعتاق عبد أو أمة إعتاقًا كاملًا قبل أن يجامع زوجته أو يستمتع بها عند بعضهم ، ذلكم تؤمرون به ، والله بما تعملون خبير ، فيعفو عمن كفَّر قبل المسيس ، ويعاقب من مسَّ قبل الكفارة .

٤ - (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أفادت هذه الآية الكريمة أن الكفارة مرتبة ، فلا ينتقل إلى الصوم من قدر على العتق ، ولا إلى الإطعام من قدر على الصيام ، وتفصيل ذلك ما يلى :

١ - من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكًا لها لكنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكًا لثمنها إلَّا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن وليس له غيره حتى يبيعه

---

(١) فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، واعلم أنه لا ظهار للمرأة من الرجل - كما قاله الشافعى ، وقال الأوزاعى : هو يمين تكفرها ، وقال الزهرى : لا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها - انظر المسألة الثانية عشرة من القرطبى .

ويشترى الرقبة بثمنه ، فله أن يصوم شهرين متتابعين عند الشافعى ، وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجًا إلى ذلك .

٢ - الكفارة الثانية للظهار أن يصوم شهرين إن عجز عن الإعتاق بأى وجه مما تقدم ويجب أن يكون صيامهما متتابعًا ، فإن أفطر فى أثنائهما لغير عذر استأنفهما ، فإن كان الفطر لعذر كسفر ومرض ، فقيل : يبنى على ما صامه - وهو الصحيح الذى قال به أكثر الأئمة ، وقال أبو حنيفة : يبتدئ . وهو أحد رأيى الشافعية .

٣ - إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة ، أتمَّ الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى : وقال أبو حنيفة وأصحابه : يقطع الصيام ويعتق الرقبة .

٤ - إذا وطئ المظاهر نهارًا فى أثناء صومه بطل التتابع وعليه أن يستأنف ، فإن كان ليلًا فلا يستأنف؛ لأن الليل ليس محلاً للصوم ، وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل وعليه الاستئناف ؛ لأنه وطئ قبل الكفارة لقوله تعالى : (مِن قَبْلِ أن يَتَمَآسَّا) .

٥ - من لم يقدر على الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينًا إطعامًا مُشبعاً ، وذهب الشافعى وغيره إلى أنه مد واحد لكل مسكين .

وفى الظهار أحكام فرعية كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إلى موسوعات التفسير أو الفقه .

والمعنى الإجمالى للآية : فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا ليعتقه ؛ لأنه قد لا توجد عبيد أو كانت موجودة ولا قدرة له على ثمن العبد ، أو له قدرة على ثمنه لكنه يحتاج إليه لخدمته أو نحوها مما سبق بيانه - فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا يعتقه على النحو السابق فعليه قبل أن يمس امرأته أن يصوم ستين يومًا متتابعة ، فإن أفطر فى بعضها لغير عذر استأنف ، فإن كان لا يقدر على الصيام شهرين متتابعين ، فعليه أن يطعم ستين مسكينًا إطعامًا مشبعًا ، ذلك البيان المفصل لكى تؤمنوا بالله ورسوله بتنفيذه ، وتلك الأحكام هى حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل ، فالزموها وقفوا عندها ، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يعملون بها عذابٌ شديد الإيلام .

وإطلاق لفظ الكافرين على من يتعدون حدود الله لزجرهم والتغليظ عليهم ، ونظيره قوله - تعالى - : « وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »[1] .

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يُحَادُّونَ) : يعادون ويشاقون .

(كُبِتُوا) : أهلكوا أو أخزوا .

(عَذَابٌ مُّهِينٌ) : مذهب ومزيل لعزهم وكبرهم .

التفسير

٥ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

لَمَّا ذكر الله المؤمنين الواقفين عند حدوده ، عقبهم بذكر المحادين المخالفين لها ، قال القرطبي : والمحادة : المعاداة والمخالفة فى الحد ، وقال الزجاج : المحادة : أن تكون فى حد يخالف حد صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب . اهـ .

(١) سورة آل عمران من الآية ٩٧

وقال الآلوسى نقلًا عن ناصر الدين البيضاوى فى تفسير (يُحَآدُّونَ اللهَ) يضعون ، أو يختارون حدودًا غير حدود الله – تعالى – ورسوله ﷺ ، ثم قال نقلًا عن شيخ الإسلام سعد الله جلبى : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم لمن وضعوا أمورًا خلاف ما حدده الشرع وسموها قانونًا ، والله – تعالى – المستعان على ما تصفون . انتهى بتصرف يسير .

ثم قال الآلوسى : إنه لا شبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق الآراء من أهل الحل والعقد ، على وجه يحسن به الانتظام ، ويصلح أمر الخاص والعام ، ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاصٍ وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فى ذلك لرأى الإمام ، فليس ذلك من المحادة لله – تعالى – ورسوله ﷺ فى شىء ، بل فيه استيفاء حقه – تعالى – على أتم وجه ، لِمَا فيه من الزجر عن المعاصى وهو أمر مهم للشارع – عليه الصلاة والسلام – ثم قال : وفى كتاب الخراج للإمام أبى يوسف – عليه الرحمة – وإشارة إلى ذلك ، ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله – تعالى – : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » ، لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكم الله – تعالى – خصوصًا أو عمومًا ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين ، إذا قال بشىء لم يكن منصوصًا عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه ، نعم القانون الذى يكون وراء ذلك ، بأن كان مصادمًا لما نطقت به الشريعة الغراء ، زائغًا عن سنن المحجة البيضاء ، فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف ... إلخ .

والآية عند الأكثرين أشارت إلى ما كان يوم الخندق ، ولكن حكمها عام ، يتناول أهل الخندق وكل من يعارض أحكام الله – تعالى – ويعاديها ، ويؤثر عليها قوانين من وضع البشر مخالفة للنصوص الشرعية ، ما لم تكن تلك القوانين فيما لم يرد فيه حكم الله تعالى ، ويدل لجواز وضع القوانين فيما لم تنص عليه الشريعة أنه ﷺ بعث معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا وأميرًا وجامعًا للزكاة ، فقال له : « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : بما فى كتاب الله ، قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : « فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيى لا آلو –

أى : لا أقصر ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لِمَا يرضى رسول الله » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين يعادون الله فلا يعملون بحدوده وأحكامه ، وبما جاء به رسوله ﷺ ويرفضونها أو يضعون أحكامًا مخالفة لنصوص الشريعة تفضيلًا لها عليها ، أخزاهم الله ولعنهم كما فعل بالذين من قبلهم ، وهم الذين عارضوا رسل الله السابقين ورفضوا حدود الله وشرائعه التى أنزلها إليهم ، وقد أنزلنا آيات واضحاتِ الحجة بيناتِ المحجة ، وللكافرين بتلك الآيات أو بكل ما يجب الإيمان به عذابٌ يهينهم ويذلهم .

٦ ـ (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

أى : اذكر لهم أيها الرسول تعظيمًا ليوم الحساب ـ اذكر لهم ـ يوم يبعثهم الله جميعًا رجالًا ونساء ، ويحشرهم إلى ساحة القيامة ، فينبئهم بما عملوا فى الدنيا من الآثام والمعاصى ، وفى جملتها معاداة شريعة الله ـ ينبئهم بما عملوه ـ بيانًا أو تصويرًا لها بالصورة اللائقة بها على رءوس الأشهاد تخجيلًا وتشهيرًا بحالهم ، زيادة فى خزيهم ونكالهم أحصى الله ما عملوه عددًا ولم يفته منه شىء علمًا وكتابة فى صحف أعمالهم ونسوه لكثرته وتهاونهم به حتى ذكرهم به الله ؛ ليكون أبلغ فى الحجة عليهم ، والله على كل شىء مطلع وناظر ، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾)

المفردات :

(نَجْوَىٰ) النجوى : التناجي ، وهو المسارَّة .

(لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ) : هلَّا يعذبنا الله بسبب ما نقول .

(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) : كافيهم جهنم عقابًا لهم فى الآخرة .

التفسير

٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[١] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

---

(١) نجوى فاعل (يكون) التامة ، و(من) زائدة ، و(إلا) أداة استثناء ملغاة لا عمل لها ، وجملة (هو رابعهم) استثناء من أعم الأحوال .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى قوم من المنافقين واليهود كانوا يتناجون بما يسىءُ المسلمين فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ، وقال مجاهد : نزلت فى اليهود ، والنجوى : مصدر بمعنى التناجى ، وقال القرطبى نقلا عن غيره : كل سِرَارٍ نجوى ، وقيل : النجوى يكون من خلوة ثلاثة يُسِرُّون شيئًا يتناجون به ، والسِّرار ما يكون بين اثنين[1] .

والمعنى : ألم تعلم أيها الرسول أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، من عناصرهما وما استقر فيهما ، حتى المناجاة - أى : المسارَّة - فإنه يعلمها ويعلم المتسارِّين بها ، ما يكون من مسارة بين ثلاثة إلَّا الله رابعهم بعلمه لا بحلوله معهم فى مكانهم ، فإنه - تعالى - لا يحل فى مكان ولا يمر عليه زمان ، وكل من الزمان والمكان من خلقه - تعالى - وما يكون من مسارَّة بين خمسة إلَّا الله سادسهم بعلمه ، ولا أقل من ذلك كالاثنين والأربعة ، ولا أكثر منه كالستة وما فوقها ، إلَّا هو معهم بعلمه ، فلا يخفى على الله من نجواهم شىءٌ حيثما كانوا فى ظاهر الأرض أو باطنها ، فإن علمه - تعالى - لا يتفاوت باختلاف الأماكن قربًا وبعدًا ، ثم يخبرهم بما عملوا يوم القيامة تشهيرًا بما عملوا من هذه المسارَّة الخبيثة وسواها ، وإظهارا لموجب عذابهم ، وأن الله مطلع على كل شىء فلا تخفى عليه خافية ، وهذه الآية تؤكد ما جاء قبلها من أنه - تعالى - يعلم الذين يحادون الله ورسوله ، ويضعون أحكامًا مخالفة لشرعه ، وأنه - تعالى - سوف ينبئهم بما عملوه ، ويجزيهم عليه ، وخلاصة الآية أنه - تعالى - محيطٌ بكل كلام ، ومن ذلك أنه سمع مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها ، فإن قلت : لماذا اقتصر الله على الثلاثة والخمسة ؟ فالجواب كما قال الفراءُ : المعنى غير مصمود[2] والعدد غير مقصود ؛ لأنه - تعالى - إنما قصد - وهو أعلم - أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض[3] .

---

(١) وقال الراغب : النجوى أصله مصدر كما هنا ، وقد يوصف به فيقال : هو نجوى وهم نجوى . قال - تعالى - : « وإذ هم نجوى » وعليه يحتمل أن يكون من باب زيد عدل : اهـ ، يريد أنه على المبالغة كزيد عدل .

(٢) أى : غير مقصود . (٣) نقله القرطبى .

٨ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ :

صح من رواية البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - أن أناسًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السّام عليك يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : وعليكم . قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ، وفى رواية : عليكم السام والذام واللعنة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : يا عائشة : إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ، فقال : يا عائشة أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ فأنزل الله - تعالى - ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ ... ﴾ الآية .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن الآية فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى تقدم أقاربهم ، فلما كثر ذلك شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين ، فعادوا لمثل ذلك فنزلت الآية ، فمن حديث عائشة عرفنا أن النجوى كانت من اليهود ، وأن الآية نزلت بسبب سوء تحيتهم للنبى ﷺ ، ومن كلام ابن عباس عرفنا أن المنافقين كانوا يتناجون بالصورة التى رواها ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان اليهود حلفاءهم قبل الإسلام ، وعنهم أخذوا بغض الإسلام والمسلمين .

ومعنى الآية : ألم[1] تعلم - أيها الرسول - ما فعله أولئك الذين نهيتهم عن المسارة فيما بينهم فى شأنك وشأن المؤمنين ، ثم يعودون لمـا نهوا عنه ويتسارون بالإثم والعدوان عليكم ، وبمعصية الرسول ﷺ حيث لم ينتهوا عمّا نهوا عنه ، وإذا جاءوك لأمر من الأمور حيوك بما لم يحيك به الله ، فقالوا : السام عليك - والسام : الموت - وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال : السام عليكم - فردَّ عليه النبى ﷺ

(١) الهمزة للتعجب .

وقال : « أتدرون ما قال هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : كذا رُدُّوه عليَّ ، فَرَدُّوه قال : « قلتَ السام عليكم ؟ » قال : نعم ، فقال النبي ﷺ عند ذلك : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : عليك ما قلت » .

وقال الله – سبحانه – : (حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ) ؛ لأن الله يحييه بالسلام فى مثل قوله – تعالى – : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » ، وقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » وبما جاء فى التشهد : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » والتعبير بذلك للإيذان بشناعة ما قاله اليهود لمن اصطفاه الله للرسالة وسلَّم عليه ، ويقول هؤلاء اليهود : لو كان محمد نبيًّا لعذبنا الله بما نقول فهلَّا يعذبنا ، وقد فات هؤلاء الجاهلين أن الله – تعالى – يعصى بكل المعاصى ومنها الكفر به ولا يعذب أولئك العصاة عذابًا عاجلًا ولا يقطع عنهم الرزق ، وكم من نبى أسىء إليه من قومه ، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة ، وهذا مقرر ومعروف لديهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) عذابًا يدخلونها ويصطلون بها (فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) جهنم ، فهى شر وأشد من عذاب الدنيا ، وصدق الله – تعالى – إذ يقول : « وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ »[1] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤٢

المفـردات :

(تَنَاجَيْتُمْ) : تساررتم .

(وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ) : وتساروا بالخير وتقوى الله تعالى .

(إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ) : إنما المسارة بالمساءة ، مصدرها والحامل عليها الشيطان .

(وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : وليس الشيطان أو التناجى بالسوء بضار المؤمنين بنفسه ، بل بإرادة الله .

(وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) : فليعتمدوا على الله ، ويتركوا أمرهم إليه ، فإنه يحفظهم من كل سوء لم يكتبه عليهم .

التفســـير

٩ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْاْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

هذه الآية للنهى عن المسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، والخطاب فيها يجوز أن يكون للمؤمنين المخلصين تعريضًا بالمنافقين ، وكأنه قيل : يا أيها المؤمنون المخلصون فى إيمانهم لاتفعلوا مثل المنافقين واليهود فى تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ وتناجوا فيما بينكم بما يتضمن خيرًا للمؤمنين ، ويقيكم إثم معصية الرسول ﷺ فإن ذلك هو اللائق بصدق إيمانكم .

ويجوز أن يكون الخطاب للمنافقين ، وإطلاق لفظ المؤمنين عليهم باعتبار ظاهر حالهم ، ومسايرة لهم فى زعمهم .

وقيل : إنه خطاب لليهود ، والمقصود من وصفهم بالإيمان إيمانهم بموسى ـ عليه السلام ـ كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ »[1] ، وقد ختم الله الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

---

(١) سورة الحديد من الآية ٢٨

أى : وخافوا الله الذى إليه وحده تحشرون بعد بعثه لكم من قبوركم ، لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا .

١٠ - (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

أى : إنما التناجى والمسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ من الشيطان ، فهو المتسبب فيها والحامل عليها ؛ ليدخل الحزن فى قلوب المؤمنين ، وليس الشيطان أو التناجى بالإثم والعدوان بضارهم شيئًا من الضرر إلّا بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وذلك بأن يقضى بالموت أو الغلبة على أقاربهم ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون فلا تكترثوا بتناجيهم ، ولتتوكلوا على الله ولا تحزنوا فلا يقع فى ملكه إلّا مايريد ، والمقصود من الآية إزالة خوف المؤمنين من تناجى أعدائهم .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه » ، وعلق عليه الآلوسى فقال : ومثل التناجى فى ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان ذلك يحزنه .

وعلق عليه القرطبى بقوله : يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ، ولا عشرة ولا ألف - مثلًا - لوجود هذا المعنى فى حقه ، بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون التناجى دون هذا الواحد بالمنع أولى ، وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك فيه ، وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور ، وسواءٌ كان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب ، فإن الحزن يقع به ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين ، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . ا هـ .

ورأى الجمهور أرجح من ذلك .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١))

المفـردات :

(تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ) : تَوَسَّعوا فى أماكن الجلوس .

(فَافْسَحُواْ) : فتوسعوا .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ) أى : وإذا قيل انهضوا للتوسعة على المقبلين فانهضوا .

التفسـير

١١ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

لَمَّا نهى الله فيما سبق عما هو سبب للتنافر والتباغض ، أمر فى هذه الآية بما هو سبب للمودة والوفاق ، وهو أن يتفسحوا فى المجالس فى المسجد أو غيره لمن يقول لهم[1] : تفسحوا

(١) التفسح : تفعل من الفسح وهو التوسعة ، يقال : فسح فلان لأخيه فى مجلسه يفسح فسحاً أى : وسع له ، وبابه منع ، ومنه قولهم : بلد فسيح ، ولك فى كذا فسحة ، أما فسح ـ بضم السين ـ فهو من باب كرم ، تقول : فسح المكان : أى ، صار واسعاً .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا قال لكم قائل منكم : توسعوا فى المجالس فى المسجد أو غيره فاستجيبوا له وليفسح بعضكم عن بعض فى المجالس ، ولا تتضاموا فيها لمنعه من الجلوس بينكم ، فإذا أفسحتم له يفسح الله لكم فى رحمته أو فى منازلكم فى الجنة أو فى قبوركم أو فى صدوركم أو فى رزقكم ، وقال بعضهم : المراد يفسح الله – سبحانه – لكم فى كل ما تريدون الفسح فيه مما ذكر أو غيره .

قال القرطبي : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير ، والأجر ، سواء أكان مجلس حرب أم ذكر أم مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه فلا يقام منه كرهًا ، بل يستأذن فى التوسعة ، قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يُسْبَق إليه فهو أحق به »[1] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه ، روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه الذى يجلس فيه » ، وعنه عن النبى ﷺ : « أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » ، وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه » واللفظ للبخارى .

والأكثرون قالوا : إن الآية نزلت لما كان عليه المؤمنون من التَّضَامِّ فى مجلسه ﷺ ، والضِّنة بالقرب منه وترك التفسح لمقبل ، قال الآلوسى : وأيًّا ما كان فالحكم مطرد فى مجالسه ﷺ ومصاف القتال وغيرها .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ[2] فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

والمعنى كما قال القرطبي : وإذا قيل لكم : انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، فانهضوا ولا تتباطئوا ، وقال ابن زيد : هذا فى بيت رسول الله ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى ﷺ فقال – تعالى – : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ) عن النبى ﷺ فَانشُزُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا .

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الخراج والإمارة والفىء » ج ٣ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ فقد ورد الحديث برقم ٣٠٧١ بنحوه .

(٢) أمر من النشز وهو الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها .

وذكر الله أجر من امتثل فى قوله – تعالى –: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) وهذه الدرجات إما أن تكون للذين أوتوا العلم ، وتنكير هذه الدرجات يؤذن بتعظيمها ، وإما أن تكون لجميع المؤمنين وفيهم الذين أوتوا العلم ، وعطفهم على الذين آمنوا من عطف الخاص على العام تعظيمًا لهم كأنهم جنس آخر ، ولذلك أعيد لفظ الموصول معهم .

أخرج الترمذى وأبو داود والدارمى عن أبى الدرداء مرفوعًا : « فَضلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب » – « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَابِ »[1] .

ورفعهم درجات يكون فى ثواب الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على غير المؤمن ، ويرفع العالم على من ليس بعالم .

وختم الله الآية بقوله : (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فيجزى من يعمل بهذه الآية خير الجزاء ويعاقب من لم يمتثل بما يناسبه من عقاب .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾)

(١) سورة الزمر من الآية ٩

المفردات :

(نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ) : ساررتموه .

(بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ) : قبل نجواكم ، وفى هذا التعبير استعارة تمثيلية أو مكنية ، والنجوى : المسارة .

(ءَأَشْفَقْتُمْ) : أخِفتم ، أو شق عليكم .

(وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) : قبل توبتكم ، أو رفع عنكم التكليف بتقديمها .

التفسير

١٢- (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ذكر الآلوسى فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس وقتادة ،أن قومًا من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ﷺ فى غير حاجة إلّا لتظهر منزلتهم ، وكان ﷺ سَمْحًا لا يرد أحدًا ، فنزلت هذه الآية .

وعن مقاتل أن الأغنياء كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت . قال الآلوسى تعليقًا على نزول هذه الآية : وفى هذا الأمر تعظيم للرسول ﷺ ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، ودفع للتكاثر عليه من غير حاجة مهمة .

وقال زيد بن أسلم : لَمَّا نزلت هذه الآية انتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى ، لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بما نزل بعد الآية .

وهذه الصدقة كان من مقاصدها نفع الفقراء ، فإنها طلبت لتعطى لهم ، فإنه ﷺ كان لا يأكل من الصدقة ، ولم يعين فى الآية مقدارها ؛ ليجزئ القليل والكثير منها ، وقد نسخ العمل بها كما سيأتى بيانه فى الآية التالية .

قال القرطبى : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة ، ثم قال : وذكر القشيرى وغيره عن على بن أبى طالب أنه قال : آية فى كتاب الله ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهى : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً) كان لى دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نَفِد ، فنسخت بالآية الأُخرى : (أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ) ، وقال ابن عباس أيضاً : نسخها الله بالآية التى بعدها ، وقال ابن عمر :

لقد كانت لعلى بن أبى طالب ثلاث ، لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىَّ من حُمر النَّعَم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إذا ساررتم الرسول ﷺ فقدموا قبل هذه المسارة والمناجاة صدقة تصرف على فقرائكم ذلك خير لكم وأطهر لقلوبكم ، فإنه يعودها على حب البذل فى الخير ، كما أن فيه إعداد النفس لمزيد التلقى من رسول الله ﷺ فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله غفور رحيم لمن ناجاه ولم يتصدق قبل المناجاة لفقره .

١٣ ـ (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

أى : أخفتم الفقر بسبب أن تقدموا قبل نجواكم صدقات[1] أو أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه[2] فإذ[3] لم تفعلوا ما أُمرتم به من تقديمها قبل المناجاة وتاب الله عليكم من كثرة المناجاة للرسول ﷺ من غير ضرورة ، حيث عدلتم عنها بعد تكليفكم بتقديم الصدقة قبلها ، والتزمتم القصد فيها والتخفيف فيها ، فتحقَّقَ الغرض

(١) وعلى هذا فالمفعول محذوف وهو لفظ الفقر ، وأن تقدموا القليل لهذا الخوف ، بتقدير باء السببية أو لفظ على قبل أن تقدموا .

(٢) وعلى هذا يكون لفظ : (أن تقدموا ... إلخ) هو المفعول به لأشفق .

(٣) لفظ (إذ) فى قوله ـ تعالى ـ : (فإذ لم تفعلوا) ظرف للزمان الماضى .

الأول من تكليفكم بها ، وهو زيادة احترامكم لرسوله ، وعدم إرهاقه بكثرة المناجاة له - فإذا لم تفعلوا تقديم الصدقة ، وقبل الله توبتكم بالتزامكم القصد فى مناجاته ، فقد رفعنا عنكم تقديمها قبل المناجاة ، ونسخنا تكليفكم بها ، فالتزموا المثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فهما ركنان هامان من أركان الإسلام ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما أمركم به ، ومنها ما تقدم فى قوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ) الآية والله خبير بما تعملونه ظاهرًا أو خفيًّا ، فيجازيكم بما يتناسب مع أعمالكم ،والتعبير بلفظ (صدقات) بالجمع ، مع أن المطلوب صدقة واحدة قبل المناجاة ؛ لأن الخوف لم يكن من تقديم صدقة واحدة ، بل من تكرار تقديم الصدقة فى كل مناجاة ، ولأن جمع الصدقة فى مقابل جمع المشفقين ، يقتضى القسمة آحادًا .

وفى قوله تعالى : (وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ) إشعار بأنه - سبحانه - قد عذرهم ورخص لهم فى ألا يقدموا صدقة .

سؤال هام وجوابه :

فإن قيل : أليس الله بأعلم بأنهم لن يتصدقوا ، فما معنى تكليفهم بها ثم تغيير هذا الحكم؟ فالجواب : أنه لما حصل المراد من تكليفهم بها ، وهو توفير وقت الرسول ﷺ وعدم إرهاقه بالمناجاة الشخصية التى لا يشترك فيها المسلمون ، لم تعد هناك حاجة لبقاء التكليف بها ، وحسبهم عنها الزكاة التى أوجبها الله على الموسرين منهم ، فهى تأديب فى ثوب بر ، فحيث حصل الأدب من غير تقديمها فلا داعى لبقائها ، ففى الزكاة كفاية عنها .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(تَوَلَّوْاْ قَوْمًا) أى : وَالَوْهُمْ من الموالاة والمناصحة . والمراد : موالاة المنافقين لليهود .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ) : وهو قولهم : والله إنا لمسلمون .

(اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها سترًا ووقاية ؛ ليخلصوا عن المؤاخذة .

(فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ) : وذلك بتثبيط مَنْ لقوهم عن الدخول فى الإسلام .

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) أى : استولى عليهم وتحكم فى أمورهم .

التفســـير

١٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

شروع فى إنكار موالاة المنافقين لليهود ، وتعجيب من حالهم وهو خطاب للرسول ﷺ وإلى كل من يتأتى منه النظر .

والمعنى : ألم تنظر أيها الرسول إلى حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ،فإن حالهم ليدعو إلى العجب ، حيث إنهم يوالون قوما غضب الله عليهم وهم اليهود (مَّا هُم مِّنكُمْ) معشر المؤمنين (وَلَا مِنْهُمْ) أى : من القوم المغضوب عليهم ؛ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك كما قال تعالى : « مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ »[1] وجملة (مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) مستأنفة أو حال من فاعل تولوا .

وجوز ابن عطية أن يكون هم فى (مَّا هُم مِّنكُمْ) لليهود ،وضمير (وَلَا مِنْهُمْ) للمنافقين وعلى ذلك يكون المعنى :ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم أى : القوم المغضوب عليهم منكم ولا من المنافقين الذين تولوهم فيكون فعل المنافقين على هذا أخس ،لأنهم تولوا قومًا مغضوبًا عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذِمَامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صوابًا .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أى : ويحلف المنافقون على الكذب وهو قولهم : والله إنا لمسلمون ،أو على أنهم ماشتموا النبى ﷺ على ماروى أنه كان جالسًا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه. فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق فقال - عليه الصلاة والسلام - حين رآه :علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فقال : ذرنى آتك بهم . فانطلق فدعاهم فحلفوا فنزلت ، خرجه الإمام أحمد وغيره .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٤٣

حلف المنافقون على ذلك (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه ، وفى ذلك إشارة إلى عظيم شناعة ما فعلوا ، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح .

١٥ - (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) :

أى : أنه - سبحانه - أعد للمنافقين نوعًا شديدًا من العذاب متفاقمًا ، بسبب سوء صنيعهم الذى اقترفوه بموالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم . وقد بلغوا فى الإساءة إليهم أقصى ما تعودوا الإتيان به ، وتمرنوا عليه من فساد وإفساد منذ الأزمان الماضية المتطاولة التى كانوا فيها يعيثون فى الأرض الفساد .

١٦ - (اتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

المعنى : أن اتخاذهم لأيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً وسترًا حتى تسلم دماؤهم وأموالهم إذا ما افتضح وانكشف أمرهم هو عبارة عن إعدادهم لتلك الأيمان ، وتهيئتهم إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ، ويتخلصوا من المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة وبما ذكر وضح أن المراد من قوله - تعالى - : (اتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها .

أما فى قراءة الحسن (اتَّخَذُوٓا۟ إِيمَانَهُمْ) بكسر الهمزة ، فالاتخاذ عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل : تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم بالقتل وأموالهم بالغنيمة وذراريهم بالسبى (فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ اللهِ) أى : فصد المنافقون الناس عن سبيل الله فى خلال أمنهم بتثبيط من لقوا منهم عن الدخول فى الإسلام وتهوين أمر المسلمين عندهم ، أو قصد : ومنع المنافقون المسلمين عن سبيل الله فيهم وهو قتلهم لكفرهم ونفاقهم . هذا هو سبيل الله فيهم . ثم ختمت الآية بوعيد ثان ووصف آخر لعذابهم الذى وصف أولًا بأنه شديد فى قوله - تعالى - : « أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » لبيان أن العذاب بوصفيه الشديد والمهين بلغ الغاية فى الشدة والإهانة حتى حق عليهم قوله - تعالى - : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »[1] ، وقيل : الأول لعذاب القبر والثانى للآخرة

---

(١) سورة النساء ، من الآية ١٤٥

١٧–(لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى : لن تدفع عنهم عذابَ الله أموالهم مهما بلغت ، ولا أولادهم مهما كانت معونتهم ، فلا تغنى عنهم أى غناء قليلًا كان أو كثيرًا ، وليس المراد خصوص الأموال والأولاد ، بل كل ما يعتبره الإنسان من دواعى القوة والمنعة . وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ؛ لأن الإنسان فى الغالب تارة ما يدفع عن نفسه بالفداء ، وأخرى بالأولاد (أُوْلَـٰئِكَ) المنافقون الموصوفون بما ذكر (أَصْحَابُ النَّارِ) الملازمون لها (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى : المخلدون فيها لا يخرجون منها أبد الآبدين . روى أن رجلًا منهم قال : لَنُنْصَرُنَّ يوم القيامة بأنفسنا ، وأموالنا وأولادنا فنزلت الآية .

١٨ –(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : حين يبعثهم الله جميعًا من قبورهم ويساقون للقاء ربهم فيحلفون له – سبحانه – حينئذ بأنهم مسلمون حيث قالوا : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما يحلفون لكم فى الدنيا ، ويظنون أنهم بتلك الأيمان الفاجرة على شىء من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا إذ كانوا يدفعون عن أموالهم الغنيمة ، وعن أرواحهم القتل ، وعن ذراريهم السبى بمثل تلك الأيمان الفاجرة . ويأملون بها فوائد دنيوية (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) البالغون الغاية فى الكذب التى لا مطمح بعدها لكاذب ، حيث استوت حالهم فيه فى الدنيا والآخرة بتجاسرهم على علام الغيوب الذى يعلم السر وأخفى . وزعموا أن أيمانهم تجعل الكذب مقبولًا لديه – عَزَّ وَجَلَّ – كما تجعله مقبولًا لدى المؤمنين الذين لا يعلمون إلّا ظاهر القول ، أما كُنْهُهُ وحقيقة أمره فعلمه عند الله .

١٩ –(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى : استولى عليهم وتمكن من عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه فأنساهم بذلك ذكر الله ، قال الكرمانى : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ،

ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبُهْتَان ، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها (أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى : الموصوفون بما ذكر من القبائح والتمادى فى العصيان (حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى : جنوده وأتباعه (أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى : البالغون فى الخسران أقصاه حيث إنهم بسوء صنيعهم فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واختاروا بدله الشقاء الدائم ، والعذاب الأليم .

وفى اشتمال الجملة على حرفى التنبيه والتأكيد وضمير الفصل وغير ذلك من فنون التوكيد ما لا يخفى .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : أى : يعادونهما ويخالفون أمرهما .

(أُوْلَٰٓئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) : أى : فى جملة من هم أذل خلق الله .

(كَتَبَ اللهُ) أى : أثبته وأوجبه .

(أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) : العشيرة هى : القبيلة ولا واحد لها من لفظها ، والجمع : عشيرات وعشائر اهـ . مصباح .

التفسير

٢٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) :

استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان ، والتعبير بالموصول ذمًّا لهم بما فى حيز الصِّلة وإشعارا بعلية الحكم .

والمعنى : أولئك الموصوفون بما ذكر من التولى والموادة للقوم المغضوب عليهم هم فى جملة من جعله الله أذل خلقه من الأولين والآخرين ؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر . وحيث كانت عِزَّة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك .

٢١ - (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) :

استئناف وارد لتعليل كونهم فى الأذلين .

والمعنى : قضى الله وأثبت فى اللوح المحفوظ ، وحيث جرى (كَتَبَ اللهُ) مجرى القسم أجيب عنه بما أجيب به القسم فقيل : (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى) أى : بالحجة والعَدَد والعُدَّة ، ونظيره قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] ويكفى فى الغلبة تحققها للرسل - عليهم السلام - فى أزمنتهم غالبا ؛ فقد أهلك الله الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم . وبذلك تحققت الغلبة لرسله ، كما تحققت للرسول ﷺ لأن العاقبة كانت له بعد حرب استمرت بينه وبين أعدائه ، وكذا لأتباع الرسل بعدهم . وذلك إذا كان جهادهم أعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم بأن يكون خالصا لوجه الله - عزَّ وجلَّ - لا لطلب ملك وسلطنة ، وأغراض دنيوية . ولن تجد مجاهدا كذلك إلَّا منصورا غالبا . وخص بعضهم

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ - ١٧٣

الغلبة فى الآية بالحجة لاطرادها وهو خلاف الظاهر كما قال الآلوسى ،ويبعده سبب النزول ، فعن مقاتل : لَمَّا فتح الله – تعالى – مكة والطائف وخيبر وما حولها للمؤمنين قالوا : نرجو أن يظهرنا الله –تعالى– على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أُبى : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظهروا عليهم فنزلت الآية (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) ينصر رسله وأولياءه بقوته القاهرة ، وعزته البالغة : فلا يغلبه على مراده كائن كيفما كان .

٢٢ – (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

الخطاب فى الآية للرسول أو لكل من هو أهل للخطاب .

والمعنى : من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوادون من عادى الله ورسوله وذلك بأن يجمعوا بين الإيمان وموادة من عادى الله ورسوله .

وهو المراد بنفى الوُجْدان ، على معنى أنه لا ينبغى أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن قصده وجَدَّ فى طلبه كُلُّ أحد ، وذلك مبالغة فى النهى عنه والزجر عن ملابسته والتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم .

وقيل : المراد لا تجد قومًا كاملى الإيمان على هذه الحال ، والنفى باق على حقيقته ، والمراد بموادة المحادين موالاتهم ومظاهرتهم ، والظاهر أن المراد بمن حاد الله ورسوله الكافر . وبعض الآثار تشير إلى شموله الفاسق . روى عن الثورى أنه قال : نزلت فيمن يصحب السلطان . وقال سهل : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس لمبتدع ولا يجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع لطلب عز الدنيا أو غناها أذلَّهُ الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعًا : «أوثق الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » ، ونعى الآلوسى على بعض المتسببين إلى بعض المتصوفة فقال : ومن العجب أن بعض المنتسبين إلى المتصوفة - وليس منهم ولا قلامة ظفر - يوالى الظلمة ، بل من لا علاقة له بالدين منهم ، وينصرهم بالباطل ، ويظهر من محبتهم ما يضيق عن شرحه صدر القرطاس اهـ

وقد زاد - سبحانه - النهى عن موادة من عادى الله ورسوله تأكيدًا بقوله : (وَلَوْ كَانُوٓاْ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) أى : ولو كان من حادّ الله ورسوله آباء الموادين أو أبناءهم أو إخوانهم أو من قبيلتهم التى ينتمون إليها ، ويستظلون بلوائها . وليس المراد بمن ذكر خصوصهم ، وإنما المراد الأقارب مطلقًا .

وقدم الآباء لوجوب طاعتهم على الأبناء ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، وثنى بالأبناء لقوة الارتباط فى الدنيا بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالإخوان ؛ لأنهم المناصرون لهم ، وختم بالعشيرة للاعتماد على أفراد القبيلة والتناصر بهم بعد الإخوان غالبًا (أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) إشارة إلى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله وإن كانوا أقرب الناس إليهم ، وأمسهم رحمًا بهم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله - تعالى - : (أُوْلَـٰٓئِكَ) للتنويه برفعة شأنهم ، وعلو قدرهم ، أولئك كتب الله وأثبت فى قلوبهم الإيمان ، ولَمَّا كان الشئ يراد أولًا ثم يقال ثم يكتب عبر عن المبدأ بالمنتهى وهو الكتابة للتأكيد والمبالغة فى اتصافهم به : (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) أى : قواهم بكتاب أنزله ، فيه حياة لهم وهو القرآن ، أو بروح من الإيمان على أنه فى نفسه روح ؛ لأن به حياة القلوب ، والمراد بالروح على هذا نور يقذفه الله فى قلب من يشاء . تحصل به الطمأنينة ، والعروج على معارج التحقيق .

وتسميته روحًا ؛ لأنه سبب الحياة الطيبة الأبدية .

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ذلك بيان لآثار رحمته - تعالى - الأخروية إثر بيان ألطافه الدنيوية حيث يدخلهم فى جنات باسقة الأشجار طيبة الثمار . تَتَخَلَّلُ أشجارها وتنساب بين قصورها أنهار جارية متدفقة تزيدها جمالًا وبهاء ، ماكثين فيها أبد الآبدين

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) استئناف جار مجرى التعليل لِمَا آتاهم الله من آثار رحمته التى أفاضها عليهم فى الدارين الدنيوية والأُخروية أى :قبل أعمالهم (وَرَضُواْ عَنْهُ) بيان لابتهاجهم الذى بدت آثاره عليهم بما أُوتوه عاجلًا وآجلًا . وقد شرفهم ـ سبحانه ـ بقوله : (أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ...) المختصون به ـ تعالى ـ وذلك تشريف لهم لا يعدله تشريفٌ ما .

(أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذا بيان لاختصاصهم بسعادة الدارين ،جاء بجملة مؤكدة تأْكيدا قويًّا كما سبق بيانه قريبا .

والآية قيل : نزلت فى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حُدّثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ وصكه أبوبكر صكة فسقط ،فذُكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال : نعم . قال : لا تعد . قال : والله لو كان السيف قريبًا منى لضربته . وفى رواية : لقتلته . فنزلت .

وقيل : نزلت فى أبى عبيدة بن عبد الله بن الجراح . أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وجماعة عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ، وقيل : نزلت فى مصعب بن عمير قتل أخاه يوم أحد ، وقيل : نزلت فى على كرم الله وجهه ، وحمزة وعبيدة ابن الحارث يوم بدر قتلوا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة ، وعلى أى حال فالحكم عام . وإن نزلت فى أناس بأَعيانهم كما لا يخفى .

سورة الحشر

مدنية وعدد آياتها أربع وعشرون
وتسمى سورة بني النضير كما قال ابن عباس

مناسبتها لما قبلها :

إن فى آخر تلك « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ، وفى أول هذه (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) ، وفى آخر السابقة ذكر من حاد الله ورسوله ، وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله ، وأن فى الأولى ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضًا ، وفى هذه ذكر ما حل باليهود ، وعدم إغناء تولى المنافقين إيَّاهم شيئًا .

أهم أغراض السورة :

ابتدأت بتنزيه الله وتمجيده ، وبيان أن الكون له وحده بما فيه من إنسان ، وحيوان ، وجماد ونبات يشهد بعظمته وسلطانه : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ...) الآية ، ثم تحدثت عن مظاهر قدرته فى إخراج بنى النضير وإجلائهم عن ديارهم ولم تنفعهم حصونهم العالية ولا قلاعهم المنيعة : (هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...) الآيات ، ثم تناولت موضوع الفىء ، فبينت شروطه وأحكامه مع بيان الحكمة فى إعطائه الفقراء : (وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآيات ، ثم أشارت إلى أصحاب رسول الله وأثنت عليهم الثناء العاطر بذكر تضحيات المهاجرين ومآثر الأنصار :(لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ...) الآيات .

وفى مقابلة المهاجرين والأنصار ذكرت السورة المنافقين الأشرار الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وكان مثلهم معهم كمثل الشيطان الذى يزين للإنسان سوء عمله ، ثم يتخلى عنه ويخذله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِم ...) الآيات .

وحثت المؤمنين على تقوى الله ، وحذرت من ذلك اليوم الرهيب الذى لا ينفع المرء فيه إلّا ما قدمت يداه : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ...) الآية ، وبينت الفرق الكبير بين

أهل الجنة ، وأهل السعير ، وبين مصير السعداء ، ومصير الأشقياء : (وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان شأن القرآن ، وعظيم تأثيره ، وأنه رفيع القدر ، نابه الذكر ؛ لأن الذى أنزله هو المتصف بالأسماء الحسنى : (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...) الآيات .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) التسبيح : التنزيه لله - تعالى - اعتقادا وقولًا وعملًا عمَّا لا يليق به .

(لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) : عند أول جمع اليهود لإجلائهم . فالحشر معناه : الجمع ، ومنه : وحشر لسليمان جنوده .

(حُصُونُهُمْ) : مفرده حصن ، وهو المكان المنيع الذى لا يقدر عليه لارتفاعه ، وحصن حصانة فهو حصين أى : منيع .

(وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) أى : ألقاه وأنزله بشدة .

(بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : عادوهما وخالفوهما .

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ) اللِّينة - بكسر اللام - : النخلة القريبة من الأرض الكريمة الطيبة .

التفسير

١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : نزَّه اللهَ عما لا يليق به ما فى السموات وما فى الأرض . وذلك يعم جميع ما كان مستقرًّا فيهما ، وما كان من أجزائهما حيث أُريد به معنى عام شامل لكل ما نطق بلسان المقال كالملائكة والمؤمنين من الثقلين ، وما نطق بلسان الحال كغيرهم ، وهو المراد من قوله - تعالى - : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »[1] ، وذكرت اللام فى لفظ الجلالة مع الفعل المتعدى وهو سبَّح إما للتأكيد أو للتعليل بمعنى فعل التسبيح لأجل الله - تعالى - وخالصا لوجهه . وبدئت بعض السور بلفظ سبح وبعضها بلفظ يسبح للإيذان بتحقق التسبيح فى جميع الأوقات (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الذى لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزهُ شىءٌ كائنا ما كان ، ولا يفعل إلَّا ما تقتضيه الحكمة .

وكرر الموصول هنا فقيل : (مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح .

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

روى أنه - عليه الصلاة والسلام - لمّا قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هارون - عليه السلام - نزلوا بالمدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظارا لبعثة النبى ﷺ . وفى صلحه معهم عاهدهم أن يكونوا لا له ولا عليه . فلما ظهر - عليه الصلاة والسلام - على المشركين يوم بدر قالوا : هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية ، فلما كان يوم أحد ما كان ارتابوا ونكثوا العهد فخرج كعب بن الأشرف زعيمهم فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله - عليه الصلاة والسلام - فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم - عليه الصلاة والسلام - بالكتائب فقال لهم : اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه من قال لهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فسدوا الأزقة وحصنوها فحاصرهم النبى - عليه الصلاة والسلام - إحدى وعشرين ليلة . فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين لهم طلبوا الصلح ، فأبى ﷺ إلّا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير . يحملون ما شاءوا من متاعهم . فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلّا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة ، فأنزل الله - : تعالى -(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) إلى قوله : (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) ، وقوله - تعالى - :

٢ - (هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَاظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَـٰهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى الْأَبْصَـٰرِ) :

هذه الآية بيان لبعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته إثر وصفه - تعالى - بالعزة القاهرة والحكمة البالغة على الإطلاق فى الآية السابقة ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

والمعنى : ذلك المنعوت بالعزة والحكمة :(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم يهود بنى النضير . أخرجهم من ديارهم بالمدينة لأَول الحشر بمعنى عند أول إخراج لهم ، والحشر : إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاءٌ قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام وغيرها ، وآخر حشرهم بإجلاء عمر - رضى الله عنه - إيَّاهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر حشرهم يوم القيامة .

ومشروعية الإجلاء كانت فى ابتداء الإسلام ، أما الآن كما يقول الآلوسى فقد نسخت فلا يجوز إلَّا القتل أو السبى أو ضرب الجزية .

وكان من شأْنكم أيها المسلمون أنكم (مَا ظَنَنتُم أَن يَخْرُجُواْ) من ديارهم لشدة بأْسهم ، ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعُددهم كما كان من شأْنهم أنهم ظنوا أن حصونهم مانعتهم من أمر الله تعالى ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال لمقابلة ما ظننتم أن يخرجوا ، أن يقال : وظنوا أَلَّا يخرجوا ولكن عدل إلى ما فى النظم الجليل للإشعار بأَن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤْتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه بتقديم الخبر وهو (مَانِعَتُهُمْ) على المبتدأ وهو (حُصُونُهُمْ) للدلالة على الاختصاص والتوكيد فكأَنه لا حصن أمنع من حصونهم ليكون مانعًا من الوصول إليهم (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ) أى : نزل بهم أمر الله وقدره المقدور لهم من حيث لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال وهو قتل رئيسهم كعب بن الأَشرف فإنه مِمَّا أضعف قوتهم ، وفل شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأَمْنَ والاطمئنانَ وألبسهم أردية الخضوع والاستكانة (وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) بإلقاء الخوف الشديد فيها بقوة ، أو من مكان بعيد (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ) الجملة مستأْنفة جواب عن سؤال مقدر تقديره : فما حالهم بعد قذف الرعب فيها أو معه ؟ فأُجيب بالجملة .

والمعنى : يخربون بيوتهم من باطنها بأَيديهم ليسدوا بأَخشابها وأَحجارها أفواه الأَزقة تحصينًا لها وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المسلمين والانتفاع بها بعد جلائهم عنها فيزيدهم ذلك ندمًا وحسرة . ولينقلوا ما فيها من جيد الخشب والساج معهم ، كما كانوا يخربون تلك

البيوت من خارجها بأيدى المؤمنين الذين أرادوا اقتحامها عليهم ليزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال المعركة أمام المسلمين فيتسنى لهم الغلبة عليهم ، واستئصال شأفتهم فلا تبقى لهم بالمدينة دار .

ومعنى تخريبهم لبيوتهم بأيدى المؤمنين : أنهم لما عرضوا أنفسهم وديارهم بنكث العهد وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروا المسلمين به وكلفوهم إياه ، وبهذا الاعتبار عطفت بأيدى المؤمنين على بأيديهم (فَاعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى الْأَبْصَارِ) أى : فتأملوا يا أولى العقول والألباب ، واتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة ، واتقوا مباشرة ما أوصلهم إليه الكفر والعصيان واحذروه واعتمدوا على الله وحده حتى لا تعاقبوا بمثل عقابهم .

٣ ـ (وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) :

أى : ولولا أن كتب الله عليهم الإخراج أو الخروج عن أوطانهم على تلك الصورة الفظيعة (لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا) بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة وجىء بقوله ـ تعالى ـ : (وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا وهو القتل فلا نجاة لهم من عذاب الآخرة ، وليس تمتعهم أياما قلائل بالحياة ، وتهوين أمر الجلاء على أنفسهم بنافع لهم ، وفيه إشارة إلى أن القتل أشق من الجلاء لا لذاته ، بل لأنهم يصلون عنده إلى عذاب النار .

وفرق بعضهم بين الجلاء والإخراج بأن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . وقال الماوردى : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة .

٤ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَآقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (ذَٰلِكَ) تنبئ بأن ما حاق بهم أو ما سيحيق بسبب أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوهما وفعلوا ما فعلوا من المحكى عنهم من القبائح والسيئات (وَمَن يُشَآقِّ اللهَ) الاقتصار على ذكر مشاقة الله لتضمنها لمشاقة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليوافق قوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أى : يعاقبه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ شديد العقاب

كأنه قيل : ذلك الذى نزل بهم من العقاب أو سينزل بهم هو بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله ﷺ وكل من يشاق الله – تعالى – كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد

٥ – (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ) :

قال الحافظ بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخل وشدد عليهم ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : يارسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا ؟ وكان بعضهم قد شرع أثناء الحصار فى قطع بعض النخيل إغاظة لهم وإرهابًا لقلوبهم فأنزل الله تعالى الآية .

والمعنى : ما قطعتم أى نخلة كما قال الحسن ومجاهد والراغب وجماعة ، أو أى نخلة كريمة كما قال الثورى ، كأنها أُخذت من اللِّين ، أو تركتموها قائمة على أصولها لم تتعرضوا لها بشىء ، فذلك الذى فعلتموه من القطع أو الترك بأمر الله – تعالى – الواصل إليكم بواسطة رسول الله ﷺ أو بإرادته – سبحانه – ومشيئته « وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ » أى : وليعز المؤمنين ، ويذل اليهود ويغيظهم ؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كما أرادوا ، ويتصرفون فيها حسبما أحبوا من القطع أو الترك يزدادون غيظا ، وكمدا ، وحسرة ، وندما ، حيث إن فى القطع خزيًا بالغًا لذهابها بأيدى أعدائهم المسلمين وحسرة شديدة ، وفى الإبقاء حسرة أشد ، وخزيًا أبلغ لكونها باقية فى أيدى أعدائهم المسلمين يتمتعون بها وينعمون بثمرها . قال بعضهم : هاتان الحسرتان تتحققان أيضا كيفما كانت المقطوعة أو المتروكة ؛ لأن النخل مطلقًا مما يعز على أصحابه فلا تكاد تسمح أنفسهم بتصرف أعدائهم فيه حسبما شاءوا ، وعزته على صاحبه الغارس له أعظم من عزته على صاحبه غير الغارس له ، وقد سمعت بعض الغارسين يقول : السعفة عندى كإصبع من أصابع يدى ، وتحقُّق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة نخلة كريمة أظهر .

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم ومضاعفة لحسرتهم .

ويرى الفقهاء فى المسألة أن القطع والتحريق أولى إن علم بقاؤها فى أيدى الكفار ، وإلَّا فالإبقاء أولى ما لم يتضمن ذلك مصلحة .

(وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَمَا أَفَآءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ) الفىءُ : كل مال أُخذ من الكفار بغير قتال .

(فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) إيجاف الخيل والركاب : سرعة سيرها ، يقال : أوجف البعير : حثه وحمله على السير السريع ، والركاب اسم جمع لا واحد له من لفظه غلب على مايركب من الإبل كما تطلق كلمة الراكب على راكبه ، فلا يقال فى الأكثر الفصيح راكب لمن كان على فرس ونحوه ، بل يقال : فارس ، أى : فما أجريتم على تحصيله خيلًا ، ولا ركابًا .

(مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) : هم أهل قرى الكفار عامة الذين أُخذت أموالهم صلحًا بغير إيجاف خيل ولاركاب .

(لِذِى الْقُرْبَىٰ) : هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب .

(كَىْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) الدولة : مايتداول فى الأيدى ، فيحصل فى يد هذا تارة وفى يد هذا أُخرى ، أى : يتداوله الأغنياءُ بينهم فلايصيب الفقراء .

التفسير

٦- (وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

شروع فى بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل ، أموال الكفرة التى تكون فيئًا للمؤمنين ؛ لأن الله خلق الناس لعبادته ، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا بها إلى طاعته .

(وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ) أى : إن سنته جارية منذ الأزل على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم بقذف الرعب فى قلوبهم ، وقد سلط رسوله ﷺ على بنى النضير تسليطًا غير مألوف من غير أن تتحملوا مضايق الخطوب ، وتقاسوا شدائد الحروب ، لذلك فلا حق لكم فى أموالهم ، ويكون أمرها مفوضًا إليه ﷺ (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيفعل ما يشاء كما يشاء على الوجوه المعهودة تارة وأخرى على غيرها لا يغالب ولا يمانع ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٧- (مَّآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

بيان لحكم ما أفاء الله على رسوله ﷺ من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكمه فيما أفاءه من بنى النضير .

فالآية جوابٌ على سؤال مقدر ناشئ عمَّا فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلًا يقول : قد علمنا حكم ما أفاء الله من بنى النضير ، فما حكم ما أفاء الله تعالى من غيرهم ؟ فقيل : ما أفاء الله على رسوله ... الآية ، ولذا لم تعطف على ما قبلها ، وإعادة عين العبارة الأولى فى الآيتين لزيادة التقرير (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) قد اختلف فى قسمة ما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع .

نزلت حين طلب الصحابة منه ﷺ أن يقسم بينهم أموال بنى النضير قسمة الغنائم كما حدث فى بدر ، فبين الله – تعالى – أنها فىء لا غنيمة إذ إنهم لم يقطعوا لها شقة ، ولم يلقوا فيها مشقة ، ولم يلتحموا فيها بقتال شديد ، بل ذهبوا إليها رجالًا ، وكانت على ميلين من المدينة ، وفتحت صلحًا ، فهى للرسول خاصة يتصرف فيها كما أمره الله سبحانه.

والمعنى : ما رجع إليكم وحصلتم عليه من أموال بنى النضير بعد رحيلهم عنها فهى لرسول الله ﷺ خاصة يتصرف فيها حسبما شرعه الله تعالى ، فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على أهله ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع ، عدة فى سبيل الله يعطى منها من يشاء ، ولذلك آثر المهاجرين بها ولم يعط الأنصار شيئًا عدا ثلاثة لفقرهم كما قال الضحاك .

وخصت به ﷺ لأنها حصلت لكم صلحًا ، فلم تحصلوها بكد اليمين ، وعرق الجبين ولم توجفوا على الوصول إليها خيلًا ولا ركابًا ، بمعنى أنكم لم تدفعوها دفعًا شديدًا لغزو بنى النضير وإنما ذهبتم إليها رجالًا ما عدا النبى ﷺ لقرب ديارهم من المدينة ، وفيما ذكر إشعار بأن هذه الأموال حرية بأن تكون لرسول الله ﷺ ، وإنما وقعت فى أيديهم بغير حق . فأرجعها الله إلى مستحقها ، من فاء الظل : إذا رجع ، وكذلك شأن الفىء من أهل القرى غير بنى النضير فقيل : يسدس كظاهر الآية ، ويصرف سهم الله فى عمارة الكعبة ، وسائر المساجد ، والمصالح العامة وقيل : يخمس وهو الصحيح وذكر الله للتعظيم ، ويصرف سهم الرسول بعد وفاته إلى إمام المسلمين على قول ، وإلى العساكر والثغور على قول ، وإلى مصالح المسلمين على قول .

وحاصل المعنى : أن فىء أهل القرى يقسم إلى خمسة أسهم ، فيصرف سهم منه لله وللرسول وذكره تعالى للتيمن والتبرك فإن لله ما فى السموات والأرض كما روى عن ابن عباس والحسن عن محمد بن الحنفية ، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ .

وسهم لذى القربى من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دون من عداهم لقوله ﷺ : بنو هاشم وبنو عبد المطلب شئ واحد ، وشبك بين أصابعه ، ويقول فيهم : لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام كما فى البخارى .

وسهم لليتامى . وهم أطفال المسلمين الذين فقدوا آباءهم ولو كان لهم أجداد ، وسهم للمساكين وهم ذوو الحاجة والفقر ، وسهم لابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع فى سفره عن ماله ، وقيل : يخمس ، فيصرف خمسه كما يصرف خمس الغنيمة المذكورة فى قوله ــ تعالى ــ : « وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »[1] الآية ، والأخماس الأربعة الباقية يصرفها الرسول كما يشاء ، له أن يعمم وله أن يخصص ذلك بالفقراء .

وصرف الفىء على النحو المذكور (كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) تعليل للتقسيم السابق أى : حتى لا يكون شيئًا يتداوله الأغنياء منكم ، ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء مع أن حقه أن يكون لهم . أو حتى لا يكون دولة جاهلية بينكم ، فإن الرؤساء كانوا يستأثرون بفيئهم ، ويقولون : من عزّ بزّ . وقرئ دولة بضم الدال وفتحها وهما بمعنى واحد .

(وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...) الآية : الواو اعتراض على سبيل التأكيد ، وليست عاطفة .

أى : وما أعطاكم الرسول من الفىء فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه أو عن تعاطيه فاتركوه وابتعدوا عنه ، وحمل الآية على خصوص الفىء مروى عن الحسن لقرينة المقام ، وفى الكشاف : الأجود أن تكون الآية عامة فى كل ما أمر به ﷺ ونهى عنه وذلك لعموم (ما) وأمر الفىء داخل فى العموم دخولًا أوليًّا (وَاتَّقُواْ اللَّهَ) فى مخالفته ــ عليه الصلاة والسلام ــ وذلك تعميم إثر تعميم ، ويتناول كل ما يجب أن يتقى لدخوله . كما سبق فى عموم (ما) روى ذلك عن ابن جريج .

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :فيعاقب كل من يخالف أمره ونهيه عقابا شديدا ليس لهم من يدفعه عنهم من ولى أو نصير .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٤١

قال الإمام بسنده عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات[١] ، والمستوشمات[٢] ، والمتنمصات[٣] ، والمتفلجات[٤] للحسن المغيِّرات خلق الله – عز وجل – قال : فبلغ امرأة يقال لها : أم يعقوب فجاءت إليه ، فقالت : بلغنى أنك قلت : كيت وكيت . فقال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفى كتاب الله ، فقالت : إنى لأقرأ بين لوحيه فما وجدته ، قال : إذا كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت (وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ) . قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه إلى آخر الحديث . أخرجه الشيخان من حديث سفيان الثورى .

(لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾)

---

(١) هن اللاتى يصنعن الوشم وذلك بغرز البشرة بإبرة ثم يذر عليها لون أحمر .
(٢) من يطلبن من غيرهن الوشم .
(٣) اللاتى يأمرن بترقيق حواجبهن طلباً للزينة .
(٤) اللاتى يباعدن بين الثنايا والرباعيات بترقيق الأسنان بالمبرد .

المفردات :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) أى : نزلوا المدينة مقيمين بها ، وأخلصوا الإيمان .

(وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا) أى : إن نفوسهم لم تطمح إلى شىء مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره .

(وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) أى : حاجة بمعنى أنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أى : ومن أبعده الله بتوفيقه من أن يغلب عليه حب المال وبغض الإنفاق كان من المفلحين ، وأضيف الشح إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه بأن يبخل على الناس بما فى يده ، وقيل : الشح : بخل مع حرص .

التفسير

٨ـ (لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

والمعنى : يقول ـ تعالى ـ مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفىء بأنهم هم الذين أخرجهم الكفار من ديارهم وأموالهم وكانوا مائة رجل كما قيل فخرجوا يبتغون رزقًا منه ـ تعالى ـ فى الدنيا ومرضاة فى الآخرة ، وقد وصفوا أولًا بما يدل على استحقاقهم للفىء حيث وصفوا بالإخراج من الديار والأموال ، ووصفوا ثانيًا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده ، مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلام فقال : (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) وكانت نصرة الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ هى مقصدهم فقد قال ـ سبحانه ـ : (وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) أى : ويضمرون فى أنفسهم عزمًا أكيدًا بأن يبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل نصرة دين الله ، أو فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة تقارنه نصرة لله ولرسوله وأى نصرة تعدل ذلك .

(أُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من الأوصاف العظيمة (هُمُ الصَّادِقُونَ) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى دعواهم الإيمان ، حيث فعلوا ما يدل عليه أقوى دلالة مع إخراجهم من

أموالهم وأوطانهم لأجله ـ سبحانه ـ وهذا الوصف خاص بهم لا بغيرهم ممن آمن فى مكة ، ولم يخرج من داره وماله ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم من لين مع المشركين .

٩ ـ (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

كلام مستأنف لمدح الأنصار بخصائص حميدة من جملتها مدح محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاصهم ببعض مال الفىء دونهم وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وقد تبوءُوا الدار والإيمان ، وتمكنوا فيها أشد تمكن ، ونسبة التبوء إلى الدار ، والمراد بها المدينة ظاهر ؛ لأن التبوء النزول فى المكان ونسبته إلى الإيمان باعتبار جعله مستقرًا وموطنًا حيث استقرت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم ، والتعريف فى الدار للتنويه كأنها الدار التى تستحق أن تسمى دارًا ، وقد أعدها الله لهم ليكون تبوؤهم إياها مَدْحًا لهم ، وقيل : والذين تبوءُوا الدار وأخلصوا الإيمان ، وكان تبوؤهم للدار والإيمان من قبل هجرة المهاجرين ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمان المهاجرين حتى يقال الأمر بالعكس ، بل نهاية مايلزم عليه سبق إيمان الأنصار على هجرة المهاجرين (يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ) من إخوانهم المهاجرين ، وقد بلغ من سماحتهم أنهم أنزلوهم منازلهم ، وأشركوهم أموالهم ونزلوا لهم عن بعض مايعز عليهم حتى قيل : إن من كانت عنده امرأتان نزل عن إحداهما وطلقها حتى يتزوجها رجل من المهاجرين وهم مع كل ذلك لا يجدون فى أنفسهم حسدًا أو غيظًا مما أُعطِىَ المهاجرون من الفىء وغيره ولا مرَّ ذلك بخاطرهم فضلًا عن أن تطمح إلى شىء منه نفوسهم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) بمعنى أنهم يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من الطيبات ولو كان بهم حاجة وخَلَّة ، وذلك بتقديم حاجة المحاويج على حاجة أنفسهم .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ، فقام رجل من

الأنصار- وفى رواية فقال أبو طلحة- : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ﷺ ، قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية . قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئى السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم- ففعلت ، ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيهما (وَيُؤْثِرُونَ ...) الآية .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : لعل المراد بالشح البخل المتناهى بحيث يبخل المتصف به بمال غيره . أى : لا يودُّ جودَ غيره ، وتنقبض نفسه منه ، ويسعى فى ألَّا يكون ، وقيل : إنه اللؤم ، وإضافته إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذى هو البخل ، وقال الراغب : الشح : بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة ، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل ، إنما الشح أن تطمح عين الإنسان إلى ما ليس له ، ويفهم من الآية ذم الشح ذمًّا بالغًا ، ومن يوق شح نفسه بتوفيق الله ومعونته حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال ، وبغض الإنفاق فهؤلاء هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، والجملة الشرطية تذييل وتوكيد لمدح الأنصار والثناء عليهم لتناوله إيَّاهم تناولًا أصليًّا ، وكانت الإشارة فى قوله - تعالى- : (فَأُوْلَـٰئِكَ) جمعًا باعتبار معنى (مَنْ) كما أفرد الضمير فى قوله - سبحانه - : (وَمَن يُوقَ) باعتبار لفظها .

١٠ - (وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هؤلاء هم القسم الثالث ممن تستحق فقراؤهم من مال الفىء ، ذكرهم - سبحانه - بعد ذكر المهاجرين والأنصار ، والمراد بهم التابعون بإحسان كما فى آية براءة « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »[1] .

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٠٠

فالتابعون بإحسان الذين هاجروا بعدما قوى الإسلام ، أو المتبعون لآثار المهاجرين والأنصار الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية إلى يوم القيامة ، وهذا مايشير إليه قوله - سبحانه - : (وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ...) الآية لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ، ومراعاتهم لحقوق الأُخوة فى الدين ، والسبق بالإيمان قائلين : ربنا اغفر لنا ولإخواننا فى الدين ، والأُخوة عندهم أعز وأشرف من النسب ، وتضرعوا إليه تعالى أن يطهر قلوبهم من الحقد على المؤمنين على الإطلاق ، وأن يجعل حبهم خالصًا لله وحده : (رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) تستجيب دعاء الصادقين مع المبالغة فى الرأفة والرحمة فحقيق بنا أن نطمع فى تحقيق ما ندعو به لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

وفى الآية حث وتوجيه وترغيب فى الدعاء إلى الصحابة . وتصفية القلوب من بغض أحد منهم مع الاعتراف بفضلهم ، وحسن صنيعهم وسبقهم إلى البذل والتضحية .

قال ابن كثير : ما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن الرافضى الذى يسب الصحابة ليس له من مال الغنيمة شىء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين .

وقد روى الشعبى أنه قال : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة : سئلت اليهود : مَن خير أهل ملتكم؟ فقالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى مَن خير أهل ملتكم؟. فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ . فقالوا : أصحاب محمد . أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم . فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(نَافَقُوا۟) : أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

(لِإِخْوَانِهِمُ) : أمثالهم فى الكفر أو الصداقة والموالاة ، وكثر جمع الأَخ - مرادًا به الموالاة والصداقة - على إخوان ، ومرادًا به الأُخوة فى النسب على إخْوة .

(لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ) : ليفرن منهزمين وقد أعطوا ظهورهم للعدو .

(رَهْبَةً) : خوفًا وهيبة .

(لَايَفْقَهُونَ) : لايدركون الأُمور على حقيقتها .

التفسير

١١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معَكُمْ ولَا نُطِيعُ فيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

هذه الآية حكاية لِمَا جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة ، والأحوال الفاسدة وتعجيب من سلوكهم وأفعالهم بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين ، والإشادة بأخلاقهم الطيبة وشمائلهم الكريمة على اختلاف طبقاتهم ، وترديد أقوالهم السمحة .

والخطاب فى الآية للرسول ﷺ أولًا ، ثم لكل أحد له حظ من تلقى الخطاب أو الانتفاع بمضمونه .

والمعنى : ألم تتعجب يا رسول الله أنت ومن معك من أحوال الذين تمكن منهم النفاق فأخفوا الكفر وأظهروا الإيمان مثل عبد الله بن أُبَىّ وأمثاله من المنافقين ، وما ذهبوا إليه من الخيانة وما تورطوا فيه من سلوك شائن ، وعمل قبيح ؛ إنهم يقولون لإخوانهم المتأصلين فى الكفر ، وأصدقائهم الذين يوالونهم من يهود بنى النضير مؤكدين مقسمين : لئن أخرجتم ، وأكرهتم على ترك بلدكم ووطنكم لنخرجن معكم تضامنًا ونصرة ، ولا نطيع فى شأنكم أحدًا يمنعنا عن مناصرتكم أبدًا ، وإن طال الزمان ، وإن قوتلتم من أحد كائنًا من كان أو عاداكم أحد لنكونن فى نصرتكم ، ومعاونتكم على عدوكم ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى أقوالهم ، ضَالُّون مُضِلُّون فى وعودهم ، وإن عززوا ذلك وأكدوه بالأيمان . وقوله ـ تعالى ـ : (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) مبادرة بتكذيبهم إجمالًا ، يفصلها قوله تعالى :

١٢ ـ (لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) :

والمعنى : إنهم لكاذبون فى وعودهم ضالُّون مُضِلُّون فى أقوالهم ، والله لئن أُخرج هؤلاء اليهود من بلدهم ، وأُجلوا عن ديارهم لا يخرج المنافقون معهم ، ولا يأبهون بهم ، ولئن قوتلوا لا يكونون فى نصرتهم ، ولا يهتمون بما يجرى عليهم أو يقع فيهم من قتل أو هلاك وتشريد ، ولئن خرج المنافقون لنصرهم أو قاموا على سبيل الفرض والتقدير لتكونن عاقبتهم الهزيمة ، وليولن الأدبار فارين راجعين ، وقد أعطوا ظهورهم للمؤمنين إعمالًا فى الفرار ، وإمعانًا فى الهروب ثم لا ينصرون أى : ثم لا يكون هناك نصر لليهود ولا تنفعهم وعود المنافقين ، ويهلكهم الله ، أو ثم لا يكون هناك نصر للمنافقين ولا إدراك لغاياتهم السيئة ، وخططهم الفاسدة ، ويفتضح أمرهم ، وينكشف كيدهم فينالون جزاءهم .

وقد كان الأمر كما أخبر القرآن، ذلك إذ أرسل عبد الله بن أبى رأس النفاق وأعوانه إلى بنى النضير سرًّا يؤلبونهم ويغرونهم بالتمرد والعصيان، ويعدونهم بالنصر لهم، والوقوف معهم، وكان إخبار القرآن بذلك قبل وقوعه حجة بينة على صدق النبوة، وإعجاز القرآن.

١٣ - (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ):

تؤكد هذه الآية عدم نصر هؤلاء المتآمرين من المنافقين واليهود بتقرير أن المؤمنين أشد تخويفًا لهم من الله، يرهبونهم، ولا يستطيعون لقاءهم.

والمعنى: لأنتم أيها المؤمنون أشد وأقوى تخويفًا وترويعًا فى صدور هؤلاء من الله الذى يظهرون لكم أنهم يخافونه، ويرهبون قوته، فهم يغلفون خوفهم منكم فى الخوف منه على طريقتهم فى النفاق.

ذلك السلوك المشين من الخوف منكم أشد من الخوف من الله بسبب أنهم سفهاء العقول لا يفهمون الأمور على حقيقتها، ولا يصلون فى الفهم إلى إدراك عظمة الله وجبروته، وقوته على خلقه حتى تكون خشيته منهم فوق كل خشية، وسلطانه أعلى من كل سلطان.

(لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٧﴾)

المفـردات :

(مُحَصَّنَةٍ) : ممنوعة محاطة بالأسوار ضربت عليها الخنادق والدروب .

(بَأْسُهُمْ) : شجاعتهم وقوتهم .

(جَمِيعًا) : مجتمعين ذوى مودة وألفة .

(شَتَّىٰ) : متقطعة متفرقة .

(وَبَالَ أَمْرِهِمْ) : سوء عاقبة كفرهم .

(عَاقِبَتَهُمَا) : نهايتهما وآخر أمرهما .

التفســـير

١٤ ـ (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) :

تصوير آخر لجبنهم وشدة خوفهم من المؤمنين ، والرهبة التى تملأ قلوبهم وتمنعهم أن يواجهوهم بالعداوة أو يبارزوهم فى القتال .

والمعنى : لا يقوى هؤلاء اليهود أو المنافقون على مواجهتكم ، ولا يجرأون على مبارزتكم والإصحار[1] إليكم مجتمعين جميعًا ومتفقين فى موطن من المواطن إلَّا فى قرًى مسوَّرة بالأسوار محاطة بالدروب والخنادق التى ترد هجوم العدو ، وتحدّ غاراته ، أو من وراء الجدر التى يتحصنون خلفها ، ويمتنعون بها وذلك من جبنهم وشدة خوفهم مع قوتهم وحدَّة شكيمتهم وهم فيما بينهم يظهرون بمظهر التآلف والتواد بما يفهم أنهم متفقون متعاونون ، وقلوبهم متفرقة متقاطعة . ذلك الخلق فيهم ناشئ من جهلهم وأنهم قوم لا يفهمون آثار الفرقة ، ولا عاقبة الاختلاف والتمزق .

والتعقيب فى هذه الآية بـ (لَا يَعْقِلُونَ) ، وفى الآية السابقة بـ (لَا يَفْقَهُونَ) للإشارة إلى أن إدراك آثار الفرقة والتشتت مما يعلم بمجرد العقل والتمييز ، أما معرفة الله تعالى ، واستشعار عظمته وسطوته واسترهاب خشيته فمما يحتاج بعد العقل إلى فقه وفهم .

---

(١) أصحر : برز فى الصحراء .

١٥، ١٦ - (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) :

تتضمن هاتان الآيتان مثلين - مثلًا للمشركين فى نهايتهم ، ومثلًا للمنافقين فى وعودهم لليهود . فأما الأول فقوله - تعالى - : (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...) الآية .

والمعنى : مثل مشركى مكة فى كفرهم وعنادهم وما انتهى إليه أمرهم من القتل والفتح والإذلال والإهلاك كمثل الأمم السابقة عليهم القريبة العهد منهم خاصموا رسلهم ، وعادوا أنبياءهم ، وعارضوا دعواتهم فنالوا سوء جزائهم وذاقوا وبال عصيانهم ، ولقوا النكال الشديد والهوان البليغ فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب موجع ، مفرق فى الألم لايقادر قدره .

والمثل الثانى فى قوله - تعالى - : (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ...) الآية .

والمعنى : مثل المنافقين فى وعودهم لليهود ، وإغرائهم لهم بالتمرد وعصيان المؤمنين ، ومعارضتهم ثم تخلفهم عنهم كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بالشر ، ويزين له المعصية ويحبب إليه الفسوق والكفر ، ولايزال به حتى يقع فيما يريده منه فإذا سقط ابتعد عنه ، وتبرأ منه ومن فعله ، وظهر بمظهر الورع الخائف من الله النادم على عصيانه الذى يخاف عذابه ويرجو ثوابه ، أو يقول ذلك فى الآخرة ، وحمل الشيطان على الجنس هو الأنسب .

وما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المراد بالإنسان أبو جهل والحوار الذى جرى يوم بدر من قوله - تعالى - على لسان الكفر : « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ »[1] ، وقوله - تعالى - على لسان إبليس : « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ »[2] . فهذا تخصيص لاينهض عليه دليل ، ولايعين عليه النص .

١٧ - (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فكان عاقبة الشيطان والفريقين اللذين أغراهما من اليهود والمنافقين أنهم جميعًا إلى النار وفى النار خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وذلك الجزاء نهاية كل ظالم ، وعاقبة كل طاغية متجاوز لحدود الله ، خارج عن طاعته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(١، ٢) سورة الأنفال من الآية : ٤٨

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(لِغَدٍ) : أصله غَدْو بوزْنِ فعل حذف آخره ، وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك على أثره ، ثم توسعوا فيه حتى أطلق على البعيد المترقب ، والمراد يوم القيامة .

(نَسُواْ اللهَ) : انصرفوا عن طاعته وغفلوا عن ذكره .

(فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) : صرفهم عن العمل بما فيه نفعها ونجاتها .

(خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا) : متطامنًا متشققًا ، وهى من قبيل التمثيل .

التفسير

١٨ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

عرضت الآيات السابقة على هذه الآيات لأحوال المؤمنين وفصّلت طبقاتهم وما شاع فى أخلاق كل طبقة وغلب على سلوكها وما اتسمت به من الفضائل والمكارم وصدق الإيمان وسخاء النفس والإيثار والتحاب فى الخير والنصح فى الدين ، كما عرضت لقبائح النفاق ،

وسفه المنافقين ، وأسلوبهم فى الكذب والمصانعة ، وإثارة الفتن ، وإذكاء التفرقة والخلاف ، وكشفت حقيقتهم ، وفضحت جبنهم ورهبتهم من المسلمين ، وضربت لذلك الأمثال التى تحذر سوء العاقبة وقبح المآل .

ثم خلصت الآيات بعد ذلك للمؤمنين تناديهم فى رفق ، وتدعوهم فى تلطف وإشفاق إلى الاستدامة فى الطاعة والعمل ليوم عظيم ، وغد قريب يقوم فيه الناس لرب العالمين حتى تسلم لهم راحة الدنيا وثواب الآخرة .

والمعنى : ياأيها الذين آثروا الإيمان وتمكنت العقيدة من نفوسهم فطهرتها من الشرك والنفاق ، ووجهتها إلى صدق الطاعة وإخلاص العبادة داوموا هذا العمل وامضوا فيه وأكثروا منه ليوم عظيم وغد قريب يجد المرء فيه ماقدمت يداه ، ويلاقى جزاءه عند الله ، ولتنظر نفس أية نفس ماتدخره لغد وماتعده لهذا اليوم الذى تجد فيه كل نفس ماقدمت وأخرت ، وماأسرت وأعلنت وإنه لقريب . قال قتادة : « إن ربكم قرب الساعة حتى جعلها كغد » . فاتقوا الله يامعشر المؤمنين واعملوا فى طاعته لهذا اليوم العظيم الأهوال ، أو كما اتقيتم الله فى أوامره وطاعته اتقوا الله فى محارمه ونواهيه ، فلاتعصوه فيما أمركم ، ولا يراكم حيث نهاكم لتجمعوا طرفى التقوى من المأمورات والمنهيات وتكون لكم عند الله أعظم الدرجات ، إن الله محيطٌ بكل أعمالكم بصيرٌ بجميع أحوالكم وأقوالكم يحصيها لكم ، ويجزل عليها جزاءكم .

وعبَّر عن يوم القيامة بغد للتنبيه إلى شدة قربه وإثارة الخوف من هوله وبأسه ، ولدنوّ الغد من أمسه ، أو أن الدنيا كيوم والآخرة غده . ونكره لتهويله وتفخيمه كما نكر كلمة نفس للعموم والتنبيه إلى أنه لاينبغى أن تغفل الأنفس عن التفكر لغدها والعمل لآخرتها ، وفيه حث على النظر والاعتبار ، وتعبير بالترك والغفلة المسيطرة على أكثر النفوس .

١٩ ـ (وَلَاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

تفريع على الآية قبلها واسترسال فى غرضها أى ، لاتغفلوا عن العمل بطاعة الله ، ولاتكونوا كالذين تركوا أداء حقه وناموا عن عبادته وذكره فصرفهم عن العمل بما فيه سلامة نفوسهم ونفعها ، وحرمهم حظوظهم من الخير والثواب ، أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

هم الفاسقون الخارجون من طاعة الله إلى معصيته ، المتناهون فى الفسوق ، المستحقون للعقاب الجسيم فى دار الجحيم .

٢٠ - (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

المعنى : إذا تقرر أن المؤمنين المتقين الذين يداومون على الطاعة ويخلصون العبادة لهم الجنة ، وأن المشركين والمنافقين والذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم لهم دار الجحيم ، فإن هذه الآية توضح هذا المعنى وتبرزه نصًّا صريحًا وحكمًا صحيحًا ، أى : لا يستوى أهل النار والملازمون لها الذين انخرطوا فى الملذات ، وانهمكوا فى المعاصى ، وسبحوا فى مهاوى الشرك ، ومفاوز الضلال والكفر ، ونسوا الله وتجاوزوا حدوده - لا يستوى هؤلاء - وأصحاب الجنة الذين وقفوا أنفسهم على العمل لها ، وقرنوا سلوكهم بالطاعة وحياتهم بالحلال الطيب - إن أصحاب الجنة الذين هذه أعمالهم وهذا سلوكهم هم الفائزون بكل المطالب ، الجديرون بكل الرغائب الناجون من كل المثالب والمعايب .

٢١ - (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) :

هذه تعجيب من حال من لا يهتدى بالقرآن ولا يستجيب لهديه ، وتنبيه إلى أنه منار هداية ، ورائد طاعة ، ومنهل ظمأ بما ينطوى عليه من فنون القوارع ، وضروب المخاوف ، ودروب الرغائب ، ومناهل العرفان بحيث لو أنزل على جبلٍ أصم من الجبالِ الضخمة العاتية لرأيته - مع كونه مثلًا فى القسوة ، علمًا فى الرسوخ والثبات - متهاويًا متداعيًا ومتشققًا ، متصدعاً من قوة خشية الله وشدة جبروته لعلو شأن القرآن وبلاغة تأثيره بالزواجر والقوارع . والمراد توبيخ الإنسان وتعنيفه على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن أو سماعه وتدبر ما فيه وتلك الأمثال التى ذكرناها فى هذه السورة وفى غيرها نضربها للناس ونوردها لهم متعددة المقاصد مختلفة المضامين لعلهم يتفكرون فى معانيها ويدركون مراميها فينعكس ذلك على سلوكهم وأعمالهم .

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْغَيْبِ) : ما غاب عن الحس وجهلت معرفته .

(الشَّهَادَةِ) : ما حضر وشوهد .

(الْقُدُّوسُ) : البليغ فى النزاهة عمَّا يوجب نقصًا .

(الْمُؤْمِنُ) : واهب الأمن .

(الْمُهَيْمِنُ) : المسيطر الحافظ لكل شىء ، الرقيب .

التفسير

٢٢ ـ (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ) :

تختم سورة الحشر بذكر طائفة من أسماء الله تعالى ، واختصاص هذه الأسماء بالذِّكر من بين أسماء الله الحسنى سر من أسرار القرآن الكريم ، ونمط من إعجازه ، ولعل لها خصائص تعظم بركتها ويعم نفعها . وحسب القارئ أن يقرأها ذكرًا يرطب لسانه وعظة تزكى نفسه .

والمعنى : هو الله وحده لا يشاركه غيره ولَا إلٰهَ إلَّا هُو المحيط بعلم جميع الأشياء ما غاب منها عن الحس وجهلت معرفته وما حضر وشوهد وتحققت معرفته ، لا يغيب عنه من ذلك شئ ولا يعزب عن علمه قريب أو بعيد ، ولا يحرم فضله عاجز ولا قادر ، هو الرحمن الذى تنتظم رحمته فى الدنيا جميع المخلوقات ، الرحيم الذى يختص برحمته فى الآخرة من يشاءُ من أهل الطاعات الصالحات .

وتقدم الغيب على الشهادة فى الآية لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به ، ولأن علم الغيب مِمَّا يدق ويخفى فتقديمه فى الإخبار أبعث للتنبيه والاعتبار .

٢٣ ـ (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

تكرر بدء الآية بمثل البدء السابق : (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ) لإبراز العناية والاهتمام بالتوحيد ، وتلذذًا بذكر الله ، وليكون لفظ الجلالة هو الأساس والمدخل لبناء الأسماء الأخرى عليه .

والمعنى : هو الله وحده لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ السيد المالك لجميع الأشياء ملكًا حقيقيًا يتصرف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه أو معارضته فيه . القدوس الطاهر من كل عيب وآفة ونقص ، المنزه عن القبائح ، الغنى عن الشريك والولد ، المبارك الذى تنزل البركات من عنده ، السلام من كل سوء وعيب ، الذى ترجى عنده السلامة من كل بلاء ، المؤمن الذى يهب الأمن لكل خائف ويوفر الاطمئنان لكل مرهوب مقهور ، ولا يظلم عنده أحد ، المصدق لنفسه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما بلغوه عنه ـ جلَّ وعلَا ـ المهيمن الرقيب الحافظ لكل شىء المسيطر الذى لا يعلو عليه أحد ، العزيز القادر الذى لا يُقْهر ، المنيع الذى لا يرام ولا يمتنع عليه مرام وليس كمثله شئ ، الجبار العظيم الشأن فى الملك والسلطان الذى يذل له كل شىء ولا يستحق أن يوصف بهذا الوصف على الإطلاق إلَّا الله ـ تعالى ـ فإذا أُطلق على غير الله كان فى غير موضعه ، وكان ذمًّا . المتكبر المستحق لصفات التعظيم ، المتعالى عن كل نقص ورذيلة .

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى تنزيهاً له - جلَّ شأنه - عن إشراكهم بعد تعداد صفاته التى لا يشاركه فيها أحدٌ أبدًا .

٢٤ - (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : هو الله الخالق ، أى : المقدر للأشياء بحكمته ، المحدث لها على إرادته ، البارئ الموجد لها بريئة من التفاوت فلا ترى فيها اختلافًا ولا عدم تناسب ، أو مميزًا بعضها عن بعض باختلاف الأشكال ، المصور الموجد لصورها وأشكالها كما أراد الله وحده . هذه الأسماء الحسنى التى اختص بها ذاته ووضح بها صفاته ما ذكر منها وما لم يذكر لدلالتها على المعانى الحسنة والفضائل العالية ، والكمال المطلق - يسبح لله بهذه الأسماء ويذكره بترديدها جميع ما فى السموات والأرض من خلائق وأجرام بحاله أو بمقاله - وإن من شيء إلا يسبح بحمده - وكل قد عرف صلاته وتسبيحه وهو العزيز فى ملكه ، الحكيم فى فعله ، المتعظم لجميع الفضائل والكمالات ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير .

سـورة الممتحنـة
مدنية وآياتها ثلاث عشرة آية

وهى إحدى سور ثلاث بدأت بقوله - تعالى - : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ » المائدة والحجرات وهذه السورة ، والصحيح المشهور فى ضبطها أنها بفتح الحاء صفة للمرأة التى نزلت بسببها ، وقد تكسر الحاء على أنها صفة للسورة ، كما قيل فى سورة براءة : الفاضحة .

مناسبتها لمـا قبلهـا :

وترتبط بالسورة قبلها بتقارب الهدف ، وتلاؤم الغرض ، فقد نعت السورة قبلها على المنافقين سلوكهم المهين وتظاهرهم لليهود ، وإخوانهم الكافرين ، وجاء فى هذه السورة نهى المؤمنين من اتخاذ الكفار أعداء الله وأعدائهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، على أن مضمون سورة الممتحنة يعتبر تقريرًا وتأكيدًا لمـا جاء فى سورة الحشر قبلها حتى كأنها من تمامها ، ولهذا استحقت أن توضع بين سور التسابيح أو ذوات سبح مع اختلاف مفتتحها .

مقاصد هـذه السورة الكريمـة :

بدأت سورة الممتحنة بنهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم من الكفار والمشركين أولياء يُصَافونهم ، ويصلونهم بالمودة والتعاون ، كأن ذلك ارتباط بما سبق من التعجب من أحوال المنافقين وموالاتهم لليهود ممَّا يشير إلى الربط بين السورتين ، وهى إذ تنهى المؤمنين عن ذلك تنبه إلى كفر المشركين والمنافقين بما جاء به الرسول وكيدهم له وللمؤمنين ، ليلجئوهم إلى الخروج عن وطنهم ، ويتابعون إيذاءهم لمجرد أنهم آمنوا حملًا لهم على الخروج وهذا سلوك يقتضى الحذر منهم ومقاطعتهم وذلك لأنه إن كان الإيمان عن صدق وعقيدة ورغبة صادقة فى الانتصار للدعوة ونصرة الرسول ، فإن هؤلاء الأعداء لاخير فيهم ولا يجدى فيهم معروف ، ولا يبقون على مودة إلَّا ضعفًا وخديعة فإن أمكنتهم الأيام من المؤمنين طالت أيديهم بالإيذاء ، وبسطوها بالسوء مع ترقب أن يرجع المؤمنون عن دينهم ، ورغبتهم أن يعودوا كافرين .

وتقرر الآيات أن القرابات وصلات البنوة وغيرها لا تنفع مع كفر ، ويوم القيامة يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه ، ولن ينفع المؤمن فيه إلَّا عمله: (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) .

ثم تلمح الآيات إلى أن اختلاف الدين يقطع الأَنساب ويميت الصلات بين الأَهل والأَقارب ،وتسوق طرفًا من أخبار إبراهيم – عليه السلام – مع قومه وبراءته من أبيه ليكون ذلك هديًا لكل مؤمن وحافزًا له على الاقتداءِ بأَبيه إبراهيم (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ ...) إلخ .

ثم تخصص الآيات النهى بالذين تمادوا فى العناد ، وأمعنوا فى الفساد ، وتورطوا فى موالاة الإيذاءِ من المشركين ، فأَما الذين سالموا وأمسكوا عن الشر ، وحبسوا أذاهم عن المؤمنين فلا بأْس من التعامل معهم ، والعدل فى معاملتهم (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ...) إلخ .

ثم أشارت الآيات إلى قصة امتحان المؤمنات اللائى جئن إلى الرسول مهاجرات من مكة إلى المدينة للتأَكد من صدق إيمانهن ، وحسن قصدهن . ودعت إلى التمسك بهن والإحسان إليهن ، والتعايش معهن بالنكاح حتى ظهر صدقهن ، ثم تناولت بيعة النساءِ للرسول ، ومشروعيتها وإمضاءها والدعاء لهن .

وختمت السورة بمثل مابدئت به من النهى عن موالاة المشركين المغضوب عليهم ، واتخاذهم أولياءَ ، فإن الله قد غضب عليهم حتى تمكن فيهم اليأْس ، وانقطع الرجاءُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(أَوْلِيَآءَ) : أصدقاء أحباء جمع ولى وهو الصديق .

(بِالْمَوَدَّةِ) : بالمحبة والإخلاص .

(يَثْقَفُوكُمْ) : يتمكنوا منكم ويظفروا بكم .

(يَبْسُطُواْ) : يمدوا ويسرفوا فى مساءتكم .

(يَفْصِلُ) : يقضى ويحكم .

التفســـير

١ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...) الآية .

نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة ـ وذلك أنه لمَّا تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة كتب حاطب إلى أهلها أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم ، وأرسله مع امرأة تدعى سارَّة مولاة بنى المطلب ، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ إلى الرسول بخبر ذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا وعمارًا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبتْ فاضربوا عنقها . فأدركوها ثمة فجحدت فسل على سيفه فأخرجته من عقاصها ـ واستحضر رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت مذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ، ولكنى كنت امرأً ملصقًا فى قريش وليس لى فيهم من يحمى أهلى وأردت أن آخذ عندهم يدًا ،وقد علمت أن كتابى هذا لن يغنى عنهم شيئًا . فصـــدقه رسول الله ﷺ ، وقبل عذره . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال ﷺ : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ففاضت عينا عمر ـ رضى الله عنه ـ فنزلت .

وروى أن رسول الله ﷺ أمن جميع الناس يوم فتح مكة إلَّا أربعة :هذه المرأة أحدهم .

والمعنى : يا أيها الذين شرُفوا بالإيمان ورفعوا مكانتهم به ، وعَزُّوا بأعماله الصالحة ، وسلوكه الطيِّب : لا تركنوا إلى هؤلاء الراكسين فى الكفر المنغمسين فى الرذائل وقبح السلوك أعدائى وأعدائكم ولا تطمئنوا إليهم ، وتصافوهم فتتخذوهم أولياء وأصحابا تصلون إليهم بالمحبة وتتقربون منهم وتلقون إليهم أسرار النبى وأخبار المؤمنين ، وهم قد كفروا بدينكم ، وعارضوا دعوة رسولكم وأنكروا ما نزل عليه من أخبار الوحى وآيات القرآن ، وجاوزوا ذلك إلى الكيد لكم وإيذائكم والإصرار على إخراج الرسول وإخراجكم من وطنكم وإجلائكم عن بلدكم ؛ لأنكم آمنتم بربكم، واتبعتم هدى نبيكم وتركتم ضلالهم وجهلهم ، وقوله تعالى : (إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى) مرتب على قوله ـ تعالى ـ : (لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) .

والمعنى : إن كان خروجكم عن صدق إيمان ورسوخ عقيدة ورغبة فى دين الله وابتغاء مرضاته فلا تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياءَ تفضون إليهم بالمحبة ، وتهمسون لهم بأَسراركم وأخباركم تظنون أنها خافية وقد علمتم أن الإخفاءَ والإعلان سيَّان فى علمى ، وأنا مطلع على ما أخفيتم وأظهرتم ، ومن يفعل هذا الفعل من موالاة المشركين ، وإلقاء الأَسرار إليهم فقد أخطأَ طريقِ الحق والصواب ، وفى الآية إشارات منها :

١ - تقديم الرسول على المؤمنين فى الإخراج للإشارة إلى أن فى إخراج الرسول قضاء على الإسلام .

٢ - من كان عدوًّا للرسول فهو عدوٌّ لجماعة المسلمين .

٣ - تقديم الإخفاء على الإعلان فى العلم مشعر بإحاطة علم الله وكمال قدرته .

٤ - أن صدق الإيمان يتنافى مع قبح العمل ، والمعصية لا تقدح فى أصل الإيمان .

٢ - (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ) :

تمضى الآيات فى التحذير من موالاة المشركين والتودد إليهم فتكشف خبث طويتهم ودخيلة كيدهم وعداوتهم .

والمعنى: لو يتمكن هؤلاء المشركون منكم ويظفرون بكم تتجلى عداوتهم ويفضح غدرهم وخيانتهم ويظهرون على حقيقتهم ويرتبون على ذلك أحكامهم ويشبعون غيظهم وتمتد أيديهم وتطول ألسنتهم إليكم بالإيذاء ضربا وشتما وتعذيبا وقتلًا ، وكل ما يقدرون على عمله ، مِمَّا يسيئكم ، ويوقع العذاب بكم يفعلونه معكم، وتمنوا لو ترتدون كفارا عن دينكم ، فهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين من الشتم والقتل والتمزيق . وردكم كفارا أسبق المضار عندهم، وأول أمانيهم .

٣ - (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

كان اعتذار حاطب بن أبي بلتعة عن عمله الإشفاق على أهله وقرابته فى مكة فعقبت هذه الآية ببيان أن الأرحام والقرابات لا تعود بالنفع على أهلها إذا لم تعصمها عقيدة ، ويوثقها دين.

والمعنى : لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون من أجلهم أعداءكم إشفاقا على الرحم والولد وتلقون إلى هؤلاء الأعداء بالمودة لأجلهم مراعاة لهم وحبًّا فيهم فإن الكفر يقطع الأنساب ، ويورث العداوة بين الأهل والأقارب والأصحاب ، فإذا كان يوم القيامة يوم الفصل يقضى بينكم وبين أقاربكم وأولادكم . ويحكم بينكم يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه ، والله مطلع وبصير بكل ما تعملونه فيجازيكم على أعمالكم .

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) : قدوة طيبة وخصلة حميدة .

(أَنَبْنَا) : رجعنا .

(فِتْنَةً) : معذبين بهم .

(يَتَوَلَّ) : يُعرض .

التفسـير

٤ ـ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...) الآية إلى قوله : (وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) :

تسوق هذه الآية طرفًا من أخبار سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه تأْكيدًا لأَمر الإنكار والتخطئة فى موالاة الكفار ؛ ليعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان وأقدس روابط المودة فلا ينبغى أن يغفل عنهما .

والمعنى : لقد كان لكم أيها المؤمنون فيما تعلمون من أخبار أبيكم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأصحابه الذين آمنوا به وكانوا معه وما تقرءُونه عنه وعنهم قدوة صالحة وخصلة حميدة من خصال الخير إذ قالوا لقومهم الذين كفروا بالدعوة ، وأنكروا الرسالة وآذوا رسول الله وخليله إبراهيم ـ قالوا لهم ـ : إنا برءاء منكم قاطعون لمودتكم وقرابتكم ، بعيدون عن معايشتكم ومعاملاتكم منكرون لكم ولِما تعبدون من دون الله من الأَصنام والتماثيل ـ كفرنا بكم قرابة وأهلًا ، وكفرنا بآلهتكم ومعبوداتكم واستحكمت بيننا وبينكم العداوة والبغضاءُ . وبدت القطيعة والجفاءُ ، وكان هذا شأْننا معكم ودأبنا فى معاملتكم لا نتركه ولا نحيد عنه ، فسيروا على سيرة أبيكم إبراهيم ، والتزموا منهجه فى معاداة أعدائكم ، وخذوا منه القدوة الحسنة . والأُسوة الصالحة ولا تستغفروا لهؤلاء الكفار ، واعلموا أن استغفار إبراهيم لأَبيه ما كان إلَّا عن عدة وعده إيَّاها فوفَّى له بها طمعًا فى أن يسلم ورجاءَ أن يهتدى . فلمَّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وأعلن أنه لا يملك له من الله شيئا يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضرًّا .

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) : يحتمل أن يكون من تمام ما نقل عن إبراهيم - عليه السلام - ومن معه من جملة التأسى ، وأن علينا أن نقتدى به دائما فى التوكل على الله ، والإنابة إليه وتفويض المصير والأمور كلها لله .

وتقديم المجرور لإفادة قصر التوكل والإنابة إلى الله على الله وحده .

ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا ، لبيان مجاهدتهم لأعداء الله والالتجاء إليه فى جميع أمورهم لا سيما فى مدافعة الكفرة ، وكفاية شرورهم كما ينطق بذلك قوله - تعالى - : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ...) الآية .

٥ - (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : نسألك يا ربنا وندعوك ضارعين ألَّا تسلط علينا الذين كفروا فيفتنونا بإغراءات أو عذاب لا نطيقه يقهرنا ، واغفر لنا ما فرط منا ، ربنا إنك أنت العزيز الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، الحكيم الذى يضع الأمور فى مواقعها ، ولا يفعل إلَّا عن حكمة بالغة .

٦ - (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) :

أعيد طلب التأسى للمبالغة فى الحث على الاقتداء به - عليه السلام - والتأسى بمناقبه وبيان أنه السلوك المستقيم ، ولذلك صدر بالقسم وذيل بقوله : (لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) بدل (لكم) للإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك هذا الاقتداء ، وأن ترك الاقتداء بهم من مخايل عدم الإيمان بهما - كما ينبئ عن ذلك قوله - تعالى - : (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) أى : ومن يعرض عن الاقتداء والتأسى بهم فقد باعد بينه وبين الله ، وحرم نفسه فضله ورحمته والله هو الغنى عن كل شىء ، المحمود بكل لسان ، والله أعلم .

* (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ) : وتقضوا إليهم بالقسط والعدل .

(الْمُقْسِطِينَ) : العادلين .

(وَظَاهَرُواْ عَلَىٓ إِخْرَاجِكُمْ) : وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم .

التفســـير

٧ - (عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

بعد أن أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار فى الآيات السابقة وامتثلوا الأمر وتشددوا فى عداوة ومقاطعة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ، وظهر منهم الجد فيه ، والصِّدق والصبر والرغبة فى وصل ما انقطع بينهم وبين أقربائهم لكفرهم رحمهم ووعدهم بتيسير ما تمنَّوه ، وتذليل ما رغبوا فيه فقال - سبحانه - :

(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) : هذا وعد من الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من الكفار مودة بأن يهديهم للإيمان ويوفقهم إليه فيكونوا لكم أولياء وتوجد المحبة بعد البغضة ، والألفة بعد الفرقة ، والله تام القدرة على مايشاءُ من الجمع بين الأشياء المتنافرة فيؤلف بين القلوب المتعادية القاسية لتصبح مجتمعة متفقة . قال ـ تعالى ـ : « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

فلما يسّر الله فتح مكة أظْفَرهم بأُمنيتهم فأَسلم قومهم وتمَّ بينهم من التَّحابِّ والتصافى ما تم ويدخل فى ذلك أبو سفيان وأحزابه من مسلمى الفتح .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : والله واسع المغفرة يغفر للكافرين كفرهم إذا أسلموا وتابوا وأنابوا إلى ربهم والله كثير الرحمة بعباده المخلصين ، روى ابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلمَّا قُبض رسول الله ﷺ ، أقبل فلقى ذا الخِمار مرتدا فقاتله ، فكان أوَّل من قاتل فى الرّدة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممَّن أنزل الله فيه : (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) .

٨ ـ (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدِّين من الكفار ولم يُخرجوكم من دياركم أن تُحسنوا إليهم وتكرموهم وتمنحوهم صِلَتكم وتعدلوا بينهم ، إنَّ الله يُحب أهل البر ، والتَّواصل والحق والعدل . جاء فى الحديث الصحيح : (المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش : الذين يعدلون فى حُكمهم وأهاليهم وماوَلُوا) ، وأخرج البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ قالت : (أتتنى أُمِّى راغبة ـ وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسأَلت رسول الله أأصلها ؟ فأَنزل الله ـ تعالى ـ :

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣

(لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ ...) الآية ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : (نعم صِلِي أُمَّك) ، وقال الحسن : نزلت الآية فى خُزاعة وغيرها من قبائل العرب كانوا صالحوا رسول الله ﷺ على ألَّا يقاتلوه وألَّا يعينوا عليه ، وقال قرة الهمدانى : نزلت فى قوم من بنى هاشم منهم العباس ، وعن عبد الله بن الزبير : نزلت فى النساء والصبيان من الكفرة .

والأكثرون على أنها نزلت فى كفرة اتصفوا بما فى الآية أى : (لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ) .

٩ – (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى : إنما ينهاكم الله عن الذين حاربوكم فى الدين ليصدُّوكم عنه وأجبروكم على الخروج من دياركم وعاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا فى إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا من أخرجوهم ، إنما ينهاكم الله عن موالاتهم وأن تتخذوهم أنصارا لكم وأعوانا ويأمركم بمعاداتهم ، ثم أكَّد الوعيد على موالاتهم فقال : (وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أى : ومن يتخذوهم أولياء لهم وأعوانًا فأُولئك الظالمون المتجاوزون الحد لوضعهم الولاية موضع العداوة ، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وفى أُسلوب القصر من المبالغة ما لا يخفى .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾)

المفـردات :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ) : فاختبروهن وابتلوهن .

(أُجُورَهُنَّ) : مهورهن .

(وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) العصم : جمع عصمة ، وهو ما يعتصم به من عقد وسبب .

(فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) : سبقكم .

(فَعَاقَبْتُمْ) : فكانت العقبى والنصر والغلبة لكم .

التفسـير

١٠- (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ

مَّآ أنفقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَآ أنفقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أنفقُواْ ذَٰلكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ) .

تقدم فى سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله وبين كفار قريش فكان فيه : على ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا ، وفى رواية .على ألّا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا .وهذا قول عُروة والضحاك وغيرهما .

وفى هذه الآية أمر الله – عز وجل – عباده المؤمنين إذا جاءهم النساءُ مهاجرات من دار الشرك أن يختبروهن ليعلموا صدق إيمانهن ومبلغ يقينهن والله أعلم بذلك فإنه – سبحانه – هو المطلع على ما فى قلوبهن ، فإن علموهن مؤمنات فلايردوهن إلى أزواجهن الكفار لئلايفتنوهن عن دينهن .

روِى أنَّ أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى معيط كانت أول المهاجرات فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله فكلَّماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة فمنعهم الله أن يردُّوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان .

قال ابن جرير : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساءَ ؟ فقال : كان يمتحنهن بأن يقلن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت عن أرض إلى أرض وبالله ماخرجت التماس دنيا ، وبالله ماخرجت إلّا حبًّا لله ولرسوله ، ثم رواه من وجه آخر وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن – عن أمر رسول الله له – عمر بن الخطاب .

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) : تعليل للنهى عن إرجاعهن إليهم .

والمعنى : لا المؤمنات حلال للكافرين ولا الكافرون حلال للمؤمنات ، الجملة الأُولى : (لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ) لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح الأَول ، والثانية : (وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) لبيان امتناع مايستأنف ويستقبل من النكاح ، ويجوز أن يكون ذلك تكريرا للتأكيد ، والمبالغة فى الحرمة وقطع العلاقة .

قال ابن كثير : وهذه الآية هى التى حرّمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزا فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان حال أبى العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ﷺ زينب - رضى الله عنها - وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأُسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها الرسول رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين : (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا) ، ففعلوا فأطلقه رسول الله على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى رسول الله مع زيد بن حارثة - رضى الله عنها - فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردّها عليه بالنكاح الأوّل ، ولم يُحدث لها صداقا .

(وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ) أى : وأعطوا أزواج المهاجرات من المشركين مثل ما دفعوا إليهن من المهور .

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أى : ولا حرج عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا أعطيتموهن صداقهن .

(وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) أى : ولا تتمسكوا بعقد زوجية الكافرات الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها ، والمراد نهى المؤمنين أن يكون بينهم وبين الزوجات المشركات الباقيات فى دار الحرب عُلْقة من عُلق الزوجية أصلًا ، قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتَد بها من نسائه (أى لا يعتبرها من نسائه) لأن اختلاف الدينين والدارين قطعا عصمتها منه ، وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعى أنه قال : نزل قوله - تعالى - : (وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) فى المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فلا يمسك زوجها بعصمتها .

وتحقيقا لأمر الله بمفارقة الكافرات نقل محمد بن إسحاق عن الزهرى : طلّق عمر لذلك فاطمة بنت أبى أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم الخزاعية فتزوجها أبو جهم .

(وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ) أى : واطلبوا من الكفار ما أنفقتم من صداق على اللاحقات بدار الشرك ، وليطلبوا هم ما أنفقوا على زوجاتهم المهاجرات إلى المسلمين .

(ذَٰلِكَ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) أى : ذلك الحكم السابق والتشريع الربانى العادل فى صلح الحديبية واستثناء النساء منه والأمر بما سبق ذكره هو حكم الله يفصل به بينكم ويحكم به بين خلقه .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى : والله عليم بمصالح عباده حكيم فى تشريعه ، يشرع ما تقتضيه الحكمة ، روى أنه لما نزل هذا الحكم أدى المؤمنون ما أُمِرُوا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن وأبى المشركون أن يردُّوا شيئا من مُهور الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين فنزل قوله تعالى :

١١ – (وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِيٓ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) :

(وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ) أى : وإن لحق أحد من أزواجكم بالكفار أو فاتكم شىء من مهورهن ولزمكم أداءُ المهر كما لزم الكفار .

(فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا) أى : فآتوا الذين ذهبت زوجاتهم مثل ما أنفقوا عليهن من صداق وهذا على أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) من العقبة لا من العقاب (وهى فى الأصل : النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده) أى : فجاءت عقبتكم أى : نوبتكم من أداءِ المهر .

وحمل الآية على هذا المعنى يوافق ما روى عن الزهرى أنه قال : يُعْطَى من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم !

وعن الزجاج أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) : فغنمتم ، وحقيقته : فأصبتم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم فكأنه قيل : وإن فاتكم شىءٌ من أزواجكم إلى الكفار ولم يؤدُّوا إليكم مهورهن فغنمتم منهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة .

وهذا هو الوجه دون ما سبق ، ولقد كان ﷺ كما روى عن ابن عباس – يعطى المهر الذى ذهبت زوجته من الغنيمة (قبل أن تُخمَّس) ولا ينقص من حقه شيئا ، (وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِيٓ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإن الإيمان به – عز وجل – يقتضى تقواه والعمل بأحكامه ، والتزام شريعته .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢))

المفـــردات :

(يُبَايِعْنَكَ) : يعاهدنك .

(بِبُهْتَانٍ) : بزور وكذب بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

(يَفْتَرِينَهُ) : يختلقنه .

التفســـير

١٢ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك ومعاهدات على هذه الأمور (عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) أى : على ألَّا يشركن بالله شيئا من الأشياء أو شيئا من الإشراك ، (وَلَا يَسْرِقْنَ) أى : ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إن كان الزوج مقصرا فى نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملًا بحديث هند بنت عتبة وسيأتى ، (وَلَا يَزْنِينَ) ولقد ذكر فى حديث رسول الله عقوبة الزنا بالعذاب الأليم فى نار جهنم ، ولقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله فأخذ عليها (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ...) الآية - قال : فوضعت يدها على رأسها حياءً ، فأعجبه ما رآه منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلَّا على هذا . قالت : نعم إذن فبايعها بالآية (ابن كثير) .

(وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) : وهذا يشمل قتلهم بعد وجودهم كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، وقتلهم وهم أجنة كما يفعله بعض الجهلة من النساء .

(وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها .

وفى الكشاف ما يؤيد هذا المعنى .

وحمل الآية على ما ذكر هو الذى ذهب إليه الأكثرون ، وروى ذلك عن ابن عباس وقال بعض الأجلة : معناه لا يأتين ببهتان ، أى : بكذب وزور من قبل أنفسهن ، واليد والرجل كناية عن الذات ؛ لأن معظم الأفعال بهما ، وقيل : البهتان : السحر ، وللنساء ميل شديد إليه فنهين عن ذلك وليس بشىء . (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) أى : ولا يعصينك فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن رسول الله لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ، ويرد به على من زعم من الجهلة أن طاعة أولى الأمر لازمة مطلقا ، وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة لما أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجة وغيرهم عن أم سلمة الأنصارية ؛ قالت امرأة من هذه النسوة : ما هذا المعروف الذى ينبغى لنا ألَّا نعصيك فيه ؟ فقال ﷺ : « لَا تَنُحْنَ ... » الحديث ، ونحوه من الأخبار الظاهرة فى تخصيصه بما ذكر كثير ، والحق العموم ، وما ذكر فى الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة ، ويشهد للعموم قول ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح ، وشق الجيوب وشم الوجوه ، ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها ، وتخصيص الأمور المعدودة بما ذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن . (فَبَايِعْهُنَّ) أى : فعاهدهن بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها (وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ) واطلب لهن المغفرة من الله زيادة على ما فى ضمن المبايعة من ضمان الثواب . (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : واسع المغفرة عظيم الرحمة فيغفر – عَز وجَلَّ – لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه .

وهذه الآية نزلت على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل يوم الفتح ، فبايع رسول الله الرجال على الصفا وعمر – رضى الله عنه – يُبايع النِّساءَ تحتها عن رسول الله ﷺ وجاء أنَّه – عليه الصلاة والسلام – بايع النساء أيضا بنفسه الكريمة ، أخرج الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة والترمذى وصححه وغيرهم عن أُميمة بنت رُقَيْقة قالت : أتيت النبى ﷺ لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) حتى بلغ (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) فقال : (فيما استطعن وأطقن) .قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألَا تصافحنا فقال : إنِّى لا أُصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة .

والمبايعة وقعت غير مرة ، ووقعت فى مكة بعد الفتح وفى المدينة .

وممن بايعه – عليه الصلاة والسلام – فى مكة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ففى حديث أسماء بنت يزيد بن السكن : كنت فى النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة فى النساء فقرأ ﷺ الآية فلما قال : (عَلَىٰٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) . قالت هنـــد : وكيف نطمع أن يقبل منَّا ما لم يقبل من الرجال ، يعنى أن هذا بيِّن لزومه ، فلما قال : (وَلَا يَسْرِقْنَ) قالت : والله إنِّى لأُصيب الهنة من مال أبى سفيان لا يُدرى أيحل لى ذلك ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما نجد فهو لك حلال فضحك رسول الله وعرفها فقال لها : (وإنك لهند بنت عتبة) . قالت : نعم فاعف عمَّا سلف يا نبى الله عفا الله عنك ، فقال : (وَلَا يَزْنِينَ) ، فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) ، فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا – تعنى ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبى سفيان فإنه قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى ،وتبسم رسول الله ، وفى رواية أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد؟فضحك رسول الله فقال : (وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ) ، فقالت : والله إنَّ البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله إلَّا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء ، وكان هذا منها دون غيرها لمكان أم حبيبة – رضى الله عنها – من رسول الله مع أنها حديثة عهد بجاهلية ، ويروى أن أول من بايع من النساء أم سعيد بن معاذ وكبشة بنت رافع مع نسوة أخرى – رضى الله عنهن –

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾)

التفسير

١٣ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) :

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر هذه السورة كما نهى عنها فى أولها فقال : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) وهم اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء . (قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الْآخِرَةِ) أى : يئسوا من خيرها وثوابها لعنادهم الرسول المنعوت فى كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات .

(كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) . قال ابن كثير : - فيه قولان - :

أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من أقربائهم الذين فى القبور - أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لايعتقدون بعثا ولا نشورا فقد انقطع رجاؤهم فى لقائهم وذلك حسب اعتقادهم وبهذا القول قال ابن عباس ،وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك .

والقول الثانى معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير ينالهم فى الآخرة فقوله - تعالى - : (مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) بيان للكفار . قال الأعمش عن أبى الضحى عن ابن مسعود (كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين عقابه واطلع عليه ،وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وهو اختيار ابن جرير . ا هـ ابن كثير بتصرف .

وقال الزمخشرى : روى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزل قوله - تعالى - : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

سورة الصف
مدنية وآياتها اربع عشرة

اسماء هذه السورة :

وتسمى سورة الحَواريين ، وسورة عيسى – عليه السلام – وهى مدنيَّة ، ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه فأنزل – سبحانه – : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها ،

مناسبتها لما قبلها :

ومناسبتها لما قبلها اشتمالها على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى عن اتخاذ الكفار أولياء الذى تضمنته السورة السابقة (سورة الممتحنة) .

اهم مقاصد السورة :

تخبر السورة الكريمة فى افتتاحها بأنَّ الله – سبحانه – نزهه عمَّا لا يليق به كُل مافى السمٰوات وكُل ما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، ثم تبين أنه لا يليق بالمؤمنين أن تخالف أفعالهم أقوالهم ؛ لأن هذه ليست طباع المؤمنين الصادقين ، بل هذا خلق يبغضه الله ويمقته .

ثم ترسم السورة لوحة جميلة ، وصورة مشرقة يحبها الله للمؤمنين وهم يقاتلون فى سبيل الله لإعلان الدين صفًّا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص ، ففى اجتماعهم قوتهم ، وفى اتحادهم عزتهم ثم تُسلِّى الرسول عمَّا يحدث له ، بما قد حدث لرسولين سابقين عليه جاءا إلى بنى إسرائيل وهما : موسى – عليه السلام – فآذوه مع علمهم بأنه رسول الله لكثرة ما جاءهم به من المعجزات فلما أصَرُّوا على الانحراف أمال الله قلوبهم عن الهداية والله لايهدى القوم الفاسقين .

أما عيسى – عليه السلام – فقد أخبر بنى إسرائيل أنه رسول الله إليهم ، مصدقاً لِما قبله من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول المُبَشَّر به بالآيات كفروا به وقالوا : هذا سحرٌ مبين ، وتذكر السورة أن بنى إسرائيل لكفرهم وعنادهم وضلالهم

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، وهم فى سعيهم مخفقون وعاجزون ، فهل يستطيع أحد أن يطفىء نور الله بفمه ، هيهات هيهات « وَيَأْبَى اللهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[1] ، كما تذكر أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى أرسل محمدا بالقرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم ترشد السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة التى تنجيهم من عذاب أليم ، وهى الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس ، وربحُهم من هذه التجارة ، غفران الذنوب ودخولهم جنات النعيم ، ولهم نعمة أخرى يُحبُّونها ، وهى نصرٌ من الله وفتحٌ قريب ، ثم تدعو السورة المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله كما كان الحَواريون مع عيسى أيضًا أنصارًا لله ، وتختم السورة ، بأن الله يؤيد بنصره أولياءه وأصفياءه حتى يصبحوا على عدوهم غالبين منتصرين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نزهه عما لا يليق ، ومجده ، ودل عليه .

(الْعَزِيزُ) : الغالب على كل شىء .

(كَبُرَ مَقْتًا) : عظم بغضا ، وكره كرها شديدا .

(صَفًّا) : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين .

(بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) : بنيان متلاصق محكم لا فرجة فيه .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٣٢

التفسـير

١ ـ (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

يخبر الله تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأَرض من الحيوانات والنباتات وغيرهما يُسبحه ـ جلَّ وعَلَا ـ وينزهه عمَّا لا يليق به ويمجده ويُقدسه ويُصلِّى له ويُوحِّده ويدلّ عليه وهو ـ سبحانه ـ وحده الغالب على كل شىء الذى خضع له كل شىء وهو ذو الحكمة البالغة يضع الشىء فى موضعه .

٢ ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : يا أَيها الذين آمنوا لأَى شىء تقولون بأَلسنتكم ما لا تصدقه أفعالكم ، وما لا تفعلونه من الخير والمعروف ، على أن مدار التوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وُجِّه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم .

قال الزمخشرى : هذا الكلام تناول الكذب وإخلاف الوعد ، روى أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أَحب الأَعمال إلى الله لعملناه ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدَلَّهم الله على الجهاد فى سبيله فَوَلَّوْا يوم أُحد فعيَّرهم ، وقيل : لمـا أخبر الله بشهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالًا لنُفْرِغن فيه وُسْعَنا ففروا يوم أُحد ، ولم يَفُوا ، وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وقيل : كان قد آذى المسلمين رجل فقتله صُهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصُهيب : أخبر الرسول أنك قتلته ، فقال : إنما قتلته لله ولرسوله ، فقال عمر : يا رسول الله قتله صهيب ، قال : ذلك يا أبا يحيى . قال : نعم فنزلت فى المُنْتحِل ، وعن الحسن : نزلت فى المنافقين ، ونداؤهم بالمؤمنين فى الآية الكريمة (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ) تهكم بهم وبإيمانهم .

٣ ـ (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : كره الله كرها شديدا أن تقولواْ ما لا تفعلون وأن تخالف أفعالكم أقوالكم .

قال الآلوسي والزمخشري : قصد في (كَبُرَ) التعجب وتعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأن التعجب لا يكون إلّا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه – ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً حتى جعله أشده وأقبحه وأفحشه ، وكونه (عِند الله) فيه دلالة على أنه أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله الذي يحقر دونه كل عظيم ، فقد تم كبره وشدته ، وتفسير المقت بما سمعت ذهب إليه كثيرٌ من أهل اللغة .

٤ – (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) :

هذا بيان لِمَا هو مَرْضِيٌّ عنه عنده سبحانه وتعالى بعد بيان ما هو ممقوت لديه جل شأنه والمشار إليه بقوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ...) الآية . وظاهره يرجح أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال دون غيره .

وهذا هو إخبار من الله – تعالى – بمحبته عباده المؤمنين إذا صُفُّوا مُواجهين أعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثةٌ يضحكُ اللهُ إليهم : الرجلُ يقومُ من الليل ، والقومُ إذا صُفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صُفُّوا للقتال) .

وقوله تعالى – : (كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) أي : كأنهم في تَراصهم والتحام بعضهم ببعض من غير فرجة ولا خلل (بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) رُصَّ وضم بعضه إلى بعض .

والمرصوص على ما قاله الفراء المعقود بالرصاص ، ويراد به المحكم ، وقال المبرد : رصصت البناء لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه الرصيص وهو انضمام الأسنان ، وقيل : المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وتوحيد الرأي كالبنيان المرصوص ، والأكثرون على الأول .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦)

المفـــردات :

(زَاغُواْ) : مالوا باختيارهم عن الحق وأصروا على الانحراف عنه .

(أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) : حرمهم الله التوفيق لاتباع الحق ، وأمال قلوبهم عن قبول الهداية .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) : مصدقا لما تقدمنى وجاء قبلى من التوراة .

التفســـير

٥ ـ (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى) هذا كلام مستأنف مقرر لِمَا قبله من شناعة ترك القتال .

والمراد : اذكر يامحمد لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى ـ عليه السلام ـ لقومه بنى إسرائيل حين ندبهم لقتال الجبابرة بقوله : « ادْخُلُواْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ

اللهُ لَكُمْ » (١) ، فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : « يَامُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا » (٢) ، وقولهم : « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » (٣) .

وأصرُّوا على ذلك كل الإصرار وآذوه - عليه السلام - كل الإيذاء فوبخهم على ذلك بما حكاه الله عنه بقوله : (يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي) أى : لم تؤذوننى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ) أى : والحال أنكم تعلمون علما قطعيًّا بمشاهدة ما ظهر على يدىَّ من المعجزات الباهرة التى منها إهلاك عدوكم وإنجاؤكم منه ، تعلمون أنى رسول الله إليكم لأُرشدكم إلى خيرى الدُّنيا والآخرة وكان مقتضى علمكم بذلك أن تبالغوا فى تعظيمى ، وتسارعوا إلى طاعتى ، لا أن تؤذونى وتستهينوا بى ؛ لأَن من عرف الله وعظمته عظَّم رسوله ، ولأَن من آذى رسول الله كان وعيد الله لاحقا به .

(فَلَمَّا زَاغُواْ) أى : فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاءهم به موسى - عليه السلام - واستمروا على ذلك ، (أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) أى : صرفها عن قبول الحق وعن الميل إلى الصواب لصرف اختيارهم للعمى والضلال (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

تذييل مقرر لمضمون ما قبله - أى : والله لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المُصرِّين على الغواية .

والمراد بهم إما المذكورون خاصة ، والإظهار فى مقام الإضمار لذمّهم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمهم دخولًا أوليًّا .

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم إياه - عليه السلام - بما كان من انتقاصه وعيبه فى نفسه وما ذكر أولًا هو الذى تقتضيه جزالة اللفظ الكريم لمناسبته لما قبله .

---

(١) سورة المائدة من الآية ٢١

(٢) سورة المائدة من الآية ٢٢

(٣) سورة المائدة من الآية ٢٤

٦ ـ (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) :

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) : إذ معطوف على إذ الأُولى ، والمعنى : واذكر يا محمد حين أن قال عيسى ابن مريم : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) ولعله ـ عليه السلام ـ لم يقل : (يَا قَوْمِ) كما قال موسى ، بل قال : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأَب فيهم ، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم من قوم موسى ـ عليه السلام ـ هضما لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم ، وفيه من الاستعطاف ما فيه ، وقيل : إن التعبير بما ذكر لِمَا فيه من التعظيم لهم فقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل ـ عليه السلام ـ .

(إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) أى : إنى مرسل منه ـ تعالى ـ إليكم حال كونى مصدقا لِمَا تقدمنى وجاء قبلى من التوراة ، وذكر هذه الحال : لأنه مِن أقوى الدواعى إلى تصديقهم إياه ـ عليه السلام ـ وقوله ـ تعالى ـ : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) معطوف على مصدقا وهو داع أيضا إلى تصديقه ـ عليه السلام ـ من حيث إن البشارة بهذا الرسول واقعة فى التوراة ويتضمن كلامه ـ عليه السلام ـ أن دينه التَّصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه وجملة (يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) صفة لرسول الله ﷺ ، وهذا الاسم الجليل (أَحْمَدُ) علم لنبينا ، وصح من رواية مالك والبخارى ومسلم عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى أسماء ، أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب » .

والعاقب : الذى ليس بعده نبى ، وأحمد منقول من الفعل المضارع للمتكلم ، أو من أفعل التفضيل من الحامدية أو المحمودية ، وبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ بنبينا مما نطق به القرآن المُعجز فإنكار النصارى له ضرب من الجحود والهذيان .

ذكر الآلوسى أنه ورد فى إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف ، وسلك الصِّراط السَّوى وما تعسَّف ، ففى الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : (إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء) ، وقال يوحنا أيضا : قال المسيح : (من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ... إلخ) .

(والفارقليط) لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته ﷺ من كلام عيسى – عليه السلام – ممَّا لا غبار عليه لمن كشف الله غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحمَّاد وبعضهم بالحامد فى مدلوله إشارة إلى اسمه – عليه الصلاة والسلام – أحمد : (فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى : فلمَّا جاءهم عيسى – عليه السلام – بالمعجزات الظاهرة قالوا مشيرين إلى ما جاء به عيسى ، وقيل : مشيرين إلى ما جاء به أحمد – عليه الصلاة والسلام – (هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده قراءة طلحة والأعمش : هذا ساحر .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ) أى : لا أحد أشد ظلما .

(افْتَرَىٰ) : اختلق بادعاء الشركاء له .

(نُورَ اللهِ) : الحق الذى جاء به الرسول .

(بِالْهُدَىٰ) : بالقرآن .

(دِينِ الْحَقِّ) : الإسلام .

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على جميع الأديان .

التفسـير

٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ) :

أى : أىُّ النّاس أشد ظلما ممن يُدْعى إلى الإسلام الذى يُوصله إلى سعادة الدارين فتكون استجابته الافتراء والاختلاق على الله بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا ، والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، والآية فيمن كذب من هذه الأُمة على مايقتضيه السياق ، وهى وإن كانت فى بنى إسرائيل الذين جاءهم عيسى - عليه السلام - ففيها تأْييد لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذى جاء به نبينا - عليه الصلاة والسلام - بل الإسلام هو كل دين جاء به الأَنبياءُ والمرسلون (وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى : لا يوفقهم إلى ما فيه فلاحهم لسوء استعدادهم وعدم توجههم إليه .

٨ - (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) :

هذا تمثيل لحالهم - وهم يجتهدون فى إبطال الحق - بحال من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها ؛ تهكمًا وسخرية بهم .

والمعنى : يفترى بنو إسرائيل الكذب على الله لكى يطفئوا نور دينه بأفواههم ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه ، والله مكمل الحق ومبلغه غايته بإتمام دينه ، وعن ابن عباس وابن زيد : يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقيل : يريدون إبطال شأن النبى وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم ، فقد روى عن ابن عباس : أن الوحى أبطأ أربعين يوما فقال كعب بن الأشرف : يامعشر يهود أبشروا أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره . فحزن الرسول فنزلت : (يُرِيدُونَ ...) الآية .

وقوله ـ تعالى ـ : (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) أى : ولو كره الجاحدون ، وفيه إشارة إلى أنه ـ عز وجل ـ متم ذلك قسرا عنهم وإرغاما لهم .

٩ ـ (هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) :

أى : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى أى : بالقرآن ، أو المعجزة عامة ، وجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ، ودين الحق وهو الملة الحنيفية ودين الإسلام ليظهره على الدين كله أى : ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، ولقد أنجز الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعده ، إذ جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلَّا وهو مقهور مغلوب بدين الإسلام ، فقد هزم الأديان الباطلة ونسخ الأديان السماوية السابقة .

وعن مجاهد : إذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن فى الأرض إلَّا دين الإسلام .

وقيل : المراد بالإظهار : الإعلاء بوضوح الأدلة وسطوع البراهين وذلك أمر مستمر أبدا .

(ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أى : ولو كره المشركون ذلك لِمَا فيه من التوحيد الخالص وإبطال الشِّرك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(أَدُلُّكُمْ) : أرشدكم .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة .

(وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا) أى : ولكم من النعم نعمة أخرى تحبونها فى الدنيا .

التفســـير

١٠ ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

جاء فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأنزل الله هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا هل أرشدكم إلى تجارة عظيمة الشأن تنجيكم وتخلصكم من عذاب شديد الألم يوم القيامة .

١١ - (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

استئناف بيانى كأنه قيل : ما هذه التجارة الجليلة الشأن ؟ دلّنا عليها ، فقيل : « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) أى : هذه التجارة هى أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله وتجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والمضارع فى الموضعين (تُؤْمِنُونَ ، وَتُجَاهِدُونَ) كما قال المبرد وجماعة : خبر بمعنى الأمر ، أى : آمنوا وجاهدوا ، ويؤيده قراءة عبد الله كذلك ، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال ، كأن الإيمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : ذلكم ما ذكرته وأرشدتكم إليه من الإيمان والجهاد ، خيرٌ لكم على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : إن كنتم من أهل العلم ؛ إذ الجهلة لا يعتد بأعمالهم حتى توصف بالخيرية ، وقيل : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم حينئذ ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم وتُخلِصون وتفلحون .

١٢ - (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى : آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم - فيغفر جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - : (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ) ويجوز أن يكون التقدير : إن تؤمنوا وتجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) أى : طاهرة زكية مستلذة ، وهذا إشارة إلى حسنها بذاتها ، وقوله - تعالى - : (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) إشارة إلى حسنها باعتبار محلها (ذَٰلِكَ) أى : الجزاء الذى ذكر من المغفرة وما عطف عليها (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا فوز بعده ..

١٣ ـ (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : ولكم أيها المؤمنون المجاهدون إلى ما ذكر من النعم من المغفرة والرضوان فى الآجلة نعمة أخرى عاجلة تحبونها ثم فسرها بقوله : (نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) أى : عاجل وهو فتح مكة ، وعطف (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) على (تُؤْمِنُونَ) ؛ لأنه خبر فى معنى الأمر كما قدمنا ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(الْحَوَارِيُّونَ) : أصفياء عيسى وخواصه .

(فَأَيَّدْنَا) : فقوينا .

(ظَاهِرِينَ) : غالبين ومنتصرين .

التفســـير

١٤ ـ (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) :

يقول الله تبارك وتعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ والحواريون : هم أتباع عيسى وأصفياؤه وأول من آمن به ، قيل : كانوا اثنى عشر رجلًا فرقهم فى البلاد وبعثهم دعاة إلى الناس فى البقاع المختلفة ، واشتقاق الحواريين من الحَوَرِ وهو البياض ؛ لأنه كان ملبسهم ، وقيل : لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب ، وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وقيل : الحواريون هم المجاهدون .

وكذلك كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : (مَنْ رجل يؤوينى حتى أُبلغَ رسالةَ ربى ؟) حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه على أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم بمن معه من أصحابه ، ووفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علما عليهم – رضى الله عنهم – وأرضاهم ، وقوله – تعالى – : (فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أى : لما بلَّغَ عيسى – عليه السلام – رسالة ربه إلى قومه وآزر من آزره من الحواريين اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاء به وضلت طائفة ، فخرجت عما جاء به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم والأباطيل وهم اليهود – عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة – ونحلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل : إنه ابن الله ، ومن قائل : إنه ثالث ثلاثة – الأب والابن وروح القدس – وقوله – تعالى – : (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ) أى : فنصرنا وقوينا الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا به فصاروا بتقويتنا ومساعدتنا غالبين منتصرين . قال زيد بن على : ظاهرين بالحجة والبرهان .

وقيل : المراد (فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أى : فآمنت طائفة من بنى إسرائيل بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وكفرت به طائفة أخرى ، فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين ، والله أعلم .

سورة الجمعة
مدنية وآياتها إحدى عشرة

الجمهور على أن هذه السورة مدنية ، ففى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « كنا جلوسًا عند النبى ﷺ حين نزلت سورة الجمعة .. » الحديث.

وإسلام أبى هريرة بعد الهجرة بالاتفاق ، ولأن أمر الانفضاض عند مجىء تجارة أو لهو الذى جاء فى آخر السورة ، وكذا أمر اليهود المشار إليه بقوله تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ ...) لم يكن إلا بالمدينة .

صلتها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى : لَمَّا ذكر حال موسى - عليه السلام - مع قومه ، ونعى عليهم إيذاءهم له ، ذكر فى هذه السورة حال الرسول ﷺ وفضل أمته تشريفًا لهم ؛ لينظر الفرق بين الأمتين ، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود ، ولأنه تعالى لَمَّا ذكر فى السورة السابقة قول عيسى - عليه السلام - : « وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ... » قال هنا : (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ..) إشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى ، ولأنه تعالى لَمَّا ختم السورة السابقة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير التجارة الدنيوية ، إلى غير ذلك من المناسبات .

بعض مقاصد السورة :

حكت سورة الجمعة أنه تعالى يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، ووصفته بأنه الملك القدوس العزيز الحكيم ، وأنه هو الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم يُعَلِّمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا فى جاهليتهم فى ضلال مُبين ، وضربت مثلًا للذين حملوا التوراة ولم يعملوا بها ، أنهم كمثل الحِمَار يَحمل أسفارًا وكتبًا وهو لا يعلم ولا يعمل بها ، وكذبت اليهود فى زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس ، وتحدتهم بأن يطلبوا من الله الموت إن كانوا صادقين ؛ ليكونوا فى رِحاب من أحبُّوه ، وذكرت أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من السيئات ، وأنهم يَفِرُّونَ منه وسيلاقُونه ثم يعودون إلى الله - تعالى - فيحاسبهم ويجازيهم.

وحثت السورة المؤمنين على أن يستجيبوا لنداء صلاة الجمعة ويتركوا التجارة مدة الصلاة وما يتصل بها ؛ ليعودوا إليها بعد الصلاة إن شاءوا ، وحذَّرهم من إيثارها على الصلاة ، ولامهم على الخروج من المسجد أثناء خطبة الجمعة من أجل اللَّهو والتِّجارة التى وصلت إلى المدينة أثناء الخطبة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢) وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ج وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ج وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٤))

المفـــردات :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ) التسبيح : التنزيه .

(الْقُدُّوسِ) : البالغ غاية الطهر ، وهو على وزن فُعُّول من القدس وهو الطهر والقدوس من أسماء الله الحسنى .

(الْأُمِّيِّينَ) : الذين لا يقرءُون ولا يكتبون .

(رَسُولًا مِّنْهُمْ) : رسولًا أميًّا مثلهم .

(وَيُزَكِّيهِمْ) : ويطهرهم من أقذار العقائد والأخلاق والعادات التى كانت لهم فى الجاهلية .

(الْكِتَابَ) : القرآن .

(وَالْحِكْمَةَ[1]) : السنة .

(لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : لفى بُعْد واضح عن الحق والحكمة ، لجاهليتهم التى كانوا فيها .

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) : وبعثه فى آخرين من الأميين لم يؤمنوا بعد وسيؤمنون مثلهم .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : الغالب .

(الْحَكِيمُ) : المتقن للأمور .

(فَضْلُ اللهِ) : إحسانه وعطاؤه .

التفسـير

١ ـ (يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

جاء التعبير بلفظ المضارع (يُسَبِّحُ) ليفيد أن تسبيح ما فى السموات وما فى الأرض لله تعالى متجدد فى كل وقت ، والمراد من (مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) جميع أجزائهما وما استقر فيهما ، وتسبيح ذلك إما تسبيح دلالة كما فى قول الشاعر :

وفى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِد

وإما تسبيح مقال ، وهو فى كلِّ شىء بحسبه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النور :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ »[2] ، وكقوله فى سورة سبأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا

(١) وتطلق الحكمة أيضا على حسن التصرف فى الأمور .

(٢) الآية ٤١ .

يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ »[1] ، وكقوله فى سورة صۤ : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ »[2] ، وكقوله فى سورة الإسراء : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[3] .

والمعنى الإجمالى للآية : يسبح لله وينزهه عن الشريك وجميع صفات النقص ـ يسبح له ـ ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، المالك لهما الغالب لكل ما سواه الحكيم المتقن لكل الأمور ، ومن كان شأنه ذلك فلا يصح أن يعبد سواه .

٢ ـ (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الأُمِّيُّون هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، نسبوا إلى الأُم للإيذان بأنهم على فطرتهم التى ولدوا عليها ، فقد ولدوا لا يقرءون ولا يكتبون ، ولم يطرأ على تلك الفطرة ما يغيرها ، وقد كانت هذه سِمَتَهم التى عرفوا بها بين الأمم ، وإن كنت ترى فيهم الخطباء والبلغاء والفصحاء بفطرتهم ، وهذا المعنى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بأسانيدهم عن النبى ﷺ قال : « إنا أُمَّةٌ أُمِّيَّة لا نقرأ ولا نحسب » ، وكان النبى ﷺ أُمِّيًّا مثلهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ »[4] .

قال الماوردى : فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث فى الأُمِّيِّين نبيًّا أُمِّيًّا ، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

(أحدها) لموافقة ما تقدمت به بشارة الأنبياء .

---

(١) من الآية ١٠ .
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ .
(٣) الآية ٤٤ .
(٤) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

(ثانيها) لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم له .

(ثالثها) لينتفي عنه سوء الظن فى تعليمه ما دعا إليه من الكتب التى قرأها والحكم التى تلاها .

ونزيد على ذلك أن الله اختاره أُمِّيًّا ، لتكون أُميَّته مؤكدة لإعجاز القرآن ، وكونه آية على صدقه ، وكان النبى ﷺ لأُمِّيَّته يحرك لسانه وينطق بالقرآن عقب سماعه من جبريل ليحفظه فلا يغيب عنه شىء منه فطمأنه الله - تعالى - إذ تعهد أن يجمعه فى صدره ، بعد فراغ جبريل - عليه السلام - من تبليغه ، وفى ذلك يقول سبحانه : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »[١] . وقد تضمن القرآن علوم الأولين والآخرين ، وتحدث عن الماضى والحال والاستقبال ، وعن الآيات التى يستدل بها على الله ، وعن أدلة التوحيد والبعث ، وأسرار العلوم والفنون ، وعن التمكين لأُمته فى المشارق والمغارب ، ويرحم الله البوصيرى إذ يقول :

كَفَاكَ بِالعِلْمِ فى الأُمِّىِّ مُعْجِزة   فى الجَاهِلِيَّة والتَّأْدِيب فى اليتم

وقد اختار الله هذه الأُمة الأُمية ؛ ليكون الرسول منهم ؛ لأنهم أهل شجاعة وهمة ، قادرون على الثبات أمام الأهوال ، ولتظهر بهم قدرة الله ، حيث حوَّل جاهليتهم إلى علم وعرفان ، يفوق ما عرفه البشر من العلوم والفنون .

وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة ، ولكن محمدًا الرسول الأُمِّىّ بُعث إلى الناس كافة ، فدان لرسالته العرب والفُرس والرُّومان وغيرهم من أهل المشارق والمغارب ، فسبحان الله القادر على ما يشاء .

وقد عينت الآية الأُمة التى بعث منها ، ولم تعين الأُمم الذين أُرسل إليهم ؛ ليفهم من ذلك أن رسالته مفتوحة لامحدودة ، وقد علم عموم بعثته للعالم من قوله : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »[٢] ، وقوله : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... »[٣] .

---

(١) سورة القيامة ١٦ - ١٩ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٣٣ .
(٣) سورة سبأ من الآية : ٢٨ .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله الذى بعث فى الأُمِّيين رسولًا منهم أُمِّيًا مثلهم ، يتلو عليهم آياته التى سمعها ووعاها من جبريل أمين الوحى الإلهى ، ويُعَلِّم هؤلاء الأُمِّيين هذا الكتاب فيقرؤه عليهم فيحفظونه لصفاء فطرتهم وقوة حفظهم ، ويكتبه الكُتّاب منهم ويعلمهم السنة التى تشتمل على مختلف أنواع الحكم الشرعية والنقلية والعقلية كأسرار الكون ودلالتها على المكَوِّن - سبحانه وتعالى - ويطهرهم من عقائد الجاهلية وأخلاقها ، وعاداتها ، وإنهم كانوا من قبل بعثه فيهم لفى ضلال عن الحق بيِّن واضح .

٣ - (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

لفظ (وَآخَرِينَ) معطوف على لفظ الأُمِّيين أو على الضمير فى (يُعَلِّمُهُمُ ، وَيُزَكِّيهِم) .

والآية صريحة فى أن هؤلاء الآخرين من الأُميين ، وأنهم لم يلحقوا بعد بمن قبلهم فى الالتقاء بالرسول وأخذ العلم عنه ، وسيلحقون بهم بعد نزول هذه الآية كما يفيده لفظ (لَمَّا) فإنها تفيد نفى ما دخلت عليه حالا ، وتوقع حصوله مستقبلًا ، فهى تخالف (لَمْ) فى ذلك ، إذ هى تفيد النفى دون توقع حصول المنفى بعدها .

وعملًا بظاهر الآية نقول : إنها نزلت قبل أن يسلم جميع الأُميين العرب ، فلا تزال حينئذ - بقية منهم فى جاهليتهم ، ولكنهم سيلحقون بمن قبلهم فى الإيمان بالرسول ﷺ فى حياته ، هذا ما عنَّ لنا فى فهم الآية الكريمة ، وهذا لا يمنع عموم رسالته المدلول عليه بما تقدم .

وقد اختلف المفسرون فى بيان المراد من هؤلاء الآخرين من الأُميين ، فقال ابن عمر وسعيد بن جبير : هم العجم ، واستشهدوا بما جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : (كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ » قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا . قال : وفينا سلمان الفارسى . قال : فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ، ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء) .

وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم - يعنى من بعد العرب الذين بُعِث فيهم محمد ﷺ ، وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان : هم مَن دخل فى الإسلام بعد النبى ﷺ إلى يوم القيامة .

ويرد على هذه التأويلات أمران :

(أحدهما) أن الضمير فى (آخَرِينَ مِنْهُمْ) يعود على الأُميين فى الآية التى قبلها وهؤلاء الذين ذكروا فى التأويلات السابقة ليسوا أميين ، والأُميون هم العرب كما تقدم .

(وثانيهما) أنه ﷺ لا يُعلِّم هؤلاء الآخرين ولا يزكيهم ، وإنما يعلمهم ويزكيهم المسلمون الذين ورثوا الكتاب والحكمة بعد رسول الله ﷺ .

ويجاب عن الأول : بأن الذين يتوقع منهم الإسلام بعده ﷺ أُمِّيُّون من جهة العلم النافع ، فهم ما بين وثنيين وأهل كتاب غيروه وبدلوه ، فهم فى حكم الأُميين ، فلما أسلموا تعلموا الكتاب والحكمة وطهرت نفوسهم ، وبذلك زالت أميتهم العلمية ، على أن غالبية الشعوب التى دخلها الإسلام كانوا لا يقرءون ولا يكتبون فهم أميون باعتبار أغلبيتهم .

ويجاب عن الثانى : بأن إسلام مَنْ بعده ﷺ ناشئ عما تركه فيهم من آثار رسالته من الكتاب والحكمة ، فكأنه بُعِث فيهم ، ولا تغفل عما فهمناه أولًا من نص الآية ، فهو أظهر من تلك الآراء التى أجبنا على ما وجه إليها من الاعتراضات ، والله ولى التوفيق .

وفى عموم رسالته ﷺ لمن عاصروه ولمن بعدهم إلى يوم القيامة يقول - سبحانه - : « هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »[1] .

٤ - (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

أى : ذلك الذى تقدم من بعث محمد ﷺ فى الأُميين وسواهم ؛ ليهتدوا - ذلك - فضل الله وعطاؤه العظيم ، يعطيه من يشاء وهو محمد ﷺ ولا يشاء - سبحانه - لأحد بعده ،

---

(١) سورة الصف : ٩ .

فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، والله صاحب الإحسان والعطاء الجزيل الذى تُحتقر نعم الدنيا بالقياس عليه .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ) : صفة اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة .

(ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا) : ثم لم يعملوا بها .

(أَسْفَارًا) : جمع سِفر وهو الكتاب الكبير ، وسمى بذلك ؛ لأنه إذا قرىء يسفر عن معناه .

(الَّذِينَ هَادُوا) : الذين دانوا باليهودية .

(مُلَاقِيكُمْ) : موافيكم ومقابل لكم حيثما كنتم .

التفسـير

٥ - (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فهى تشير إلى أن ذلك الرسول المبعوث فى الأُميين ، قد نَعتَهُ الله هنا بما نعته به فى التوراة ، فقد نُعِت فيها بأنه النبى الأُمى المبعوث إلى أمة أميين .

والمعنى : مثل من جاءهم نعت الرسول فى التوراة وهم اليهود وقد علموه ولم يؤمنوا به كمثل الحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع بها ، فليس له منها إلا الحمل ، (بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ) أى ، بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله ولم ينتفعوا بها ، فالمثل المقدر هو المخصوص بالذم[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله :(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى :لا يهدى اليهود الظالمين الذين وضعوا التكذيب فى موضع التصديق وأصروا على ذلك .

٦ - (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

قل أيها الرسول : يأيها الذين دانوا باليهودية إن زعمتم أنكم أحباء لله دون غيركم من الناس ، فاطلبوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة إن كنتم صادقين فيما زعمتموه من أنكم مختصون بحب الله ، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة ، أحب أن يتخلص إليها من دار المحن والأكدار .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم ذلك إظهارًا لكذبهم ، وإنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ،ويزعمون أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا ، إلى غير ذلك من سائر دعاواهم الكاذبة .

---

(١) راجع الآلوسى .

٧ - ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ :

ولا يتمنى الموت هؤلاء اليهود - لايتمنونه - أبدًا، إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة وخوفاً من عقابهم على ماقالوه فى النبى ﷺ .

وجاء فى حديث عن النبى ﷺ قال لمَّا نزلت هذه الآية : « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات » .

٨ - ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ[1] ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ :

قل لهم أيها الرسول : إن الموت الذى تفرون من طلبه إياكم فإنه ملاقيكم عند مجىء آجالكم ، ثم تردون يوم البعث إلى الله عالم ماغاب وما حضر ، فينبئكم بما كنتم تعملون فى دنياكم من المساوىء ، ويجزيكم عليها أسوأ الجزاء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

﴿ نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ : دُعِىَ بالأذان لصلاة الجمعة فى يومها .

﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : فامضوا إلى صلاتها التى يذكر فيها اسم الله ولا تتخلفوا عنها ، وأطلق لفظ ﴿ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ على الصلاة مجازًا ؛ لأنه أهم مقاصدها .

---

(١) جملة « فإنه ملاقيكم » خبر إن السابقة فى محل رفع ، واقترنت بالفاء، لأن اسم إن وهو الموت لما وصف بالموصول وصلته (الذى تفرون منه) وهو فى معنى الشرط ، وما بعده فى معنى الجزاء ، فكأنه قيل : إن فررتم من الموت فإنه ملاقيكم .

(وَذَرُوا الْبَيْعَ) : واتركوا البيع والشراء حتى تُصَلُّوها .

(قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) : أُدِّيت .

(وَابْتَغُوا) : واطلبوا.

التفسـير

٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

المقصود من النداء لصلاة الجمعة الأذان الشرعى المعهود لما فيه من قول المؤذِّن:« حَيَّ عَلى الصَّلَاة » أى :أقبلوا عليها وتعالوا لأدائها ، ولفظ الجمعة بضم الميم وتسكينها ، قال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل - أى: بالضم - والتخفيف أى: تسكينها ، فاقرءُوا جُمُعة - بضم الميم - وفتح ميمها جائز لغة ولكنه لم يرد قراءة .

وكان يقال ليوم الجمعة يوم العَرُوبة - بفتح العين - واختلف فى أول من سماه يوم الجمعة ، فقيل: هو كعب بن لؤى ، وهو أول من قال : أمَّا بعد - قاله أبو سلمة .

وقيلَ : أول من سماه جمعة الأنصار ، قال ابن سيرين : جَمَّع أهل المدينة من قبل أن يقـدم النبى ﷺ المدينة وقبل أن تنزل (الجمعة) وهم الذين سموه يوم الجمعة ، وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه فى كل سبعة أيام وهو السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل لنا يوماً نذكر الله ونصلى فيه ونستذكر - أو كما قالوا - فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العَروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة (أبو أمامة)-رضى الله عنه- فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها لقلتهم ، فهذه أول جمعة فى الإسلام - ارجع إلى الآلوسى وغيره . وروى أنهم كانوا اثنى عشر رجلا ، وعلى أى حال فإنه سمى يوم الجمعة لاجتماع الناس فيه .

وأما أول جمعة جمّعها النبى ﷺ بأصحابه فكانت فى قباء ، فقد قدم النبى ﷺ مهاجرًا حتى نزل بها ، على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة

خلت من شهر ربيع الأول فأقام بها إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، وكان المسلمون قد بنوا مسجدا، فجمّع النبى ﷺ بهم فيه، وخطب، وهى أول خطبة خطبها بالمدينة، وقال فيها: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادى من يكفر به، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد شكر، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدًا، أوصيكم بتقوى الله فإنه خيرما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة...» إلى آخر الخطبة، وهى خطبة عظيمة ومنهاج رشيد، فارجع إليها فى القرطبى فى المسألة الثانية.

اذان الجمعة فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد عثمان ـ رضى الله عنه ـ

كان للرسول ﷺ أذان واحد للجمعة، فكان إذا جلس على المنبر أذّن المؤذن على باب المسجد فإذا نزل ﷺ أقام المؤذن الصّلاة، وكان أبو بكر وعمر على ذلك، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل، زاد مؤذنا آخر، فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء، تسمية لها باسم موضع مرتفع بسوق المدينة، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثانى، فإذا نزل أقام الصلاة، فلم يُعبْ ذلك.

ومن محاسن الأذان الأول بالزوراء، أنه كان ينبه الناس إلى ترك البيع والسعى لأداء صلاة الجمعة وهو الآن كذلك.

المراد من السعى وذكر الله :

المراد من السعى المشى بدون إفراط فى السرعة، وقال قتادة: أن تسعى بقلبك وعملك.

وقد اتسع العمران فى هذا الزمان، فينبغى عدم انتظار الأذان للسعى إلى المسجد، وأن يبكر المصلى ليأخذ له مكاناً فيه قبل امتلائه بالمصلين بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب وتزين امتثالا لقوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

وذكر الله هو الصلاة والخطبة قبلها ، والسعى إليها عند الأذان الأول واجب ، وقد أوجب الله فى الآية السعى إلى الجمعة من غير شرط ، وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة فى جميع الصلوات ، لقوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ... »[1] وقال ﷺ : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » أما الغسل للجمعة فهو سنة وليس فرضاً لها ، قال ﷺ : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل » أخرجه النسائى وأبو داود فى سننهما .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومنْ مسَّ الحصا فقد لَغَا » والمقصود بمسّ الحصا الاشتغال عن سماع الخطبة بأى شاغل وإن صَغُر ، والمراد بكلمة (لغا) أتى بما لا يليق بالاستماع للخطبة وأضاع ثوابه ، وقال صاحب المختار : (لغا) أى :قال باطلا ، والمراد منه فى الحديث ما يشمل الكلام وغيره .

وقوله تعالى :(وَذَرُوا الْبَيْعَ) أمر بتركه قُبَيْلَ خطبة وصلاة الجمعة ، وتحريم له فى وقتهما ، وكذلك الشراء ، ولم يصرح به ؛ لأنه لا يخلو بيع من شراء ، فالنهى عن أحدهما شامل لهما جميعاً ، ومع كونهما محرمين عند الأذان إلى تمام الصلاة فإنهما لا ينعقدان ويفسخ كلاهما ، وأجاز بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور ، وحمل النهى على الندب ، واستدل بقوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى :أفضل لكم من البيع ، وهذا هو مذهب الشافعى ، وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لايؤدى إلى فسخ البيع ؛ لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة : يعنى أنها تصح مع حرمتها ولا تسقط الجمعة لكونها يوم عيد ، خلافاً للإمام أحمد فإنه قال : إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها ، واستدل على ذلك بماروى أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أذِن فى يوم عيد لأهل العوالى أن يتخلفوا

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٦ .

عن الجمعة ، وقول الصحابى الواحد إذا خولف فيه لا يعتبر حجة ، والأمر بالسعى إلى صلاة الجمعة متوجه يوم العيد كتوجهه فى سائر الأيام ، وفى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال : « كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » و « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضاً فى الصلاتين . أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة[1] .

المعنى الإجمالى للآية : ياأيها الذين آمنوا وكنتم من المقيمين فى بلد الجمعة المكلفين بالصلاة : إذا سمعتم أذان الجمعة فعليكم أن تمضوا إلى مكان أدائها وعليكم السكينة والوقار ، وأن تستمعوا إلى خطبة الجمعة ، وتصلوا صلاتها فى جماعة وأنتم متوضئون ، فإنه لاصلاة من غير وضوء ، وعليكم أن تمتنعوا عن البيع والشراء ابتداء من الأذان الأول على الأقل؛ لتتفرغوا لسماع خطبتها وأدائها مع الجماعة ، فإن البيع والشراء حينئذ حرام ، ويقول بعض العلماء : إنهما باطلان ، ذلكم خير لكم فى دينكم ، ففى ذلك غفران لذنوبكم ومثوبة من الله لكم ، إن كنتم تميزون بين الخير والشر والنفع والضر .

١٠ - (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

فإذا فرغتم من صلاة الجمعة فمباح لكم أن تنتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم ونحو ذلك واطلبوا من رزق الله بسعيكم ، واذكروا الله ذكرًا كثيرًا فى جميع الأحوال ، واشكروه على توفيقكم لأداء الفرائض ؛ لكى تفلحوا وتفوزوا فى دنياكم وأخراكم.

ويقول القرطبى : كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى قد أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

---

(١) انظر القرطبى فى شرح هذه الآية فى المسألة الحادية عشرة .

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

سبب نزول هـذه الآية

أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا – فى رواية : أنا فيهم – فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) وفى رواية : فيهم أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – .

وقد ذكر الكلبى وغيره، أن الذى قدم بالعير دحية بن خليفة الكلبى من الشام عند مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج الناس إليه من بُرٍّ ودقيق وغيرهما ، فنزل عند أحجار الزيت[1] وضرب بالطبل ؛ ليؤذن الناس بقدومه، فخرج الناس إلا اثنى عشر رجلا ، وقيل : ثمانية رجال ، وقيل :أربعون رجلا ، وقيل : غير ذلك ، وكانت هذه التجارة لعبد الرحمن ابن عوف ، وذكر الزمخشرى أنه ﷺ قال : « والَّذِى نفسى بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادى نارًا » كما جاء فى القرطبى .

والمراد من اللهو نفس التجارة ، فاعتبر خروجهم لتلقيها لهوًا تهجيناً له ، لما فيه من الإعراض عنه ﷺ ولهذا رجع الضمير مؤنثاً فى قوله : (إِلَيْهَا) – رجع – إلى التجارة ، ولم يذكر ليرجع إلى اللهو ؛ لأنه لم يقصد لذاته بل لتقبيح خروجهم للتجارة أثناء الخطبة لمشاهدة ما جاء فيها أو للشراء منها لهوا ، فإن رزقهم منها مكتوب عند الله تعالى ، فلا وجه لتركهم سماع الخطبة والانصراف إليها .

---

(١) اسم مكان فى سوق المدينة .

وقيل : إن المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف لدلالة ماقبله عليه ، كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أى : نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض .

وقال جابر بن عبد الله : كانت الجوارى إذا نُكِحْن - أى : تزوجن - يمرون بالمزامير والطبل فانفضوا إليها فنزلت ، وإنما ردَّ الكناية[1] إلى التجارة ؛ لأنها أهم ، أو لأن الخروج إليها حينئذ إذا كان مذموماً فهو للَّهو أكثر ذما .

العدد الذى به تصح الجمعة

قال الحسن : تنعقد الجمعة باثنين ، وقال الليث وأبو يوسف : تنعقد بثلاثة ، وقال أبو حنيفة : تنعقد بأربعة ، وقاله ربيعة : باثنى عشر رجلا ، وقال الشافعى : بأربعين رجلا ، ولعل هؤلاء استند كل منهم إلى إحدى الروايات فيمن بقى مع الرسول بعد خروج من خرج لمشاهدة التجارة التى جاء بها دحية من الشام .

وفى حاضرى الصلاة بعد خروج من خرج منهم ، وفى البلد الذى تقام فيه الجمعة وغير ذلك بحث واسع النطاق ، فمن أراده فليرجع إليه فى القرطبى والآلوسى وغيرها من الموسوعات .

هل حضور الحاكم شرط فى صحة الجمعة ؟

فى ذلك خلاف بين الأئمة ، ففريق يقول بصحتها بغير إذن الحاكم أو حضوره ، وقال أبو حنيفة : منْ شرطها الإمام أو خليفته ، ودليل الرأى الأول أن الوليد بن عقبة والى الكوفة أبطأ يوماً ، فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه ، وأن عليًّا صلى الجمعة يوم حُوصِر عثمان ولم ينقل أنه استأذنه ، إلى غير ذلك من الأدلة ، وفى ذلك يقول الإمام مالك : إن لله فرائض فى أرضه لا يُضَيِّعُهَا - ولِيهَا والٍ أو لم يَلِها .

---

(١) المقصود من الكناية الضمير فى (إليها) .

القيام شرط فى الخطبة

دلَّ قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا) على أن القيام شرط فى أداء خطبة الجمعة ، وجاء فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب ، فمن نَبَّأَك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب إلخ وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : ليس القيام بشرط فيها ، وهذا مخالف لظاهر النص (وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) أو للحديث الصحيح الذى مرَّ ذكره .

احكام مختلفة

لا تصح الجمعة من غير خطبة ، وهو قول الجمهور ، وقال الحسن : هى مستحبة ، وبه قال ابن الماجشون وسعيد بن جبير ، ويرد هذا الرأى ظاهر قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) .

ومن السنة أن يتكىء الخطيب على قوس أو عصا ، ففى سنن ابن ماجة بسنده (أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ، وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا) .

ويسلم الخطيب على الناس إذا صعد على المنبر عند الشافعى وغيره ، روى ابن ماجة بسنده (أن النبى ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم) .

ويجب فى الخطبة أن تكون على طهارة عند الجمهور ، وللشافعى قولان (أحدهما) الوجوب فى المذهب الجديد ، ولم يشترط فى المذهب القديم ، وهو رأى أبى حنيفة .

أركان الخطبة :

الحنفية قالوا : للخطبة ركن واحد وهو مطلق الذكر الشامل للقليل والكثير ، فتكفى تسبيحة أو تحميدة أو تهليلة ، وإن كره الاقتصار على ذلك .

والشافعية قالوا : أركانها خمسة : الحمد لله ، والصلاة على النبى ﷺ ، والوصية بالتقوى ، وقراءة آية فى إحدى الخطبتين والأولى أولى ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الثانية .

والمالكية قالوا : لها ركن واحد وهو أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير .

والحنابلة قالوا : كقول الشافعية فيما عدا الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

والسكوت للخطبة واجب على من سمعها ومن لم يسمعها ؛ ليتمكن المصلى من الانتفاع بما جاء فيها ، ومن تكلم حينئذ فقد لغا وأتى بالباطل ، ولا تفسد صلاته .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة فقد لَغَوْتَ » يعنى أن الصمت مطلوب من جميع المصلين أثناء الخطبة ، من غير حاجة إلى من ينبههم ، ومن دخل المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فلا يصلى ، وهذا مذهب مالك ، وبه قال ابن شهاب ، وجاء فى الموطأ أن خروج الإمام من حجرته للخطبة يقطع صلاة المصلى ، وكلامه يقطع الكلام ، وقال الشافعى وغيره : لمن دخل المسجد والإمام يخطب أن يصلى ركعتين خفيفتين تحية المسجد قبل أن يجلس ، وحجتهم فى ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبى ﷺ : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوَّز فيهما » أى : يخفف فى أدائهما .

سورة المنافقون

مدنية وآياتها احدى عشرة آية

صلتها بما قبلها :

جاءت هذه السورة بعد سورة الجمعة التى ذكر فيها المؤمنون ؛ لأنها تحكى أحوال المنافقين الذين هم أعداء المؤمنين ، أخرج سعيد بن منصور والطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفى الثانية سورة المنافقون فيقرع بها المنافقين) .

وقال أبو حيان فى مجيئها بعدها : لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً من المنافقين ، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين فى ذلك لسرورهم بالعير التى قدمت بالمِيرَة ، إذ كان الوقت وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وماهم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبع قبائح أفعالهم بقبائح أقوالهم .

مقاصد السورة :

اشتملت سورة (المُنافِقُونَ) على تكذيبهم فى دعوى الإيمان ، وفى أَيْمَانِهم التى أيدوا بها زعم إيمَانهم ، وما هم إلا كافرون فى الحقيقة صادون عن سبيل الله ، وبينت أنهم آمنوا ثم كفروا مُصِرِّين على كفرهم فطبع الله على قلوبهم وأغلقها عن قبول الحق .

وبينت أن مظهرهم يخالف مخبرهم ، فإن رأيتهم أعجبتك أجسامهم وحسبت أنهم أهل نجدة وهمة وصدق ، ولكنهم فى الحقيقة جبناء يحسبون كل صيحة عليهم ، فيجزعون لها ، وبينت أنهم هم العدو وحذرت الرسول ﷺ منهم ، وبينت أنهم لا يهمهم ما يثار ضدهم من ربهم من النفاق ، فهم إذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لووا رءوسهم واستكبروا ، وذكرت أن الله — تعالى — لن يغفر لهم نفاقهم ، سواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم ، وبينت أنهم الذين يقولون :(لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا) وأنهم هم الذين يقولون : (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) وختمت السورة بنهى المؤمنين عن أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، وتحريضهم على أن ينفقوا فى سبيل الخير مما رزقهم الله ، وأن يعجلوا بذلك قبل أن تأتيهم آجالهم فيندموا على عدم العمل لأنفسهم قبل أن يجىء أجلهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾)

المفـــردات :

(الْمُنَافِقُونَ) : هم الذين كانوا يظهرون الإيمـــان ويخفون الكفر منذ عهد رسول الله ﷺ .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) : اتخذوها سترة لنفاقهم .

(فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : فختم عليها بالكفر .

التفســير

١ - (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) :

سبب نزولها كما رواه البخارى بسنده عن زيد بن أرقم قال :كنت مع عمى فسمعت عبد الله بن أُبَىّ بن سلول يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فذكرت ذلك لعمى ،فذكره عمى لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبى وأصحابه ، فحلفوا ماقالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبنى ، فأصابنى همٌ لم يصبنى مثله فجلست فى بيتى فأنزل الله ــ عز وجل ــ (إِذَا جَآءَكَ الْمُنَـٰفِقُونَ) إلى قوله (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ) إلى قوله : (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) فأرسل إلىَّ رسُول الله ﷺ ثم قال : « إن الله قد صدقك » أخرجه الترمذى وقال : هذا حديث صحيح .

وقد رواه الترمذى عن زيد بن أرقم برواية أُخرى ،ومما جاء فيها أنهم كانوا فى إحدى الغزوات ، واختلف الأنصار مع المنافقين لمنعهم الماء عن الأنصار ، فقال ابن أُبى ماقاله . وهذه الرواية طويلة ومفصلة ، وقد ذكرها القرطبى ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى القرطبى وسواه ، وحسب القارىء ما رواه البخارى ووافقه فيه الترمذى ، وهو ما تقدم ذكره .

ويؤخذ من ذلك أن النفاق فى الدين أو فى غيره مذموم ،وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « آيةُ المنافق ثلاث : إذا حَدَّث كذَب ، وإذا وعَدَ أخلَف ، وإذا ائتُمِن خَان » وعن عبد الله بن عَمْرو أن النبى ﷺ قال : « أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلَةٌ منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَهَا ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدثَ كذبَ ، وإذا عاهدَ غدرَ ، وإذا خاصَم فَجَرَ » .

قال الحسن : إنما هذا القول عن النبى ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين ، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال ، شفقا أن تفضى بهم إلى النفاق ، وليس المعنى أن مَنْ بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق .

ونحن نقول : إن المقصود مما جاء فى هذين الحديثين ، أن لايتصفوا بهذه الصفات أو بعضها ، فإنها شيمة المنافقين وسجاياهم ، وهى لا تليق بالمؤمنين ولا بأخلاقهم الرفيعة ، فمن اتصف بهذه الخصال أو ببعضها فهو منافق من جهة الخلق لا من جهة العقيدة ولهذا قال ﷺ : « المؤمنُ إذا حدَّث صَدَق ، وإذا وعَد أَنْجَز ، وإذا ائتُمِنَ وفَّى » .

ومعنى الآية :إذا جاءكَ المُنَافقون ـ أيها النبى ـ قالوا نعترف بأنك رسول الله ونشهد بذلك ، يريدون بشهادتهم هذه نفى النفاق عنهم ، ودفعاً للشبه التى تحوم حولهم ، والله يعلم إنك لرسول الله كما قالوا بألسنتهم ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى ادعاء إيمانهم ، وكاذبون فى أن شهادتهم بألسنة توافق ما انطوت عليه قلوبهم .

وقال الفراء : وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون بضمائرهم ، فالتكذيب راجع إلى الضمائر .

وهذا يدل على أن الإيمان تصديق بالقلب ، وعلى أن الكلام الحقيقى هو كلام القلب ، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب : اهـ .

وتلخيصاً لما قيل فيه نقول : إن قولهم نشهد إنك لرسول الله صادق من جهة الواقع وكاذب بالنسبة لما فى قلوبهم التى لاتشهد بذلك ، فهم بشهادتهم هذه يكذبون على قلوبهم التى لا تشهد بذلك لكفرهم .

٢ ـ (اتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

هذه الآية استئناف مبين لعادتهم فى نفى الشبه عن أنفسهم ، حتى لايؤاخذوا بقول أو عمل ضد المؤمنين ومن ذلك شهادتهم بأنهم لم يقولوا ما نسب إليهم ، فالشهادة منهم فى حكم اليمين ، وقد أفادت الآية أن المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة سترة ووقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبى أو غير ذلك ، قال قتادة : كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، وقال الآلوسى : ويجوز أن يراد بأيمانهم شهادتهم السابقة ، والشهادة وأفعال العلم واليقين أجرتها العرب مجرى القسم ، وتلقتها بما يتلقى به القسم ، ويؤكد بها الكلام كما يؤكد به ، فلهذا يطلق عليها اليمين ، ونحن نقول : إن الكلام السابق أعم وأشمل ، فتدخل فيه الشهادة كسائر الأيمان ، فإنهم لم يتخذوا الشهادة الكاذبة وحدها سترة لهم ، بل جميع أيمانهم .

والمعنى الإجمالى للآية : اتخذ المنافقون أيمانهم الكاذبة سترة ووقاية لهم من العقاب الذى يقتضيه ما نسب إليهم ، فصدوا من أراد الدخول فى الإسلام أو فعل الطاعة مطلقاً ، أو أعرضوا[1] عن الإيمان الذى هو السبيل إلى الله ، إنهم قبح ما كانوا يعملون من النفاق وآثاره .

٣ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) :

ذلك الذى حدث من المنافقين ضد الإسلام والمسلمين ، حاصل بسبب أنهم آمنوا باللسان ثم ظهر كفرهم بالقلب وتبين بما علم من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقًّا فنحن حمير ، وقولهم فى غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر ، وغير ذلك ، وأصروا على النفاق ، فختم الله على قلوبهم وأغلقها على الكفر ، فهم لايفقهون عظمة الإسلام وآثاره الجليلة فى الدنيا والآخرة ، فلذلك نافقوا وضلوا عن سواء السبيل ، والله أعلم .

* (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(تُعْجِبُكَ) : تروقك وتحسن فى عينك .

(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ) : لعنهم وطردهم من رحمته .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

---

(١) لفظ « صد » يستعمل متعديا للمفعول كالمثال الأول ، أو لازما بمعنى أعرض كالمثال الثانى .

التفسير

٤ ـ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ...) الآية :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة أن المنافقين لكاذبون ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم حيث يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، وأنهم اتخذوا الحلف والقسم وقاية من قتل وسبى المسلمين لهم جزاء ما يظهر منهم ، وهم مع ذلك قد منعوا غيرهم من الدخول فى الإسلام ونفروهم منه وأنهم قد بلغت أفعالهم درجة كبيرة من الإساءة يتعجب منها ، وأنهم انقلبوا ونكسوا على رءوسهم فكفروا بعد إيمان ، بعد ذلك أبان الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعض صفاتهم الخلقية والخلقية فقال : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) أى : وإذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين راقك منظرهم ، واستحسنت هيأتهم ، وأخذتك فصاحة ألسنتهم وبلاغة حديثهم ، وكان عبد الله بن أُبىّ رأس المنافقين فى المدينة رجلا جسيما صبيحًا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين فى مثل صفته ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المنظر وفصاحة الألسن فكان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن حضر يعجبون بأجسامهم ويسمعون إلى كلامهم .

وفى قوله تعالى : (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ) ما يدل على أنهم فى حقيقة أمرهم لا ينتفع بهم ، والشأن فيهم أنهم ببسطة أجسامهم وذرابة ألسنتهم أهل لأن يذودوا عن الإسلام ، ويدافعوا عنه فى ساحة الوغى وميادين القتال مع قدرتهم على بيان ما أنزل الله على رسوله تبليغا لغيرهم ودعوة لسواهم إلى الإسلام ، ولكنهم لما نافقوا كانوا كالخشب المسندة التى لا تؤدى وظيفتها وما تصلح له من عمل فى سقف أو جدار أو باب أو نافذة إلى غير ذلك من مظان الانتفاع ثم هى فوق ذلك عبء على سواها ؛ لأنها تلقى بثقلها على ما تستند إليه ، وهم بذلك لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) أى : يظنون كل صوت عال واقع عليهم وضارٌ بهم لجبنهم وهلعهم وللرعب والخوف الذى تمكن من قلوبهم فإذا نادى مناد بصوت فى العسكر إبان الحرب أو انفلتت دابة أو أنشد وطلب شىء قد ضاع من صاحبه ظنوا ذلك إيقاعًا ، وإنزالًا للنكال بهم ، وقيل : كانوا على

وجل وخوف من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويكشف نفاقهم ويبيح دماءهم وأموالهم لكفرهم ونفاقهم .

(هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) أى :هم وحدهم الذين تناهوا فى العداوة وبلغوا فيها مبلغًا كبيرًا فخذ حذرك منهم ، ولا تغتر ولا تنخدع بإسلام ظاهرهم ؛لأن أعدى الأعداء العدو المداجى[1] الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداءُ الدوىّ . (قَاتَلَهُمُ اللهُ) هذا دعاءٌ عليهم بالطرد واللعن والإبعاد من رحمته ـ تعالى ـ وهو أيضًا تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بمثل ذلك شريطة ألّا يكون اللعن لكافر أو منافق بذاته خشية أن يكون ممن كتب الله لهم الإيمان وختم به حياتهم .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) هذا تعجيب من جهلهم وسفاهتهم أى :كيف يُصرفون عن الحق مع معرفتهم له وتحققهم منه . وقال ابن عباس : (أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أنى يكذبون .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ) : يطلب لكم من الله الصفح عما بدر منكم من العصيان وفحش القول .

(لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ) : أمالوها تكبرًا وإعراضًا أو حركوها استهزاءً .

(١) المداجى : هو الذى يدارى ويستر العداوة ، يكاشرك : يبتسم لك .

(يَصُدُّونَ) : يعرضون متكبرين ، أو يمنعون سواهم .

(الفَاسِقِينَ) : الخارجين عن طاعة الله البالغين فى الفسق غايته .

التفسير

٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ...) الآية :

لَمَّا أقسم رأس النفاق عبد الله بن أبىّ بن سلول أنه ما دعا قومه إلى منع الإنفاق على فقراء المسلمين حتى ينصرفوا عن رسول الله ﷺ ويرتدوا إلى الكفر ، وأنه ما قال عند رجوعه إلى المدينة :ليخرجنَّ الأعز منها الأذل ، وقصد بالأعز نفسه ومن على شاكلته من المنافقين ، وعنى بالأذل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والمسلمين ، وقال الحاضرون : يارسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قَدْ وَهِمَ ، وأن رسول الله ﷺ قال لزيد بن أرقم استيثاقا من كلامه : (لَعلَّكَ غضبت عليه) ؟ قال : لا . قال : (فلعله أخطأ سمعك ؟) قال : لا . قال : (فلعله شبه عليك) ؟ قال : لا ، فلما نزلت (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) لحق رسول الله ﷺ زيدًا من خلفه فعرك أذنه وقال : (وفت أذنك يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين) . قيل لعبد الله بن أبى بن سلول : لقد نزلت فيك آى شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال : أمرتمونى أن أومن فآمنت وأمرتمونى أن أزكى مالى فزكيت فما بقى إلّا أن أسجد لمحمد فنزلت : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا يَسْتَغفِرْ لَكُمْ رسُولُ اللهِ ...) الآية .

والمعنى : وإذا قيل لهذا المنافق وأضرابه كالجد بن قيس، ومعتب بن قشير تعالوا وأقبلوا تائبين معتذرين عما بدر منكم من سئ القول وسفيه الحديث - يطلب لكم رسول الله ﷺ من ربه - جلت قدرته - أن يصفح ويعفو عنكم أبوا وأمالوا رءوسهم إعراضًا واستكبارًا أو حركوها استهزاءً وسخرية . (وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ) أى :وأبصرت منهم أو علمت من أمرهم إعراضًا عن اتباعك ومنعًا وإبعادا لسواهم عن ذلك ، وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) للإشعار بأنهم لم يكرههم غيرهم ولم يجبرهم سواهم على ما هم فيه من كفر ونفاق وصدّ وإعراض وإنما كان حالهم وشأنهم أنهم فى أنفة وعناد واستكبار .

٦ ـ (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ...) الآية ...

أى : ما دام هذا شأنهم وحالهم فإن استغفارك لهم وعدمه يستويان؛ لأنهم لا يرغبون فيه ولا يلتفتون إليه ولا يعتدون به أو لأن الله لا يغفر لهم . (إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) أى لأنه ـ سبحانه ـ لا يمنح هدايته وتوفيقه للقوم المغالين فى الغش الخارجين عن دائرة الطاعة المنهمكين فى أنواع القبائح المترديين فى حمأة النفاق والشرك وهؤلاء قد بلغوا الغاية فى ذلك وتربعوا على ذروتها وركبوا سنامها . لذلك سبق فى علم الله أنهم يموتون فساقًا ؛ لأنهم اختاروا الفسق .

(هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(يَنفَضُّوا) : يتفرقوا ويتركوا الرسول .

(لَا يَفْقَهُونَ) : لا يفهمون ولا يفطنون .

التفسير

٧- (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ...) الآية :

أى : هؤلاء الذين أخبرك الله عنهم - يا محمد - أنه لن يغفر لهم ، ولن يصفح عنهم هم أولئك الآثمون فى قولهم المدعون أن الأرزاق بأيديهم ، وأن المنة لهم على فقراء المسلمين بالإنفاق عليهم وأنهم لو كفوا أيديهم عن إعطائهم جاعوا وتفرقوا عن رسول الله ﷺ وهم فى زعمهم هذا واهمون ، فما هذا هو شأن المسلمين ؛ إنهم بايعوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - على بذل النفس والنفيس بأن لهم الجنة فكيف بهم يتفرقون عنه لعرض من أعراض الدنيا ؟ فضلًا على أنه - سبحانه - رازقهم وقائم بأسبابهم جميعا ، فإن خزائن السموات والأرض ومفاتيح الرزق والمطر والنبات لله وحده لا شريك له فيها يعطيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء لامكره له ولا معقب لحكمه (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) أى : ولكن هؤلاء لا يفهمون ولا يفطنون لذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان وما تطوع لهم أنفسهم من سخف القول وسقط الكلام .

٨ - (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : يقول عبد الله بن أبى رأس النفاق ومن معه عند العودة من غزوة بنى المصطلق : والله لئن عدنا إلى المدينة - لا يكون فيها مقام ولا مأوى لأولئك المهاجرين الذين ضممناهم وآويناهم وأطعمناهم فتطاولوا علينا ونالوا منا وهم فى غربة وفقر وليس لهم ما يمنعهم منا فلنخرجنهم من ديارنا فنحن الأعز وهم الأذل .

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وعزهم كان بنصرته - تعالى - إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان .

(وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم هذه . قال صاحب الكشاف فى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ، وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلًا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها (كبرا) فقال : ليس بتيه ولكنه عزة ، فإن هذا العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه وتلا هذه الآية . قال بعض العارفين

فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ؛ فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامه عن أن يضعها لأمور عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة .

فإن قيل : قال تعالى فى الآية الأولى : (لَا يَفْقَهُونَ) وفى الآية الأخرى : (لَا يَعْلَمُونَ) فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول (لَا يَفْقَهُونَ) قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثانى (لَا يَعْلَمُونَ) كثرة حماقتهم وجهلهم[1] .

قيل : عند العودة من غزوة بنى المصطلق أراد عبد الله بن أُبى بن سلول أن يدخل المدينة فاعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن[2] عبد الله بن أُبى ـ وكان مخلصا فقال لوالده : وراءك لاتدخلها حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله ﷺ بتخليته ، وروى أنه قال لوالده : لئن لم تُقِر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك فقال : ويحك أفاعل أنت ؟ قال : نعم فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال رسول الله ﷺ لابنه : (جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا) .

---

(١) عن الفخر الرازى بتصرف يسير .

(٢) غير رسول الله ﷺ اسمه إلى عبد الله وقال : (إن حبابا اسم شيطان) .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(لَاتُلْهِكُمْ) : لايشغلكم الاهتمام بها .

(لَوْلَا) : هلا والمراد بها هنا التمنى .

التفســير

١٠ ـ (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ...) الآية :

حذر الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين فنهاهم بقوله ـ سبحانه ـ : (لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ) أى : لاتشغلكم أموالكم بالسعى فى تدبير أمرها والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة أو العمل على زيادة غلتها ، والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها . (وَلَآ أَوْلَادُكُمْ) وذلك بفرط السرور بهم ، وشدة الشفقة عليهم والقيام بما يصلحهم فى أمر معاشهم فى حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم ـ أيها المؤمنون ـ قدر منفعة الأموال والأولاد فى جنب ما عند الله لا يشغلكم ذلك (عن ذِكْرِ اللهِ) وأداء ما طلبه رب العزة منكم ، ولتعلموا أن لكلٍّ حقًّا ، والمؤمن الكيس من يؤدى لكل ذى حق حقه دون حيف أو تفريط . (وَمَن يَفعَلْ ذَٰلِكَ)

أى : اللّهو بها عن ذكر الله (فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى : فهؤلاء هم الذين أوغلوا فى الضياع وتناهوا فى الخسران حتى كأنه لا خسران إلّا فيهم وذلك لأنهم باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى .

١٠ ـ (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن التلهى والاغترار بالمال والولد أمرهم ـ جل شأنه ـ أن يتحلوا ويتزينوا بالطاعة وذلك بإنفاق بعض ما أفاء الله عليهم ورزقهم به فى سبيله ـ سبحانه ـ فكان الأمر ـ كما يقولون ـ التخلية قبل التحلية أى : التبرى والتطهر من الذنب أولًا ثم فعل الطاعات بعد ذلك على نقاء قلب وطهارة سريرة ؛ ليكون ذلك أرجى فى القبول لدى الله ، أى : ابذلوا وأعطوا من أموالكم قبل أن يشارف أحدكم الموت ويرى دلائله وأماراته فيكون منه أن يتمنى أن يرجئ الله أجله ويؤخر حينَهُ إلى أمد قريب وأجل قصير كى يتصدق ، ويكون من الصالحين الأتقياء .

وعن ابن عباس : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل .

١١ ـ (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

ولكن أنّى له ذلك وكيف يتحقق ما يتمناه والله العلى القدير يقول : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[1] .

أى : ولن يمهل الله نفسًا حان أجلها وانتهى الزمان الذى حدد الله لها من أول العمر ـ إلى آخره .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٨

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : عالم ببواطن أموركم أو خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما تعملونه ويجازيكم عليه .

قال الفخر الرازى : فقوله : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ) تنبيه على الذكر قبل الموت ، (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) تنبيه على الشكر لذلك ، وقوله تعالى : (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : لو رُدّ إلى الدنيا ما زكى ولا حج ويكون ذلك كقوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[1] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٢٨ .

سـورة التغـابن

هذه السورة الكريمة مدنية وآياتها ثمانى عشرة آية

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة التغابن فى الآية التاسعة منها .

مناسبتها لمـا قبلهـا :

أن الله ــ سبحانه ــ ذكر فى السورة التى قبلها حال المنافقين ، وكذبهم فى أيمانهم واستكبارهم على الله ورسوله ، وتهديدهم المؤمنين بمنع الإنفاق عليهم وإخراجهم من المدينة وفى سورتنا هذه قسَّم الناس إلى مؤمن وكافر ، وأيضًا فقد جاء فى سورة (الْمُنَافِقُون) قوله ــ تعالى ــ : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ) وذكر هنا قوله ــ تعالى ــ : (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) فجاءت هذه الآية الأخيرة كالتعليل للآية السابقة ؛ فالمناسبة بين السورتين والارتباط بينهما واضح وبيِّن .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ ــ أكدت أنه ــ جل شأنه ــ هو صاحب الملك ، وأنه وحده المستحق للحمد .

٢ ــ وجاءت مبينة آثار عظمة الله وقدرته فى خلقه .

٣ ــ وقسمت الإنسان إلى مؤمن بربه وكافر به .

٤ ــ ولفتت نظر الكافرين إلى مصير أمثالهم من الأُمم السابقة ، وما حل بهم فى الدنيا من الوبال والدمار ، وأنهم فى الآخرة سيلقون جزاء عملهم فى النار خالدين فيها ، كل ذلك بسبب كفرهم وعنادهم .

٥ ــ وأمرت بطاعة الله ورسوله وبينت أن الرسول ليس عليه تبعة أعمالهم (فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) .

٦ ــ وحذرت من طاعة بعض الأزواج والأولاد لعداوتهم حيث يحولون بينهم وبين عمل الخير ، وقد يدفعونهم إلى الشر والباطل مع بيان أن الصفح والعفو والغفران عنهم أولى وأفضل (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

٧ـ وأمرت السورة الكريمة بالتقوى جهد الطاقة ، والبذل فى سبيل الله إذ أنه وقاية من الشح والحرص : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾)

المفردات :

(يُسَبِّحُ) : يقدس وينزه .

(وَصَوَّرَكُمْ) : وخلقكم وبرأكم على صور وهيئات شتى يتميز بها كل واحد عن سواه .

(الْمَصِيرُ) : المرجع والمآل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : ما انطوى واستتر فيها .

التفسير

١ ـ (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : ينزه اللهَ ـ تعالى ـ ويقدسه كل مخلوقاته عمَّا لا يليق به ، من كل نقص لا يتفق

وجلاله تنزيهاً مستمرًّا يتجدد كلما نظروا فى بديع صنعه وعظيم فعله ، وله لا لغيره ـ جلت قدرته ـ الملك قديماً بلا ابتداء وأبدًا بلا انتهاء فهو ـ سبحانه ـ المبدئ لكل شىء القائم به المهيمن عليه ، أما ملك غيره فهو حادث وطارئ ومنتقل لا يدوم وهو فى الحقيقة عطاء الله وفضله وتسليط منه واستخلاف .

وهو ـ تعالت عظمته ـ وحده المستحق للحمد ؛ لأنه هو المعطى لأصول النعم وفروعها ، أما حمد غيره ـ تبارك ربنا وتعالى ـ فلجريان إنعامه على يديه ، وهو ـ سبحانه ـ قدير مقتدر على كل شىء دق أو عظم فليس بعض الأمور أيسر عليه من غيره ؛ فالكل فى قبضته ووفق إرادته لا يعجزه أمر عن أمر ولا يشغله شأن عن شأن .

والتسبيح والتقديس يكون بهيآت المخلوقات وأشكالها البديعة التى تدل على كمال تصويره وعظيم خلقه ـ سبحانه ـ أو بلسانهم ونطقهم : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[1] .

٢ ـ (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

هذا بيان لبعض آثار قدرته الشاملة الغامرة ، أى : هو الذى أوجدكم كما شاء على فطرة سليمة وطريقة سوية مستقيمة يشير إلى ذلك قوله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

(فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) أى : فبعضكم مختار للكفر بالله وبنعمه ومقبل على الإلحاد راض به وذلك يكون منه انتقاضا وخروجا وتمردا على الفطرة التى فطره الله عليها ، وبعضكم مختار للإيمان به ـ سبحانه ـ ينشرح به صدره ويطمئن قلبه وهذا من المؤمن استجابة لفطرة الله وخلقته وإذعانا لمشيئته .

وفى الحق إن كلاًّ من كفر الكافر وإيمان المؤمن بإرادته ـ جل شأنه ـ فلا مكره له إذ هو الخالق والموجد لكل شىء ، قال تعالى : « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ٤٤

فَاعْبُدُوهُ »[١] ولكونه – جلت قدرته – عليمًا بما خلق فقد كتب على كلٍّ ما تختار ، وتميل إليه نفسه إذ هو أحكم الحاكمين «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»[٢] فلا يكره أحدًا على أمر ويعاقبه عليه . (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو – سبحانه – بأعمال خلقه عليم علمًا تامًّا محيطًا لا يعتريه قصور ولا تشوبه شائبة من نقص ؛ بل يجازى كلاًّ بما يناسب ما قدّم فى دنياه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، وقدم الكافر على المؤمن لكثرة الكافرين وقلة المؤمنين قال تعالى : « وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ »[٣]

٣ – (خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

أى : أوجد السموات والأرض جميعا بما فيهن ما ظهر لنا وبدا وما بطن وخفى ، خلقها بالحكمة العظيمة والغرض الصحيح المتضمن للمصالح الدينية والدنيوية .

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) أى : برأكم وأخرجكم فى أحسن تقويم وأجمل تركيب وشكلكم على صور شتى يتميز بها كل مخلوق عمن سواه ، وأودع فيكم القوى والقدر والمشاعر الظاهرة والباطنة التى تتعلق وتناط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة ، وزينكم بخلال وصفات من جميل مصنوعاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ،[وقد ذكر بعض المحققين : أن الإنسان جامع بين العالم العلوى والسفلى وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات ، وبدنه الذى هو من عالم الماديات] .

وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين فكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، ولكنَّ الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب . .

فلا نحطاط بعضها ونزوله عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً ، وإضافتها إلى الموفى عليها

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢ .

(٢) سورة فصلت : من الآية ٤٦ .

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١١٦ .

والأفضل منها قد لا تستملح ، وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة عن حدّه ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح منها وأعلى فى مراتب الحسن ، فينبو عن الأولى طرفك وبصرك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها .

قالت الحكماء : شيئان لاغاية لهما الجمال والبيان[١] :

قال القرطبى : فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟ قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب .

(وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : إليه وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكاً يكون مرجعكم ومآلكم فاصرفوا ووجهوا ما حباكم ربكم من النعم وآثركم به إلى ما خلقت تلك النعم له كما أمركم بذلك ولا تتخذوها عوناً على معصية الله حتى لا تتعرضوا لعذابه فى الآخرة ، وحتى لا يزيل الله حسنكم ويمحو جمال صوركم .

٤ ـ (يَعْلَمُ مَافِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : يعلم ـ سبحانه ـ كل مافى السموات والأرض من الأمور الكلية والجزئية الجلية الواضحة والخفية المكنونة يعلمها ـ عزت قدرته ـ علماً تاماً محيطاً فى كل أطوارها وأحوالها ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا فى غيرهما مما استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه ، كما يعلم ـ تعالى ـ ما يشتمل عليه كونه مما نراه من أجرام ومجرات وغيرها وما بداخل الإنسان نفسه وقد عجز عن إدراك كنهه والوقوف على حقيقته ، ويعلم ما يسر به الإنسان إلى غيره ويناجيه به « مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا »[٢] ويعلم ويحيط.

---

(١) الآلوسى بتصرف يسير .

(٢) سورة المجادلة:من الآية ٧ .

بما يعلنه أى إنسان قبل أن يفضى به ويعلنه كما علمه بعد أن أبانه وأظهره (وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : بما يتردد وتنطوى عليه الصدور وما تتحدث به النفوس وما هو مضمر ومخزون فى طيات القلوب .

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(وَبَالَ) : عقوبة ونكال .

التفسير

٥ ــ (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

الخطاب هنا لأهل مكة والاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) للتقرير أى : أنه ــ ولا شك ــ قد أتاكم خبر وشأن من كان قبلكم من الأمم التى كذبت برسلها كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فكانت عاقبة أمرهم ونهاية حالهم أنهم نالوا ضرراً ثقيلاً وخيماً من غير مهلة ولا إرجاء جزاء ما أحدثوه من أمر هائل وجناية عظيمة ، وهو كفرهم الذى أصروا عليه ، وكان عقابهم فى الدنيا الصيحة والرجفة والخسف والإغراق وغير ذلك قال تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1]

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٠

ولهم فى الآخرة مع هذا الخزى والنكال عذاب عظيم الإيلام لهم شديد الوقع عليهم .

٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ...) إلخ .

أى : هذا العذاب والتنكيل الذى ذاقوه ونالوه فى الدنيا وما سيلقَونه وينزل بهم فى الآخرة بسبب أنه كانت تأْتيهم رسلنا إليهم بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات (فَقَالُوٓا) . مستهزئين بأَنبيائهم ساخرين منهم أو متعجبين منكرين : (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) أى : أيرشدنا ويدلنا بشر من جنسنا ، أنكروا أن يكون الرسول بشرًا ولم ينكروا أن يكون الإله حجرًا (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا) أى : فأَسرعوا وبادروا إلى الكفر دون تدبر ولا رويّة وأعرضوا وأوغلوا فى البعد عن التأَمل والتفكر فيما جاءهم به الرسل من الآيات البينات (وَاسْتَغْنَى اللَّهُ)أى : أظهر الله غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث لم يلجئهم إلى ذلك ولم يضطرهم إليه مع قدرته - سبحانه - على ذلك بل أهلكهم وقطع دابرهم واستأصل شأْفتهم (وَاللَّهُ غَنِيٌّ) أزلاً وأبدًا غير محتاج إلى أحد من خلقه فضلا عن إيمانهم وطاعتهم فهو - سبحانه - قائم بذاته وقائم بأَسباب مخلوقاته وهو القاهرفوق عباده . (حميد) أى : يحمده ويثنى عليه كل مخلوق بلسان حاله أو مقاله (ففى كل شئ له آية تدل على أنَّهُ الواحد) أو هو - سبحانه - حقيق بالحمد مستحق له وإن لم يحمده - جل شأنه - حامد .

وفى تذييل الآية الكريمة ، بهذه الفقرة ما يشير إلى أنه - تعالى - لم يطرأ عليه الاستغناء عن خلقه بل هو - جل شأْنه - قديم الغنى أبدى الاستغناء عنهم حيث كان ، ولم يكن شىء معه .

(زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا) : الزعم ادعاء العلم أى : ادعوا ذلك كذبا .

(يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ) : التغابن تفاعل من الغبن وهو النقص وفوت الحظ ، وقال الراغب : الغبن أن يبخسك صاحبك فى معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . وسمى يوم القيامة بذلك ؛ لأن الكافر غبن نفسه وظلمها بترك الإيمان ، أما المؤمن فقد غبن بتقصيره فى الطاعات والإتقان .

التفســير

٧ - (زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ) :

أى : ادّعى هؤلاء الكفار دون دليل ، وقالوا من غير حجة ولا برهان أنهم لن يبعثوا من قبورهم ولن تكون لهم حياة أخرى بعد موتهم ، وقد حكى القرآن الكريم قولهم فقال تعالى : « وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فقولهم باطل وإدعاؤهم كذب وافتراء وقد جاء فى الأثر : (زعموا مطية الكذب) وقال شريح : لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا . و (بَلَى) حرف جواب إثبات لما بعد (لَنْ) أى : ليس الأمر كما زعمتم وأقسم بربى لتخرجن من قبوركم أحياء ولتنشرن ، ثم بعد البعث والنشور ينبئكم الله ويخبركم بما كنتم تعملون وذلك الإخبار إما عن طريق الملائكة من الله أو بما ترونه مسطورًا فى كتبكم التى تأخذونها بشمائلكم ومن وراء ظهوركم ، وتقولون عند ذلك : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ».[2] ولتحاسبن وتجزون بأعمالكم (وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) أى : وأمر ذلك الذى يحدث يوم القيامة من البعث والجزاء هين على الله ؛ لتحقق قدرته ـ سبحانه ـ على ذلك ؛ فلا يصرفه عنه صارف ولا يحول دونه حائل .

٨ ـ (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بعد أن تبين لكم واستقر فى نفوسكم ووعته قلوبكم ـ وإن كنتم تجحدونه عنادًا واستكبارا ـ أن ما أتى به الرسول ﷺ وما يخبر به صدق وحق لامرية فيه . فأولى بكم وأجدر أن تسارعوا وتبادروا بالإيمان بالله ـ سبحانه ـ رباً وبمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسولاً ، وبالقرآن الذى أنزلناه كتاباً هادياً ومرشدًا وسراجاً منيرًا . وفى تسمية القرآن نورًا ما يومىء ويوحى بأن الكافر به قد عمى قلبه ، وختم الله على سمعه وبصره وصار كالأنعام بل هو أضل ، وسمى بذلك أيضاً ؛ لأنه بإعجازه بيِّن بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك (وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى وهو ـ جلت قدرته ـ بالذى تعلمونه من بواطن أموركم مهما بالغتم فى إخفائه وأعملتم الحيل فى ستره هو ـ سبحانه ـ عليم به علماً كاملا تاماً لا تخفى عليه خافية ، وقيل : خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما حدث منكم فى الدنيا ويحاسبكم عليه وعلى هذا يكون كالتأكيد لقوله تعالى فى الآية السابقة : (ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٩

(٢) سورة الكهف : من الآية ٤٩

٩ ـ (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ...) الآية .

المراد بيوم الجمع يوم القيامة ، وهوظرف والعامل فيه قوله (لَتُنَبَّؤُنَّ) أى : والله لتنبؤن وتخبرن بما عملتم يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ؛ ليحاسب كلاً على ما قدم من خير أو شر (ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) أى : يوم القيامة هو يوم التغابن على الحقيقة ؛ لأنه لا يستدرك أبدا أما تغابن الدنيا فهو زائل وإن جل وعظم ، وتغابن السعداء يوم القيامة على الزيادة فى الإحسان وتغابن الكفار يظهر بترك الإيمان قال النبى ﷺ : « ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : إن كان محسناً ندم أن لايكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع » رواه الترمذى عن أبى هريرة[1] .

وقيل التغابن ليس على الحقيقة ؛ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا يوم غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد اختير للمبالغة وهو أمر واضح إذ ليس هناك غبن ولا بخس ولا نقص . من جانب أهل النار لأهل الجنة ، وقال بعضهم : يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ (ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا وما من عبد يدخل النَّار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة) وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة إذا غلب ونقص بعضهم بعضاً ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغلبون ولا يغبنون السعداء بنزولهم منازل الأشقياء فى النار (وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . هذا وعد من الله لمن يؤمن به ـ سبحانه ـ وتنطلق جوارحهم بالعمل الصالح والكلم الطيب بأن الله يغفر ذنوبهم ويمحو زلاتهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدين

---

(١) أخرجه الترمذى المجلد الرابع ص ٢٩ ، ٣٠ أبواب الزهد عن أبى هريرة وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه .

وباقينَ فيها أبدًا لا ينفكون عنها ولا يزايلونها ، وأبان لهم – وقوله الحق – بأن ماسيلقونه فى الآخرة من النعيم الدائم فى الجنة هو الفوز والظفر العظيم والغُنْم العميم الذى لافوز ولامغنم وراءه إذ فيه النجاة من النار وهى أعظم المهلكات .

هذا مع الظفر بالجنة وهى أجل الرغبات ومنتهى السعادات قال تعالى : « فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »[1] .

وهذا الجزء من الآية الكريمة يفتح باب الرجاء أمام الكافرين حيث يبين لهم أن رحمة الله عظيمة رحيبة تتسع وتشمل كل من يقبل عليه – سبحانه – مؤمناً به وقد قرن إيمانه وبرهن عليه بالعمل الطيب والفعل الحسن .

١٠ – (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

بعد أن بين الله جزاء المؤمنين الصالحين أتبعه بمآل الكافرين المكذبين ؛ ليكون الناس على بصيرة من أمرهم ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وحتى لاتكون لهم على الله حُجة ، أى : والذين جحدوا وأنكروا وجود الله المتفرد بالوحدانية والذى ليس كمثله شىء ، وكذبوا رسوله فيما جاء به من عند ربه من آيات واضحات ومعجزات باهرات أولئك الذين تلازمهم النَّار وتصاحبهم لايجدون عنها فكاكا ولا منها مخرجاً ولا مخلصاً .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح وساء المرجع : والمآل مصيرهم ونهاية أمرهم . وأى : مرجع أشد سوءا من أن تكون الجحيم هى المأوى ؟

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٨٥

(مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾)

التفسير

١١ ـ (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار قالوا : لوكان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله من مصائب الدنيا ، فبين الله ـ تعالى ـ أَنَّ ما أَصاب من مصيبة فى نفس أَومال أَو قول أَو فعل يقتضى همًّا أَو يوجب عقاباً عاجلا أَو آجلا فبعلم الله وقضائه .

(وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) أَى : ومن يصدق ويعلم أَنه لا مصيبة إِلاَّ بإذن الله وإرادته يثبت قلبه على الإِيمان ويقول عند نزول المصيبة : (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وقال ابن عباس : هو أَن يجعل الله فى قلبه اليقين ؛ ليعلم أَن ما أَصابه لم يكن ليخطئه ، وما أَخطأَه لم يكن ليصيبه ، وقال الكلبى : هو إِذا ابتلى صبر ، وإِذا أَنعم عليه شكر ، وإِذا ظلم غفر . (وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أَى :فهو ـ سبحانه ـ بكل شىءٍ عظم وظهر أَو خفى ودق محيط وعالم علماً تاماً فلا يخفى عليه تسليم من أَذعن ورضى وانقاد لأَمره ـ تعالى ـ ولا سخط ولا كراهة من غضب وتمرد على قضائه وقدره .

١٢ ـ (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

(وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أَى :انقادوا لما طلبه ربكم منكم فأْتمروا بأَمره وانتهوا عما نهاكم عنه وأَطيعوا رسوله ﷺ فخذوا ما آتاكم به من عند الله واتقوا ماخوفكم

منه واحذروا أن تخالفوا عن أمره أو أن تتركوا سبيله ونهجه (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى :فإن أعرضتم وأدبرتم وتركتم الإصغاء له والائتمار بأمره فليس هذا بضار الرسول شيئاً ؛ فلا تناله تبعة إعراضكم ، ولا ينقص ذلك من منزلته وجزائه لدى ربه ، إذ هو غير مكلف بهدايتكم ولا هو مسيطر عليكم ولا يملك إسعادكم ، وإنما ضرر التولى والإعراض عائد وراجع عليكم فليس على رسولنا الذى اصطفيناه واخترناه إلا أن يرشدكم ويدلكم على الصراط المستقيم وذلك بأن يبلغكم رسالتنا تبليغاً بيناً واضحاً ولايكتم منها شيئاً وهو ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة فجزاه الله عن أمته خيرا .

١٣ ــ (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أى : الله وحده هو الإله الذى لا معبود بحق سواه وكل ماخلاه باطل ومعبوداتكم كلها مخلوقة ومربوبة له ــ سبحانه ــ ولا تضر ولا تنفع (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أى :وعلى الله وحده دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكاً ،يعتمد ويلتجئ المؤمنون فى جميع شئونهم :لأنه ــ تعالى ــ هو وحده القادر على عونهم والقيوم بأمورهم كلها ، وليس لغيره من أربابكم وآلهتكم المزعومة ولا لسواها شئ من ذلك .

قال الصاوى : وهو تحريض وحث للنبى ﷺ على التوكل على الله والالتجاء إليه ، وفيه تعليم للأمة ذلك بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده .

وفى هذه الآية إيماء إلى أن من لم يتوكل على الله فليس بمؤمن .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَاحْذَرُوهُمْ) : فكونوا منهم على حذر ولا تطيعوهم .

(تَعْفُوا) : تتركوا العقوبة .

(تَصْفَحُوا) : تعرضوا عن التعيير والتأنيب .

(تَغْفِرُوا) : تستروا ذنوبهم وإساءاتهم .

(فِتْنَةٌ) : ابتلاء واختبار .

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) : ومن يكن فى وقاية وحفظ من البخل والحرص .

(إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) : إن تبذلوا أموالكم ابتغاء وجه الله .

(شَكُورٌ) : عظيم الفضل والإحسان بإعطاء الجزيل على القليل .

التفسير

١٤ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) :

أخرج الترمذى والحاكم وصححاه وابن جرير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعُوهم فلما أتوا رسول الله -عليه الصلاة والسلام - فرأوا الناس قد فقهوا فى دينهم همّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله الآية وفى رواية أخرى عنه أنه قال : « كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن فجمع الله - عز وجل - بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله - تعالى - الآية .

وهذا وإن كان سبب نزول تلك الآية فالعبرة بعموم لفظها لابخصوص سببها ؛ فتشمل كل زوج وولد يلحق الضرر بزوجه أو بوالده ، هذا ولا نزال نسمع ونرى من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ، ويجلبن عليهم الشر والضرر ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوًا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًا بهذا المعنى بعينه وقيل : إن عداوتهم من حيث أنهم قد تحملهم مودتهم والحرص عليهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة الأزواج والأولاد ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : (يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك) (فَاحْذَرُوهُمْ) أى : كونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرورهم (وَإِن تَعْفُوا) عن ذنوبهم وتتجاوزوا عن سيئاتهم التى تقبل العفو بأن تكون متصلة ومتعلقة بأمور الدنيا كإضاعة المال ونحوه ، أو مرتبطة بأمور الدين كالعقوق وسوء العشرة وترك مأمور به أو فعل منهى عنه ولكن أعقبتها التوبة . والعفو يكون بترك العقوبة (وَتَصْفَحُوا) أى :تعرضوا عن هذه الخطايا بترك التعيير بها والتأنيب والتثريب عليها (وَتَغْفِرُوا) أى :تستروها بإخفائها وتغطيتها تمهيدًا لنسيانها حتى لايؤدى التذكير بها إلى العودة إليها والتمادى فيها . (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ) المراد أنه يعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم فإنه - عز وجل - عظيم الغفران واسع الرحمة ، واستدل بعضهم بهذه الآية على أنه لاينبغي للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا ألحقوا به ضررًا أو جنوْا معه جناية وأن لا يدعو عليهم .

١٥ - (إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

(إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) : أى : ما أموالكم ولاأولادكم إلا بلاء واختبار لكم قد يحملكم ويدفعكم إلى كسب المحرم ومنع حق الله ، ويوقعكم فى الإثم والشدائد والمصائب الدنيوية فلا تطيعوهم فى معصية الله .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللهم اعصمنى من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن ، وقال الحسن فى قوله تعالى : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ) أدخل من للتبعيض ؛لأن كلهم ليسوا أعداء ولم يذكر من فى قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ؛ لأنهما لايخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال :(رأيت النبى ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :«صدق الله (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما»ثم أخذ فى خطبته) .

وقدمت الأموال فى الآية الكريمة ؛ لأنها أعظم فتنة قال تعالى : « كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ »[1]. وأخرج الإمام أحمد وغيره وصححه الحاكم عن كعب بن فياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتى المال) (وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أى :وعند الله فى الدنيا والآخرة ثواب جزيل وعطاء عظيم لمن آثر محبة الله

---

(١) الآيتان:٦ ، ٧ من سورة العلق .

ومرضاته على محبة الأموال والأولاد ، وقدم طاعة الله على السعى والكد فيا يعود على أولاده بالجاه والمال بوجه يخرج بهم عن مرضاة ربهم .

وقيل :المراد من الأجر العظيم هو الجنة فهى نهاية الأرب وغاية الطلب ولا أجر أعظم منها وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :(إن الله يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) .

١٦ ـ (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أى : ابذلوا فى تقواه ـ جل شأنه ـ جهدكم وطاقتكم ولاتدخروا منها شيئاً ؛ فإن ما عند الله خير وأبقى .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله ـ تخفيفاً على المسلمين ـ (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فنسخت الآية الأولى . وعن مجاهد المراد أن يطاع ـ سبحانه ـ فلا يعصى ، قال الآلوسى ، والكثير على أن هذا هو المراد فى الآية .

(وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ) أى :اسمعوا كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفكر وأطيعوا أوامره ـ عز وجل ـ واجتنبوا نواهيه وابذلوا فى وجوه البر التى أمركم ـ سبحانه أن تنفقوا فيها إنفاقا خالصاً لوجهه ـ تعالى ـ دون رياء أو سمعة ، وافعلوا كل عمل طيب يكن ذلك خيرًا لكم وأنفع بكم (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى : والذين جعلهم الله فى وقاية وحفظ من بخل النفس وحرصها فأولئك هم فى فوز كبير وفلاح عظيم حتى كأنهم وحدهم هم الذين ظفروا بذلك ونالوه .

١٧ - (إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) :

(إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ...) أى : إن تعطوا أموالكم وتبذلوها ابتغاء وجه الله طيبة بها نفوسكم فإنها تكون محفوظة لديه - سبحانه - ينميها لكم ويربيها ، وتكون مخلوفة عليكم لايذهب ثوابها ولا يضيع جزاؤُها فهى لدى أغنى الأَغنياء وأكرم الكرماء وهو الوهاب المعطى وبيده خزائن السموات والأَرض يجعل لكم بالواحد عشراً إلى سبعمائة ضعف أو أكثر قال تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ»[1] وهو - سبحانه - مع ذلك يتفضل عليكم - جزاء إنفاقكم - بغفران ما فرط وبدر منكم من بعض الذنوب (وَاللهُ شَكُورٌ) أى : وهو - تعالت عظمته - وافر الفضل والعطاء لعباده الذين امتثلوا أمره وذلك بأَن يعطيهم الجزيل العظيم على على النزر القليل والعمل اليسير ، (حَلِيمٌ) : عظيم الحلم يمهل عباده فلا يعاجلهم بالعقوبة على ما اقترفوه من آثام ويمد لهم كى يتوبوا ويرجعوا إليه وذلك رحمة بهم .

١٨ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : أنه - سبحانه - يعلم ما غاب وأخفته القلوب فى أثنائها كعلمه - جل شأْنه - ما هو ظاهر وحاضر للعيان (الْعَزِيزُ) الذى لا يماثله ولايناظره أحد ولا يُقْهر ولا يُغلب بل هو القاهر فوق عباده (الْحَكِيمُ) الذى يُجرى كل أمر على مقتضى حكمته وتدبيره وإرادته .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦١ .

سـورة الطلاق

مدنيـة وآياتهـا اثنتـا عشرة

وتسمى سورة النساء القُصْرى . كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخارى وغيره

مناسبتها لمـا قبلهـا :

لَمَّا ذكر ـ سبحانه ـ فى السورة السابقة « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » ، وكانت العداوة قد تفضى إلى الطلاق ذكر ـ جل شأْنه ـ هذا الطلاق ، وأرشد إلى الانفصال منهن على الوجه الجميل ببيان الطلاق السنى وكيف يكون ؟ وذكر أَيضًا مايتعلق بالأَولاد فى الجملة .

اهم اغراض السورة :

دعت الأَزواج إذا تعذر استمرار العلاقة الزوجية إلى سلوك أَفضل الطرق فى الطلاق وذلك بأَن يكون عند استقبالهن العدة ، وهو الطلاق السنى الذى يكون فى طهر لاجماع فيه كما دعت إلى ضبط العدة بدءًا ونهاية ، وحذرت من إخراج المطلقات من بيوتهن أَو أَن يخرجن بدون سبب يدعو إلى ذلك ، وتوعدت من يتعدَّى شرائع الله ويستهين بها : (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

ثم تناولت الأَحكام التى تترتب على قرب انتهاء العدة من إمساكهن بمعروف أَو مفارقتهن بمعروف مع إشهاد ذوى عدل منكم شهادة خالصة لوجه الله فى حالتى الفرقة والإمساك : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...) الآية .

وبينت العدة لمن لم تحض لصغرها أَو انقطع الحيض عنها لكبرها . كما بينت العدة لأُولَات الأَحمال : (وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ...) الآية .

وأَبرزت الأَمر بسكنى المطلقات والنهى عن الإضرار بهن ، وأَكدت على وجوب نفقتهن حال الحمل ، ووجوب أَجر الرضاع مع المسامحة والرفق والإحسان : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ...) الآية .

وجهت النظر إلى أن تكون النفقة على قدر الطاقة سعة وضيقًا مع الرجاء فى فضل الله . « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ... » الآية .

وفى خلال تلك الأحكام التشريعية كما هى سنة القرآن دعت المؤمنين إلى تقوى الله ، وذكرتهم بإرسال رسول يتلو عليهم آياته ؛ليدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وحذرتهم من تعدى حدود الله ، والتهاون فيها ، وأشارت أن لأولئك عقابا شديدًا ، وعذابًا نكرًا .

وختمت السورة بضرب الأمثلة بالأمم الباغية التى عتت عن أمر ربها فذاقت الوبال ، والدَّمار ، وببيان قدرة الله العظيمة التى تجلَّت فى خلق سَبْع سموات طِباق ومن الأرض مثلهن . وكلها براهين وحدانيته – جل وعلا – تبارك الله أحسن الخالقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾)

المفـــردات :

(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ) : أى : إذا أردتم تطليقهن .

(لِعِدَّتِهِنَّ) : أى : لاستقبالهن العدة بالابتداء فيها .

(لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) : أى : من مساكنهن إلى أن تنقضى العدة .

(وَلَايَخْرُجْنَ) : بإذن أو بدونه فى مدة العدة .

(إِلَّاأَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : وتشمل الفاحشة المبينة كما قيل : النشوز والبذاء على الزوج والأحماء ، كما تشمل الزنا والسرقة وغيرهما .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) : أى : محارمه وشرائعه التى عينها لعباده .

التفسير

١ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) :

نزلت حينما طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ قال : ابن عمر طلق امرأته وهى حائض فقال رسول الله ﷺ : ليراجعها وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » وقرأ الآية .

وتخصيص النداء به ﷺ فى الآية مع أن الخطاب بالحكم عام ؛ لكونه - عليه الصلاة والسلام - إمام الأمة ونظير ذلك ما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كذا وكذا إظهاراً لتقدمه عليهم واعتباراً لترؤسه فيهم ، وأنه المتكلم عنهم ، يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه لعلو قدره ، وجلالة منصبه .

وقيل : إنه بعد أن خاطبه الله - سبحانه - بالنداء ، صرف عنه الخطاب لأمته تكريماً له ﷺ لما فى الطلاق من الكراهة ، والكلام على هذا على تقدير القول ، أى : قل لأمتك :(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) .

فمعنى الآية : إذا أردتم تطليق النساء[1] وعزمتم عليه بتنزيل المشارف للأمر منزلة الشارع فيه (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) أى : مستقبلات لها بالدخول فيها ، فإن المرأة إذا طلقت فى طهر ، فإنه يعقبه القرءُ الأول من أقراء عِدتها على رأى من يرى أن العدة بالحيض[2] ، وهى القروء المذكورة فى سورة البقرة[3] وبذلك تكون قد طلقت مستقبلة لعدتها .

---

(١) المراد بالنساء المدخول بهن من المعتدات بالحيض على ما فى الكشاف وغيره .

(٢) كأبى حنيفة وكثير من علماء السلف والخلف ، وقال ابن القيم : لم يستعمل فى كلام الشارع إلا للحيض .

(٣) من الآية ٢٥٨

وفى الكشاف أن المراد من الآية أن يطلقن فى طهر لم يجامَعْن فيه حتى لا تطول العدة عليهن إذا حصل لهن حمل ، وهذا هو أحسن الطلاق ، وأدخله فى باب السنة حتى عرف بالطلاق السنى .

أما تطليقهن فى الحيض فهو الطلاق البدعى ، وهو محرم ، والآية تنهى عنه لمـا فيه من الإضرار بالمرأة لتطويل العدة عليها إذ أن الحيض الذى طلقت فيه لا يحتسب باتفاق ، وتفصيل تلك الأحكام تكفل بها علم الفقه .

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)[1] أى :اضبطوها بحفظ الوقت الذى جرى فيه الطلاق ، وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .

(وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ) أى :خافوه وابتعدوا عن الإضرار بهن بتطويل العدة عليهن حين تختارون تطليقهن فى حيض أو فى طهر وقع فيه وطء .

وفى وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ومبالغة فى وجوب الاتقاء له ـ تعالى .

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) من مساكنهن عند الفراق حتى تنقضى العدة ، وإضافة البيوت إليهن مع أنها للأزواج لتأكيد النهى عن إخراجهن ولبيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها مملوكة لهن وعدم العطف فى قوله : (لَا تُخْرِجُوهُنَّ) للإيذان باستقلال النهى عن الإخراج اعتناء به ، والنهى عنه يتناول كل أسبابه من إكراه لهن على ترك المساكن أو لحاجة الأزواج إلى المساكن أو لغير ذلك (وَلَا يَخْرُجْنَ) من تلك المساكن التى كن فيها بإذن أو بدونه ، فكأنه قيل : لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهن فى الخروج ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك[2] ، وقيل : المعنى ولا يخرجن باستبدادهن أما إذا اتفقا عليه جاز إذ الحق لا يعدوهما .

---

(١) المراد بقوله : « وأحصوا » الأزواج أو الزوجات أو المسلمون ، والصحيح أنهم الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها لهم .

(٢) هذا فى الرجعة ؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأى فى ارتجاعها ما دامت فى عدتها فكانت تحت تصرف الزوج فى كل وقت ، وأما البائن فليس لها شىء من ذلك فيجوز لها أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك ضرورة .

(إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : استثناء من لا تخرجوهن أى : إلّا أن يأتين بأمر ظاهر القبح وهو ما يوجب حدًّا كالزنى والسرقة ونحوهما فيُخرجن لإقامة الحد ، وكذلك إذا طالت ألسنتهن وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح على أزواجهن أو أحمائهن،وأيد بما ورد عن أبى إلّا أن يفحشن عليكم بفتح الياء وضم الحاء كما أخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ، وعن ابن عمر والسُّدى : الفاحشة خروجها من بيتها فى العدة .

ويرى الآلوسى أن المعنى : لا يطلق لهن فى الخروج إلّا فى الخروج الذى هو فاحشة ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه فيكون ذلك منعا للخروج على أبلغ وجه وامتدح هذا الوجه الإمام ابن الهمام وقال : إنه ونظائره بديع وبليغ جدًّا نحو لا تزن إلّا أن تكون فاسقا .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) إشارة إلى ما ذكر من الأحكام التى عينها لعباده ، وأشير إليها بإشارة البعيد مع قرب العهد بها للإيذان بعلو درجتها ، وبعد منزلتها (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ) بالاستهانة بها ، والإخلال بشىء منها (فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) عرضها للضرر الشديد . وهذا تقبيح لمن تعدى حدود الله (لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا . .) خطاب للتعدِّى بطريق الالتفات للزجر عن التعدى كأنه قيل : ومن يتعد حدود الله فقد أضر بنفسه فإنك لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد الذى فعلت من التعدى أمرًا يقتضى خلاف ما فعلت فيكون بدل بغضها محبة ، وبدل الانصراف عنها إقبالٌ عليها وبدل عزيمة الطلاق نَدَمٌ عليه ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح كأنه قيل : التزموا حدود الله فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن لعلكم تندمون ، فتراجعون وإبقاء المطلقة فى منزل الزوج يساعد على ذلك ويجعل المراجعة أيسر وأسهل .

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) : شارفن وقاربن آخر عدتهن .

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) : عند الحاجة إليها واجعلوا رسالتكم خالصة لوجه الله .

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) : خلاصًا ممَّا عسى يصيب الأزواج من الغموم والمضايق .

(مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) : من حيث لايخطر بباله .

(فَهُوَ حَسْبُهُ) : كافيه ومعينه فى كل أموره .

(إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) : يبلغ ما يريد ولايفوته مراد ولايعجزه مطلوب .

(لِكُلِّ شَيْءٍ قدْرًا) : تقديرًا وتوقيتًا .

التفسير

٢ ، ٣ - (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ

اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) :

المعنى : فإذا شارف المطلقات آخر العدة ، وأصبحن على وشك الانتهاء منها فأنتم معهن بالخيار فيما بقى من زمن العدة إن شئتم فأمسكوهن بحسن معاشرة واتفاق لائق وود خالص وإن شئتم ففارقوهن بإيفاء الحق ، واتقاء الضرر مثل أن يراجعها المراجعة ثم يطلقها تطويلاً للعدة (وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) عند المراجعة أو الفرقة قطعًا للتنازع ، ومنعًا للشقاق . وهذا الأمر للندب نظير قوله تعالى : « وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » ويروى عن الشافعى وغيره أنه قال بالوجوب عند الرجعة : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » بأن تجعلوها لوجهه خالصة لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ، ونصرة العدل ، ودفع الضرر .

(ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) الإشارة على ما اختاره الكشاف للحث على إقامة الشهادة لله تعالى والأولى كما فى الكشاف أن تكون الإشارة إلى جميع ما ذكر من إيقاع الطلاق على وجه السنة ، وإحصاء العدة ، والكف عن الإخراج والخروج ، وإقامة الشهادة للرجعة أو الفرقة ، وفى ذلك ملازمة قوية لقوله تعالى : (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) فإنه اعتراض مؤكد لِمَا سبق من الأحكام التى تتمثل فى أمر إجراء الطلاق على السنة ووجوب مراعاة حدود الله باتقائه فى تعديها ، فلم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد على كل عمله ، ومن التزم بذلك يجعل الله له مخرجًا مما عسى أن يقع فى شأن الأزواج من الهموم والغموم ، ويفرج عنه مايعتريه من الكروب فى الدنيا والآخرة ، ويرزقه من وجه لايخطر بباله ولايتوقع أن تتفتح عنه أبواب الخير وتتيسر به أسباب الرزق ، وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لايحتسب)[1] وروى أيضًا عن ابن عباس قال : إن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالماً فأتى رسول الله ﷺ فقال : أسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال – عليه الصلاة والسلام – : (اتق الله وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلّا بالله العظيم) ففعل ، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه

---

(١) رواه الحاكم ٤ – ٢٦٢ .

الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) بأن يكل أمره إليه تعالى مؤثرًا له على الطمع فى غيره ، وعن تدبير نفسه ، إن فعل ذلك وتخلق به كان الله له معينًا وكافيًا فى الدنيا والآخرة[1] .

أخرج أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الرب تبارك وتعالى : (إذا توكل على عبدى لوكادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج) .

« إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » بمعنى منفذ أمره فى كل ما كان وما يكون يبلغ ما يريد ، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب « قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا » تقديرًا قبل وجوده أو مقدارًا من الزمان ينتهى إليه ، ويشير التعميم فى الجملة إلى وجوب التوكل عليه تعالى ، وتفويض الأمر إليه ؛ لأنه إذا عُلم أن كل شىء من الرزق وغيره لا يكون إلّا بتقديره سبحانه ، لا يبقى إلّا التسليم للقدر ، والتوكل على الله تعالى .

(وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَاللَّائِى يَئِسْنَ) : أى : انقطع عنهن الحيض لكبر سنهن ، وقدر بستين أو خمس وخمسين سنة .

(إِنِ ارْتَبْتُمْ) : إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدة اليائس .

---

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٨ — ١٩٧ وعزاه لابن مردويه .

(يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) : يذهبها .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) : بالمضاعفة .

التفسير

٤ - (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) :

روى أن أناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذات الأقراء فما عدة اللائى لم يحضن ؟ فنزلت عدة الآيسة واللّائى لم يحضن وأولات الأحمال ، فتذكر أن عدة اليائسة التى بلغت سن اليأس من الحيض وهى تقدر بستين سنة أو بخمس وخمسين ، ثلاثة أشهر . إن ارتبتم وأشكل عليكم حكمهن ، وجهلتم كيف يعتدون ؟ وكذلك تكون عدة الصغيرات اللّاتى لم تحضن ثلاثة أشهر[1] ، وحذف بيان العدة فى النص الكريم مع اللاتى لم تحضن ثقة بدلالة ما قبله عليه .

وعدة أولات الأحمال أن يضعن حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن ، فقد أخرج جماعة عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إن وضعت حملها حلت فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلّت .

وذهب على - كرم الله وجهه - وابن عباس - رضى الله عنهما - إن الآية فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين أى :الأشهر أو وضع الحمل وهو مذهب الإمامية كما فى مجمع البيان ، وقوله :

(وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) خصص به عموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » لتراخى نزوله عن ذلك لمـا هو المشهور من قول ابن مسعود - رضى الله عنه - من شاء باهلته أن سورة النساء القصرى

---

(١) فإذا رأت الدم فى زمن احتماله عند النساء، انتقلت إلى الدم لوجود الأصل كما أن السنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر وهذا إجماع كما قال القرطبى .

نزلت بعد التى فى سورة البقرة ، وقد صح أن سبيعة بنت الحارث الأسلميةَ ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لها : (قد حللت فتزوجى) .

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) أى : ومن اتقاه ـ سبحانه ـ فى شأن أحكامه ومراعاة حقوقها يسهل عليه أمره ، ويوفقه للخير ، ولكل عمل نافع . وقيل : يجعل له يسرًا أى : ثوابا .

٥ ـ (ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) .

إشارة إلى ما علم من حكم المعتدات ، وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الفضل ، وقد أنزله إليكم من اللّوح المحفوظ (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ) فى تلك الأحكام بالمحافظة عليها (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وفى الحديث : (وأتبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)[1] .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) بالمضاعفة ، « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] .

---

(١) رواه أحمد عن أبى ذر : ٥ ـ ١٥٣ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٦٠ .

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ) : الوجد مثلثة الواو الوسع والطاقة أى : أسكنوهن مكانًا من سكنكم وفق وسعكم وطاقتكم .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) : أى : المطلقات .

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ) : أى : تشاوروا وأن يأمر بعضكم بعضًا باليسر والتسامح فى الأجرة .

(وَإِن تَعَاسَرْتُمْ) : بأن كان من الأب مضايقة أو من الأم ممانعة .

(وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) : ضيق عليه فى رزقه .

التفســير

٦ - (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عمَّا قبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ، فأُجيب عن ذلك بقوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ ...) الآية .

أى : أسكنوا المعتدات مكانًا من مسكنكم الذى تسكنونه حسبما تطيقونه من وسع وقدرة ، وقد روى عن قتادة ما يؤيد ذلك حيث قال : ولتسْكُن إذا لم يكن إلَّا بيت واحد فى بعض نواحيه ، وهى واجبة باتفاق مع النفقة لكل مطلقة رجعية حاملًا كانت أو حائلًا ، أما المبتوتة وهى التى طلقت ثلاثًا ، وليست ذات حمل ، فقد اختلف فى شأنها العلماء ، فعند ابن المسيب ومالك والأوزاعى والشافعى وغيرهم ليس لها إلَّا السكنى ولا نفقة لها ، وعن الحسن ، وحماد وأحمد وغيرهم لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت : إن زوجها أبتّ طلاقها فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال لها : لا سكنى لك ولا نفقة ، وأمرها أن تعتدّ فى بيت ابن أم مكتوم ، ثم أنكحها أُسامة بن زيد .

وعن عمر – رضى الله عنه – أنه طعن فى هذا الحديث ، فقال : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول لها : السكنى والنفقة ، وقد طعن فى حديث فاطمة أيضًا عائشة وسليمان بن يسار وأبو سلمة وغيرهم .

وقال أبو حنيفة والثورى : لها السكنى والنفقة ، بدليل قول عمر – رضى الله عنه – .

وقال ابن نافع : قال مالك فى قوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ) يعنى المطلقات اللَّاتى بِنَّ من أزواجهن ولا رجعة لهم عليهن ، ولسن ذوات حمل ، فلكل منهن السكنى ولا نفقة لها ولا كسوة ؛ لأنها بائن منه ، لا يتوارثان ولا رجعة له عليها .

فأما من لم تَبِن منهن ، فإنهن نساؤهم يتوارثون ، ولا يخرجن إلَّا أن يأذن لهن أزواجهن ما كن فى عدتهن ، ولم يؤمروا بالسكنى لهن ؛ لأن ذلك لازم على أزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن حوامل كن أو غير حوامل .

(وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) أى : تجنبوا الإضرار بالمعتدات ، فلا تستعملوا معهن ما يؤذيهن لإلجائهن إلى الخروج كأن تنزلوا معهن من لا يوافقهن فى الجوار ، أو تشغلوا المكان بغيرهن أو نحو ذلك .

(وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) : وبوضع الحمل يخرجن من العدة .

قال كثيرٌ من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذا الحكم فى البائن - إن كانت حاملًا أنفق الزوج عليها مع السكنى حتى تضع حملها قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها حاملًا كانت أو حائلًا .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل ، وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق عليها إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنها لا نفقة لها نظرًا لذلك وليعلم حكم غيرها بالطريق الأولى .

أما أولات الحمل المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن عند أكثر العلماء ، ويرى على - كرم الله وجهه - وابن مسعود وجوب نفقتهن فى التركة من جميع المـال حتى يضعن ، وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعى وأبو حنيفة لا ينفق عليها إلَّا من نصيبها .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) بعد انقطاع عصمة الزوجية بوضع حملهن (فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) على ما قمن به من إرضاع ثم خاطب - سبحانه - الآباء والأمهات ، ودعاهم إلى أن يتشاوروا ، فيأمر بعضهم بعضًا بمعروف أى : بجميل فى الأُجرة والإرضاع ، وذلك بحديث سمح بعيد عن المماكسة من الأَب والمعاسرة من الأُم فقال تعالى : (وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ) ، وقيل : المعروف الكسوة والدثار (وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) أى : وإن ضيق أحدكم على الآخر بالمشاحة والمبالغة فى الزيادة أو النقص فى الأُجرة ، فسترضعه مرضعة أُخرى غير الأُم ، على معنى فليطلب الأَب هذه المرضعة ، فإن لم يقبل الولد ثديها ، أُجبرت الأُم على الإرضاع بأَجر المثل ، وفيه معاتبة للأُم على المعاسرة كقولك لمن تستقضيه حاجة ، فيتوانى سيقضيها غيرك ، بمعنى ستقضى وأنت ملوم .

وخصت الأُم بالمعاتبة على ماقال ابن المنير ؛ لأَن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها وهو غير متمول ولا مضمون به فى العرف وخصوصاً من الأُم على الولد ، ولا كذلك المبذول من

الأب فإنه المال المضمون عادة ، فالأم إذن أحق باللوم ، وأولى بالعتب خصوصاً وهى أكثر حنوا وشفقة على الوليد ، ولذلك لو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

٧ ـ (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) :

المعنى : لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه وفق ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا » أى : بقدر ما أعطاها من الطاقة والقوة ، وقيل : بقدر ما آتاها من الأرزاق قلت أو كثرت ، وفيه تطييب واستمالة لقلب المعسر ، وترغيب له فى بذل مجهوده (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) وعد للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم عاجلا أو آجلا أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ماقدروا عليه ، ولم يقع منهم تقصير وهو على كلا الوجهين لتأكيد المعنى المراد من الترغيب فى الإنفاق قل مال المنفق أو كثر .

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾)

المفــــردات :

(عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا) : استكبرت وطغت وعتا من باب قعد .

(عَذَاباً نُّكْرًا) : منكرا شديدا والمراد عذاب الآخرة .

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) : أى : فتجرعت وخامة وسوء عاقبتها .

(خُسْرًا) : خسارا هائلا .

(قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) : جبريل أو النبى أو القرآن .

التفســير

٨ ــ (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) :

يتوعد الله ـ سبحانه ـ من خالف أمره ، وكذب رسله ، ويخبر عما حل بالأمم السابقة بسبب ذلك فيقول تعالى : (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) أى : كثير من أهل قرية تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ، ومتابعة رسله (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدًا) بالاستقصاء والمناقشة لأهلها فى كل نقير[1] من الذنوب وقطمير[2] مما اقترفته جوارحهم فلا تجاوز لهم عن شىء مهما قل(وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) أى : منكرًا عظيماً يفوق التصور حيث لم تخطر ببالهم شدته ، وتعدت الاحتمال قسوته ، والمراد حساب الآخرة مع ما عجل لهم فى الدنيا من العذاب بالجوع ، والقحط ، وسائر المصائب والبلايا .

والتعبير بالماضى فى قوله :(فَحَاسَبْنَاهَا) وفى قوله :(وَعَذَّبْنَاهَا) للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

ويجوز أن يراد بالحساب إحصاء جميع ذنوبهم وكتابتها فى صحائف أعمالهم لدى الحفظة ، وبالعذاب ما أصابهم عاجلا فى الدنيا من العقاب ، ويكون الإتيان بالماضى فى (فحَاسَبْنَاهَا) وفى (وَعَذَّبْنَاهَا) على الحقيقة لوقوع الحساب والعقاب فى دنياهم .

٩ ـ (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) :

أى : فذاقت عقوبة عتوها وكفرها وتمردها على أوامر الله ، وكانت نتيجة ذلك خسارًا شديدًا لا خسار وراءه ، والمراد عقوبة الآخرة ، وجىء بلفظ الماضى ؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى وواقع فى الحقيقة فكأنه قد كان .

١٠ ـ (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) :

تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها بقوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) .

---

(١) النقير : النكتة فى ظهر النواة . (٢) القطمير : القشرة الرقيقة التى على النواة كاللفافة .

كأنه قيل : أعد الله لهم هذا العذاب المترقب فليكن ذلك يا أُولى الألباب داعياً لكم لتقوى الله – تعالى – وحذر عقابه ، وجملة (أَعَدَّ اللهُ) إلخ استئناف يشير إلى أن عذابهم ليس منحصرًا فيما ذكر من الحساب الشديد والعذاب النكر بل لهم بعدهما عذاب شديد آخر مُعدّ لمزيد عقابهم ، وقوله :(الَّذِينَ آمَنُوا) بيان لأُولى الألباب « قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا » قيل : هو القرآن لقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » .

وقيل : هو جبريل – عليه السلام – سمى ذكرًا لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر الذى هو القرآن .

كما ينبئ عنه إنزال قوله تعالى : (رَسُولًا) منه .

وقيل : هو النبى ﷺ وعليه الأكثر ، وإطلاق الذكر عليه لمواظبته – عليه الصلاة والسلام – على تلاوة القرآن الذى هو ذكر ، وتبليغه والتذكير به . وعبر عن إرساله بالإنزال ؛ لأن الإرسال سبب عن إنزال بالوحى عليه ﷺ على سبيل المجاز .

١ – (رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) :

(رَسُولًا) بدل جاء للبيان من قوله : (ذِكْرًا) . قال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر وتبيين له وقال أبو حبان : الظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد ﷺ .

وفى توجيه هذا الرأى أقوال : أشهرها أن رسولا منصوب بفعل محذوف تقديره أرسل دل عليه أنزل أى : أنزل لكم ذكرا ، وأرسل إليكم رسولا ونحا إلى هذا السّدى ، واختاره ابن عطية .

(يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ) نعت لقوله : « رَسُولًا » أى : أنه ﷺ يقرأ عليكم أو حال من اسم الله فى قوله تعالى : « قَدْ أَنزَلَ اللهُ ... » .

أى : أن الله تعالى يأمر أمين وحيه جبريل -عليه السلام- أن يقرأ على رسوله آياتِ الله . القرآن . واضحات جليات تبين لكم الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من أحكام دينكم (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) المراد من الذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر ، وقبل نزول هذه الآية ، أو من علم سبحانه وقدر أنهم سيؤمنون ، وعلى ذلك يكون المعنى على الأول ، ليخرج الله أو الرسول (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : ليحصل لهم ماهم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح . وعلى الثانى ليخرج من علم الله وقدر أنه يؤمن (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أى : من أنواع الضلالات إلى الهدى ، ومن ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتعبير بالماضى فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا » عمن سيؤمن ، باعتبار علمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلى ، أو باعتبار نزول هذه الآية[1] (وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً) وفق ما بُيِّن فى تضاعيف ما أنزل من الآيات الواضحات التى ورد بها الذكر الحكيم (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : تنساب من بين قصورها الأنهار الصافية ؛ ليكمل لهم النعيم العظيم فى دار البقاء (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) بمعنى أن مكثهم فى تلك الجنات دائم حيث لايخرجون منها ولا يموتون (قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله -تعالى- المؤمنين من الثواب وسائر المطاعم والمشارب ، وكل مالذ وطاب مما تقر به الأعين ، وتطمئن إليه النفوس ، وإلا لم يكن فى الإخبار بما ذكر ههنا كثير فائدة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾)

(١) إذا أريد بالذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية .

المفردات :

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : أى : يجرى أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن.

(قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شىْءٍ عِلْماً) : أى : أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية لإحاطة علمه بكل شىء لاستحالة صدور هذه الكائنات العظيمة ممن ليس كذلك .

التفسير

١٢ - (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً) :

إخبار من الله - تعالى - عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ؛ ليكون ذلك باعثاً وحافزا على تعظيم ما شرع الله من الدين القويم ، وما خلق من مخلوقات كونية على أقصى درجة من الإحكام والكمال ، لاتحيط بعظمتها منطقة الفكر ولا دائرة العقل ، ويضيق عنها نطاق الحصر ، ولا أدل على ذلك من أنه سبحانه هو الذى خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن فى العدد بمعنى أنها طبقات سبع بعضها فوق بعض وهو رأى الجمهور وقد وصفه القرطبى بأنه أصح الأقوال وطبقات الأرض هى الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ونحو ذلك . وقيل : المثلية بين السموات والأرض فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ، وأُيِّد بأن الأرض لم تذكر فى القرآن إلا موحَّدة ، ورُد بأنه صح فى رواية البخارى وغيره « اللهم رب السموات السبع وما أقللن . ورب الأرضين السبع وما أظللن » الحديث كما رُد بما ثبت فى الصحيحين« من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرض خلق؟ قال : نعم قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جن .

وأخيرا لعل القول بالتعدد هو المتبادر من الآية وتقتضيه الأخبار .

ويقول روح المعانى : ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره أو المتردد فيه

وقد ذكروا تفصيلات عن جوهر كل سماء وعن المسافة بين كل سماء وأخرى وبين كل أرض وأخرى .

وهذا ونحوه حقيق بأن نكل أمره إلى الله عالم الغيب والشهادة .

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) أى : يجرى أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره - عز وجل - بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، وعن قتادة فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وقضاء من قضائه - عز وجل - وقيل : (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) . بحياة وموت وغنى وفقر .

وقال مقاتل : (الْأَمْرُ) هنا الوحى و (بَيْنَهُنَّ) إشارة إلى ما بين هذه الأرض السفلى التى هى أدناها وبين السماء السابعة التى هى أقصاها (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : أعلمتكم وأخبرتكم بذلك من خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن : لتعلموا أن الله قادر على كل شيء (وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) لاستحالة صدور هذه المخلوقات العظيمة ممن ليس كذلك ، بل هى شواهد ناطقة ، ودلالات بينة .

على أن علمه الواسع قد أحاط بكل شيء - عز أو دقّ - وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

سورة التحريم

مدنية وآياتها اثنتا عشرة آية وكما تسمى سورة التحريم تسمى المتحرم ، ولم تحرم ؛ وسورة النبى ﷺ وعن ابن الزبير سورة النساء .

مناسبتها للسورة التى قبلها وهى سورة الطلاق :

أنها متواخية معها فى الافتتاح بخطاب النبى ﷺ وأن السابقة مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإماء وبينهما من الملابسة مالا يخفى .

ولما كانت السابقة فى خصام وطلاق نساء الأُمة ذكر فى هذه خصومة نساء النبى المصطفى ﷺ إعظاماً لهن أن يذكرن مع سائر النسوة فأُفردن بسورة خاصة ، ولذلك ختمت بذِكْر آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . قاله السيوطى عليه الرحمة .

اغراض السورة :

عتاب الرسول ﷺ عتاباً رقيقاً لطيفاً فى التحريم والتحليل قبل ورود وحى سماوى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ؟) الآية .

تناولت أمرا على جانب من الخطورة ألاوهو إفشاء السر الذى يكون بين الزوجين والذى يهدد الحياة الزوجية بالتردى والتوقف ، وضربت المثل برسول الله ﷺ حين أَسَرَّ إلى حفصة حديثاً ، واستكتمها إياه فأَفشته إلى عائشة حتى شاع وذاع مما أغضبه ﷺ حتى هم بتطليق أزواجه (وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثاً ...) الآية .

حملت على أزواجه ــ صلوات الله عليه ــ حملة عنيفة حين حدث ما حدث بينهن من التنافس (عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجاً خَيْرًا مِّنكُنَّ ...) الآية .

أبرزت الأمر بالابتعاد عن جهنم ، وخوفت من عذابها بأشد أنواع الوعيد (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...) الآية .

دعت دعوة قوية إلى التوبة النصوح ، وأظهرت وعد المؤمنين بإتمام نورهم فى القيامة (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...) الآية .

رسمت الطريق لجهاد الكفار والمنافقين حيث يكون بطريق السيف مع الكفار ، وبالبرهان والحجة مع المنافقين (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

بينت أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن القرب من المفسدين لايضر مع وجود الصدق والإخلاص (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ..) الآيتين .

ختمت السورة بذكر تصديق مريم ابنة عمران وما اتصفت به من عفة وتصون فكان لها من الله أعظم الجزاء (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ...) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥))

المفــردات :

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) : أى : شرع لكم تحليلها ، وهو حل ماعقدته الأيمان ، وذلك بالكفارة أو بالاستثناء متصلا حتى لايحنث ، وتحلة أصلها تحللة قبل الإدغام مصدر حلل المضعف كتكرمة من كرم .

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) : أخبرت .

(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : فقد مالت قلوبكما عن الحق ، يقال صغت الشمس مالت للغروب :

(وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : وإن تتعاونا بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة ، والوقيعة بينه وبين نسائه بإفشاء سره .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) أى : فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه .

(قَانِتَاتٍ) : مُطِيعات من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع .

(سَائِحَاتٍ) أى : صائمات ، وسمى الصائم سائحاً ، لأنه يسبح فى النهار بلا زاد أو مهاجرات .

التفسير

١ ـ (يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

روى فى سبب النزول أن النبى ﷺ خلا بمارية فى يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها اكتمى علىَّ فقد حرمت مارية على نفسى ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان من بعدى أمر أمتى ، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا متصادقتين. كما فى رواية الكشاف وقيل : خلا بها فى يوم حفصة وكانت قد استأذنته ﷺ فى زيارة أبويها فأذن لها فلما علمت قالت : فى بيتى وعلى فراشى فأرضاها بما حدثها به من تحريم مارية على نفسه وبما بشرها به من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر واستكتمها ذلك فلم تكتمه فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها لمن نسائك فى الجنة .

وقال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية نزلت فى قصة العسل لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ولم تأت فى طريق صحيح ، وشرب العسل كان عند زينب بنت جحش فقد روى أنه ﷺ كان يمكث عندها ويشرب عسلا فتواصت عائشة وحفصة لما وقع فى نفسهما من الغيرة من ضرتهما أن أيتهما دخل عليها النبى ﷺ فلتقل له : إنى أجد منك

ريح مغافير[1] ، وكان ﷺ يحب الطيب ، ويكره الرائحة الكريهة ، للطافة نفسه الشريفة فحرم العسل على نفسه وقد حلف وقال : لن أعود فنزلت .

والمعنى : لم تحرم أيها النبى ما أحل الله لك من ملك اليمين أو شرب العسل ، وفى ندائه ﷺ أيها النبى فى مفتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه مالا يخفى حيث خوطب غيره باسمه من سائر الرسل ، والاستفهام ليس على حقيقته بل هو معاتبة .

والمراد من التحريم الامتناع ، وبما أحل الله لك العسل على ما صححه النووى أو وطء سريته على مافى بعض الروايات (تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) استئناف لبيان أن الداعى إلى التحريم مؤذن بعدم صلاحيته لذلك كأنه قيل : إن الذى فُعل زلة ؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ابتغاء مرضاة أزواجه على أن التحريم فى نفسه محل عتب والباعث عليه كذلك(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بالغ الغاية فى الغفران والرحمة فقد غفر الله لك ما بدر منك ، وفيه تعظيم له ﷺ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن كذلك فى نفسه ، وأن عتابه ﷺ لم يكن إلا لمزيد العناية به .

هذا وإن تحريم الحلال على وجهين ، الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل فى الحرام وهو محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره عن المعصوم أصلا ، والثانى : الامتناع عن الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف ، وحلال محض .

وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع وإنما عاتبه تعالى على ما بدر منه رفقاً به ، وتنوبهاً بقدره . وإجلالا لمنصبه ﷺ أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه مع أنه ألف لطف الله به .

٢ - (قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

---

(١) المغافير بفتح الميم والغين جمع مغفور بضم الميم صمغ ينضحه شجر العرفط يؤخذ ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة كريهة . والعرفط شجر أو نبت له ورق عريض .

أى : قد شرع لكم سبحانه تحليل[1] أيمانكم بالكفارة أو بالاستثناء المتصل الذى يأتى به الحالف حتى لا يحنث ، والتحليل من الحل ضد العقد فكأنه باليمين على الشىء عقد عليه لالتزامه ، وبالكفارة يحل ذلك .

وعلى القول بأنه كان منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يمين كما جاء فى بعض الروايات وهو ظاهر الآية .

اختلف هل أعطى ﷺ الكفارة لمستحقيها أولا ، فعن الحسن أنه لم يعط ؛ لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه ﷺ أعتق رقبة فى تحريم مارية ، وقد نقل مالك فى المدونة عن زيد بن أسلم أنه ﷺ أعطى الكفارة فى تحريمه أم ولده حيث حلف ألا يقربها ، ونقل مثله عن الشعبى .

(وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) أى : والله سيدكم ومتولى أموركم ، وهو جل شأنه عظيم العلم بما يصلح لكم فيشرعه لخيركم بالغ الحكمة والإتقان فى أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما فيه الاستقامة والصلاح فيما أحل وحرم .

٣ ـ (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) :

المراد من بعض أزواجه على المشهور حفصة لا عائشة كما زعم بعض الشيعة أى : واذكر حديثاً أسرَّه النبى ﷺ لبعض أزواجه ، وهو ماروى عنه ﷺ « ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود إليه وقد حلفت لاتخبرى بذلك أحدا » أو هو حديث مارية أو حديث الإمامة كما قيل (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) أى : أخبرت بالحديث عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وتناولتا نقصان حظ ضرتهما زينب من حبيبهما ﷺ حيث إنه كما فى البخارى وغيره : كان يمكث عندها يشرب العسل ، وقد اتخذ ذلك عادة وقد استخفها السرور فنبأت به[2] ، (وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) أى : جعل سبحانه نبيه ﷺ ظاهراً على

---

(١) تحليل وتحلة مصدران : الأول قياسى والثانى سماعى لحلل المضعف العين ، وأصل تحلة تحللة قبل الإدغام للمثلين .

(٢) حيث إن وجوده عندها ليس لمودة قلبية كما تقصدان .

الحديث ، مطلعاً عليه بواسطة جبريل - عليه السلام - أو جعل الله الحديث ظاهرا على النبي ﷺ يتبينه ويدرك كنهه .

ولما أظهر الله نبيه على الحديث أعلم ﷺ حفصة بنصه الذى أفشته وهو قوله لها : « كنت شربت عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود » وأعرض عن بعضه فلم يخبرها به وهو قوله : « وَقَدْ حلفت » تكرماً من مزيد خجلها ، وهذا منه ﷺ اهتمام بمرضاة أزواجه وهو لايحب شيوع ذلك عنهن رعاية لحقهن وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن مجاهد أن النبى ﷺ أسر إلى حفصة تحريم مارية ، وأن أبا بكر وعمر يليان أمر الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف ﷺ بعضه ، وهو أمر الإمامة . روى عن على كرم الله وجهه - وابن عباس قالا : إن إمامة أبي بكر وعمر لفى كتاب الله . (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً) .

وقيل : عرف أمر مارية ، وأعرض عن أمر الإمامة مخافة أن يفشو . روى أنه ﷺ قال لحفصة : ألم أقل لك اكتمى علىّ قالت : والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحاً بالكرامة التى خص بها أبى .

وحين نبأها بما أفشته لتعرف هل التى كشفت الحديث عائشة أولا (مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا) قال ﷺ : (نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) الذى لا تخفى عليه خافية لإحاطته بخطرات النفوس ومكنونات الضمائر ، فإنه لذلك أوفق للإعلام[1] .

قال الآلوسى : وقصارى ما يمكن أن يقال : يحتمل أن يكون النبى ﷺ شرب عسلاً عند زينب كما هى عادته وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل ، واتفق - له عليه الصلاة والسلام - قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية فى بيت حفصة وفى يومها وعلى فراشها ، فوجدت فحرم ﷺ مارية وقال لحفصة ما قال تطييبا لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما وبعضهم

---

(١) واستدل بالآية على أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَن يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمه ، وفيها على ما قيل دلالة على أنه يحسن العشرة مع الزوجات والتلطف فى العتب والإعراض عن استقصاء الذنب .

على نقل الأخرى وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كلٍّ حصر سبب النزول فإن صح هذا هان أمر الاختلاف ا هـ بتصرف .

٤ ـ (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) :

ومما يدل على أن المرأتين اللتين وقع منهما التظاهر على رسول الله ﷺ هما عائشة وحفصة مارواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس[1] قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله فيهما : (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثنى الحديث بطوله .

والآية خطاب لهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى العتاب ، فإن المبالغ فى العتاب يصير المعاتب بعيداً أولا عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : مالت عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله ﷺ ، وحب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته . وجملة (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) تعليل لجواب الشرط ودليل عليه ، والتقدير إن تتوبا إلى الله فلتوبتكما موجب وسبب ؛ لأنه قد صدر عنكما ما يقتضيها من ميل قلوبكما عنه ﷺ ، وقيل : الجواب محذوف والتقدير إن تتوبا إلى الله يمح إثمكما وقوله : (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) بيان لسبب التوبة وقيل : غير ذلك .

والجمع فى قلوبكما دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد ، وهو فى مثل ذلك أكثر من التثنية والإفراد (وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : فلن تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره (فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) بمعنى أنه لا يعدم من يظاهره ؛ فإن الله مؤيده وناصره ، وجبريل رئيس الكروبيين[2] قرينه ، وكل من آمن وعمل صالحاً أتباعه وأعوانه .

(١) وقد أخرجه أيضا البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان وغيره عن ابن عباس .
(٢) الكروبيون بالتخفيف سادة الملائكة .

قال ابن عباس- رضى الله عنهما- أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر- رضى الله عنهما- وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسطه بين جبريل والملائكة - عليهم السلام- وقيل : أريد به من برىء من النفاق ، وقيل الصحابة ، (وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) بمعنى أن الملائكة على كثرة عددهم ، وامتلاء السماء بهم فوج مظاهر بعد ذلك له قدره وشأنه بما فيهم جبريل- عليه السلام - وإن كانت نصرتهم من نصرة الله فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وأعظم جل جلاله شأن النصرة لرسوله ﷺ على هاتين الضعيفتين إما للإشارة إلى عظم مكر النساء ، أو للمبالغة فى قطع حبال طمعهما لعظم مكانتهما عند النبى وعند المؤمنين لأمومتهما لهم ، وكرامة له ﷺ ورعاية لأبويهما فى أن تظاهرهما يجديهما نفعاً ، فكأنه قيل :فإن تظاهرا عليه فلا يضره ذلك فإن الله تعالى هو مولاه وناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه (وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ) مظاهرون له ومعينون إياه كذلك .

٥ - (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) :

أى :إن تحقق طلاقكن فحق وواجب أن يبدل الله رسوله أزواجاً خيرًا منكن ، والخطاب لهن جميعاً على سبيل الالتفات ، وأصله لاثنتين ،ولكنه ورد عاما :لأنهن فى منزل الوحى أو على التغليب أو لاجتماعهن فى الغيرة عليه ﷺ لما أخرجه البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه فقلت : عسى ربه إن طلقهن أن يبدله خيراً منهن فنزلت هذه الآية وفق قول عمر .

وكون المبدلات خيرًا منهن مع أن أمهات المؤمنين خير نساء على وجه الأرض ؛لأنه إن طلقهن لإيذائهن إياه لم يبقين كذلك ، وكان غيرهن من الموصوفات فى الآية بالصفات الكاملة خَيْرًا منهن إن تزوجهن الرسول ، وهذا وعد من الله لرسوله لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه نساءً خيراً منهن تخويفاً لهن كما فى القرطبى .

وليس فى الآية مايدل على أنه لم يطلق حفصة ولا مايدل على أن فى النساء خيرا منهن فإن تعليق طلاق الكل لاينافى تطليق واحدة ، والمعلق بما لم يقع لايجب وقوعه .

وقد روى أنه ﷺ طلق حفصة فغلب ما لم يقع من الطلاق على الواقع .

وقد وصف الله هؤلاء الزوجات اللاتى سيبدل رسوله ﷺ بهن فقال : (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ) مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات (قَانِتَاتٍ) مواظبات على الطاعة — أومصليات (تَائِبَاتٍ) مقلعات عن الذنب (عَابِدَاتٍ) متذللات لأمر الرسول ﷺ متعبدات (سَائِحَاتٍ) صائِمَاتٍ . سمى الصائم سائحا ؛ لأنه يسيح فى النهار بلازاد ، وإنما يأكل حيث يجد الطعام أو مهاجرات . قال ابن زيد : ليس فى الإسلام سياحة إلَّا الهجرة ، وقيل : ذاهبات فى طاعة الله كل مذهب (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) والثيبات جمع ثيب وهى التى زالت عذرتها وسميت بذلك ؛ لأنها ترجع إلى الزوج بعد زوال عذرتها .

والأبكار جمع بكر وهى التى لم تفتض ووسط العاطف بينهما لتنافيهما ولو سقط لاختل المعنى . إن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان ، وترك العطف فى الصفات السابقة ؛ لأنها صفات تجتمع فى شخص واحد ، وبينهما شدة اتصال يقتضى ترك العطف .

وذُكِرَ الجنسان ؛ لأن فى أزواجه ﷺ من تزوجها ثيبا ، وفيهن من تزوجها بكرا وجاء أنه لم يتزوج بكرا إلا السيدة عائشة — رضى الله عنها — .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) : وقاية النفس بترك المعاصى ، ولزوم الطاعات ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتوجيه، ويراد بالحجارة الأصنام .

(غِلَاظٌ شِدَادٌ) : أى : غلاظ الأقوال شداد الأفعال أو الخَلق والخُلُق .

(تَوْبَةً نَصُوحًا) : بمعنى بالغة الغاية فى النصح وقيل : هى من نصاحة الثوب أى : خياطته بمعنى أنها توبة قوية ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك .

(يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) : يقال : أخزى الله ــ تعالى ــ فلانًا فضحه وقال الراغب : يقال : خزى الرجل لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياءالمفرط ومصدره الخزاية وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى .

التفسير

٦ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) :

ينادى الله المؤمنين فيدعوهم إلى الابتعاد عن نار لاتشبه نيران الدنيا فى اتقادها وقسوة أثرها ، بل تربو وتزيد على ذلك حيث إنها تتقد بالناس والحجارة كما يقول سبحانه : (قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وذلك بأن تأخذوا أنفسكم بترك المعاصى وفعل الطاعات وتأخذوا أهليكم بما تأخذون به أنفسكم بجعلهم موضع عنايتكم بما تولونهم من نصح وإرشاد حتى لاتكونوا فى أشد العذاب كما قيل : من أشد الناس عذابًا يوم القيامة من جهل أهله ، روى أن عمر - رضى الله عنه - قال حين نزلت : يا رسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال - عليه الصلاة والسلام - : « تنهوهن عمَّا نهاكم الله عنه ، وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » والمراد بالأهل كما قيل ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة ، وأدخل بعضهم الولد فى الأنفس ؛ لأنه بعض أبيه واستدل بالآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ويشير قوله تعالى : (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) إلى أن أمر تلك النار يدعو إلى العجب والاهتمام لأنها لاتتقد بالحطب كما هو شأن نيران الدنيا وإنما تتقد بالأجساد والأحجار .

قيل : المراد بها الأصنام التى كانت تعبد من دون الله لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[(١)] . وقال ابن مسعود وغيره : هى حجارة من كبريت زاد مجاهد أنتن من الجيفة ، ونقل عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها » وقد أمر المؤمنون باتقائها ؛ لأنها معدة للكافرين .

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ) أى : أنه موكل عليها ملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها . قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، وفى أجسامهم غلظة وشدة (لَّا يَعْصُونَ اللهَ

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٩٨ .

مَا أَمَرَهُمْ) بمعنى أنهم لا يمتنعون من الأمر ، ويلتزمونه (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فيؤدونه ، ويبادرون إليه من غير تثاقل فيه ولا توان عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله فى شدة وقوة وهؤلاء هم الزبانية ، والجملتان ليستا فى معنى واحد ، إذ الأولى : (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ) لنفى المعاندة والاستكبار عنهم ، والثانية : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) لنفى الكسل والتثاقل عنهم وأنهم يفعلون الأمر فى وقته فلا يقدمون ولا يؤخرون وعلى ذلك فلا تكرار .

وفى المحصول المعنى لا يعصون الله فيما مضى والإتيان بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، ويفعلون ما يؤمرون فى الآتى .

٧ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به من الله تعالى ويراد من اليوم ، اليوم المعهود وهو يوم الجزاء ، ونهيهم عن الاعتذار ؛ لأنهم لا عذر لهم أو لأن العذر منهم يذهب سدى ولا ينفعهم إذ ذاك ، يوم لا ينفع المرء حينئذ إلا ما قدمت يداه .

وهذا النهى لإدخال اليأس فى قلوبهم (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : تجزون وتعاقبون على الكفر والمعاصى التى اقترفتموها فى الدنيا بعد ما نهيتم عنها نهيًا شديدا زاجرا وأمرتم بالإيمان والطاعة أمرًا كاملًا فلم تنتفعوا بترك ما حذرتم منه وفعل ما وجهتم إليه ، بل استمرأتم الضلال ، وتمسكتم بالعصيان .

٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : توبوا معشر الذين انقادت قلوبهم إلى الله توبة بالغة الغاية فى النصح وقد وصفت التوبة بذلك على المجاز ؛ لأن النصح وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة ، فيأتوا بها على طريقها المرسوم ، وذلك بأن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين على فعلها مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون إليها ، موطنين أنفسهم على ذلك

بحيث لايصرفهم عنه صارف أصلًا ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : (أن يندم على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لايعود إليه كما لايعود اللبن إلى الضرع) .

وروى تفسيرها بما ذكر عن عمر وابن مسعود وأُبىّ والحسن وغيرهم ، وعن عمرو بن العلاء قال : سمعت الحسن يقول : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

وقال الإمام النووى : التوبة ما استجمعت ثلاثة أمور : أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم عزماً جازما ألّا يعود إلى مثلها أبدا ، فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى لزم أمر رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه ، وركنها الأعظم الندم ، وعلامة الندم طول الحسرة والخوف ، وانسكاب الدمع .

وفى شرح المقاصد قالوا : إن كانت المعصية فى خالص حق الله تعالى فقد يكفرها الندم كما فى ارتكاب الفرار من الزحف ، وترك الأمر بالمعروف ، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد فى الشرب وتسليم ما وجب فى ترك الزكاة ، ومثله فى ترك الصلاة .

وظاهر الأخبار قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت ، ويتحقق أمره عادة ، ومقتضى كلام النووى والمازنى وغيرهما وجوبها عند التلبس بالمعصية ولايجوز تأخيرها سواءٌ أكانت صغيرة أم كبيرة . وقيل : المراد توبوا إلى الله توبة ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك من نصاحة الثوب أى : خياطته ؛ وقيل : توبة خالصة من الذنوب من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

(عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : قيل : إن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك على التحقيق، ووروده بتلك الصيغة للإطماع جريا على سنن الملوك من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ، وللإشعار بأن تكفير الذنوب تفضُّل والتوبة غير موجبة ، وأن العبد ينبغى أن يكون فى خوف ورجاء وإن بالغ فى وظائف العبادة .

وقبول توبة غير الكافر مسألة خلافية بين المعتزلة القائلين : بأنه يجب على الله قبولها عقلًا ، وبين إمام الحرمين والقاضى أبى بكر حيث يقولان :بأنه يجب اعتقاد قبولها سمعا ووعدا لكن بدليل ظنى إذ لم يثبت فى ذلك نص قاطع فى غفران ذنوب المسلم بالتوبة لايقبل التأويل ، والدليل الظنى كقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ »[1] ، وأما حديث التوبة تجبُّ ما قبلها فليس بمتواتر ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل تكفل به علم الكلام .

وأما توبة الكافر فالإجماع على قبولها قطعا بالسمع لوجود النص كقوله تعالى : « قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ »[2] ولأنه إذا قطع بقبول توبة الكافر كان ذلك فتحا لباب الإيمان ، وسوقًا إليه ، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن كان ذلك سدًّا لباب العصيان ومنعا منه .

وبالتوبة النصوح يدخلكم الله – جل شأنه – جنات تجرى من تحت قصورها وبين أشجارها أنهار تجد فيها النفس ما تهواه وما تشتهيه وذلك (يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) .

والمراد بنفى الإخزاء إثبات الكرامة والعز ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق ، وحث للمؤمنين على مضاعفة الحمد والثناء على الله حيث عصمهم من مثل حال الكفار ، ويقصد بالإيمان نوره الكامل على ما ذكره الخفاجى (نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين عند مرورهم على الصراط . قال الضحاك : ما من أحد إلَّا يُعطى نورا يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا : (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا) ، وكون هذا القول يقوله المؤمنون إذا طفىء نور المنافقين نقل أيضا عن مجاهد وابن عباس وغيرهما ، وعن الحسن أنهم يقولون ذلك تقربا إلى الله مع تمام نورهم ، وقيل : تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامها تفضلًا ، وقيل : السابقون إلى الجنة

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٥٣

(٢) سورة الأنفال : من الآية ٣٨

يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك هم الذين يقولون : (رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا) .

(إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : إنك البالغ القدرة على كل شىء من المغفرة والعذاب ، والرحمة والعقاب واستجابة الدعاء وتحقيق الرجاء .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩)

المفـــردات :

(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) : من الغلظة وهى الشدة أى : واستعمل الشدة والخشونة مع الفريقين فى جهادهما .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) : المأوى المسكن أى : ومسكنهم جهنم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : جهنم أو مأواهم .

التفسير

٩ ـ (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

المعنى : جاهد أيها النبى الكفار بالقتال ، والمنافقين بالحجة وإقامة الحدود ، واستعمل مع الفريقين الشدة والخشونة فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة ، وعن الحسن أكثر ما كان يصيب الحدود فى ذلك الزمان من صيغ المنافقين ، فأمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يغلظ عليهم فى إقامة الحدود .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : بمعنى أن مسكنهم الذى يرجعون إليه فى الآخرة جهنم التى سيذوقون فيها أشد العذاب ، وأقساه ، وقبح ذلك المسكن الذى كبكبوا فيه هم والغاوون لما اشتمل عليه من شدائد وأهوال تجعل الولدان شيبا .

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(فَخَانَتَاهُمَا) : من الخيانة وهى مخالفة الحق نقضا للعهد بما صدر عنهما من كفر وعصيان ، ونقيضها الأمانة . ولاتفسر الخيانة بالفجور لما يأتى فى الشرح .

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أى : من عذابه شيئا من الإغناء .

(ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) أى : مع سائر الداخلين الذين لا صلة لهم بالأنبياء .

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) أى : صانته عن دنس المعصية .

التفسير

١٠ - (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) :

ضرب المثل فى مثل هذا عبارة عن إيراد حالة غريبة لتُعرف بها حالة أُخرى مشاكلة لها فى الغرابة .

والمعنى : مثَّل الله - عز وجل - حال الكافرين فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا يجديهم نفعًا مع عداوتهم لهم ، ما كان بينهم من النسب والمصاهرة ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبيًّا . مثل الله ذلك بحال امرأة نوح وامرأة لوط حالًا ومآلًا (كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ) أى : فى عصمة نبيين عظيمى الشأن رفيعى القدر عندهما ليلًا ونهارًا يواكلانهما ويعاشرانهما متمكنين من تحصيل خيرى الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما (فَخَانَتَاهُمَا) بما صدر عنهما من كفر وعصيان مع تحقق ما ينافيهما من مرافقة كلتيهما لنبى كريم ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس عنه : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على ضيف زوجها إذا نزل به .

رُوى ذلك عن جمع وصححه الحاكم عن ابن عباس .

وأخرج ابن عدى والبيهقى فى شعب الإيمان وابن عساكر عن الضحاك أنه قال : خيانتهما النميمة ، وتمامه فى رواية أخرى كانتا إذا أوحى الله تعالى بشىء أفشتاه للمشركين . ولا تفسر الخيانة بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس ما زنت امرأة نبى قط ورفعه أشرس إلى النبى ﷺ قال صاحب الكشاف : لا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور ؛ لأنه سمج فى الطبع نقيصة عند كل أحد .

وفى هذا تصوير لحال المرأتين المماثلة لحال الكفرة فى خيانتهم لرسول الله ﷺ بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة .

وقوله تعالى : (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا) بيان لما أدى إليه خيانتهما أى : فلم يغن الرسولان الكريمان عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناءً مَا من عذاب

الله لكفرهما بالرسولين وإفشاء أسرارهما ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة : ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لاصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

١١ ـ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : مثَّل الله حال المؤمنين فى أن وصلة الكفار لاتضرهم ، ولاتنقص شيئًا من أجورهم وزلفاهم عند الله ، بحال امرأة فرعون ، منزلتها العظيمة ، ومكانتها الرفيعة عند الله ولم ينقصها أنها كانت تحت أعدى أعداء الله وذلك (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) أى : قريبًا من رحمتك : لأنه تعالى منزه عن المكان ، وجوز أن يكون المراد بعندك أعلى درجات المقربين ؛ لأن ما عند الله خير لإرادة القرب من العرش ، قالت ذلك وهى تعذب بالأوتاد الأربعة .

أخرج أبو يعلى والبيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون أوتد لإمرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها . فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة ـ عليهم السلام ـ فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

وفى رواية عبد بن حميد عن أبى هريرة عنه أنه قال : إنه وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

روى أنها لَمَّا قالت ذلك أريت بيتها فى الجنة درة ، وانتزعت روحها ، وهى آسية بنت مزاحم آمنت بموسى ـ عليه السلام .

(وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ) أى : من نفسه الخبيثة ؛ لأنه بجوهره عذاب ودمار يطلب الخلاص منه ثم طلبت ثانيًا النجاة من عمله تنبيهًا على أنه الطامة الكبرى فهو الكفر ،

والظلم ، والتعذيب ، وغير ذلك من القبائح (وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) من القبط كلهم فهم تابعون له فى الظلم قاله مقاتل وهم أهل مصر إذ ذاك .

١٢ ـ (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) :

عطف قوله ـ سبحانه ـ : (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ) على امرأة فرعون أى : ضرب الله مثلًا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء عالمي زمانها مع أن أكثر قومها كانوا كافرين ، وجمع فى التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لقلوبهن كما قيل وهى من أعقاب هارون أخى موسى ـ عليهما السلام ـ وقد صانت فرجها وحفظته من الرجال أو من دنس المعصية (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) المخلوقة لنا بلا توسط أصل ، والنافخ جبريل ـ عليه السلام ـ وإسناده إليه ـ تعالى ـ على المجاز أو على حذف مضاف بمعنى فنفخ رسولنا فيه أى : فى الفرج . والذى اشتهر بين العلماء أن جبريل نفخ فى جيبها[1] فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى ـ عليه السلام ـ ، وقد روى عن قتادة ، وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها[2] وهو محتمل ؛ لأن الفرج فى اللغة فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى مدحها والثناء عليها ؛ لأنها إن منعت جيب درعها فهى للنفس أمنع وفى ذلك من الوصف بالعفة ما فيه وفى مجمع البيان عن الفراء أنها منعت جيب درعها عن جبريل ـ عليه السلام ـ لَمَّا تمثل لها بشرًا سويًّا . وكان ذلك على ما قيل : قولها : « إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا »[3] .

(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) أى : آمنت بصحفه المنزلة على إدريس وغيره ، أو بما أوحى منها إلى أنبيائه ، وسماها كلمات لقصرها وصدقت كذلك بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول أو يراد بها جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره ، وكما قيل

---

(١) جيب القميص ما ينفتح على النحر ا هـ مصباح .

(٢) الدرع القميص .

(٣) سورة مريم : من الآية ١٨

يجوز أن يراد بالكلمات وعده - تعالى - ووعيده أو ذلك وأمره - عز وجل - ونهيه إلى غير ذلك من أقوال .

(وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) . من عداد المواظبين على الطاعة المؤثرين لها ، والتذكير على التغليب حيث لم يقل من القانتات ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم وهذا أبلغ من التأنيث ، وجوز أن يكون المعنى وكانت من نسل القانتين لأنها من سلالة هارون أخي موسى - عليهما السلام - (وعليه تكون مِنْ لابتداء الغاية لا للتبعيض) ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع يتبع أصله ، وهى على ما فى بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن .

روى أحمد فى مسنده سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية ثم عائشة ، وفى الصحيح كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلّا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، وهى حَرِيَّة بمزيد من الفضل .

وحسبك أنها عقلت من النبى ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء ، وروت عنه ما لم يرو مثلها أحد من الرجال .

ثم لا يخفى أن فاطمة - رضى الله عنها - وهى بضعة من الرسول ﷺ لا يعدلها فى الفضل أحد .

سـورة الملك

مكية وآياتها ثلاثون آية

مقاصـدها :

تتضمن هذه السورة تنزيه الله الذى فى قدرته الملك وهو على كل شىء قدير ، كما تصفه بأنه ـ سبحانه ـ خلق الموت والحياة ليختبرهم ويجزيهم على أعمالهم ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، وتصفه بأنه خلق سبع سموات طباقاً لاعيب فيها ، وأنه زين السماء الأُولى بمصابيح وهى النجوم ، وتوعدت السورة الذين كفروا بربهم بعذاب جهنم ، وتصف حالهم فيها واعترافهم بخطئهم فى الكفر ، وتعقب ذلك ببيان حسن المصير للمتقين ، وأنه ـ تعالى ـ يعلم أعمال عباده خفية كانت أو علنية ، وأنه ذلَّل الأَرض ومدَّها لكى تتيسر لهم الأَرزاق بسيرهم فيها طلبًا للرزق ، وحذرت الكفار من أن يخسف الله بهم الأَرض ، أو يرسل عليهم ريحًا ترميهم بالحصباء ، ووجهت نظرهم إلى أنه ـ تعالى ـ سَهَّل للطير أسباب الطيران فى الجو ، ولولا ذلك ما استطاعت ، وأنه تعالى لو أمسك رزقه عن الناس فلا رازق لهم سواه ، وبينت أنه ـ سبحانه ـ خلقهم ومنَّ عليهم بالسمع والأَبصار والقلوب ، وأنه خلقهم فى الأَرض وإليه البعث والنشور بعد الموت ، وبينت أن الكفار يسأَلون رسولهم عن موعد هذا البعث وأنه ـ تعالى ـ أمر رسوله بإبلاغهم أن علم ذلك عند الله وحده ، وذكرت أنه لو أهلك النبىَّ ومن معه كما تمنى الكفار ، أو رحِمهم بالإِبقاء فمن الذى يجير الكافرين من عذاب أليم ينتظرهم يوم القيامة لكفرهم ، وبينت أنه ـ سبحانه ـ هو الرحمن لمن آمن به ، وهو الذى يجيرهم من عذاب أليم ، وأن الماءَ لو أذهبه الله من الآبار فمن الذى يأْتيهم بماء معين سواه ، ومن كان هذا شأْنه فى ملكه فلا بد من الإِيمان به .

صلة هـذه السورة بما قبلهـا :

لما ضرب الله مثلًا للكفار فى آخر السورة التى قبلها بامرأة نوح وامرأة لوط الكافرتين ، وأنه لم يشفع لهما كونهما زوجتين لرسولين ، وضرب مثلا للمؤمنين بآسية امرأة فرعون ،

ومريم ابنة عمران ، ولم يضر الأُولى كفر زوجها ، كما لم يضر الثانية كون أكثر قومها كفاراً ، افتتح هذه السورة بما يدل على تصرفه الكامل فى ملكه فقال ـ سبحانه ـ : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) إلى غير ذلك من الأُمور المشتركة بينهما .

اسماء السورة وفضلها :

جاء فى تعدد أسمائها أحاديث يؤخذ منها أنها تسمى « تبارك » و « المانعة » و « المنجية » و « المجادِلة » كما تسمى سورة « الملك » ، وقد ذكر هذه الأَحاديث الآلوسى فى مستهل كلامه عنها ، ولم نذكرها تجنباً للإطالة .

وقد جاء فى فضلها حديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وغيرهم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل حتى غُفِر له : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) » .

وفى حديث رواه الطبرانى ، وابن مردويه بسند جيد عن ابن مسعود « مَنْ قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب » . . إلى غير ذلك من الأَحاديث .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(تَبَارَكَ) : تعالى وتقدس .

(بِيَدِهِ الْمُلْكُ) : تحت قدرته وطوع أمره ملك السموات والأرض .

(لِيَبْلُوَكُمْ) : ليختبركم .

(سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً) : بعضها فوق بعض ، جمع طبق أو طبقة .

(فُطُورٍ) : شقوق وخروق .

(كَرَّتَيْنِ) أى : رجعة بعد أخرى ، فالمراد من الرجعتين التكرار بكثرة .

(خَاسِئًا) : صاغرًا متباعدًا عن أن يرى شيئاً من ذلك .

(وَهُوَ حَسِيرٌ) : حسير بمعنى حاسر ، وهو من الحسور بمعنى الإعياء والتعب .

التفسير

١ - (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : تعالى الله الذى تحت قدرته وطوع مشيئته ملك السموات والأرض ، يدبره ويزيد فيه بحكمته ، وتعاظم عن كل ما سواه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وتقدس وتنزه عن الشريك والنظر فى إبداع هذا الملك العظيم ، فكل ما سوى الله مخلوق له - جل وعلا - ، وهو على كل شىء لم يوجد من الممكنات عظيم القدرة على إيجاده وتحقيقه[١] .

٢ - (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

هذه الآية استئناف لتفصيل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم واستتباعهما لغايات جليلة .

والموصول هنا (الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) بدل من الموصول السابق (الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ) ، وصلته كصلته فى الشهادة بتعاليه - عز وجل - .

وجوز الطبرسى كونه خبرًا لمبتدأ محذوف ، أى : هو الذى .

وبين الله - تعالى - الحكمة فى خلقهما بقوله : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أى : ليعاملكم معاملة المختبر ليظهر أيكم أصوب عملًا وأخلصه ، فيجازيكم بمراتب مختلفة من الجزاء حسب تفاوت أعمالكم ، وهو عليم أزلا بما سوف يحصل منكم باختياركم : والمراد من العمل ما يشمل عمل القلب والجوارح ، ولذا قال ﷺ فى الآية : (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وأورعكم عن محارم الله - تعالى - وأسرع فى طاعة الله - عز وجل - .

وعلق عليه الآلوسى بقوله : أى : أيكم أتم فهما لما يصدر عن جناب الله - تعالى - وأكمل لما يؤخذ من خطابه - سبحانه - .

وأجيب بأن المقصد الأصلى للابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقيق أصل الإيمان والطاعة فى الباقين أيضاً - ، لكمال تعاضد الموجبات له ، وأما العمل القبيح فبمعزل

---

(١) هكذا فسر صاحب الكشاف جملة:(وهو على كل شىء قدير) لتتضمن معنى جديدا غير ما تضمنه صدر الآية .

عن الاندماج تحت الوقوع ، فضلاً عن الانتظام فى سلك الغاية أو الغَرضِ ـ عند من يراه لأفعال الله ـ عز وجل ـ وإنما هو عمل يصدر عن عامله لسوء اختياره من غير مصحح له ، وفيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج إلى العلوم ومدارك الطاعات مالا يخفى .

انتهى من الآلوسى بتصرف يسير .

وختم الله الآية بقوله : (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) :

أى : الغالب الذى لا يعجزه عقاب من أساء ، الغفور لمن أساء منهم أو تاب .

٣ ـ (الَّذِى[١] خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ) :

كل ما علاك سماء ، من السمو بمعنى الرفعة ، ولهذا يطلق لفظ السماء على الغلاف الجوى الأزرق الذى يعلو الأرض ، ويحيط بها ، ويطلق أيضاً على السحب الممطرة أوغيرها ، بل يطلق على المطر نفسه مجازًا ، لأنه نزل من السماء بمعنى السحاب ، يقول بعض العرب : ما زلنا نطأُ السماء حتى أتيناكم ، أى نطأ المطر الذى فوق الأرض ، وكذلك يطلق على النجوم والكواكب لارتفاعها .

والمراد من السموات السبع غير هذا كله فهى من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وهى التى عرج بالنبى ﷺ إليها .

ولا سبيل إلى أن يراد منها النجوم والكواكب ، لأنها زينة للسماء الدنيا ـ أى : الأولى ـ لقوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)[٢] وقوله :(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)[٣] .

ولا شك أن زينة الشىء غير هذا الشىء ، فمثلا زينة الفتاة غير الفتاة نفسها ، والله ـ تعالى ـ يقول فى سورة الكهف الآية ٧ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا) فالأشجار والزروع والجبال ونحوها زينة للأرض وليست هى الأرض .

---

(١) لفظ (الذى) نعت للعزيز الغفور ، أو بيان ، أو بدل ، ولفظ (طباقا) صفة لسبع .
(٢) من الآية الخامسة من هذه السورة. (٣) الآية السادسة من سورة الصافات .

كما أن النجوم والجبال ليست سبعاً ، لا فى نفسها ولا فى المجرات التى تتبعها ، فهى ملايين الملايين التى لايحصيها إلّا الله ـ تعالى ـ ، كما أن عدد المجرات وعدد طبقاتها لايحصيه إلّا الله ـ تعالى ـ وليست سبعاً .

وهذه الآية من أعظم الآيات على تعاليه ـ سبحانه ـ فوق كل شىء .

والمراد من التفاوت فى قوله ـ سبحانه ـ : (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ)[1] المراد منه الاختلاف وعدم التناسب ، وفسره السُّدِّى بالعيب ، وإليه يرجع قول من قال : أى : من تَفَاوُتٍ يورث نقصًا ، والفطور هى الشقوق ، جمع فَطْرٍ بمعنى شقٍّ يقال : فطره فانفطر أى : شقه فانشق ، والمراد نفى الخلل والعيب فى خلقها ، والخطاب فى الآية لكل من يصلح له من المكلفين .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق سبع سموات بعضها فوق بعض طباقاً ، ما ترى فيها أيها الناظر من عيب أو اختلاف فى درجات الإتقان والإبداع ، فإن كنت فى شك من ذلك فَرَدِّدْ طرفكَ فى نواحيها وقلبه فى أرجائها فانظر هل ترى فى خلق الرحمن من عيوب ؟ .

والتعبير بلفظ (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ) بدلاً من أن يقال : مَا تَرَى فِى خَلْقِ القادر ، للإيذان بأنه ـ تعالى ـ خلقها بقدرته رحمة بعباده .

٤ ـ (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) :

أى : ثم ردِّد البصر وقلبه فى أرجاء السماء ، يرجع إليك بصرك بعدهما بالصغار وعدم إصابة الغرض من رؤية خلل أو عيب فيها ، كأنما طردته السماءُ عن أن يعود إلى البحث عن عيب فيها ، من خسأَ الكلبَ أى : طرده .

وفسر بعض اللغويين لفظ (خَاسِئاً) بـ « متحيرًا » .

---

(١) هذه الجملة نعت ثان للعزيز الغفور .

وليس المقصود من الكرتين المرتين فقط ، بل المراد منه كثرة التكرير ، أي : رجعات كثيرة بعضها في إثر بعض ، كما قالوا في لبيك وسعديك : أي إجابات كثيرة لك يا الله لدعوتك إيانا للحج إلى بيتك المحرم ، ومن تفسير المثنى بالكثير قول الشاعر :

لو عُدَّ قبرٌ وقبرٌ كان أكرمَهُم بيتاً وأبعدهم عن منزل الذّام

لأنه يريد : عُدَّت قبور كثيرة .

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾)

المفردات :

(السَّمَآءَ الدُّنْيَا) : السماء القربى منكم وهي الأولى .

(بِمَصَابِيحَ) : جمع مصباح وهو السراج ، والمراد منها النجوم ، سميت بذلك لإضاءتها .

(وَجَعَلْنَاها رُجُومًا) : رجوما جمع رجْم ، وهو مصدر سمي به مايرجم به ، أي : وجعلنا شهبها التي هي مصدرها .

(وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) : أي : وأعددنا للشياطين أشد الحريق ، يقال : سعرت النار فهي مسعورة وسعيرة أي : أوقدتها فهي موقدة .

التفسير

٥ - (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) :

دلت الآية السابقة على أن هذه المصابيح زينة للسماء الدنيا وليست هى السماء الدنيا كما تقدم بيانه .

وكلها تدور بقدرة الله فى الفضاء على وجه مخصوص تقتضيه الحكمة ، ومجاريها فيه هى أفلاكها ، وقد ارتبط بعضها ببعض برباط الجاذبية ، ولكل منها حركات حول نفسها وحركات غير ذلك ، وهى متفاوتة قرباً وبعدًا تفاوتاً لا حد له ، وإن منها مالا يصل شعاعه إلينا إلا بعد عدة سنين ، فى حين أن شعاع شمسنا يصل إلينا فى ثمانِ دقائق وثلاث عشرة ثانية ، مع أن بيننا وبينها أربعة وثلاثين مليوناً من الفراسخ[1] فما أعظم قدرة الله وحكمته فى إبداع هذا الكون العظيم .

وجاء فى الآية أن الله تعالى جعل هذه المصابيح رجومًا للشياطين ، والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به ما يرجم به - كما تقدم فى بيان المفردات - والمقصود أنها مصدر رجم الشياطين ، للحيلولة بينهم وبين استراق السمع من الملائكة الذين حول الأرض ، وهم يتحدثون فى بعض أمور الغيب التى وكلت إليهم ، ولكن هذه المصابيح لاتترك مدارها ، فهى باقية فيه حتى تنفطر السماءُ وتنتثر الكواكب ، وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، وفى كون الرجم بأجزاء صغيرة جدًّا من تلك الكواكب وتسمى شهباً يقول الله - تعالى - فى سورة الصافات : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّايَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ »[2] وفى سورة الجن : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا

---

(١) هذه المعلومات عزاها الآلوسى لعلماء الهيئة وقد نقلناها عنه . بتصرف يسير .
(٢) الآيات من ٦ - ١٠ .

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[1] . والمقصود من السماء التى كانوا يقصدونها الجو الذى يعلو الأرض ، فإنه يسمى سماء لغة ، لِسُمُوِّهِ ، أى : لارتفاعه .

وقد عرفنا من هاتين الآيتين وغيرهما من الأحاديث أن الجن كانوا يسترقون السمع قبل نبوة محمد ﷺ من الملائكة فى جو الأرض ، وينقلون ما يسمعون من الغيب إلى كهان الأصنام من أجواف هذه الأصنام ، فيستغله الكهان ويضيفون إليه ما شاءوا من الأكاذيب تقوية لزعامتهم الدينية .

وقد دلت الآيتان على أن السماء - أى : الجو الذى حول الأرض - ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً يرصده فيقتله ، وذلك بعد بعثة النبى ﷺ حتى يسلم الوحى من أراجيف الشياطين ، كما دل عليه قوله تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا »[2] وكما دلت عليه السنة .

وهذه الظاهرة التى وجدوها فى حراسة السماء جعلتهم يبحثون عن سببها حتى سمعوا النبى ﷺ يقرأ القرآن ، ويدعو إلى عبادة الله - تعالى - وحده فآمن منهم من آمن ، وفى ذلك يقول الله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجن : « وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[3] .

ونزول الشهب المضيئة المحرقة ظاهرة كونية قديمة ناشئة عن انفصال أجزاء صغيرة من هذه الكواكب وجذب الأرض لها فتشتعل من سرعة وقوة احتكاكها بالهواء ، والله - تعالى -

---

(١) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الجن من الآية ٢٦ إلى آخر السورة .

(٣) سورة الجن الآيات من ١٣ - ١٥ .

هو الذى يعلم لماذا كانت تنزل قبل البعثة المحمدية ويعلم مختلف مصادرها ، وقيل فى معنى الآية : وجعلناها ظنوناً ورجوماً لشياطين الإنس وهم المنجمون المعتقدون تأْثير النجوم فى السعادة والشقاوة ونحوهما ، ولكن الآلوسى رفض هذا الرأى ، ونحن كذلك نرفضه لأَنه مخالف للنصوص الأُخرى التى مرّ ذكرها .

وقد ذكر القرطبي ردًّا على ذلك قول محمد بن كعب : والله مالأَحد من أَهل الأَرض فى السماءِ نجم ، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ، ويتخذون النجوم عِلَّة ، ونقل أَيضاً عن قتادة تعليقاً على الآية قوله : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماءِ ، ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر والأَوقات ، فمن تأَول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به وتعدى وظلم .

وتعقيباً على ما قاله قتادة نقول : إن هذه الأُمور الثلاثة مأْخوذة من نصوص فى القرآن الكريم ، ولكنها لا تمنع أَن تكون لها غايات أَعظم غير هذه الأُمور الثلاثة ، ولكن الله ــ تعالى ــ لم يصرح بها لأَنها من شئون الغيب الذى استأْثر الله بالعلم به لأَن البشر ليسوا بحاجة إلى علمها ، ولأَنها فوق مستوى عقولهم .

والمعنى الإجمالى للآية : ولقد زينا السماءَ الأُولى بأَجرام شبه المصابيح فى إضاءَتها فتخفف ظلام الليل ، وجعلنا المصابيح مصادر للشهب التى يرجم بها الشياطين الذين يحاولون استماع الغيب من الملائكة الذين يوجدون فى سماءٍ هى ... الأَرض إذ لا قدرة لهم على الوصول إلى أَى كوكب من كواكبها ، فضلا عن استحالة وصولهم إلى السماءِ نفسها . وأَعْتَدْنا لهؤُلاءِ الشياطين ولأَمثالهم فى الكفر عذاب النار المشتعلة فى الآخرة بعد الإحراق فى الدنيا لمسترق السمع منهم بالشهب ، فإن قيل : إن الشياطين خلقوا من النّار فكيف يعذبون بها ؟ قلنا : إن النّار هى مادة خلقهم ، ولكنهم تحولوا إلى أَجسام أخرى قابلة للاحتراق بها ، كما تحول بنو آدم من الطين إلى أَجسام خالية من الطين .

٦ ، ٧ـ (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ) :

أى : وللكافرين بربهم من الإنس عذاب جهنم مثل ما للجن من عذاب ، وبئس المآل والمرجع لكليهما جهنم ، إذا طرح فيها هؤلاء الكافرون ، سمعوا لها وهى تغلى وتفور - سمعوا لها - صوتاً منكرًا يشبه فى فظاعته ونكره صوت الحمير .

وكما يعذب الكافرون بالنَّار يعذب عصاة المؤمنين بها ، كما تدل عليه النصوص الواردة بشأنهم فى آيات أخرى ، فلا حُجَّةَ للمرجئة فى الاستدلال بالآية الأُولى على أن التعذيب بالنَّار خاص بالكفرة دون عصاة المؤمنين .

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾)

المفــــردات :

(تَمَيَّزُ[1] مِنَ الْغَيْظِ) : تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ على أعداء الله ، وفى هذه الجملة استعارة تصريحية أو مكنية تخييلية ، وقيل : إنه حقيقة ، وذلك بأن يخلق الله فيها إدراكاً فتغتاظ .

(فَوْجٌ) : جماعة من الكفار ، (خَزَنَتُهَا) : حراسها من الملائكة .

(نَذِيرٌ) : رسول ينذركم .

(بَلَى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ) : نعم قد جاءنا نبى ينذرنا سوء عاقبة الكفر .

(فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) : فبعدًا لهم عن رحمة الله .

---

(١) أصله تتميز فحذفت التاء الأولى تخفيفا وهى تاء المضارعة .

التفسير

٨ ، ٩ـ (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ) :

استئناف لبيان أحوال أهل النَّار بعد بيان حال النَّار نفسها .

والمعنى : تكاد جهنم تتقطع من شدة غضبها على الكفار ، كلما أُلقى فى النَّار جماعة منهم سألهم حراسها ـ وهم مالك وأعوانه من الملائكةِ ـ سألوهم ـ موبخين قائلين : ألم يأتكم رسول يتلو عليكم آيات الله ، وينذركم لقاء يومكم هذا ؟ أجابوا معترفين قائلين : نعم قد جاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا فيما جاءَنا به من الآيات : ما أنزل الله على بشر من شىءٍ وكما قلنا لهؤلاءِ الرسل : ما أنتم فى ادعاءِ رسالتكم عن الله إلا فى ضلالٍ وبعد كبير عن الحق والصواب ، وجوز الزمخشرى أن يكون هذا من كلام خزنة النَّار للكفار .

١٠ ، ١١ ـ (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) :

هذا اعتراف آخر من أهل النَّار ، وكأَن خزنة النَّار قالوا لهم : ألم تسمعوا آيات ربكم وتعقلوها ؟ فقالوا معترفين : لوكنا نسمع كلام الرسل سماع فهم وتدبر أو نعقله ، ما كنا فى أصحاب النار ، أى : فى عدادهم ومن جملتهم ، فكلام الرسل كان أولى بتصديقنا لكونه جارياً على سُنَّة الحجة ، ومبنياً على البرهان ، فكان هذا اعترافاً من الكفار بذنبهم فى الإعراض عن الحق المبين ، فبُعْدًا لهم عن رحمة الله .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾)

المفـردات :

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) : عليم بما انطوت عليه الصدور من الخير والشر .

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) : ألا يعلم الله مَن خلقه ذاتاً وأحوالاً .

(وَهُوَ اللَّطِيفُ) : العالم بالخفيات .

(الْخَبِيرُ) : العالم بما يكون قبل أن يكون .

التفسـير

١٢ ـ (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) :

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أحوال أهل النَّار من الكفرة ، جاءت هذه الآية لتبشر المتقين بأن لهم فى الآخرة مغفرة وأجرًا كبيرًا .

والمعنى : إن الذين يخافون عذاب ربهم غائباً عنهم أو غائبين عنه لأنه مستقبل وغيب لاسبيل إلى رؤيته ، أو غائبين عن أعين النَّاس غير مرائين بخشيتهم لربهم ، أو يخشونه بما خفى منهم وهو قلوبهم ، لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وثواب كبير لا حد لكبره .

١٣ ، ١٤ ـ (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

الخطاب هنا لجميع عباد الله لتعريفهم سعة علمه ـ تعالى ـ من غير حدود ، وأنه لافرق عنده ـ سبحانه ـ بين السر والجهر ، فهما عنده على سواء .

ومعنى الآيتين : وأسروا ياعباد الله قولكم واجعلوه خفيًّا أو اجهروا به وأعلنوه فإن الله تعالى بكليهما عليم ؛ فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم بمضمرات جميع الخلائق وأسرارهم المستكنة فى صدورهم لا تفارقها ، فكيف تخفى عليه أعمالكم وأقوالكم التى يجازيكم عليها .

ألَا يعلم ذلك من أوجد بحكمته جميع الأشياء التى هى من جملتها ، والحال أنه تعالى هو العالم بخفايا الأمور ، الخبير بما يستجد منها .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾)

المفـردات :

(ذَلُولًا) : سهلة تستقرون عليها ، والذلول : المنقاد الذى يذل ويخضع لك ، والمصدر الذُّل وهو اللين والانقياد .

(فِى مَنَاكِبِهَا) : فى جبالها كما قاله ابن عباس ، أوطرقها وفجاجها كما قاله الحسن ، قال القرطبى : وأصل المنكب الجانب ، ومنه منكب الرجل ، والريح النكباء ، وتنكب فلان عن فلان - أى : اجتنبه - والأمر بالمشى فيها للإرشاد والطلب .

التفسير

١٥ - (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) :

والمراد من هذه الآية - على تفسير ابن عباس للمناكب - أنه تعالى جعل الأرض كلها سهلة السلوك لطلب الرزق سهولًا وجبالا .

والمعنى عليه : هو الله وحده الذى جعل الأرض حين خلقها سهلة منقادة للإنسان فى إقامته وفى مشيه لطلب الرزق وسواه من الأغراض ، فلا يمتنع عليه شىء فيها حتى جبالها ، فقد أوجد فيها مسالك للمشى فيها ، فامشوا فى مناكبها وجبالها ، وكلوا من رزقه بسعيكم إليه فى إقامتكم وفى أسفاركم ، وإليه تعالى رجوعكم بعد بعثكم فبالغوا فى شكر نعمه التى منها تذليل الأرض وتمكينكم منها وبث الرزق فيها ، ليحسن ثوابكم على شكركم ، وتفسير الآية على رأى الحسن : فامشوا فى طرقها وفجاجها ... إلخ .

(ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) : يهبطها بكم إلى أسفل مما جاورها .

(تَمُورُ) : ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا ، وأصل المور : التردد فى المجىء والذهاب .

(حَاصِباً) : ريحاً تحمل الحصباء تقذفون بها .

(نَكِيرِ) : إنكارى عليهم بإنزال العذاب .

التفسير

١٦ - (ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ) :

الخطاب هنا لأهل مكة ، فالسورة مكية ، وهم الذين كانوا يحاربون الإسلام ، والاستفهام توبيخى يقصد به النهى ، كأنه قيل لهم : لا تأمنوا عقاب من فى السماء .

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى فى السماء ، مع أنه سبحانه موجود قبل خلقها ، وللعلماء فى هذا وأمثاله مذهبان : أحدهما (مذهب السلف) وهم يسلمون بدلالة النص[١] ، وعليه أئمة السلف ، والآية عندهم من المتشابه ، وفيه يقول ﷺ : « آمنوا بمتشابهه » ولم يقل أوّلوه ، فهم مؤمنون بأنه عز وجل فى السماء على المعنى الذى أراده الله سبحانه مع كمال

---

(١) مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث .

التنزيه ، أسند البيهقى بسند صحيح عن أحمد بن أبى الحوارى عن سفيان بن عيينة : كل ماوصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه.

وهذه طريقة الشافعي وأحمد بن حنبل ، ويقول الآلوسى : إن هذا هو رأى العصر الثالث ، وهم فقهاء الأمصار ، كالثورى والأوزاعى ومالك والليث ومن عاصرهم .. إلخ .

(المذهب الثانى) مذهب الخلف ، وهم يؤولون فيقولون : من فى السماء أمره وقضاؤه فالسماء مصدر أوامره إلى ملائكته ، ومنها يصدر قضاؤه ، فكأنه قيل : أأمنتم من ملكوته ومصدر أحكامه فى السماء ، والذى دفعهم إلى التأويل هو تنزيهه سبحانه عن المكان .

ومعنى الآية إجمالاً : هل أمنتم ياكفار مكة مَنْ عزه ومصدر قضائه فى السماء أن يخسف بكم الأرض ويهبطها وأنتم فوقها لتهلكوا فى جوفها ، فإذا هى حين الخسف ترتج وتهتز اهتزازًا شديدًا .

١٧ - (أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) :

بل أأمنتم مَنْ ملكوته فى السماء أن يرسل عليكم ريحًا تحصبكم بالحجارة كقوم لوط ، فستعلمون ما حال إنذارى وقدرتى على إيقاع العذاب بكم عند مشاهدتكم للمنذر به ، ولكن لاينفعكم العلم حينئذ ، وقد نجاهم الله من هذا والذى قبله بإيمانهم جميعاً فى السنة الثامنة من الهجرة .

١٨ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [1]) :

ولقد كذب الذين من قبل كفار مكة مثل قوم نوح وعاد ، فكيف كان إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم ؟! أى : كان فى غاية الهول والفظاعة ، وفى الكلام من المبالغة فى تسلية رسول الله ﷺ وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى .

---

(١) الاستفهام فى (كيف) للتهويل .

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(صَآفَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .

(وَيَقْبِضْنَ) : ويضممنها إلى جنوبهن .

(مَا يُمْسِكُهُنَّ) : ما يحفظهن من الوقوع .

التفسير

١٩ ـ (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) :

أغفلت قريش التى عبدت الأصنام ، وتركت عبادة القادر الرحمن ـ أغفلت ولم تنظر إلى الطير فوقهم باسطات أجنحتهن صافات ريشهن ويضممنها[1] إلى جنوبهن للاستظهار بهذا القبض على التحرك ، ما يحفظهن من الوقوع عند البسط والقبض إلا الله الواسع الرحمة حيث خلقهن على أشكال وخصائص ، وألهمهن حركات مكّنتْهنّ من السباحة فى الهواء ، إنه تعالى بكل شىء دقيق العلم ، فيعلم سبحانه كيفية إبداع مخلوقاته حتى تؤدى وظائفها التى خلقت لها ، وفى هذا المعنى يقول موسى لفرعون وقد سأله : (فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى) يقول له : (رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) كما حكاه الله تعالى فى سورة (طه) .

ولو شاء الله أن يسقطهن على الأرض ، لعطل أجنحتهن فيسقطهن فإن الأرض تجذب

---

(١) مرة بعد أخرى .

ما فوقها إليها ، ولو شاء أن يبقيهن سابحات فى الجو بدون أجنحة لفعل ومنع الأرض من جذبها ، كما منع النار من إحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ولكنه تعالى علمنا ربط المسببات بأسبابها كما يفعل الله بمصنوعاته .

(أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(جُندٌ) : حزب ومنعة ، ولفظه مفرد ومعناه جمع ، فيصح عود الضمير عليه مفردًا باعتبار لفظه كما فى الآية كما يصح عوده عليه جمعاً[1] .

(يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ) : من غير الرحمن .

(إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) : ما الكافرون إلَّا فِى خداع وضلال فاحش .

(إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ) : إن حبسه عنكم .

(لَجُّوا) : تمادوا وأصروا .

(عُتُوٍّ) : طغيان وعناد .

(نُفُورٍ) : شراد عن الحق وشدة بعد عنه .

(مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ) : منكسًا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله .

(سَوِيًّا) : معتدلا .

---

(١) كأن يقال فى غير القرآن : جند لكم ينصرونكم .

التفسير

٢٠ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ) :

هذه الآية تبكيت لقريش على عبادتهم مَن لايقدر على نصرهم إن حاربهم غيرهم ، و (أم) فى قوله (أم من) بمعنى بل ، وذلك للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن عجيب آثار قدرته - عز وجل - إلى التبكيت بما ذكر ، والانتقال من الغيبة إلى الخطاب للتشديد فى ذلك .

والمعنى : بل من هذا الحقير الذى - هو فى زعمكم - ينصركم متجاوزًا نصر الرحمن ؟ ! ما الكافرون فى زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم ، لابحفظه تعالى وحده لاشريك له - ما الكافرون فى زعمهم هذا - إلا فى غرور وخداع فاحش من جهة الشيطان ، وليس لهم من نصيب فى الحق فيما يزعمون .

٢١ - (أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) :

بل من هذا الرازق المزعوم الذى يرزقكم إن حبس الله رزقه عنكم ؟! إن هؤلاء الكافرين لم يتأثروا بآيات الله الَّذِى لا يرزقهم سواه ، بل تمادوا فى عناد وشراد عن الحق .

٢٢ - (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر فى الدنيا توضيحاً لحاليهما ، والفاء فى قوله : « أَفَمَنْ » لترتيب ما بعدها على ما قبلها والهمزة للإنكار : والمعنى : ليس الكافر والمؤمن متساويين فى حاليهما فى الدنيا ، أهما متساويان فيها ؟ ليس الأمر كذلك ؛ فمن يمشى منكساً رأسه لاينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله لا يأمن من العثار والانكباب على وجهه فهو ليس كالرجل الذى يمشى سويًّا معتدلا ناظرًا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، فإنه يأمن العثار ، وقال قتادة : هو الكافر أكب على معاصى الله فى الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه .

(قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب .

(ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم ونشركم فيها .

التفسير

٢٣ ، ٢٤ - (قُلْ هُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

قل لهم أيها الرسول : هو الله الذى أنشأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتنظروا به المرئيات ، والقلوب لتعقلوا وتفهموا بها الأصوات والمرئيات فهلا استعملتموها وانتفعتم بها فى إدراك الآيات الدالة على صاحب تلك النعم ؟! إنكم تشكرون الله على ذلك شكرًا قليلًا مع اعترافكم بأنه تعالى هو الذى خلقها لكم .

وقيل المعنى : لاتشكرون هذه النعم أبدًا كقولهم : قلما أفعل كذا ، أى : لا أفعله ، قل لهم أيها الرسول : الله هو الذى خلقكم فى الأرض ونشركم فيها وإليه تحشرون بعد البعث للجزاء لا إلى غيره ، فلماذا لاتعتبرون ؟

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ) : فى أى وقت يتحقق الوعد بالحشر .

(نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر ومخوف لكم من سوء العاقبة واضح الإنذار ، من أبان بمعنى أوضح .

(زُلْفَةً) : قريبًا .

(سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أصابها السوء بأن علتها الكآبة والذلة .

(تَدَّعُونَ) : تتمنونه وتطلبونه فى الدنيا وتستعجلون أن يأتيكم .

التفسير

٢٥ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

ويقول الكافرون من فرط عتوهم وتكذيبهم : متى يحدث ويتحقق الوعد بالحشر ، أخبرونا بزمانه أيها المؤمنون إن كنتم صادقين فى دعوى البعث والحشر .

٢٦ - (قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

قل لهم أيها الرسول جوابًا على سؤالهم : ما العلم بوقت القيامة إلَّا عند الله تعالى ، فهو من الغيب الذى استأثر الله به ، لأن الحكمة تقتضى ذلك ، وليس من وظائف النبوة إلَّا الإنذار بتحققه دون بيان وقته .

٢٧ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ) :

أى فلما رأى الكفار الحشر بعد البعث قريبًا منهم ظهرت الذلة والكآبة على وجوههم ، لأنهم أدركوا ما ينتظرهم من العذاب ، وقيل لهم - على سبيل التبكيت والتوبيخ - : هذا العذاب الذى يلى الحشر هو الذى كنتم به فى الدنيا تطلبون كقولكم ساخرين : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ »[1] . أى : عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة ، وكقولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[2]

والتعبير عن العذاب الذى سوف يرونه بأنهم رأوه فعلًا ؛ لتنزيل وعد الله لهم بالعذاب المحقق منزلة الذى تحقق فعلًا .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾)

المفــــردات :

(أَوْ رَحِمَنَا) : بالنصر عليكم .

(فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) : فمن يحميكم منه .

(غَوْرًا) : غائرًا ذاهبًا فى الأرض .

(بِمَآءٍ مَّعِينٍ) : بماء جار ، أو صاف ، فهو بوزن فاعل مِنْ مَعَنَ الماءُ ، أى : جرى ، أو صفا ، أو بوزن مفعول - وأصله معيون - من عين الماء : استنبطه واستخرجه .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة (ص) . (٢) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

التفسير

٢٨ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

قل أيها الرسول لقريش : أخبرونى إن أماتنى الله كما قلتم كذبًا : « شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » أو أهلك من معى من المؤمنين كما تمنيتم ، أو رحمنا فأبقانا ونصرنا عليكم ، فمن هذا الذى يجيركم ويحميكم من عذاب شديد الإيلام فى الآخرة ؟ !

وحاصل المعنى : لامجير لكم من عذاب النار لكفركم إن انقلبنا إلى رحمة الله بالهلاك كما تمنيتم ، لأن فيه الفوز لنا بنعيم الآخرة ، أو بالنصرة عليكم وإعزاز الإسلام كما نرجو ، لأن فيه الظفر بالحسنيين ، ويتضمن ذلك حثهم على طلب الخلاص من الكفر بالإيمان .

٢٩ - (قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

قل لهم أيها الرسول - جوابًا لتمنيهم هلاكك - : هو الله الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيجيرنا برحمته من عذاب الآخرة ، ولم نكفر مثلكم حتى تمتنع إجارته لنا ، فستعلمون بعد البعث من هو منَّا فى الدنيا والآخرة فى بعد واضح عن الحق .

٣٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ) :

قل لهم : أخبرونى إن أصبح ماؤكم الذى تشربون منه وتسقون غائرًا فى الأرض واغلا فى جوفها ، فمن الذى يأتيكم بماء جار أو ظاهر للعيون سهل المأخذ ، لا تستطيع أصنامكم الإتيان به أو بمثله ، والآية كما روى ابن المنذر والفاكهى عن ابن الكلبى ، أنها نازلة فى بئر زمزم وبئر ميمون بن الحضرمى . والله تعالى أعلم .

سورة القلم

هى أول ما نزل من القرآن بعد العلق ، فقد روى عن ابن عباس أن أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم هذه (أى : سورة القلم) ثم المزمل ، ثم المدثر ، وهى مكية وآيُها ثنتان وخمسون آية بالإجماع .

ومناسبة سورة القلم للسورة السابقة (سورة الملك) :

أن سورة الملك اختُتمت بالوعيد : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ)[1] واشتملت سورة القلم فى أوائلها عليه .

قال الجلال السيوطى فى ذلك : لما ذكر فى آخر سورة الملك التهديد بتغوير الماء استظهر عليه فى سورة القلم بإذهاب ثمر أصحاب البستان فى ليلة بطائف طاف عليها وهم نائمون ، فأصبحوا ولم يجدوا لجنَّتهم أثرًا حتى ظنوا أنهم ضَلُّوا الطريق إليها .

المعنى العام للسورة

فى السورة الكريمة قسم بالقرآن وما يُسطَّر به ، والمُقْسَم عليه : ما أنت يا محمد وقد أنعم الله عليك بالنّبوة وفضّلك بالرِّسالة بمجنون ولا سفيه الرأى كما يدّعى المشركون .

ثم ساقت بِشارة له : وإنَّ لك يا محمد على ما تبذله فى تبليغ الدعوة لأجرًا غير مقطوع ومَدْحًا كأبلغ ما يكون المدح والثَّناءُ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فقد أدَّبك ربّك فأحسن تأديبك ، وتسلية له .

وعن قريب ستبصر ويبصر الكافرون أيكم المجنون ، وإنَّ ربَّك أعلم بمن ضَلّ عن سبيله وحاد عن طريق الحق فكفر ، وهو أعلم بالعقلاء المهتدين المؤمنين .

---

(١) سورة الملك الآية : ٣٠ .

ثم ذكرت السورة توجيهاتها للرسول : فدم يا محمد على طريقتك مِنْ مُخَالفة المكذبين ، لقد تَمَنّوا لو تلين لهم بعض الشيء وتعبد مايعبدون ولو زمنًا قليلًا فهم يَلِينُون لك لا حُبًّا فى الإسلام ولكن طمعًا فى ضَمِّك إلى صفِّهم .

ثم نهت عن طاعة كل مَن اتَّصف بهذه الصِّفات الذَّميمة ، والنُّعوت القبيحة فقالت : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) ولِأنَّه صاحب مال وبنين كذب بآياتنا وأعرض عنها فجعل الكفران مكان الشكر والعرفان ، سنسمه بسمة ونجعل على أنفه علامة ليكون مفتضحًا بها بين الناس .

واشتملت السورة على تشبيه ما وقع لأهل مكة من العذاب والقحط بما وقع لأصحاب الجنة الَّذين جاءت قصتهم فيها ، وعلى تبشير المؤمنين بما أُعِدَّ لهم عند ربّهم مِنْ جزاءٍ وثواب وعدم التَّسوية بينهم وبين الكافرين ، وأنكرت على المكذبين ما يدَّعون لأنفسهم بغير حق (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) كما جاء فيها وصف حال الكافرين والمُعرضين وماينالهم من العقاب ، والنُّصح لرسول الله بالصبر والاحتمال ولا يكون كأخيه يونس – عليه السلام – فى سرعة غضبه والغضب على قومه ، وذكرت السورة ما كان الكفَّار يُضْمِرُونه لرسول الله من بُغْض وعداوة وقد ظهر هذا على وجوههم وهم ينظرون إليه شزرا حين يتلو القرآن ، ويرمونه بالجنون .

وختمت بتمجيد القرآن وبيان فضل الرسول وقدره (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(وَالْقَلَمِ) : قَسَمٌ بالقلم الذى يكتب به الملائكةُ والناس .

(غَيْرَ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع يقال : مننت الحبل : إذا قطعته .

(بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ) : فى أى الفريقين منكم المجنون .

التفسـير

١ ـ (نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) :

(نٓ) حرف من حروف المعجم التى بُدئت بها بعض السُّور وهى من المتشابه ، ومذهب السلف أنهم يقولون فى هذا ومثله : الله أعلم بمراده ، وقيل : اسم للسُّورة ، وقِيل : اسم للدَّواة . وأنكر الزمخشرى ذلك وقال : لا دليل عليه من لغة ولا نقل صحيح ، وقيل غير ذلك ممَّا لا يُلْتَفت إليه .

(وَالْقَلَمِ) أقسم الله بالقلم الذى يكتب به الملائكة والناس وبما يكتبونه من الخير والنفع وغير ذلك ، وإنما استحق قلم الملائكة أن يُقْسَم به لأنَّهم يكتبون به ما فى اللَّوح المحفوظ ، ويُسجِّلُون به فى صحائفهم أعمال الناس ،وأمَّا استحقاق القلم الذى يكتب به الناس ذلك الشرف فلكثرة منافعه وعظيم فوائده ، ولو لم يكن له مَزِيَّة سوى تسجيل كتب الله ـ عز وجل ـ لكفى به فضلًا مُوجِبًا لتعظيمه ، كيف لا وهو الذى يُنْشَر به العلم ، وتُحَرَّر به الفنون والآداب وتذاع به المعارف والأخلاق والفضائل . قال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطـال يومًا بسيفهم ... وعَدّوه ممَّا يُكْسِب المجد والكرم

كفى قلم الكتَّاب عِزًّا ورفعة ... مدى الدهر أنَّ الله أقْسَم بالقلم

٢ ـ (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) :

هذا هو الْمُقْسم عليه ، أى : انتفى عنك الْجنون بسبب نعمة ربك عليك ورحمته بك ، وهو الذى اصطفاك للرسالة ، وأهَّلك للنبوة لتخرج الناس من الظُّلمات إلى النور ومن الشرك إلى الإيمان ، والآية نزلت ردًّا على كفار مكة وتكذيبًا لهم فيما يقولون وما ينسبونه إليه من الجنون حسدًا وعداوة ومكابرة ، والمقصود أنت مُنَزَّه عما يقولون لأنك أُعِدت لتكون هادى البشرية كلها والقائد الخاتم للمسيرة الإلٰهية .

٣ ـ (وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ) :

أى : وإنَّ لك لِمُقَاسَاتِك ألوان الشَّدائد وأنواع المتاعب ، وتحمُّلك أعباء الرسالة ومشاق الدَّعوة لثوابًا عظيمًا وأجرًا جسيمًا غير مقطوع مع عظمه ، أو غير ممنون به عليك من الناس لأنَّه عطاؤه تعالى بلا وساطة ، أو من الله لأنَّك حبيبه ، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ومن شِيمة الكرام ألَّا يَمُنُّوا بإنعامهم ، لا سيما إذا كان على أحبابهم .

٤ ـ (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) :

أى : وإنك لمستمسك بمكارم الصِّفات ومحاسِن الخلال التى طبعك الله عليها وأدَّبك بها ، لك خلق لا يُدرك شَأْوه أحد من الخلق ، تحتمل من جهتهم ما لا يحتمل أمثالك من أولى العزم

وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) أى : وإنك لعلى دين عظيم هو الإسلام ، وليس أحبّ إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه ، وقال عطية : لَعَلَى أدب عظيم .

وفى صحيح مسلم سُئلت عائشة - رضى الله عنها - عن خُلُق رسول الله ؟ قالت : كان خلقه القرآن . ومعنى هذا أنه تأدب بآدابه وتحلَّى بأخلاقه وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه ، هذا مع ما طبعه الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحكمة وكل خلق جميل كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أفٍّ قط ، ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ؟ ولا قال لشىء لم أفعله ألَا فعلته ، وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب الشمائل

٥ ، ٦ - (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ) :

أى فستعلم يا محمد علمًا يقينيا وسيعلم مخالفوك أيكم المفتون أى المجنون لأنه فُتِن ، أى مُحِنَ بالجنون ، وقيل المعنى : فستبصر ويبصرون بأى الفريقين منكم الفتنة أى الجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين وفى أيِّهما يُوجد منْ يستحق هذا الاسم ، وهو تعريض بأبى جهل والوليد بن المغيرة وأحزابهما وهو كقوله تعالى : « سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ[1] » .

والمراد فستعلم ويعلمون ذلك يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل ، وروى ذلك عن ابن عباس ، وقيل : فستبصر ويبصرون فى الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام وانتصارك عليهم وعلو شأنك وصيرورتهم أذلة صاغرين .

٧ - (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

استئناف لبيان ما قبله وتأكيد لمـا تضمّنه من الوعد والوعيد، فهو سبحانه أعلم بمن

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

حاد عن طريقه المؤدى إلى سعادة الدارين وهام فى تيه الضَّلال المُفْضِى به إلى الشَّقاوة ومزيد النَّكال وهذا هو المجنون الذى لا يفرق بين النفع والضر ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب النَّاجين من كل محْذُور وهم العقلاء ، فَيَجْزِى كُلاًّ من الفريقين بما يستحق من العقاب والثواب .

وفى الكشاف : إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله وهو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون .

(فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ) : تمنوا لو تلين لهم بعض الشيء وتصانعهم فى الدين .

(مَهِينٍ) : وضيع حقير ، قال القرطبى : من المهانة بمعنى القلة وهى هنا القلة فى الرأى والتمييز .

(هَمَّازٍ) : طعَّان عيَّاب للناس فى وجوههم أو مُغتاب لهم (قَتَّات) .

(مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ)[1] : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم .

---

(١) قيل النميم جمع نميمة يريدون الجنس ، وأصل النميمة : الهمس والحركة الخفيفة .

(عُتُلٍّ) : غليظ القلب جاف الطَّبع ، وقيل : الذى يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب مأخوذ من العَتْل وهو الجرّ ومنه قوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ الْجَحِيمِ » (١)

(زَنِيمٍ)(٢) : دعيّ مُلصق بقوم ليس منهم ، أو شِرِّير .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم المسطَّرة فى كتبهم .

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) : سنجعل له سمة وعلامة على الأنف ، والمراد : سنلحق به عارا لايفارقه كالرسم على الأنف

التفسير

٨ - (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) :

الفاءُ فى الآية لترتيب النهى على ماينبىء عنه ما قبله من اهتدائه ﷺ وضلالهم ، وفى هذا حث له على التَّصميم والعزم على عصيانهم ومخالفتهم .

والمعنى : فَدُمْ على ما أنت عليه من مخالفة المكذبين وعدم طاعتهم ، وتَشَدَّد فى ذلك ، ويجوز أن يكون نهيًا عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما فى ضميره ﷺ استجلابًا لقلوبهم ، لا نهيًا عن طاعتهم حقيقة ، وعُبِّر عن المداهنة بالطاعة للمبالغة فى التنفير .

٩ - (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) :

المعنى : تمنّوا وأحبوا لو تُلاينهم وتُصانعهم وتنزل على رغبتهم أحيانًا (فَيُدْهِنُونَ) أى فهم يدهنون ويلاينونك ويصانعونك حينئذ ، فالفاءُ للتسببية داخلة على جملة اسمية مسببة عمَّا قبلها .

وقيل المعنى : أنهم يدهنون الآن طمعًا فى ادهانك واستجابتك لهم ومشاركتهم فى بعض عباداتهم .

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٤٧ .

(٢) أصله من الزنمة (بفتحات) وهى ما يتدلى من الجلد فى العنق ، أو الفلقة من أذنه تشق فتترك معلقة ، شبه بها الدعى لأنه زيادة معلقة فى غير أهله . ا هـ . آلوسى .

١٠ - (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ) :

المعنى : وتمسك بما أنت عليه من عدم طاعة كل كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى بهذا النهى زجرًا لمن اعتاد الحلف لأنه جُعِل فاتحة العيوب وأساس الباقى من الذنوب ، وكثرة الحلف تدل على عدم استشعار عظمة الله - عز وجل - وذلك أصل كل شر . (مَهِينٍ) أى : حقير وقال الرمانى : المهين : الوضيع ، لإكثاره من القبيح . وعن ابن عباس : الكذاب .

١١ - (هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ) :

(هَمَّازٍ) أى : عيَّاب طعَّان أو مغتاب . (مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ) : نقَّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم ، فهو يحرض بعضهم على بعض لفساد ذات البين وهى الحالقة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : [إنَّهُمَا يُعذَّبان ومايعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة] ، وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : [لايدخل الجنة قتَّات] : أى : نمَّام . والأحاديث فى ذلك كثيرة .

١٢ - (مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

(مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ) أى : بخيل ممسك بالمال ، من منع معروفه عنه : إذا أمسكه ، أو منَّاع أهله الخير وهو الإسلام ، قيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومى كان مُوسِرًا وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم ولأقربائه : من أسلم منكم منعته رِفْدِى وعطائى .

روى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضًا أنه أبو جهل ، وقيل غيرهما

(مُعْتَدٍ) : مجاوز فى الظلم حدَّه . (أَثِيمٍ) أى : كثير الآثام ، والمراد بها المعاصى والذنوب .

١٣ - (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) :

(عُتُلٍّ) أى : غليظ جاف ، وإنَّمَا نهى - سبحانه - عن طاعة العُتُلّ وجعل غلظته أشد معايبه لأنه لقسوة قلبه وغلظ طبعه يجترىء على كل معصية .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ) أى : بعد ما عدّ له من المثالب والنقائص . (زَنِيمٍ) دَعِيّ مُلْحق بقوم ليس منهم ، والمراد به ولد الزِّنا كما جاء بهذا اللفظ عن ابن عباس ، وكذا جاء عن عكرمة وأنشد :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغيّ الأم ذو حسب لئيم

وإنما نهى عن طاعة الدّعىّ لأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشيء منها ، وعن سعيد بن جبير : الزّنيم الذى يُعْرَف بالشر كما تُعْرف الشاة بزنمتها وهى ما يتدلى من رقبتها كما سبق بيانه فى المفردات : والزنيم ، الملصق .

قال ابن كثير : والأقوال فى الزنيم كثيرة ، وغالبها يرجع إلى ما ذهب إليه سعيد بن جبير ، وكثيرًا ما يكون دعيا ولد زِنا فإنّه فى الغالب يتسلّط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره . اهـ بتصرف .

١٤ ـ (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) :

هذا الكلام متصل بقوله ـ سبحانه ـ : (لَا تُطِعْ ...) إلخ أى : لا تطع مَن هذه عيوبه ونقائصه بسبب كونه مُوسرًا معتدًّا بماله مُنْجِبًا مُعْتزًّا ومتقويًا بأبنائه .

١٥ ـ (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف جرى مجرى التعليل للنّهى عن اتباعه ، والمعنى : إذا يُقْرأ عليه القرآن كذَّب ولم يؤمن بما جاء به وقال : هذا قصص الأولين وخرافاتهم وأكاذيبهم الواردة فى كتبهم ، ويجوز أن يكون قوله ـ تعالى ـ : (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) متصلًا بما بعده .

والمعنى : لأنْ كان صاحب مال ومستظهرا بالبنين كذب بآياتنا ، وأعرض عنها إذا يتلى عليه القرآن قال : أساطير الأولين وأباطيلهم ، فجعل الكفر مكان الشكر والتكذيب موضع التصديق والإيمان .

١٦ ـ (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) :

أى : سنجعل على أنفه سمة دائمة وعلامة لازمة لا تفارقه ، يُعيّر ويفتضح بها أمام الناس فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والمهانة ، لأنّ السِّمة على الوجه شين حتى إنه ﷺ نهى[1] عنه فى الحيوانات ، فكيف بها فى الإنسان وعلى أكرم موضع منه وهو الأنف

---

(١) ذكر الزمخشرى أن العباس عم النبى وسم أباعرة فى وجوهها فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أكرموا الوجوه» فوسمها فى جواعرها (جمع جاعورة وهى ما حول الدبر كما جاء فى الصحاح) .

لتقدمه ، لذا جعلوه مكان العز والحميّة واشتقوا منه الأَنفة ، وقالوا : فلان شامخ الأَنف ، وفى لفظ (الخرطوم) استخفاف به واستهانة ؛ لأَنه لايستعمل إلا فى الفيل والخنزير ، ففى التعبير عن الأَنف بهذا الاسم تقوية لما دل عليه الوسم على العضو المخصوص من الإذلال ، والمراد : سنهينه فى الدنيا ونذله غاية الإذلال .

وكون الوعيد المذكور فى الدنيا هو المروى عن قتادة وذهب إليه جمع ، وقيل : هو فى الآخرة ، يُوسم يوم القيامة على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره .

(إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّـةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾)

المفـــردات :

(إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ) : إنَّا امتحنا أهل مكة واختبرناهم بالقحط .

(الْجَنَّةِ) : البستان المشتمل على أنواع الأشجار والثمار والفواكه .

(لَيَصْرِمُنَّهَا) : ليقطعنَّ ثمرها بعد نُضجها .

(مُصْبِحِينَ) : داخلين فى وقت الصباح مبكرين .

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ) أى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وقيل : ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم .

(طَآئِفٌ) : بلاء وعذاب محيط بها – نار محرقة – .

(كَالصَّرِيمِ) : كالليل الأسود ، وقيل : كالبستان إذا صرمت أى : قطعت ثماره .

(صَارِمِينَ) : قاصدين للصرم وقطع الثمار .

(يَتَخَافَتُونَ) : يتسارّون ويتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافتة .

(حَرْدٍ) : منع ، أو انفراد عن المساكين ، أو غيظ وغضب .

(إِنَّا لَضَآلُّونَ) أى : إنَّا لضالُّون طريق جنتنا .

(أَوْسَطُهُمْ) : أحسنهم رأيا ، أو أوسطهم سِنا .

(لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم .

(يَتَلَـٰوَمُونَ) : يلوم بعضهم بعضا .

(إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ) : إنا إلى ربنا لا إلى غيره راجون العفو طالبون الخير .

التفسـير

١٧ – (إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) :

أى : إنا اختبرنا أهل مكة وأصبْناهم ببليّة وهى القحط بدعوة رسول الله ﷺ حيث قال : (اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) .

(كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ) أى : مثل مابلونا أصحاب الجنة المعروف خبرها عندهم ، قيل : كانت بأرض اليمن قريبا من صنعاء لرجل كان يؤدى حق الله منها فمات فصارت إلى ولده فمنعوا النَّاس خيرها وبخِلوا بحق الله منها ، فكان ماذكره الله تعالى .

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ) أى : إذ حلفوا ليقطعن ثمارها بعد نضجها واستوائها وقت الصباح قبل أن يخرج المساكين كى لا يشعر بهم المساكين ، فلا يعطونهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها .

١٨ - (ولَا يَسْتَثْنُونَ) :

قيل : أى : ولايقولون إن شاء الله ، وقيل : المعنى ولايستثنون منها حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم (وعليه هو معطوف على قوله تعالى : « لَيَصْرِمُنَّهَا » ومقسم عليه مثله) .

١٩ - (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ) :

المعنى : نزل على الجنة وأحاط بها من كل جانب بلاءٌ محيط وعذاب .

وعن الفرَّاء : تخصيص الطائف بالأمر الذى يأتى بالليل . وكان ذلك - على ماقال ابن جريج - عُنُقا من نار خرج من وادى جنتهم (وَهُمْ نَآئِمُونَ) فى موضع الحال ، والمراد : أتاها ليلا كما روى عن قتادة ، وقيل : المراد أنهم غافلون غفلة تامة عما جرت به المقادير .

٢٠ - (فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) :

أى فأصبحت جنتهم كالبستان الذى صُرِمت ثماره وقطعت بحيث لم يبق فيها شئ" وقال منذر والفرَّاء وجماعة : الصَّريم : الليل ، والمراد : أصبحت محترقة تشبه الليل فى السواد ؛ ذكر ابن كثير عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : (إياكُمْ والمعاصى ، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هُيِّئ له) ثم تلا رسول الله ﷺ : (فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ) .

٢١ ، ٢٢ ـ (فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ) :

أى : فنادى بعضهم بعضا وقت الصباح وذلك للقسم السابق : أن اخرجوا مبكرين مقبلين على بستانكم إن كنتم مصرين على الصرم وقطع الثمار ، ويحتمل إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم من قولهم : سيف صارم .

٢٣ ، ٢٤ ـ (فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ) :

أى فاندفعوا مسرعين وهم يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمسارّة متواصين قائلا بعضهم لبعض : لايمكن أحد منكم اليوم مسكينا من دخول الجنة عليكم ، فالنهى عن الدخول للمسكين نهى عن تمكينه منه حتى لايناله من الثمار شىء .

٢٥ ـ (وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ) :

أى وساروا فى أول النهار إلى جنتهم قادرين على (حرد) فيه عدة أقوال :

(١) هو المنع كما قال أبو عبيدة وغيره ، من حَردت السنة : منعت خيرها ، وحاردت الإبل : منعت درها .

والمعنى : وغدوا إلى جنتهم قادرين على منع لاغير عاجزين عن النفع .

(٢) وقيل الحرد : الغيظ ، أى : لم يقدروا إلاَّ على إغضاب بعضهم لبعض كقوله تعالى : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ)[1] وروى هذا عن السّدىّ .

(٣) وقيل الحرد : القصد والسرعة ، وللحرد معان أُخرى ذكرها القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

٢٦ ، ٢٧ ـ (فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) :

فأول ماوقع نظرهم عليها ورأوها سوداء محترقة لاشىء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، أنكروها وشكّوا فيها وقالوا مضطربين متحيرين : إنّا لضالُّون طريق

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٣٠ .

جنتنا ، وماهي بها (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) قالوا ذلك بعد ماتأملوا ووقفوا على حقيقة الأمر وتيقنوا مافُعِل بجنتهم مُضربين عن قولهم الأول ، أى : لَسْنا ضالِّين بل نحن محرومون حُرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا وسوء نيتنا وقصدنا حرمان الفقراء .

٢٨ ـ (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) :

قال أعدلهم وخيرهم : (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) أى : لم أقل لكم؟!وفى التسبيح قولان :

(١) قيل : المراد الذكر ، أى : هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كان أوسطهم قال لهم حينما عزموا على حرمان الفقراء : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فوبّخهم. والدليل على ذلك قولهم بعد هذا : (سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على إثر مقارفة الخطيئة وارتكاب الإثم .

(٢) وقيل : المراد بالتسبيح ـ الاستثناءُ : وهو أن يقولوا إن شاء الله، ويلتقى هذا مع الأول فى معنى التَّعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إلى الله ، والتَّسبيح تنزيه له ، وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم .

٢٩ ـ (قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ) :

قالوا بعد أن ثابوا إلى رشدهم ورجعوا إلى عقولهم : نُسبّح الله ونُنَزّهه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم ومنع المعروف عن مستحقيه والبخل بما كان يعطيه والدهم للفقراء والمساكين ، وفى تركهم الاستثناء قال ابن كثير : وهكذا أتوا بالطاعة حيث لا تنفع أو اعترفوا حيث لاينجع .

٣٠ ـ (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ) :

أى : فأقبل بعضهم على بعض يلوم كل منهم الآخر فى القسم والحلف على منع المساكين أى يقول : بل أنت أشرت علينا بهذا ، فإن منهم ـ على ماقيل ـ مَن أشار بذلك ، ومنهم من استحسنه ومنهم من سكت راضيا ومنهم من أنكره .

٣١ - (قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ) :

أى قالوا : ياعذابنا وهلاكنا إنا كنا طاغين- اعتدينا وبغينا وتجاوزنا الحد عاصين بمنع الفقراء : وقال ابن كيسان : طغينا نِعَم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل حتى أصابنا ما أصابنا .

٣٢ - (عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ) :

نرجو الله أن يعوضنا خيرا من جنتنا ويعطينا بدلا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة إنَّا إلى ربنا - لا إلى غيره - راغبون : راجون العفو طالبون الخير .

وعن مجاهد أنهم تابوا فأُبدلوا خيرا منها .

٣٣ - (كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : مثل ذلك العذاب الذى بلونا به أهل مكة من الجدب الشديد ومثل ماقصه الله علينا مما أصاب أهل هذه الجنة - عذاب الدنيا ، والكلام وارد لتحذير أهل مكة - وتخويفهم كأنه لما نهى - سبحانه وتعالى - نبيه عن طاعة الكفار ورؤسائهم ، ذكر - عز وجل - أن تمردهم هو بسبب ما أوتوه من المال والبنين ، وعقّب - جل وعلا - بأنهم إذا لم يشكروا المنعم عليهم يؤول حالهم إلى حال أصحاب الجنة مشيرا إلى أن خُبث النّية وإنكار حق الفقير إذا أفضى بهم إلى ماذكر من العذاب فإن إنكار الحق بمعاندة الرسول ذى الخلق الكريم وقطع رحمه أولى بأن يُفضِى بأهل مكة إلى البوار والخسران والعقاب .

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - عذابهم فى الآخرة فقال : (وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ) أى : أعظم وأشد وأشقّ وهو تحذير عن العناد ، وقوله تعالى : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) نَعْىٌ عليهم بالغفلة وتقريع لهم ، أى : لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنه أكبر ، ولأخذوا منه حِذْرهم ولما وقعوا فيا وقعوا فيه .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾)

المفــــردات :

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ) أى : بل لكم كتاب منزل من السماء .

(فِيهِ تَدْرُسُونَ) : فيه تقرأون .

(إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) أى : إن الذى تختارونه وتشتهونه لكم مذكور فى ذلك الكتاب .

وتَخَيَّر الشيء واختاره : أخذ خَيْرَه ، وشاع فى أخذ مايريده مطلقا .

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أى : بل ألكم عهود ومواثيق مؤكدة بالأَيْمَان .

(إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) أى : إنَّ لكم لَلَّذى تحكمون به لأَنفسكم .

(زَعِيمٌ) : كفيل وضمين .

التفسير

٣٤ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ) :

لَما ذكر - تعالى - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله - عزَّ وجلَّ - وخالفوا أمره ، بيّن أنَّ لمن اتَّقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، أى : جنات ليْس فيها إلاَّ النَّعيم الخالص من شائبة ماينغِّصه من الأكدار وخوف الزوال .

٣٥ ، ٣٦ - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) : تقرير لما قبله من فوز المتقين وردّ لما يقوله الكَفَرة من صناديد قريش حين سماعهم بحديث الآخرة وما وعد الله به المؤمنين ، يقول الكفرة : إنْ صَحّ أنَّا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ماهى فى الدنيا وإلَّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فقيل لهم : أنَحِيف ونظلم فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ؟! ثم قيل لهم على طريق الالتفات تأْكيدا للرد وتعجبا من حكمهم واستبعادا له وإيذانا بأنه لايَصْدُر عن عاقل : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : إذ معنى مالكم : ماذا أصابكم ، وأى شئ حصل لكم مِنْ خَلَلِ الفكر وفساد الرأى حتى حكمتم هذا الحكم الجائر ، **كأَنَّ أمر الجزاء مُفوّض لكم حتى تحكموا فيه بما شئتم .**

٣٧ ، ٣٨ - (أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ) :

يقول - تبارك وتعالى - :بل أفبأيديكم كتابٌ مُنَزّل من السماء تقرءُونه وتدرسونه وتحفظونه وتَتَداولونه بنقل الخلف عن السلف يتضمن أنَّ ماتختارونه وتشتهونه لكم ؟ قال الآلوسى والظّاهر مقابل لما قبله ومُلَخَّصه : أفسد عقلكم حتى حكمتم بهذا أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر لكم ؟ !

٣٩ - (أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) :

المعنى : بل ألكم عهود علينا ومواثيق مؤكدة بالأَيْمان باقية ثابتة إلى يوم القيامة؟ إنَّ لكم لَلَّذِى تحكمون به وتقضون وسيصل إليكم ماتحبون وما تشتهون .

وقوله تعالى : (إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ) جواب القسم ؛ لأن معنى (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ) أم أقسمنا لكم.

٤٠ ـ (سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ) :

المعنى : سل المشركين يامحمد مُبَكِّتاً لهم : أَيُّهم بذلك الحكم الذى يحكمون به لأَنفسهم منْ أَنَّهُم يعطون فى الآخرة أفضل من المؤمنين ـ أيهم كفيل وقائم بتنفيذه وإمضائه وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزَّعيم المتكلِّم عن القوم المتكفِّل بأُمورهم ، فضلا عن أنه حكم جائر ، خارج عن دائرة المعقول ، وكأَنَّه بتوجيه الخطاب لرسول الله أَسْقَطَهم مِنْ رُتبة الخطاب إهمالا لهم .

٤١ ـ (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) :

أى : بل أَلهم أُناس يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم عليه ، ويذهبون مذهبهم فيه فليأتوا بشركائهم إنْ كانوا صادقين فى دعواهم ، يعنى أَنَّ أحداً لايُسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنهم لاكتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به ويتصدى لإنفاذه .

قال العلامة الآلوسى : وقد نَبَّه ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآيات على نفى جميع مايمكن أن يَتَعَلَّقُوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نَبَّه ـ سبحانه ـ على نفى الدليل العقلى بقوله سبحانه : (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وعلى نفى الدَّليل النَّقْلى بقوله سبحانه : (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله تعالى : (أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ) وعلى نفى التَّقْليد الذى هو أَهْوَن الأَشياء بقوله : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) إلخ اهـ . آلوسى .

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) : كناية عن شدة هول يوم القيامة .

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) : ذليلة منكسرة .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) : تغشاهم ذلة مرهقة وخسران .

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال حتى نوقعهم فيه .

(وَأُمْلِي لَهُمْ) : وأمهلهم بتأخير العذاب ليزدادوا إثماً .

(كَيْدِى مَتِينٌ) : تدبيرى قوىّ لايفلت منه أحد .

(مَغْرَمٍ) : غرامة مالية .

التفســير

٤٢ ـ (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَايَسْتَطِيعُونَ) :

لَمَّا ذكر ـ جلَّ شأنه ـ أنَّ للمتقين عند ربهم جنات نعيم بيَّن متى يكون ويقع ذلك فقال : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ... إلخ) أى :يوم يكشف عن ساقٍ كان كذا وكذا فأُضمر للتهويل البليغ وأنَّ ثمَّ من الحوادث والأخطار مالا يوصف لعظمه ، والمراد بذلك اليوم عند الجمهور: يوم القيامة ، والساق : ما فوق القدم ، وكشفها : مَثَل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب

وقيل : ساقُ الشيء :أَصْلُه الذى به قوامه كساق الشجرة ، والمراد : يوم يُكْشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأشياء وأُصولها بحيث تصير عيانًا ، وإلى هذا يشير ما أخرجه البيهقى عن ابن عباس قال : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال .

وذهب بعضهم إلى أنَّ المراد بالسَّاق ساقه ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الآية من المتشابه ، واستدل على ذلك بما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يَكشِفُ ربُّنا عن ساقِه فَيسجُدُ له كلُّ مؤمن ومؤمنة ، ويبقى مَنْ كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا) .

وأنكر ذلك سعيد بن جبير فقد سئل عن الآية فغضب غضبًا شديدًا وقال : إن أقوامًا يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه وإنما يكشف عن الأمر الشديد ، وعليه يحمل ما فى الحديث (الآلوسى) .

(وَيُدعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ)أى : ويدعون إلى السجود لا تعبدًا وتكليفًا ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم إيَّاه فى الدُّنيا وتَحْسِيرا لهم على تفريطهم فى ذلك ، أو امتحانًا لإيمانهم .

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) لزوال القدرة عليه ، وفيه دلالة على أنهم يقصدونه فلا يستطيعون ولا يتأَتى منهم ، والظاهر أنَّ الداعى هو الله تعالى أو الملائكة ، وقيل : هو ما يرونه من سجود المؤمنين .

٤٣ ـ (خَاشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) :

بين الله ـ سبحانه ـ حال من يُدْعَوْن إلى السجود يوم القيامة فلا يستطيعون بأنهم خاشعة أبصارهم ، أى : منكسرة ذليلة تلحقهم وتغشاهم مهانة وندامة وحسرة ، وقد كانوا يُدْعوْن إلى السجود فى الدنيا وهم سالمون مُعَافُون متمكِّنون منه أقوى تمكُّن فلا يُجيبون إليه ويَأْبَوْنه ويَنْفِرون منه تكبرا أو إعْراضا ، لذلك عُوقِبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، روى أنه كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرَّ لقفاه على عكس السجود بخلاف ما عليه المؤمن .

ذكر القرطبى أن سعيد بن جبير قال فى تفسير قوله تعالى : (وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) : كانوا يسمعون (حى على الفلاح) فلا يجيبون ، وقال كعب الأحبار : والله ما نزلت هذه الآية إلّا فى الذين يتخلفون عن الجماعات ، وكان الربيع بن خيثم قد فُلِج وكان يُهَادَى بين الرجلين إلى المسجد فقيل : يا أبا يزيد لو صليت فى بيتك لكانت لك رخصة . فقال : من سمع حَىّ على الفلاح فليُجب ولو حَبْوًا - ومعنى يُهَادَى - أى : يمشى بينهما معتمدًا عليهما لضعفه .

٤٤ - (فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) :

(فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ) أى : إذا كان حالهم ما سمعت فَكِلْ من يُكَذِّب بالقرآن إلىّ فأنا أكفيكه ، قال الزمخشرى : فكأنه يقول : حسبك إيقاعًا به وعقابا له أنْ تكل أمره إلىّ وتُخَلِّى بينى وبينه فأنا عالم بما يجب أن يُفْعَل به مُطِيق له وقادر عليه .

وذلك تسلية للرسول وتهديد للمكذبين . (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) : استئناف مسوق لبيان كيفية العقاب والتعذيب، أى : سنستنزلهم إلى العذاب درجة فدرجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة . (مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) أى : من الجهة التى لا يشعرون أنَّ ذلك الإنعام عليهم استدراج بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم .

٤٥ - (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) :

(وَأُمْلِي لَهُمْ) : وأُمهلهم بتأخير العذاب وأمنحهم كثيرًا من النعم ليزدادوا إثما وهم يحسبون أن ذلك لإرادة الخير بهم . (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) إن تدبيرى وعذابى لقوىٌّ شديد لا يُدْفع بشىء فلا يفوتنى أحد ولا يعجزنى ، وسمّى إحسانه وتمكينه وإمهاله لهم كيدا كما سمّاه استدراجًا فيما سبق لكونه فى صورة الكيد والاستدراج ؛ حيث كان ذلك سببًا لتورطهم فى الهلاك والوقوع فيه ، والله سبحانه يفعل بهم ما هو نفع لهم ظاهرًا وهو ضرر لهم فى الحقيقة لِمَا عَلِم من خُبْث نِيَّتهم وفساد طبيعتهم وتَمَادِيهم فى الكفر والعصيان ، ووصف كيده بالمتانة لقوة أثره فى التَّسبُّب للهلاك .

٤٦ ـ (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ) :

عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ...) الآية ، أى : أم تلتمس وتطلب منهم على هدايتك لهم ودعوتهم إلى الله وإرشادهم إلى الإيمان أجرًا دنيويًّا وثوابًا ماديًّا فهم من غرامة ذلك مثقلون لِمَا يشق عليهم من بذل المال ، فيثبّطهم ذلك عن الإيمان بالله والاستجابة لما تدعوهم إليه فيُعرضون عنك بسبب ذلك ، والأمر ليس كذلك فليس عليهم كلفة ولا غرامة مالية ، بل سيستولون بمتابعتك على خزائن الأرض فى الدنيا ويصلون إلى جنات النعيم فى الآخرة .

٤٧ ـ (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) :

أى : بل أعندهم علم الغيب فهم يكتبون عنه ما يحكمون به لأنفسهم مِنْ أنهم أفضل منك وأنهم لا يعاقبون وغير ذلك مِمَّا يدعون ، واستغنوا بذلك عن علمك ؟! وقيل المعنى : أينزل عليهم الوحى بهذا الذى يحكمون ؟ ! ليس عندهم شىء من ذلك .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(صَاحِبِ الْحُوتِ) : يونس عليه السلام .

(مَكْظُومٌ) : مملوء قلبه غيظًا وغضبًا ، وقيل : مغموم مكروب .

(لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ) : لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء المهلكة .

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) : فاصطفاه بقبول توبته .

(وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)أى : ينظرون إليك نظرًا شديدا يكاد يصرعك ويسقطك من مكانك لبغضهم لك .

التفسـير

٤٨ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) :

المعنى : فاصبر يا محمد لحكم ربك : وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم مع ما تعانيه منهم من أذى وكرب وبلاء ، فإن الله سبحانه سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، روى أنه ﷺ أراد أن يدعو على ثقيف لَمَّا آذوه حين عرض نفسه على القبائل فنزلت .

(وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ)وهو يونس -عليه السلام- أى : لا تكن مثله فى العجلة والضجر والغضب على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له وشروده به فى البحار وظلمات اليم (إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ) حين دعا ربه فى بطن الحوت فقال : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) ، (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أى : وقلبه مملوء بالغيظ والغضب على قومه إذ لم يؤمنوا حين دعاهم إلى الإيمان فطلب من ربه تعجيل عذابهم ، والمراد : ولايكن حالك كحاله وقت ندائه ،ولا يُوجد منك ما وُجِد منه من المغاضبة والدُّعاء على قومه بالعذاب ؛ فتُبتلى بنحو بلائه عليه السلام .

٤٩ - (لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ) :

المعنى : لولا أن تداركته نعمة من ربه - وهى توفيقه للتوبة وقبولها - لطرح من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من الأشجار وغيرها مذموماً معاقباً على ما صدر منه ، ولكن أدركته رحمة ربه وعنايته به فطُرح سقيماً غير مذموم : أى ، غير مبعد عن كل خير ، وقيل المعنى : لولا فضلُ الله عليه بقبول توبته وتسبيحه لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ثم نُبِذ بعراء القيامة مذموماً ، يدل عليه قوله تعالى : « فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »[1] ذكره القرطبى .

٥٠ - (فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ) أى فتداركته نعمة من ربه فاجتباه ، أى : اصطفاه بأن رد - عز وجل - إليه الوحى وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وقيل : استنبأه إنْ صَحّ أنّه لم يكن نبيًّا قبل هذه الواقعة ، وإنّما كان رسولاً لبعض المرسلين (فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أى : من الكاملين فى الصّلاح بأن عصمه - سبحانه - من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى .

٥١ - (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) :

المعنى :

١ - إنهم لِشدّة عداوتهم وبغضهم لك ينظرون إليك شزرًا وحقدًا بحيث يكادون يزلُّون قدمك ويُزيلُونك من مكانك ، من قولهم : نظر إلى نظرًا يكاد يصرعنى أو يكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله .

٢ - وقيل المعنى : إنهم يكادون يصيبونك بالعين ، ولقد كان ذلك معروفًا فى بنى أسد ، ذكر الآلوسى وغيره أن الكفار سألوا رجلًا منهم أن يصيب رسول الله بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى ﷺ أنشد الرجل :

قد كان قومُك يحسبونَك سيدًا وإخـالُ أنّك سَـيِّدٌ معيون

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤

فعصم الله نبيه ﷺ فنزلت هذه الآية ، وذكر نحوه الماوردى والقرطبي وكذلك الكشاف مع اختلاف فى بعض العبارات ، وعبارة الكشاف : فقال الرجل لرسول الله : لم أَرَ كاليوم رجلًا - يريد بذلك أنه لم يَرَ رجُلًا مثلَ الرسولِ - فعصمه الله .

ولقد صَحَّ من عدة طرق أن العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، فالعين حق . وذلك من خصائص بعض النفوس ، ولله تعالى أن يخص ما شاء منها بما شاء .

قال العلامة الآلوسى فى تعقيبه على ذلك : وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس (ولا أُكيِّف ذلك) فالنفس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله - عز وجل - وكم طوى فيها أسرارًا وعجائب تتحيَّر فيها العقول ولاينكرها إلَّا مجنون أو جهول .

ولا يسعنى أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها ومشاهدة آثارها على اختلاف الأعضاء .

ولابن كثير كلام كثير فى هذا المقام فليرجع إليه من أراد .

(لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) أى : يزلقونك بأبصارهم وقت سماعهم القرآن ؛ وذلك لشدة بغضهم وحسدهم لرسول الله حين سماعه (وَيَقُولُونَ) لغاية حيرتهم فى أمره - عليه الصلاة والسلام - ونهاية جهلهم بما فى القرآن من عجائب الحكم وبدائع العلوم ولتنفير الناس منه : (إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) أى : ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأُ القرآن ، أى : حكموا بجنونه لسماعهم القرآن منه وهم يعلمون أنه أعقل الناس وأحكمهم ، وحيث كان مدار حكمهم الباطل ما سمعوا منه ﷺ من القرآن رَدَّ - سبحانه - ذلك ببيان علو شأن القرآن وسطوع برهانه فقال : (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) .

٥٢ - (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

الأسلوب يفيد بطلان قولهم وتعجيب السامعين من جرأتهم على التفوه بتلك الفرية العظيمة

أى : يقولون ذلك والحال أنَّ القرآن ذِكْرٌ للعالمين ، أى : تذكير لهم وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، فكيف يحكم على من أُنْزِل عليه ذلك بالجنون وهو مطلع على أسراره طُرًّا ، ومحيط بجميع حقائقه خبرًا ، وقيل : معنى الذكر : الشرف والفضل لقوله تعالى : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ»[1] لِما فيه من الاعتناء بما ينفعهم .

وقيل : الضمير (هُوَ) لرسول الله ﷺ وكونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مذكرًا وشرفًا لجميع العالمين لاريب فيه ما

(والله أعلم)

---

(١) سورة الزخرف من الآية ٤٤

سورة الحاقة

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها إحدى وخمسون آية . والدليل على أنها نزلت فى مكة المكرمة ما أخرجه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فوقفت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن وقلت : هذا والله شاعر ، فقال الرسول : (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) قلت : كاهن ، فقال : (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ...) إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

مناسبة هذه السورة لما قبلها :

جاء فى سورة (نون) ذكر يوم القيامة مجملًا فى قوله تعالى : (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) فبيّن - سبحانه - فى هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنه العظيم ، وذكر أحوال أمم كذبوا رسلهم - عليهم السلام - وما أصاب هؤلاء الأقوام بسبب ذلك التكذيب من التنكيل والعذاب ؛ ليزدجر ويرتدع المكذبون المعاصرون له - عليه الصلاة والسلام - .

بعض مقاصد السورة :

١ - بدأت بذكر صفة القيامة على صورة تبعث فى النفوس الهيبة والخوف والفزع منها قال تعالى : (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) .

٢ - تحدثت عن أقوام من السابقين - عاد وثمود وفرعون ومن قبله وقوم لوط - وقد بلغوا فى البغى والطغيان غايته - قد نكل بهم فأبادهم وجعل بعضهم أثرًا بعد عين ، وبعضًا آخر ليس لهم من باقية ولا أثر .

٣ - جاء فيها ذكر بعض نعم الله على الإنسان وأنه نجّاه يوم لا عاصم من أمر الله إلّا من رحم ، وذلك للتذكرة والاعتبار ، قال تعالى : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً) .

٤ – عرضت بعد ذلك لذكر أهوال قيام الساعة : من النفخ فى الصور ، ورفع الأرض والجبال وتفتتها ، وانشقاق السماء وتداعيها ، ووقوف الملائكة على جوانبها ، إلى غير ذلك من الأهوال والأحداث الجسام .

٥ – عرضت السورة لمآل من فاز ونجا وأوتى كتابه بيمينه ، وبينت فرحه وافتخاره بذلك قال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) كما أظهرت عاقبة من بار وهلك وأوتى كتابه بشماله ، وأوضحت حسرته وندمه حيث لا ينفع ذلك ، قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) .

وفى ختام هذه السورة الكريمة جاء التأكيد على أن القرآن الكريم من عند الله وليس شعرًا ولا كهانة ، بل إنه تنزيل من رب العالمين ، وأن محمدًا ﷺ لو افترى وتقول على الله شيئًا لأخذ الله بيمينه وقطع نياط قلبه ، فما يستطيع أحد أن يمنعه من تنكيل الله به ، وكانت نهاية الختام بيان أن القرآن يُذكر المتقين فينتفعون ويعملون بما فيه ، وأنه – سبحانه – يعلَم المكذبين فيجازيهم على ما اقترفوا وقدموا . ثم كان الأمر منه – سبحانه – لرسوله أن ينزهه عما لا يليق به : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الْحَاقَّةُ) : من حَق : إذا ثبت ووجب ، والمراد بها القيامة .

التفسير

١ ، ٢ – (الْحَاقَّةُ ، مَا الْحَاقَّةُ) :

الحاقة ؛ هى القيامة : وسميت بهذا الاسم لأنها الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجىء ، فهى آتية

لا ريب فيها ، أو هى التى تثبت فيها الأُمور الحقة من الحساب والثواب والعقاب ، أو التى تعرف بها الأُمور على الحقيقة .

وافتتحت السورة الكريمة بذكر القيامة بهذا الأُسلوب ليزيد الله المؤمنين إيمانًا بها ؛ لأَنهم يعلمون أنها الحق الثابت الذى لا يتغير ، وإن كانوا مشفقين منها وخائفين من وقوعها ، كما أن هذا النسق البديع يقطع بأَن الذين يجادلون ويمارون فى وقوعها أو يتشككون فى ذلك لفى بعد عن الحق وتجافٍ عن الصواب ، قوله : (مَا الْحَآقَّةُ) استفهام أُريد به التعظيم والتفخيم والأَصل : الحاقة ما هى؟أَىْ : أَىّ شىء هى فى صفتها وحالها؟ فوضع الظاهر (الْحَآقَّةُ) موضع المضمر تعظيمًا لشأْنها وتهويلًا لأَمرها .

٣ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَآقَّةُ) :

هذا أَيضًا استفهام أُريد به التعظيم والتفخيم ، أى : أى شىء أَعلمك بذلك اليوم ؟

يعنى أَنك لا علم لك بحقيقتها ومدى عظمها وشدة هولها ؛ إذ إنها فى العظم والشدة بحيث لا يصل إلى ذلك علم أَحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهى أَعظم وأَشد من ذلك .

هذا والنبى ﷺ كان عالمًا بالقيامة ، ولكنه لمَّا لم يعاينها ولم يشاهدها فكأَنه ليس عالمًا بها ، قال يحيى بن سلام : بلغنى أَن كل شىء فى القرآن (وَمَآ أَدْرَاكَ) فقد أراه الله إيَّاه ، وعلمه ، وكل شىء قال : (وَمَا يُدْرِيكَ) فهو ممَّا لم يُعَلِّمه ، كما روى عن سفيان بن عيينة : كل شىء قال فيه : (مَآ أَدْرَاكَ) أَخبر به ، وكل شىء قال فيه : (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يخبر به . - ذكره القرطبى - .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(الْقَارِعَةِ) : القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال التى تحدث فيها .

(الطَّاغِيَةِ) : الواقعة المجاوزة للحدود ، وهى الصيحة أو الرجفة ، وقيل غير ذلك .

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ) : شديدة الصوت ، من الصَّر ، أو شديدة البرد ، من الصِّر .

(عَاتِيَةٍ) : شديدة العصف والعتوّ فلايستطيع أحد ردها .

(حُسُومًا) : نحسات مشئومات حسمت وقطعت كل خير ، أو متتابعات ، وقيل غير ذلك .

(صَرْعَى) : هلكى لاحراك بهم .

(أَعْجَازُ نَخْلٍ) : أصول نخل قد تآكلت وخلت أجوافها ..

(الْمُؤْتَفِكَاتُ) : المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط – عليه السلام – التى رفعها جبريل وقلبها هى ومَن فيها .

(الْخَاطِئَةِ) : القبيحة الشائهة .

(رَابِيَةً) : زائدة فى الشدة .

(طَغَى الْمَآءُ) : تجاوز حده حتى علا على أعْلَى الجبال .

(الْجَارِيَةِ) : سفينة نوح – عليه السلام .

(تَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) : تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما سمعت به .

التفسير

٤ – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) :

لما ذكر الله – سبحانه – الحاقة وبين خطرها وعظم شأنها أتبع ذلك بذكر من كذب بها من الأمم السابقة ، مع بيان ما حل بهم من النكال والعذاب بسبب تكذيبهم وذلك تذكيرا لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة ما هم عليه من العناد والتكذيب .

والقارعة : هى التى تقرع الناس وتخيفهم وتفزعهم ، وتقرع السماء بالانشقاق ، والجبال والأرض بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والسقوط ، وجاءت (القارعة) موضع الحاقة أو ضميرها زيادة فى وصف شدتها وتهويل أمرها ، كذبت ثمود قوم صالح – عليه السلام – وكذبت عاد قوم هود – عليه السلام – بهذا اليوم .

٥ – (فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) :

هذا بيان لما سبق وتفصيل لما أجمل ، وذلك بذكر ما حاق ونزل بهؤلاء وأولئك من العذاب فأخبر – سبحانه – أن ثمود قد أهلكهم الله بالطاغية ، وهى الواقعة المجاوزة للحد فى الشدة والقوة ، وهى الصيحة التى زادت وتجاوزت كل الصيحات ، وقال بعضهم : إنها الرجفة والزلزال المسبب عن الصيحة ، وقيل : إن المراد من الطاغية هو ذلك الرجل الذى أقدم على عقر الناقة واسمه قُدار بن سالف ، وقد أهلكهم الله جميعاً لأنهم رضوا بفعله ومالأوه .

٦ - (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) :

وهذا نوع آخر من العذاب أنزله الله على عاد قوم هود - عليه السلام - لما كذبوا رسولهم واستهانوا به وقالوا له : « إن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ »[1] فأهلكهم الله بريحٍ شديدةِ الصوت ، أو بريحٍ باردةٍ[2] كأنها التى كرر فيها البرد وكثر حتى تحرق بشدة بردها ، وهذه الريح هى الدَّبُور ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم يقول ﷺ : « نُصرتُ بِالصَّبا وأُهلكَتْ عادٌ بِالدَّبُورِ » والمراد من وصفها بالعتو أنها قد بلغت منتهاها ووصلت غايتها فى القوة والشدة ، أو عتت على عاد فلم يقدروا على ردّها بحيلة من استتار ببناءٍ أو استناد إلى جبل أو اختفاء فى حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم .

٧ - (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) :

هذا بيان لكيفية إهلاكهم بالريح ، أى : سلط الله تلك الريح وأرسلها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات دون فتور أو انقطاع حتى قطعت دابرهم واستأصلت شأفتهم ، أو أن تلك الليالى والأيام كانت نحسات مشئومات عليهم ، وقيل : إنها هى أيام العجوز وإنما سميت بذلك لأن عجوزا من عاد توارت فى سرب فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل : هى أيام العجز وهى آخر الشتاء فترى وتبصر يامن تتأتى منك الرؤية - إن كنت حاضرًا حينئذ - ترى هؤلاء القوم فى تلك الليالى والأيام ، أو فى مهاب الريح موتى وهلكى ، يشبهون ويماثلون أصول نخل خالية الأجواف لاشىء فيها ؛ لأن الريح تسلطت عليهم فكانت تدخل أجوافهم فتصرعهم وتخرج أحشاءهم ، أو خاوية بمعنى بالية ؛ لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية ، وتشبيههم بأعجاز النخل يشعر بأنهم كانوا عظاماً فى خلْقِهِمْ وأجسامهم .

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة هود .

(٢) الصر - بالفتح - : مصدر (صرصرته) إذا شددته ، والصر - بالكسر - : البرد .

٨ - (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) :

أى : فهل ترى وتبصر لَهم من بقية ؟ أو من نفس باقية ؟ أو من بقاء؟! .

وذهب قوم إلى أن هؤلاء القوم لم يبق من نسلهم أحد واستدل بهذه الآية على قوله .

٩ - (وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ) :

أى وجاء فرعون - ذلك الجبار الطاغى - ومن سبقه من الأمم التى كفرت كثمود وعاد ومن تبعهما من الأعوان والجنود ، وجاء أيضاً أهل تلك القرى الذين كذّبوا نبى الله لوطا - عليه السلام - فكفأ وقلب جبريل - عليه السلام - تلك القرى ومن فيها ، جاء هؤلاء وأولئك جميعاً بالفعلة ذات الخطأ الجسيم والإثم العظيم .

١٠ - (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً) :

بيَّن الله فى تلك الآية ذلك الخطأ الشديد والفعلة الشائنة المنكرة وأبان عقوبتها ، بينها - سبحانه - بأنها كانت عصيان كل أمة لرسولها حيث لم ينتهوا عما نهاهم عنه مما كانوا يفعلونه من ألوان القبائح وضروب الفواحش ، فأنزل الله بهم من العذاب الشديد ما يتوافق ويتناسب مع قبح أفعالهم وشناعة عصيانهم ؛ فأخذهم أخذة زائدة شديدة .

١١ - (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ) :

هذا بيان لفضل من الله ومنة على المؤمنين ، وزجر وتهديد للكافرين ، أى : إننا وقت أن طغى الماء وتجاوز حده المعتاد حتى علا وارتفع فوق كل شىء ، وذلك بسبب إصرار قوم نوح - عليه السلام - على ضروب المعاصى والكفر ومبالغتهم فى الاستهزاء به ، وفى تكذيب ما جاء به من الأحكام والشرائع التى من جملتها أخبار وأحوال يوم القيامة ، إننا بقدرتنا - وتفضلا منا - جعلناكم ذرية من نجا من الغرق بسبب إيمانهم بالله وطاعتهم لنبيه نوح - عليه السلام - ورفعنا آباءكم وأنتم فى أصلابهم فوق الماء إلى انقضاء أيام الطوفان ، ورفعنا آباءكم فى السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا ، وأغرقنا الكافرين ببغيهم وعصيانهم .

١٢ ـ (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) :

أى : لنجعل تلك الفعلة ـ وهى إنجاء المؤمنين وإغراقُ الكفرة ـ عظة وعبرة لكم ، ولكى تحفظها فى نفسها وتسمعها وتعمل بها أذن من شأنها أن تحفظ وتعى ما ينبغى حفظه ، وذلك بأن تتفكر فيه وتتذكره وتشيعه ولا تضيعه بترك العمل به ، وعن قتادة : الواعية : هى التى عقلت عن الله ـ تعالى ـ وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ـ عز وجل ـ .

وجاء قوله تعالى : (أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) على الإفراد والتنكير للإشعار بأن الذين يعون ويعقلون ما يسمعون ويعملون به هم قلة فى هؤلاء القوم ، ولتوبيخ النّاس ولومهم بقلة من يعى منهم ، وللدلالة ـ أيضاً ـ على أن الأُذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى المكرمة عند الله ، وأنَّ ما سواها لا يلتفت إليهم وإن امتلأ العالم بهم .

(فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) : فضرب بعضها ببعض حتى اندقت وتفتتت .

(وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ) : انصدعت بعضها عن بعض .

(وَاهِيَةٌ) : مسترخية ساقطة القوى ضعيفة .

(عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) الأرجاء : جمع رجًى ، وهو الجنب ، أى : على جوانبها .

التفسير

١٣ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) :

هذا شروع فى بيان نفس الحاقة وكيفية وقوعها إثر بيان عظمة شأنها بإهلاك مكذبيها والمراد من النفخة الواحدة - هى نفخة الملك فى البوق - وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ، والأولى أن يقال : إنها النفخة الأولى التى عندها يحصل خراب العالم . قال الإمام الفخر الرازى : فإن قيل : لماذا قال بعد ذلك : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية ؟ قلنا : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ؛ فلذلك قال : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) كما تقول : جئتك عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته . ا هـ .

١٤ - (وحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) :

أى : رفعت الأرض والجبال من أماكنها إما بالزلزلة ، أو بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو بملك من الملائكة ، أو بقدرة الله من غير سبب[1] فضربت الأرض والجبال بعضها ببعض ضربة واحدة حتى تندق وتتفتت وتصير كثيبا مهيلا : أى ، رملا رخوا ليناً بعد أن كانت قوية صلبة متماسكة ، وقيل : تتفرق أجزاؤها كما قال - سبحانه - « هَبَآءً مُّنبَثًّا »[2] وقيل : المراد فبسطتا بسطة واحدة وسويتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا : أى ، لا تبصر فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

١٥ - (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) :

أى : فيوم إذ حدث ذلك من النفخ فى الصور ودك الأرض والجبال نزلت النازلة وقامت القيامة الكبرى .

١٦ - (وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) :

أى : وتفطرت السماء وتميز بعضها عن بعض ، فهى فى هذا اليوم مسترخية ساقطة القوة ، وذلك بعد أن كانت محكمة متماسكة .

---

(١) ذكر ذلك الإمام الرازى . (٢) الواقعة ، من الآية : ٦ .

١٧ ، ١٨ـ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ :

أى : والملائكة بعد انشقاق السماء وتداعيها – وهى مسكنهم – يقفون على جوانبها وأطرافها فزعين خائفين من عظمة الله ذى الجلال ، ومن هول ذلك اليوم ، ويحمل عرش الرحمن – جلّ وعلا – ثمانية من الملائكة العظام ، أو ثمانية صفوف ، ويكون العرش وحملته فوق الملائكة الذين على أرجاء وأطراف السموات ، وقيل : إن حمل العرش – يومئذ – يكون فوق ظهورهم أو على رءوسهم وليس بأيديهم .

وفى هذا اليوم العصيب الرهيب تعرضون على ربكم للمحاسبة والمساءلة ، قيل : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أى : غير خاف عليه – عز وجل – سر من أسراركم لا فى هذا اليوم ولا فى غيره ، وقد جاء النظم الكريم على هذه الصورة لمزيد تهديدهم ، أى : تعرضون على من لا يخفى عليه شىء أصلا ، أو المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مستترا فى الدنيا بستر الله عليكم ؛ فإنه – سبحانه – فى هذا اليوم يظهر أحوال المؤمنين للملأ فى عرضات القيامة ، فيتكامل سرورهم ، ويبدى – جل شأنه – أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك خزيهم وفضيحتهم ، وهو المراد من قول الله تعالى : « يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ »[1] .

روى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ؛ فإنه أخف عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر .

(١) سورة الطارق ، الآيتان : ٩ ، ١٠

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾)

المفـــردات :

(هَآؤُمُ) : خذوا .

(قُطُوفُهَا) : جمع قِطف ، وهو مايجتنى من الثمر .

(دَانِيَةٌ) : قريبة التناول .

(بِمَآ أَسْلَفْتُمْ) : بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا[١] .

(الْقَاضِيَةَ) : القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها .

(هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) : بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، وقيل غير ذلك .

١٩ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) :

هذا توضيح وتبيين لما سبق إجماله فى قوله :(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ) إذ بالعرض تظهر أحوال المؤمنين وغيرهم ، فأما الفريق المؤمن الذى يأخذ كتابه بيمينه فيعلم - آنئذ -

(١) جاء فى القاموس المحيط : السلف - محركة السين - : اسم من الإسلاف ، ثم قال : وكل عمل صالح قدمته .

أنه من الناجين الفائزين بالنعيم ؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والمراد بالكتاب هنا : ماكتبته الملائكة وسطرته على العبد من الأعمال خيرها وشرها ، أى فيقول كل واحد من هؤلاء السعداء لغيره أو لأهل قرابته - سرورا بنجاته - : (هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) أى : خذوا كتابى هذا فاقرءوه حتى ينالكم مانالنى من السرور والفرح ؛ ليكمل أنسى ويزداد ابتهاجى وحبورى .

٢٠ - (إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) :

أى : إنى كنت فى دنياى أعمل الخير وأحسن القصد وأتقن العمل وأرجو منه - سبحانه - أن يجعل عملى خالصا لوجهه غير مدخول برياء أو سمعة ، وإنى ظننت فى الدنيا أن ربى - جل شأنه - سيحاسبنى يوم القيامة حسابا يسيرا ، وقد حاسبنى - تبارك وتعالى - كما ظننت ؛ فالله - جلت قدرته - عند ظن عبده به ، وقيل : المراد بالظن هنا اليقين والعلم وذلك بناء على أن الظاهر من حال المؤمن تيقن أمور الآخرة ، ولكن لمّا كان فيها من التفاوت كسهولة الحساب وشدته - مثلا - عبر عن العلم بالظن للإشعار والإشارة إلى ذلك .

٢١ - (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) :

أى : إن هذا الفريق صاحب اليمين فى عيشة وحياة قد رضى بها تمام الرضا واطمأن إليها كمال الاطمئنان ؛ وذلك لدوامها وعظمها وخلوصها من الشوائب والأكدار حتى كأن تلك العيشة نفسها راضية ، وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : «أنَّهمْ يعِيشون فَلَا يمُوتون أبدا ويصِحُّون فلَايمْرضون أبداً ، وينْعمون فلا يروْن بؤْسًا أبداً ، ويشِبُّون فَلَا يَهْرمُونَ أَبَداً » .

٢٢ - (فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) :

أى : يعيش هذا الفريق تلك العيشة الراضية ويحيا هذه الحياة الهانئة فى جنة رفيعة القدر عظيمة المنزلة ، وهى - كما جاء فى تفسير ابن كثير - رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . هذا والجنة فى ذاتها عالية فهى فوق السموات غير أن منازل بعضهم فيها فوق منازل الآخرين ، وذلك لتفاوت درجات أهلها .

٢٣ - (قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) :

أى : ثمارها قريبة التناول يدركها ويأخذها القائم والجالس والمضطجع ، أو سهلة التناول ، أخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال : دنت فلا يرد أيديهم عنها بعدٌ ولا شوكٌ :

٢٤ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) :

يقال لهم ذلك من قبل الله تعظيما لشأنهم وإدخالا للسرور فى قلوبهم ، أى : كلوا أكلا سائغا لذيذا بلا عناء ولامشقة ، واشربوا شربا رويًّا لاظمأ بعده ، ولا يعقب هذا الأكل والشرب شائبة من تنغيص أو ضرر ، وذلك بسبب ماقدمتم من الأعمال الصالحة فى أيامكم التى خلت ومضت وهى أيام الدنيا ، وهذا الجزاء جاء منه - سبحانه - تفضلا عليهم وإكراما لهم ، وإحسانا إليهم ، فقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسدِّدوا وقارِبُوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخلَ بعمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : « ولا أنا إلاَّ أن يتغمدَنى اللهُ برحمةٍ منه وفضل » ، وقيل المراد من الأيام الخالية هى أيام الصيام التى تقلصت فيها شفاههم وغارت أعينهم وخمصت وجاعت بطونهم من ترك الطعام والشراب امتثالا لأمر ربهم وابتغاء لوجهه - سبحانه - فعوضهم عما فاتهم فى صومهم .

ولما بين الله حال أصحاب اليمين ومانالوه من سعادة أبدية فى الدار الآخرة أردفه وأعقبه ذكر أصحاب الشمال ومايقاسونه من ضروب الخزى وألوان العذاب وصنوفه ، فقال :

٢٥ - (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) :

أى : أن هذا الصنف الذى يعطى كتابه بشماله - وهو أمارة النحس وشؤم الطالع - يقول - وقد ملأته الحسرة وجلَّله الخزى والذل - : ياليتنى لم أُعط كتابى وصحيفة أعمالى التى تذكرنى بقبائح أفعالى ، إنه من شدة خجله وفرط هوانه يتمنى لو عُذِّب بالنار دون أن يعرض عليه كتابه حتى لاينالـه ذلك العذاب الروحانى الذى هو أشق وأشد من العذاب الجسمانى .

٢٦ ـ (وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ) :

أى :ولم أعرف شيئا عن حسابى ؛ إذ لاطائل ولانفع من وراء ذلك ؛ فكتابه لم يضمماينجيه وليس فيه مايغنيه من عذاب الله ، إنه قد حوى وشمل كل قبيح يشينه ، وسطر فيه مايهلكه ويرديه .

٢٧ ـ (يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) :

أى : يقول ـ متمنيا ولاينفع التمنى ـ ليت الموتة التى متُّها وذقتها فى الدنيا كانت هى القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها ولم أنل وألق ما ألقاه من العذاب المهين ، أو ليت هذه الحالة ـ وهى حالة مطالعته لكتابه يوم القيامة ـ كانت الموتة التى قضت علىّ ؛ لأنه قد صار إلى أمر أشد إيلاما ومرارة من الموت فتمناه عنده ، وقد قيل : أشد من الموت مايتمنى الموت عنده .

٢٨ ـ (مَآ أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ) :

أى :لم ينفعنى ولم يغن عنى ماكان لى فى الدنيا من المال الوفير فضةوذهبا وخيلا مسومة وأنعاما وحرثا وخدما وحشما ،فقد وفدت وجئت إلى ربى فردا وحيدا لانصير لى ولا معين .

٢٩ ـ (هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ) :

أى :بطلت حجتى ، وضاع دليلى ،وضل برهانى الذى كنت أحتج به فى الدنيا على محمد ﷺ حيث كذبتنى الجوارح وشهدت على بالشرك والمعاصى !! أو ذهب ملكى وتسلطى وبطشى وجبروتى وبقيت ذليلا مهينا .

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) : شدُّوه بالأغلال .

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) أى : لاتدخلوه إلا النار يقاسى حرّها .

(فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً) : قياسها ومقدار طولها .

(فَاسْلُكُوهُ) : فأدخلوه فيها ، أى : تلف على جسده ، وقيل غير ذلك .

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أى : لايحث ولايحرض غيره على إطعام المساكين .

(حَمِيمٌ) : قريب مشفق يرق ويحترق قلبه له ، أو يحميه مما نزل به .

(غِسْلِينٍ) : هو الدم والماء الذى يسيل من لحوم أهل النار .

(ٱلْخَاطِئُونَ) : جمع خاطىء ، وهو الذى يتعمد فعل الذنب ، وهم المشركون .

التفسير

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ـ (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) :

هذا تفصيل لما يلقاه الأشقياء يوم القيامة حيث يأمر ـ سبحانه ـ الزبانية بأن يأخذوا كل شقىّ فيشدوه بالأغلال والقيود ويجمعوا بها يده إلى عنقه ، ثم يأمرهم بعد ذلك ألّا يجعلوه إلا فى الجحيم وفى النار التى اشتد تأججها وزاد سعيرها وأوارها (ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ)

وهى حلق منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ، أى : لاتدخلوه إلا فى سلسلة مقدارها سبعون ذراعا ولفُّوها عليه حتى تنتظمه وتضمه ، وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لايقدر على الحركة ، وقيل : إن المعنى لا تدخلوا السلسلة إلاّ فيه ، ويكون المعنى أن السلسة هى التى تسلك وتدخل فيه ، وهو مروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنها تدخل فى دبره حتى تخرج من فمه أو من منخريه ، وعند الله علم مقدار هذا الذراع ، وجعلها سبعين ذراعا لإرادة الوصف بالطول لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد ، ونظير ذلك قوله تعالى : « إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً »[1] يريد مرات كثيرة .

٣٣ ، ٣٤ - (إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ ٭ وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

هذا بيان للسبب الذى استحق من أجله هذا العذاب ، أى : استوجب واستحق هذا النكال لأنه كان فى الدنيا مستمرا وقائماً على الكفر بالله العظيم ، وجاء وصفه - سبحانه - بالعظيم ليشعر ذلك بعظم وشدة عذابه - جل شأنه - واستحق العذاب أيضا لأنه لايحث ولايحرض غيره على طعام المسكين فضلا عن أن يبذل ماله ، فهو يجمع بين البخل بماله والشح على المساكين من مال غيره ، وقال صاحب الكشاف : وفى قوله تعالى : (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المساكين أحدهما عطفه على الكفر وجعله قرينا له ، والثانى : ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل ؟! وعن أبى الدرداء : أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر ؟! .

٣٥ - ٣٧ - (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ٭ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٭ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ) :

أى : فليس له فى الآخرة قريب يدفع عنه ويحزن عليه لأنهم يتحامونه ويفرون منه كقوله تعالى : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » والغسلين : هو غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم ، أى : ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف

(١) سورة التوبة من الآية ٨٠

البشع المنتن الذى لايأكله أحد إلّا هؤلاء القوم الذين كانوا يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب ، ولذا لايدخلون تحت عفو الله وغفرانه لأنهم جاهروا الله بالمعاصى ، وقد قال الرسول ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) : فأقسم بالمشاهدات المرئيات ، والمغيبات المستورات ، وقيل غير ذلك .

(تَقَوَّلَ) : افترى وادّعى .

(ٱلْوَتِينَ) : عرق فى القلب إذا قُطِع مات صاحبه .

التفسـير

بعد أن بين - سبحانه - أن الساعة واقعة لا محالة ، وأن الناس جميعا محاسبون على أعمالهم ، وذكر - جلت قدرته - أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم - بعد أن بين ذلك - ختم الكلام فى هذه السورة الكريمة بتعظيم القرآن فقال :

٣٨ ، ٣٩ ـ (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) :

أى : فأقسم وأحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه وجعله دليلا على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه ، وأقسم بما لا تبصرونه مما خفى واستتر عنكم من مثل : ذاته ـ سبحانه ـ وأسرار قدرته وبعض مخلوقاته التى لم يأذن لكم فى الاطلاع عليها ، وما خفى ودق من نعمه الباطنة . وكلمة (لَا) على هذا فى قوله :(فَلَا أُقْسِمُ) لتأكيد القسم وليست للنفى ، وقيل : إنها نافية للقسم ، كأنه قال : لا أقسم على أن القرآن قول رسول كريم لأن الأمر لوضوحه يستغنى عن القسم والحلف عليه .وقيل :(لَا) لكلام سبق ، أى : ليس الأمر كما يقوله المشركون ، ثم ابتدىء بعد ذلك بالقسم .

٤٠ ـ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) :

أى : إن القرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسول من عند الله ، أى : يبلغه عن الله وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولاقبله شأن فيه ، والظاهر أن المراد من الرسول فى الآية الكريمة هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو الذى كان يصفه قومه بالشعر والكهانة وقيل هو جبريل ـ عليه السلام ـ .

٤١ ـ (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) :

أى وليس القرآن بقول شاعر لأنه يباين ويختلف عن ضروب الشعر وأغراضه ؛ إذ إنه التشريع المحكم ، والقول الفصل ، والجد الذى ليس بالهزل ، أما الشعر فإنه يخوض فى الأمور كلها جدها وهزلها ،فالشعراء فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون (قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) أى :أنهم لايؤمنون أصلا ؛فالعرب تقول : قلَّما يأتينا . وهم يريدون أنه لا يأتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان ما يرجعون عن إيمانهم ، وذلك كما حدث من الوليد بن المغيرة فإنه بعد أن وصف القرآن الكريم ونعته بأنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وأنه ليعلو ولا يُعلى عليه ... إلى آخر ماقال ، رجع واستكبر فقال : إن هذا إلَّا سحر يؤثر .

وقال الفخر الرازى فى قوله تعالى : (قَلِيلاً مَّاتُؤْمِنُونَ) : إلَّا أنكم لاتقصدون الإيمان فلذلك تعرضون عن التدبر ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم : إنه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر .

٤٢ - (وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّاتَذَكَّرُونَ) :

أى : ليس القرآن - أيضا - بقول كاهن ؛ لأن الكهان تلهمهم وتمدهم الشياطين بالغى والضلال وقد نزل القرآن بسب الشياطين وشتمهم ؛ فلا يعقل أن يكون من مدهم وإلهامهم غير أنكم أيها المكذبون لاتتذكرون كيفية نظم القرآن واشتماله على شتم الشياطين ولعنهم والتحذير منهم ، ولو تذكرتم ذلك لأدركتم أنكم تتخبطون فى أقوالكم وتكذبون أنفسكم.

٤٣ - (تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : أن القرآن العظيم كلام رب العالمين ؛ لأنه تنزيله ، أما أنه ينسب قوله إلى جبريل - عليه السلام - فلأنه نزل به من عند الله ،أو أنه قول سيدنا محمد ﷺ فلأنه أنذر وبشر الخلق به ، فكل من جبريل - عليه السلام - ومحمد ﷺ لادخل له فى القرآن الكريم إلا بالنزول به من عند الله بالنسبة لأمين الوحى جبريل - عليه السلام - وبتبليغ ما أنزل عليه للناس كافة بالنسبة لرسولنا محمد ﷺ .

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ -(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) :

أى : لو ادعى ونسب إلينا محمد من قبل نفسه شيئا لم نقله لمنعناه بالأخذ بيمينه ، وهذا تصوير للانتقام منه على أبشع صورة كما يفعل الجبابرة بمن يريدون التنكيل بهم ، من ذلك : بأن نسلبه قوته ،أو ننتقم منه بالحق بأن نقيض ونهىء له من يعارضه فيه ويبطل قوله حتى يظهر كذبه لئلا يشتبه الصادق بالكاذب ، ثم كانت عاقبته أننا نقطع العرق المتصل بقلبه حتى يقضى عليه ويموت (فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍعَنْهُ حَاجِزِينَ) أى : فلا يقدر أحد من الناس أن يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذنا بيمينه ،أو فى قطعنا وتينه ؛ إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

ولما لم يحدث من ذلك شيء كان محمد ﷺ رسولا من عند الله يبلغ عنه - سبحانه - إنذارا وتبشيرا ، وسميت الأقوال المفتراة المتقولة أقاويل تحقيرا لها وتصغيرا لشأنها ، كقولهم الأعاجيب والأضاحيك[1] .

(وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(تَذْكِرَةٌ) : عظة وتذكير .

(لَحَسْرَةٌ) : لحزن وندامة عظيمة .

(حَقُّ ٱلْيَقِينِ) : عين اليقين : وقيل غير ذلك .

التفسـير

٤٨ - (وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لتذكرة وعظة للمؤمنين الذين يخشون ربهم ويتقون المعاصى ، وخص - سبحانه - المتقين بذلك لأنهم هم المنتفعون بالقرآن العظيم .

٤٩ - (وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ) :

هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد للمكذبين ، أى : ونحن نعلم أن منكم من يكذب بالقرآن مع وضوحه وإعجازه ويزعم أنه شعر وكهانة وأساطير الأولين ، وسنجازى هؤلاء المفترين على الله الكذب بما يستحقونه من عقاب ونكال .

---

(١) عن الفخر الرازى .

٥٠ - (وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

وإن هذا القرآن الكريم ليورث الكفار الأسف العظيم ويجلب لهم الندامة والحزن الشديد وذلك فى الآخرة إذا رأوا وشاهدوا ثواب المؤمنين به والقائمين على حدوده ، أو يصيبهم ذلك فى الدنيا عندما يشاهدون ماعليه المصدقون به من عز ومنعة ودولة وسلطان ، أوحين لم يقدروا على معارضته والإتيان بسورة من مثله عندما تحداهم بذلك .

٥١ - (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) :

أى : وإن القرآن العزيز لحق لابطلان فيه ، ويقين لاريب ولاشك فيه . ونقل الآلوسى عن بعضهم أنه قال : إن أعلى مراتب العلم حق اليقين ، ودونه عين اليقين ، ودونه علم اليقين ، فالأول كعلم العاقل الموت إذا ذاقه ، والثانى كعلمه عند معاينة ملائكته - عليهم السلام - والثالث كعلمه به فى سائر أوقاته .

٥٢ - (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) :

أى : فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له وتقديسا عمّا لايليق به من السوء والنقائص ، وإبعادا لعظمته عما لايتفق وجلاله وسلطانه ، واشكره شكرا جزيلا على ما أوحاه إليك من هذا القرآن الرفيع القدر الجليل الشأن ، وما حباك به - سبحانه - وأعطاك من آلائه الوفيرة ونعمه العظيمة .

سورة المعارج

مكية وآياتها اربع واربعون آية

صلة هـذه السورة بما قبلها :

هذه السورة الكريمة كالمتممة والمكملة لسورة الحاقة إذ إن كلاً منهما تعرض وتبين أحوال البشر يوم القيامة .

بعض مقاصد السورة :

١ - إنها - فى أولها - تنذر الكافرين بعذاب نازل وواقع بهم لا محالة .

٢ - إنها تصور يوم الحساب بأنه شاق وعسير على الكافرين فمقداره عليهم خمسون ألف سنة ، أما المؤمن فإن الله يخففه عليه حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا .

٣ - تبين السورة فى بعض آياتها السماء يوم القيامة بأنها تكون بينة الكدورة ، وأنها كعكر الزيت فى أسفل إنائه ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح .

٤ - توضح السورة أن كل واحد يوم القيامة ينشغل بنفسه (وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) ، وأن المجرم يتمنى لو كان بنوه وأهله ومن فى الأرض جميعًا تحت يده يبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك من عذاب الله ومقته ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

٥ - تبين الآيات أن الإنسان جبل وفطر على الحزن والجزع عند المصيبة والبلاء كما خلق على الشح والبخل عند النعماء والاستغناء ، ولكن الله تعبَّده [1] بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره ، وأرشده إلى ما يثبته ويصبره عند النوازل فلا يجزع ، وإلى ما يدفعه إلى البذل والعطاء إذا استغنى فلا يشح ولا يمنع (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) .

---

(١) تعبده : أى اتخذه عبدا ، والتعبد : التنسك .

٦ - تجىء الآيات بعد ذلك معلنة أن الله قادر على أن يهلك الكافرين المكذبين ويستبدل بهم قومًا أفضل منهم ؛ لأنه - سبحانه - لا يفوته شىء ولا يعجزه أمر أراده .

وفى ختام السورة يأمر الله رسوله ﷺ أن يترك هؤلاء الكفرة المكذبين ولا يلقى بالا إلى مايخوضون فيه من الباطل واللهو حتى يصيروا إلى يوم الحساب الذى يخرجون فيه من قبورهم مسرعين وقد خضعت وذلت أبصارهم واتجهت إلى الأرض فلا يرفعونها خجلا وخزيًا فضلًا عمًّا يغشاهم ويجللهم من الذل والمهانة ، وهذا هو اليوم الذى هُدِّدوا به فى الدنيا ولكنهم كانوا يسخرون به ويكذبون ، وفى هذا اليوم يشاهدون جزاء عملهم وعاقبة تكذيبهم : (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾)

المفــــردات :

(سَأَلَ سَآئِلٌ) : طلب ودعا داعٍ .

(وَاقِعٍ) : نازل وحاصل .

(دَافِعٌ) : مانع يردّه .

(الْمَعَارِجِ) : جمع معرج ، وهو المصعد ، أى : صاحب المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكة من سماء إلى سماء ، وقيل غير ذلك .

(وَالرُّوحُ) : هو جبريل - عليه السلام - .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ واقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) :

أى :دعا داعٍ وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب، من قولهم :دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، والسائل هو النضر بن الحارث ، فإنه لمَّا خوَّفهم رسول الله ﷺ نزول العذاب قال - استهزاءً وإنكارًا - : « اللَّهُمَّ إن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) فكانت عاقبته العاجلة فى الدنيا - جزاء استخفافه واستهزائه - أن أُهلك يوم بدر فضلًا عما ينتظره يوم القيامة من نكال هو أشد وأنكى .

وقال بعضهم : هذا السائل هو رسول الله ﷺ وكان قد استعجل عذاب الكافرين ، فبيَّن الله له أن هذا العذاب واقع بهم ولا دافع له ، قالوا : والذى يشير إلى هذا التفسير قوله بعد ذلك : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذى أمره الله بالصبر الجميل .

وهذا العذاب نازل بالكافرين فى الآخرة لا محالة ، وواقع بهم سواءٌ طلب أو لم يطلب ولا يدفعه عنهم أحد ؛ لأنه من جهته - تعالى - وهو صاحب الدرجات والمصاعد التى تصعد فيها الملائكة والروح وهو جبريل - عليه السلام - أُفرد بالذكر لتميزه وفضله ، وقال مجاهد : الروح ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبنى آدم لا تراهم الحفظة كما لا نرى نحن حفظتنا ، وقيل : ملك عظيم الخلقة يقوم وحده يوم القيامة صفًّا ويقوم الملائكة كلهم صفًّا . وهؤلاء الملائكة والروح تعرج وتصعد من سماء إلى سماء إلى عرش الرحمن حيث تهبط منه أوامره - سبحانه - وقيل : المراد من المعارج هى الفضائل والنعم لأن لوجوه إنعامه وأياديه - جل شأنه - درجات وهى تصل إلى الناس على مراتب مختلفة فهم فى نعم الله عليهم متفاوتون .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٢

وفى قوله : (مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) مايدخل الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ؛ إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه ، والملائكة - ذلك الخلق العظيم - تصعد إليه فى معارج السموات « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] فما أشد بطشه وما أعظم أخذه « إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[2] .

(فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) من سنى الدنيا : أى ، أن هذا العذاب سيكون فى يوم قدره خمسون ألف سنة وهو يوم الحساب إلى أن يستقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وإلَّا فيوم القيامة لا نهاية له ، ثم بعد ذلك ينتقل الكفار إلى نوع آخر من العذاب .

وهذا الطول وتلك الشدة تكون على الكافرين والعاصين فحسب ، أما المؤمنون فإن الله يخفف عليهم ، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « والذِى نَفْسِى بيده إنه لَيُخفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أهون عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) الصبر الجميل : هو ما لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله .

---

(١) سورة التحريم ، من الآية : ٦ (٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٢

(كَالْمُهْلِ) :كالمعدن المذاب ، أو كعكر الزيت .

(الْعِهْنِ الْمَنفُوشِ) : كالصوف المتناثر ، أو المصبوغ الذى طيرته الريح .

التفسـير

٥ - (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا) :

أى : احبس نفسك يا محمد على تحمل أذى قومك ولا تضجر من استهزائهم وسخريتهم . أو فاصبر ولا تستعجل عذابهم الذى سألته لهم ؛ فإنه كائن ونازل بهم لا محالة ، والصبر الجميل : هو ما لا شكوى فيه لغير الله ، وقال بعضهم : إنه يكون معه صاحب المصيبة فى القوم بحيث لا يدرى من هو .

٦ ، ٧ - (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) :

أى :أن الكفار يرون العذاب الواقع بهم ،أو يرون يوم الحساب بعيدًا عن الإمكان ويعتقدون أن وقوعه محال ، أو أنه لا يقع أصلًا وإن كان ممكنًا فى ذاته ، ونحن بإحاطتنا وعلمنا نراه قريبًا هيِّنًا فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر .

٨ ، ٩ - (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) :

أى يقع هذا العذاب على هؤلاء المجرمين يوم تكون فيه السماء - بعد تشققها وتداعيها - قد تغير لونها من الخضرة إلى الحمرة .

والمهل : هو عكر الزيت فى أسفل إنائه ، أو هو ما يذاب من المعادن .

والمراد يوم تكون السماء واهية وتصير الجبال متناثرة متطايرة فى الجو تشبه الصوف المنفوش ، وعن الحسن : تسير الجبال مع الرياح ثم تنهدّ ثم تصير كالعهن ثم تنسف فتصير هباء .

وقال صاحب الكشاف : المراد بالعهن المنفوش : هو الصوف المصبوغ ألواناً ؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، فإذا بُسَّت وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

هذا هو شأن الله فى السموات والأرض ، أما حال الخلائق فى هذا اليوم فقد بينته الآيات التالية :

(وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) الحميم : هو الصديق أو القريب المشفق ، قال الراغب : فكأنه الذى يحتد حماية لذويه .

(يُبَصَّرُونَهُمْ) : يرونهم ويعرفونهم .

(وَفَصِيلَتِهِ) : عشيرته الذين فصل عنهم .

(الَّتِى تُؤْوِيهِ) : تضمه انتماء إليها فى النسب ، أو يلجأ إليها ويتمسك بها فى النوائب .

التفســير

١٠ - (وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا) :

أى : ولا يسأل صديق أو قريب مشفق صديقاً أو قريباً كان يعطف ويحنو عليه ويحتد حماية له ، لايسأله عن شأنه وحاله ، وعدم السؤال إما لاشتغال كل أحد بنفسه فهو كقوله تعالى : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ »[1] وقوله : « لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[2] أو : ولا يسأل حميم حميماً شفاعة أو إحساناً إليه أو رفقاً به

(١) سورة الحج ، من الآية : ٢ (٢) سورة عبس ، من الآية : ٣٧

أو نصرًا له لعلمه أنه لايجد ذلك عنده ، ونظرا إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن أن عدم السؤال قد يرجع إلى أنه لا يرى بعضهم بعضاً فقيل : (يُبَصَّرُونَهُمْ) أى: يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم أو لأنهم لا يرون جدوى فى ذلك .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ - (يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ) :

أى : هذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربه واستكباره عن عبادة مولاه يحب ويتمنى - فداء لنفسه من العذاب - أن يقدم أبناءه وزوجه وأخاه وعشيرته الخارج منها المتفرع عنها التى تؤويه وتضمه إليها إذا ألمت به ملمة أو نزلت به نازلة ، ويقدم أيضًا جميع من فى الأرض ، والمراد أن ذلك الكافر والمذنب يود لو يفتدى نفسه بهذه الأشياء ثم يؤدى ذلك إلى نجاته .

وجاءت (ثُمَّ) فى قوله تعالى : (ثُمَّ يُنجِيهِ) لاستبعاد الإنجاء ، يعنى يتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ثم ينجيه ذلك ، ولكن هيهات أن تكون له نجاة .

(كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(لَظَى) : علم لجهنم منقول من اللظى بمعنى اللهب الخالص .

(لِلشَّوَى) : لجلدة الرأس ، وقيل : للأطراف وسيأتى .

(تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) : تطلب من أعطى ظهره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى) : جمع المال فجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد حقه[1] .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ) :

(كَلَّا) : ردع وزجر للمجرم عن أن يود ذلك ، وتنبيه له على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب (إِنَّهَا لَظَىٰ) أى : إن النَّار شديدة السعير عظيمة التلظى لا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخذ المجرمين وتعذيبهم ؛ فتنزع وتقتلع أطرافهم أو جلدة رءوسهم تنزعها نزعاً فتبتكها وتقطعها ثم تعاد ؛ قال تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[2] .

١٧ ، ١٨ - (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ) :

أى : تدعو جهنم وتطلب من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان ، تدعوهم بلسان حالها حيث هيأت لكل واحد من الكافرين جانباً وناحية منها يرجع إليها حتى كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم ، أو أن الله - سبحانه - يخلق لها لساناً تدعوهم به ؛ فتقول قولا صريحاً : إلىّ يا كافر ، إلىّ يامنافق ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، روى ذلك عن ابن عباس ، أو أن زبانية النَّار وحراسها تدعوهم ، أو أن معنى (تَدْعُو) تهلك ، وذلك من قول العرب : دعاه الله ، أى : أهلكه ، ومنه : دعاك الله من رجل بأفعى .

(وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ) أى : جمع المال واختزنه وكنزه وأحكم وكاءه وأوثق وعاءه ، ومنع حق الله فيه ؛ فلم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن دينه ، وزها باقتنائه ، وتكبر وتجبّر فكان جموعاً منوعاً .

---

(١) قال الراغب : الوعى حفظ الحديث ونحوه ، يقال : وعيته فى نفسى قال تعالى : (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) والإيعاء : حفظ الأمتعة فى الوعاء ، قال : (وجمع فأوعى) .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٦

* (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـــردات :

(هَلُوعاً) الهلع : شدة الجزع وسرعته عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند حصول الخير ، من قولهم : ناقة هلوع : سريعة الجرى ، وهلع من باب فرح ، يقال : هو هلِع وهلوع .

(عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) أى : مواظبون عليها مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل .

(فِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ) أى : قدر معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وقيل : هو الزكاة .

(لِلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ) أى : لمن يسأل النَّاس الصدقة ولمن يتعفف عن سؤالهم فيُظن أنه غنى فيحرم .

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) : وهو يوم الجزاء ، والمراد من التصديق به : الإتيان بأعمال الطاعات البدنية فوق الاعتقاد القلبي .

(مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) أى : خائفون وجلون مع ما قدموا من عمل صالح .

(فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) : المتجاوزون الحلال إلى الحرام .

(لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) : لايُخِلُّونَ بشىء مما اؤتمنوا عليه ولا مما أعطوا عليه العهد للوفاء به .

التفسير

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ – (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) :

هذا إخبار من الله – تعالى – عن الإنسان ، وعما هو مجبول عليه من أخلاق ذميمة ، إلا من عصمه الله – سبحانه – ويراد بالإنسان الجنس ، أو الكافر ، أى : شأنه وطبيعته أن يكون سريع الجزع إذا مسه شر وضر أو لحق به ضيق وعنت ، شديد الحرص والمنع إذا صادفه رخاء ويسر[١] .

سئل ابن عباس عن الهلوع ، فقال : هو كما قال الله تعالى : (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) ، وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلبًا عنه ، فقال : قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه ، يعنى قوله تعالى :(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ...) الآية ، أى : إذا مسه الفقر أو المرض ونحوهما كان مبالغًا فى الجزع مكثرا منه ، لا صبر له على ما نزل به ، يتجرعه حزينًا كئيبًا تكاد تتقطع نفسه ، وينخلع قلبه . قال الراغب : الجزع أبلغ من الحزن ؛ فإن الحزن عام ، والجزع حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه منه لقوة أثره فيه حتى صرفه عمًّا عداه .

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) أى : كان مبالغًا فى البخل والإمساك ، لا ينفقه فى طاعة ، ولا يعرف فيه حق الله ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد العزيز بن الحكم قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « شَرُّ ما فِي الرجلِ شُحٌّ هالِع ، وجُبْنٌ خالِع » .

---

(١) لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه جعلا كأنهما أمر خلقى وضرورى غير اختيارى .

٢٢ - (إِلَّا الْمُصَلِّينَ) :

لَمَّا وصف سبحانه فيما سبق كل من أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة بما يستحقونه من النعوت القبيحة معللا ذلك بهلعهم وجزعهم . استثنى المصلين المتصفين بالأوصاف الجليلة الآتية التي تنبيء عن كمال تنزههم عن الهلع : من الاستغراق في طاعة الحق ، والإشفاق على الخلق ، والإيمان بالجزاء ، والخوف من العقوبة ، وكسر الشهوة ، وإيثار الآجل على العاجل فقال عز من قائل مُعَدِّدًا تلك الصفات التي اتصف بها المصلون :

٢٣ - (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) :

أي : مواظبون مستمرون على أدائها في وقتها ، لا يغفلون عنها ولا يشتغلون بغيرها ، وقد أخرج ابن حبان عن أبي سلمة قال : حدثتني عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُذُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » . قالت : فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ مادام عليه وإن قل ، وكان إذا صلى صلاة دام عليها ، وقرأ أبو سلمة : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) ، وقيل : دائمون ، أي : لا يلتفتون فيها ، وروى ذلك عن عمران بن حصين وكذا عن عقبة بن عامر .

أخرج ابن المنذر عن أبي الخير أن عقبة قال لهم : من الذين هم على صلاتهم دائمون ؟ قال : قلنا : الذين لا يزالون يصلون . قال : لا ولكن الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال . وإليه ذهب الزجاج .

وقيل : المراد بالدوام السكون والخشوع كقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] ، والمراد بالصلاة - على ما أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التَّيْمى - : الصلاة المكتوبة ، وقيل : النافلة ، وقيل : ما أمروا به مطلقًا منها ، على سبيل الوجوب أو الندب وهو الظاهر .

---

(١) المؤمنون (أول السورة) .

٢٤ ، ٢٥ - (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

أى : والذين يجعلون فى أموالهم نصيبًا معينا يستوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله ، وإشفاقا على العباد ، وهو ما يوظفه الرجل على نفسه يؤديه فى كل جمعة أو كل شهر مثلًا . كما روى عن الإمام أبى عبد الله - رضى الله تعالى عنه - وقيل : هو الزكاة لأنها مقدرة معلومة ، ورد هذا بأن السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت وبُيِّنَ مقدارها فى المدينة ، وقبْل ذلك كانت مفروضة من غير تعيين ، وهذا القدر المعين الذى اختاره المتصدقون ، وجعلوا إخراجه لزاما عليهم يعطى (لِلسَّائِلِ) وهو حق له . قال رسول الله ﷺ فى مسند أحمد : « للسائلِ حقٌّ وإن جاءَ عَلَى فَرَس » (وَالْمَحْرُومِ) يعطى أيضًا ، وهو الذى يتعفف فلا يسأل الناس شيئًا ، وبذلك يخفى أمره فلا يُفطن له ، ويُحسب أنه غنى ، فيحرم ، ولا يتصدق عليه بما هو حق له ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ »(١) ، واستعمال المحروم فى المتعفف على سبيل الكناية .

٢٦ - (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) :

وهو يوم الجزاء والحساب ، والمراد من التصديق به : أن يشغلوا أنفسهم بأداء الأعمال الصالحة طمعًا فى المثوبة الأخروية بحيث يستدل بذلك على تصديقهم الأكيد بيوم الجزاء وحبهم الصادق له ، لأن التصديق القلبى عام لجميع المسلمين ، لا امتياز فيه لأحد منهم على غيره .

٢٧ - (وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

أى : خائفون على أنفسهم أن يمسهم عذاب ربهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصارًا لها واستعظاما لجنابه - عز وجل - كقوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ »(٢) فهم بذلك قد بلغوا الغاية فى بلوغ أعلى مراتب الخشية ، وأسمى آيات الطاعة ؛ فكان جزاؤهم أن يكونوا من الآمنين يوم الفزع الأكبر .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٢٧٣ (٢) المؤمنون ، آية رقم : ٦٠

٢٨ ـ (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) :

اعتراض بين الكلام المتصل فى وصف المصلين مؤذن بأنه لاينبغى لأحد أن يأمن مكر الله وعذابه ، وإن كان له فى الطاعة قدم ثابتة ، وفى الإخلاص جهد لايُبَارَى كهؤلاء ، ولذا كان السلف الصالح ـوهم هم ـ خائفين وجلين حتى قال بعضهم : ياليتنى كنت شجرة تعضد ، وقال آخر : يا لَيْتَ أُمى لم تلدنى .

٢٩ ، ٣٠ ـ (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) :

أى : أنهم ممسكون لفروجهم غير مرسلين لها على أحد إلَّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفيه إيذان بأن شهوتهم قوية دافعة تدعوهم إلى بذل الجهد فى صدها لمنعها من استيفاء مقتضياتها ، وبذلك يتحقق لهم كمال العفة .

والمراد بقوله تعالى : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ): الإماءُ المملوكات .

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ): تعليل لما يفيده الاستثناءُ القاضى بعدم حفظ فروجهم عن الزوجات والمملوكات ، أى : فإنهم ليسوا أهلًا للوم والتأنيب على عدم حفظ فروجهم بإرسالها على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وفق نص الشارع الحكيم .

٣١ ـ (فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى فمن تجاوز الذى ذكر من القدر المعلوم وهو نكاح أربع من الحرائر ، وماشاء من الإماء ، فقد تعدى حدود ما أحل الله له إلى ما حرمه عليه . قال الطبرى : من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه ففاعلو ذلك هم العادون الذين تعدوا ما أحل الله لهم إلى ما حرمه عليهم ، وهم الملومون . أما الذين لم يقربوا سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، وما ملكت أيمانهم من السرارى ، فهم غير ملومين كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة .

٣٢ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

أى : أنهم إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، بل كانوا مثالًا كاملًا فى حفظ الأمانة ، ورعاية حقوقها ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فيه ، وبذلك تنزهوا عما اتصف به المنافقون فى الحديث الصحيح : « آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حَدَّث كذبَ ، وإذا وعَد أخْلفَ ، وإذا اؤْتمِنَ خان » وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ، ولم يجمع العهد لأنه ليس كالأمانة كثرة ، ويدل على كثرتها ما روى عن الكلبى : كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد ، والأقوال ، والأحوال ، والأفعال ، ومن الحقوق فى الأموال وحقوق الأهل والعيال ، وسائر الأقارب ، والمملوكين ، والجار ، وسائر المسلمين . وقال السدى : إن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤتمن ، وضمن أداءها بقبول الإيمان ، ونص غير واحد أن الخيانة فى الأمانة ، وكذا الغدر بالعهد من الكبائر ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس قال : ما خَطَبَنا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - إلا قال : « لا إيمانَ لمن لا أمانَةَ له ، ولا دينَ لمن لا عَهْدَ له » .

٣٣ - (وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ) :

أى : أنهم محافظون عليها ، لايزيدون فيها ، ولاينقصون عنها ، غير منكرين لها أو لشىء منها ، وإنما يقيمونها على وجهها ، بدون ميل إلى قريب أو شريف ، أو ترجيح لقوى على ضعيف : إظهارًا للصلابة فى الدين ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين ، وتعظيما لله - عز وجل - فيما يتعلق بحقوقه - سبحانه - من أنه واحد لاشريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وخص بعضهم الشهادة بما يتعلق بحقوق العباد ، وذكر أنها مندرجة فى الأمانات إلَّا أنها خصت بالذكر لإبانة فضلها ، وعلو قدرها ، وجمعت لاختلاف الأنواع .

٣٤ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

أى : يراعون شرائطها ، ويكملون فرائضها ، وسننها ، ومستحباتها ، وذلك باستعارة الحفظ من الضياع للإتمام والتكميل ، والحفظ غير الدوام فى قوله - سبحانه - فيما سبق : (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ) فلا تكرار .

وفى افتتاح الأوصاف بما يتعلق بالصلاة أولًا وآخرا دلالة على الاعتناء بها ، والتنويه بشأنها وفضلها على سائر الطاعات لأنها معراج المؤمنين ، ومناجاة رب العالمين ، ولذا جعلت قرة عين سيد المرسلين .

٣٥ - (أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) :

إشارة إلى أن الموصوفين بالأوصاف الكريمة التى تنبىء عن علو أقدارهم عند ربهم ، واستحقاقهم لإكرامه وفضله مكرمون فى جنات النعيم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله تعالى : (أُولَٰٓئِكَ) مع قرب العهد بالمشار إليهم هو للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ، وقوله تعالى : (فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ) أنهم مستقرون فى جنات لايقادر قدرها ، ولا يدرك شأنها . مكرمون فيها بكل أنواع التكريم .

(فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾)

المفـــردات :

(قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ) أى : مسرعين نحوك مادى أعناقهم إليك . مقبلين بأبصارهم عليك وفعله (أهطع) بمعنى مد عنقه ، وصوب رأسه ، ومهطع كمحسن : من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع بصره ، والمادة تدل على السرعة .

(عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) أى : جماعات فى تفرقة كما قال أبو عبيدة : كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تنتسب له الأخرى ، وهى جمع عزة بمعنى فرقة ، والفرقة من ثلاثة أشخاص أو أربعة .

(كَلَّا) كلمة لردع المشركين عن الطمع فى الجنة .

(بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) أى : مشارق الشمس والكواكب ومغاربها .

(وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) أى : بمغلوبين إن شئنا تبديلهم بخير منهم .

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا) أى : اتركهم للدخول فى باطلهم الذى تعودوا الدخول فيه واقترافه والحديث عنه ، ولا تعبأ بلعبهم فى دنياهم فإنه لايجدى .

(مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً) أى : مسرعين ، والأجداث : جمع جدث وهو القبر ، مثل سبب وأسباب ، وهى لغة تهامة ، ولغة نجد جدف بالفاء .

(إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ) النصب : ما نصب فعبد من دون الله ، وهو عند الكثيرين مفرد ، وقيل : هو جمع نصاب ككتاب ، وقال الأخفش : جمع نصْب كَرَهْن ورُهن ، والأنصاب جمع جمع ، و (يُوفِضُونَ) : يسرعون ، من الإيفاض ، وقيل : هو مطلق الانطلاق .

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) أى : تغشاهم ذلة شديدة تجعلهم فى منتهى الضعف والهوان .

التفسير

٣٦ ، ٣٧ ـ (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ) :

كان النبى ﷺ يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن . فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً يستمعون ويستهزئون بكلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ ، فلندخلنها قبلهم ، فنزلت الآيات .

والمعنى : أى دافع دفع هؤلاء الكافرين إلى أن يسيروا نحوك مسرعين مادى أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ، يحلقون عن يمينك وشمالك حلقاً متعددة ، ويكونون فرقاً شتى كل فرقة تعتزى وتنتسب إلى غير من تعتزى له الأخرى . ينكر الله تعالى على المشركين الذين كانوا فى عهد النبى ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى ، وأيده به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله معرضون عنه مبالغون فى تلمس ما يتخذونه هزءا به ، وسخرية منه حينما يرونه يصلى عند الكعبة ويقرأ القرآن قائلين : إن دخل هؤلاء الجنة ـ كما يقول محمد ـ فلندخلنها قبلهم ، وقد رد عليهم سبحانه فأبطل زعمهم حيث يقول عز وجل :

٣٨ ، ٣٩ ـ (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ) :

إنكار لقولهم وردع لهم عن طمعهم الكاذب فى دخولها بلا إيمان ، لأنا خلقناهم من أجل ما يعلمون ، وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة ، أما من لم يستكملها بذلك ، فهو بمعزل عن أن يتبوأ متبوأ الكاملين ، فمن أين لهم أن يطمعوا فى دخول الجنة ، وهم مكبون على الكفر والفسوق ، وإنكار البعث وهو معلوم لهم باعتبار سماعهم عنه من النبى ﷺ .

وقيل المعنى : إنا خلقناهم من نطفة قذرة لا تناسب عالم القدس كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا ألا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان ، فلِم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له ؟ وفيه من الإنكار عليهم والردع لهم ما فيه .

وقيل : الأقرب أنه كلام مستأنف[1] قد سيق تمهيدا لما بعده من بيان قدرته على أن يهلكهم لكفرهم بالبعث والجزاء ، واستهزائهم بالرسول والقرآن ، وادعائهم دخول الجنة بطريق السخرية ، وأن ينشئ بدلهم قوماً آخرين خيراً منهم ، فإن قدرته سبحانه على ما يعلمون من أنه أنشأهم النشأة الأولى حجة واضحة على قدرته على ذلك . كما تفصح عنه فاء الفصيحة فى قوله سبحانه :

---

(١) وهو قوله :(إِنَّا خَلَقْنَاهُم) .

٤٠ ، ٤١ـ (فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) :

المعنى : إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنه سبحانه أنشأهم إنشاء من النطفة المذرة كما يعلمون ولم يكونوا شيئاً مذكورًا : فلا أقسم[1] برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها على قدرتنا البالغة على أن نهلكهم حسبما تقتضيه جناياتهم ، ونعيدهم يوم القيامة بأبدان أطوع لله ، وأمثل منهم ؛ وذلك لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق والتأكيد بالقسم لأن الإعادة أهون من البدء كقوله تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[2] أى : بالبعث .

أو أنَّ « لَا » رد لكلام سبق للمشركين واجهوا به الرسول وأصحابه سخرية منهم ، واستهزاء بهم ، وطمعاً استحوذ عليهم فى دخول الجنة قبلهم ، ثم استؤنف فقيل : (أقسم برب المشارق...) إلخ : أى ، أقسم بأن قدرتنا العظيمة على البعث حقيقة لا شك فيها ، وقد شاهدوا من بالغ قدرتنا ماهو أكبر منه وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيها من المخلوقات كما قال تعالى : « لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ »[3] فحقيق بهم أن يدعوا الجحد والعناد ، ويؤمنوا إيماناً لا مرية فيه ولا ارتياب بأننا قادرون على أن نبدلهم خيرًا منهم ، (وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) بمغلوبين إن أردنا ذلك ، لكن إرادتنا المبنية على الحكم البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم .

٤٢ ـ (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) :

أى : فدعهم يا محمد غير مكترث بهم وبما يصنعون من تكذيبهم وباطلهم الذى تعودوا اقترافه ولا تعبأ بما يأتون به فى دنياهم من أعمال لا نفع فيها ، ولا خير منها ، وإنما هى لهو ولعب ، واشتغل بما أمرت به ، والأمر فى الآية لتهديد المشركين ووعيدهم (حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) وهو يوم البعث عند النفخة الثانية ، وفى ذاك فسيلقون عاقبة ما عملوا ، ويذوقون وباله ، ويتجرعون أهواله التى لا تنفع معها توبة ولا يجدى عندها ندم

---

(١) على أن (لا) نافية للإقسام . (٢) الأعراف ، من الآية : ٢٩ . (٣) غافر ، من الآية : ٥٧ .

٤٣ ، ٤٤ - (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) :

أى :إن يومهم الذى وقع لهم فيه الوعيد بما يلاقونه من أهوال وشدائد لخوضهم ولعبهم، هو يوم قيامهم من القبور إذا دعاهم الرب- جل وعلا- إلى موقف الحساب ،فإنهم ينهضون مسرعين يسبق بعضهم بعضاً كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب الَّذِى نصبوه للعبادة من دون الله ، وقد كانوا إذا ما أبصروه (يُوفِضُونَ) أى : يسرعون إليه أيهم يستلمه أول وهذا مروىٌّ عن مجاهد ، ويحيى بن كثير وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وابن أبى زيد وغيرهم ، وكان الإسراع إلى المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت من عادة المشركين ، وفى تشبيههم عند خروجهم من قبورهم للحساب بما ذكر تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ) .

أى : خاضعة منكسرة لمهانتهم ،ووصفت الأبصار بالخشوع مع أنه وصف الكل ؛ لظهور آثاره فيها (تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)أى : تغشاهم ، وتعم ذواتهم ذلة شديدة وهوان فى مقابل ما استكبروا عنه فى الدنيا من الطاعة وتظاهروا به من المعصية ، وتمادوا فيه من العناد بإنكار البعث والمعاد .

(ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ) أى : ذلك الذى ذكر ما سيقع فيه من الأحوال الهائلة والشدائد المذهلة هو اليوم الذى كان يقع لهم الوعيد به فى الدنيا[١] فكانوا يقابلون هذا الوعيد بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، واليوم يرون عذابهم واقعاً ، وجزاءهُمْ محققاً ، وكل ماهددوا به ماثلا ، وقد عز عليهم النصير ، وامتنع المعين .

---

(١) بقوله تعالى :(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ) .

سورة نوح عليه السلام

مكية ، وهى ثمان وعشرون آية

وسميت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها - على ماقال جلال الدين السيوطى - وأشار إليه غيره بأنه : سبحانه كما قال فى المعارج : (إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ) عقَّبه تعالى بقصة نوح - عليه السلام - المشتملة على إغراقهم عن آخرهم ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى القاضية باستبدالهم خيراً منهم .

اهم مقاصد السورة :

بدأت بأمر نوح - عليه السلام - أن يَدعُوَ قومه إلى عبادة الله وأن ينذرهم ويخوفهم من عذابه ، وقد وعدهم المغفرة على استجابتهم ، والتأخير إلى أجلٍ مُسَمًّى ، الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى : (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

ثم ذكرت شكايته من إعراضهم عنه ، وعنادهم له بعد أن أمعن فى شغل جميع أوقاته بدعائهم ونصحهم واستنفد معهم كل وسائل الدعوة جهرية وسرية فلم تزدهم إلا فِرَارًا وإصرارًا (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا) الآيات . ثم وجهت الأنظار إلى دلائل القدرة فى خلق السموات والكواكب ، وفى خلق الأرض وبسطها وما يتصل بها (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً ..) الآيات .

ثم سجلت إصرارهم على عبادة الأصنام حتى استحقوا عذاب الله وكان ذلك بإغراقهم (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان أن نوحًا - عليه السلام - لما يئس من قبولهم الدعوة دعا عليهم بالهلاك والانقراض . (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...) الآيات . ودعا لنفسه بالمغفرة ولأبويه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(إِلَىٰ قَوْمِهِ) : هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم .

(عَذَابٌ أَلِيمٌ) : شديد موجع عاجل ، وهو ما حل بهم من الطوفان أو آجل وهو عذاب النار .

(إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر موضح من أجل نفعكم من غير أن أسألكم على ذلك أجرا .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : بعض ذنوبكم التى سبقت فى الجاهلية .

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) أى : يمد فى أعماركم إلى الأمد الأقصى الذى قدره الله لكم .

(إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ) أى : ما قدره – عز وجل – لكم وأنتم على ما أنتم عليه إذا جاء لا يؤخر .

التفســير

١ – (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

نوح – عليه السلام – اسم أعجمى معرب : معناه بالسريانية ، الساكن ، والمشهور أنه – عليه السلام – ابن لَمْك – بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف – بن مَتُّوشَلَخ – بفتح الميم

وتشديد التاء مضمومة وفتح الشين واللام والخاء ـ بن أخنوخ ، وفيه عن ابن عباس : كان بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ عشرة قرون . بعثه الله لأربعين سنة ، ومكث يدعو قومه ألف سنة إلّا خمسين عامًا ، ومع ذلك لم يؤمنْ به إلّا قليل ، وهو من أُولى العزم ، وكان فى زمن شاع فيه الكفر وذاع ، وقد اشتهر قومه بعبادة الأوثان ، وأكثروا من البغى والظلم والعصيان ، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وانتشروا ، وفى التهذيب للنووى ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أطول الأنبياء عمرًا ، وقيل : إنه أطول الناس جميعًا عمرًا مطلقًا ، وهو ـ على ما قيل ـ أول من شرعت له الشرائع ، وسنت له السنن ، وأول رسول أنذر على الشرك ، وأهلكت أمته ، ويقول ابن كثير : الحق أن آدم ـ عليه السلام ـ كان رسولًا أرسل إلى زوجته ثم إلى بنيه ، وكان فى شريعته الإنذار على الشرك ، ويقال لنوح : شيخ المرسلين ، لأنه أطولهم عمرًا ، وآدم الثانى .

أرسله الله إلى قومه وهم ـ كما قيل ـ : سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم ، لا أهل الأرض كافة ؛ لاختصاص نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعموم البعثة من بين الرسل جميعاً ، والذى كان لنوح ـ عليه السلام ـ بعد قصة الغرق حدث بمحض الاتفاق لعدم وجود أحد على الأرض سوى قومه الناجين معه فى السفينة . وفى إسناد الفعل فى قوله سبحانه :(إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ) إلى ضمير العظمة مع تأكيد الجملة ، مالا يخفى من الاهتمام والاعتناء بإرساله عليه السلام (أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ)أى : بأن أنذرهم وخوفهم عاقبة كفرهم . من الإنذار ، وهو إخبار فيه تخويف وترويع ، وتكون (أن) مصدرية. فإن كانت مفسرة كان المعنى :إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أى : قلنا له أمرًا ، أى :أنذر قومك لما فى الإرسال من معنى القول دون حروفه ، فلا محل للجملة من الإعراب . (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) موجع شديد عاجل وهو ماحل بهم بالطوفان كما قال الكلبى أو آجل وهو عذاب النار كما قال ابن عباس أو المراد خوف قومك ، وحذرهم مما ينزل بهم إن لم يؤمنوا حتى لا يكون لهم عذر أصلا يعتذرون به يوم يؤخذون أخذ عزيز مقتدر .

٢ ، ٣ ، ٤ - (قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قول نوح - عليه السلام - استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية إرساله - عليه السلام - بالوجه المذكور وهو الإنذار ، فكأنه قيل : ماذا فعل - عليه الصلاة والسلام -؟ فقيل : قال لهم (يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) بين النذارة ظاهر الأمر واضحه ، لم أدخر وسعاً فى سبيل نصحكم ، وهدايتكم إلى طريق الرشاد ، من أجل نفعكم من غير أن أسالكم على ذلك أجرًا وقوله : (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) متعلق بنذير فى قوله سبحانه : (إِنِّى لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ) على مصدرية (أن) أو تفسيريتها ، فعلى المصدرية يكون المعنى : إنِّى نذير لكم بعبادة الله وتقواه وإطاعتى إلى ما أدعوكم إليه من الصلاح والفلاح ، وعلى تفسيريتها يكون المعنى : إن نذارتى هى : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، أى : قولى ، أى : اعبدوا الله وحده واجتنبوا مآثمه ، وأطيعونى فيما دعوتكم إليه ، وأمرتكم به وما نهيتكم عنه من عبادة الأوثان والأصنام .

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) أى : يمح الله عنكم بعض ذنوبكم وهى التى حصلت قبل الإيمان لأن الإيمان يجُبُّ ما قبله كما يرى بعض العلماء ، كما فى قوله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[1] وقيل : إن المراد بالبعض المغفور قبل الإيمان ، هو ما يتعلق بحقوق الله فقط دون ما يتعلق بحقوق العباد كالقصاص ونحوه ، أو هى الذنوب العظام التى وعدكم الله عليها الانتقام - كما قال ابن كثير - وقيل المعنى : يصفح الله لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير على أنَّ (مِنْ) بمعنى (عَنْ) وقد تابت عنها ، أو (من) بيانية بمعنى : يغفر لكم أفعالكم التى هى الذنوب ، كقوله تعالى : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ »[2] فهى لبيان مبهم وهو أفعالهم .

وللتوفيق بين هذه الآية (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) وقوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) ونحوها لايبعد أن الله يغفر الذنوب جميعها لقوم ، وبعضها لآخرين ، وقيل : جىء بمن مع الكفرة مطلقاً فى خطابهم دون المؤمنين فى جميع القرآن تفرقة بين الخطابين .

---

(١) الأنفال ، من الآية : ٣٨ (٢) الحج ، من الآية : ٣٠

(وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) المراد به الأمد الأقصى الذى قدره الله بشرط الإيمان والطاعة [1] ، وراء ما قدره الله لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان ، وكونهم لايؤخرون إلى الأمد المسمى إلا بشرط الإيمان والطاعة صريح فى أن لهم أجلا آخر لايجاوزونه وهو ما قدر لهم إن لم يؤمنوا ، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة ، والبر ، وصلة الرحم تزيد العمر . ذكره ابن كثير ، لما ورد به الحديث : « صِلَةَ الرَّحِمِ تزيدُ فى العُمر » .

(إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) تعليل لما فهم من تعليقه سبحانه التأخير إلى الأجل المسمى على الإيمان ، أى : لأن أجل الله الذى قدره سبحانه لكم على تقدير بقائكم على الكفر إذا جاء وأنتم على حالكم لا يؤخر عن وقته المقدر له . فبادروا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتى لا يتحقق شرطه وهو بقاؤكم على الكفر ، وقيل : المراد بتأخيرهم إلى الأجل المسمى تأخير وقت عذابهم ، وذلك بإمهالهم والتجاوز عنهم فى الدنيا ، فلا يوقع العذاب بهم مدة بقائهم إلى أن يأتيهم العذاب المذكور فى قوله تعالى : (مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإنه أجل مؤقت حتماً ، وأما الأجل بمعنى العمر ، فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » [2] .

ولو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما أمركم به نبيكم من الإيمان والطاعة ليتحقق لكم البقاء إلى أجل مسمى ، ولكنكم لستم من أهله فى شئ ، فلذا لم تسارعوا لما أمرتم به وآثرتم الكفر والضلال ، أو لو كنتم من أهله لعلمتم بأن الأجل لايؤخر لوجاء وقته المقدر له ، ولكنكم جهلتم ذلك فظللتم فى غيكم سائرين .

---

(١) حثالهم على الإيمان بنوح — عليه السلام — وبترك الإمعان فى الكفر والعناد ، قيل : إن الله قضى لهم : إن آمنوا عمرهم ، وإن كفروا أهلكهم .

(٢) الأعراف ، الآية : ٣٤ .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) : تباعدا من الإيمان وإعراضاً عنه .

(جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِيٓ آذَانِهِمْ) : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ، ووضع أناملهم فيها كناية عن ذلك .

(وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) : بالغوا فى التغطى بها ، واستغشى على وزن استفعل . والصيغة تدل على المبالغة لما فيها من الطلب .

(وَأَصَرُّوا) أى : أكبوا وأقاموا على الكفر والمعاصى ، من الإصرار على الذنب : وهو الامتناع من الإقلاع عنه وأصله من الصَّرة . وهى الشدة .

التفسـيـر

٥ ، ٦ـ (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا) :

يخبر الله ـ عز وجل ـ عن عبده ورسوله نوح ـ عليه السلام ـ أنه توجه إليه ـ سبحانه ـ مناجياً وحاكياً له بقصد الشكوى ـ وهو أعلم بحاله ـ مالقى من قومه ، وصبره عليهم ، وماجرى بينه وبينهم من القيل والقال فى تلك المدد الطوال ، بعد ما بذل فى الدعوة غاية المجهود ، وجاوز فى الإنذار كل حد معهود ، وسلك معهم مختلف الحيل بعزم وتصميم فلم يُجْدِ

معهم كل ذلك نفعاً ، ولم يؤت ثمرا ، حكى كل هذا لربه مناجيًا وشاكياً فقال : (رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا) أى : دعوتهم إلى الإيمان والطاعة دعاء متواصلا . شغل ليلى ونهارى من غير فتور ولا توان امتثالا لأمرك (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِى إِلَّا فِرَارًا) أى : هَرَباً منى وبعدا عنى ، وعما نصحتهم به ، ودعوتهم إليه ، وإسناد الزيادة إلى الدعاء لسببيته لها على سبيل المجاز ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً »[1] .

٧ ، ٨ ، ٩ـ(وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) :

تتابع الآيات ذكر تمادى هؤلاء الكفرة فى الضلال واندفاعهم فى الإعراض والتكذيب مما جعله ـ عليه السلام ـ يستمر فى حكاية شكواه لربه فيقول : (وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ..) إلخ أى : كلما دعوت قومى إلى الإيمان وللاستجابة إلى ما أدعوهم إليه من ترك الشرك والعصيان لتغفر لهم ذنوبهم ، وتتجاوز عن سيئاتهم ، وتدخلهم يوم الجزاء مدخلا كريماً (جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ) أى : سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة إلى الحق . فجعلهم الأصابع فى الآذان كناية عن انصرافهم عن الحق ، وقد أخبر الله عن كفار قريش أنهم كانوا يصنعون مثل هذا عند استماعهم للقرآن الكريم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[2] .

ولا مانع من حمل قوله سبحانه : (جَعَلُوٓا أَصَابِعَهُمْ فِىٓ آذَانِهِمْ) على إرادة الحقيقة بسدها بالأصابع . (وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ) بالغوا فى التغطى بها . كأنهم طلبوا منها أن تغشاهم كراهة النظر إليه من فرط نفورهم من الدعوة ، ومقتهم لها ، وقال ابن جريج عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير والسّدى : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

---

(١) الأنفال ، من الآية رقم : ٢ .

(٢) فصلت ، آية رقم : ٢٦ .

(وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) أى : أكبوا على ماهم عليه من الكفر بإصرار والتزام ، وقد صار الإصرار حقيقة عرفية فى الملازمة ، والانهماك فى الأمر . قال الراغب : الإصرار : التعمد فى الذنب ، والتشديد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه ، وقد استكبروا عن اتباع نبيهم – عليه السلام – استكبارًا عظيماً ، وقيل : استكبروا نوعاً من الاستكبار غير معهود قبلهم ، والاستكبار : طلب الاتصاف بالكبر من غير استحقاق له .

وحاصل المعنى : أن نوحاً – عليه السلام – كان كلما دعاهم إلى دين الحق ليظفروا بمغفرة ربهم عطَّلوا مسامعهم عن سماع الدعوة فجعلوا فيها أصابعهم على الكناية أو على الحقيقة . وبالغوا فى التغطى بثيابهم كراهة النظر إليه ، ولئلا يعرفهم فيدعوهم إلى ترك الكفر الذى أقاموا عليه، وتمسكوا به ،واستكبروا عن اتباعه – عليه السلام – والانقياد لدعوته استكباراً عظيماً ليسوا أهلا له .

(ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) أى : إنى دعوتهم تارة بعد أخرى ومرة عقب غيرها . يعنى أنها دعوات متتابعة ، على وجوه متخالفة ، وأساليب متغايرة ، بعد أن دعاهم فى أوقات متنوعة ،وفى ذلك تعميم لوجوه الدعوة بعد تعميم أوقاتها ، و (ثُمَّ) لتفاوت وجوه الدعوة وأساليبها لا للتراخى الزمنى ، وقوله سبحانه :(ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُم جِهَارًا) يشعر بأن الجهر وقع مسبوقاً بالسر وهو الأليق بمن همُّه الاستجابة ؛لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو عند دعوته به . أى :أنه – عليه السلام – افتتح الدعوة بالمناصحة فى السر فلما لم يقبلوا ثنَّى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلَّث بالجمع بين الإسرار والإعلان .

(فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) : غزيرًا متتابعاً ، وهى من صيغ المبالغة التى يشترك فيها المذكر والمؤنث .

(وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ) : أى حدائق وبساتين .

التفســـير

١٠ ـ (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) :

روى أن رجالا أتوا إلى الحسن ، فشكوا إليه ما نزل بهم ، فقال لكل منهم : استغفر الله ، فقيل له أتاك رجال يشكون ألواناً ، ويسألون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من نفسى شيئاً إنما اعتبرت قول الله ـ عز وجل ـ حكاية عن نبيه نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) الآية . أى : استغفروه بالتوبة عن الشرك والمعاصى ، لتنعموا بخيرى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : (رَبَّكُمْ) تحريكاً لداعى الاستغفار (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) بمعنى أنه غفار للتائبين دائم المغفرة وكثيرها ، كأنهم تعللوا وقالوا : إن كنا على الحق فكيف نتركه ؟ وإن كنا على الباطل فكيف يقبلنا ويتلطف بنا بعد ما عكفنا على الباطل دهرًا طويلا ؟ كأنه استبعاد منهم ، فأمرهم بما يمحق ما سلف منهم من المعاصى ، ويجلب إليهم المنافع ، وذلك هو الاستغفار الذى وعدهم عليه تحقيق أمور هى أحب إلى نفوسهم ، وأوقع فى قلوبهم من الأمور الأخروية لديهم ، وهى الرغبات الدنيوية التى جبلوا على حبها ، والتعلق بها لما فيها من الفوائد العاجلة التى يشير إليها قوله تعالى :

١١ ـ (يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) :

قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التى يحبونها ، وقيل : لما كذبوا بعد تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر ، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة وقيل : سبعين سنة ، فوعدهم إن آمنوا أن يرزقهم الله تعالى الخصب ، ويرفع عنهم ما كانوا فيه ، ولا شك أن نزول المطر ـ ولا سيما إذا كان غزيرًا ـ من أعظم النعم التى تتعلق بها نفوسهم

وتهفو إليها قلوبهم فى مواطنهم التى يشيع فيها الجفاف ، وينتشر بها القحط ، وقد استدعاهم بذلك إلى الآخرة ، ويراد من السماء : السحاب أو المطر .

١٢ - (وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) :

أى : ويزدكم الله مالا وبنين ، وكانوا يحبونهما ، ويعملون على الاستكثار منهما ، فحركوا بما يُفيئه الله عليهم منهما إلى الإيمان ، كما حركوا كذلك بأن يجعل سبحانه لهم فى ديارهم بساتين وحدائق فيها أنواع الثمار التى تحقق لهم كل مناعم الحياة ويجعل لهم أنهارًا جارية أو مطلقة لتحيا بها مزارعهم ، وبساتينهم ، وليجدوا فيها كل منافعهم ، وأعيد الفعل (يَجْعَلْ) مع الأنهار للاعتناء بها ، لما أن لها مدخلا عادياً أو أكثريا فى وجود الجنات ورعاية فى بقائها الذى هو أهم من أصل وجودها ، وترك إعادة (وَيُمْدِدْكُم) مع البنين لأنه لا تكمل المنفعة والسعادة إلا باجتماع كل من الأموال والبنين معاً ؛ لذلك ترك إعادة العامل (يمدِدْكم) بينهما لأنهما كالشىء الواحد . قال البقاعى : المراد بالجنات والأنهار فى الآخرة ، والجمهور على أن ذلك فى الدنيا تحريكاً لهم على الإيمان . وبعد أن دعاهم بالترغيب، عدل بهم إلى الدعوة بالترهيب فقال :

(مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) أى : لا تعتقدون لله عظمة ، على أن الرجاء بمعنى الاعتقاد . والوقار بمعنى العظمة : أو ، لاتخافون لله عظمة . فيكون الرجاءُ بمعنى الخوف ، قال الأخفش : الرجاءُ هنا : الخوف ؛ لأن مع الرجاء طرفاً من الخوف : ونقل أيضاً عن ابن عباس كونه بمعنى الخوف.

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) : جمع طور ، أى : تارات وكرات ، حيث خلقكم أولا تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر .

التفسير

١٣ ، ١٤ - (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) :

إنكار لأن يكون لهم سبب ما فى عدم رجائهم لله وقارًا ، أى : عظمة ، بمعنى أى سبب حصل لكم حتى جعلكم غير خائفين عظمة الله .

أو غير معتقدين لله عظمة موجبة لتعظيمه - سبحانه - بالإيمان به والطاعة له ، وقيل : المعنى مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب ، ويراد على هذا بالوقار التوقير ، وهو التعظيم ، وكونه من الله بمعنى رضاه عنهم وتفضله عليهم بأسمى الجزاء (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) أى : والحال أنكم تعلمون أنه - عز وجل - خلقكم مُدْرجاً لكم فى كرات وأدوار متعاقبة ، وحالات مختلفة . فبدأكم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وبمثل هذا قال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم ، والإخلال بتوقير مَنْ هذا شأنه فى القدرة القادرة والإحسان العام مع العلم به ، لا يكاد يصدر من عاقل ، والجملة (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا) مقررة لإنكار أى سبب مبرر لما وقع منهم من عدم رجائهم لله وقارًا ، بعد أن تفضل عليهم بالتكوين والإيجاد ، وبكل مقومات حياتهم من نعم وآلاء .

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾)

المفـــردات :

(سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً) : متطابقة بعضها فوق بعض كالقباب من غير مماسَّة .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) أى : مصباحاً يستضىء به أهل الدنيا كما يستضىءُ النَّاس بالسراج فى بيوتهم .

(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً) : أى كالبساط فى رأى العين ؛ لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مسطحاً .

(سُبُلاً فِجَاجًا) أى : طرقاً واسعات . والفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسعة ، وقيل : هو اسم للمسلك بين جبلين .

التفسير

١٥ ، ١٦ ـ (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) :

بيان لآيات كونية للاستدلال بها على ما يوجب توقير الله وتعظيمه ـ جل شأنه ـ والمعنى : ألم تشاهدوا أيها القوم عظمة الله ، وكمال قدرته فيما أبدع من آيات كونية ، وتنظروا إليها نظر تفكر واعتبار ، كيف خلق الله العظيم سبع سموات متطابقة من غير مماسَّة ، بعضها فوق بعض ، وهى فى غاية الإحكام والإتقان وإبداع الصنع ، كما قال ـ سبحانه ـ فى سورة الملك « مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ » الآية . (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) ليزيل ظلمة اللَّيل تمكيناً للنَّاس من أداءِ مهامهم وفق ما تدعو إليه شئون حياتهم . « قال الفخر : القمر فى السماء الدنيا وليس فى السموات بأسرها » وإنما قال : فيهن لأنها محاطة بالسموات كلها ، فما فيها يكون كأنه فى جميعها[1] ، وقدَّر ـ سبحانه القمر ـ منازل وبروجًا وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يتناقص حتى يستتر ؛ ليدل على مضى الشهور والأعوام كما قال تعالى : « وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ »[2] .

---

(١) أو ، لأن كل واحدة منها شفافة ، فترى كلها كأنها سماء واحدة . فساغ أن يقال : فيهن .

(٢) يونس ، من الآية رقم : ٥ .

(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) أى : كأنها مصباح مضىء لوجه الأرض وسائر الآفاق كما يستضيئون بالسرج فى بيوتهم ليبصروا فى ضوئها ما يحتاجون إليه . ولما كان نور الشمس أشد وأتم وأكمل فى الانتفاع به من نور القمر عبَّر عنها بالسراج لأنه يضىءُ بنفسه ، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره ، ويؤيد هذا - كما قيل - ما تقرر فى علم الفلك من أن نور الشمس ذاتى فيها ، ونور القمر عرض مستمد من نورها ، وتلك ولا شك آيات ناطقة بالقدرة البالغة ، والعظمة الكاملة التى تدعو إلى توقير الله وتعظيمه .

١٧ ، ١٨- (وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) :

بعد أن ذكر - عز وجل - الأدلة الكونية أتبعها بذكر ما فى الأنفس من براهين وآيات ، وفى ذكر هذه الأمور دلالة بينة على عظمة الله ، وكمال قدرته ، والمعنى : أن الله - سبحانه وتعالى - أنشأكم من الأرض ، وأخرجكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوّن من حيث إنه محسوس مشاهد ، وقد أكد (أَنبَتَ) بقوله : (نَبَاتًا) أى : أنشأكم منها إنشاء لاشك فيه ، وأخرجكم من ترابها كما يخرج النبات من خلاله ، وهم وإن لم ينكروا الإنشاء والحدوث ، فقد جعلوا بإنكار البعث كمن أنكر الإنشاء والحدوث ، وفى ذلك إشارة إلى خلق آدم - عليه السلام - حيث خلق من ترابها ثم جاءت من آدم ذريته

قال المفسرون : لمَّا كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر المواد الغذائية النباتية والحيوانية المستمدة من الأرض ، كانوا مشابهين للنبات الذى ينمو بامتصاص غذائه من الأرض فلذا سمى سبحانه خلقهم وإنشاءهم إنباتًا (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) أى : فى الأرض بالمواراة فيها إذا متم (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) محققًا لا ريب فيه عند البعث وكان العطف بثم فى قوله سبحانه : (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمن المتراخى الواقع فيه التكليف الذى استحقوا به الجزاء بعد الإعادة ، وكان العطف بالواو دون ثم فى قوله : (وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) مع ما بينهما من الزمان المتراخى ، لأن أحوال البرزخ والآخرة فى حكم شئ واحد ، فهى لاتصالها وتحقق وقوعها لا محالة ، لم يعتبر فيها التراخى فى الزمن لأنها تشبه أن تكون قضية واحدة .

١٩ ، ٢٠ ـ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) :

أى : إنه سبحانه جعل الأرض فسيحة ممتدة كالبساط تتقلبون عليها كما تتقلبون على بطنكم فى بيوتكم ، وليس فى الآية مايدل على أن الأرض ليست كروية كما فى البحر وغيره لأن الكرة العظيمة يرى كلٌّ من عليها ما يليه مبسوطًا (لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجَاجًا) أى : خلقها الله لكم لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها ، وأقطارها طرقًا واسعات فى أسفاركم وتنقلكم ، وقيل : هى المسالك بين جبلين : وكل هذا مما ينبههم به نوح ـ عليه السلام ـ على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، وفى إنشائهم من الأرض ، ثم إعادتهم إليها ، وإخراجهم منها بالبعث ؛ لذلك فهو وحده الذى يجب أن يعبد ، ويوحد ، ولا يشرك به أحد حيث إنه لا نظير له ، ولا كفء ، ولا ند ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، ولا وزير ، ولا مشير ، بل هو العلى الكبير ..

(قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾)

المفـــردات :

(مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ) : ولَد محركة مفردة ، ووُلْد ـ بضم الأول وسكون الثانى ـ قيل : هو مفرد كذلك ، وقيل : هو جمع ولد كأسد وأُسْد .

(مَكْراً كُبَّارًا) : بالغ الغاية فى الكِبر .

(وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) أى : التزموا عبادتها ولا تتركوها على الإطلاق .

(وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...) : هى أصنام خمسة من أصنامهم وخصت بالذكر مع أن لهم غيرها لأنها أعظم معبوداتهم وأكبرها .

التفسير

٢١، ٢٢ - (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّارًا) :

يقول تعالى مخبرًا عن نوح - عليه السلام - : إن نوحًا أنهى إلى ربه -وهو العليم الذى لايعزب عنه شىء- أن قومه عصوه مع أنه سلك معهم فى دعوته إلى الله الأساليب المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى، ومع كل ذلك لم يتبعوه ، بل خالفوه ، وأسلموا قيادهم لأبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومُتع بأموال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإمهال وليست لتفضيل وإكرام . لهذا قال مناجيًا ربه وشاكيًا : (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى) أى : داوموا على عصيانى .

(وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً) أى : استمروا فى إقبال ورغبة على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم فى الآخرة زيادة جعلتهم أهلًا لأن يكونوا أسوة وقدوة لأتباعهم فى الخسار ، وفى أنهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الحياة الفانية على الدار الباقية ، وفى وصفهم بما ذكر إشعار بأن الأتباع إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد ، لا لما شاهدوا فيهم من نهج قويم يدعو إلى اتباعهم .

(وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) باتباعهم . قال ابن زيد : أى كبيرًا فى الغاية ، ويراد به احتيالهم فى الدين ، وصدهم الناس عنه وإغراؤهم وتحريضهم على أَذِيَّة نوح - عليه السلام - ولهذا كان (كُبَّارا) أبلغ من (كبير) ، وإذا اعتُبر التنوين فى (مَكْراً) للتفخيم زاد أمر المبالغة فى مكرهم وفى عطف هذه الجملة على جملة الصلة وهى قوله تعالى : (لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ ...) إشارة إلى أنهم ضموا إلى ضلالهم إضلال الأتباع فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، وأنهم على شىء نافع . روى أن بعض الأعراب الجفاة سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقال : ما أفصح ربك يا محمد .

٢٣ ، ٢٤ - (وَقَالُوا لَاتَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَاتَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) :

أى : وقالوا : لا تتركوا عبادة آلهتكم مطلقًا إلى عبادة رب نوح - عليه السلام - ولا تتركوا عبادة هؤلاء الأصنام المذكورة ، وخصوها بالذكر مع اندراجها فيما سبق من النهى عن ترك عبادة الآلهة جميعًا لأنها كانت أكبر معبوداتهم الباطلة وأعظمها ، وإن كانت متفاوتة فى العظم حسب زعمهم كما يوحى إليه إعادة (لا) مع بعضها وتركها مع بعضها .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمذان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كَلَاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصُبُوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها انصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت . . . اهـ : ابن كثير .

وقيل : هى أسماء رجال صالحين كانت بين آدم ونوح - عليهما السلام - ، وقيل : هم من أولاد آدم ، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبركون بهم ففعلوا . فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم .

وذكر المفسرون فى ذلك روايات وقصصا كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إليها فى كتب التفسير .

(وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) أى : أضل هؤلاء الرؤساء خلقًا كثيرًا قبل الذين أوصوهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ، فهم ليسوا بأول من أضلوهم ، ويشعر بذلك المعنى فى قوله تعالى : (وَقَدْ أَضَلُّوا) والاقتران بعد حيث أشار ذلك إلى أن الإضلال استمر منهم إلى زمن الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة . وقال الحسن : وقد أضلوا ، أى : الأصنام التى اتخذوها آلهة خلقًا كثيرًا من الناس . فهو كقول الخليل – عليه السلام – : « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ »[1] وعود ضمير العقلاء عليها وهو واو الجماعة فى قول الحسن لتنزيل الأصنام منزلتهم عندهم وفى زعمهم .

(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) أى : قال : رب إنهم عصونى ... إلخ ، وقال : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) والغرض الشكاية وإبداء العجز واليأس منهم وطلب النصرة عليهم ، والمراد بالضلال الذى دعا عليهم بزيادته : إما الضلال فى ترويج مكرهم ومصالح دنياهم ، فيكون دعاء عليهم بعدم الاهتداء إلى تيسير أمور أخراهم ، وإما الضلال بمعنى الضياع والهلاك كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ »[2] ، وهو مأخوذ من الضلال فى الطريق لأن من ضل فيها هلك . ووضع الظاهر وهو قوله : (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ) موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط ، ولتعليل الدعاء عليهم به .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٦ (٢) سورة القمر ، الآية : ٤٧

(مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾)

المفــــردات :

(رَبِّ لَاتَذَرْ) أى : لاتترك من الكافرين .

(دَيَّارًا) : من يسكن دارا ، أو من يدور ويتحرك فى الأرض ذهابًا وإيابًا من الدار ، أو الدوران ، والمراد : لاتترك منهم أحدا ، والدّيار من الأسماء التى لاتستعمل إلّا فى النفى العام يقال : ما بالدار ديار ، أى : ما بها أحد .

(إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه لوثوقه بذلك نتيجة لتجربته الطويلة .

(وَلَاتَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّاتَبَارًا) أى : هلاكًا ، يقال : تبر يتْبَر من بابى : قتل وتعب : إذا هلك ، ويعدى بالتضعيف فيقال : تبّره الله : إذا أهلكه .

التفسير

٢٥ - (مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا) :

المعنى : إن هؤلاء الكفار بسبب كثرة ذنوبهم وعتوهم ، وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم أغرقوا بالطوفان (فَأُدْخِلُوا نَارًا) هى نار البرزخ ، ويراد بها عذاب القبر ، أى : انتقلوا من برودة الماء إلى حرارة النار ، ومن مات فى ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلًا أصابه ما يصيب المقبور من العذاب أو النعيم ؛ قال الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب ، ولا غرابة فى ذلك ؛ فالله يجمع بين الماء والنار كما قال ابن الأنبارى والتعقيب ظاهر على أن المراد إدخالهم بعد الإغراق ناراً هى نار البرزخ ، أما إذا أريد بها نار الآخرة كما قيل : فيكون التعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق وإدخال نار جهنم من زمن لاتصاله وتحقق الإدخال . وتنكير النار إما لتعظيمها وتهويلها أو لأنه - عز وجل - أعد لهم نوعًا من العذاب على حسب خطيئاتهم .

(فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا) أى : لم يكن لأحد منهم مغيث ولا معين ولا مجير ينقذه من عذاب الله كقوله تعالى : « لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ »[1] وفيه تعريض بأن آلهتهم التى اتخذوها آلهة من دون الله تعالى غير قادرة على نصرهم ، وفى ذلك من التهكم بهم ما فيه .

٢٦ - (وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) :

معطوف على نظيره (قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى) وقوله تعالى : (مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا ...) الآية . اعتراض بين الدعاءين للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق والإحراق لم يصبهم إلا من أجل خطيئاتهم التى عدها نوح - عليه السلام - وأشار إلى استحقاقهم العذاب لأجلها ، والمعروف أن هذا الدعاء كان قبل هلاكهم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣

والمعنى : ربِّ لا تترك على الأرض من الكافرين أحدًا يسكن دارًا ، أو لا تترك منهم من يدور ويتحرك على الأرض لأنهم استحقوا الهلاك بما اقترفوا من آثام وبما استمسكوا به من كفر وطغيان ، ويراد بالكافرين قومه الذين دعاهم إلى الإيمان والطاعة فلم يجيبوا .

٢٧ - (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) :

أى : إنك إن تترك أحدا منهم يضلوا عبادك عن طريق الحق ، ولعل المراد بهم من آمن به - عليه السلام - وبإضلالهم إياهم : ردهم إلى الكفر بنوع من الخداع والمكر ، أو المراد بهم من ولد من المؤمنين ، وبإضلالهم إياهم : صدهم عن الإيمان ، أو من ولد من الكافرين ولم يبلغ حد التكليف ، فكانوا يحولون بينهم وبين الإيمان بغرس العداوة والبغض فى قلوبهم لنوح - عليه السلام - وفى بعض الأخبار : أن الرجل منهم كان يأتى بابنه إلى نوح - عليه السلام - ويقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وأبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . قيل : ومن هنا قال - عليه السلام - : (وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من سيفجر بعمله ويكفر بقلبه ، فوصفهم بما يصيرون إليه من الفجور والكفر لاستحكام علمه بما يكون منهم ، ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ومثله قوله - عليه السلام - : (إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ) ، وقيل : أراد بقوله : (وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أى : من طبع وجُبل على الكفر والفجور ، وقد علم ذلك بوحى كقوله - سبحانه - : « وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] وكأنّ قوله : (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ...) الآية . اعتذار منه - عليه السلام - مما عسى يرد عليه من أن الدعاء عليهم بالاستئصال مع احتمال أن يكون من ذريتهم من يؤمن ، وذلك مما لا يليق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

وعن قتادة ومحمد بن كعب والربيع وغيرهم أنه - عليه السلام - ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصلاب وأعقم أرحام النساء ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأهلك

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٣٦

جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولده من صلبه الذى اعتزل عن أبيه وقال : (سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ)[1] الآية .

٢٨ - (رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا) :

خص - عليه السلام - والديه أولًا بالدعاء بالمغفرة ، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ؛ لأنهما أحق وأولى نسبًا ودينًا وكانا مؤمنين ، ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة ، وقيل : أراد بهما آدم وحواء .

(وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا) قال الضحاك : يعنى دخل مسجدى ، وبه قال الجم وابن عباس ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا بالمغفرة لمن دخل وهو مؤمن كما قال ابن كثير ، وقيل : المراد بالدعاء لمن دخل سفينته أو شريعته ، وقيد الداخل بكونه مؤمنًا ، لأنه علم أن من دخل مؤمنًا لا يعود إلى الكفر ، وبهذا القيد خرجت امرأته ، وابنه كنعان ، ولكن لم يجزم بخروجه إلَّا بعد ما قيل له : إنه ليس من أهلك . (وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) من كل أمة إلى يوم القيامة ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات وهو تعميم بعد تخصيص . واستغفر ربه - عز وجل - إظهارًا لمزيد الافتقار إليه سبحانه وحبًّا للمستغفر لهم من والديه والمؤمنين . (وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا) قال السدى : إلَّا هلاكًا ، وقال مجاهد : إلَّا خسارًا فى الدنيا والآخرة . قيل : هلك معهم أولادهم أيضًا لكن لا على وجه العقاب لهم ، بل لتشديد عذاب آبائهم وأمهاتهم بهلاك أطفالهم الذين كانوا أعز عليهم من أنفسهم ، وسئل الحسن عن ذلك فقال : قد علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب لهم .

وقيل : لم يكن معهم أطفالهم حين غرقوا ؛ لأن الله سبحانه أعقم أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين عاما ، وقد دعا - عليه السلام - دعوتين : دعوة على الكافرين بالتبار ، ودعوة للمؤمنين بالمغفرة ، وحيث استجيبت له الأولى فى حق الكفار ، فاستحال ألَّا تستجاب له الثانية فى حق المؤمنين ، وهو سبحانه أكرم الأكرمين .

والله أعلم .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٤٣

ســـــورة الجن

مكية وآياتها ثمان وعشرون آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر الله تعالى فى سورة نوح قوله :(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) ، وقال فى هذه السورة فى شأن كفار مكة : (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا) . فالاتصال بالله سبب لرغد العيش .

كما أن هناك توافقًا بين قوم نوح والعرب فى أن كلاًّ منهما كانوا عبدة أوثان ، وتزيد سورة الجن أنَّها جاءت لتبكت العرب وتوبخهم على تباطئهم فى الإيمان برسول الله ﷺ وكان الجن خيرًا منهم إذْ أقبل على الإيمان مَن أقبل منهم وهم من غير جنس الرسول – عليه الصلاة والسلام – .

بعض مقاصد هـذه السورة :

١- تحدثت السورة فى أولها عن أن الله - سبحانه - أوحى إلى رسوله ﷺ أن فريقًا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم وأنَّه قد أعجبهم ، وأخذتهم قوة بلاغته وجميل هدايته فدفعهم ذلك إلى الإيمان به فور سماعهم له ، وعاهدوا أنفسهم ألَّا يشركوا بالله أحدًا ، وأنهم عظموا ربهم وقدسوه ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

٢- أبانت السورة بعد ذلك أن الجن - بعد بعثة الرسول ﷺ أرادوا أن يَصلوا إلى السماء لاستراق السمع فوجدوها قد ملئت بالملائكة لحراستها ، وأن الشهب الثاقبة ترصدهم ، وترجمهم إذا ما حاولوا الدنو منها .

٣- أوضحت السورة أن كُلاًّ من الجن والإنس فريقان ، فريق مؤمن تقى قد اهتدى إلى الصراط المستقيم ، وفريق كافر شقى .

٤- نبهت السورة مشركى مكة على أن رسول الله ﷺ لا يملك لهم ضرًّا ولا رشدًا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله وحده ، وأنه لا يمنعه ولا ينقذه من عذاب الله أحدٌ إن عَصَاه

وخالفه ، وأنه لن يجد له ملجأ ومَعاذًا يلجأُ إليه وينتصر به من دون الله إلّا إذا قام بتبليغ رسالة ربه فأنذرهم وبشرهم .

٥- وجاءت خاتمة السورة ونهايتها ببيان أن الله وحده - جل شأنه - هو العليم بمعرفة الغيب فلا يظهر أحدًا على غيبه إلّا من اختاره واصطفاه لنبوته ورسالته فيظهر له ما يريد من الغيب ، وأنه يحفظ الرسول ﷺ ويصون رسالته من استراق الشياطين وتخليطهم : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ .

ونرى قبل التفسير أن نعرض لمسائل :

١ - الملائكة :

وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، خلقهم الله من نور وفطرهم على الطهر وناط بهم أمورًا كثيرة ؛ فمنهم رسل الله إلى أنبيائه ، ومنهم حملة عرش الرحمن ، والحفظة ، والكتبة ، وملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلّا الله ، وأنهم - عليهم السلام - قد أمدهم الله بالقدرة الشديدة على الأعمال العظيمة التى لا تدانيها قدرة ولا يصل إليها الإنس والجن ، وقد أمكنهم الله من التشكل والتصور بالأشكال الجميلة التى لا تحكم عليهم ، ويراهم الناس عليها ، أما صورهم الأصلية فلا يبصرهم عليها إلّا من شاء الله من عباده كالأنبياء والمرسلين .

٢ - الجن :

واحده (جنى) كروم وروى وترك وتركى : وهم جنس من خلق الله ذوو أجسام عاقلة تغلب عليها النارية كما يشهد لذلك قوله تعالى : « وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ » ، وهى قابلة للتشكل بالأشكال المختلفة التى تحكم عليهم ، ومن شأنها الخفاء ، وترى بصور غير صورها الأصلية التى لا يراهم عليها إلّا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن شاء الله - تعالى - من خواص عباده ، ولها قوة على الأعمال الشاقة العظيمة التى يعجز عنها عامة

البشر ، قال تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ » ، ومنها طوائف كريمة محبة للخير ، وأخرى دنيئة خسيسة محبة للشر .
(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ) ، ولا يعرف أنواعهم وأصنافهم إلَّا الله ومن أطلعه الله على ذلك من عباده .

وأكثر الفلاسفة ينكرون الجن ، ونفي وجودهم كفر صريح ؛ لأن الله قد ذكرهم في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، ومنه ما هو مذكور في هذه السورة الكريمة.

وجمهور أرباب الملل معترفون بوجودهم كالمسلمين ، وإن اختلفوا في حقيقتهم ويسمونهم بالأرواح السفلية .

٣- الشياطين :

ذهب قوم إلى أنهم ولد إبليس - عليه اللعنة - ولا يموتون إلَّا مع أبيهم ، فهم على هذا القول جنس مستقل ، أشرار بجبلتهم وطبعهم .

وذهب آخرون إلى أن الشياطين هم الأشرار والمَرَدة من الجن ، ويطلق اسم الشيطان على الشرير المتمرد من الإنس أيضًا ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » ولكل وجهة . والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(أُوحِيَ) : الوحى : بمعنى الإيحاء لغة : الإعلام بالشىء على وجه الخفاء والسرعة ، ومعناه فى الشرع : إعلام الله لأنبيائه ما يريد إبلاغه إليهم من الشرائع والأخبار بطريق خفى ، ويكون بطريق الإلقاء فى القلب دفعة ، أو بالكلام من وراء حجاب بحيث يسمع النبىُّ كلَامَ الله ولا يراه ، أو بإرسال الملك إلى الرسول وهو المراد هنا .

(نَفَرٌ) : جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة .

(عَجَبًا) : بديعًا مباينًا لسائر الكتب فى حسن نظمه وصحة معانيه .

(الرُّشْدِ) : الصواب ، وقيل : التوحيد والإيمان .

(جَدُّ رَبِّنَا) : عظمته وجلاله ، أو ملكه وسلطانه ، أو غناه .

(سَفِيهُنَا) : السفه : خفة العقل ، أو الحمق والجهل .

(شَطَطًا) : الشطط : مجاوزة الحد فى الظلم وغيره .

التفسير

١ - (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) :

أى : قل لهم يامحمد : إن الله أخبرنى على لسان جبريل - عليه السلام - أن نفرًا من الجن قد ألقوا بسمعهم إلى القرآن الذى كنت أتلوه ، فلما سمعوه قالوا : إنا سمعنا كلامًا جليل القدر عظيم الشأن ليس على نمط غيره من الكتب ، بديعًا فى حسن نظمه ودقة معانيه .

٢ - (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) :

أى : وهو مع علو منزلته يدل ويرشد إلى الطريق الحق والصراط المستقيم ، ويدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده فبادرنا فور سماعنا له باعتقاد ماجاء به ، ولرسوخ ذلك فى قلوبنا ، واطمئناننا إلى أنه منزل من عند ربنا لن نعود إلى الإشراك بالله أبدًا ، بل نفرده وحده بالألوهية والربوبية .

٣- (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) :

الجد معناه : العظمة ، وفيه الحديث : « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدَّ فينا » أى : جل قدره .

أى : وأنه - سبحانه - تعالت عظمته وتسامى جلاله قد تنزه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدًا يحتاج إليهما ويستأنس بهما ؛ فالشأن فيهما ذلك ، إذ الرب - جل شأنه - يتعالى عن هذا وأمثاله كما يتعالى ويتعاظم ويتنزه عن الأنداد والنظراء .

٤ - (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا) :

أى : وأن الأحمق فينا والجاهل منا - وهو الذى خف عقله وذهب صوابه - كان يقول على الله قولا شططًا بعيدًا عن الحق والصدق والصواب ؛ إذ قد أشرك به ، ونسب إليه الصاحبة والولد. والله - سبحانه - منزه عن ذلك . وقيل : المراد من السفيه هو إبليس ، أو كل مارد من الجن كافر بالله .

٥ - (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) :

أى : وأننا حسبنا وظننا أن أحدًا من الإنس والجن لن يجترئ على الله ويفترى عليه وينسب إليه الصاحبة والولد كذبًا ، فلما سمعنا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون ويفترون ، وهذا يشير إلى أن الجن قبل سماعهم القرآن كانوا يظنون أن إبليس أو المتمرد من الإنس والجن صادق فى نسبة الصاحبة والولد لله ، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا فى ذلك فسموه سفيهًا .

وهنا يجمل بنا أن نتعرض لاجتماع الرسول ﷺ بالجن ورؤيته لهم لوثوق الصلة بينه وبين ما جاء فى هذه السورة فنقول :

اختلفت الروايات فى أنه ﷺ رأى الجن وكلمهم على قولين :

فالقول الأول : وهو مذهب ابن عباس : أنه - عليه الصلاة والسلام - ما رآهم ، قال : إن الجن كانوا يقصدون السماء فى الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - فيسمعون أخبار السماء ويلقونها إلى الكهنة ، فلما بعث الرسول ﷺ حرست السماء وحيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس - عليه اللعنة - فأخبروه بالقصة ، فقال : لا بد لهذا من سبب ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها واطلبوا السبب ، فوصل جمع من أولئك الطالبين إلى تهامة فرأوا رسول الله ﷺ فى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا والله هو الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا : يا قومنا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) فأخبر الله نبيه محمدًا ﷺ عن ذلك الغيب وقال : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) كذا وكذا ، قال : وفى هذا دليل على أنه ﷺ لم ير الجن ، إذ لو رآهم لما أسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحى ، فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحى .

والقول الثانى : وهو مذهب ابن مسعود : أن الرسول ﷺ أتاه داعى الجن فذهب معه وقرأ عليهم القرآن ، وأن ابن مسعود سار مع رسول الله ﷺ حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجن وآثار نيرانهم .

وطريق التوفيق بين المذهبين أن ما ذكر ابن عباس وقع أولًا ، فأوحى الله إلى رسوله بهذه السورة ، ثم أمر ﷺ بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود .

هذا ، وفى أمر الله رسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحاه الله إليه به فى واقعة الجن فوائد : منها أن يعرف الصحابة أنه - عليه الصلاة والسلام - كما بعث إلى الإنس بعث إلى الجن ، وأن تعلم قريش أن الجن مع تمردهم لمَّا سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وفى هذا تعريض بهم لأنهم يعرفون ذلك فإنَّ القرآن الكريم قد نزل بلغتهم ولم يستطيعوا معارضته والإتيان بمثله أو بسورة من مثله مع تحديهم بذلك ، ولكنهم - لظلمهم بآيات الله يجحدون ، ومنها أن المؤمن من الجن يدعو غيره من قبيله إلى الإيمان به « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ »[1] ، ومنها أن الجن يسمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

(وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩)

المفــــردات :

(يَعُوذُونَ) : يلتجئون ، من العَوْذ ، وهو الالتجاء إلى الغير والتعلق به .

(رَهَقًا) : الرهق : غشيان المحارم وإتيانها .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الأحقاف .

(لَمَسْنَا السَّمَآءَ) : اللمس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأن الماسّ طالب متعرف ، أى : طلبنا بلوغ السماء .

(شُهُبًا) : جمع شهاب ، وهو النجم المحرق .

(رَصَدًا) : راصدًا ومستعدًا ومترقبًا له .

التفسير

٦- (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) :

قيل : إن الرجل من العرب فى الجاهلية كان إذا أمسى فى قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادى أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فيبيت فى جواره حتى يصبح .

قال مقاتل : كان أول من تعوذ من الجن قوم من أهل اليمن ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم .

أى : وأنه كان رجال من الإنس يلجأون ويستجيرون بالجن رجاء رعايتهم وأملا فى حفظهم من شرور سفهاء الجن ومردتهم فزاد الإنسُ الجنَّ بسبب استعاذتهم بهم تكبرًا وصلفًا وعتوًا حيث قالت الجن : سُدْنا الإنس والجن ، أو أن الجن زادوا الإنس بسبب هذا الالتجاء من الإنس زادوهم فرقًا وخوفًا ، بل زادوهم كفرًا بالله ، إذ الاستعاذة بغير الله كفر .

٧- (وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا) :

أى : وقال الجن بعضهم لبعض : إن كفار الإنس حسبوا وظنوا كما حسبتم - يامعشر الجن - أن الله - سبحانه - لن يبعث أحدًا بعد الموت ، وأنهم كانوا يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم ، أو : أن الإنس ظنوا كظنكم أن الله لن يرسل رسولًا إلى أحد من العباد ، وقد أخطأ الإنس وأخطأتم معشر الجن ؛ فالله قد أرسل محمدًا ﷺ وأنزل عليه هذا القرآن الكريم .

(١) من الآية ٢٩ من سورة الأنعام .

٨ - ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ :

أى : وأننا طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها فأصبناها وصادفناها ملئت بالحفظة من الملائكة الشداد الذين يحرسونها ، وبالشهب والنجوم المحرقة التى كانت تنقض على الجن عند استراق السمع ، قال بعضهم : إن رمى الجن بالشهب كان بعد مبعث الرسول ﷺ وهو إحدى آياته ، والصحيح أن ذلك كان قبل مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلما بعث زاد ذلك إنذارًا بحاله وتنبيهًا إلى إرساله ، أى : زيد فى حرس السماء حتى امتلأت من الملائكة والنجوم كما يشعر بذلك قوله تعالى : ﴿ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ .

قال ابن عباس : بينما النبى ﷺ جالس فى نفر من أصحابه إذْ رُمِىَ بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية » ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، فقال النبى ﷺ : « إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا - سبحانه وتعالى - إذا قضى أمرًا فى السماء سبَّح حملة العرش ثم سبَّح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فيتخطف الجن فيرمون ، فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه » ، وقال ابن قتيبة : كان (الرمى) ولكن اشتدت الحراسة بعد المبعث ، وكانوا من قبل يسترقون ويرمون فى بعض الأحوال فلما بعث محمد ﷺ منعت (الجن) من ذلك أصلًا .

٩ - ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ :

أى : وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع للسمع نجدها خالية من الحرس والشهب ، أو صالحة للترصد والاستماع ، فالآن ملئت المقاعد والمواضع كلها بالملائكة والشهب فمن يحاول أن يقترب للاستماع يجد له شهابًا قد أُرصد له ليرجم به . وقال مقاتل : رميًا بالشهب ورصدًا من الملائكة

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(دُونَ ذَٰلِكَ) : أقل منهم صلاحًا ، أو غيرهم فى الصلاح .

(طَرَآئِقَ قِدَدًا) طرائق : مذاهب ، قددًا : جمع قِدَّة ، من قَدَّ ، كالقطعة من قَطَع أى : كنا ذوى مذاهب مختلفة .

(نُعْجِزَ اللَّهَ) : نفوته ونتفلت منه .

(بَخْسًا) البخس : نقص الشىء على سبيل الظلم .

(رَهَقًا) : ظلمًا ومشقة عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته .

(الْقَاسِطُونَ) : الجائرون والمائلون عن طريق الحق .

(تَحَرَّوْا) : قصدوا وتوخَّوْا طريق الحق والصواب .

١٠ - (وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) :

أى : وأننا - معشر الجن - لا نعلم ما الله صانع بأهل الأرض بسبب امتلاء السماء بالحرس والشهب وانقضاضها وتهافتها ، وتغير الحال عما ألفناه ، أحَدَثَ ذلك لعذاب وشر يريد - سبحانه - أن ينزله بأهل الأرض ؟ أم لخير يريده الله لهم ؟ أو أننا لا ندرى أن إرسال محمد الذى من أجله منع استراقنا للسمع وقعودنا فى مواضع فى السماء ، أيكون ذلك نذير عذاب لهم ؛ فإنهم قد يكذبونه فيهلكون بتكذيبه كما هلك من كذّبوا رسلهم من الأُمم السابقة أم يكون ذلك بشير خير لهم فإنهم قد يؤمنون به ويهتدون ، ولا يخفى ما فى قول الجن : (أَشَرٌّ أُرِيدَ) من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله - عز وجل - كما صرحوا به فى الخير والرشد وإن كان فاعل الكل هو الله - تعالى - فقد جمعوا بين جم الأدب وحسن الاعتقاد .

١١ - (وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) :

أى : وأنا منا الأبرار المتقون ، ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح وهم المقتصدون غير الكاملين فيه ، أو : ومنا سوى ذلك وهم الطالحون الفاسدون الذين ليس لهم صلاح وهم الكافرون .

(كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) أى : كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا ذوى مذاهب متفرقة ؛ فالطرائق - وقد وصفت بالقِدَد - تدل على معنى التقطع والتفرق والاختلاف كأن كل طريق لامتيازها مقطوعة عن غيرها .

١٢ - (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا) :

أى : وأننا علمنا وتيقَّنّا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله وبما شاهدناه من قدرته أننا فى قبضته وقهره ، ولن نعجزه فى الأرض مع بسطها وسعتها وكثرة فجاجها وتشعب طرقها ، فلا نفوته إذا أراد بنا أمرًا أينما كنا فيها ، ولن نستطيع أن نفلت منه - عز وجل - هربًا إلى السماء ، وإن هربنا فلن نتخلص منه ؛ وذلك لشدة قدرته وعظيم سلطانه .

١٣ - (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) :

هذا عود ورجوع من الجن إلى تذكر نعمة الله عليهم بالإيمان به واهتدائهم بسماع آيات القرآن وافتخارهم بذلك ، وفى الحق إنه لمفخرة وشرف رفيع لهم .

أى : وأننا حين سمعنا القرآن العظيم اهتدينا به وآمنا بالله الذى أنزله ، وصدقنا محمدًا ﷺ فى رسالته من غير تردد ولا تريث (فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) أى : فمن يصدق بالله فإنه لا يخشى نقصانًا من حسناته ، وإنما يجازى عليها كلها الجزاء الأوفى ، ولا يخاف - كذلك - أن يرهق ويشق عليه بالزيادة فى آثامه وسيئاته أو تغشاه ذلة ، فَعَدْلُ الله يأبى ذلك ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا »[1] .

١٤ ، ١٥ - (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[2] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) :

أى : وأننا - معشر الجن بعد سماعنا القرآن - مختلفون ومتفرقون ؛ منا من انقاد وأسلم وصدق برسالة محمد ﷺ ومنا من جار وعدل عن الحق ، وحاد عن الطريق القويم .

وقد رُوى عن سعيد بن جبير - رحمه الله - أن الحجاج بن يوسف الثقفى - قال لسعيد حين أراد قتله : ما تقول فىَّ ؟ قال سعيد : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ؛ حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ، فقال الحجاج : يا جهلة ؛ إنه سمانى ظالمًا مشركًا ، وتلا لهم قوله تعالى : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) ، وقوله - عز شأنه - : « ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » .

(فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى : فمن انقاد واختار الإسلام واتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فأولئك الذين قصدوا الصواب والحق ، وتوخَّوا سبيل النجاة حتى اهتدوا إلى رشد عظيم لا يبلغ كنهه ومداه إلَّا الله .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٢) من قسط قسطاً بالفتح ، وقسوطاً : إذا جار وعدل عن الحق ، والقسط بالكسر ، والإقساط : العدل .

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) أى : وأما الكافرون الجائرون البعيدون عن الحق والإيمان فكانوا فى سابق علم الله الأزلى ، كانوا حطبًا للنار التى وقودها الناس والحجارة ؛ تسعر بهم كما تسعر بكفرة الإنس .

(وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾)

المفـــردات :

(غَدَقًا) : كثيرًا .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر الممتحن لنعام علم ظهور ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون .

(وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ) : هو من قولهم : أعرضت عنه ، بمعنى أضربت وتوليت وصددت عنه ، أى : أخذت عَرْضًا ، أى : جانبًا غير الجانب الذى هو فيه .

(يَسْلُكْهُ) : يدخله

(صَعَدًا) : شاقًا يعلوه ويغلبه فلا يطيقه .

(كَادُوا) : قاربوا .

(لِبَدًا) : جمع لِبدة ، وهى الجماعات ، شبهت بالشىء المتلبد المتراكم بعضه فوق بعض ، من ازدحامهم عليه .

(لَن يُجِيرَنِى) : لن يمنعنى ولا يغيثنى من الله أحد .

(مُلْتَحَدًا) : ملجأً وحرزًا .

التفسير

١٦ ، ١٧ - (وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) :

أى : وأن لو سار الكفار من الجن والإنس معتدلين دون ميل أو جور على الطريقة المثلى والنهج القويم والصراط السوى وهو ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه لأسقاهم الله المطر الغدق الكثير ، والغيث العميم الذى يحيي الله به نفوسهم ، وينبت لهم به الزرع ، ويدر الضرع ، ويغمرهم فى دنياهم بوافر النعم وجليل الخيرات ، (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنعاملهم معاملة المختبر لنعلم ما يكون من أمرهم : أيكفرون أم يشكرون ، أى : لنعلم ذلك حاصلًا وواقعًا منهم بعد أن علمناه قديماً وأزلا ، حتى لا يكون للناس على الله حجة ، بعد أن يظهر ذلك للخلائق ، والقول بإغداق الخير عليهم لاستقامتهم مصداقه قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ »(١) ، وقوله : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم »(٢)

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦٦ من سورة المائدة .

وقيل المعنى : وأن لو استقام الجن على طريقتهم التى كانوا عليها قبل سماع القرآن ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام واستمروا على كفرهم لوسعنا عليهم الرزق ، وأغدقنا عليهم من الخير استدراجاً لهم وإمهالاً وإملاءً حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : « وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ »(١) وقال - سبحانه - : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »(٢)

والرأى الأول أولى وأحق بالاعتبار لأن كلمة (الطريقة) المعرَّفة بالألف واللام إنما ترجع إلى الطريقة المعروفة المعهودة وهى طريقة الهدى والرشاد . (وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا) .

أى : ومن يتولَّ وينأَ عن عبادة ربه ويتجافَ عنها فيجعلها فى جانب وهو فى جانب يدخله الله فى عذاب يعلو طاقة ذلك الشقى المعذب ويشق عليه ويغلبه فلا يطيقه .

١٨ - (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) :

قال مجاهد : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بِيَعَهُمْ وكنائسهم أشركوا بالله فيها ؛ وذلك أن النصارى تقول : المسيح ابن الله ، واليهود يقولون : عزير ابن الله ، فأمر الله - عزَّ وجلَّ - نبيَّه والمؤمنين أن يخلصوا العبادة لله وحده ، وألاَّ يدعوا مع الله أحدًا إذا دخلوا المساجد كلها ، هذا وإن الأرض جميعاً مساجد للرسول ﷺ ولأمته ، فقد ورد فى حديث جابر بن عبد الله الذى أخرجه البخارى : « وجعلت لىَ الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » وعلى هذا قال : فالمساجد جمع مسجِد - بكسر الجيم - وقيل : المراد بها الأعضاء السبعة التى يسجد عليها ، واحدها مسجَد - بفتح الجيم -

---

(١) الآيات - ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ١٧٨ من سورة آل عمران .

وهى القدمان والركبتان والكفان والوجه ، وروى أن المعتصم سأل أبا جعفر محمد بن على ابن موسى الكاظم - رضى الله عنهم - عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وقيل : المراد المساجد السجدات ، على أن المسجَد - بفتح الجيم - مصدر ميمى ، قال الحسن ؛ من السنة إذا دخل الرجل المسجد أن يقول : لا إله إلاَّ الله : لأن قوله : (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) فى ضمنه أمر بذكر الله ودعائه .

و قيل المعنى : أفردوا المساجد لذكر الله ولا تتخذوها هزوًا ومتجرًا ومجلساً ولا طرقاً ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً ، وفى الصحيح : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردّها الله عليك ؛ فإن المساجد لم تبن لذلك » .

هذا ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ كان ، إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : « (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا) اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كل مَزُور حق ، وأنت خير مَزُور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار » وإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : « اللّهم اصْبُبْ علىَّ الخير صبا ، ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبدًا ، ولا تجعل معيشتى كدًّا ، واجعل لى فى الأرض جَدًّا) أى : غِنًى وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة ، وسميت مكة المساجد لأن كل أحد يسجد إليها ، أى : يتخذها قبلة له .

١٩ - (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) :

أى : وأن الله أوحى إلى رسوله أنَّه حين قام ﷺ عابدًا ربَّه - عزَّ وجَلَّ - فى صلاة الفجر فى بطن نخلة ، أو فى سوق عكاظ يوْم أصحابه كاد الجن يلتصقون يركب بعضهم بعضاً تزاحماً وتراكماً عليه ؛ متعجبين مما رأوه من عبادته واقتداء الصحابة به قائماً وراكعا وساجدًا ، وإعجاباً بما تلاه من القرآن العظيم ، لأنهم رأوا مالم يروْا مثله وسمعوا ما لم يسمعوا مثله ، وقيل : المراد أن الرسول لما قام يعبد الله تلبدت وتجمعت الإنس والجن ، أو المشركون ، وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به ويطفئوا نور الله ، فأبى الله إلاَّ أن يتم نوره وينصره ويظهره على من عاداه .

٢٠ - (قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) :

سبب نزولها : أن كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عاديت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن بخيرك ؛ فنزلت . فأمر الله رسوله أن يجيبهم على قولهم هذا : بأن ما ترونه من عبادتى لله ورفضى الإشراك به ليس مما يتعجب منه ، وإنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكاً ، أو أن يقول لمن تظاهروا وتمالئوا عليه ليبطلوا الحق الذى جاء به :(إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى) يريد ما جئتكم بأمر مستنكر ولا مستهجن إنما أعبد ربى وحده (وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) وليس ذلك مما يوجب اجتماعكم على مقتى وعداوتى .

٢١ - (قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) :

أى : قل يا محمد فى محاجة هؤلاء وجدالهم : إنى لا أقدر أن أضركم ولا أن أدفع عنكم ضرًّا ، ولا أستطيع أن أجلب لكم نفعاً ، إنما الضار والنافع والمرشد والمُغوى هو الله - عز وجل - وأن أحدًا من الخلق لا قدرة له على ذلك .

٢٢ ، ٢٣ - (قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ، إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى : قل لهم يا محمد : إنّى لن يستطيع أحدٌ أن يأخذنى فى جواره ويعيذنى ويمنعنى من الله إن أراد بى أمرًا وهذا لأنَّهُمْ قالوا له : اترك ما تدعو إليه ونحن بخيرك . وإننى لن أظفر بملجأ أركن إليه أو معاذٍ أحتمى وألوذ به من غير الله ؛ إذ لا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه ، وأن المخلَص والنجاة لاتكون إلا بأن أتبع ما أمرنى به ربى ، فأُبلغكم ما أرسلت به إليكم ولا أكتم شيئاً كلفنى به - سبحانه - وأوجب علىَّ أن أسمِعَه لكم من غير زيادة أو نقصان أمَّا عياذى بكم والتجائى إليكم - كما تؤملون وترجـون - أو اعتمادى على نفسى فى الفِرار من جزاء ربى وحسابه فإنه لاجدوى منه ولا نفع فيه ، وقيل المراد : قل لا أملك لكم إلاَّ أن أبلغكم رسالة ربى ، أما الكفر والإيمان فلا أملكهما . (وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى : ومن يتمرد على الله ويأْبَ الإيمان به ربًّا

وبمحمد رسـولا فإن له لا لغيره - من الطائعين الأتقياء - له عذاب جهنم يخلد ويبقى فيه لاينفك عنه ولا يزول ولا يبيد .

(حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(نَاصِرًا) : معيناً .

(أَمَدًا) : زماناً بعيدًا أو قريباً .

(الْغَيْب) : ما خفى واستتر .

(ارْتَضَى) : اختار واصطفى .

(يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) : الرصد : الحفظة .

(أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) : علمه علمًا تامًا .

(وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) : ضبط كل شيء معدودًا محصورًا .

التفسير

٢٤ - (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَايُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا) :

هؤلاء الكفار لايزالون يستضعفون المؤمنين ويستهزئون بهم ويستقلُّون عددهم ، حتى إذا رأى هؤُلاء المشركون ما تهددهم الله وتوعدهم به من صنوف العذاب وفنونه فى الآخرة ، أو من خذلانهم وهزيمتهم فى الدنيا - كما حدث فى غزوة بدر الكبرى - فسيتبين ويظهر لهم من هم الأضعف ناصرًا ومعينًا وأقل نفرًا وجندًا وعددًا ؟ - هل هم أم المؤمنون بربهم المصدقون برسالة نبيِّهم ؟ لا شك ولا مرية أن الكافرين لا ولىّ ولا ناصر ولا شفيع لهم ، قال تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ »(1) ، وأنهم هم الذين ينصرف وينفض عنهم أهلوهم وذووهم يوم القيامة .

أما المؤمنون فلهم فى الآخرة العزة والكرامة والكثرة . قال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ »(2) ، والملك القدوس - جل شأنه - يسلم عليهم ، قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ »(3) ولهم عز النصر واجتماع الشمل وعلوّ الشأن .

٢٥ - (قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّاتُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا) :

عندما سمع المشركون ما نزل فى الآية السابقة قالوا - إنكارًا له واستهزاءً به - : متى يكون ذلك الموعود ؟ فأمر الله رسوله أن يبلغهم - تبكيتاً لهم وتهديدًا - أن العذاب الذى أُوعِدُوا وهُددوا به كائن وحاصل ، لامحالة ، وأن وقوعه متيقن ، أما وقته وزمن نزوله بهم فلا أعلم متى يكون : أهو حالٌّ متوقع فى أية ساعة أم مؤجل قد ضرب الله له غاية وَوَقَّتَ له زمناً معيناً ؟ إن الله - سبحانه - قد استأثر بعلم ذلك .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة غافر

(٢) من الآية ٢٣ والآية ٢٤ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٥٨ من سورة يس .

هذا ، والأمد : الزمان مطلقاً بعيدًا كان أو قريباً ، والمراد به هنا : البعيد ؛ بقرينة المقابلة بالقريب .

٢٦ ، ٢٧ - (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) :

أى : أنه - سبحانه - هو الذى يعلم كلَّ ماخفى واستتر، لأنه خالق كل شىء : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] ومن ذلك الغيب : العذاب والنكال الذى يقع عليهم ويلحق بهم ، وأنه - جل شأنه - لايطلع ولا يظهر على غيبه أحدًا إلاَّ من يختاره ويصطفيه للنبوة والرسالة فيطلعه على بعض ما يريد - سبحانه - أن يظهره له ، لأن الرسل - عليهم السلام - مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض الغيبيات ، قال تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - « وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ »[2] وفى قوله تعالى : (إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) إشارة إلى إبطال الكهانة والسحر والتنجيم لأنَّ أصحابها أبعد شىء عن ارتضاء الله وأدخل ما يكون فى سخطه وغضبه .

روى أن مسافر بن عوف قال لأمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - لمَّا أراد لقاء الخوارج : يا أمير المؤمنين ؛ لا تَسِرْ فى هذه الساعة وَسِرْ فى ثلاث ساعات يمضين من النهار ، فقال له على - رضى الله عنه - : ولم ؟ قال : إن سرتَ فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت فقال علىٌّ - رضى الله عنه - : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نِدًّا أو ضِدًّا ، اللّهم لاطير إلاَّ طيرك ولا خير إلاَّ خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس : إياكم وتعلُّمَ النجوم إلاَّ ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر ، والساحر

---

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة آل عمران .

كالكافر ، والكافر فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدنك فى الحبس ما بقيتَ وبقيتُ ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان ، ثم سافر فى الساعة التى نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة (النهروان) الثابتة فى الصحيح لمسلم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل : سار فى الساعة التى أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ثم قال : يا أيها الناس : توكلوا على الله وثقوا به ؛ فإنه يكفى عمن سواه .

(فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) ، أى : فإذا أراد الله إظهار شىء من غيبه على رسوله فإنه يحيط الرسول إحاطة تامة من جميع جوانبه بحرس وحفظة من الملائكة يحفظونه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه ؛ لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول ، وذلك ليصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

٢٨ - (لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا) :

أى : أخبرنا وأنبأنا محمداً ﷺ أن الرسل قبله كانوا على مثل حاله من التبليغ بالحق والصدق ، وأنه حفظ كما حفظوا من الجن ، أو ليعلم النَّاس أن الرسول والرسل قبله - عليهم السلام - قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان ، أو ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة كاملة لم يكتموا منها شيئاً ، أى : ليعلم ذلك مشاهداً وحاصلا وواقعاً كما علمه غيباً وأزلًا فى علمه القديم .

(وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) أى : علم - سبحانه - بما عند الرسل ظاهراً وباطناً من الأحكام والشرائع وغير ذلك لا يفوته منها شىء ولا ينسى منها حرفاً ؛ فهو المهيمن عليها والحافظ لها (وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا) أى : ضبط كل شىء ضبطاً تاماً لايعتريه خلل ولا يناله نقص ، أحصاه - سبحانه - معدوداً محصوراً ، وذلك مثل القطر والمطر والرمال وورق الأشجار وزبد البحار وأنفاس خلقه وغير ذلك مما نعلمه ومما لا نعلمه ، ومَنْ هذا شأنه كيف لايحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ؟ إنَّه - سبحانه - المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شىء لا تأخذه سنة ولا نوم .

سورة المزمل

هذه السورة الكريمة مكيَّة وآياتها عشرون آية

مناسبتها لما قبلها :

لما ختم الله - سبحانه - سورة الجن بذكر الرسل- عليهم الصلاة والسلام - فى قوله تعالى : (لِيَعْلَمَ أن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) افتتح هذه السورة بما يتعلق ويتصل بخاتمهم محمد ﷺ حيث بدأها بقوله : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) وقال الإمام الآلوسى : لا يخفى اتصال أولها (قُمِ اللَّيْلَ) . إلخ بقوله - تعالى - فى آخر تلك (سورة الجن) : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ) وبقوله - سبحانه - : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ) الآية .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ - إن هذه السورة الكريمة تتصل برسول الله ﷺ فى بدء الرسالة ، وأنه أمر فيها بقيام الليل وترتيل القرآن فيه ؛ ليكون ذلك أعون له على تحمل أعباء الرسالة : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ...) إلى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

٢ - جاءت السورة تأمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصبر على إيذاء قومه له ، وعدم التعرض لهم بأذى أو تعييب أو شتم ، وذلك قبل أن يؤذن له فى قتالهم ، وأن يتركهم لله وحده ينتقم له منهم فى الدنيا بالهزيمة والقتل كما حدث فى غزوة بدر ، وفى الآخرة بالأنكال والجحيم والطعام الذى يعترض فى حلوقهم فلا يخرج ولا ينزل : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) إلى قوله : (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا) إلخ .

٣ - جاء ختام السورة ببيان فضل الله ورحمته على رسوله وعلى المؤمنين ، وذلك بالتخفيف عنهم فى التهجد وقيام الليل ؛ لأنه - سبحانه - علم أنهم لن يطيقوه لمرض بعضهم ، وحاجة آخرين إلى السعى فى الأرض ابتغاء الرزق أو للقتال فى سبيل الله ، ورفع عنهم وجوب ذلك وأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً ، وذلك بفعل الطاعات ابتغاء وجهه - سبحانه - دون رياء أو سمعة ، ووعدهم بأنهم سيجدون عند الله خير الجزاء

وجزاء الخير على ما يقدمونه من بر وطاعة : (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْمُزَّمِّلُ) : المتزمل الذى تزمل بثيابه ، أى : تلفف بها ، وقيل : غير ذلك .

(اللَّيْلَ) : هو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

(وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (الترتيل) : التنضيد والتنسيق وحسن النظام ، ومنه ثغر رتل إذا كان حسن التنضيد .

التفسير

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - (يَآأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) :

ما جاء فى سبب النزول :

ورد فى حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى - : « بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك

الذى جاءنى بحراء جالس على كرسىّ بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله : « يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ » إلى قوله : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » فحمى الوحى وتتابع ، وقال المفسرون : وعلى أثرها نزلت (يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) .

أى : يا أيها المتلفف بثيابك ، وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزملا فى قطيفة فناداه ربّه بذلك تأنيساً له وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته وحالته التى هو عليها ، كقوله ﷺ - لعلىّ - كرم الله وجهه - حين غاضب زوجه فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب : « قم أبا تراب » وكذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة : « قم يانومان » وكان نائماً ، ونداء الله له بذلك قصدا لرفع الحجاب وطيًّا لبساط العتاب وزيادة فى الإدلال والترأف تنشيطاً له ﷺ ليتلقى ما يكلف به من عمل يشق عليه بهمة عالية وعزيمة صادقة لا تعرف كلالا أو تعبا .

وقيل : يا أيها المزمل بالنبوة والملتزم بالرسالة . وقيل : المزمل بالقرآن .

(قُمِ اللَّيْلَ) أمره - سبحانه - بالقيام والتشمر فى الليل لإحيائه بالصلاة والعبادة وتلاوة القرآن، وترك الهجوع إلى السجود والركوع ، وهجر المنام إلى مافيه نيل البغية وبلوغ المرام ، إنه - عزَّ وجلَّ - يعدُّه ويهيئه بقيام الليل وفيه ما فيه من المجاهدة والمصابرة ليؤهله إلى أداء الرسالة لقوم قوى مراسهم واشتد عنادهم .

(إِلَّا قَلِيلاً ۝ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) أى : قم نصف الليل[١] أو أقل من النصف أو أزيد منه واختلف فى المراد من ذلك : فذهب أكثر المفسرين إلى أنه ﷺ خيِّر بين قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه ، وقال آخرون : هو مخيّر بين قيام نصف الليل أو ربعه أو ثلاثة أرباعه[٢] . والرأى الأول أجدر وأولى لوضوحه وبيانه ولاتّفاقه مع ما جاء فى آخر السورة : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) .

(١) هذا على أن كلمة (نصفه) بدل بعض من كل من الليل .

(٢) أى : قم نصف الليل أو انقص من هذا النصف قليلا يعنى انقص نصفه فيكون الربع ، أو زد على النصف قليلا ، يعنى نصفه ، فيكون المجموع ثلاثة أرباعه .

وفى قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ) تنبيه لكل متزمل راقد ليله أن يقوم الليل ويذكر الله فيه ؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة .

هذا . وهل كان قيام الليل فرضاً على رسولنا ﷺ وحده ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى الأنبياء قبله ؟ أو كان فرضاً عليه وعلى أمته ؟ أقوال أرجحها أنه كان فرضاً عليه وعلى أمته ، وهو قول عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - فقد ورد فى صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى : أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ... وفى هذا الحديث : فقلت (أى : سعد بن هشام) لعائشة : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ فقالت : ألست تقرأ (يَآ أيُّها المُزَّمِّلُ) قلت : بلى ، فقالت : فإن الله - عزَّ وجلَّ - افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام ﷺ وأصحابه حولا ، وأمسك خاتمتها اثنى عشر شهرًا فى السماء حتى أنزل الله - عز وجل - فى آخر هذه السورة التخفيف (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) فصار قيام الليل تطوعاً بعد الفريضة .

نقول : والظاهر أن النسخ والتخفيف كان فى حق الأمة وبقيت فريضة قيام الليل على رسول الله ﷺ بدليل قوله تعالى : (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) وهذا رأى كثير من المفسرين والفقهاء .

(وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا) أى : اقرأ القرآن على تمهل وتؤدة وذلك بإشباع الحركات وتبيين الحروف بحيث يُمَكِنُ السامع من عدها ، وذلك من قولهم : ثغر رتل إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض ، وعن علىٍّ - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال : « بيِّنْهُ تبييناً ولا تنثره نثر الدقل[1] ولا تهذّه هذَّ الشِّعر ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » .

---

(١) الدقل : أردأ التمر .

هذا ، ومراتب التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم أربع :

١ - الترتيل : وهو القراءة بطمأنينة وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه من جميع الصفات والمخارج ، ومع التدبر فى معانى القرآن الكريم والتأمل لما فيه من حكم ومواعظ .

٢ - التحقيق : وهو مثل الترتيل إلا أنه أكثر اطمئناناً منه ، وهو المأخوذ به فى مقام التعليم .

٣ - الحدْر : وهو الإسراع فى القراءة مع مراعاة أحكام التجويد وضبطها .

٤ - التدوير : وهو مرتبة تتوسط الترتيل والحدْر مع مراعاة الأحكام كذلك .

وقال علماء القراءات والتجويد : إن أفضل هذه المراتب هو الترتيل ؛ للأمر به فى قوله : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) .

ولقراءة النبى ﷺ به ، فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها » وعنها - وقد سئلت عن قراءة النبى ﷺ فقالت : « لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها » وعن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان يقطع القرآن آية آية » أى : يقف على آخر كل آية ليعلم أصحابه - رضى الله عنهم - أن الآية قد تمت .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾)

المفردات :

(قَوْلًا ثَقِيلاً) : يثقل حمله ، والمراد به قيام الليل ، أو القرآن .

(نَاشِئَةَ اللَّيْلِ) : العبادة فى الليل ، وقيل غير ذلك .

(أشد وَطْئاً) : أثقل وأغلظ وأشد على المصلى من صلاة النهار .

(وَأَقْوَمُ قِيلاً) : وأثبت قراءة وأبين مقالا .

(سَبْحاً) : تصرفاً وتقلباً فى شواغلك .

التفسير

٥ - (إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) :

أى : إنا سنوحى إليك بافتراض قيام الليل قولا ثقيلا يثقل حمله ، لأن مِنْ شأن الذى يقوم به أن يجهد بذلك وينوء بحمله ، لأن الليل وقت الإخلاد إلى الراحة والنوم ، فمن أمر بقيامه لم يتهيأ له ذلك إلا برياضة شديدة لنفسه وتذليل وقهرلها ، ومجاهدة للشيطان ، وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن العظيم وهو ثقيل بثقل العمل بشرائعه وأحكامه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه ، أو أنه ثقيل ، أى : مبارك فى الدنيا على صاحبه ويثقل ميزانه يوم القيامة ، وقيل : ثقيل تلقيه ؛ فقد روى عن عائشة - رضى الله عنها - « أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جِرانها [1] فما تستطيع أن تتحرك حتى يُسرَّى عنه » أى : الوحى ، وتلت قوله تعالى : (إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً) .كما روى الشيخان ومالك وغيرهم أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عَرَقاً » هذا ، وإن النص القرآنى الكريم ليتسع لذلك كله ولغيره .

٦ - (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً) :

أى : إن قيام ساعات الليل وإحياءها بالعبادة من ذكر وصلاة وتفكر وتدبر ، أو : إن العبادة التى تحدث وتنشأُ فى الليل هى أشد وأثقل على القائم ليله من عبادة النهار ؛ لأن القائم فى الليل يجاهد نفسه ويهجر مهده ، ويتجافى عن المضجع جنبه ، وهى كذلك أصوب قولا وأحسن لفظاً ؛ لأن الليل فيه تهدأ الأصوات ، وتنقطع الحركات ، ويخلص القول ويفرغ

(١) الجران : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، فاذا برك ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض .

القلب ، ولا يكون هناك مانع أو حائل دون تفهم القرآن وتدبره ، وفى هذه الآية الكريمة بيان لفضل صلاة الليل ، وأن الاستكثار منها وزيادة القراءة فيها يعظم الثواب ويجزل الأجر . وقيل : المراد بالناشئة هى النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أى : تنهض ، وذلك دون ناشئة النهار .

واختلف العلماء فى وقت (ناشئة الليل) فقال ابن عمر وأنس بن مالك - رضى الله عنهما - : هى ما بين المغرب والعشاء تمسكاً بأن لفظ (نشأ) يعطى الابتداء ، وكان على بن الحسين - رضى الله عنهما - يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : هذه ناشئة الليل ، وقيل : هى الليل كله ، وقيل : هى القيام بالليل بعد النوم ، وهذا مروى عن عائشة وابن عباس - رضى الله عنهما - وهذا يتفق مع ماروى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله - عز وجل - يمهل حتى يمضى شطر الليل الأول ، ثم يأمر منادياً يقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟ » فهذا الحديث بيّن الأوقات التى هى جديرة بالإحياء والإقامة ، وأيضاً فإنه يتناسب مع قوله تعالى : (هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً) لأن الصلاة بعد نوم فيها الكثير من أخذ النفس بالشدة والحزم ورياضتها على الأعمال الشاقة التى تكسب صاحبها ثواباً عظيماً وأجرا جزيلا ، فقد ورد فى الأثر : « أفضل العبادات أحمزها » أى أشقها .

٧ - (إن لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً) :

أى : إن لك فى النَّهار سعة من الوقت تتصرف فيها فى مهامك وشواغلك ونومك وراحة بدنك ، فاجعل ليلك خالصاً لعبادة ربك ، وعليك بمناجاته التى تقتضى فراغ البال وانتفاء الشواغل ، أو : إن لك تصرفاً فى أمور معاشك وتقلباً فى حوائجك وما يعرض لك من أمر دنياك ، فلا تستطيع أن تتفرغ للعبادة الخالصة فى النهار فعليك بها فى الليل ، وقيل : إن فاتك فى الليل شئ من العبادات فلك فى النهار فراغ تقدر على تداركه فيه ، ويؤيد هذا المعنى ماروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من

النهار ثنتى عشرة ركعة » هذا من حديث طويل رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بنحوه .

وهذه الآية الكريمة تبين الداعى والدافع الخارجى إلى قيام الليل وهو اتساع النهار لأمر الدنيا فضلا على مافى قيام الليل من الدافع الذاتى وهو ما يناله القائم ليلا من رضا الله وثوابه .

(وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾)

المفــردات :

(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : وانقطع إلى ربك بعبادته ، وجرد نفسك عما سواه .

(وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) : جانبهم ودارهم ولا تكافئهم على إيذائهم لك .

التفسـير

٨ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) :

أى : ودم واثبت على ذكر ربك ليلا ونهارا ، أى : ادعه بأسمائه الحسنى ليكون لك مع صلاة الليل العاقبة المحمودة والدرجة العالية الرفيعة ، وقيل : اذكره على أى وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك من ألوان الطاعات وصنوف العبادات ، وفسر الأمر فى قوله : (وَاذْكُرْ) بالدوام والاستمرار ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام حتى فى منامه لم ينس ربه - عز وجل - حتى يؤمر بذكره . (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) : هذا أمر منه - سبحانه - لرسوله أن ينقطع لله ويخلص له العبادة ويفرده بها ، ويراقبه مراقبة

تستغرق قلبه وتسيطر على باطنه ، كما أمره - عز وجل - أن يعبده ظاهرا ويذكره بلسانه فى قوله : (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ) ليكون الظاهر والباطن مشغولا بالله وحده .

هذا ، واتفق أئمة الإسلام وعلماؤه على مشروعية طلب ذكر الله ، كما اتفقوا على أن كلمة : (لا إله إلا الله) هى أفضل ما قاله الرسول والنبيون من قبله - ﷺ ولكن ما المراد من ذكر الله ؟ هل يشمل ويضم كل العبادات ؟ أو هو نوع معين منها ؟ ثم ما مقداره ؟ وما هى أفضل الأوقات التى يطلب فيها وتكون أرجى فى الإجابة ؟ وهل هو مطلوب على سبيل الندب أو على سبيل الحتم والوجوب ؟ وما الحالة التى ينبغى أن يكون عليها الذاكر عند ذكر ربه ؟ أمور اختلفوا فيها ولكل وجهة .

والذى يتضح لنا أن الذكر هو عمل من أعمال اللسان ، وأن لكل جارحة عبادتها الخاصة بها ، وذلك عملا بقول الرسول ﷺ فى حديث : « أوصانى ربى بتسع ... » إلخ الذى جاء فيه : « وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرا » ، وأيضاً فإن إطلاق الذكر على كل ما نطق به اللسان من العبادات فيه ضرب من التجوز ؛ إذ قد عطف الأمر بالتسبيح (وهو من عمل اللسان أيضاً) على الأمر بالذكر فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) والعطف - كما يقولون - يقتضى المغايرة ، نسأل الله حسن التوفيق إلى ما يحبه الله ويرضاه

٩ - (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) :

أى : هو - سبحانه - رب المكان الذى تشرق فيه الشمس وتغرب ؛ فهو رب الأرض جميعاً ومالكها ، ومدبر أمرها وأمر ما فيها ، لا معبود بحق إلا هو ، وما دام - سبحانه - مختصاً بالربوبية والألوهية فقد وجب على كل عاقل أن يتخذه وكيلاً ؛ فيسلم نفسه إليه ، ويعتمد ويتوكل عليه ، ويفوض كل أمره إليه ، فهو - جل شأنه - نعم الوكيل ونعم المولى والنصير ، قال بعضهم : من رضى بالله - تعالى - وكيلا وجد إلى كل الخير سبيلا .

١٠ - (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً) :

أى : احبس نفسك على ما يصيبك من أذى قومك وسفاهتهم التى يرمونك بها من صفات التعييب والتنقيص كقولهم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون إلى غير ذلك مما

كانوا ينسبونه إليه استهزاء به وسخرية منه ﷺ ، واجعل نفسك فى جانب وهم فى جانب ، واصبر على مايبدر منهم ؛ فالهجر الجميل : هو أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة .

(وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ) : خل بينى وبينهم ، وارض بى لعقابهم .

(أُوْلِى النَّعْمَةِ) : أصحاب التنعم وغضارة العيش .

(أَنكَالاً) : جمع نكل ، وهو القيد الثقيل أو الشديد .

(وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ) : وطعاماً يعترض وينشب فى الحلوق .

(تَرْجُفُ الْأَرْضُ) : تضطرب وتتزلزل .

(كَثِيباً) : رملا مجتمعاً .

(مَهِيلاً) : رخواً ليِّناً .

التفسـير

١ - (وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) :

أى : خل بينى وبين هؤلاء المكذبين المفترين أرباب التنعم وغضارة العيش وكثرة الأولاد ، وارض بى لعقابهم وإنزال النكال بهم ؛ فإن لدى ما يفرغ بالك ويجلى همك ،

والمراد من المكذبين أولى النعمة : هم صناديد قريش وزعماؤها (وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) أى : ولا تضق ذرعاً بهم واتركهم زماناً قليلاً وهو مدة حياتهم فى الدنيا ، أو المدة الباقية لهم إلى يوم بدر ، وبعدها فسيهلكهم الله ويكفيك شرهم .

وفى قوله تعالى :(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) إدخال مزيد اطمئنان على قلب الرسول الكريم بأنه - سبحانه - آخذ هؤلاء لامحالة بشديد عقابه جزاء تكذيبهم ، وإلاَّ فهل يستطيع الرسول ﷺ أو غيره مهما علا سلطانه واشتد جبروته وقوى طغيانه أن يحول بين الله وأحد من خلقه ؟!

١٢ ، ١٣ - (إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً) :

أى : إن عندنا ما ننتقم به منهم ، إن لدينا قيودًا ثقيلة لا يستطيعون منها فكاكاً ولا معها تحركاً ، كما اعتدنا لهم نارًا شديدة الاشتعال والاتقاد يلقون فيها وتسعر بهم ، وهيأنا لهم طعاماً من الضريع والغسلين والزقوم يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج ، كما أن لهم نوعاً آخر من العذاب شديد الإيلام لايعرف كنهه ولا قدره إلاَّ الله - عزَّ وجلَّ - .

١٤ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً) :

أى : ننكل بالكافرين ونعذبهم يوم تضطرب الأرض والجبال وتنزلزل حتى تصير الجبال رملا مجتمعاً رخوًا لينا بعد أن كانت صخرًا صلباً وحجارة صماء .

هدد الله - سبحانه - المشركين وخوفهم بهذا العذاب الأليم وذلك المآل المخزى يوم القيامة إذا استمروا على شركهم وعنادهم .

(إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَبِيلاً) : ثقيلاً غليظاً ردىء العاقبة .

(مُنفَطِرٌ بِهِ) : متشقق ومتصدع بشدة ذلك اليوم .

التفسير

١٥ ، ١٦ – (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً • فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) :

أى : إنا بعثنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة رسولا يخبرنا يوم القيامة بما شاهده وعاينه من كفركم وعنادكم وعصيانكم ؛ حتى لا تكون لكم حجة ، وستواجهون بما قدمتم من جرائم الأعمال وقبيح الفعال ، وتكذيبكم له ﷺ وفعلُنا هذا هوسنة قد أجريناها على الأمم قبلكم « سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[1] فقد أرسلنا إليكم محمدًا ﷺ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا وهو موسى – عليه السلام – (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) كما عصيتم رسولكم وكذبتموه (فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً) أى : انتقمنا منه انتقاماً ذريعاً وعذبناه عذابا ثقيلا غليظاً ، وسيكون عقاب المكذبين منكم أشد وأقسى

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

من عقاب ذلك الفرعون وقومه : لأن رسولكم يشهد عليكم عند ربكم ، ولو آمنتم لكانت شهادته لكم .

وقد جاء فى هذا الوضع ذكر قصة موسى وفرعون دون سائر الرسل والأمم ؛ لأن أهل مكة استهزأوا برسول الله ﷺ واستخفوا به لأنه ولد فيهم وتربى بينهم ، كما أن فرعون ازدرى موسى لأنه رباه وولد – عليه السلام – فيما بينهم ، وهو قوله : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ »[1] .

١٧ – (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) : هذا توبيخ وتقريع ، أى : إذا بدا لكم وجال بخاطركم أنكم لن تؤخذوا بأعمالكم السّيئة وفعالكم القبيحة وتكذيبكم رسول الله كما أخذ فرعون أخذًا شديدًا وعذَّبه عذاباً غليظاً ، فكيف تَقُونَ أنفسكم وتحفظونها من هول يوم القيامة وما أعد لكم فيه من القيود والأغلال إن دمتم على ما أنتم فيه حتى زهقت أرواحكم وأنتم كافرون ؟ ! وما ينبغى لكم يا أولى الأحلام والنُّهَى أن تكونوا كذلك وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، أو : كيف لكم بالتقوى ، وأنَّى لكم بها يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا (يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) هذا مثل فى الشدة ، يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال ، والأصل أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت واشتدت على الإنسان أسرع فيه الشيب ، قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وقيل : إن الكلام على الحقيقة استنادًا إلى ماجاء فى حديث الشفاعة ، وفيه أن الله – سبحانه – يأمر آدم – عليه السلام – (أن يخرج بعث النار من كل ألف : تسعمائة وتسعة وتسعين ، فيخرجون ويساقون إلى النار سوقاً مُقَرَّنين زُرْقاً) قال ابن مسعود : « فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد » .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الشعراء .

١٨ - (السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) :

المراد من السماء : كل مافوقك من السموات والكواكب والنجوم وغيرها مما أظلك وعلاك ، والمعنى : السماء مع عظمها وإحكامها تتصدع وتتشقق وتتداعى من هول ذلك اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ؟ أو : أن السماء مثقلة به إثقالا يؤدى إلى انفطارها وتصدعها لعظمته عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله تعالى : « ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ[1] » (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) أى : كان وعد ذلك اليوم واقعاً لا محالة ؛ لأن حكمة الله وعلمه يقتضيان إيقاعه وحصوله ، أو أن وعد الله واقع لامحالة لأنه - سبحانه - منزه عن الكذب « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً »[2].

١٩ - (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً) :

أى : إن هذه الآيات التى سبقت فى هذه السورة وفيهامافيهامن القوارع والزواجر هى تذكرة ومواعظ اشتملت على أنواع الهداية والرشاد ، فمن شاء وأراد اتعظ بها واتخذ طريقاً إلى الله بالتقوى والخشية والتقرب والتوسل إليه - سبحانه - بالاشتغال بالطاعات والاحتراز والبعد من المعاصى والسيئات .

---

(١) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ١٢٢ من سورة النساء .

* ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۙ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفـــردات :

(تَقُومُ) : تصلى .

(أَدْنَىٰ) : أقل .

(عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) : علم أن لن تطيقوا ضبط وقت قيام الليل .

(فَتَابَ عَلَيْكُمْ) : فخفف عليكم ورفع التبعة عنكم فى ترك قيامه المقدر .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) أى : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن .

(يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ) : يسافرون فيها للتجارة ونحوها .

(وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) : وذلك بإنفاق ما سوى المفروض من المال فى سبيل الخير عن طيب نَفس .

(هُوَ خَيْرًا) : هو خيراً مما خلفتم وما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

التفسير

٢٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

فى أول السورة الكريمة جاء الأمر الإلٰهى لرسول الله بقيام قدر من اللَّيل ، وخضع الرسول ، لأمر ربه ، ولبى نداء السماء ، ومعه جماعة من أصحابه اقتدوا به ، ثم خفف الله عنهم فى آخرها بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) وأمرهم بالصلاة والزكاة والصدقة والاستغفار .

ومعنى الآية : إن ربك الذى رباك على موائد كرمه يعلم أنك يا محمد تقوم من الليل أقل من ثلثيه حيناً وتقوم نصفه حيناً وتقوم ثلثه حيناً آخر ، وتقوم معك طائفة من أصحابك تأدبوا بآدابك وحَذَوْا حَذْوَك ونسجوا على منوالك واهتدوا بهديك ومنهم من كان لا يدرى كم صلَّى فى الليل وكم بقى منه ، ولا يدرى متى نصف اللَّيل من ثلثه فكان يقوم الليل كله احتياطيًّا مخافة أن يخطىء حتى انتفخت أقدامهم ، وامتقعت ألوانهم سنة أو أكثر فرحمهم الله وخفف عنهم فقال : (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أى : يعلم مقادير اللَّيل والنهار على حقائقها وأنتم تعلمون بالتَّحَرِّى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار وضبط ساعاتهما كما هى إلا الله وحده (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) علم الله أنَّ الشَّأن لن تقدروا على تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات ، ولايتأتى لكم حسابها إلا أن

تأخذوا بالأكثر والأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى : فرجع بكم إلى التخفيف بالترخيص فى ترك القيام المُقَدَّر ورفع التبعة عنكم فى تركه كما ترفع التبعة عن التائب ، وعاد إليكم بالعفو ، وهذا يدل على أنَّه كان فيهم من ترك بعض ما أُمِر به ، وقيل : فتاب عليكم من فرض القيام إن عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع ، فالمعنى رجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وكانوا أمروا بحفظ الأوقات على سبيل التحرى فخفف عنهم ذلك التحرى .

(فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ) أى : فَصَلُّوا مايتيسر لكم من صلاة الليل ، وعبّر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها ببعض أركانها فقال تعالى : « يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا »[1] . أى : أقيموا الصلاة ، وقيل : الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بينها قال السدى : مائة آية ، وقال سعيد : خمسون .

ومن ذهب إلى الأول قال : إن الله فرض قيام مقدار معين من الليل فى قوله تعالى : (قُمِ اللَّيْلَ) الآية إلى قوله : (أَوْ زِدْ عَلَيْهِ) ثم نسخ بقيام مقدار ما منه فى قوله سبحانه : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) فالأمر فى الموضعين للوجوب إلا أن الواجب أولا كان معيناً محدودًا ، والثانى كان بعضاً مطلقاً ثم نسخ وجوب القيام على الأُمة مطلقاً بالصلوات الخمس وغيرها .

ومن ذهب إلى الثانى قال : إن الله رخص لهم فى ترك القيام وأمر بقراءة شىء من القرآن ليلاً فكأنه قيل : فتاب عليكم ورخص فى التَّرك فاقرءوا ما تيسر من القرآن إن شق عليكم القيام فإن هذا لايشق وتنالون بهذه القراءة ثواب القيام ، وصرح جمع أن قوله تعالى : (فَاقْرَءُوا) على هذا أمر ندب بخلافه على الأول .

قال العلامة الآلوسى : واعلم أنهم اختلفوا فى أمر التهجّد :

١ — فعن مقاتل وابن كيسان أنه كان مفروضاً بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بها إلا ما تطوعوا به ، ورواه البخارى ومسلم فى حديث جابر ، وقد روى ذلك

(١) سورة الحج من الآية : ٧٧

أيضاً فى حديث سعد بن هشام عندما سأل السيدة عائشة عن قيام رسول الله وقد سبق ذلك فى أول السورة .

٢ - وقيل : كان نفلا بدليل التخيير فى المقدار ، وبدليل قوله تعالى :

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ »[1] .

٣ - وعن ابن عباس : سقط قيام الليل عن أصحاب رسول الله ﷺ وصار تطوعاً وبقى ذلك فرضاً على رسول الله .

بقى هنا بحث : وهو أن الإمام أبا حنيفة - رضى الله عنه - استدل بقوله تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) على أن - الفرض - فى الصلاة مطلق قراءة ما تيسر من القرآن لا الفاتحة بخصوصها - وهو ظاهر على القول بأنه عبّر فى الآية عن الصلاة بركنها وهو القراءة ، كما عبر عنها بالسجود والقيام والركوع فى مواضع - وقدّر ما تيسر من القرآن بآية .

وخص الشافعى ومالك ما تيسر من القرآن بالفاتحة واحتجوا على وجوب قراءتها فى الصلاة بحجج كثيرة ، فعن أبى هريرة عنه - عليه الصلاة والسلام - قال : « لاتجزىء صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » اهـ آلوسى مع التلخيص والتصرف (عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى) استئناف مبين لحكمة أخرى غير ما تقدم من عسرة ضبط الأوقات التى يطلب منكم قيام الليل فيها ؛ أى علم أن الشأن سيكون منكم مرضى يشق عليهم الليل (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ) .

أى : وآخرون يسافرون فى الأرض وينتقلون بين أجزائها للتجارة والعمل يطلبون رزق الله وخيره ، وقيام الليل يشق عليهم (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) أى : وآخرون يجاهدون فى سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دعوته . وفى قَرْنِ الْمُسَافرين لابتغاء فضل الله الطالبين للتجارة والعمل بالمجاهدين فى سبيل الله إشارة إلى أنهم كمثلهم فى الأجر وهكذا

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

الإسلام جعل العمل عبادة بل جعله من أعظم أنواع العبادات وأفضلها لأنه قرن العمل بالجهاد فى سبيل الله .

وهكذا الإسلام سعى لإقامة حياة سعيدة قوامها العمل الجاد النافع للناس ، والجهاد لنشر دين الله ، وحاول الفلاسفة والمصلحون من البشر إقامتها فعجزوا وأقامها محمد ﷺ وأصحابه الذين نشروا دعوته وأقاموا منهج السماء فى الأرض .

أخرج سعيد بن منصور والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهما أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : ما من حال يأتينى عليه الموت - بعد الجهاد فى سبيل الله - أحبّ إلىّ من أن يأتينى وأنا بين شعبتى جبل ألتمس من فضل الله - ثم تلا هذه الآية : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ) ... إلخ .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه لسعر وقته إلّا كانت منزلته عند الله ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) » .

قال ابن كثير : وهذه الآية - وهى قوله تعالى - : (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ) بل السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ؛ لأنّها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية .

وإذا كان الأمر كما ذكر وتعددت مقتضيات الترخيص (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) أى : فاقرءوا ما تيسر من القرآن من غير تحمل مشقة ، وقال ابن كثير : قوموا بما تيسر عليكم منه ، وهو مذهب الحسن البصرى كان يرى حقّاً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشىء قليل منه فى الليل ، ولو بقراءة خمس آيات ، وقال القرطبى : أى : فَصَلُّوا ما أمكن فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أى : واظبوا على أداء الصلاة المفروضة (وَآتُوا الزَّكَاةَ) أى : وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم لمستحقيها ، وقيل : المراد من الزكاة : زكاة الفطر ، وقيل : صدقة

التطوع (وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً) يجوز أن يراد بهذه الآية الإنفاق فى سائر الصدقات ، أو أن يُراد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأكثره نفعاً للفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق ، أو أن يراد كل شىء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال . فالله يجازى عليه أحسن الجزاء وأوفره ، وعن عمر بن الخطاب : هو النفقة فى سبيل الله (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا) :

قال ابن كثير : أى : جميع ما تقدمونه بين أيديكم وأنتم أحياء فهو لكم حاصل ثوابه ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا ومما تركتم وخلفتم .

قال رسول الله ﷺ : « أيكم مالُهُ أحبُّ إليه من مال وارثه ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : اعلموا ما تقولون ، قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ، قال : إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » رواه البخارى .

(وَأَعْظَمَ أَجْرًا): وأجزل ثوابًا - قال القرطبى : قال أبو هريرة : هو الجنة ، وقيل : لإعطائه بالحسنة عشرًا أو أكثر .

(وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ) أى : اطلبوا منه المغفرة فى كافة أحوالكم ، فإن الإنسان قلما يخلو مما يعد تفريطًا بالنسبة إليه ، وعَدّ من ذلك الصوفية رؤية العابد ، عبادته ، قيل : ولهذه الإشارة أمَر بالاستغفار بعد الأوامر السابقة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقراض الحسن .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ): وهو سبحانه يغفر ذنب من استغفره ، ويرحمه - عز وجل - وفى حذف المعمول دلالة على العموم ، نسأل الله عظيم مغفرته ورحمته ، قال القرطبى : (غَفُورٌ) لِمَا كان قَبْلَ التوبة (رَحِيمٌ) : لكم بعدها : قاله سعيد بن جبير .

سورة المدثر

سورة المدثر مكية ، وآياتها ست وخمسون آية

مناسبتها لما قبلها :

سورة المدثر متفقة مع سورة المزمل التى قبلها فى الافتتاح بنداء النبى ﷺ فى كل منهما ، كما بدئت سورة المزمل بالأمر بقيام الليل وهو عبادة خاصة ، وبُدِئت سورة المدثر بالأمر بالإنذار وفيه من التكميل ما فيه .

اول ما نزل من القرآن :

قال الآلوسى : أخرج أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) . قلت : يقولون : (اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . قال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلتُ له مثلَ ما قُلتَ فقال جابر : لا أُحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنُودِيت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئًا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئًا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئًا ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فجئثت[1] منه رعبًا ، فرجعت فقلت : دثرونى ، فنزلت : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) وظاهر ذلك الخبر أن سورة (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) نزلت قبل سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

والمَرْوِى فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة أنَّ قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) أول ما نزل من القرآن ، وهو الذى ذهب إليه أكثر الأئمة ، حتى قال بعضهم : هو الصحيح ، ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب للتوفيق بينهما فذكر (صاحب الإتقان) : خمسة أجوبة منها :

١ ـ أن السؤال فى حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة ، فتَبَيَّن أن سورة المدثر نزلت بتمامها قبل تمام سورة اقرأ ، فإن أول ما نزل منها صدرها : من أول السورة إلى قوله تعالى : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) .

(١) فجئثت — أى : ذعرت وخفت .

٢ – أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة – انتهى ملخصًا .

من مقاصد السورة :

تبدأ السورة الكريمة بنداء النبى ﷺ ودعوته لإنذار قومه وتعظيم ربه وتخلقه بكريم الخصال ، ثم بحديث عن القيامة وأهوالها ، ثم بأمر من الله لنبيه بترك الجاحد لنعم الله عليه المكذب بالآيات ؛ لأن الله وحده سيكفى الرسول أمره وسيتولى عقابه ، وتُصَوِّر باقى السورة الكريمة أحوال هذا المكذب وهو يفكر فيما يقول فى القرآن تصويرًا دقيقًا فتقول : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِن هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) .

يا سبحان الله ؟ بعد كل هذا التفكير العميق عاد ذلك الجاحد يردد ما قاله المكذبون من قبله !! وتذكر الآيات عقابه سقر وأوصاف سقر ، ثم بينت السورة الحكمة فى جعل خزنة النار من الملائكة والسر فى كونهم على هذه العِدّة المذكورة فى القرآن ، ووضحت الآيات أن كل نفس مرهونة بعملها من خير أو شر ، وأن أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم تبكيتًا : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) فذكروا لهم ما فعلوه من ذنوب فى الدنيا عوقبوا عليها يوم القيامة ، وجاء فى الآيات تشبيه الكفار لإعراضهم عن الحق بهذا التشبيه المهين (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) .

وختمت السورة بالحديث عن القرآن ووصفه بأنه تذكرة لمن شاء أن يتذكر ، وبالثناء على الله بأنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(الْمُدَّثِّرُ) : لابس الدثار ، وهو ما فوق القميص ، وهو رسول الله ﷺ .

(قُمْ) : أى : قم من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

(فَأَنْذِرْ) أى : فحذر الناس وخوفهم من عذاب الله .

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) : وخُص ربك بالتكبير والتعظيم ، أو بقول : الله أكبر .

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) : كناية عن التخلق بالأخلاق الحسنة ، أو تقصير الثياب لتسلم من النجاسة ومن الخيلاء .

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) : اترك المآثم الموجبة للعذاب كالشرك .

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) : ولا تعط مستكثرًا - أى : رائيًا ما تعطيه كثيرًا - أو طالبًا الكثير .

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) : ولوجه ربك وابتغاء مرضاته فتخلق بالصبر .

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) : فإذا نُفِخ فى الصُّور للبعث والنُّشور - والنَّاقور - فَاعُول من النقر ، بمعنى التصويت - وأصله : القرع الذى هو سببه ، ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به .

التفسير

١ - (يَٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) :

أى : المتلفف بثوبه المتغشى به ، واللفظ - على ما قيل - دائر على معنى السَّتر على سبيل الشمول .

نودى ﷺ باسم مشتق من صفته التى كان عليها وقت نزول الوحى عليه ؛ ملاطفة له ؛ وبعثًا للأنس فى نفسه ، وطلب تَدَثُّره - عليه الصلاة والسلام - لما اعتراه من خوف وأصابه من رعب حين رأى الملك الذى جاءه بحراء ، فرجع وقال لأهل بيته : (دثرونى) فنزل (يَٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ) .

وقيل : المراد بالمدثر : المتدثر بالنبوة والكمالات النفسية ، على معنى : المتحلى بها ، والمتزين بآثارها ، وقيل : الظاهر أن يُرَاد بالمدثر وكذا بالمزَّمل ، الكناية عن المستريح الخالى البال البعيد عن الشواغل ؛ لأنه فى أول البعثة ، فكأنه قيل له - عليه الصلاة والسلام - : قد مضى زمن الراحة وجاءتك أعباء الدعوة .

٢ - (قُمْ فَأَنذِرْ) :

(قُمْ) أى : قم من مضجعك ، أو : قم قيام عزم وتصميم وشمر عن ساعد الجد ، فقد جاء الأمر الإلٰهى الآن باصطفائك رسولًا ، فقد جاء الأوان لتباشر مهمتك وتنشر رسالتك وتقود البشرية إلى بر السلامة ، وتلزمها منهج الله ، ولذا جاء قوله تعالى : (فَأَنذِرْ) أى : فحذِّر الناس وخوِّفهم من عذاب الله وعقابه إن لم يؤمنوا ، ولم يقل هنا : (وبشِّر) لأنه كان فى ابتداء الرسالة ، والإنذار هو الغالب إذ ذاك ، أو هو من باب الاكتفاء ؛ لأن الإنذار يلزمه التبشير .

٣ - (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) :

أى : واخصص ربك ومالكك ومتولى أمرك بالتكبير : وهو وصفه تعالى بالكبرياء ، والعظمة اعتقادًا وقولًا .

ويروى أنه لَمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : الله أكبر فكبَّرت خديجة ، وأيقنت أنه الوحى ، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك ، وبعد الأمر السابق فى قوله : (قُمْ فَأَنْذِرْ) ذكرت جملة (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) مقدمة على سائر الجمل والأوامر التى تأتى بعدها إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير ، وإيماء - على ما قيل - إلى أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه ويعظمه وينزهه عن الشرك : فإن أول مايجب على العبد معرفة الله تعالى ، ثم تنزيهه عمَّا لا يليق به ، وقد يقال : لعل ذكر هذه الجملة أولا لتشجيعه - عليه الصلاة والسلام - على الإنذار وعدم مبالاته بما سوى الله - عز وجل - حيث تضمنت الإشارة إلى أن نواصى الخلائق بيده تعالى ، وكل ما سواه مقهور تحت كبريائه تعالى وعظمته ، فلا ينبغى أن يرهب إلا منه ، ولا يرغب إلَّا فيه ، فكأنه قيل : قم فأنذر ، واخصص ربَّك بالتكبير والتَّعظيم ، ولا يصدنك شىء عن الإنذار ، قيل : ويجوز أن يحمل قوله تعالى : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) على التكبير فى الصلاة - ذكر ذلك القرطبى والآلوسى والزمخشرى -

٤ - (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) :

(١) أمر الله رسوله ﷺ أن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ؛ لأن طهارة الثوب شرط فى صحة الصلاة ، وهى الأولى فى غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثًا .

(٢) وقيل : هو أمر بتقصيرها ومخالفة العرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول علامة الكبر والخيلاء ، فوق ماتتعرض له من الإصابة بالنجاسة .

(٣) وقيل : هو أمر بتطهير النفس مِمَّا يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات ، يقال : فلان طاهر الثياب : إذا وصفوه بالنقاء من العيوب ودنس الأخلاق ، وفلان دنس الثياب للغادر .

٥ - (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) :

أى : والعذاب فاترك ، والمعنى : دم على ترك مايوصل إلى العذاب من عبادة الأوثان والتخلق بالأخلاق الرديئة ، فقوله سبحانه : (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) كلام جامع فى مكارم

الأخلاق ، فكأنه قيل : اهجر الجفاء والسّفه وسوء الخُلُق وكل شيء يقبح : كالأصنام وعبادة الأوثان ؛ فإنها تنتهى بصاحبها إلى العذاب .

٦- (وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ) :

(١) قال ابن عباس : المعنى : لا تُعْطِ العطية تلتمس أكثر منها ، وهذا خاص بالنبى ﷺ لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب .

(٢) وقال الحسن البصرى : ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، واختاره ابن جرير .

(٣) وعن مجاهد : ولا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ وقال : « (لا تمنن) فى كلام العرب : لا تضعف » .

(٤) وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها تأخذ عليها عرضًا من الدنيا .

(٥) وقيل : ولا تعط مستكثرًا ، أى : رائيًا لما يعطيه كثيرًا . فهذه أقوال ، والأظهر القول الأول .

٧- (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) :

أى : ولوجه الله : مربيك ومالكك فاقصد جهته وجنابه وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه ، فتجمل بالصبر على وجه العموم ؛ ليفيد كل مصبور عليه ومصبور عنه ، أو يراد : الصبر على أذى المشركين لأنه أحد ما يتناوله العام ، لا لأنه وحده هو المراد .

وفضائل الصبر لا تحصى ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1] ، وقوله ﷺ : قال الله تعالى : « إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدى مصيبةً فى بدنِه أو مالِه أو ولدِه ثم استقبلَ ذلك بصبرٍ جميل استحييتُ منه يومَ القيامةِ أن أنصبَ له ميزانًا ، أو أنشرَ له ديوانًا » .

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الزمر .

٨، ٩، ١٠ـ (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) :

الفاءُ فى قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) للسببية ، كأَنه قيل : اصبر على أذاهم ؛ فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك . والفاءُ فى قوله تعالى: (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ) للجزاء ، والعامل فى (إِذَا) ما دل عليه قوله تعالى : (فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ) أى : فإذا نقر فى الناقور صعب الأَمر وعسر على الكافرين و (ذالك) إشارة إلى وقت النقر المفهوم من قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ) والمراد به يوم القيامة ، والمعنى :

فإذا نفخ فى الصور فذلك الوقت يومئذ شديد على الكافرين غير سهل ولا ميسر ، فلا يتسنى لهم أن يخلصوا ممَّا هم فيه وما يلاقونه من مناقشة الحساب وغيره من الأَهوال التى يجدونها فى ذلك الوقت العصيب الرهيب .

وفائدة قوله تعالى : (غَيْرُ يَسِيرٍ) بعد قوله تعالى : (عَسِيرٌ)ـ وهو مفهم له ـ تأْكيد لعسره على الكافرين فهو يمنع أن يكون عسيرا عليهم من وجه دون وجه كما يشعر بتيسيره على المؤمنين ، كأَنه قيل : عسير على الكافرين غير يسير عليهم ، كما هو يسير على أضدادهم المؤمنين ففيه جمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة للمؤمنين وتسليتهم ، ومع هذا لا يخلو قلب المؤمن من الخوف ، أَخرج ابن سعد والحاكم عن بَهْز بن حكيم قال : أَمَّنا زرارة بن أَوفى فقرأَ المدثر ، فلما بلغ قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ) خرَّ ميِّتًا . فكنت فيمن حمله ، وأَخرج ابن أَبى شيبة والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : لَمَّا نزلت (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ) قال رسول الله ﷺ : كيف أَنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤْمر ؟

قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله توكلنا ـ ذكر ذلك الآلوسى وغيره . واختلف فى أَن المراد بذلك الوقت يوم النفخة الأُولى ، أَو يوم النفخة الثانية ، ورجح أَنه يوم الثانية لأَنه الذى يختص عسره بالكافرين ، وأَما وقت النفخة الأُولى فحكمه الذى هو (الصعق) يعم البر والفاجر ، وهو على المشهور مختص بمن كان حيًّا عند وقوع النفخة .

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾)

المفـــردات :

(ذَرْنِي) : اتركني ودعني .

(مَمْدُودًا) : مبسوطًا كثيرًا دائمًا غير منقطع .

(وَبَنِينَ شُهُودًا) : وبنين حضورًا معه لا يفارقونه للتكسب لغناهم عنه .

(وَمَهَّدتُّ لَهُ) : وبسطت له النعمة والرياسة والجاه ، والتمهيد عند العرب : التوطئة والتهيئة ومنه مهد الصبي .

(كَلَّا) : كلمة زجر وردع له عن طمعه وقطع لرجائه الخائب ، أى : لست أزيده مع كفره بالنعم .

(لِآيَاتِنَا) أى : آيات الله المنعم ، وهى دلائل توحيده ، أو القرآن .

(عَنِيدًا) : جاحدًا لها مكذبًا بها مُعرضًا عنها .

(سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) : سأكلفه بصعود عقبة شاقة المصعد ، وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق .

(إِنَّهُ فَكَّرَ) : إنه فكر ماذا يقول فى شأن القرآن والرسول من الاختلاق .

(وَقَدَّرَ) : وَرَتَّب وهيَّأ فى نفسه قولا كاذبًا فى القرآن والنبى ، والعرب تقول : قدرت الشىء : إذا هيأته .

(فَقُتِلَ) : لُعِن وكُذِّب وقُهر وغُلب .

(كَيْفَ قَدَّرَ) : كيف هيأ هذا الطعن ، وذلك تعجيب من تقديره وإصابته الغرض الذى يرجوه قومه .

(ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) : ثم استحق الهلاك ؛ كيف أعد فى نفسه هذا الطعن .

(ثُمَّ عَبَسَ) : ثم قطَّب وجهه وقبض بين عينيه .

(وَبَسَرَ) : اشتد فى العبوس وكلوح الوجه .

(سِحْرٌ يُؤْثَرُ) : سحر يُرْوى ويُنقل عن السحرة .

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) : سأدخله جهنم ليحترق فيها . وسميت جهنم بسقر ، من : سَقَرَتْهُ الشمس : إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه .

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) : مبالغة فى وصفها ، أىْ : أىّ شىء أعلمك ما جهنم ؟!

(لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) : لا تبقى شيئًا يلقى فيها إلَّا أهلكته ، وإذا هلك لم تذره هالكًا حتى يعاد .

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أى : يتولى أمر النار ، ويلى تعذيب أهلها تسعة عشر ملكًا ، أو صَفًّا ، أو صنفًا .

التفسير

١١ - (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) :

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية ومابعدها فى الوليد بن المغيرة ، بل قيل : إن هذا القول متفق عليه ، والمعنى : يقول الله تعالى متوعدًا هذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فجحد بها وبدَّلها كفرًا وقابلها بالإنكار لها والافتراء عليها .

(وَحِيدًا) أى : دعنى وحدى مع من خلقته فأنا أكفيك أمره وأغنيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . وفى الأسلوب ما فيه من التهديد والوعيد ، حسبك أن الذى سيتولى جزاءه وعقابه هو الله . أو المعنى : اتركنى مع من خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر ومساعد فى إهلاكه ، أو ذرنى ومن خلقته وحيدًا فريدًا لا مال ولا ولد ، ولقد كان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد ، فتهكم الله به وبلقبه وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى جهة ذمه وعيبه ، وهو أنه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد ، فآتاه الله ذلك ، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه !! أو : وحيدًا فى الخبث والشر ، أو وحيدًا عن أبيه لأنه كان لم يعرف نسبه للمغيرة حقيقة .

١٢ - (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا) :

أى : ووليته وأعطيته مالا مبسوطًا كثيرًا ، أو ممدودًا بالنماء ، قيل : كان له الضرع والزرع والتجارة ، وعن ابن عباس : هو ما كان له بين مكة والطائف من النعم والجنان ، والعبيد ، وقيل : كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاءً .

١٣ - (وَبَنِينَ شُهُودًا) :

أى : ومنحته ورزقته بنين شهودًا ، أى : حضورًا معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم لا يفارقونه بالسفر فى عمل أو تجارة ، لوفور نعمهم وكثرة خدمهم ، أو حضورا فى الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم ، أو تسمع شهادتهم فيما يُتَحَاكم فيه ، واختلف فى عددهم : فعن مجاهد

أنهم عشرة ، وعن السدى والضحاك : كانوا اثنى عشر ، سبعة ولدوا بمكة ، وخمسة ولدوا بالطائف ، وقيل غير ذلك ، وكلهم رجال ، أسلم منهم ثلاثة :

١ - الوليد بن الوليد . ٢ - وخالد . ٣ - وهشام .

١٤ - (وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا) :

أى : وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى أقام ببلدته مطمئنًا مترفهًا يُرْجع إلى رأيه ، فأتممت عليه نعمة المال والجاه ، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا ، وأصل التمهيد فى التسوية والتهيئة ، وتُجُوِّزَ به عن بسطة المال والجاه ، وكان لكثرة غناه ونضارة حاله الرائقة فى الأعين يلقب ريحانة قريش ، وكذلك كانوا يلقبونه بالوحيد ، بمعنى : المتفرد باستحقاق الرياسة .

١٥ - (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) :

أى : ثم يطمع أن أزيده على ما أعطيته وأديته له من المال والولد والجاه مع عدم الشكر ، وهو استبعاد لنيله ما يريد ، واستنكار لشدة طمعه وحرصه ، إما لأنه فى غنى تام لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة ، أو لأنه مناف لما هو عليه من كثرة النعم ومعاندة المنعم ، واستعمال (ثم) للاستبعاد كثير ، وقيل : معنى (ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) أى : يطمع أن أترك ذلك فى عقبه .

١٦ - (كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) :

(كَلَّآ) : ردع وزجر له عن طمعه وقطع لرجائه ، أى : لست أزيده (إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا) : جملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لتعليل ماسبق ، كأنه قيل : لِمَ زُجِر عن طلب المزيد وما وجه عدم لياقته ؟ فَقِيل : إنه كان معاندًا لآيات المنعم كافرًا بها ، وآيات الله هى دلائل توحيده ، أو الآيات القرآنية حيث قال فيها ما قال ، والمعاندة تمنع من الزيادة ، بل هى تستوجب الحرمان ، قال مقاتل : ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك ، وعن مجاهد : (عَنِيدًا) : مجانبًا للحق معاندًا له معرضًا عنه ، والعرب تقول : عَنَد الرجل : إذا عَتَا وجاوز قدره .

١٧ - (سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا) :

الإرهاق فى كلام العرب : أن يُحْمل الإنسان على الشىء . والمعنى : سأُكلفه فى النار بما لا يقدر عليه ، وأحمله على صعود عقبة شاقة المصعد ، أو : هو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذى لا يطاق ، وروى أن النبى ﷺ قال : يكلف أن يصعد عقبة فى النار كلما وضع عليها يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، فإذا رفعها عادت .

وذكر القرطبى أن معنى الآية - كما قال ابن عباس : سأُكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه .

١٨ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ)

تعليل للوعيد السابق واستحقاقه له ، كأن الله عاجله بالفقر بعد الغنى والذل بعد العز فى الدنيا لعناده ، ويعاقبه فى الآخرة أشد العذاب وأعظمه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه فى تفكيره ، وتسميته القرآن سحرًا ، والمعنى : أن الوليد فكر وزوّر فى نفسه وأعد وهيأ ما يقوله من الطعن فى القرآن والرسول ، فاستحق بذلك العذاب وذلك أنه لما نزل قوله تعالى : (حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) إلى قوله تعالى : (إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) على النبى ﷺ سمعه الوليد يقرؤُها فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا هو من كلام الجن وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما يقول هذا بشر ، فقالت قريش : صبأ الوليد لَتَصْبُوَنَّ قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزيناً فقال له : مالى أراك حزيناً ؟ فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبى كبشة - يعنى بذلك رسول الله - وابن أبى قحافة - يقصد أبا بكر - لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كِسَر محمد وصاحبه ؟ ! فأنتم تعرفون قدر مالى ، واللات والعُزَّى مالى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه قط يَخْنُق ، قالوا : لا والله ، قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله ،

قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا : لا والله ، قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، وقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتَخَالُجاً[1] فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله .

وكان النبي يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه ، فقالت قريش للوليد : من هو ؟ ففكر فى نفسه ثم نظر ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً وتفرقوا مُعْجَبِين بقوله مُتَعَجِّبين منه ، فذلك قول الله : (إِنَّهُ فَكَّرَ) أى : فى أمر محمد والقرآن . (وَقَدَّرَ) فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما .

١٩ - (فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

تعجيب من تقديره وإصابته المحزّ ورميه الغرض الذى كانت تتمناه وتتوقعه قريش وتتطلبه منه ، أو ثناء عليه تهكماً ، أو حكاية لما كرروه على سبيل الدعاء عليه عند سماع كلمته الحمقاء ، فالعرب تقول : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره : يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك . ومعنى (قُتِلَ) أى : لُعِن ، وكان بعض أهل التأويل يقولون معناها : فقُهر وغُلِب ، وقال الزهرى : عُذِّب ، وهو من باب الدعاء .

٢٠ - (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ) :

ثم استحق العذاب واللعن والهلاك كيف أعد فى نفسه هذا الطعن على القرآن ؟ ! أو على أى حال قدر ، والتكرير للمبالغة كما هو عادة من أعجب غاية الإعجاب ، والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة وأن الثانية أبلغ من الأولى ، فكأنه قيل : قتل بنوع ما من القتل ، لا : بل قتل بأشده وأشده ، والإطراء فى الإعجاب بتقدير الوليد بن المغيرة يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بخلاصة تفكيره .

---

(١) تخالجا : تجاذبا يميناً وشمالا .

٢١ – (ثُمَّ نَظَرَ) :

أى : ثم نظر فى وجوه قومه ، أو فيما يقدح به فى القرآن ويعيبه عليه ويذمه به ، وقيل : نظر بمؤخر عينه تكبرًا وتغيظاً ، أو : فكر فى أمر القرآن وبأى شىء يرده ويدفعه .

٢٢ – (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) :

(ثُمَّ عَبَسَ) أى : ثم قطب فى وجوه الناس لمّا لم يجد فى القرآن مَطْعَناً وضاقت به السبل وأعيته الحيل ، ولم يدر ماذا يقول فى القرآن . وقيل : نظر فى وجوه القوم ثم قطب وجهه ، وقيل : نظر إلى رسول الله ثم قطب فى وجهه – عليه الصَّلاة والسَّلام – (وَبَسَرَ) أى : أظهر العبوس قبل أوانه أو فى غير وقته ، من البَسْر : وهو الاستعجال بالشىء ، وفسره بعضهم بأشد العبوس ، من بسر ؛ إذا قبض ما بين عينيه كراهة للشىء واسود وجهه منه ، ويستعمل البسر بمعنى العبوس .

٢٣ – (ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ) :

أى : ثم رجع معرضاً وانْصَرَفَ عن الحق مدبرًا وتولى مستكبرًا عن الانقياد للقرآن ، والاتباع لمحمد لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء : قوله : (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) وهم أن يرمى بها – وصف القرآن لأشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاء به ، وقيل : قدر ما يقوله ، ثم نظر فيه ، ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ، ولم يدر ما يقول ، ثم أدبر عن الحق وأعرض عنه وتكبر وتعاظم أن يعترف به وقال ما قال فيه .

٢٤ – (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) :

السحر : الخديعة ، وقيل : السحر : إظهار الباطل فى صورة الحق ، والمعنى : ماهذا الذى أتى به محمد ﷺ إلا سحر يأثره عن غيره ويتعلمه منه ، ويروى وينقل عن الأولين مثل سحرة بابل وغيرهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَقَالَ) للدلالة على أن هذه الكلمة الكاذبة كما خطرت ببال ذلك المكذب بها من غير تلعثم ومُكْث وانتظار ؛ فهى للتعقيب من غير مهملة .

٢٥ - (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) :

أى : ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلمه محمد منهم ، ثم ادعى أنه من عند الله ، وخدع به القلوب كما تُخْدع بالسحر ، وهذه الجملة كالتأكيد للجملة الأُولى ؛ لأن المقصود منهما نفى كونه من كلام الله تعالى ، ثم الذى يظهر من تتبع أحوال الوليد أنه قال ما قال عنادًا وحمية جاهلية لا جهلا بحقيقة الحال .

٢٦ - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) :

أى : سأُدخله جهنم كى يصلى حرها ويحترق بنارها ، وقال ابن كثير : سأغمره فيها من جميع جهاته ، وإنما سميت جهنم سقر من : سقرته الشمس : إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدَ وجهه .

٢٧ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) :

أىْ : أىّ شىءٍ أعلمك ما سقر ؟ ! وهذا الأُسلوب مبالغة فى وصفها ، وتهويل وتعظيم بشأْنها ، ثم وصفها وفسر حالها فقال :

٢٨ - (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) :

أى : لا تترك لهم عظماً ولا لحما ولا دماً إلا أحرقته ، وكرر اللفظ تأْكيدًا ، وقيل : لا تُبْقِ منهم شيئاً إلا أهلكته ، ثم يعادون خلقاً جديدًا فلا تلبث أن تعاود إحراقهم هكذا أبدًا .

٢٩ - (لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ) :

أى : مُغَيِّرة للبشرات مُسَوِّدة للجلود ومحرقة لها ، وفى بعض الآثار أنها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادًا من الليل ، واعترض بأَن لا يصح وصفاً بما ذكر من تسويدها لظاهر الجلود مع قوله سبحانه : (لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) الصريح فى الإحراق . وأجيب بأَنها فى أول الملاقاة تُسَوِّد الجلد ثم تحرقه وتهلكه ، وقد يجاب بأَن المراد ذكر أوصافها الفظيعة من

غير ترق من شديد إلى أشد ، وكونها « لواحة » وصف من أوصافها ، ولعله باعتبار أول الملاقاة .

وقال الحسن وابن كيسان والأصم : (لواحة) بتاء مبالغة من (لَاحَ) إذا ظَهَرَ ، والبشَرُ بمعنى الناس ، أى : تظهر للناس لعظمها وهو لها كما قال تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ »[١] .

٣٠ - (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) :

أى : يلى أمرها ويتسلط على أهلها بالعذاب تسعة عشر ملكاً ، ألا ترى العرب الفصحاء كيف فهموا منه ذلك ؟ فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع أن ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدَّهْم (أى : العدد) والشجعان ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل فيهم ؟ ، فقال أبو الأشد بن أسيد كَلَدَة الجُمَحى : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين ، فأنزل الله (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها : أنهم يتولون أمرها وتعذيب أهلها وإليهم رئاسة زبانيتها ، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال : رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وذهب بعضهم إلى أن التمييز المحذوف : صفاً ، أو صنفاً أى : عليها تسعة عشر صَفًّا أو صنفاً .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النازعات .

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون .

(فِتْنَةً) : اختبارًا وامتحاناً ، أو سبب فتنة وضلال .

(لِيَسْتَيْقِنَ) : ليستبين ، أو ليوقن .

(وَلَا يَرْتَابَ) : ولا يشك .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أى : شك ونفاق .

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً) : ما الذى أراده الله بهذا العدد المُسْتَغْرب استغراب المثل .

(كَذَٰلِكَ) أى : مثل إضلال المنكر لهذا العدد كأبى جهل وأحزابه ، وهدى مُصَدِّقه .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) الجنود : جمع جند اشتهر فى العسكر ، اعتبارًا بالغلظة ، من الجند ، أى : الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، ويقال لكل جمع : جندٌ أى : وما يعلم جموع خلقه التى من جملتها الملائكة إلا هو -عز وجل- .

(وَمَا هِيَ) أى : وما سقر - كما قال مجاهد .

(إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) : إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم

(كَلَّا) : ردع لمن يُنْذَرُ بسقر ولم يخف ، وقيل : زجر عن قول أبى جهل وأصحابه .

(وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إِذْ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف وأشرق

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ) أى : إن سقر لإحدى الدواهى العظيمة .

(نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ) : تخويفاً للبشر .

(أَن يَتَقَدَّمَ) أى : إلى الجنة أو الخير بالإيمان .

(أَوْ يَتَأَخَّرَ) : إلى النَّار أو الشر بالكفر .

التفسير

٣١ - (وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) :

(وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً) أى : وما جعلنا خزنة النَّار إلا ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الإنس والجن فلا يأخذهم ما يأخذ المُجَانِس من الرأفة والرحمة ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً فلا يقدر أهل النار عليهم ولا يستطيعون مغالبتهم .

(وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) أى : وما جعلنا عدتهم تسعة عشر إلا اختباراً منا للذين كفروا .

(لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) أى : ليحصل اليقين للذين أوتوا الكتاب من النصارى واليهود بأن ما يقوله القرآن على لسان محمد عن خزنة جهنم وعددهم إنما هو حق من الله تعالى ؛ حيث وافق ذلك ما فى كتبهم .

(وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً) أى : ويزداد إيمانهم بما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أن عدد الخزنة كذلك ، أو بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل .

(وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ) : هذا الكلام تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى المستيقن من شبهة وشك ، أى : ولا يشك فى ذلك الذين أعطوا الكتاب والمؤمنون المصدقون من أصحاب محمد فى أن عدَّةَ خزنة جهنم تسعة عشر ، فإذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس ، ولأن فيه تعريضاً بمن عداهم كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين والمرتابين من أهل النفاق والكفر .

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ) أى : وليقول الذين فى صدورهم شك ونفاق من منافقى المدينة الذين سينجمون ويظهرون بعد الهجرة والكافرون بمكة المصرون على التكذيب ، ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب .

(مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً) أى : ما الذى أراده الله بهذا العدد (تِسْعَةَ عَشَرَ) المستغرب استغراب المثل .

قال الزمخشرى : أى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ؟ وأى حكمة قصدها فى أن جعل الملائكة تسعة عشر لاعشرين ؟ ومرادهم إنكار هذا الأمر من أصله وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . اهـ : بتصرف .

وعنوا بالإشارة (بهذا) التحقير ، وغرضهم نفى أن يكون ذلك من عند الله على أبلغ وجه ، وليس مرادهم الاستفهام حقيقة عن الحكمة .

(كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) ذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ، أى : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهداية يضل الله ويخزى الكافر لصرف اختياره حسب السماع إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالهدى ، ويهدى ويرشد المؤمن لصرف اختياره الحسن عند مشاهدة تلك الآيات .

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى : وما يعلم جنود ربك وما عليه كل جند من العدد ، والحكمة فى كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عقد ناقص ، لايعلم ذلك إلا هو سبحانه ، ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك ، كما لا تعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرض وأيام السنة والشهور والبروج وعدد الصلوات والركعات ، أو ما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها ، وهو يعلمها .

روى الترمذى أن النبى ﷺ قال : « أطَّت[1] السماء وحُقّ لها أن تئط ؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَك واضع جبهته لله ساجدًا » ــ ذكره القرطبى ــ .

قال الآلوسى : وهذه الآية وأمثالها من الآيات والأخبار تشجع على القول باحتمال أن يكون فى الأجرام الأخرى جنود من جنود الله لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو ــ عزَّ وجل ــ ودائرة ملك الله ــ جلَّ جلاله ــ أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر ، أو يصل إلى مركزها طائر الفكر ، وفى كل يوم تظهر لنا الكشوف عجائب وغرائب وبدائع من عجيب خلق الله وصنعه ، وصدق الله : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

واختلف فى المخصص لهذا العدد ــ أعنى تسعة عشر ــ والذى مال إليه أكثر العلماء أن ذلك مما لا يعلم حكمته على التحقيق إلا الله ، وهو كالمتشابه يؤمن العبد به ويفوض علمه

---

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ــ وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها .

إلى الله (وَمَاهِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) أى : وما سقر إلا تذكرة وعظة للبشر وتخويف للخلق ، وقيل : وما هذه العدة (إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ) ليتذكروا بها ويعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

٣٢ - (كَلاَّ وَالْقَمَرِ) :

(كَلاَّ) : ردع وزجر لمن أنذر بسقر ولم يخف . (وَالْقَمَرِ) وما بعده مقسم به .

٣٣ ، ٣٤ - (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) :

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) : قسم بالليل إذ ولى وذهب .

(وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ) : قسم بالصبح إذا أضاء وانكشف ، وفى الحديث « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » أى : صلوا صلاة الصبح مسفرين ، ويقال : طولوها إلى الإسفار ، أى : الإنارة وظهور الضوء .

٣٥ ، ٣٦ - (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ) :

أى : إن سقر لإحدى الدواهى الكبر إنذارًا وتخويفاً للبشر ، على معنى أن البلايا الكبيرة كثيرة وسقر واحدة منها ، قال الآلوسى :فيكون فى ذلك إشارة إلى أن بلاءهم غير محصور فيها ، بل تحل بهم بلايا غير متناهية ، وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشىء أدهى منها ! !

٣٧ - (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) :

أى : نذيرًا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية قال الحسن : هذا وعيد وتهديد ، وإن خُرِّج مُخْرَج الخبر كقوله تعالى : « فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »[1] وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام : أن من يتقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ جوزى بثواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدًا - ﷺ - عوقب عقاباً لا ينقطع .

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رَهِينَةٌ) : مرهونة عند الله بكسبها مأخوذة بعملها .

(يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ) : يسألون عن الكافرين ، أو يسأل بعضهم بعضاً عنهم .

(مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) : ما أدخلكم فى النار ؟

(نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) : نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه لا نبالى به ، والخوض فى الأصل : ابتداء الدخول فى الماء والمرور فيه ، ويستعمل مجازاً فى الشروع فى الباطل .

(الْيَقِينُ) : الموت ومقدماته .

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) : فما لأهل مكة عن العظة بالقرآن منصرفين .

(حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) : حمر وحشية شديدة النفار .

(مِن قَسْوَرَةٍ) : من مُطَارِدِها من أسد أو صائد ، وقيل : القسورة : الأسد ، فَعْوَلة من القسر والغلبة .

(صُحُفاً مُّنَشَّرَةً) : قراطيس واضحة مكشوفة .

(كَلاَّ) : ردع لهم عما أرادوه ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات ، أو بمعنى : حقّاً ، أى حقّاً إن القرآن عظة .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى) أى : الله – سبحانه – حقيق بأن يُتَّقَى عذابه ويؤْمَنَ به ويُطَاعَ .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) : حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

التفسير

٣٨، ٣٩ – (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) :

رهينة مصدر بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم . والمعنى : كل نفس محاسبة على كسبها مأْخوذة بما قدمت من خير أو شر ، رهن بعملها إمَّا خلَّصها وإما أوبقها وأهلكها . (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) : وهم المسلمون المخلصون كما قال الحسن وغيره ، ورواه ابن المنذر عن ابن عباس فإنهم فاكُّون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الدَّيْن ، ونقل عن على بن أبى طالب وابن عمر أنهم أطفال المسلمين . وعن ابن عباس أنهم الملائكة ، قال العلامة الآلوسى : الظاهر سياقاً وسباقاً أن يراد بهم طائفة من البشر المكلفين .

٤٠، ٤١، ٤٢ – (فِى جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) :

(فِى جَنَّاتٍ) : الجملة استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله ، كأنه قيل : ما بالهم ؟ فقيل : هم فى جنات وبساتين لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها . (يَتَسَآءَلُونَ

عَنِ الْمُجْرِمِينَ) أى : يسألون عن الكافرين ، أو سأل بعضهم بعضاً عن المجرمين قائلين : (مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) أىْ : أىّ شىء أدخلكم النّار ؟ ! والسؤال سؤال توبيخ وتحسير ، وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن هؤلاء المجرمين ، فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم : (مَاسَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ) .

٤٣ ، ٤٤ـ (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٭ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) :

أى : قال المجرمون من أهل النار مجيبين للسائلين مبينين لهم أسباب دخولهم النار بقولهم : لم نك من المصلين كما كان يصلى المسلمون المخلصون .

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) أى : ولم نك نعطى المسكين مايجب إعطاؤه ، ولم نك نتصدق عليه ونطعمه ، وهو من بنى جنسنا وإخوتنا فى الإنسانية ـ كما يفعل المسلمون ـ وهكذا لم يقوموا بالواجب عليهم نحو الله بعبادته بالصلاة ، ولا بالواجب الاجتماعى نحو إخوتهم بالزكاة كما يفعل المسلمون الصالحون ، وهدموا بذلك ركنين من أركان الإسلام وهما الصلاة : حق الله ، والزكاة : حق العباد .

٤٥ـ (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) :

ومن أخلاق المجرمين الذين استحقوا بها دخول النار ماحكاه الله عنهم فى قوله تعالى : (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ) أى : وكنا ننغمس فى الباطل والزور ونندفع فيه ، ونخالط أهله دون اكتراث أو مبالاة .

والمراد بالخوض هنا : الشروع فى الباطل ، وأريد بالباطل مالا خير فيه وما لا ينبغى من القول والفعل ، وعُدّ من ذلك حكاية مايجرى بين الزوجين فى الخلوة مثلا ، وحكاية أحوال الفَسَقَة على وجه الالتذاذ بها ، ونقل الحروب التى جرت بين الصحابة لغير غرض شرعى ، بل لمجرد أن يتوصل بها إلى طعن وتنقيص ، والتكلم بالكلمة الفاحشة يُضحك بها الرجل جلساءه ، إلى غير ذلك مما لا يُحصى ، وكان ذكر قوله تعالى : (مَعَ الْخَآئِضِينَ) إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل وترك مبالاتهم به ، فكأنهم قالوا : كنا لا نبالى بباطل

٤٦، ٤٧ - (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) :

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ): هـذه هى الصفة الرابعة من صفات المجرمين التى بها استحقوا دخول النار ، وهى تكذيبهم بيوم الدين وهو يوم البعث والحساب والجزاء ، وتأخير جنايتهم هذه فى الذكر مع كونها أعظم من الكل لتفخيمها كأنهم قالوا : وكنا بعد ذلك كله مكذبين بيوم القيامة ولبيان كون تكذيبهم به مقارنًا لسائر جناياتهم المعدودة إلى آخر عمرهم جاء قوله تعالى : (حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ) أى : حتى نزل بنا الموت ومقدماته ، كما ذهب إليه جُلُّ المفسرين ، ومنه قوله تعالى : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »[1] ، وقول رسول الله ﷺ : (أما هو) يعنى عثمان بن مظعون (فقد جاءه اليقين من ربه) ، وقال ابن عطية : اليقين عندى : صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، والظاهر أن مجموع ماذكر من الصفات هو سبب لدخول مجموعهم النار ، فلا يقدح فى ذلك أن بعض أهل النار من لم يكن قد وجب عليه إطعام مسكين كفقراء - الكفرة المعدمين .

٤٨ - (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) :

أى : لو شفع لهم الشافعون جميعًا من الملائكة والنبيين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم ، والكلام على الفرض ؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله ، وأمَّا من لَقِيَ الله كافرًا يوم القيامة فإن له النار لا محالة خالدًا فيها ، لأنه مسخوط ومغضوب عليه ، والمعنى المقصود : لا شفاعة لهم .

٤٩ - (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) :

أى : فما لهؤلاء الكفرة عمَّا تدعوهم إليه من الدين وتذكرهم به من القرآن وغيره من المواعظ معرضين ومنصرفين - قال مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين :

١ - الجحود والإنكار .

٢ - والوجه الآخر ترك العمل به .

---

(١) الآية ٩٩ آخر سورة الحجر .

٥٠، ٥١ـ (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) :

المعنى : تشبيه هؤلاء الكفار فى فرارهم من الرسول وإعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ وشِرَادهم عنه ونفورهم منه بحُمُر وحشية جَدَّت فى نِفارها ممن طاردها من أسد ، أو روَّعها من قانص ، أو أفزَعَها من صائد أو حبالة ، وقال ابن الأعرابى وثعلب : القسورة : أول الليل ، أى : كأنهم حمر وحشية فرت من ظلمة الليل ، وجمهور اللغويين على أن القسورة الأسد ـ فَعْوَلَةٌ : من القسر ، وهو القهر والغلبة ، وروى ذلك عن ابن عباس كما روى عنه غير ذلك ، وفى تشبيههم بالحمر مَذَمَّة ظاهرة وتهجين بيِّن لحالهم وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل .

٥٢ـ (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً) :

الآية معطوفة على مقدر يقتضيه المقام ـ كأنه قيل : إنهم لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها ، بل يريد كل واحد منهم أن يُؤْتَى قراطيس مفتوحة واضحة مكشوفة تنشر وتقرأ ، أو كتبًا كتبت فى السماء ونزلت بها الملائكة عليهم ساعة كتبت منشرة ومبسوطة على أيديها غضة رطبة لم تُطْو بعد .

وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ائتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلت لكم محمداً ـ نظيره « وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ »[1] ، وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء فيه من رب العالمين : إلى فلان بن فلان ؛ يؤمر فيه باتباعك .

٥٣ـ (كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) :

(كَلَّا) : ردع لهم عمَّا أرادوا وزجر لهم عن اقتراح الآيات .

(بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ) أى : لا أُعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة اغترارًا بالدنيا ، وإنما أفسدهم عدم إيمانهم بالآخرة وتكذيبهم بوقوعها ؛ فلذلك يعرضون عن التذكرة ويفتَنُّونَ فى طلب الآيات واقتراحها ، وليس ذلك ناشئًا عن الامتناع عن إيتاء الصحف وحصول مقترحهم كما يزعمون .

---

(١) من الآية ٩٣ من سورة الإسراء .

٥٤- (كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ) :

(كَلَّآ) : ردع لهم عن إعراضهم (إِنَّهُۥ) أى : القرآن ، أو التذكرة السابقة فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) و (ذكر) لأنه بمعنى القرآن أو الذكر .

(تَذْكِرَةٌ) أى : عظة وأى عظة ، وقيل : المعنى : حقًّا إن القرآن لعظة بالغة نافعة كافية .

٥٥- (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) :

أى : فمن شاء قرأه فاتعظ به ، وقيل : فمن شاء أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينيه فعل ذلك واتعظ به ؛ فإن نفع ذلك راجع إليه .

٥٦- (وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) :

(وَمَا يَذْكُرُونَ) أى : ومايذكرون بمجرد مشيئتهم للذكر كما هو المفهوم من ظاهر قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ) إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته فى أفعاله . (إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ) وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله - عز وجل - ومثله : « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ »[1] .

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ) أى : هو حقيق بأن يتقى عذابه ويؤمن به ويطاع .

(وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) وحقيق بأن يَغْفِر لمن آمن به وأطاعه .

أخرج أحمد والترمذى - وحسنه - والحاكم - وصححه - والنسائى وابن ماجة وخلق آخرون :

عن أنس : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) فقال : « قالَ رَبكُم : أنا أهل أنْ أُتقَى ؛ فلا يُجْعَلْ معى إله ، فَمَنِ اتقانى فلم يَجْعَلْ معى إلهًا آخَرَ فأنا أهلٌ أنْ أغفِرَ لَه » والله أعلم .

---

(١) الآية ٢٩ آخر سورة التكوير .

سورة القيامة

ويقال لها سورة (لَا أُقْسِمُ) وهى مكية وعدد آياتها أربعون .

مناسبتها لما قبلها :

لمّا ذكر تعالى فى السورة التى قبلها وهى (سورة المدثر) قوله سبحانه : « كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ »[1] بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم من الآخرة لإنكارهم البعث ، ذكر جلّ وعلا فى هذه السورة (سورة القيامة) الدليل على البعث بأتم وجه وأقوى حجة .

بعض مقاصد السورة :

١ – بُدِئت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنّفس اللّوّامة على أنّ البعث حق وآتٍ لا ريب فيه ، ووصفت يوم القيامة وأحواله وأهواله : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ...) إلخ .... فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ...) إلخ .

٢ – ولمّا كان الرسول حريصًا على تلقى الوحى وحفظ القرآن فقد طمأنته الآيات على أن الله قد تكفّل له بأن يجمع القرآن فى صدره ، وأن ييسره لتلاوته على الوجه الذى تلقاه عن جبريل ،وأن يُفسّره ويوضّح معناه له :(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...) إلخ .

٣ – ثم زجرت الآيات المنكرين للبعث وبينت أن سببَ إنكارهم له حُبُّهم للعاجلة ، وإقبالهم على ملذّاتها الفانية وتركهم للآخرة ونعيمها الباقى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ..)إلخ .

٤ – وتحدثت السُّورة الكريمة عن المؤمنين يوم القيامة وأن وجوههم تكون ناضرة ، كما تحدثت عن أن وجوه الكافرين تكون باسرة كالحة :(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ....) إلخ . وذكرت أحوال المُحتضر ومايلاقيه من أهوال عظام وشدائد جسام جزاء عصيانه لله وللرسول وتقصيره فى الواجبات حتى إنه ظن ألّا حساب عليه : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ...) إلخ .

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٣ .

٥ - وخُتِمَت السُّورة بذكر الدليل الذى يُوجِب الإيمان بالبعث لأَنّ الذى خلق الإنسان من نطفة وسَوَّاه بشرًا سويًّا قادر على أن يحيىَ الموتى يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم لأَنَّ الإعادة أهون من البدء فى قياس العقل وهو سبحانه على كل شىء قدير : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ...) إلخ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾)

المفـردات :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) : قيل : إن (لَا) نفى لكلام وردٌّ له قبل القسم.. والمعنى : أقسم -على سبيل التوكيد- بيوم القيامة ، وقيل : إن (لَا) هنا لتوكيد القسم وتقويته .

(بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) : النفس التى تلوم صاحبها على الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه وعلى الشر لِمَ فعلته ؟

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) : أيظن الكافر أنّا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة .

(نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) : فى القاموس البنان : الأصابع أو أطرافها وتسويتها إعادتها كما كانت مع صغرها .

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) : يريد الكافر أن يدوم على الفجور مدة عمره .

(يَسْأَلُ) : أى يسأل سؤال استهزاء وتكذيب .

(أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) : متى تقوم الساعة ؟

(بَرِقَ الْبَصَرُ) : بفتح الراء وكسرها : دهش وتحير فزعًا مما رأى من أهوال يوم القيامة .

(وَخَسَفَ الْقَمَرُ) : ذهب ضوؤه أو غاب .

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) : قُرِن بينهما فى الطلوع من المغرب .

(أَيْنَ الْمَفَرُّ) : المَفَرّ بفتح الفاء وبه قرأ الجمهور مصدر أى أين الفرار من أهوال يوم القيامة ؟ وبكسر الفاء وبها قرأ ابن عباس المكان الذى يُفَرّ إليه من ملجأ أو موئل .

(كَلَّا) : ردع عن طلب الفرار أو المَفرّ .

(لَا وَزَرَ) : لا ملجأ وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتحصنت فهو وَزَر .

(إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) : أى استقرار العباد أو مستقرهم أى موضع قرارهم من جنة أو نار فى يوم القيامة إلى ربك وحده .

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) : أى يُخبر الإنسان يومئذ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله .

(عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) : حجة واضحة بينة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال .

(وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) : أى ولو جاء بكل معذرة ماقبلت منه .

والمعاذير : جمع مَعْذِرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، وقيل : اسم جمع ، وقال السدى والضحّاك :

المعاذير : السُّتور بلغة أهل اليمن واحدها مِعْذار .

التفسير

١ - (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) :

قال الزمخشرى : إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

فلا وأبيكِ ابنة العامِرىّ لا يَدَّعِى القوْم أنى أفر

وفائدتها توكيد القسم ، والوجه أن يقال : هى للنفى ، والمعنى فى ذلك أنه لا يُقسم بالشىء إلّا إعظامًا له بذلك ، وعليه قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ »[1] فكأنهُ بإدخاله حرف النفى يقول : إن إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك ، وقيل : إن (لَا) نفى لكلام ورَدٌّ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : (لَا) أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أُقسم بيوم القيامة ... ا هـ كشاف ملخصًا بتصرف .

قال القرطبى: حكى أبو الليث السمرقندى أنه قال: أجمع المفسرون أن معنى (لَا أُقْسِمُ) : أقسم والإتيان بلا صلة ، أى زيادة يجرى كثيرًا فى كلام العرب وقد ورد منه فى القرآن قوله تعالى : « قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[2] أى أن تسجد : والمعنى أقسم وأؤكد القسم بيوم القيامة أى بيوم يقوم الناس فيه لربهم للجزاء والحساب .

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٢ .

٢ - (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) :

أى : أقسم وأؤكد القسم بالنفس اللوامة ، والنفس اللوّامة (كما قال مجاهد) : هى النفس الخَيِّرة التى تلوم صاحبها على الشر لِمَ فعله ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ يستكثر منه فهى لم تزل لائمة وإن اجتهد فى الطاعات . فالمبالغة جاءت لدوام اللّوم .

وقيل : المراد بالنفس اللّوامة ، نفس آدم فإنها لم تزل تلوم نفسها على فعلها الذى خرجت به من الجنة ، قال الآلوسى : وأكثر الصوفية على أن النفس اللّوامة فوق الأمّارة وتحت المطمئنة وعرفوا اللّوامة بأنها هى التى تنورت بنور القلب قدر ما تنبهت عن سِنة الغفلة فكلما صدر عنها سيئة بحكم جِبلّتها الظلمانية أخذت تلوم نفسها ونفرت عنها - اهـ آلوسى .

وقيل : المراد باللّوّامة : المَلُومة المذمومة وهى النفس الفاجرة الجشعة اللّوامة لصاحبها على ما فاته من سعى الدنيا وأغراضها . وجاء نحوه فى رواية ابن عباس ، وهذا قول من نفى أن يكون الكلام قسمًا إذ ليس للمعاصى قدر وشرف يقسم به .

وقيل : المراد بالنفس : جنس النفس الشاملة التقية والفاجرة ، وضعف الآلوسى القولين الأخيرين .

٣ - (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) :

هذا جواب القسم أو دليل الجواب ، أى لتبعثن بعد جمع ما تفرق من عظامكم وصيرورتها رميمًا رُفاتًا مختلطًا بالتراب .

والمراد بالإنسان الجنس والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه ، أى : أيحسب الإنسان أن الشأن ألن نجمع عظامه بعد تفرقها ، والمعنى لِمَ يكون هذا الحسبان الكاذب المُنافِى لحق اليقين وصريحه ، والنسبة إلى الجنس لأن فيه من يحسب ذلك ، بل لعله الأكثرون ، وقيل : المراد بالإنسان جنس الكافر المنكر للبعث ، وجوز أن يكون التعريف للعهد . والمراد بالإنسان هنا عدى بن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق - وهما اللذان كان النبى ﷺ يقول فيهما : (اللّهم اكفنى جارى السوء) فقد روى أنّ عَديًّا جاء إليه

عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد ، حدثنى عن يوم القيامة متى يكون ؟ وكيف يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به ، أوَيجمع الله هذه العظام ؟ فنزلت ، وقيل : هو أبو جهل فقد روى أنه كان يقول : أيزعم محمد أن يجمع الله هذه العظام بعد بلائها وتفرقها فيعيدها خلقًا جديدًا فنزلت . قال الآلوسى : وذكر العظام – وإن المعنى على إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة – لِمَا أنها قالب الخلق .

٤ – (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ) :

أى : نجمع العظام بعد تفرقها وصيرورتها رميمًا ورفاتًا فى بطون البحار وبين الأودية ، والقفار حال كوننا قادرين على تأليف جمعها وإعادتها إلى التركيب الأول وعلى أن نسوى أصابعه التى هى أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، أو على أن نسوى ونضم سلامياته على صغرها بعضها إلى بعض كما كانت أولًا من غير زيادة ولا نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام وما ليس فى الأطراف منها ، وقيل المعنى : بل نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ، أى : نجعلها مستوية شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار لا نفرق بينها فلا يمكنه أن يعمل بها شيئًا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والقبض والبسط والتأتى لما يريد من الحوائج ، وروى هذا عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة – اهـ آلوسى والكشاف – .

ولا يخفى أن فى الإتيان بلا أولًا فى (لَا أُقْسِمُ) مما يزيد فى تأكيد الكلام وتقويته ، وحذف جواب القسم لتأخذ النفس فيه كل مأخذ ، والإتيان بقوله : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ) من إيثار لفظ الحسبان على لفظ العلم ، والإتيان بهمزة الإذكار سندًا إلى الجنس وبحرف الإيجاب فى (بَلَى) والحال بعدها (قَادِرِينَ) – فى الإتيان بهذه من المبالغات فى تحقيق المطلوب وتفخيمه وتوبيخ المعرض عن الاستعداد ما تبهر عجائبه ، ثم الحسن كل الحسن فيما يتضمنه حرف الإضراب فى قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) . – آلوسى – بتصرف .

٥ - (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) :

عطف على أيحسب - جيء به للإضراب عن إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال الإنسان الحاسب بما هو أدخل فى اللوم والتوبيخ من الأول، كأنه قيل : دع تعنيفه فإنه أشط من ذلك وأنّى يرتدع وهو يريد أن يقيم ويستمر على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه . وعن مجاهد وابن جبير وغيرهما فى معنى الآية : إن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضى فيها أبدًا قدمًا راكبًا رأسه ومطيعًا أمله ومسوفًا لتوبته حتى يأتيه الموت على شر حاله وأسوأ أعماله ، وروى عن ابن عباس فى معنى الآية : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . قال ابن كثير وهذا هو الأظهر ولهذا قال بعده :

٦ - (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) :

قال ابن كثير : أى يقول : متى تكون القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه . وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى: « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ »[1]

قال العلامة الآلوسى : وفيه أن من أنكر البعث يرتكب أشد الفجور لا محالة .

٧ - (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ) :

فإذا تحير بصرهم فزعًا فهم ينظرون من الهلع هكذا وهكذا لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب ، وأصله من بَرق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره ، ومنه قول ذى الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت   لعينيه مَىٌّ سافرًا كاد يَبْرَق

وقيل : هو من البريق ، والمعنى لمع من شدة شخوصه .

والمراد أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من أمور . ونقل عن مجاهد أنه قال : فإذا بَرِق البصر عند الموت والاحتضار .

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

٨ - (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) :

أى : وذهب ضوء القمر ، والخسوف فى الدنيا إلى انجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه ، ويحتمل أن يكون المعنى ذهب واختفى ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] .

٩ - (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) :

قال القرطبى : أى يجمع بينهما فى ذهاب ضوئهما ، وعن ابن عباس يجمع بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مُكَوَّرين ، وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار .

قال الآلوسى : وأحوال يوم القيامة على خلاف النمط الطبيعى ، وحوادثه أمور وراء الطبيعة .

١٠ - (يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) :

أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر . ويقول : أين المفر ؟ أى هل من ملجأ أو موئل ، قال الماوردى : ويحتمل هذا وجهين ، أحدهما :أين المفر من الله حياء منه ، الثانى : أين المفر من النار حذرًا منها ، ويحتمل أن يكون هذا القول من الإنسان على وجهين ، أحدهما :أن يكون من الكافر خاصة فى عرصة القيامة دون المؤمن ليتنعّم المؤمن ببشرى ربه ، الثانى : أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها .

١١ - (كَلَّا لَا وَزَرَ) :

(كَلَّا) ردع عن طلب المفر وتمنيه . (لَا وَزَرَ) : أى لا ملجأ يُتَحصن به وليس لكم مكان تعتصمون فيه – وأصل الْوَزَر محركة – الجبل المنيع ، وقد كان مفرًّا فى الغالب لفرار العرب ، واشتقاقه من الوِزْر وهو الثِّقْل[2] ، وصار حقيقة لكل ملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غير ذلك .

---

(١) سورة القصص من الآية ٨١ .

(٢) فى القاموس المحيط الوزر : الثقل والسلاح والحمل الثقيل .

١٢ - (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) :

أى : إليه تعالى وحده لا إلى غيره استقرار العباد ، أى : لا ملجأ ولا منجى لهم غيره عز وجل ، أو إلى حكمه استقرار أمرهم لا يحكم فيه غيره ، أو إلى مشيئته تعالى موضع قرارهم من جنة أو نار ، فمن شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار .

والظاهر أن قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) من تمام قول الإنسان ، كأنه بعد أن يقول : أين المفر ؟ يعود على نفسه فيستدرك ويقول : (كَلَّا لَا وَزَرَ ...) إلخ

وقيل : هو من كلام الله تعالى ، يقال للقائل : أين المفر ؟ لا حكاية عن الإنسان ، ويجوز أن تكون (كَلَّا) فى قوله تعالى : (كَلَّا لَا وَزَرَ) بمعنى ألا الاستفتاحية أو بمعنى حقًّا.

١٣ - (يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) :

المعنى : يخبر الإنسان يومئذ - وذلك عند الأكثرين - عند وزن الأعمال بما قدم وأخر ، أى : بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه فلم يعمله ، أو بما قدم من ماله فتصدق به وبما أخره فخلفه للورثة ، أو بما قدم من عمل الخير والشر وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد بأول عمره وآخره .

١٤ - (بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) :

أى : بل الإنسان حجة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه ، تلزمه بما فعل أو ترك ، وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها بصير بها ، أو هى بمعنى دالة مجازًا ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً »[1] . والتاء فى بصيرة للمبالغة مثلها فى علَّامة ونسَّابة ، أو لتأنيث الموصوف ، أى حجة ، وقيل : لأن المراد بالإنسان هنا الجوارح : أى جوارحه على نفسه بصيرة ، أى شاهدة عليه بعمله ، ونسب هذا للعتبى والمعنى : يُنَبَّأُ الإنسان بأعماله ، بل فيه ما يُجزئ عن الإنباء لأنه عالم بتفاصيل أحواله شاهد على نفسه بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك . ومثله فى كتاب الله قوله تعالى :

---

(١) سورة النمل من الآية ١٣ .

«يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[١] ، وقال القرطبي :قيل المراد من البصيرة الكاتبان اللّذان يكتبان الأعمال .

١٥ - (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) :

أى : هو على نفسه حجة وهو شاهد عليها ولو طرح معاذيره وبسطها لا يمكنه أن يتخلص منها ، أو ينبأ بأعماله ويجازى لا محالة ولو أتى بكل عذر ، فهو تأكيد لما يفهم من مجموع قوله تعالى :(يُنَبَّأُ الإِنسَانُ) إلخ - والمعاذير جمع معذرة بمعنى العذر على خلاف القياس ، والقياس معاذر ، وأطلق عليه الزمخشرى اسم الجمع فالمراد بالمعاذير الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب .

وقال السُّدِّى والضحاك : المعاذير الستور بلغة أهل اليمن واحدها معذار ، وحكى ذلك عن الزجاج قال الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة ... علينا وأطت[٢] فوقها بالمعاذر

فيكون قوله تعالى :(وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) أى : ولو أرخى ستوره ، والمعنى أن احتجابه فى الدنيا واستتاره لا يغنى عنه شيئاً ، لأن عليه من نفسه بصيرة .

قال الزمخشرى : سمى الستر بلغة أهل اليمن معذارًا لأنه يمنع صورة المحتجب به كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب .

---

(١) سورة النور الآية ٢٤ .
(٢) حركت .

(لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(لِتَعْجَلَ بِهِ) : لتأخذه على عجلة لئلا ينفلت منك .

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) : أى إن علينا جمعه فى صدرك أى تكفلنا بذلك .

(وَقُرْآنَهُ) : أى جريانه على لسانك - والقرآن - القراءة .

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) : أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل المبلِّغ عنا .

(فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) : فكن مقفيًا له ، وقيل : فاستمع لقراءته وأنصت له ثم اقرأه كما أقرأك جبريل .

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) : ثم إن علينا توضيح ما أُشكل عليك من معانيه وأحكامه .

(كَلاَّ) : أداة استفتاح بمعنى ألا ، أو ردع لمن أنكر البعث .

(نَاضِرَةٌ) : حسنة مشرقة متهللة من النضرة أو النضارة ، يقال : نضرهم الله ينضرهم نضارة ونضرة ، وهو الإشراق والعيش الناعم والغنى ، ومنه الحديث : (نضَّر الله امرأً سمع مقالتى فوعاها) .

(بَاسِرَةٌ) : متغيرة الألوان مسودة شديدة الكُلُوحة والعبوس .

(فَاقِرَةٌ) : داهية عظيمة تقصم فقار الظهر من فَقَرَهُ أصاب فِقاره ، وقال أبوعبيدة : فاقرة - من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار .

التفسير

١٦ - (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) :

قال ابن كثير : هذا تعليم من الله - عز وجل - لنبيه ﷺ فى طريقة تلقيه الوحى من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق المَلَك فى قراءته ، فأمره الله - عز وجلّ - إذا جاءه المَلَك بالوحى أن يستمع إليه ، وتكفل له سبحانه أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه .

قال الآلوسى : أخرج الإمام أحمد والبخارى وغيرهم عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله سبحانه : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل - عليه السلام - أطرق ، وفى لفظ استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله - عز وجل - فالخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) للنبى ﷺ والضمير فى (بِهِ) للقرآن للدلالة عليه من السياق ، مثل قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[1] أى : لاتحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى عليك من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه (لِتَعْجَلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك على ما يقتضيه كلام ابن عباس ، وقيل : لمزيد حبك له وحرصك على أداء الرسالة ، فكان ﷺ لا يحرك لسانه بقراءة القرآن مادام جبريل يقرأ بل ينصت إليه ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يُقضى إليه وحيه ثم يُقَفِّيه ويتبعه بالقراءة والدراسة حتى يرسخ فى نفسه .

١٧ - (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ) :

ثم علل النهى عن العجلة بقوله : إن علينا جمعه أى : جمعه فى صدرك بحيث لايذهب

(١) سورة القدر الآية ١ .

ولا يتفلت شىء منه عليك (وَقُرْءانَهُ) أى : وإثبات قراءته فى لسانك بحيث تقرأه كما شئت وقيل : وقراءتك إياه أى جريانه على لسانك، فالقرآن هنا وكذا فيما بعد مصدر كالرجحان بمعنى القراءة كما قال الشاعر :

ضحّوْا بأشمط[1] عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

١٨ - (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءانَه) :

المعنى : فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل - عليه السلام - المبلغ عنا فكن مقفيا لا مباريا له ، وقيل : فإذا قرأناه فاتبع بفكرك وذهنك قرآنه ، أى : فاستمع وأنصت . وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس ، وعنه أيضًا وعن قتادة والضحاك أى فاتبع فى الأوامر والنواهى قرآنه ، وقيل : اتبع قرآنه بالدرس على معنى فكرّره حتى يرسخ فى ذهنك ، وفى الإسناد المجازى فى قوله تعالى : (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) واختيار نون العظمة مبالغة فى إيجاب التأنى فى قراءة القرآن .

١٩ - (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) :

أى : ثم إن علينا بعد حفظه وتلاوتك له أن نبيّنه ونوضحه لك ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا ونبين لك ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه .

قال الزمخشرى ، كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعًا كما ترى بعض الحُرّاص على العلم ، ونحوُه قولُه تعالى : (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ)[2] .

٢٠ ، ٢١ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) :

(كَلَّا) إرشاد من الله - جل وَعَلَا - لرسوله ﷺ ، وأخذٌ له وبعد به عن عادة العجلة وترغيب له فى الأناة ، ولمزيد حبه إياه أتبعه قوله تعالى : (بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ

---

(١) أشمط من الشمط وهو بياض الرأس يخالط سواده والمراد أنه كبير السن .

(٢) سورة طه من الآية ١١٤ .

الْآخِرَةَ) وذلك تعميم الخطاب للكل كأنه قيل : بل أنتم يابنى آدم لما خلقتم من عجل ، وجُبِلتم عليه تعجلون فى كل شىء ، ولهذا تحبون العاجلة أى الدار الدنيا والحياة فيها ، وتذرون الآخرة أى : وتتركون الآخرة والعمل لها ، وقيل: الآخرة الجنة ويتضمن استعجالك حين تتلقى الوحى . لأن عادة بنى آدم الاستعجال ومحبة العاجلة ، وفيه أيضاً أن الإنسان وإن كان مجبولا على ذلك إلا أن مثله ﷺ ممن هو فى أعلى منصب وهو مقام النبوة لا ينبغى أن يحمله مقتضى الطباع البشرية على ذلك .

ومن هذا يعلم أن هذا متصل بقوله سبحانه : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) فإنه مشير ومُلَوِّح إلى معنى بل تحبون العاجلة ... إلخ .

وقوله عز وجل : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) إلخ متوسط بين حُبَّى العاجلة ـ حبها الذى تضمنه (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) تلويحاً ، وحبها الذى آذن به قوله تعالى : (بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) إلخ تصريحاً ـ لحسن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح فى التفريع .

قال العلامة الآلوسى : والصحيح المأثور الذى عليه الجمهور أن الخطاب فى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) للرسول ﷺ والظاهر أن التحريك قبل النهى إنما صدر عنه عليه السلام بحكم الإباحة الأصلية فلا يتم احتجاج من جوز الذنب على الأنبياء بهذه الآية - ا هـ آلوسى بتصرف .

٢٢ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) :

لما ردع الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن حب العاجلة وترك الآخرة عقب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الردع مما يشير إلى حسن عاقبة حب الآخرة وسوء مغبة حب العاجلة فقال تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ) أى : وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة حسنة جميلة متهللة من عظيم المسرة يشاهد عليها نضرة النعيم .

٢٣ - (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) :

أى : وجوه المؤمنين إلى ربها ناظرة يوم القيامة بدون تحديد بصفة أوجهة أو مسافة ، أى يرى المؤمنون ربهم عياناً يوم القيامة .

وقد ثبتت رؤية المؤمنين ربهم -عز وجل- فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها ، وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) وأخرج مسلم والترمذى عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا دخل أهل الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم) - ذكره الآلوسى - .

وقيل : الكلام على تقدير مضاف أى إلى مُلك أو رحمة أو ثواب ربها ناظرة ، والنظر يكون على معناه المعروف ، أو على تقدير مضاف والنظر يكون بمعنى الانتظار فقد جاء لغةً بهذا المعنى أى إلى نعم ربها منتظرة ، وتعقب بأن الحذف خلاف الظاهر ولا داعى إليه ، وبأن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى بل بنفسه ، وبأن لا يسند إلى الوجه فلا يقال وجه زيد منتظر ، والمتبادر من الإسناد إسناد النظر إلى الوجوه الحقيقية ، وهو يعنى إرادة الوجه على الحقيقة.

٢٤ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) :

أى : ووجوه يوم القيامة كالحة شديدة العبوس متغيرة الألوان مسودة وهى وجوه الكفار .

٢٥ - (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) :

أى : تتوقع أن يفعل بها فعل هو فى شدته وفظاعته فاقرة أى داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناظرة إلى ربها أن يفعل بها كل خير .

والظن : قيل : أُريد به اليقين واختاره الطيبى ، وقيل : على معناه الحقيقى والمراد أن الوجوه تتوقع ذلك .

قال العلامة الآلوسى : وجىء بفعل الظن هنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غاية الشر فإنهم يتوقعون بعده أشد منه وهكذا أبدًا ، وذلك أن المراد بالفاقرة مالا يُكْتَنَهُ ولا يتصور من العذاب ، فكل ما يفعل بهم من أشده ينبىء بتوقع أشد منه ، وإذا كان ظاناً كان أشد

عليه مما كان عالماً موطِّنا نفسه على هذا الأمر ، فهذا وجه الإتيان بفعل الظن ، ولم يؤت بفعل ظن أو علم بالنسبة للمؤمنين لأنهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه ، وهو النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.ا هـ . بتصرف .

(كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(كَلَّا) : ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة .

(بَلَغَتِ) أي : الروح أو النفس .

(التَّرَاقِيَ) : أعالي الصدر وهي العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال . جمع ترقوه ، وقيل : عظام الحلق .

(مَنْ رَاقٍ)؟ : أيكم يرقيه ليشفى- من الرُّقْية- : وعن ابن عباس مَنْ يَرْقَى بروحه إلى السماء . مِنَ الرُّقِي . (وَظَنَّ):وتيقن المحتضر .

(أَنَّهُ الفِرَاقُ) : أن هذا الذى نزل به هو فراق الدنيا .

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) : والتصقت ساقه بساقه والتوت عليها عند رعدة الموت ، فالساق حقيقية ، وقيل : عبارة عن الشدة ، قال القرطبى : لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قامت الدنيا على ساق وقامت الحرب على ساق .

(الْمَسَاقُ) : المرجع - أو سوق العباد إلى الجزاء .

(يَتَمَطَّى) : يتبختر فى مشيته اختيالا وعجبا ، وأصله يتمطط أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، وقيل : من المطا وهو الظهر لأنه يلويه .

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) : تهديد ووعيد أى : هلاك لك أيها المكذب فهلاك ، ثم هلاك دائم لك فهلاك ، أو وليك ما تكره ثم وليك ما تكره . وفى الصحاح عن الأصمعى : قاربه ما يهلكه أى نزل به .

(سُدًى) : مهملا فلا يكلف بالشرائع ولا يجازى - يقال: إبل سدى أى مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع .

(نُطْفَةً) : قال القرطبى : النطفة الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر ، والمراد بها نطفة الرجل يصب ويراق من الأصلاب فى الأرحام .

(فَسَوَّى) فعدله وكمله ونفخ فيه الروح (الزَّوْجَيْنِ) : النوعين .

التفسير

٢٦ - (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) :

(كَلَّا) ردع عن إيثار العاجلة على الآجلة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذى ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة ، وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين .

(إِذَا بَلَغَتِ) : الضمير فى بلغت للنفس أو الروح وإن لم يَجْرِ لها ذكر ، لأن الكلام يدل على ذلك ، كما قال تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »[1] أى الشمس ولم يتقدم لها. ذكر وقول حاتم :

أما وىّ ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

أى الروح أو النفس (التَّرَاقِى) : العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال .

ذكَّرهم صعوبة الموت الذى هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ويدنو خروجها وزهوقها وقال الحاضرون لصاحبها وهو - الْمُحْتَضَر - : (مَنْ رَاقٍ) .

٢٧ - (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ) :

أى : قال من حضر صاحبها - الَّذِى أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ - : من يرقيه وينجيه مما هو فيه - من الرُّقْية - وهى ما يستشفى به الملسوع واللديغ والمريض من الكلام المعد لذلك ومن آيات الشفاء ، ولعله أريد به مطلق الطبيب ، أعم من أن يُطِب بالقول أو بالفعل ، والاستفهام عند بعض العلماء حقيقى ، وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار أى بلغ مبلغا لا أحد يرقيه ، كما يقال عند اليأس : من الذى يقدر أن يرقى هذا المشرف على الموت ؟ وروى ذلك عن عكرمة وابن عباس ، وقيل : هو من كلام الملائكة - أى أيكم يَرْقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ من - الرُّقىّ - وهو العروج ، وروى هذا عن ابن عباس وسليمان التيمى ، والاستفهام عليه حقيقى .

٢٨ - (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ) :

أى : وظن الإنسان المُحْتضر أن ما نزل به هو الفراق للدنيا ونعيمها ، وقيل : فراق الروح للجسد ، والظن هنا عند أبى حيان على بابه ، وأكثر المفسرين على تفسيره باليقين ، قال الإمام الرازى : ولعله إنما سمى اليقين هنا بالظن لأن الإنسان مادامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها ، فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

---

(١) سورة ص من الآية ٣٢ .

٢٩ - (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) :

الساق بمعناها الحقيقى والمعنى : والتصقت ساق بساق والتوت عليها عند هلع الموت .

وقال ابن عباس : التفَّتْ شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، ونحوه قول عطاء : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه - عز وجل - لايدرى بماذا يقدم عليه ، فالساق عبارة عن الشدة وهى مثل فى ذلك .

٣٠ - (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) :

أى : سوق العباد إلى الله - عز وجل - لا إلى غيره ، والكلام على تقدير مضاف هو حكم أو موعد . والمراد به الجنة أو النار ، وقيل : سوق هؤلاء العباد للجزاء مُفَوَّض إلى ربك لا إلى غيره ، وقال ابن كثير : (الْمَسَاقُ) المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السماء فيقول الله - عز وجل - : ردوا عبدى إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى بعض الأحاديث وكما قال تعالى : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ »[1] وجواب إذا فى قوله تعالى : (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) مضمر دل عليه ما ذكر ، أى كان ماكان أو انكشفت للمرء حقيقة الأمر ، أو وجد الإنسان ما عمله من خيرٍ أو شرٍّ .

٣١ - (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) :

(فَلَا صَدَّقَ) : أى : فلاصدق ما يجب تصديقه بما جاء به الله - عز وجل - والرسول ﷺ والقرآن الذى أنزل عليه (وَلَا صَلَّىٰ) أى : ولا صلى ما فرض عليه ، أى : لم يصدق ولم يصل والضمير فى الفعلين فى قوله تعالى : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) للإنسان المذكور فى قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) والجملة عطف على قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) على ماذهب إليه الزمخشرى ، فالمعنى بناءً على ما علمت من أن السؤال فى قوله تعالى : (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) سؤال استهزاء واستبعاد ، استبعد هذا الإنسان البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو التصديق بما يجب تصديقه به ولا بأهم فروعه وهو الصلاة ثم أكد ذلك بذكر ما يضاده ويخالفه بقوله : (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) وأثبت له التكذيب .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٦٢ .

٣٢ - (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) :

أى : ومع ذلك أظهر الجحود والتولى عن الطاعة فكذب بالقرآن وأعرض عن الإيمان والعمل بالشريعة .

٣٣ - (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ) :

أى : ثم ذهب إلى أهله يتبختر مباهياً بذلك مختالا مفتخرًا به ، ومن صدر عنه هذا ينبغى أن يخاف من حلول غضب الله عليه فيمشى خائفًا متطامنا لا فرحا متبخترا .

قيل : نزلت الآية فى أبى جهل وكادت تصرح به فى قوله تعالى : (يَتَمَطَّىٰ) فإنها كانت مشيته ومشية قوم من بنى مخزوم .

٣٤ ، ٣٥ - (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) :

(أَوْلَىٰ) من الولى بمعنى القرب فهو للتفضيل فى الأصل ، غلب استعماله فى قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل : هلاكا أولى لك ، بمعنى أهلكك الله تعالى هلاكًا أقرب لك من كل شر وهلاك ، واختار قوم أنه أفعل تفضيل ، والتقدير:النار أولى لك أى أنت أحق بها وأهل لها (فَأَوْلَىٰ)[1] .

(ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تكرير للتأكيد ، والظاهر أن الجملة تذييل للدعاء .

قال القرطبى : (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ) تهديد بعد تهديد ووعيد بعد وعيد ، فهو وعيد أربعة لأربعة كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربه فقال تعالى :

١ - فلا صدق . ٢ - ولا صلى . ٣ - ولكن كذب . ٤ - وتولى .

أى أنه لا صدق رسول الله ، ولا وقف بين يدى ربه فصلى ، ولكن كذب رسول الله وتولى ، فترك التصديق خصلة وترك الصلاة خصلة والتكذيب خصلة والتولى عن الله خصلة ، فجاء الوعيد أربعة (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ، ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ...) إلخ ــ مقابلة لترك الخصال الأربعة والله أعلم .

---

(١) أولى فعل ماض مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق واللام مزيد كما قيل ،وقيل فعل ماض دعائى من الولى أيضا إلا أن الفاعل ضميره تعالى واللام زائدة أي :أولاك الله ما تكره وقيل :اسم فعل مبنى ومعناه وليك شر بعد شر.اه آلوسى .

قيل : إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات يوم فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يلى باب بنى مخزوم فأخذ رسول الله بيده فهزه مرة و مرتين ثم قال : (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى) ، فقال أبو جهل : أتهددنى ؟ فوالله إنى لأعز أهل الوادى وأكرمه فنزل على رسول الله كما قال لأبى جهل ، وهى كلمة وعيد .

٣٦ - (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) :

أى : أيظن الإنسان أن يترك مهملًا فلا يكلف ولا يبعث ، قال ابن كثير : والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى لا يترك فى هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا محشور إلى الله فى الآخرة ، والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، والاستفهام إنكارى ، وكان تكريره بعد قوله تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ) لتكريرهم إنكار الحشر مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه ، حيث إن الحكمة تقتضى الأمر بالمحاسن والنهى عن القبائح والرذائل ، والتكليف لا يتحقق إلّا بمجازاة ، وهى قد لا تكون فى الدنيا فتكون فى الآخرة ، وجعل بعضهم هذا استدلالًا عقليًّا على وقوع الحشر .

٣٧ - (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) :

استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فى الآية السابقة فإن مداره : لما كان استبعادهم للإعادة والبعث دفع ذلك ورد عليه ببدء الخلق وكيفية النشأة الأولى فقال :(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى) أى : ألم يك الإنسان ناشئًا من قطرة ماء مهين يمنى ويراق ويصب فى الأرحام فالاستفهام للتقرير .

٣٨ - (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) :

أى : ثم صار المنى علقة وهى قطعة من دم ثم مضغة وهى قطعة من لحم ثم شكله الله ونفخ فيه الروح وعدله وكمله فصار خلقًا آخر سويًّا سليم الأعضاء فى أحسن تقويم بإذن الله وتقديره .

٣٩ - (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) :

(فَجَعَلَ مِنْهُ) : أى : فجعل من الإنسان أو المنى (الزَّوْجَيْنِ) الصنفين والنوعين (الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) بدل من الزوجين ، يجتمعان تارة وينفرد كل منهما عن الآخر تارة أخرى .

٤٠ - (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) :

أليس ذلك العظيم الشأن الذى أنشأ هذا الإنشاء البديع من هذه النطفة الضعيفة قادرًا أن يعيده كما بدأه ، ويحيى الموتى بعد جمع عظامهم للحساب والجزاء ، ولقد جاءت عدة أخبار أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك وبلى ، وفى بعضها سبحانك اللهم فبلى ، ومن حديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :(من قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى فليقل بلى)والله أعلم .

سورة الإنسان

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون نزلت بعد الرحمن

وتسمى سورة الدهر والأبرار والأمشاج ، وهل أتى

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة (سورة القيامة) بذكر بعض أطوار خلق الإنسان للدلالة على البعث لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، كما ذكرَت جزاء المؤمنين وما أُعد من عذاب للكافرين ، وفى هذه السورة (سورة الإنسان) تضمنت الكلام على خلق الإنسان وذكرت ما أُعد للعاصين ، وفصلت ما هيأه الله للمتقين .

بعض مقاصدها :

١ – بدئت السورة الكريمة بالكلام على خلق الإنسان واختباره بالتكاليف .

٢ – بينت السورة بعض أنواع عِقاب العصاة ، وما هُيِّئ للمتقين من أنواع النَّعيم بتفصيل وإسهاب .

٣ – فى السورة أمر للرسول بالصبر لحكم الله وعدم طاعة الكافرين بعد أن امتنت عليه بنزول القرآن .

٤ – وضحت السورة أنها عِظَة (وكذلك القرآن) وعلَّقت الانتفاع بها على مشيئته سبحانه وتعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أَتَىٰ) : هل بمعنى قد ، والمعنى قد أتى ، على التقرير والتقريب جميعًا

(الْإِنسَانِ) : آدم ـ عليه السلام ـ أو الجنس من ذريته .

(حِينٌ) : وقت وزمان غير محدود وقد يجيء محدودًا .

وقال الآلوسى : طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل .

(الدَّهْرِ) : الزمان الممتد غير المحدود ، ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين .

(مِن نُّطْفَةٍ) : أى من ماء يقطر وهو المنى - وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة .

(أَمْشَاجٍ) : جمع مَشَج بفتحتين كسَبَب وأسباب أو مَشِج بفتح فكسر ككَتِف وأكتاف ـ أى أخلاط جمع خِلْط بمعنى مختلط ، يقال : مشجت الشىء إذا خلطته ، وعن مجاهد أمشاج : أى ألوان ، وعن عكرمة وابن عباس أمشاج : أى أطوار .

(هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : بيَّنَّا ووضَّحْنَا له طريق الحق والضلال .

(إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : إما مؤمنًا وإما كافرًا .

التفسير

١ - (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) :

قال الآلوسى : أصله على ما قيل - أهل- على أن الاستفهام للتقرير ، أى الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والْمُقَرَّر والذى يطلب تقريره هو من ينكر البعث ، وقد علم أنهم يقولون : نعم قد مضى على الإنسان حينٌ من الدَّهر لم يكن كذلك ، فيقال فالذى أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته ، وقيل : هل بمعنى قد ، وهى للتقريب ، أى تقريب الماضى من الحال .

والمعنى : قد مضى على الإنسان ومر عليه أزمنة مختلفة قبل أن ينفخ فيه الروح وما كان شيئًا مذكورًا باسم ولا يعرف ما يراد منه . والمراد أنه معدوم لم يوجد بنفسه-بل كان الموجود أصله مما لا يسمى إنسانًا ولا يعرف بعنوان الإنسانية ، وقيل : المراد بالإنسان آدم-عليه السلام- وأيد الأول بقوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ) ونُقل القول بأن المراد بالإنسان آدم-عليه السلام-عن جماعة منهم ابن عباس ، وحكى الماوردى عنه أن الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذى لا يعرف مقداره ، وروى نحوه عن عكرمة فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه قال : إن من الحين حينًا لا يدرك وتلا الآية فقال : والله ما يدرى كم أتى عليه حتى خلقه الله تعالى ، وقيل : إن المراد من الحين مدة الحمل وهى تسعة أشهر .

والذى فهمه أجلة من الصحابة -رضوان الله عليهم- من الآية الإخبار الإيجابى (أى قد أتى).

٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :

أى : إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة مختلطة ذات عناصر شتى ، ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين نطفةٌ اختلط فيها وامتزج الماءان ماء الرجل وماء المرأة .

وعن عكرمة وابن عباس (أَمْشَاجٍ) : أى أطوار - أى ذات أطوار مختلفة ، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة .. وهكذا إلى تمام الخلقة ونفخ الروح (نَّبْتَلِيهِ) : أى نختبره بالتكليف فيما بعد (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) :أى فجعلناه بسبب ذلك الابتلاء ذا سمع يسمع به الهدى وذا بصر يبصر به الحق ليختار الطاعة والمعصية بعد التكليف .

٣ - (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) :

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : جملة استئنافية تعليلية لِمَا قبلها فى معنى لأنا هديناه : أى بَيَّنَّا له وعرفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر ببعث الرسل والآيات الكونية والدلائل النفسية فآمن أو كفر كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »[1] ، وقال مجاهد : السبيل إلى الشقاء والسعادة ، وقيل : منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله ، وعن مجاهد وغيره أنهم قالوا : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) : أى سبيل الخروج من الرحم (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) : أى أيهما فعل فقد بَيَّنَّاهُ له ، يقال :هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل ، والمشهور الأول أى هديناه إلى ما يوصل إلى البغية فى حالتيه جميعًا من الشكر والكفر .

قال القرطبى : لم يأت بصيغة المبالغة فى الشكر فيقول :(إِمَّا شَكُورًا) كما أتى بها فى الكفر فقال :(وَإِمَّا كَفُورًا) نفيًا للمبالغة فى الشكر وإثباتًا لها فى الكفر ، فإن شكر الله تعالى لا يؤدى على الوجه الأكمل فانتفت عنه المبالغة ولم ينتف عن الكفر المبالغة فقلة شكره لكثرة نعم الله عليه وعجزه عن القيام بشكرها ، وكثرة كفره وإن قل لعظم الإحسان إليه - حكاه الماوردى - اهـ قرطبى بتصرف .

ولَمَّا ذكر الفريقين (الشاكر والكفور) أتبعهما الوعد والوعيد فقال :

---

(١) سورة البلد : الآية ١٠ .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(سَلَاسِلَ) : قيودًا بها يسحبون فى جهنم .

(وَأَغْلَالًا) : جمع غل – تغل بها أيديهم إلى أعناقهم .

(الْأَبْرَارَ) : جمع بَرّ أو بار ، وهم المطيعون .

(كَأْسٍ) : خمر ، أو زجاجة فيها خمر. قال الراغب : (الكَأْس) : الإناء بما فيه من الشراب ، ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأْسًا .

(مِزَاجُهَا) : ما تمزج الكأْس به وتخلط .

(كَافُورًا) : ماء كافور .

(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) : يُجْرُونها حيث شاءوا من منازلهم إجراءً سهلًا .

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) : أى إذا نذروا طاعة فعلوها .

(شَرُّهُ) : عذابه وضرره .

(مُسْتَطِيرًا) : فاشيًا منتشرًا .

(يَوْمًا عَبُوسًا) : اشتد عبوس من فيه ، أو تكلح فيه الوجوه لهوله .

(قَمْطَرِيرًا) : شديدًا صعبًا كأنه التف شره بعضه ببعض .

التفسير

٤ - (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) :

بين سبحانه حال الفريقين وأنه تعبّد العقلاء وكلّفهم ومكّنهم مما أمرهم به ، فمن كفر فله العقاب ؛ ومن وحّد وشكر فله الثواب ، وفى هذه الآية الكريمة يخبر الله عمّا أعدّه وهيّأه للكافرين به من خلقه سلاسلَ يقادون بها فى جهنم ،كل سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا كما فى سورة (الْحَاقَّة) ، وأغلالًا تُغَلّ بها وتقيد أيديهم إلى أعناقهم وكان أبو الدرداء يقول : ارفعوا هذه الأيدى إلى الله قبل أن تُغَلّ بالأغلال ، قال الحسن : تجعل الأغلال فى أعناق أهل النار لا لأنهم أعجزوا الله ، ولكن إذلالًا لهم ، كما أعَدَّ تعذيبًا لهم نارًا موقدة مُسَعَّرة بها يُحرقون ، وتقديم وعيدهم مع تأخرهم فى الذكر فى قوله تعالى : (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) للجمع بينهما فى الذكر كما فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)[1] ، ولأن الإنذار أنسب بالمقام ، وحقيق بالاهتمام ، ولأن تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أنسب ،ولمّا ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من العذاب والسعير قال بعده :

٥ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) :

شروع فى بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان سوء حال الكافرين (وَالْأَبْرَارَ) جمع بار أو بَرّ وهو المطيع المتوسع فى فعل الخير ، وقيل : من يؤدى حق الله ويوفى بالنذر- هؤلاء الأبرار يشربون فى الآخرة من خمر أو من زجاجة بها خمر ،(كَانَ مِزَاجُهَا) : أى ما تمزج

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٠٦ .

بها الخمر وتخلط (كَافُورًا) أى : ماء كافور فى أحسن أوصافه ، وهو اسم عين فى الجنة ، ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبروده لأن الكافور لا يشرب .

٦ ـ (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :

قال ابن كثير :أى هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بها ، وقوله تعالى :(يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) :أى يتصرفون فيها حيث شاءوا ، وأين شاءوا من قصورهم ودیارهم ومجالسهم ومحالهم ،ويُجْرونها كما أرادوا إجراء سهلًا لا يمتنع عليهم .

٧ ـ (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) :

استئناف مسوق لبيان ما لأجله يرزقون هذا النعيم. مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالًا ، كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ، فقيل : (يُوفُونَ...)إلخ وأفيد أنه استئناف للبيان ومع ذلك فلعل السر فى أنه عدل عن أوفوا إلى المضارع (يُوفُونَ) للاستحضار والدلالة على الاستمرار .

والوفاء بالنذر : كناية عن أداء الواجبات كلها فإن من أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاؤه بما أوجبه الله تعالى عليه أهم له وأحرى ، وجعل هذا كناية هو الذى يقتضيه ما روى عن قتادة حيث قال : يوفون بما فرض عليهم من الصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الواجبات ، وعن عكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظاهر : أى إذا نذروا طاعة فعلوها ، ولا يخلفون إذا نذروا ، والنذر ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله (وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) : أى يخافون يومًا كان عذابه وضرره البالغ فاشيًا منتشرًا فى الأقطار غاية الانتشار ، من استطار الحريق والفجر ، وفى وصفهم بذلك إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم المعاصى لأنهم يتركون المحرمات التى نهاهم الله عنها خيفة من سوء الحساب يوم الميعاد ، وهو اليوم الذى ضرره خطير وشره مستطير : أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

٨ - (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) :

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ)أى : ويطعمون الطعام على حب الطعام :أى مع اشتهائه والحاجة إليه والرغبة فيه ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد .

أو على حب الإطعام : بأن يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف ، وإليه ذهب الحسن ابن الفضل وهو حسن ، أو على حب الله تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته ، وإليه ذهب الفضيل بن عياض وأبو سليمان الدارانى ، ورجح الآلوسى وابن كثير الأول .

قال ابن كثير : والأظهر أن الضمير فى قوله تعالى : (عَلَى حُبِّهِ) عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قال مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله تعالى : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ »[1] ، وكقوله تعالى : (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)[2] ، وفى الصحيح : (أفضلُ الصدَقةِ أنْ تَصدقَ وأنت صحيحٌ شحيح تأملُ الغنَى وتَخشَى الفقرَ) : أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه .

والظاهر أن المراد بإطعام الطعام حقيقته ، وقيل : هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأى وجه كان وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، فكأنهم ينفعون بوجوه المنافع .

(مِسْكِينًا)أى : فقيرًا عاجزًا عن الكسب ، (وَيَتِيمًا) : صغيرًا فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ولا مال له (وَأَسِيرًا) قال سعيد بن جبير وغيره :الأسير من أهل القبلة يكون عند الكفار ، وقال ابن عباس : كان أسراهم يومئذ مشركين ، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الفداء ، واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك ، واختاره القرطبى أيضًا ، وقال : ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله غير أنه من صدقة التطوع ،أما المفروضة فلا ،وقال عكرمة هم العبيد ، ولقد وصى رسول الله بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ،حتى إنه كان آخر ما أوصى به أن جعل يقول : (الصلاة وما ملكت أيمانكم) ، وقيل الأسير : - المحبوس فى حق - وقال مقاتل :نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٧٧ . (٢) سورة آل عمران من الآية ٩٢ .

٩ - (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) :

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) أى : إنما نطعمكم لطلب ثواب الله ورجاء جزائه ورضاه قائلين ذلك فى أنفسهم بلسان الحال لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص .

وعن مجاهد : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى به عليهم ليرغب فيه راغب ، أو بلسان المقال دفعاً وإزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن عائشة - رضى الله عنها - أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل البيت ثم تسأل الرسول : ماقالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله - عز وجل - .

(لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا) أى : لانطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها لا بالأفعال كعوض وهديّة ، ولا بالأقوال كشكر وثناء علينا عند الناس ، وهذا تقرير وتأكيد لما قبله .

١٠ - (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) :

أى : إنا نخاف من ربنا يوماً اشتد عبوسُ وكلوحُ وَجْهِ مَن فيه وقطبوا وجوههم وجباههم من هول شدته وشدة قسوته وصعوبته وطوله ، ووصف اليوم بالعبوس لعبوس أهله ، روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، قال الآلوسى : وهذه الجملة وهى قوله تعالى : (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)جوز أن تكون علة لإحسانهم وفعلهم المذكور ، كأنه قيل : نفعل بكم ما نفعل لأننا نخاف يوماً صفته كيت وكيت ، فنحن نرجو بذلك أن يقينا ربنا - جل وعلا - شر ذلك اليوم ، وأن تكون علة لعدم إرادة الجزاء والشكور ، أى : إنا لانريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة على الصدقة .

١١ - (فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) :

(فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أى : فحفظهم الله وصانهم من شدائد ذلك اليوم وآمنهم مما خافوا منه (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) أى : وأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة

وحسنا وبهجة ونورًا فى الوجوه وسرورًا فى القلب، لأن القلب إذا سرَّ استنار الوجه، قال كعب ابن مالك : (كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر) .

١٢ – (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) :

(وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) أى : وكافأهم وأعطاهم بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس فى اجتناب المحرمات (جَنَّةً) بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاءوا (وَحَرِيرًا) لباساً حسناً ناعم الملمس يلبسونه ويتزينون به ،وهذا يدل على أن الآية بسبب صبرهم أدخلهم الله الجنة وألبسهم الحرير عوضاً عن حرير الدنيا .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾)

المفردات :

(الْأَرَائِكِ)[1] جمع أريكة وهى سرير منجد مزين فى قبة أو بيت وقيل : الأرائك : الفراش على السرر .

(زَمْهَرِيرًا) : بردًا شديدًا أو قمرًا .

---

(١) وقيل : الأرائك : هى كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة ، وكانت تسميته كذلك لكونه مكانا للإقامة أخذا من قولهم: أرك بالمكان أروكا : أقام، وأصل الأروك: الإقامة على رعى الأراك وهو الشجر المعروف ثم استعمل فى غيره من الإقامات.ا ه آلوسى .

(دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) : قريبة منهم ظلال أشجارها .

(وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) : أدنيت وسخرت ثمارها لهم ، والقُطُوف : الثمار جمع قِطْف بكسر القاف سمى به لأنه يقطف .

(بِآنِيَةٍ) : الآنية جمع إناء ككساء وأكسية وهو ما يوضع فيه الشيء ، والأوانى جمع الجمع .

(وَأَكْوَابٍ) : جمع كوب وهو قدح لاعروة له كما قال الراغب ، وفى القاموس:كوز لا عروة له أو لا خرطوم له .

(قَوَارِيرَ) : جمع قارورة وهى إناء رقيق من الزجاج يوضع فيه الأشربة .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)أى : قدرها السُّقاة أو الشاربون فى أنفسهم فجاءت كما قدروا لاتزيد على ذلك ولا تنقص .

(زَنجَبِيلاً) : قال الدينورى : الزنجبيل نبت فى أرض عمان وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجرة يوجد لذعا فى اللسان إذا مزج بالشراب ، وعن قتادة ومجاهد اسم لِعَيْنٍ فى الجنة (سَلْسَبِيلاً) قال القرطبى : السلسبيل : الشراب ،اللذيذ وهو فَعْلَلِيل من السلاسة تقول العرب هذا شراب سلسل وسَلِسل وسلسال وسلسبيل بمعنى– أى :طيب الطعم لذيذه . وفى الصحاح ماء سلس وسلسال سهل الدخول فى الحلق لعذوبته وصفائه .

التفسير

١٣ – (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا) :

يخبر الله عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أُسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال : متكئين فى الجنة على السرر وهم فى تمام الراحة والنعيم (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيرًا) أى : لايجدون فى الجنة حرًّا شديدًا يؤذى ولا بردًا قارساً يؤلم ، فهواؤها معتدل وفى الحديث هواء الجنة سجسج لاحر ولا قُرّ ،وقيل : الزمهرير:القمر فى لغة طيء ، والمعنى على هذا أن الجنة ضياء ونور لايحتاج فيها إلى شمس ولا إلى قمر .

١٤ - (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا) :

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) أى : قريبة منهم ظلال أشجارها ، والمراد أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم وذلك زيادة فى نعيمهم (وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) . أى : سُخِّرت ثمارها لتناولها ، وسهل أخذها ، من الذُّل ضد الصعب . قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة ، وإن كان قاعدًا أو مضجعاً فكذلك فهذا تذليلها لايَرُدُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، قال الماوردى وذكره القرطبى : يحتمل أن يكون تذليل قطوفها . أن تبرز لهم من أكمامها وتخلص لهم من نواها .

١٥ ، ١٦ - (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِئَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا.قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) :

أى :ويدور الخدم فى الجنة على هؤلاء الأبرار بأوانى الطعام وأوعيته وهى من الفضة وبأكواب الشراب كُوِّنت قوارير شفافة ، قوارير مخلوقة ومصنوعة من فضة فلها بياض الفضة وحسنها وصفاء القوارير وشفيفها ، قال ابن عباس وغيره فى هذه الأكواب :هى من الفضة ومع هذا شفافة يُرى مافى باطنها من ظاهرها وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال الآلوسى : أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : ليس فى الجنة شىء إلا أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة ، قال الزمخشرى : ومعنى (كانت) فى الآية الكريمة هو من (يكون) فى قوله تعالى : « كُن فَيَكُونُ »[1] أى :تكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفة الجوهرين المختلفين .

(قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا)أى :قدروا تلك القوارير فى أنفسهم فجاءت حسبما قدروا واشتهوا وتمنَّته أنفسهم ، والضمير فى قدروها للأبرار المُطَاف عليهم ، أو قدروا شرابها على قدر الرى وهو ألذ للشارب - قال ابن عباس : أتوا بها على الحاجة لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً ، وعن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملأى التى تفيض ولا الناقصة التى تغيض فالضمير على ماهو الظاهر للسقاة الطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى : (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ) .

---

(١) سورة مريم الآية ٣٥ .

١٧ - (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً) :

أى : ويسقى الأبرار فى الجنة فى هذه الأكواب خمرًا كان يُمْزَج بها ويُخْلط الزنجبيل فتارة يمزج الشراب للأبرار بالكافور وهو بارد ، وتارة يمزج بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر ، وأما المقربون فإنهم يشربون من الكافور والزنجبيل صر فاً ، قال قتادة وغيره : وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يمزج بالزنجبيل لطيب رائحته ولأنه يُحْدِثها لذعاً فى اللسان ويهضم المأكول ولهذا يذكرون فى وصف رضاب النساء فَرُغِّبُوا فى نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب ، وقال قتادة ، الزنجبيل اسم للعين التى منها شراب الأبرار .

١٨ - (عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً) :

أى : عينًا فى الجنة تسمى سلسبيلا لطيب شرابها وسهولة مساغه ، وانحداره فى الحلق بسهولة ويسر ، قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة اسم لما كان فى غاية السلاسة فكأن العين سميت بصفتها ، وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلا لأنها تسيل عليهم فى الطرق وفى منازلهم .

وقال الزمخشرى : سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه (وَسَلْسَبِيلاً) لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها ، يعنى أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة ، يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل وقيل : تسمى (سَلْسَبِيلاً) أى : أنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم جعلنا الله من أصحابها بمَنّه وكرمه آمين .

* ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

(يَطُوفُ) من قولهم : طاف بالشيء : دار حوله ، ومنه الطائف ، وهو الذى يخدمك برفق وعناية .

(وِلْدَانٌ) : جمع وليد ، وهو الصبى والعبد .

(مُخَلَّدُونَ) : باقون دائمون لا يهرمون ، وقيل : غير ذلك .

(ثَمَّ) : هناك فى الجنة .

(سُندُسٍ) : مارقّ من ثياب الحرير .

(إِسْتَبْرَقٌ) : ما غلظ من ثياب الحرير .

(طَهُورًا) : بالغًا فى الطهر غايته ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

(مَشْكُورًا) : مقبولًا لدى الله مُثابًا عليه منه .

التفسير

١٩ - (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) :

أى : ويدور حولهم ويقوم على خدمتهم بلطف ورفق وحسن عناية غلمان وصبيان ؛ ولعل الحكمة فى أن الله فطرهم وخلقهم على تلك الصورة .

أنهم فى سنهم هذه يكونون أخف فى الخدمة وأسرع فى الاستجابة ؛ تلبية لمخدوميهم وإرضاء لهم ، وهم مع ذلك باقون ودائمون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقيل : مزينون ومحلَّوْنَ بالأساور والأقراط ليكون ذلك أدخل فى إيناس مخدوميهم ، وإذا نظر إليهم ورآهم أى راء ظنهم وحسبهم - لفرط حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وتفرقهم فى مجالس مخدوميهم - ظنهم دُرًّا منثورًا مفرقًا فى جنبات المجلس وباحاته وساحاته فالدر المنثور يكون أكثر صفاء منه منظومًا فى سلك ، أو مسلوكًا فى خيط .

وفى التعبير بلفظ : (إِذَا رَأَيْتَهُمْ) للدلالة على حصول هذا الأمر ووقوعه ، أى أنه حاصل لامحالة .

٢٠ - (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) :

أى : وإذا نظرت أيها الرائى هناك فى الجنة التى عرضها السموات والأرض رأيت من أنواع النعيم وألوانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم يتوج ذلك ويجمله ويرتفع ويسمو به أن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة .

(وَمُلْكًا كَبِيرًا):والملك الكبير ينظر فيه صاحبه فيرى أقصاه كما يرى أدناه ، يبصر فيه ما يملؤه بهجة ويزيده سرورًا ، وأى ملك أكبر وأبهى من ملك تدخل عليهم الملائكة فيه من كل باب قائلة تحية لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ » ويرسل الله لهم ملائكته بالتحف والحلل ويدعوهم إلى النظر إلى وجهه الكريم . فسبحانك ربى صاحب الفضل العظيم والعطاء الجليل ، ما أكثر منّك وما أجلّ نعمك .

٢١ - (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) :

أى : ويعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب من رقيق الحرير ، وثياب أخرى فوقها من عظيمه وغليظه لونها أخضر ؛ ليكون ذلك أكمل لسرورهم ؛ لأن الخضرة تكسب النفس اطمئنانًا وتملأ الجوانب فرحًا وحبورًا ، كما يزينهم ويجملهم بالحلى من أساور الفضة . هذا وقد جاء فى آيات أخرى أنهم يحلون بالذهب واللؤلؤ ، وذلك إما أن يكون على المعاقبة فتارة يحلّون بهذا وتارة يحلّون بذاك أو كانت الزينة هنا بالفضة ليناسب ذلك ويتوافق مع مايطاف به عليهم من آنية الفضة وأكوابها (وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ) :وذلك ليكمل التناسق ويتم التوافق بين مايأكلون ويشربون فيه ، ومايلبسون ويتزينون به ، وقيل : يكون لكل قوم ماتميل إليه نفوسهم ، أو أنه يجمع لهم بين الذهب والفضة واللؤلؤ .

(وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) أى : وكما جمل ظاهرهم باللباس والحلى طهر باطنهم بشراب قد تناهى فى الطهر وبلغ فيه الغاية حتى إنه يطهر سواه وينقيه ويُذْهِبُ مابه من كَدَر وأذى وقذر وغل وحسد ليَكْمُلَ ويَتمّ لهم جمال الظاهر ونقاء الباطن . وفى تفسير الإمام القرطبى : قال علىٌّ - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما فتجرى عليهم نضرة النعيم ، فلا تتغير أبشارهم ولا تتشعث أشعارهم أبدًا . ثم يشربون من الأخرى فيخرج مافى بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

وفى نسبة السقى إلى الله - سبحانه - فى قوله : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ) مايدل على مزيد فضل هذا الشراب على ماسواه من الكافور والزنجبيل والسلسبيل ؛ إذ إنه إتحاف منه - جل شأنه - دون وساطة أحد من خلقه .

٢٢ - (إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) :

أى : إن هذا الذى أنعم الله به عليكم فى الجنة كان جزاءً وثوابًا على ما قدمتم من أعمال صالحة وأفعال مبرورة فى دنياكم ، نظيره قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »[1] .

يقال لمن يعاقب : هذا بعملك السيء الرديء فيزداد غمه وألم قلبه ، ويقال للمثاب : هذا لك بطاعتك ، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة فى سروره .

(وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) أى : وكان عملكم الذى عملتموه فى الدنيا مقبولاً لدى الله ومرضيًّا منه - سبحانه - فيكون بهذا قد جمع الله لعباده الطائعين بين منزلة رضاهم عن ربهم بالثواب العظيم فى الجنة ، وبكونه - عز شأنه - رضى عنهم بقبول عملهم وشكرهم عليه فتكون نفوسهم فى تلك الحالة قد وصلت إلى أنها راضية مرضية ، وهذه هى أعلى الدرجات وأرفع المقامات ؛ فكانت جديرة أن يختم الله بها مراتب الأبرار وأحوال المتقين والصديقين الأطهار .

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾)

المفـــردات :

(آثِمًا) : ذا إثم وذنب ، أو المبالغ فى ارتكاب الذنوب .

(كَفُورًا) الكفور : المتناهى فى الكفر الداعى إليه .

(بُكْرَةً) : أول النهار .

(أَصِيلًا) : الأصيل : هو الوقت بعد العصر إلى المغرب .

٢٣ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا) :

أى : إننا نحن - لا غيرنا - قد نزلنا عليك هذا القرآن العظيم فهو من لدنّا ، وما افتريتَه ولا جئتَ به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدَّعى المشركون والمكذبون ذلك ويزعمون أنه من عندك (إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) وقد أُنزل هذا الكتاب الجليل الكريم بما يشتمل ويتضمن ما يحتاج إليه الناس فى أمر معاشهم ومعادهم ، وليس بسحر ولا كهانة ولا شعر ، بل إنه الحق ، وفى ذلك من إزالة الوحشة الحاصلة لرسول الله ﷺ بسبب طعن الكفار فى القرآن الكريم ، فيكون المعنى : إذا كان بعض الجهال قد طعن فيما أنزلته عليك إلّا أن جبار السموات والأرض قد عظمه وصدقه .

قال الإمام ابن عباس : أنزل الله القرآن مفرقًا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة ، فلذلك قال : (نَزَّلْنَا) .

٢٤ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) :

أى : فاحبس نفسك واصبر على كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفًا خاصًا بك من العبادات والطاعات ونحوها ، أو متعلقًا بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة وتحمل المشاق الحاصلة والناشئة عن ذلك .

(وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) أى : ولا تتبع سبيل من كان منهم مغرقًا فى الإثم مفرطًا فيه ولا من تناهى فى الكفر ودعا إليه ، سواء أُريد شخص بعينه أو كان مرادًا به كل آثم وكفور . وقد جاءت (أَوْ) هنا للعطف بدل الواو ، للإيذان بأن كلاً من الآثم والكفور وحده حقيق وجدير أن يُعصى ولا يُطاع ، فكيف وقد جمع بينهما فى النهى عن طاعتهما معًا .

قال الزجاج : إن (أو) هنا أوكد من الواو ، لأنك إذا قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص ، فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، ويعلم منه النهى عن إطاعتهما معا كما لا يخفى .

٢٥ - (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) :

أى : وداوم على ذكر ربك بلسانك مستحضراً ربوبيته ورعايته لك وأنك مخلوق له يقوم على أمرك ويتولى شأنك إذ هو قيوم السموات والأرض ، وأن يكون الذكر فى أول النهار مبتدئًا به يومك ليعمك الخير وتُهدى إلى البر ويشملك التوفيق ، وتذكره كذلك فى وقت الأصيل وهو من العصر إلى المغرب ، أو من الزوال إلى غروب الشمس ، أى : املأ نهارك كله بذكر الله .

٢٦ - ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ :

أى : وفى جزء من الليل اخضع لربك وصلِّ له واقترب منه ؛ فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وقيل : المراد من الذكر فى البكرة صلاة الصبح ، وفى الأصيل صلاة الظهر والعصر ، ومن قوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾ صلاة المغرب والعشاء .

﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أى : سبح ربك وقدّسْهُ ونزّهْهُ عمّا لا يليق بجنابه الكريم ، ومقامه السامى الرفيع فى هزيع وجزء من الليل ؛ لأن الليل وقت المناجاة ، وصفاء النفس ، والبعد عن شواغل الحياة ، وهو أيضًا وقت نزول الرحمات ، وبخاصة فى آخره - فإن رحمة الله تنزل إلى سماء الدنيا ليغفر ربنا - سبحانه - لمن استغفره ، ويعطى من سأله ، ويستجيب لمن دعاه ، ولعل المراد من السجود المأمور به فى الآية هو صلاة الليل وهى التهجد الذى هو مندوب إلّا فى حقه ﷺ فإنه واجب عليه ، اختصه الله به ليرفعه إلى الدرجات العلا والمنزلة العظمى ، قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »[1] .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

(إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(الْعَاجِلَةَ) : الدنيا .

(يَوْمًا ثَقِيلًا) : عسيرًا شديدًا وهو يوم القيامة .

(وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ) الأَسر فى الأَصل : هو الشد والربط ، والمراد : وأحكمنا ربط أجزائهم بعضها ببعض .

التفسير

٢٧ - (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) :

هذا تقريع وتوبيخ للمشار إليهم وهم أهل مكة ، وقيل : إنها نزلت فى يهود ، أى أنهم بسبب الشهوة والمحبة لهذه اللَّذات الجسدية والمتع الدنيَّة البدنية يفرحون ويحبون الدنيا العاجلة التى تُؤْذِنُ بانصرام ، وتُعْلِمُ بانقضاء وانتهاء ، ويتركون ويدعون خلف ظهورهم دون انتباه إليه أو التفات نحوه يذرون يومًا شديدًا عسيرًا يثقل حمل مافيه ، ويضعف الإنسان عن تحمل مشاقه وصعابه وهو يوم القيامة ومافيه من نشر وحشر وحساب .

٢٨ - (نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) :

أى : نحن - لا غيرنا - خلقناهم من طين بدءًا من آدم - عليه السلام - وفى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، وأعطيناهم القُوَى والقُدَرَ وشددنا وربطنا مفاصلهم وأوصالهم بعضهم ببعض ربطناها بالأعصاب والعروق ، وذلك فى إحكام حكيم وربط وثيق لا يهتدى إليه أحد

سوانا ، فكل المخلوقات قَهْر عظمتنا ، والأَسر فى الأَصل : هو الشد والربط ، وأُطلق على مايشد ويربط به ، وكانت الأَعصاب والعروق للشد والربط لأَنها تشبه الحبال التى يربط بها ، والمراد : شدة الخلق وكونه موثقًا حسنًا ، قال تعالى : « الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ »[1] والكلام هنا جاءَ للامتنان وبيان فضل الله عليهم ، وذلك بإِسداء النعم الجليلة التى قابلوها بالمعصية ، أَى : سويت خلقكم وأَحكمته ومددتكم بالقوى وكَرَّمتكم ثم تكفرون بى ؟!

(وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا) : هذا تهديد لهم بالإِهلاك ، أَى : وإِذا أَردنا إِهلاكهم وتدميرهم جئنا بأَمثالهم فى شدة الخلق وإِحكام الصنع ممن يطيعنا ويمتثل أَمرنا ؛ فقدرتنا صالحة لذلك لا يتأَبى عليها شىءٌ من الممكنات ما دامت إِرادتنا قد تعلقت به .

(إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(تَذْكِرَةٌ) : موعظة .

(سَبِيلًا) : طريقًا إِلى مرضاة الله .

(أَعَدَّ لَهُمْ) : هيأَه لهم .

---

(١) الآية ٦ من سورة الانفطار .

٢٩ - (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) :

أى : إن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البديع والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب تذكرة وموعظة للمتأملين ، وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء وأراد الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة اتخذ وسلك طريقًا إلى ربه بالتقرب إليه بما يحبه ويرضاه .

٣٠ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) :

أى : لايقع ما تريدونه ولا يتم ما تشاءُونه بإرادتكم ، فأعمالكم التى لكم فيها الاختيار لا تتم ولا تقع وفق اختياركم لها ، وإنما ذلك مرهون وموقوف على مشيئة الله لذلك ، فما شاء - سبحانه - كان وحصل ، وما لم يشأْ لا يكون ولا يحدث ، قال تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »[1]. وقال ابن كثير : لا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الإيمان ، ولا يَجُرّ لنفسه نفعاً إلاَّ بمشيئته - تعالى - .

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا) أى : أنه - سبحانه - حكيم فى تدبيره يحيط إحاطة تامة ويعلم علمًا كاملاً بمن هو أهل لأن يمنحه الهداية ويذلل له طريقها فييسرها له ، كما يعلم - جل شأْنه - من ليس أهلا لإكرامه وإنعامه - وقد اختار الضلالة وآثر المعصية - فييسر له سبيل الغواية ، ويمهد له طريق الضلال ، قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ • وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ »[2] :

٣١ - (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

هذه الآية كالمترتبة على ما سبق من قوله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ) أى : أن دخول الجنة يكون بمحض مشيئته وفضله ورحمته - سبحانه - وأن تعذيب الله للظالمين من عصاة وكافرين يكون أيضاً بعدل الله وإرادته ، فلا مكره له - سبحانه - وقد أعد وهيأ لهؤلاء الفاسقين الظالمين عذاباً موجعًا شديد الإيلام ينتظرهم وهو - جل شأْنه - لامعقب لحكمه ولا راذ لقضائه وهو أحكم الحاكمين .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنعام . (٢) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

سورة المرسلات

مكية ، وآياتها خمسون

هذه السورة الكريمة من السور الخمس التى قال فيها رسول الله ﷺ : « شيبتنى هود وأخواتها » وهذه السور هى : هود ، والواقعة ، والمرسلات ، والنبأ ، والتكوير ؛ وذلك لما فى تلك السور من إظهار عدل الله المطلق وبطشه ، وشديد عذابه ، وقوة سلطانه .

قال ابن مسعود : نزلت تلك السورة على رسول الله ﷺ ليلة الجن ونحن نسير معه حتى أوينا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه وإن فاه لرطب بها - إذ وثبت حيّة فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ، فقال النبى - عليه الصلاة والسلام - : (وقيتم شرها كما وقيت شركم) وهذا الغار يعرف بغار المرسلات .

وهذه السورة هى التى قرأها رسول الله ﷺ فى صلاة المغرب وما صلى بعدها حتى قبض[1] .

صلتها بما قبلها :

أن الله قد ذكر فى آخر سورة الإنسان طرفاً من تهديد الكفار بالعذاب فى الآخرة « إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً » وأتى فى أول سورة (والمرسلات) بمزيد من الوعيد والعذاب للكفار حتى استغرق هذا أكثر السورة ، وذلك من أولها إلى الآية الأربعين ، فكأن هذه الآيات من سورة (المرسلات) امتداد لآخر سورة الإنسان ، كما أن سورة الإنسان قد ضم أكثرها جزاء المحسنين بدءا من الآية الخامسة « إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا » إلى الآية الثانية والعشرين : « إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا » .

وفى سورة والمرسلات جاء ذكر ثواب المتقين فى صورة مجملة : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ...) فالسورتان تلتقيان فى وعد المؤمنين ووعيد الكافرين .

---

(١) حديث قراءته - صلى الله عليه وسلم - فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها متفق عليه من حديث أم الفضل .

أهم مقاصد السورة :

١ - جاء أولها مبيناً لعظيم قدرة الله وأنه هو - سبحانه - المالك لجميع خلقه ، يرسل ماشاء على من يشاء ، وينشر من شاء فى فسيح ملكه وملكوته ، وينزل الرحمة والآيات بوساطة الذين يريدهم ويختارهم من خلقه على من اصطفى من عباده وارتضاهم لرسالته : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ...) .

٢ - جاءت السورة بعد ذلك تهدد المكذبين وتبين لهم أن الله أباد وأهلك قوماً بعد قوم من الضالين المكذبين : (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ..) .

٣ - أبانت السورة الكريمة أن أمر العباد إليه وحده من أول خلقهم إلى نهاية آجالهم : (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) :

٤ - ذكرت السورة بعضاً من نعم الله على عباده ، ثم أنذرت من كذب منهم بالعذاب الشديد :

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا) . إلى قوله تعالى : (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

وكان ختام السورة ضرباً من إرخاء العنان للمكذبين المجرمين وإمهالهم ليتمتعوا ويأكلوا ثم تكون عاقبتهم الويل والثبور والهلاك والبوار (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَالْمُرْسَلَاتِ) : الريح ، وقيل غير ذلك .

(عُرْفًا) : متتابعة بعضها فى إثر بعض .

(فَالْعَاصِفَاتِ) : الريح الشديدة .

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) : الملائكة تنشر أجنحتها عند نزولها ، أو تنشر وتحيي نفوس الجهلة والكفار ، وقيل غير ذلك .

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا) : الملائكة تفرق بين الحق والباطل .

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) : الملائكة تلقى الوحى من عند الله وتنزل به على أنبيائه .

(عُذْرًا) : من عذر : إذا محا الإساءة ، وقيل غير ذلك .

(نُذْرًا) : من أنذر : إذا خوّف .

التفسير

١ - ٧ - (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) :

أقسم الله - سبحانه - فى أول تلك السورة الكريمة بأشياء عظيمة من خلقه ذكر - عز وجل - صفاتها ولم يذكر أسماءها ، لذا اختلف المفسرون فى تعيينها وبيان المراد منها اختلافاً كثيراً ،

والذى يتضح أن المقسم به هنا شيئان ، وهما : الريح ، والملائكة ؛ لأن الله قد فصل بينهما بالعطف بالواو لإشعار ذلك بالمغايرة ، لأن الشأن أن يكون المعطوف بالواو غير المعطوف عليه .

أقسم - عز شأنه - أولاً بالريح المرسلة على الكفار لعذابهم واستئصالهم ، والريح - كما بين القرآن الكريم - يرسلها الله للعذاب ، قال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »(١) كما توصف الريح بالعصف - وهو الشدة - لإهلاكها من ترسل عليهم ، أولأنها تأتى بالعصف،وهو ورق الزرع وحطامه ، أو تُنْعَتُ بذلك لسرعتها فى مُضِيِّهَا لتنفيذ أمره قال تعالى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »(٢) ويجوز أن يراد من المرسلات ما يشمل ويضم - أيضا - رياح الرحمة التى تسوق وتثير السحاب وتلقح النبات وتكون مبشرات بالخير ؛ لأن هذه الرياح قد ورد فى القرآن الكريم أن الله يرسلها كما يرسل ريح العذاب ، قال تعالى : « اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »(٣) وقال : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ »(٤) وقال :- « وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ »(٥) . فكل من ريح العذاب ورياح الخير والرحمة جند من جند الله « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ »(٦) .

هذا ، وعطف العاصفات على المرسلات بالفاء للإيذان والتنبيه على أنه من عطف الصفات أى : من عطف صفة على صفة أخرى لموصوف واحد .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة فصلت .
(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية ٤٨ من سورة الروم .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة الحجر .
(٥) من الآية ٤٦ من سورة الروم .
(٦) من الآية ٣١ من سورة المدثر .

وأقسم - سبحانه - ثانياً بالملائكة وهى من أشد خلق الله قوة ، ووصفها بالناشرات لأنها تنشر أجنحتها فى الجو عند نزولها بالوحى ، أو لنشرها وإحيائها النفوس التى تشبه الموتى بسبب مافيها من الكفر والجهل ، وذلك بما تنزل به من لدن ربها على الأنبياء والرسل من الوحى الذى تحيا القلوب به ، كما نعتها بالفارقات لأنها تفرق بين أصالة الحق وزيف الباطل ، وذلك بما تنزل به من عند ربها إلى الرسل ، ووصفها كذلك بالملقيات ذكرا لإلقائها الذكر وهو الوحى على الأنبياء ليبلغوا ذلك لأممهم إعذارًا وإنذارًا ، وهنا أيضاً عطف (فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً) و (فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا) على (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) لبيان أن تلك الصفات لموصوف واحد وهم الملائكة .

والمعنى : أقسم - سبحانه - بكل من الريح التى يرسلها لعباده عذابًا لهم أو رحمة بهم متتابعة ومتتالية كالعرف وهو ما يكون من شعر وريش على العنق من الفرس ونحوه ، وأقسم - كذلك - بالملائكة التى تنشر أجنحتها عند النزول بأمر الله أو تنشر رحمته وتفرق بين الحق الأبلج والباطل الزائف « عُذْرًا » أى : تلقى بالوحى على رسل الله لإزالة إساءة المسيئين الذين : أخلصوا التوبة وأنابوا إلى ربهم ، وذلك بقبول الله لأعذارهم ، قال الراغب : عذرت فلاناً : أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه ، كقولك : غفرت له ، أى : سترت ذنبه .

أو المراد أن الله يزيل عذرهم ويقطع حجتهم التى قد يحتجون بها لدى الله كادعائهم أن الله لم يرسل لهم من يرشدهم ويهديهم ، فأرسل إليهم الرسل وذلك على حد قوله : « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[1] . (أَوْ نُذْرًا) أى : لإنذار المبطلين والعصاة وتخويفهم وترهيبهم .

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ): هذا هو جواب القسم ، أى : إن الذى توعدون به على لسان الرسل من مجىء يوم القيامة وما فيه من نشر وحشر وحساب ثم إلى جنة أو إلى نار هو واقع بكم ونازل عليكم لا محالة لأنه الحق .

---

(١) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾)

المفـــردات :

(طُمِسَتْ) : محقت ومحيت .

(فُرِجَتْ) : فتحت وشقت فكانت أبواباً .

(نُسِفَتْ) : فرقتها الريح بسرعة .

(أُقِّتَتْ) : بلغت وانتهت إلى ميقاتها الذى كانت تنتظره ، وهو يوم القيامة .

(أُجِّلَتْ) : أُخِّرَتْ .

(وَيْلٌ) : هلاك ، وقيل : هو واد فى جهنم .

التفسـير

٨- ١٥ - (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

هذا بيان لأمارات يوم القيامة وعلامات عليه ، أى : إذا النجوم قد ذهب ضوؤها ومحى نورها ، أو محقت ذواتها وانتثرت وانكدرت ، وإذا السماء فتحت وشقت وتصدعت فكانت أبواباً ، وإذا الجبال نسفت كما ينسف الحب بالمنسف ، وذلك كقوله تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا » وقيل : إزالتها من مقارّها وأماكنها بسرعة ، من : انتسفت الشىء :

إذا اختطفته ، وإذا الرسل بلغت ميقاتها الذى كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، أو : وإذا الرسل عُين وحُدد لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممهم ، إذا حصل هذا ووقع ما سبق كان ذلك أمارة وعلامة على أن القيامة قد أظلتهم ونزلت بهم ، فهذه الأمور هى مقدماتها وسابقتها .

(لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ) الضمير فى قوله : (أُجِّلَتْ) راجع إلى ما جاءت به الرسل - عليهم السلام - أى : لم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفرة وتنعيم المؤمنين وما كانت الرسل تذكره وتحدث به من أمور الآخرة وأحوالها وأهوالها ؟ ويجوز أن المراد من الضمير (أُجِّلَتْ) لما سبق من طمس النجوم وتشقق السماء ونسف الجبال وتأقيت الرسل . وهذه الآية الكريمة جاءت وسبقت على طريق الاستفهام الذى يفيد التعظيم والتعجيب من هول وشدة ذلك اليوم (لِيَوْمِ الْفَصْلِ) أى : أجلت هذه الأمور ليوم الفصل والقضاء بين الخلائق ، وذلك مثل قوله تعالى : (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)[١]

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) : هذا تهويل وتعظيم آخر ، أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته ومهابته وقوة وقعه على النفوس (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : وهذا أيضاً تهويل ثالث لما يحدث فى هذا اليوم ، أى : هلاك كبير وبوار عظيم للمكذبين بالتوحيد والجاحدين للنبوة والمعاد ، وبكل ما ورد عن الأنبياء والرسل وأخبروا به .

وجاءت هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) فى السورة الكريمة عشر مرات ، ولعل سر تكرارها أنها تذكر فى كل مرة متصلة بالجرم والذنب الذى جاءت للتحذير والتخويف منه والتهديد والوعيد عليه ، فيكون لها بذلك أكبر الأثر فى الزجر والمنع ؛ لأن الذنب إذا قارنه عقابه واتصل به عذابه كان ذلك آكد فى الزجر وأقوى فى الردع ، وأدعى إلى البعد والتنائى عنه .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الدخان .

هذا والمعهود فى مثل هذا المقام أن تأتى كلمة (ويل) وما يماثلها منصوبة على أنها مصدر ساد مسد فعله ، أى : نائب عنه يقصد به الدعاء ، كأن يقال مثلا : ويلا لهم ، أى هلاكا لهم ، ولكنه عدل به إلى الرفع على الابتداء « ويل » للدلالة على أن الهلاك والثبور ثابت لهم ودائم عليهم لا يزايلهم ولا يتجاوزهم ؛ لأن الجملة الاسمية - كما هو معروف - تدل على الثبوت والدوام .

ومعلوم أن هذه الآية فى كل مرة قد جاءت مهددة ومنذرة من ذنب وجرم غير الذى جاءت به فى أى من المواضع الأُخرى .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى عند تفسير هذه الآية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) ما نصه : وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذّب ، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشىء عذاباً سوى تكذيبه بشىء آخر ، ورُبَّ شىء كذَّب به هو أعظم جرماً من تكذيبه بغيره لأنه أقبح فى تكذيبه وأعظم فى الرد على الله ، فإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه وهو قوله : (جَزَاءً وِفَاقاً) اهـ .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ جهنم فلم أر فيها وادياً أعظم من الويل » وعلى كل حال فمآل الكافرين الهوان والعذاب والثبور والهلاك .

(أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾)

المفـــردات :

(أَلَمْ) : هذا استفهام عن انتفاء إهلاك الله للمجرمين ، جاء على وجه الإنكار ، فأفادَ إثبات الإهلاك وإيجابه ، فكان معناه : أهلكنا الأولين . وقال الراغب : (لم) نفىٌ للماضى وإن كان يدخل على الفعل المستقبل ، ويدخل عليه ألف الاستفهام للتقرير .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) أى : نلحق الآخرين بالأولين .

التفسير

١٦ - ١٩ - (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أي : قد أهلكنا الأولين السابقين جميعاً ممن كذبوا بالرسل ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ، وإهلاكُهم وتدميرُهم أمر ثابت مقرر قد وقع وحصل .

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) : هذا وعيد وزجر لأهل مكة ومن على شاكلتهم من المشركين والكافرين ، أى : سنفعل بكم مثل هذا النكال ، وننزل بكم نظير هذا العذاب إن بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك والضلال ، فهذه هى سنتنا وطريقتنا فى عقاب كل من يجرم ويكفر : نأخذه ونهلكه مثل إهلاكنا من سبق من المجرمين المكذبين ، وعلى هذا فالمراد من (الْأَوَّلِينَ) كل من كذَّب من الأمم السابقة ، والمراد من (الْآخِرِينَ) هم أهل مكة وأضرابهم .

وقيل المعنى : إننا أهلكنا الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم فعلنا ذلك بالآخرين ممن أتى بعدهم ونهج نهجهم كقوم شعيب وقوم لوط وقوم موسى ، ومثل ذلك الفعل الباطش الشديد والعذاب الأليم نفعل بكل مجرم عات جبار ، وعلى هذا الرأى الأخير يكون المقصود من (الْأَوَّلِينَ) أقواماً سبقوا بالكفر كقوم نوح وغيرهم ، وبالآخرين أقواماً سواهم ممن سلف من المجرمين كقوم شعيب ولوط ومن كان يناظرهم ، ويكون قوله تعالى : (كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) قد جاء إنذاراً وتخويفاً من عاقبة الكفر وسوء أثره كى يرتدع وينزجر أهل الشرك والكفر بعد بعثته – ﷺ وإلاَّ كان مآلهم التدمير والهلاك ؛ لأن الله قد أهلك من أهلك لكونهم مجرمين ، فهذا الحكم عام فى جميع المجرمين ؛ لأن عموم العلة – وهى الإجرام – يقتضى عموم الحكم وهو العذاب .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : إن هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا فى الدنيا فلن يكون هذا نهاية هوانهم وعذابهم ، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة ومهيأة لهم تنتظرهم يوم القيامة .

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾)

المفــردات :

(مَآءٍ مَّهِينٍ) : ماء ضعيف حقير وهو النطفة .

(قَرَارٍ مَّكِينٍ) : مكان حصين حريز وهو الرحم .

(إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : إلى أن نصوِّره ونسويه ، أو إلى وقت الولادة .

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : قدَّرنا ذلك وأحكمناه ، أو قَدَرْنا على ذلك وتمكنا منه .

التفسير

٢٠ – ٢٤ – (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خلقناكم من ماءٍ حقير وهو النطفة المذرة ، وجعلنا هذه النطفة وثبتناها فى مكان حصين وهو رحم المرأة ، إلى أن يتم خلقه وتصويره وتسويته فينزل من ذلك الرحم فى وقت معلوم وزمن مقدر وهو وقت الولادة (فَقَدَرْنَا) أى : قدَّرنا ذلك ودبرناه وأحكمناه فجاء بشرًا سويًّا ، أو تمكنا من ذلك وقدرنا عليه لأنه فى قبضتنا وتحت سلطاننا وقهرنا (فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) : فنعم المقدرون لذلك نحن ، أى : قدرتنا هى المدح والثناء على الله منه – سبحانه – لأنه صاحب المن والفضل ، وهو مولى النعم والحكيم الخبير ، فليس أحد يدانيه فى ذلك ، أو : فنعم القادرون على ذلك نحن إذ لا يقدر عليه أحد سوانا ، فإلينا يرجع الأمر كله . (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) : بعد أن بين الله لهم عظيم إنعامه عليهم بخلقهم وتصويرهم فى أحسن هيئة وأبدع صورة جاء تخويفهم بالويل والهلاك ، لأن النعمة إذا

جلّت وعظمت كانت جنايتهم فى حقه - تعالى - بالإنكار والتكذيب أقبح وأفحش . وكان العقاب على ذلك أشد وأفظع .

(أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(كِفَاتًا . أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا) : ضامة وجامعة للأحياء على ظهورها . وللأموات فى بطنها .

(رَوَٰسِىَ) : ثوابت .

(شَٰمِخَٰتٍ) : طوال .

(مَّآءً فُرَاتًا) : عذبًا حلو المذاق .

التفسـير

٢٥ - ٢٨ - (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : قد جعلنا الأرض ضامة وجامعة لكم فى حياتكم ؛ فذللها لتمشوا فى مناكبها وتسيروا فى جنباتها وطرقها . وتسكنوا فى منازلها ودورها ، وجعلها أيضًا جامعة لمـا تحتاجون إليه من أمر معاشكم . كما جعلها ضامة وكافتة للأموات يدفنون فى جوفها . وجاء التنكير فى قوله : (أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا) للتفخيم والتكثير . أى : تضم وتكفت أحياء لا يعدُّون وأمواتًا لا يحصرون . كما أوجدنا وخلقنا فى الأرض جبالًا ثوابت عاليات كى لا تميد الأرض ولا تضطرب بكم ؛ لتسلكوا فيها سبلًا فجاجًا وطرقًا كثيرة . وذلك فى أمن ويسر فضلًا عن

أن فى الجبال بعد ذلك من الفوائد الجليلة مايعطف القلب ويلفت النظر إلى التفكر فى مزيد فضل الله على الإنسان ، إذ أن هذه الجبال تنزل الأمطار عليها وترتطم بها السحب الركامية ويحدث من ذلك السيول الجارفة التى تشق طريقها فى الأرض وتتكون الأنهار العذبة فيسقى الله منها الإنسان والحيوان ، وينبت الزرع ويدر الضرع ، وتحيا الأرض بعد موتها ، وذلك مما يدعو إلى التبصر والاعتبار . وجاء قوله تعالى : (وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا) أى : عذبًا سائغًا شرابه ، جاء كالأثر الطيب المبارك المترتب على تذكير الله لهم بنعمة خلق الجبال وإيجادها .

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) أى : عذاب شديد للمنكرين لهذه النعم التى لا يخفى نفعها ولا ينكر أثرها العظيم إلا كل مكذب جاحد .

(ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾)

المفــردات :

(انطَلِقُوا) : سيروا واذهبوا .

(ظِلٍّ) : دخان .

(لَّا ظَلِيلٍ) : غير مظل من حر الشمس .

(وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ) اللهب : مايعلو على النار إذا اضطرمت ، أى : لا يدفع من لهب جهنم شيئًا .

(بِشَرَرٍ) : جمع شررة ، وهو مايتطاير من النار متبددا فى كل جهة .

(كَالْقَصْرِ) : كالبناء العالى العظيم ، وقيل : غير ذلك .

(جِمَالَةٌ) : جمع جمل ، وقيل : غير ذلك وسيأتى .

التفسير

٢٩ - ٣١ - (انطَلِقُوٓا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ) :

أمر الله هؤلاء المكذبين - أمر إهانة وتوبيخ وتقريع - أن يذهبوا ويسيروا إلى ما كانوا يجحدون به وينكرونه من عذاب يوم القيامة ؛ أمرهم بذلك أولًا أمرًا عامًّا ولم يبين لهم فيه كنه العذاب ولا صفته ولا صورته ، ثم أمرهم - ثانيًا - بقوله : (انطَلِقُوٓا .) أى : اذهبوا لتلقى أول مراتب هذا العذاب ومنازله ، الذى وضحه - سبحانه - بقوله : (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ) أى : إلى الاستظلال بدخان جهنم الذى قد انقسم وتفرق - لعظمه وشدته - إلى ثلاث شعب ؛ شعبة وطائفة منه تكون من فوقهم ، وأخرى من تحتهم ، وثالثة تحيط بهم من كل جانب ، وذلك كقوله : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[1] ، وقوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »[2] أو شعبة على يمينهم ، وشعبة على يسارهم ، وشعبة ثالثة من فوقهم .

ويحتمل أن تكون تلك الشعب الثلاث للمنافقين ، وللكافرين ، وللعصاة من المؤمنين ، لكل فريق شعبة توافق وتناسب جرمه وذنبه ، فتظلهم تلك الشعب حتى يفرغ من حسابهم ، أما المؤمنون فهم فى هذا الوقت فى ظل عرش الله .

(لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ) : جاءت هذه الآية قاطعة لرجائهم ومخيبة لآمالهم من أن يكون فى ذلك الظل راحة لهم ؛ إذ قد بين - سبحانه - أنه غير مظل وغير مفيد ولا مبعد من يستظل به من حر الشمس ، ففى الأثر : إن الشمس تقرب يوم القيامة من رءوس

---

(١) من الآية : ١٦ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ٥٥ من سورة العنكبوت .

الخلائق . وليس عليهم يومئذ لباس ولا كفان فتلفحهم الشمس وتسفعهم[١] ، وتأخذ بأنفاسهم ، ويمتد ذلك اليوم ، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظلٍّ من ظلِّه ، فهناك يقولون : فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، ويقال للمكذبين : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه : كذلك لا يدفع عنهم هذا الظل لهب النار ، وقيل : لا يحول بينهم وبين العطش[٢] الذى تنالهم شدته وإنما سمى ما هم فيه ظلاً على طريق التهكم بهم والسخرية منهم .

٣٢ - (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) :

أى : إن النار ترمى وتقذف بشرر - وهو ما يتطاير من النار متبددًا فى كل جهة - كل شررة منه فى عظمها كالقصر . وهو البناء العالى العظيم ، أو الحِصن المنيع - وقيل : المراد من القصر : جمع قَصَرة ، وهى الحطب الجزل الغليظ ، أو هو أصول النخل والشجر العظام وأيًّا ما كان الأمر فإنها النار التى وقودها الناس والحجارة التى تكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غضبها على الكفار « تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ »[٣] .

٣٣ - (كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) :

الجمالة : جمع جمل . لحقت به التاء لتأنيث الجمع . أو أن جمالة : جمع جمال ، وجمال : جمع جمل ، فيكون من قبيل جمع الجمع .

وإذا كانت الشررة مثل القصر الضخم أو الحصن العالى العظيم أو كأصول الشجر العظام فكيف يكون حال النار التى ترمى بذلك ؟ أعاذنا الله منها .

وشبه الشرر - أولاً - بالقصر لعظمه وضخامته ، ثم شبه - ثانيًا - فى اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ، أى : السود التى تضرب إلى الصفرة ، قال

---

(١) الكفان : وقاء كل شىء . ولفحت النار بحرها : أحرقت . وسفع السموم وجهه : لفحة لفحا يسيرا .
(٢) قال قطرب : اللهب هنا : العطش . يقال : لهب لهبا ورجل لهبان ؛ و امرأة لهبى .
(٣) من الآية : ٨ من سورة الملك .

الفراء : لا ترى أسود من الإبل إلَّا وهو مشوب بصفرة ، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذى يشوبه شىء من الصفرة . وقال الإمام الفخر الرازى : وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد ، لأن الشرر إنما يسمى شررًا ما دام يكون نارًا ، ومتى كان نارًا كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وهنالك لايسمى شررًا ، وهذا القول عندى هو الصواب . اهـ .

٣٤ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : خزى وهوان وعذاب لهؤلاء الذين ينكرون ويجحدون هذا الوعيد أو يسخرون منه .

(هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾)

المفـــردات :

(لَا يَنطِقُونَ) : لا يتكلمون ولا ينطقون بشىء ينفعهم .

(فَيَعْتَذِرُونَ) : فليس لهم عذر يعتذرون به ويحتجون .

التفسير

٣٥ - (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ) :

الإشارة فى قوله : (هَٰذَا يَوْمُ) إلى وقت دخولهم النار ، أو مشاهدتهم لها ، أى : هذا يوم لا يتكلمون فيه بشىء وذلك لعظم دهشتهم وفرط حيرتهم واضطرابهم ، ولا ينافى أن لهم نطقًا وكلامًا فى موطن وموضع آخر ؛ لأن يوم القيامة طويل ، له مواقيت ، ففى بعضها ينطقون وفى بعضها لا ينطقون ، أو أنهم لا ينطقون بشىء ينفعهم ؛ فجعل نطقهم كلا نطق
قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون .

٣٦ - (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) :

أى : أنهم لا يؤذن لهم فى العذر والتنصل مما أتوا به من جرائم وقبائح (فَيَعْتَذِرُونَ) وهم أيضًا لم يعتذروا ، وكونهم لم يعتذروا ليس راجعًا إلى عدم الإذن لهم فى الاعتذار ، ولكنه راجع إلى عدم العذر فى نفسه ، أى أنه لا عذر لديهم يعتذرون ويحتجون به ، ويستندون إليه . وقال الزمخشرى : (فَيَعْتَذِرُونَ) عطف على (يُؤْذَنُ) منخرط فى سلك النفى . أى : أن النفى يشملهما وينصب عليهما معًا .

٣٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان لهم ، وخزى يلحقهم من انقطاع عذرهم وافتضاح أمرهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، بالإضافة إلى رؤيتهم المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا ، وقد فازوا بالثواب العظيم من رب العالمين ، أما هم فقد باءوا بالنكال والذل بمشاهدتهم النار وأهوالها التى هى مثواهم وبئس المصير .

(هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(وَالْأَوَّلِينَ) : السابقين لكم .

(كَيْدٌ) : حيلة ومكر تمكرون به .

التفسير

٣٨ - (هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) :

أى : هذا يوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، فيتبين المحق من المبطل ، ويفصل بين الرسل وأممهم ، كيلا يكون لأحد حجة .

(جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) أى : جمع الذين كذبوا محمدًا والذين كذبوا النبيين من قبله .

٣٩ - (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) :

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : فإن قدرتم على الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا ، وأنّى لكم ذلك ، فإن الحيل والمخادعة فى هذا اليوم قد انقطعت وأصبحت غير ممكنة أو فإن تمكنتم من أن تتخلصوا من قبضتى وتنجوا من حكمى فافعلوا ، ولكنكم لا تقدرون ، وذلك كقوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ »[1] ، وقوله - سبحانه - فى الحديث القدسى : « يَاعبادِى إنكمْ لَنْ تَبْلغوا نَفْعِى فَتنفعونِى ، ولَن تَبلغُوا ضُرى فَتَضرونِى » . فخطاب الله لهم فى هذه الحالة نهاية فى تخجيلهم وتقريعهم وتوبيخهم ؛ لذا جاء عقيبه قوله تعالى :

٤٠ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هوان وإيلام لهم ، لأن التوبيخ لهم فى هذا الموطن ضرب ولون من ألوان العذاب

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(مِمَّا يَشْتَهُونَ) : مما يتمنون .

(هَنِيئًا) : لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

التفسير

بعد أن أبان - سبحانه - ماينتظر الكفار والعصاة من بعثهم ودفعهم (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ...) إلخ ماجاء فى تهديدهم ووعيدهم ، أخبر

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن .

- جل شأنه - بما يصير إليه المتقون وينعمون به ، فبيَّن أنه - سبحانه - قد أعدَّ وهيأ لهم أنواعًا من نعمه فقال :

٤١، ٤٢ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) :

كأنه قيل : ظلال الكافرين ما كانت ظليلة ، وما كانت مغنية لهم عن اللهب والعطش أما المتقون فظلالهم ظليلة ؛ لأنهم فى ظلال الأشجار وظلال القصور فى الجنة وفيها عيون عذبة مغنية لهم من العطش ، ومانعة وحاجزة بينهم وبين اللهب ، ومعهم الفواكه التى يشتهونها ويتمنونها .

٤٣ - (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أمرهم - جل شأنه - أمر تكريم وإعزاز فقال لهم : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : كلوا أكلا ، واشربوا شربًا خالص اللّذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص وذلك جزاء عملكم الحسن وطاعتكم لله فى الدنيا دار التكليف ، وفى هذا من إدخال السرور والرضا على نفوس المؤمنين ، وفيه ما فيه من التبكيت والتحسير للمكذبين ؛ لأنه يذكّرهم بما فاتهم من النعم العظيمة ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا وظفروا بمثل تلك الخيرات ، ونالوا عظيم الدرجات ، ولكنهم كانوا فى سخط الله وغضبه وعظيم عذابه ؛ بسبب كفرهم وتكذيبهم .

٤٤ - (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) :

أى : مثل هذا الجزاء الحسن العظيم نكافئ ونجزى المحسنين لا بخس ولا نقص . والمحسنون : هم الذين أحسنوا فى تصديقهم بمحمد - ﷺ - وأحسنوا فى أعمالهم فى الدنيا .

٤٥ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : نكال وخزى على الكافرين حيث يرون السعادة للمؤمنين ، أما هم ففى العذاب خالدون .

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـــردات :

(مُجْرِمُونَ) : كافرون أو عاصون .

التفسير

٤٦ - (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) :

أى : الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم ذلك يوم القيامة ، تذكيرًا لما كان يقال لهم فى الدنيا وتحسيرًا وتخسيرًا لهم ، وهم جديرون أن يخاطبوا بذلك حيث تركوا الحظ الوفير ، والنصيب الجليل الكثير الدائم ، إلى القليل الحقير ، والنزر اليسير ، وآثروه وهو الزائل الفانى على الدائم الباقى ، و (المجرمون) هم الكافرون ، وقيل : كل مكتسب فعلًا يضره فى الآخرة من الشرك والمعاصى ، وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى عذاب وهلاك أبدًا .

٤٧ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : هلاك لهم يوم القيامة بسبب أكلهم وتمتعهم فى الدنيا بطعام وشهوات ذهبت لذاتها ، ويذوقون الآن حسراتها وشدائدها .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾)

المفـــردات :

(ارْكَعُوا) : صلوا ، وقيل : غير ذلك .

التفسير

٤٨ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) :

أى : وإذا قيل لهؤلاء المشركين : أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له - عز وجل - وذلك بقبول وحيه - تعالى - واتباع دينه ، وارفضوا الاستكبار وحمية الجاهلية ، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على ما هم عليه من التولى والإعراض والاستكبار ، وهذه حكاية

عمّا كانوا عليه فى الدنيا يذكرون بها فى الآخرة ؛ ليشتد ندمهم وتزيد حسرتهم وألمهم ، وقيل : وإذا قيل لهم : صلوا لا يصلون ؛ إذ المراد من الركوع هو الصلاة ؛ لأنه من أهم أركانها ، ويطلق عليها - كثيرًا - فى لسان الشرع .

روى عن مقاتل : أن الآية نزلت فى ثقيف ، فقالوا للرسول ﷺ : حط عنا الصلاة فإننا لا ننحنى ؛ فإنها مسبّة علينا ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لَا خَيْرَ فى دِينٍ لَيْسَ فيهِ ركوعٌ ولا سجودٌ » ، وعن ابن عباس أنه قال : هذا يوم القيامة يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا .

ويذكر أن الإمام مالكًا - رحمه الله - دخل المسجد بعد صلاة العصر - وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر - فجلس ولم يركع ، فقال له صبيٌّ : ياشيخ قم فاركع ، فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهبًا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : خشيت أن أكون من الذين (إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) .

٤٩ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) :

أى : ويل وثبور لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى ما يجمع لهم من خيرات الدنيا والآخرة .

٥٠ - (فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) :

أى : إن لم يصدقوا بهذا القرآن العظيم الذى جاء بلغتهم وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ثم هاجهم وأثارهم بقوله : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] ولكنهم أصابهم العمى والحصر ، وعمهم وشملهم العجز ، أى : إن لم يصدقوا ويؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليتها ووضوحها فبأى شىء يصدقون ويذعنون له بعد ذلك ؟! إنه العمى فى أبصارهم ، والرّانُ والطمس على قلوبهم ، والجحد والحسد فى نفوسهم ، وصدق الله العظيم : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ »[2] .

والله أعلم .

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .
(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام .

سورة النبأ

مكية ، وعدد آياتها اربعون آية
وتسمى ايضا « عم » وعم يتساءلون

مناسبتها لما قبلها :

أنها ركزت على إثبات القدرة على البعث ، وكان محور السُّورِ السابقة عليها هو تكذيب الكفرة به وذلك بالرد عليهم وإثبات جهالتهم ، كما أنها تشترك مع ما قبلها فى الاشتمال على وصف الجنة والنار ووصف يوم الفصل الذى ذكر هنا مفصلا وفيما قبلها مجملا .

مقاصد السورة :

ابتدأت بالحديث عن يوم القيامة ، والبعث والجزاء ، ذلك الموضوع الذى شغل الكثيرين من كفار مكة حتى صاروا ما بين مصدق به وشاكٍّ ومكذب (عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ...) الآيات .

أقامت الأدلة على إمكان البعث بما عرضت من مظاهر القدرة التى تشير إلى أن من قدر على هذا الإبداع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ...) الآيات .

أبرزت تأكيد البعث بذكر بعض علاماته التى تنبىء بوقوعه لامحالة (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ...) الآيات .

تحدثت عن جهنم التى أعدها الله للطاغين ، وما فيها من ألوان العذاب وصنوف العقاب : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ...) الآيات .

تحدثت عن المتقين ببيان ما يتمتعون به من أنواع النعيم الدائم (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ...) الآيات .

أشارت إلى قيام الروح والملائكة بين يدى رب العالمين ، وبينت حالهم فى هذا الموقف العظيم : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ...) الآية .

وختمت السورة بالإنذار والتخويف من هذا اليوم الرهيب الذى حمل رُعْبُهُ كلَّ كافر على أن يقول : ياليتنى كنت تراباً (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ..) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) الأصل : عن ما يتساءلون ، أدغمت النون فى الميم ، وحذفت ألف ما فى الاستفهام تخفيفاً لكثرة الاستعمال .

(عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) : عن الخبر الذى له شأن وخطر .

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا) : ممهدة للخلائق ذلولاً لهم .

(وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أى : كالأوتاد أرسينا بها الأرض حتى قرَّت وثبتت كما يرسى البيت من الشعر ونحوه بالأوتاد .

(نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) : قاطعاً عن الحركة ، من السبت : وهو القطع ؛ لأنه يقطع الإحساس والحركة .

(اللَّيْلَ لِبَاساً) : يستركم بظلامه كما يستركم اللباس .

(النَّهَارَ مَعَاشاً) : تتقلبون فيه فهو وقت تحصيل عيشكم .

(سَبْعاً شِدَادًا) أى : سبع سمٰوات قوية الخلق بديعة الصنع .

(سِرَاجاً وَهَّاجاً) : مشرقاً متلألئاً من وهجت النار إذا اتقدت ، والمراد به : الشمس .

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) : وهى السحائب حانت وقاربت أن تعصرها الرياح فتمطر .

(مَآءً ثَجَّاجًا) : شديد الانصباب ، يقال : ثَجَّ الماء : إذا سال بكثرة ، وثجه : أساله ، ورد لازماً ومتعديا .

(حَبًّا وَنَبَاتًا) الحب : ما يقتات به نحو الحنطة والنبات : ما يؤكل خضرًا رطباً من التبن والحشيش .

(وَجَنَّاتٍ) المراد بها : كل بستان يستر بأشجاره الأرض ، ، من الجَنّ وهو الستر .

(أَلْفَافاً) : ملتفة تداخل وتشابك بعضها ببعض ، وهو اسم جمع لا واحد له ، أوجمع لفيف بمعنى ملفوف ، كشريف وأشراف ، أو ليف كجِذْع وأجذاع .

التفسير

١ - ٣ - (عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) :

أى : عن أى شىء يتساءلون . والضمير لكفار مكة وإن لم يسبق ذكرهم وفى ترك ذكرهم إهانة واحتقار لهم ، وكانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويخوضون فيه إنكارًا له واستهزاءً به لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذى هو حال من أحواله ، ووصف من أوصافه .

وقيل : كانوا يتساءلون ، أى : يسألون النبى ﷺ والمؤمنين بطريق السخرية والتكذيب ويجىء (تفاعل) بمعنى فَعل كتوانى زيد ، بمعنى ونَى ، وتَدانَى الأمرُ ، بمعنى دنَا ، وتعالى الله عما يشركون ، بمعنى علا ، ومنه تساءل بمعنى سأل .

وليس المراد بالاستفهام فى بدء السورة الاستعلام وإنما أريد به تفخيم المسئول عنه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه ، وتشويقهم إلى معرفة شأنه ، فإن إيراده من علام الغيوب الذى لاتخفى عليه خافية ، تنبيه على أنه خارج عن دائرة علوم الخلق خليق بأن يعتنى بمعرفته ، ويسأل عنه ، كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون ؟ ثم قيل بياناً للمسئول عنه بطريق الجواب يتساءلون (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) أى : عن الخبر الذى له شأنه وخطره وهو البعث ، ثم وصف بالعظيم لتأكيد ذلك وقد ورد الجواب على منهاج قوله تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »[1] حيث كان السؤال والجواب من الله تعالى .

(الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) : وصف ثان للنبأ بعد وصفه بالعظيم تأكيدا لخطره ؛ فهو تأكيد إثر تأكيد للمبالغة ، أو إشعارًا بالباعث على التساؤل عنه ، وإيثار أن تكون صلة الموصول جملة اسمية للدلالة على الثبات ، أى : هم راسخون فى الاختلاف فيه فمنهم منكر جازم باستحالته يقول :

« إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[2] ومنهم شاكٌّ يقول :

« مَانَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ »[3] ومن الاختلاف أن منهم من ينكر الْمعَاديْنِ : البعث والقيامة كهؤلاء ، ومنهم من ينكر البعث الجسمانى فقط ، وحمل بعضهم الاختلاف على الاختلاف فى كيفية الإنكار ، فمنهم من ينكر البعث لإنكار الصانع المختار ، ومنهم من ينكره بناءً على استحالة إعادة المعدوم بعينه ، وقيل : إن الضمير فى (يَتَسَآءَلُونَ) للمسلمين والكافرين ، وكانوا جميعاً يتساءلون عنه : فالمسلم يسأل ليزداد خشية واستعدادًا ، والكافر يسأل ليزداد كفرًا وعناداً .

٤ ــ (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) :

بدأت الآية الكريمة بقوله ــ سبحانه وتعالى ــ : (كَلَّا) لردع منكرى البعث عن التساؤل عنه ، وعن مخالفتهم لرسول الله ﷺ فيه بإنكارهم له أو شكهم فى وقوعه ،

---

(١) غافر ، الآية : ١٦

(٢) المؤمنون ، الآية : ٣٧

(٣) الجاثية ، من الآية : ٣٢

وقوله تعالى : (سَيَعْلَمُونَ) وعيد لهم وزجر على ما حدث منهم من تساؤل ، واستهزاء وتعليل للردع بطريق الاستئناف ، والسين للتقريب والتأكيد ، أي : ليرتدع هؤلاء عمَّا هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال ، ونزلت بهم الدواهى ومختلف العقوبات وفى ذلك من الوعيد ما فيه ، وقيل المعنى : سيعلمون ما يتساءلون عنه وهو البعث فيخجلون استخزاءً من تساؤلهم واستهزائهم بين يدى ربهم – عز وجل .

٥ – (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) :

تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة فيها ، فكأنه قيل : لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان ، ثم قيل : بل لهم يومئذ عذاب أشد وأشد ، وثم للتفاوت فى رتبة العذاب بين الردع الأول والثانى ، وقيل : إن الجملة الأُولى تشير إلى ما يكون عند النزع ، وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء ، والجملة الثانية تشير إلى ما يكون فى القيامة من زجر ملائكة العذاب ، وملاقاة شديد العقاب ، وعلى هذا فـ (ثُمَّ) فى مكانها من إفادة التراخى لما بين الأمرين من البعد الزمانى .

٦ – (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا) :

استئناف مَسوق لتحقيق النبأ العظيم بتعداد بعض الدلائل الناطقة بكمال قدرته – تعالى – والتى لا يسعهم إنكارها ، ولا مناص لهم من الإقرار بها فكيف يُنكرون على هذه القدرة إعادة خلق الإنسان علماً بأن مَنْ قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر .

وجوز أن يكون بتقدير (قُلْ) كأنه قيل : قل كيف تنكرون البعث أو تشكون فيه وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة ، والعلم المحيط ، والحكمة الباهرة المقتضية لا يكون ما خُلِق عبثاً ؟ !

والاستفهام فى الآية للتقرير بما بعده ، كأنه قيل لهم : قد جعلنا الأَرض التى تسكنونها موطأة لكم كالفراش للاستقرار عليها ، والتقلب فى أنحائها الانتفاع بسهولها الواسعة ، واستخراج كنوزها المتنوعة ، فَأَقِرُّوا بفضل الله عليكم .

٧ – (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) :

أى : هى للأرض كالأوتاد التى تُشَد بها البيوت من الشعر ونحوه ، صيانة لها من أن يتقاذفها الرياح ، أو تتلاعب بها العواصف ، وعلى ذلك فالجبال لتثبيت الأرض واستقرارها ، حتى لا تميد بكم أو يختل توازنها فى دورانها فلا تصلح لسكناكم ، مع ما فى الجبال من المنافع الجمة التى لم تخلق الأرض لمثلها ، وشبهت بالأوتاد لبروزها ، أو لأنها تحفظ الأرض من الْمَيَدَانِ والاضطراب .

٨ – (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً) :

أى : مزدوجين ذكرًا وأنثى ليتم الائتناس ، والتعاون ، وحفظ الجنس ، وينتظم أمر المعاش ، وقيل : أصنافاً من اللون ، والصورة ، واللسان .

٩ – (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً) :

أى : جعلناه كالسبات – وهو الموت – من السبْت : وهو القطع ، ووجه تشبيه النوم به لما فيه من قطع الحركة والعمل ، وعلى ذلك قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ »[1] وهذا اختيار المحققين ، وقد قيل : النوم أحد الموتتين ، وفى البحر : جعلناه سباتاً ، أى : سكوناً وراحة .. يقال : سبت الرجل : إذا استراح .

١٠ – (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً) :

أى : ساترا لكم بظلمته كما يستركم اللباس ، ويقول الآلوسي : (ولعل المراد بهذا اللباس المشبه به ، ما يُستتر به عند النوم كاللحاف ونحوه ، فإن تشبيه ستر الليل به أكمل ، واعتباره فى تحقيق المقصد أدخل) وهو كون الظلام محيطاً بكم كإحاطة ما يستتر به عند النوم .

والرأى الذى اختاره غير واحد : إرادة الأعم من الذى يستتر به عند النوم وغيره ، وأن المعنى : جعلناه ساترًا لكم بظلمته عن العيون ، وللناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٦٠

أن اللباس يستر العورات عن النظر كذلك اللَّيل يستركم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدو ، أو فرارًا من حيوان مفترس ، ويختفى فيه الكامن للوثوب على عدوه للتخلص منه ، والنجاة من شره ، ويتقى به كل من أراد ألا يُطلع الناس على كثير من أموره .

١١ – (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً) :

أى : وقت حياة تُبْعثون فيه من نومكم الذى هو أخو الموت ، ولما جعل – سبحانه – النوم موتاً مجازًا جعل – سبحانه – اليقظة حياة كذلك . والنهار زمن هذه الحياة ، فهو وقت معاش ، يستيقظون فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، قال ابن كثير : أى : جعلناه مشرقاً منيرًا وضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك .

١٢ – (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَادًا) :

وهى السمٰوات السبع جعلها – سبحانه – محكمة متقنة وزينها بالكواكب ، ومع اتساعها وارتفاعها لايسقط منها شىء ، ولا تتأثر بمرور الأزمان ، وتتابع الدهور لشدتها البالغة ، والتعبير عن خلقها بالبناء مبنى على تنزيلها منزلة القباب المضروبة على الخلق عند النظر إليها .

١٣ – (وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً) :

أى : وخلقنا وأبدعنا كوكباً مضيئاً متلألئاً ، وهو الشمس التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم دائمة الحرارة والتَّوقُّدِ ، قال المفسرون : الوهاج : المتوقد الشديد الإضاءة ويلتهب من شدته ، وقال ابن عباس : المنير المتلألىء .

١٤ – (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً) :

أى : أنزلنا الماء من السحائب التى أعصرت ، بمعنى قاربت وشارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، ومنه : أعصرت الجارية : إذا قاربت أن تحيض . قال فى التسهيل : المعصرات : هى السحب ، مأخوذة من العصر لأنها تنعصر فينزل الماء . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة :

إن المعصرات الرياح ؛ لأنها ، تعصر السحاب فيمطر ، ولما كان المطر بسببها سميت معصرات والأصل فى المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من المحيطات والبحار ونحوها على شكل سحب ، وتحويلها إلى نقط من الماء أو حبات من الثلج ، أو هما معاً .

(مَآءً ثَجَّاجاً) أى : منصباً بكثرة متتابعاً كما قال مجاهد وقتادة والثورى وابن زيد .

١٥ - (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً) :

أى : لنوجد بهذا الماء الكثير النافع مايدخر للأناسى والأنعام ويقتات به كالقمح والشعير وما يؤكل خضرًا ويابساً كالحشيش والتبن ، وتقديم الحب مع تأخره فى الإخراج عن النبات لأصالته وشرفه ؛ لأن غالبه غذاء الإنسان .

١٦ - (وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً) :

أى : ولنخرج به بساتين وحدائق ، وأطلق عليها (جَنَّاتٍ) لأن بكل منهما أشجارًا تستر وجه الأرض ، وقال الفراء : الجنة : ما فيها النخيل ، والفردوس : ما فيه الكرْم .

(أَلْفَافاً) أى : إن هذه الجنات ذات الثمار المتنوعة والألوان المختلفة والطعوم المتميزة والروائح الطيبة قد التفت أغصانها ، وتشابكت أفنانها وتداخل بعضها ببعض ، لتقارب أشجارها وتكامل نموها .

(إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ) : وهو يوم القيامة ؛ لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) المراد : النفخة الثانية ، والصور : البوق وهو معروف .

(أَفْوَاجاً) أي : ، أمما كل أمة معها إمامها ، أو زُمَرًا وجماعات متباينة .

(فَكَانَتْ أَبْوَاباً) أي : شقوقاً وشروخاً كالأبواب .

(فَكَانَتْ سَرَاباً) أي : مثل سراب ، وهو ما تراه نصف النهار كأنه ماء فإذا جئته لم تجده شيئاً .

(كَانَتْ مِرْصَادًا) أي : موضع رصد وترقب ، ترقب فيه خزنة النَّار الطاغين لتعذيبهم .

(مَآباً) أي : مآلا ومرجعاً .

(مَاكِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً) : دهورًا متتابعة لا نهاية لها ، جمع حُقُبٍ - بضم وسكون ، وبضمتين - وفسر بالدهر أو السنة أو السنين ، وعن ابن مسعود أنه ثمانون سنة ، وعن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس وغيرهم أنه سبعون سنة .

(حَمِيماً) : الحميم : هو الماء البالغ الغاية فى الحرارة .

(وَغَسَّاقاً) : وهو ما يسيل من أهل النار من الصديد ، وفى القاموس : البارد المنْتِن .

(كِذَّاباً) أي : تكذيباً شديدًا ، ومجيء (فِعَّال) بمعنى (تفعيل) فى مصدر (فَعَّلَ) سائغ فى الفصيح ، وعن الفراء أنها لغة يمانية .

التفسير

١٧ - (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) :

بعدأن بين الله لهم بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة ليلزمهم الحجة فى أمر البعث حتى لايجدوا سبيلا إلى جحوده ، بعد ذلك هددهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لا محالة ، وفيها فصل القضاء بين الحق والباطل ، والحساب والجزاء ، فقال تعالى :

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً) أى : إن يوم القيامة مؤقت بأجل محدود فى علم الله لبعث الأولين والآخرين لا يزاد عليه ولا ينقص عنه كما قال - سبحانه - : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[١] وفى ذلك رد على من كانوا يستعجلون قائلين : « مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[٢] .

١٨ - (يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) :

الآية وما يتلوها نوع تفصيل لكيفية وقوع يوم القيامة وما يقع فيه من أهوال ، و (يَوْمَ) فى قوله تعالى : (يَوْمَ يُنفَخُ) وقع بدلا من يوم الفصل ، أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ، أى : أن يوم الفصل هو يوم النفخ فى الصور الذى يحدث فيه ما يحدث ، والمراد ، النفخة الثانية لإسرافيل - عليه السلام - فى الصور ، وهو القرن الذى أعد لذلك . وقيل : هذا تصوير لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلاَّ نفخة فى بوق يصدر عنها صوت عظيم بعيد المدى .

وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة هذا الصور ، والبحث فى هذا لا يسوغ ، وليس علينا من حرج فى تركه ، ولا ضير فى تأخير الفصل عن النفخ حسب وقوعه - فإن زمان القيامة زمن ممتد يقع النفخ فى أوله ، وفى بقيته الفصل ومباديه وآثاره (فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) أى : فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف - عقب ذلك بغير مهلة أصلا - أمما ، كل أمة بإمامها كقوله تعالى : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ »[٣] أو زمرًا وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوصاف حسب اختلاف الأعمال وتباينها .

١٩ - (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) :

أى : شقوقاً اتخذها الملائكة طرقاً ومسالك لنزولهم ، كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

---

(١) هود ، آية : ١٠٤

(٢) يس ، من الآية : ٤٨

(٣) الإسراء ، من الآية : ٧١

السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً »[١] فإذا شققت السماء لوقوع الاضطراب فى نظامها وذهاب التماسك بينها ، فهى كالأبواب ، وقد فسر الفتح بالشق لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ » ولعل نكتةَ التعبير بالفتح عن الشق الإشارةُ إلى كمال قدرته - تعالى - حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ، أو على التشبيه البليغ ، أى : فصارت شقوقها لسعتها كالأبواب ، أو فصارت من كثرة شقوقها كلها ليست إلا أبواباً مفتحة ، وفى هذا تصوير لما يحدث فى هذا اليوم من شدائد وخطوب .

٢٠ - (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) :

تمثيل لِمَوْرِ الأرض فى ذلك اليوم حيث تفتتت الجبال بعد اقتلاعها من مقارها ، وسيرت فى الجو على هيئاتها ، كما يعرب عنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »[٢] .

أى : أنك تراها رأى العين فتحسبها ساكنة فى أماكنها مع أنها تمر مر السحاب الذى تسيره الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الأجرام العظيمة إذا تحركت نحواً من الأنحاء لاتكاد تظهر حركتها وإن كانت فى غاية السرعة ، ولاسيما من بعيد ، ويشير تشبيه سرعة الجبال فى سيرها بسرعة السحاب إلى تشبيه آخر ، وهو تشبيه حالها بحال السحاب فى تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق بذلك قوله تعالى : « وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ »[٣] . وهذا الصنيع العظيم عند حشر الخلائق ليشاهدوها ثم يفرقها - سبحانه - فى الهواء ، وذلك قوله تعالى : (فَكَانَتْ سَرَاباً) أى : فصارت بعد تسييرها مثل سراب ، فترى كأنها جبال ، وليست بجبال ، وإنما هى غبار عظيم متراكم يحسبه الناظر إليه من بعيد جبلا ، ولكنه ليس بشىء كالسراب يحسبه الرائى وقت الظهيرة ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

---

(١) الفرقان ، الآية : ٢٥

(٢) النمل ، من الآية : ٨٨

(٣) القارعة ، الآية : رقم ٥

فالكلام على التشبيه البليغ ، والجامع بين المشبه والمشبه به أن كلا من الجبال والسراب يُرَى على شكل شىء وليس هو بذلك الشىء ، والجبال وإن اندكت انصدعت عند النفخة الأُولى لكن تسييرها وتسوية الأَرض إنما يكون عند النفخة الثانية ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ »[1] واتباع الداعى وهو إسرافيل - عليه السلام - يكون بعد النفخة الثانية .

٢١ - (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) :

شروع فى وعيد المكذبين ، وبيان ما يلاقونه من عذاب ونكال فى جهنم دار إقامتهم التى لايبرحونها أبدًا أى : إنها موضع ترصُّد وترقُّب ، ترصد فيه خزنة النَّار الكافرين ليعذبوهم ، وترصد الجنة المؤمنين ليحرسوهم من قبحها فى مجازهم عليها ، وقيل : ترصد الملائكة الطائفتين ، لتنقذ إحداهما وهى المؤمنة ، وتعذب الأُخرى وهى الكافرة ، وقد يفسر المرصاد بمطلق الطريق ، وهو أحد معانيه ، فيكون للطائفتين ، قال الحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) أى : إنه لايدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإذا كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس ، وقيل : اعلموا أنه لاسبيل إلى الجنة حتى تقطع النار . ذلك لأَنها مجاز وممر للجميع .

٢٢ - (لِلطَّاغِينَ مَآباً) :

أى : إنها تكون للمردة العصاة المخالفين للرسل مقرًّا ومرجعاً يرجعون إليه ، ويقيمون فيه . يتجرعون فيه عذاباً غليظاً ، وعقاباً شديدا كلما نضجت جلودهم بدلهم الله غيرها ليستمر إحساسهم بالأَلم وشعورهم به .

٢٣ - (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) :

أى : ماكثين فيها يصلون سعيرها دهورًا متتابعة ، كلما مضى منها حقب تبعه آخر

---

(١) طه ، الآيات : ١٠٥ - ١٠٧ وصدر الآية : ١٠٨

إلى مالا نهاية فلا يخرجون منها أبدًا ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ويؤيد ذلك ماروى عن الحسن أنه قال : الحقب زمان غير محدود .

٢٤ ، ٢٥ ـ (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) :

أى : لا يذوقون فى جهنم شيئاً ما من برد ، ويراد به برد النسيم الذى يريحهم ، وينفس عنهم حر النار . وقيل : يراد به النوم ، فقد ورد عن بعض العرب : منع البردُ البردَ ، أى : النوم ، ولا يذوقون شيئاً من شراب يروى غلتهم ، ويسكن عطشهم فيها ، (إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) : لكن يتجرعون فيها حميماً ، وهو الماء الحار البالغ غاية الحرارة ، وغساقاً وهو ما يسيل من جلود أهل النار من صديد ، وقيح ، وعرق ، ودموع ، وفى الحديث : (إنَّ الرجلَ منهم إذا أدنَى ذلكَ من فيهِ سقطَ أديمُ وجْهِه حتى يبقَى عظاماً تَقَعْقع) ذكره الآلوسى.

٢٦ ـ (جَزَاءً وِفَاقاً) :

أى : الذى صاروا إليه من العذاب جزاء موافق لأعمالهم السيئة فى الدنيا ، بمعنى أنَّه يقدرها فى الشدة والضعف لايزيد عليها ولا ينقص عنها ، كما يقتضيه عدل الله ورحمته .

٢٧ ـ (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً) :

تعليل لاستحقاقهم هذا العذاب ، أى : لأنهم كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم التى اقترفوها . إمعاناً منهم فى الكفر والطغيان ، أو لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارًا يجازون فيها ويحاسبون .

٢٨ ـ (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً) :

المعنى : أنهم كانوا يكذبون بآيات الله الدالة على البعث ، أو التى أنزلها على رسله تكذيباً شديدًا مفرطاً .

٢٩ ـ (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) :

أى : وكل شىء من الأشياء التى من جملتها أعمالهم . قال أبو حيان : وكل شىء مما يقع

عليه الحساب والعقاب فهو عام مخصوص (أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) أى : حفظناه وضبطناه بإحصائنا له إحصاء تاماً ، وقد جعل قوله : (كِتَاباً) مصدرًا مؤكدًا لأحصينا ، لأن الكتابة والإحصاء يتشاركان فى معنى الضبط ، وأصل الإحصاء : من لفظ (الحصا) وكانوا يعتمدون عليها فى العد ضبطاً قويًّا تاماً .

ويجوز أن يكون المراد : وكل شىء أحصيناه مكتوباً فى اللوح المحفوظ ، أو فى صحف الحفظة ، والظاهر أن الكلام على حقيقته ، والكتابة هنا على النحو الذى يليق بتنزيه الله تعالى ، وهو أعلى من كتابتنا التى نعرفها ، وأشد ضبطا ، وقال بعضهم : إنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء فى علمه تعالى بضبط المحصى المجد المتْقن للضبط بالكتابة ، وهذا التمثيل لتفهيمنا ، وإلا فالانضباط فى علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشىء . والجملة اعتراض لتأكيد الوعيد السابق الذى بدىء به بقوله تعالى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا) لبيان أن ذلك كان لامحالة لأن معاصيهم مضبوطة مكتوبة يواجهون بها يوم الجزاء .

٣٠ - (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) :

ذلك مسبب عن كفرهم بالحساب والجزاء ، وتكذيبهم الآيات . روى قتادة عن أبي أيوب الأزدى عن عبد الله بن عمر أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه ، فهم فى مزيد من العذاب أبدًا ، وأخرج عبد بن حميد ، وجماعة عن الحسن أنه قال : سألت أبا برزة الأسلمى عن أشد آية فى كتاب الله تعالى فقال : (فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً) ووجه الأشدية على ما قيل : إنه تقريع فى يوم الجزاء، وغضب من أرحم الراحمين ، وتأييس لهم .

واستشكل أمر زيادة العذاب بمنافاتها كون الجزاء موافقاً للأعمال كما فى قوله تعالى : (جَزَآءً وِفَاقاً) وأجيب بأن العذاب لما كان للكفر والمعاصى ، وهى متزايدة فى القبح فى كل آن ، وعلم الله لسوء استعدادهم استمرارهم على ذلك ، اقتضى حالهم زيادة العذاب وشدته يوماً فيوماً وقيل : لما كان كفرهم أعظم كفر ، اقتضى أشد عذاب ، والعذاب المزيد يوماً فيوماً من أشد العذاب ، وقيل غير ذلك .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) : أى : فوزًا وظفرًا بطاباتهم ورغباتهم ، أو محل فوز بذلك وهو الجنة .

(وَأَعْنَابًا) : جمع عنب ، ويقال للكرم نفسه ولثمرته .

(كَوَاعِبَ) : جمع كاعب ، وهى التى برز ثدياها واستدارًا مع ارتفاع يسير .

(أَتْرَاباً) : متساويات فى العمر تشبيهاً لها فى التساوى والتماثل بالترائب وهى ضلوع الصدر.

(كَأْساً دِهَاقاً) : مملوءة . يقال : دهقت الكأس وأدهقتها ، والكأس إناء يشرب فيه أو مادام الشراب فيه كما فى القاموس .

(لَغْوًا) : ما لا يعتد به من الكلام .

التفسير

٣١ - (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا) :

شروع فى بيان أحوال المؤمنين الأبرار إثر بيان سوء أحوال الكافرين أهل النار ، أى : إن للمتقين الذين تمسكوا بطاعة ربهم ، واتقوا الكفر ، إن لهؤلاء فوزًا وظفرًا فى الدنيا بكل محبوب ، ونجاة وسلامة من كل مكروه ، أو أن لهم موضع فوز وظفر بجنات النعيم ، وخلاص ونجاة من عذاب الجحيم .

ثم بيين سبحانه هذا الفوز فقال :

٣٢ - (حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً) :

أى : بساتين فيها أنواع من الأشجار المثمرة ، والأزهار المتفتحة ، وأعناباً وهى الثمار المعروفة أو أشجارها وخصت بالذكر مع اندراجها فى البساتين إشارة لأهميتها والاعتناء بها .

٣٣ - (وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً) :

أى : بنات قد استدارت نهودهن مع ارتفاع يسير ، متساويات فى العمر مع التماثل فى صفات الجمال والكمال ، والتمتع بالبنات المتصفات بذلك فى الجنة على صورة لا نعلم حقيقتها ، وغاية ما يجب أن نصدق به ، أنه تمتع فائق اللذة على وفق ما يناسب ذلك العالم الأخروى .

٣٤ - (وَكَأْساً دِهَاقاً) :

أى : وكأساً من الخمر مملوءة مترعة . صحح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غير واحد أنه قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه قال : دهاقاً : أى صافية ، ، وقال القرطبى : المراد بالكأس الخمر ، كأنه قال : وخمر ذات دهاق : أى : عُصِرت وصُفِّيت .

٣٥ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّاباً) :

أى : إن أسماع أهل الجنة مصونة عن سماع ما لا يعتد به من الكلام ، وهو الذى يُورد ويقال لا عن رَوِيَّة وفكر كما قال الراغب ، لأنه يجرى مجرى اللُّغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا ، وكذا كل ما لا يعتد به مطلقاً عن روية أو غيرها ، كما أنها مصونة عن سماع الكذب من القول لأنها دار السلام وكل مافيها نقى من الباطل والنقص ، وقد تضمنت هذه المذكورات أنواعاً من اللذات الحسية كما هو واضح .

٣٦ - (جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً) :

أى : إن الجزاء الذى جوزى به المتقون حصل لهم بتوفيق ربك - أيها النبى - وتأييده ويشير إضافة الرب إليه ﷺ دونهم إلى تشريفه - صلوات الله عليه - (عَطَآءً) أى : تفضلا وإحساناً منه تعالى : إذ لايجب عليه - سبحانه - شىء (حِسَاباً) أى : كافياً لهم وافرًا شاملا ، من قولهم : أحسبهُ الشىء : إذا كفاه حتى قال حسبى ، ومنه : حسبى الله . وقيل : معناه : كون الجزاء على حسب أعمالهم .

أى : مقسطاً على قدرها ، وروى ذلك عن مجاهد ، وكأن المراد بذلك مقسط بعد التضعيف، وبذلك يندفع ما قيل : إنَّه غير مناسب لتضعيف الحسنات ، ولهذا لم يقل هنا (وِفَاقاً) كما قيل فى الآية السابقة : (جَزَآءً وِفَاقاً) .

(رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(خِطَاباً) أى : لا يقدر أحد أن يخاطبه سبحانه فى رفع بلاء أو دفع عذاب فى ذلك اليوم ، هيبة وجلالاً .

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ) : هو جبريل - عليه السلام - وقد ورد ذكره كثيرًا بذلك . واختلف المفسرون فى المراد من الروح ما هو ، على أقوال ، منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : إنهم أرواح بنى آدم ، وقيل : إنه ملك عظيم أو إنهم أشراف الملائكة ، أو إنه جبريل - عليه السلام - قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ويستشهد لهذا القول بقوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ »[1] وهذا الرأى أوفق الآراء .

(فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً) أى : مرجعاً .

(يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً) : يتمنى الكافر أن لو كان فى الدنيا تراباً فلم يُخْلَق بشرًا ، ولم يكلف

التفسير

٣٧ - (رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) :

أى : إن هذا الجزاء الموفور من ربك العظيم فاطر السمٰوات والأرض وما بينهما على غير مثال يحتذيه (الرَّحْمَٰنِ) الذى وسعت رحمته كل شىء ، ولاشك أن فى ذكر ربوبيته تعالى لجميع الخلق ، ورحمته الواسعة إشعارًا بمقدار الجزاء المذكور (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء ، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء ، فلا يكون لأحدنا قدرة عليه ، وضمير (لَا يَمْلِكُونَ) لأهل السمٰوات والأرض ، والمراد نفى قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب بغير إذنه على أبلغ وجه وآكده ، كما قال تعالى : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[2]

٣٨ - (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفاًّ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) :

---

(١) الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤

(٢) هود ، من الآية رقم : ١٠٥

المعنى أنه فى هذا اليوم الرهيب ، يقف جبريل - عليه السلام والملائكة - مخلوقات الله الغيبية - مصطفّين ، فيقف جبريل وحده صفًّا ، والملائكة صفًّا آخر ، وقيل : صفوفاً ؛ لقوله تعالى : « وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[١] وذكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق سلطانه وكبرياء ربوبيته ، وتهويل يوم البعث الذى عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى آخرها .

(لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً) الضمير فى (لَا يَتَكَلَّمُونَ) لأهل السمٰوات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة ، والآية استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى : (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً) ومؤكد له على معنى أن أهل السمٰوات والأرض إذا لم يقدروا حينئذ على أن يتكلموا بشىء من جنس الكلام إلا من أذن الله له منهم فى التكلم مطلقاً ، وقال ذلك المأذون قولا صوابا أى : حقاً من الشفاعة لمن ارتضى .

وإظهار (الرَّحْمَٰنُ) فى موضع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن الرحمة البالغة ، لا أن أحداً يستحق ذلك عليه سبحانه وتعالى .

٣٩ - (ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَئَاباً) :

ذلك إشارة إلى يوم قيام الروح والملائكة على الوجه الذى ذكر ، وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو درجته ، وبعد منزلته فى الهول والفخامة أى : إن ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم ولا غيرهم على التكلم فيه من الهيبة والجلال ، هو يوم القيامة الذى أخبر عنه - سبحانه - بأنه الحق ، أى : الثابت المتحقق الذى لا ريب فى وقوعه من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه .

(فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً) أى : إذا كان الأمر كما ذكر من تحقيق اليوم وإتيانه بلا شك فى وقته المعين له ، فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه فليفعل ذلك بالإيمان والعمل الصالح ، وهو حث وترغيب ، فى سلوك الطريق القويم ، وتقدير المضاف وهو لفظ (ثَوَاب) قبل لفظ (رَبِّهِ) لاستحالة الرجوع إلى ذاته تعالى .

---

(١) سورة الفجر ، الآية رقم : ٢٢

٤٠ - (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً) :

الخطاب لكفار قريش المنكرين للبعث .

والمعنى : إنا خوفناكم بما ذكر فى السورة من الآيات الناطقة بما فى البعث وما بعده من الدواهى .

أو بها وبسائر القوارع الواردة فى القرآن العظيم (عَذَاباً قَرِيباً) هو عذاب الآخرة ، وقربه لتحقق وقوعه حتماً ، فقد قيل : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، أو لأنه قريب بالنسبة إليه تعالى : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيباً »[١] .

(يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أى : إن الذى أنذرناكم به عذاب كائن يوم يشاهد المكلف مؤمناً أو كافرًا ما قدمه من خير أو شر مثبتاً فى صحائف أعماله كقوله تعالى : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا »[٢] وقوله سبحانه : « يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[٣] وقوله : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ »[٤] إلى غير ذلك من الآيات ، وما اليوم الذى يحدث فيه ذلك إلا يوم القيامة . (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً) أى : ويتمنى الكافر فيه أن لو كان تراباً فى الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو يتمنى ذلك فى هذا اليوم فلم يبعث حتى ينجو من الحساب والعقاب ، وعن أبى هريرة وابن عمر ومجاهد أن الله يحضر البهائم فيقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها : كونى تراباً ، فتعود جميعاً تراباً ، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله ، وفى ذكر قول الكافر تخصيص لأحد الفريقين اللذين تناولهما لفظ (الْمَرْءِ) الذى ذكر فى الآية وأريد منه الكافر والمؤمن كما قيل على المشهور .

---

(١) المعارج ، الآيتان : ٦ ، ٧

(٢) الكهف ، من الآية : ٤٩

(٣) القيامة ، الآية : ١٣

(٤) آل عمران ، من الآية : ٣٠

سـورة النازعات

مكية وعدد آياتها ست وأربعون آية
وكما تسمى النازعات تسمى أيضا الساهرة ، والطامة

مناسبتها لما قبلها :

قال ابن عباس : إن أولها يشبه أن يكون قسماً لتحقيق ما فى سورة عَمَّ ، أو ماتضمنته كلها من بعث النَّاس وقيامهم للحساب والجزاء ، وفى البحر : لما ذكر سبحانه فى آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم – عزو جل – فى هذه على البعث فى ذلك اليوم الذى يقع الإنذار بالعذاب فيه .

اهم مقاصد السورة :

افتتحت بالقسم بطوائف الملائكة الأبرار على تحقق البعث ، تُزلزِل النفخة الأُولى جميع الكائنات ، تتبعها النفخة الثانية لتهب الخلائق قياماً للجزاء والحساب : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ....) الآيات .

ثم تحدثت عن استبعاد المشركين للبعث والنشور ولا سيما بعد أن بليت أجسام الموتى وتفتت عظامهم ، وصاروا أثرًا بعد عين ، ثم ذكرت الرد عليهم بما يسقط حجتهم ، ويبطل عجبهم أمام القدرة العظيمة . (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ..) إلخ . ثم تناولت قصة فرعون الذى ادعى الأُلوهية ، وتمادى فى الطغيان والجبروت ، فكانت عاقبته الدمار والهلاك وعذاب الآخرة والأُولى هو وقومه الذين كانوا أعواناً له فى ظلمه وبغيه ، وذلك لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من أهل مكة : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ..) الآيات ، ثم ذكَّرت الإنسان بسعيه ، وأظهرت ما ينتظر الطغاة أهل مكة ، وما أُعد لمن خاف مقام ربه (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى ..) الآيات ، ثم أنكرت ونعت على منكرى البعث تكذيبهم به ، وهم فى منطق الحق والواقع ليسوا بأشد خلقاً من السماء والأَرض وتوابعهما من مظاهر القدرة البالغة (ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا ..) الآيات .

وضحت السورة بالحديث عن وقت الساعة ، وأن بيانه لله وحده ، أمّا وظيفة الرسول ﷺ فهى الإخبار - عن قربها ، والتذكير بها وبما يكون فيها من أهوال لا يُعيِّن وقتها (يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ...) الآيات .

كما أشارت فى الختام أيضاً إلى أن ما أصابهم من فزع ، أنساهم الزمن الذى مر بهم حتى حسبوا أن الوقت بين إنذارهم بالبعث إلى قيامهم من قبورهم للجزاء ، عشية أو ضحى من يوم واحد (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ..) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) أى : الملائكة التى تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغ الشدة ، يقال : أغرق فى الشىء يغرق فيه : إذا أوْغَل وبلغ أقصى غايته .

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) : الملائكة تنشط وتقبض أرواح المؤمنين برفق ولين من النشط وهو الإخراج بيسر وسهولة ، ومنه بئر أنشاط : قريبة القاع يُخْرج منها الدلو بجذبة واحدة .

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) : الملائكة تسرع بما أمرت به ، ومنه قيل للجواد المسرع : سابح .

(الرَّاجِفَةُ) : النفخة الثانية التى تردف وتتبع الأُولى ، وبها يبعث الموتى بأمره تعالى ، يقال : ردفه كسمع ونصر : إذا أتبعه كأردفه .

(وَاجِفَةٌ) : شديدة الاضطراب من الخوف والفزع يقال : وجف القلب يجف وجْفاً ووجيفاً : إذا اضطرب من شدة الفزع .

(أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يقال : رجع فلان فى حافرته وعلى حافرته ، أى : طريقه التى جاء فيها .

(نَخِرَةً) : بالية متفتتة ، من نخر العظم ينخر من باب تعب : إذا بلى وتفتت .

(خَاسِرَةٌ) أى رجعة غير رابحة من الكر وهو الرجوع .

(بِالسَّاهِرَةِ) : وهى وجه الأرض ، والعرب تسميه ساهرة ؛ لأن فيه نوم الحيوان وسهره .

التفسير

١ - (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً) :

هذه أولُ الطوائف الخمس من الملائكة الموكلين بأعمال جسام بأمره تعالى ، وهم الذين أقسم سبحانه بهم على أن الخلق لا بد أن يبعثوا ويحاسبوا ، وجواب القسم أشار إليه مضمرا ، كأنه قال : لتبعثن ولتحاسبن ، وذلك لمعرفة السامعين بالمعنى ، وقيل غير ذلك .

والطائفة الأُولى هى ملائكة العذاب التى تنزع أرواح الكفار بقسوة وشدة من أقاصى أجسامهم نزعاً بالغا غاية الصعوبة والعسر كما يشير إلى ذلك قوله : (غَرْقاً) أى : إغراقاً ومبالغة فيما يؤلمهم ويؤذيهم ، وتختص هذه الطائفة بأُولئك الكفار على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وعن على - كرم الله وجهه - وقال ابن مسعود : تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافر وأُصول القدمين ، ثم تفرقها فى جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج تردها فى جسده وهكذا مرارًا .

٢ - (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً) :

وهى ملائكة الرحمة التى تنشط أرواح المؤمنين برفق ولين ، وذلك مما يشير إلى سرعة الإخراج وعدم حاجته إلى معالجة وجهد ، يقال : بئر أنشاط ، أى : قريبة القاع يخرج منها الماء بجذبة واحدة .

فالمادة تدل على الرفق والسهولة .

٣ - (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً) :

الملائكة التى تنزل من السماء بأمر الله ووحيه كالذى يسبح فى الماء مسرعين لتنفيذ أمره ، وقال بعض السلف : همُ الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلًّا رقيقاً ، ثم يتركونها حتى تستريح رويدًا ثم يستخرجونها برفق ولطف ، كالذى يسبح فى الماء ، فإنه يتحرك برفق ، فهم يرفقون فى هذا الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألم وشدة .

٤ - (فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا) :

الملائكة تَسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة بسرعة ، قال الحسن : هى الملائكة التى سبقت إلى الإيمان والتصديق بالبعث .

٥ - (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) :

الملائكة تدبر شئون الكون من السماء إلى الأرض بأمره تعالى من الرياح ، والأمطار ، والأرزاق ، والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا ، وتنكير قوله : (أَمْرًا) للتهويل والتفخيم ، وعطف الآيتين بالفاء للإشارة إلى ترتيبها على ما قبلها من غير مهلة ، وقيل : إن الإقسام هو بِخَيْل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعاً تفوق الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب ، وبالتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك : ثورنا شط : إذا خرج من بلد إلى بلد ، وبالتى تسبح فى جريها فتسبق إلى الغاية ، فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد أمر التدبير إليها لأنها من أسبابه .

وقيل : إن الإقسام بالنجوم السيارة التى تنزع من المشرق إلى المغرب ، أى : تسير ، وإغراقها فى النزع : أن تقطع الفلك كله على ما يبدو للناس حتى تخط فى أقصى الغرب ، وبالتى تنشط ، أى : تخرج من برج إلى برج ، وبالتى تسبح فى الفلك فتسبق ، فتدبر أمرًا نيط بها كاختلاف الفصول ، وتقدير الأزمنة ، وظهور مواقيت العبادات ، والمعاملات المؤجلة إلى غير ذلك ، وقيل غير ما ذكر ، إلاَّ أن القسم بطوائف الملائكة هو ماعليه أكثر المفسرين بل قال ابن عطية : لا أحفظ خلافا فى أنها الملائكة ، وليس فى تفسير شىء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله ﷺ فيما أعلم . ويقول الآلوسى : وما ذكرته أولا من الإقسام بالملائكة هو المرجح عندى نظرًا للمقام .

٦ ، ٧ - (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) :

أى : لتبعثن يوم تتحرك الراجفة رجفة شديدة تهتز وترجف عندها الأجرام الثابتة كالأرض والجبال ، وبها يختل الأمر ، ويضطرب النظام ، ويصعق كل شىء بأمره تعالى ، وهى النفخة الأولى (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) أى : الواقعة والصيحة التى تردف الأولى .

وإسناد الرجف إليها على أنها فاعلته إسناد مجازى. وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة ، لأن (رجف) يكون بمعنى حرك وتحرك كما فى القاموس .

وتتبعها وهى النفخة الثانية التى بها يسرع الخلق قياماً من قبورهم ينتظرون الجزاء والحساب

والمراد لتبعثن فى اليوم الذى تقع فيه النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها لاقبلها باعتبار امتداد ذلك اليوم لاحتواء النفختين واعتبار امتداده مع أن البعث لايكون إلا عند وقوع النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين ، لايبقى عند وقوع الأولى حىٌّ إلاَّ مات ، ولا عند وقوع الثانية ميت إلا بعث ، وقيل المعنى : لتبعثن ، كأنه قيل لرسول الله ﷺ : اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم .

٨ ، ٩ - (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) :

أى : قلوب منكرى البعث فى ذلك اليوم مضطربة خائفة وجلة ، وعن السدى : زائلة من أماكنها كما فى قوله تعالى : « إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ[1] » يعنى تزول من مكانها لتصل إلى الحناجر .

---

(١) غافر ، من الآية : ١٨

(أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أى : أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة حسيرة مما عانت من الأهوال والشدائد ، وقد أريد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها فهى كناية عنهم .

١٠ - (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) :

حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمى ، وذكر مقدماته الهائلة ، وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار .

والمعنى : إن منكرى البعث يقولون - إنكارًا له ، واستبعادًا لوقوعه إذا قيل لهم فى الدنيا إنكم مبعوثون : (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ) يعنون الحياة التى كانوا عليها أول الأمر قبل موتهم يقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء منها فحفرها ، بمعنى أثر فيها بمشيه ، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة ، لنسبتها إلى الحفر ، أو على المجاز كما فى قوله تعالى : « فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ »[1] أى : منسوبة إلى الرضا ، أو على المجاز وقيل : إنه - تعالى شأنه - لما أقسم على البعث ، وبين ذُلَّهم وخوفَهم ذكر هنا إقرارهم بالبعث ، وردهم إلى الحياة بعد الموت ، فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار والجملة استئناف لبيان ما يقولون إذ ذاك .

١١ - (أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً) :

تأكيد لإنكار البعث بذكر حالة منافية لحصوله أى : أئذا كنا عظاما بليت وتفتت واختلطت بتراب الأرض نُرد ونُبعث مع كون تلك الحالة أبعد شىء من الحياة ، ذلك أمر بعيد الحصول .

وفرق بين العظام الناخرة والنخرة - حيث إن النخرة فسرت بالأشد بِلًى ، قال عمرو بن العلاء : النخرة : التى بليت ، والناخرة التى لم تنخر بعدُ ، ونقل اتحاد المعنى عن غيره .

---

(١) الحاقة ، آية ٢١ . والقارعة آية : ٧

١٢ - (قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) :

حكاية لكفر آخر من منكرى البعث متفرع عن كفرهم السابق الذى أنكروا فيه البعث ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الرد فى الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع : (تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أى : رجعة ذات خُسْر ، أو خاسر أهلها ، بمعنى إذا صحت تلك الرجعة وعدنا إلى ما كنا عليه من الحياة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها ، وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته فى صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد من الاستهزاء والسخرية .

١٣ - (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) :

تقليل لإنكارهم إحياء الموتى الذى عبروا عنه بالكرَّة ولما كان مدار إنكارهم للكرَّة استصعابهم لها ، رد عليهم سبحانه بالآية الكريمة : لا تحسبوا تلك الكرَّةَ صعبة على الله - عز وجل - فإنها سهلة هينة لأنها ما هى إلا صيحة واحدة تحصل بها الرجعة وتتحقق ، وهى النفخة الثانية ، وعبر عنها بالزجرة تنبيها على كمال اتصالها بها كأنها عينها ، وبهذه النفخة التى ينفخها إسرافيل - عليه السلام - فى الصور يبعث الله الأولين والآخرين فإذا هم قيام بين يدى الرب - عز وجل - ينظرون ، كما قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا »[1] وكما قال جل وعلا : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »[2] .

١٤ - (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) :

بيان لترتيب الرجعة على الزجرة مفاجأة ، أى : فإذا هم حضور فى الموقف على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً فى جوفها ، قال ابن عباس : الساهرة : الأرض كلها ، وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة ، وحكى الراغب فى الساهرة قولين : الأول : أنها وجه الأرض ، والثانى أنها أرض القيامة ، وفى الكشاف : الأرض البيضاء التى لا نبات فيها المستوية ، سميت

---

(١) الإسراء ، الآية : ٥٢

(٢) سورة القمر ، الآية : ٥٠

بذلك لأن السراب يجرى فيها من قولهم : عين ساهرة : جارية الماء ، وفى ضدها : عين نائمة ، أى : أن سالكها لا ينام خوف الهلكة ، إلى غير ذلك من الأقوال التى ذكرها المفسرون .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ) الوادى المطهر المبارك .

(طُوًى) : اسم للوادى المقدس على الصحيح .

((إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الظلم والطغيان .

(إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) : إلى أن تسلم وتطيع وتطهر من الذنوب .

(الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) : هى قلب العصا حيَّة ، أو هى اليد البيضاء .

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ) : ثم تولى وأعرض عن الإيمان مجدًّا فى معارضته .

(فَحَشَرَ) : فجمع السحرة من المدائن ، أو الجند ، أو هما معاً (فَحَشَرَ) : من الحشر ، وهو إخراج الجماعة من مقرهم ، وتوجيههم إلى الحرب ونحوها .

(نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ) : وهو عذاب الآخرة بالإحراق ، وعذاب الأُولى بالإغراق ، والنكال : مصدر بمعنى التنكيل .

التفسـير

١٥ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) :

يخبر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات البينات ، ومع ذلك استمر عدو الله على كفره وعصيانه سادرًا فى بغيه وظلمه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، وفى هذا تسلية لرسوله - ﷺ - من تكذيب قومه ، وتهديدهم له بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم . ولهذا قال سبحانه فى آخر القصة : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) والاستفهام فى الآية لحمل رسوله ﷺ أن يستمع إلى أمر يعرفه قبل ذلك ، كأنه قيل : أليس قد أتاك حديث موسى - عليه السلام - ؟ ! أو الاستفهام ترغيب لسماع القصة إن اعتبر أن هذا أول ما أتاه من حديثه - عليه السلام - كأنه قيل : هل أتاك حديثه ؟ أنا أخبرك به ، والأول هو المتبادر .

١٦ - (إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى : كَانَ حديث موسى فى الوقت الذى : ناداه ربه سبحانه بالوادى المبارك المطهر وهو واد فى أسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، (طُوًى) : اسم لذلك الوادى المقدس مرة بعد أخرى .

١٧ - (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

على إرادة القول ، أى : قائلا له : (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ) الآية ، أو تفسير للنداء ، أى : ناداه (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ) ... إلخ . (إِنَّهُ طَغَىٰ) : جاوز الحد فى الطغيان على رعيته من بنى إسرائيل ، وعلا فى الكبر والعظمة ظناً منه أن هذا من مظاهر الألوهية ، والجملة تعليل للأمر بالذهاب إليه ، أو لو جود الأمر بالامتثال بما أمر به .

١٨ – (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ) :

أى : فقل له : هل لك رغبة فى أن تتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ورذائل الأخلاق والعادات ؟ وهو استفهام يقصد به العرض والطلب ، وهو أفضل أنواعه ، وأوفقها باللطف والأدب فى الدعوة ، وقدّم طلب التطهر على طلب الهداية فى الآية التالية ، لأنها تخلية ، وهى مقدمة على التحلية .

١٩ – (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) :

أى : وهل تحب أن أدلك وأرشدك إلى معرفة ربك فتعرفه ؟ (فَتَخْشَىٰ) : بأن يصير قلبك خاضعاً لله مطيعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيدًا عن الخير ، وبأن يمتلىء علماً بجلاله وعلو شأنه كما قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[1] فمن اتقاه أمن عقابه ، والخشية : ملاك الأمر ، وغاية الهداية ، من تمسك بها أتى منه كل خير ، ومن تركها اجترأ على كل شر ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى عن أبى هريرة : « مَنْ خافَ أدلجَ[2] ومَن أدلجَ بلغَ المنزلَ » وعن بعض الحكماء : اعرف الله ، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيَهُ طرفةَ عين .

٢٠ – (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) :

أى : لما لم يقتنع فرعون بالدليل القولى ، أظهر – سبحانه – له آية ودليلا يراه بعينه بعدما جرى بين موسى – عليه السلام – وبينه من المحاورات إلى أن : « قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] والمراد بالآية الكبرى على ما روى عن ابن عباس : قلب العصا حيَّة ، فإنها كانت المقدمة والأصل ، والأخريات كالتبع أو على ماروى عن مجاهد : ذلك واليد البيضاء ، فإنها باعتبار الدلالة كالآية الواحدة ، وقد عبر عنهما بصيغة الجمع فى قوله تعالى فى سورة طه : « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي » باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كُلٌّ منها آية لقوم يعلمون ، وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله

---

(١) سورة فاطر : من الآية ١٢٨

(٢) الدلج محركة ، والدلجة بالضم والفتح : السير من أول الليل ، وقد أدلجوا . اهـ : قاموس ، والمراد مواصلة العمل لبلوغ الغاية .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٠٦

من الرسل - عليهم السلام - ولا مساغ لحمل « آياتى » فى الآية المذكورة على مجموع معجزاته فإن ماعدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهرت على يده - عليه السلام - على مهل بعد ما غلب السحرة . وترتيب حشد السحرة لم يكن إلا على إرادة هاتين الآيتين .

٢١ - (فَكَذَّبَ وَعَصَى) :

أى : فكذب فرعون بموسى - عليه السلام - واعتبر معجزاته الباهرة سحرًا (وَعَصَى) الله - عز وجل - بالتمرد على نبيه بعد ما علم صحة الدعوة أشد عصيان وأقبحه ؛ مما دعاه إلى إنكار وجود الله رب العالمين ، وكان هو وقومه مأمورين بعبادته عز وجل ، وترك العظمة التى يدعيها ويقبلها من فئته الباغية .

٢٢ - ٢٤ - (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى • فَحَشَرَ فَنَادَى • فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) :

أى : ثم تولى عن موسى ، وأمعن فى تكذيبه مجتهدًا فى مكايدته ، أو لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسرع فى مشيته من هول ما رأى ، حيث رآه ضخماً قويًّا ، فاغرا فاه متجها نحوه وتبعه قومه - يعلوهم الفزع والاضطراب منهزمين(فَحَشَرَ فَنَادَى) أى : فجمع السحرة ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : « فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ »[1] وقوله تعالى : « فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى »[2] أى : فجمع ما يكاد به من السحرة وآلاتهم ، وقيل: جنوده ، ويجوز أن يراد جميع النَّاس فى مملكته ، وبعد أن جمعهم وقف فيهم خطيبا ، فنادى بنفسه أو بواسطة المنادى ، والأول هو المناسب لقوله تعالى : (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) لا رب فوقى ، وكانت لهم أصنام يعبدونها .

٢٥ - (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) :

أى : فأهلكه الله ونكل به تنكيل الآخرة ، وهو الإحراق ، وتنكيل الأولى ، وهو الإغراق ، وعمل الآخرة والأولى على الدارين هو الظاهر .

---

(١) الشعراء ، الآية : ٥٣

(٢) سورة طه ، الآية : ٦٠

وروى عن الحسن وابن زيد وغيرهما ، وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبى أن الآخرة قولته : (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) والأولى قولته : « مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى » وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها ، وعلى ذلك ، فالتنكيل به والتعذيب له بسببهما ما وقع منه ، وما سيقع .

٢٦ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) :

أى : إن فيما ذكر من قصة فرعون ، وما اقترف من آثام ، وما عوقب به من تنكيل وتخذيل لموعظة لمن شأنه أن يخشى ، أى : لمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر فى حوادث الماضين ، وأحوال الحاضرين ويتعظ بها .

(ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(رَفَعَ سَمْكَهَا) السَّمْكُ : العلو والارتفاع ، يقال : سَمَكْتُ الشىء : رفعتُه فى السماء ، وبناءٌ مَسْموكٌ : عال مرتفع .

(فَسَوَّاهَا) : جعلها ملساء مستوية .

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا) أى : أظلمه ، يقال : غطش اللَّيل من باب ضرب ، وأغطش : صار مظلما وأظلمه الله .

(دَحَاهَا) : بسطها ومدَّها من الدحو أو الدحى يعنى البسط .

التفسير

٢٧ ، ٢٨ - (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) :

الاستفهام للتقريع والتوبيخ لأهل مكة المنكرين للبعث بناءً على صعوبته فى زعمهم ، أى : أَخَلْقُكُمْ بعد موتكم أشق وأصعب أم خلق السماء على عظمها ، وانطوائها على الأعاجيب والبدائع التى يحار العقل فى إدراك كنهها؟! (بَنَاهَا) : بضم أجزائها المتفرقة بعضها لبعض بعد أن خلقها بقدرته مع ربطها بما يمسكها حتى تكون بنية واحدة ، وهكذا صنع - سبحانه بالكواكب ، ووضع كلا على نسبة من الآخر مع ما يمسكه فى مداره التى كان منها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد وهو السماء التى تعلونا ، وعدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف عليه من الأفعال للتنبيه على تعينه وتفخيم شأنه - عز وجل - ما لا يخفى (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) بيان للبناء ، أى : رفع جرمها ، وأعلى قبتها وجعل مقدار ارتفاعها من الأرض ، وذهابها إلى جهة العلو مديداً رفيعاً ، قال ابن كثير[1] : أى : جعلها عالية البناء بعيدة الفناء مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء (فَسَوَّاهَا) بوضع كل جرم فى موضعه حسبما اقتضته الحكمة ، وقيل : فسواها بجعلها ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

٢٩ - (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) :

أى : وجعل الله ليلها مظلماً ؛ لأنه يقال : أغطش الليل ، كما يقال : أظلم ، ونسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بمغيب كوكبها وهو الشمس (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) أى : وأبرز نهارها ، والضحى فى الأصل على ما يفهم من كلام الراغب : انبساط الشمس ، وامتداد النهار ، ثم سمى به الوقت المعروف ، وشاع فى ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة بالليل ، وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس فى سائرها فكان أوفق لمقام تذكير الحجة على منكرى البعث ، وإعادة الأرواح إلى أبدانها ، وإضافة الضحى إلى السماء لأنه يحدث بسبب طلوع الشمس .

---

(١) فى مختصره .

٣٠ - (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) :

أى : بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإغطاش الليل ، وإخراج النهار (دَحَاهَا) أى : بسطها ومهدها لسكنى أهلها وتقلبهم فى أقطارها ، ويشير إلى أن معنى الدحْو أو الدحى البسط قول أمية بن أبى الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطَّانها حتى التنـــادى

وقيل : دحاها : سواها .

والأكثرون على الأول ، والظاهر أن دحوها بعد خلقها ، وقيل : معه ، أى : خلقها مدحوة ، وروى الأول عن ابن عباس ، ولعل المراد من خلقها أولا ثم دحوها ثانياً ، خلق مادتها أولا ثم تركيبها وإظهارها على هـــذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة ، كما قيل فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ » إلى قوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ »[1] أى : إن السماء خلقت مادتها أولا ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم .

٣١ - (أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا) :

أى : أخرج - سبحانه - من الأرض الماء وذلك بتفجير الينابيع والعيون ، وإجراء الأنهار ، كما أخرج منها المرعى ، ويقع على الرّعْى وهو الكلأ ، أو المراد به كل ما يرعى المرعىّ مما يأكله الناس والأنعام ، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها بيان وتفسير لـ (دَحَاهَا) وتكملة له ، فإن السكنى لاتتأتى بمجرد البسط والتمهيد ، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب .

٣٢ - (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا) :

أى : أثبت الله الجبال فى مكانها ، وجعلها وقاية للأرض أن تميد بأهلها ، والتعبير

---

(١) فصلت ، من الآية رقم ١١ ومن الآية رقم ١٢ .

عنها بالرواسى فى كثير من آيات التنزيل ليس لأن الرسو المنسوب إليها من مقتضيات ذواتها ، بل هو بإرسائه - عز وجل - ولولاه لما ثبتت فى أنفسها فضلا عن إثباتها للأرض :

٣٣ - (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

أى : فعل - سبحانه - ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام ، حيث إن فائدة البسط والتمهيد ، وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ، وعائدة عليهم وعلى أنعامهم .

وحاصل المعنى : أفلا يكون خالقكم وواهبكم مابه تَحْيَوْنَ ، ورافع السماء فوقكم وباسط الأرض تحتكم قادرًا على بعثكم ؟ ! وهل يليق به - سبحانه - أن يترككم سُدًى بغير حساب وجزاء بعد أن دبركم هذا التدبير ووفر لكم ذلك الخير الكثير ، وهو لايصعب عليه بعثكم - كما تزعمون - بعد أن شاهدتم الأعاجيب التى أوجدتها قدرة القادر العظيم ؟ !

(فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) : كالْعَلَم على يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تطم على كل أمر مفظع ، أى : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهى الدنيا ، من طمَّ الشىء ، يطُمُّه طمًّا : غمره ، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم .

(فَأَمَّا مَن طَغَى) : جاوز الحد فى العصيان والكفر .

(هِيَ الْمَأْوَى) : المقر والمرجع .

(وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) : أصل الهوى : مطلق الميل ، وشاع فى الميل إلى الشهوات .

(أَيَّانَ مُرْسَاهَا) أى : متى يقيمها الله ويثبتها ، والمرسى : من رسا بمعنى ثبت .

(فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق .

التفسير

٣٤ - (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان معاشهم ، كقوله عز وجل : (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) .
والطامة الكبرى : هى الداهية العظمى التى تطم على ما سواها ، أى : تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهى الدنيا ، وهى كالْعَلَم ليوم القيامة ، وروى كونها اسماً من أسمائها عن ابن عباس ، وروى عنه أيضاً وعن الحسن أنها النفخة الثانية ، وقيل : إنها الساعة التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، وقيل : هى ساعة يساق أهل النار ، ووصفت بالكبرى لأنها أعظم الدواهى مطلقاً .

٣٥ - (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى) :

المراد : يوم يتذكر كل امرئ ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله ، وقد كان نسيه من فرط الغفلة ، أو طول الأمد ، أو لشدة ما لقى ، أو لكثرته التى تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »[1] .

---

(١) المجادلة ، من الآية رقم ٦

٣٦ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى) :

عطف على (جَآءَتْ) من قوله سبحانه : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى) أى : أظهرت إظهاراً بيناً فلا تخفى على أحد (لِمَن يَرَىٰ) أى : لمن شأنه الرؤية كائنا من كان ، روى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذى بصر .

٣٧ - ٣٩ - (فَأَمَّا مَن طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) :

تفصيل لجواب (إِذَا) من قوله تعالى : (فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى) وهو مقدَّر بنحو : وزع الجزاء على العمل ، أو ظهرت الأعمال ونشرت الصحف ، أو وقع مالا يدخل تحت حصر .

(فَأَمَّا مَن طَغَى) أى : عتا وتمرد على الطاعة ، وجاوز الحد فى العصيان (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى : فضل لذائذها وشهواتها ، وأتبع نفسه هواها ، ولم يستعدّ للحياة الأخروية الأبدية بالإيمان والتقوى (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أى : دارُ العذاب مأواه ومستقره ، يتجرع فيها نارًا يتأجج لظاها تشوى الوجوه ، وتنضج الجلود ، وكلما نضج جلده بدله الله جلدًا غيرهُ ليذوق العذاب ، قيل : نزلت الآية فى النضر وأبيه الحارث المشهورين بالغلو فى الكفر والعصيان .

٤٠ ، ٤١ - (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) :

أى : وأما من عرف بسطة السلطان الإلهى ، فخاف مقامه بين يدى ذى الجلال الرفيع يوم الطامة الكبرى وزجر نفسه عن هواها الباطل الذى يميل بها إلى اقتراف الآثام بحكم الجبلة البشرية ، وأهمل متاع الحياة الدنيا وزخارفها التى تعمى وتصم ، ولم يغتر بزهرتها وزينتها علماً منه بوخامة العاقبة . هذا وقد شاع الهوى فى الميل إلى الشهوة ، وسمى بذلك - على ما قال الراغب - لأنه يَهْوِى بصاحبه فى الدنيا إلى كل واهية ، وفى الآخرة إلى الهاوية ، ولذلك مدَح مخالفه ، قال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه . وقال الفضيل : أفضل الأعمال مخالفة الهوى ، إلى غير ذلك من الأقوال الداعية إلى مجافاته

والبعد عنه (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) له لا غيرها أى : نزله الذى يتمتع فيه بالنعيم المقيم ، والسعادة الدائمة ، وعن ابن عباس أن الآيتين نزلتا فى أبى عزيز بن عمير وأخيه مصعب ابن عمير - رضى الله عنه - كان الأول كافرًا مؤثرًا الحياة الدنيا ، وكان مصعب خائفاً مقام ربه ناهياً النفس عن الهوى ، وقد وقى رسولَ الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه ، حتى نفذت السهام فى جسمه ، فلما رآه - عليه الصلاة والسلام - متشحطاً[1] فى دمه قال : عند الله أحتسبك .. إلخ القصة ، رواها الآلوسى .

٤٢ - ٤٤ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) :

كان أهل العناد والكفر من قريش يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة متى إرساؤها ؟ أى : إقامتها وإثباتها . يريدون بسؤالهم له ﷺ أن يبين لهم الزمان الذى يقيمها فيه ويبثها جل وعلا .

وجوز أن يكون السؤال عن المكان الذى تنتهى إليه ، أى : متى مستقرها ومنتهاها ؟ كما أن مرسى السفينة حيث تنتهى .

وكان النبى ﷺ يردد فى نفسه ما يقولون ، ويتمنى لو أمكنه الجواب عما يسألون كما هو شأن الحريص على الهداية ، الجاهد فى الإقناع ، فنهاه ربه عن تمنى مالا يرجى ، وجاء النهى على صورة الاستفهام ، حيث قال - سبحانه - : (فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) بمعنى فى أى شىء أنت من مداومة تذكرها والتطلع إلى إخبارهم بوقتها؟! فإن ذلك ليس من شأنك[2] ، أو الاستفهام إنكار ورد لسؤال المشركين عنها ، أى : فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم

---

(١) مضطرباً فيه . ومنه تشحط الطفل فى السلى - وزان الحصى : اضطرب فيه ، والسلى: هو ما يكون فيه الولد . المصباح المنير .

(٢) أخرج النسائى وغيره عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من ذكر الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكراها) فكف عنها ، وعلى هذا فالاستفهام تعجيب من كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم .

وقتها . وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها – فما أنت من ذلك فى علم به ، كقولك : ليس فلان فى شيء . أى : فى علم . وقيل : (فِيمَ) إنكار ورد لسؤالهم ، وما بعده (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) استئناف لتعليل الإنكار ، وبيان لبطلان السؤال ، أى فيم هذا السؤال ، ثم ابتدئ فقال : (أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا) أى : إرسالك وأنت خاتم النبيين المبعوث فى نسم الساعة[1] علامة من علاماتها ودليل يدلهم على العلم بقرب وقوعها ، فحسبهم هذه المرتبة من العلم . (إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) أى : إلى ربك وحده ينتهى علمها ، ليس لأحد منه شيء كائنا من كان ، أو إليه تعالى يرجع العلم بكنهها ، وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى غيره سبحانه ، وإنما وظيفتهم أن يعلموا بقربها ومشارفتها ، وقد حصل لهم ببعثك الذى هو علامة من علاماتها ، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك ؟ !

٤٥ – (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) :

جاء هذا لدفع ما قد يتوهم – حسب الظاهر – من أنه ﷺ ليس له أن يذكرها بوجه من الوجوه ، فأزيح ذلك ببيان أن المنفى عنه – عليه الصلاة والسلام – ذكرها بقصد تعيين وقتها لهم حينما كانوا يسألونه عنها ، والمراد إنما شأنك أن تنذر من يخشاها فتنبهه من غفلته حتى يستعد لما يلقاه يومها من أهوال وشدائد ، فوظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها لا تعيين وقتها الذى لم يفوض إليك ، فلا تشغل نفسك بما عنه يسألون .

وتخصيص الإنذار بمن يخشى – مع عموم الدعوة – لأنه المنتفع بالإنذار بها ، والتخويف منها .

٤٦ – (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) :

أى : كأنهم يوم يرون الساعة لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحد أو ضحاه ، والعشية : من الزوال إلى الغروب ، والضحى : من طلوع الشمس إلى الزوال ، والمراد : أنهم يستقصرون بعد قيامهم من قبورهم وذهابهم إلى المحشر – يستقصرون – مدة الحياة

---

(١) فى أوائل علامات الساعة .

الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحاه ، وقال قتادة : ذلك وقت الدنيا حين عاينوا الآخرة وما فيها .

قيل : إذا جاءت الساعة ذهبت صورة كل زمان مضى من أذهانهم سواء طال أو قصر، فحسبوا أنهم لم يمكثوا من يوم خلقهم إلى بعثهم إلا عشية أو ضحاها ، أى : طرف من أطراف النهار لا نهارًا كاملا ؛ لما هم فيه من خوف وهلع .

وإنما صح إضافة الضحى إلى ضمير العشية لما بينهما من الملابسة لكونهما فى نهار واحد .

والآية رد لما أدمجوه فى سؤالهم ، فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء لها قصدًا إلى الاستهزاء بها كما حكى عنهم « وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[١] ومثل هذه[٢] قوله تعالى : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ »[٣] والله أعلم .

---

(١) يس ، الآية رقم : ٤٨

(٢) الإشارة إلى قوله تعالى : (كأنهم يوم يرونها . . .) الآية .

(٣) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥

سورة عبس

مكية وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية
وتسمى أيضا الصاخة ، والسفرة

صلتها بما قبلها :

لما ذكر سبحانه فى السورة التى قبلها (سورة النازعات) « إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا » ذكر – عز وجل – فى هذه مَنْ ينفعه الإنذار .

أهم مقاصد السورة :

بدأت السورة بعتاب النبى ﷺ على ما كان منه من إعراضه عن ابن أم مكتوم وعبوسه فى وجهه حين جاءه راغباً فى العلم والهداية ، وكان – صلوات الله عليه – مشغولا بدعوة سادات قريش إلى الإسلام رجاء أن يسلموا ، فيسلم بإسلامهم خلق كثير . (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ...) الآيات .

ثم ذكرت شرف القرآن وأنه محفوظ مصون من عبث العابثين ، وتطاول المفتونين (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ...) الآيات .

ثم أظهرت جحود الإنسان وإنكاره البعث والقيامة ، وأنه بذلك أهل لأن يلعن ويطرد من رحمة الله لشدة كفره بربه الذى خلقه ، وتفضل عليه بنعمه التى لاتعد ولاتحصى : (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ...) الآيات .

ثم أقامت البرهان من حال النبات على البعث وإحياء الموتى ، وتناولت دلائل القدرة فى هذا الكون حيث يسر الله للخلق سبيل العيش فى هذه الحياة بما أخرجه لهم من زروع وفواكه وأعشاب متاعاً لأنفسهم ودوابهم : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ...) الآيات .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من فزع شديد يحمل المرء على أن يتنكر لأحب الناس إليه ، وأقربهم منه : (فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ...) الآيات .

وخُتمت ببيان حال المؤمنين وحال الكافرين فى هذا اليوم العصيب ، وما بينهما من تفاوت : فأهل الدرجات يعلو وجوههم النور والسرور والبشر بنعيم الله ، وأهل الدركات تغشى وجوههم الظلمة والسواد من غضب ربهم ، وهم الكفرة الفجرة : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عَبَسَ) : قطَب ، من باب ضرب ، أى : جمع بين عينيه .

(يَزَّكَّىٰ) : يتطهر بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة .

(أَوْ يَذَّكَّرُ) : يتعظ بنصائحك .

(تَصَدَّىٰ) : تتعرض له مقبلا عليه مهتماً به .

(وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَى) أى : مسرعاً يبتغى ما عندك من الهدى .

(تَلَهَّى) : تُعرض وتتشاغل ، يقال : لهى عنه كرضى ورمى ، والْتهى وتَلَهَّى : تشاغل .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) : أى إن آيات القرآن الكريم موعظة يجب أن يتعظ بها .

(ذَكَرَهُ) أى : حفظ القرآن الكريم فاتعظ به .

(مرْفُوعَةٍ) عالية القدر ، أو مرفوعة إلى السماء .

(سَفَرَةٍ) أى : كَتَبَةٍ ، جمع سافر بمعنى كاتب ، وهم الملائكة الكرام الكاتبون ، أوهم السفراءُ بين الله ورسله ، جمع سافر بمعنى سفير .

التفسير

١ - ٤ - (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) :

روى أن ابن أم مكتوم - واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرون - وينتهى نسبه إلى لؤى القرشى ، وقيل : هو عبدالله بن شريح بن مالك بن أبى ربيعة الفهرى ، وقيل غير ذلك ، والأول هو المشهور كما يقول الآلوسى .

وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها : عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وقد أسلم بمكة قديماً وكان أعمى ، وقد عمى بعد إبصار ، وقيل : ولد أعمى ، أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديد قريش وأشرافها : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، وكان مجتمعاً بهم يدعوهم إلى الإسلام - رجاءَ أن يسلم بإسلامهم خلق كثير - فقال : يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم ، فكَرِهَ - صلواتُ الله عليه وسلامه - قطْعَهُ لكلامه ، وظهرت الكراهيةُ فى وجهه ، فعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات عتاباً

للرسول ﷺ بعد انقضاء حديثه معهم ، وذهابه إلى أهله . وقيل : نزلت فى أثنائه فكان الرسول بعد ذلك يكرمه إذا رآه ، ويقول له : « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ويبسط له رداءه ويقول : « هل لك من حاجة ؟ » واستخلفه على المدينة مرتين ، فكان يصلى بالناس ، وهو من المهاجرين الأولين . هاجر قبل النبى ﷺ ومات شهيدًا بالقادسية يوم فتح المدائن فى عهد عمر – رضى الله عنه – وقيل : رجع إلى المدينة فمات بها .

والمعنى : قطب رسول الله ﷺ وجهه وأعرض عن ابن أم مكتوم بجسمه أو بترك الإصغاء إليه حينما جاءه يطلب منه أن يقرئه ، ويعلمه مما علمه الله ليزداد هداية ، فقطع بطلبه كلامه ﷺ أثناء تشاغله مع أشراف قريش ، والتعبير عنه بالأعمى للإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه ﷺ مع القوم ، وفى ذلك عتاب له ﷺ مع أن الالتفات إلى الخطاب فى قوله – سبحانه – : (وَمَا يُدْرِيكَ) إيناس بعد إيحاش ، وإقبال بعد إعراض ، أى : ولو كنت دارياً بحاله لما بدر منك من عبوس وإعراض ، ولعلمت بما هو مترقب منه من تزكٍّ وتذكر ، والتعبير عنه بالأعمى فى الآية مقترناً بأل الجنسية دفع لتوهم الاختصاص بالأعمى المعين ، وإيماء إلى أن كل ضعيف من مثله يستحق الإقبال عليه والرأفة به (لَعَلَّهُ يزَّكَّى) أى : يتطهر من أوضار الإثم بما يسمع منك من نصح وإرشاد ، وعلم ومعرفة (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) أى : يتعظ بتذكيرك إياه ، فتنفعه ذكراك وموعظتك وإن لم تبلغ إلى درجة التزكى التام .

والترجى فى الآية للدلالة على أن رجاء تزكيه أو كونه ممن يرجى منه ذلك كافٍ فى الامتناع عن العبوس له ، والإعراض عنه ، فكيف وقد كان تطهره محققاً لأنه من السابقين إلى الإسلام ؟

وفى الآية تعريض وإشعار بأن من تعرض ﷺ لتزكيتهم وتذكيرهم من أشراف قريش لا يرجى منهم التزكى والتذكر أصلا .

٥ – ٧ – (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) :

تفصيل لما وقع منه ﷺ أى : (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) بماله وقوته عن سماع القرآن ، والاتعاظ به ، وعما عندك من العلوم والمعارف التى تهدى إلى خيرى الدارين (فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى)

أى : تتعرض بالإقبال عليه ، والاهتمام بإصلاحه وإرشاده مع أنه معرض عن دعوتك ، وفى ذلك مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبة هؤلاء : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ) أى : ليس عليك بأس فى ألا يتطهر بالإسلام ، حتى تحرص على الاهتمام بأمره ، والإعراض عمن أسلم وتطهر ، مع أن المستغنى قد رضى لنفسه دنس الكفر والعصيان ظانًا فى ماله غنى عن هداية الله وطاعته ، ويقول الآلوسى : « والممنوع عنه فى الحقيقة الإعراض عمن أسلم لا الإقبال على غيره ، والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه » .

٨ – ١٠ – (وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) :

أى : وأما الذى جاءك مسرعاً يبتغى عندك ماتتوق إليه نفسه ، ويتعلق به قلبه من أحكام الدين ، وخصال الخير (وَهُوَ يَخْشَىٰ) الله تعالى ، ويخاف الغواية ، وما دفعه إليك إلا حبه لأن يتطهر من الجهل ، وخوف الوقوع فى ظلمات الضلال ، وقيل : يخشى أذى الكفار فى إتيانه إليك . وقيل : يخشى العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد (فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ) أى : تتشاغل – عن إجابته إلى طلبه – بصناديد قريش ، بمعنى : لا ينبغى أن تتصدى للمستغنى عما عندك من الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتتلهى به عن الفقير الطالب للخير .

وفى تقديم ضميره ﷺ وهو « أنت » على الفعلين : (تَصَدَّىٰ) و (تَلَهَّىٰ) تنبيه على أن مناط العتاب خصوصيته – عليه الصلاة والسلام – وتقديم (لَهُ) و (عَنْهُ) على الفعلين أيضاً للعناية والاهتمام بمضمونهما : لأنهما منشأ العتاب له ﷺ روى أنه – صلوات الله عليه – : ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير قط ، ولا تصدى لغنى .

وبعد أن فصّل – سبحانه – فى الآيات السابقة حاله ﷺ مع المستهدى والمستغنى أتبعها بقوله جل شأنه :

١١ ، ١٢ – (كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) :

المعنى : كلمة « كَلَّا » للردع والزجر ، أتى بها للمبالغة فى إرشاده ﷺ إلى عدم العودة . إلى ما عوتب عليه من الاهتمام بمن استغنى عما دعوته إليه من الإيمان والطاعة ،

وما يوجبها من القرآن الكريم ، والإعراض عمن جاءك مستهدياً ومسترشدًا ، أى : لا تعد إلى مثل ما وقع منك .

(إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أى : القرآن الكريم تذكرة وموعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها ، وأنث الضمير العائد عليه لتأنيث الخبر ، وقيل : الضمير المؤنث يراد به الهداية المودعة فى سائر الكتب السماوية وأجلُّها القرآن جعلها الله تذكرة وإرشادًا إلى الطريق المستقيم .

وهذه الجملة المؤكدة تعليل للردع (بكَلَّا) عما ذكر ، ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذى استغنى عنه من تصدى ﷺ له ، وتحقيق أن شأنه أن يكون موعظة حقيقة بالاتعاظ ، فمن رغب فيها اتعظ بها كما نطق به قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ) أى : حفظه واتعظ به ، ومن رغب عن حفظه والاتعاظ به - كما فعل المستغنى - فلا حاجة لك إلى الاهتمام بأمره ، وذكّر الضمير لكونه عائدًا على القرآن أو على التذكرة لأنها بمعنى التذكير والوعظ ، والجملة جىء بها للترغيب فى القرآن ، والحث على حفظه والاتعاظ به .

١٣ - ١٦ - (فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ) :

أى : إن آيات القرآن مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح المحفوظ مكرمة عند الله - جل وعلا - وقيل : مثبتة فى صحف الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - كقوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » هذه الصحف (مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ) أى : عالية القدر شريفة ، وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة منزهة عن مساس أيدى الشياطين ، أو من كل دنس ، كما روى عن الحسن ، أو عن الشُّبه والنقص (بِأَيْدِى سَفَرَةٍ) وهم الملائكة - عليهم السلام - ومعنى كونها بأيديهم أن الله - سبحانه - جعلهم سفراء بينه وبين رسله يحملون إليهم الكتب المنزلة عليهم ، جمع سافر بمعنى سفير ، أو هى بأيدى الأنبياء - عليهم السلام - لأنها تنزل عليهم بالوحى ، وهم يبلغونها للناس . فكل من الملائكة والأنبياء يصح إطلاق السفير عليه ، كما يصح إطلاق الرسول على كل منهما ، أو السفرة : الكتبة من الملائكة ، قال مجاهد وجماعة : فإنهم ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، جمع سافر ، أى : كاتب .

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ) أى : مكرمين معظَّمين عند الله - تعالى - من الكرامة بمعنى التوقير ، أو أنهم

متعطفون على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم إلى الخير والكرامة ، وهم كذلك متصفون بصنع المكارم ، أتقياء أو مطيعون لله تعالى ، من قولهم : فلان يبر خالقه ، أى : يطيعه .

(قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(قُتِلَ الْإِنسَانُ) أى : لعن وطرد .

(مَآ أَكْفَرَهُ) : ما أشد كفره ، وهو تعجيب من إفراطه فى الكفران ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه .

(فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به ، أو فقدره أطوارًا من حال إلى حال .

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : سهل له طريق الخير ، وطريق الشر ، وأقدره على اختيار أيهما .

(فَأَقْبَرَهُ) أى : جعله ذا قبر يُوَارَى فيه ، يقال : قَبَرَ الميتَ يَقْبُرُهُ ، وَيَقْبِرُهُ من بابى : نصر وضرب : إذا دفنه بيده ، ويقال : أقبره : إذا أمر بدفنه أو مكّن منه .

(أَنشَرَهُ) أحياه بعد موته للحساب والجزاء .

التفسير

١٧ - (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ) :

دعاء عليه بأشنع دعواتهم على ما هو المعروف فى لسانهم ، وهو كناية عن قبح حاله وأنه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حيا . (مَآ أَكْفَرَهُ) : تعجيب من إفراطه فى الكفر

والتكذيب بالمعاد ، وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه ، أى : ما أشد كفره الذى حمله على نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسديها ومانحها حتى إذا ذكر به ، فهو يعرض عن الذكرى . والمراد بالإنسانْ إما أن يكون من استغنى عن القرآن العظيم ، فكفر بربه الذى نُعت بالصفات الجليلة التى تستوجب الإقبال عليه والإيمان به ، وإما أن يكون للجنس باعتبار انتظامه واشتماله على من استغنى وعلى أمثاله من أقرانه ، ويرجح هذا أن الآية نزلت على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة : فى عتبة بن أبى لهب : غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه ، وأعطاه مالاً ، وجهزه إلى الشام ، فبعث إلى رسول الله ﷺ أنه كافر برب النجم إذا هوى ، فدعا عليه رسول الله ﷺ ... إلى آخر القصة ، وقد تحقق فيه الدعاء .

ويقول الآلوسى : ثم إنَّ هذا كلام فى غاية الإيجاز إشارة إلى الآية ، وقال جار الله : لا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أدل على سخطه ، ولا أبعد شوطاً فى المذلة مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه ، وقال الإمام : إن الجملة الأولى (قُتِلَ الْإِنسَانُ) تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفاً ، والثانية (مَآ أَكْفَرَهُ) تدل على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً .

١٨ ـ ٢٠ ـ (مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) :

شروع فى بيان إفراطه فى الكفران ؛ ببيان ما أفاض الله عليه وتفصيله من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة ، بدل ما تمسك به هذا الإنسان من الإمعان فى الكفر والتكذيب ، وفى الاستفهام التقريرى عن مبدأ خلقه ثم بيانه بقوله تعالى : (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ) تحقير له وتوبيخ ، أى : من أى شىء حقير مهين خلق الله ذلك الكافر الجحود الذى يتكبر ويتعظم على ربه بترك الإقرار بتوحيده ؟ خلقه من نطفة قذرة (فَقَدَّرَهُ) أى : فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال ، أو فقدره أطوارًا من حال إلى حال إلى أن تم خلقه واكتمل تكوينه بأعضاء متناسبة تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت له ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود على ما يقتضيه كمال نوعه . (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أى : ثم سهل له

مخرجه من البطن بأن فتح له رحم أمه ، وألهمه أن ينتكس فتكون رأسه إلى أسفل ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية ، أو ثم سهل له طريق الخير والشر ، ومكنه من السلوك فيهما بأن أقدره - عز وجل - على كلٍّ ومكَّنَهُ منه . والإقدارُ على ما يريده الإنسان نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيريته وشريته فى ذاته وبهذا الاعتبار كان تيسيرالسبيل إليهما نعمة من نعمه - جل وعلا - وهذا مثل قوله تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »[1] .

٢١ - ٢٣ - (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ * كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

أى : جعله ذا قبر يوارى فيه بعد موته تكرمة له ، حتى لايبقى مطروحاً على وجه الأرض ، فيصير جيفة يستقذرها كل من يراها ، ويتأذى بما ينبعث منها من روائح كريهة ، ويكون نهباً للسباع والطير وغيرهما .

والمراد من جعله ذا قبر أنه - عز وجل - أمر بدفنه ومكّن منه ، كما ينطق به معنى (فَأَقْبَرَهُ) .

وفى الآية إشارة إلى مشروعية دفن الميت من الأناسى بلا خلاف ، أما حرقه - كما يفعل بعض الوثنيين - فمناف للتكرمة ، ومجافٍ للسنة الإسلامية ، على ما فيه من البشاعة والشناعة ، وأما دفن غير الإنسان من الحيوانات فقيل : هو مباح ، وقد يطلب على سبيل الوجوب لأمر مشروع يقتضيه ، وذلك لدفع الأذى البالغ الذى يترتب على ترك جيفها مطروحة ، فتفسد الجو بروائحها الكريهة ، وتتكاثر عليها الجراثيم الضارة التى تفتك بصحة الإنسان ، وتودى بحياته .

والإتيان بالفاء فى قوله تعالى : (فَأَقْبَرَهُ) للإشارة بتعجيل دفن الميت عقب موته فهى فى موضعها ، وَعُدَّتِ الإماتة من النعم لأنها وصلة فى الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم .

(ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ) :

أى : إن الله تعالى ينشره ويبعثه بعد موته وإقباره فى الوقت الذى تتعلق به مشيئته ، وفى تعلق الإنشار بالمشيئة إيذان بأن وقته غير معين أصلا ، بل هو راجع للمشيئة ، بخلاف

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣

الإماتة فإن وقتها فيه نوع تعيين فى الجملة على ما هو المعهود فى متوسط الأعمار الطبيعية .

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) :

(كَلَّا) ردع للإنسان الكافر عما هو عليه من الطغيان البالغ ، أى : ليس الأمر كما يقول من أنه أدى حق الله عليه فى نفسه وماله (لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ) بيان بسبب الردع ، أى : أنه لم يؤد شيئاً مما أمره به ربه من ترك الكبر المفرط ، ومن ترك التأمل فى الآيات ، والإيمان بالله مع ما يتقلب فيه من النعم العظيمة .

روى عن مجاهد وقتادة أن المراد أنه لم يقض جميع ما أمره الله به من أول زمان تكليفه إلى زمان إماتته وإقباره .

(فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا) : أنزلناه من السماء إنزالا عجيباً كأنه مراق من إناء ، يقال : صب الماء يصبه ، أى : أراقه ، من باب قتل .

(ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) أى : ثم شققناها بالنبات شقًّا بديعاً ملائماً له فى حجمه .

(قَضْباً) أى : علفاً رطباً ، وسمى قضباً لأنه يقضب بعد نموه ، أى : يقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم مثلا .

(غُلْباً) : كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ، جمع غلباء .

(وَأَبًّا) الأَبُّ : الكلأُ والمرعى ، وهو ما تأْكله البهائم ، من أَبَّهُ : إذا أَمَّه وقصده ، أو مِنْ أَبَّ لكذا : تهيأَ له .

التفسير

٢٤ ، ٢٥ - (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) :

بعد أن ذكر - سبحانه - الأُمور المتعلقة بخلق الإنسان امتنَّ عليه بذكر الأُمور المتعلقة ببقائه فى الدنيا ليعتبر ويقابل النعمة بالشكر ، فقال سبحانه : (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ) بمعنى : إذا كان حاله وهو أنه لايزال إلى الآن سادرًا فى غيه ، لم يؤد شيئاً مما أُمر به مع أن النعم السابقة من أقوى الدوافع إلى الامتثال والاستجابة ، فحتم عليه أن ينظر نظر تفكير وإمعان إلى طعامه الذى عليه يدور أمر بقائه كيف دبرناه وهيأْنا له أَسباب وجوده وعددنا أنواعه ليكون متاعاً له ولأَنعامه ، ويشير إلى ذلك قوله تعالى : (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا) أى : أنزلناه من السماءِ إنزالا عجيباً ، ينبىءُ بقدرة القادر العظيم ، وظاهر الصب يقتضى تخصيص الماء بالغيث وهو المروى عن ابن عباس . وجوز بعضهم الأَعم كماءِ العيون ونحوه وتأْكيد الجملة للاهتمام بمضمونها ، والظاهر أن المراد من الطعام : المطعوم بجميع أنواعه ، واقتصر عليه ، ولم يذكر المشروب ، لأَن آثار القدرة فيه أكثر من آثارها فى المشروب .

٢٦ - (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) :

أى : شققناها شقاً بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات : صغرًا وكبرًا ، وشكلا وهيئة ، وشق الأَرض بالنبات بعد نزول المطر يكون على التراخى المعهود كما يتضح ذلك من التعبير بـ (ثم) .

٢٧ - ٣٢ - (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) :

هذا استمرار فى تعداد النعم التى أَفاضها الله - سبحانه - على وجه بديع خارج عن العادات امتناناً على هذا الكافر الذى بالغ فى الإعراض والجحود ، وأهمل ما تستدعيه تلك

النعم من الامتثال والإقبال على خالقه الذى أنزل الغيث من السماء ، فصبه صَبًّا على الأرض التى انشقت بالنبات المتنوع ، فنما وترعرع ، فكان منه كما يقول تعالى : (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) يقتات به الناس ويدخرونه ، من نحو القمح والشعير (وَعِنَباً وَقَضْباً) أى : عنبا يتفكه به ، وقضبا ، أى : علفا رطبا للدواب ، وقيده بذلك الخليل وقال : إذا جف فهو التبن ، وسمى قضبا لأنه يقضب ، ويقطع مرة بعد أخرى كالبرسيم ونحوه . وقيل : هو ما يقضب ليأكله ابن آدم غضا كالبقول وبعض الخضروات . (وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً) الزيتون معروف ويؤكل بكل أنواعه ، ويؤتدم بعصيره ، ويستشفى به ، والنخل تؤكل ثمرته بلحاً كانت أو بسرا ، أو رطباً أو تمرًا .

(وَحَدَائِقَ غُلْباً) وهى الأشجار المثمرة التى أحيطت بسور يجمع بين أجزائها . فإن لم تحط به ، فليست بحدائق بل هى بساتين ، ومنه قيل : أحدقوا به ، أى : أحاطوا ووصف الحدائق بقوله تعالى : (غُلْباً) لتكاثفها ، وكثرة أشجارها ، وتشابك أغصانها ، أو لأنها ذات أشجار ضخمة عظيمة ، وكونها كذلك للإشعار بأن النعمة فى جملتها لا فى ثمرتها فحسب ، فمن أخشابها ما ينتفع به فى الإحراق والصناعة ، ومن أوراقها ما تأكله الحيوانات حفاظاً على حياتها ، وهذا أكمل فى الانتفاع بها . (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) ذكرت الفاكهة مع أنها تدخل فى الامتنان بالحدائق ؛ للاعتناء بشأن ما يتفكه به من ثمارها المتنوعة ، من كل ما حسن مذاقه ، وطاب ريحه ، وكبر حجمه ، ولا شك أن ذلك أدْخَلُ فى الامتنان .

والأَبُّ : كما نقل عن ابن عباس وجماعة . أنه الكلأُ والمرعى ، وسمى بذلك لأنه يُؤَمُّ ويُقصد ، والأَبّ : القصد ، وقيل : هو ما أنبتته الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الإنسان ، وقال الضحاك : كل شىء أنبتته الأرض سوى الفاكهة .

روى أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – سئل عن الأَبّ فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به ؟ ! وفى صحيح البخارى فى رواية

عن أنس أن عمر – رضى الله عنه – قرأ هذه الآية وقال : فما الأبُّ ؟ ثم قال : ما أمرنا بهذا ، أو ما كلفنا بهذا ، أى : بتتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، بمعنى : لاتتشاغلوا عن أعمالكم بطلب معنى الأبّ والبحث عنه ، ومعرفة النبات الخاص به إلى أن يبين لكم فى غير هذا الوقت ، واكتفوا بالمعرفة الجملية[1] ، ثم وصى الناس أن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن ، ليكون أكبر همهم ما هو أهم : من الشكر له – عز وجل – على نعمه العظيمة (مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) : فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ، فاشكروه على آلائه ، وجزيل عطائه فقد ضمن لكم ولأنعامكم الحياة والمتاع .

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(الصَّآخَّةُ) : هى الداهية العظيمة التى يصخ لها الخلائق ، من صخ لحديثه : إذا أصاخ واستمع لشدة صوت ذى النطق كما يقول الراغب .

(وَصَاحِبَتِهِ) أى : وزوجته .

(شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أى : له شأن يكفيه فى الاهتمام به ، ويشغله عن غيره .

التفسير

٣٣ – (فَإِذَا جَآءَتِ الصَّاخَّةُ) :

شروع فى بيان معادهم إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم ، أى : إذا جاء وقت الصاخة ،

---

(١) ليس فى ذلك نهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على ذلك .

وهى صيحة القيامة سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها ، وقال الخليل : هى صيحة تصخ الآذان صخا لشدة وقعها ، وأيًّا ما كان فهى اسم من أسماء يوم القيامة كما يقول ابن عباس : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده ، وقد وصفت بها النفخة الثانية لأن النَّاس يصيخون لها ، أى : يستمعون ، تدفعهم شدتها إلى أن يسرعوا قياماً ينظرون ، وجواب (إذا) مقدر ، والمعنى : فإذا صخت الصاخة شغل كل إنسان بنفسه .

٣٤ – ٣٦ – (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) :

يوم : تفسير للصاخة ، أى : فى هذا اليوم الذى ذهبت فيه هذه الحياة الدنيا ، وجاءت الصاخة يكون شأن ذلك الإنسان مع المذكورين فى الآيات ، أنه يعرض عنهم حينما يراهم ، ويفر منهم ولا يسأل عنهم كما فى الدنيا ؛ لأن الهول عظيم والخطب جسيم . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : ياهذه أى بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نِعْمَ البعل كنتَ ، وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلب إليكِ اليوم حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو مما ترَيْنَ . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أُطيق أن أُعطيك شيئاً ؛ فإنى أتخوف مثل الذى تخاف . وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى أى والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير ، فيقول له : يا بنى إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو مما ترى ، فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً . يقول الله تعالى . (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ...) الآيات .

وفى الحديث الصحيح : « إذا طلب إلى كلٍّ من أُولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ... إلى آخر الحديث » قال فى التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكبر ، وذلك بذكر الأخ والأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهما أحب .

قيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ،

ومن ابنه نوح – عليه السلام – وفرار هؤلاء ليس من قبيل هذا الفرار؛ لأنه وقع بغضا لهم وحذرا من لقائهم ، كما يروى عن ابن عباس .

٣٧ – (لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) :

استئناف لبيان سبب الفرار . أى : لكل ممن ذكروا فى الآيات السابقة شغل شاغل ، وخطب هائل يكفيه فى الاهتمام به ، ويصرفه عن غيره ، أخرج الطبرانى وابن مردويه والبيهقى والحاكم وصححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت : قال النبى ﷺ : « يحشر النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً [1] ، قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان ، قلت : يا رسول الله واسوأتاه ! ! ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : شُغل النّاس عن ذلك ، وتلا : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ...) الآية وفى حديث آخر : « ما أشغل النّاس عن النظر » وهناك أحاديث أخرى تدور حول هذا المعنى فمن أرادها فليرجع إلى تفسير ابن كثير وغيره .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(مُّسْفِرَةٌ) : مشرقة مضيئة .

(غَبَرَةٌ) : عليها غبار ودخان .

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) تغشاها ظلمة وسواد .

---

(١) جمع (أغرل) وهو غير المختون .

التفسير

٣٨ ، ٣٩ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) :

الآيات الخاتمة للسورة تبين حال الناس يوم يقفون بين يدى رب الأرباب ، وأنهم ينقسمون إلى السعداء والأشقياء ، وقد بدأت بالقسم الأول الذى آثر الحياة الباقية فعمل لها وأقبل عليها ، ورغب فيها رغبة الحريص عليها ، فقال سبحانه : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ) أى : مضيئة متهللة من البهجة والسرور ، وعن ابن عباس : إن ذلك من قيام الليل ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الأمة نظرًا لأن الوضوء من خواصها بالنسبة إلى الأمم السابقة ، وقيل : من طول ما اغبرت فى سبيل الله (ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة جزاءَ إيمانها ، وما قدمت من صالح أعمال ، وشكر آلاء ونعم .

٤٠ - ٤٢ - (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) :

بيان لحال القسم الثانى الذى أهمل عقله ، وشغل نفسه بالأهواء والأباطيل فرضى جَهْلَه ، واتبع حُمْقَه ، واختار الفانية ، وأفرغ جهده فى الإقبال عليها ، والتمسك بها ، حتى كان شأنه ما يفصح عنه قوله تعالى : (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أى : يعلوها غبار ودخان ويكون ذلك على الحقيقة ، أو يراد المجاز ، أى : مذلة وهوان . (تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أى : يعلوها سواد وظلمة على الحقيقة ، أو غم وحزن على المجاز ، وقيل : لا ترى أقبح من اجتماع الغبار والسواد فى الوجه ، بمعنى أن على وجوههم غبارًا وكدورة فوق غبار وكدورة : إظهارا لشدة القبح (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أى : أولئك المتصفون بالكدورة والسواد الجامعون بين الكفر والفجور .

سورة التكوير

مكية وآياتها تسع وعشرون آية

ويقال لها سورة كورت ، أو سورة إذا الشمس كورت

صلتها بما قبلها :

أنها شرحت حال يوم القيامة ، وبينت ما يقع فيها من أحداث عند قيام الساعة وبعد قيامها ، وذلك ما تضمنته آخر السورة التي تقدمت عليها (سورة عبس) .

أهم مقاصدها :

بدأت بتصوير الأحداث الهائلة التي تقع يوم القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كوني ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والإنسان والحيوان ، والجنة والنار حتى لا يبقى شيء إلا وقد تغير وتبدل إبرازًا لمظاهر القدرة العظيمة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ...) الآيات .

ثم أكدت بالقسم شَأْنَ القرآن الكريم ، ونفت عنه الفرية ، وبينت أنه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل – عليه السلام – الذي وصف بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ...) الآيات .

ثم نزهت الرسول ﷺ عما يقوله المتقولون عليه كذباً وبهتاناً ، وأكدت بالقسم أنه ﷺ رأى جبريل – عليه السلام – في صورته الملكية بالأفق الأعلى الواضح ، ونفت عنه أن يكون مقصرًا أو متهماً في تبليغ رسالة ربه التي أداها بصدق وأمانة (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) .

ثم كذبت مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وأبطلتها ببيان أنه موعظة من الله لعباده ، ينتفع بها أهل الاستقامة ، وهم بصنيعهم كمن ترك الطريق المستقيم الموصل للغاية ، وسلك طريق المخاوف والمهالك (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ...) الآيات .

ثم ختمت السورة برد أمر الناس جميعاً لمشيئة الله (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كُوِّرَتْ) أى : لُفَّتْ ، ويلزم ذلك ذهاب ضوئها المنتشر فى الآفاق ، ومنه تكوير العمامة أى : لفها على الرأس .

(انكَدَرَتْ) : سقطت وتناثرت .

(وَإِذَا الْعِشَارُ) : جمع عُشَرَاء ، كنفاس جمع نُفساء ، وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهذا اسمها إلى أن تضع لتمام السنة .

(عُطِّلَتْ) أى : أهملت لاشتغالهم بأنفسهم وكانت موضع عنايتهم واهتمامهم لأنها أنفس أموالهم .

(حُشِرَتْ) أى : جمعت من كل جانب ، وقال ابن عباس : حشرها : موتها .

(سُجِّرَتْ) : ملئت نارًا ، من سجر التنور : إذا ملأه بالحطب .

(الْمَوْءُودَةُ) : التي دفنت حية .

(كُشِطَتْ) : نزعت وقلعت ، يقال : كَشَطْت جلد الشاة : إذا نزعته وفصلته عنها .

(سُعِّرَتْ) : أوقدت إيقادًا شديدًا .

(أُزْلِفَتْ) : قربت وأدنيت من المتقين .

التفسير

١ ـ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) :

هذه الآية والآيات التالية لها تصوير لأهوال القيامة ومبادئها ، وما يصاحب ذلك من شدائد وآلام ، وما يعترى الكون والوجود من مظاهر التبديل التي صورت تصويرًا رائعاً ، وبينت بياناً واضحاً .

والمعنى : أن الشمس قد أزيل نورها فأظلمت حينما كورت بلفها ، على أن المراد بذلك إما رفعها وإزالتها من مقرها ، فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف ويطوى ، ونحوه قوله تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ » وإما بلف ضوئها بعد انتشاره وانبساطه فى الآفاق ، وقال مجاهد : كورت ، أى : اضمحلت وذهبت ، وذلك يحصل عند خراب العالم الذى يعيش فيه الحى حياته الدنيا ، فإن عالمه الآخر الذى ينقلب إليه لايبقى فيه شىءٌ من هذه الأجرام .

٢ ـ (وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) :

أى : انتثرت وتساقطت ، كقوله تعالى : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ »[1] فذهب نورها ، وانمحى لألاؤها .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط فى الأرض ، أو تغيرت وانطمس ضوؤها لما غشيها من كدرة وسواد .

---

(١) الانفطار ، الآية رقم ٢

٣ ـ (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) :

أى : اقتلعت وأبعدت عن أماكنها بالرجفة الأولى التى تنشق لها الأرض ، وتضمحل ، وتتزلزل زلزالا شديدًا ، فتتقطع أوصالها ، وتنفصل منها جبالها ، وقيل : تسير مقذوفة فى الفضاء ، وقد تمر على الرءوس مع السحاب .

٤ ـ (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) :

أى : أهملت وسيبت ، وتركها أهلها بلا راع ، تسير حيث تشاء مع أنها أنفس أموالهم وأكرمها ؛ وذلك لاشتغالهم بأنفسهم لشدة الكرب ، وعظم الهول ، وقيل : العشار من من السحائب فإن العرب تشبهها بالحوامل . ومنه قوله تعالى : « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا »[١] وتعطيلها عدم إمطارها ، وقال القرطبى : الكلام على التمثيل ؛ إذ لا عشار حينئذ . والمعنى : أنه لو كانت عشار لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم .

٥ ـ (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) :

أى : جمعت من كل ناحية كما قال تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[٢] قال ابن عباس : حشرها : موتها وهلاكها . وقال قتادة : يحشر كل شىء حتى الذباب للقصاص ، فإذا قضى بينها ردت تراباً . وقال حجة الإسلام الغزالى وجماعة : إنه لايحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفاً ولا أهلا للكرامة بوجه ، وليس فى هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليه يدل على حشر غيرهما ، ويقول الآلوسى : وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول وهو حشر الجميع لأن لهم مايصلح مستندًا فى الجملة ، ويشير بذلك إلى الحديث الذى أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة فى هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة

(١) الذاريات ، الآية : ٢

(٢) الأنعام ، الآية : ٣٨

القرناء » وزاد أحمد بن حنبل : « حتى الذرة من الذرة » ويقول ، حجة الإسلام وجماعة : الحديث المروى عن مسلم والترمذى وإن كان صحيحاً إلا أنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام .

٦ ـ (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) :

أى : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى يكون ملحها وعذبها بحرًا واحدًا ، من سَجَرَ التنور : إذا ملأهُ بالحطب ليوقده ، وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل عليها الدَّبُور فتسعرها وتصير نارًا تتأجج لتعذيب أهل النار ، وقيل : أحميت بالنار حتى تبخر ماؤها وظهرت النَّار فى مكانها ، وقريب من هذا قول الضحاك وقتاده : غاص ماؤها فذهب ولم يبق منه قطر ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى مُلكت وقيد اضطرابها حتى لايخرج عن الأرض من الهول ، وأنسب المعانى لمقام الوعيد قول ابن عباس وغير واحد .

٧ ـ (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) :

أى : قرنت كل نفس بشكلها : الصالح منها مع الصالح فى الجنة ، والطالح مع الطالح فى النَّار ؛ أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن النعمان بن بشير عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن ذلك فقال : يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وقيل : تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل : تقرن كل نفس بكتابها . وقيل : الأزواج بأزواجهم .

وقيل : بعملها . وأيًّا ما كان فالنفس بمعنى الذات ، والتزويج بمعنى الاقتران ، ويحصل الاقتران عند البعث .

٨ ، ٩ ـ (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) :

كان من عادات بعض العرب الفاشية فيهم . أنه إذا ولد لأحدهم بنت وأراد أن يستحييها ولا يقتلها أمسكها مهانة لها واستخفافا بها إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من

صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى له إبله وغنمه ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية[1] فيقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها[2] ، وقد حفر لها بئرًا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول : انظرى فيها ، فيدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض ، وقيل : كانت الحامل إذا أوشكت على الوضع حفرت حفرة ، فتمخض على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها فيها ، وإن ولدت ابناً حسبته .

وكان الدافع لهم على تلك الجريمة الشنعاء ، التى اقترفوا إثمها ، وباءوا بقبحها ، الدافع لهم خشية الإملاق ، وخوف الاسترقاق لهن ، وإنها لقسوة شديدة وغلظة بالغة ، زينت لهم دفن فلذات أكبادهم أحياء ، وهن ينظرن إليهم نظرة ضراعة واستعطاف ، ولكن هيهات للقلوب المتحجرة أن تلين ، واستمروا مستمسكين بفعلتهم المنكرة إلى أن جاء الإسلام فاقتلع عن قلوبهم بذور الشر والطغيان وملأها رأفة ورحمة . فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها .

(سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) :

توجيه السؤال لها دون وائدها مع أنه مقترف الذنب . لتسليتها ، وإظهار كمال الغيظ منه والسخط عليه بإسقاطه عن درجة الخطاب مبالغة فى تبكيته ، فإن المجنى عليه إذا سئل بمحضر الجانى عن الذنب الذى من أجله استحق هذه الجناية والعقاب الذى نزل به ، كان ذلك باعثاً للجانى على التفكير فى حال نفسه ، وحال المجنى عليه ، فيرى براءة ساحة المجنى عليه وأنه هو المستحق للعقاب ، وهذا نوع من الاستدراج وقع عن طريق التعويض .

وسؤال الموءودة عن سبب القتل هو سؤال تلطف ، لتقول : قتلت بلا ذنب ، أو لتدل على قاتلها ، أو لتوبيخ ذلك القاتل بصرف الخطاب عنه تهديدًا له ، فإذا سئل المظلوم فما بال الظالم ؟ !

---

(١) سداسية ، أى : بلغت ست سنوات .

(٢) أقارب الزوج أو الزوجة .

قال ابن عباس : أطفال المشركين فى الجنة فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله - عز وجل - : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) - ا هـ .

١٠ - (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) :

أى : وإذا فتحت صحف الأعمال ؛ لأن صحيفة كل إنسان تطوى عند موته ثم تنشر عند الحساب ، فيعطى صحيفته بيمينه أو شماله وفق عمله الذى سجلته عليه الملائكة ، وقيل : نشرت ، أى : فرقت بين أصحابها ، وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم ، أى : مكتوب فيها ذلك ، وهى صحف غير صحف الأعمال . كذا قيل .

١١ - (وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ) :

أى : قطعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشىء المستور به .

١٢ - (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) :

أى : أوقدت إيقادًا شديدًا للكفار ، قال قتادة : سعرها غضب الله ، وخطايا بنى آدم .

١٣ - (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) :

أى : أدنيت وقربت من المتقين ، كقوله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ »[1] .

١٤ - (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) :

أى : تبين لكل نفس جميع ما عملته من خير وشر وذلك بإحضار تلك الأعمال مدونة فى الصحف ويراد من إحضارها : اطلاع صاحبها عليها مفصلة فى صحفها بحيث لا يشذ

---

(١) سورة ق ، الآية رقم ٣١

منها شيء ، كما ينبىء عنه قوله - تعالى - حكاية عنهم : « مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »(١) .

وقد يراد من إحضارها أنها تشاهدها على ما هى عليه فى الحقيقة ، فإن كانت صالحة على صورة أحسن مما كانت تدركها فى الدنيا ؛ لأن الطاعات لا تخلو فيها من نوع مشقة ، وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت عندها فى الدنيا فإنها كانت مزينة لها موافقة لهواها .

والآية جواب (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) وما عطف عليها ، على أن المراد بها زمان ممتد يسع ما فى سياقها وسياق ما عطف عليها من الخصال مبدؤه النفخة الأُولى ، ومنتهاه فصل الخطاب بين الخلائق ، بمعنى أن علمها بما عملته وقع فى جزء من هذا الزمن وهو وقت نشر الصحف ، وإنما نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كل هذه الدواهى تهويلا للخَطْبِ ، وتفظيعاً للحال .

ونسب الإحضار إلى النفس ، مع أنها تحضر بأمر الله - تعالى - كما يؤذن به قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ »(٢) لأنها لما عملتها فى الدنيا ، فكأنها أحضرتها فى الموقف .

وجوز أن يكون التعبير بقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ ...) بالتنكير ... الآية ؛ للإشعار بأنه إذا علمت نفس من النفوس ما أحضرت عند قيام الساعة ، وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى التى عملت ، أى : إن العاقل يجب عليه أن يتجنب أمراً يخشى منه الندم والمؤاخذة .

---

(١) الكهف ، من الآية رقم : ٤٩

(٢) آل عمران ، من الآية رقم : ٣٠

(فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(الْخُنَّسِ) : جمع خانس . من خنس : إذا رجع . بينما ترى النجم فى آخر البرج ، إذْ كرَّ راجعاً إلى أوله ، وقيل الخنوس : الانقباض والاستخفاء ، لأن هذه النجوم عند طلوعها يكون ضوؤُها خافتاً ، يقال خنس إبهامه : كنصر وضرب ، خنوساً : قبضه .

(الْجَوَارِى) : جمع جارية ، وهى النجوم السيارة ، من الجرى وهو المر السريع .

(الْكُنَّسِ) : جمع كانس وكانسة ، وهى التى تستتر وتغيب تحت ضوءِ الشمس ، يقال : كنس الظبى : دخل كناسه ، وهى مستترة فى الشجر الذى يأوى إليه .

(عَسْعَسَ) : أقبل ظلامه أو أدبر ، والمعنيَان مأثوران .

(تَنَفَّسَ) : أقبل وأضاء .

(لَقَوْلُ رَسُولٍ) الرسول : جبريل – عليه السلام – وقوله : تبليغه .

(بِضَنِينٍ) بكسر الضاد وفتحها – أى : ليس ببخيل ، بمعنى أنه لايبخل بالوحى ، ولا يقصِّر فى التبليغ والمراد به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

(رَجِيمٍ) أى : مطرود من رحمة الله ، من الرجم : وهو الطرد ، أو مرجوم بالشهب ، أى : أنه ليس بعض المسترقة للسمع .

التفسير

١٥ ، ١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) :

شروع فى بيان شأن القرآن العظيم ، والنبوة الخاتمة ، بعد إثبات المعاد .

والمعنى : أنه - سبحانه - أقسم قسماً مؤكدًا على صدق القرآن ، وصحة رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - فقال : (فَلَا أُقْسِمُ) وهى عبارة من عبارات العرب يراد بها تأكيد الخبر وتقريره ، كأنه فى ثبوته وظهوره لايحتاج إلى قسم ، ويقال : إنه يؤتى بكلمة « لا » فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به .

(بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) وهى النجوم الجوارى التى تخنس بالنهار ، أى : ترجع ، ويختفى ضوؤُها فيه عن الأبصار مع طلوعها وكونها فوق الأفق ، وتكنس بعد ظهورها فى الليل ، أى : تستتر فى مغيبها ، وتختفى فيه ، فتكون تحت الأُفق بعد أن كانت فوْقه . كما تستتر الظباءُ فى كُنُسِهَا ، وهى مُسْتَتَرهَا فى الشجر الذى تأْوى إليه ، فخنوس تلك النجوم : رجوعها وخفاؤُها بحسب الرؤية ، وكنوسها : دخولها فى المغيب بعد ظهورها نهارًا . قال القرطبى : النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وتكنس وقت غروبها ، أى : تستتر .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الأمير - كرم الله وجهه - أنه قال : هى خمسة أنجم : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، وصفت بما ذكر فى الآية لأنها تجرى وتسير مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، وتسمى المتحيرة لاختلاف أحوالها ، وعن ابن مسعود : أنها بقر الوحش ، وأخرج نحوه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، وعبد بن حميد ، وروى ذلك أيضاً عن ابن جرير والضحاك قالوا : الخَنَس تأخر الأنف مع ارتفاع قليل من الأرنبة وتوصف به بقر الوحش والظباء .

وإنما أقسم - تعالى - بالخنس الجوارى الكنس لدلالتها بهذه الأحوال المختلفة ، والحركات المنسقة على عظيم قدرة مبدعها ومصرفها - عز شأنه - وإرشاد تلك الحركات على ما فى الكون من بديع الصنع ، وإحكام النظام .

١٧ ، ١٨ - (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) :

عطف على القسم السابق ، أى : لا أقسم بعظمة الليل إذا أقبل ظلامه أو أدبر ، فكلمة « عَسْعَسَ » من الأضداد ، قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى (عَسْعَسَ اللَّيْلُ) : أدبر وقيل : هى لغة قريش ، وقيل المعنى : أقبل ظلامه ، وذلك أوفق للآية التالية ، لما بين إقبال الليل وتنفس الصبح من المناسبة ، (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أى : لا أقسم كذلك بعظمة الصبح إذا تبلج وأضاء ، وامتدَّ حتى صار نهارًا بيِّنا أزال غمة الظلام التى كانت تغمر الأحياء فاستقبلوا يومهم مستبشرين بحياة جديدة فى يوم جديد .

والتعبير بقوله سبحانه : (تَنَفَّسَ) لأن الصبح إذا أقبل : أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ما يصاحبه نفساً له على المجاز .

١٩ - ٢١ - (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) :

ذلك جواب القسم وهو المقسم عليه المراد توكيده وتقريره ، أى : إن هذا القرآن العظيم الناطق بما ذكر من العظائم الهائلة ، (لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) كرمه الله وعظمه ، وهو جبريل - عليه السلام - كما قال ابن عباس وقتادة والجمهور ، وقد قاله من جهة ربه - سبحانه وتعالى - وإنما أسند قوله إليه ، لأنه حامله إلى النبى - ﷺ - وناقله إليه من مرسله - عز وجل - (ذِى قُوَّةٍ) أى : قدرة على ما يكلف به لا يعجز ولايضعف ، كما قال - سبحانه - فى سورة النجم : « شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ » بمعنى أنه مع قوته يتصف بالحصافة فى العقل والرأى .

جاء فى قوته أنه - عليه السلام - بعث إلى مدائن لوط ، وهى أربع مدائن ، فى كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى ، فحملها بمن فيها من الأرض السفلى ، ثم هوى

بها فأهلكها ، وقيل المراد : القوة فى أداء الطاعة لله - تعالى - وترك الإخلال بها . (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) أى : له مكانة رفيعة ، ومنزلة سامية ، وشرف عظيم عند صاحب العرش - جل شأنه - والعندية عندية تشريف وإكرام لاعندية مكان ، ولما كانت حال المكانة على حسب حال المكين قال - سبحانه - : (عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ) ليدل على عظم منزلته ومكانته بما لايدع مجالا لشك أو مماراة (مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أى : مطاع هنالك فى العالم الإلهى بين الملائكة المقربين - عليهم السلام - يصدرون عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه ، وهو أمين على الوحى ، لا يزيد فيه ، ولا ينقص مما أمر بتبليغه ، وفى رواية عنه - عليه السلام - قال : « أمانتى أنى لم أومَرْ بشىْء فَعَدَوْتُهُ إلى غيره »

٢٢ - (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) :

صاحبهم هو نبينا ﷺ نفى الله عنه الوصف بالجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عند ما يسمع منه غريب الخبر عن اليوم الآخر وغيره من مواضع العبر مما لم يكن معروفاً عندهم ، ولا مألوفاً لعقولهم ، والتعبير عنه بصاحبكم أبلغ فى الاستدلال عليهم ، فإنه ﷺ نشأ بينهم من صغره إلى كبره ، وما عرفوا منه إلا كمال العقل ، والتبريز فى الفضل ، وأنه أكملهم وصفاً وأصفاهم ذهناً ، فكيف يوصف بالجنون عندما تأتيه الرسالة من ربه ؟ ولا يصفه بذلك إلا من سفه نفسه وتملكه الحمق والجنون .

٢٣ - (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) :

أى : وبالله إن محمدًا ﷺ قد رأى جبريل - عليه السلام - بالأفق الأعلى الواضح المُظْهِر لما يُرى فيه[1] من جهة المشرق كما روى عن الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان ، وهى الرؤية الأولى بمكة ، الواقعة فى غار حراء ، رآه بالصورة التى خلقه الله عليها ، وعن مجاهد أنه ﷺ رآه نحو جياد وهو مشرق مكة ، وقيل غير ذلك .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى الآية : رآه بصورته عند سدرة المنتهى ، والأفق - على هذا - بمعنى الناحية ، أى : ناحيتها .

---

(١) الأفق بالضم وبضمتين : الناحية ، والجمع : آفاق . اهـ : قاموس .

٢٤ - (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) :

أى : وما رسول الله ﷺ ببخيل بما يأتيه من الوحى ، ولا بمقصر فى تبليغه لكم وتعليمكم إياه .

وسمى الوحى غيباً ، لأنه لا يعرفه ، ولا يعلم حقيقته من البشر إلا الذى يوحى إليه ، أو المعنى أنه ﷺ ليس بمتهم على الغيب ، بل هو صادق فى كل ما أخبر به عن الله تعالى – وكما لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن جبريل – عليه السلام – وذلك على قراءة بظنين .

٢٥ - (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) :

أى : ليس القرآن المنزل على محمد ﷺ بقول شيطان مسترق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا إنه كهانة ، ولا يتأتى أن يكون كذلك ، لأن صاحبكم قد عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب ، فلا يكون ما يحدثكم به من أخبار الآخرة ، ومن الشرائع والأحكام قول شيطان رجيم ؛ قال تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »(١) .

٢٦ - (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) :

يتهمهم بالضلال واعتبارهم ضلالا فيما يسلكونه فى أمر القرآن العظيم ، أى : فأى مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة بوضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وأحاط بكم الحق من كل جوانبكم ، وذلك كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً فى بنيات(٢) الطريق : هذا الطريق الواضح ، فأين تذهب؟ ! مثلت حالهم فى تركهم الحق مع وضوحه وظهوره ، وعدولهم عنه إلى الباطل مع قبحه ومقته ، بحالة من ارتكب شططاً فى سيره .وقيل : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه من عند الله

---

(١) الشعراء ، الآيات : ٢١٠ – ٢١٢

(٢) وهى الطرق الصغيرة المتفرعة المتشعبة من الجادة .

عز وجل - كما قال الصديق - رضى الله عنه - لوفد بنى حنيفة حين قدموا مُسْلِمِين ، وأمرهم فَتَلَوْا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة .فقال : ويحكم أين يذهب بعقولكم ؟ ! والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله . وقال قتادة : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) أى : عن كتاب الله وعن طاعته ، وقال الزجاج : معناه : فأى طريق تسلكونه أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ، وقال الجنيد : فأين تذهبون عنا وإن من شىء إلاَّ عندنا .

٢٧ ، ٢٨ - (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) :

أى : ماهذا القرآن إلاَّ ذكر لجميع الناس يتذكرون به ما وقر فى قلوبهم من الميل إلى الخير ، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من أنواع السوء التى تحدثها أمراض التقلب فى الحياة (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) بدل من العالمين ، أى : إنه ذكر يتذكر به من وجَّه إرادته للاستقامة على الجادة الواضحة ، بملازمة الحق والعدل ، وتحرى الصواب ، وأما من صرف نفسه عن ذلك ولم يرد إلاَّ الاعوجاج والانحراف ، فذلك الذكرُ لا يؤثر فيه ، ولا يخرجه عن غفلته . هذا ، وقد فرض الله على المكلف أن يوجه فكره نحو الحق ليطلبه وأن يحفز عزمه إلى الخير ليكسبه .

٢٩ - (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّا أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

روى عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة أنه لما نزلت (لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) قال أبو جهل : جعل الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : (وَمَا تَشَآءُونَ ...) الآية .

أى : وما تشاءون الاستقامة مشيئة نافعة لسبب من الأسباب ، أو فى وقت من الأوقات إلا أن يشاء الله تلك المشيئة المستتبعة للاستقامة ، فإن مشيئتكم لا تستتبع الاستقامة بدون مشيئة الله تعالى ، فهو سبحانه خلق العبد وأحاط علمه بكل ما يصدر عنه ويضمره من خير وشر . واستقامة وضلال وفق اختياره ، وبدافع من مشيئته واستعداده ، فإن فعل

بسبب ذلك خيرًا أعانه الله عليه ، وإن كان شرًّا لم يُعِنْهُ وتركه للشياطين يضلونه ، ولهواه يتحكم فيه ، ولهذا يكون مسئولا عن كل مايفعله لأنه فعله مختارًا حسب استعداده الذى عَلِمَهُ الله فيه عند خلقه ، كما قال تعالى : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وهو سبحانه : (رَبُّ الْعَالَمِينَ) أى : مالك الخلق ومربيهم ، ومانحهم كل ما يتمتعون به من القوى والقُدَرِ ، وصاحب السلطان عليهم ، تبارك اسمه ، وعلا علوًّا كبيرًا ، والله أعلم.

(١) سورة الملك ، الآية : ١٤

سورة الانفطار

هى سورة مكية وآياتها تسع عشرة آية

صلتها بما قبلها :

هذه السورة الكريمة تتفق مع السورة التى قبلها وهى سورة التكوير فى أن كلا منهما تتحدث عمّا يصيب الكون من تغيّر وتبدّل قبيل القيامة ، ففى التكوير يأتى قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله - جل شأنه : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ » وفى سورتنا هذه يجىء قوله - عز من قائل - : (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) فهدف السورتين يكاد يكون متفقاً على غرض واحد : وهو بيان ما يحدث قبيل يوم القيامة من أحوال عظام وأحداث جسام .

بعض مقاصد السورة :

١ - تحدثت السورة فى أولها عما يحدث عند قيام الساعة من انفطار السماء وتشققها ، وانتثار الكواكب وتفرقها ، وانتزاعها من أماكنها ، وتفجير البحار وامتزاج مياهها وتفرقها فى جنبات الأرض ، وإزالة ما بينها من البرازخ والحواجز ، ثم بعثرة القبور وإخراج ما فيها من الأموات وقد عادت لهم الحياة ، وما يعقب ذلك من حشر وحساب وجزاء (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) إلى قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) .

٢ - ثم تذكر السورة الكريمة اغترار الإنسان وانخداعه بإمهال الله له وترك عقابه على ما يبدر منه من شرك ومعاص حيث لا يقر له بنعمة ، ولا يعرف له - سبحانه - حقه فى إفراده بالوحدانية ، بل يصير كنودًا جحودًا لنعم الله عليه : (يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) ثم يوضح ويبين - سبحانه - سبب هذا الجحود والكفران وأنه هو التكذيب وعدم الإقرار بيوم القيامة ، أو بالإسلام فيقول : (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) .

٣ ـ ثم بعد ذلك قسمت النّاس إلى طائعين أبرار ، وإلى عاصين فجار ، وبينت مآل وعاقبة كل فريق منهم : (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) .

وكانت نهاية السورة فى عرض أهوال اليوم الآخر : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) ، ثم ختمت بأن الملك له وحده ، وأن الأمر أمره ، فليس لأحد فى هذا اليوم حكم ولا أمر : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(انفَطَرَتْ) : تشققت وتصدعت .

(انتَثَرَتْ) : تساقطت متفرقة .

(فُجِّرَتْ) : من الفَجْرِ : وهو شق الشيء شقاً واسعاً ، والمراد : فتح بعضها على بعض فاختلط العذب بالملح .

التفسير

١ ـ ٥ ـ (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) :

أى : إذا السماء انشقت وتصدعت وصارت أبواباً وذلك لنزول الملائكة ، وإذا الكواكب تساقطت متفرقة منتثرة كجواهر ولآلىء قطع سلكها وبتر خيطها ، وإذا البحار فتحت وشقت جوانبها وزال ما بينها من الحواجز والبرازخ واختلط ماؤها العذب بمائها الملح الأجاج حتى صارت بحرًا واحدًا ثم تنشف الأرض جميعاً وتجف وتيبس فتصير بلا ماء ويقضى على أسباب الحياة فيها ، وإذا القبور قلب ترابها وصار أعلاها أسفلها ، وأخرج مَنْ دفن فيها (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) هذا جواب (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) وما عطف عليه ، أى : إذا حصل هذا علمت كل نفس مكلفة علماً تفصيليا عند نشر صحف أعمالها ما قدمته من عمل خير أو شر ، وما أخَّرته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعد ذلك ، أو ما قدمته من أموال لنفسها مما أنفقته فى سبيل الله ، وما أخرته وتركته لورثتها يستمتعون به وينتفعون وتحاسب هى عليه ، أما العلم الإجمالى لذلك فإنه يحصل قبل ذلك ؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاء فى أول الأمر .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) : ما خدعك وجرَّأك على عصيان ربِّك .

(فَسَوَّاكَ) : فجعل أعضاءك سويَّة سليمة مهيأة لمنافعها .

(فَعَدَلَكَ) : فساوى بين أعضائك فلم تتفاوت فى طول أو قصر . أو لون أو شكل . من : عدل فلاناً بفلان : إذا ساوى بينهما ، وقيل غير ذلك وسيأتى .

(فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) : وضعك وجعلك فى أى صورة اقتضتها مشيئته .

التفسير

٦ ، ٧ ، ٨ - ﴿ يَآأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ :

هذا النداء للكافر الذى جحد بربه ، أو هو عام يشمل العصاة أيضاً ، أى : أى شىء خدعك وسوّل لك وجرأك على عصيان الله والمخالفة عن أمره ، وقد رباك بنعمه ورعاك بكرمه فى جميع أطوارك ومختلف أحوالك ، فجعلك خليفة فى أرضه ، وميزك بالعقل والتكليف وحمّلك الأمانة التى أشفقت السمٰوات والأرض والجبال من حملها ، وسخّر لك ما فى السمٰوات وما فى الأرض جميعاً منه ثم كان منك أن أعمتك النعمة وشغلتك عن المنعم حتى جحدته وكذبت رسوله ، والأجدر بك أن تقابل الإحسان بالطاعة ، والنعم بالشكر ، فالغرور أمارة الحمق وآية الجهل ، روى أن النبىّ ﷺ قرأ هذه الآية : « يَآأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ فقال : « غره الجهل » ، وقاله عمر - رضى الله عنه - أيضاً وقرأ : « إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » .

﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ : هذه صفات مقررة للربوبية مبينة وموضحة لكرم الله على الإنسان ، مشيرة إلى أن ما كذبوا به من البعث والجزاء هو حق ثابت ؛ لأن من قدر على الخلق بدءاً كان أقدر عليه إعادة ، والتسوية : جعل الأعضاء سليمة سوّية معدّة لقيامها بمهامها وأدائها لمنافعها على وفق حكمته - تعالى - ومشيئته . قال ذو النون : سواك ، أى : سخّر لك المكونات أجمع ، وما جعلك مُسَخَّرًا لشىء منها . ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل ، وروحك بالمعرفة ، وسرك بالإيمان ، وشرفك بالأمر والنهى ، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : فعدل أعضاءك ببعضها حتى اعتدلت وتساوت من غير تفاوت ، فلم يجعل إحدى اليدين أو الرجلين أطول ، ولا إحدى العينين أو الأذنين أو المنخرين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، بل لقد تم التناسق والتناسب بينها فى كمال إبداع ، وعظيم إحكام ، أو صرفك عن خلقة غير ملائمة لك إلى خلقة مستوية مستقيمة لا منكسة كالبهائم ، وجعلك تتناول طعامك بيدك ، وأكرمك بأمور كثيرة

ونعم عديدة : « وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا »[1] أو صرفك عن خلقة غيرك وجعلك على صورة وخلقة حسنة مفارقة لسائر الخلائق .

هذا وإن تفاوت النّاس فى الحسن مما يدل على كمال اقتدار الله – سبحانه – وعظيم إبداعه .

(فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ) أى : خلقك وكوّنكَ وجعلك فى أى صورة من الصور التى اقتضتها مشيئته ، وأرادتها حكمته من الصور المختلفة فى الحسن ، والذكورة والأنوثة ، والطول والقصر ، وغير ذلك من الصفات التى تتفاوت الناس فيها ، أو ركبك ماشاء من التراكيب تركيبا حسنا .

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(كَلاَّ) : ردع وزجر وإبطال لقول من يقول .

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) : وإن عليكم من الملائكة لمحصين رقباء لأعمالكم لا يفوتهم منها شىءٌ .

(كِرَاماً) : ذوى أفعال ظاهرة محمودة ومحاسن كبيرة .

التفسير

٩ – (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) :

(كَلاَّ) حرف للردع والزجر ، أى : انزجروا وارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتعلق به وجعله وسيلة وذريعة إلى الكفر والعصيان مع كونه موجباً للشكر والطاعة ، ومانعاً من

(١) سورة إبراهيم ، من الآية ٣٤ .

الفسوق والتمرد وذلك عند ذوى الفطر السليمة ، والطبائع المستقيمة أما أن تكون عاقبة ومآل إكرام الله لكم هو النكران والجحود فذلك آية على دنس النفس ، وخبث الطوية ، وسوء السريرة ، ولؤم الطبع ، وانحطاط الهمة ، ولله در القائل :

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

هذا ، وقد روى أن أمير المؤمنين عليَّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ دعا غلاماً له مرات فلم يجبه ، فنظر أمير المؤمنين فإذا الغلام بالباب ، فقال له : لِمَ لَمْ تُجِبنى ؟ فقال الغلام : لثقتى بحلمك ، وأمنى من عقوبتك . فاستحسن جوابه وأعتقه . ونقول : إن أغلب الظن أن أمير المؤمنين لم يستحسن جوابه وإنما أعتقه للؤمه وخسة طبعه ، ولعله ـ كرم الله وجهه ـ أعتقه رغبة عن معاشرة من يقابل الإحسان بالكفران؛ إذ الطبائع السليمة والفطر المستقيمة يأسرها المعروف ، ويملكها ويأخذ بأعناقها إسداء الخير وجميل الفعل .

(بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) : الكلام يشير إلى أن هنا جملة مقدرة ، كأنه قيل : وأنتم لاترتدعون ولا تنزجرون عن الاغترار بكرم الله ، بل تجترئون وتسرعون بالهجوم على ارتكاب ماهو أشد منه وأعظم جرماً حيث تكذبون بالجزاء والبعث ، وفيه من الترقى والانتقال من الأهون ـ وهو الغرور ـ إلى ما هو أفظع وأغلظ وهو التكذيب ، أى : أنهم تجاوزوا الغرور إلى ما هو أدهى منه وأمرّ .

وقال الراغب : (بَلْ) هنا لتصحيح الثانى ـ وهو تكذيبهم بالجزاء والحساب ـ وإبطال الأول ـ وهو الاغترار بكرم الله ـ كأنه قيل : ليس هنا مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم حملهم على ما ارتكبوه .

١٠ ـ (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) :

أى : تكذبون وتجحدون بالجزاء يوم القيامة والشأن والحال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم لايغادرون صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصوها عليكم .

١١ - (كِرَاماً كَاتِبِينَ) :

أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة كرام لدينا ذوو محاسن كبيرة ومنزلة عظيمة ومكانة رفيعة ، وهم يكتبون كل ما يصدر منكم ويسطرونه فى صحائف أعمالكم .

وفى تعظيم الله لهؤلاء الكرام الكاتبين بالثناء عليهم تعظيم وتفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأعمال ؛ حيث استعمل هؤلاء الكرام لديه - تعالى - فى ضبط وإحصاء ما يحاسب الناس عليه ، وحقاً :

إن العظائمَ كُفْؤُها العظماء .

وقال الإمام الآلوسى نقلا عن المهدوى : « ومن يكتب الأعمال ملكان : كاتب الحسنات وهو على المشهور على العاتق[1] الأيمن ، وكاتب ما سواها وهو على العاتق الأيسر ، والأول أمين على الثانى فلا يمكنه من كتابة السيئة إلا بعد مضى ست ساعات من غير مكفر لها ، ويكتبان كل شىء حتى الاعتقاد والعزم ، وحتى الأنين فى المرض ، وكذا يكتبان حسنات الصبى على الصحيح ، ويفارقان المكلف عند الجماع ، ولايدخلان مع العبد الخلاء ، أخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ يَنهَاكُم عن التَّعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل » .

١٢ - (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) :

من الأفعال قلَّ أو كثر ، دق أو عظم ، وليس ذلك إلا للجزاء وإقامة الحجة على الناس ، وإلا كان عبثاً يُنَزَّهُ ويُقَدس عنه - جل شأنه - .

---

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، والمنكب : مجمع عظم العضد والكتف .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(الْأَبْرَارَ) : جمع بار ، مشتق من البر : وهو التوسع فى عمل الخير .

(لَفِى نَعِيمٍ) النعيم فى الأصل : النعمة الكثيرة ، والمراد هنا : الجنة لما فيها من ضروب النعم .

(الْفُجَّارَ) : جمع فاجر : وهو من شق ستر الدين وجاهر بالعصيان . من الفَجْرِ : وهو شق الشيء شقاً واسعاً .

(لَفِى جَحِيمٍ) الجحيم : مأخوذ من الجحمة : وهى شدة تأجج النَّار ، والمراد به هنا : النَّار فى الآخرة .

(يَصْلَوْنَهَا) : يقاسون حرها ، أو يدخلونها .

التفسير

١٣ ـ (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ) :

الأبرار : مشتق من البر ، وهو التوسع فى فعل الخير وأداء الطاعات ، وفى سنامها وقمتها طاعة الله ورسوله ، ثم بر الوالدين ، وقد روى أن رسول الله ﷺ سئل عن البر ؟ فتلا قوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

إلى قوله تعالى : « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[1] فهؤلاء الأبرار الطائعون الأخيار يشملهم الله برضوانه ويدخلهم فى نعيمه وجناته ، ويقيهم عذابه ، ويحفظهم من سخطه وعقابه .

١٤ – (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ) :

أى : وإن الفجرة الذين شقوا وهتكوا ستر الدين ، وجاهروا الله بالمعاصى ولم يستحيوا منه – سبحانه – إن هؤلاء لمحاطون بالنار تضمهم وتشملهم وقد اشتد تأججها وعَظُمَ لهيبها .

١٥ – (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ) :

أى : يدخلونها ويقاسون حرها ولظاها يوم الجزاء والحساب الذى كانوا به يكذبون.

١٦ – (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ) :

هذه الآية الكريمة قد جاءت قطعاً لرجاء الفجار وتيئيسا لهم من أن ينقطع عنهم العذاب ، أن ينالوا برد الراحة ، أى : أنهم ليسوا بمنأى عن النار وعذابها طرفة عين ، وهو كقوله تعالى : « وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا »[2] وذلك للدلالة على سرمدية العذاب ودوامه . وقيل معناه : وما كانوا غائبين عن النار قبل ذلك بالكلية ، بل كانوا يجدون سَمومها ولَفْحها ولظاها فى قبورهم ، يدل على ذلك قوله ﷺ :« القبرُ روضةٌ من رياض الجنة أو حُفْرةٌ من حُفَر النار » .

وفى تنكير النعيم والجحيم ما يشير إلى التفخيم والتعظيم فى شأن نعيم الأبرار ، وإلى التهويل والتبشيع فى حق عذاب الفجار . قيل : أخبر الله فى هذه السورة أن لابن آدم ثلاث حالات : حال الحياة التى يحفظ فيها عمله ، وهى حالته فى الدنيا ، وحال الآخرة التى يجازى فيها ، وحال البرزخ وهو قوله تعالى :(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ).

---

(١) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣٧ من سورة المائدة .

١٧ - ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ :

هذا تفخيم وتعجيب وتعظيم لشأن يوم الجزاء وتهويل له ، أى : ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شيء هو فى شدته وهوله ؟

١٨ - ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ :

ذلك تفخيم لهذا اليوم إثر تفخيم وتعجيب منه بعد تعجيب أى : إن أمره لعجيب ، وشأنه لعظيم بحيث لا يستطيع أحد أن يدرك حقيقته أو يقف على كنهه لهوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

قال ابن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ ﴾ فقد أدراه للرسول ، وكل شيء من قوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فقد طوى عنه .

١٩ - ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ :

أى : فى ذلك اليوم وهو ما هو من الشدة والهول لا يملك ولا يستطيع أحد أن يجلب لغيره نفعاً أو يدفع عنه ضرًّا ، بخلاف ما كان عليه الحال فى الدنيا ؛ فإن أهلها كانوا يتغلبون على الملك ، ويعين بعضهم بعضاً ، ويحمى بعضهم بعضاً ، فإذا كانت القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياستهم ، فلا يحمى أحدٌ أحدًا ، ولا يغنى عنه شيئاً ولا يتغلب أحد على ملك غيره ، وهنا وعيد عظيم وتخويف شديد حيث عرفهم أنه لايغنى عنهم إلا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان يغنى عنهم فى الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء ، فالأمر كله فى هذا اليوم لله وحده ، فقد انقطعت الأسباب وذهبت الوسائل ، وزالت الأغيار ، والله وحده هو صاحب الملك والسلطان ، وذلك كقوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [1] » وقال قتادة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ قال : والأمر - والله - اليوم لله - يريد فى الآخرة - وقال الواحدى : والمعنى أن الله - تعالى - لم يملِّكْ فى ذلك اليوم أحدًا شيئاً من الأمور كما ملكهم فى دار الدنيا .

(١) سورة غافر من الآية ١٦

هذا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « يا بَنِى عبدِ المطلبِ اشتروا أنفسَكم مِن اللهِ ، يا صفيةَ عمةِ رسول الله ، يا فاطمةَ بنت رسول الله اشترِيا أنفسَكما من اللهِ لا أُغنى عنكما من اللهِ شيئاً ، سَلاَنِى من مالى ما شئتما » وصدق الله ورسوله .

سورة المطففين

مكية وآياتها ست وثلاثون آية

صلة هذه السورة بما قبلها :

أنها تنذر بالويل والثبور والعذاب بالنار فى الآخرة ، وتهدد الظالمين الذين ينتقصون حق غيرهم فهى تتلاقى مع السورة قبلها فى وعيد المخالفين الضالين ، كما أنها تبيِّن ما أجملته سورة الانفطار من عذاب الفجار ، وثواب الأبرار .

بعض مقاصد السورة :

١ - جاءت السورة فى أولها مهددة منذرة هؤلاء الذين يجورون ويظلمون سواهم بالاستيلاء على حقهم ، واستلاب أموالهم ضاربين بعقاب الله لهم فى الآخرة عرض الحائط : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ...) إلى قوله : (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) .

٢ - تحدثت السورة عن مآل الفجار ، وأنَّهُمْ سيحاسبون على أعمالهم التى سجلت عليهم فى كتاب قد حفظ فى مكان حريز ضيق فى أسفل جهنم ، لايزاد فيه ولا ينتقص منه ، وأنهم لاينعمون بفضل الله ورحمته ولا يسعدون برؤيته يوم القيامة ، وأنهم مع ذلك يصْلَوْنَ جهنم ويعذبون بعذابها الأليم : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) إلى قوله : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) .

٣ - ثم أتت السورة بنعيم الأبرار الذين جمعوا خصال الخير ، وأبانت سعادتهم فى الآخرة ، وأنهم فى مرضاة ربهم وكرمه : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) إلى قوله : (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) .

٤ - وفى ختام السورة يجيء ويظهر ما يلقاهُ المجرمون من سخرية المؤمنين واستهزائهم بهم جزاء ما كان المجرمون يفعلونه بالمؤمنين فى الدنيا من الإيذاء والسخرية جزاءً وفاقاً :

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) .

سبب نزول السورة :

عن ابن عباس قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس كيلا فأنزل الله – عز وجل – : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣)

المفردات :

(وَيْلٌ) : هلاك وبوار ، أو مقر فى الجحيم .

(لِلْمُطَفِّفِينَ) المطففون : جمع مطفف ، وهو الذى يبخس وينقص فى الكيل والوزن ، وأصله : من الطفيف ، وهو الشيء اليسير .

(يُخْسِرُونَ) : ينقصون ويظلمون غيرهم .

التفسير

١–٣ – (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) :

أى هلاك وبوار ، أو مقر فى النار لهؤلاء الذين إذا أخذوا حقهم من سواهم أخذوه كاملا غير منقوص ، وهم بعملهم هذا يحرصون أن ينالوا حقهم دون حيف أو ظلم من أحد عليهم ،

ولو أدى ذلك إلى أن يحملوهم ويقسروهم على ذلك قسرًا وحملاً ، ومع ذلك فهم فى إيفاء سواهم مافى ذمتهم من حق وما عليهم من تبعة يخسرون غيرهم وينقصونهم ، وينالون من حقهم لديهم ، لا يبرئون ذمتهم ، ولايتحللون من تبعتهم ؛ إذ قد تملكتهم الأثرة واستولى عليهم حبهم لأنفسهم ، وهذا آية جشع نفوسهم ، وتمكن الطمع منهم ، وتسلط الظلم عليهم ، وإلّا لأنصفوا النّاس منهم ، وأقاموا العدل فيهم ، فأعطوهم مثل ما أخذوا منهم وهذا الوعيد بالويل والثبور وإن جاء فى حق البخس والنقص فيما يكال ويوزن إلا أن النص الكريم يتسع ويتناول غير ذلك من سائر الحقوق التى يتداولها الناس فيما بينهم .

قال القشيرى : لفظ المطفف يتناول التطفيف فى الوزن والكيل ، وفى إظهار العيب وإخفائه ، وفى طلب الإنصاف والانتصاف ؛ ويقال : من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة ، والذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه فهو من هذه الجملة ، والفتى من يقضى حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقًّا . اهـ .

وفى التعبير بالمطففين ما يشير إلى أن الذى يطمع فى حق سواه إنما يأخذ حقيرًا وينال تافهاً قليلاً ؛ فالمطفف مأخوذ من الطفيف : وهو النزر القليل ، وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف ؛ لأنه لايكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشىء الطفيف الخفيف .

وروى ابن قاسم عن الإمام مالك أنه قرأ : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) فقال : لا تطفف ولاتَخْلِبْ (لاتخدع) ولكن أرسل وصب عليه صبًّا ، حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تمسك . وقال ابن الماجشون : نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف وقال : « إن البركة فى رأسه » وقال : بلغنى أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديدة .

ولعل السر فى مجىء (عَلَى) بدل (مِنْ) فى قوله تعالى : (إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ) للإشعار والإيذان بأن عملهم هذا فيه إضرار بالمكتال منهم وتحامل عليهم . وقال الفراء : (مِنْ) و (عَلَى) يتعاقبان فى هذا الموضع ؛ فإذا قال : اكتلت عليك ، فإنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك .

هذا ، وقد تهدد الرسول ﷺ وتوعد من يفعلون ذلك والذين يماثلونهم من الفجرة بما رواه ابن عباس عن النبي – عليه الصلاة والسلام – قال : « خمس بخمس ، ما نقضَ قومٌ العهدَ إلَّا سلط اللهُ عليهم عدوَّهم ، وما حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ إلَّا فشا فيهمُ الفقرُ ، ولا ظهرتِ الفاحشةُ فيهم إلا ظهر فيهم الطاعونُ ، ولا طففوا الكيلَ إلَّا مُنعوا النباتَ وأخذوا بالسنين ، ولا مَنعوا الزكاةَ إلَّا حبسَ اللهُ عنهم المطرَ » وقال مالك بن دينار : دخلت على جارٍ قد نزل به الموت فجعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أتَهْجُر ؟ (أتهذى) قال : يا أبا يحيى : كان لى مكيالان أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ، قال مالك : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : يا أبا يحيى : كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما ، فمات من وجعه .

(أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾)

المفــردات :

(أَلَا يَظُنُّ) الظن : هو إدراك الطرف الراجح ، ويراد به هنا : التردد والتخمين ، وقيل غير ذلك .

قال الراغب : الظن : اسم لما يحصل من أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جدًّا لم تتجاوز حد الوهم .

التفسير

٤ – (أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) :

هذا إنكار لفعلهم وتقبيح لصنيعهم وتعجيب عظيم لحالهم فى الاجتراء على التطفيف حتى كأنهم لايخطرونه ببالهم ، ولا يمرونه بخاطرهم ، ولا يظنون ظنا أنهم مبعوثون ومنشورون من قبورهم أحياء فمحاسبون على مقدار الذرة والخردلة ، فالظن والحدس فى

هذا المقام كاف لمنعهم وردعهم عن اقتراف البخس والنقص فى الكيل والوزن أخذًا بالأحوط . ودفعاً لما عساه أن ينالهم من نكال وعقاب جزاء بخسهم ونقصهم ، فما بالهم لو علموا وأيقنوا أنهم ملاقون ربهم فمجازيهم على ما اقترفوه من ظلم وما فعلوه من جرم وإثم .

٥ - (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) :

وهو يوم القيامة ، فعظمه كبير لايقادر قدره ، وقد وصف بذلك لعظم ما فيه من الأهوال والشدائد الجسام .

٦ - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى : يقومون لحكمه وقضائه ولمحض أمره وطاعته لا لشىء آخر ، وروى عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال : « حتى يغيبَ أحدُهم فى رشحهِ إلى أنصاف أُذنَيْه » وقد ورد أنه المراد من قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . وقد روى عن النبى ﷺ : « إنه ليخفَّف عن المؤمنِ حتى يكونَ أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » وهو مروى عن ابن عباس وإسناده صحيح .

والآية تدل على التهديد والوعيد ؛ حيث أبانت أن الناس تقوم لرب العالمين ، والقيام فى هذا اليوم لايكون إلّا مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والخوف والرهبة من جلال الله وغضبه هذا مع وصف نفسه - جل شأنه - بأنه رب العالمين ؛ فهو مالك نواصيهم ، والقاهر فوقهم والمتصرف فيهم تصرفاً تامًّا ولا معقب لحكمه .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(الْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من شق وهتك ستر الدين وتجرأ عليه .

(سِجِّينٍ) : جب فى جهنم ، وقيل : فى حبس وضيق شديد ، فِعِّيل من السجن ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : مكتوب كالرقم فى الثوب لا يمحى ، وقيل غير ذلك .

(مُعْتَدٍ) : فاجر جائر عن الحق .

(أَثِيمٍ) : كثير الإثم منهمك فى الشهوات .

(أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم .

التفسير

٧-٩ – (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) :

(كَلَّا) : ردع وزجر وانتهار لهم ، أى : ارتدعوا وانزجروا عن تطفيف الكيل والوزن ، أو عن التكذيب بالآخرة (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) : هذا تهديد لهم وتأكيد على أن أعمال الفجار وهم من هتكوا ستر الدين وتجرأوا عليه وبارزوا الله وجاهروه بالمعاصى أى : أن أعمال هؤلاء مسطورة ومكتوبة فى شر موضع ، إنها فى جب أسفل الجحيم ، أو فى حبس وضيق شديد ، وكان أمره على هذا النحو للدلالة على خساسة وحقارة منزلتهم ، لأن كتابهم يحل وينزل بسبب الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان ، وقال القشيرى : سِجِّينٍ : موضع فى السافلين يدفن فيه كتاب هؤلاء فلا يظهر ، بل يكون فى ذلك الموضع كالمسجون ، وهذا دليل على خبث أعمالهم ، وتحقير الله إياهم ، ولهذا قال فى كتاب الأبرار : يشهده المقربون (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) أى : مكتوب كالرقم فى الثوب لا ينسى ولا يمحى .

وقال قتادة : مرقوم ، أى : مكتوب رقم لهم بشر لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحدٌ .

١٠ - ١٢ - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) :

أى : هلاك شديد وبوار ثابت لايزول ولا يحول لهؤلاء المكذبين الجاحدين (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وصفهم - سبحانه - وكشف عن حقيقة تكذيبهم ، وبيّن أنهم هم الذين يكذبون بيوم القيامة : يوم الحساب والجزاء (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) جاء سبحانه فى هذه الآية بما يؤكد ذمهم وتجريمهم ، أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل متجاوز حدود النظر والاعتبار بآيات الله المتلوّة والمنظورة ، أوكل من تعدى حدود الله وفجر وجار عن الحق وطرحه وراء ظهره فلم يعمل به ، وكان كثير الإثم عظيم الذنب منهمكا فى شهوات الدنيا الفانية حتى شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية فى الآخرة ، وحملته ودفعته إلى جحدها وإنكارها .

١٣ - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

أى : إذا سمع ذلك الكافر الفاجر كلام الله - تعالى - من رسول الله ﷺ قال - مكذباً - : إنَّ ماتقوله وتتلوه يا محمد هو أكاذيب وخرافات الأوائل سطروها وزخرفوها فى كتبهم نَسَبْتَها زورًا وبهتاناً إلى الله ، فهى ليست منزلة من عنده - سبحانه - .

(كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : غطَّى وغَشَّى قلوبهم ما اقترفوه من الذنوب فلم يهتدوا إلى الحق .

(إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) : إِنَّهُمْ لممنوعون عن رؤْية الله فى الآخرة .

(لَصَالُوا الْجَحِيمِ) : لداخلو النار ، أو لمقاسون حرها وسعيرها .

التفسير

١٤ - (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا وادعوا أن القرآن أساطير وأكاذيب الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله محمد ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذى قد لبس قلوبهم وغطاها من كثرة الذنوب والخطايا ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إنَّ العبدَ إذا أذنبَ ذنباً كانتْ نكتة سَوداء فى قلبهِ ، فإن تابَ صقلَ قَلبه ، فإنْ زادَ زادت » فذلك قول الله - تعالى - : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

١٥ - (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) :

أى : حقًّا إِنَّهُمْ مع ما يلقونه من الضيق الشديد فى سجن مقيم وعذاب أليم هم أيضاً محجوبون وممنوعون من رؤْية ربهم وخالقهم فى الآخرة ، قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله - عزَّ وجل - يُرى فى القيامة ، ولولا ذلك ماكان فى هذه الآية فائدة ، ولا خسَّت[1] منزلة الكفار بأنهم يحجبون ، وقال - جل ثناؤُه - : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[2] فأعلم الله - جل ثناؤُه - أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه .

وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى

---

(١) خس الشئ يخس : من بابى ضرب وتعب ، خساسة : حقر فهو خسيس . المصباح المنير .

(٢) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ويرى قوم أنهم محجوبون وممنوعون عن رضاه ، قال مجاهد فى قوله تعالى : (لَمَحْجُوبُونَ) أى : عن كرامته ورحمته ممنوعون ، وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، والجمهور على الرأى القائل بأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه .

١٦ - (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) :

أى : ثم هم مع هذا الحرمان من رؤية الرحمن هم كذلك أيضاً من الملازمين لنار اشتد تأججها يحترقون فيها ، وغير خارجين منها .

١٧ - (ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) :

ثم يقال لهم من قبل الله القهار - وذلك على سبيل التقريع والتصغير والتحقير - : هذا العَذَاب الذى تَذوقونه وتصلونه وتتقلب وجوهكم فيه هو ماكان الرسول يحذركم ويخوفكم وينذركم به ، فكنتم تستكبرون وتستهزئون وتكذبون به ، وها هو ذا قد لحقكم فلا تستطيعون له دفعاً ولا منه فكاكاً .

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(عِلِّيُّونَ) : عَلَم على ديوان الخير الذى كتب فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، وقيل غير ذلك .

(مَرْقُومٌ) : رقم وكتب فيه بالنجاة من الحساب يوم القيامة .

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) : يحضره ويحفظه المقربون من الملائكة ، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة .

التفسير

١٨ - (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ) :

لما ذكر - سبحانه - حال الفجار المطففين أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لايجورون ولا يظلمون فقال : (كَلَّا) أى : ليس الأمر كما يزعمه هؤلاء الفجرة من إنكار البعث ومن أن القرآن الكريم خرافات وأكاذيب الأولين ، ثم قال :(إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ) أى : إن ما يفعله الأبرار من أعمال الخير والطاعة مسطور ومكتوب فى ديوان الخير الذى يكتب فيه كل ما عملته الملائكة وصالحو المؤمنين من الإنس والجن ، وسمى بذلك لأنه سبب الارتفاع إلى الجنات ؛ إذ يرق الأبرار ويرتفعون من درجة إلى أخرى حيث يشاء الله من رضوانه وقربه ، وقيل : إن (عِلِّيِّينَ) جمع عِلِّىّ عَلى (فِعِّيل) من العلو للمبالغة فى سموه ورفعة شأنه ،وقال آخرون : هى مراتب عالية محفوفة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها .

وقيل : إن لكل من الأبرار والفجار كتاباً خاصًّا بهم تكتب فيه أعمالهم ، ثم يضم كتاب الأبرار إلى كتاب أعظم وأشمل يحويه كما يحوى ويضم كل كتاب من كتب الأتقياء والصلحاء من الثقلين وكتب الملائكة .

أما كتاب الفجار فهو وما على شاكلته من كتب الأشقياء والمردة والشياطين فيوضع ويسجن فى كتاب خسيس حقير فى مكان ضيق مهين وهو سجِّين[1] .

١٩ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) :

أى : ما الذى أعلمك يا محمد أى شىء علِّيُّون ؟ وذلك تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمنزلته ، إنه فى الدرجة الرفيعة والمنزلة السامية .

---

(١) فهو من ظرفية الكل للجزء ، قال الآلوسى : وقيل : الكتاب على ظاهره، والكلام نظير أن تقول: إن كتاب حساب القرية الفلانية فى الدستور الفلانى ، لما يشتمل على حسابها وحساب أمثالها .

٢٠ - (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) :

أى : إن علّيين كتاب قد رقم وسطر فيه ما أُعد لهم من الثواب ومما يوجب سرورهم وبهجتهم .

٢١ - (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : يحضره ويشهده الملائكة المقربون ويحفظونه ، أو يشهدونه عند صعوده كرامة للأبرار المتقين ، أويشهدون بما فيه يوم القيامة تزكية للأبرار وتكريما لهم . أخرج ابن المبارك عن صخر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الملائكةَ يرفعونَ أعمالَ العبدِ من عبادِ اللهِ - تعالى - يستكثرونَهُ ويزكونَهُ حتى يبلغُوا به إلى حيثُ شاء اللهُ - تعالى - من سلطانِه ، فيوحِى الله - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدِى وأنا رقيبٌ على ما فى نفسِه ، إن عبدِى هذا لم يُخلِصْ لى عملَه فاجعلوه فى سجِّين ، ويَصعدونَ بعملِ العبدِ يستقلونَهُ ويستحقرونَهُ حتى يبلغوا بِه إلى حيْث شاء اللهُ - تعالى - من سلطانِهِ فيوحِى اللهُ - تعالى - إليهم : إنكم حفظةٌ على عملِ عبدى وأنا رقيبٌ على ما فى نفسِه ، إن عبدِى هذا أخلص لى عملَه فاجعلُوه فى عِلِّيين » .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة ، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار فى أسفل السافلين وفى أضيق المواضع إذلالَ الفجار وتحقيرَ شأْنهم ، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار فى عليين ،وشهادة الملائكة بذلك إجلالَهم وتعظيمَ شأْنهم .

(إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـــردات :

(نَعِيمٍ) : نعم كثيرة .

(الْأَرَائِكِ) : جمع أريكة ، وهى سرير منجّد فى بيت أو قُبّة زينت بفاخر الثياب والستور سميت بذلك لأنها قد تتخذ من خشب شجر الأراك ، أو لكونها مكانا للإقامة من قولهم : أرك بالمكان أروكاً : أقام .

(نَضْرَةَ النَّعِيمِ) : بهجة التنعم وماءه ورونقه .

(رَحِيقٍ) الرحيق : الشراب الخالص الذى لا غشّ فيه ، وقيل غير ذلك .

(خِتَامُهُ مِسْكٌ) : خاتمة شربه وآخر طعمه مسك .

(فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) : التنافس ، أصله التغالب فى الشىء النفيس ، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به .

(وَمِزَاجُهُ) : مزج الشراب خلطه ، والمزاج : ما يمزج به .

(تَسْنِيمٍ) : اسم لعين بعينها فى الجنة .

التفسير

٢٢ - ٢٤ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) :

لما عظم الله كتابهم فى الآية المتقدمة ، وأنه فى عليين ويشهده المقربون ، عظم بهذه الآية منزلتهم فبيّن - سبحانه - أنهم فى تنعم وتلذذ ، وتحيطهم السعادة ويغمرهم الفرح من كل جانب ، وأظهر ذلك - جل شأنه - فى أنهم وهم على الأرائك والسرر التى زينت وجمّلت بفاخر الفرش وعظيم الستور يرون وينظرون ما أعده الله لهم ، وهيأه من ألوان النعيم فى الجنة من الحور والولدان ، والقصور والأنهار والأشربة والأطعمة والملابس والمراكب ، أو ينظرون إلى أعدائهم وهم يعذبون فى النار ، أو إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه فيحضرهم ، ويرى الإمام الفخر الرازى : أنهم ينظرون إلى ربهم ، قال : ويتأكد هذا التأويل بما أنه

ـ تعالى ـ قال بعد هذه الآية : (تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) والنظر المقرون بالنضرة : هو رؤية الله ـ تعالى ـ على ما قال : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » ، ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات وما هو إلا رؤية الله ـ تعالى ـ اهـ .

ويستبين ويظهر فرحهم وسرورهم ـ أيضاً ـ بما يبصره ويشاهده الرائى فى وجوههم من الضحك والاستبشار والبهجة ، قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ »(١) أو أن الله يزيد فى وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يستطيع أن يصفه واصف لتناهيه فى ذلك .

٢٥ ـ (يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ) :

وختم الله أمارات وعلامات تنعمهم بأنهم يسقون من خمر لا غش فيها ولا شىء يفسدها أو يغتال عقل شاربها ، أو من شراب خالص نقىّ ، وقد ختم على قواريره وأوانيه ـ تكريما له ـ بالصيانة والحفظ على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وقد خص الله به الأبرار لشرفهم وعلو منزلتهم مع أن فى الجنة أنهارًا من خمر لذة للشاربين ؛ لأن هذا المختوم أشرف وأعلى قدرًا من الخمر الجارى فى الأنهار .

٢٦ ـ (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) :

أى : أن الذى يختم به ويسد به رأس قواريره وأوانيه هو المسك ، أو أن المراد من (خِتَامُهُ) هو أن عاقبته وآخره ريح المسك ، فإذا رفع الشارب فمه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك لذاذة وذكاء رائحة مع طيب الطعم ، فالختام آخر كل شىء ومنه ختمت القرآن والأعمال بخواتيمها .

(وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) أى : وفى ذلك الأمر العظيم والثواب الجزيل فليتسابق المتسابقون ، وليرغب ويبادر الراغبون ؛ لأنه النعيم الجليل الأبدى الدائم الذى

---

(١) الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ من سورة عبس .

يصيبه الفناء ، ولا يناله الكبر والفساد كشراب الدنيا ، والتنافس يكون بفعل الطاعات واستباق الخيرات والانتهاء عن المعاصى والسيئات .

٢٧ - (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) :

أى : ومزاج ذلك الرحيق من شراب ينصب وينهل عليهم من علوّ ، والتسنيم : هو أشرف وأطيب شراب فى الجنة ، وقد بين حاله وشأنه فقال - تعالى - :

٢٨ - (عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) :

أى : تجرى من علوّ إلى أسفل كما يشعر به الاسم ؛ إذ التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، ومنه سنام البعير لعلوه عن بدنه ، وهذه العين يشرب منها ملتذًّا بها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة يشربون منها صرفاً خالصاً لا يخالطها شئ ، ويمزج ويخلط منها كأس أصحاب اليمين فتطيب .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

المفــــردات :

(أَجْرَمُوا) الجرم : قطع الثمرة ، ثم استعمل لكل اكتساب إثم وذنب .

(يَتَغَامَزُونَ) أصل الغمز : الإشارة بالعين أو الحاجب أو اليد طلباً إلى ما فيه نقيصة يشار بها إليه .

(انقَلَبُوا) : انصرفوا ورجعوا .

(فَكِهِينَ) : معجبين بما هم فيه من الشرك ، أو من ذكر المسلمين بالسوء .

(هَلْ ثُوِّبَ) : من الثواب وهو الجزاء ، أى : هل جوزى الكفار وأثيبوا على فعلهم ؟ !

سبب النزول :

روى أن عليًّا - كرم الله وجهه - وجمعا من المسلمين مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم ، فنزلت (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ...) إلخ ، قبل أن يصل علىٌّ - كرم الله وجهه - إلى الرسول ﷺ .

التفسير

٢٩ - ٣٢ - (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) :

والمراد من الذين أجرموا أكابر المشركين كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص ابن وائل السهمى ، وقد حكى الله عنهم أفعالا قبيحة وأعمالا شائنة ، وذلك أنهم كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين وبدينهم ، ويشيرون إليهم بحواجبهم وأيديهم إمعاناً فى السخرية والتهكم بهم ، ويعيبونهم ، ويقولون فى حق المؤمنين: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون فى طلب ثواب لا يتيقنونه ، رمياً للمؤمنين بالسفه والحمق ، وإذا انقلب هؤلاء الكفار ورجعوا من مجالسهم إلى أهلهم انصرفوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم فى الدنيا ، أو يتفكهون بذكر المسلمين بسوء القول وفحش الحديث ، وهم كلما رأوا المؤمنين أينما كانوا أمعنوا فى سبهم ورميهم بالضلال والبعد عن الطريق السوى لاختيارهم الإسلام ديناً ، وترك عبادة الأصنام ! !

٣٣ - (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) :

أى : قال الكفار ما قالوه فى حق المؤمنين وتغامزوا عليهم وعابوهم والشأن والحال أن الكفار لم يبعثهم الله رقباء على المؤمنين يحفظون ويحصون عليهم أعمالهم وأحوالهم ،

ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل ؛ بل إنما أمر الله الكفار أن يقوموا على إصلاح أنفسهم والتبصر والتفكير فيما جاءهم به رسول الله ﷺ من عند ربهم .

٣٤ ، ٣٥ - (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ • عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) :

أى : فاليوم الذى تعرض فيه الأعمال وتنشر الكتب وتحاسب كل نفس بما كسبت وهو يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار - جزاءً وفاقاً - بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء ، مع ما لحقهم من الحسرة والندامة بعد ما علموا أنهم كانوا فى الدنيا فى ضلال وعمى عندما باعوا الآخرة الباقية بمتاع الدنيا الفانية ، فضلا عن أن المؤمنين قد فرحوا بفوزهم بالنعيم المقيم ، ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ودخلوا الجنة ، وجلسوا على السرر المرفوعة ينظرون إلى الكفار وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ، وكيف يعذبون فى النار وهم يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً .

وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم .

٣٦ - (هَلْ ثُوِّبَ[1] الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى : هل جوزى وأثيب هؤلاء الكفار على فعلهم ؟ ! وكأن الله يقول للمؤمنين : هل أثبنا وجازينا هؤلاء على ما كانوا يفعلونه بكم من الهزء والسخرية وذلك بالعذاب المقيم وتمكينكم من الضحك عليهم كما أثبناكم على ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة بهذا النعيم الجزيل الدائم والجزاء العظيم ؟ والثواب - وإن كان يستعمل فى المكافأة بالشر والخير إلا أنه هنا يحمل على المجازاة بالخير ، وأطلق على عقاب الكفار تهكماً بهم وسخرية منهم كما فى قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[2] .

والآية الكريمة تزيد فى سرور المؤمنين وتدل على كريم منزلتهم وعظيم مكانتهم . والله أعلم .

---

(١) ثوب : من الثوب ، وهو ما يثوب ، أى : يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر .
(٢) سورة الدخان الآية رقم : ٤٩

سـورة الانشقاق

مكيـة وآياتها خمس وعشرون آية
ويقـال لهـا سورة (انشقت)

مناسبتها لمـا قبلها :

قال بعض العلماء فى بيان وجه ترتيب السور الثلاث - الانفطار - المطففين - الانشقاق ما يأتى : جاء فى سورة (الانفطار) التعريف بالحفظة الكاتبين الذين يكتبون أعمال الناس فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ [١] » - وفى السورة التى تليها (سورة المطففين) بيان مقر كتبهم ، فى قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ » « كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ » [٢] وفى هذه السورة (الانْشِقَاق) عرض هذه الكتب ، وإعطاؤها لأصحابها يوم القيامة فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) [٣] إلخ .

هذا ، مع ما اشتملت عليه سورة الانشقاق وما قبلها (سورة المطففين) من ذكر بعض مظاهر يوم القيامة وما يناله المؤمنون من تكريم ، وما يصيب الكافرين من عذاب أليم .

بعض مقاصد السورة :

١ - بُدِئت السورة الكريمة بذكر بعض علامات الساعة وأشراطها ، وخضوع كل ما فى السمٰوات والأرض لأمر الله بتغيير نواميسها وقوانينها ، وعند ذلك يلقى كل إنسان جزاء ماعمل (إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ) إلى قوله تعالى: (يَآ أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) .

٢ - بينت السورة أن عمل الإنسان فى الدنيا مسجل عليه فى كتاب سيلقاه يوم القيامة ، فمن أخذ هذا الكتاب بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، ومن أخذ كتابه وراء ظهره فسوف يتمنى هلاك نفسه لما يلقاه من عذاب شديد ، لأنه كان فى الدنيا لاهياً عن العمل

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الانفطار

(٢) الآيتان ٧ ، ١٨ من سورة المطففين .

(٣) الآية رقم ٧ من سورة الانشقاق .

للآخرة ظانًّا أنه لن يرجع إلى ربه فيحاسبه : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) إلى قوله تعالى : (بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) .

٣ – ثم أقسم – سبحانه – ببعض الآيات الكونية التى تشهد بقدرته وتدعو إلى الإيمان به والتصديق باليوم الآخر وبما يكون فيه من أهوال : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) إلى قوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) .

٤ – ثم بيّن – جل جلاله – أنه مع ما ذكر من آيات وأدلة بينات فى هذه السورة وفى غيرها من السور : فالكافرون يكذبون بالقرآن ولا يؤمنون به (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) إلى قوله : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ) .

٥ – وختمت السورة بتهديد الكفار بأن الله عليم بما يضمرون وقد أعدّ لهم العذاب الأليم ، كما أعد للمؤمنين الطائعين الأجر الدائم الذى لا ينقطع (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) إلى قوله تعالى : (لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾)

المفــــردات :

(انشَقَّتْ) : انصدعت ، وذلك عند قيام الساعة .

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) : استمعت له وانقادت ، من قولهم : أَذِن له ؛ أى : استمع وأطاع .

(وَحُقَّتْ) : انقادت وهى جديرة بالانقياد .

(مُدَّتْ) زيدت سعةً وذلك بِدَكِّ جِبَالِهَا وإزالة آكامها .

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) : رمت مافى جوفها .

(وَتَخَلَّتْ) : وَخَلَتْ عَمَّا فِيها غاية الخلو .

(إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) أى : إنك مجتهد جَادٌّ فى عملك إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده ، والكدح كما قال الزمخشرى والآلوسى : جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر ذلك فى النفس ، من كَدَح جلدَه : إذا خدشه .

(فَمُلَاقِيهِ) أى : فملاق جزاء عملك لامحالة .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) أى : وأما من يُعطاه ويؤْتاه بشماله من وراء ظهره وهو الكافر .

(يَدْعُو ثُبُورًا) : ينادى ويقول : ياثبوراه ، والثبور : الهلاك .

(ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) : ظن أن لن يرجع إلى ربه فيحاسبه - يقال : لايحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير قال :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رَمَادًا بعد إذ هو ساطع

أى : يرجع رمادًا .

وعن ابن عباس : ماكنت أدرى معنى (يحور) حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى : ارجعى . ذكره الكشاف .

التفسير

١ - (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) :

أى : إذا السماء انصدعت ، قيل : تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى : « وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ »[1] قال الزمخشرى : أضمر جواب (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) وما عطف عليه ، ولم يذكره ليذهب السامع فى تقديره كل مذهب ، وفى هذا من التهويل ما فيه ، وقيل : جوابها مادل عليه قوله تعالى : (فَمُلَاقِيهِ) أى : إذا السماء انشقت لاقى الإنسان جزاء عمله وكَدْحِهِ .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ١٦

٢ - ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : واستمعت السماء لربها واستجابت له ، وأطاعت أمره فيما أمرها الله به من الانشقاق وذلك يوم القيامة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره وتنزل على إرادته وحكمه ؛ لأنه العزيز الذى لا يُمَانع ولا يغالب قد قهر كل شىء وذل له لأنه القادر الحقيقى .

٣ - ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ :

قال الضَّحاك : مُدّت الأرض ، أى : بُسطت بِانْدِكَاكِ جبالها وآكامها وتسويتها فصارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً .

وقال بعضهم : مُدَّت أى : زيدت سعة وبسطة ، من مده بمعنى أمده ، أى : زاده .

أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر ، عن النبى ﷺ أنه قال : « تُمد الأرضُ يومَ القيامةِ مَدَّ الأديمِ ، ثم لا يكونُ لابن آدمَ منها إلا موضع قدميْه » .

٤ - ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ :

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ أى : ولفظت ما فى جوفها ورمت ما فى بطنها من كنوز وموتى .

﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : وتكلفت فى الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شىء فى بطنها .

وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها وأحيائها .

٥ - ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ :

أى : وانقادت الأرض لربها وأطاعته ونزلت على حكمه فى زيادة سعتها ، وإلقاء ما فيها وتَخَلِّيها عنه ، وحقيق وجدير بها ذلك ! !

وإذا حدث كل ما تقدم - وذلك يوم القيامة - لقى كل إنسان جزاء عمله .

٦ - (يَآ أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) :

أى : يا أيها الإنسان إنك ساع إلى ربك سعياً جادًّا ، وعامل عملا شاقًّا صعباً (فَمُلَاقِيهِ)

أى : فإنك ستلقى جزاء ما عملت من خير أو شر ، ويشهد لذلك ما روى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريلُ : يا محمدُ – عِشْ ماشئت فإنك مَيِّت ، وأَحبِبْ منَ شئتَ فإنك مفارقُه ، واعمَلْ ما شئتَ فإنكَ ملاقِيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير وهو الهاء فى (فملاقيه) على الرب فى قوله تعالى : (رَبِّكَ) أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك على عملك ويكافئك على سعيك .

قال الآلوسى : والمراد بالإنسان الجنس ، كما يؤذن به التقسيم فى قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) ، (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) إلخ .

وقال مقاتل : المراد به : الأسود بن هلال المخزومى ؛ جادل أخاه أبا سلمة فى أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذى خلقك لتركبن الطبقة ، ولتوافين العقبة ، قال الأسود : فأين الأرض والسماء وما حال الناس ؟ ! وكأن مقاتلا أراد أنها نزلت فيه أولاً . وقيل : المراد أُبىُّ ابن خلف؛ كان يكدح فى طلب الدنيا وإيذاء الرسول ﷺ والإصرار على الكفر .

٧ ، ٨ – (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا) :

أى : فأما من أُعطِى كتاب عمله بيمينه – وهو المؤمن – فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، والحساب اليسير : السهل الذى لا مناقشة فيه كما قيل ، وفسره ﷺ بالعَرْض ، وبالنَّظَر فى الكتاب مع التجاوز ، فقد أخرج الشيخان والترمذى وأبو داود عن عائشة أن النبى ﷺ : قال : « ليس أحدٌ يحاسَبُ إلّا هلَك » قلت : يا رسول الله – جعلنى الله فداءك – أليس الله تعالى يقول : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا) ؟ ! قال : « ذلك العرض ، يعرضون ، ومَن نوقش الحسابَ هلك » .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحاكم وصححه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : « اللهمَّ حاسِبنى حساباً يَسيرًا » فلما انصرف

ــ عليه الصلاة والسلام ــ قلت : يا رسول الله : ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظرَ فى كتابِه فيتجاوز له عنه » .

٩ ــ ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ :

المعنى : ويرجع إلى عشيرته المؤمنين فرحاً مبتهجاً بحاله قائلا : « هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ »[1] وقيل : يرجع إلى فريق المؤمنين مطلقاً وإن لم يكونوا عشيرته ؛ إذ كل المؤمنين أهل للمؤمن من جهة الاشتراك فى الإيمان .

١٠ ــ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ :

أى : وأما من أُعطى كتابه بشماله من وراء ظهره ــ وهو الكافر ــ قيل : تُغَلُّ يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيُؤْتَى كتابه بشماله ، وروى أن شماله تدخل فى صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيؤتى كتابه بها ، وإذا كان هذا وهو قوله تعالى :﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ واردًا فى الكفار ، وما قبله وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ واردًا فى المؤمنين المتقين ، فلا تعرض هنا للعصاة من المؤمنين ، قال الآلوسى : لا بُعْدَ فى إدخال العصاة من المؤمنين فى أهل اليمين لأنهم يُعْطون كتبهم باليمين بعد الخروج من النار كما اختاره ابن عطية .

وقيل : إن العصاة المؤمنين يعطون كتبهم بشمالهم ، ويختص الكفرة بكونهم يعطون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم . ا هـ : آلوسى مع التلخيص والتصرف .

ولعل السر فى إعطاء الكفار كتبهم من وراء ظهورهم لأن من يُعْطُونَهم كتبهم من الملائكة لا يُطيقون مُشَاهدة وجوههم لشدة بشاعتها ، أو لعظم بغضهم إياهم ، أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فأخذوا كتبهم كذلك على هذه الصورة تحقيرًا لهم وامتهاناً لشأنهم .

١١ ، ١٢ ــ ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ :

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ أى : فسوف يدعو الكافر ويطلب ثبورًا ويناديه ويقول :

---

(١) الحاقة من الآية رقم ١٩

يا ثبوراه تَعَالَ فهذا أوانك ، والثُّبُور : الهلاك والخسران والويل ، وهو اسم جامع لأنواع المكاره ، والمعنى : أنه يتمنى موته وهلاك نفسه .

(وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا) : ويدخل جهنم يحترق بنارها ، أو يقاسى شدة حرها ولهيبها .

١٣ - (إِنَّهُ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا) :

أى : إنَّ الكافر الذى يدعو الثبور ويصلى السعير إنما استحق ذلك لأنه كان فى الدنيا بين عشيرته وأهله فَرِحاً بَطِراً مترفاً ، لا ينظر فى العواقب كعادة الفُجّار من أهل الدنيا الذين لايهمهم أمر الآخرة ، ولم يكن متفكرًا فى حاله ومآله كعادة وطبيعة الصلحاء المتقين الذين حكى الله عنهم فقال : « قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ »[1] وهذه الآية استئناف لبيان سبب ما استحقوه من عذاب .

١٤ - (إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) :

هذه الآية تعليل لسروره فى الدنيا بين أهله وعشيرته .

أى : إن هذا الكافر كان مسرورًا فى الدنيا ولا يبالى بشىء لأنه كان يكذب بالبعث يعتقد أنه لن يرجع إلى الله تعالى ، فلا يعيده ربه بعد موته للحساب ، والحور : الرجوع مطلقاً ، والمراد هنا - كما قال ابن عباس وقتادة وغيرهما - : الرجوع إلى الله للجزاء بقرينة المقام .

١٥ - (بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا [2]) :

المعنى : بلى يحور ويرجع البتة ؛ لأن الله - عز وجل - الذى خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيراً بحيث لاتخفى عليه - سبحانه - منها خافية ، فلا بد من رجوعه وحسابه ومجازاته .

---

(١) سورة الطور ، الآية : ٢٦

(٢) (بلى) : إيجاب لما بعد النفى فى (لن يحور) و (إن ربه كان به بصيرا) تحقيق وتعليل له .

(فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾)

المفـــردات :

(الشَّفَقُ) الحمرة التى ترى بالأفق بعد غروب الشمس ، وقيل : البياض الذى يلى تلك الحمرة .

(وَمَا وَسَقَ) : وما جمعه الليل وستره وضمه إليه من الدواب وغيرها .

(اتَّسَقَ) : اجتمع نوره وتمَّ .

(لَتَرْكَبُنَّ) : لتلاقن .

(طَبَقًا) : الطبق ما طابق غيره ، ومنه قيل للغطاء : الطبق ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق .

(عَن) : بمعنى بَعْدَ ، كما فى قولهم : سادوك كابرا عن كابر ، أى : بعد كابر .

(بِمَا يُوعُونَ) أى : بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد ، أو بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء .

(فَبَشِّرْهُمْ) : فأخبرهم .

والتبشير فى المشهور : الإخبار بِسَارٍّ ، والتعبير به هنا للتهكم بهم .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ولا منقوص .

التفسير

١٦ - (فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) :

أى : فأقسم قسماً مؤكدًا - كما يشعر بذلك ذكر « لَا » - (بِالشَّفَقِ) : وهو الحمرة التى تشاهد فى الأفق بعد الغروب ، وبسقوط الشفق يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء ، إلا ماورد فى بعض الروايات عن أبى حنيفة ، وقيل الشفق : البياض الذى يلى تلك الحمرة ، وبه قال أبو هريرة ، وهو إحدى الروايات عن أبى حنيفة . وصح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : (فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) قال : الشفق : هو النهار كله وإنما حمله على هذا قَرْنُ الشفق بقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) كأنه أقسم بالضياء والظلام .

١٧ - (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) :

أى : وأقسم على سبيل التأكيد بالليل وما جمعه وضمه وآوى إليه من الدواب وغيرها . وعن مجاهد : ما يكون فيه من خير أو شر ، وقيل : وما ستره وغطى عليه بظلمته .

١٨ - (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) :

أى : وأقسم قسماً مؤكدًا بالقمر إذا اجتمع نوره وتَمَّ وتكامل وصار بدْرًا وذلك - كما قال الزمخشرى - : هى ليلة أربع عشرة .

١٩ - (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) :

هذا الكلام خطاب لجنس الإنسان المنادَى أولا فى قوله تعالى : (يَآ أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ) إلخ .. باعتبار شموله لجميع أفراد الإنسان ، والمراد بالركوب : الملاقاة ، وبالطبق الحال المطابقة لغيرها ، والمعنى : لتلاقن أيها النَّاس حالا بعد حال ، كل حال مطابقة لغيرها فى الشدة والهول .

وقيل : الطبق : جمع طبقة ، وهى المرتبة ، والمعنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أعظم من بعض ، وهى الموت وما بعده من مشاهد القيامة وأهوالها .

وفسر بعضهم الأحوال التى يلاقيها النَّاس بما يكونون عليه فى الدنيا من كونهم نطفة إلى الموت وما يكونون عليه فى الآخرة من البعث إلى حين استقرارهم فى إحدى الدارين الجنة أو النَّار .

وأخرج البخارى عن ابن عباس أن الخطاب للنبى ﷺ وعليه يراد : لتركبن أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القُرْبِ ، أو من مراتب الشدة فى الدنيا باعتبار ما يقاسيه فى تبليغ الرسالة ، أو الكلام عِدَةٌ بالنصر وتبشير بالمعراج ، أى : لتركبن سماء بعد سماء ، واختار ابن كثير هذا القول - وقال : والصواب من التأويل قول من قال : لتركبن يا محمد حالا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشدائد ، والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله - جميع الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالا - ا هـ : ابن كثير .

٢٠ - (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يجوز أن تكون لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها المشار إليها بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ) أى : إذا كان حالهم يوم القيامة كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله وسائر ما يجب الإيمان به بعد ذكر ما يلقاه كل مخالف من الأهوال؟! ويجوز أن يكون لترتيب ما بعدها على ما قبلها من عَظِيم شأنه - عليه الصلاة والسلام - المشار إليه بقوله تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) على أن المراد بالمخاطب رسول الله ﷺ أى : إذا كان هذا حاله ﷺ كما أشير إليه فأى شىء يمنعهم من الإيمان به - عليه الصلاة والسلام - ؟ !

٢١ - (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) :

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة ، والمعنى : وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله

وسمعوا كلامه - وهو القرآن العظيم - لا يستكينون ولا يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه ، فالمراد بالسجود : الخضوع والاستكانة ، وقيل : المراد به الصلاة ، وقيل : المقصود به سجود التلاوة ، ويكون المراد بما قبله (وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ) أى : وفيه آية سجدة . أخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) و (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

٢٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) :

هذه الآية انتقال عن كونهم لايسجدون عند قراءة القرآن وسماعهم له إلى أنهم يكذبون به صريحاً ، وقيل المعنى : بل هؤلاء من سجيتهم التكذيب بالبعث وغيره ، والعناد والمخالفة للحق تعالياً عنه وتكبرًا .

٢٣ - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) :

أى : والله أعلم بالذى يضمرونه فى صدورهم من الكفر والحسد والبغضاء والبغى ، أو : والله أعلم بما يجمعونه فى صحفهم من أعمال السوء فيجازيهم عليها ، وقال بعضهم : المعنى - والله أعلم بما يضمرون فى أنفسهم من أدلة صدق القرآن فيكون المراد المبالغة فى عنادهم وتكذيبهم بالقرآن مع علمهم بصدقه .

٢٤ - (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

الفاء فى قوله تعالى : (فَبَشِّرْهُمْ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والمعنى : فبشر الكفار يا محمد بأن الله - عز وجل - قد أعدّ لهم عذاباً مؤلماً موجعاً لتكذيبهم بالقرآن ، أو لعلمه - سبحانه وتعالى - بما يضمرون فى أنفسهم من الشرور والآثام .

والتعبير بالتبشير فى هذا المقام مع أنه فى المشهور يكون للإخبار بأمر سارٍّ - للتهكم والسخرية بهم .

٢٥ - ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾:

لكن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم لهم أجر فى الآخرة غير ممنون ، قال ابن عباس : أى : غير منقوص ، وقيل : غير مقطوع عنهم كما قال تعالى : « عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[1] .

(١) سورة هود ، من الآية : ١٠٨

ســورة البروج

وهى مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون آية ، نزلت بعد الشمس

مناسبتها لمـا قبلهـا :

اشتمالها - كالسورة التى قبلها (سورة الانشقاق) على وعد المؤمنين ، ووعيد الكافرين ، والتنويه بشأن القرآن ورفعة شأنه .

كما اشتملت أيضاً - كالسورة التى قبلها - على بيان أن العاقبة والغلبة والظفر للمؤمنين الصابرين مهما لاقوا من عذاب وأهوال ، وأن الهزيمة والخيبة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة للكافرين المكذبين مهما اشتد بطشهم وعظم سلطانهم .

هذه السورة عظة وتحذير لكفار قريش وغيرهم ، وتثبيت لمن يعذبون من المؤمنين .

اهم مقاصـد السورة :

١ - أقسم الله - سبحانه - فى أول السورة ببعض مظاهر قدرته على أن الكافرين الذين يؤذون المؤمنين ليردوهم عن دينهم مطرودون كما طرد من سلك مسلكهم ممن سبقهم : (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) إلى قوله تعالى : (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) .

٢ - بينت السورة أن الصامدين من المؤمنين الذين عُذبوا ما كان ذنبهم إلا إيمانهم بالله ، وذكرت الوعيد للكافرين ، والوعد للمؤمنين الصابرين : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إلى قوله تعالى : (ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) .

٣ - ذكرت السورة بعض صفاته - تعالى - كقُوَّته وبطشه بالجبابرة ، وبالجموع الطاغية من قوم فرعون وثمود وغيرهم من المكذبين ، وأن قوم الرسول يكذبونه والله من ورائهم محيط : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) إلى قوله تعالى : (وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) .

٤ - وخُتِمت السورة ببيان عظمة القرآن وأنه فى لوح محفوظ لا تصل إليه يدٌ بتحريف ، ولا قوة بتغيير : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الْبُرُوجِ) : منازل الشمس والقمر وسائر الكواكب .

(الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) : يوم القيامة .

(وَشَاهِدٍ) : ومن يشهد يوم القيامة ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه .

(وَمَشْهُودٍ) : وما يحضر ويشاهد فى ذلك اليوم من العجائب .

(قُتِلَ) : لُعِن أشد اللعن .

(الْأُخْدُودِ) : الشق المستطيل فى الأرض ، ويجمع على أخاديد .

(إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) : إذ هم على حَافَّةِ النار وحولها قعود .

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) : وما عابوا عليهم وأنكروا منهم – وفى مفردات الراغب : يقال : نقمت الشىء : إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة .

التفسير

١ - (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) :

أقسم الله - تعالى - بالسماء ذات البروج ، أى : ذات المنازل التى تنزلها الكواكب من شمس وقمر وغيرهما فى أثناء سيرها ، وقيل : البروج : الكواكب العظام .

٢ - (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) :

وأقسم - سبحانه - باليوم الموعود ، أى : الموعود به للحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين ، وقيل : لعله اليوم الذى يخرج الناس فيه من قبورهم ، فقد قال - سبحانه - : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ • خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ »[١] .

أو يوم طى السماء كطى السجل للكتب ، وقيل : يمكن أن يراد به يوم شفاعة النبى ﷺ على ما أشار إليه قوله تعالى : « عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُودًا »[٢] . ولايخفى أن جميع ذلك داخل فى يوم القيامة .

٣ - (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) :

وأقسم - سبحانه وتعالى - بشاهد ، أى : بمن يشهد ذلك اليوم - وهو يوم القيامة - ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه . (وَمَشْهُودٍ) أى : وبما يحضر فيه من الأهوال والعجائب ، وهكذا يقسم الله - عز وجل - بيوم القيامة وما يكون فيه ؛ تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه .

أخرج الترمذى وجماعة عن أبى هريرة مرفوعاً : « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » وعن ابن عباس : الشاهد : محمد - عليه الصلاة والسلام - مستدلا بقوله

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية ٧٩

تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا »[1] (والمشهود) يوم القيامة مستدلا بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ».[2] قال الزمخشرى : قد اضطربت أقوال المفسرين فى المراد بهما .

وقال الآلوسى : جميع الأقوال فى ذلك - على ما وقفت عليه - نحو من ثلاثين قولا . وأختار القول الأول وهو أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

٤ - (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) :

هذه الجملة جواب القسم أو دليله . كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء : بالسماء ذات البروج ، وباليوم الموعود وبشاهد ومشهود أن كفار قريش المعذبين للمؤمنين لَمَلْعُونُونَ كما لعن أصحاب الأخدود الذين ألقوا المؤمنين والمؤمنات فيه .

وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من مؤمنى الأمم السابقة - من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى بهم ، ولكنهم صبروا ، وذلك لكى يقتدوا بهم ، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، وليعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك الْمُعَذِّبِينَ الْمُحْرِقِينَ بالنار ، وهم ملعونون مطرودون من رحمة الله ، فالقتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد والسخط .

وقال بعضهم : الأظهر أن يقدر : إنهم لمقتولون - أى : كفار قريش - كما قتل أصحاب الأخدود ، فيكون وَعْدًا له ﷺ بقتل الكفرة المتمردين - لإعلاء دينه - ويكون معجزة بقتل رءوسهم فى غزوة بدر .

قال ابن كثير : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) : أى ؛ لعن أصحاب الأخدود - وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله - عز وجل - فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدودًا وأجّجوا فيه نارًا وأعدوا لها وقودًا يسعرونها به ، ثم أرادوهم على الكفر فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها .

(١) سورة النساء ، من الآية : ٤١.

(٢) سورة هود ، من الآية : ١٠٣

٥ - (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ) :

(النَّارِ) : بدل اشتمال من الأُخدود ، أى : أصحاب النار (ذَاتِ الْوَقُودِ)، وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، وهى تلك النار التى أضرمها الكفار وسعروها لعذاب المؤمنين .

٦ - (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ) :

أى : لُعِن الكفار الذين صنعوا الأخاديد حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها فى مكان قريب منها مشرفين عليها من حافات الأُخدود وجوانبه .

ف (عليها) : بمعنى (حولها) كقول الأعشى :

وبات على النار الندى والمحلق .

٧ - (وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) :

(وَهُمْ) أى : الكفار على ما يفعلون بالمؤمنين من تعذيبهم بالإلقاء فى النار إن لم يرجعوا عن دينهم (شُهُودٌ) أى : حضور لا يَرِقُّونَ لهم ؛ لشدة قسوة قلوبهم ، وقيل : (شُهُودٌ) أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحدًا لم يقصر فى أداء ما أمر به ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك يوم القيامة : يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم .

٨ - (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) :

أى : وما أنكروا منهم وما عابوا عليهم وما كان ذنبهم عندهم إلا إيمانهم بالله ، إنْ عُدَّ ذلك ذنباً وجرماً يستحق الإنسان عليه العقاب والمؤاخذة ، وهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، على منهاج قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : ذكر - سبحانه - الأوصاف التى يستحق الله بها أن يُؤْمَن به وأن يُعْبَد ، وهو كونه عزيزا غالباً قادرًا يُخْشَى عقابه ، حميدًا مُنْعِماً يجب له الحمد على نعمته ويُرْجَى ثوابه .

٩ - (الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

الله الذى له - وحده - ملك السمٰوات والأرض ، فكل ما فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له - سبحانه - وما نقموه منهم هو الحق الذى لاينقمه إلا مبطل منغمس فى الغى ، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يَعْدِلُه عذاب .

(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) : هذا وعد للمؤمنين ، ووعيد لمعذبيهم ، فإن علم الله - جل شأنه - الجامع لصفات الجلال والجمال شامل ومحيط بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين ، وسيجازى كلا منهما على عمله .

١٠ - (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) :

المعنى : إن الذين ابتلوا المؤمنين والمؤمنات فى دينهم بالأذى والإحراق بالنار لِيرتدوا عن دينهم ثم لم يرجع هؤلاء عن فتنة المؤمنين وتعذيبهم ، ولم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا فلهم فى الآخرة عذاب جهنم جزاء كفرهم ، ولهم عذاب الحريق جزاء إحراقهم المؤمنين .

قيل : يجوز أن يكون المراد بـ (الَّذِينَ فَتَنُوا) أصحاب الأخدود خاصة ، و بـ (الَّذِين آمَنُوا) المطروحين فى الأخدود .

وقال بعضهم ، المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات بكل أنواع العذاب كعمار وياسر وبلال ، والأصوب العموم ، ليشمل كل من صد عن سبيل الله وعذب المؤمنين ليرجعوا عن دينهم .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾)

المفـردات :

(بَطْشَ رَبِّكَ) : البطش : الأخذ بالعنف ، فإذا وصف بالشدة فقد تَضَاعف وتفاقم .

(هُوَ يُبْدِئُ) : إنه وحده يخلق ابتداء بقوته .

(وَيُعِيدُ) : يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

(الْوَدُودُ) : المحب كثيرًا لمن أطاعه .

(ذُو الْعَرْشِ) : صاحب العرش وخالقه ومالكه .

(الْمَجِيدُ) : العظيم المستحق لكل صفات العلو والكمال .

(محِيطٌ) : عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه .

التفسير

١١ - (إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) :

المعنى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار لجمعهم بين الإيمان والعمل الصالح ، وذلك النعيم الذى جُوزُوا وكُوفِئوا به من دخولهم الجنات وتمتعهم بما فيها هو الفوز الكبير الذى يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من المُتَع والرغائب ، وكيف لا وقد ظفروا بكل خير ونجوا وسلموا من كل شر !

١٢ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) :

استئناف خوطب به النبى ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفورًا منه ؛ كما ينبئ عنه ذكر الرب مع الإضافة إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - أى : إن أخذ ربك الجبابرة والظَّلَمَةَ بالعذاب بالغ الغاية فى الشدة والقوة فى العنف والبطش ؛ لأنه بطش ربك القادر على كل شىء .

١٣ - (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) :

أى : إنه - عز وجل وحده - هو الذى يُبْدِئُ الخلق بالإنشاء ، وهو - سبحانه - يعيده بإحيائه يوم القيامة للحشر والجزاء ؛ ودل باقتداره على البدء والإعادة على شدة بطشه . أو يبدئُ البطش بالكفرة فى الدنيا ، ثم يعيده فى الآخرة .

١٤ - (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) :

وهو - سبحانه - الغفور لذنوب من يشاء من عباده المؤمنين ، وقيل : لمن تاب إليه وأطاع أمره . (الْوَدُودُ) : أى ، كثير المحبة لمن أطاعه وأحبه ، وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة .

١٥ - (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ) :

(ذُو الْعَرْشِ) أى : صاحب العرش ، والمراد : مالكه أو خالقه ، والعرش أعظم المخلوقات ،

وجاء فى الأخبار عن عظمه ما يبهر العقول ، وقال القفال : ذو العرش : ذو الملك والسلطان.

(الْمَجِيدُ) : العظيم فى ذاته وصفاته – سبحانه وتعالى– فإنه – جلّ شأنه – واجب الوجود ، تام القدرة ، كامل الحكمة .

١٦ – (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) :

لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة ، وفى التنكير من التفخيم مالا يخفى ، أى : أنه – سبحانه – لايعجزه شئ ، ولا معقب لحكمه ، ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته كما روى عن أبى بكر الصديق أنه قيل له وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فَعَّال لما أُريد – يريد أن الطبيب على الحقيقة هو الله – فهو سبحانه فعال لما يريد ؛ لايتخلف عن قدرته مراد .

١٧ – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) :

تقرير لكونه – سبحانه وتعالى – فعالا لما يريد ، وكذلك لشدة بطشه بالظَّلَمَةِ والعصاة والكفرة الْعُتاة ، وتسلية له ﷺ بالإشعار بأنه سيصيب كفار قومه ما أصاب الجنود ، والمراد بالجنود هنا : الأقوام والجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم .

والمعنى : هل بلغك يا محمد ما أحلّ الله بهم من البأس وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردّها عنهم رَادٌّ ولم يدفعها عنهم دافع ؟ ! وهذا تقرير لقوله تعالى : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) أى : إذَا أخذ الظالم أخذه أخذًا أليماً شديدًا : أخذ عزيز مقتدر ، عن عمر ابن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) فقال : « نَعَمْ جَاءَنِى » .

١٨ – (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) :

قوم فرعون وثمود (بدل من الجنود) والمراد بحديثهم : ما صدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى : قد أتاك حديث قوم فرعون وثمود ، وعرفت ما فعلوا وما فُعِلَ بهم ، وما حل بهم من جزاء تماديهم فى الباطل ، فَذَكر قومك بأيام الله وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب

أمثالهم ممن خرجوا عن طاعته ، وحاربوا رسله ، وكذبوا بأنبيائه ، وهذا تنبيه لمن كفر بالنبى ﷺ وكذَّب بالقرآن ليتعظ .

١٩ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ) :

أى : بل الذين كفروا من قومك فى تكذيب ، وهذا إضراب انتقالى عن مماثلة كفار قريش لمن سبقهم من الأُمم المكذبة ، وبيان لكونهم أشد منهم فى الكفر والطغيان كما ينبئ عنه العدول عن (يكذبون) إلى قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ) المفيد لإحاطة التكذيب بهم من كل جانب ، مع ما فى تنكير (تكذيب) من الدلالة على تعظيمه وتهويله ، فكأنه قيل : ليس قومك مثلهم ، بل هم أشد منهم فإنهم غرق مغمورون فى تكذيب عظيم للقرآن الكريم ، فهم أدنى منهم فى استحقاق العذاب .

٢٠ - (وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) :

أى : والله - سبحانه وتعالى - متمكن منهم ، عالم بهم ، قادر عليهم ، قاهر لهم لا يفوتونه ولايعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم قيل : لأنهم لايفوتونه كما لايفوت الشئ من الشئ المحيط به ، فالكلام تصوير لعدم نجاتهم من بأس الله .

٢١ - (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ) :

هذا رد لكفرهم ، وإبطال لتكذيبهم ، وتحقيق للحق ، أى : بل هذا الذى جئتهم فكذبوا به كتاب شريف عالى المنزلة فى الكتب السماوية فى نظمه وإعجازه ، فلا يحق تكذيبه والكفر به .

٢٢ - (فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) :

المعنى : أن القرآن محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، كما قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[١] وقيل : مكتوب ومحفوظ فى ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه ، واللوح المحفوظ نحن نؤمن به ، ولايلزمنا البحث عن ماهيته وحقيقته وكيفية كتابته ونحو ذلك . والله أعلم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

سورة الطارق

وهى مكية ، وآياتها سبع عشرة آية ، نزلت بعد سورة البلد

صلتها بما قبلها :

لما ذكر - سبحانه وتعالى - تكذيب الكفار للقرآن فى السورة السابقة (سورة البروج) فى قوله تعالى : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ »[1] نبّه - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة : (سورة الطارق) على نشأة الإنسان وبدء خلقه ، ثم ذكر قدر هذا القرآن وعلو شأنه الذى كذّب به هذا الإنسان الضعيف .

اهم مقاصد السورة :

١ - بُدئت السورة الكريمة بالقسم بالسماء وماحوت من نجم وكوكب على أن كلَّ نفس عليها رقيب يحصى أعمالها (وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ) إلى قوله تعالى : (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) .

٢ - دعت السورة الإنسان أن يفكر وينظر فى نشأته ومم خلق ؟ ليعلم أن الذى أنشأه بقدرته قوى قادر على إعادته بعد موته للحساب (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) إلى قوله تعالى : (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) .

٣ - فى السورة قسم آخر بالسماء ذات المطر ، والأرض التى تنشق عن النبات على أن القرآن فاصل بين الحق والباطل وهو خير كله ، ومن حقه - وقد وصفه الله بهذا - أن يكون معظَّما يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، ومع ذلك فقد اشتد الكفار فى عداوته وإنكاره والكيد له ، وقد ردَّ الله كيدهم بكيد أشد لا يقدرون على دفعه (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) إلى قوله تعالى : (وَأَكِيدُ كَيْدًا) .

٤ - ختمت السورة بطلب إمهال الكافرين حتى يأتيهم العذاب : (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) .

---

(١) سورة البروج الآية : ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(الطَّارِقِ) : كل آت ليلا ، ومنه النجوم ؛ لطلوعها ليلا ، والطارق في الأصل : اسم فاعل من الطَّرق بمعنى الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت .

(النَّجْمُ الثَّاقِبُ) : النجم المضيء .

(حَافِظٌ) : رقيب ومحاسب .

(دَافِقٍ) : مدفوق ومصبوب بدفع وسرعة

(يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) الصلب : الظهر .

(وَالتَّرَائِبِ) : جمع تَرِيبة ، وهي عظام الصدر أو الأطراف .

(رَجْعِهِ) : إعادة خلقه بعد فنائه وموته .

(تُبْلَى السَّرَائِرُ) : تكشف وتظهر مكنونات القلوب ، وأصل الابتلاء : الاختبار .

التفسير

١ ـ (وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ) :

أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالسماء وما جعل فيها من الكواكب التى تضىء عند طلوعها ليلا ، وتختفى نهارًا .

٢ ـ (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) :

هذا الأسلوب للتنويه بشأن الطارق بعد تفخيمه وتعظيمه ، بالإقسام به ، وتنبيه على أن رفعة قدره وعلو شأنه مرتبة لا ينالها ولا يصل إلى معرفتها عقول الخلق ؛ فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

والمعنى : وأى شىء أعلمك بالطارق وما حقيقة هذا الكوكب ؟

٣ ـ (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) :

أى : النجم المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه وينفذ فيه ، وروى لأنه يدرأ الظلام ، أى : يدفعه ، وقال الفراء : الثاقب : المرتفع .

٤ ـ (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) :

المعنى : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أى : مهيمن ورقيب وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما فى قوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا »[1] .

وقيل : معنى (حَافِظٌ) : من يحفظ عملها من الملائكة ويحصى عليها ما تكسب من خير أو شر ، كما فى قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ »[2] ، وروى ذلك عن ابن سيرين وقتادة .

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٥٢

(٢) سورة الانفطار ، الآيتان : ١٠ ، ١١

وقيل : (حَافِظٌ) أى : عقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عمَّا يضره .

والجملة جواب القسم .

٥ - (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) :

لـمَّا أثبت - سبحانه - أن على الإنسان حافظًا ورقيبًا منه - تعالى - أو من ملائكته ، حثه على النظر فى نشأته الأُولى حتى يعلم أن من أنشأهُ على هذه النشأة قادر على إعادته وجزائه ، فليعمل ليوم الإعادة والجزاء ، وليُرْضِ ربه ولا يُملى على حفظته إلا مايسره فى آخرته وعاقبة أمره .

وأما على تقدير أن المراد بالحافظ العقل ، فلأنه لـمَّا أثبت - سبحانه - أن للإنسان عقلًا يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره ، حثه على استعماله فيما ينفعه ، وعدم تعطيله وإلغائه ، كأنه قيل : فلينظر بعقله وليتفكر به فى مبدأ خلقه حتى تتضح له قدرة واهبه - سبحانه - وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد ليس فيها حياة ظاهرة فهو - سبحانه - على إعادته أقدر وأقدر ، فليعمل بما يُسَر به حين الإعادة والرجوع إلى مولاه .

٦ - (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ) :

أى : خُلق الإنسان من ماء دافق مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم ، والمراد بالماء الدافق : المنى الذى يحمل الحيوانات المنوية التى تلقح بويضة المرأة ويتكون الجنين .

٧ - (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ) :

أى : يخرج هذا الماء (مِن بَيْنِ الصُّلْبِ) وهو الظهر .

(وَالتَّرَآئِبِ) : وهى عظام الصدر . وقال الآلوسى : لو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد .

ولعلماء العصر كلام فى ذلك يمكن الرجوع إليه لمعرفة الاجتهادات القديمة والحديثة ولا يجوز تفسير القرآن بما لا يصل إلى حد العلم القطعى ، مع الدعوة إلى الفكر والنظر ومداومة البحث الذى قد يوصل إلى الحقيقة التى لا تقبل الشك وذلك ممكن غير مستحيل . قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »[1] .

٨ - (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) :

أى : إن الله - سبحانه وتعالى - الذى خلق الإنسان مما ذكر لقادر على إعادته بعد موته ، وبعثه بعد هلاكه ، لا يصعب عليه ذلك ولا يعجز عنه سبحانه .

٩ - (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) :

فى يوم القيامة تبلى السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويصير السر علانية والمكنون مشهودًا ، سواء منه ما أُسِرَّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أُخفى من الأعمال ، حيث يميز بين ما طاب منها وما خبث .

١٠ - (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) :

المعنى : فما للإنسان المنكر للبعث من قوة فى نفسه يمتنع بها من العذاب ، ولا ناصر يمنعه ويحميه فيدفع العذاب عنه .

(١) سورة فصلت من الآية : ٥٣

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

المفـــردات :

(ذَاتِ الرَّجْعِ) : ذات المطر لرجوعه كل حين ، أو لرجوعه إلى المصدر الذى تبخر منه وتكاثف ونزل ماء .

(ذَاتِ الصَّدْعِ) : ذات الانشقاق عن النبات .

(إِنَّهُ) أى : إن القرآن .

(لَقَوْلٌ فَصْلٌ) : لقول فاصل بين الحق والباطل ، كما قيل له : فرقان .

(وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أى : وما القرآن باللعب والباطل .

(يَكِيدُونَ كَيْدًا) : يمكرون مكرًا بالغ الغاية لصد الناس عن القرآن .

(وَأَكِيدُ كَيْدًا) : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج لهم .

التفسير

١١ - (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) :

أقسم - سبحانه وتعالى - بالسماء التى ينزل منها المطر ، وسمى المطر رجعًا لأن العرب كانوا يرون أن السحاب يحمل بخار الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض ، أو سموا

المطر بذلك تفاؤلا ليرجع ، أو لأن الله يرجعه بين الفينة والفينة ليشرب الناس ويسقوا زرعهم ودوابهم ، ولولا ذلك لهلك الجميع ، وعن مجاهد : تفسير السماء بالسحاب ، والرجع بالمطر ، وقيل : الرجع : الملائكة - عليهم السلام - سُمُّوا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد .

١٢ - ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ :

وأقسم - سبحانه - بالأرض ذات الصدع ، أى : ذات الانشقاق عن النبات الذى يخرج منها .

١٣ - ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ :

المعنى : إن القرآن الذى أنزل على الرسول لقول فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، قد بلغ الغاية فى ذلك حتى كأنه نفس الفصل .

١٤ - ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ :

أى : ليس فى القرآن شائبة لعب ولا باطل ، بل كله جد محض ، فمن حقه أن يهتدى به الغُوَاة ، وتخضع له رقاب العُتَاة ، ومن الواجب نحو القرآن - وقد وصفه الله بذلك - أن يكون مَهِيبًا فى الصدور ، مُعَظمًا فى القلوب ، ويترفع به قارئه وسامعه أن يُلِم بهزل - أو يتفكه بمزاح ، وأن يلقى ذهنه إلى أن جبار السمٰوات يخاطبه فيأمره وينهاه ، ويقف عند وعده ووعيده ، حتى إنه إن لم يخف من الله ولم يخش عذابه فالأولى به أن يكون جادًّا غير هازل وفى الحكم على القرآن بأنه فصل أخرج الترمذى وغيره عن على - كرم الله وجهه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكونُ فتنةٌ ، قلتُ : فمَا المخْرجُ

منها يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : كتابُ اللهِ ، فيه نبأُ مَن قبلكُم ، وخبَرُ ما بعدكُم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفصلُ ليسَ بالهزلِ ... » إلخ الحديث .

١٥ - (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) :

ثم أخبر - سبحانه - عن الكافرين المكذبين بالقرآن الذين يصدون عن سبيل الله وعن الحق فقال : (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ) أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى مخالفة القرآن والإعراض عنه ، ويُعْمِلُونَ المكايد فى إبطال أمره وإطفاء نوره ويبذلون جهدًا كبيرًا فى هذا الكيد ، وهم وإن بلغوا الغاية فى كيدهم فقدرتهم ضعيفة ، وقوتهم محدودة .

١٦ - (وَأَكِيدُ كَيْدًا) :

أى أُقابِلُ كيدهم بتدبير قوى لا يمكن رده ولا يستطاع دفعه وذلك بمثل إملائهم - واستدراجهم من حيث لا يعلمون ، وانتظار الميقات الذى وقَّته للبطش بهم والانتقام منهم ، وإعلاء شأن القرآن وانتشار الدين ورفعة قدر الرسول ﷺ .

١٧ - (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)[1] :

(فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) أى : فَتَأَنَّ وانتظر الانتقام منهم ، ولا تستعجل به ولا تدع عليهم بالهلاك ، ولا تيأس من عقابهم ، والفاء فى قوله تعالى : (فَمَهِّلِ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى : أن الله هو الذى سيتولى كيدهم ولن يهملهم ، فلا تشغل نفسك بالتصدى والتعرض لمكايدهم ، وذِكْرُ (الْكَافِرِينَ) وعدم الاكتفاء بضميرهم لذمهم ونعتهم بأبى الخبائث وأساس جميع الشرور وهو الكفر .

---

(١) (رويدا) : مصدر مؤكد لمعنى العامل - وهو فى الأصل مصغر (رود) أى : مهل - أو (إرواد) على الترخيم - أى : أمهلهم إمهالا قريبا ، أو قليلا . اهـ :

(أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) : بدل من (مَهِّل) والمعنى : أمهل الكافرين إمهالا رويدًا ، أى : قليلا ، أو قريبًا .

وعن السدى أنه قال : أمهلهم حتى آمر بالقتال ، وآتيك فيهم بأمر حاسم ، أى : أمهل الذين كفروا بدعوتك التى واجهتهم بها ، ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل ، واختار بعضهم أن يكون المراد الإمهال إلى يوم القيامة ليعم من واجههم بالدعوة ومن كفروا بها بعد ، لأن ما وقع بعد الأمر بالقتال – كالذى وقع بالكفار يوم بدر وفى سائر الغزوات – لم يعم جميع الكفار ، وما يكون يوم القيامة يعمهم جميعًا ، والتقريب يكون باعتبار أن كل آت قريب .

والظاهر ما قاله السدى ، وقد أصابهم بعد الأمر بالقتال ما أصابهم من قتل أبطالهم وقهرهم وإذلالهم ، وظاهر كلام أبى حيان أن الأمر الثانى (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) تأكيد للأمر الأول (فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ) والمخالفة بين اللفظين بين « مَهِّل » و « أَمْهِل » لزيادة تثبيته ﷺ وتصبيره – عليه الصلاة والسلام – ودلت الزيادة المشعرة بالتغاير على أن كلًا من اللفظين كلام مستقل بالأمر بالتأنى فهو آوكد من مجرد التكرار ، والله أعلم .

سورة الأعلى

وتسمى سورة سبح ، وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آية

مناسبتها لما قبلها :

لما ذُكر فى سورة الطارق خلق الإنسان ، وأشير إلى خلق النبات فى قوله تعالى : (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) وذُكر هاهنا خلق الإنسان فى قوله تعالى : (خَلَقَ فَسَوَّى) وخلق النبات فى قوله تعالى : (أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) ناسب أن يقرن بينهما .

مقاصد السورة :

١ - تنزيه ذات الله الأعلى ، وصفاته ، عما لا يليق بها (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) .

٢ - بيان الإبداع فيما خلق - سبحانه - فجعله مستوياً فى إحكام وإتقان ، وقدر لكل شىء خلقه ما يصلحه ، فهداه إليه : (الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى) .

٣ - توجيه العقول والأبصار إلى صنيع القدرة فى إخراج النبات من الأرض التى تنشق عنه وتدرُّجه من أخضر نافع إلى أن يصير يابساً أسود وجعله رعياً للدواب : (وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) .

٤ - إخبار الرسول ﷺ بأن الله سيقرئه القرآن فيحفظه ولا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله ، وأنه ﷺ ميسر لليسرى (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ..) الآيات .

٥ - أمرٌ للرسول ﷺ أن يُذَكِّر بالقرآن وبما يوحَى إليه ليذَّكر من يخاف الله ويرجو ثوابه :

(فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) .

٦ - إعلامه ﷺ بأن الأشقى المصر على العناد والكفر سيرفض دعوتك ، ويعرض عنك فلا تحزن ، وسيصلى النار الشديدة ، فلا يستريح من العذاب بالموت ، ولا يحيا حياة نافعة : (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ...) الآيات .

٧ - تأكيد حصول الفلاح ، والظَّفَرَ بالنجاة لمن تطهر من الشرك والمعاصى وذكر اسم خالقه بقلبه ولسانه ، فصلى فى خشوع وامتثال :

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) .

٨ - التنصيص على أن الذى ذكَّر به ، ودعا إليه ﷺ ثابت فى الصحف الأُولى صحف إبراهيم وموسى . فهو مما توافقت عليه الأديان ، وسجلته الكتب السماوية :

(إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾)

المفـــردات :

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) : التسبيح ؛ التنزيه ، أى : نزه اسمه - عز وجل - عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة ، وعن كل مالا يليق به .

(فَسَوَّىٰ) أى : فجعل المخلوقات كلها سواء فى الإحكام والإتقان .

(الَّذِى قَدَّرَ) أى : جعل الأشياء كلها على مقادير مخصوصة .

(الْمَرْعَىٰ) : ما ترعاه الدواب أخضر غَضًّا .

(فَجَعَلَهُ غُثَآءً) أى : جافًّا يابسًا ، وأصل الغثاء : الهالك البالى من ورق الشجر ، ومنه غثاء السيل .

(أَحْوَىٰ) : أسود من القدم .

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) أى : يبتعد عنها ولا ينتفع بها الكافر فكان أشقى الناس .

(يَصْلَى النَّارَ) : يدخلها ويذوق حرها .

التفسـير

١ - (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ) :

أى : اجعل أسماءه - جل شأنه - منزهة عن كل ما لا يليق بها فلا تطلقها على غيره على وجه يشعر بتشاركهما فيها ، كأن تقول مثلا لمن أعطاك شيئاً : إنه رزقنى على وجه يشعر بالتشارك ، ولا تسم بها غيره - تعالى - إذا كانت متخصصة به كلفظ الجلالة « الله » والرحمن ، ولا تذكرها فى موضع لايليق بها ، أو على وجه ينافى التعظيم والإجلال ، وهذا الوجه من التفسير مبنى على الظاهر من أن لفظ (اسم) غير زائد وذهب كثير إلى أنه زائد أى : ذكر تأكيداً لضرب من التعظيم على سبيل الكناية .

وعليه فالمعنى : نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف فى ذاته وأفعاله وأسمائه ، واستدل لهذا الرأى بما أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : لما نزلت : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »[1] قال لنا رسول الله ﷺ اجعلوها فى ركوعكم ، ولما نزلت : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال : اجعلوها فى سجودكم ، ومن المعلوم أن المجعول

(١) سورة الواقعة ، آية : ٧٤ .

فيهما : سبحان ربى العظيم ، وسبحان ربى الأعلى دون ذكر لفظ (اسم) كما استدل أيضاً على أن (اسم) زائد بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، والطبرانى ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ) قال : سبحان ربى الأعلى .

وقوله – سبحانه – (الْأَعْلَىٰ) صفة للرب ، وهو الأظهر ، وأريد بالعلو : أنه – سبحانه – يعلو بقدره واقتداره لا بالمكان ؛ لاستحالته عليه ، ويجوز أن يكون لفظ الأعلى صفة للفظ (اسم) والمراد بعلوه حينئذ : تَرَفُّعُهُ عن أن يشاركه اسم فى حقيقته .

٢ – (الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ) :

صفة ثانية ، وحذف مفعول (خلق) لقصد التعميم . أى : خلق كل شىء فجعل خلقه متساوياً كما تقتضيه حكمته وإتقانه ، ويتسنى لهذا المخلوق أن يؤدى ما خلق له على أكمل وجه ، وقال فى البحر : خلق كل شىء فسواه بحيث لم يأت متفاوتاً بل مناسباً فى إحكام وإتقان للدلالة على أنه من عالم حكيم .

٣ – (وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ) :

صفة أخرى ، وكذا حال ما بعده ، أى : جعل الأشياء مقدرة على مقادير مخصوصة فى أجناسها . وأفرادها ، وأفعالها وآجالها ، وهدى كلا منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له طبعاً أو اختياراً ، ويسره لما خلق له بخلق الإلهامات ، ونصب الدلالات ، وإنزال الآيات ، ولو تأملت فى خلق الإنسان وأحوال النباتات والحيوانات لرأيت عجباً مما تحار فيه العقول ، وتعجز عن إدراك كنهه الألباب ، وحسبك أنه – سبحانه – أودع فى الإنسان عقلاً يميز به بين الخير والشر ، والضار والنافع ، وسخر له كنوز الأرض وخيراتها وجعل كل ما عليها طيِّعا له منقاداً ، ووجه الحيوانات إلى مراتعها ، والطيور إلى مآكلها ، والهوام إلى حاجاتها ، وأما فنون هداياته فى غير ذلك فمما لا يعلمه إلّا العليم الخبير . وعن السدى : قدر للولد فى البطن تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ، وهداه للخروج منه للتمام .

٤ ، ٥ - (وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى) :

أى : أنَّه - جل وعلا - أنبت ما ترعاه الدواب أخضر غضًّا يكاد يبرق ويتلألأ من طراوته ، ثم جعله بعد ذلك (غُثَآءً) أحوى : يابساً جافًّا كأوراق الشجر البالية ، والحشائش والأخلاط مما يقذف به السيل على جانب الوادى ، ومنه : غثاء السيل . والعرب تسمى القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتى أخلاطاً وغثاءً (أَحْوَى) : من الحوة : وهى سواد يضرب إلى الخضرة ؛ إشارة إلى بلوغه الغاية فى القدم ، فهو صفة مؤكدة للغثاء لأن الغثاء إذا قدم وأصابته المياه حتى اسود وتعفن صار أحوى .

وتفسر الحُوَّة بشدة الخضرة ، ولاينافى ذلك تفسيرها بالسواد ، لأن شدة الخضرة ترى فى بدء النظر إليها كالسواد ، والمعنى : أخرج المرعى حال كونه أحوى من شدة الخضرة ، فجعله غثاءً بعد ذلك .

٦ ، ٧ - (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ . إِلَّا مَاشَآءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ) :

بيان لهداية الله - تعالى - الخاصة برسوله ﷺ إثر بيان هدايته - تعالى - العامة لسائر مخلوقاته ، وهى هدايته - عليه الصلاة والسلام - لتلقى الوحى ، وحفظ القرآن الكريم الذى هو هدى للعالمين ، وتوفيقه لهداية الناس أجمعين .

والسين إما للتأكيد ، وإما لأن المراد : إقراءُ ما أُوحَى إليه حينئذ ، وما سيوحى إليه بعد ذلك .

والمعنى . سنقرئك ما أوحى إليك الآن ، وما يوحى إليك بعد ذلك على لسان جبريل - عليه السلام - وذلك بأن يقرأ جبريل - عليه السلام - ما يقرأ على الرسول ﷺ من الوحى وهو أُمىٌّ لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولاينساه فى وقت من الأوقات ؛ لقوة الحفظ والإتقان ، ليكون ذلك آية أخرى للرسول ﷺ وجُوِّزَ أن يكون المعنى : سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة بدون تعليم أحد إياك كما هى العادة ، ولما كان الوعد بعدم الإنساء على وجه

قد يشعر بالتأبيد واللزوم وربما يوهم استحالة نسيانه، جاء الاستثناء فى قوله – تعالى –: (إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ) أى: إنه – سبحانه – إذا أراد نسيانك شيئاً لم يعجزه ذلك وهو لم يشأ أن ينسيه شيئاً فيكون القصد نفى نسيانه رأساً.

روى أنه ﷺ أسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب أُبيٌّ أنها نسخت، فسأله، فقال – عليه الصلاة والسلام –: نسيتها. والذى ذكره أُبيٌّ عن نسيانه ﷺ إن صح ذلك فهو فى غير ما يتعلق بالأحكام التى أمر بتبليغها، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين التى جازت على عقول الغافلين.

والاستثناء بشارة من الله لنبيه، وبالجملة: ففائدة هذا الاستثناء أن يعرِّف الله – تعالى رسوله ﷺ قدرته حتى يعلم – صلوات الله وسلامه عليه – أن عدم نسيانه من فضله وإحسانه – تعالى.

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ): تأكيد لوعده – تعالى – لرسوله ﷺ أى: إن الذى وعدك بأنه سيقرئك، وأنه سيحفِّظك ما تقرأ عالم بالسر والجهر فلا يفوته شىء مما يكون فى نفسك، وهو مالك قلبك وعقلك، وخافى سرك.

وفى قدرته أن يحفظ عليك ما وهبك، ولو شاء لسلبه، ولن تستطيع دفعه لأنك لا تستطيع أن تخفى عنه شيئاً.

وقيل: إن الآية تعليل للآية السابقة؛ أى: لأنه يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحى إليك بأسره، فينسيك ما شاء إنساءه، ويبقى لك محفوظاً ما شاء إبقاءه لما يناط ويتعلق بكل منهما من المصالح والحكم التشريعية.

٨ – (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ):

عطف على قوله – تعالى – (سَنُقْرِئُكَ) الآية، أى: نوفقك توفيقاً مستمرًّا للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها، وعلى العقول فهمها فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداء وهداية مما يتعلق بتكميل نفسه الشريفة ﷺ وتكميل غيره، فيندمج فيه تيسير الطريق إلى تلقى الوحى، والإحاطة بما فيه.

وتعليق التيسير به – صلوات الله وسلامه عليه – مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل – كما فى قوله تعالى : « وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى »[١] . للإيذان بقوة تمكينه – عليه الصلاة والسلام – من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له ، كأنه ﷺ فطر عليها . كما فى قوله – صلوات الله عليه : (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) .

وبعد ماوعد الله – سبحانه – رسوله بذلك الفضل العظيم أخذ يأمره بتذكير عباده وتنبيههم من غفلاتهم ، وتوجيههم إلى ما هو خير لهم من تنزيه اسم الله تعالى والاستعداد لامتثال أوامره ، والتزام أحكامه فقال – سبحانه :

٩ – (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) :

أى : فذكِّر الناس بما يوحى إليك من القرآن الكريم وغيره من الوحى ، واهدهم إلى مافى ثناياه وتضاعيفه من الأحكام الشرعية ودم على ما تفعله ، وأشار – سبحانه – بقوله : (إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) إلى أن رسول الله ﷺ كان يُذَكِّرُ أهل الباطل ويفرغ فى تذكيرهم غاية الجهد ، ويتجاوز فيه كل حدٍّ معهود حرصاً على الإيمان وتوحيداً للملك الديان ، وما كان ذلك يزيد بعضهم إلَّا كفرًا وعنادًا وتمردًا وفسادًا ، فأُمِرَ – عليه الصلاة والسلام ، تخفيفاً عليه – بأن يخص التذكير بتوقع النفع فى الجملة ، وذلك بأن يكون من يذكِّره كلا أو بعضاً ممن يرجى منه الاستجابة والانتفاع ، ولا يتعب نفسه الكريمة فى تذكير من لايورثه التذكير إلا عُتُوًّا ونفورًا ، من الذين طبع الله على قلوبهم ، وتمسكوا بما ورثوا عن آبائهم من جهل وجحود ، كما فى قوله – تعالى – : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ »[٢] وقوله – تعالى – : « فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا »[٣] وقد أعلم الله رسوله ﷺ بمن طبع على قلبه فلم تنفذ إليه الهداية .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٢٦ .
(٢) سورة (ق) من الآية : ٤٥ .
(٣) سورة النجم ، من الآية : ٢٩ .

وقيل : إن المعنى ليس كما ذكر ، وإنما هو استبعاد النفع بالنسبة إلى هؤلاء المذكورين والمطلوب تذكير الجميع سواء انتفعوا بالذكرى أو لم ينتفعوا كأنه قيل : افعل ما أمرت به لتؤجر وإن لم ينتفعوا به ، وفيه تسلية له ﷺ .

١٠ - (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ) :

أى إن الذكرى نافعة حتماً فى فريق من الناس ، وهو من يخشى الله تعالى - حق خشيته فيتفكر فى شأن ما تُذَكِّرُهُ به ، وتوجهه إليه فيقف على حقيقته ، فيؤمن به وبكل ما تدعوه إليه ، وترشده إلى اتباعه .

١١ - (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) :

أى : يتجنب الذكرى ويتحاماها ، ولا ينتفع بها الكافر المصر على كفره ، وهو الذى غلبه شقاؤه ، فأعرض عن النور الساطع ، والبرهان القاطع ، وخلا قلبه ، من خشية الله . فكان أشتى أنواع الكفرة .

وقيل : المراد به الكافر المتوغل فى عداوة الرسول ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . وقيل : إن الآية نزلت فيهما . والمتوغل فى عداوة الرسول أشتى من غير المتوغل فيها .

١٢ - (الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ) :

أى : إن هذا الكافر الذى هو أشتى أنواع الكفرة : جزاؤه أن يعذَّب بالنَّار الكبرى التى هى الطبقة السفلى من أطباق النار ، كما قال الفراء ، ولا بُعْد فى تفاوت نار الآخرة وفى أن بعضها أكبر من بعض ، وأشد حرارة ، والنار الكبرى هى نار الآخرة ، والصغرى هى نار الدنيا ولا شك فى أن نار الآخرة أقوى أثرًا وأشد إيلاماً لمن يعذبون بها من هذه النار التى نعرفها ، فنى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً « ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم » .

ثم إن من شتى وذاق عذابه بتلك النَّار الكبرى يخلد فيها ولا ينقطع عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، كما قال تعالى :

١٣ - (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) :

أي : لايموت الأشقى فى نار جهنم فيستريح من العذاب ، ولا يحيا فيها حياة طيبة تنفعه كما قال – تعالى – : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا »[1] .

و (ثم) للتراخى فى مراتب الشدة ؛ لأن التردد فى النار بين الموت والحياة ، الذى أشير به إلى الخلود فى النار الكبرى أفظع من نفس الصلى وهو دخول النار ، فهو متراخ عنه أى : عن الصلى فى مراتب الشدة ، ونفى الحياة فى الآية لايناقض نفى الموت ، لأن الحياة المنفية هى الحياة التى يرغب فيها ، ويتمنى صاحبها أن تدوم ، وحياة المعذب بتلك النار الكبرى ممقوتة عنده ، يتمنى فى كل لحظة تمر عليه لوفقدها ، فكأنها ليست بحياة .

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾)

المفـــردات :

(قَدْ أَفْلَحَ) أى : نجا من المكروه ، وفاز بالمطلوب .

(مَن تَزَكَّى) أى : تطهر من الشرك واتعظ بالذكرى .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) أى : كبر لافتتاح الصلوات الخمس ، أو هى وما يتيسر من النوافل .

التفسـير

١٤ ، ١٥ – (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) :

أى : قد فاز بالمطلوب ، وظفر بكل ما يرجوه فى دينه ودنياه مَنْ تطهر من الكفر والشرك بتذكره وامتثاله ، وحمْلُه على ذلك مروى عن أبى عباس وغيره ، وأخرج البزار وابن مردويه

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٣٦ .

عن جابر بن عبد الله ، عن النبى ﷺ أنه قال فى ذلك : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » . واعتبر بعضهم فى التزكى أمرين ، فقال : أى تطهر من الشرك والمعصية .

وقيل : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) أى : تكثَّر من التقوى والخشية ، من الزكاء : وهو النماء ، وقيل : تطهر للصلاة ، وقيل : أتى الزكاة ، وروى هذا عن جماعة منهم أبو الأحوص وقتادة .

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) أى : ذكر اسمه - تعالى - بلسانه وقلبه لا بلسانه مع غفلة القلب ، وقيل : المراد بهذا الذكر تكبيرة الإحرام (فَصَلَّىٰ) أى : الصلوات الخمس كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس ، وقيل : الصلوات الخمس وما تيسر من النوافل ، وإنما اقتصر على ذكر الصلاة ، لأن الفرائض والواجبات الدينية لم تكن تامة يوم نزول السورة وكانت الصلاة أهم ما نزل - إن كان نزل غيرها - كذا قيل وعن على - كرم الله وجهه (تَزَكَّىٰ) : تصدق صدقة الفطر (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) : كبَّر يوم العيد فصلى العيد ، وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدهم سائل وهو يريد الصلاة فليقدم بين يدى صلاته زكاة ، فإن الله يقول : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ) .

١٦ ، ١٧ - (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) :

الخطاب لكفار مكة ، كأنه قيل لهم : أنتم الأشقياء لا تفعلون ذلك من التطهر من الشرك وذكر اسم الله تعالى ، بل تفضلون الحياة الفانية وترضون بها وتطمئنون إليها ، وتعرضون عن الآخرة إعراضاً كلياً كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا »[1] ويحتمل أن يكون الخطاب لجميع الناس ، والمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر ، ومما لا يخلو عنه الناس غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة فى السعى والإقبال عليها ، وعن ابن مسعود ما يؤيد ذلك ، والالتفات من الغيبة حسبما يقتضيه السياق - إلى الخطاب لتشديد التوبيخ للأشقياء الذين وبخوا فيما سبق بقوله

(١) سورة يونس من الآية : ٧

– تعالى – : (وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى) على أن الخطاب خاص بهم ، أما إذا أُريد بالخطاب مايعم ويشمل الكفار والمسلمين ، فيكون فى حق الكفار لتشديد التوبيخ كما سبق ، وفى حق المسلمين لتشديد العقاب .

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) أى : تؤْثرون الدنيا على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها ، فنعيمها مع كونه فى غاية اللذة وأنه خالص عن شائبة ما يكدر صفوه ، أبَدىٌّ لا انصرام له ، والدنيا مع ذلك فانية لابقاء لها ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟! قال ابن جرير فى روايته عن ابن مسعود أنه استقرىء (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فلما بلغ (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ؟ ! فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ، وزُويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل ، وتركنا الآجل . وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى الأشعرى : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أحب دنياه ، أَضَرَّ بآخرتهِ ، ومَن أَحبَّ آخرتَه أَضَرَّ بدنياه ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى » .

(إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٨ ، ١٩ - (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) : الإشارة إلى السورة كلها ، عن ابن عباس : لما نزلت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى ، وقيل : الإشارة إلى قوله - تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) حتى قوله - تعالى - : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وروى ذلك عن قتادة . والإشارة إلى مافى السورة كلها ، أى : إلى مضمونها ومقاصدها ؛ فإن ذلك ثابت فى الصحف الأولى التى هى صحف إبراهيم وموسى ، وفى إبهامها ووصفها بالأولى ثم بيانها بقوله - سبحانه - : (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) إشارة إلى أنها قد بلغت الغاية فى التفخيم ، وعلو الشأن ، وكانت صحف إبراهيم عشرة ، وكذا صحف موسى - عليه السلام - أنزلت عليه قبل التوراة وكانت عبرًا ومواعظ ، روى عن أبى ذر أنه قال : قلت : يا رسول الله : فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبرًا كلها . قلت : فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : أمثال كلها . والله أعلم .

ســورة الغاشــية

هذه السورة مكية ، وعدد آياتها ست وعشرون آية

مناسبتها لمـا قبلها :

لَمَّا أشار - سبحانه وتعالى - فى السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالًا ، ناسب أن تأتى هذه السورة عقبها لبسط هذا الكلام وتوضيحه .

مقاصد السـورة :

بدأت بالحديث عن يوم القيامة بأسلوب يُشَوق إلى سماعه ؛ لبيان ما فيه من أهوال وشدائد ، وبلاء وعناء ، مشيرة إلى أن الناس يوم القيامة فريقان ، فمنهم من لا يرون فيه كرامة عند استقبالهم ، وإنما يلقون كل مهانة وعنت ومذلة ، ثم يدخلون نارًا حامية ، وَيُسْقَوْنَ من عين آنية ، ومنهم من يستقبلون ذلك اليوم فرحين مستبشرين بمظاهر الرحمة الواسعة والنعيم المعدّ لهم : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ..) الآيات . ثم ساقت السورة الكريمة الأدلة والبراهين الواضحة على قدرة الله الباهرة على البعث بما يشاهدونه بأعينهم ، والسماء العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأرض المنبسطة : (أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ...) الآيات . ثم أبرزت أمر الله لرسوله ﷺ بالتذكير ؛ لأن مهمته الأولى بالنسبة إليهم مبينة أنه ليس مُسَلَّطًا عليهم فيجبرهم على الإيمان : (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ) .

وكان ختام السورة بيان أن من تولى وكفر بعد هذا التذكير ، فسوف يأخذه الله بذنبه ويعذبه العذاب الأكبر حين يرجع إليه بعد الموت ، لأن رجوعهم جميعًا إليه ، وحسابهم عليه : (إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(الْغَاشِيَةِ) : من أسماء يوم القيامة من غَشِيَهُ الأَمرُ : إذا غطاه .

(خَاشِعَةٌ) أى : ذليلة ، يقال : خشع فى صلاته : إذا تذلل ونكَّس رأسه .

(عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أى : عملت عملًا شاقا تعبت فيه فى الدنيا ، ولاجدوى له فى الآخرة .

(تَصْلَى) أى : تدخل .

(آنِيَةٍ) أى : بلغت أناها – بفتح الهمزة وكسرها – وهو غاية حرها .

(إِلَّا مِن ضَرِيعٍ) : وهو شجر فى النار يشبه الشوك أَمَرٌّ من الصبر وأَنْتَنُ من الجِيفةِ ، وقيل غير ذلك كما سيأتى فى الشرح .

التفســير

١ – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) :

هل : استفهام أُريد به التعجيب من حديث القيامة ، والتشويق إلى سماعه والإشعار بأنه من الأَحاديث البديعة التى حقها أن تتناقلها الرواة ، ويتنافس فى تلقيها الدعاة من كل

حاضر وباد . وهى اسم من أسماء القيامة.. قاله ابن عباس ، وقتادة وابن زيد وسفيان- والجمهور ، وأطلق عليها (الغاشية) لأنها تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها .

وظاهر كلام قطرب أن (هل) بمعنى (قد) حيث قال : قد جاءك حديث القيامة يا محمد .

٢ ، ٣ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما إلى قوله - تعالى : (وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) استئناف وقع جوابًا عن الاستفهام التشويقى ، كأنه قيل من جهته ﷺ : ما أتانى حديثها فما هو ؟ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : لم يكن أتاه - عليه الصلاة والسلام - حديثها ، فأخبر الله رسوله - عليه الصلاة والسلام - عنها فقال : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) أى : وجوه الكفار - يوم إذ غشيتهم الغاشية - ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزى والهوان ؛ لأن المراد بخشوعها : ذُلُّهَا ، ولم توصف بالذل ابتداءً لما فى وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكم ، وأنها لم تخشع فى وقت ينفع فيه الخشوع ، وإنما خص الوجوه بذلك ، لأن الحزن والسرور إذا استحكما فى المرءِ أثَّرا فى وجهه. (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أى : تعمل فى النار عملًا شاقا تتعب فيه ، وهو جَرُّ السلاسل والأغلال ، والخوض فى النار والصعود والهبوط فيها جزاءَ التكبر عن العمل وطاعة الله تعالى فى الدنيا .

وقيل : عملت فى الدنيا أعمال السوءِ ، والْتَذَّتْ بها وتنعمت ، فهى فى نَصَبٍ منها فى الآخرة .

وعن زيد بن أسلم أنه قال : أى : عاملة فى الدنيا ناصبة فيها ؛ لأنها على غير هدى. فلاثمرة لها إلَّا النَّصَبُ ، وخاتمتها النار .

٤ ، ٥ - (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ) :

أى : تدخل نارًا قد أُحميت مددًا طويلة ، فلا حر يعدل حرها ، لأن أعمالها فى الدنيا كانت خاسرة غلب عليها الشر والضلال . (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) أى : من عين ماءٍ بلغت أناها بوصولها إلى أقصى غايتها فى الحرارة ، قال ابن عباس ومجاهد والحسن والسّدى : قد

انتهى حرها وغليانها وحان شربها ، والتأنيث فى هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه ، والمراد أصحابها بدليل قوله – تعالى – :

٦ ، ٧ – ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ :

بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم ، أى : إن طعامهم فى النار الذى ليس لهم طعام سواه هو الضريع ، وهو كما قال عكرمة : شجرة ذات شوك لاصقة بالأرض ، وقال غير واحد : هو جنس من الشوك ترعاه الإبل رَطْبًا فإذا يبس تَحَامَتْهُ ، وهو شر الطعام وأبشعه لا تقربه دابة ، أو هو سُمٌّ قاتل ، وقريش تسميه فى الربيع الشِّبْرِق وفى الصيف الضَّرِيع ، والظاهر أنه يستحضر لهم حقيقة ، أشار إلى ذلك الآلوسى .

وقيل : هو شجرة نارية تشبه الضريع أَمَرُّ من الصبر وأَنْتَنُ من الجِيفة ، وأشد حرارة من النار ، والله – سبحانه – الذى أخرج من الشجر الأخضر نارًا لا يعجزه أن ينبت فى النار شجر الضريع .

والمعذبون من الكفار طبقات ، فمنهم مَنْ طعامُه فى النار الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم ، فلا تناقض بين هذه الآية وبين قوله : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ »[1] .

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ) أى : إن طعامهم ليس من جنس الطعام الذى يذهب الجوع ويمد بالسِّمَنِ ، وإنما هو من شوك ، والشوك مما ترعاه الإبل وتقبل عليه ، وهذا نوع منه تعرض عنه الإبل ولا تقربه ؛ فليس له من منفعة الغذاء شىء ؛ وقيل : إنه طعام عنده يتضرع إلى الله – تعالى – ويطلب الخلاص عنه . وليس فيه منفعتا الغذاء أصلًا ، وتنكير الجوع للتحقير ، أى : لا يغنى من جوع مَّا .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية رقم : ٣٦ .

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾)

المفـــردات :

(نَاعِمَةٌ) : من النعومة ، وكُنِّى بها عن البهجة وحسن المنظر .

(رَاضِيَةٌ) : أى قد رضيت بسعيها .

(عَالِيَةٌ) : مرتفعة ، أو عالية القدر ، فالعلو إما حسى وإما معنوى .

(لَاغِيَةً) أى : لا تسمع فيها نفسًا لاغية ، والمراد أنها لا تتحدث باللغو : وهو كل قبيح من الكلام ، أو كل ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، أو هو الباطل .

(مَرْفُوعَةٌ) : كثيرة الفُرُش عالية السمت .

(وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) أى : معدة بين أيديهم ، والأكواب : جمع كوب ، وهو قدح لا عروة له .

(وَنَمَارِقُ) أى : وسائد صنعت للاتكاء عليها ، والنمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة – بضم النون والراء ، وبكسرهما وفتحهما .

(وَزَرَابِىُّ) أى : بُسُطٌ عراض فاخرة ، أو هى الطنافس التى لها خَمْل وهو الهدب ، واحدها زَرْبِيَّةٌ – مثلثة الزاى .

التفسير

٨ - ١١ - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) :

لمَّا ذكر - سبحانه - حال الأشقياء شرع فى رواية حديث أهل الجنة ، وتقديم حكاية أهل النار لأنه أدخل فى تهويل الغاشية ، وتفخيم حديثها ، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة ، وما يتقبلونه فيها من النعيم بعد حكاية سوء حال أهل النار ، ممَّا يزيد المحكى - حسنًا وجمالًا .

والمعنى : أن وجوه المؤمنين يوم القيامة ناعمة ، أى : ذات بهجة ، وحسن ، وإشراق ونضارة ، كقوله - تعالى - : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ »[1] ولا تكون كذلك إلَّا إذا كانت فرحة بما لقيت من جزاء سعيها فى الدنيا ، وهذا المعنى على أن ناعمة من النعومة ، وأما إذا كانت من النعيم ، فيكون المعنى : وجوهٌ متنعمة فى الجنة يوم القيامة ، وهى وجوه المؤمنين ؛ جزاء طاعتهم ، وإيمانهم بالله تعالى ، ولم تعطف هذه الجملة (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ) على ما قبلها وهى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) إيذانًا بكمال تباين مضمونهما .

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) أى : راضية بعملها الذى عملته فى الدنيا تنفيذًا لأمر ربها ، واتباعًا لهدى الرسول ﷺ حيث شاهدت ثمرته (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أى : مرتفعة السمت ، ووصفها بذلك لأن خير الأماكن ما كان مرتفعًا شاهق البناء كقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز وأطول

أو فى جنة عالية القدر ، فالعلو إما حسى أو معنوى ، وجمع بينهما أبو حيان ، وعلو القدر : أن تكون رفيعة فى أوصافها ومزاياها ، وبما اختصت به من ألوان النعيم ، وسميت دار النعيم بالجنة لأن اسمها مأخوذ من الاجتنان ، وهو الستر ؛ لتكاثف أشجارها ولتظليلها بالتفاف أغصانها (لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً) الإسناد إلى الوجوه والمراد : أصحابها الذين يتأتى خطابهم أى :

---

(١) سورة المطففين ، الآية : ٢٤ .

لا تسمع فيها كلمة ذات لغو أو لا تسمع نفسًا تلغو ، فإن كلام أهل الجنة ذِكْر وطاعة وحمدٌ لله على ما رزقهم من النعيم الدائم ، ويراد باللَّغو : الباطل ، أو كل قبيح من الكلام ، أو مالا يعتد به من الأَقوال والأَفعال ، وفى تنزيه نعيم أهل الجنة عمَّا هو من لوازم نعيم غيرهم فى الدنيا تنبيه للمؤمنين إلى أنه لا يليق بهم أن يكونوا من أهل اللَّغو مهما فاض عليهم النعيم ، واتسعت لهم النعمة ، بمعنى أن نعيمهم ينبغى أن يكون نعيم أهل الفضل والجد لا نعيم أهل الجهل والحمق .

١٢ – ١٥ – (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) :

أى : فى تلك الجنة عين عظيمة لا ينقطع ماؤُها عن الجريان ، أو عيون كثيرة ، كقوله – تعالى – : (عَلِمَتْ نَفْسٌ) أى : نفوس ، والتنوين فى (عين) للتعظيم ، أو التكثير ، ووصف ماءَ العيون بالجريان للإشارة إلى أنه بارد صافٍ ، لأَن ماءَ العيون إذا كان جاريًا يكون فى العادة باردًا صافيًا مع ما فى منظر الماءِ الجارى من مسرة وارتياح . (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أى : أن سرر الجنة مرفوعة عن الأَرض ، أو رفيعة المقدار ، كثيرة الفرش ؛ زيادة لهم فى الراحة والنعيم . قالوا : فإذا أرادوا الجلوس عليها تواضعت لهم . (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) بين أيديهم لمن أرادها من أصحابها ، أو موضوعة على حافة العيون ، معدة للشرب ، لا تحتاج إلى من يملؤها ، وهى قداح لا عُرى لها . (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ) وهى الوسائد التى صف بعضها إلى بعض للاستناد إليها ، والاتكاءِ عليها ، سواءٌ أكانت هذه على السرر أو فى جوانب المسكن ، فإذا أراد المؤمن أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى .

والنمارق : جمع نُمْرُقَة ، وهى الوسادة الصغيرة .

١٦ – (وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) :

أى : بسط عراض فاخرة ، مبسوطة هنا وهناك لمن أراد الجلوس عليها ، أو مفرقة فى المجالس . وقال الفراءُ : هى الطنافس التى لها خمل رقيق ، أى : هدب ، وقال الراغب : إنها فى الأَصل ثياب محبرة منسوبة إلى موضع ، ثم استعيرت للبسط ، وواحد الزرابى : زربية – مثلثة الزاى .

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(الْإِبِلِ) : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، يصدق على القليل والكثير ، وهو مؤنث ، والإبل : الجمال .

(سُطِحَتْ) أى : بسطت ومهدت للإقامة عليها .

(بِمُصَيْطِرٍ) أى : بمسلط عليهم قاهر لهم .

(إِيَابَهُمْ) أى : رجوعهم بعد الموت إلينا لا إلى سوانا . والإياب : مصدر (آب) ، بمعنى رجع .

التفسير

١٧ - (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) :

استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشية . وما هو مبنى عليه من البعث الذى هم فيه مختلفون ، وذلك بالاستشهاد عليه بأربعة أدلة مشاهدة لا يستطيعون إنكارها .

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال : لَمَّا نعت الله - تعالى - ما فى الجنة عجب من ذلك أهل الضلال ، فأنزل - سبحانه وتعالى - : (أَفَلَا يَنظُرُونَ) الآية .

والهمزة للإنكار والتوبيخ ، أى : أينكرون البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله - عز وجل - فلا ينظرون إلى الإبل التى هى نصب أعينهم ، يستعملونها كل حين ،

ولا يستطيعون إنكارها كيف خلقت خلقًا بديعًا معدولًا به عن سنن خلق سائر أنواع الحيوانات فى عظم جثتها ، وشدة قوتها ، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتّى ما يصدر عنها من الأعمال الشاقة كتحمل الأثقال العظيمة وهى باركة ؟ ثم إيصالها الأحمال الفادحة إلى مختلف الأقطار ؟ وفى صبرها على الجوع والعطش حتى إن ظمأها ليبلغ ثمانية أيام ، وقدرتها على قطع الفيافى والقفار مع لين وسهولة فى السير حتى اعتبرت بحق سفينة الصحراء؟!وفى أنها تكتفى فى غذائها بما تيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم ! وهى مع ضخامتها تنقاد للضعيف ، وتخضع للصغير وتبرك لتحمل من قرب ، ثم تنهض بما تحمل ! وينتفع بأصوافها وأوبارها وألبانها ولحومها ! وفيها غير ذلك من المزايا التى لا يماثلها فيها حيوان آخر !

وخُصَّت بالذّكر لأنها أعجب ما عند العرب ، ولهم على أحوالها أتم وقوف ، وعن الحسن أنها خُصت بالذكر لأنها تأكل النوى والقَتّ ، وتخرج اللبن ، وقيل له : الفيل أعظم فى الأعجوبة ، فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره كما يركب ظهر البعير من غير مشقة فى ترويضه ، ولا يحلب دره .

والتناسب بينها وبين المتعاطفات عليها - كما قال عصام الدين- :إن خيال العرب جامع بين الأربعة ، لأن ما لهم النفيس الإبل ، ومدار السقى لهم على السماء ، ورعيهم فى الأرض ، وحفظ مالهم بالجبال .

١٨ - ٢٠ -(وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ‌* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ‌* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) :

أى : وإلى السماء التى تقع عليها أبصارهم ليلًا ونهارًا ، كيف رُفعت رفعًا بعيد المدى بلا مساك ولا عمد بحيث لا ينال ذلك الفهم والإدراك؟! وكيف زُيِّنت بنجوم تكثر هذه الكثرة فلا تدخل فى حساب الخلق ، صنع الله الذى أتقن كل شىء خَلَقَه ، كما قال- تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ »[1] .

(١) سورة ق ، الآية رقم : ٦ .

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) على الأرض نصبًا ثابتًا راسخًا مع ارتفاعها الشاهق لئلا تميد الأرض بأهلها وتتزلزل ، وجعل فى تلك الجبال ما جعل مما فيه خيرهم وصلاحهم .

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) أى : مدت بتوطئة وتمهيد ، حسبما يقتضيه صلاح أمور أهلها بحيث يسهل عليهم أن يضربوا فيها ، ويتقلبوا عليها . فهى كلها بساط واحد تنبسط من الأفق إلى الأفق .

فبهذه الآيات الأربعة ، نُبِّهَ البدوى إلى الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى يركب عليه والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى ينتفع بما فيه ، والأرض التى هى مستقره ومثواه ، بها يستدل على أن من خلق هذه الأشياء الشاهدة على قدرة الخالق العظيم ، المالك المتصرف ، لا يعجزه أن يحقق البعث والنشور ، وذلك ليرجعوا عمَّا هم عليه من الإنكار ، والنفور ، ويسمعوا إنذارك ، ويستعدوا ليوم اللقاء بالإيمان والطاعة .

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(بِمُصَيْطِرٍ) : بمسلط عليهم ، قاهر لهم .

(إِلَّا مَن تَوَلَّى) : إلا مَن أعرض عن الطاعة .

(إِيَابَهُمْ) : رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا ، من (آب) إذا رجع .

التفسـير

٢١ - ٢٤ - (فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) :

بدأت الآيات بقوله - تعالى - : (فَذَكِّرْ) فالفاء لترتيب الأمر بالتذكير على عدم النظر فى مخلوقات الله الدالة على قدرته البالغة ، والتى هى نصب أعينهم ،أى : فاقتصر على التذكير ، ولا تلح عليهم ، ولا تعبأ بما يقع منهم من إعراض عن النظر والتفكير ، وقوله - سبحانه - : (إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ) تعليل للأمر بالتذكير وتحديد لذلك الأمر الذى بعث الله لأجله رسوله ﷺ وهو تذكير الناس بالأدلة وبما نسوه من أمور دينهم ، وليس فى سلطانه - عليه الصلاة والسلام - أن يخلق الاعتقاد فيهم ، أو أن يكون رقيبًا على قلوبهم ، لأنه هاد ومرشد ، وليس عليه إلَّا البلاغ .

(لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) أى : لست بمتسلط عليهم ، تقهرهم على ما تريد ، وتدفعهم إليه كقوله - تعالى - : « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ »[1] .

(إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ) أى : لكن من أعرض عن الطاعة وجحد الحق المفروض عليه ، فإن لله - تعالى - الولاية عليه والقهر . (فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) : وهو عذاب الآخرة ، فإنه الأكبر ، وعذاب الدنيا بالنسبة إليه أصغر ، وقيل : المعنى : لست بمصيطر عليهم إلَّا من تولَّى وأقام على الكفر . فإنك مسلط عليه بما يؤذن لك من جهاده وقتله وسبيه وأسره ، وبعد ذلك يعذبه الله - تعالى - فى جهنم . فيكون فى الآية وعيد لهم بجهادهم وقتالهم . حيث يقتلون ويؤسرون . وبعذاب جهنم فى الآخرة . ويجوز أن يكون إيعادًا بالجهاد فقط . على أن المراد بالعذاب الأكبر : القتل وسبى النساء والأولاد . وسائر ما يترتب على الجهاد من البلايا ، فيكون فيه إشارة إلى أن هذه الأمة أكبر عذابها فى الدنيا ذلك العذاب . لا ما كان فى الأمم السابقة من الخسف والمسخ ونحوهما .

---

(١) سورة ق ، من الآية : ٤٥ .

٢٥ ، ٢٦ - (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) :

تعليل لتعذيبه إياهم بالعذاب الأكبر ، أى : إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث ، لا لأحد سوانا لا استقلالًا ، ولا اشتراكًا ، بمعنى أن إيابهم ليس إلّا إلى المقتدر على الانتقام الذى لا يملك هذا العذاب سواه .

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) أى : إن حسابهم علينا فى المحشر لا على غيرنا ، فنحاسبهم على أعمالهم ، ونجازيهم بها جزاءَ أمثالهم ، و (على) فى قوله : (عَلَيْنَا) لتأكيد الوعيد لا للوجوب ؛ إذ لا يجب على الله شىءٌ . وفى تصدير الجملتين بـ « إنَّ » ، وتقديم خبرها ، والإتيان بضمير العظمة ، وعطف الثانية على الأُولى بكلمة (ثم) المفيدة لبعد منزلة الحساب فى الهول والشدة : ما يدل على غاية السخط الموجب لتشديد العذاب . والله أعلم .

سـورة الفجـر

هذه السورة مكية ، وآياتها ثلاثون

مناسبتها لمـا قبلها :

لما ذكر– سبحانه– فى السورة السابقة «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعةٌ» و «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» أتبعه– تعالى– فى هذه السورة بذكر طوائف المكذبين والمتجبرين كقوم عاد وثمود، وقوم فرعون، وهؤلاء وجوههم خاشعة ذليلة، وأشار– سبحانه– إلى الصنف الآخر الذين اتصفوا بأن وجوههم ناعمة بقوله– تعالى– (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) وتلك مناسبة واضحة لمجىء هذه السورة بعد السورة السابقة ، وأيضاً فيها مما يتعلق بأمر الغاشية وما فيها .

اهم مقاصدها :

١ – ذكرت السورة قصص بعض المكذبين لرسل الله، وبينت ما حل بهم من تنكيل، وتدمير (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) الآيات .

٢ – أبرزت ما بدر من الإنسان حينما اختبره ربه فى هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وأشارت إلى طبيعته فى حبه الشديد للمال، والرغبة فى الاستزادة منه، ولا يسألون أهو من حلال أم من حرام ؟ ! (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ..) الآيات .

٣ – تحدثت عن الآخرة وأهوالها وشدائدها، وعن مجىء ربك لفصل القضاء والملائكة صفًّا صفًّا، وإحضار جهنم، وانقسام الناس إلى سعداء، وأشقياء. (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ..) الآيات .

٤ – لفتت الأنظار إلى ندم المفرطين والعصاة، وأسفهم فى وقت لا ينفع فيه الندم، ولا يجدى الأسف، بل هم يومئذ يعذبون عذاباً لا مثيل له، ويوثقون وثاقاً بلغ الغاية فى الضبط والإحكام (يَقُولُ يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ...) الآيات .

٥ – ختمت السورة ببيان أن مرجع المؤمن عند الموت إلى الرحمة والرضوان، ونعيم الجنان (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى ۝ وَادْخُلِى جَنَّتِى) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) : الزوج والفرد من كل شيء .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أي : يمضي بحركة الكون العجيبة ، أو أقسم بالليل وقت أن يُسْرَى فيه ، وإسناد السرى إليه مجاز على حد (ليل نائم) أي : ينام فيه .

(لِذِي حِجْرٍ) أي : لذي عقل ، سمي به لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن التهافت فيما لاينبغي .

(إِرَمَ) هي عاد الأولى ؛ تسمية لهم باسم جدهم ، وقيل : إرم : بلدتهم وأرضهم التي كانوا عليها .

(ذَاتِ الْعِمَادِ) أي : أن قدودهم وقاماتهم كالأعمدة في الطول .

(جَابُوا الصَّخْرَ) أى : قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً ، ومنه : يجوب فلان البلاد ، أى : يقطعها .

(ذِى الْأَوْتَادِ) أى : الجنود الكثيرة ، وكانت لهم مضارب كثيرة ، يشدون خيامها إذا نزلوا بالأوتاد .

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) الصب : التتابع ، والسوط : الجلد المضفور ، أى المجدول ، وذلك مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه ؛ إذ الصب يشعر بالدوام ، والسوط بزيادة الإيلام ، بمعنى أنهم عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً .

(لَبِالْمِرْصَادِ) : وهو المكان الذى يقوم فيه الرصد ، وهذا مثل لإرصاده العباد ، وأنهم لايفوتونه ، وأنه عالم بما يصدر عنهم ، فيجازيهم عليه .

التفسير

١ - ٥ - (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ) :

أقسم الله - سبحانه - بهذه الأقسام الخمسة لشرفها وعظمها ، ولما فيها من الفوائد الدينية والدنيوية ، فأقسم بالفجر - وهو الصبح - لما يحصل به من ظهور الضوء ، وانتشار الناس لتحصيل الرزق ، وقيل : هو صلاة الفجر ؛ لأنها مشهودة يشهدها ملائكة الليل ، وملائكة النهار . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر ، كما أقسم بالليالى العشر لشرفها بما يقع فيها ، والمراد بها : عشر ذى الحجة كما قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً : (مَا مِنْ أَيَّام الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلى اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَٰذِهِ الْأَيَّام) يعنى عشر ذى الحجة . قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : (وَلاَ الْجِهَادُ فى سَبِيلِ اللهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِن ذَلِكَ بِشْىءٍ) ، وقيل : المراد العشر الأول من المحرم وفيها يوم عاشوراء ، وقد ورد فى فضله ماورد . وروى

عن ابن عباس أنهن العشر الأواخر من رمضان ، واستدل له بعضهم بالحديث المتفق على صحته ؛ قالت عائشة – رضى الله تعالى عنها – « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ – تعنى العشر الأواخر من رمضان – شَدَّ مِئْزَرَهُ ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ » وأيًّا ما كان فتنكير ليالٍ للتعظيم ، وقيل: للتبعيض، لأنها بعض ليالى السنة أو الشهر . وكونه للتعظيم والتفخيم أولى .

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) أى : أقسم – سبحانه – بشفع الأشياء ووترها ، أو بشفع هذه الليالى ووترها ، أو بشفع الصلاة ووترها ، أو بيوم النحر وهو شفع ، وبيوم عرفة وهو وتر ، وقد كثرت فيها الأقوال ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أى : وأقسم بالليل وقت أن يسرى فيه ، وإسناد السُّرى إليه مجاز ، على حد « ليل نائم » أى : يُنام فيه ، أو المراد: أُقسم بالليل إذ يمضى بقدرة الله العجيبة ، كقوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ » والقسم بالليل لما فيه من الستر الذى قد يقتضيه الحال ، وجواب هذا القَسَم والأقسام السابقة محذوف يدل عليه قوله–تعالى– « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » إلى قوله: « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى : ليعذبن الذين كفروا بالله ، وأنكروا البعث أشد العذاب وأقساه (هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ) المشار إليه بـ (ذَلِكَ) هو الأمور الخمسة المقسم بها ، والاستفهام للتقرير ، أى : إن فى هذه الأمور المشتملة على باهر الحكمة وعجيب الصنعة قسماً مقنعاً لذى عقل ولب فضلا على أنها مستحقة لأن يقسم بها تنبيهاً على علو شأنها ، وفخامة قدرها لإشارتها إلى الخالق العظيم .

٦ – ٨ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ) :

استشهاد بعلمه – عليه الصلاة والسلام – بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه ﷺ فى الطغيان والفساد ، كأنه قيل : ألم تعلم علماً يوازى العيان فى الإيقان كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم؟! فيعذب هؤلاء أيضاً لاشتراكهم فيما يوجبه

الكفر والمعاصى؟ ! والاستفهام للتقرير ، والمراد بعاد : أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام ابن نوح – عليه السلام – وهم قوم هود – عليه السلام – سُمُّوا باسم أبيهم ، كما سمى بنو هاشم هاشمًا .

وقيل لأوائلهم : عاد الأولى ، ولأواخرهم : عاد الآخرة ، وإطلاق اسم الأب على نسله مجاز شائع حتى أُلحق بعضه بالحقيقة .

(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) . إرم عطف بيان لعاد زيادة فى التعريف بهم ، وللإيذان بأنهم عاد الأُولى ، وهو تسمية لهم باسم جدهم ، والأكثرون على أنها اسم مدينة عظيمة باليمن ، والوصفان لها ، والمراد : ذات البناء الرفيع ، ولقد أرسل الله إلى عاد هودًا – عليه السلام – فكذبوه وخالفوه فنجاه الله ونجى من آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا »[1] وذكرت قصتهم فى القرآن فى غير موضع ، وكانوا يسكنون خيام الشعر ذات الأعمدة التى ترفع عليها – عن قتادة وابن عباس فى رواية عطاء : المراد : ذات الخيام والأعمدة .

وقد يراد بذات العماد الوصف لإرم نفسها ، بمعنى أنها ذات القدود الطويلة ، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ، واشتهر أنه كان طول أحدهم اثنى عشر ذراعاً وأكثر ، وقيل غير ذلك .

(الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ) : صفة أخرى لإرم ، أى : ليس لهم مثيل فى عظم الأجرام ، وقوة البطش فى بلاد الدنيا ، حتى قيل : كان الرجل منهم يحمل الصخرة ، ويلقيها على الحى فيهلك كل من فيه ، وهم الذين قالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً »[2] وكانوا يسكنون عُمَان وحضرموت من بلاد الأحقاف[3] .

---

(١) سورة الحاقة من الآية رقم ٧ .
(٢) سورة فصلت ، من الآية : ١٥ .
(٣) يقال للرمل المعوج : حقف ، والجمع : أحقاف .

قال تعالى : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ »[١] وقد امتن عليهم - سبحانه - بقوله : « وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً »[٢] .

٩ - (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) :

عطف على عاد ، وثمود : قبيلة مشهورة ، سميت باسم جدهم (ثمود) أخى جديس ، وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - كانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وقد جابوا صخر الجبال أى : قطعوه ، واتخذوا فيها بيوتًا نحتوها من الصخر ، كما قال تعالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »[٣] وهم أول من نحت الجبال ، والصخور ، والرخام ، وقيل : إنهم بنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة بوادى القرى .

١٠ - ١٢ - (وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) :

أى : وفرعون ذى الجنود الكثيرة ، وكانت لهم مضارب متعددة يضربون أوتادها إذا نزلوا حتى تستوعب تلك الأعداد الموفورة ، وقيل : إنه كان يدق للمعذب أربعة أوتاد ، ويشده مبطوحاً على الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيرهما .

(الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ) صفة للمذكورين : عاد ، وثمود ، وفرعون ، أى : وعتوا فى البلاد التى كانت لهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان . (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) أى : بالكفر بالله ، واقتراف سائر المعاصى .

١٣ - (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) :

المراد : إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأشدها ، إذ الصب لشىء مائع يشعر بالتتابع والسوط يشعر بزيادة الإيلام ، حيث إنه شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يتخذ عادة للمبالغة فى العقاب ، أى : عذبوا عذاباً دائماً مؤلماً .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٦٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية : ١٤٩ .

١٤ - (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) :

تعليل لما قبله ، والأصل فى المرصاد المكان الذى يقوم فيه الرصد للمراقبة والاستطلاع . والمراد أنه - تعالى - يرقب عمل كل إنسان ، ويحصيه عليه ، ويجازى بالخير خيرًا ، وبالشر شرًّا ، ولا يفوته من الخلق أحد ، ولا من أعمالهم شىء ، ومنهم أولئك الجبابرة الطُّغاة الذين عاثوا فى الأرض فسادًا ، واتخذوا لله أندادًا وشركاء ، وأضرابهم ككفار مكة .

(فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) : عامله معاملة المختبر .

(فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) : أى ضيقه عليه .

(التُّرَاثَ) : المال الموروث .

(أَكْلًا لَّمًّا) أى شديدًا لا تتركون منه شيئاً ، واللَّمُّ : الجمع .

(جَمًّا) : كثيرًا مع حرص يقال : جم الماءُ فى الحوض : إذا كثر واجتمع .

التفسير

١٥ - (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) :

هذه الآية وما بعدها كلام متصل بما قبله ، أي : الواجب لمن علم أن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا يصرف كل همه للعاجلة ، كأنه قيل : إنه - تعالى - لبالمرصاد من أجل الآخرة لمراقبة أحوال عباده ومجازاتهم على أعمالهم خيرًا كانت أو شرًّا ، فهو - سبحانه - لا يطلب إلا السعي لها ، أما الإنسان فقد عكس ، وأصبح كل همه الدنيا ولذائذها (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) أي : عامله معاملة المختبر بالغنى واليسار (فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ) بالمال الوفير ، والجاه العريض ، وأسباب القوة والعزة (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) أي : أكرمني بذلك لمزيد استحقاق له ، فيرى أن الإكرام فى كثرة الحظ من الدنيا ، ولم يخطر بباله أنه فضل تفضل الله به عليه فى دنياه ليختبره هل يشكر أو يكفر ؟ ! كما قال الله - تعالى - : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »[1] .

١٦ - (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) :

وأما هو - أي : هذا الإنسان - إذا ما اختبره ربه (فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) أي : جعله ضيقاً بمقدار ما يحفظ به رمقه ، ليرى هل يصبر أو يجزع (فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) أي : إنه يرى الهوان والمذلة فى الفقر ، وقلة الحظ من الدنيا التى هى كل همه ، وغفل عن أن التقتير قد يؤدى إلى كرامة الدارين ، وأن التوسعة قد تفضى إلى خسرانهما ، وأن كل ما يقع قد اقتضته الحكم البالغة لله - تعالى - فإن الله يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، فقد يوسع على الكافر وهو مهان ، ويضيق على المؤمن وهو مكرم ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى الحالين ؛ بأن يشكر الله إذا كان غنياً ، وأن يصبر إذا كان فقيرًا .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

١٧ - (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) :

بدئت الآية بقوله سبحانه (كَلَّا) لردع الإنسان عن قوليه المحكيين فى الآيات السابقة والتكذيب له فيهما ، وقال ابن عباس- رضى الله عنهما - المعنى : لم أبتله بالغنى لكرامته علىّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر ، وقوله - سبحانه - (بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) إلى آخره ، انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفِعْلِ ، وتوجيه الخطاب إلى كفار مكة الداخلين فيما سبق دخولا أوليا لتشديد التقريع أى : بل لكم أفعال وأحوال أشد شرا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال الذى أكرمكم الله بكثرته فتبخلون به ، وتحرمون اليتيم الذى هو أهل له ، وأحق بالبر به والإحسان إليه كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خَيْرُ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ » وورد أيضاً : (أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِى الْجَنَّةِ ، وقرن بين أصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام) كما رواه البخارى ومسلم .

١٨ - (وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

أى : لايحض بعضكم بعضاً على إطعام المساكين ، ولا تأمرون به ، والمراد من المسكين : ما يعم الفقير .

١٩ - (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا) :

أى : وتأكلون المال الموروث أكلا ذا لَمٍّ وجمع من أى جهة حصل لكم من حلال أو حرام ، وكانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أنصباءهم ويقولون : لا يأكل الميراث إلا من يقاتل ويحمى الحوزة ، أو يأكلون ما تركه المورث سواء أجَمَعَه من حلال أم من حرام عالمين بذلك .

وفى الكشاف : يجوز أن يذم الوارث الذى ظفر بالمال سهلا مهلا من غير أن يفرق فى جمعه فيسرف فى إنفاقه ، ويأكله أكلا واسعًا جامعًا .

٢٠ - (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) :

أى : كثيرًا ، كما قال ابن عباس . وزاد بعضهم : فاحشا ، والمراد : أنكم تحبونه مع حرص وشره ، والْجَمُّ : الكثير .

(كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(دَكًّا دَكًّا) الدك : الهدم وكسر الحائط والجبل ، أى : دكت الأرض مرة بعد أخرى حتى صارت هباءً منثورًا .

(وَجَاءَ رَبُّكَ) أى : أمره وقضاؤه .

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) : ومن أين له التذكر؟ ! استفهام إنكارى لتحقيق أنه ليس يتذكر لعدم جدواه ولوقوعه بعد أوانه .

التفسـير

٢١ - (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) :

يخبر - تعالى - عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، والشدائد المذهلة فيقول : (كَلَّا) وهى ردع وزجر لهم عن أفعالهم القبيحة ، وقد يكون معناها « حقًّا » وقوله

- سبحانه -: (إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) إلى آخره استئناف جئ به بطريق الوعيد تعليلا للردع .

أى : إذا هدم كل ما على الأرض بالدك والزلزلة مرة بعد أخرى حتى انكسر وتفتت ، وأصبح كل ما على وجهها من جبال ، وقصور وأبنية وحصون هباءً منثورًا ، وتكرير الدك للاستيعاب ، بمعنى أنها دكت دكا متتابعًا ، وقال المبرد : الدك : حط المرتفع بالبسط والتسوية ، وعليه فالمعنى : إذا سويت الأرض تسوية بعد تسوية ، ولم يبق على وجهها شئ حتى صارت كالصخرة الملساء ، وأيا ما كان فهو عبارة عمَّا عرض لها عند النفخة الثانية .

٢٢ - (وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) :

أى : وجاء أمر ربك وقضاؤه بحذف المضاف للتهويل ، واختار جماعة أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره ، ووضوح آثار قدرته وسلطانه - عز وجل - ورأى السلف - رضى الله عنهم - أنه مجئ من غير تكييف ولا تمثيل نؤمن به ولا نطلب معناه .

(وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أى : جنسهم ، فيشمل ملائكة السمٰوات والأرض جميعًا ، يجيئون بين يدى ربهم مصطفين ، أو ذوى صفوف ، فإنه قيل : ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب مراتبهم ومنازلهم محدقين بالإنس والجن . وروى أن ملائكة كل سماء تكون صفا حول الأرض ، فالصفوف سبعة على ما هو الظاهر ، والآية تصور لنا الهيبة والعظمة ، وظهور السلطان الإلٰهى فى ذلك اليوم .

٢٣ - (وَجِيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ) :

أى : وكشفت جهنم يوم القيامة للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، فالمجئ متجوز فيه كما فى قوله تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ »[1] ، وقوله سبحانه : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »[2] والأرجح أن يكون المجئ على حقيقته ، فقد أخرج مسلم والترمذى

---

(١) سورة النازعات ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الشعراء : ٩١ .

وابن جرير وغيرهم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) ، وفى رواية بزيادة (حتى تُنصب على يسار العرش لها تَغَيّظ وزفير) .

قال الآلوسى : وحمله على المجاز لا يدعو إليه إلّا استحالة الانتقال الذى يقتضيه المجىء الحقيقى ، وهو لعمرى غير مستحيل ، فيجوز أن تخرج وتنتقل من محلها فى الحشر ثم تعود إليه ، والحال فى ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان . اهـ

(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ) أى : فى ذلك اليوم العصيب ، والموقف الرهيب تذهب الغفلة ويتذكر الإنسان عمله الذى نسيه ، وفرط فيه ، وذلك بمشاهدة آثاره وأحكامه ، أو بمشاهدة عينه ، بناء على أن الأعمال تتجسم فى النشأة الآخرة ، فتبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة أو القبيحة أو (يتذكر) من التذكر بمعنى الاتعاظ ، أى : يتعظ بما يرى من آثار قدرة الله – عز وجل – وبالغ عظمته ، وقوله – سبحانه – : (وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) اعتراض جىء به لتحقيق أن ما وقع منه ليس بتذكر حقيقة لخلوه عن الفائدة ؛ لكونه وقع فى غير أوانه ، أى : ومن أين تكون له منفعة الذكرى وقد فات وقتها بمضى الحياة التى أضاعها بغفلته ؟! ولو كان على بصيرة من أمره لعلم أن الحياة هى دار العمل ولا جزاء فيها ، وأن الآخرة التى تذكر فيها هى دار الجزاء ولا عمل فيها .

٢٤ – (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) :

استئناف وقع جوابًا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا يكون عند تذكره ؟ فقيل : (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) أى : يدفعه ما يقبض به نفسه من الندم والحسرة إلى أن يقول : يا ليتنى قدمت عملًا صالحًا ينفعنى فى آخرتى فهى حياتى فى الباقية ، أو يا ليتنى قدمت وعملت أعمالًا نافعة وقت حياتى فى الدنيا لأنتفع بها اليوم .

٢٥ ، ٢٦ – (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) :

فنى ذلك اليوم الذى ذكر فيه ما سبق من الأحوال والأقوال كدك الأرض ، ومجئ ربك والملائكة صَفًّا صَفًّا ، وكشف جهنم للناظرين أو الإتيان بها ، وتذكر الإنسان لما نسيه فى

ذلك اليوم ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الهاءُ إما لله ، أى : لا يتولى عذاب الكافر ووثاقه بتقييده بالسلاسل والأغلال لا يتولى ذلك أحد ولا يباشره أحد إلّا الله ، إذ الأمر كله له - تعالى - فى ذلك اليوم ، والمراد أنه ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله لذلك الكافر وإما أن تكون الهاء للإنسان الموصوف ، أى : لا يُعَذِّب ولا يوثق أحد من الزبانية أحدًا من أهل النار مثل ما يعذبون ذلك الكافر ويوثقونه ، كأنه أشدهم عذابًا ووثاقًا . لأنه أكثرهم سيئات وقبائح ، وبعد أن ذكر الألوسى هذا الوجه قال : وهو وجه حسن ، بل هو أرجح من الأول ، وقيل : إن الضمير يراد به أبى بن خلف ، أى : لا يعذب أحدًا أبدًا مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل مثل وثاقه لتناهيه فى كفره وعناده أحد .

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

المفـردات :

﴿رَاضِيَةً﴾ : بما أعطاها الله من النعم الكثيرة .

﴿مَرْضِيَّةً﴾ : يرضى الله عنها بما قدمت من عمل صالح .

﴿فِى عِبَادِى﴾ أى : فى زمرة عبادى الصالحين .

التفسـير

٢٧ ، ٢٨ - ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ :

الآيتان وما بعدهما حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله - عز وجل - وطاعته من النفوس الزكية المطمئنة إثر حكاية من اطمأن إلى الدنيا وسكن إليها من المجرمين الظالمين .

والمعنى : ينادى الله النفس المطمئنة ، أى : يقول الله لها : (يَـٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ ..) الآية إما دون واسطة إكرامًا لها كما كلم موسى ، وإمّا على لسان ملك ، واستظهر أن ذلك القول عند تمام الحساب ، وقيل : عند البعث ، وقيل : عند دخول الجنة ، ويراد بها النفس الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا فزع يوم القيامة ، المتوفاة على الإيمان ، المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين وبرودته بحيث لا يخالطها شك ، ولا يمازجها سخونة اضطراب القلب فى الحق أصلا ، لأنها إذا وصلت إلى معرفته – تعالى – حق المعرفة اطمأنت واستغنت به – سبحانه – عن وجودها ، وسائر شئونها ، ولم تلتفت إلى ما سواه – جل وعلا – وذلك أعلى مراتب الاطمئنان .

(ارْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ) أى : إلى محل عنايته – تعالى – وموقف كرامته – عز وجل – وإلى ما أعد لعباده فى جنته ، ولا يخفى ما فى قوله – سبحانه – : (إِلَىٰ رَبِّكِ) من مزيد اللطف (رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) أى : راضية بما تعطاه من النعم الكثيرة ، ومرضية عند الله بما عملت رضى عنها وأرضاها .

٢٩ ، ٣٠ – (فَادْخُلِى فِى عِبَادِى * وَادْخُلِى جَنَّتِى) :

أى : فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين المخلصين وانتظمى فى سلكهم ، واستضيئى بضوئهم .

(وَادْخُلِى جَنَّتِى) أى : مع عبادى ، ويراد بهم الخواص كما قال تعالى : « وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »[١] وكان الأمر بالدخول فى جملة عباد الله الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح . والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية .

---

(١) سورة النمل ، من الآية : ١٩ .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت الآيات ، فروى الضحاك عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنها نزلت فى عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنه – حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس ، وقيل : نزلت فى خبيب بن عدى الذى صلبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال : اللهم إن كان لى عندك خير ، فحولَ وجهى نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها . فلم يستطع أحد أن يحوله بعدُ ، وقيل : هى عامة فى المؤمنين ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والله أعلم .

سورة البلد

هذه السورة مكية ، وآياتها عشرون

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذم الله سبحانه وتعالى فى السورة التى قبلها – وهى (سورة الفجر) – ونعى على من أحب المال حبا جما وأكل التراث أكلًا لَمًّا جمع فيه بين الحلال والحرام وما يحمد وما لا يحمد ، ولم يحض ويحث على إطعام المسكين ، ذكر هنا – جل شأنه – الخصال التى تطلب من صاحب المال لينجو من العذاب الأليم ويقى نفسه من غضب ربه ، وهذه الخصال هى تخليص العبيد من الرقّ ، وإطعام ذوى الفاقة والحاجة .

وكذا لَمَّا ذكر هناك النفس المطمئنة ذكر هنا بعض ما يحصل به اطمئنان نفس الرسول والمؤمنين ، حيث وعد الله رسوله ﷺ بدخول مكة وفتحها .

بعض مقاصد السورة :

١ – بدأت السورة الكريمة بالقَسَم بمكة لحرمتها وشرفها ؛ لأن فيها أول بيت وضعه الله لعبادته – تعالى – ولأنها مولد الرسول ﷺ وموطن آبائه من لدن إسماعيل – عليه السلام – إيماءً إلى شرف رسوله ، وتعظيمًا لمنزلته ومكانته عند ربه .

٢ – أبانت السورة أن الإنسان قد جعله الله فى مكابدة ومشقة من يوم ولادته إلى يوم القيامة ، إشارة إلى أن العاقل ينبغى أن يؤمن ويعمل صالحًا كى يدخل الجنة فيحسن ماله وينعم فى أخراه ؛ فيستريح من معاناة الشدائد ، ولا تسلمه أعماله القبيحة إلى النار وبئس المصير (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ) .

٣ – جاءت السورة بنعم جليلة امتن الله بها على عباده ؛ حثًّا لهم على أن يؤدوا شكرها ويقوموا بحقها ويجاهدوا فى تحقيقها ؛ حتى يجتازوا العقبة الكئود التى تعترض طريقهم إلى الجنة ، وذلك بإنفاق المال فى فك إسار الأرقاء من قيد العبودية ، وفى إطعام الفقراء واليتامى والمساكين ، وذلك بعد أن يكون الإيمان قد تمكن من قلوبهم : (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ...) إلى قوله – تعالى – : (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن الناس يوم القيامة صنفان : أهل اليمين والبركة أو أصحاب الجنة : (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) وصنف الشؤم والبوار ، أو أهل النار : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(حِلٌّ) : حلال ، أى : يحل لك أن تقاتل فيها ، وقيل غير ذلك وسيأتى .

(فِى كَبَدٍ) : فى مشقة وشدة ، وأصله : من كبد الشخص كبدًا : إذا وجعه كبده ، ثم استعمل فى كل تعب ومشقة .

التفسـير

١ - (لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) :

المراد بالبلد هنا : مكة المكرمة - زادها الله تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا - وفضلها معروف ومعلوم ؛ حيث جعلها الله - تعالى - حرمًا آمنًا ، وجعل مسجدها قبلة لأهل الأرض جميعًا « وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »[1] ، وجعل من دخله كان آمنًا ، وشرف مقام إبراهيم فقال - سبحانه - : « وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى »[2] وأمر الناس بحج هذا البيت

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٤٤ .	(٢) سورة البقرة : من الآية ١٢٥ .

« وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ »(١) كما قال فى حقه - تعظيمًا له - : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا »(٢) ، وقد حرم - سبحانه - صيد هذا المكان المبارك ، وقطع شجره ، وجعله بإزاء البيت المعمور فى السماء ، إلى غير ذلك من الفضائل والمزايا التى لا تتأتى لغيره من الأمكنة فى الأرض سوى البقعة الطيبة المباركة التى دفن فيها سيدنا رسول الله ﷺ فهى أفضل مكان فى الأرض وفى السماء ؛ لأنها تضم جسده الشريف .

هذا ، وفى رحاب مكة المكرمة يكون التلاقى حيث البيت العتيق فى ابتداء الأمر أول بيت وضع للناس ، ثم رسالة سيدنا محمد ﷺ تأتى فى النهاية خاتمة للرسالات ، فيجمع الله لتلك البقعة المباركة بين عظيم البدء وكريم النهاية .

ولَمَّا اجتمعت هذه الفضائل لمكة أقسم الله بها ، وله - سبحانه - أن يقسم بما شاء على ما شاء ، قال تعالى : (لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) أى : أُقسم بهذا البلد لشرف مكانته وسموّ منزلته وحرف (لا) هنا لتأكيد القسم وتقويته ، وهذا كثير ومألوف فى اللغة العربية .

٢ - (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) :

هذا وعد من الله لرسوله بأنه سينزله ويمكنه من البلد الحرام (مكة) ويحلها له فيفتحها ويقاتل بها ويقتل من شاء ويترك من شاء ، وقد جعل الله له ذلك يوم الفتح ، فقد أمر رسول الله ﷺ بقتل عبد الله بن خطل ، ومقيس بن صبابة يوم الفتح ، قال ﷺ : « إنَّ اللهَ - تعالى - حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِىَ حَرَامٌ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، لَم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِى ، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِى ، وَلَمْ تَحِلَّ لِى إلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَلا يُعْضَدُ شَجَرُهَا ، وَلا يُخْتَلَى خَلاهَا ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ، وَلا تَحِلُّ لُقْطَتُهَا إلَّا لِمُنْشِدٍ »(٣) ، فقال العباس : إلَّا الإذخِر(٤) ؛ فإنها لقيوننا(٥) وبيوتنا ، فقال ﷺ : « إلَّا الْإِذْخِر » .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٩٧ . (٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٥ .

(٣) (يعضد) : يقطع : (لا يختلى خلاها) الخلا : الحشيش الرطب ، ولا يختلى : ولا يقطع . (اللقطة) : هى الشىء الذى تجده ملقى فى الطريق فتأخذه (المنشد) : هو الذى يُعَرِّفَ اللقطة بأوصافها .

(٤) (الإذخر) : نبت .

(٥) (القيون) : جمع قين ، وهو الحداد .

وقيل فى قوله تعالى : (وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ) : إنَّ الكفار كانوا يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه الحرمات ، ولكنهم كانوا يستحلون إيذاءك ، ولو تمكنوا منك لقتلوك ، فأنت حل فى اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك مع إكرام الله – تعالى – إياك بالنبوة ، فعن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيدًا أو يعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك ، وعلى هذا فيكون المقام تثبيت لرسول الله ﷺ وبعث له على احتمال ما كان يكابد ويعانى من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوتهم له .

وقيل المعنى : وأنت مقيم وحالٌّ بها ، فكأنه – تعالى – عظَّم مكة من جهة أنه ﷺ مقيم بها ، إلى غير ذلك من الأقوال ، والآية الكريمة تتسع لكل هذه المعانى .

٣ – (وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) :

هذا عطف على قوله – تعالى – : (بِهَٰذَا الْبَلَدِ) وداخل فى المقسم به ، أى : وأقسم بوالد وبما ولد ، والمراد بالوالد هو آدم – عليه السلام – وبما ولد : هم جميع ذريته ، أقسم بهم – سبحانه – إذْ إنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما منحهم – جل شأنه – من البيان والنطق والتدبير ، واستخراج المعلوم ، واستعمار الأرض ، وفيهم الأنبياء ، والدعاة إلى الله ، والأنصار لدينه ، بل إن كل ما فى الأرض مخلوق لهم ، قال تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا »[1] .

وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وعلَّمه الأسماء كلها ، قال – سبحانه – : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ »[2] ، وقيل : أقسم – جل شأنه – بآدم والصالحين من ذريته بناءً على أن الطالحين والمفسدين كأنهم ليسوا من أولاده ، أو أراد بالوالد إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وما ولد : محمد ﷺ وذلك لأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما البيت فى مكة ، ومحمد ﷺ والمؤمنون سكانها .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ٧٠ .

ويحتمل أن الوالد : النبىّ ﷺ لتقدم ذكره بقوله تعالى : (وَأَنتَ حِلٌّ) وما ولد : أمته ؛ لقوله – عليه الصلاة والسلام – : « إِنَّما أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ »[١] فأقسم به وبأُمته بعد أن أقسم ببلده مبالغة فى تشريفه – عليه الصلاة والسلام .

٤ – (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ) :

هذا جواب القسم ، أى : أقسم بالبلد الحرام ووالد وما ولد لقد أوجدنا الإنسان محاطًا بتعب ومشقة وعناء ، فإنه لا يزال يقاسى ضروب الشدائد وفنون المتاعب من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه وما وراء ذلك ؛ فقد خلقه الله أطوارًا كلها شدة ومشقة ، تارة فى بطن أمه ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ يكون الكد والتعب فى تحصيل المعاش ، ويكابد كذلك فى أمر دينه وذلك بالشكر على السَّرَّاء والصبر على الضَّرَّاء ، ويعانى ويُكابد المشاق فى أداء العبادات ، ثم الموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ؛ ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إمَّا فى الجنة وإمَّا فى النار .

(أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(لُبَدًا) : جمًّا كثيرًا .

(النَّجْدَيْنِ) : طريقى الخير والشر ، أو الثديين .

(١) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان .

التفسـير

٥ - (أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) :

أى : أيظن هذا الشقى الذى يؤذى ويناوئ الرسول ويصد عن سبيل الله ويستذل المؤمنين ويستضعفهم ، أيظن ألَّا يقدر أحد على أن ينال منه أو يصيبه بالأذى والضرر ، ويخال ويظن أنه بقوته وجبروته وماله وسلطانه لا يقدر أحد على الانتقام منه ومكافأته على سوء صنيعه ؟ إن الله الذى خلقه فى المشاق والشدائد والمكابدة التى لا يستطيع منها فكاكًا ولا تحولًا إنه - سبحانه - قادر عليه لا يفلت من قبضته ولا يهرب من سلطانه ، فهو وغيره من المخلوقات كلها تحت قهر عظمته ورهن قدرته ووفق مشيئته وإرادته ، ولو كان الأمر للإنسان لما اختار هذه الشدائد .

والاستفهام هنا جاء إنكارًا وتهديدًا لكل إنسان بدر منه ذلك ، وإن قيل : إن الآية نزلت فى أشخاص بأعيانهم كأبى الأشد أسيد بن كلدة الجمحى ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أبى جهل عمرو بن هشام ، أو الحارث بن عامر .

٦ - (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا) :

أى : يقول هذا الصِّنف من الناس - افتخارًا واعتزازًا بما لديه من طريف المال وتليده - يقول : أهلكت وأنفقت مالًا كثيرًا فى المفاخر والعظائم والمعالى والمكارم ، فمن الذى يحاسبنى عليه ؟ وفى الحق أن الأمر ليس كما يزعم هذا السفيه ، بل إن الأموال التى أهلكها كانت معول هدم وأداة تخريب وتسلُّط ، وانتهاكًا للحرمات ، وترويعًا للآمنين ، وتعبيدًا للأحرار وهتكًا للأعراض ، وسفكًا للدماء ، وتضييعًا للعقول ، وكانت عاقبة أمرها سوءًا وذلك باستعمالها للصدّ عن سبيل الله وإيذاء رسوله ﷺ والتنكيل بمن آمن به وصدق ، وهذا السفيه وأمثاله مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، وأنهم إذا رجعوا إلى ربهم يوم القيامة ستكون لهم العاقبة الحسنى ، وقد حكى الله عنهم ذلك بقوله : « وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ »[1] وكذبوا ؛ فقد خيَّب الله ظنهم ورد عليهم بقوله : « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٥٠

بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »[1] ، ويقول : « وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[2] . هذا وإن الله سيحاسبهم على أموالهم من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها ، ولاتزول أقدامهم يوم القيامة حتى يسألوا عن ذلك .

هذا وقد عبر عن الإنفاق فى هذه الوجوه السيئة بالإهلاك إظهارًا لعدم المبالاة ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، أو أنه إشارة إلى أنه مال ضائع لا خير فيه ، أو يقول ذلك إعلانًا عن شدة عداوته لرسول الله ﷺ .

٧ - (أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) :

أى : أيظن ذلك المغرور الأحمق أن أحدًا لم يره حين أنفق وأهلك هذا المال فى تلك الموبقات والمهالك والسفاهات ، أيظن أن ذلك يخفى على الله الرقيب العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؟! إنه - سبحانه - مطلع عليه ، وسيحاسبه يوم القيامة ويجازيه على ما قدم .

٨ - ١٠ - (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) :

جاءت هذه الآيات البينات تذكيرًا لذلك المشرك بنعم الله عليه ليتعظ ويعتبر ويرجع إلى ربه ، أى : ألم نجعل ونخلق له عينين يبصر بهما ، وينظر ويتصرف على ما ينفعه وما يضره ، ويتفكر بعد النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ويرى من بديع صنع الله وكمال إبداعه ما يدلّه على ربه ، وألم نجعل له لساناً لافظاً ينطق به ويكون ترجماناً عما يختلج به فؤاده ، وما يتردد فى صدره ، ويكون لسانه أداة للتآلف والتعارف بينه وبين بنى البشر جميعاً ؛ اقتدار لهم على إعمار الأرض واستقرار الحياة فيها ، وألم نجعل له شفتين يطبقهما على فمه منعا من تناثر الطعام ، وتمكيناً له من نطق سديد لتقيم التفاهم بين الناس ، كما وأن الشفتين للإنسان مظهر من مظاهر تناسق خلقته وكمالها ، فهما آية وعلامة على تكريم

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ .

الله له وكمال عنايته به ، روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال : قال النبي ﷺ :
« يَقُولُ اللهُ – تعالى – : يَابْنَ آدَمَ : قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ نِعماً لا تُحْصِى عَدَدَهَا ، وَلاتُطِيقُ شُكْرَهَا وَإِنَّ مِمَّا أَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكَ أَنْ جَعَلْتُ لَكَ عَيْنَيْنِ تَنْظُرُ بهما ، وَجَعَلْتُ لَهُمَا غِطَاءً فَانْظُرْ بِعَيْنَيْكَ إِلى مَا أَحْلَلْتُ لَكَ ، وَإِنْ رَأَيْتَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَطْبِقْ عَلَيْهِمَا غِطَاءَهُمَا ، وَجَعَلْتُ لَكَ لِسَانًا ، وَجَعَلْتُ لَكَ غِلَاقًا فَانطِقْ بِمَا أَمَرْتُكَ وَأَحْلَلْتُ لَكَ ، وَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَغْلِقْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَجَعَلْتُ لَكَ فَرْجاً ، وَجَعَلْتُ لَهُ سِتْرًا ، فَأَصِبْ بِفَرْجِكَ مَا أَحْلَلْتُ لَكَ ، فَإِنْ عُرِضَ عَلَيْكَ مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ فَأَرْخِ عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، ابْنَ آدَمَ : إِنَّكَ لا تَحْمِلُ سُخْطِى وَلا تُطِيقُ انْتِقَامِى » .

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) :

أى : وأرشدناه إلى طريق الخير ليسلكه فينجو ويفلح ، وبينا له طريق الشر ليناًى عنه ويتجنبه كيلا يهلك ، وذلك حتى لايكون للناس على الله حجة . روى عن قتادة قال : ذُكر لنا أن النبيّ ﷺ كان يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هُمَا النَّجْدَانِ : نَجْدُ الْخَيْرِ ، وَنَجْدُ الشَّرِّ ، فَلِمَ تَجْعَلُ نَجْدَ الشَّرِّ أَحبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَجدِ الْخَيْرِ ؟ » .

وروى عن عكرمة قال : النجدان : الثديان ، وهو مروى عن ابن عباس وعلى – رضى الله عنهما – لأَنَّهُمَا كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، أى : إن الله يهدى ويرشد الرضيع إليهما دون إرشاد أو دلالة من أحد .

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦))

المفردات :

(اقْتَحَمَ) : الاقتحام ؛ الدخُول فى الشىء بسرعة وشدة من غير روية .

(الْعقَبَةَ) : الطريق الوعر فى الجبل ، والمراد بها هنا : الأَعمال الصالحة لما فى القيام بها من المعاناة والمشقة ومجاهدة النفس .

(فَكُّ رَقَبَةٍ) : الفك : تخليص شىء من شىء ، والمراد تخليص رقبة العبد بالإعتاق .

(مَسْغَبَةٍ) : مجاعة ، قال الراغب : الجوع مع التعب .

(مَقْرَبَةٍ) : قرابة .

(مَتْرَبَةٍ) : افتقار ، يقال : ترب : إذا افتقر ، فكأَنه قد لصق بالتراب من الفقر .

التفسير

١١ - (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) :

أى : فهلا أنفق ماله الذى يزعم أنه أهلكه فى المكارم والمفاخر ، أو فى عداوة النبى ﷺ هلاَّ أنفقه فى شكر الله على نعمه العظيمة وآلائه الجليلة ؟ : لم يفعل ذلك ، بل قصر فجحد النعمة وكفر بالمنعم ، واتبع هوى نفسه ، وكان الأُولى به أن يكون عارفاً لفضل ربه ، متعرفاً عليه فى الرخاء ليعرفه فى الشدة ، حاملا نفسه على اقتحام الشدائد والدخول فى الصالحات بمسارعة ومسابقة ، والقيام بمشاق الأَعمال وأكثرها تعباً وعناءً ومجاهدة لنفسه حتى يجتاز العقبة الكئود والحاجز الصعب الذى يحول بين المرءِ ورحمة ربه ورضوانه فى الجنة ، ولا يجتازه إلا بقهر النفس ورياضتها على المكاره ، وحملها على أن تكون تابعة لما جاءَ به الله ، لأَن الجنة قد حفت بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات .

وقيل : هذا دعاءٌ على هذا الكافر ألاَّ يرزقه الله الخير ، أى : فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله فى فك الرقاب وإطعام الجياع .

١٢ ـ (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) :

أى : وما أعلمك وأخبرك ما اقتحام العقبة ومجاوزتها وتخطيها ؛ وهذا ينبئ عن عظيم شأنها وكبير خطرها ، وقد أبانها الله لرسوله بقوله بعد : (فَكُّ رَقَبَةٍ) إلخ .

قال سفيان بن عيينة : كل شىء قال فيه : (وَمَا أَدْرَاكَ) فإنه أخبر به ، وكل شىء قال فيه : (وَمَا يُدْرِيكَ) فإنه لم يخبر به .

١٣ ـ (فَكُّ رَقَبَةٍ) :

أى : الإسهام والمساعدة فى تحرير الرقيق من إسار الرق ، وتخليصه من ربقة العبودية بأن يعطيه بعض ماله ليكون ذلك عوناً له على فكاك نفسه من ذل الرق ، لينعم بالحرية ، والله ـ سبحانه ـ قد خفف على هؤلاء المترفين ذوى النعم الكثيرة فلم يأمرهم بعتق الرقبة كلها حتى لايشق عليهم ذلك ، وإنما حثهم على إعطاء الرقيق المكاتب ما يساعده على تحرير رقبته وتخليصها من الرق ، فقد ورد أن أعرابياً قال : يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة قال : « عِتْقُ النَّسمَةِ ، وَفَكُّ الرقَبَةِ » قال : أو ليستا بواحدة ، قال ﷺ : « لا ، إنَّ عِتْقَ النَّسمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِى عِتْقِهَا » .

هذا ، وإن عتق الرقبة كلها فضلا كبيرًا وثواباً عظيماً بيّنه ﷺ بقوله : « أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِماً كَانَ فِكَاكَهُ مِنَ النَّارِ يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فِكَاكَهَا مِنَ النَّارِ ، يَجْزِى كُلُّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهَا » (١)

١٤ ـ (أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ) :

إطعام الطعام فضيلة ، رغب فيه الإسلام ودعا إليه الرسول الكريم وحث عليه ، غير أنه مع السغب وفى يوم المجاعة والجوع العام يكون أفضل وأزكى وأنمى فى أعمال البر ، روى عنه ﷺ أنه قال : « مِنْ مُوجِبَاتِ الرحْمَةِ إِطْعَامُ الْمُسْلِمِ السَّغْبَانِ » (٢) . أى : إنه قام بالإطعام

---

(١) الترمذى عن أبى أمامة .

(٢) رواه الحاكم وصححه ، والبيهقى متصلا ، ومرسلا .

فى وقت اشتدت بالناس الحاجة ، وعمتهم الفاقة ، وأصابهم الجهد ، وعز فيه القوت وقل الطعام ، وقال الراغب فى المسغبة : الجوع مع التعب .

١٥ - (يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ) :

أى : قات وأطعم هذا الغنى صغيرًا ضعيفاً فُقد أبوه ومات عائله ، وهو لا يملك مالا ولا يجد قوتاً ولا يقدر على كسب ، فضلا على أن هذا اليتيم له بذلك الغنىّ قرابة وصلة ، وفى إطعامه يكون قد جمع بيْن الصدقة وصلة الرحم ، وفيهما من الثواب ما فيهما . وقيل لا يخص القريب نسباً بل يشمل من له قرب بالجوار .

١٦ - (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) :

أى : أو أطعم من أسكنته الحاجة ، وقعد به الفقر ، وهدّه العوز ؛ فلم يملك ما يسد به خَلَّته ، أو يقضى به حاجته ، بل صار فى حالة لا يقيه من التراب شىء فهو كما يقولون يفترش الغبراء ، ويلتحف بالسماء . وقيل : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له .

هذا ، وإن ذلك الغنى الفاجر الذى عناه القرآن سواء أكان شخصاً بعينه أم هو كل من كان على هذا النحو من الغلظة والشدة والقسوة ، إن هذا الفاجر الذى تكبر بماله وتجبر بسلطانه قد ترك ما هو أحق بالإنفاق وأولى بالبذل والإعطاء : من رقيق ذليل، إلى يتيم قريب فقير إلى مسكين معدم مجهود ، ترك ذلك وتجاوزه إلى السفه وإهلاك المال فى غير ما نفع أو خير بل أهلكه فيما يرديه ولا ينجيه من عداوة الرسول ﷺ والصد عن سبيل الله .

(ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(تَوَاصَوْا) : أوصى بعضهم بعضاً .

(أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) : أهل اليمين ، وهى الجهة التى فيها السعداء ، أو أصحاب الْيُمْنِ ؛ لأنهم ميامين ومباركون على أنفسهم وعلى غيرهم .

(أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) : هم أهل جهة الشمال التى فيها الأشقياء ، أو أصحاب الشؤم الشر على أنفسهم وعلى غيرهم .

(مُؤْصَدَةٌ) : مغلقة ومطبقة .

التفسـير

١٧ - (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) :

كلمة (ثُمَّ) هنا تفيد التراخى والتباعد فى الرتبة والفضيلة ، أى : إن مرتبة الإيمان ومنزلته فوق جميع ما سبقه من فك الرقبة وما عطف عليه ؛ لأن الإيمان وحده يكون سبباً للنجاة بدون أعمال ، وذلك فيمن آمن إيماناً كاملا تامًّا ومات فى يومه قبل أن يتمكن من عمل شىء من التكاليف ؛ فإن ذلك ينفعه ويخلصه من النار ، بخلاف الأعمال فإنه لايعتد بها بدون الإيمان .

والمعنى : ثم لا يكون مقتحَماً للعقبة إلا إذا كان من الذين اتصفوا بالإيمان وتحلوا به وماتوا على ذلك ؛ إذ كل عمل لا يكون معه إيمان بالله لا يعتد به ولا ينظر إليه ، قال تعالى فى حق غير المؤمنين : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا »[1] وقال : « وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ »[2] وقيل : إذا فعل الطاعات لوجه الله وهو غير مؤمن ثم آمن بسيدنا محمد ﷺ ومات على الإيمان فإنها تنفعه ، فقد ورد أن حكيم بن حزام قال - بعد ما أسلم - : يا رسول الله : إنَّا كنا نتحنث (نتعبد) بأعمال فى الجاهلية ، فهل لنا فيها من شىء ؟ فقال ﷺ : « أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنَ الْخَيْرِ » .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ . (٢) سورة التوبة ، من الآية : ٥٤ .

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) :

أى : يوصى بعضهم بعضاً بالصبر وحبس النفس ورياضتها على تحمل تبعات الطاعات ومشاقها ، ومغالبة شهوات المعاصى وسورتها وغلوائها ، والبعد عن بطر النعمة والفتنة بها وأشرها ، والتَّجَافِى من الجزع فى المصائب والنوازل وأهوالها .

(وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) :

أى : يحث بعضهم بعضاً على الأخذ بأسباب الرحمة ، وذلك بأن يرحم المظلوم فيعينه على أخذ حقه ، ويشفق على الفقير فيعطيه مما أفاء الله عليه ، ويمنع المقدم على المنكر من مقارفته ، وأن يدل غيره على طريق الخير والحق ، ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما وسعه ذلك ، وفى الجملة يكونون محل رحمة ومكان شفقة : يعاونون غيرهم من أرباب الحاجات وأصحاب الكربات حتى يكون الله فى عونهم ويعمهم برحمته .

وفى قوله : (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) : إشارة إلى تعظيم أمر الله بالصبر على شدائد التكاليف الشرعية ، وبذل الجهد والوسع فيها ، وفى قوله : (وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، هذا وإن الطاعات لاتقوم إلاّ على هذين الأصلين صدق مع الحق - سبحانه - ، وخُلق مع الخلق وشفقة بهم .

١٨ - (أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ) :

أى : أولئك الذين علت منزلتهم وارتفعت مكانتهم باتصافهم بالصفات الجليلة والنعوت العظيمة أصحاب اليمين والبركة ، فهم مباركون وميامين على أنفسهم وعلى غيرهم ممن يعاشرونهم ويخالطونهم ، أو هم أهل الجنة السعداء .

١٩ ، ٢٠ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) :

أى : والذى كذبوا بآياتنا وأنكروها ولم يؤمنوا بها مع كمال ظهورها ووضوح حجتها هم - دون غيرهم - أرباب الشؤم والشر ، وأهل الشقاء والبؤس ، تتسلط عليهم نار شديدة الإحراق ، مطبقة ومغلقة عليهم لا يفتح لهم منها باب ، ولا يخرجون منها من غم أصيبوا به ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، فهم فيها أبد الآباد ، لا تنفك عنهم ، وما هم منها بمخرجين .

ســورة الشمس

هذه السورة الكريمة نزلت بمكة المكرمة وآياتها خمس عشرة آية

صلتها بما قبلها :

أنه لما ختم – سبحانه – السورة التى قبلها (البلد) بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد ذكرهما هنا ولكن بصورة أخرى وأسلوب آخر فقال : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) ، ثم كان قوله – تعالى – فى هذه السورة : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) كالبيان والتوضيح لقوله تعالى فى سورة البلد : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » على أنهما طريقا الخير والشر .

بعض مقاصد هذه السورة :

١ – أن الله – جلت قدرته – ابتدأ السورة الكريمة بالقسم بأنواع من خلقه : بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تبعها وقد اكتمل نوره ، وبالنهار إذا أبان وأظهر الأشياء بضيائه ، إلى قوله : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أقسم – تعالى – بهذه المخلوقات على أن الإنسان يفوز ويسعد إذا تطهر من الذنوب وأنمى نفسه وأعلاها بالطاعات ، وأنه يخسر ويهلك إذا غمس نفسه فى المعاصى وتردى فى الفجور : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) .

٢ – أن السورة جاءت بقصة (ثمود) قوم سيدنا صالح ، وقد كذبوا به وتجاوزوا الحد فى الطغيان حتى عقروا الناقة التى كانت آية ومعجزة دالة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسالة صالح – عليه السلام – ثم ما كان من إهلاك الله لهم بتدبيرهم واستئصالهم وتسوية الأرض بهم . وختمت السورة ببيان أن الله لايخشى عاقبة إهلاكهم فإنه « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾)

المفردات :

(ضُحَاهَا) : ضوؤُها .

(جَلَّاهَا) : أظهر الأَرض وكشفها وأَبان ما عليها .

(يَغْشَاهَا) : يغطى الدنيا ويسترها بظلامه .

(طَحَاهَا) : بسطها ومهَّدها ومدها .

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) : أَنشأَها وأَبدعها بتعديل أَعضائها وقواها الظاهرة والباطنة .

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) : عرَّفها وبيَّن لها رشدها من ضلالها .

(زَكَّاهَا) : طَهَّرَهَا من الذنوب ، أَو زادها وأَعلاها بعمل الطاعات .

(دَسَّاهَا) : نقصها وغمسها وأَخفاها بالفجور .

التفسير

١ - (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) :

أَقسم - سبحانه - بالشمس وهى خلق من خلقه كبير نفعها ، عظيم خطرها ، فهى - بما أَودعه الله فيها - تمد الكائنات بأَسباب الحياة والصحة والنماء ، وتدفع عنها كثيرًا من

الأدواء والأمراض . (وَضُحَاهَا) وأقسم – جلت قدرته – بضحى الشمس – وهو إشراقها وارتفاعها – لأن هذا الوقت يكون أكثر أوقاتها خيرًا ، وأعظمها فائدة ونفعاً ، أو أنه أقسم بهذا الوقت – وهو وقت الضحى – لأنه الوقت الذى يكون فيه الناس فى أمر معاشهم وشواغل دنياهم ، أما عباد الرحمن فهم فى هذه الآونة ينقطعون عن هذه الأعمال ويأخذون أنفسهم من تلك الشواغل ويخلدون إلى ربهم يتبتلون له ويعبدونه بما شرعه من صلاة الضحى .

٢ – (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) :

أى : وأقسم بالقمر فى زمن اكتماله وتمامه وقت أن يتلو ضووُه ضوء الشمس ويتبعها فيتلاقى فيه الضوءان ويتعانق النوران ، وذلك فى الليالى البيض من كل شهر : ليلة الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، حيث ينعم الله على عباده بليل مشرق مضىء ، وهنا فى هذا الوقت الذى يعم فيه الفضل الإلٰهى والفيض الربانى يسنُّ رسول الله ﷺ لأمته أن يشكروا ربهم على هذا الخير فيصوموا نهار تلك الليالى النيّرات المشرقات عرفاناً بعظيم فضله عليهم .

٣ – (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا) :

وأقسم – سبحانه – بالنهار إذا أظهر وأبان مافى الأرض من حيوان وغيره ليكون ذلك عوناً للإنسان على التعرف على ما فيها من خير ونفع له ؛ ليتوخى ويقصد ما يصلح لأمر دينه ومعاشه ، ويبتعد وينأى عما يضره ويؤذيه .

٤ – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) :

كما أقسم بالليل الذى يغطى الكائنات ويسترها فيكون ذلك إيذاناً بالهجوع والسكون فيه قطعاً للكد والتعب ، واستجماماً بعد العناء ، كما يكون انقطاعاً من بعض عباد الله المخبتين الطائعين إلى ربهم يحيون هزيعاً من الليل فى طاعة مولاهم بعيدًا عن صخب النهار ، وضجيج الحياة وإخلاصاً وإفرادًا له – سبحانه – بالعبادة دون رياء أو سمعة أو نفاق ليكون ذلك أرجى فى قبول الطاعة فى وقت يتجلى فيه ربنا على عباده ، وبخاصة فى الثلث الأخير من الليل ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « يَتَنَزَّلَ رَبُّنَا تَبَارَكَ

وتعالى – كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرِ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِى فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ »[1] .

٥ – (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) :

أى : وأقسم سبحانه بالسماء وعظمتها ، وبما اشتملت عليه من أنواع الخلائق البديعة والأسرار العظيمة ، وما فيها من اللوح والكرسى والعرش ، وكونها مقرًّا ومسكناً لأكثر الملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما ضمت من اللطائف العلوية التى لايدرك كنهها ولا يقف على حقيقتها كثير من الخلق . (وَمَا بَنَاهَا) أى : وما خلقها ورفعها ، أقسم بذاته العلية ونسب وأسند بناءها إليه – جلت عظمته – إشعارًا بعظم هذه المخلوقات الجليلة .

أو أن المراد إبداع صنعها وكمال تركيبها ، فقد شد أجزاءها بعضها إلى بعض برباط وثيق كما يشدو يربط أجزاء البناء الواحد .

٦ – (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) :

وأقسم بالأرض التى عليها يستقر الإنسان ويسعى فى إعمارها ، وما فيها من بديع صنعه – سبحانه – من ماء وزرع وحيوان وطير ، وما فى جوفها من معادن ومواد لها نفع كبير للإنسان ، وجميع ما يلج ويدخل فيها ، وما يخرج منها .

(وَمَا طَحَاهَا) وأقسم بمن بسطها ومهدها وَذَلَّلَهَا وهو الله – جل شأنه – وذلك ليتيسر على عباده السير فيها والتقلب فى جنباتها والمشى فى مناكبها ونواحيها ، ابتغاءً للرزق وسعياً وراء الخير والنفع ، وقيل : وطحوها : وبسطها .

٧ – (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) :

وأقسم – جل شأنه – بالنفس ، وهى نفس آدم – عليه السلام – أو كل نفس منفوسة ومخلوقة .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات .

(وَمَا سوَّاهَا) وهو الله ، فقد خلقها -سبحانه- فأحسن خلقها وصورها فأبدع تصويرها ، وذلك على نظام تام عجيب ؛ لتؤدى رسالتها فى الحياة على أكمل وجه . وقيل : وتسويتها وخلقها وتركيبها على صورة كريمة مع إحكام وإبداع .

٨ - (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) :

أى : إنه - سبحانه - عرف كل نفس وأرشدها إلى سبيل الخير والتقوى ودعاها إليه ، كما بين لها طريق الشر والفجور ، ونهاها عن السير فيه واتباعه ، وكان من دعاء رسول الله ﷺ « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها » كما رواه مسلم .

وذكر ابن كثير أن هناك روايات فيها مقال أنه كان يقول ذلك عندما يقرأ الآية .

٩ ، ١٠ - (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) :

هذا جواب القسم (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) وما عطف عليه ، بمعنى : لقد أفلح ، وحذفت منه اللام لطول الكلام المقتضى للتخفيف ، وقيل : الجواب تقديره : لتبعثن ، وقال الزمخشرى : تقديره : ليُدَمْدِمَنَّ الله عليهم - أى : على أهل مكة - لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحًا ، وأما (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) فكلام تابع لقوله : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) جاء على سبيل الاستطراد ، أى : قد فاز ونجا من طهر نفسه من الذنوب بتباعده عنها فلم يقارفها ، أو طهرها ونقَّاها منها بالتوبة النصوح والاستغفار ، وذلك بعد الوقوع فيها أو نمَّاها وزاد فى منزلتها رفعة وسموًّا ، فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البر شهر نفسه ورفعها وأعلى ذكرها ، وقد خسر وهلك من غمس نفسه فى الذنوب وأحاطها بالمعاصى وأخفاها فى الدناءات والفسوق ، فانحطَّ بها إلى درك الرذيلة ومهاوى الكفر فالفاسق الفاجر دائمًا يكون قليل المروءة ، هابط الهمة ، ذليل النفس ، ناكس الرأس ، خاملًا متروكًا منسيًّا ، وذلك بفعله السوء والفحشاء .

وقيل : قد أفلحت نفس زكَّاها الله ، وقد خسرت نفس أضلها الله ، والأول هو المتبادر ، لقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى »[1] .

---

(١) سورة الأعلى ، الآية : ١٤ .

وفى القسم بهذه الكائنات بعث للإنسان على التفكر فى بديع صنع الله والتدبر فى آياته .

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(بِطَغْوَاهَا) : بطغيانها ومجاوزتها الحد فى العصيان ، أو بالعذاب الذى أُنذروا به لأنه كان صيحة مجاوزة للحد .

(انبَعَثَ) : انطلق بسرعة بعد أن بعثه قومه وحرضوه .

(سُقْيَاهَا) : شِربها ونصيبها من الماء الذى اختصها الله به فى يومها .

(فَعَقَرُوهَا) : فقتلوها .

(فَدَمْدَمَ) : فأطبق الله عليهم العذاب ، أوأهلكهم جميعًا .

(فَسَوَّاهَا) : سوّى بلادهم بالأرض ، أو جعلهم سواءً فى نزول العذاب بهم .

(عُقْبَاهَا) : عاقبة إهلاكهم وتبِعَته .

التفسير

١١ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) :

أى : إن ثمود قوم نبىّ الله صالح - عليه السلام - قد كذبت نبيَّها بسبب أنهم قد تجاوزوا الحد فى العصيان والكفر ؛ فطغيانهم حملهم على التكذيب ، أو إنهم كذبوا بالعذاب الذى توعدهم وأنذرهم به ؛ لأنه كان صيحة زائدة عن القدر المعتاد ، قال تعالى : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ »[١] .

(١) سورة الحاقة ، الآية رقم : ٥ .

١٢ – (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) :

أي : كذبت ثمود حين قام شقيها قُدار بن سالف بعدأن بعثه قومه وحرضوه على عقر الناقة ، قال تعالى : « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ »[1] .

١٣ – (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) :

أي : إن ثمود لَمَّا اقترحوا آية من رسول الله صالح تدل على نبوته أخرج لهم – بإذن الله ناقة من الصخرة . وقال لهم : هذه ناقة الله وآيته الدالة على توحيده وقدرته ، وعلى نبوتى ولها شرب يوم من ذلك البئر ولكم كذلك شرب يوم من البئر نفسه . فلكلٍّ نصيبه ، ونهاهم وحذرهم من أن يمسُّوها بسوء ، أو أن يمنعوها من سقياها وشربها فى نوبتها ، ولا يستأثروا به عليها ، فشق ذلك عليهم .

١٤ – (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) :

أي : فكذبوا نبيَّهم صالحًا – عليه السلام – فيما أوعدهم وأنذرهم به من العذاب ، وفعلوا ما حذرهم منه ، فقتلوا الناقة . وأسند العَقْرُ والقتلُ إليهم لأنهم قد رضوا وتواطأوا على ذلك ، بل إنهم قد حرضوا وحضُّوا أشقاهم على اقتراف هذه الفعلة الشنعاء . قال قتادة : بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذَكَرُهُمْ وأُنثاهم .

(فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) أى : أطبق الله عليهم العذاب واستأصلهم به فسوَّى الدمدمة والإهلاك عليهم ؛ لأن الصيحة أهلكتهم جميعًا فأتت على صغيرهم وكبيرهم . وذلك بسبب ذنبهم الذى هو الكفر والتكذيب وعقر الناقة ، أو أهلكهم فجعلهم تحت التراب وسوَّى عليهم الأرض .

---

(١) سورة القمر ، الآية رقم : ٢٩ .

١٥ - (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) :

أى : فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة إهلاكهم من أحد ؛ إذ لا يُسأل - سبحانه - عمَّا يفعل ، ولا معقب لحكمه ، أو لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررًا يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه بصَّرهم فأنذرهم وحذرهم ، ونجَّاه الله حين أهلكهم ، وقيل : ولا يخاف ذلك الكافر الذى قام بعقر الناقة (قدار بن سالف) عاقبة ما صنع ، فقد أقدم على فعلته وهو كالآمن مِن نزول الهلاك به وبقومه ، وذلك كناية عن إيغاله فى الكفر ، وتماديه فى التكذيب ، وإفراطه فى الجهل ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه . والله أعلم .

سورة الليل

هذه السورة الكريمة مكية ، وآياتها إحدى وعشرون آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه – فيما قبلها (سورة الشمس) « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا » ذكر – جل شأنه – فى هذه السورة من الأوصاف والنعوت ما يحصل به الفوز والفلاح ، وما تحصل به الخيبة والخسران (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ) إلى قوله – تعالى – : (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) فنى هذه السورة نوع تفصيل لذلك ، وبخاصة أنه – جل وعلا – عقب بشىء من أنواع الفلاح وأنواع الخيبة ، وذلك من قوله : (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ...) إلى آخر السورة .

بعض مقاصد السورة :

١ – أقسم الله – جلت قدرته – بنوع من مخلوقاته العظيمة التى يتجلّى نفعها وتظهر فائدتها ويتضح جلالها لكل ذى عينين : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) . أقسم – سبحانه – بذلك على أن أعمال الناس مختلفة فى حياتهم ، وأن منها الخير والبر ، ومنها الشر والفجور ، وأنهم متفاوتون فى درجات الخير ، كما أنهم متباينون فى دركات الشر ، وأنهم مختلفون فى الجزاء : ففريق فى الجنة ، وفريق فى السعير (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) .

٢ – بينت السورة طريق الخير بقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ...) إلخ ، وأوضحت سبيل الشر بقوله : (وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ...) الآية ، وحذرت من افتتان بعض الناس بما أعطاه الله من المال ، وأبانت أن ذلك لا ينفعه ولا ينجيه (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) .

٣ – جاءت السورة فى نهايتها بنموذج للطالح الشقى : (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) وبنموذج آخر للصالح التّقى : (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ) وذلك إرشاد للناس ليبتعدوا ويميلوا عن

طريق الشر ، ويعدلوا ويقصدوا طريق الخير ليقيهم الله لظى النار وسعيرها (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى) .

سبب النزول :

الجمهور على أن هذه السورة نزلت فى الصديق أبى بكر - رضى الله عنه - روى ذلك بأسانيد صحيحة عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . وعن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر - رضى الله عنه - يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أىْ بُنَىَّ أراك تعتق أناسًا ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالًا جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟ فقال : أَبَتِ إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله .

وقال السدّى : إنها نزلت فى أبى الدحداح الأنصارى ، وذلك أنه كان فى دار منافق نخلة يقع منها فى دار يتامى فى جواره بعض البلح فيأخذه منهم ، فقال له ﷺ : « دعها لهم ولك بدلها محل فى الجنة » فأبى ، فاشتراها أبو الدحداح بحائطها فقال للنبىّ - عليه الصلاة والسلام - : أَهَبُهَا لهم بالنخلة التى فى الجنة ؟ فقال ﷺ : « افعل » فوهبها ، فنزلت ، والأول هو الصحيح .

ولفظ الآية الكريمة وإن كان عامًّا وهو قوله تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ..) إلخ ، فالصديق - رضى الله عنه - داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فهو مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الصفات الحميدة ؛ فإنه كان صِديقًا تقيًّا كريمًا جوادًا بذّالًا لأمواله فى طاعة الله ، ونصرة رسوله ، ولم يكن لأحد عنده منّة ولا نعمة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يَدٌ لك عندى لم أجزك بها لأجبتك ، وكان الصديق - رضى الله عنه - قد أغلظ له فى المقال ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤)

المفردات :

(يَغْشَىٰ) : يغطى بظلمته .

(تَجَلَّىٰ) : انكشف وظهر .

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) شتّى : واحده شتيت ، أى : مختلف ، وإنما قيل للمختلف : شتيت لتباعد ما بين بعضه وبعضه ، أى : إن عملكم لمتفرق ومختلف فى حقيقته وفى جزائه .

التفسـير

١ ، ٢ - (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ) :

أقسم - سبحانه - بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه، ويسكن الخلق عن الاضطراب والضرب فى الأرض ، ويغشاهم النوم الذى جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ثم أقسم بالنهار إذا جاء انكشف وظهر بضوئه ما كان فى الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها ، فلو كان الدهر كله ليلًا لتعذر على الناس السعى فى معاشهم . ولو كان كله نهارًا لمنعوا الراحة ونالهم الكلال . لكن كانت المصلحة فى تعاقب الليل والنهار . وقال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[1] . وقال - سبحانه - : « وَسَخَّرَ

(١) سورة الفرقان من الآية : ٦٢ .

لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ »[1] أى : أقسم بالليل إذا غطى النهار أو يغطى كل شىء بظلمته ، أو يغشى الأرض ويسترها بظلامه ، وأقسم بالنهار إذا انكشف وظهر ضوؤه .

٣ - (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) :

القَسَم إما بالخلق وإما بالخالق ، فأقسم بخلق الذكر والأُنثى ، وما فى هذا الخلق من إبداع واقتدار حيث خلقهما من نفس واحدة ، وغاير بينهما فى كثير من الغرائز والصفات والطبائع فتركيب كلٍ مختلف عن تركيب الآخر فى كثير من الأعضاء والغدد وغيرها ، والذكر يتباين فى بعض المهام عن الأُنثى ، ولكلٌ خصائصه ودوره ورسالته فى الحياة ، أو أقسم بالخالق وهو الله القادر العظيم الذى خلقهما على نظام بديع وإبداع حكيم ، وأنه - جلت قدرته - جعل الحياة لا ينتظم أمرها ولا يستقيم شأنها إلَّا بهما معًا ، هذا والمراد بالذكر والأُنثى ، آدم وحواء ، أو جميع ذوى الأرواح الذين هم أشرف المخلوقات .

٤ - (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ) :

هذا جواب القسم ، أى : إن عملكم لمتباين ومختلف فى جزائه ، فمنكم الصالح التقى الذى يثاب على عمله بالجزاء الحسن ، ومنكم الكافر والمذنب الذى يعاقب على ما بدر وصدر منه وفقًا لعدل الله فى إثابة الصالح ومعاقبة العاصى والكافر ، كما أن عملكم لمختلف ومتباين فى الدنيا أيضًا ، فبعض الناس يحرث ، وآخر يصنع ، وذاك يداوى ، وسواه يعمل فى شئون الحياة المختلفة ، لأنها لا تسير ولا تستقيم إلَّا بتعاون الناس كلٌ فى شأن من شئونها وعمل من أعمالها ؛ حتى يشعروا جميعًا أن كلاًّ منهم فى حاجة إلى الآخر ؛ ليتم التعاون ويكمل الترابط ، ويتخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا ، فلا يشعر أحد أنه فى غنى عن الآخر .

---

(١) سورة إبراهيم : من الآية : ٣٣ .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾)

المفردات :

(بِالْحُسْنَىٰ) : بكلمة التوحيد : لا إلهَ إلَّا الله ، أو بملة الإسلام ، وقيل غير ذلك .

(لِلْيُسْرَىٰ) : للخصلة المؤدية والمفضية إلى اليسر والراحة .

(لِلْعُسْرَىٰ) : للخصلة والصفة الموصلة إلى العسر والشدة والعذاب .

(اسْتَغْنَىٰ) : زهد ورغب عمَّا لدى الله من الثواب ، وقيل غير ذلك .

(تَرَدَّىٰ) : سقط وهلك ، تَفَعَّلَ من (الردى) وهو الهلاك .

التفسير

٥ - (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ) :

هذا تفصيل وتفريع يوضح تباين الناس واختلافهم فى سعيهم وعملهم ، أى : فأما الذى يعطى ويمنح ممَّا رزقه الله وأعطاه ؛ فيبذل الغنى بعض ماله للفقير ، ويرشد العالمُ الجاهل ، ويهدى الراشد الضال ، ويعطى الطبيب من علمه وطبه المريض أخذًا بأسباب الشفاء ، ويمنح صاحب الجاه والسلطان من جاهه وسلطانه مظلوماً يعينه على أخذ حقه ، أو يدفع عنهُ حيفًا وقع به ، أو يرد ويمنع ظالمًا عن ظلمه ، فإن كل ذلك عون على الخير ، وبذل من عطاء الله . وذلك حملاً للإعطاء على معناه الواسع الذى يعم بذل المال وغيره ، قال تعالى :

« وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » (١) .

(١) سورة البقرة من الآية : ٣ .

(وَاتَّقَى) أى : كان فى وقاية من غضب الله وعقابه ، فلم يفعل ما نهى الله عنه ، واتقى المحارم ، أو اتقى وبَعُد عن البخل ، أو اتقى الرياء وأخلص لله عمله .

٦ - (وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ) :

أى : وأيقن بكلمة التوحيد وهى (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ) أو بملة الإسلام ، أو مُصدقًا بأن الله - تعالت عظمته - سيعطيه الخلف والعوض الذى وعده الله به فى قوله تعالى : « وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ »[1] ، وكلمة (الحسنى) تسع كل خصلة حسنة ؛ إذ كلها ترجع إلى ثواب الله الذى هو الجنة .

٧ - (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ) :

للعاقبة اليسرى والمآل الحسن ، أى : فسنسهل عليه كل ما كلف به من الطاعات فيفعلها ونيسر له سبيل البعد عن المنهيات فيتركها ، أو نيسر له العود إلى الطاعة التى فعلها . قالوا : أمارة قبول الطاعة أنها تثمر وتفضى إلى طاعة ، وكل هذا له المصير الكريم لدى الله - سبحانه -

٨ - (وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ) :

أى : وأما الذى ضن وشح وبخل بعطاء الله له ؛ فلم يبذل منه شيئًا لمحتاج إليه ، ولم يفرج كربة مكروب ، ولم يغث ملهوفًا ، ولم يعن مظلومًا ، ومنع الموجود ، وأساء الظن بالمعبود .

وبالجملة ، فإنه انغلق على نفسه ومنعها الخير ، وظن أن ما عنده إنما ناله بعلمه وذكائه وفطنته .

٩ - (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ) :

أى : وكفر فلم يعتقد بكلمة التوحيد ، أو كذب بالجنة ، أو بما وعده الله من الجزاء والخلف والعوض ، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (مَا مِنْ

---

(١) سورة سبأ من الآية : ٣٩ .

يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا) كما رواه مسلم .

١٠ ـ (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ) :

أى : للخصلة المفضية والمؤدية إلى العسر والشدة : كعذاب القبر ، وشدة الحساب ، ودخول النار ، أى : سنهيئه لذلك ونعده له ؛ إذ قد علم الله ذلك منه وقدره عليه .

وقيل : التيسير فى العطاء بمعنى اللطف ، وفى البخل بمعنى الخذلان ، واليسرى والعسرى الطاعة ، لكونها أيسر شىء على المتقى وأعسره على غيره ، والمعنى على هذا : فأما من أعطى فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها ، من قوله تعالى : « فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ »[1] وأما من بخل فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه وأشد ، وذلك من قوله تعالى : « وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »[2]

١١ ـ (وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ) :

أى : وما ينفعه ماله ولا يدفع عنه العذاب فى النار إذا سقط وهلك فيها .

والمعنى : فماذا يغنى ويمنع عنه ماله الذى بخل به وتركه لورثته ولم يصحبه منه شىء إلى آخرته التى هى موضع فقره وحاجته ، كما قال تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ »[3] ، وقال : « وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا »[4] أى : لا ينجيه هذا المال الذى تركه إذا هلك وسقط فى النار ، إنما الذى ينتفع الإنسان به هو ما يقدمه لنفسه من أعمال البر : كإعطاء الأموال فى حقوقها دون المال الذى يخلفه على ورثته .

(١ ، ٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٤ .

(٤) سورة مريم ، من الآية : ٨٠ .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(لَلْهُدَىٰ) : للإرشاد والتبيين لطريق الخير من طريق الشر .

(لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) : للدنيا والآخرة .

التفسـير

١٢ - (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) :

أى : إن أمر إرشاد العباد وتبيين طريق الهدى وما يؤدى إليه ، وتمييزه عن طريق الضلال وما ينتهى إليه - إن هذا الأمر - من شأننا نحن وليس لأحد سوانا دَخْلٌ فيه ، غير أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ليس عليهم إلَّا البلاغ فحسب ، قال تعالى : « إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »(١) .

١٣ - (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ) :

أى : إن التصرف الكلى المطلق فى الدارين - الدنيا والآخرة - لنا وحدنا نفعل فيهما ما نشاءُ وكيفما نشاءُ ، أو إن لنا كل ما فى الدارين ، فلا ينفعنا اهتداؤكم كما لا يضرنا ضلالكم : « مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا »(٢) .

وما دام الأمر كذلك فإن على العاقل أن يعتمد على ربه فى طلبهما ، ولا يلجأُ أو يركز إلى أحد فى ذلك ؛ لأنه يكون قد أخطأَ الطريق ، وجانبه التوفيق .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الإسراء من الآية : ١٥ .

(فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(فَأَنذَرْتُكُمْ) : فحذرتكم وخوفتكم .

(تَلَظَّى) أصله : تتلظى ، أى : تتوقد وتتاهب .

(لَا يَصْلَاهَا) : لايجد صلاها وهو حرها .

(وَسَيُجَنَّبُهَا) : وسيكون فى جانب والنار فى جانب آخر ، أى : يكون بعيدًا عنها .

(يَتَزَكَّىٰ) : يطلب من الله أن يكون طاهرًا من الذنوب ، أو يكون ناميًا زائدًا فى الخير .

(نِعْمَةٍ) : منة ويد .

(تُجْزَىٰ) : يكافأُ صاحبها عليها .

التفسـير

١٤ ـ (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ) :

أى : فحذرتكم وخوفتكم يا أهل مكة نارًا تتوهج وتتوقد .

١٥ ـ (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ) :

أى : لا يعذب بين طبقاتها إلَّا الكافر ، فإنه أشد شقاءً من الفاسق والعاصى ، ثم بين ـ سبحانه ـ ذلك الأشقى بقوله :

١٦ - (الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) :

أى : الذى كذب بالحق وكفر بوحدانية الله فاعتقد له الشريك ، أو جحده وأنكره كما كذب برسله - عليهم الصلاة والسلام - وأعرض وأدبر عن طاعة الله وتجنبها .

هذا ، وقد يبدو أن غير الأشقى كالعصاة والفساق لا يعذبون فى النار ، والأمر ليس كذلك إذ الصلى فى اللغة : أن يحفروا حفيرة فيجمعوا فيها جمرًا كثيرًا ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه ، فالمعنى - إذن - : لا يعذب بين أطباق النار ولا يقاسى حرها على وجه الأشدّية إلّا الأشقى ، أما العاصى والفاسق فلا يعذب بين أطباقها ولا يقاسى حرها على هذه الصورة ، ولا يلزم منه أنه لا يدخلها ولا يعذب بها أصلًا ، بل يجوز أن يدخلها ويعذب بها على وجهها فى الطبقة الأولى عذابًا دون ذلك العذاب ، حتى إن بعض العصاة من تبلغ النار إلى كعبه ، وأشد العصاة من تبلغ وتصل إلى موضع سجوده فيحسه ، ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها البتّة بوعد الله تعالى .

١٧ - (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) .

أى : وسيكون الأكثر تقى المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى - سيكون - فى جانب ، وتكون النار فى جانب آخر ، فلا يحوم حولها بل يمر بها ويطّلع عليها دون أن يؤلم بمسها ، ويُصَارُ به إلى الجنة ، وإنما أطلعه الله عليها إظهارًا لإكرامه له بإنجائه من عذابها وجعله فى دار كرامته ، قال تعالى : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »[1] .

١٨ - (الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ) :

هذا بيان للصفات التى يتحلى بها الأتقى ، والتى اقتضت أن يجنب النار ، أى : هو الذى يعطى ماله ويصرفه ابتغاء تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب ، أو هو الذى يرغب ويطلب من ربه أن يكون زاكيًا ناميًا فى الخير ، مسارعًا ومسابقًا فيه ، لا يريد بعمله هذا رياء ولا سمعة ، إنه سيكون بعيدًا عن هذه النار .

(١) سورة مريم الآيتان: ٧١ ، ٧٢ .

١٩ - (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ) :

هذه الآية جاءت مقررة ومؤكدة للآية السابقة ، أى : إن هذا الأتقى قد قدم ما قدم من المال والخير والعمل الصالح للتزكى والتطهر ، وليس لشىء آخر ، فليس مكافأة على يد قدمت له ، أونعمة أسديت إليه ، حتى لا يكون قد قصد بإعطاء ما بذل مجازاة لصاحب النعمة .

٢٠ - (إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ) :

أى : لكنه فعل ما فعل لخالص وجه الله من غير أن يشوبه طمع فى ثواب أو رهبة من عقاب .

٢١ - (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) :

هذا وعد من الله للأتقى بأنه - سبحانه - سينيله وسيعطيه كل ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها . وقيل : ولسوف يرضى الله عنه ، لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه - عز وجل .

وبالجملة فلا بدَّ من حصول الأمرين - رضا العبد ورضا الله - كما قال تعالى : «يَٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً »[1] . والله أعلم .

(١) سورة الفجر الآيتان : ٢٧، ٢٨

سورة الضحى

هذه السورة الكريمة مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

صلتها بما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه – فيما قبلها (سورة الليل) قوله تعالى : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » وكان سيدُ كل الأتقياء هو رسول الله ﷺ عقب – سبحانه – ذلك بذكر نعمه – عز وجل على رسوله – عليه الصلاة والسلام – فى تلك السورة من قوله : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ..) إلى قوله : (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) وجاء فى كتاب روح المعانى للآلوسى : وقال الإمام : لَمَّا كانت السورة الأُولى (سورة الليل) سورة أبى بكر – رضى الله عنه – وهذه سورة رسول الله ﷺ عقب – عز وجل – بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ؛ ليعلم أن لا واسطة بين رسوله ﷺ والصديق – رضى الله عنه – وتقديم سورة الصديق على سورته ﷺ لا يدل على أفضليته منه ﷺ ألا ترى أنه – تعالى – أقسم أولًا بشىء من مخلوقاته – سبحانه – ثم أقسم بنفسه – عز وجل – فى عدة مواضع منها السورة السابقة على ما عرفت ، والخدم تتقدم بين يدى السادة ، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة ، ولا يضر النَّوْرَ تأخرُه عن أغصانه ، ولا السِّنَان كونه فى أطراف مُرَّانه[1] ، ثم ما ذكر زهرة ربيع لا تتحمل الفرك كما لا يخفى .

بعض مقاصد السورة :

١ – أنها أكدت – بالقسم – أن رسول الله ﷺ لم يتركه ربه ولم يبغضه ، وإنما هو عنده فى كريم المكانة ، وجلال القدر ورفيع المنزلة : (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى) .

٢ – أنها جاءت بما يثلج صدر الرسول ﷺ ويقر عينه ؛ وذلك بأن بشرته بأن عطاء ربه له عظيم ، فسيعطيه ويمنحه ما يرضيه : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) .

---

(١) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، الواحدة : مرانة .

٣ - أن الآيات - بعد ذلك - ذكّرت الرسول - عليه الصلاة والسلام - بنعم الله عليه ليكمل إيناسه ويزيد اطمئنانه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ) .

وكانت نهاية السورة وصيته - سبحانه - لرسوله ﷺ أن يكون على تذكُّر دائم لنعم الله السابقة عليه ، وذلك بأن يرعى اليتيم ويؤويه ، ويعطف على السائل والمحتاج ويعطيه ، وأن يذكر ويحدث بنعم الله عليه شكرًا له - سبحانه - وتعليمًا لعباده حتى يكونوا على الجادة وسواء الصراط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾)

المفردات :

(الضُّحَىٰ) : وقت ارتفاع الشمس بعد بزوغها وطلوعها .

(إِذَا سَجَىٰ) : إذا سكن أهله ، وقيل غير ذلك .

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ) : ما تركك ربُّك منذ اختارك ، وأصل (ودع) من التوديع ، وهو من الدعة وهو أن تدعو للمسافر أن يدفع عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة وخفض العيش ثم صار متعارفًا على تشييع المسافر وتركه ، ثم استعمل فى الترك مطلقًا .

(وَمَا قَلَىٰ) : وما أبغضك منذ أحبك .

سبب النزول :

اشتكى النبىّ ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلّا قد تركك : فأنزل الله – عز وجل – (وَالضُّحَىٰ ...) الآية . رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم . قيل : إن المرأة هى العوراءُ بنت حرب زوج أبى لهب ، وهى حمالة الحطب .

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم : لَمَّا نزلت « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ... » الآية ، قيل لامرأة أبى لهب أم جميل : إن محمدًا ﷺ قد هجاك ، فأتته – عليه الصلاة والسلام – وهو جالس فى الملأ فقالت : يا محمد علام تهجونى ؟ فقال : « إِنِّي مَا هَجَوْتُكِ ، مَا هَجَاكِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى » ، فقالت : هل رأيتنى أحمل حطبًا أو فى جيدى حبلًا من مسد ؟ ثم انطلقت فمكث رسول الله ﷺ لا ينزل عليه ، فأتته فقالت : ما أرى صاحبك إلّا قد ودعك وقلاك فأنزل الله ذلك .

التفسير

١ ، ٢ – (وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ) :

أقسم – سبحانه – بالضحى ، وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى بشعاعها ، وأقسم بالليل إذا سجى وسكن أهله ، أو إذا غطى بظلامه النهار ، أو ستر كل شىء .

وخص وقت الضحى بالقسم ؛ لأنه وقت اجتماع الناس ، وكمال أنسهم بعد الخوف وعدم الاطمئنان فى الليل لظلمته وانقطاع الحركة فيه ؛ فبشره – سبحانه – بأنه بعد وحشتك بسبب فترة الوحى يظهر الضحى بنزوله ، ويكمل أنسك وينشرح صدرك . وكان قسمه – سبحانه – بالليل ؛ لأنه وقت الراحة بعد العناء ، والسكون بعد الحركة والاضطراب ، أو أنه – جل شأنه – أقسم بالضحى والليل ؛ لأنهما وقتان فيهما صلاته – عليه الصلاة والسلام – التى جعلت قرة عينه ، وسبب مزيد قربه وأنسه ، أما الضحى فلما رواه الدارقطنى عن ابن عباس مرفوعًا : « كُتِبَ عَلَيَّ النَّحْرُ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ ، وأُمِرْتُ بِصَلَاةِ الضُّحَى وَلَمْ

تُؤْمَرُوا بِهَا » ، وأما الليل فلقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا »(١) أو أنه أقسم بالضحى لأنه الساعة التي كلَّم الله فيها موسى – عليه السلام – وألقى فيها السحرة سجَّدًا لقوله تعالى : « وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى »(٢) وأقسم بالليل لأنه الوقت الذى أُسرى وعرج به ﷺ إلى بيت المقدس ، ثم إلى السموات العلا ، فإلى سدرة المنتهى ؛ فاكتسب الضحى والليل تلك الفضيلة ، وهذه المزية لكون كل منهما ذان وقتًا وظرفًا لحدث عظيم .

٣ – (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ) :

هذا جواب القسم ، أى : ما تركك ربك منذ اصطفاك ، ولا أبغضك بعد أن أحبك واجتباك ؛ فأنت لديه فى رفيع المكانة وجليل القدر ، وشرف المنزلة التى لا تدانيها منزلة أحد من الخلق .

وحذف المفعول فلم يرد بلفظ (وما قلاك) لئلا يواجه – عليه الصلاة والسلام – بنسبة القلى والبغض إليه وإن كان فى كلام منفى وذلك لطفًا به ﷺ وشفقة عليه .

واختلفوا فى قدر مدة انقطاع الوحى ، فقال ابن عباس : خمسة وعشرون يومًا ، وقيل : أربعون يومًا ، أو اثنا عشر يومًا ، أو خمسة عشر يومًا ، أو أربعة أيام ، قال العلامة الآلوسى – بعد أن أتى بهذه الأقوال : وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ، ولا يكاد يعلم على التحقيق إلَّا منه – عليه الصلاة والسلام – والله تعالى أعلم .

كما اختلفوا فى سبب احتباس جبريل – عليه السلام – : فذكر بعض المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف فقال : « سَأُخْبِرُكُم غَدًا » ولم يقل : « إن شاء الله » ، وقيل : السبب كون جرو (كلب صغير) فى بيته ، وقيل غير ذلك ، ويحتمل أن فترة الوحى كانت لزيادة تشويق الرسول ﷺ إلى الوحى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٩ .

(٢) سورة طه من الآية ٥٩ .

حتى يكتمل أنسه وفرحه بنزوله ، فقد روى البخارى أن النبى ﷺ قال لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » ؟ فنزلت « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »[١] .

قال الإمام الفخر الرازى فى تفسيره : هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ لو كان من عنده لما امتنع .

٤ - (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ) :

لَمَّا نزل قوله تعالى : « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » حصل لرسول الله ﷺ بهذا تشريف عظيم ، فكأنه - عليه الصلاة والسلام - استعظم هذا التشريف ، فقيل له : (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ) أى : إن هذا التشريف وإن كان عظيمًا إلَّا أن مَالَكَ عندنا فى الآخرة خير منه وأعظم ، أو أن المعنى : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية ، كأنه - تعالى - وعده بأنه سيزيده كل يوم عزًّا إلى عز ، ومنصبًا إلى منصب ؛ أو أن خيرات الدنيا مشوبة بالآفات والنقص والانقطاع ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة كاملة دائمة .

٥ - (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) :

هذا ترَقٍّ وسمو بقدر رسول الله ﷺ ورفع لمنزلته ، فبعد أن أبان - عز وجل - أنه فى محل الإعزاز والتكريم ، وأنه لم يتركه ولم يبغضه بعد أن أحبه واجتباه ، وأن الآخرة تكون خيرًا له وأفضل مما أكرم به فى الدنيا ، بعد ذلك سوف يكون الإرضاء التام ، وتحقيق ما تصبو إليه نفس الرسول ويرجوه ، وذلك بأن يعطيه ربه كل ما يرجوه منه - سبحانه - حتى يكون ﷺ راضيًا وتلك المنزلة هى الشفاعة فى جميع المؤمنين .

ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول الله تعالى فى إبراهيم : « فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[٢] ، وقول عيسى : « إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ »[٣] فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِى » وبكى ، فقال الله - تعالى - لجبريل : « اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيهِ » فأتى جبريلُ

---

(١) سورة مريم ، من الآية : ٦٤

(٢) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٦

(٣) سورة المائدة ، من الآية : ١١٨

النبىّ ﷺ فأخبره ، فقال الله - تعالى - لجبريل : « اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ : إنَّ اللهَ يَقُولُ لَكَ : إنَّا سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلانَسُوؤُكَ » .

وقال على - كرم الله وجهه - لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله - تعالى - « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ »[١] قالوا : إنا نقول ذلك ، قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) .

هذا وقد ورد فى الحديث الشريف أن هذه الآية لَمَّا نزلت قال النبىّ ﷺ : « إذًا وَاللهِ لاأَرْضَىٰ وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِى فِى النَّارِ » كما ذكره القرطبى فى تفسيره . وذكره الطبرى عن ابن عباس فى أهل البيت .

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾)

المفردات :

(آوَىٰ) : جعل له مأوى يأوى إليه ، وضمه إلىٰ من يرعاه .

(ضَآلًّا) : غافلًا لم تكن تدرى القرآن والشرائع التى لاتهتدى إليها العقول وإنما طريقها الوحى .

(عَآئِلًا) : مفتقرًا مُعْدِمًا ، من (عال الرجل) يعيل عيلة : إذا افتقر .

---

(١) سورة الزمر من الآية ٥٣ .

(تَقْهَر) : تذله وتحقره ، أو تظلمه .

(تَنْهَر) : تزجره وتغلظ له فى القول .

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : وانشر أنعم الله عليك بالشكر والثناء .

التفسير

٦ - (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ) :

عدد - سبحانه - نعمه ومننه على رسوله ﷺ تقوية لقلبه ووعدًا له بدوام نعمه عليه فيزداد فؤاده الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورًا وانشراحًا وحبورًا أى : قد علمك ربك صغيرًا ، قد مات أبوك فضمك إلى من قام بأمرك ورعاك ، فكان - عليه الصلاة والسلام - بعد أمه فى حجر جده وعنايته ، ثم كفله عمه الشقيق الشفيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب ، أو باختيار الرسول له ، وكان أبو طالب شديد الاعتناء به إلى أن بعثه الله ، وكان يرى منه فى صغره ما لم ير من صغير ، قال أبو طالب لأخيه العباس بن عبد المطلب : وكنت كثيرًا ما أسمع منه كلامًا يعجبنى ، وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده . وكان يقول فى أول الطعام : باسم الله الأحد ، فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله . فكنت أعجب منه . ولم أر منه كذبة ولا ضحكًا ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون . وقيل : ألم أجدك يتيمًا لم ترغب فيك المراضع فآواك إلى مرضعة تحنو عليك . ورزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك .

٧ - (وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ) :

أى : ووجدك وعلمك غافلًا عن الشرائع التى لا تهتدى إليها العقول وإنما طريقها وسبيلها هو السماع . فهداك الله إلى مناهجها وطرقها . وذلك فى أثناء ما أوحى الله إليك من الكتاب المبين . وعلمك ما لم تكن تعلم .

وجمهور العلماء على أنه – عليه الصلاة والسلام – قد فطر على الإيمان بالله ، وما كان ﷺ على دين قومه لحظة واحدة بدليل قوله تعالى : « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ »[1] ، وأنه كان يتعبد فى الغار قبل البعثة على دين إبراهيم .

وقيل : ضل فى الطريق وهو مع عمه أبى طالب فى رحلة الشام عندما عدل إبليس بناقته ﷺ عن الطريق فجاء جبريل – عليه السلام – وردّه إلى القافلة ، وقيل ضل عن جده فى شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه فردّه إلى جده وهو متعلق بأستار الكعبة يضرع إلى الله – تعالى – ويقول :

يارب ردَّ ولدى محمدًا اردده ربِّ واصطنع عندى يدا

٨ – (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ) :

أى : عَلِمَكَ مفتقرًا فأغناك بما أفاء الله عليك من ربح التجارة فى مال السيدة خديجة وبما وهبته – رضى الله عنها – له ﷺ .

أو أغناك بالقناعة ، فجعل قلبك راضياً ، أو أغناك بالحجج والبراهين .

٩ – (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) :

أى : لا تقهره بظلمه ، ولا تتسلط عليه بأخذ ماله ، بل عليك أن تدفع إليه حقه . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله ، وفيه أيضاً تذكير للرسول ﷺ بيتمه ليكون أكثر رعاية له ، ودلت هذه الآية على اللطف والشفقة على اليتيم وبره والإحسان إليه ؛ لأن ذلك يلين القلب ويذهب قسوته وغلظته ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال : « إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ . وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ »[2] وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ كَهَاتَيْنِ » وأشار بالسبابة والوسطى .

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٢ .

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

١٠ - (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) :

أي : لا تغلظ له القول ولا تزجره ، ولكن تلطف معه وردّه ولو بعطاء قليل أو ردٍّ جميل واذكر فقرك . وقد روى أن النبي ﷺ قال : « رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفِ شَاةٍ » والرسول ﷺ يشير بهذا إلى أن الملائكة قد تأتى فى صورة من يسأل أصحاب المال وذوى النعم اختباراً لهم وابتلاء . وقيل : المراد بالسائل هنا : الذى يسأل عن الدين ويريد أن يعرف ماجهل منه ، أو ما التبس عليه فيه ، أى : فلا ترده بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين هذا ، وإن إجابة السائل عن الدين فرض كفاية على العالم .

وعن أبى هارون العبدى قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى - رضى الله عنه - يقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - قال : « إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا »[1] .

١١ - (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) :

أى : انشر وأظهر وأذِعْ ما أنعم الله به عليك بالشكر والثناء؛ فالتحدث بنعم الله والاعتراف بها شكر ؛ أخرج البخارى فى الأدب وغيره عن رسول الله ﷺ مرفوعاً « مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ »[2] ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار ، وظن الاقتداء به ، وأمن على نفسه الفتنة .

جاء فى تفسير القرطبي : وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا فقلنا له : يا أبا فراس : إن مثلك لا يقول هذا : قال : يقول الله تعالى : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) وتقولون أنتم : لا تحدث بنعمة الله .

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى فى تاريخه .

(٢) رواه الترمذى ، وضعفه .

والمراد أمر الرسول ﷺ أن يتحدث بما أفاضه الله عليه من ضروب النعم وفنونها ، ومن جملتها ما تقدم ، وما أوحى الله إليه به .

وحاصل المعنى : أنك كنت يتيماً وضالا وعائلا ، فآواك الله ، وهداك ، وأغناك ، فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث ، واقْتَدِ بالله فَتَعَطَّفْ على اليتيم وَآوِهِ ، فقد ذقت اليتم ورأيت كيف فعل الله بك ، وتَرَحَّمْ على السائل وَتَفَقَّدْهُ بمعروفك ، ولا تزجره وترده عن بابك ، كما رحمك ربك فأغناك بعد فقر ، وحدث بنعم الله كلها ، ويدخل فى ذلك هدايتك الضُّلَّالَ وتعليمهم الشرائع والقرآن مقتدياً بالله فى أن هداك وأرشدك ، وفى الدعاء النبوى المأثور : « .. وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ ، مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ ، قَابِلِيهَا ، وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا » اللَّهُمَّ آمين .

سـورة ألم نشرح

هذه السورة مكية ، وعدد آياتها ثمان ، وتسمى أيضا سورة الشرح

مناسبتها لما قبلها :

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، أى : بسورة « الضحى » حتى إنه روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : إنهما سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى ذلك الشيعة ـ كما حكاه الطبرسى منهم ـ ورد ذلك الإمام. وقال الآلوسى : والحق أنهما متصلتان معنى مع كونهما سورتين يفصل بينهما بالبسملة ، ويدل على شدة اتصالهما ما فى حديث الإسراء الذى أخرجه ابن أبى حاتم أن الله تعالى قال لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، ولا أذكر إلا ذُكرت معى ... إلى آخره ، والجمع بينهما فى الحديث يدل دلالة قوية على ما بينهما من تناسب .

أهـم مقاصدها :

ابتدأت بالحديث عن نعم الله العديدة على عبده محمد ﷺ وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وعصمته من الذنوب والآثام ، وتيسير أعباء النبوة عليه حتى أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة . قال تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ..) الآيات .

ثم تحدثت كذلك عن إعلاء منزلته ﷺ والتنويه بما بلغه من تكريم وتعظيم حيث جعله مذكورًا على لسان كل مؤمن مقروناً باسمه جل وعلا . قال تعالى : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

ثم طمأنت الرسول وهو ومن معه يقاسى الشدائد والأهوال من كفار مكة ، طمأنته إلى ما ينتظره من الفرج ، والنصر القريب على الأعداء ، قال تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

وختمت السورة بتذكير الرسول بما يجب عليه بعد الفراغ من أمر الدعوة ، ومقتضيات الجهاد ، وذلك ببذل الجهد فى عبادة أخرى بحيث لايخلى وقتاً من أوقاته منها متجها إلى رَبِّه وحده بمسائله وحاجاته ، قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) : أى ألمْ نوسعه ، ونجعله رحيباً بما أودعناه فيه من الحكم والعلوم ؟ ! والاستفهام للتقرير ، كأنه قيل : قد شرحنا لك صدرك .

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) : الوزر : الحمل الثقيل ، أى : حططنا عنك حملك الثقيل الذى تلقيه عليك أعباءُ النبوة .

(أَنقَضَ ظَهْرَكَ) : أى : أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض ، وهو الصوت الخفى الذى يسمع من الرحل فوق ظهر البعير من ثقل الحمل وشدته ، والكلام على التمثيل .

التفسـير

١ ـ ٤ ـ (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) :

المعنى : ألم نوسع لك صدرك بإخراجك من تلك الحيرة التى كان يضيق لها لما تلاقيه من جحود قومك وعنادهم؟ وذلك بما أودعناه فيه من الحكم والعلوم والهدى ونور الإيمان ؛

حتى يتيسر لك تلقى ما يوحى إليك بعد ما كان يشق عليك ! ؟ وعن الحسن : ملىء علما وحكمة .

وقيل المعنى : ألم نفسح لك صدرك حتى وسع عالمى الغيب والشهادة وجمع بين ملكتى الاستفادة ، والإفادة ، ووجه نسبة الشرح إلى الصدر : لأنه لما كان محلا لأحوال النفس ، ومخزنًا لسرائرها من العلوم والإدراكات ، والملكات ، والإرادات وغيرها - عبَّرَ بشرحه عن توسيع دائرة تصرفات النفس بتأييدها بالقوة القدسية ، والكمالات الإلهية .

وعن ابن عباس وجماعة أنه إشارة إلى شق صدره الشريف فى صباه - عليه الصلاة والسلام وقد وقع هذا الشق على ما فى بعض الأخبار ، وهو عند مرضعته حليمة السعدية ، وقد ذكر ذلك كثير من المفسرين .

وفى حديث لأبى يعلى ، وأبى نعيم وابن عساكر ما يدل على تكرار هذا له - عليه الصلاة والسلام - وهو عند حليمة ، وروى أنه وقع له أيضاً وهو ابن عشرين سنة وأشهر ، كما فى الدر المنثور ، ووردت فى شق الصدر للرسول ﷺ روايات كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إليها فى أمكنتها من كتب السيرة ، والله وحده أعلم بمدى صحة ما قيل .

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) : عطف على مضمون الجملة السابقة . كأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، أى : خففنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء النبوة ، ومشاق القيام بأمرها ، والوزر : الحمل الثقيل ، وقيل : المراد به الأمور التى فعلها ﷺ عن اجتهاد وعُوتِبَ عليها ، ووضعها : غفرانها كقوله تعالى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] واختار أبو حيان كون وضع الوزر كناية عن عصمته ﷺ من الذنوب وتطهيره من الأدناس ، عبر عن ذلك بالوضع ، على سبيل المبالغة فى انتفائه .

(الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ) أى : الذى أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض يصدر عنه لثقل الحمل ، وهو صوت خفيف كالصوت الذى ينبعث من الرحل على ظهر البعير لثقل الحِمْل ، والكلام على التمثيل ، مثل به حاله - عليه الصلاة والسلام - مما كان يثقل عليه ويؤلمه من عدم

---

(١) الفتح ، من الآية : ٢ .

إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع مما لا يُدْرك إلا بالوحى ، أو من حرصه على إسلام المعاندين من قومه ، وتلهفه عليه وغير ذلك من أمور تثقل عليه ﷺ .

« وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » بالنبوة وغيرها ، وأىُّ رفع أكمل وأسمى من أن يقرن اسمه ﷺ باسمه - عزَّ وجلَّ - فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة ، وجعل طاعته طاعته فى غير موضع من القرآن . فقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ »[1] « واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ »[2] وصلى عليه مع ملائكته ، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه ، وخاطبه بالألقاب فى قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ » « يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ » « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ » وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به ، وذكره سبحانه فى كتب الأولين ، وفى حديث مرفوع أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَانِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ - فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : أَتَدْرِى كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ ؟ قُلْتُ : اللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ، قَالَ : إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِى » واقتصرَ بما ذكر على ما هو أعظم قدرًا من أفراد رفع الذكر .

(فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾)

المفردات :

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ) يقال : عسر الأمر عسرًا ، مثل : قرب قرباً ، وعسارة بالفتح فهو عسير ، أى : صعب شديد ، إشارة إلى ماهم فيه من فقر وضيق .

(يُسْرًا) أى : سعة وغنى .

(فَانْصَبْ) أى : فَأَتْعِبْ نفسك فى طلب الآخرة ، ونَصِبَ نصباً ، من باب : تَعِبَ : أعيا

(١) من الآية : ٥٩ من سورة النساء. (٢) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .

التفسـير

٥ - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) :

وعد للنبي ﷺ بتيسير كل عسير له وللمؤمنين ، مسوق لتسليته والتنفيس عنه أى : فإن مع الشدة التى أنت فيها من مقاساة أذى المشركين بمكة يسرًا . كأنه قيل : خولناك ما خولناك من جلائل النعم لتأييدك ، فكن على ثقة بفضل الله ولطفه ولاتيأس ، فإن بعد الشدة التى صادفتك من المعاندين لدعوتك يسرًا عظيماً وذلك بإظهارك عليهم ، وقهرك لهم .

وقيل فى المعنى : كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله ، فذكره سبحانه بما أنعم به عليه من نعم عظيمة ثم قال : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ) أى : الذى أنتم فيه (يُسْرًا) عظيما ، وأى يسر ، والمراد به : ما تيسر لهم من فتوح فى أيام رسول الله - ﷺ - أو يسر الدنيا مطلقاً .

٦ - (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) :

يحتمل أن تكون تكريرًا للجملة السابقة لتقرير معناها فى النفوس ، وتمكينه فى القلوب ، ويحتمل أن تكون وعدًا مستأنفاً له ﷺ ، واحتمال الاستئناف هو الراجح ، كما يقول الآلوسى - لما علم من فضل التأسيس على التأكيد لإفادة التأسيس لمعنى جديد والتنوين فى (يُسْرًا) للتعظيم .

والمراد : أن مع ذلك العسر يسرًا آخر ، ولن يغلب عسر يسرين ، ويشير إلى ذلك ما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال ؟ ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ بشر بهذه الآية أصحابه فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ إِنْ شاءَ يُسْرَيْنِ » .

وهذا مما تنطق به قواعد اللغة ؛ لأن العسر أعيد معرفة ، فكان واحدًا ؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة ، كانت الثانية عين الأولى ، واليسر أعيد نكرة ، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى ، والمراد باليسرين يسر الدنيا ويسر الآخرة والإتيان بكلمة (مع) فى الجملتين للإيذان بغاية مقاربة اليسر للعسر زيادة فى التسلية .

٧ ، ٨ – (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) :

أى : فإذا فرغت من التبليغ ، وقيل : من الغزو ، فاجتهد فى العبادة ، وأتعب نفسك فيها ببذل أقصى طاقتك فى أدائها شكرًا لما أوليناك من النعم السابقة ، ووعدناك من الآلاء الآتية ، والنصَبُ فيها ألا يخلى وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأُخرى ، وفى ذلك من الحث له ﷺ على العبادة مافيه (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) أى : وإلى ربِّك وحده تكون رغبتك بالسؤال فى حرص وإقبال ولا تسأل غيره . فإنه – عز وجل – القادر على إنقاذك وتفريج كروبك ، فى الدنيا وتحقيق آمالك فيما عنده فى الدار الباقية .

قال ابن كثير : المعنى : إذا فرغت من أُمور الدنيا وأشغالها ، وقطعت علائقها فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة .

وقيل : فإذا فرغت من صلاتك ، فاجتهد فى الدعاء ، وأخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس قال : أى : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، وروى نحوه عن الضحاك وقتادة ، وأخرج ابن نصر وجماعة عن مجاهد ، أى : إذا فرغت من أسباب نفسك . وفى رواية : من دنياك فصلِّ ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

سورة والتين

ويقال لها سورة التين بلا واو ، وهى مكية ، وآياتها ثمان آيات

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر سبحانه فى السورة السابقة (أَلَمْ نَشْرَحْ) حال رسول الله ﷺ وهو أكمل النوع الإنسانى بالاتفاق ، بل أكمل خلق الله على الإطلاق ، ذكر فى هذه حال النوع الإنسانى بعامة وما ينتهى إليه أمره ، وما أعده سبحانه لمن آمن منه بذلك الفرد الأكمل ، ناسب أن يقرن بينهما .

اهم مقاصدها :

ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المشرفة ، والأماكن المقدسة التى خصها سبحانه بإنزال الوحى فيها على أنبيائه ورسله وهى بيت المقدس ، وجبل الطور ، ومكة المكرمة ، أقسم بها جلَّ وعلا - على أنه كرم الإنسان ، فخلقه فى أحسن تقويم ، وأشارت إلى أنه إذا لم يشكر نعمة الله عليه رده سبحانه إلى أسفل سافلين : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ...) الآيات .

وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين بأعظم المثوبات الحسان ، جزاء ماعملوا . وعقاب الكافرين المكذبين بيوم الدين بأقصى العقوبات ، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(طُورِ سِينِينَ) : هو جبل الطور الذى كلم الله عليه موسى – عليه السلام – وقيل : سينين وسيناء – بكسر السين وفتحها – علمان على الموضع الذى هو فيه ، ولذلك أُضيف إليهما .

(الْبَلَدِ الْأَمِينِ) : مكة المكرمة .

(تَقْوِيمٍ) : أكمل تعديل ، يقال : قَوَّمَ العودَ : عدّله وجعله مستقيماً .

(غَيْرُ مَمْنُونٍ) : غير مقطوع ، من المن : وهو القطع .

(بِالدِّينِ) : المراد به الجزاءُ .

التفسير

١ – (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) :

أقسم الله – تعالى – ببقاع مباركة عظيمة ظهر فيها الخير والبركة بسكنى الأنبياء والمرسلين . فأقسم بالتين ، وقد اختلف المفسرون فى المراد منها على أقوال كثيرة ، فقيل :

يراد بها مسجد دمشق ، وقيل : هى نفسها ، وقيل : الجبل الذى عندها ، واختلفوا كذلك فى الزيتون ، فقال كعب الأحبار ، وقتادة ، وابن زيد وغيرهم : هى مسجد بيت المقدس وقيل : بيت المقدس نفسه ، وقيل غير ذلك ؛ لأنها منابت التين والزيتون ، وعلى هذه الأقوال يكون التين والزيتون كناية عن مواضع كنى بها عن مغارسها التى تكثر فيها ، حتى يتناسب الإقسام بهما مع الإقسام بطور سينين ، وبالبلد الأمين اللتين عطفتا عليهما ، وقال قليل من المفسرين : إن الإقسام هو بالنوعين لذاتهما ، لاختصاصهما بخواص عجيبة ، وفوائد عظيمة ، روى أبو ذر أنه أهدى إلى النبى ﷺ طبق من تين ، فأكل منه ، وقال لأصحابه : « كلوا ، فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت : هذه » إلى آخر ماروى ، وأما الزيتون فهو إدام ، وله فوائد جمة ، وشجرته من الشجرة المباركة المشهود لها فى التنزيل ، وعن معاذ بن جبل أنه مر بشجرة زيتون ، فأخذ منها سواكاً فاستاك به وقال : سمعت النبى ﷺ يقول : « نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة » .

ورجح الرأى الأول على الثانى حيث فقد فى الثانى التناسب الذى يقتضيه العطف إذ عُطِفَت الأماكن على الأشجار ، وهو أن المراد بهما مغارسهما — .

٢ — (وَطُورِ سِينِينَ) :

هو الجبل الذى كلم الله تعالى — عليه موسى — عليه السلام — ويقال له أيضاً : طور سيناء — بفتح السين وكسرها مع المد — وهو بقرب التيه ، وقيل : إن سينين وسيناء علمان على البقعة التى فيها الجبل . وعن قتادة أنه قال : سينين مبارك حسن ذو شجر ، وقيل : كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء .

٣ — (وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) :

وهو مكة المكرمة . وَأَمانَتَهَا أنها تحفظ من دخلها كما يحفظ الأمينُ ما يؤتمن عليه ، ويبذل الجهد فى حفظه وصيانته . فلا يعتريه أى أذى أو عدوان .

ويجوز أن يكون الأمين بمعنى المأمون ، لأنه مأمون الغوائل فلا يصيب داخله أى ضر ولا يقع عليه أى اعتداءٍ على نفسه أو ماله كما قال تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »[1] .

ونسبة الأمين بمعنى الأمانة أو بمعنى المأمون الغوائل إلى البلد مجازية ، والإتيان باسم الإشارة للتعظيم .

والغرض من القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة دينيا ودنيويًّا ، وعما ظهر فيها من خير وبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين .

وقال ابن كثير : ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محال ثلاثة بعث الله فى كل منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى – عليه السلام – والثانى طور سينين وهو طور سيناء الذى كلم الله منه موسى بن عمران ، والثالث مكة وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمناً وهو أثر إبراهيم عليه السلام – أرسل فيه محمدًا ﷺ وقد ذكر فى آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة . قالوا : « جاء الله من طور سيناء ، يعنى الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، وأشرق من ساعير . يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى ، واستعلن من جبال فاران ، يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمدًا ﷺ » أ هـ . ابن كثير .

٤ – (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) :

جواب القسم ، أى : لقد خلقنا جنس الإنسان – وهو شامل للمؤمن والكافر – فى أحسن ما يكون من التعديل والتقويم صورة ومعنى . حيث بَرَأَهُ – سبحانه – مستوى القامة ، متناسب الأعضاء حسن الصورة . قوى الإحساس . سليم العقل ، متصفاً بالحياة والعلم ، والسمع والبصر ، والإرادة والتكلم ، وغير ذلك من الصفات والعجائب التى أودعت فيه .

ويكفى فى هذا الباب – وهو القول الفصل – أن الله خلق آدم بيديه ، وأمر – سبحانه – ملائكته – عليهم السلام – بالسجود له وهم المكرمون لديه .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٦٧ .

٥ - (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) :

ثم للتراخى ، أى : ثم كان عاقبة أمره أن جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح صورة ، وأسفل من كل سافل شكلا وتركيباً ، لعدم استقامة كل منهم على موجب ما خلقناه عليه من الصفات السوية ، والصورة الحسنة التى لو عمل بمقتضاها لكان فى أعلى عليين ، أو ثم رددناه أسفل ممن سفل من أهل الدركات ، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل ممن سفل هيئة وبنية حيث نكسناه فى خلْقِه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وكَلَّ سمعه وبصره ، وتغير كل شىء فيه ، فمشيه دليف[1] ، وصوته خفات[2] ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف أى : فساد عقل كما قال تعالى : « وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ »[3] وقوله تعالى : « وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. »[4] .

٦ - (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) :

أى : ثم رددنا الإنسان إلى صورة مشوهة قبيحة فى النار إلا الذين آمنوا وجروا فى عملهم على موجب تلك الصفات التى منحهم الله إياها ، ونشأهم عليها ، فإنهم لايردون أسفل سافلين ولا تقبح صورهم يوم القيامة ، وإنما يكون لهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وامتثالهم وشكرهم لله على نعمائه ، يزدادون به بهجة إلى بهجتهم ، وحسناً إلى حسنهم ، والاستثناء متصل من ضمير رددناه العائد على الإنسان ؛ فإنه فى معنى الجمع .

أو المعنى : لكن الذين كانوا مؤمنين صالحين من الزمنى والهرمى ، فلهم ثواب متصل دائم ، أو غير ممنون به عليهم جزاء امتثالهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، ومقاساة المشاق ، والقيام بالعبادة مع ضعفهم ووهنهم .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : إذا كبر العبد وضعف عن العمل كتب له أجر ماكان يعمل فى شبيبته .

---

(١) أى : يمشى مشى المقيد.

(٢) الخفات : إسرار المنطق .

(٣) سورة يس ، من الآية ٦٨ .

(٤) سورة النحل ، من الآية : ٧٠ .

٧ - (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) :

خطاب للإنسان الكافر على سبيل الالتفات لتشديد التوبيخ والتقريع ، والاستفهام إنكارى ، أى : فأى شىء يضطرك - أيها الإنسان - بعد ما بينا من الدليل القاطع . على قدرة الله عز وجل على البعث والبرهان الساطع على أنه واقع لا محالة إلى أن تكون مكذباً به فإن الله خلقك من نطفة ، وقومك على وجه يبهر الأذهان ، ويضيق عنه نطاق البيان مع تحويلك من حال إلى حال ، وذلك من أوضح الدلائل على قدرة الله - عز وجل - على البعث والجزاء .

وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ أى : فأى شىء ينسبك إلى الكذب بسبب إخبارك بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به ؟ ! وهذا القول اختاره ابن أبى حاتم .

٨ - (أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) :

أى : أليس الذى فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ؟ ! وكان النبى إذا قرأ هذه الآية . قال : « بَلَى وَأَنا على ذلك من الشاهدين » ومآل الاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَيْسَ) أن الله أعلى المدبرين حكمة ؛ ولهذا وضع الجزاء لهذا النوع الإنسانى ليحفظ لمن عمل منه واتقى منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل خلقته ، وهو سبحانه لا يجور ولا يظلم أحدًا لأنه أعدل العادلين وبذلك استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، وتعين الجزاء بعد البعث حتى ينصف المظلوم فى الدنيا من ظالمه ، وليؤتى كل ذى حق حقه ، والجملة تقرير لما قبلها .

وقيل : إن الحكم بمعنى القضاء ، فهى وعيد للكفار ، وبيان بأن الله عز وجل - يحكم على كلٍّ بما هو أهله من الجزاء ؛ لأنه - سبحانه - أحكمهم قضاءً بالحق ، وعدلا بين الخلق - والله أعلم .

سـورة العـلق

تسمى سورة (اقرا) وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آية
وهى اول مانزل من القرءان

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر – سبحانه – فى سورة التين والزيتون خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، بين – عزَّ وجلَّ – هنا أنه تعالى خلقه من علق ، فكان ما تقدم كالبيان لكمال تصويره ، وهنا كالبيان للمادة التى خلق منها وذكر – سبحانه – هنا أيضاً من أحواله فى الآخرة ما هو أبسط وأكثر مما ذكره – عزَّ وجلَّ – هناك .

اهم مقاصدها :

ابتدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعليم ، وأشارت إلى بعض المراحل فى خلق الإنسان ، وبينت فضل الله على رسوله الكريم بإنزال القرآن ، وتذكيره بأول النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء حيث تنزل عليه الوحى بآيات الذكر الحكيم : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ...) الآيات .

ثم تحدثت عن طغيان الإنسان فى هذه الحياة مغترًّا بما أُوتى من قوة وثراء ، وعن تمرده على أوامر ربه بسبب ما أولاه ، وهددته بالعودة إلى خالقه لينال الجزاء : (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ...) الآيات .

ثم تناولت قصة أبى جهل الذى كان يتوعد الرسول وينهاه عن الصلاة انتصارًا لعبادة الأوثان : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰٓ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ...) الآيات .

ثم أبرزت تهديد ذلك الشقى ، وزجره بأقصى العقوبات إذا استمر على بغيه وضلاله : (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ...) إلخ الآيتين .

وكان ختام السورة : الإشارة إلى عجز ذلك الشقى عن تنفيذ تهديده للرسول ﷺ بكثرة عشيرته ووفرة أنصاره حين أغلظ ﷺ له القول لردعه : (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بِاسْمِ رَبِّكَ) : أى ؛ سمّ باسم ربك قائلًا : باسم الله ، ثم اقرأ .

(مِنْ عَلَقٍ) : أى ؛ دم جامد ، جمع علقة .

التفسـير

١ ، ٢ – (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) :

عن ابن عباس ومجاهد : هذه أول سورة نزلت ، والجمهور على أن الفاتحة أول سورة نزلت ، ثم سورة (نٓ)وفى شرح صحيح مسلم الصحيح أن أول ما نزل اقرأْ ، أى : مطلقًا ، وأول ما نزل بعد فترة الوحى (يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وجزم جابر بن زيد بأن أول ما نزل (اقْرَأْ) ثم (نٓ) ثم (يَٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) ثم (يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) ثم (الفاتحة) وقيل : أول ما نزل صدرها إلى قوله تعالى : (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) وكان ذلك فى غار حراء . ثم نزل آخرها حين شاء الله تعالى ، وهو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وعبد بن حميد وعبد الرزّاق وغيرهم عن طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة فى حديث بدء الوحى ، وفيه : أن النبى ﷺ أول ما تمثل له الملك الذى يتلقى عنه الوحى ، وهو يتحنث فى غار حراء ، فى شهر رمضان ، قال له الملك : اقرأْ ، قال رسول الله : فقلت : ما أنا بقارىء

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارى ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، فقال : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » حتى بلغ « عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » فرجع بها رسول الله ترتجف بوادره[1] حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : « يا خديجة مالى » ؟! وأخبرها الخبر . وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب من محله .

والمعنى : اقرأ ما يوحى إليك من القرآن الكريم ، فإن الأمر بالقراءة يقتضى مقروءًا قطعًا ، أى : اقرأه ملتبسًا باسم ربك ، أعنى مبتدئًا به ، لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء ، كأنه قيل : سمّ باسم ربك ثم اقرأ ، وهو ظاهر فى أنه لو افتتح بغير اسمه – عز وجل – لم يكن ممتثلًا ، وهذا أول خطاب إلهى وجه إلى النبى ﷺ . قال الآلوسى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره – عليه السلام – للإشعار بتبليغه – عليه الصلاة والسلام – إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر . ا هـ .

ووصف الرب بقوله تعالى : (الَّذِى خَلَقَ) لتذكير رسوله ﷺ أول النعماء الفائضة عليه ، – صلوات الله وسلامه عليه – منه تعالى – وهى الخلق – مع ما فى ذلك من التنبيه على أنه تعالى قادر على تعليم القراءة بألطف وجه ، إذ القادر على الخلق والإيجاد لا يعجزه قطعًا تعليم القراءة .

وقيل : أريد بوصف الرب بالذى خلق فى قوله : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) تأكيد عدم إرادة غيره تعالى من الأرباب ، فإن العرب كانت تسمى الأصنام أربابًا لكنهم لا ينسبون الخلق إليها.

ولم يذكر مفعول خلق ، لأنه فى معنى فِعْل لازم ، أى : الذى حصل منه الخلق ، واستأثر به ، أو أنه لم يذكر لأنه أريد تقديره بأمر عام ، كأن يقال : الذى خلق كل شىء . فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق . فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) .

---

(١) البادرة من الإنسان : لحمتان فوق عرق فى الثدى ، أو عصبة تحته ، والجمع : بوادر .

تخصيص الإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه ، وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه ، مع أن الله قد خص الإنسان بالرسالة إلى الثقلين ، وعن الزمخشرى : أن المناسب أن يراد خلق الإنسان بعد الأمر بقراءة القرآن تنبيهًا على أن الله خلقه للقراءة ، والدراية ، وعلى هذا يكون عدم ذكره فى الجملة الأولى ، وذكره فى الثانية قصدًا لتفخيمه بالإبهام ثم التفسير ، ودلالة على عجيب فطرته ، وكان خلقه من دم جامد ، لبيان كمال قدرته تعالى ؛ بإظهار ما بين حالتيه الأولى والآخرة من التباين البيِّن ، وللتنبيه على أن الذى خلقه من هذه المادة ثم سواه بشرًا سويًا فى أحسن تقويم ، قادر على كل شىء ، ولما كان الإنسان مرادًا به الجمع قيل : « علق » ولم يقل : من علقة .

٣ ـ ٥ ـ (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *) :

أى : امض لما أمرتك به من القراءة (وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) استئناف وارد لإزاحة ما أبداه ﷺ من العذر بقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لجبريل ـ عليه السلام ـ : ما أنا بقارئ ، حين قال له : اقرأ . يريد ﷺ أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وأنا أمىّ ، فقيل له : وربك العظيم الكريم الذى أمرك بالقراءة ، لا يدانيه كريم .

(الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) أى : علَّم ـ سبحانه ـ وحده بواسطة الكتابة بالقلم وليس ذلك لغيره ، علَّمه ، وكما عَلَّم ـ سبحانه ـ القارى بواسطة الكتابة بالقلم يُعلِّمك القراءة بدونها وإن كنت أميًّا ، وحقيقة الكرم كما قيل : إعطاء ما ينبغى لا لغرض ، فهو صفة لا يشاركه ـ تعالى ـ فى إطلاقها أحد .

(عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أى : علمه بالقلم وبدونه من الأمور الكلية والجزئية ، والجلية ، والخفية ما لم يخطر بباله ، فدل على كمال كرمه ـ تعالى ـ حيث علم ـ سبحانه ـ عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، قال القرطبى : نبه ـ سبحانه ـ على فضل علم الكتابة لما فيه من الفوائد العظيمة التى لا يحيط بها إنسان ، وما دونت العلوم . ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلَّا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدين والدنيا وهذه الآيات الخمس أول ما تنزل من القرآن كما ثبت فى الصحاح ، وقد فصل ذلك أول السورة .

(كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩)

المفردات :

(لَيَطْغَىٰٓ) : ليتجاوز الحد فى المعصية وفى الاستكبار على ربه .

(الرُّجْعَىٰٓ) مصدر بمعنى الرجوع ، أى : إلى ربك رجوع هذا الطاغى .

(وَتَوَلَّىٰٓ) : أعرض عن الإيمان .

(لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) أى : لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة . والناصية : شعر مقدم الرأس .

(نَادِيَهُ) أى : أهله وعشيرته ، والنادى والنَّدِى : المجلس الذى يجتمعون فيه ، والإسناد مجازى .

(الزَّبَانِيَةَ) : مأخوذ من الزبن ، وهو الدفع ، ويراد الملائكة الشداد الغلاظ .

التفسير

٦ - ٨ - ﴿ كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰٓ ﴾ :

روى أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة نزلت فى أبى جهل بعد زمن من نزول ما قبلها ، وكان طاغيًا متكبرًا فخورًا بكثرة ماله ، مبالغًا فى عداوة رسول الله ﷺ وفى الحديث الصحيح : أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن أتى محمدًا ﷺ يصلى ، ليطأن على رقبته ، وليعفرن وجهه . فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليفعل ، فما فاجأهم منه إلَّا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقًا من نار ، وهولًا ، وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا ، والآيات وإن نزلت فى أبى جهل إلَّا أن الحكم عام فى كل طاغ متكبر ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى : ابتدأت الآيات بكلمة « كَلَّا » ردعًا وزجرًا لهذا الإنسان الذى كفر نعمة ربه بطغيانه واستكباره ، ووُجِّه إليه الردع وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه ، حيث إن الآيات من مفتتح السورة إلى هذا المقطع تدل على أن الله تفضل على الإنسان بأعظم المنن التى كرمه بها ، فكان بشرًا سويًا ، وذلك يستدعى الشكر والعرفان ، لكنه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ أى : ليتجاوز الحد فى الطغيان والاستكبار على عبادة الله ، واتباع هوى النفس فيما يفعل وما يدع ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ﴾ أى : بالغ فى الطغيان لأنه رأى نفسه ذا مال وثروة ، وبطش وقوة ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰٓ ﴾ تهديد لهذا الإنسان الطاغى ، وتحذير له من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات ؛ للتشديد فى العقوبة ، أى : إلى ربك وحده أيها الإنسان ، لا إلى غيره - استقلالًا أم اشتراكًا - المرجع والمصير بالموت والبعث ، فيجازيك على أعمالك التى اقترفتها بما تستحق من تعذيب وتنكيل .

٩ ، ١٠ - ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ :

ذكر لبعض آثار الطغيان ، ووعيد عليها ، وتعجيب منها ؛ للإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بمكان بحيث يجب أن يراها كل من تتأتى منه الرؤية ، ويقضى منها العجب العجاب

ولا خلاف بين المفسرين كما قال ابن عطية فى أن المصلى هو رسول الله ﷺ والناهى هو أبو جهل .

والإتيان بلفظ (العبد) منكرًا لتفخيمه – عليه الصلاة والسلام – واستعظام النهى ، وتأكيد التعجيب منه ، وكلمة (أرأيت) صارت تستعمل فى معنى (أخبرنى) على أنها لا يقصد بها فى مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقى ، ولكن يقصد بها إنكار الحالة المستخبر عنها وتقبيحها .

ولَمَّا كانت الرؤية سببًا للإخبار عن المرئى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار.

١١ –١٤ – (أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) :

أى : أخبرنى يا من له أدنى تمييز عن هذا الذى ينهى بعض عباد الله فضلًا عن النبى المجتبى ، ينهاه عن الصلاة ، إن كان على طريقة سوية فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ) أو كان آمرًا بالمعروف والتقوى فيما يدعو إليه من عبادة الأصنام كما يزعم ، أو كان على التكذيب للحق ، والتولى عن الدين الصحيح .

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) أى : ألم يعلم هذا الطاغى الفاجر بأنَّ الله يراه ؟! أى : يطلع على أحواله من هداه وضلاله ، فيجازيه على حسب ذلك ، ألم يعلم ذلك حتى اجترأ على ما فعل من إفك وطغيان ، وهذا وعيد له ، وتهديد على ما وقع منه .

وقيل : المعنى : أخبرنى إن كان هذا العبد المصلى وهو النبى ﷺ الذى تنهاه عن الصلاة صالحًا مهتديًا فى قوله وفعله (أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ) أى : أو كان آمرًا بالإخلاص والتوحيد ، داعيًا إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه ، فما أبلهك أيها الغبى الذى تنهى مَنْ هذه أوصافه عن الصلاة ، ثم عاد الخطاب إلى الرسول ﷺ فقال : (أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ) أى : أخبرنى يا محمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان .

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) أى : ألم يعلم ذلك الشقى أن الله مطلع على أحواله ، مراقب لأفعاله ، وسيجازيه – سبحانه – عليها يوم الدين ، ويله ما أجهله وأغباه .

١٥ ، ١٦ - (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) :

بدئت الآية بكلمة « كَلَّا » لوعيد ذلك الناهى - وهو أبو جهل - وزجره حيث إنه سبحانه له بالمرصاد ، كما قال تعالى : (لَئِن لَّمْ يَنتَهِ) أى : والله لئن لم ينته عمَّا هو عليه بتركه والابتعاد عنه (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ) أى : لنأْخذن بناصيته ولَنَسْحَبَنَّهُ بها إلى النار ، لنذلنه بذلك الإذلال الشديد . يقال : سفعت بالشىء : إذا قبضت عليه وجذبته بشدة ، والمراد بالناصية : شعر مقدم الرأس ، وقيل : المراد : لنسحبنه على وجهه فى الدنيا يوم بدر ، وفيه بشارة بأنه تعالى يمكِّن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته ، وقد فعل - عز وجل

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) بدل من الناصية ، أى : هى ناصية وصفت بالكذب وبتعمد الخطإ على الإسناد المجازى ، وهما لصاحبها حقيقة ، وذلك يفيد المبالغة ، حيث يدل على وصفه بذلك بطريق الأُولى ، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه ، كأَنَّ كل جزء من أجزائه يكذب ويخطىء ، وفى هذا الإسناد من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك : ناصيةُ كاذبٍ خاطىء .

١٧ ، ١٨ - (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) :

هذا إشارة إلى ما صح من أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلِّى فقال : ألم أنهك ، فأغلظ - عليه الصلاة والسلام - له . فقال : أتهددنى ، وأنا أكثر أهل الوادى ناديًا ، فنزل (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) فالأمر للتعجيز ، إشارة إلى أنه لا يقدر على ذلك ، ولا يستطيعه ، أى : فليدع أهله وعشيرته لنصرته فى إيذاء الرسول ﷺ ومنعه من الصلاة فى المسجد إن قدروا على ذلك ، والنادى وكذلك الندىّ : المكان الذى ينتدى فيه القوم ، أى يجتمعون للحديث ، والإسناد مجازى (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) أى : ملائكة العذاب ، وهم غلاظ شداد ، ليجروه إلى النار ، ويلقوه فيها ، والزبانية فى الأصل عند العرب : الشُّرَط ، واحدها : شِرْطى ،

وهم أعوان الأمير من الزبن وهو الدفع ، وسميت ملائكة العذاب بذلك لدفعهم من يعذبونه إلى النار .

قال ابن عباس : لو دعا ناديه ، لأخذته ملائكة العذاب من ساعته .

١٩ - (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) :

« كَلَّا » ردع لذلك اللَّعين بعد ردع ، وزجر له إثر زجر (لا تُطِعْهُ) فيما دعاك إليه من ترك العبادة ، ودُمْ على ما أنت عليه من معاصاته والإعراض عنه (وَاسجُدْ وَاقْتَرِبْ) أي : وصل لله تعالى ، وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث بما صدر عنه من تهديد ووعيد ، وتقرب إلى ربك بطاعته ، والامتثال إلى أمره ونهيه ، وفي الحديث الذي خرجه مسلم وغيره ما يشير إلى فضل السجود إذ يقول ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » والله أعلم .

سـورة القـدر

وهى مكية ، وآياتها خمس آيات
وسميت بذلك لتكرار ذكر ليلة القدر فيها ، وعظم شرفها

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا كانت كالتعليل للأمر بقراءة القرآن فى بدءِ السورة السابقة (العلق) . كأنه قيل : اقرأُ القرآن لأن قدره عظيم ، وشأنه فخيم ، لذلك ذكرت هذه عقب تلك .

اهم مقاصدها :

١ ـ تحدثت عن بدءِ نزول القرآن ، وأنه كان فى ليلة القدر :

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) .

٢ ـ أبرزت الشرف العظيم لتلك الليلة على العدد الكثير من الأيام والليالى لما فيها ، من الأنوار والنفحات الربانية : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) .

٣ ـ أكدت علوَّ قدر هذه الليلة . بتنزل الملائكة المقربين من عند الرحمٰن من أجل كل أمر قدره الله لتلك السنة إلى قابل : (تَنَزَّلُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) .

٤ ـ أشارت فى ختامها إلى أن سلام الملائكة على أهل الإيمان مستمر إلى طلوع الفجر :

(سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) أى : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، والقدر : بمعنى التقدير ، وهى بذلك تشرف وتفضل سائر الليالى .

(وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) أى : لم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها العظيم .

(وَالرُّوحُ فِيهَا) أى : جبريل – عليه السلام – أو خلق من خلق الله لم يُر مثلهم .

(سَلَامٌ هِىَ) أى : أنها سلام من كل أمر مخوف إلى مطلع الفجر . أو تسليم من الملائكة على المؤمنين إلى تلك الغاية .

التفسير

١ – (إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ) :

يخبر الله تعالى بأنه – سبحانه – عظم القرآن الكريم بإسناد إنزاله إليه – جل شأنه – لا إلى غيره ، أنزله – سبحانه – فى ليلة مباركة كما قال تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ »[1] وهى ليلة القدر التى جعلها الله من ليالى شهر رمضان ، كما قال سبحانه : « شَهْرُ

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٢

رَمَضَانَ الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »[1] وفى إسناد إنزاله إليه – سبحانه – مرتين فى قوله : (إنا) وقوله : (أنزلناه) مع تأكيد الجملة فى الآية الكريمة مزيد من التعظيم والتفخيم مع إفادة اختصاص الإنزال به تعالى كما قال الزمخشرى .

وفى التعبير عن القرآن بضمير الغائب فى « أَنزَلْنَاهُ » مع عدم تقدم ذكره تعظيم له أى تعظيم ؛ لما أنه يُشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد ، والمراد : ابتدأنا فى تلك الليلة إنزاله على محمد ﷺ .

٢ – (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) :

تعظيم لليلة القدر التى خصها – تعالى – بإنزال القرآن ، أى : ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ؛ لأن علوها خارج عن دائرة دراية الخلق ، لا يَعْلَم ذلك ، ولا يُعْلِمُ به إلَّا علَّام الغيوب ، كما يشعر به قوله تعالى :

٣ – (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) :

بيان إجمالى لشأنها إثر تشويقه – عليه الصلاة والسلام – إلى درايتها بقوله : (وَمَآ أَدْرَاكَ) فإن ذلك معرب بالوعد بإدراكها وإعلام الله له ﷺ بها .

وقد روى عن سفيان بن عيينة أمر أن كل ما فى القرآن من قوله تعالى : (وَمَآ أَدْرَاكَ) أعلم به الله تعالى نبيه ﷺ وما فيه من قوله – سبحانه – : (وَمَا يُدْرِيكَ) لم يعلمه – عز وجل – به أى : هى خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وسبب ارتقائها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من إنزال القرآن ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وفصل كل أمر حكيم ، ولذلك فإن العبادة فيها أكثر ثوابًا ، وأعظم فضلًا من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر ، والعمل القليل قد يفضل الكثير باعتبار الزمان والمكان ، وكيفية الأداء ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو الصواب كما يقول ابن كثير .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥ .

وذكر فى تخصيص خيريتها على هذه المدة أن النبى ﷺ ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك ، وتقاصرت إليهم أعمالهم. فأعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى . وقد روى ذلك عن مجاهد . وقيل : المراد من الألف التكثير كما فى قوله تعالى : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ »[1] .

وقد نزل القرآن - كما روى عن ابن عباس- جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا . ثم نزل به جبريل مفصلا حسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم بما روى عن ابن عباس . بل حكى بعضهم الإجماع عليه ، نعم لا يبعده القول بأن السفرة هناك نجموه لجبريل - عليه السلام - وكان ينزل به على النبى ﷺ نجومًا فى ثلاث وعشرين سنة ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس : أنه أنزل فى ليلة القدر جملة واحدة من السماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى إثر بعض . ومعنى إنزال القرآن من اللوح المحفوظ : إظهاره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، أو إثباته لدى السفرة هناك أو نحو ذلك .

واختلف فى الوقت الذى تلتمس فيه ليلة القدر . فقيل : إنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وقيل : إنها ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ إنها ليلة سبع وعشرين ، وقيل : إنها ليلة ثلاث وعشرين وقيل : إنها ليلة أربع وعشرين . والأقوال فيها مختلفة جدًا ، إلا أن الأكثرين على أنها فى العشر الأواخر لكثرة الأحاديث الصحيحة فى ذلك . وأكثرهم على أنها فى أوتارها وكثير إلى أنها الليلة السابعة والعشرون .

والحكمة فى إخفائها أن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ليصادفها ، فيحيى ليالى شهر رمضان كلها كما كان دأب السلف .

روى البخارى فى صحيحه عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر . فتلاحى رجلان فرفعت أى : رفع تعيينها - وعسى أن يكون خيرًا لكم .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٩٦ .

٤ - (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) :

استئناف مبين لمناط خيريتها على تلك المدة المتطاولة المقدرة بألف شهر ، أى : تتنزل فيها الملائكة من كل سماء إلى الأرض ، أو إلى السماء الدنيا ، مع البركة والرحمة . وينزل معها الروح وهو جبريل - عليه السلام - كما قال الجمهور ، وخص بالذكر لزيادة شرفه ، وعلو قدره فضلا على أنه النازل بالذكر ، وقيل : الروح - كما قال كعب ومقاتل - : طائفة من الملائكة . لاتُرى إلا فى تلك الليلة . وقيل : حفظة على الملائكة كالحفظة علينا ، وقيل : المراد به الرحمة كما قرئ (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رُّوحِ اللهِ) بالضم .

(بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) أى : ملتبسين بإذن ربهم ، أى : بأمره . والتقييد بذلك لتعظيم أمر تنزلهم من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ، وأظهره - سبحانه وتعالى - لملائكته ، وقيل : تقييد التنزيل بالإذن للإشارة إلى أنهم يرغبون فى أهل الأرض من المؤمنين ويشتاقون إليهم ، فيستأذنون فيؤذن لهم ، وفى ذلك حث للمؤمنين على العمل ، وترغيب لهم فى الطاعة للحظوة بهذا اللقاء الكريم .

٥ - (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) :

أى : ماليلة القدر إلا سلامة وخير كلها ، لا شر فيها ، قال الضحاك فى معنى ذلك إنه لايقدِّر الله فى تلك الليلة إلا السلامة وفى سائر الليالى يقضى بالبلايا والسلامة .

وقال مجاهد : إنها سالمة من الشيطان وأذاه ، أو أن المراد كونها سبباً تاماً للسلامة والنجاة من المهالك يوم القيامة ، كما ورد أن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وقيل المعنى : ماهى إلاَّ سلام ، أى : تسليم ، وذلك لكثرة التسليم والمسلمين من الملائكة على المؤمنين ، فلا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ، روى عن الشعبى ومنصور ، وتستمر السلامة فيها من المهالك ، ووسوسة الشيطان ، وتسّليم الملائكة على المؤمنين القائمين فيها إلى غاية هى وقت طلوع الفجر أى : هى ليلة كلها سلام وأمن وكلها خير وبركة من مبدئها إلى نهايتها . أو أن تنزل الملائكة فوجاً بعد فوج يتتابع إلى طلوع الفجر . .

سورة البينة

وتسمى سورة القيامة ، وسورة لم يكن ، وسورة البرية
وهى مدنية ، وآياتها ثمان

مناسبتها لما قبلها :

هى أن قوله تعالى : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ..) إلخ .. كان كالتعليل لإنزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة ؛ لذلك وقعت تالية للسورة السابقة .

اهم مقاصد السورة :

١ ـ بينت تمرد أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ على دعوة رسول الله ﷺ بعد أن ظهر لهم الحق ، وسطعت أنواره بما عرفوا من الأوصاف المذكورة فى كتبهم للنبى المبعوث آخر الزمان وكانوا ينتظرون بعثته ، فلما بُعث كفروا وعاندوا : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ...) الآيات .

٢ ـ تحدث عن أهم عناصر الإيمان التى أمروا بها ، وهى إخلاص العبادة لله العلى الكبير ، والتوجه إليه سبحانه فى جميع الأقوال والأفعال ما ئلين عن كل دين يخالف دين التوحيد : (ومَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ..) الآية .

٣ ـ أبرزت بيان ما ينتظر شر البرية من كفرة أهل الكتاب والمشركين فى الآخرة من عذاب أليم ، وخلود فى نار الجحيم : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ...) الآية .

٤ ـ وختمت بالإشادة بخير البرية . أهل المنازل العالية الذين أطاعوا الله حق طاعته ، وتحدثت عن جزائهم فى الآخرة لقاء اتصافهم بخشية ربهم وحسن مراقبته : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ...) الآيات .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾)

المفردات :

(أَهْلِ الْكِتَابِ) : اليهود والنصارى .

(وَالْمُشْرِكِينَ) وعبدة الأصنام والنيران من العرب والعجم .

(مُنفَكِّينَ) أى : لم يكونوا منتهين ولا مفارقين لما كانوا عليه .

(الْبَيِّنَةُ) : الحجة الواضحة .

(يَتْلُوا) يقرأ عليهم من حفظه (صُحُفاً مُّطَهَّرَةً) أى : صحفاً من القرآن منزهة عن الباطل والشبهات .

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أى : فى الصحف أحكام لاعوج فيها تبين الحق من الباطل .

(حُنَفَاء) : مائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق

(دِينُ الْقَيِّمَةِ) أى : دين الملة المستقيمة .

١ - ٣ - (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) .

أى : لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ من أهل الكتاب - اليهود والنصارى والمشركين وهم عبدة الأصنام والنيران من مشركى العرب والعجم ، لم يكونوا منتهين ولا مفارقين ماعاهدوا الله عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان ، والعزم على إنجاز هذا الوعد (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) أى : إلى أن تأتيهم الحجة الواضحة ، والمراد بها محمد ﷺ أى : إنهم جعلوا إتيان البينة ميقاتاً لتنفيذ وعدهم بالإيمان بالنبى الذى تحدثت عن بعثته كتبهم ، وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به إذا بعث فيهم مؤيداً بالقرآن ، ولكنهم افترقوا فى أمره ، وجعلوا إتيانه ميقاتاً للانفكاك والاقتران واختلاف الوعد . فآمن بعضهم بنبوته وأنكرها بعضهم بغياً وحسداً .

وكان أهل الكتاب يستفتحون على المشركين ، ويقولون : اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ، وذلك لما يجدونه فى التوراة والإنجيل من نعوته وأمارات بعثه ، وكان المشركون يسمعون ذلك منهم فاعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصر الله لهم على أعدائهم ، وكانوا يسألون اليهود عن رسول الله ﷺ وهل هو النبى المذكور فى كتبهم ، وإيراد الصلة فعلا فى قوله تعالى « الَّذِينَ كَفَرُوا » للإشارة إلى أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم بإلحادهم فى صفات الله عز وجل (رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً) بيان للبينة ، وأن المراد منها محمد ﷺ وتنوينه للإيذان بغاية ظهور أمره ، وأنه حقيق بالتفخيم والتعظيم ، وفى وصفه بأنه (من الله) تأكيد لما أفاده التنوين فى (رسول) من الفخامة الذاتية وذلك بالفخامة الإضافية إلى الله تعالى ، أى : رسول وأى رسول كائن من الله تعالى يتلو عليهم صفحا من القرآن مما حفظه عند التلقى من جبريل - عليه السلام - منزهة عن الباطل ، أو المراد بتطهيرها : تطهير من يمسها كأنه قيل : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »[1] .

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٧٩ .

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) أى : وفى تلك الصحف أحكام مكتوبة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل وقيل : المراد بالكتب التى فيها ، هى كُتُب الأنبياء السابقين ، لأن القرآن مصدق لها . فكأنها فيه لاسيا وأنه قد جمع ثمرتها .

٤ ـ (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) :

هذا ظاهر فى أن كفرهم قد زاد ، فمنهم من أنكر نبوته ﷺ ظلماً وحسداً ، ومنهم من آمن وأطاع . قال جار الله : كان الكفار من الفريقين يقولون قبل البعث : لا ننفك عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث الله النبى الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد ﷺ أى : إنهم كانوا يعدون باتفاق الكلمة ، والاجتماع على الحق إذا جاءهم ﷺ ثم ما فرقهم عن الحق ، وأقر بعضهم على الكفر إلا مجيؤه ، والآية كلام مسوق لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جناياتهم ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه ما فى الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، وهو السر فى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكنهم منه بمطالعته والإحاطة بكل ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نعوت النبى ﷺ وذلك كقوله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ »(١) .

وإنما أفرد هنا أهل الكتاب ، بعد ما جمع بينهم وبين المشركين أولا ، وإن كان التفرق من الفريقين ، لأن أهل الكتاب كانوا على علم بأمر بعثة الرسول ﷺ لوجوده فى كتبهم فإذا وصف بالتفرق من له كتاب كان من لا كتاب له أدخل فى الوصف بذلك وقد اختلف أهل الكتاب اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق عن أبى داود وابن ماجه ومسند أحمد عن أبى هريرة الذى يقول فيه : « إِنَّ الْيَهُودَ اخْتَلَفُوا عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » إلى آخر الحديث.

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠٥ .

(إِلَّا مِن بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) أى : : وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما تبينوا الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود به فى كتبهم دلالة جلية لاشك فيها .

وحاصل المعنى مختصرا : أن أهل الكتاب والمشركين ظلوا مستمسكين بما وعدوا به ، وتعاهدوا عليه من الإيمان بالنبى الموعود به فى التوراة والإنجيل لغاية هى بعثته ﷺ التى جعلوها ميقاتاً للإيمان به ، واتباع النور الذى أنزل معه تنفيذًا لما وعدوا به ، وتعاهدوا عليه ، وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به بعد بعثه ، وينصروه نصرًا مؤزرًا ، ولكنهم تفرقوا واختلفوا فمنهم من آمن بنبوته ﷺ وهدى إلى صرط مستقيم ، منهم من أعرض وجحد وأنكرها طغياناً وحسدًا .

٥ - (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) :

إشارة لغاية قبح ما فعل اليهود والنصارى من تفرق فى الإقرار بنبوة محمد ﷺ مع أنهم ما كلفوا بما كلفوا به فى كتابهم لشىء من الأشياء إلا بأن يعبدوا الله ، فتكون عبادة الله هى المأمور بها فحسب (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أى : جاعلين دينهم خالصاً له تعالى ، منزهاً عن الشرك والنفاق (حُنَفَاءَ) : مائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، مؤمنين بالرسل جميعاً ، إذ كانت ملتهم - عليهم السلام - هى التوحيد ، وهى الملة الحنيفية الحقة .

(وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) كما أمروا بالصلاة والزكاة فى شريعتهم ، وعليه فالأمر بهما ظاهر ، وإن أريد مافى شريعتنا فمعنى أمرهم بها فى كتابهم : أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التى هما من جملتها .

(وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله بالإخلاص له ، وإقامة الشرائع

التى أمروا بها ، والميل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق مع الإيمان بجميع الرسل ، أى : ذلك هو دين الملة المستقيمة ، أو ذلك هو دين الحجج المستقيمة ، أو دين الكتب التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، التى بعث بها – سبحانه – رسله .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾)

المفردات :

(كَفَرُواْ) الكافر : هو من أعرض عن دين محمد ﷺ فلم يؤمن به .

(وَالْمُشْرِكِينَ) : هم الذين أشركوا مع الله غيره فى العبادة .

(الْبَرِيَّةِ) : الخليقة ، من براه الله يبروه : خلقه ، والمعنى لا يختلف عما فى قراءة من قرأ بالهمز (الْبَرِيئَةِ) .

(عَدْنٍ) أى : إقامة .

(وَرَضُواْ عَنْهُ) : فرحوا بما أعطاهم .

التفسير

٦ – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) :

بيان لحال الفريقين – أهل الكتاب والمشركين – فى الآخرة إثر بيان حالهم فى الدنيا .

أى : إنهم فى الآخرة فى جهنم ، بمعنى : يصيرون إليها يوم القيامة ، أو إنهم فيها الآن على معنى أن ملابستهم لما يوجبها منزل منزلة ملابستهم لها أو يعذبون فى قبورهم (خَالِدِينَ فِيهَا) أى : إن عذابهم فيها لا ينقطع ، وسيبقى أبدَ الآبدين ، واشتراك الفريقين فى الخلود لا ينافى تفاوت عذابهم فى الكيفية ، فإن جهنم دركات وعذابها ألوان ، فيُعذب أهل الكتاب بنوع من العذاب فى درك منها ، ويُعذب المشركون فى درك أسفل منه بعذاب أشد ، لأن الشرك ظلم عظيم ، وقد استدل بالآية على خلود الكفار مطلقاً فى النار .

(أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) :أشير إليهم باعتبار اتصافهم بما اقترفوه من القبائح المذكورة فهم بذلك شر الخليقة ، والمراد أنهم شر الناس أعمالا لكفرهم مع علمهم بصحة رسالته ﷺ ومشاهدتهم لمعجزاته الذاتية والخارجية ، ولما أقدموا عليه من تحريف الكلم عن مواضعه ، وصد الناس عنه ﷺ ومحاربتهم له . فتكون الجملة فى حيز التعليل لخلودهم فى النار .

٧ ـ ٨ ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) :

بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكافرين وفق المتبع فى السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب ، أى : إن الذين آمنوا إيماناً يقينياً ، قارن فيه التصديق القلبى العمل الصالح بالجوارح (أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) أى : هؤلاء المؤمنون المنعوتون ببلوغ الغاية من الشرف والفضيلة فى الإيمان والطاعة هم خير الناس ثواباً حيث يكون (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى : إن جزاءهم فى الآخرة بمقابلة مالهم من الإيمان الصادق ، والعمل الطيب جنات إقامة تجرى من تحت أشجارها الملتفة ، وأغصانها المتشابكة ، وبين قصورها العالية أنهار صافية رقراقة لزيادة المتعة ، وكمال النعيم ، يتمتعون فيها بفنون النعم الجسمانية والروحانية ، لايموتون ولا يخرجون منها ، فهم فى نعيم دائم لاينقطع ، والتعرض فى قوله ـ سبحانه ـ : (جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ) لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والبلوغ بهم إلى الكمال مع الإضافة

إلى ضميرهم ، وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة إلى عدن ، وتأبيد الخلود فيه من الدلالة الواضحة على حسن حالهم وعلو منزلتهم مالايخفى .

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) استئناف بيانى وقع جواباً لمن يقول : هل لهم بعد ذلك جزاء ، فأجيب بالجملة السابقة ، أى : رضى الله عنهم بقبول أعمالهم ومكافأتهم عليها .

(وَرَضُوا عَنْهُ) أى : فرحوا بما أعطاهم من الكرامة والنعيم الدائم ، حيث بلغوا من المطالب قاصيها ، وملكوا من المآرب ناصيتها ، وأتيح لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) أى : ما ذكر من الجزاء ، والإنعام لمن اتصف بخشية الله ، وحسن مراقبته ، فإن الخشية التى هى من خصائص العلماء بشئون الله – عز وجل – مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية ، ولولاها لم تترك المناهى والمعاصى ، ولما كان الاستعداد ليوم يؤخذ فيه بالنواصى والأقدام .

وفى ذلك إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلا إلى أقصى المراتب ، بل الموصل إلى ذلك خشية الله عز وجل : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[1] .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨ .

سورة الزلزلة

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها ثمان آيات ، وسميت بذلك لافتتاحها بها

مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر – سبحانه – فى السورة السابقة جزاء الفريقين – المؤمنين خير البرية ، والكافرين شر البرية . كان ذلك كالمحرك عن السؤال عن وقت ذلك الجزاء ، فبينه – عز وجل – فى هذه السورة .

اهم مقاصدها :

تحدثت عن أحوال القيامة ، وأهوالها الشديدة بذكر الزلزال الشديد الذى يقع ، بين يدى الساعة ، فيحصل بسببه أمور عجيبة ، يندهش لها الإنسان بما يرى من انهيار كل راسخ ، وزوال كل شامخ ، وإخراج الأرض لما فيها من موتى ، وإلقاء ما فى بطنها من كنوز ودقائق ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها فتقول له : عملت يوم كذا كذا وذلك بإيحاء ربك لها : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ...) الآيات .

كما تحدثت أيضاً عن خروج النَّاس من قبورهم وانصرافهم إلى موقف الحساب ، ليروا جزاء الطاعة ، وعقوبة المعصية اللتين قدرتا التقدير العادل ، وضبطتا الضبط الدقيق ، ليتبينوا مصيرهم ، هل هو إلى الجنة أو إلى السعير ؟ جزاء وفاقا لما عملوا : (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ....) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) : أى : حركت تحريكاً عنيفا بالغ الغاية فى الشدة .

(أَثْقَالَهَا) أى : كنوزها وموتاها وكل مافى بطنها ، جمع ثِقْل – بكسر وإسكان – وهو الحمل الثقيل . وقيل : جمع ثقل – بالتحريك – وهو كل نفيس مصون .

(يَصْدُرُ) ينصرف ، يقال : صدر الناس عن الورِد ، أى : انصرفوا عنه .

(أَشْتَاتاً) متفرقين ، جمع شتيت ، أى : متفرق .

(مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أى : مقدار وزن نملة صغيرة ، أو مقدار وزن ذرة مما يرى فى شعاع الشمس الداخل من الكوة ، وهو الهباء .

التفسير

١ - ٣ - (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا) :

أى : إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً ليس له ما يشبهه أو يدانيه فى الهول والشدة ، إذ هو مخصوص بها حسبما تقتضيه المشيئة الإلهية المنبئة على الحكم البالغة .

أو المعنى : إذا حركت تحريكاً عجيباً لا يقادر قدره ، ولا يستبان كنهه . وذلك عند نفخة البعث ؛ لقوله تعالى : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) أى : لفظت بسبب الزلزال كنوزها وموتاها أحياءً للحساب والجزاء . روى ذلك عن النقاش ، والزجاج ، ومنذر بن سعيد ، واقتصر بعضهم على تفسير الأثقال بالكنوز وقال : تخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف ، فيتحسر العصاة إذا نظروا إليها ، حيث عصوا الله فيها ، ثم تركوها لاتغنى عنهم شيئاً ، وعليه فالأثقال جمع ثقل - بالتحريك - وهو كل نفيس مصون.
(وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا) أى : ما بالها زلزلت هذه الشدة ، ولفظت ما فى بطنها ، قال ذلك كل فرد من أفراد الإنسان عند الزلزلة والعودة إلى الحياة ، لما شاهدوا من الأمر الهائل الذى بهرهم لفظاعته ، حيث سيرت الجبال فى الجو ، وصيرت هباءً ، على أن المؤمن يقول ذلك بطريق الاستعظام ، والكافر يقوله بطريق التعجب ، وقيل : هذا قول الكافر ؛ لأنه كان لايؤمن بالبعث ، وأما المؤمن فيقول : « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ »[1] .

٤ ، ٥ - (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) :

أى : يوم إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا الشديد المتكرر تحدث الخلق أخبارها .

قيل : ينطقها الله حقيقة ، فتخبر بطريق المقال بما عُمِلَ عليها من خير وشر ، وتشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) ثم قالَ : «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ قَالُوا : اللهُ وَرسولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كلِ عَبْد وَأَمَة

(١) سورة يس ، من الآية : ٥٢ :

بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا فَتَقُولُ : عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا ، وقال يحيى بن سلام : تحدث بما أخرجت من أثقالها ، ويشهد له مافى حديث ابن ماجه فى سننه : « تَقُولُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَارَبِّ هَذَا مَا اسْتَوْدَعْتَنِي » وعن ابن مسعود : تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان : ما لها ، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك جواباً عند سؤالهم ، إلى غير ذلك مما قيل .

وقيل : يكون تحديثها بطريق الحال ، حيث تدل دلالة ظاهرة على ما لأجله وقع زلزالها وإخراج أثقالها ، وذلك بما يخلق الله فيها من الأحوال التى تقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول : ما لها ؟ ! إلى تلك الأحوال ، فيعلم لِمَ زلزلت ؟ ولم لفظت أثقالها (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) بمعنى أنها تحدث أخبارها بسبب إيحاء الله لها ، وأمره – سبحانه – إياها بالتحدث عن أخبارها ، فالمراد من الوحى : الإيحاء والإلهام ، كما أوحى الله إلى أم موسى ، وقيل : الوحى إليها : وحى إرسال ، بأن يرسل إليها – عزَّ وجلَّ – رسولا من الملائكة بذلك فتعيه وتعمل بمقتضاه وفق تقدير العزيز العليم .

٦ – (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) :

أى : يوم إن يقع ما ذكر يخرج الناس من قبورهم ، وينصرفون إلى موقف الحساب متفرقين بحسب أعمالهم ، بيض الوجوه آمنين ، وسود الوجوه فزعين ، ومقيدين بالسلاسل ، وغير مقيدين ، ليبصروا أجزية أعمالهم خيرًا كانت أو شرًا ، وتجسم لهم الأعمال نورانية وظلمانية كما قيل ، وقيل : ليعرفوا أعمالهم ، ويقفوا عليها تفصيلا عند الحساب ، وعليه فلاحاجة إلى تجسيمها ؛ لأن الرؤية علمية ، وليست بصرية .

وقيل : ينصرفون من موقف الحساب متفرقين ؛ فآخذ جهة اليمين إلى الجنة ، وآخذ جهة الشمال إلى النار ، وعن ابن عباس : أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

٧ ، ٨ – (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) :

تفصيل للرائين وما يرونه من الأعمال خيرها وشرها . وسبب النزول – على ما أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير – أنه لما نزل « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ » كان المسلمون

يرون أنهم لايؤْجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيءُ المسكين إلى أبوابهم ، فيستقلون أن يعطوه التمرة والبسرة ، فيردونه ويقولون : ما هذا بشيء ، إنما نؤْجر على ما نعطى ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظرة ، والغيبة ، وأشباه ذلك ، ويقولون : إنما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت الآيتان ترغبانهم فى القليل من الخير أن يعملوه ، وتحذرانهم اليسير من الشر أن يأْتوا به ويعملوه .

وقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يتصدقون بعد نزول الآيتين بالقليل والكثير وبما عزَّ وهان ، لايدخرون فى ذلك وسعاً ، أسوة برسول الله ﷺ فقد ، أخرج الزجاجى فى أماليه عن أنس بن مالك أن سائلا أتى النبى ﷺ فأَعطاه تمرة ، فقال السائل : نبى من الأَنبياءِ يتصدق بتمرة؟! فقال النبى ﷺ : (أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ فِيهَا مَثَاقِيلَ ذَرَّةٍ كَثِيرَةٍ) وجاء أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) .

والمعنى : فمن يعمل– من مؤْمن أو كافر– خيرًا أو شرًّا يَرَ جزاء عمله يوم الحساب ، ولو كان ما عمله يعادل فى القلة وزن ذرة أى : أقل شيء يعرفونه ، قيل : هى النملة الصغيرة وقيل : هى واحدة الذر ، وهو الهباءُ الذى يُرَى فى شعاع الشمس الداخل من كوة ، وروى عن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب ثم رفعها ثم نفخ فيها ، وقال : كل من هولاءِ مثقال ذرة ، كما روى عنه أيضًا فى شرح الآية أنه قال : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرًا أو شرًّا فى الدنيا إلَّا أراه الله إيَّاه يوم القيامة ، فأَما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته ، فيغفر الله له سيئاته – أى : إذا كان مجتنبًا للكبائر – ويثيبه على حسناته ، وأما الكافر فيرى كذلك حسناته وسيئاته ، فيرد الله حسناته ، ويعذبه بسيئاته .

وقيل فى معنى رد حسناته : إنه لا يثاب عليها لكفره ، وهو محبط للعمل ، لكنه يخفف عنه العذاب ؛ للأَحاديث الصحيحة ، فقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه العذاب لكرمه ، وأن أبا لهب كذلك لسروره بولادة النبى ﷺ وإعتاقه جاريته « ثويبة » حين بشرته بذلك ، والحديث فى تخفيف عذاب أبى طالب مشهور كما قالوا ، ويشيرون إلى الحديث الذى روى بطرق فى البخارى ومسلم ، فقد قال البخارى : حدثنا مسدد بسنده عن العباس بن عبد المطلب

- رضى الله عنه - قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال : « هُوَ فِى ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » ، وفى البخارى أيضًا عن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه : (لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلَ فِى ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ عَقِبَيْهِ يَغْلِى مِنْهُ دِمَاغُهُ) وتحدث مسلم عن ذلك فى باب الشفاعة من صحيحه .

وقيل فى معنى إحباط عمل الكفار : إنه لا ينجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم ، وهو معنى (هباء) فى الآية الكريمة : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا » [1] وبظاهرها استدل قوم على حبوط جميع أعمال الكافر لكفره ، فلا ينتفع منها بشىء ، وادعى فى شرح المقاصد الإجماع على ذلك ، ورده الآلوسى فقال : ودعوى الإجماع على إحباطها بالكلية غير تامة ، كيف وهم مطالبون بالتكاليف فى المعاملات والجنايات اتفاقًا ، ولا شك أنه لا معنى للخطاب بها إلَّا عقاب تاركها ، وثواب فاعلها ، وأقله التخفيف ، وإلى هذا ذهب العلامة شهاب الدين الخفاجى عليه الرحمة . اهـ .

ونقل عن التبصرة فى شرح المشارق ، وتفسير الثعلبى : أن أعمال الكفرة الحسنة التى لا تحتاج إلى اشتراط الإيمان : كإنجاء الغريق ، وإطفاء الحريق ، وإطعام ابن السبيل ، يُجْزَوْنَ عليها فى الدنيا ، ولا تدخر لهم فى الآخرة كالمؤمنين بالإجماع للتصريح به فى الأحاديث وعليه فالكافر يرى جزاء خيره فى الدنيا فى نفسه وماله وأهله ، ويعذب بِشَرِّهِ فى الآخرة ، والمؤمن يرى جزاء شرِّه فى الدنيا بما يبتلى به ممَّا يكره ، ويرى جزاء خيره فى الآخرة ، روى عن أبى أيوب أنه ﷺ قال له إذ رفع يده :(مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ خَيْرًا فَجَزَاؤُهُ فِى الْآخِرَةِ ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ شَرًّا يَرَهُ فِى الدُّنْيَا مُصِيبَاتٍ وَأَمْرَاضًا ، وَمَنْ يَكُنْ فِيهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ) وتقديم عمل الخير فى الآية لأنه أشرف القسمين والمقصود بالأصالة ، وليس فى الآية تكرار ؛ لأن الأول متصل بقوله : (خَيْرًا يَرَهُ) والثانى متصل بقوله: (شَرًّا يَرَهُ) والله أعلم .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية رقم : ٢٣ .

سـورة العاديات

وهى مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

مناسبتها لمـا قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه وتعالى– فى السورة التى قبلها (سورة الزلزلة) الجزاء على الخير والشر . أتبع ذلك فى هذه السورة (سورة العاديات) بتوبيخ مَنْ آثر دنياه على آخرته ، ولم يستعد ليوم القيامة بعمل الخير فى دنياه .

مقاصد السـورة :

١ – بُدئت السورة الكريمة بالقسم بخيل الجهاد على أن الإنسان لكفور بنعمة ربه : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ...) إلى قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) .

٢ – ثم ذكرت أن الإنسان لشهيد على نفسه بذلك يوم القيامة ، وأنه محب للمال حريص عليه : (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) .

٣ – وختمت السورة بذكر البعث وما فيه من جزاء وثواب وعقاب : (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ...) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(العَادِيَاتِ) : الخيل تعدو فى الغزو ، واحدتها : عَادِيَةَ ، من الْعَدْو ، وهو الجرى .

(ضَبْحًا) : الضَّبْح ، صوت أنفاس الخيل عند عَدْوِها .

(فَالْمُورِيَاتِ) : واحدها مورية ، من الإيراء ، وهو إخراج النار .

(قَدْحًا) : القدح ، الضرب والصك المعروف ، يقال : قدح فَأَوْرَى : إذا أخرج النار ، وقدح فَأَصْلَد : إذا لم يخرجها .

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) : فالخيل تُغِير على العدو مُبَاغتة فى وقت الصباح ، واحدها : مُغيرة ، من أغار على العدو : إذا هجم عليه بغتة .

(فَأَثَرْنَ) : من الإثارة وهى تهييج وتحريك الغبار .

(نَقْعًا) : الغبار ، وقيل : رفع الصوت .

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) : فوسطن ، بمعنى توسطن ، أى : صِرْنَ وَسَطه بِه ، أى : بذلك الوقت ، أو النقع .

(جَمْعًا) : من جموع الأعداء .

(لَكَنُودٌ) : لكفور جَحُود ، من كَنَدَ النعمة : كَفَرها ولم يشكرها ، وأصل الكنود : الأرض التى لا تنبت شيئًا ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات .

(الْخَيْرِ) : المال .

(لَشَدِيدٌ) : لبخيل ، أو لَقَوِىّ .

(بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ) : أُخرج وأُثير ما فى جوفها من الأموات ، أى : بعثوا .

(وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ) : أى ، أُظهر ما فى القلوب مُحَصَّلًا مجموعًا ، أو مُيِّز خيره من شره ، فقد استعمل (حَصَّل الشىء) بمعنى مَيَّزه من غيره كما فى البحر ، وأصل التحصيل : إخراج اللُّب من القشر ، كإخراج الْبُر من التبن .

التفسير

١ - (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) :

(وَالْعَادِيَاتِ) الجمهور على أنه قسم بخَيْلِ الغزاة فى سبيل الله تعالى التى تعدو ، أى : تجرى مسرعة نحو العدو فتضبح (ضَبْحًا) والضبح : صوت أنفاسها عند عَدْوِهَا ، وأخرج ابن جرير عن على - كَرَّم اللهُ وَجْهَه - : الضَّبح من الخيل الحمحمة .

٢ - (فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) :

المراد بها الخيل أيضًا ، أى : فالخيل التى تُورى النار وتخرج شَرَرَها من صدم حوافرها للحجارة ، واندفاعها فى سيرها عند الجرى .

٣ - (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) :

أى : فالخيل تُغِير على العدو وتعدو لتهجم عليه وقت الصباح ؛ لأخذه بغتة على غير أهبة واستعداد ، وفى وصف الله سبحانه للخيل بما سبق من أنها العاديات المُوريات المُغيرات

إشارة إلى الغاية من اقتناء الخيل وهو الجهاد والفروسية والقوة، لا للخيلاء والزينة كما يفعل كثير من أغنياء هذا الزمان .

٤ ـ (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) :

أى : فهيجت هذه الخيل وأثارت فى مواقع الْعَدْوِ غبارًا شديدًا كثيفًا ، ويجوز أن يراد بالنقع : الصياح ، أى : فهيجن فى المُغار عليهم صياحًا وجلبة .

٥ ـ (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) :

المعنى : فتوسطن بذلك الرقت أو النقع جمعًا من الأعداء ، ففرقن صفوفه ، وشَتَّتْنَ شمله ، قال الآلوسى : والفاءات كما فى الإرشاد للدلالة على ترتيب ما بعد كل منها على ما قبله ، فَتَوَسُّط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإيراء المُتَرَتِّب على الْعَدْو .

٦ ـ (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) :

هذا ذكر المحلوف عليه والمقسم به بتلك الأَيْمَانِ السابقة فقال : (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) أى : إنَّ الإنسان طُبِع على نكران الحق وجحوده وكفران النعمة ، وعدم شكر المنعم ، وأخرج البخارى فى الأدب المفرد ، والحكيم الترمذى وغيرهما تفسير (الكنود) بالذى يمنع رِفْدَه ، وينزل وحده ، ويضرب عبده ، والجمهور على تفسيره بالكفور .

وكل ما ذكر يدخل تحت هذا العنوان ، وقيل : المراد بالإنسان كافر معين ، لما روى عن ابن عباس أنها نزلت فى قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشى ، وقيل : المراد به كل الناس ، على معنى أنَّ طبع الإنسان يحمله على ذلك إلَّا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك ، واختاره عصام الدين ، وقال : فيه مدح للغزاة لسعيهم على خلاف طبعهم .

٧ ـ (وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) :

أى : وإن الإنسان على كفره وكنوده وجحوده لنعم ربه فى الآخرة لشهيد على نفسه معترف بذنوبه ، وقال ابن عباس وقتادة : ضمير (إنه) عائد على الله تعالى ، أى : وإن

ربه – سبحانه وتعالى – شاهد عليه ، فيكون الكلام على سبيل الوعيد والتهديد ، واختاره التبريزى .

٨ – (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) :

أى : وإن الإنسان لحبه المال وتعلقه به لشديد ، أى : لبخيل ، وتفسير الخير بالمال ورد بهذا المعنى فى القرآن كثيرًا حتى زعم عكرمة : أن الخير حيث وقع فى القرآن هو المال ، وخصه بعضهم بالمال الكثير ، وفسر به قوله تعالى : « إن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ »[1] وإطلاق كونه خيرًا على المال باعتبار ما يراه الناس ، وإلَّا فمنه ما هو شر يوم القيامة .

وجوز غير واحد أن يراد بالشديد : القوى ، ولعله الأظهر ، أى : وإنه لقوى مبالغ فى حبه للمال ، والمراد قوة حبه له ، قال الزمخشرى : المعنى : وإنه لحب المال وإيثاره الدنيا وطلبها قوى مُطِيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه سبحانه ضعيف متقاعس ، وفى قول آخر للزمخشرى فى الكشاف : جواز أن يراد بالخير هو ما عند الله من الطاعات ، على أن المعنى : وإنه لحب الخيرات غير هاشٍّ منبسط ، ولكنه شديد منقبض ، ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

٩ – (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ) :

تهديد ووعيد ، والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمعنى : أيفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم مآله إذا بُعثر ونُشر مَنْ فى القبور من الموتى ، أى : بعثوا .

١٠ – (وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ) :

أى : جُمع ما فى القلوب من خير اكتسبوه ، وشر اقترفوه ، أو أُظهر كإظهار اللُّب من القشر ، أو مُيِّز خيره من شره ، وقد سجله الله عليهم فى صحفهم ، وتخصيص (مَا فِى الصُّدُورِ) أى : القلوب ، لأنه الأصل لأعمال الجوارح ، ولذا كانت الأعمال بالنيات .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٠ .

١١ - (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) :

أى : إن مربيهم وخالقهم خبير بأعمالهم وجزائهم يوم البعث والحساب ، أى عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه ، ومجازيهم عليه .

قال الزمخشرى : معنى علمه بهم يوم القيامة : مجازاته لهم على مقادير أعمالهم ، لأن ذلك أثر علمه وخُبْره بهم .

سورة القارعة

مكية ، وآياتها احدى عشرة آية

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة (سورة العاديات) بذكر بعض أوصاف يوم القيامة ، وهذه السورة بأسرها فى وصف ذلك اليوم وما يكون فيه من أهوال .

مقاصد السورة :

١ – بُدئت السورة الكريمة بتهويل شأن القارعة التى تقرع الناس ويصك صوتها أسماعهم : (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ...) الآية .

٢ – ثم ذكرت بعض أهوالها وما يحدث للناس وما تكون عليه الجبال : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ...) الآية .

٣ – وبينت جزاء الصالحين المؤمنين وجزاء الكافرين والمخالفين : (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(الْقَارِعَةُ) : من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة ، وقيل : صوت النفخة ، وقال الضحاك : هى النار ، وأيًا ما كان فهى من القرع : وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد .

(الْفَرَاشِ) : قال فى الصحاح : جمع فراشة التى تطير وتتهافت على النار ، وقال الفراء : هو غوغاء الجراد ، سمى فراشًا لتفرشه وانتشاره .

(الْمَبْثُوثِ) : المتفرق المنتشر .

(الْعِهْنِ) : الصوف مطلقًا ، أو المصبوغ منه ذو الألوان .

(الْمَنفُوشِ) : المُفَرَّق بالأصابع ونحوها .

(ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : بأن رجحت حسناته على سيئاته ، قال الكشاف : الموازين : جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله ، أو جمع ميزان ، وثقلها : رجحانها .

(عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) أى : عيشة يرضاها صاحبها وتطيب نفسه بها .

(خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) : بأن رجحت سيئاته على حسناته - يقال : خَفَّ ميزانه ، أى : سقطت قيمته فكأنه ليس بشىء .

(فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) : فمأواه جهنم.

التفسـير

١ - (الْقَارِعَةُ) :

الجمهور على أنها القيامة نفسها ، ومبدؤها النفخة الأولى ، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق ، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر ومصائبه قارعة ، قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »[1] أى : حادثة عظيمة تقرعهم وتصكهم .

٢ - (مَا الْقَارِعَةُ) :

تهويل لشأنها ، أى : أى شىء عجيب هى فى فخامتها وخطرها وفظاعتها ؟! وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها ، كأنها لشدة ما يكون فيها من الأهوال يصعب تصويرها ويتعذر إدراك حقيقتها .

٣ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) :

ثم زاد أمرها تعظيمًا فقال : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) أى : وأى شىء أعلمك ما شأن القارعة فى شدة هولها على النفوس ، كأنه لا شىء يحيط بها ، مهما تخيلت أمرها ، فهى أعظم من تقديرك وتوقعاتك ، ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه أخذ يعرف بزمانها الذى تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٣١ .

٤ - (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) :

قال صاحب التأويلات : اختلفوا فى تأويله على وجوه ، لكن كلها ترجع إلى معنى واحد وهو الإشارة إلى الحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم ، واختار غير واحد أن المراد بالفراش المبثوث : الحشرة الصغيرة التى تراها تترامى على ضوء السراج ليلاً ، وبها يضرب المثل فى الجهل بالعاقبة شُبِّهُوا فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجىء والذهابِ على غير نظام وَالتَّطَايُرِ إلى الداعى من كل جهة حين يُدْعَوْن إلى المحشر - شبهوا - بالفراش المتفرق المتطاير .

٥ - (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ) :

أى : إنّ الجبال - وهى الثقيلة والقوية الماسكة - تصير فى ذلك اليوم خفيفة هشة كالصوف الذى نُفِش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتّى صار على حال يطير مع أضعف ريح ، وإذا كان هذا هو حال ما يحصل لبعض الأجسام العظيمة التى من طبيعتها الاستقرار والثبات لفخامتها وثقلها ، فما بالك بما يحدث للإنسان ، وهو المخلوق الضعيف ؟!

وفى هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما ترى ، وبعد أن ذكر أوصاف ذلك اليوم وبما يكون من أحوال بعض الخلائق فيه ، أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

٦ - (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) :

هذا بيان لتحزُّب الناس وانقسامهم حزبين ، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما إشارة إلى وزن الأعمال ، وهو ممّا يجب الإيمان به ، ويكون هذا بعد تطاير الصحف وأخذها بالأيمان والشمائل ،(وبعد السؤال والحساب كما ذكره الواحدى) وتوزن الأعمال بميزان الله أعلم بما هيئته وبكيفية الوزن ، قال القرطبى ، لايكون الميزان فى حق كل أحد ؛ لما فى الحديث الصحيح الذى جاء فيه : « فَيُقَالُ : يَامُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَن » ، وذكر القاضى منذر بن سعيد البلوطى أن أهل الصبر لاتوزن أعمالهم وإنما يصب لهم الأجر صبًّا ، وأنكر المعتزلة الوزن حقيقة ، وكذلك أنكره جماعة من أهل السنة منهم مجاهد والضحاك والأعمش ، وقالوا : إن الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل .

٧ - (فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ) :

أى : فهو فى عيشة يرضاها صاحبها ، تطيب نفسه بها لما يراه من النعيم ، وما يلقاه من الثواب والتكريم .

٨ ، ٩ - (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) :

أى : وأما من خفت موازينه بأن لم تكن له حسنة يعتد بها أو رجحت سيئاته على حسناته ممن كان فى الدنيا عظيم الشر لاخير فيه ، أكل خير الله وعبد غيره ، وعاث فى الأرض فسادًا - لم يكن شيئًا له قيمة فلاترجح له كفة ميزان لو وضع فيها - (يقال : خف ميزانه ، أى : سقطت قيمته ومروءته فكأنه ليس بشىء ، حتى لو وضع فى كفة ميزان لم يرجح بها على أختها) .

٩ - (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) :

أى : فمأواه (هَاوِيَةٌ) أريد بها النار كما يؤذن به قوله تعالى : (وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ) فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل ، وذكر إن إطلاق (هاوية) على النار لغاية عمقها وبعد مهواها ، وعبر عن المأوى بالأم على التشبيه بها ، فالأم مفزع الولد ومأواه ، وفيه من التهكم ما فيه .

١٠ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ) :

أى : وما أعلمك ما الهاوية وأى شىء تكون؟ ! والهاء للسكت ثم فسرها بعد إبهامها فقال :

١١ - (نَارٌ حَامِيَةٌ) :

أى : هى نار حارة شديدة الحرارة ، قوية اللهب والسعير ، لا تبلغ حرارتَها أيةُ نار مهما سُعِّرت وألقى فيها من وقود ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « نَارُ بَنِى آدَمَ الَّتِى

تُوقِدُونَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ » . قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : « إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا » رواه البخارى ، وروى مثله مسلم مع المخالفة فى بعض الألفاظ (ابن كثير) .

هذا وعلينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان فى هذه الآية ، وفى مثل قوله تعالى :

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ »[1] ومن وزن الأعمال وذلك لتمييز مقدار كل عمل وليلقى كلٌّ جزاء ما عمل ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك . والله أعلم .

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٤٧ .

سورة التكاثر

مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة القارعة) جاء ذكر بعض أهوال يوم القيامة وجزاء الأخيار والأشرار ، وفى هذه السورة جاء ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة ، كما جاء ذكر السؤال عما قدم المرء من أعمال ، وهذه بعض أحوال الآخرة .

مقاصد السورة :

١ – بدئت السورة الكريمة بتوبيخ النَّاس لأنهم شغلوا بالتكاثر فى أمور الدنيا عن العمل للآخرة حتى دهمتهم المنايا : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) .

٢ – ثم أنذرتهم بما سيلقون يوم القيامة من معاينة النار : (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) إلخ .

٣ – ثم أنذرتهم بما يكون من سؤالهم عما كانوا فيه من النعيم فى الدنيا ، وهل أدوا حق شكره لواهب النعم : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(أَلْهَاكُمُ) : شغلكم عن طاعة ربكم ، من اللهو : وهو الغفلة ، ثم شاع فى كل شاغل ، وخصه العرف بالشاغل الذى يسر المرء ، وهو قريب من اللعب ، ولذا ورد بمعناه كثيرًا ، وقال الراغب : اللهو : ما يشغلك عما يعنى ويهم .

(التَّكَاثُرُ) : التبارى فى الكثرة والتباهى بكثرة العدد والأموال والأولاد .

(زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) : مُتُّمْ ودفنتم فى القبور ، أو عددتم الموتى تكاثرًا .

(كَلاَّ) : كلمة ردع ، أو بمعنى حقًّا .

(لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) : لو تعلمون مآلكم علماً يقيناً لما ألهاكم التكاثر .

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) أى : والله لتشاهدُنَّ النَّار الموقدة : (دار العذاب) .

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) أى : ثم لترونها رؤْية يقينية مبعثها المشاهدة والمعاينة .

(النَّعِيمِ) : كل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب وغير ذلك .

التفسـير

١ ، ٢ - (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) :

أى : شغلكم عن الجد والاجتهاد وصرفكم عن العمل للآخرة تَبَاهِيكم بالأنصار والأولاد وتفاخركم بالأموال والأحساب والأنساب ، والتَّبَارِى فى كثرة العدد ، بأَن يقول هؤُلاءِ : نحن أكثر ، وهؤُلاءِ : نحن أكثر ، حتى إذا استدعيتم عدد الأَحياءِ صرتم إلى المقابر وانتقلتم إلى ذكر مَن فيها فتكاثرتم بالأَموات .

أخرج ابن أَبى حاتم عن أَبى بريدة قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأَنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ ! وقال الآخرون مثلَ ذلك - تفاخروا بالأَحياء - ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان تشير إلى القبر ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأَنزل الله

تعالى : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) وزيارة المقابر على ما تقدم على ظاهرها ، وقيل المراد : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت وأنتم لاهون عن العمل لآخرتكم ، وزيارة القبور على هذا عبارة عن الموت .

قال الآلوسى : وفى هذا إشارة إلى تحقق البعث ، يحكى أن أعرابياً سمع ذلك فقال : بعث القوم ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال : لابد لمن زار أن يرجع إلى جنة أو نار ، وفيه أيضاً إشارة إلى قصر زمن اللبث فى المقابر ، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع ، قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بقوله تعالى : (زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أى : صرتم إليها ودفنتم فيها - روى أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) فى الأموال والأولاد عن الطاعة (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أى : حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ ، ثم نبههم إلى خطأ ماهم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التى تنتهى إلى وخيم العاقبة فقال :

٣ - (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

كَلَّا : أى ؛ ارتدعوا عن الاشتغال بما لا يعنيكم وانتبهوا إلى ما وقعتم فيه من خطأ . (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) : وتعرفون سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عا ينتم عاقبته وشاهدتم جزاءه ، ونزل بكم عقابه ، وهذا إنذار لهم ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم ، ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

٤ - (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعلَمُونَ) :

وعيد بعد وعيد والتكرير تأكيد للردع والإنذار لهم ، و (ثُمَّ) للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد كما يقول العظيم لعبده : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل .

والمعنى : سوف تعلمون خطأ ما أنتم عليه إذا عاينتم ما قُدّامكم من أهوال الاخرة ، وإن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة بكم ، وقال على كرم الله وجهه : الزجر الأول فى القبور ،

والثانى فى النشور ، فلا تكرار ، فالتراخى على ظاهره ، وقال الضَّحاك : الزجر الأَول للكافرين والثانى للمؤْمنين ، ثم كرّر التنبيه أَيضاً فقال :

٥ - (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) :

أى : ارتدعوا عن تغريركم بأَنفسكم فإنكم لو تعلمون يقيناً سوء مصيركم وعاقبة أمركم وما يُفْضِى إليه حالكم لفزعتم من تكاثركم ولَشَغَلَكم هذا عن افتخاركم بأَموالكم وأولادكم ، وتزودتم بالعمل الصالح لآخرتكم ومآلكم .

وإنما ذكر - سبحانه وتعالى - هذا زيادة فى زجرهم لتغريريهم بأَنفسهم ، وخداعهم لها فقد جرت عادة الغافلين أنهم يدعون اليقظة والمعرفة إذا ذكِّروا بغفلتهم ، ثم ذكر لهم بعض ما يفضى إليه هذا اللهو وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا فقال :

٦ - (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) :

أى : أُقسم لكم وأُوَكد - أيها الناس - أنكم ستشاهدون النار الموقدة ، وهى دار العذاب التى أُعدت لمن يلهو وينصرف عن الحق ، والجملة جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أُنذروا به بعد إبهامه تفخيماً لشأْنه ، وإعظاماً لقدره ، وما هددوا به سابقاً هو قوله تعالى : (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) فتوعدهم بهذه الحال وهى رؤْية النار التى إذا زفرت زفرة واحدة خَر كل رسول مقرب وكل ولى وعابد على ركبتيه من المهابة والمعاينة ؛ لرؤْية ما فيها من الأَهوال على ما جاءت به الآثار ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم .

وقيل : المراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم ، ثم كرر ذلك للتأْكيد فقال :

٧ - (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) :

أى : ثم أُقسم وأُوَكد أنكم ستشاهدونها عياناً ويقيناً قال الآلوسى : أى الرؤْية التى هى نفس اليقين ، فإن الانكشاف بالرؤْية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات ، فهو أحق

بأن يكون عين اليقين ، واليقين[1] فى اللغة – على ما قيل : العلم الذى لاشك فيه ، ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

٨ – (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) :

أى : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ، أى : ماذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته ؟ !

قيل : الخطاب فى (لَتُسْأَلُنَّ) للكفار ، وعليه ابن عباس : وقيل : الخطاب مخصوص بكل من ألهته دنياه عن دينه ، والنعيم مخصوص بما شغله عن ذلك ، وخير القول فى النعيم قول مجاهد ؛ كل لذة من لذات الدنيا .

وفى التفسير الكبير : الحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعم به سواء كان مالابد منه أم لا ؛ لأن كل ما يهب الله تعالى يجب أن يكون مصروفاً لطاعته سبحانه لا إلى معصيته – عز وجل – فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكده قوله – عليه الصلاة والسلام – « لا تَزولُ قَدَمَا الْعَبدِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ :

١ – عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ .

٢ – وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبلاهُ .

٣ – وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ .

٤ – وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ .» لأن كل نعيم داخل فيما ذكره ﷺ وما ورد فى بعض الآثار مثل ماروى عن عمر – رضى الله عنه – أنه قال : أى نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ظِلاَلُ الْمَسَاكِنِ وَالأَشْجَارِ وَالأَخْبِيَةِ الَّتِى تقِيكُمُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ ، وَالْمَاءُ الْبَارِدُ فِى الْيَوْمِ الْحَارِّ » فذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خصت بالذكر لأمر اقتضاه الحال ، ويؤيد ذلك قوله – عليه الصلاة والسلام – فى غير رواية عند ذكر شىء من ذلك : « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُونَ عَنْهُ » بمن التبعيضية ، والله أعلم .

---

(١) وعلم اليقين : العلم بما أعطاه الدليل من إدراك الشىء على ما هو عليه ، وعين اليقين : العلم بما تعطيه المعاينة والمشاهدة والكشف ، أما حق اليقين فهو ملابسة الأمر والدخول فيه بالفعل .

سـورة العصـر

مكية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة التكاثر) بيان حال من ألهاه التكاثر عن العمل لآخرته وما آل إليه أمره ، وفى هذه السورة بيان حال من لم يلهه التكاثر عن عمل الصالحات .

مقاصد السـورة :

١ ـ أقسم الله تعالى بالزمان لما يقع فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرة خالقه وبالغ حكمته على أن جنس الإنسان لفى خسر : (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) .

٢ ـ استثنى الله سبحانه من جنس الإنسان الخاسر مَنْ اتصفوا بأربعة أشياء :

١ ـ بالإيمان .

٢ ـ بالعمل الصالح .

٣ ـ بالتّواصى بالحق .

٤ ـ بالتّواصى بالصبر .

فهؤلاء المؤمنون الصالحون الذين يعملون الخير ويدعون غيرهم للعمل به ، ولا يزحزحهم عن الدعوة إليه ما يلاقونه فى سبيله من مشقة وبلاء ، هؤلاء ناجون من الخسران ، مفلحون فى الدنيا والآخرة : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(الْعَصْرِ) : صلاة العصر ، وقيل : الزمان والدهر ، وقيل : العشى ، وقيل غير ذلك.

(الْإِنسَانَ) : جنس الإنسان .

(لَفِي خُسْرٍ) : لفى خسران ونقصان وهلاك .

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) : وأوصى بعضهم بعضًا بالحق ، وهو الخير كله .

(الصَّبْرِ) : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة والمكاره .

بعض ما جاء فيها :

قال الآلوسى : سورة العصر ، وآياتها ثلاث ، وهى على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت ، فقد روى عن الشافعى – عليه الرحمة – أنه قال : لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس ؛ لأنَّها شملت جميع علوم القرآن ، وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب : عن أبى حذيفة – وكانت له صحبة – قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله – ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر .

التفسـير

١ – (وَالْعَصْرِ) :

أقسم الله – سبحانه وتعالى – بصلاة العصر لفضلها ؛ لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور – لقوله – عليه السلام – : (شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاةِ الْوُسْطَى : صَلاةِ الْعَصْرِ) :

وفى الحديث : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ » وخُصَّت صلاة العصر بالفضل لأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس على تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم فى ذلك الوقت ، وقال قتادة : العصر : العشى ، وهو ما بعد الزوال إلى الغروب ، أقسم به – سبحانه وتعالى – كما أقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة ، وقال ابن عباس : هو الزمان والدهر – أقسم به – سبحانه – لاشتماله على أصناف العجائب ، ولما فيه

من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه ، وكان الكفار فى الجاهلية ينسبون أحداث الزمان ونوائبه وكوارثه إلى الدهر ، فيقولون : هذه نائبة من نوائب الدهر ، وهذا زمان بلاء وعناء ، فأرشدهم – عز وجل – إلى أن الدهر خَلْقٌ من خلقه ، وأن الزمان ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها ، فإذا وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يداه ، وليس للدهر فيها من سبب .

٢ – (إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) :

أى : إن كل إنسان لنى نوع من الخسران لغلبة الأهواء والشهوات والرغبات والمطامع عليهم فى أعمالهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم فى مطالبهم التى لاينتفعون بها فى الآخرة ،بل ربما تَضُرُّ بهم ، وتكون سبب شقائهم وعذابهم ، و (أل) فى الإنسان لشمول جميع الجنس بدليل الاستثناء الذى جاء بعدها : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) إلخ ، والتنكير فى (خُسْرٍ) قيل : للتعظيم ، أى : فى خسر عظيم ، ويجوز أن يكون للتنويع ، أى : نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان .

٣ – (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ) :

(إِلَّا الَّذِين آمنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ) استثنى المولى – جلَّ وعلا – من جنس الإنسان الواقع فى الخسران ، استثنى – سبحانه – الذين آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً خالصاً لله . وعملوا الصالحات بجوارحهم ، فجمعوا بين صدق العقيدة وصدق العمل ، وتجد فى كتاب الله دائماً قرن الإيمان بالعمل الصالح ؛ للإشارة إلى أن الإيمان بلاعمل كزرع بلاثمر ، قال تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا »[1] والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى تجارة لن تبور ؛ لأنَّهُمْ باعوا الفانى الخسيس واشتروا الباقى النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات . فيالها من صفقة ما أربحها ، ومنفعة جامعة للخير ما أو ضحها وأنجحها !! وهذا – هو قوله تعالى – : (الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) سورة الكهف ، الآية : ١٠٧ .

الصَّالِحَاتِ) بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله تعالى : (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) بيان لتكميلهم لغيرهم ، أى : وَصَّى بعضهم بعضا بالحق - وهو الأمر الثابت الذى لا سبيل لإنكاره ولا زوال فى الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله : من توحيد ، وطاعة ، واتباع كتبه ورسله ، - جلَّ شأنه - وزهد فى الدنيا ، ورغبة فى الآخرة .

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) :

أى : وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على المعاصى التى تشتاق إليها النفس بحكم الطبيعة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبتلى الله - سبحانه - به عباده من المصائب ، والصبر المذكور داخل فى الحق ، وذكره بعده لإبراز كمال العناية به . وفى السورة دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه يجب على الإنسان أن يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه .

سورة الهُمَزة

مكية ، وآياتها تسع آيات

مناسبتها لما قبلها :

ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ فى السورة السابقة (سورة العصر) أن جميع أفراد الإنسان منغمسون فى الضلال والخسران إلا من عصم الله ، وفى هذه السورة (سورة الهمزة) يبين ـ سبحانه ـ أحوال بعض الخاسرين ، وصفات أهل الضلال .

مقاصد السورة :

١ ـ فى السورة وعيد لمن اعتاد أن يعيب الناس وجمع مالا كثيرًا وعَدَّدَهُ افتخارًا ظانًا أن ماله أخلده : (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ).

٢ ـ وفى السورة تهديد لهؤلاء بإلقائهم فى نار موقدة تحطم أجسامهم وقلوبهم ، وتغلق عليهم أبوابها فلا خلاص لهم منها : (كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) الهمز : الكسر ، واللمز : الطعن ، شاعا في النَّيل من أعراض الناس .

وقيل : الْهَمْز : الطَّعن فى الوجه ، واللَّمْز : الطعن فى الخلف ، وقيل : الهمّاز : الطاعن بالقول ، واللماز : الطاعن بالفعل ، وقيل : اللُّمَزَةُ : الطَّعّان فى الأنساب خاصة ، وقيل غير ذلك ، والمراد : طَعّان عَيّاب عَيّاب ، وبناءُ فُعَلَة يدل على أن ذلك صار طبعًا وعادة ، ونحوهما : الضُّحَكَة .

(وَعَدَّدَهُ) : عدّه مرة بعد أخرى ، أو جعله عُدَّةً لنوائب الدهر .

(أَخْلَدَهُ) : أخلده وخلَّده بمعنى ، أى : تركه خالدًا ، أى : ماكثاً مكثاً لايتناهى ، أو مكثاً طويلا جدًا .

(كَلاَّ) : ردع له عن كل ما سبق .

(لَيُنبَذَنَّ) : ليطرحن ، والنَّبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير .

(الْحُطَمَةِ) : النَّار التى تحطم كل ما يلقى فيها ، أى : تكسره .

(تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) : تصل إلى القلوب وتُحِيطُ بها ، أو يقصد بالاطلاع : المعرفة والعلم .

(مُّؤْصَدَةٌ) : مطبقة ، من : أوصدت الباب ، أى : أغلقته .

(فِي عَمَدٍ) العمد : واحدها عمود ، أو عماد .

(مُّمَدَّدَةٍ) : صفة لِعَمَد ، أى : طوال .

التفسـير

١ـ (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) :

أى : هلاك وعذاب شديد وعقاب أليم ، وقيل : واد فى جهنم أعد وهيىء لمن دَأْبُه أن يعيب النَّاس ويغض من أقدارهم ، وينتقص من همهم فى حضورهم أو فى غيبتهم ، يفعل ذلك بالقول أو الإشارة ، ويتكلم فى أعراضهم بما لايليق ، مما تـأْباه النفوس الكبيرة ،

وتتباعد عنه أصحاب الهمم العالية ، وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الْهمزَةِ اللُّمَزَةِ فقال : « هو المشَّاءُ بالنميمة ، الْمُفَرِّق بين الجمع ، الْمُغْرى بين الإخوان .

قيل : نزلت السورة فى الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وقيل : فى أمية ابن خلف ؛ وكان يهمز النبى ويعيبه ، وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب الرسول ويغض منه ، ثم بيَّن التَّنْزِيل سبب عيبه وطعْنه فى الناس فقال :

٢ - (الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ) :

أى : إن الذى دعاه إلى الحطِّ من الناس والغضِّ من أقدارهم والزراية عليهم هو جمعه للمال وتعديده له - أى : عَدُّه مرة بعد أخرى ؛ حبًّا له ، وشغفاً به ، وتهالكاً عليه ، وقيل : جعله أصنافاً وأنواعاً : كعقار ، ونقود ، أو جعله عُدَّةً لمصائب الأيام ومدخرًا لنوائب الدهر ونوازله ، وتنكير (مَالًا) للتكثير ، ويجوز أن يكون للتحقير والتقليل باعتبار أنه عند الله أقل وأحقر ، ثم بين - سبحانه - خطأه فى ظنه فقال :

٣ - (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) :

أى : يظن ذلك العيّاب الطّعّان أن ما عنده من المال جعله خالدًا ، والمراد أن المال طوَّل أمله ومنَّاه الأمانى البعيدة ، فهو يعمل من تشييد البنيان ، وغرس الأشجار ، وشق الأنهار ، ونحو ذلك ، عَمَلَ من يظن أن ماله أبقاه حيا ، والإظهار فى (مَالَهُ) فى مقام الإضمار لزيادة التقرير ، ويجوز أن يراد أنه حسب ذلك حقيقة ؛ لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة ، أو لزعمه أن الحياة والسلامة عن الأمراض تدور على مراعاة الأسباب الظاهرة ، وأن المال هو أساس كل شىء ، وأنه هو الذى يصنع كل شىء ، وهذا زعم فاسد ، ثم أخذ - سبحانه وتعالى - فى بيان ما أعد لهم من العذاب الشديد فقال :

٤ - (كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) :

كلاَّ : ردع له عن كل ما تضمنته الجمل السابقة من الصفات القبيحة (لَيُنبَذَنَّ) جواب قسم مقدر ، والجملة استئناف مبين لعلة الردع ، أى : والله لَيُطْرَحَنَّ ويُلْقَيَنَّ بسبب

أفعاله المذكورة (فِي الْحُطَمَةِ) أى : النار التى من شأْنِهَا أن تحطم كل ما يُلْقَى فيها - والحطْم : كسر الشىء كالهشم ، ثم استعمل لكل كسر مُتَنَاهٍ .

وقيل : الحطمة باب من أبواب جهنم ، أو طبقة من طبقاتها ، وقيل غير ذلك ، ثم أخذ - عز وعلا - يهول أمر هذه النار ويعظم شأْنها فقال :

٥ - (وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) :

أى : وأى شىء أعلمك وعرَّفك ما حقيقة هذه النار الحطمة ؟! إن هذه الحطمة ، ما لا تحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلا يعلم شأْنها ، ولا يقف على كنهها إلَّا من أعدها لمن يستحقها ، فهى من الأُمور التى لا تنالها عقول الخلق ، ثم فسر هذه الحطمة بعد إبهامها فقال :

٦ - (نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ) :

أى : هى نار الله المسعرة الموقدة دائمًا بأَمر الله - عز وجل - وفى إضافتها إليه - سبحانه - ووصفها بالإيقاد من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه ، ثم وصفها بأَوصاف تخالف ميزان الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال :

٧ - (الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ) :

أى : تعلو هذه النار أوساط القلوب وتغشاها وتقهرها وتتسلط عليها وتتمكن منها ، وتخصيص الأَفئدة بالذكر لأَن الفؤاد ألطف ما فى الجسد وأشد تأَلمًا بأَدنى أذى يمسه ، أو لأَنه محل العقائد الفاسدة والنيات الخبيثة ، فهو أنسب بما تقدم من ألوان العذاب من جميع أجزاء الجسم ، أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب أنه قال فى الآية : تأْكل النار كلَّ شىء منه حتى تنتهى إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده أى ابتدأ خلقه (أى : من جديد) ويجوز أن يراد بالاطلاع العلم ، وكأن هذه النار تعلم وتعرف وتدرك فى ما أفئدة الناس يوم البعث ؛ فتميز الطائع عن العاصى والخبيث من الطيب وتُفَرِّق بين مَنْ ارتكبوا السيئات ، ومن فعلوا الصالحات ، وفى وصفها بالاطلاع على الأَفئدة التى أودعت فى باطن الإنسان ، فى أخفى مكان منه ، إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولًا وأكثر تغلبًا .

٨ - (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) :

ومن أوصاف تلك النار أنها عليهم مؤصدة ، أى : مطبقة مغلقة أبوابها ، لايخرجون منها ولايستطيعون الخروج منها لو أرادوا .

٩ - (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) :

أى : هم موثقون فيها مشدودون إلى عمدٍ ممددة ، فلاحركة لهم فيها ، ولاخلاص لهم منها ، وقال بعضهم : لامانع أن يكون قوله تعالى : (فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) صلة لمؤصدة على معنى : أن الأبواب أوصدت بالعمد ، وسدت بها ؛ تأكيدًا ليأسهم ، واستيثاقًا بعد استيثاق .

والمراد بذلك : تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم ، والمبالغة فى ذلك ؛ ليزرع فى قلوبهم اليأس والخوف ، لأن المحدَّث عنهم همزوا ولمزوا خير البشر .

قال الآلوسى : من تأمل فى هذه السورة ظهر له العجب العجاب من التناسب .

١ - فإنه لما بولغ فى الوصف فى قوله : (هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) قيل : الحطمة للتعادل ؛ ليُطابِق العذابُ الذَّنْبَ .

٢ - ولَـمَّا أفاد قوله : (هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) كسر الأعراض بالطعن فيها قوبل بكسر الأعضاء المدلول عليه بالحطمة .

٣ - وجىء بالنبذ المنبئ عن الاستحقار ، فى مقابله ما ظن الهامز اللامز بنفسه من الكرامة والاستعلاء على الناس .

٤ - ولَـمَّا كان منشأُ جمع المال استيلاء حبه على القلوب جىء فى مقابله بقوله تعالى : (الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) .

٥ - ولَـمَّا كان مِنْ شأْن جامع المال المحب له أن يُوصد عليه ويغلق عليه الأبواب حرصًا عليه ، قيل فى مقابله : (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) أى : النار .

سورة الفيل

وهى مكية ، وآياتها خمس

مناسبتها لما قبلها :

ذكر – سبحانه – فى السورة السابقة (سورة الهُمَزة) أن المال والسلطان لا يغنيان من الله شيئًا ، وفى هذه السورة أقام – سبحانه وتعالى – الدليل على ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، وكذلك فى السورة السابقة توعد الله كل كافر بقوله تعالى : (لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ) وهنا فى هذه السورة أتى – عز وجل – بما يدل على إنفاذ وتحقيق ما توعد به أولئك الكفرة .

مقاصد السورة :

يخبر الله – سبحانه – نبيه ﷺ بقصة أصحاب الفيل الذين قصدوا بيت الله بمكة لهدمه :(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) ويقص عليه ما حوته هذه القصة مِنْ عِبَر دالَّة على قدرة الله وعظمته :(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ) ويذكر له كيف انتقم من هؤلاء المعتدين على حرماته :(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) كما يذكر له عاقبة اعتدائهم ، وما آل إليه أمرهم : (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾)

المفـردات :

(كَيْدَهُمْ) الكيد : إرادة وقوع ضرّ بغيرك على وجه الخفاء ، والمراد به : عزمهم على تخريب الكعبة وسعيهم على هدم البيت .

(تَضْلِيلٍ) : تضييع وإبطال ، وأصل التضليل : مِنْ ضَلّ عنه : إذا ضاع .

(أبَابِيلَ) أى : جماعات متفرقة ، جمع إبَّالة ، وحكى الفراءُ إبَالة - بالتخفيف - وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعات من الطير فى تَضَامِّها ، وقيل : واحده إبِّيل كسكِّين ، وقال أبوعبيدة : لاواحد له من لفظه .

(سِجِّيلٍ) : طين مطبوخ متحجر ، وقيل : حجارة من جهنم .

(كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) أى : كَتِبْن أكلته الدَّوابّ وَرَاثَتْه ، أو كورق زرع أصابته آفة فأتلفته .

التفسير

١ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) :

(أَلَمْ تَرَ) - استفهام تعجيب - أى : أعجبت كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟! وهم أبرهة وقومه .

أى : قد علمت يا محمد عِلْمًا لا يُخالطه شك فِعْل ربك بأصحاب الفيل ، ووقعت القصة عام مولد الرسول ، قال السهيلى : ولد الرسول بعدها بخمسين يومًا ، وكانت القصة فى الحرم ، والولادة فى شهر ربيع الأول ، وقيل غير ذلك ، ولعظم القصة كانوا يؤرخون بها ؛ شأن الأحداث الكبيرة ، والوقائع الخطيرة ، فيقولون : ولد فلان ، أو مات قبل الفيل بعام أو بعده بعامين مثلًا .

وخلاصة قصة الفيل كما رواها الإمام ابن كثير والزمخشرى فى الكشاف : أن أبرهة ملك اليمن من قبل النجاشى بنى كنيسة (بصنعاء) وسماها (القُلَّيس) وأراد أن يصرف الحجاج إليها ، فخرج رجل من كِنْدَةَ فأحدث فيها ليلًا ، وقيل : أجَّج فيها نارًا فأحرقتها ،

فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة ، فخرج ومعه فيل ، وكان قويًّا عظيمًا ، وقيل : كان معه أكثر من فيل ، فلمَّا بلغ (المُغَمّس) وهو موضع فى طريق الطائف بالقرب من مكة خرج عليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى ، وعبَّأ جيشه وقدَّم الفيل ، وكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو غيرها من الجهات هرول ، فأرسل الله طيرًا سودًا ، وقيل : خضرًا ، وقيل : بيضًا ، مع كل طائر حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل ، ومرض أبرهة فتساقطت أنامله وأعضاؤه ، وما مات حتى انصدع صدره .

والمعنى : إنك رأيت آثار فِعْلِ الله بأهل الحبشة الذين قصدوا هدم البيت ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة .

قال الآلوسى : وتعليق الرؤية بكيفية فعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا بفعله بأن يقال : ألم تر ما فعل ربك .. إلخ ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية خارقة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته ، وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك ـ كما قال غير واحد ـ كان من الإرهاصات ، بمولد الرسول ﷺ ، قال إبراهيم ابن المنذر شيخ البخارى : لا يشك فى ذلك أحد من العلماء وعليه أكثرهم ، وعن عكرمة : أن من أصابته الحجارة جَدَرَتْهُ ، وهو أول جُدَرِىٍّ ظهر ، أى : بأرض العرب ، فعن يعقوب ابن عتبة أنه حدَّث أنه أول ما رؤيت الحصبة والجدرى كان بأرض العرب فى ذلك العام .

٢ ـ (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ) :

بيان إجمالى لما فعل الله بهم ، والهمزة للتقرير ، كأنه قيل : قد جعل الله كيدهم فى هدم الكعبة وتخريبها فى تضييع وإبطال ؛ بأن دمَّرهم أشنع تدمير ، وأهلكهم على أفظع صورة ، فضيع تدبيرهم وخيب سعيهم ، ولم ينالوا قصدهم ، ثم فصَّل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال :

٣ - (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) :

أى : وسلط الله عليهم من جنوده فِرَقاً من الطير ، أتتهم جماعات مسرعة متتابعة ، وأحاطت بهم من كل جهة ، وجاءت هذه الطير - على ما روى عن جمع - من جهة البحر ، وعن عكرمة : كأن وجوهها مثل وجوه السباع ، لم تُر قبل ذلك ولا بعده .

٤ - (تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) :

صفة أخرى كقوله : (طيرًا) وعبر بالمضارع فى (تَرْمِيهِم) لحكاية الحال ، واستحضار تلك الصورة الغريبة .

والمعنى : تقذفهم بحجارة من سجيل ، أى : من طين مطبوخ متحجر ، وقيل : هو عربى من السِّجل بالكسر وهو الدلو الكبيرة ومعنى كون الحجارة من الدلو : أنها متتابعة كثيرة كالماء الذى يصب من الدلو ، وقيل : من الإسْجال ، بمعنى الإرسال ، وقيل : من سجين ، أى : من جهنم (آلوسى وكشاف بتصرف) وقيل : هو ليس بعربى بل هو منقول من غير العربية ، واختلف فى حجم تلك الطير ، وكذلك فى حجم تلك الحجارة ، روى أن الطير فى الجسم كالخطاطيف ، والحجارة منها ما هو كالحمصة ، أو أصغر أو أكبر .

قال الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه مع وثنيتهم حفظًا لبيته ؛ حتى يرسل إليه رسوله الذى يحميه بقوة دينه ، وهى نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت .

٥ - (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) :

أى : فجعلهم كورق زرع أصابته آفة فأتلفته ، وذهب غير واحد إلى أن المعنى : فجعلهم كَتِبْنٍ أكلته الدواب وراثته ، والمراد : كَرَوْثٍ إلّا أنه لم يذكره بهذا اللفظ لهجنته ، فجاء على نظام الآداب القرآنية ، فشبه تَقَطُّعَ أوصالهم بتفرّق أجزاء الرَّوْث ، ففيه إظهار تشويه حالهم ؛ حيث جعلهم مبتذلين ضائعين ، لا حافظ لهم ، ولا يلتفت إليهم أحد ، ولا يدفنهم .

سورة قريش

وهى مكية ، وآياتها اربع

مناسبتها لما قبلها :

إن كلاًّ منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ، فالأُولى (سورة الفيل) تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم ، والثانية (سورة قريش) ذكرت نعمة أُخرى ، وهى اجتماع أمرهم والتئام شملهم ليتمكنوا من القيام برحلتى الشتاء والصيف ، ولشدة الصلة بين السورتين كان أُبى بن كعب – رضى الله عنه – يعتبرهما سورة واحدة .

مقاصد السورة :

١ – فى هذه السورة الكريمة يبين الله فضله على قريش ويَمُنُّ عليهم بأنه حمى البيت من الأَعداء ، وجعلهم عُمَّاره وأَهل جيرته ، وبهذا اكتسبوا عزًّا ومجدًا ، وهو الأَمن ، فهم يمضون إلى مزاولة تجارتهم بين الشام واليمن ، دون أَن يعترض طريقهم أَحد ، وهم بهذا ضمنوا – إلى نعمة الأَمن – نعمة الغنى واليسار :

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ * رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) .

٢ – وهذه كلها نعم توجب عليهم عبادة ربهم الذى أَطعمهم من جوع وآمنهم من خوف :

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾)

المفردات :

(لِإِيلَافِ) إيلاف : مصدر آلِفْتُ الشيء إلْفًا وَإلافًا ، وآلَفْتُهُ إيلافًا : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به ، وقال الراغب : الإيلاف : اجتماعٌ مع التئام ، وقال الهروى : عهود بينهم وبين الملوك .

(قُرَيْشٍ) : ولد النضر بن كنانة ، وهو أصح الأقوال ، وهو فى الأصل تصغير (قَرْش) بفتح القاف اسم لدابة فى البحر أقوى من كل دابة ، وقال الفراءُ : هو من التَّقَرُّش ، بمعنى التكسب ؛ سموا بذلك لاشتغالهم بالتجارة ، وقيل : من التقرش بمعنى التجمع .

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) : فليوحدوه بالعبادة ولا يشركوا معه غيره .

التفسير

١ - (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) :

متصل بقوله : (فَلْيَعْبُدُوا) واللام للتعليل . أمرهم أن يعبدوه لإيلافهم الرحلتين ، والمعنى : أن نعم الله لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وهذا رأى الخليل ، وقال الكسائى والفرّاءُ : المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش (بدليل السياق) كأنه قيل : اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة الله الذى أعزهم

ورزقهم وآمنهم ؛ فلهذا أمروا بعبادة ربهم المنعم عليهم بالرزق والأمن ، وقال الأخفش : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) متعلق بآخر السورة التى قبلها ، أى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، والقرآن كله كالسورة الواحده .

والمعنى : أهلك الله - سبحانه وتعالى - من قصدهم من الحبشة ، ولم يسلطهم عليهم ؛ ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ، ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتيهم ، فلايجترئ أحد عليهم .

٢ - (إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) : بدل من إيلاف قريش :

أى : فلتعبد قريش ربها شكرًا له على أنه جعلهم قومًا تجارًا لهم رحلتان : رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه ، ورحلة فى الصيف إلى الشام لجلب الأقوات إلى بلادهم ، ولقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وولاة الكعبة ، فيذهبون آمنين ويرجعون سالمين ، على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لا تنقطع ، ولهذا ألفت قريش الأسفار ، وتعلقت بالرحيل طلبًا للرزق ، وهذا الإجلال الذى ملك نفوس العرب للبيت الحرام ولجيرانه ، إنما هو من تسخير رب البيت - سبحانه - ولقد حفظ الله حرمته فرد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه وأهلكهم ، قبل أن ينقضوا منه حجرًا ولو نزلت مكانة البيت عند العرب ومكانة أهله وجيرانه واستطالت الأيدى عليهم لنفروا من تلك الرحلات وأعرضوا عن هذه الأسفار فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم صحراء قاحلة وليسوا مهرة فى الصناعات ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

٣ - (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) :

أى : فليخلصوا العبادة لرب هذا البيت الذى مكنهم من القيام بهاتين الرحلتين ، ولا يشركوا به غيره ، ويفردوه بالتعظيم والإجلال ، وهذا البيت هو الكعبة التى حميت من

أصحاب الفيل . وعن عمر – رضى الله عنه – أنه صلّى بالناس بمكة عند الكعبة ، فلمّا قرأ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ جعل يومئ بإصبعه إليها وهو فى الصلاة بين يدى الله عز وجل .

ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

٤ – ﴿ الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ :

أى : رب البيت هو الذى أطعمهم من جوع بأن وسع لهم الرزق ومهد لهم سبيله ، بسبب هاتين الرحلتين اللتين تمكنوا منهما بسبب كونهم من جيران بيته ، وأهل حرمه . وقيل : أراد بالجوع : القحط الذى أكلوا فيه الجيف والعظام ، فأغاثهم الله بعد ذلك وأمدهم برزقه . ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أى : وآمنهم من خوف عظيم شديد الهول ، وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف فى بلدهم ورحلاتهم .

سورة الماعون

وهى مكية ، وآياتها سبع آيات

مناسبتها لما قبلها :

لَمَّا ذكر – سبحانه وتعالى – فى السورة السابقة (سورة قريش) أنه (أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ) ذم هنا فى (سورة الماعون) من لم يحضُّ على طعام المسكين ، ولما قال تعالى فى السورة السابقة : (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ) ذم – سبحانه وتعالى – هنا من سها عن صلاته التى يتوجه فيها إلى هذا البيت .

مقاصد السورة :

١ – تحدثت السورة الكريمة عن المكذب بالدين ، وأن من أوصافه أنه يهين اليتيم ويزجره ، وأنه لايحض بقول أو فعل على إطعام المسكين : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) .

٢ – ثم ذكرت السورة فريقاً آخر شبيهاً بهذا المكذب بالدين ، وهم الذين هم عن صلاتهم ساهون وغافلون لا يؤدونها ، والذين هم مراءون بأعمالهم ، وهم مع ذلك يبخلون بالمعونة عمن يحتاج إليها ، ولا يساعدون غيرهم فيما جرت به العادة أن يساعد بعضهم بعضاً فيه ، وتوعدت هؤلاء بالويل والهلاك : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ...) إلى آخر السورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتَ) : أَعَلِمْتَ ؟

(يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) : يجحد الجزاء والبعث ، وينكر القرآن .

(يَدُعُّ الْيَتِيمَ) : يدفعه دفعًا عنيفًا ويزجره زجرًا قبيحًا .

(وَلَا يَحُضُّ) : ولايحث على إطعام المسكين ولايدعو الناس إلى ذلك .

(سَاهُونَ) : غافلون عنها غير مبالين بها ، أو تاركون لها .

(يُرَآءُونَ) قال الزمخشرى : المراءاة : هى مفاعلة من الإراءة ، لأن الرّائِى يُرِى النّاسَ عملَه ، وهم يُرُونَه الثناء عليه والإعجاب به . والمعنى : يظهرون للناس أعمالهم ليثنوا عليهم.

(الْمَاعُونَ) : المعروف والمعونة والخير .

التفسير

١ - (أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) :

استفهام بالهمزة ، أُريد به تشويق السامع إلى تعرّف المكذب لأنّ ذلك ممّا يجب على المُتَدَيِّن معرفته ليحترز عنه وعن فعله ، وفيه أيضًا تعجيب منه ، والخطاب فى (أَرَأَيْتَ) لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له الخطاب .

والمعنى : هل عرفت وعلمت الذى يكذب بالجزاء والبعث ؟ أو بالإسلام وتعاليمه من هو ؟

٢ - (فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ) :

الفاءُ للسببية ، وما بعدها مسبب عن التشويق الذى يدل عليه الكلام السابق .

والمعنى : إن أردت أن تعرفه فهذه صفاته : فذلك الذى يكذب بالدين ، هو الذى يدعُّ اليتيم ، أى : يدفعه ويزجره ، مع إظهار الجفوة والاحتقار له والتَّعالى عليه .

٣ - (وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ) :

أى : ولا يحث نفسه ولا غيره ، ولا يبعث أحدًا من أهله وغيرهم من الموسرين ويحثه على طعام المسكين ، أى : على بذل طعام المسكين ، وهو ما يتناوله من الغذاء ، والمسكين : هو الفقير المحتاج الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته ، والتعبير بـ (طعام المسكين) للإشعار بأن المسكين كأنه مالك للطعام الذى يقدم له ، كما فى قوله تعالى : « وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »[1] فهو بيان لشدة الاستحقاق ، وفيه إشارة للنهى عن المنّ .

قال الزمخشرى : جعل عَلَمَ (وأمارة) التكذيب بالجزاء منع المعروف ، والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعنى : لو أنه آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشى الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه عُلِم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ، وما أبلغه فى التحذير من المعصية ، وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان .

وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا عجز عن مساعدة المسكين كان عليه أن يحث غيره من القادرين على ذلك ويدعوه إلى فعل الخير .

٤ ، ٥ - (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) :

ثم وصل به قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ) كأنه قيل : فإذا كان الأمر كذلك وكان دَعُّ اليتيم ودفعه وعدم الحض على طعام المسكين بهذه المثابة فويل ؛ أى : هلاك وعذاب . أو واد فى جهنم للمصلين (الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) أى : الذين يسهون عن الصلاة ،

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ١٩ .

قلة مبالاة بها حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلُّونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف ، ولكن ينقرونها نقرًا من غير خشوع ولا إخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها من مثل العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم كم صلى من الركعات ، التى انصرف عنها ، ولا ما قال من السور .

٦ ، ٧ - (الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) :

(الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ) أى : يقصدون الرياء بأعمالهم ، ويعملون حيث يرون الناس ويرونهم طلبًا للثناء عليهم ، ولا يكون الرجل مرائيًا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله ﷺ : « وَلا غمَّةَ فِى فَرَائِضِ اللهِ » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين وتاركها يستحق المقت والذم ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعًا فحقه أن يخفى ؛ لأنه مما لا يلام بتركه ، ولا تهمة فيه ، فإن أظهره للاقتداء به كان جميلًا وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ؛ فيثنى عليه بالصلاح .

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) : قيل معناه : ويمنعون الزكاة عن مستحقيها من الفقراء والمساكين وباقى الأصناف التى تستحق الزكاة ، ولا ترق قلوبهم للجياع والمحتاجين ، وعن ابن مسعود : (الْمَاعُونَ) : ما يتعاور بين الناس فى العادة من الفأس والقدر والدلو .

وعن عكرمة : رأس الماعون : زكاة المال ، وأدناها : الدلو ، وهذا يشمل كل الأقوال ؛ لأن المراد ترك المعاونة بمال أو منفعة ، ولذا قال ابن كعب : الماعون : المعروف .

والمعنى : أن هؤلاء الذين سهوا عن الصلاة التى هى عماد الدين ، والفارق بين الإيمان والكفر ، والذين راءوا بها والرياء شعبة من الشرك ، والذين منعوا الزكاة التى هى شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام أولى وأجدر بهم أن يطلق عليهم أنهم مكذبون بيوم الدين لأنهم نسوا عاقبة أفعالهم التى سيعاقبون عليها يوم القيامة .

سورة الكوثر

وهى مكية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

قال الإمام : هذه السورة كالمقابلة للسورة التى قبلها (سورة الماعون) لأن الله سبحانه وصف المنافقين فى السورة السابقة بأربعة أمور :

١ – البخل . ٢ – وترك الصلاة . ٣ – والرياء .

٤ – منع المعاونة ، وذكر الله فى هذه السورة فى مقابلة البخل (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وفى مقابلة ترك الصلاة (فَصَلِّ) أى : دم على الصلاة . وفى مقابلة الرياء (لِرَبِّكَ) أى : لرضا ربك لا لرضا الناس . وفى مقابلة منع الماعون (وَانْحَرْ) وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحى .

مقاصد السورة :

١ – فى هذه السورة امتنَّ الله على عبده ورسوله ﷺ بأنه أعطاه الكوثر ، وهو الخير العظيم فى الدنيا والآخرة (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) .

٢ – وطلب منه شكرًا على هذه النعمة أن يديم الصلاة خالصة لوجهه ، وأن ينحر من طيبات أمواله شكرًا للمنعم المتفضل : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) .

٣ – وختمت السورة بهذه البشارة العظيمة :(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) أى : إن عدوك ومبغضك هو المقطوع الذكر ليس له أثر صالح ، أما أنت فسيبقى ذكرك فى العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(الْكَوْثَرَ) : فوعل من الكثرة ـ صيغة مبالغة ، أى : الشىءُ الكثير كثرة مفرطة ، والكوثر : قيل : هو نهر فى الجنة ، وقيل : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، والنهر فى الجنة بعض هذا الخير ، وقيل : النبوة ، وقيل غير ذلك .

(فَصَلِّ) أى : فدم على الصلاة .

(لِرَبِّكَ) أى : خالصة له وابتغاء مرضاته وحده .

(وَانْحَرْ) أى : اذبح الأُضحية ، وقيل غير ذلك .

(شَانِئَكَ) أى : مبغضك وكارهك .

(الْأَبْتَرُ) : الذى ليس له عقب ، وليس له ذكر حسن ، وأصل البتر فى اللغة : القطع ، وشاع فى قطع الذنب ، وقيل لمن لا عقب له : (أبْتَر) على التشبيه .

التفسير

١ ـ (إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) :

أى : إنا منحناك وأوليناك يا محمد الخير الكثير الدائم الذى لا ينقطع فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأكثر المفسرين على أن الكوثر نهر فى الجنة ، لما رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما

أن النبي ﷺ قال : « هَلْ تَدْرُون مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ ». وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير ، فقال سعيد ابن جبير : إن ناسًا يقولون : هو نهر فى الجنة ، فقال : هو من الخير الكثير . والحق ما قال ابن عباس ؛ لأنه يشمل كل ما جاء من روايات وأقوال بلغت أكثر من ستة وعشرين قولًا ، وكلها ترجع إلى ما ذكر فى تفسيره بالخير الكثير ، وكأن ما جاء فى الروايات أمثلة لهذا الخير الكثير ، كقولهم : المراد به النبوة ، أو القرآن ، وقيل : أولاده ، وقيل : علماء أمته ، قال الآلوسى : وفى التعبير بالماضى فى (أَعْطَيْنَاكَ) قيل : إشارة إلى تحقق الوقوع ، وقيل : إشارة إلى تعظيم الإعطاء وأنه أمر مرعى لم يترك إلى أن يُفْعل بعد ، وقيل : إشارة إلى بشارة أخرى ، كأنه قيل : إنا هيأنا لك أسباب سعادتك قبل دخولك فى الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ؟!

٢ - (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) :

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها (فَصَلِّ) قيل : المراد بالصلاة التى أمر بها فى الآية جنس الصلاة ، وقيل : الصلاة المفروضة ، وقيل : صلاة العيد بناء على قول من قال : إن السورة مدنية ، وكذلك قوله : (وانْحَرْ) قيل : المراد بالنحر نحر الْبُدْنِ للأضحية ، وقيل : وانحر ، أى : استقبل القبلة بنحرك ، وإليه ذهب الفراء ، وقيل : اجعل صلاتك لله لا لغيره ، واجعل ذبحك باسم الله لا باسم غيره كما يفعل المشركون .. وقيل غير ذلك .

قال الزمخشرى : والمعنى : أعطيتك مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يُعْطَه أَحَدٌ غيرك ، فاجتمعت لك الفضيلتان : إصابة أشرف عطاءٍ وأوفره من أكرم مُعْطٍ وأعظم مُنْعِم ، فاعبد ربك الذى أعزك بإعطائه وشرفك وصانك وجعلك أشرف قومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه واسمه إذا نحرت ، فخالفهم فى النحر فإنهم يقدمونه للأوثان ، وبعد أن بَشَّر الله رسوله بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على ذلك ، وكان من تمام نعمته على نبيه أن يصبح عدوه مقهورًا ذليلًا ، قال :

٣ - (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) :

أى : إن مبغضك وعدوك - كائنا من كان - هو الأبتر الذى لا عقب له . لا يبقى له نسل ولا حُسْنُ ذكر ، لا أنت يا محمد ، لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع إلى آخر الدهر ، يُبدأُ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر شانئك ومبغضك فى الدنيا والآخرة ، وإذا ذكر ذكر باللعن ، قيل : مات القاسم ، وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمى : قد انقطع نسله ، فهو أبتر ، فأنزل الله تعالى : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) وقيل : نزلت فى أبى جهل ، وقيل : فى عقبة بن أبى معيط ، والجمهور على أنها نزلت فى العاص ابن وائل ، وأيًّا ما كان فلا ريب فى ظهور عموم الحكم ، وهذه السورة الكريمة على قصرها وإيجازها قد اشتملت على ما يدل على عظيم إعجازها ، وقد أطال الإمام فيها الكلام ، وذكر أن قوله تعالى : (وَانْحَرْ) متضمن الإخبار بالغيب - وهو سعة ذات يده ﷺ وأمته . وقيل مثله فى ذلك : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) والله أعلم .

سورة الكافرون

وهى مكية ، وآياتها ست آيات

وتسمى الْمُقَشْقِشَة ، أى : الْمُبَرِّئة من الشرك والنفاق – وسورة العبادة ، وسورة الإخلاص .

مناسبتها لما قبلها :

فى السورة السابقة (سورة الكوثر) أمر الله رسوله بالشكر على نعمه الكثيرة وذلك بإخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة (الكافرون) التصريح بما أشير له فيما سلف وهو الأمر بإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى .

مقاصد السورة :

١ – فى هذه السورة الكريمة أمر الله رسوله أن يقطع أطماع الكافرين فى مساومتهم له فى عقيدته للاختلاف التام بينه وبينهم فى المعبود وفى طريقة العبادة :

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) .

٢ – فلكم – أيها الكافرون – دينكم الذى قلدتم فيه آباءكم ورضيتموه لأنفسكم وهو الشرك ، ولى دينى الذى ارتضاه الله لى وهو دين الحق والتوحيد : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ..) إلى آخر السورة .

بعض فضائلها :

قيل : يُسَنُّ قراءتها مع سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فى ركعتى سنة الفجر ، وفى الركعتين بعد المغرب ، وجاء فى بعض الروايات أنها تعدل ربع القرآن ؛ لأن مقاصد القرآن :

١ – صفاته تعالى .　　　　٢ – والنُّبوَّات .

٣ – والأحكام .

٤ – والمواعظ ، وهى مشتملة على الأساس الأول وهو التوحيد ، ولذا عدلت ربع القرآن ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(الْكَافِرُونَ) : المراد بهم كفرة من قريش مخصوصون قد علم الله أنهم لا يؤمنون ، واللفظ يشمل كل كافر .

(لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) أى : لا أعبد الذى تعبدونه من دون الله : من الأصنام والأنداد .

(وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) : ولا أنتم عابدون الذى أعبده وهو الله وحده .

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) : لكم شرككم وكفركم وستجازون عليه ، ولى توحيدى ، وإخلاصى وسأجازى عليه .

التفسـير

١ - (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) :

قال جمهور المفسرين : المراد بهم كفرة مخصوصون من قريش قد علم الله أنهم لا يؤمنون أبدًا ، أخرج[١] ابن جرير أن رسول الله ﷺ لقى الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف فقالوا : يا محمد ؛ هلم فلتعبد ما نعبد ، ونعبد

(١) آلوسى .

ما تعبد، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله، فإن كان الذى نحن عليه أصحَّ من الذى أنت عليه كنتَ أخذتَ منه حظًّا، وإن كان الذى أنت عليه أَصَحَّ من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظًّا، فأنزل الله تعالى: (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) إلى آخره حتى انقضت السورة، وفى رواية أن رهطًا من عتاة قريش قالوا له ﷺ: هلم فاتبع ديننا، ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنة، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِاللهِ سُبْحَانَهُ غَيْرَهُ» فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلٰهك، فنزلت، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأُ من قريش، فقام - عليه الصلاة والسلام - فقرأها عليهم، فأَيِسُوا، ولعل نداءهم بـ (يَـٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ) للمبالغة فى طلب إقبالهم؛ لئلا يفوتهم شىءٌ مما يلقى عليهم، وفى ندائه - عليه الصلاة والسلام - بذلك فى ناديهم ومكان قوتهم دليل على عدم اكتراثه - عليه الصلاة والسلام - بهم؛ إذ المعنى: قل يا محمد للكافرين: يا أيها الكافرون.

٢ - ٥ - (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ):

الظاهر أن فيه تكرارًا للتأكيد، فالجملة الثالثةُ المنفية (وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) على ما فى البحر تأكيد للأولى: (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) على وجه أبلغ؛ لاسمية المؤكِّدة، والرابعة: (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) توكيد للثانية: (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) وهو الذى اختاره الطيبى، وذهب إليه الفراء، وقال: إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى بلى والممتنع: لا لا، وعليه قوله - تعالى -: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ»[1] وهو كثير نظمًا ونثرًا، وفائدة التوكيد هنا قطع أطماع الكافرين، وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبدًا، والرسول باقٍ على عبادة ربه أبدًا.

---

(١) سورة التكاثر الآيتان: ٣، ٤.

والذى عليه الجمهور : أنه لا تكرار فيه ، ولكنهم اختلفوا فى بيان ذلك وتوجيهه . فقال الزمخشرى : (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) أريد بالنفى فى الآيتين النفى فى المستقبل ، فمعنى (لَآ أَعْبُدُ) : نفى العبادة فى المستقبل ، لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال ، والمعنى : لا أعبد فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ، أى : فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلٰهى .

فمعنى (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) أى : وما كنت عابدًا فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية ، فكيف تُرْجَى منى فى الإسلام .

٦ - (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) :

أى : وما عبدتم فى وقت مضى ما أنا على عبادته ، فالآيتان الأخيرتان للنفى فى الماضى ولقد ذكر الآلوسى آراء كثيرة فى هذا الموضوع فليرجع إليه من أراد .

٧ - (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) :

(لَكُمْ دِينُكُمْ) هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى : (لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) . وقوله تعالى : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) كما أن قوله تعالى : (وَلِىَ دِينِ) عندهم تقرير لقوله تعالى : (وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ) .

ومعنى (لَكُمْ دِينُكُمْ) : إن دينكم - وهو الإشراك - مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إلىّ كما تطمعون فيه ، فلا تعلقوا به آمالكم الكاذبة .

ومعنى (وَلِىَ دِينِ) : إن دينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول إلىّ ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضًا ، لأن الله قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم ، أو لأنكم علقتموها بالمحال الذى هو عبادتى لآلهتكم ، أو استلامى لها ، ويجوز أن يكون هذا تقريرا لقوله : (وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) وقيل : المراد به المتاركة ، أى : لكم دينكم - وهو كفركم وشرككم - ولى دينى ، أى : لى توحيدى - على معنى أنى نبى مبعوث لكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى فدعونى ولا تدعونى إلى الشرك ، وإليه ذهب الزمخشرى (انظر الكشاف) .

سورة النصر

وهى مدنية ، وآياتها ثلاث آيات

مناسبتها لما قبلها :

إنه لَمَّا ذكر فى السورة السابقة (الكافرون) اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ، ودين الكفار الذى يعكفون عليه ، أشار فى هذه السورة (سورة النصر) إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذى يدعو إليه الرسول – وهو الإسلام – سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم .

مقاصد السورة :

طلبت هذه السورة من رسول الله ﷺ أنه إذا جاء نصر الله وفتح مكة ، ورأى الناس يدخلون فى دين الله جماعات – أن يسبح بحمده شكرًا له ، وينزهه عمَّا لا يليق ، ويستغفره لنفسه وللمؤمنين ؛ لأنه سبحانه هو الذى يقبل توبة التائبين :

(إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ...) إلى آخر السورة .

ولقد حدث الفتح كما أخبر الله ، وذلك من علامات نبوته ﷺ .

قال الآلوسى : سورة النصر ، وتسمى سورة (إذا جاء) وعن ابن مسعود أنها تسمى (سورة التوديع) لما فيها من الإيماء إلى قرب وفاته ﷺ وتوديعه الدنيا وما فيها ، وجاء فى عدة روايات عن ابن عباس وغيره أنه ﷺ لما نزلت دعا إليه فاطمة – رضى الله عنها – وقال : « إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِى » فبكت ، ثم ضحكت ، فقيل لها ، فقالت : أخبرنى أنه قد نعيت إليه نفسه فبكيتُ . ثم أخبرنى بأنكِ أَوَّلُ أهلى لحوقًا بى فضحكْتُ ، وقد فهم ذلك منها عمر – رضى الله عنه – وكان – عليه الصلاة والسلام – بعدها يفعل فعل مُوَدِّع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾)

المفـردات :

(نَصْرُ اللهِ) : عونه لك على أعدائك ، يقال : نصره على عدوه ، أى : أعانه عليه .

(الْفَتْحُ) : الفصل بينه وبين أعدائه ، وإعزاز دينه ، والمراد به – على الأرجح – : فتح مكة .

(أَفْوَاجًا) : جمع فوج ، وهو – على ما قال الراغب : الجماعة المارة المسرعة ، ويراد به مطلق الجماعة .

التفسير

١ – (إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) :

(إِذَا) : ظرف للزمن المستقبل ، والإعلام بذلك من أعلام النبوة ، روى أنها نزلت فى أيام التشريق بمِنًى فى حجة الوداع .

والمعنى : إذا تحقق نصر الله والفتح لك وللمؤمنين ، وإذا تأكد نصر الله لدين الحق وانهزام أهل الشرك ، وفتح الله بينك وبين قومك بجعل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز أمرك ، وإعلاء كلمتك ، قال الزمخشرى ، والفرق بين النصر والفتح : أن النصر الإغاثة والإظهار على العدو ، ومنه نَصَرَ الغيثُ الأرض : إذا أغاثها وأعانها على إخراج نباتها ، والفتح : فتح البلاد . والفصل بينك وبين الأعداء .

والأكثرون على أن المراد بالنصر صلح الحديبية ، وكان فى آخر سنة ست ، والمراد بالفتح : فتح مكة ، روى ذلك عن مجاهد وغيره ، وصححه الجمهور وكان فى السنة الثامنة وكان المسلمون فى هذه الغزوة عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب ، وقيل : كانوا اثنى عشر ألفًا ، قال ابن كثير : المراد بالفتح هنا فتح مكة قولًا واحدًا ؛ فإن أحياء العرب كانت تقول : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلمَّا فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وأقبلوا على الإسلام من كل حدب وصوب ، ولم تمض سنتان حتى ملئت جزيرة العرب إيمانًا ، وقيل : المراد جنس نصر الله لرسوله وللمؤمنين وجنس الفتح ، فيعم ما كان فى أمر مكة – زادها الله تعالى شرفًا – وغيره ، وفتح بلاد الشرك .

٢ – (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا) :

أى : ورأيت العرب وغيرهم يدخلون فى الإسلام وهو دين الله الذى لا دين غيره جماعات جماعات لا أفرادًا كما كان فى بدء الدعوة .

قال الآلوسى : والمراد بدخول الناس فى دينه تعالى أفواجًا – أى : جماعات كثيرة : إسلامهم بكثرة من غير قتال ، وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته – عليه الصلاة والسلام – وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين ، أخرج البخارى عن عمرو ابن سلمة قال : لَـمَّا كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم[1] بإسلامها فتح مكة ، فيقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبى ، وقال عكرمة ومقاتل : المراد بالناس : أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل وأسلموا ، واحتجوا بما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : بينما رسول الله فى المدينة إذ قال : « اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ » قيل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : « قَوْمٌ رَقِيقَةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ طَاعَتُهُمْ ، الْإِيمَانُ وَالْفِقْهُ يَمَانٍ ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ) . وَرَوَى مثل هذا البخارى ومسلم والترمذى ، وقيل : إن ذلك لأن أهل مكة – وفيهم بعث النبى ومنهم المهاجرون – يمانيون ، وكذلك أهل المدينة ومنهم الأنصار .

(١) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر . (القاموس المحيط) .

والظاهر أنه ثناء على أهل اليمن ؛ لإسراعهم إلى الإيمان وقبولهم له بسهولة ويسر ، ويشمل الأنصار وغيرهم ، والظاهر أيضًا أن الخطاب فى (وَرَأَيْتَ) للنبى ﷺ وقيل : الخطاب عام لكل مؤمن .

٣ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) :

أى : إذا تم لك ما ذكر فاشكر المنعم (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى : فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه ، حامدًا له - جل وعلا - زيادة فى عبادته والثناء عليه سبحانه لزيادة إنعامه عليك ، فالتسبيح : التنزيه ، لا التلفظ بكلمة (سبحان) .

والمعنى : اجمع بين تسبيحه تعالى - وهو تنزيهه عمَّا لا يليق من النقائص - وتحميده وهو إثبات مايليق به من المحامد له لعظم ما أنعم سبحانه به عليك صلوات الله وسلامه عليك .

(وَاسْتَغْفِرْهُ) أى : واطلب منه أن يغفر لك ولأُمتك ، روى فى مسند أحمد وصحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، ويجوز أن يراد بالتسبيح : التعجب ، أى : فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحدٌ على أهل الحرم ، واحمده على ذلك ، وقيل : المراد بالتسبيح ؛ الصلاة ؛ لاشتمالها عليه ، ونقل ابن الجوزى ذلك عن ابن عباس ، وقد روى أنه ﷺ لَمَّا دخل مكة صلَّى فى بيت أم هانئ ثمانى ركعات ، وهى سُنَّة واستغفاره - ﷺ - لأنه كان دائما فى الترقى إذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها .

وقيل : لتعليم أمته ، وقيل : استغفاره لأُمته ، أى : واستغفره لأُمتك .

قال الآلوسى : وأنت تعلم أن كل أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغى ، وعن أدائها على الوجه اللائق بجلاله ، وإنما يؤديها على قدر ما يعرف ، والعارف يعرف أن قدر الله - عز وجل - أعلى وأجل من ذلك ، فهو يستحى من عمله ، ويرى أنه مقصر ، وكلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له - سبحانه وتعالى - أخوف ، وبرؤية تقصيره أبصر ، فيمكن أن يكون استغفاره - عليه الصلاة والسلام - لما يعرف من عظيم قدر الله وعظمته ، فيرى أن عبادته وإن كانت أجل من عبادة جميع العابدين فهى دون ما يليق بهذا الجلال

وتلك العظمة التى هى وراء ما يخطر بالبال ، فيستحى ويهرع إلى الاستغفار ، وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام - كان يستغفر الله فى اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة ، وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار قيل : على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق ، كما قيل : ما رأيتَ شيئًا إلّا وجدت الله قبله ؛ لأن جميع الأشياء مرايا تجليه - جل جلاله - وذلك لأن فى التسبيح والتحميد توجهًا بالذات لجلال الخالق وكماله ، وفى الاستغفار توجهًا بالذات لحال العبد وتقصيراته ، ويجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما لما هو مقرر من مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار ، وقيل : فى تقديمهما عليه تعليم أدب الدعاء ، وهو ألّا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسئول منه (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) أى : إنه - سبحانه - منذ خلق المكلفين تواب ، أى : كثير القبول لتوبة عباده ، فليكن المستغفر التائب متوقعا للقبول ، فالجملة فى موضع التعليل لما قبلها ، واختيار :(تَوَّابًا) على (غَفَّارًا) مع أنه الذى يستدعيه - ظاهرًا - قوله تعالى :(وَاسْتَغْفِرْهُ) للتنبيه - كما قال بعض الأجلة - على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة ؛ لأن المطلوب طلب وقاية شر الذنب الماضى بالدعاء والندم عليه ، ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع منه ، وهذا هو الذى يمنع الإصرار والله أعلم .

سورة المسد

وهى مكية ، وآياتها خمس آيات وتسمى سورة (تبت)

مناسبتها لما قبلها :

إن الله – سبحانه وتعالى– ذكر فى السورة السابقة (سورة النصر) أن ثواب الطاعة هو حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة ، وهنا فى سورة المسد ذكر أن عاقبة العاصى الخسار فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وسورة النصر من آخر ما نزل بالمدينة ، و (سورة تَبَّتْ) من أول ما نزل بمكة ، وهذا يدل على أن ترتيب السور على ما جاء فى المصحف الشريف بأمر من الله عز وجل .

مقاصد السورة :

١ – بُدئت السورة الكريمة بالإخبار بهلاك أبى لهب ، وعدم إغناء شىء عنه من ماله أو ولده أو جاهه ، وتوعدته بأنه سيلقى فى الآخرة نارًا ذات لهب (تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) .

٢ – ثم ذكرت السورة أن زوجته ستكون معه فى النار ، وخصها الله بنوع من العذاب . وهو ما يكون حول عنقها من حبل تجذب منه فى النار ، وتعرف به يوم القيامة ؛ لما كانت عليه من إيذاء للرسول وأصحابه ، ومحاربة لدعوته ، وهكذا شاركت زوجها فى الكيد لدين الله والصد عن سبيله فى الدنيا ، فشاركته فى عذاب جهنم يوم القيامة .

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾)

المفردات :

(تَبَّتْ) : خسرت وخابت وهلكت ، ومنه قولهم : أَشَابَّةٌ أَم تَابَّةٌ ؟ يريدون : أم هالكة ؟ وقال الشهاب : إن مادة (التَّباب) تدور على القطع ، وهو مؤد إلى الهلاك ولذا فسر به ، وقال الراغب : التباب : الاستمرار فى الخسران . وجملة (تَبَّتْ) دعاء عليه .

(وَتَبَّ) أى : وقد هلك وخسر (والجملة خبر عنه) .

(سَيَصْلَىٰ نَارًا) : سيدخل نارًا لامحالة فى الآخرة ويقاسى حرها .

(ذَاتَ لَهَبٍ) أى : ذات شرر وإحراق شديد ، ولهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها وشدة توقدها .

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) : امرأته هى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله ، وقيل : كانت تمشى بين الناس بالنميمة .

(فِى جِيدِهَا) : فى عُنقها .

(مِن مَّسَدٍ) المسد : ما فُتِل من الحبال فَتْلًا شديدًا من ليف أو جلد أو غيرهما .

التفسير

١ - (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) :

أى : هلكت وخسرت يدا أبى لهب ، والمراد كله وجملته ، وعبّر عن ذلك باليدين لأن أكثر الأفعال تزاول بهما ، وهذه الجملة دعاء عليه .

وقوله تعالى :(وَتَبَّ) أى : وقد أجاب الله ذلك الدعاء وحققه بالفعل ، وقد هلك وخسر ، وهذا كقولهم : أهلكه الله وقد هلك .

(وأبو لهب) هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان شديد العداوة له وللإسلام ، أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس : لما نزلت « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى « يَا بَنِى فِهْرٍ ، يَا بَنِى عَدِىٍّ : لبطون قريش » حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال الرسول :« أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدقىَّ ؟ » قالوا : نعم ؛ ما جربنا عليك إلَّا صدقًا ، فقال : « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ، ويروى أنه مع ذلك القول أخذ بيده حجرًا ليرمى به رسول الله ﷺ .

ومن هذا يعلم وجه إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم ؛ لإيغاله فى عداوة رسول الله ﷺ ، وإسناده إلى يديه ، والتعبير بالماضى فى الموضعين لتحقق الوقوع ، قال الزمخشرى : وذكر أبو لهب بكنيته - والأصل فى الكنية التكريم - قيل : لاشتهاره بها ، وقد أُريد بها تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، وذكرهُ بكنية أوفق بذلك ، أو لكراهة اسمه القبيح (عبد العزى) ، أو لجعله كناية عن الجهنمى ، كما يقال : أبو الخير ، وأبو الشر .

٢ - (مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) :

(ما) استفهام فى معنى الإنكار ، أو نافية ، والمعنى : لم ينفعه ماله وما كسب بماله من الأرباح والمنافع والوجاهة والأتباع ، أو ما نفعه ماله الذى أورثه عن أبيه والذى كسبه بنفسه

وعن ابن عباس : ما كسب من الولد ، أخرج أبو داود عن عائشة مرفوعًا : « إنَّ أَطْيَبَ مَا يَأْكُلُ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ » ، وروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخى حقًّا فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى ، وكان له ثلاثة أبناء : عتبة ، ومعتب وقد أسلما يوم الفتح ، وسُر النبى ﷺ بإسلامهما ودعا لهما ، وشهدا حنينًا والطائف ، وعتيبة - بالتصغير - لم يسلم ، وهو الذى قتله الأسد ببركة دعاء النبى ﷺ وقد كان أبو لهب شديد العداوة لرسول الله ، شديد التحريض عليه ، شديد الصد عن دين الله .

٣ - (سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) :

أى : سيدخل النار لا محالة فى الآخرة ويقاسى حرها ، والسين لتأكيد الوعيد والتنوين فى (نَارًا) للتعظيم ، أى : نارًا عظيمة ذات اشتعال وشرر وتوقد ، وهى نار جهنم .

٤ - (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) :

أى : وستصلى معه وتُعذب بهذه النار أيضًا امرأته حمالة الحطب ، وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت عوراء كما جاء فى البحر ، وسُمِّيت بحمَّالة الحطب على ما أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد؛ لأنها كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق رسول الله ﷺ وكان رسول الله يطؤها كما يطأ الحرير . وروى عن قتادة أنها كانت مع كثرة مالها وشرفها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها . وعن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة ضد رسول الله ﷺ وضد دعوته ، ويقال لمن يمشى بالنميمة هو يحمل الحطب بين الناس ، أى : يوقد نار العداوة ، ويورِّث الشر بينهم .

٥ - (فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ) :

وأكد - سبحانه - تبشيع عملها وتقبيح صورتها فقال : (فِى جِيدِهَا) أى : فى عنقها (حَبْلٌ مِن مَّسَدٍ) أى : حبل مما مُسِدَ وفتل وقُوِّى من الحبال ، والمراد تصويرها بصورة الحطَّابة التى تحمل الحزمة وتربطها فى جيدها ؛ تحقيرًا لحالها لتمتعض من ذلك وتمتعض بعلها ؛ إذ كانا فى منصب الثروة والجاه ، ولقد أغضبها ذلك .

فيذكر الآلوسى أنها لمَّا سمعت هذه السورة أتت أبا بكر – رضى الله عنه – وهو مع رسول الله ﷺ فى المسجد وبيدها فهر[1] ، فقالت : بلغنى أن صاحبك هجانى : ولأفعلن ولأفعلن ، وإن كان شاعرًا فأنا مثله أقول : مُذَمَّمًا أَبَيْنَا ، ودينه قَلَيْنَا ، وأمره عَصَيْنَا .

وأعمى الله بصرها عن رسول الله ﷺ فروى أن أبا بكر قال لها : هل ترين معى أحدا؟ فقالت : أتهزأ بي ؟! لا أرى غيرك ، فسكت أبو بكر ، ومضت وهى تقول : قريش تعلم أنى بنت سيدها . فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ حَجبَنِى عَنْهَا مَلائِكَةٌ فَمَا رَأَتْنِى ، وَكَفَى اللهُ تَعَالى شَرَّهَا » .

قال الزمخشرى : يحتمل أن يكون المعنى : تكون هذه المرأة فى نار جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار ، وفى جيدها حبل من مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله فى جرمه ، قال ابن المسيب : كانت فى جيدها قلادة فاخرة من جوهر ، وأنها قالت : واللّاتِ والعُزّى لأُنْفِقها على عداوة محمد ، وهكذا شاركت هذه الزوجة زوجها فى العداوة الضارية للرسول ، وفى الإيذاء للإسلام وأتباعه ، فشاركته عذاب جهنم وبئس المصير . والله أعلم .

(١) الفهر : الحجر .

ســورة الاخلاص

وهى مكية ، وآياتها اربع
وسميت بذلك لما فيها من التوحيد ، ولذا سميت ايضا سورة الأساس ،
وسورة (قل هو الله احد) ، وسورة التوحيد ، وسورة الايمان ،
ولها غير ذلك اسماء كثيرة

مناسبتها لما قبلها :

قيل – وهو الأولى – : إنها متصلة بسورة (قل يأيها الكافرون) فى المعنى فهما بمنزلة كلمة التوحيد فى النفى والإثبات ، ولهذا تسميان بالمقشقشتين ، وقرن بينهما فى القراءة فى صلوات كثيرة ، إلَّا أنه فصل بينهما بالسورتين : (سورة النصر ، وسورة المسد) ، لما تقدم فى موضعه ، من أن سورة النصر قرنت بسورة (الكافرون) لأن سورة (الكافرون) تضمنت اختلاف دين الرسول ودين قريش ، وسورة النصر تضمنت أن دينه – عليه الصلاة والسلام – هو الغالب ، وهو السائد والمنصور ، وسورة المسد قرنت بسورة النصر ، لأن سورة النصر تضمنت أن ثواب الطاعة حصول النصر والغلبة والاستعلاء فى الدنيا ، وسورة المسد بينت أن عاقبة العاصى الخسران فى الدنيا فلهذا تلتها .

مقاصد السـورة :

السورة تضمنت نفى الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفى الله عن نفسه أنواع الكثرة والتعدد بقوله : (اللهُ أَحَدٌ) ونفى عن نفسه جميع أنواع الاحتياج بقوله :(اللهُ الصَّمَدُ) ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله :(لَمْ يَلِدْ) ونفى عن نفسه الحدوث والأولية بقوله : (وَلَمْ يُولَدْ) ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله :(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) والسورة الكريمة تعلن التوحيد الخالص .

سبب نزول السورة :

قال الإمام أحمد : إن المشركين قالوا النبى ﷺ : انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) . وعن ابن عباس : قالت قريش : يا محمد صف لنا ربك الذى تدعونا إليه ، فنزلت ، وعنه أيضًا أن السائل اليهود .

بعض ما جاء فى فضلها :

روى مبارك عن أنس أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إنى أُحب هذه السورة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قال : « إنَّ حُبَّكَ إيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ » وأخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) يردّدها فلمَّا أصبح جاء إلى النبى ﷺ فذكر ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ » ولقد جاء أنها تعدل ثلث القرآن فى عدة أخبار ، واختلف فى المراد بذلك ، فقيل : المراد أنها باعتبار معناها ثلث من القرآن المجزء إلى ثلاثة ، لا أن ثواب قراءتها ثلث ثواب القرآن ، وإلى هذا ذهب جماعة ، لكن اختلفوا فى بيان ذلك ، فقيل : إن القرآن يشتمل على : قصص ، وأحكام ، وعقائد ، كلها ممَّا يتعلق بالعقائد ؛ فكانت ثلث القرآن بذلك الاعتبار ، وقيل غير ذلك ، قال الآلوسى : ويؤيد اعتبار الأجزاء القصص ، والأحكام ، والعقائد دون الثواب ما فى صحيح مسلم عن قتادة عن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ قال : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلَّ يَوْمٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : « إنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ ، فَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثُلُثُ الْقُرْآنِ » .

وقيل : المراد : تعدل ثلث القرآن ثوابًا لظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك ، قال الآلوسى : والذى أختاره أن يقال : لا مانع من أن يخص الله ـ سبحانه ـ بعض العبادات التى ليس فيها كبير مشقة بثواب أكثر من ثواب ما هو من جنسها وأشق منها بأضعاف مضعَّفة ، وهو سبحانه لا حجر عليه ولا يتناهى جوده وكرمه ، فلا يبعد أن يتفضل ـ جلّ وعلا ـ على قارىء القرآن بكل حرف عشر حسنات ، ويزيد على ذلك أضعافًا مضاعفة ـ لقارئ الإخلاص ، بحيث يعدل ثوابه ثواب قارئ ثلث منه غير مشتمل على تلك السورة ؛ وتُفَوَّض حكمة التخصيص إلى علمه سبحانه ، وكذا يقال فى أمثالها ، وهذا مراد من جعل ذلك من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، والأحاديث الصحيحة الواردة فيها تكفى فى فضلها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(أَحَدٌ) : واحد لا شريك له ، ولا يوصف به إلَّا الله - سبحانه وتعالى - لخلوص هذا الاسم الشريف له تعالى .

(الصَّمَدُ) : هو وحده السيد المقصود فى الحوائج على الدوام .

(كُفُوًا) : مكافئًا ومماثلًا ونظيرًا .

التفسـير

١ - (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) :

المشهور أن (هُوَ) ضمير الشأن ، والسر فى تصدير الآية الكريمة به بعد قوله : (قُلْ) هو التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلَّا شأن مبهم له خطر جليل ، فيبقى الذهن مترقبًا لما يفسره ويزيل إبهامه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن .

والمعنى : قل يا محمد لمن سألك عن صفة ربك ، أو لمن قال لك : انسب لنا ربك : الله هو الواحد لا شريك له ، منزه عن التركيب والتعدد .

٢ ـ (اللهُ الصَّمَدُ) :

قال ابن الأنبارى : لا خلاف بين أهل اللغة فى أن (الصمد) هو السيد الذى ليس فوقه أحَد ، الذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وفى أُمورهم ، وعن أبى هريرة : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاجُ إليه كلٌ أحد .

قال الآلوسى : والمعول عليه تفسيرًا : أن الصمد السيد الذى يصمد إليه الخلق فى الحوائج ، ويقصدونه فى المطالب ، وتفسيره بغير ذلك إما راجع لذلك ، أو لا تساعد عليه اللغة . اهـ .

وبهذه العقيدة الصافية من الشوائب ، وبهذا التوحيد الخالص ، أبطل الإسلام عقيدة مشركى العرب الذين يتخذون الشفعاء والوسطاء من الأوثان تقربًا إلى الله ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأُخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم لدى ربهم فى نيل مآربهم ، وحرّر الإسلام الإنسان لأول مرة فى تاريخ البشرية من نير العبودية لغير الله وحده .

وقال الزمخشرى : (الصَّمَد) (فَعَل) بمعنى (مفعول) من صمد إليه : إذا قصده .

٣ ـ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) :

(لَمْ يَلِدْ) أى : تنزه ربنا أن يكون له ولد ، لأن الولادة تقتضى انفصال مادة منه سبحانه ، وذلك يقتضى التركيب النافى للأحدية ، ولأنَ الولد من جنس أبيه ، وهو ـ تعالى ـ لا يجانسه أحد لأنه ـ سبحانه ـ واجب الوجود ، والاقتصار على الماضى دون أن يقال : لن يلد ؛ لوروده ردًّا على من قال : إن الملائكة بنات الله ، أو المسيح ابن الله .

(وَلَمْ يُولَدْ) وكذلك نفى المولودية عنه ـ سبحانه ـ لاقتضائها المادة ، فيلزم التركيب المنافى للغنى المطلق ، والأُحدية الحقيقية ، أو لاقتضائها سبق العدم ، أو لاقتضائها المجانسة المستحيلة على واجب الوجود ، وقدّم نفى الولادة لأنه الأهم ؛ لأن طائفة من الكفار توهموا

خلافه فهو رَدّ على النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله .

٤ ـ (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) :

أى : ولم يكافئه ولم يماثله ولم يشاكله أحد .

قال الآلوسى : وهذه السورة الجليلة قد انطوت مع تقارب أقطارها على أشتات المعارف الإلٰهية ، والعقائد الإسلامية ، ولذا جاء فيها ما جاء من الأخبار ، وورد ما ورد من الآثار ، ثم ذكر بعض هذه المعارف ، وكذا فعل الزمخشرى فليرجع إليهما من أراد .

سـورة الفـلق

وهى مكية ، وآياتها خمس آيات

هذه السورة والتى بعدها نزلتا معًا كما فى الدلائل للبيهقى ، فلذا قرنتا واشتركتا فى التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، ولقد ورد فى فضلهما أخبار كثيرة ، أخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال : « أُنْزِلَتْ عَلَىَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُنَّ قَطُّ : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

مناسبة السورة لما قبلها :

لَمَّا شرح الله – سبحانه – أمر الأُلوهية فى السورة التى قبلها (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) جىء بهذه السورة (سورة الفلق) بعدها لتكون شرحًا لما يستعاذ منه بالله الأحد – سبحانه – من أنواع الشر .

مقاصد السـورة :

فى هذه السورة طلب الله من نبيه أن يلجأ إليه فهو رب الفلق ، وأن يلوذ به من شر ما خلق : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) .

كما طلب إليه أن يتحصن به من شر الليل إذا أقبل بظلامه وبما فيه من مخاوف ، ومن شر من يسعى بين الناس بالفساد والإفساد ، ويحل ما بينهم من عقد وصلات ، ويصيبهم بالضرر ، ومن شر حاسد يتمنى زوال ما يسبغ الله على عباده من نعمة :

(وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(أَعُوذُ) : ألتجئ وأعتصم .

(الْفَلَقِ) (فَعَل) بمعنى (مفعول) كقَصَصٍ بمعنى (مقصوص) من فَلَق : شَقَّ وفَرَّق ، وهو يعم جميع الموجودات الممكنة ، وخص عرفا بالصبح ؛لأن الليل يفلق عنه . ويقال فى المثل : هو أبين من فَلَق الصبح .

(غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) أى : الليل إذا دخل ظلامه ، أو القمر إذا غاب .

(النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ) : النساء السواحر ينفثن فى عقد الخيط حين يسحرن ، والنَّفَّاثَاتُ جمع نَفَّاثة ، والنفث : النفخ مع ريق ، وقيل بدونه .

(حاسِدٍ) : هو الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره .

التفسير

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَب الفَلَق) :

أى : قل يا محمد : أعوذ وألوذ برب الفلق ، أى : برب المخلوقات ، ومبدع الكائنات ، أو قل : أعتصم برب الصبح الذى ينجلى الليل عنه ، وعن ابن عباس : الفلق : الخلق ،

وأخرج العوفى عنه أنه فسره بالصبح ، وعليه فتعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة ، والسعة بعد الضيق هو علةٌ كريمة بإعاذة العائذ مما يتعوذ ، وإنجائه منه ، وتقوية لرجائه بذكر بعض نظائره ، ومزيد ترغيب له فى الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه عز وجل .

وقيل : إن تخصيص الفلق بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة ؛ لأن من الناس من يغدو فيلقى وينال خيرًا ، ومنهم من يجد ما يضره ويكرهه .

وفى رواية عن ابن عباس وجماعة مِن الصحابة والتابعين أن الفلق : جُبٌّ فى جهنم ، أو وادٍ فيها .

٢ ـ (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) :

أى : من شر الذى خلقه من الثقلين وغيرهما ، وقال بعض الأفاضل ، هو عام لكل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر الإنس والجن والشياطين ، وشر السباع والهوام ، وشر النار ، وشر الذنوب والهوس ، وشر النفس ، وشر العمل .

٣ ـ (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) :

فى هذا تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبل ، لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه ؛ لكثرة وقوعه ، ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة ، والغاسق إذا وقب ، أى : الليل إذا اعتكر سواده وعم ظلامه كُلَّ شىء ، من قوله تعالى : « إلى غَسَقِ اللَّيْلِ »[1] ، والتقييد بهذا الوقت لأن حدوث الشر فيه أكثر ، والتحرز منه أصعب وأعسر ، ومن أمثالهم : (الليل أخفى للويل) وقولهم : أغدر من ليل ، إذ أنه ستار يختفى فى ظلامه المجرمون والعابثون بالأمن ، وهو عَوْنٌ لأعدائك عليك ، وتفسير الغاسق إذا وقب بما ذكر هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد ، وقيل : معناه : القمر إذا امتلأ نورًا ، على أن الغسق : الامتلاء ، وَوُقُوبُه : دخُولُه فى الكسوف واسوداده ، أو دخوله فى المحاق

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٧٨

فى آخر الشهر ، والمنجمون يعدونه نحسًا ، ولذلك لاتشتغل السحرة بالسحر المورث للمرض إلّا فى ذلك الوقت ، قيل : وهو المناسب لسبب النزول ، واستدل على تفسيره بالقمر ـ بما أخرجه الإمام أحمد والترمذى والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت : نظر رسول الله ﷺ يومًا إلى القمر لما طلع ، فقال : (يا عائشةُ : استعيذى بالله تعالى من شَرِ هَذَا ؛ فَإِنَّ هَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ) ، وقيل : الغاسق إذا وقب : الحية إذا لدغت ، وقيل : هو كل شر يعترى الإنسان ، والشر يوصف بالظلمة والسواد ، ووقوبه : هجومه ووقوعه .

٤ ـ (وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ) :

أى : ومن شر السواحر اللاتى يَعْقِدْن عقدًا وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق ، قاله الزمخشرى ، وقيل : هو شبه النفخ يكون فى الرّقية ولا ريق معه ، ورجح ابن القيم رأى الزمخشرى .

روى البخارى وغيره أن رسول الله سحر ، قيل : والذى سحره لبيد بن الأعصم وبناته ، فمرض النبى ﷺ فنزل جبريل بالمعوذتين ، وأخبره بموضع السحر ، وبمن سحره ، وبم سحره ، فأرسل ﷺ عليًا والزبير وعمارًا فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء ، ثم رفعوا راعوثة[1] البئر فأخرجوا أسنان المشط ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فجاءُوا بها النبى ﷺ فجعل يقرأ المعوذتين عليها ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد ـ عليه الصلاة والسلام ـ خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام النبى ﷺ كأنما نشط من عقال . (آلوسى) .

ونقل الماتُرِيدِى عن أبى بكر الأصم أنه قال : إن حديث السحر المروى هنا متروك ، لما يلزمه من صدق قول الكفرة : إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسحور ، وهو مخالف لنص القرآن الكريم . وقال الإمام المارزى : قد أنكر ذلك الحديثَ المبتدعةُ لأنه يحط من منصب

---

(١) الراعوثة : حجر يقوم عليه المستقى ـ ويسمى أيضا الراعوفة ، ولقد جاء بهذا الاسم فى بعض الروايات .

النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وأجيب بأن الحديث صحيح وغير معارض للنص ، ولا يلزم عليه حط منصب النبوة والتشكيك فيها ؛ لأن الكفار أرادوا بمسحور أنه مجنون ، وحاشاه ، أو مرادهم أن السحر أثر فيه وأن ما يأتيه من الوحي تخيلات السحر ، وهو كذب أيضًا ؛ لأن الله عصمه فيما يتعلق بالرسالة ، وقال القاضي عياض : قد جاءت روايات حديث عائشة مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده الشريف وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده .

وأنكر بعضهم أصل السحر – ونفى حقيقته ، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها .

ومذهب أهل السنة وعلماء الأمة على إثباته وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء ؛ لدلالة الكتاب والسنة على ذلك ولا يستنكره العقل .

قال الزمخشري : ومعنى الاستعاذة (مِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ) أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ، ومن إثمهن فى ذلك ، وأن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن .

ويجوز أن يراد بالنفاثات : النساء الكيّادات من قوله تعالى : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ »[1] تشبيهًا لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد ، أو اللاتى يَفْتِنَّ الرجال بتعرضهن لهم وعرض محاسنهن عليهم .

وقيل : المراد من النفاثات في العقد : من يمشي بين الناس بالنميمة ليقطعوا روابط المحبة ويبددوا شمل المودة ، وقد شبه عملهم بالنفث وشبهت رابطة الوداد بالعقدة ، والعرب تسمي الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة ، كما سمي الارتباط بين الزوجين (عقدة النكاح). (اهـ : كشاف) .

٥ – (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) :

أى : ونستعيذ بك ربنا من شر حاسد إذا حسد ، أى : إذا أظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادئ الإضرار بالمحسود قولًا وفعلًا ، ومن ذلك

(١) من الآية ٢٨ من سورة يوسف .

ما قيل : النظر إلى المحسود وتوجيه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب ، فإن نفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة ربما تؤثر فى المحسود ، بحسب ضعفه وقوة نفس الحاسد ، تؤثر شرًّا ربما يصل إلى حد الإهلاك ، ورب حاسد يؤذى بنظره مثل ما تؤذى بعض الحيات بنظرهن ، وذكروا أن الحاسد والعائن – من يصيب الناس وتؤذيهم بالنظر إليهم – يشتركان فى أن كلاًّ منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من تريد أذاه ، إلا أن العائن تتكيف نفسه عند مقابلة العين للمحسود والمعاينة له ، والحاسد يحصل حسده فى الغيبة والحضور ، وأيضًا قد يعين ، أى : (يصيب بعينيه) من لا يقصد حسده من إنسان أو حيوان أو زرع .

والحسد : هو تمنى زوال النعمة عن الغير ، والحاسد ممقوت عند الله وعند عباده ، آت بابًا من الكبائر ، ويطلق الحسد على الغبطة مجازًا ، وكان ذلك شائعًا فى العرف الأول : وهى تمنى أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة من غير تمنى زوالها عن غيره ، وهذا لا بأس به إذا كان فى الخير ، ومن ذلك ما صح من قوله ﷺ : « لا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ : رَجُل آتَاهُ اللهُ مَالاً وَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَق ، وَرَجُل آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا لِلنَّاسِ » وإنما خص هؤلاء الثلاثة : الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد بالنص على الاستعاذة منهن – مع أن قوله تعالى : (مِن شَرِ مَا خَلَقَ) يشملهم – لأن كلاًّ منهم يَخْفَى أمره ويعظم ضرره ويلحق الشر بالإنسان من حيث لا يعلم ، كأنما يغتال به ، ولذا قالوا : شر العُدَاةِ المُدَاجِى الذى يكيدك من حيث لا تشعر .

سـورة النـاس

وهى مكية ، وآياتها ست

وتسمى مع ما قبلها – كما اشرنا اليه قبل – بالمعوذتين – بكسر الواو

مناسبتها لما قبلها :

قيل : هذه السورة والتى قبلها (الفلق) نزلتا معًا ولذلك قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بـ (قُلْ أَعُوذُ) .

مقاصد السـورة :

فى السورة الكريمة أمر من الله لنبيه أن يلجأ إليه ويستعيذ به ؛ فهو خير من يُلجأُ إليه ويُستعاذ به : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلٰهِ النَّاسِ) ولذا فهو يستعين به لدفع شر عظيم ، يخفى على الناس إدراكه ، لأنه يجيئهم من طريق شهواتهم وأهوائهم مستترًا عن العيون أو ظاهرًا لها ، مُخْفيًا وسوسته بالمكر والخديعة (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(بِرَبِّ النَّاسِ) : بمربيهم ومدبر أحوالهم .

(إِلَٰهِ النَّاسِ) : معبودهم الحق .

(الْوَسْوَاسِ) قال الزمخشرى : اسم مصدر بمعنى الوسوسة ، والمصدر بالكسر ، والوسوسة صوت الحُلِىّ ، والهمس الخفى ، ثم استعمل فى الخطرة المؤذية ، وأُريد به هنا الشيطان ؛ سمى بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة .

(الْخَنَّاسِ) : صيغة مبالغة ، أو نسبة ، أى : الذى عادته أن يخنس ويتوارى ويتأخر إذا ذكر الله ، من الخنوس : وهو الرجوع والاختفاء .

التفسير

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) :

أمر الله - سبحانه - رسوله ﷺ أن يستعين برب الناس ومالك أُمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ، ودفعه ما يضرهم .

٢ - (مَلِكِ النَّاسِ) :

عطف بيان جىء به لبيان أن تربيته - تعالى - إيَّاهم ليست بطريقة تربية سائر المُلاَّك لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والتصرف الكلى والسلطان القاهر ، وكذا قوله تعالى :

٣ - (إِلَٰهِ النَّاسِ) :

فإنه لبيان أن ملكه - تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أُمورهم ، والتولى لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك ، بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الأُلوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكامل فيهم : إحياءً وإماتة ، وإيجادًا وإعدامًا ، وذكر القاضى أن فى النظم الجليل إشعارًا بمراتب الناظر المتوجه لمعرفة خالقه : فإنه يَعْلَم أولًا بما يَرَى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له ربًّا .

ثم يتغلغل فى النظر حتّى يتحقق أنه - سبحانه - غنى عن الكل ، وذَاتُ كل شىء له ، ومصارف أمره منه ، فهو الملك الحق . ثم يستدل بهذا النظر على أنه المستحق للعبادة لا غيره .

وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إلٰه الناس ، وهو رب كل شىء ومَلِك كل شىء وإلٰه كل شىء ؛ لأن الناس هم الذين أخطأوا فى صفاته وضلُّوا فيها عن الطريق السَّوِىِّ ، فجعلوا لهم أربابًا ينسبون إليها بعض النعم ويلجأون إليها فى دفع النقم ، ولم يكتف بإظهار المضاف إليه الذى هو الناس مرة واحدة ، بل كرر لمزيد الكشف والإيضاح والتقرير والتشريف بالإضافة . وقيل : لا تكرار ؛ فإنه يجوز أن يراد بالعام بعض أفراده ، (فالناس) الأول بمعنى الأَجِنَّةِ والأَطفال المحتاجين للتربية ، و (الناس) الثانى : المراد بهم الكهول والشبان لأنهم المحتاجون إلى من يسوسهم ، و (الناس) الثالث : الشيوخ المتعبدون المتوجهون إلى الله عز وجل .

٤ – (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) :

بيان للمستعاذ منه ، أى : ألجأُ إليك رب الناس وملكهم وإلٰههم ومعبودهم أن تنجينا وتحفظنا من شر الشيطان الموسوس للناس ، الكثير الخنوس والاختفاء ؛ لأنه يأْتى من ناحية الباطل فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير إذا انجرَّت مع وسوسته ، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال .

والمراد الاستعاذة من جميع شروره المؤثرة على البدن والنفس ، وعُدَّ من شره – كما ورد فى صحيح البخارى – أنه يعقد على قافية رأس العبد إذا هو نام ثلاث عقد ، مراده بذلك منعه من اليقظة للعبادة ، وبعضهم عد منه التخبّط ، إذِ الحق عند أهل السنة ؛ أن التخبط قد يكون من مسّ الشيطان ، والخناس : المتوارى المختفى المتأخر ، إذا ذكر الله – عز وجل – أمسك عن الوسوسة إلى أن تسنح له فرصة أخرى ، أخرج الحاكم وصححه ، وابن المنذر وغيره : عن ابن عباس قال : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى قَلْبِهِ الْوَسْوَاسُ ، فَإِذَا عَقَلَ فَذَكَرَ اللهَ خَنَسَ ، فَإِذَا غَفِلَ وَسْوَسَ ، فَلِذَلِكَ سُمِّىَ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ » . ولقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

٥ – (الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ) :

أى : الذى يلقى خفية فى صدور الناس ما يصرفهم عن سبيل الحق والخير والرشاد ، ويدعوها إلى الشر والفساد ، قيل : أريد بصدور الناس : قلوبهم ، وإنما جعلت الوسوسة

فى الصدور ، لأنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ويجيش فى صدرى ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله وقلبه .

قال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر ، فيُلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ، ويوصله إليه . ولا مانع عقلا من دخوله فى جوف الإنسان ، وقد ورد السمع به فوجب قبوله ، والإيمان به ، ومن ذلك قوله ﷺ : (إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِى مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ) ومن الناس من حمل ذلك على التمثيل .

٦ - (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) :

هذه الآية الكريمة بيان للذى يُوَسْوِس ، على أن الموسوس نوعان : إنسى وجنى كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »[1] .

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له : (يَا أَبَا ذَرٍّ : تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) رواه الإمام أحمد من حديث طويل ، أو (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) يتصل بـ (يوسوس) و (مِنْ) لابتداء الغاية ، أى : يوسوس الْمُوَسْوِسُ فى صدور الْمُوَسْوِسِ إليهم من جهة الجن أنهم ينفعون أو يضرون ، ومن جهة الناس : أن المنجمين والكهان يعلمون الغيب .

وقد بدئت السورة بطلب الاستعاذة برب الناس ، ومن كان ربهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوسته ، وقد أرشد فى هذه السورة إلى الاستعانة به - تعالى شأنه - كما أرشد إليها فى الفاتحة ؛ للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله : هو التوجه إلى الله وحده والإخلاص له فى القول والعمل ، والالتجاء إليه فيما لا قدرة لنا على دفعه . والله أعلم .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١١٢

والحمد لله فى البدء والختام ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أنزل عليه القرآن

والله نسأل أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ، وأن يرفع مقته وغضبه عنا ، وألّا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وأن يغفر لنا ولإخواننا من أعضاء لجنة التفسير الذين سبقونا إلى رحمته ورضوانه ، ولجميع المسلمين ، كما نسأله — سبحانه — أن يوفقنا للعمل بالقرآن ، وأن يرحمنا به ، وأن يجعله لنا إمامًا ونورًا وهدى ورحمة ، وأن يذكرنا منه ما نسينا ، ويعلمنا منه ما جهلنا ، ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، وأن يجعله حجة لنا وشفيعًا يوم الدين ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم وأكرم وأعظم .

وكان الفراغ من إتمام هذا العمل الجليل فى يوم الأربعاء السادس من جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة ، الموافق الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة وألف من الميلاد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أعضاءُ لجنة التفسير

السيد مصطفى شريف — عبد المهيمن محمد سليمان الفقى

إبراهيم السيد السويركى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٥٤٢٨ — ١٩٩١ — ٢٥٠٠٤